التَّرتيبُ الزَّاهِرُ

لكتابِ

صَيدِ الخَاطِرِ

لشيخ الإسلام أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي

المتوفى ٥٩٧ هـ

ترتيب وتحقيق وتعليق

فضيلة الشيخ

حُسين بن محمود الصادق

الإجازة العالية في الشريعة الإسلامية

جامعة الأزهر الشريف

DKi

دار الكتب العلمية

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

أسسها محمد علي بيضون

سنة 1971 بيروت - لبنان

الترتيب الزاهر لكتاب صيد الخاطر

لشيخ الإسلام أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي

المتوفى ٥٩٧ هـ

ترتيب وتحقيق وتعليق

فضيلة الشيخ

حسين بن محمود الصادق

الإجازة العالية في الشريعة الإسلامية

جامعة الأزهر الشريف

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Etabli par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[مُقَدِّمَةُ المُحَقِّق]

سُبْحَانَ مَنْ أَلْهَمَنِي حَمْدَهُ وَمَنْ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ
وَمَنْ هُوَ الدَّائِمُ فِي مُلْكِهِ وَمَنْ هُوَ البَاطِنُ وَالظَّاهِرُ
يَا رَبِّ إِنِّي لَكَ فِي كُلِّ مَا قَدَّرْتَ عَبْدٌ آمِلٌ شَاكِرُ
فَاغْفِرْ ذُنُوبِي إِنَّهَا جَمَّةٌ وَاسْتُرْ أَخْطَائِي إِنَّكَ السَّاتِرُ[(١)]

الحَمْدُ للهِ قَدَّمَ مَنْ شَاءَ بِفَضْلِهِ، وَأَخَّرَ مَنْ شَاءَ بِعَدْلِهِ، لَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ ذُو عَقْلٍ بِعَقْلِهِ، وَلَا يَسْأَلُهُ مَخْلُوقٌ عَنْ عِلَّةِ فِعْلِهِ. هُوَ الْكَرِيْمُ الْوَهَّاب، هَازِمُ الأَحْزَاب، وَمُنْشِئُ السَّحَاب، وَمُنْزِلُ الْكِتَاب، وَمُسَبِّبُ الأَسْبَاب، وَخَالِقِ النَّاسِ مِنْ تُرَاب.

نَحْمَدُهُ عَلَىٰ حَزَنِ الأَمْرِ وَسَهْلِهِ، وَنَحْمَدُهُ كَمَا حَمِدَ نَفْسَهُ، وَكَمَا حَمِدَهُ الْحَامِدُوْنَ مِنْ جَمِيْعِ خَلْقِهِ، وَنَسْتَعِيْنُهُ اسْتِعَانَةَ مَنْ فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَيْهِ، وَأَقَرَّ أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَىٰ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ مُقِرٍّ بِذَنْبِهِ، مُعْتَرِفٍ بِخَطِيْئَتِهِ، وَنَسْتَهْدِيْهِ بِالْهُدَىٰ، وَنَسْأَلُهُ التَّوْفِيْقَ لِمُجَانَبَةِ الرَّدَىٰ وَجَمِيْعِ سَخَطِهِ.

وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، إِقْرَارًا بِوَحْدَانِيَّتِهِ، وَإِخْلَاصًا لِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ الْعَالِمُ بِمَا فِي الضَّمَائِرِ، وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِر، وَمَا تُخْفِيْهِ النُّفُوْس، وَمَا تُخَبِّئُ البِحَار، وَمَا تُوَارِي الأَسْرَار، ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾[الرعد:٨]، لَا تُوَارَىٰ عَنْهُ كَلِمَة، وَلَا تَغِيْبُ عَنْهُ غَائِبَة، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾[الأنعام:٥٩].

---

(١) الأبيات من البحر: [السريع] وقائلها: أبو العتاهية.

وَنشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ، وَنَبِيُّهُ وَأَمِيْنُهُ وَصَفِيُّهُ، أَرْسَلَهُ إِلَىٰ خَلقِهِ بِالنُّوْرِ السَّاطِعِ، وَالسِّرَاجِ اللَّامِعِ، وَالْحُجَجِ الظَّاهِرَةِ، وَالبَرَاهِيْنِ وَالآيَاتِ البَاهِرَةِ، وَالأَعَاجِيْبِ القَاهِرَةِ، فَبَلَّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ، وَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّىٰ تَمَّت كَلِمَةُ اللهِ ﷻ، وَظَهَرَ أَمْرُهُ، وَانقَادَ النَّاسُ لِلْحَقِّ خَاضِعِيْنَ، حَتَّىٰ أَتَاهُ الْيَقِيْن، لَا وَانِيًا وَلَا مُقَصِّرًا، فَصَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ قَائِدٍ إِلَىٰ الهُدَىٰ مُبِيْن، وَعَلَىٰ آلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ، وَعَلَىٰ أَصْحَابِهِ الْمُنْتَخَبِيْن، وَعَلَىٰ أَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ كِتَابَ «صَيْدُ الْخَاطِرِ» لِلإِمَامِ اِبْنِ الْجَوْزِيِّ ؒ مِنْ كُتُبِ الْوَعْظِ وَالإِرْشَادِ، وَالرَّقَائِقِ وَالآدَابِ، الْمُعْتَمَدَة عِنْدَ الْعُلَمَاءِ، وَجُمْهُوْر الأُدَبَاءِ وَالْفُضَلَاءِ.

وَقَدْ عَقَدَ الإِمَامُ اِبْنُ الْجَوْزِيِّ الْهُمَام؛ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسِيرَ عَلَىٰ نَهجِ الْكَبِيْرِ الْعَلَّام، وَلِلأَذْكِيَاءِ وَالنُّجَبَاءِ ذَوِي الأَفْهَام ثَلَاثُ مِئَةٍ وَأَرْبَعَ وَسَبْعِيْنَ خَاطِرَةً فِي غَايَةِ الإِحْكَام، تَدُلُّ مَنْ قَرَأَهَا عَلَىٰ نَجِيْعِ الْمَسَالِكِ، وَتُنِيْرُ لَهُ دُجَىٰ الحَوَالِكِ.

وَاعْتَنَىٰ الإِمَامُ ؒ بِهَذِهِ الْخَوَاطِرِ عِنَايَةً فَائِقَةً؛ فَقَد اِنْتَقَىٰ كَلِمَاتِهَا اِنْتِقَاءً؛ فَجَاءَتْ مَكْتُوْبَةً بِلُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ فَصِيْحَةٍ بَيِّنَةٍ، فَخمَةٍ مَتِينَةٍ، بَلِيْغَةٍ فَصِيْحَةٍ؛ إِلَّا فِي مَوَاضِعَ قَلِيْلَةٍ يَخلِطُهَا بِكَلِمَاتٍ قَلِيْلَةٍ بِلُغَةِ أَهْلِ العِرَاقِ الْجَمِيْلَةِ.

وَلَقَدْ اِعْتَمَدَ الإِمَامُ ؒ فِي «صَيْدِ الْخَاطِرِ» كَثِيْرًا عَلَىٰ ثَرْوَةٍ عَظِيْمَةٍ مِنْ تَجَارِبِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ لِلنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ وَتَقَلُّبَاتِهَا؛ فَقَدْ كَتَبَهُ مِنْ تَبَارِيحِ التَّجَارِبِ، وَخِبْرَاتِ مُعْتَرَكِ الْحَيَاةِ، وَسَطَّرَ فِيْهِ مَا جَاشَ فِي صَدْرِهِ؛ فَأَرْسَلَهَا بِإِخْلَاصٍ وَنَزَاهَةٍ، حَتَّىٰ أَنَّهُ أَوْصَىٰ بِهَا وَلَدهُ فِي آخِرِ رِسَالَتِهِ المُسَمَّاة: «لَفْتَةُ الْكَبِدِ إِلَىٰ نَصِيْحَةِ الوَلَدِ» فَقَالَ ؒ: «**وَتَلَمَّحْ كِتَابَ «صَيْدِ الْخَاطِرِ» فَإِنَّكَ تَقَعُ بِوَاقِعَاتٍ تُصْلِحُ لَكَ دِيْنَكَ وَدُنْيَاكَ**»؛ فَكَانَت بِحَقٍّ نَصِيْحَةَ حَرَّانِ الْجَوَانِحِ مُشْفِقٍ.

وَالْمُتَأَمِّلُ بِعَيْنِ قَلْبِهِ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ يَجِدُ أَنَّ الإِمَامَ رَحِمَهُ اللهُ وَضَعَ الدَّوَاءَ الشَّافِي، وَوَقَفَ عَلَىٰ الإِسْعَادِ وَالإِسْعَافِ، لِكُلِّ دَاءٍ مِنْ أَدْوَاءِ الانْحِرَافِ فِي السُّلُوكِ وَأَمْرَاضِ الْقُلُوبِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا سَتَقْرَأُهُ فِي هَذَا السِّفْرِ النَّفِيسِ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ طَيَّاتِهِ دَعْوَةً صَادِقَةً لِصَلَاحِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَالْفَلَاحِ فِي الحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ.

وَلِأَنَّ الإِمَامَ ابْنَ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ لَمْ يُلْزِمْ نَفْسَهُ بِالْكِتَابَةِ عَنْ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ؛ فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ كَانَ يَشْتَغِلُ بِالْكِتَابَةِ فِيهِ فِي أَوْقَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ وَمُتَبَاعِدَةٍ وَمُتَغَيِّرَةٍ، وَكَذَلِكَ فِي أَوْقَاتِ رَاحَتِهِ الَّتِي يَتَصَيَّدُ فِيهَا دَقَائِقَ الْخَوَاطِرِ وَالسَّوَانِحِ، وَجَوَاهِرِ الْفَرَائِدِ وَالشَّوَارِدِ؛ فَجَاءَتْ مُشَكَّلَةَ الْمَبَانِي، مُخْتَلِفَةَ الْمَعَانِي؛ وَنَجَمَتْ مِنْ بَيْنِ جَوَانِحِهِ؛ فَوَصَلَت إِلَىٰ الْجَوَانِحِ وَظَهَرَت عَلَىٰ الجَوَارِحِ.

فَاسْتَخَرْتُ اللهَ العَلِيَّ القَدِيرَ أَنْ أُرَتِّبَهَا تَرْتِيبًا مُتَنَاسِقًا وَمُنَاسِبًا؛ لِيَسْهُلَ عَلَىٰ النَّاظِرِ فِيهَا أَخذ مَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ، وَرَتَّبْتُهَا تَرْتِيبًا بَدِيعًا مَنْهَجِيًّا وَمَنْطِقِيًّا مُتَتَابِعًا فِي أَفْكَارِهَا وَسَرْدِهَا؛ لِأُحَبِّبَ القَارِئَ اللَّبِيب فِيهَا، وَأُرَغِّبَهُ فِي اقْتِنَائِهَا؛ لِتَزَكَّىٰ بِهَا نَفْسُهُ وَقَلْبُهُ وَعَقْلُهُ؛ بِحَيْثُ إِذَا خَتَمَ الْقَارِئُ خَاطِرَةً مِنَ الْكِتَابِ ثُمَّ أَخَذَ فِي أُخْرَىٰ كَانَ أَنْشَطَ لَهَا وَأَهَزَّ لِعِطْفِهِ، وَأَبْعَثَ عَلَىٰ التَّحْصِيلِ مِنْهَا لَوْ اسْتَمَرَّ عَلَىٰ الكِتَابِ بِطُولِهِ. وَكَانَ مِثْلُهُ كَالْمُسَافِرِ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ قَطَعَ مِيلًا أَوْ طَوَىٰ فَرْسَخًا، أَوْ انْتَهَىٰ إِلَىٰ رَأْسِ بَرِيْدٍ: نَفَّسَ ذَلِكَ عَنْهُ وَنَشَّطَهُ لِلسَّيْرِ.

فَقَدْ كَانَ شَوْقُ بَعْض الْمُحِبِّيْنَ لِكِتَابِ «صَيْدِ الْخَاطِرِ» - مِنْ أَهْلِ الدِّيْنِ - إِلَىٰ تَكْمِيْلِ مَقَاصِدِهِ - مِنْ تَرْتِيْبٍ لِخَوَاطِرِهِ أَوْ تَحْرِيْرٍ لِأَلْفَاظِهِ أَوْ بَيَانٍ لِفَوَائِدِهِ - قَدْ صَدَّهُم عَنْ هَذَا الكِتَاب، وَحَالَ بَيْنَهُم وَبَيْنَ الإِفَادَة مِنْهُ؛ فَلِذَلِكَ تَوَجَّهَ الْعَزْمُ - بَعْدَ الاسْتِعَانَةِ بِاللهِ تَعَالَىٰ؛ فَلَا حَوْلَ لِي وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ سُبْحَانَهُ - إِلَىٰ إِزَالَةِ تِلْكَ الْمَوَانِعِ، حَتَّىٰ يَعُمَّ نَفْعَهُ؛ بِأَنْ يَنْهَلَ مِنْهُ العَالِم وَالْمُتَعَلِّم، وَالْمُرَبِّي وَالوَاعِظ، وَالشَّيْخ وَالشَّاب، وَالرَّجُل وَالْمَرْأَة فِي جَمِيْعِ نَوَاحِي الدِّيْن وَالدُّنْيَا.

فَدُوْنَكَ - أَيُّهَا الْمُحِبّ الْمُشْتَاق - كِتَاب «صَيْدِ الْخَاطِرِ» فِي حُلَّتِهِ الْجَدِيْدَةِ، وَقَدْ

سَمَّيْتُهُ: «**التَّرْتِيبُ الزَّاهِرُ لِكِتَابِ صَيْدِ الْخَاطِرِ**»؛ لِيَكُوْنَ لَنَا كَالْصَّبَاحِ وَالْقَمَرِ وَالرَّبِيْعِ الزَّاهِرِ؛ فَتَشْحَذ نُوْر الْبَصِيرَةِ وَالأَبْصَارِ؛ بِفَضْلٍ مِنَ اللهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، مُقَلِّب الْقُلُوْبِ وَالأَبْصَارِ، وَالْمُطَّلِع عَلَىٰ الضَّمَائِرِ وَالأَسْرَارِ.

وَإِلَيْكَ بَيَانُهُ:

- أَوَّلًا: التَّحْقِيق -

وَقَدْ شَمَلَ الأَغْرَاض الآتِيَة:

١- تَوَّجْتُ الْكِتَابَ بِتَرْجَمَةٍ مُخْتَصَرَةٍ لِلإِمَامِ ابْنِ الجَوْزِيِّ رحمه الله، لَا سِيَّمَا وَقَدْ أَفْرَدَ كَثِير مِنْ أَهْلِ العِلْمِ رَسَائِلَ وَأَبْحَاثًا تَتَنَاوَل حَيَاة هَذَا الإِمَامُ المُرَبِّي، وَالْوَاعِظُ البَلِيْغُ، وَالعَالِمُ المُتَفَنِّن[(١)].

٢- قُمْتُ بِتَقْوِيمِ النَّصِّ وَتَحْرِيرِهِ، وَرَدِّهِ إِلَىٰ الأَصْلِ الَّذِي حَرَّرَهُ الْمُصَنِّفُ، أَوْ عَلَىٰ الأَقَلِّ قَرِيب مِنْهُ بِمَا فِي الوُسْعِ.

وَالنُّسْخَةُ الَّتِي اعتَمَدتُ عَلَيْهَا كَأَصْلٍ لِعَمَلِي فِي هَذَا الْكِتَاب؛ فَهِيَ نُسْخَةٌ مَحفُوظَةٌ بِـ«مَكْتَبَةِ الأَزْهَر الشَّرِيف» تَحت رَقَم:(٤٠٣٠) خَاص، وَ:(٤٥٣٠٤) عَام، فَن:(آدَاب وَفَضَائِل). وَتَقَعُ فِي (٤٥٦) صَفْحَة بِالْفَهَارِسِ، وَ(٤٠٥) صَفْحَة بِدُوْنِ الْفَهَارِسِ.

وَهِيَ أَوَّل طَبْعَةٍ لِهَذَا الكِتَاب النَّفِيس فِي العَالَمِ الْعَرَبِي وَالإِسْلَامِي، حَيْثُ عَنَىٰ بِنَشْرِهِ الشَّيْخ/ مُحَمَّد أَمِيْن الخَانجِي رحمه الله الْمُتَوَفَّىٰ سَنَة:(١٣٥٨هـ = ١٩٣٩م) وَطَبَعَهُ عَلَىٰ نَفَقَتِهِ سَنَة:(١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م). وَكَتَبَ فِي مُقَدِّمَتِهَا:

«وَقَدْ اِعْتَمَدْنَا فِي طَبْعِهِ عَلَىٰ نُسْخَتَيْنِ خَطِّيَتَيْنِ[(٢)]: إِحْدَاهُمَا تَفَضَّلَ بِهَا حَضْرَةِ صَاحِبِ السَّعَادَةِ «أَحْمَد طَلَعَت بِك». وَالأُخْرَىٰ: مَحْفُوْظَةٌ بِـ«دَارِ الْكُتُبِ الْمَصْرِيَّةِ» وَهِيَ مِنْ كُتُبِ الأَمِيْر/ مُصْطَفَىٰ فَاضِل بَاشَا، وَيَرْجِعُ الفَضْلَ فِي مُشْتَرَاهَا وَحِفْظِهَا فِي مِصْر المَرْحُوْم «أَحْمَد طَلَعَت بَاشَا» وَالِد سَعَادَة أَحْمَد طَلَعَت بِك؛ فَكَأَنَّمَا فَضْل نَشْر هَذَا الكِتَاب رَاجِعٌ أَوَّلًا وَآخِرًا عَلَىٰ «آلِ طَلَعَت» جَزَاهُمُ اللهُ خَيْرًا عَنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالأَدَب»اهـ.

---

(١) ينظر: ابن الجوزي الإِمَامُ المُرَبِّي. د. عبد العزيز سيد الغزولي. ط/ دار القلم - دمشق. الأولى ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م.

(٢) جَاءَ فِي حَاشِيَةِ هَذِهِ الطَّبْعَةِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا قُوْبِلَت عَلَىٰ ثَلَاثَةِ نُسَخٍ خَطِّيَّة: (الأَحْمَدِيَّة)، (الهِنْدِيَّة)، (المَصْرِيَّة).

وَكَذَلِكَ اعْتَمَدْتُ عَلَىٰ نُسْخَةٍ خَطِّيَّةٍ رَمَزْتُ لَهَا بِـ«ي» وَهِيَ مَحْفُوْظَة بِقِسْمِ الْمَخْطُوْطَات بِجَامِعَةِ الْمَلِك سَعُوْد - الرِّيَاضِ - بِالْمَمْلَكِةِ الْعَرَبِيَّة السُّعُوْدِيَّة - بِاسْم:«(قَيْد) صَيْد الخَاطِر». كُتِبَتْ سَنَةَ:(١٢٢٢هـ). الأَعْلَام (٤: ٨٩)، رَازارمبور (٤: ٥٦). الْمَوْضُوْع: الشَّعَائِر وَالتَّقَالِيْد وَالآدَاب الإِسْلَامِيَّة. عَدَد الأَوْرَاق:«١٩٨» وَعَدَد الخَوَاطِر فِيْهَا:(٢٩٥)، وَلَيْس فِيْهَا مَا يُطَابِقُ جَمِيْع النُّسَخ مِنَ الخَوَاطِر إِلَّا:(١٧١) خَاطِرَةً فَقَط، و(١٢٤) خَاطِرَة اِنْفَرَدَتْ بِهَا هَذِا المَخْطُوْط، وَسَقَطَت مِنْهَا عَدَد (٢٠٣) خَاطِرَة مَوْجُوْدَة فِي جَمِيْع النُّسَخ.

وَبِاسْتِقْرَاءِهَا تَبَيَّنَ لِي بَل وَاسْتَقَرَّ فِي قَلْبِي أَنَّ عَدَدَ الخَوَاطِر:(١٢٤) الزَّائِدَة لَيْسَتْ مِنْ نَفَسِ الإِمَام اِبْن الجَوْزِيّ ﷺ، وَلَا بِقَلَمِهِ السَّيَّال وَالَّذِي عُرِفَ بِهِ؛ لِذَا جَعَلْتُهَا فَقَط كَالمُعِيْنُ لِي فِي بَعضِ الْكَلِمَات الَّتِي تصحَّفَتْ فِي الأَصْلَ، أَو بِإِضَافَةٍ مِنْهَا لِبَعْضِ الْكَلِمَات؛ لِتَمَام الْمَعْنَىٰ بِهَا، فِي الخَوَاطِر الـ(١٧١) الأُولَىٰ فَقَط.

٣- قُمْتُ بِتَشْكِيلِ الْكِتَابِ تَشْكِيلًا كَامِلًا، وَقَد عَنَيْتُ بِضَبْطِ النَّصِّ عِنَايَةً بَالِغَةً، وَرَجَعتُ فِي حَلِّ مَا أُشْكِلَ إِلَىٰ كُتُبِ اللُّغَة وَالْمَعَاجِم القَدِيْمَة وَالمُعَاصِرَة. وَبَيَّنْتُ غَرِيْب الأَلْفَاظِ وَالمُصْطَلَحَات الَّتِي أَوْرَدَهَا الإِمَام ﷺ فِي كِتَابِهِ، لَاسِيَّمَا أَنَّ الإِمَامَ تَمَيَّزَ أَسْلُوْبُه بِجَزَالَةِ اللَّفْظِ، وَقَد أَوْرَدَ الإِمَام ﷺ زُهَاء [٦٨٤] كَلِمَة وَمُصْطَلَح اِحْتَاجَت إِلَىٰ بَيَانٍ وَتَوْضِيحٍ، لَاسِيَّمَا فِي عَصْرِنَا الحَاضِر الَّذِي اِنْدَثَر فِيْهِ كَثِيْرٌ مِنْ كَلِمَاتِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّة.

٤- عَزَوْتُ الْآيَاتِ الْقُرآنِيَّةَ ضِمْنَ النَّصِّ؛ فَذَكَرْتُ السُّوْرَة وَرَقَم الآيَة؛ كَمَا فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فَقَدْ ذَكَرَ الإِمَام عَدَد [١٧٥] آيَة أَوْ جُزْء مِنْ آيَةٍ، بِدُوْن الْمُكَرَّر.

٥- قُمْتُ بِتَخْرِيجِ الأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ وَعَزْوُهَا إِلَىٰ مَصَادِرِهَا الأَصْلِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الآثَار وَالأَقْوَالِ الْمَأْثُوْرَة إِلَىٰ قَائِلِيْهَا وَمَصَادِرِهَا الأَصْلِيَّةِ أَيْضًا؛ فَقَدْ أَوْرَدَ الإِمَام ﷺ زُهَاء [١٨٧] حَدِيْثًا وَأَثَرًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَصَحَابَتِهِ ﷺ بِأَلْفَاظِهَا، وَأَوْرَدَ عَدَد [١٤٦] حَدِيْثًا وَأَثَرًا ذَكَرَهَا

بِالْمَعْنَىٰ أَوِ الإِشَارَةِ. أَمَّا الأَقْوَالُ الْمَأْثُوْرَة فَقَدْ بَلَغَ عَدَدُهَا زُهَاء [١١٤] قَوْلًا؛ فَعَزَوْتُ الأَقْوَال إِلَىٰ قَائِلِيْهَا وَمَصَادِرِهَا الأَصْلِيَّةِ أَيْضًا.

٦- تَرجَمْتُ لِلأَعلَامِ الْمَذْكُوْرِيْنَ فِي الْكِتَابِ بِصُوْرَةٍ مُبَسَّطَةٍ وَمُخْتَصَرَةٍ؛ فَقَدْ أَوْرَدَ الإِمَامُ ﵀ زُهَاءَ [٣٢٥] عَلَمًا مِنَ الأَعْلَامِ، وَشَخْصًا مِنَ الأَشْخَاصِ.

٧- حَاوَلْتُ قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ أَنْ أُشِيْرَ إِلَىٰ قَائِلِ الأَبْيَاتِ الشِّعْرِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الإِمَامُ ﵀ فِي كِتَابِهِ مَعَ ذِكْرِ الْبُحُوْرِ الشِّعْرِيَّةِ؛ فَقَدْ أَوْرَدَ الإِمَامُ ﵀ عَدَدَ [١٧٣] بَيْتًا شِعْرِيًّا بِدُوْنِ الْمُكَرَّرِ.

٨- ذَكَرْتُ نُبْذَةً مُخْتَصَرَةً عَنِ الْفِرَقِ وَالْمَذَاهِبِ وَالقَبَائِلِ وَالأَمَاكِنِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الإِمَامُ ﵀ فِي كِتَابِهِ وَهِيَ قَلِيْلَة العَدَدِ لَا تَتَجَاوَز [٢٧].

٩- ذَكَرتُ نُبْذَةً عَنْ أَسْمَاءِ الْكُتُبِ الَّتِي ذَكَرَهَا الإِمَام ﵀ فِي الْكِتَابِ، وَكَذَلِكَ مُؤَلِّفِيْهَا، وَالَّتِي ذَكَرَهَا الإِمَام ﵀ صَرَاحَةً أَوْ أَشَارَ إِلَيْهَا أَوْ نَقَلَ مِنْهَا وَلَمْ يُصَرِّح بِذِكْرِهَا؛ فَجَاءَ عَدَدُهَا [٤٩] كِتَابًا. وَاسْتَثْنَيْتُ كُتُب الصِّحَاح وَالمَسَانِيْد وَالمَعَاجِم....إلخ وَالَّتِي تَخْتَص بِالأَحَادِيْثِ الَّتِي ذَكَرَهَا ﵀؛ لِشُهْرَتِهَا مَعَ ذِكْرِهَا فِي ثَبْتِ الْمَرَاجِعِ وَالمَصَادِرِ.

١٠- عَلَّقْتُ عَلَىٰ بَعضِ الْمَسَائِلِ مِمَّا ذَكَرَهُ الإِمَام ﵀ ، وَالَّتِي اعتَقَدتُ أَنَّهَا تُفِيْدُ الْقَارِئَ الْحَبِيْب؛ فَتَارَةً أَكُوْن مُوَافِقًا لَهُ، وَأُخرَىٰ مُخَالِفًا بِأَدَبٍ، مُدَعِّمًا كُلّ ذَلِكَ بِالْدَّلِيْلِ.

١١- وَضَعْتُ عَنَاوِيْن مُنَاسِبَة لِجَمِيْعِ خَوَاطِرِ الْكِتَاب؛ لِلتَّيْسِيْر عَلَىٰ القَارِئِ الحَبِيْب، وَلَيْسَت مِنْ أَصْلِ الْكِتَاب.

١٢- تَمَّ عَمَل فَهَارِس عَامَّة فَنِّيَّة تَنْظِيْمِيَّة وَهِي عَلَىٰ النَّحْو التَّالِي:

أ- فِهْرِس الآيَاتِ القُرآنِيَّة الكَرِيْمَة. ب- فِهْرِس الأَحَادِيْث وَالآثَار.

ج- فِهْرِس الأَقْوَال المَأْثُوْرَة. د- فِهْرِس الأَشْعَار وَالقَوَافِي.

هـ- فِهْرِس التَّرَاجِم وَالأَعْلَام.

و- فِهْرِس الفِرَق وَالمَذَاهِب وَالقَبَائِل وَالأَمَاكِن.

ز- فِهْرِس أَسْمَاءِ الْكُتُبِ الْمَذْكُوْرَة فِي الْكِتَابِ.

ح- فِهْرِس ثَبْت المَرَاجِع وَالمَصَادِر. ط- فِهْرِس الْمَوْضُوْعَات.

- ثانيا: التَّرتيب -

وَالْمُسَمَّى

« التَّرْتِيْبُ الزَّاهِرُ لِكِتَابِ صَيْدِ الْخَاطِرِ »

اِحْتَوَى كِتَاب «صَيْدِ الْخَاطِرِ» عَلَى عَدَدِ [٣٧٤] خَاطِرَةً، دَوَّنَ فِيْهَا الإِمَام اِبْن الجَوْزِيِّ رحمه الله مَادَّةَ كِتَابِهِ؛ وَكَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْل أَنَّ الإِمَامَ لَمْ يُلْزِم نَفْسَهُ فِيْهَا بِمَوْضُوْعٍ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ؛ فَلِذَلِكَ رَأَيْتُ بَعْدَ أَنْ شَرَحَ اللهُ تَعَالَى صَدْرِي وَاسْتَخَرْتُ رَبِّي أَنْ أُرَتِّبَهُ تَرْتِيبًا مُتَنَاسِقًا، وَتَرْتِيبًا مَنْهَجِيًّا وَمَنْطِقِيًّا؛ بِحَيْثُ تَدُور كُلّ فِكْرَةٍ تَحْتَ عُنْوَان مُسْتَقِلّ بِذَاتِهِ، وَجَعَلْتُ هَذَا التَّرْتِيب الزَّاهِر لِلْكِتَاب عَلَى ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِيْنَ عُنْوَانًا، كُلّ عُنْوَانٍ تَحْتَهُ مَا يَتَنَاسَقُ مَعَهُ مِنَ الخَوَاطِرِ فَجَاءَتْ عَلَى النَّحْو الآتِي:

عَنَاوِيْنُ: التَّرْتِيبُ الزَّاهِرُ لِكِتَابِ صَيْدِ الْخَاطِرِ	عدد الخواطر
(١) إِشَارَات وَبِشَارَات مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى	(١١)
(٢) إِشَارَات وَبِشَارَات مِنْ أَقْوَالِ الرَّسُول ﷺ وَالسَّلَف الصَّالِح	(١١)
(٣) بِالإِخْلاص تُقْبَلُ الأَعْمَال؛ فَجَاهِد نَفْسَك بِالإِخْلاص	(٥)
(٤) كـلامٌ مُهِمٌّ فِي الْعَقِيْدَةِ وَعِلْم الْكَلام	(٢٣)
(٥) الابتِلاءُ وَالصَّبْرُ عَلَى الأَذَى	(١٢)
(٦) الرِّضَا بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَحِكْمَة أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ	(١٧)
(٧) الدُّعَاءُ وَالدَّاعِي وَاخْتِيَار اللهِ رَبِّ العَالَمِيْن	(١٤)
(٨) مَفْهُوْم التَّكْلِيْف وَأَقْسَامِهِ وَالفَرْقُ بَيْنَ تَكْلِيْف الْجَوَارِح وَتَكْلِيْف العَقْل	(٣)

عَنَاوِيْنُ: التَّرْتِيبُ الزَّاهِرُ لِكِتَابِ صَيْدِ الْخَاطِرِ	عدد الخواطر
(٩) النَّفْسُ وَمُجَاهَدتِهَا، وَالتَّلَطُّف بِهَا	(١٢)
(١٠) جَمْعُ الْهَمِّ، وَعُلُوُّ الْهِمَّـةِ	(١١)
(١١) شَرَفُ العِلْمِ وَالعُلَمَاء ، وَبَعض آفَات طَلَب العِلْمِ وَالعُلَمَاء	(١٥)
(١٢) أَشْرَفُ العُلُوْمِ ، وَمَا يَنْبَغِي عَلَى طَالِبِ العِلْمِ	(٣٢)
(١٣) العُزْلَة وَالخَلْوَة وَالمُخَالَطَة	(١٥)
(١٤) أَحْوَالُ بَعض الْصُّوفِيَّةِ وَالزُّهَّادِ ، وَبَيَانُ مَدَاخِل الآفَاتِ	(١٠)
(١٥) الْمَعَاصِي وَأَثَرُهَا وَالتَّوْبَةُ وَوُجُوبُهَا	(٢٢)
(١٦) مَجَالِسُ الْوَعْظ وَالْوُعَّاظ	(٥)
(١٧) الْحَسَدُ وَالْحَاسِدِينَ ، وَمَا يَنْبَغِي عَلَيْنَا كِتْمَانُهُ	(١٣)
(١٨) أَجْهَلُ الْجُهَلاء، وَأَعقَل الْعُقَلاء، وَالأَبْلَه الْمُغَفَّل	(٢١)
(١٩) النَّاسُ وَأَحْوَالِهِم ، وَالأَصْدِقَاء وَنُدْرَتِهِم	(٩)
(٢٠) الْحُكَّام وَمُصَاحَبَتِهِم وَأَحْوَالهم، وَالتَّكَلُّمُ فِي حَقِّ الْمَعْزُوْلِ	(١٠)
(٢١) عَاقِبَةُ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَمُخَالَفَتِهِ، وَالْغَفْلَةِ وَالاقْتِرَابِ مِنَ الشُّبُهَاتِ	(١٦)
(٢٢) أَصْعَبُ الأَمْرَاض سُوْءُ الْفَهْمِ، وَاللَّبِيبُ تَكْفِيْهِ الإِشَارَة	(٤)
(٢٣) صَلاحُ الْبَدَنِ وَالْوَلَدِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ	(١٢)
(٢٤) الزَّوَاجُ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالنِّسَاءِ وَالْعِشْقِ	(١٤)

عَنَاوِيْنُ: التَّرْتِيبُ الزَّاهِرُ لِكِتَابِ صَيْدِ الْخَاطِرِ	عدد الخواطر
(٢٥) أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَهْلِيهِمَا	(٢٧)
(٢٦) الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ وَمَا يَجِبُ نَحْوَهُمَا	(١٦)
(٢٧) الْكَلَامُ عَنِ الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا	(٤)
(٢٨) مُتَفَرِّقَاتٌ مِنْ دُرَرِ الْخَوَاطِرِ	(١٠)

وَبَعْدُ: فَقَدْ اِسْتَغْرَقَ إِخْرَاجِ هَذَا السِّفْرِ العَظِيْمِ وَقْتًا طَوِيْلًا؛ رَغْبَةً فِي تَحْرِيْرِ نَصِّهِ وَتَقْرِيْبِ قَصْدِهِ وَتَرْتِيْبِ خَوَاطِرِهِ، أَضَعُهُ بَيْنَ يَدِي القَارِئِ اللَّبِيْبُ الأَرِيْبُ الحَبِيْبُ بِمَا يَشْرَحُ صَدْرَهُ وَيُزِيْلُ هَمَّهُ وَيَضَعُ قَدَمِيْهِ عَلَى الطَّرِيْقِ الأَقْوَمِ.

وَخِتَامًا: نَبْتَهِلُ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ عَمَلَنَا هَذَا خَالِصًا لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَسَبَبًا لِلْفَوزِ بِدَارِ الخُلْدِ وَالنَّعِيمِ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ مَنْ كَتَبَهُ أَو قَرَأَهُ وَنَظَرَ فِيْهِ، وَدَعَا إِلَيَّ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، إِنَّهُ تَعَالَى جَوَّادٌ كَرِيمٌ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِهِ مُحَمَّدٍ الكَرِيمِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِين، وَحَسبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيم.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الْفَقِيرُ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِ

أَبُو إِبْرَاهِيمَ/ حُسَيْنُ بْنُ مَحْمُودٍ الصَّادِقُ

الإِجَازَةُ الْعَالِيَةُ فِي الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

جَامِعَةُ الأَزْهَرِ الشَّرِيفِ

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

■ ترجمة مختصرة للإمام ابن الجوزي رحمه الله ■

اِعْلم أَخِي الحَبِيْب أَنِّي قُمْتُ بِعَمَلِ تَرْجَمَةٍ شَافِيَةٍ لِلإِمَام اِبْن الجَوْزِيّ رحمه الله وَذَلِكَ لَمَّا شَرَّفَنِي اللهُ تَعَالَىٰ وَقَدَّرَ لِي أَنْ أَقُوْمَ بِتَحْقِيْقِ كِتَاب «بُسْتَانُ الْوَاعِظِيْن وَرِيَاضُ السَّامِعِيْنَ»[١] لِلإِمَامِ اِبْن الجَوْزِيّ رحمه الله وَقَدْ ذَكَرْتُ هُنَاكَ مَا يَتَعَلَّقُ بِحَيَاةِ الإِمَام رحمه الله مِنَ الْمِيْلَادِ إِلَىٰ الْمَمَات، وَتَحَدَّثْتُ فِيْهِ عَنِ اسمِهِ، وَنَسَبِهِ، وَلَقَبِهِ، وَكُنْيَتِهِ، وَمَولِدِهِ، وَنَشْأَتِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَوَفَاتِهِ، وَالْعَصْر الَّذِي عَاشَ فِيْهِ؛ مِنَ النَّوَاحِي السِّيَاسِيَّة، وَالاجْتِمَاعِيَّة، وَالْفِكْرِيَّة، وَحَيَاتِهِ الْعِلْمِيَّة، مِنْ طَلَبِهِ لِلْعِلْمِ، وَشُيُوخِهِ، وَثَنَاء الْعُلَمَاءِ عَلَيْه، وَمُؤَلَّفَاتِهِ.

وَهَا أَنَا ذَا هُنَا أَخْتَصِرُ مَا كَتَبْتُهُ هُنَاكَ اِخْتِصَارًا؛ فَأَقُوْلُ وَبِاللهِ التَّوْفِيْق:

أَبُو الفَرَجِ ابْنُ الجَوْزِيِّ الشَّيْخُ، الإِمَامُ، العَلَّامَةُ، الحَافِظُ، المُفَسِّرُ، شَيْخُ الإِسْلَامِ، مَفْخَرُ العِرَاقِ، جَمَالُ الدِّيْنِ، عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَلِيِّ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيِّ بنِ عُبَيْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ حَمَّادِيِّ بنِ أَحْمَدَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ جَعْفَرِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ القَاسِمِ بنِ النَّضْرِ بنِ القَاسِمِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ الفَقِيْهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ الفَقِيْهِ القَاسِمِ بنِ مُحَمَّدِ ابْنِ خَلِيْفَةَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ رضي الله عنه، القُرَشِيُّ، التَّيْمِيُّ، البَغْدَادِيُّ، الحَنْبَلِيُّ، الوَاعِظُ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ.

وُلِدَ: سَنَةَ:(٥٠٩هـ أو ٥١٠هـ)؛ فَقَدْ عَاشَ فِي العَصْرِ العَبَّاسِيّ الثَّانِي وَالَّذِي بَدَأَ مِنْ سَنَةِ:(٣٣٤هـ) إِلَىٰ سُقُوْطِ بَغْدَاد فِي يَدِ التَّتَارِ سَنَةَ:(٦٥٦هـ)، وَقَدْ وُلِدَ الإِمَام رحمه الله فِي آخِرِ عَصْرِ الْمُسْتَظْهِر بِاللهِ أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ عَبْدِ اللهِ ابْن الذَّخِيرَة – الَّذِي تَوَلَّىٰ الحُكْم مِنْ سَنَةِ:(٤٨٧هـ:٥١٤هـ). وَقَدْ تَوَلَّىٰ الحُكْم فِي حَيَاةِ الإِمَام رحمه الله بعد الْمُسْتَظْهِر، الْمُسْتَرشِدُ بِاللهِ أَبُو مَنْصُوْرٍ الفَضْلُ، وَالرَّاشِدُ بِاللهِ أَبُو جَعْفَرٍ مَنْصُوْر، وَالْمُقْتَفِي لأَمْرِ اللهِ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ، وَالْمُسْتَنْجِدُ بِاللهِ أَبُو الْمُظَفَّرِ يُوْسُف، وَالْمُسْتَضِيْءُ بِأَمْرِ اللهِ أَبُو مُحَمَّدٍ الحَسَنُ، وَالنَّاصِرُ لِدِيْنِ اللهِ أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ، الَّذِي تَوَلَّىٰ الخِلَافَة

(١) طُبِعَ في مصر بمكتبة أبي بكر الصديق -درب الأتراك- الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٦م.

فِي أَوَاخِرِ العِقْدِ الأَخِيْرِ مِنْ حَيَاةِ الإِمَامِ ابْنِ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ سَنَةِ:(٥٧٧هـ-٥٩٦هـ).

وَالْمُتَأَمِّلُ فِي حَيَاةِ الإِمَامِ ابْنِ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ يَجِدُ أَنَّهُ كَانَ عَلَىٰ عِلَاقَةٍ بِخُلَفَاءِ عَصْرِهِ، وَقَدْ كَانَت فِي الجُمْلَةِ عِلَاقَة طَيِّبَة لَاسِيَّمَا (المُسْتَضِيء) حَتَّىٰ أَنَّ الإِمَامَ ابْنِ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ أَلَّفَ لَهُ كِتَابًا أَسْمَاهُ «المِصْبَاحُ الْمُضِيء فِي دَوْلَةِ الْمُسْتَضِيء» وَكَانَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ الْكُتُب، وَكَانَ الْمُسْتَضِيء يَسْتَنْصِحَهُ، وَيَطْلُبَ رَأْيه فِي كَثِيْرٍ مِنَ الأُمُوْرِ.

وَكَانَ الإِمَامَ ابْنِ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ عَلَىٰ خُلُقٍ كَرِيْمٍ، يَغْلُبُ عَلَيْهِ الْجِدّ حَتَّىٰ مُنْذُ صِغَرِهِ، فَقَدْ كَانَ وَقُوْرًا وَرِعًا لَا يُمَازِحُ أَحَدًا وَلَا يَعْبَثُ، وَمَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ كَثِيْرُ التِّلَاوَةِ إِذْ كَانَ يَخْتِمُ القُرآن فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّام. وَيَقُوْمُ اللَّيْلَ وَلَا يَكَاد يَفْتُر عَنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ نَشَأَ رَحِمَهُ اللهُ عَلَىٰ العَفَافِ وَالصَّلَاحِ، وَلَهُ ذِهْنٌ وَقَّاد وَجَوَاب حَاضِر.

وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ رَأْسًا فِي التَّذْكِيْرِ بِلاَ مُدَافَعَةٍ، يَقُوْلُ النَّظم الرَّائِق، وَالنَّثر الفَائِق بَدِيْهًا، وَيُسْهِب، وَيُعجِب، وَيُطرِب، وَيُطنِب، لَمْ يَأْت قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ مِثْله، فَهُوَ حَامِل لِوَاءِ الْوَعْظِ، وَالقَيِّم بِفُنُوْنِهِ، مَعَ الشَّكل الحَسَن، وَالصَّوْتِ الطَّيِّب، وَالْوَقْع فِي النُّفُوْس، وَحُسْن السِّيْرَةِ.

وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ بَحْرًا فِي التَّفْسِيْر، عَلاَّمَة فِي السِّيَرِ وَالتَّارِيْخ، مَوْصُوْفًا بِحُسْنِ الْحَدِيْث، وَمَعْرِفَةِ فُنُوْنِهِ، فَقِيْهًا، عَلِيْمًا بِالإِجْمَاعِ وَالاخْتِلاَف، جَيِّد المُشَارَكَة فِي الطِّبّ، ذَا تَفَنُّن وَفَهْم وَذَكَاءٍ وَحِفْظٍ وَاسْتِحضَارٍ، وَإِكْبَابٍ عَلَىٰ الْجَمْعِ وَالتَّصْنِيْفِ، مَعَ التَّصَوُّنِ وَالتَّجَمُّلِ، وَحُسْنِ الشَّارَةِ، وَرَشَاقَةِ العِبَارَة، وَلُطْف الشَّمَائِل، وَالأَوْصَاف الحَمِيْدَة، وَالْحُرْمَة الوَافِرَة عِنْدَ الخَاصّ وَالعَامّ.

وَقَدْ قِيْلَ: نَيَّفَتْ تَصَانِيْفه رَحِمَهُ اللهُ عَلَىٰ الثَّلَاثِ مِئَةٍ.

وَتُوُفِّيَ رَحِمَهُ اللهُ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ، بَيْنَ العِشَاءَيْنِ، (١٣) مِنْ رَمَضَانَ، سَنَةَ:(٥٩٧هـ)، وَقَدْ جُمِعَتْ بُرَّايَةِ أَقْلَامه الَّتِي كَتَبَ بِهَا حَدِيْث رَسُوْل اللهِ ﷺ فَحَصَلَ مِنْهَا شَيْء كَثِيْر وَأَوْصَىٰ أَنْ يُسَخَّن بِهَا المَاء الَّذِي يُغَسَّل بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ؛ فَفُعِلَ ذَلِكَ؛ فَكَفَتْ وَفَضَلَ مِنْهَا، وَحَضَرَ غُسْلَهُ الإِمَامُ ابْن سُكَيْنَة وَقْتَ السَّحَر، وَاجْتَمَعَ أَهْلُ بَغْدَاد، وَغُلِّقَتِ الأَسْوَاق، وَجَاءَ الخَلْقُ، وَصَلَّىٰ عَلَيْهِ ابْنُهُ

أَبُو القَاسِم عَلِيّ؛ لِأَنَّ الأَعيَان لَمْ يَقْدِرُوا مِنَ الوُصُوْلِ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبُوا بِهِ إِلَىٰ جَامِع المَنْصُوْر، فَصَلُّوا عَلَيْهِ، وَضَاق بِالنَّاسِ، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُوْدًا.

وَأَوْصَىٰ أَنْ يُكتَبَ عَلَىٰ قَبْرِه:

يَا كَثِيْرَ العَفْوِ عَمَّنْ ... كَثُرَ الذَّنْبُ لَدَيْهِ
جَاءَكَ المُذْنِبُ يَرْجُو الـ ... ـصَّفْحَ عَنْ جُرْمِ يَدَيْهِ
أَنَا ضَيْفٌ، وَجَزَاءُ الـ ... ـضَّيْفِ إِحْسَانٌ إِلَيْهِ

وَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يُسْكِنَهُ فَسِيحَ جَنَّتِهِ وَيُوَسِّعَ لَهُ فِي رِضْوَانِ رَحْمَتِهِ وَأَنْ يُعْلِيَ مَنْزِلَتَهُ وَيَرْفَعَ دَرَجَتَهُ مَعَ العُلَمَاءِ وَالصِّدِّيقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا.

وَنَفَعَنَا اللهُ بِعِلْمِهِ وَسَلَكَ بِنَا طَرِيقَةَ عَمَلِهِ بِمَا يُرْضِيهِ ﷻ عَنَّا، وَالحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ أَفْضَلِ خَلْقِهِ وَأَكْرَمِهِمْ عَلَيْهِ، مَنِ اصْطَفَاهُ لِرِسَالَتِهِ وَشَرَّفَنَا بِبَعْثَتِهِ، وَخَتَمَ بِهِ رُسُلَهُ وَكَرَّمَنَا بِهِ وَهَدَانَا لِاتِّبَاعِهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّيِّبِيْنَ الطَّاهِرِيْنَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّيْنِ، وَعَلَيْنَا مَعَهُمْ أَجْمَعِيْنَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيْبٌ.

■ مُقَدِّمَة الإمام ابن الجوزيّ رحمه الله لكتابه: «صَيد الخَاطِر» ■

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ(١).

قَالَ الشَّيْخُ الإِمَامُ العَالِمُ أَبُو الْفَرَجِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْجَوْزِيِّ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ:

الْحَمْدُ للهِ حَمْدًا يَبْلُغُ رِضَاهُ، وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ أَشْرَفِ مَنِ اجْتَبَاهُ، وَعَلَىٰ مَنْ صَاحَبَهُ وَوَالَاهُ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا لَا يُدْرَكُ مُنْتَهَاهُ.

لَمَّا كَانَتِ الْخَوَاطِرُ تَجُوْلُ فِي تَصَفُّحِ أَشْيَاءَ تَعْرِضُ لَهَا، ثُمَّ تُعْرِضُ عَنْهَا فَتَذْهَبُ؛ كَانَ مِنْ أَوْلَىٰ الأُمُوْرِ حِفْظُ مَا يَخطُرُ، لِكَي لَا يُنْسَىٰ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «قَيِّدُوا العِلْمَ بِالْكِتَابَةِ»(٢). وَكَمْ قَدْ خَطَرَ لِي شَيْءٌ، فَأَتَشَاغَلُ عَنْ إِثْبَاتِهِ، فَيَذْهَبُ، فَأَتَأَسَّفُ عَلَيْهِ! وَرَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي أَنَّنِي كُلَّمَا فَتَحْتُ بَصَرَ التَّفَكُّرِ؛ سَنَحَ لَهُ مِنْ عَجَائِبِ الْغَيْبِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابٍ، فَانْثَالَ عَلَيْهِ مِنْ كَثِيْبِ التَّفْهِيْمِ مَا لَا يَجُوْزُ التَّفْرِيْطُ فِيْهِ(٣)، فَجَعَلْتُ هَذَا الكِتَابَ قَيْدًا لِصَيْدِ الْخَاطِرِ، وَاللهُ وَلِيُّ النَّفْعِ؛ إِنَّهُ قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ.

---

(١) ليست في الأصل، وأثبتناها من مخطوط (ي).

(٢) الْحَدِيْثُ ثَبَتَ مَرْفُوْعًا وَمَوْقُوْفًا؛ فَقَد رَوَاهُ الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «الْعِلْم» الأحاديث: (٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢). ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» حديث (٧٠٠) وَغَيْرُهمَا عَنْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَلَفْظُ الْحَدِيْث: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ - بِالْكِتَابِ - - وَمَا تَقْيِيدُهُ؟ قَالَ: كِتَابَتُهُ -». «السلسلة الصحيحة» حديث (٢٠٢٦)، «صحيح الجامع» حديث (٤٤٣٤).

(٣) سَنَحَ لَهُ: عَرَضَ وَظَهَر، وَتَيَسَّر وَأُتِيح. * فَانْثَالَ عَلَيْهِ: اِنْصَبَّ وَانْهَالَ. * كَثِيْبِ التَّفْهِيْم: الْكَثَبُ بِفَتْحَتَيْنِ الْقُرْب، وَكَثَبَ الْقَوْمُ: اجْتَمَعُوا. وَمِنْهُ كَثِيبُ الرَّمْلِ لِاجْتِمَاعِهِ.

(١)

[إِشَارَات وَبِشَارَات مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى]

* [١ - ٧٢](*) [خَاطِرَةٌ](*):

[﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾]

اِعْلَمْ أَنَّ الزَّمَانَ لا يَثْبُتُ عَلَىٰ حَالٍ؛ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران:١٤٠]، فَتَارَةً فَقْرٌ، وَتَارَةً غِنًىٰ، وَتَارَةً عِزٌّ، وَتَارَةً ذِلٌّ، وَتَارَةً يُفْرِحُ الْمَوَالِي، وَتَارَةً يُشْمِتُ الأَعَادِي.

فَالسَّعِيْدُ مَنْ لازَمَ أَصلًا وَاحِدًا عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، وَهُوَ تَقْوَىٰ اللهِ ﷻ، فَإِنَّهُ إِنِ اسْتَغْنَىٰ؛ زَانَتْهُ، وَإِنِ افْتَقَرَ؛ فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابَ الصَّبْرِ، وَإِنْ عُوْفِيَ؛ تَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِ، وَإِنْ اِبْتُلِيَ؛ جَمَّلَتْهُ. وَلا يَضُرُّهُ إِنْ نَزَلَ بِهِ الزَّمَانُ أَوْ صَعِدَ، أَوْ أَعْرَاهُ، أَوْ أَشْبَعَهُ، أَوْ أَجَاعَهُ؛ لِأَنَّ جَمِيْعَ تِلْكَ الأَشْيَاءِ تَزُوْلُ وَتَتَغَيَّرُ.

وَالتَّقْوَىٰ أَصْلُ السَّلَامَةِ، حَارِسٌ لَا يَنَامُ، يَأْخُذُ بِاليَدِ عِنْدَ العَثْرَةِ، وَيُوَاقِفُ[١] عَلَىٰ الحُدُودِ.

وَالْمُنْكَرُ مَنْ غَرَّتْهُ لَذَّةٌ حَصَلَتْ مَعَ عَدَمِ التَّقْوَىٰ؛ فَإِنَّهَا سَتَحَوَّلُ، وَتُخَلِّيهِ خَاسِرًا.

وَلازِمِ التَّقْوَىٰ فِي كُلِّ حَالٍ؛ فَإِنَّكَ لَا تَرَىٰ فِي الضِّيْقِ إِلَّا السَّعَةَ، وَفِي الْمَرَضِ إِلَّا العَافِيَةَ؛ هَذَا نَقْدُهَا العَاجِلُ، وَالآجِلُ مَعْلُوْمٌ.

(*) تَنْبِيْه مُهِمّ جِدًّا: الرَّقَم الأَوَّل هُوَ رَقَم التَّرتِيب؛ أَيْ: «التَّرتِيْبُ الزَّاهِرِ لِكِتَابِ صَيْدِ الْخَاطِرِ»، وَالرَّقَم الَّذِي يَلِيْهِ هُوَ رَقَم الخَاطِرَة كَمَا فِي أَصْلِ: «صَيْدِ الْخَاطِرِ» لِلإِمَام اِبْن الجَوْزِيّ. وَالرَّقَم الأَوَّل مُتَّصِلٌ حَتَّىٰ نِهَايَةِ الْكِتَابِ، وَالرَّقَم الآخَر قَدْ يَنْقَطِع تَسَلْسُله حَسب التَّرتِيْب الأَصْلِي لِـ«صَيْدِ الْخَاطِرِ»؛ فَتَنَبَّه.

(*) تَنْبِيْه: اِسْتَبْدَلْتُ كَلِمَة: «فَصْلٌ»؛ كَمَا فِي أَصْل «صَيْدِ الْخَاطِرِ» بِكَلِمَة: «خَاطِرَةٌ»، فَتَنَبَّه.

(١) يُوَاقِفُ: يُوقِفُ.

* [٢ - ٢٦] [خَاطِرَةٌ]:

[﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾]

تَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة: ٥٤]؛ فَإِذَا النَّفْسُ تَأْبَىٰ إِثْبَاتَ مَحَبَّةٍ لِلْخَالِقِ تُوجِبُ قَلَقًا وَشَوقًا، وَقَالَتْ: مَحَبَّتُهُ طَاعَتُهُ، فَتَدَبَّرْتُ ذَلِكَ؛ فَإِذَا بِهَا قَد جَهِلَتْ ذَلِكَ لِغَلَبَةِ الحِسِّ.

وَبَيَانُ هَذَا: أَنَّ مَحَبَّةَ الْحِسِّ لَا تَتَعَدَّىٰ الْصُّوَرَ الذَّاتِيَّةَ، وَمَحَبَّةَ العِلْمِ وَالعَمَلِ تَرَىٰ الصُّوَرَ الْمَعنَوِيَّةَ فَتُحِبُّهَا. فَإِنَّا نَرَىٰ خَلْقًا يُحِبُّونَ أَبَا بَكْرٍ ﵁، وَخَلْقًا يُحِبُّونَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﵁، وَقَوْمًا يَتَعَصَّبُونَ لِأَحمَدَ بْنِ حَنْبَلَ، وَقَوْمًا لِلأَشْعَرِيِّ[1]، فِيَقْتَتِلُونَ، وَيَبْذِلُونَ النُّفُوسَ فِي ذَلِكَ، وَلَيْسُوا مِمَّنْ رَأَىٰ صُوَرَ القَوْمِ، وَلَا صُوَرَ القَوْمِ تُوجِبُ الْمَحَبَّةَ.

وَلَكِنْ لَمَّا تَصَوَّرَتْ لَهُمُ الْمَعَانِي، فَدَلَّتْهُمْ عَلَىٰ كَمَالِ القَوْمِ فِي العُلُومِ؛ وَقَعَ الْحُبُّ لِتِلْكَ الصُّوَرِ، الَّتِي شُوهِدَتْ بِأَعْيُنِ البَصَائِرِ، فَكَيْفَ بِمَنْ صَنَعَ[2] تِلْكَ الْصُّوَرَ الْمَعنَوِيَّةَ وَبَذَلَهَا؟!

وَكَيْفَ لا أُحِبُّ مَنْ وَهَبَ لِي مَلْذُوذَاتِ حِسِّي، وَعَرَّفَنِي مَلْذُوذَاتِ عِلْمِي؟! فَإِنَّ الْتِذَاذِي بِالْعِلْمِ؛ وَإِدْرَاكِ الْعُلُومِ أَوْلَىٰ مِنْ جَمِيعِ اللَّذَّاتِ الحِسِّيَّةِ؛ فَهُوَ الَّذِي عَلَّمَنِي، وَخَلَقَ لِي إِدْرَاكًا، وَهَدَانِي إِلَىٰ مَا أَدْرَكْتُهُ. ثُمَّ إِنَّهُ يَتَجَلَّىٰ لِي فِي كُلِّ لَحْظَةٍ فِي مَخْلُوقٍ جَدِيدٍ، أَرَاهُ فِيهِ بِإِتْقَانِ ذَلِكَ الصُّنْعِ، وَحُسْنِ ذَلِكَ الْمَصْنُوعِ. فَكُلُّ مَحبُوبَاتِي مِنْهُ وَعَنْهُ وَبِهِ، الْحِسِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ، وَتَسْهِيلُ سُبُلِ الإِدرَاكِ بِهِ، وَالْمُدرَكَاتُ مِنْهُ، وَأَلَذُّ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ عِرْفَانِي لَهُ، فَلَوْلَا تَعْلِيمُهُ، مَا عَرَفْتُهُ.

وَكَيْفَ لا أُحِبُّ مَنْ أَنَا بِهِ، وَبَقَائِي مِنْهُ، وَتَدْبِيرِي بِيَدِهِ، وَرُجُوعِي إِلَيْهِ، وَكُلُّ مُسْتَحْسَنٍ مَحْبُوبٍ هُوَ صَنَعَهُ، وَحَسَّنَهُ، وَعطَفَ النُّفُوسَ إِلَيْهِ؟! فَكَذَلِكَ الكَامِلُ القُدْرَةِ أَحْسَنُ مِنَ الْمَقْدُورِ، وَالعَجِيبُ الصَّنْعَةِ أَكْمَلُ مِنَ الْمَصنُوعِ، وَمَعْنَىٰ الإِدرَاكِ أَحْلَىٰ عِرفَانًا مِنَ الْمُدْرَكِ.

---

(١) الأَشْعَرِيّ هُوَ: أَبُو الحَسَنِ عَلِيّ بْنُ إِسْمَاعِيل. مِنَ الأَئِمَّة المُتَكلِّمِين المُجْتَهِدِين، كَان من المعتزلة، ثم فارقهم، ورجع إِلَىٰ ما عليه أهل السنة والجماعة، ولم يقتصر علىٰ ذلك بل خلّف مكتبة كبيرة في الدفاع عن السنة وشرح العقيدة تقدّر بثمانية وستين مؤلفًا توفي ببغداد سنة: ٣٢٤هـ.

(٢) جاء في الأصل: [ضيع] ولعله تصحيف، وما أثبتناه من مخطوط (ي)؛ لتمام المعنىٰ به.

وَلَوْ أَنَّنَا رَأَيْنَا نَقْشًا عَجِيبًا، لِاسْتَغْرَقْنَا تَعْظِيمُ النَّقَّاشِ، وَتَهْوِيلُ شَأْنِهِ، وَظَرِيفُ حِكْمَتِهِ عَنْ حُبِّ الْمَنْقُوشِ، وَهَذَا مِمَّا تَتَرَقَّىٰ إِلَيْهِ الأَفْكَارُ الصَّافِيَةُ، إِذَا خَرَقَ نَظَرُهَا الْحِسِّيَّاتِ، وَنَفَذَ إِلَىٰ مَا وَرَاءَهَا؛ فَحِينَئِذٍ تَقَعُ مَحَبَّةُ الخَالِقِ ضَرُورَةً.

وَعَلَىٰ قَدْرِ رُؤْيَةِ الصَّانِعِ فِي الْمَصْنُوعِ يَقَعُ الحُبُّ لَهُ: فَإِنْ قَوِيَ، أَوْجَبَ قَلَقًا وَشَوْقًا، وَإِنْ مَالَ بِالْعَارِفِ إِلَىٰ مَقَامِ الهَيْبَةِ، أَوْجَبَ خَوْفًا، وَإِنِ انْحَرَفَ بِهِ إِلَىٰ تَلَمُّحِ الْكَرَمِ؛ أَوْجَبَ رَجَاءً قَوِيًّا: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[البقرة: ٦٠].

* [٣ - ٦٢] [خَاطِرَةٌ]:

[﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾]

قَرَأْتُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ﴾[الأنعام: ٤٦]، فَلَاحَتْ لِي مِنْهَا إِشَارَةٌ كِدْتُ أَطِيشُ مِنْهَا.

وَذَلِكَ أَنَّهُ: إِنْ كَانَ عَنَىٰ بِالآيَةِ نَفْسَ السَّمْعِ وَالبَصَرِ، فَإِنَّ السَّمْعَ آلَةٌ لِإِدْرَاكِ الْمَسْمُوعَاتِ، وَالبَصَرَ آلَةٌ لِإِدرَاكِ الْمُبْصَرَاتِ، فَهُمَا يَعْرِضَانِ ذَلِكَ عَلَىٰ القَلْبِ، فَيَتَدَبَّرُ وَيَعْتَبِرُ؛ فَإِذَا عُرِضَتِ الْمَخْلُوقَات عَلَىٰ السَّمْعِ وَالبَصَرِ؛ فَأَوْصَلَا إِلَىٰ القَلْبِ أَخْبَارَهَا، مِنْ أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ الخَالِقِ، وَتَحمِلُ عَلَىٰ طَاعَةِ الصَّانِعِ، وَتُحَذِّرُ مِنْ بَطْشِهِ عِنْدَ مُخَالَفَتِهِ.

وَإِنْ عَنَىٰ مَعْنَىٰ السَّمْعِ وَالبَصرِ؛ فَذَلِكَ يَكُونُ بِذُهُولِهِمَا عَنْ حَقَائِقِ مَا أَدْرَكَا شُغْلًا بِالهَوَىٰ، فَيُعَاقَبُ الإِنْسَانُ بِسَلْبِ مَعَانِي تِلْكَ الآلَاتِ، فَيَرَىٰ؛ وَكَأَنَّهُ مَا رَأَىٰ، وَيَسْمَعُ؛ وَكَأَنَّهُ مَا سَمِعَ، وَالْقَلْبُ ذَاهِلٌ عَمَّا يَتَأَذَّىٰ بِهِ؛ فَيَبْقَىٰ الإِنْسَانُ خَاطِئًا عَلَىٰ نَفْسِهِ، لَا يَدْرِي مَا يُرَادُ بِهِ، لَا يُؤَثِّرُ عِنْدَهُ أَنَّهُ يَبْلَىٰ، وَلَا تَنْفَعُهُ مَوْعِظَةٌ تُجْلَىٰ، وَلَا يَدْرِي أَيْنَ هُوَ، وَلَا مَا الْمُرَادُ مِنْهُ، وَلَا إِلَىٰ أَيْنَ يُحْمَلُ؛ وَإِنَّمَا يُلَاحِظُ بِالطَّبْعِ مَصَالِحَ عَاجِلَتِهِ، وَلَا يَتَفَكَّرُ فِي خُسْرَانِ آجِلَتِهِ، لَا يَعْتَبِرُ بِرَفِيقِهِ، وَلَا يَتَّعِظُ بِصَدِيقِهِ، وَلَا يَتَزَوَّدُ لِطَرِيقِهِ. كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ[1]:

النَّاسُ فِي غَفْلَةٍ وَالْمَوْتُ يُوقِظُهُمْ ... وَمَا يُفِيقُونَ حَتَّىٰ يَنْفَدَ العُمُرُ

---

(١) الأبيات من البحر: [البسيط].

يُشَـــيِّعُوْنَ أَهَــــالِيهِمْ بِجَمْعِهِـــمُ وَيَنْظُـرُوْنَ إِلَـىٰ مَـا فِيـهِ قَـد قُبِـرُوْا
وَيَرجِعُـــونَ إِلَـــىٰ أَحـــلَامِ غَفْلَـتِهِمْ كَــأَنَّهُمْ مَـــا رَأَوْا شَـــيْئًا وَلا نَظَـرُوْا

وَهَذِهِ حَالَةُ أَكْثَرِ النَّاسِ؛ فَنَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ سَلْبِ فَوَائِدِ الآلَاتِ؛ فَإِنَّهَا أَقْبَحُ الحَالَاتِ.

* [٤-٦٥] [خَاطِرَةٌ]:

[﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾]

قَرَأْتُ مِنْ غَرَائِبِ العِلْمِ وَعَجَائِبِ الحِكَمِ، عَلَىٰ بَعْضِ مَنْ يَدَّعِي العِلْمَ؛ فَرَأَيْتُهُ يَتَلَوَّىٰ مِنْ سَمَاعِ ذَلِكَ، وَلَا يَطَّلِعُ عَلَىٰ غَوْرِهِ، وَلَا يَشْرَئِبُّ[1] إِلَىٰ مَا يَأْتِي، فَصَرَفْتُ عَنْ إِسْمَاعِهِ شَيْئًا آخَرَ. وَقُلْتُ: إِنَّمَا يَصْلُحُ مِثْلُ هَذَا لِذِي لُبٍّ يَتَلَقَّاهُ تَلَقِّيَ العَطْشَانِ المَاءَ.

ثُمَّ أَخَذْتُ مِنْ هَذِهِ إِشَارَةً؛ فَقُلْتُ[2]: لَوْ كَانَ هَذَا يَفْهَمُ مَا جَرَىٰ، وَمَدَحَنِي لِحُسْنِ مَا صَنَعْتُ، لَعَظُمَ قَدْرُهُ عِنْدِي، وَلَأَرَيْتُهُ مَحَاسِنَ مَجْمُوْعَاتِي وَكَلَامِي، وَلَكِنَّهُ لَمَّا لَمْ أَرَهُ لَهَا أَهْلًا، صَرَفْتُهَا عَنْهُ، وَصَدَفْتُ بِنَظَرِي عَنْهُ[3].

وَكَانَتِ الإِشَارَةُ: أَنَّ اللهَ ﷻ قَدْ صَنَّفَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَأَحْسَنَ التَّرْكِيْبَ، وَأَحْكَمَ التَّرْتِيْبَ، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَىٰ الأَلْبَابِ؛ فَأَيُّ لُبٍّ أَوْغَلَ فِي النَّظَرِ؛ مُدِحَ عَلَىٰ قَدرِ فَهْمِهِ، فَأَحَبَّهُ الْمُصَنِّفُ.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلَ القُرآنَ يَحتَوِي عَلَىٰ عَجَائِبِ الحِكَمِ؛ فَمَنْ فَتَّشَهُ بِيَدِ الفَهْمِ، وَحَادَثَهُ فِي خَلْوَةِ الفِكْرِ؛ اِسْتَجْلَبَ رِضَا الْمُتَكَلِّمِ بِهِ، وَحَظِيَ بِالزُّلْفَىٰ[4] لَدَيْهِ، وَمَنْ كَانَ ذِهْنُهُ[5] مُسْتَغْرِقَ الْفَهْمِ بِالحِسِّيَّاتِ؛ صُرِفَ عَنْ ذَلِكَ الْمَقَامِ. قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

---

(١) يَشْرَئِبُّ: يتطاول ويتطلع.

(٢) جاء في الأصل: [جَعَلْتُ]. وما أثبتناه من مخطوط (ي)؛ لتمام المعنىٰ به.

(٣) جاء في الأصل ومخطوط (ي): [إليه]. والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به. تَقُوْلُ: صَدَفَ عنه عَدَلَ وَأَعْرَضَ.

(٤) الزُّلْفَىٰ: القُرب والمكانة.

(٥) جاء في الأصل، وفي مخطوط (ي): [للذهن]. وما أثبتناه هُوَ الصواب؛ لتمام المعنىٰ به.

* [٥-١٥٩] [خَاطِرَةٌ]:

[﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾]

وَقَعَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَرْبَابِ الوِلَايَاتِ نَوْعُ مُعَادَاةٍ لِأَجْلِ الْمَذْهَبِ، فَإِنِّي كُنْتُ فِي مَجْلِسِ التَّذْكِيرِ أَنْظُرُ[١]: أَنَّ القُرآنَ كَلَامُ اللهِ، وَأَنَّهُ قَدِيمٌ، وَأُقَدِّمُ أَبَا بَكْرٍ.

وَاتَّفَقَ فِي أَربَابِ الوِلَايَاتِ مَنْ يَمِيْلُ إِلَىٰ مَذْهَبِ الأَشْعَرِيِّ[٢]، وَفِيهِم مَنْ يَمِيْلُ إِلَىٰ مَذْهَبِ الرَّوَافِضِ[٣]، وَتَمَالَؤُوا عَلَيَّ فِي البَاطِنِ.

فَقُلْتُ يَوْمًا فِي مُنَاجَاتِي لِلْحَقِّ تَعَالَىٰ: سَيِّدِي! نَوَاصِي الْكُلِّ بِيَدِكَ، وَمَا فِيهِم مَنْ يَقْدِرُ لِي عَلَىٰ ضُرٍّ؛ إِلَّا أَنْ تُجْرِيَهُ عَلَىٰ يَدِهِ. وَأَنْتَ قُلْتَ سُبْحَانَكَ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:١٠٢]. وَطَيَّبْتَ قَلْبَ الْمُبْتَلَىٰ بِقَوْلِكَ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[التوبة:٥١]. فَإِنْ أَجْرَيْتَ عَلَىٰ أَيْدِي بَعْضِهِم مَا يُوْجِبُ خِذْلَانِي؛ كَانَ خَوْفِي عَلَىٰ مَا نَصَرْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِي عَلَىٰ نَفْسِي؛ لِئَلَّا يُقَالَ: لَوْ كَانَ عَلَىٰ حَقٍّ مَا خُذِلَ. وَإِنْ نَظَرْتُ إِلَىٰ تَقْصِيْرِي وَذُنُوبِي؛ فَإِنِّي مُسْتَحِقٌّ لِلخِذْلَانِ؛ غَيْرَ أَنِّي أَعِيْشُ بِمَا نَصَرْتُهُ مِنَ السُّنَّةِ، فَأَدْخِلْنِي فِي خِفَارَتِهِ[٤]. وَقَدِ اسْتَوْدَعَنِي إِيَّاكَ خَلْقٌ مِنْ صَالِحِي عِبَادِكَ؛ فَإِنَّ لَمْ تَحْفَظْنِي بِي؛ فَاحْفَظْنِي بِهِم.

سَيِّدِي! انْصُرنِي عَلَىٰ مَنْ عَادَانِي؛ فَإِنَّهُم لَا يَعْرِفُوْنَكَ كَمَا يَنْبَغِي، وَهُمْ مُعْرِضُوْنَ عَنْكَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ. وَأَنَا عَلَىٰ تَقْصِيْرِي إِلَيْكَ أَنْسَبُ.

---

(١) النَّظَرُ: الفِكْرُ فِي الشَّيءِ تُقَدِّرُهُ وَتَقِيسُهُ مِنْكَ. وفي طبعة دار القلم (أَنْصُرُ)

(٢) مَذْهَبِ الأَشْعَرِيِّ: نسبةً لأبي الحسن الأشعري. وقد اتخذت الأشاعرة البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة في محاججة خصومها من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم، لإثبات حقائق الدين والعقيدة الإسلامية.

(٣) الروافض: أول مَن سَمَّاهُم بهذا هُوَ زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنه الذي خرج في أواخر دولة بني أُمية، وبايعه كثير من الشيعة، ولمَّا ناظروه في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وطلبوا منه أن يتبرأ منهما فأبىٰ رحمه الله تفرقوا عنه، فقال: (رفضتموني) فمن يومئذ قيل لهم: الرافضة، وكانوا فرقًا كثيرة؛ منهم الغالية، ومنهم من هم دون ذلك.

(٤) الخفارَةُ: بالضم وبالكسر، هِيَ الذِّمَّة والعَهد وَالأَمَان.

* [٦ - ١٤٢] [خَاطِرَةٌ]:

[﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾]

نَازَعَتْنِي نَفْسِي إِلَىٰ أَمْرٍ مَكْرُوهٍ فِي الشَّرْعِ، وَجَعَلَتْ تَنْصِبُ لِي التَّأْوِيلَاتِ، وَتَدْفَعُ الكَرَاهَةَ، وَكَانَتْ تَأْوِيلَاتُهَا فَاسِدَةً، وَالحُجَّةُ ظَاهِرَةً عَلَىٰ الكَرَاهَةِ.

فَلَجَأْتُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فِي دَفْعِ ذَلِكَ عَنْ قَلْبِي، وَأَقْبَلْتُ عَلَىٰ القِرَاءَةِ(١)، وَكَانَ دَرْسِي قَدْ بَلَغَ سُورَةَ يُوسُفَ؛ فَافْتَتَحْتُهَا، وَذَلِكَ الخَاطِرُ قَدْ شَغَلَ قَلْبِي، حَتَّىٰ لَا أَدْرِي مَا أَقْرَأُ. فَلَمَّا بَلَغْتُ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾[يوسف:٢٣]، اِنْتَبَهْتُ لَهَا، وَكَأَنِّي خُوطِبْتُ بِهَا، فَأَفَقْتُ مِنْ تِلْكَ السَّكْرَةِ.

فَقُلْتُ: يَا نَفْسُ! أَفَهِمْتِ؟ هَذَا حُرٌّ بِيعَ ظُلْمًا، فَرَاعَىٰ حَقَّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، وَسَمَّاهُ مَالِكًا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ مِلْكٌ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾. ثُمَّ زَادَ فِي بَيَانِ مُوجِبِ كَفِّ كَفِّهِ عَمَّا يُؤْذِيهِ، فَقَالَ: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾. فَكَيْفَ بِكِ، وَأَنْتِ عَبْدٌ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ لِمَوْلَىٰ مَا زَالَ يُحْسِنُ إِلَيْكِ مِنْ سَاعَةِ وُجُودِكِ، وَإِنَّ سَتْرَهُ عَلَيْكِ الزَّلَلَ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ الحَصَىٰ؟!

أَفَمَا تَذْكُرِينَ كَيْفَ رَبَّاكِ، وَعَلَّمَكِ، وَرَزَقَكِ، وَدَافَعَ عَنْكِ، وَسَاقَ الخَيْرَ إِلَيْكِ، وَهَدَاكِ أَقْوَمَ طَرِيقٍ، وَنَجَّاكِ مِنْ كُلِّ كَيْدٍ، وَضَمَّ إِلَىٰ حُسْنِ الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ جُودَةَ الذِّهْنِ البَاطِنِ، وَسَهَّلَ لَكِ مَدَارِكَ العُلُومِ، حَتَّىٰ نِلْتِ فِي قَصِيرِ الزَّمَانِ مَا لَمْ يَنَلْهُ غَيْرُكِ فِي طَوِيلِهِ. وَجَلَّىٰ فِي عَرْصَةِ(٢) لِسَانِكِ عَرَائِسَ العُلُومِ فِي حُلَلِ الفَصَاحَةِ، بَعْدَ أَنْ سَتَرَ عَنِ الخَلْقِ مَقَابِحَكِ، فَتَلَقَّوْهَا مِنْكِ بِحُسْنِ الظَّنِّ، وَسَاقَ رِزْقَكِ بِلَا كُلْفَةِ تَكَلُّفٍ، وَلَا كَدَرِ مَنٍّ، رَغَدًا غَيْرَ نَزْرٍ(٣)؟!

فَوَاللهِ؛ مَا أَدْرِي أَيَّ نِعْمَةٍ عَلَيْكِ أَشْرَحُ لَكِ: حُسْنَ الصُّورَةِ، وَصِحَّةَ الآلَاتِ؟ أَمْ سَلَامَةَ

---

(١) أي: قراءة القرآن.

(٢) عَرْصَة: جَمْعُ عَرَصَات، وَهِيَ كلُّ موضِعٍ وَاسِعٍ لَا بناء فيه.

(٣) النَّزْرُ: القَلِيلُ. أيْ لَيسَ بقليل.

المِزَاجِ، وَاعْتِدَالَ التَّرْكِيْبِ؟ أَمْ لُطفَ الطَّبْعِ الخَالِي عَنْ خَسَاسَةٍ؟ أَمْ إِلْهَامَ الرَّشَادِ مُنْذُ الصِّغَرِ؟ أَمْ الحِفْظَ بِحُسْنِ الوِقَايَةِ عَنِ الفَوَاحِشِ وَالزَّلَلِ؟ أَمْ تَحْبِيْبَ طَرِيْقِ النَّقْلِ، وَاتِّبَاعِ الأَثَرِ، مِنْ غَيْرِ جُمُوْدٍ عَلَىٰ تَقْلِيْدٍ لِمُعَظَّمٍ، وَلَا انْخِرَاطٍ فِي سِلْكِ مُبْتَدِعٍ؟ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[ابراهيم:٣٤].

كَمْ كَايِدٍ نَصَبَ لَكِ الْمَكَايِدَ فَوَقَاكِ؟ كَمْ عَدُوٌّ حَطَّ مِنْكِ بِالذَّمِّ فَرَقَّاكِ؟ كَمْ أَعْطَشَ مِنْ شَرَابِ الأَمَانِي خَلْقًا وَسَقَاكِ؟ كَمْ أَمَاتَ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ بَعْضَ مُرَادِكِ وَأَبْقَاكِ؟ فَأَنْتِ تُصْبِحِيْنَ وَتُمْسِيْنَ سَلِيْمَةَ البَدَنِ، مَحْرُوْسَةَ الدِّينِ، فِي تَزَيُّدٍ مِنَ العِلْمِ، وَبُلُوْغِ الأَمَلِ. فَإِنْ مُنِعْتِ مُرَادًا، فَرُزِقْتِ الصَّبْرَ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ لَكِ وَجْهُ الحِكْمَةِ فِي الْمَنْعِ؛ [فَسَلِّمِي[١]] حَتَّىٰ يَقَعَ اليَقِيْنُ بِأَنَّ الْمَنْعَ أَصْلَحُ.

وَلَوْ ذَهَبْتُ أَعُدُّ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ مَا سَنَحَ ذِكْرُهُ[٢]، اِمْتَلَأَتِ الطُّرُوْسُ[٣] وَلَمْ تَنْقَطِعِ الكِتَابَةُ، وَأَنْتِ تَعْلَمِيْنَ أَنَّ مَا لَمْ أَذْكُرْهُ أَكْثَرُ، وَأَنَّ مَا أَوْمَأْتُ إِلَىٰ ذِكْرِهِ لَمْ يُشْرَحْ؛ فَكَيْفَ يَحْسُنُ بِكِ التَّعَرُّضُ لِمَا يَكْرَهُهُ؟! ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[يوسف:٢٣].

* [٧ - ٨٠] [خَاطِرَةٌ]:

[﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾]

تَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[طه:١٢٣]: قَالَ الْمُفَسِّرُوْنَ: ﴿هُدَايَ﴾: رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وَكِتَابِي.

فَوَجَدْتُهُ عَلَىٰ الحَقِيْقَةِ: أَنَّ كُلَّ مَنِ اتَّبَعَ القُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، وَعَمِلَ بِمَا فِيهِمَا؛ فَقَد سَلِمَ مِنَ الْضَّلَالِ بِلَا شَكٍّ، وَارتَفَعَ فِي حَقِّهِ شَقَاءُ الآخِرَةِ بِلَا شَكٍّ، إِذَا مَاتَ عَلَىٰ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ شَقَاءُ الدُّنْيَا؛ فَلَا يَشْقَىٰ أَصْلًا.

---

(١) ليست في الأصل، ولا في مخطوط (ي)، وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

(٢) تقول: سَنَحَ لِيَ الشَّيْءُ إِذَا عَرَض أَوْ خَطَرَ.

(٣) الطِّرْسُ: الصحيفة، ويقال: هي التي مُحِيت ثم كتبت. والجمع: أطراس وطُروس.

وَيُبَيِّنُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[الطلاق:٢]. فَإِنْ رَأَيْتَهُ فِي شِدَّةٍ؛ فَلَهُ مِنَ الْيَقِينِ بِالْجَزَاءِ مَا يُصَيِّرُ الصَّابَ عِنْدَهُ عَسَلًا[١]، وَإِلَّا؛ غَلَبَ طِيبُ الْعَيْشِ فِي كُلِّ حَالٍ.

وَالغَالِبُ أَنَّهُ لا تَنْزِلُ بِهِ شِدَّةٌ إِلَّا إِذَا انْحَرَفَ عَنْ جَادَّةِ التَّقْوَىٰ، فَأَمَّا الْمُلَازِمُ لِطَرِيْقِ التَّقْوَىٰ؛ فَلَا آفَةَ تَطْرُقُهُ، وَلَا بَلِيَّةَ تَنْزِلُ بِهِ، هَذَا هُوَ الأَغْلَبُ.

فَإِنْ نَدَرَ مَنْ تَطْرُقُهُ البَلَايَا مَعَ التَّقْوَىٰ، فَذَاكَ فِي الأَغْلَبِ لِتَقَدُّمِ ذَنْبٍ يُجَازَىٰ عَلَيْهِ، فَإِنْ قَدَّرْنَا عَدَمَ الذَّنْبِ؛ فَذَاكَ لإِدْخَالِ ذَهَبِ صَبْرِهِ كِيرَ البَلَاءِ[٢]، حَتَّىٰ يَخْرُجَ تِبْرًا أَحْمَرَ[٣]، فَهُوَ يَرَىٰ عُذُوْبَةَ العَذَابِ؛ لأَنَّهُ يُشَاهِدُ الْمُبْتَلِي فِي البَلَاءِ [لا[٤]] الأَلَم.

قَالَ الشِّبْلِيُّ[٥]: أَحَبَّكَ النَّاسُ لِنَعْمَائِكَ، وَأَنَا أُحِبُّكَ لِبَلَائِكَ.

* [٨ - ٣١٣] [خَاطِرَةٌ]:

[﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾]

نَظَرْتُ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[الحج:١٨]... فَرَأَيْتُ الجَمَادَاتِ كُلَّهَا قَد وُصِفَتْ بِالسُّجُودِ، وَاسْتُثْنِيَ مِنَ الْعُقَلَاءِ!

(١) الصَّابُ: عُصارة شجر مُرٍّ. وقيل: هُوَ شجر إذا اعْتُصِرَ خَرَج منه كهيئة اللَّبَن.

(٢) الكِيرُ: كِيرُ الحدّاد وَهُوَ زِقٌ أو جلد غليظ ذو حافاتٍ وأَمَّا المبني من الطِّين فهو الكُورُ.

(٣) التِّبْر: هُوَ الذَّهَبُ والفِضَّة قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَا دَنَانِيرَ وَدَرَاهِمَ، فَإِذَا ضُرِبَا كَانَا عَيْنًا، وَقَدْ يُطلق التِّبْر عَلَىٰ غَيْرِهِمَا مِنَ المعْدِنِيَّات كَالنُّحَاسِ والحَدِيد والرَّصَاص، وَأَكْثَرُ اخْتِصاصه بِالذَّهَب.

(٤) ليست في الأصل، وفي مخطوط (ي) [ولا ألم] وما أثبتناه هو الصواب لتمام المعنىٰ به.

(٥) الشِّبْلِيُّ: أَبُو بَكْرٍ البَغْدَادِيُّ قِيْلَ: اسْمه دُلَف بنُ جَحْدَر. وَقِيْلَ: جَعْفَر بن يُونُس. صَحِبَ الجُنَيْدَ وَغَيْرَهُ، وَصَارَ مِنْ شَأْنه مَا صَارَ. وَكَانَ فَقِيْهًا عَلَىٰ مَذْهَب مَالِك. وَلَهُ أَلْفَاظٌ وَحِكَم. تُوُفِّيَ بِبَغْدَادَ سَنَةَ: ٣٣٤هـ.

فَذَكَرْتُ قَوْلَ بَعْضِهِم: [(١)]

مَـا جَحَـدَ الصَّـامِتُ مَـنْ أَنْشَـأَهُ وَمِـنْ ذَوِي النُّطْـقِ أَتَـىٰ الجُحُـودُ

فَقُلْتُ: إِنَّ هَذِهِ لَقُدْرَةٌ عَظِيمَةٌ، يُوهِبُ عَقْلٌ لِلشَّخْصِ، ثُمَّ تُسْلَبُ فَائِدَتُهُ!

وَإِنَّ هَذَا لأَقْوَىٰ دَلِيلٍ عَلَىٰ قَادِرٍ قَاهِرٍ؛ وَإِلَّا فَكَيْفَ يَحْسُنُ مِنْ عَاقِلٍ إِلَّا يَعْرِفَ بِوُجُودِهِ وَجُودَ مَنْ أَوْجَدَهُ؟! وَكَيْفَ يَنْحِتُ صَنَمًا بِيَدِهِ ثُمَّ يَعْبُدُهُ؟!

غَيْرَ أَنَّ الْحَقَّ تَعَالَىٰ وَهَبَ لِأَقْوَامٍ مِنَ الْعَقْلِ مَا يُثْبِتُ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ، وَأَعْمَىٰ قُلُوبَهُمْ كَمَا شَاءَ عَنِ الْمَحَجَّةِ[(٢)].

* [٩ - ٥٠] [خَاطِرَةٌ]:

[السِّرُّ الَّذِي أَوْجَبَ حَذْفَ آيَةِ الرَّجْمِ]

تَفَكَّرْتُ فِي السِّرِّ الَّذِي أَوْجَبَ حَذْفَ آيَةِ الرَّجْمِ مِنَ الْقُرْآنِ لَفْظًا مَعَ ثُبُوتِ حُكْمِهَا إِجْمَاعًا[(٣)]؟! فَوَجَدْتُ لِذَلِكَ مَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا: لُطْفُ اللهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ فِي أَنَّهُ لَا يُوَاجِهُهُمْ

---

(١) البيت من البحر:[الرجز].

(٢) الْمَحَجَّة: هِيَ جَادَّةُ الطَّرِيقِ الْبَيِّنِ الوَاضِح.

(٣) قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله في «كشف المشكل» (ج٤/ ص٤١٣، ٤١٤):«المنسوخ من القرآن علىٰ ثلاثة أضرب. أحدها: ما نُسِخَ لفظه وحكمه. الثاني: ما نُسِخَ حكمه وبقىٰ لفظهُ، وَهُوَ كثير؛ لأجله وضعت كتب الناسخ والمنسوخ. والثالث: ما نُسِخَ لفظه وبقي حكمه، كآية الرجم. والإجماع انعقد علىٰ بقاء حكم ذَلِكَ اللفظ المرفوع من آية الرجم، وترك الإجماع ضلال. فَإِنَّ قيل: فما فائدة نسخ رسم آية الرجم من المصحف مع كون حكمها باقيًا؟ فقد أجاب عنه ابن عقيل فقال: «إنما كان ذَلِكَ ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إِلَىٰ بذل النفوس بطريق الظن من غير استقصاء لطلب طريقٍ مقطوع به فيسرعون قنوعًا بأسرع شيء»، كما سارع الخليل إِلَىٰ ذبح ولده بمنام، والمنام أدنىٰ طرق الوحي وأقلها»اهـ

* وقد روىٰ الشيخان عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: جَلَسَ عُمَرُ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ فَقَالَ:«إِنَّ الله بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ؛ فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ الله آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، رَجَمَ رَسُولُ الله ﷺ، وَرَجَمْنَا =

بِأَعْظَمِ الْمَشَاقِّ، بَلْ ذَكَرَ الجَلْدَ، وَسَتَرَ الرَّجْمَ. وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَىٰ قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ فِي الْمَكْرُوهَاتِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[البقرة:١٨٣]، عَلَىٰ لَفْظٍ لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَإِنْ كَانَ قَد عَلِمَ أَنَّهُ هُوَ الكَاتِبُ. فَلَمَّا جَاءَ إِلَىٰ مَا يُوجِبُ الرَّاحَةَ؛ قَالَ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[الأنعام:٥٤].

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ يُبَيِّنُ بِذَلِكَ فَضْلَ الأُمَّةِ فِي بَذْلِهَا النُّفُوسَ تَنَوُّعًا بِبَعْضِ الأَدِلَّةِ؛ فَإِنَّ الاتِّفَاقَ لَمَّا وَقَعَ عَلَىٰ ذَلِكَ الحُكْمِ؛ كَانَ دَلِيلًا؛ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ كَالدَّلِيلِ الْمَقْطُوعِ بِنَصِّهِ. وَمِنْ هَذَا الجِنْسِ شُرُوعُ الخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي ذَبْحِ وَلَدِهِ بِمَنَامٍ، وَإِنْ كَانَ الوَحْيُ فِي اليَقْظَةِ آكَدَ.

* [١٠ - ٧٠] [خَاطِرَةٌ]:

[﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾]

تَأَمَّلْتُ قَوْلَهُ ﷻ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾[الحجرات:١٧]، فَرَأَيْتُ فِيهِ مَعْنَىٰ عَجِيبًا: وَهُوَ أَنَّهُمْ لَمَّا وُهِبَتْ لَهُمُ الْعُقُولُ، فَتَدَبَّرُوا بِهَا عَيْبَ الأَصْنَامِ، وَعَلِمُوا أَنَّهَا لا تَصْلُحُ لِلْعِبَادَةِ، فَوَجَّهُوا العِبَادَةَ إِلَىٰ مَنْ فَطَرَ الأَشْيَاءَ: كَانَتْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ ثَمَرَةَ العَقْلِ الْمَوهُوبِ لَهُم، الَّذِي بِهِ بَايَنُوا البَهَائِمَ؛ فَإِذَا أَمَنُّوا بِفِعْلِهِمُ الَّذِي نَدَبَ إِلَيْهِ العَقْلُ الْمَوْهُوبُ؛ فَقَد جَهِلُوا قَدرَ الْمَوْهُوبِ، وَغَفَلُوا عَمَّنْ وَهَبَ.

وَأَيُّ شَيءٍ لَهُمْ فِي الثَّمَرَةِ وَالشَّجَرَةُ لَيْسَتْ مُلْكًا لَهُمْ؟! فَعَلَىٰ هَذَا، كُلُّ مُتَعَبِّدٍ وَمُجْتَهِدٍ فِي عِلْمٍ وَعَمَلٍ إِنَّمَا رَأَىٰ بِنُورِ اليَقْظَةِ وَقُوَّةِ الفَهْمِ وَالعَقْلِ صَوَابًا، فَوَقَعَ عَلَىٰ الْمَطْلُوبِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُوَجِّهَ الشُّكْرَ إِلَىٰ مَنْ بَعَثَ لَهُ فِي ظَلَامِ الطَّبْعِ القَبَسَ.

= بَعْدَهُ، فَأَخْشَىٰ إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: وَاللهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللهِ؛ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ، وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللهِ حَقٌّ عَلَىٰ مَنْ زَنَىٰ إِذَا أُحْصِنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبَلُ، أَوْ الاعْتِرَافُ، وَايْمُ اللهِ! لَوْلا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: زَادَ عُمَرُ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ لَكَتَبْتُهَا». رواه البخاري، ك: «الحدود» ب: «رَجْمِ الْحُبْلَىٰ مِنَ الزِّنَا» (٦٨٣٠). ومسلم، ك: «الحدود» ب: «رجم الثيب في الزنى» (١٦٩١).

وَمِنْ هَذَا الفَنِّ حَدِيثُ الثَّلَاثَةِ الَّذِيْنَ دَخَلُوْا الغَارَ، فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ؛ فَسَدَّتْ بَابَ الغَارِ، فَقَالُوْا: تَعَالَوْا نَتَوَسَّلْ بِصَالِحِ أعمالِنَا! فَقَالَ كُلٌّ مِنْهُم فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا[١]. وَهَؤُلاء: إِنْ كَانُوْا لَاحَظُوْا نِعْمَةَ الوَاهِبِ لِلْعِصْمَةِ عَنِ الْخَطَأ، فَتَوَسَّلُوْا بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْجَبَ تَخْصِيصَهُمْ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ عَنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ؛ فَبِهِ تَوَسَّلُوْا إِلَيْهِ[٢]. وَإِنْ كَانُوْا لاحَظُوْا أَفْعَالَهُمْ، فَلَمَحُوْا جَزَاءَهَا، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِيْنَ فَعَلُوْا، فَهُمْ أَهْلُ غَيْبَةٍ لَا حُضُوْرٍ، وَيَكُوْنُ جَوَابُ مَسْأَلَتِهِم لِقَطْعِ مِنَنِهِمْ الدَّائِمَةِ. وَمِثْلُ هَذِهِ رُؤْيَةُ الْمُتَّقِي تَقْوَاهُ، حَتَّىٰ إِنَّهُ يَرَىٰ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ كَثِيْرٍ مِنَ الْخَلْقِ، وَرُبَّمَا احْتَقَرَ أَهْلَ الْمَعَاصِي، وَشَمَخَ عَلَيْهِمْ! وَهَذِهِ غَفْلَةٌ عَنْ طَرِيْقِ السُّلُوْكِ، وَرُبَّمَا أَخْرَجَتْ.

وَلا أَقُوْلُ لَكَ: خَالِطِ الفُسَّاقَ احتِقَارًا لِنَفْسِكَ! بَلِ اغْضَبْ عَلَيْهِمْ فِي البَاطِنِ، وَأَعْرِضْ عَنْهُم فِي الظَّاهِرِ، ثُمَّ تَلَمَّحْ جَرَيَانَ الأَقْدَارِ عَلَيْهِمْ! فَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْرِفُ مَنْ عَصَىٰ! وَجُمْهُوْرُهُمْ لَا يَقْصِدُ العِصْيَانَ، بَلْ يُرِيْدُ مُوَافَقَةَ هَوَاهُ، وَعَزِيْزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَعْصِيَ! وَفِيهِمْ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ تَلَمُّحُ العَفْوِ وَالحِلْمِ، فَاحْتَقَرَ مَا يَأْتِي؛ لِقُوَّةِ يَقِيْنِهِ بِالعَفْوِ! وَهَذِهِ كُلُّها لَيْسَتْ بِاعْتِذَارٍ لَهُمْ، وَلَكِنْ؛ تَلَمَّحْهُ أَنْتَ يَا صَاحِبَ التَّقْوَىٰ!

وَاعْلَمْ أَنَّ الحُجَّةَ عَلَيْكَ أَوْفَىٰ مِنَ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّكَ تَعْرِفُ مَنْ تَعْصِي، وَتَعْلَمُ مَا تَأْتِي، بَلِ انْظُرْ إِلَىٰ تَقْلِيْبِ القُلُوْبِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ، فَرُبَّمَا دَارَتِ الدَّائِرَةُ، فَصِرْتَ الْمُنْقَطِعَ، وَوُصِلَ الْمَقْطُوْعُ[٣]. فَالعَجَبُ مِمَّنْ يَدِلُّ بِخَيْرِ عَمِلَهُ[١]، وَيَنْسَىٰ مَنْ أَنْعَمَ وَوَفَّقَ.

---

(١) حَدِيثُ أَصْحَابِ الغَارِ رواه البخاري، كِ:«الإِجَارَةِ» بَ:«مَنِ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَتَرَكَ الأَجِيرُ أَجْرَهُ»(٢٢٧٢) ومسلم، كِ:«الرِّقَاقِ» بَ:«قِصَّةِ أَصْحَابِ الْغَارِ»(٢٧٤٣). عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه. تُراجَع الخاطرة رقم:[٢٣٦-٢٩٠].

(٢) جاء في الأصل، وفي مخطوط (ي): [فتوسلوا]. وما أثبتناه هُوَ الصواب؛ لتمام المعنىٰ به.

(٣) وكأنه رحمه الله يُشير إِلَىٰ ما رواه مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بن عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» كتاب «الْقَدَرِ» بَابُ «تَصْرِيفِ اللهِ تَعَالَىٰ الْقُلُوبَ كَيْفَ شَاءَ»(٢٦٥٤) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ

* [١١ - ١٣٠] [خَاطِرَةٌ]:

[﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾]

ضَاقَ بِي أَمْرٌ أَوْجَبَ غَمًّا لازِمًا دَائِمًا، وَأَخَذْتُ أُبَالِغُ فِي الفِكْرِ فِي الخَلَاصِ مِنْ هَذِهِ الهُمُوْمِ بِكُلِّ حِيْلَةٍ وَبِكُلِّ وَجْهٍ؛ فَمَا رَأَيْتُ طَرِيقًا لِلْخَلَاصِ.

فَعَرَضَتْ لِي هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[الطلاق: ٢]، فَعَلِمْتُ أَنَّ التَّقْوَىٰ سَبَبٌ لِلْمَخْرَجِ مِنْ كُلِّ غَمٍّ، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ هَمَمْتُ بِتَحقِيْقِ التَّقْوَىٰ، فَوَجَدتُ الْمَخْرَجَ.

فَلَا يَنْبَغِي لِمَخْلُوْقٍ أَنْ يَتَوَكَّلَ أَوْ يَتَسَبَّبَ أَوْ يَتَفَكَّرَ إِلَّا فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبٌ لِفَتْحِ كُلِّ مُرتَجٍ[٢].

ثُمَّ أَعجَبُهُ أَنْ يَكُوْنَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يُقَدِّرْهُ الْمُتَفَكِّرُ الْمُحتَالُ الْمُدَبِّرُ؛ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق: ٣].

ثُمَّ يَنْبَغِي لِلْمُتَّقِي أَنْ يَعلَمَ أَنَّ اللهَ ﷻ كَافِيهِ؛ فَلَا يُعَلِّقَ قَلْبَهُ بِالأَسبَابِ؛ فَقَد قَالَ ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق: ٣].

= اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» كِتَابُ «الإِيمَانِ» بَابُ «الْحَثُّ عَلَىٰ الْمُبَادَرَةِ بِالأَعْمَالِ قَبْلَ تَظَاهُرِ الْفِتَنِ» (١١٨).

(١) دَلَّ يَدِلُّ: إِذا مَنَّ بِعَطَائِهِ وَالأَدَلُّ: الْمَنَّانُ بِعَمَلِهِ.

(٢) مُرتَجٍ: أي: مغلق. وَالرِّتَجُ والرِّتاجُ هُوَ البَابُ الْمُغْلَقُ، وقد أَرْتَجَ البابَ إِذا أَغلَقه إِغلاقًا وَثِيقًا.

(٢)

[إشَارَات وَبِشَارَات مِنْ أَقْوَالِ الرَّسُول ﷺ وَالسَّلَف الصَّالِح]

* [١٢-٢٦١] [خَاطِرَةٌ]:

[قَوْلُهُ ﷺ: «هَذَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّتِهِ»]

نَظَرتُ فِي قَوْلِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ لَمَّا لَبِسَ الخَاتَمَ، ثُمَّ رَمَىٰ بِهِ، وقَالَ: «شَغَلَنِي وَنَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ وَنَظْرَةٌ إِلَيْهِ»[١]، وقوله: «هَذَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّتِهِ، مُرَجِّلًا جُمَّتَهُ، خُسِفَ بِهِ الأَرضُ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ»[٢].

فَرَأَيْتُ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَلْبِسَ ثَوْبًا مُعْجِبًا، وَلَا شَيْئًا مِنْ زِينَةٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُوْجِبُ النَّظَرَ إِلَىٰ النَّفْسِ بِعَيْنِ الإعجَابِ، وَالنَّفْسُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُوْنَ ذَلِيْلَةً لِلْخَالِقِ.

وَقَد كَانَ قُدَمَاءُ الأَخْبَارِ فِي بَنِي إِسْرَائِيْلَ يَمْشُونَ عَلَىٰ العِصِيِّ؛ لِئَلَّا يَقَعَ مِنْهُمْ بَطَرٌ فِي الْمَشْيِ.

وَلَبِسَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةُ رضي الله عنها دِرعًا لَهَا، فَأُعْجِبَتْ بِهِ، فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه[٣]: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَيْكِ فِي حَالَتِكِ هَذِهِ»[٤]. وَلَمَّا لَبِسَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ خَمِيْصَةً لَهَا أَعلَامٌ؛ قَالَ: «أَلْهَتْنِي

---

(١) رواه النسائي، كِتَابُ «الزِّينَةِ» باب «طَرْحُ الْخَاتَمِ وَتَرْكُ لُبْسِهِ» حديث (٥٢٨٩) ولفظه: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ ﷺ اتَّخَذَ خَاتَمًا فَلَبِسَهُ قَالَ: «شَغَلَنِي هَذَا عَنْكُمْ مُنْذُ الْيَوْمَ، إِلَيْهِ نَظْرَةٌ، وَإِلَيْكُمْ نَظْرَةٌ ثُمَّ أَلْقَاهُ».

(٢) رواه مسلم، ك: «اللِّبَاسِ وَالزِّينَةِ» ب: «تَحْرِيمِ التَّبَخْتُرِ فِي الْمَشْيِ» (٢٠٨٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ، يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»

(٣) جاء في الأصل: [فقال لها رسول الله ﷺ]. وما أثبتناه هُوَ الصواب؛ كما ثبت في «الزهد والرقائق» لابن المبارك.

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد والرقائق» (٣٨١) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَت: لَبِسْتُ دِرْعًا جَدِيدًا، فَجَعَلْتُ - أَيْ - أَنْظُرُ

=

هَذِهِ عَنْ صَلَاتِي»[(١)]. وَهَذَا كُلُّهُ يُوجِبُ الإعرَاضَ عَنِ الزِّينَةِ، وَمَا يُحَرِّكُ إِلَىٰ الفَخْرِ وَالزَّهْوُ وَالعُجْبِ[(٢)]. وَلِهَذَا حُرِّمَ الحَرِيْرُ.

وَأَقُوْلُ عَلَىٰ أَسْبَابِ هَذَا: إِنَّ الْمُرَقَّعَاتِ الَّتِي يَتَنَوَّقُ[(٣)] فِيهَا الْمُتَصَوِّفَةُ بِالسَّوَارِكِ وَالتَّلْمِيعِ، رُبَّمَا أَوْجَبَتْ زُهُوَّ اللَّابِسِ: إِمَّا لِحُسْنِهَا فِي ذَاتِهَا، أَوْ لِعِلْمِهِ أَنَّهَا تُنْبِئُ عَنْهُ بِالتَّصَوُّفِ وَالزُّهْدِ، وَكَذَلِكَ الخَاتَمُ فِي اليَدِ، وَطُوْلُ الأَكْمَامِ، وَالنِّعَالُ الصَّرَّارَةُ[(٤)]. وَلا أَقُوْلُ: إِنَّ هَذِهِ الأَشْيَاء تَحرُمُ، بَلْ رُبَّمَا جَلَبَتْ مَا يَحرُمُ مِنَ الزَّهْو. فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَنَبَّه بِمَا قُلْتُ فِي دَفْعِ كُلِّ مَا يَحْذَرُ مِنْ شَرِّهِ.

وَقَد رَكِبَ اِبْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما نَجِيبًا[(٥)]، فَأَعْجَبَهُ مَشْيُهُ، فَنَزَلَ، وَقَالَ: يَا نَافِعُ! أَخْلِهِ فِي البُدنِ[(٦)].

= إِلَيهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ اللهَ قَدْ يَرَاكِ». ورواه أبو نعيم في «الحلية»(ج١/ ص٣٧) ولفظه: «لَبِسْتُ ثِيَابِي فَطَفِقْتُ أَنظُرُ إِلَىٰ ذَيْلِي وَأَنَا أَمْشِي فِي البَيْتِ، وَأَلْتَفِتُ إِلَىٰ ثِيَابِي وَذَيْلِي»، فَدَخَلَ عَلَيَّ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ رضي الله عنها: «أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَيْكِ الآنَ». والحديث لا يصح.

(١) رواه البخاري، كتاب «الصَّلاَةِ» بَابُ «إِذَا صَلَّىٰ فِي ثَوْبٍ لَهُ أَعْلاَمٌ»(٣٧٣) ولفظه: عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّىٰ فِي خَمِيصَةٍ لَهَا أَعْلاَمٌ، فَنَظَرَ إِلَىٰ أَعْلاَمِهَا نَظْرَةً، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَىٰ أَبِي جَهْمٍ وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْمٍ، فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفًا عَنْ صَلاَتِي» و (الخميصة) كِساء أَسْوَد مُرَبَّع أو ثَوْبٌ خَزٌّ، أَوْ صُوفٌ مُعَلَّم.

(٢) الزَّهْوُ: الكِبْرُ والتِّيهُ والفَخْرُ والعَظَمَةُ.

(٣) التَّنَوُّق: من التَّنَوُّق في الشيء إذا عُمل علىٰ اسْتِحْسان وإعجاب به. يُقال: تَنَوَّق وتَأَنَّق.

(٤) الصَّرَّة: الضَّجَّة. والنعال الصرارة: التي لها صوت يُحدث ضجة يُلفت انتباه من حوله.

(٥) النَّجيب: الفاضِل مِن كُلّ حَيوان. والمقصود هنا: النَّجِيبِ من الإبل وَهُوَ القويُّ منها الخفيف السريع.

(٦) البُدن: هُوَ الضخم من كل شيء. وفي البُدن ثلاثة أقاويل: أحدها: أنها الإبل، وَهُوَ قول الجمهور. والثاني: أنها الإبل، والبقر، والغنم، وَهُوَ قول جابر، وعطاء. والثالث: كل ذات خُفٍّ وحافر من الإبل، والبقر، والغنم، وَهُوَ شاذ حكاه ابن الشجرة. وسميت بدَنةً لِعِظَمِها وسِمَنِها.

* [١٣-٣٣٢] [خَاطِرَةٌ]:

[قوله ﷺ: «مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ، فَقَد رَآنِي»]

قَدْ أَشْكَلَ عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ رُؤْيَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَقَوْلُهُ: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ، فَقَد رَآنِي»(١)؛ فقَالَ: ظَاهِرُ الحَدِيْثِ أَنَّهُ يَرَاهُ حَقِيْقَةً! وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرَاهُ شَيْخًا وَشَابًّا وَمَرِيْضًا وَمُعَافًىٰ!

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ مَنْ ظَنَّ أَنَّ جَسَدَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ الْمُوْدَعَ فِي الْمَدِيْنَةِ خَرَجَ مِنَ الْقَبْرِ، وَحَضَرَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي رَآهُ فِيْهِ؛ فَهَذَا جَهْلٌ لَا جَهْلَ يُشْبِهُهُ، فَقَد يَرَاهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ؟! وَإِنَّمَا الَّذِي يُرَىٰ مِثَالُهُ لَا شَخْصُهُ، فَيَبْقَىٰ: «مَنْ رَآنِي.. فَقَد رَآنِي»؛ مَعنَاهُ: قَد رَأَىٰ مِثَالِيَ، الَّذِي يُعَرِّفُهُ الصَّوَابَ، وَتَحصُلُ بِهِ الفَائِدَةُ الْمَطلُوبَةُ(٢).

فَإِنْ قِيْلَ: فَمَا تَقُوْلُوْنَ فِي رُؤْيَةِ الحَقِّ سُبْحَانَهُ؟! فَنَقُوْلُ: يُرَىٰ مِثَالًا لَا مِثْلًا، وَالمِثَالُ لَا يَفْتَقِرُ إِلَىٰ الْمُسَاوَاةِ وَالْمُشَابَهَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، فَضَرَبَهُ مِثَالًا لِلقُرآنِ وَانتِفَاعِ الخَلْقِ بِهِ.

وَيُوَضِّحُ هَذَا أَنَّهُ إِنَّمَا يَرَىٰ مَنْ رَأَىٰ الحَقَّ تَعَالَىٰ عَلَىٰ هَيْئَةٍ مَخصُوْصَةٍ، وَالحَقُّ تَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ، قَد تَوَحَّدَ، فَوَضَحَ مَا قُلْنَا.

---

(١) رواه البخاري، كِتَابُ «التَّعْبِيرِ» بَابُ «مَنْ رَأَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْمَنَامِ»(٦٩٩٤). ومسلم كتاب «الرُّؤْيَا» بَابُ «قَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي»(٢٢٦٦).

(٢) تنبيه مهم جدًا: لا بُدّ من معرفة صفاته ﷺ؛ لأنَّ الشيطان يلبس علىٰ ابن آدم بكل طريقة وفي كل مجال، فقد يخيل للشخص أَنَّهُ رأىٰ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ لم يره بل من تلبيس الشيطان، ولا يفيد قول المثال المرئي: أنا رسول الله، ولا قول مَن حضر معه: هذا رسول الله؛ لأنَّ الشيطان يكذب لنفسه ويكذب لغيره وقد ضل في هذا الشأن خلق كثير من الصوفية ونحوهم والعياذ بالله. فينبغي معرفة صفة النَّبِيِّ ﷺ الخِلْقية لكي تعرف هل هُوَ أم لا؟ لأنَّ الشيطان يستطيع أن يكذب ولكنه لا يستطيع أن يتمثل بالنبي ﷺ. فإذا جاء الرجل وقال أَنَّهُ رأىٰ النَّبِيَّ ﷺ فنقول له: نعم. لكن صف لنا ما رأيت فَإِنْ قال رأيت رجلًا طويلًا يلبس عمامة كبيرة وثوبًا يُجرجر علىٰ الأرض ليس له لحية وبيده مسبحة طويلة؛ فنقول له: هذه ليست رؤيا النَّبِيِّ ﷺ بل هذا شيطان؛ لأنَّ الشيطان لا يستطيع أن يأتي بهيئته التي جاءت بها نصوص السُنة المعروفة من كونه ﷺ كذا وكذا، ولحيته كانت كذا، وثوبه كان كذا، فَإِنْ جاءت بخلاف ذلك فأعلم أنها ليست برؤيا النَّبِيِّ ﷺ.

* [١٤-١١٨] [خَاطِرَةٌ]:

[قوله ﷺ: «عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُوْنَ»]

يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَلَّا يُقْدِمَ عَلَىٰ العَزَائِمِ حَتَّىٰ يَزِنَ نَفْسَهُ: هَلْ يُطِيْقُهَا؟ وَيُجَرِّبَ نَفْسَهُ فِي رُكُوْبِ بَعْضِهَا سِرًّا مِنَ الْخَلْقِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْمَنُ أَنْ يُرَىٰ فِي حَالَةٍ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهَا، ثُمَّ يَعُوْدَ فَيُفْتَضَحَ!

مِثَالُهُ: رَجُلٌ سَمِعَ بِذِكْرِ الزُّهَّادِ، فَرَمَىٰ ثِيَابَهُ الجَمِيْلَةَ، وَلَبِسَ الدُّوْنَ، وَانْفَرَدَ فِي زَاوِيَةٍ، وَغَلَبَ عَلَىٰ قَلْبِهِ ذِكْرُ الْمَوْتِ وَالآخِرَةِ؛ فَلَمْ يَلْبَثْ مُتَقَاضِي الطَّبْعِ[١] أَنْ أَلَحَّ بِمَا جَرَتْ بِهِ العَادَةُ؛ فَمِنَ الْقَوْمِ مَنْ عَادَ بِمَرَّةٍ إِلَىٰ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ، كَأَكْلِ النَّاقِهِ[٢] مِنْ مَرَضٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَوَسَّطَ الحَالَ، فَبَقِيَ كَالْمُذَبْذَبِ.

وَإِنَّمَا العَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَسْتُرُ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّاسِ بِثَوْبٍ وَسَطٍ، لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ، وَلَا يُدْخِلُهُ فِي زِيِّ أَهْلِ الفَاقَةِ؛ فَإِنْ قَوِيَتْ عَزِيمَتُهُ، عَمِلَ فِي بَيْتِهِ مَا يُطِيْقُ، وَتَرَكَ ثَوْبَ التَّجَمُّلِ لِسَتْرِ الحَالِ، وَلَمْ يُظْهِر شَيْئًا لِلْخَلْقِ؛ فَإِنَّهُ أَبْعَدُ مِنَ الرِّيَاءِ، وَأَسْلَمُ مِنَ الْفَضِيْحَةِ.

وَفِي النَّاسِ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ قِصَرُ الأَمَلِ، وَذِكْرُ الآخِرَةِ، حَتَّىٰ دَفَنَ كُتُبَ العِلْمِ! وَهَذَا الفِعْلُ عِنْدِي مِنْ أَعظَمِ الخَطَإِ وَإِنْ كَانَ مَنْقُوْلًا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الكِبَارِ[٣]!

---

(١) أي: مُقتضىٰ الطبع، والأصل الطبعي في الإنسان.

(٢) جاء في الأصل: [الناقة]. بـ«التاء المربوطة». ولعله تصحيف، وما أثبتناه بـ«الهاء» من مخطوط (ي)، هُوَ الصواب لتمام المعنىٰ به؛ كما ثبت في «لسان العرب» نَقِهَ من مرضه بالكسر ونَقَهَ يَنْقَهُ نَقْهًا ونُقُوهًا فيهما أفاق وَهُوَ فِي عَقِبِ علَّتِهِ مثل كَلَحَ كُلُوحًا فهو ناقِهٌ إذا صَحَّ وَهُوَ في عقب علته والجمع نُقَّهٌ وفي الحديث: قالت أُمُّ الْمُنْذِرِ: دخل علينا رسولُ الله ﷺ ومعه عَلِيٌّ ﷺ وَهُوَ ناقِهٌ هُوَ إذا بَرَأَ وأفاق وكان قريب العَهْدِ بالمرض لم يرجع إليه كمالُ صحته وقُوَّتِهِ.

(٣) ومن هؤلاء: عَطَاءُ بنُ مُسلمٍ الخَفَّافُ، بِشْرُ بنُ الحَارِثِ الْمَرْوَزِيُّ، مُؤَمَّلُ بنُ إِسمَاعِيْلَ العَدَوِيُّ، سَلْمُ بنُ مَيْمُوْنٍ الخَوَّاصُ، مُطَرِّفُ بنُ طَرِيْفٍ الكُوْفِيُّ، عَلِيُّ بنُ مُسْهِرٍ القُرَشِيُّ، سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، يُوْسُفُ بنُ أَسْبَاطٍ.

وَلَقَد ذَكَرتُ هَذَا لِبَعضِ مَشَايِخِنَا؟ فَقَالَ: أَخطَؤُوا كُلُّهُمْ، وَقَد تَأَوَّلْتُ لِبَعْضِهِم بِأَنَّهُ كَانَ فِيهَا أَحَادِيْثُ عَنْ قَوْمٍ ضُعَفَاءَ، وَلَمْ يُمَيِّزُوهَا؛ كَمَا رُوِي عَنْ سُفْيَانَ[1] فِي دَفْنِ كُتُبِهِ، أَوْ كَانَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الرَّأْيِ، فَلَمْ يُحِبُّوا أَنْ يُؤْخَذَ عَنْهُم، فَكَانَ مِنْ جِنْسِ تَحْرِيْقِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه لِلْمَصَاحِفِ؛ لِئَلَّا يُؤْخَذَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهَا مِنَ الْمُجْمَعِ عَلَىٰ غَيْرِهِ. وَهَذَا التَّأْوِيْلُ يَصِحُّ فِي حَقِّ عُلَمَائِهِم.

فَأَمَّا غَسْلُ أَحمَد بْنِ أَبِي الحَوَارِي[2] كُتُبَهُ وَابْنُ أَسْبَاطٍ[3]؛ فَتَفْرِيطٌ مَحْضٌ.

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ فِعْلٍ يَمْنَعُ مِنْهُ الشَّرعُ، أَوْ مِن ارتِكَابِ مَا يُظَنُّ عَزِيْمَةً، وَهُوَ خَطِيئَةٌ، أَوْ مِنْ إِظْهَارِ مَا لَا يَقْوَىٰ عَلَيْهِ الْمُظْهِرُ فَيَرجِعُ القَهْقَرِي[4]. و«عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا تُطِيْقُوْنَ»[5]، كَمَا قَالَ ﷺ.

----

* [١٥-٦٦] [خَاطِرَةٌ]:

[قوله ﷺ: «لا يَزِيدُ الْمُؤمِنَ عُمُرُهُ إِلَّا خَيرًا»]

دَعَوْتُ يَوْمًا فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ! بَلِّغْنِي آمَالِي مِنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ، وَأَطِلْ عُمْرِي؛ لِأَبْلُغَ مَا أُحِبُّ مِنْ ذَلِكَ. فَعَارَضَنِي وَسْوَاسٌ مِنْ إِبْلِيسَ، فَقَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ أَلَيْسَ الْمَوْتُ؟ فَمَا الَّذِي يَنْفَعُ طُوْلُ الحَيَاةِ؟!

فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبْلَهُ! لَوْ فَهِمْتَ مَا تَحتَ سُؤَالِي؛ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ بِعَبَثٍ. أَلَيْسَ فِي كُلِّ يَوْمٍ

---

(١) سُفْيَانُ بنُ سَعِيْدِ بنِ مَسْرُوْقٍ الثَّوْرِيُّ شَيْخُ الإِسْلَامِ، أَبُو عَبْدِ اللهِ. أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ فِي الحَدِيْثِ مَاتَ سَنَةَ(١٦١هـ).

(٢) أَحْمَدُ بنُ أَبِي الحَوَارِيِّ وَاسمِ أَبِيْهِ: عَبْدِ اللهِ بنِ مَيْمُوْنٍ أَبُو الحَسَنِ. الإِمَامُ، الحَافِظُ، مَاتَ سَنَةَ:(٢٤٦).

(٣) يُوْسُفُ بنُ أَسْبَاطٍ الزَّاهِدُ، مِنْ سَادَاتِ الْمَشَايِخِ، لَهُ مَوَاعِظُ وَحِكَمٌ. نَزَلَ الثُّغُوْرَ مُرَابِطًا.مَاتَ نَحو سَنَةَ:(١٩٢هـ).

(٤) الرُّجُوعِ إِلَىٰ وَرَاءٍ وَهُوَ النُّكُوصُ.

(٥) رواه مسلم، كِ:«صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ» بَ:«أَمْرِ مَنْ نَعَسَ فِي صَلَاتِهِ»(٧٨٥): عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعِنْدِي امْرَأَةٌ، فَقَالَ:«مَنْ هَذِهِ؟» فَقُلْتُ: امْرَأَةٌ لَا تَنَامُ تُصَلِّي، قَالَ:«عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّىٰ تَمَلُّوا».

يَزِيْدُ عِلْمِي وَمَعْرِفَتِي، فَتَكْثُرُ ثِمَارُ غَرسِي، فَأُشْكَرَ يَوْمَ حَصَادِي[1]؟!

أَفَيَسُرُّنِي أَنَّنِي مِتُّ مُنْذُ عِشْرِيْنَ سَنَةً؟! لا وَاللهِ؛ لأَنِّي مَا كُنْتُ أَعْرِفُ اللهَ تَعَالَىٰ عُشْرَ مَعْرِفَتِي بِهِ اليَوْمَ. وَكُلُّ ذَلِكَ ثَمَرَةُ الحَيَاةِ؛ الَّتِي فِيهَا اجْتَنَيْتُ أَدِلَّةَ الوَحْدَانِيَّةِ، وَارتَقَيْتُ عَنْ حَضِيْضِ التَّقْلِيْدِ إِلَىٰ يَفَاعِ البَصِيْرَةِ[2]، وَاطَّلَعْتُ عَلَىٰ عُلُومٍ زَادَ بِهَا قَدْرِي، وَتَجَوْهَرَتْ بِهَا نَفْسِي، ثُمَّ زَادَ غَرْسِي لِآخِرَتِي، وَقَوِيَتْ تِجَارَتِي فِي إِنْقَاذِ الْمُبَاضِعِيْنَ مِنَ الْمُتَعَلِّمِيْنَ[3].

وَقَد قَالَ اللهُ لِسَيِّدِ الْمُرسَلِيْنَ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤]. وَفِي «صَحِيْحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «لا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا»[4]. وَفِي حَدِيْثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ يَطُوْلَ عُمُرُ الْعَبْدِ، وَيَرزُقَهُ اللهُ ﷻ الإِنَابَةَ»[5].

فَيَا لِيْتَنِي قَدَرْتُ عَلَىٰ عُمُرِ نُوحٍ، فَإِنَّ العِلْمَ كَثِيْرٌ، وَكُلَّمَا حَصَلَ مِنْهُ حَاصِلٌ، رَفَعَ وَنَفَعَ.

---

(١) جاء في حاشية الأصل: في الهندية: [فاستكثر بذري يوم حصادي]. وفي مخطوط (ي:) [فأشكر تعبي].

(٢) الحَضِيض: قَرار الأرض وأسفَل الجَبل. واليَافِع اليَفَاع: الْمُرْتَفِع من كلّ شيء. وفي إطلاق اليَفَاع على الناسِ غَرابَةٌ.

(٣) الإِبْضَاعُ فِي اللُّغَةِ: مَصْدَرُ أَبْضَعَ، يُقَال أَبْضَعَ الشَّيْءَ أَيْ جَعَلَهُ بِضَاعَةً، وَهِيَ مَا يُتَّجَرُ فِيهِ. يُقَال: أَبْضَعْتُهُ غَيْرِي: جَعَلْتُهُ لَهُ بِضَاعَةً وَاسْتَبْضَعْتُهُ: جَعَلْتُهُ بِضَاعَةً لِنَفْسِي. وَاصْطِلاحًا: بَعْثُ الْمَالِ مَعَ مَنْ يَتَّجِرُ فِيهِ مُتَبَرِّعًا. فَهِيَ كَالْمُضَارَبَةِ مِنْ حَيْثُ أَخْذُ مَالٍ مِنْ مَالِكِهِ لِيَتَّجِرَ فِيهِ آخِذُهُ، لَكِنَّ آخِذَ الْمَالِ فِي الْمُضَارَبَةِ لَهُ جُزْءٌ مِنَ الرِّبْحِ بِحَسَبِ مَا اتَّفَقَا عَلَيْهِ، فَهُوَ شَرِيكٌ فِيمَا يَكُونُ مِنْ رِبْحِ التِّجَارَةِ، أَمَّا فِي الإِبْضَاعِ فَلا شَيْءَ لَهُ.

(٤) رواه مسلم كتاب «الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ» بَابُ «كَرَاهَةِ تَمَنِّي الْمَوْتِ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ»(٢٦٨٢). ولفظه: «لا يَتَمَنَّىٰ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، وَلا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا».

(٥) رواه أحمد في «المسند» حديث (١٤٥٠٠) ولفظه: «لا تَمَنَّوْا الْمَوْتَ، فَإِنَّ هَوْلَ الْمَطْلَعِ شَدِيدٌ، وَإِنَّ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ يَطُولَ عُمُرُ الْعَبْدِ، وَيَرْزُقَهُ اللهُ الإِنَابَةَ» ورواه الحاكم في «المستدرك» كتاب «التوبة والإنابة» حديث (٧٦٠٢).

* [١٦-١٨٦] [خَاطِرَةٌ]:

[قوله ﷺ: «اِسْتَعِيْنُوا عَلَى قَضَاءِ أُمُوْرِكُمْ بِالْكِتْمَانِ»]

رَأَيْتُ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَتَمَالَكُوْنَ مِنْ إِفْشَاءِ سِرِّهِمْ، فَإِذَا ظَهَرَ؛ عَاتَبُوا مَنْ أَخْبَرُوْا بِهِ.

فَوَا عَجَبًا! كَيْفَ ضَاقُوْا بِحَبْسِهِ ذَرعًا، ثُمَّ لَامُوْا مَنْ أَفْشَاهُ؟! وَفِي الحَدِيثِ: «اِسْتَعِيْنُوا عَلَىٰ قَضَاءِ أُمُوْرِكُمْ بِالْكِتْمَانِ»(١).

وَلَعَمْرِي، إِنَّ النَّفْسَ يَصْعُبُ عَلَيْهَا كَتْمُ الشَّيْءِ، وَتَرَىٰ بِإِفْشَائِهِ رَاحَةً، خُصُوْصًا إِذَا كَانَ مَرَضًا أَوْ هَمًّا أَوْ عِشْقًا، وَهَذِهِ الأَشْيَاءُ فِي إِفْشَائِهَا قَرِيْبَةٌ (٢). إِنَّمَا اللَّازِمُ كِتْمَانُهُ اِحْتِيَالُ الْمُحْتَالِ فِيمَا يُرِيْدُ أَنْ يُحَصِّلَ بِهِ غَرَضًا، فَإِنَّ [مِنْ(٣)] سُوْءِ التَّدْبِيْرِ إِفْشَاءَ ذَلِكَ قَبْلَ تَمَامِهِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا ظَهَرَ؛ بَطَلَ مَا يُرَادُ أَنْ يَفْعَلَ، وَلَا عُذْرَ لِمَنْ أَفْشَىٰ هَذَا النَّوْعَ.

وَقَد كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا، وَرَّىٰ بِغَيْرِهِ(٤).

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. وقد رواه أبو بكر الرُّوياني «مسنده»(١٤٤٩) ولفظه: عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْتَعِينُوا عَلَىٰ قَضَاءِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ» ورواه الخرائطي في «اعتلال القلوب»(٦٨٠) ولفظه: «اسْتَعِينُوا عَلَىٰ قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكِتْمَانِ لَهَا...» ورواه ابن شهاب القضاعي في «مسنده»(٧٠٧) ولفظه: «اسْتَعِينُوا عَلَىٰ أُمُورِكُمْ بِالْكِتْمَانِ...» ورواه البيهقي في «شعب الإيمان»(٦٢٢٨) والطبراني في «المعجم الكبير»(١٨٣) ولفظه: «اسْتَعِينُوا عَلَىٰ نَجَاحِ - إِنْجَاحِ - الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ...» ينظر: «صحيح الجامع» (٩٤٣) و«السلسلة الصحيحة» (١٤٥٣).

(٢) أي: قريبة في الإفشاء حيث تظهر علىٰ صاحبها غالبًا. وجاء في الأصل:[قرينة]. وما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٣) ليست في الأصل وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

(٤) لم أقف عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر؛ إلَّا أنّي وجدتُ الإمَام الْحُسَيْنَ الْحُلَيْمِيَّ قد ذكره بهذا اللفظ دون إسناد في كتابه:«المنهاج في شعب الإيمان»(ج٣/ ص١٢) ب:«٣٤». وَالَّذِي وَقَفْتُ عَلَيْهِ هُوَ مَا رواه البخاري، ك:«الجِهَادِ وَالسِّيَرِ»(٢٩٤٨). ومسلم ك:«التَّوْبَةِ»(٢٧٦٩). عَنْ كَعْب بْن مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَّىٰ بِغَيْرِهَا»؛ أي: سَتَره وكَنَىٰ عَنْهُ وَأَوْهَم أَنَّه يُرِيدُ غَيْرَهُ. وَأَصلُهُ مِنَ الْوَرَاء؛ أي: أَلْقَى الْبَيَانَ وَرَاءَ ظَهْره. قال الإمام الْحُلَيْمِيّ: «وَرَّىٰ بِغَيْرِه» لا أنه كان يقول: إني أريد وجه كذا، ثم يأخذ في وجه غيره، حاشا له ﷺ من ذلك، ولكن كما يقول القائل: إذا أراد أن يُلَبِّس الوجه الذي يقصده علىٰ غيره، فيسأل عن حال الطريق: أسهل هو أم وعر؟ خصب هو أم جدب! وعن عدد منازله. ليظن مَن يسمع أنه يريده»اهـ

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّمَا أُحَدِّثُ [مَنْ أَثِقُ بِهِ(١)]. قِيْلَ لَهُ: وَكُلُّ حَدِيْثٍ جَاوَزَ الاثْنَيْنِ شَائِعٌ، وَرُبَّمَا لَمْ يَكْتُمْ صَدِيقُكَ، وَكَمْ قَد سَمِعنَا مَنْ يُحَدِّثُ عَنِ الْمُلُوْكِ بِالْقَبْضِ عَلَىٰ صَاحِبٍ، فَنَمَّ الحَدِيْثَ إِلَىٰ الصَّاحِب(٢)، وَهَرَبَ، فَفَاتَ السُّلْطَانَ مُرَادُهُ!

وَإِنَّمَا الرَّجُلُ الحَازِمُ الَّذِي لَا يَتَعَدَّاهُ سِرُّهُ، وَلَا يُفْشِيْهِ إِلَىٰ أَحَدٍ. وَمِنَ الْعَجْزِ إِفْشَاءُ السِّرِّ إِلَىٰ الوَلَدِ وَالزَّوْجَةِ.

وَالْمَالُ مِنْ جُمْلَةِ السِّرِّ؛ فَاطِّلَاعُهُمْ عَلَيْهِ: إِنْ كَانَ كَثِيْرًا؛ فَرُبَّمَا تَمَنَّوْا هَلَاكَ الْمُوَرِّثِ(٣)، وَإِنْ كَانَ قَلِيْلًا؛ تَبَرَّمُوْا بِوُجُوْدِهِ، وَرُبَّمَا طَلَبُوْا مِنَ الْكَثِيْرِ عَلَىٰ مِقْدَارِ كَثْرَتِهِ، فَأَتْلَفَتْهُ النَّفَقَاتُ.

وَسَتْرُ الْمَصَائِبِ مِنْ جُمْلَةِ كِتْمَانِ السِّرِّ؛ لِأَنَّ إِظْهَارِهَا يَسُرُّ الشَّامِتَ، وَيُؤْلِمُ الْمُحِبَّ.

وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكْتُمَ مِقْدَارَ السِّنِّ؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ كَبِيْرًا، اِسْتَهْرَمُوْهُ، وَإِنْ كَانَ صَغِيْرًا، اِحْتَقَرُوْهُ(٤).

وَمِمَّا قَدِ انْهَالَ فِيْهِ كَثِيْرٌ مِنَ الْمُفَرِّطِيْنَ: أَنَّهُمْ يَذْكُرُوْنَ بَيْنَ أَصْدِقَائِهِمْ أَمِيْرًا أَوْ سُلْطَانًا، فَيَقُوْلُوْنَ فِيهِ، فَيَبْلُغ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَيَكُوْنُ سَبَبَ الْهَلَاكِ. وَرُبَّمَا رَأَىٰ الرَّجلُ مِنْ صَدِيقِهِ إِخْلَاصًا وَافِيًا، فَأَشَاعَ سِرَّه.

وقد قيل(٥):

اِحْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ... وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ

(١) ليست في الأصل وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

(٢) نَمَّ الحَدِيْثَ، أي: أشاعه. والمراد بـ«الصاحب» هنا الوزير. فقد يأتي «الصاحب» بمعنىٰ الوزير كما في حديث سليمان عليه السلام: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَىٰ سَبْعِينَ امْرَأَةً تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ فَلَمْ يَقُلْ». يَعْنِي بِهِ: وَزِيره مِنَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ؛ كما في بعض الأقوال.

(٣) جاء في الأصل: [الموروث]. ولعله تصحيف، وما أثبتناه هُوَ الصواب؛ لتمام المعنىٰ به.

(٤) اِسْتَهْرَمُوْهُ؛ أَيْ: عَدُّوْهُ شَيْخًا وَاسْتَضْعَفُوْهُ.

(٥) البيت من البحر: [مجزوء الكامل].

فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيـ ... ـقُ فَكَانَ أَدْرَىٰ بِالْمَضَرَّهْ

وَرُبَّ مُفْشٍ سِرَّهُ إِلَىٰ زَوْجَةٍ أَوْ صَدِيْقٍ، فَيَصِيْرُ بِذَلِكَ رَهِيْنًا عِنْدَهُ، وَلَا يَتَجَاسَرُ(١) أَنْ يُطَلِّقَ الزَّوْجَةَ، وَلَا أَنْ يَهْجُرَ الصَّدِيْقَ، مَخَافَةَ أَنْ يَظْهَرَ سِرُّهُ الْقَبِيْحُ.

فَالْحَازِمُ مَنْ عَامَلَ النَّاسَ بِالظَّاهِرِ، فَلَا يَضِيْقُ سِرُّهُ فِي صَدْرِهِ، فَإِنْ فَارَقَتْهُ امْرَأَةٌ أَوْ صَدِيْقٌ أَوْ خَادِمٌ، لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَقُوْلَ فِيْهِ مَا يَكْرَهُ.

وَمِنْ أَعظَمِ الأَسْرَارِ الخَلَوَاتُ؛ لِيَحْذَرِ الحَازِمُ فِيْهَا مِنَ الانْبِسَاطِ بِمَرْأَىٰ مِنْ مَخْلُوقٍ، وَمَنْ خُلِقَ لَهُ عَقْلٌ ثَاقِبٌ، دَلَّهُ عَلَىٰ الصَّوَابِ قَبْلَ الوَصَايَا.

* [١٧-٣٠] [خَاطِرَةٌ]:

[قوله ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ»]

مَا رَأَتْ عَيْنِي مُصِيْبَةً نَزَلَتْ بِالْخَلْقِ أَعْظَمَ مِنْ سَبِّهِم لِلزَّمَانِ، وَعَيْبِهِم لِلدَّهْرِ، وَقَد كَانَ هَذَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ نَهَىٰ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»(٢).

(١) الجسارة: هي الجرَاءة والإقْدَام علىٰ الشيء.

(٢) رواه البخاري، كِ: «الأدَبِ» بَ: «لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ» (٦١٨٢). ومسلم، ك: «الألْفَاظِ مِنَ الأدَبِ» ب: «النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ» (٢٢٤٦) واللفظ له.

* قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «شَرْحِ الْبُخَارِيِّ»، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ مَعْنَاهُ: أَنَا صَاحِبُ الدَّهْرِ وَمُدَبِّرُ الأُمُورِ الَّتِي يَنْسِبُونَهَا إِلَىٰ الدَّهْرِ فَمَنْ سَبَّ الدَّهْرَ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الأُمُورِ عَادَ بِسَبِّهِ إِلَىٰ رَبِّهِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهَا، وَإِنَّمَا الدَّهْرُ زَمَانٌ جُعِلَ ظَرْفًا لِمَوَاقِعِ الأُمُورِ، وَكَانَتْ عَادَةُ الْجَاهِلِيَّةِ أَنَّهُمْ إِذَا أَصَابَهُمْ مَكْرُوهٌ أَضَافُوهُ لِلدَّهْرِ، فَقَالُوا: بُؤْسًا لِلدَّهْرِ وَتَبًّا لِلدَّهْرِ. وَقَدْ تَمَسَّكَ الْجَهَلَةُ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ وَالْمُعَطِّلَةِ بِظَاهِرِ هَذَا الْحَدِيثِ وَاحْتَجُّوا بِهِ عَلَىٰ مَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الدَّهْرَ عِنْدَهُمْ حَرَكَاتُ الْفَلَكِ وَأَمَدُ الْعَالَمِ وَلَا شَيْءَ عِنْدَهُمْ وَلَا صَانِعَ سِوَاهُ. وَكَفَىٰ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ فِي بَقِيَّةِ الْحَدِيثِ: «أَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ». فَكَيْفَ يُقَلِّبُ الشَّيْءُ نَفْسَهُ؟ تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا.

قَالَ الْمُحَقِّقُونَ: مَنْ نَسَبَ شَيْئًا مِنَ الأَفْعَالِ إِلَىٰ الدَّهْرِ حَقِيقَةً كَفَرَ، وَمَنْ جَرَىٰ هَذَا اللَّفْظُ عَلَىٰ لِسَانِهِ غَيْرَ مُعْتَقِدٍ لِذَلِكَ فَلَيْسَ بِكَافِرٍ وَلَكِنْ يُكْرَهُ لَهُ ذَلِكَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي جَمْرَةَ: لَا يَخْفَىٰ أَنَّ مَنْ سَبَّ الصَّنْعَةَ فَقَدْ سَبَّ =

وَمَعْنَاهُ: أَنْتُمْ تَسُبُّوْنَ مَنْ فَرَّقَ شَمْلَكُمْ، وَأَمَاتَ أَهَالِيَكُم، وَتَنْسِبُوْنَهُ إِلَىٰ الدَّهْرِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ هُوَ الفَاعِلُ لِذَلِكَ.

فَتَعَجَّبْتُ، كَيْفَ أُعْلِمُ أَهْلَ الأَسْقَامِ بِهَذِهِ الحَالِ، وَهُمْ عَلَىٰ مَا كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ عَلَيْهِ مَا يَتَغَيَّرُوْنَ؟! حَتَّىٰ رُبَّمَا اجْتَمَعَ الفُطَنَاءُ الأُدَبَاءُ الظِّرَافُ -عَلَىٰ زَعْمِهِم- فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُغْلٌ إِلَّا ذَمَّ الدَّهْرِ! وَرُبَّمَا جَعَلُوْا اللهَ الدُّنْيَا، وَيَقُوْلُوْنَ: فَعَلَتْ وَصَنَعَتْ! وَحَتَّىٰ رَأَيْتُ لِأَبِي قَاسِم الحَرِيْرِيِّ يَقُوْلُ[1]:

وَلَمَّا تَعَامَىٰ الدَّهْرُ، وَهُوَ أَبُوْ الرَّدَىٰ ... عَنِ الرُّشْدِ فِي أَنْحَائِهِ ومَقَاصِدِهْ
تَعَامَيْتُ، حَتَّىٰ قِيْلَ إِنِّي أَخُو عَمَىٰ ... وَلَا غَرْوَ أَنْ يَحْذُو الفَتَىٰ حَذْوَ وَالِدِهْ

وَقَدْ رَأَيْتُ خَلْقًا يَعْتَقِدُوْنَ أَنَّهُمْ فُقَهَاءُ وَفُهَمَاءُ، وَلَا يَتَحَاشَوْنَ مِنْ هَذَا.

وَهَؤُلَاءِ إِنْ أَرَادُوْا بِالدَّهْرِ مُرُوْرَ الزَّمَانِ؛ فَذَاكَ لَا اخْتِيَارَ لَهُ، وَلَا مُرَادَ، وَلَا يَعْرِفُ رُشْدًا مِنْ ضَلَالٍ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُلَامَ؛ فَإِنَّهُ زَمَانٌ مُدَبَّرٌ، لَا مُدَبِّرٌ، فَيُتَصَرَّفُ فِيْهِ، وَلَا يَتَصَرَّفُ.

وَمَا يُظَنُّ بِعَاقِلٍ أَنْ يُشِيْرَ إِلَىٰ أَنَّ الْمَذْمُوْمَ، الْمُعْرِضَ عَنِ الرُّشْدِ، السَّيِّءَ الحُكْمِ، هُوَ الزَّمَانُ!

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنَّ القَوْمَ خَرَجُوا عَنْ رِبْقَةِ الإِسْلَامِ[2]، وَنَسَبُوْا هَذِهِ القَبَائِحَ إِلَىٰ الصَّانِعِ، فَاعتَقَدُوا فِيْهِ قُصُوْرَ الحِكْمَةِ، وَفِعْلَ مَا لَا يَصِحُّ؛ كَمَا اعتَقَدَهُ إِبْلِيْسُ فِي تَفْضِيْلِ آدَمَ.

= صَانِعَهَا، فَمَنْ سَبَّ نَفْسَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَقْدَمَ عَلَىٰ أَمْرٍ عَظِيمٍ بِغَيْرِ مَعْنَىٰ، وَذَكَرَ نَحْوَ مَا قَدَّمْنَا مِنْ أَنْ لَيْسَ لِلدَّهْرِ وَلَا لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِعْلٌ وَلَا تَأْثِيرٌ، فَمَنْ سَبَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ يُؤَوَّلُ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَىٰ أَنَّهُ سَبَّ خَالِقَ ذَلِكَ. انْتَهَىٰ مُلَخَّصًا. (يُنظر: «لوامع الأنوار البهية» شمس الدين السفاريني. (ج٢/ ص ٤٥٦))

(١) البيتان من البحر: [الطويل]. * الحَرِيْرِيُّ: أَبُو مُحَمَّدٍ القَاسِمُ بنُ عَلِيٍّ. العَلَّامَةُ، (المقامات). مَاتَ سَنَةَ: (٥١٦هـ).

(٢) الرِّبْقَة: عُرْوَة فِي حَبْل تُجْعَل فِي عُنُق الْبَهِيمَة أَوْ يَدهَا تَمْسِكهَا فَاسْتَعَارَهَا لِلإِسْلامِ؛ يَعْنِي: مَا يَشُدّ الْمُسْلِم بِهِ نَفْسه مِنْ عُرَىٰ الإِسْلام، أَيْ: حُدُوده وَأَحْكَامه وَأَوَامِره وَنَوَاهِيه.

وَهَؤُلاء لا يَنْفَعُهُم مَعَ هَذَا الزَّيْغِ اعتِقَادُ إِسْلَامٍ، وَلَا فِعْلُ صَلَاةٍ، بَلْ هُمْ شَرٌّ مِنَ الْكُفَّارِ، لَا أَصْلَحَ اللهُ لَهُمْ شَأْنًا، وَلَا هَدَاهُمْ إِلَىٰ رَشَادٍ.

* [١٨-٣١٧] [خَاطِرَةٌ]:

[قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ! أَرِنَا الأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ»]

قَدْ جَاءَ فِي الأَثَرِ: «اللَّهُمَّ! أَرِنَا الأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ»[١]! وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ غَايَةً، وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَرَوْنَ الأَشْيَاءَ بِعَيْنِهَا، فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ الفَانِي كَأَنَّهُ بَاقٍ، وَلَا يَكَادُوْنَ يَتَخَايَلُونَ زَوَالَ مَا هُمْ فِيْهِ، وَإِنْ عَلِمُوا ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ عَيْنَ الْحِسِّ مَشْغُوْلَةٌ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ الحَاضِرِ، أَلَا تَرَىٰ زَوَالَ اللَّذَّةِ، وَبَقَاءَ إِثْمِهَا؟!

وَلَوْ رَأَىٰ اللِّصُّ قَطْعَ يَدِهِ؛ هَانَ عِنْدَهُ الْمَسْرُوقُ.

فَمَنْ جَمَعَ الأَمْوَالَ، وَلَمْ يُنْفِقْهَا؛ فَمَا رَآهَا بِعَيْنِهَا؛ إِذْ هِيَ آلَةٌ لِتَحْصِيْلِ الأَغْرَاضِ، لَا تُرَادُ لِذَاتِهَا.

وَمَنْ رَأَىٰ الْمَعصِيَةَ بِعَيْنَي الشَّهْوَةِ؛ فَمَا رَآهَا؛ إِذْ فِيهَا مِنَ العُيُوبِ مَا شِئْتَ، ثُمَّ ثَمَرَتُهَا عُقُوْبَةٌ آجِلَةٌ، وَفَضِيْحَةٌ عَاجِلَةٌ.

وَانْظُرْ إِلَىٰ أَكْبَرِ شَهَوَاتِ الْحِسِّ، وَهُوَ الوَطءُ! فَإِنَّ الْمَاءَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بَعْدَ مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ.

وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الْمَطْعَمِ؛ نَظَرَ إِلَىٰ حَرْثِ الأرضِ، وَأَنَّهَا تَفْتَقِرُ إِلَىٰ بَقَرٍ لِلْحِرَاثَةِ عَلَيْهِنَّ بِالْمِحْرَاثِ، وَهُوَ حَدِيدٌ، وَمَعَهُ خَشَبٌ، وَتَتَعَلَّقُ بِهِ حِبَالٌ.

فَمَنْ تَفَكَّرَ فِي عَمَلِ الحِبَالِ؛ نَظَرَ فِي زَرْعِ القِنَّبِ وَتَسْرِيحِهِ وَفَتْلِهِ[٢]، وَالْحَدِيدِ وَجَلْبِهِ وَضَرْبِهِ،

(١) لم أقف عليه فيما بين يدي من المصادر. وإن كانت بعض كتب التراث نسبته للرسول ﷺ ولكن من غير سند. كفخر الدين الرازي في «تفسيره» ونظام الدين النيسابوري في «تفسيره».

(٢) القِنَّبُ: بِفَتْحِ النُّونِ مُشَدَّدَةً والقُنَّبُ نَبَاتٌ يُؤْخَذُ لِحَاؤُهُ ثُمَّ يُفْتَلُ حِبَالًا وَلَهُ حَبٌّ وَهُوَ ضَرْبٌ من الكَتَّانِ وَيُسَمَّىٰ الشَّهْدَانِجَ.

وَالْخَشَبِ وَنَبَاتِهِ وَنِجَارَتِهِ، وَدَوَرَانِ الدُّوْلَابِ وَعَمَلِهِ، ثُمَّ اسْتِحْصَادِ الزَّرْعِ، وَحَصْدِهِ، وَتَذْرِيَتِهِ، وَطَحْنِهِ، وَعَجْنِهِ، وَخَبْزِهِ، وَمِنْ عَمَلِ التَّنُّورِ، وَجَلْبِ الشَّوْكِ.

وَمِنْ هَذَا الجِنْسِ إِذَا نَظَرَ فِيْهِ كَثُرَ جِدًّا، حَتَّىٰ قَالُوا: لَا تُنَالُ لُقْمَةٌ؛ إِلَّا وَقَد عَمِلَ فِيهَا ثَلَاثُ مِئَةِ نَفْسٍ أَوْ نَحْوِهِمْ. فَإِذَا أَكَلَ تِلْكَ اللُّقْمَةَ؛ فَلْيُفَكِّرْ فِي خَلْقِ الأَسْنَانِ لِقَطْعِهَا، وَالأَضْرَاسِ لِطَحْنِهَا، وَعُذُوْبَةِ مَاءِ الْفَمِ لِخَلْطِهَا، وَاللِّسَانِ لِيَقْلِبَهَا، وَعَضَلَاتِ الفَمِ يَصْعَدُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَيَبْقَىٰ شَيْءٌ، حَتَّىٰ يَصْلُحَ البَلْعُ، ثُمَّ يَتَنَاوَلُهَا الْمَعْيُ، فَيُوْصِلُهَا إِلَىٰ الكَبِدِ، فَيَقُوْمُ طَابِخًا لَهَا؛ فَإِذَا صَارَتْ دَمًا؛ نَفَتْ رُسُوبَهَا إِلَىٰ الطِّحَالِ، وَمَائِيَّتَهَا إِلَىٰ الْمَثَانَةِ، وَاسْتَخْلَصَتْ مِنْ أَخْلَصِ الدَّمِ وَأَصْفَاهُ لِلْكَبِدِ وَالدِّمَاغِ وَالقَلْبِ، وَأَخَذَتْ أَجْوَدَ ذَلِكَ، فَحَدَرَتْهُ إِلَىٰ الأُنْثَيَيْنِ مُعَدًّا لِخَلْقِ آدَمِيٍّ. فَإِذَا تَحَرَّكَتْ نِيْرَانُ الشَّهْوَةِ؛ تَدَفَّقَتْ تِلْكَ النُّطْفَةُ، وَقَدْ حَكَمَ الشَّرْعُ بِطَهَارَتِهَا، وَحَكَمَ لَهَا بِطَهَارَةِ الرَّحِمِ، وَالْمَحَلِّ الَّذِي يُبَاشِرُهُ الذَّكَرُ، فَيُخْلَقُ مِنْهَا الآدَمِيُّ الْمُوَحِّدُ. فَمَا جَاءَ هَذَا الشَّخْصُ إِلَّا بِأَغْلَىٰ الغَلَاءِ، وَبَعْدَ عَجَائِبَ أَشَرْنَا إِلَيهَا، لَا أَنَّا عَدَدْنَاهَا!!

أَفَمَنْ فَهِمَ هَذَا يَحْسُنُ مِنْهُ أَنْ يُبَدِّدَ تِلْكَ النُّطفَةَ فِي حَرَامٍ؟ أَوْ أَنْ يَطَأَ فِي مَحَلٍّ نَجِسٍ فَتَضِيعَ؟! فَكَمْ يَتَعَلَّقُ بِالزِّنَا مِنْ مِحَنٍ لَا يَفِي مِعْشَارُ عُشْرِهَا بِلَذَّةِ لَحْظَةٍ[1]! مِنْهَا: هَتْكُ العِرْضِ بَيْنَ النَّاسِ، وَكَشْفُ العَوْرَاتِ الْمُحَرَّمَةِ، وَخِيَانَةُ الأَخِ الْمُسْلِمِ فِي زَوْجَتِهِ إِنْ كَانَتْ مُتَزَوِّجَةً، وَفَضِيْحَةُ الْمَزْنِيِّ بِهَا، وَهِيَ كَأُخْتٍ لَهُ أَوْ بِنْتٍ. فَإِنْ عَلِقَتْ مِنْهُ وَلَهَا زَوْجٌ، أَلْحَقَتْهُ بِذَلِكَ الزَّوْجِ، وَكَانَ هَذَا الزَّانِي سَبَبًا فِي مِيْرَاثِ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ، وَمَنْعِ مَنْ يَسْتَحِقُّ، ثُمَّ يَتَسَلْسَلُ ذَلِكَ مِنْ وَلَدٍ إِلَىٰ وَلَدٍ.

وَأَمَّا سَخَطُ الحَقِّ سُبْحَانَهُ؛ فَمَعْلُومٌ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ

---

(١) يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في «رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ» (ص٣٦٢، ٣٦٣): «وَالزِّنَا يَجْمَعُ خِلَالَ الشَّرِّ كُلَّهَا: مِنْ قِلَّةِ الدِّينِ، وَذَهَابِ الْوَرَعِ، وَفَسَادِ الْمُرُوءَةِ، وَقِلَّةِ الْغَيْرَةِ، فَلا تَجِدُ زَانِيًا مَعَهُ وَرَعٌ، وَلا وَفَاءٌ بِعَهْدٍ، وَلا صِدْقٌ فِي حَدِيثٍ، وَلا مُحَافَظَةٌ عَلَىٰ صَدِيقٍ، وَلا غَيْرَةٌ تَامَّةٌ عَلَىٰ أَهْلِهِ. فَالْغَدْرُ وَالْكَذِبُ وَالْخِيَانَةُ وَقِلَّةُ الْحَيَاءِ وَعَدَمُ الْمُرَاقَبَةِ وَعَدَمُ الأَنَفَةِ لِلْحُرَمِ وَذَهَابُ الْغَيْرَةِ مِنَ الْقَلْبِ مِنْ شُعَبِهِ وَمُوجِبَاتِهِ».

سَبِيلًا﴾[الإسراء: ٣٢]، وَقَالَ ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ نُطْفَةٍ وَضَعَهَا رَجُلٌ فِي رَحِمٍ لا تَحِلُّ لَهُ»[(١)].

وَمَنْ لَهُ فَهْمٌ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ النُّطفَةِ إِيجَادُ الْمُوَحِّدِينَ، وَلَوْلَا تَرْكِيبُ الشَّهْوَةِ؛ لَمْ يَقَعِ الْوَطءُ؛ لِأَنَّهُ التِقَاءُ عُضْوَيْنِ غَيْرِ مُسْتَحْسَنَيْنِ، وَلَا صُورَتُهُمَا حَسَنَةٌ، وَلَا رِيحُهُمَا طَيِّبٌ؛ وَإِنَّمَا الشَّهْوَةُ تُغَطِّي عَيْنَ النَّاظِرِ؛ لِيَحْصُلَ الوَلَدُ أَصلًا، فَهِيَ عَارِضٌ.

فَمَنْ طَلَبَ الشَّهْوَةَ، وَنَسِيَ جِنَايَتَهُ بِالزِّنَا، فَمَا رَأَىٰ الأَشْيَاءَ عَلَىٰ مَا هِيَ[(٢)].

وَقِسْ عَلَىٰ هَذَا الْمَطْعَمَ وَالْمَشْرَبَ، وَجَمْعَ الْمَالِ غَيْرَ ذَلِكَ.

* [١٩-٢٣٥] [خَاطِرَةٌ]:

[قَوْلُ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: «مَا أَعْرِفُ شَيْئًا مِمَّا كُنَّا عَلَيْهِ الْيَوْمَ إِلَّا الْقِبْلَةَ!»]

نَظَرْتُ فِي قَوْلِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: «مَا أَعْرِفُ شَيْئًا مِمَّا كُنَّا عَلَيْهِ الْيَوْمَ إِلَّا الْقِبْلَةَ!»[(٣)].

(١) رواه ابن أبي الدُّنْيَا في «كتاب الورع» برقم (١٣٧)، «موسوعة ابن أبي الدنيا» (ج١/ ص٢١٩) عَنِ الْهَيْثَمِ بْنِ مَالِكٍ الطَّائِيِّ. يُنظر: «السلسلة الضعيفة» (١٥٨٠) و«ضعيف الجامع» (٥١٧٣).

(٢) وكأنَّه رحمه الله يُشير إلىٰ مفهوم قول النَّبيِّ ﷺ: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه. وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُلْحِقُ مَعَهُنَّ: «وَلا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ». رواه مسلم كِتَابُ «الْإِيمَانَ» باب «بيان نقصان الإيمان بالمعاصي» حديث (٥٧).

(٣) روىٰ أحمد في «المسند»(٢٧٣٧٤) عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ رضي الله عنها قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه وَهُوَ مُغْضَبٌ فَقُلْتُ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: «مَا أَعْرِفُ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا الصَّلَاةَ». وروىٰ أحمد أيضًا في «المسند»(١٣٧٢) مثل ذلك عن أنس رضي الله عنه قَالَ: «مَا أَعْرِفُ شَيْئًا مِمَّا عَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْيَوْمَ». فَقَالَ أَبُو رَافِعٍ: يَا أَبَا حَمْزَةَ وَلَا الصَّلَاةَ؟ فَقَالَ: «أَوَلَيْسَ قَدْ عَلِمْتُمْ مَا صَنَعَ الْحَجَّاجُ فِي الصَّلَاةِ» وعَنْهُ قال: «مَا أَعْرِفُ فِيكُمُ الْيَوْمَ شَيْئًا كُنْتُ أَعْهَدُهُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَيْسَ قَوْلَكُمْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا حَمْزَةَ الصَّلَاةَ؟ قَالَ: «قَدْ صَلَّيْتُمْ حِينَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ، أَفَكَانَتْ تِلْكَ صَلَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟» قَالَ: فَقَالَ: «عَلَىٰ أَنِّي لَمْ أَرَ زَمَانًا خَيْرًا لِعَامِلٍ مِنْ زَمَانِكُمْ هَذَا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ زَمَانًا مَعَ نَبِيٍّ». (١٣٧٩٥).

فَقُلْتُ: وَا عَجَبًا! كَيفَ لَوْ رَآنَا اليَوْمَ؛ وَمَا مَعَنَا مِنَ الْشَّرِيْعَةِ إِلَّا الرَّسْمُ[١]؟!.

وَالشَّرِيْعَةُ هِيَ الطَّرِيْقُ. وَإِنَّمَا تُعْرَفُ شَرِيْعَةُ رَسُوْلِ اللهِﷺ إِمَّا بِأَفْعَالِهِ أَوْ أَقْوَالِهِ.

وَسَبَبُ الانْحِرَافِ عَنْ طَرِيْقِهِﷺ: إِمَّا الجَهْلُ بِهَا، فَيَجْرِي الإِنْسَانُ مَعَ الطَّبْعِ وَالعَادَاتِ، وَرُبَّمَا اتَّخَذَ مَا يُضَادُّ الشَّرِيْعَةَ طَرِيْقًا. وَقَدْ كَانَتِ الْصَّحَابَةُ شَاهَدَتْهُ، وَسَمِعَتْ مِنْهُ، فَقَلَّ أَنْ يَنْحَرِفَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ جَادَّتِهِ؛ إِلَّا أَنَّ أَبَا الدَّرداءِ ﷺ رَأَىٰ بَعْضَ الانْحِرَافِ لِمَيْلِ الطِّبَاعِ، فَضَجَّ؛ فَإِنَّهُ قَد يَعْرِفُ الإِنْسَانُ الصَّوَابَ؛ غَيْرَ أَنَّ طَبْعَهُ يَمِيْلُ عَنْهُ.

وَمَا زَالَتِ الأَحَادِيْثُ الْمَنْقُوْلَةُ عَنِ الرَّسُوْلِﷺ وَأَصْحَابِهِ ﷺ يَقِلُّ الإِسْعَادُ بِهَا، وَالنَّظَرُ فِيْهَا، إِلَىٰ أَنْ أُعْرِضَ عَنْهَا بِالْكُلِّيَّةِ فِي زَمَانِنَا هَذَا، وَجُهِلَتْ؛ إِلَّا النَّادِرَ، وَاتُّخِذَتْ طَرَائِقُ تُضَادُّ الشَّرِيْعَةَ، وَصَارَتْ عَادَاتٍ، وَكَانَتْ أَسْهَلَ عِنْدَ الْخَلْقِ مِن اتِّبَاعِ الشَّرِيْعَةِ.

وَإِذَا كَانَ عَامَّةُ مَنْ يُنْسَبُ إِلَىٰ العِلْمِ قَدْ أَعْرَضَ عَنْ عُلُوْمِ الشَّرِيْعَةِ؛ فَكَيْفَ العَوَامُّ؟! وَلَمَّا أَعْرَضَ كَثِيْرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَنِ الْمَنْقُوْلَاتِ؛ ابْتَدَعُوْا فِي الأُصُوْلِ وَالفُرُوْعِ.

فَالأُصُوْلِيُّوْنَ تَشَاغَلُوْا بِالكَلَامِ، وَأَخَذُوْهُ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ وَعُلَمَاءِ الْمَنْطِقِ!

وَدَخَلَتْ أَيْدِي الفُرُوْعِيِّينَ فِي ذَلِكَ، فَتَشَاغَلُوْا بِالْجَدَلِ، وَتَرَكُوْا الحَدِيْثَ الَّذِي يَدُوْرُ عَلَيْهِ الحُكْمُ!

ثُمَّ رَأَىٰ القُصَّاصُ أَنَّ النَّفَاقَ بِالنِّفَاقِ[٢]؛ فَأَقْبَلَ قَوْمٌ مِنْهُمْ عَلَىٰ التَّلْبِيْسِ بِالزُّهْدِ، وَمَقْصُوْدُهُمْ الدُّنْيَا!

وَرَأَىٰ جُمْهُوْرُهُمْ أَنَّ القُلُوْبَ تَمِيْلُ إِلَىٰ الأَغَانِي، فَأَحْضَرُوْا الْمُطْرِبِيْنَ مِنَ القُرَّاءِ،

---

(١) الرَّسْمُ: الأَثَرُ، وقيل: بَقِيَّةُ الأَثَر، وَقِيْلَ: هُوَ مَا لَيْسَ لَهُ شَخص مِنَ الآثَار، وَالجَمْع: أَرْسُمٌ ورُسومٌ.

(٢) النَّفَاق: ضد الكَسَاد وَهُوَ الرَّوَاج. تَقُولُ: نَفَقَتْ السِّلْعَةُ وَالمَرْأَةُ نَفَاقًا ـ بِالفَتح ـ كَثُرَ طُلَّابُهَا وَخُطَّابُهَا. وَأَمَّا النِّفَاق: فَهُوَ اسْمٌ إِسْلَامِي لَم تَعْرِفه العَرَب بِالْمَعْنَىٰ الْمَخصُوص بِهِ وَهُو الَّذِي يَسْتُرُ كُفْرَه ويُظهر إيمانه وَإِنْ كَانَ أَصلُه فِي اللُّغة مَعْروفًا. يُقَالُ: نافقَ يُنَافق مُنَافَقَةً ونِفاقًا.

وَأَنْشَدُوْا أَشْعَارَ الْغَزَلِ، وَتَرَكُوْا الاشْتِغَالَ بِالْحَدِيْثِ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوْا إِلَىٰ نَهْيِ العَوَامِّ عَنِ الرِّبَا وَالزِّنَا، وَأَمْرِهِمْ بِأَدَاءِ الوَاجِبَاتِ!

وَصَارَ مُتَكَلِّمُهُم يَقْطَعَ الْمَجْلِسَ بِذِكْرِ لَيْلَىٰ وَالْمَجْنُوْنِ، وَالطُّوْرِ وَمُوْسَىٰ، وَأَبِي يَزِيْدَ وَالحَلَّاجِ، وَالهَذَيَانِ الَّذِي لَا مَحْصُوْلَ لَهُ!

وَانْفَرَدَ أَقْوَامٌ بِالتَّزَهُّدِ وَالانْقِطَاعِ، فَامْتَنَعُوْا عَنْ عِيَادَةِ الْمَرضَىٰ وَالْمَشْيِ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَظْهَرُوْا التَّخَاشُعَ، وَوَضَعُوْا كُتُبًا لِلرِّيَاضَاتِ وَالتَّقَلُّلِ مِنَ الطَّعَامِ، وَصَارَتِ الشَّرِيْعَةُ عِنْدَهُم كَلَامَ أَبِي يَزِيْدَ وَالشِّبْلِيِّ وَالْمُتَصَوِّفَةِ!

وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ مَنْ سَبَرَ الشَّرِيعَةَ[1]؛ لَمْ يَرَ فِيْهَا مِنْ ذَاكَ شَيْئًا.

وَأَمَّا الأُمَرَاءُ؛ فَجَرَوا مَعَ العَادَاتِ، وَسَمَّوْا مَا يَفْعَلُوْنَهُ مِنَ القَتْلِ وَالقَطْعِ سِيَاسَاتٍ، لَمْ يعمَلُوْا فِيْهَا بِمُقْتَضَىٰ الشَّرِيْعَةِ! وَتَبِعَ الأَخِيْرُ فِي ذَلِكَ الْمُتَقَدِّمَ.

فَأَيْنَ الشَّرِيْعَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ؟! وَمِنْ أَيْنَ تُعْرَفُ مَعَ الإِعْرَاضِ عَنِ الْمَنْقُوْلَاتِ؟!

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ التَّوْفِيْقَ لِلْقِيَامِ بِالشَّرِيْعَةِ، وَالإِعَانَةَ عَلَىٰ رَدِّ الْبِدَعِ! إِنَّهُ قَادِرٌ.

* [٢٠-٢٣٣] [خَاطِرَةٌ]:

[قَوْلُ شَيْبَانَ ﵀: «عُدَّ مَنعَ اللهِ إِيَّاكَ عَطَاءً مِنْهُ لَكَ»]

تَفَكَّرتُ فِي قَوْلِ شَيْبَانَ الرَّاعِي[2] لِسُفْيَانَ: «يَا سُفْيَانُ[3]! عُدَّ مَنْعَ اللهِ إِيَّاكَ عَطَاءً مِنْهُ لَكَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعكَ بُخْلًا، إِنَّمَا مَنَعَكَ لُطفًا»[4]. فَرَأَيْتُهُ كَلَامَ مَنْ قَد عَرَفَ الحَقَائِقَ.

---

(١) السَّبْرُ: التَّجرِبَةُ وَاستِخراجُ كُنْهِ الأمر. وسَبَرَ الشيءَ سَبرًا حَزَره وخَبَرهُ. والمقصود: من علم أسرار الشريعة.

(٢) شَيبَان الرَّاعِي من عُبَّاد أهل مرو عَابِدٌ صَالِحٌ زَاهِدٌ قَانِتٌ لِلَّهِ، صحب سفيان الثوري وغيره. مَاتَ سَنَةَ(١٥٨هـ).

(٣) سُفْيَان الثَّوري.

(٤) أورد هذا الأثر الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (ج٤/ ص٢٦٤/ ح٩٥٥/ الأصل: ١٨٢).

فَإِنَّ الإِنْسَانَ قَد يُرِيْدُ الْمُسْتَحسَنَاتِ الفَائِقَاتِ فَلَا يَقْدِرُ، وَعَجْزُهُ أَصْلَحُ لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَدَرَ عَلَيْهِنَّ، تَشَتَّتَ قَلْبُهُ، إِمَّا بِحِفْظِهِنَّ، أَوْ بِالْكَسْبِ عَلَيْهِنَّ.

فَإِنْ قَوِيَ عِشْقُهُ لَهُنَّ؛ ضَاعَ عُمُرُهُ، وَانْقَلَبَ هَمُّ الآخِرَةِ إِلَىٰ الاهْتِمَامِ بِهِنَّ. فَإِنْ لَم يُرِدْنَهُ، فَذَاكَ الْهَلَاكُ الأَكْبَرُ. وَإِنْ طَلَبْنَ نَفَقَةً؛ لَمْ يُطِقْهَا؛ كَانَ سَبَبَ ذَهَابِ مُرُوْءَتِهِ وَهَلَاكِ عِرضِهِ. وَإِنْ أَرَدْنَ الْوَطْءَ، وَهُوَ عَاجِزٌ، فَرُبَّمَا أَهْلَكْنَهُ أَوْ فَجَرْنَ. وَإِنْ مَاتَ مَعْشُوْقُهُ، هَلَكَ هُوَ أَسَفًا.

فَالَّذِي يَطْلُبُ الفَائِقَ يَطْلُبُ سِكِّينًا لِذَبْحِهِ، وَمَا يَعْلَمُ.

وَكَذَلِكَ إِنْفَاذُ قَدْرِ القُوْتِ؛ فَإِنَّهُ نِعْمَةٌ، وَفِي «الصَّحِيْحَيْنِ»: أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوْتًا»[(١)]. وَمَتَىٰ كَثُرَ؛ تَشَتَّتَ الْهَمُّ.

فَالْعَاقِلُ مَنْ عَلِمَ أَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لِلتَّنْعِيْمِ، فَقَنِعَ بِدَفْعِ الْوَقْتِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ.

* [٢١-٢٣٦] [خَاطِرَةٌ]:

[قَوْلُ عَلِيِّ بنِ الحُسَينِ رَحِمَهُ اللهُ: «لَقَد بَكَيتُ البَارِحَةَ مِنْ يَدِ نَفْسِي]

كُنْتُ أَسْمَعُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ[(٢)] الوَاعِظَ يَقُوْلُ عَلَىٰ المِنْبَرِ: «وَاللهِ، لَقَد بَكَيْتُ البَارِحَةَ مِنْ يَدِ نَفْسِي»[(٣)].

فَبَقِيْتُ أَنَا أَتَفَكَّرُ وَأَقُوْلُ: أَيَّ شَيْءٍ قَدْ فَعَلَتْ نَفْسُ هَذَا حَتَّىٰ يَبْكِي؟! هَذَا رَجُلٌ مُتَنَعِّمٌ، لَهُ الْجَوَارِي التُّرْكِيَّاتُ، وَقَد بَلَغَنِي أَنَّهُ تَزَوَّجَ فِي السِّرِّ بِجُمْلَةٍ مِنَ النِّسَاءِ، وَلَا يَطْعَمُ إِلَّا الغَايَةَ مِنَ الْدَّجَاجِ وَالْحَلْوَىٰ، وَلَهُ الْدَّخلُ الْكَثِيْرُ، وَالْمَالُ الوَافِرُ، وَالجَاهُ العَرِيْضُ، وَالأَفْضَالُ عَلَىٰ

(١) البخاري؛ كِ: «الرِّقَاقِ» ب: «كَيفَ كَانَ عَيْشُ النَّبِيِّ ﷺ» (٦٤٦٠). ومسلم كِ: «الزَّكَاةِ» ب: «الْكَفَافِ وَالْقَنَاعَةِ» (١٠٥٥).

(٢) عَلِيُّ بنُ الحُسَيْنِ أَبُو الحَسَنِ الغَزْنَوِيُّ. الوَاعِظُ، الْمُحسنُ الشَّهِيرُ، كَانَ مليحَ الإِيرَادِ، لَطِيفَ الحَرَكَاتِ، بَنَتْ لَهُ زَوْجَةُ الخَلِيفَةِ (خاتون زوجة المستظهري) رِباطًا، وَصَارَ لَهُ جَاهٌ عَظِيمٌ لِمَيْلِ العجمِ، مَاتَ سَنَةَ: (٥٥١هـ).

(٣) وَكَأَنَّهُ يَبْكِي مِمَّا كَسَبَت يَدَاهُ مِنَ التَّفرِيطِ.

النَّاسِ، وَقَد حَصَّلَ طَرَفًا مِنَ الْعِلْمِ، وَاسْتَعْبَدَ كَثِيْرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ بِمَعْرُوْفِهِ، وَرَاحَتُهُ دَائِمَةُ النَّدَىٰ؛ فَمَا الَّذِي يُبْكِيْهِ؟!

فَتَفَكَّرتُ، فَعَلِمْتُ أَنَّ النَّفْسَ لَا تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ؛ بَل تَرُوْمُ مِنَ اللَّذَّاتِ مَا لَا مُنْتَهَىٰ لَهُ[1]، وَكُلَّمَا حَصَلَ لَهَا غَرَضٌ؛ بَرَدَ عِنْدَهَا، وَطَلَبَتْ سِوَاهُ، فَيَفْنَىٰ العُمُرُ، وَيَضْعُفُ البَدَنُ، وَيَقَعُ النَّقْصُ، وَيَرِقُّ الجَاهُ، وَلَا يَحْصُلُ الْمُرَادُ.

وَلَيسَ فِي الدُّنْيَا أَبْلَهُ مِمَّنْ يَطْلُبُ النِّهَايَةَ فِي لَذَّاتِ الدُّنْيَا، وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ الحَقِيْقَةِ لَذَّةٌ، إِنَّمَا هِيَ رَاحَةٌ مِنْ مُؤْلِمٍ.

فَالسَّعِيْدُ مَنْ إِذَا حَصَلَتْ لَهُ امْرَأَةٌ أَوْ جَارِيَةٌ، فَمَالَ إِلَيْهَا، وَمَالَتْ إِلَيْهِ، وَعَلِمَ سِتْرَهَا وَدِيْنَهَا: أَنْ يَعقِدَ الخِنْصَرَ عَلَىٰ صُحبَتِهَا[2].

وَأَكْثَرُ أَسْبَابِ دَوَامِ مَحَبَّتِهَا أَنْ لَا يُطْلِقَ بَصَرَهُ؛ فَمَتَىٰ أَطْلَقَ، أَوْ أَطْمَعَ نَفْسَهُ فِي غَيْرِهَا، فَإِنَّ الطَّمَعَ فِي الجَدِيْدِ يُنَغِّصُ الخَلَقَ[3]، وَيَنْقُصُ الْمُخَالَطَةَ، وَيَسْتُرُ عُيُوْبَ الخَارِجِ، فَتَمِيْلُ النَّفْسُ إِلَىٰ الْمُشَاهَدِ الغَرِيْبِ، وَيَتَكَدَّرُ العَيْشُ مَعَ الحَاضِرِ القَرِيْبِ.

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ[4]:

وَالْمَــــرْءُ مَـــا دَامَ ذَا عَــــيْنٍ يُقَلِّبُهَـــا ... فِي أَعْيُنِ الْعِينِ مَوْقُـوْفٌ عَلَىٰ الخَطَرِ
يَسُــــرُّ مُقْلَتَــــهُ مَـــا ضَــــرَّ مُهْجَتَــــهُ ... لا مَرحَبًــا بِسُــــرُوْرٍ عَــادَ بِالضَّـــرَرِ

---

(١) أي: أن النفس تطلب من اللذات ما لا مُنتهىٰ له. فَالرَّوْمُ: طَلَبُ الشَّيْءِ. والْمَرَامُ: الطَّلَبُ.

(٢) كناية عن التمسك بها والحرص عليها.

(٣) القديم البالي. تقول: خَلُقَ الثَّوْبُ - بِالضَّمِّ - خُلوقة؛ أي: بَلِيَ، وَأَخْلَقَ الثَّوْبُ مثله. وثوب خَلَقٌ بالٍ.

(٤) جاء في الأصل:[فِي أَعْيُنِ النَّاسِ] وما أثبتناه هو الصواب؛ لتمام المعنىٰ بها؛ لأن: العِينُ: جمع عَيْناء وهي الواسعة العين من النساء. * الْمُقْلَة: شَحْمة العين التي تجمع السوادَ والبياضَ. وقيل: هي سوادُها وبياضُها الذي يَدُورُ كله في العين. وقيل: هي العين كلُّها؛ وإنما سُميت مُقْلة؛ لأنها تَرْمِي بالنظر. * الْمُهْجَةُ: دَم القَلْب وَلا بَقَاءَ للنَّفْسِ بَعدَمَا تُراقُ مُهْجَتُها. وَقِيلَ: الْمُهْجةُ: خالِصُ النَّفْسِ، تقول: بَذَلْتُ لَهَا مُهْجَتي؛ أي: بذلتُ لها نَفْسِي وَخَالِصَ ما أَقْدِر عَلَيه. * وَالْبَيْتُ مِنَ البَحْرِ: [البسيط]

ثُمَّ تَصِيرُ الثَّانِيَةُ كَالأُولَىٰ، وَتَطْلُبُ النَّفْسُ ثَالِثَةً، وَلَيْسَ لِهَذَا آخِرٌ[(١)].

بَل الغَضُّ عَنِ الْمُشْتَهَيَاتِ، وَيَأْسُ النُّفُوسِ مِنْ طَلَبِ الْمُسْتَحسَنَاتِ: يُطَيِّبُ العَيْشَ مَعَ الْمُعَاشَرِ.

وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ هَذَا النُّصْحَ؛ تَعَثَّرَ فِي طُرُقِ الهَوَىٰ، وَهَلَكَ عَلَىٰ البَارِدِ، وَرُبَّمَا سَعَىٰ لِنَفْسِهِ فِي الهَلَاكِ العَاجِلِ، وَفِي العَارِ الحَاضِرِ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْتَحْسَنَاتِ لَسْنَ بِصَيِّنَاتٍ، وَلَا يَفِي التَّمَتُّعُ بِهِنَّ بِالعَارِ الحَاصِلِ، وَمِنْهُنَّ الْمُبَذِّرَاتُ فِي الْمَالِ، وَمِنْهُنَّ الْمُبْغِضَةُ لِلزَّوْجِ، وَهُوَ يُحِبُّهَا كَعَابِدِ صَنَمٍ.

وَأَبْلَهُ الْبُلْهِ الشَّيْخُ الَّذِي يَطْلُبُ صَبِيَّةً! وَلَعَمْرِي؛ إِنَّ كَمَالَ الْمُتْعَةِ إِنَّمَا يَكُوْنُ بِالْصِّبَا؛ كَمَا قَالَ القَائِلُ[(٢)]:

لَقُلْتُ: بِنَفْسِيَ النَّشَأُ الصِّغَارُ

وَمَتَىٰ لَمْ تَكُنِ الصَّبِيَّةُ بَالِغَةً؛ لَمْ يَكْمُلِ الاسْتِمْتَاعُ! فَإِذَا بَلَغَتْ؛ أَرَادَتْ كَثْرَةَ الجِمَاعِ، وَالشَّيْخُ لَا يَقْدِرُ! فَإِنْ حَمَلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، لَمْ يَبْلُغْ مُرَادَهَا، وَهَلَكَ سَرِيعًا.

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْتَرَّ بِشَهْوَتِهِ الجِمَاعَ؛ فَإِنَّ شَهْوَتَهُ كَالفَجْرِ الْكَاذِبِ.

وَقَد رَأَيْنَا شَيْخًا اِشْتَرَىٰ جَارِيَةً، فَبَاتَ مَعَهَا، فَانْقَلَبَ عَنْهَا مَيْتًا.

وَكَانَ فِي الْمَارَسْتَانِ[(٣)] شَابٌّ قَد بَقِيَ شَهْرَيْنِ بِالقِيَامِ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ، فَوَطِئَهَا،

---

(١) يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في «روضة المحبين» (الباب السادس/ ص٧٦): «النظرة إذا أثّرت في القلب؛ فإن عجل الحازم وحسم المادة من أولها سهل علاجه، وإن كرَّر النَّظر ونقَّب عن محاسن الصورة ونقلها إلىٰ قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة فلا تزال شجرة الحب تَنْمىٰ حتىٰ يفسد القلب ويُعرض عن الفكر فيما أُمِر به، فيخرج صاحبه إلىٰ المحن، ويُوجب ارتكابَ المحظورات والفتن، ويلقي القلب في التَّلف. والسبب في هذا: أنَّ النَّاظر التذَّت عينُه بأول نظرة فطلبت الْمُعاودة، كأكل الطعام اللَّذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنَّه غَضَّ أولًا لاستراح قلبه وَسَلِمَ»اهـ.

(٢) البيت من البحر: [الوافر].

(٣) الْمَارَسْتَانُ: - بِفَتْحِ الرَّاء - دَار الْمَرْضَىٰ - الْمَشْفَىٰ - وَهُوَ مُعَرَّب.

فَانقَلَبَ عَنهَا مَيْتًا.

فَبَانَ أَنَّ النَّفْسَ بَاقِيَةٌ بِمَا عِندَهَا مِنَ الدَّمِ وَالْمَنِيِّ؛ فَإِذَا فَرَغَا، وَلَمْ تَجِد مَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ؛ ذَهَبَتْ.

وَإِنْ قَنَعَ الشَّيْخُ بِالاسْتِمْتَاعِ مِنْ غَيْرِ وَطْءٍ؛ فَهِيَ لَا تَقْنَعُ، فَتَصِيْرُ كَالْعَدُوِّ لَهُ، فَرُبَّمَا غَلَبَهَا الْهَوَىٰ فَفَجَرَتْ، أَوْ احْتَالَتْ عَلَىٰ قَتْلِهِ، خُصُوْصًا الْجَوَارِي اللَّوَاتِي أَغْلَبُهُنَّ قَد جِئْنَ مِنْ بِلَادِ الشِّرْكِ؛ فَفِيْهِنَّ قَسْوَةُ الْقَلْبِ.

وَقَبِيْحٌ بِمَنْ عَبَرَ السِّتِّيْنَ أَنْ يَتَعَرَّضَ بِكَثْرَةِ النِّسَاءِ! فَإِنِ اتَّفَقَ مَعَهُ صَاحِبَةُ دِيْنٍ قَبْلَ ذَلِكَ فَلْيَرْعَ لَهَا مُعَاشَرَتَهَا، وَلْيُتَمِّمْ نَقْصَهُ عِنْدَهَا؛ تَارَةً بِالإِنفَاقِ، وَتَارَةً بِحُسْنِ الْخُلُقِ، وَلْيَزِد فِي تَعْرِيْفِهَا أَحْوَالَ الصَّالِحَاتِ وَالزَّاهِدَاتِ، وَلْيُكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ القِيَامَةِ وَذَمِّ الدُّنْيَا، وَلْيُعَرِّضْ بِذِكْرِ مَحَبَّةِ الْعَرَبِ[1]؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَعْشَقُوْنَ، وَلَا يَرَوْنَ وَطْءَ الْمَعْشُوْقِ؛ كَمَا قَالَ قَائِلُهُم[2]:

إِنَّمَا الحُبُّ قُبْلَةٌ	وَغَمْزُ كَفٍّ وَعَضُدْ
إِنَّمَا الْعِشْقُ كَذَا	إِنْ نُكِحَ الْحُبُّ فَسَدْ

فَإِنْ قَدَرَ أَنْ يَشْغَلَهَا بِحَمْلٍ أَوْ وَلَدٍ، عَرْقَلَهَا بِهِ، فَاسْتَبْقَىٰ قُوَّتَهُ فِي مُدَّةِ اشْتِغَالِهَا بِذَلِكَ. فَإِنْ وَطِئَ؛ فَلْيَصْبِر عَنِ الإِنزَالِ حِفظًا لِقُوَّتِهِ، وَقَضَاءً لِحَقِّهَا.

وَقَد قِيْلَ لِبِشْرٍ: لِمَ لَمْ تَتَزَوَّجْ؟ فَقَالَ: عَلَىٰ مَاذَا أَغُرُّ مُسْلِمَةً؛ وَقَد قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة: ٢٢٨].

وَالْمِسْكِيْنُ مَنْ دَخَلَ فِي أَمْرٍ لَمْ يَتَلَمَّحْ عَوَاقِبَهُ قَبْلَ الدُّخُوْلِ، وَرَأَىٰ حَبَّةَ الْفَخِّ؛ فَبَادَرَ طَالِبًا لَهَا، نَاسِيًا تَعَرْقُلَ الجَنَاحِ وَالذَّبْحَ.

---

(١) كأنَّه يُشير إلىٰ العرب من بني عُذْرَة، فقد اشتهروا بالحب العذري العفيف وهي السنة الجارية في العشاق الماضين من بني عُذْرَة. وَبَنُو عُذْرَة بن سَعْدٍ أَوَّل مَنْ أَدَّىٰ الصَّدَقَة طَائِعين مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِم.

(٢) البيتان مضطربا الوزن؛ فصدرهما من:[المقتضب]، وعجزهما من:[الرجز].

وَمَجْمُوْعُ مَا قَد بَسَطْتُهُ: حِفظُ البَصَرِ عَنِ الإطلَاقِ، وَيَأْسُ النَّفْسِ عَنِ التَّحصِيْل تُنُوْعًا بِالحَاصِلِ، خُصُوْصًا مَنْ قَد عَلَتْ سِنُّهُ، وَعَلِمَ أَنَّ الصَّبِيَّةَ عَدُوٌّ لَهُ، مُتَمَنِّيَةٌ هَلَاكَهُ، وَهُوَ يُرَبِّيْهَا لِغَيْرِهِ. وَفِي بَعْضِ مَا ذَكَرتُهُ مَا يَردَعُ العَاقِلَ عَنِ التَّعَرُّضِ لِهَذِهِ الآفَاتِ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ تَوْفِيقًا مِنْ فَضْلِهِ، وَعَمَلًا بِمُقْتَضَىٰ العَقْلِ وَالشَّرعِ؛ إِنَّهُ مُجِيْبٌ قَرِيْبٌ.

* [٢٢-٣١٩] [خَاطِرَةٌ]:

[أَقْوَالُ بَعْض السَّلَف فِي المَحَبَّة]

كُلَّمَا أَوْغَلَتِ الفُهُوْمُ فِي مَعرِفَةِ الخَالِقِ، فَشَاهَدَتْ عَظَمَتَهُ وَلُطْفَهُ وَرِفْعَتَهُ؛ تَاهَتْ فِي مَحَبَّتِهِ، فَخَرَجَتْ عَنْ حَدِّ الثُّبُوْتِ.

وَقَد كَانَ خَلْقٌ مِنَ النَّاسِ غَلَبَتْ عَلَيْهِم مَحَبَّتُهُ، فَلَمْ يَقْدِرُوْا عَلَىٰ مُخَالَطَةِ الخَلْقِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَقْدِر عَلَىٰ السُّكُوْتِ عَنِ الْذِّكْرِ. وَفِيْهِمْ مَنْ لَمْ يَنَمْ إِلَّا غَلَبَةً، وفِيْهِمْ مَنْ هَامَ فِي البَرَارِي، وَفِيْهِمْ مَنْ احتَرَقَ فِي بَدَنِهِ. فَيَا حُسْنَ مَخْمُوْرِهِم مَا أَلَذَّ سُكْرَهُ! وَيَا عَيْشَ قَلَقِهِمْ مَا أَحْسَنَ وَجْدَهُ!

كَانَ أَبُوْ عُبَيْدَةَ الخَوَّاصُ[١] قَدْ غَلَبَهُ الْوَجْدُ، فَكَانَ يَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ يَقُوْلُ: «وَاشَوْقَاهُ إِلَىٰ مَنْ يَرَانِي وَلا أَرَاهُ»[٢].

وَكَانَ فَتْحُ بْنُ شَخْرَف[٣] يَقُوْلُ: «قَدْ طَالَ شَوْقِي إِلَيْكَ؛ فَعَجِّلْ قُدُوْمِي عَلَيْكَ»[٤].

---

(١) أبو عبيدة: اشتهر به وإنما هو أبو عتبة، كذلك ذكره البخاري وغيره. واسمه: عَبَّادُ بْنُ عَبَّادٍ الْخَوَّاصُ. كان من أهل المحبة وعنه أخذ مشايخ الطريقة. مَاتَ سنة:(١٦٢هـ). أخباره في «صفة الصفوة» لابن الجوزي.

(٢) يُنظر: «المحبة لله سبحانه» لأبي إِسْحَاق الخُتَّلِيُّ. (ص١١٣/ رقم الأثر: ٢٥٨).

(٣) الفتح بن أبي الفتح شخرف بن داود بن مزاحم أبو نصر. كان أحد العباد الزهاد السائحين ثم سكن بغداد وحدث بها. وصحب الإمام أحمد وجالسه مَاتَ سَنَة:(٢٧٣هـ).

(٤) يُنظر: «طبقات الأولياء» لابن النحوي.(ج١/ ص٢٧٥).

وَكَانَ قَيْسُ بْنُ الرَّبِيْعِ[1] كَأَنَّهُ مَخْمُوْرٌ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ.

وَكَانَ ابْنُ عَقِيْلٍ[2] يَقُوْلُ: «إِنَّ التَّبَذُّلَ[3] فِيْهِ سُبْحَانَهُ أَحْسَنُ مِنَ التَّجَمُّلِ فِي غَيْرِهِ.

هَلْ رَأَيْتَ قَطُّ عُرَاةً أَحْسَنَ مِنَ الْمُحْرِمِيْنَ؟!

هَلْ رَأَيْتَ لِلْمُتَزَيِّنِيْنَ بِرِيَاشِ الدُّنْيَا [سَمْتًا[4]] كَأَثْوَابِ الصَّالِحِيْنَ؟!

هَلْ رَأَيْتَ خُمَارًا[5] أَحْسَنَ مِنْ نُعَاسِ الْمُتَهَجِّدِيْنَ؟!

هَلْ رَأَيْتَ سُكْرًا أَحْسَنَ مِنْ صَعَقِ الْوَاجِدِيْنَ؟!

هَلْ شَاهَدْتَ مَاءً صَافِيًا أَصفَىٰ مِنْ دُمُوْعِ الْمُتَأَسِّفِيْنَ؟!

هَلْ رَأَيْتَ رُؤُوْسًا مَائِلَةً كَرُؤُوْسِ الْمُنْكَسِرِيْنَ؟!

هَلْ لَصِقَ بِالأَرضِ شَيْءٌ أَحسَنَ مِنْ جِبَاهِ الْمُصَلِّيْنَ؟!

هَلْ حَرَّكَ نَسِيْمُ الأَسْحَارِ أَوْرَاقَ الأَشْجَارِ، فَبَلَغَ مَبْلَغَ تَحرِيْكِهِ أَذْيَالَ الْمُتَهَجِّدِيْنَ؟!

هَلْ ارْتَفَعَتْ أَكُفٌّ، وَانْبَسَطَتْ أَيْدٍ، فَضَاهَتْ أَكُفَّ الرَّاغِبِيْنَ؟!

هَلْ حَرَّكَ القُلُوْبَ صَوْتُ تَرجِيْعٍ لَحنٍ أَوْ رَنَّةِ وَتَرٍ كَمَا حَرَّكَ حَنِيْنُ الْمُشْتَاقِيْنَ؟!

وَإِنَّمَا يَحسُنُ التَّبَذُّل فِي تَحصِيْل أَوْفَىٰ الأَغْرَاضِ؛ فَلِذَلِكَ حَسُنَ التَّبَذُّلُ فِي خِدْمَةِ الْمُنْعِمِ».

---

(١) قَيْسُ بنُ الرَّبِيْعِ: أَبُو مُحَمَّدٍ الإِمَامُ، الحَافِظُ، الأَحْوَلُ، أَحَدُ أَوْعِيَةِ العِلْمِ عَلَىٰ ضَعفٍ فِيْهِ مَاتَ سَنَةَ:(١٦٧هـ).

(٢) ابْنُ عَقِيْلٍ: أَبُو الوَفَاءِ عَلِيُّ بنُ عَقِيْلِ بنِ مُحَمَّدٍ البَغْدَادِيّ، الحَنْبَلِيّ، الْمُتَكَلِّم، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ، مَاتَ سَنَةَ:(٥١٣هـ).

(٣) التَّبَذُّلُ: تَرْكُ التَّزَيُّن والتَّهَيُّؤ بِالهَيْئَةِ الحَسَنَة الجَمِيلة عَلَىٰ جِهَة التَّوَاضُع. وَمِنْهُ حَدِيث الاستِسْقَاء: «فَخَرَجَ مُتَبَذِّلًا مُتَخَشِّعًا». وَالبِذْلَة وَالمِبْذَلة مِنَ الثِّيَاب مَا يُلْبَس وَيُمتَهَن وَلَا يُصَان.

(٤) ليست في الأصل وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

(٥) الخُمارُ: ـ بضم الخاء ـ بقية السُّكرِ. وَقِيْلَ: خُمَارُهَا مَا أَصَابَكَ مِنْ أَلَمِهَا وَصُداعِهَا وَأَذَاهَا.

(٣)

[بِالإِخْلَاصِ تُقْبَلُ الأَعْمَالُ؛ فَجَاهِد نَفْسَك بِالإِخْلَاصِ]

* [٢٣ - ٣٤٨] [خَاطِرَةٌ]:

[كَيْفَ يَعِيشُ المَرء مَعَ الخَالِق سُبْحَانَه؟]

يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ الْعَمَلُ كُلُّهُ للهِ، وَمَعَهُ، وَمَنْ أَجْلِهِ؛ وَقَد كَفَاكَ كُلَّ مَخْلُوْفٍ، وَجَلَبَ لَكَ كُلَّ خَيْرٍ.

وَإِيَّاكَ أَنْ تَمِيْلَ عَنْهُ بِمُوَافَقَةِ هَوَىٰ، وَإِرْضَاءِ مَخْلُوْقٍ، فَإِنَّهُ يَعْكِسُ عَلَيْكَ الْحَالَ، وَيَفُوْتُكَ الْمَقْصُوْدُ، وَفِي الحَدِيْثِ: «مَنْ أَرضَىٰ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ ذَامًّا»[1].

وَأَطْيَبُ الْعَيْشِ عَيْشُ مَنْ يَعِيْشُ مَعَ الخَالِقِ سُبْحَانَهُ.

فَإِنْ قِيْلَ: كَيْفَ يَعِيْشُ مَعَهُ؟ قُلْتُ: بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، وَمُرَاعَاةِ حُدُوْدِهِ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ، وَحُسْنِ الأَدَبِ فِي الخَلْوَةِ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِهِ، وَسَلَامَةِ القَلْبِ مِنَ الاعتِرَاضِ فِي أَقْدَارِهِ.

فَإِنِ احْتَجْتَ، سَأَلْتَهُ، فَإِنْ أَعطَىٰ، وَإِلَّا؛ رَضِيْتَ بِالْمَنْعِ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْ بُخْلًا، وَإِنَّمَا نَظَرًا لَكَ، وَلَا تَنْقَطِعْ عَنِ السُّؤَالِ؛ لِأَنَّكَ تَتَعَبَّدُ بِهِ.

وَمَتَىٰ دُمْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ، رَزَقَكَ مَحَبَّتَهُ، وَصِدْقَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَصَارَتِ الْمَحَبَّةُ تَدُلُّكَ عَلَىٰ الْمَقْصُوْدِ، وَأَثْمَرَتْ لَكَ مَحَبَّتُهُ إِيَّاكَ، فَحِيْنَئِذٍ تَعِيْشُ عَيْشَ الْصِّدِّيقِيْنَ.

---

(١) ثَبَتَ مَرفُوْعًا وَمَوقُوْفًا عَنْ عَائِشَةَ ﵂ وكلاهما صحيح. رواه ابن بشران في «أماليه»(٧٢٢). ولفظه: «مَنْ طَلَبَ مَحَامِدَ النَّاسِ بِمَعْصِيَةِ اللهِ عَادَ حَامِدُهُ ذَامًّا». ورواه الحُميدي في «مسنده»(٢٦٨). والبيهقي في «الزهد الكبير» (٨٨٦) ولفظهما: «إِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ بِغَيْرِ طَاعَةِ اللهِ يَعُودُ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ ذَامًّا» وابن حبان، كِتَابُ «الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ» «ذِكْرُ رِضَاءِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا عَمَّنِ الْتَمَسَ رِضَاهُ بِسَخَطِ النَّاسِ»(٢٧٦) ولفظه: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَىٰ اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَأَرْضَىٰ النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخَطَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»

وَلا خَيْرَ فِي عَيْشٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَا فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ مُخَبَّطٌ فِي عَيْشِهِ[١]، يُدَارِي الأَسْبَابَ، وَيَمِيْلُ إِلَيْهَا بِقَلْبِهِ، وَيَتْعَبُ فِي تَحْصِيْلِ الرِّزْقِ بِحِرْصٍ زَائِدٍ عَلَىٰ الحَدِّ، وَبِرَغْبَةٍ إِلَىٰ الخَلْقِ، وَيَعْتَرِضُ عِنْدَ انْكِسَارِ الأَغْرَاضِ؛ وَالقَدَرُ يَجْرِي، وَلَا يُبَالِي بِسَخَطٍ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُ إِلَّا مَا قُدِّرَ، وَقَد فَاتَهُ القُرْبُ مِنَ الحَقِّ، وَالْمَحَبَّةُ لَهُ، وَالتَّأَدُّبُ مَعَهُ، فَذَلِكَ الْعَيْشُ عَيْشُ البَهَائِمِ.

* [٢٤ - ١٧٩] [خَاطِرَةٌ]:

[يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ العَمَل كُلُّهُ للهِ تَعَالَىٰ]

مَا أَقَلَّ مَنْ يَعْمَلُ للهِ تَعَالَىٰ خَالِصًا! لِأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يُحِبُّوْنَ ظُهُوْرَ عِبَادَاتِهِم، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ كَانَ يَقُوْلُ: لا أَعْتَدُّ بِمَا ظَهَرَ مِنْ عَمَلِي! وَكَانُوْا يَسْتُرُوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَالْيَوْمَ ثِيَابُ الْقَوْمِ تُشْهِرُهُمْ! وَقَد كَانَ أَيُّوْبُ السَّخْتِيَانِي[٢] يُطَوِّلُ قَمِيْصَهُ حَتَّىٰ يَقَعَ عَلَىٰ قَدَمَيْهِ، وَيَقُوْلُ: كَانَتِ الشُّهْرَةُ فِي التَّطْوِيلِ، وَالْيَوْمَ الشُّهْرَةِ فِي التَّقْصِيْرِ.

فَاعلَمْ أَنَّ تَرْكَ النَّظَرِ إِلَىٰ الخَلْقِ، وَمَحْوَ الجَاهِ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِالتَّعَمُّلِ[٣]، وَإِخْلَاصِ القَصْدِ، وَسَتْرِ الحَالِ: وَهُوَ الَّذِي رَفَعَ مَنْ رَفَعَ، فَقَدْ كَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ[٤] يَمْشِي حَافِيًا فِي وَقْتٍ، وَيَحْمِلُ نَعْلَيْهِ فِي يَدَيْهِ، وَيَخْرُجُ لِلَّقَاطِ[٥]، وَبِشْرٌ[٦] يَمْشِي حَافِيًا عَلَىٰ الدَّوَامِ وَحْدَهُ،

(١) التَّخَبُّطِ: هُوَ الاضطِرابُ.

(٢) أَيُّوْبُ السَّخْتِيَانِيُّ أَبُو بَكْرٍ بنُ أَبِي تَمِيْمَةَ، الحَافِظُ، سَيِّدُ العُلَمَاءِ، عِدَادُهُ فِي صِغَارِ التَّابِعِيْنَ. مَاتَ سنة:(١٣١هـ).

(٣) أي: بالمعاملة مع النفس ومجاهدتها وحملها علىٰ التخلية والتحلية.

(٤) أَبُو عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ حَنْبَلِ الشَّيْبَانِيُّ، أَحَدُ الأَئِمَّةِ الأَعْلَامِ، وَشَيْخُ الإِسْلَامِ مَاتَ سَنَةَ:(٢٤١هـ).

(٥) اللَّقْطُ: أَخذُ الشيءِ من الأرض لقَطَه يَلْقُطه لَقْطًا، والتقَطَه أخذه من الأرض. ويقال للذي يَلْقُط السَّنابِلَ إذا حُصِدَ الزرعُ ووُخِزَ الرُّطَب من العِذْق لاقِطٌ ولَقاطٌ ولَقَّاطةٌ. وَهُوَ الْمَعنِي بِقَوْلِ اِبْنِ الجَوْزِي: وَيَخْرُجُ لِلَّقَاطِ.

(٦) بِشْرُ بنُ الحَارِثِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو نَصْرٍ الْمَرْوَزِيُّ بِالحَافِي، الإِمَامُ الرَّبَّانِيُّ، مَاتَ سَنَةَ:(٢٢٧هـ).

وَمَعْرُوفٌ[١] يَلْتَقِطُ النَّوَىٰ[٢].

وَالْيَوْمَ صَارَتْ الرِّئَاسَاتُ أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ حَاجَةٍ، وَمَا تَتَمَكَّنُ الرِّئَاسَاتُ حَتَّىٰ تَتَمَكَّنَ مِنَ الْقَلْبِ الْغَفْلَةُ، وَرُؤْيَةُ الْخَلْقِ، وَنِسْيَانُ الْحَقِّ، فَحِينَئِذٍ تُطْلَبُ الرِّئَاسَةُ عَلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ عَجَبًا، حَتَّىٰ مَنْ يَتَزَيَّا بِالْعِلْمِ: إِنْ رَآنِي أَمْشِي وَحْدِي، أَنْكَرَ عَلَيَّ، وَإِنْ رَآنِي أَزُورُ فَقِيرًا؛ عَظَّمَ ذَلِكَ، وَإِنْ رَآنِي أَنْبَسِطُ بِتَبَسُّمٍ؛ نَقَصْتُ مِنْ عَيْنِهِ.

فَقُلْتُ: فَوَا عَجَبًا! هَذِهِ كَانَتْ طَرِيقَ الرَّسُولِ ﷺ وَالصَّحَابَةِ ﭫ، فَصَارَتْ أَحْوَالُ الْخَلْقِ نَوَامِيسَ لِإِقَامَةِ الجَاهِ[٣].

لا جَرَمَ وَاللهِ[٤] سَقَطْتُمْ مِنْ عَيْنِ الْحَقِّ، فَأَسْقَطَكُمْ مِنْ عَيْنِ الْخَلْقِ.

فَكَمْ مِمَّنْ يَتْعَبُ فِي تَرْبِيَةِ نَامُوسٍ[٥]؛ وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ، وَلَا يحظَىٰ بِمُرَادِهِ، وَيَفُوتُهُ الْمُرَادُ الأَكْبَرُ.

فَالْتَفِتُوا إِخْوَانِي إِلَىٰ إِصْلاحِ النِّيَّاتِ، وَتَرْكِ التَّزَيُّنِ لِلْخَلْقِ! وَلْتَكُنْ عُمْدَتُكُمُ الاسْتِقَامَةَ مَعَ الْحَقِّ؛ فَبِذَلِكَ صَعِدَ السَّلَفُ وَسَعِدُوْا.

وَإِيَّاكُمْ وَمَا النَّاسُ عَلَيْهِ اليَوْمَ؛ فَإِنَّهُ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ يَقَظَةِ السَّلَفِ نَوْمٌ.

---

(١) مَعْرُوفٌ الكَرْخِيُّ أَبُو مَحْفُوظٍ البَغْدَادِيُّ عَلَمُ الزُّهَّادِ، بَرَكَةُ العَصْرِ، مَاتَ سَنَةَ:(٢٠٠هـ).

(٢) بزور التمر. وهذا الفعل من معروف الكرخي سبقه به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﭬ كما ثبت في «تهذيب الآثار» للطبري. («مسند علي بن أبي طالب»ح/ ٣٨٧، ٣٨٨) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﭬ: «يَلْتَقِطُ النَّوَىٰ، فَإِذَا أَتَىٰ عَلَىٰ دَارٍ فِيهَا عَلِيفَةٌ نَبَذَهُ فِيهَا»

(٣) المقصود بـ«النَّاموس» هنا هو الخِداع والمكر والحيل؛ فكأنَّه قال: إن أحوال الخلق صارت بالخداع والمكر لإقامة جاه أو رياسة.

(٤) لا جَرَمَ: هذه كلمة تَرِد بمعنىٰ تَحْقِيق الشَّيء. وقد اخْتُلف في تقديرها فقِيل: أصْلُها التَّبْرِئة بمعنىٰ لا بُدَّ ثم اسْتُعْمِلت في معنىٰ حَقًّا.

(٥) وكأن المحتال المكار المخادع يُربي هذه الأمور وتكبر معه، ومع ذلك لا تنفعه ويفوته الثواب العظيم.

* [٢٥ - ٣٢٢] [خَاطِرَةٌ]:

[أَهَمُّ صِفَاتِ الرِّجَالِ: الإِخْلَاص فِي العَمَلِ، وَحِفْظ الحُدُود]

لا يَغُرَّكَ مِنَ الرَّجُلِ طَنْطَنَتُهُ[١]، وَمَا تَرَاهُ يَفعَلُ مِن صَلَاةٍ وَصَوْمٍ وَصَدَقَةٍ وَعُزْلَةٍ؛ إِنَّمَا الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يُرَاعِي شَيْئَيْنِ: حِفْظَ الْحُدُوْدِ، وَإِخْلَاصَ الْعَمَلِ[٢].

فَكَمْ قَد رَأَيْنَا مُتَعَبِّدًا يَخرِقُ الْحُدُوْدَ بِالْغِيْبَةِ، وَفِعْلِ مَا لا يَجُوْزُ مِمَّا يُوَافِقُ هَوَاهُ.

وَكَمْ قَد اِخْتَبَرنَا عَلَىٰ صَاحِبِ دِيْنٍ أَنَّهُ يَقْصِدُ بِفِعْلِهِ غَيْرَ اللهِ تَعَالَىٰ! وَهَذِهِ الآفَةُ تَزِيْدُ وَتَنْقُصُ فِي الخَلْقِ.

فَرُبَّ[٣] خَاشِعٍ لِيُقَالَ: نَاسِكٌ! وَصَامِتٍ لِيُقَالَ: خَائِفٌ! وَتَارِكٍ لِلدُّنْيَا لِيُقَالَ: زَاهِدٌ!

فَالرَّجُلُ كُلُّ الرَّجُلِ هُوَ الَّذِي يُرَاعِي حُدُودَ اللهِ، وَهِيَ مَا فُرِضَ عَلَيْهِ، وَأُلْزِمَ بِهِ، وَيُحْسِنُ القَصْدَ، فَيَكُوْنُ عَمَلُهُ وَقَوْلُهُ خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، لا يُرِيْدُ الخَلْقَ وَلَا تَعْظِيْمَهُمْ لَهُ.

وَعَلَامَةُ الْمُخْلِصِ أَنْ يَكُوْنَ فِي جَلْوَتِهِ كَخَلْوَتِهِ، وَرُبَّمَا تَكَلَّفَ بَيْنَ النَّاسِ التَّبَسُّمَ وَالانبِسَاطَ، لِيَنْمَحِيَ عَنْهُ اِسْمُ الزَّاهِدِ؛ فَقَد كَانَ اِبْنُ سِيْرِيْنَ[٤] يَضْحَكُ بِالنَّهَارِ، فَإِذَا جُنَّ اللَّيْلُ؛ فَكَأَنَّهُ قَتَلَ أَهْلَ القَرْيَةِ.

---

(١) الطنطنة: صَوْت الطُّنْبور وَضَرب العُود ذي الأوتار. وتقول: طَنْطَن طَنْطَنة وَدَنْدَنَ دَنْدَنَةً بمعنىٰ واحد. ورجل ذو طَنْطانٍ أي ذو صَخَب. والطَّنْطَنة كثرة الكلام والتصويت به. فمعنىٰ كلام ابن الجوزي: إمَّا لا يغرنك كثرة كلام هذا الرجل، أو لا يغرنك شهرته بين الناس.

(٢) ثبت قريبًا من هذا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ كما ثبت في «مكارم الأخلاق»=«موسوعة الإمام ابن أبي الدنيا» (ج٣/ ص٤٨١/ ح٢٧٠، ٢٧١) عَنْ يَزِيد بْن حَيَّان قَالَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ: «لا تَغُرَّنَّكُمْ طَنْطَنَةُ الرَّجُلِ بِاللَّيلِ - يَعْنِي صَلَاتَهُ - فَإِنَّ الرَّجُلَ كُلَّ الرَّجُلِ مَنْ أَدَّىٰ الْأَمَانَةَ إِلَىٰ مَنِ ائْتَمَنَهُ، وَمَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ». وَعَنْ عُبَيْدِ بنِ أُمِّ كِلَابٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ لا تُعْجِبَنَّكُمْ مِنَ الرَّجُلِ طَنْطَنَتُهُ، وَلَكِنْ مَنْ أَدَّىٰ الْأَمَانَةَ، وَكَفَّ عَنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ فَهُوَ الرَّجُلُ».

(٣) جاء في الأصل: [فربَّما] ولعله تصحيف، وما أثبتناه هو الصواب لتمام المعنى به.

(٤) مُحَمَّدُ بنُ سِيْرِيْنَ أَبُو بَكْرٍ الأَنْصَارِيُّ، مَوْلَىٰ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ. الإِمَامُ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ. مَاتَ سَنَةَ: (١١٠هـ).

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَعْمُوْلَ مَعَهُ[١] لا يُرِيْدُ الشُّرَكَاءَ؛ فَالْمُخْلِصُ مُفْرِدٌ لَهُ بِالْقَصْدِ، وَالْمُرَائِي قَدْ أَشْرَكَ لِيَحْصُلَ لَهُ مَدْحُ النَّاسِ، وَذَلِكَ يَنْقَلِبُ؛ لِأَنَّ قُلُوْبَهُمْ بِيَدِ مَنْ أَشْرَكَ مَعَهُ؛ فَهُوَ يُقَلِّبُهَا عَلَيْهِ لَا إِلَيْهِ.

فَالْمُوَفَّقُ مَنْ كَانَتْ مُعَامَلَتُهُ بَاطِنَةً، وَأَعْمَالُهُ خَالِصَةً، وَذَاكَ الَّذِي تُحِبُّهُ النَّاسُ، وَإِنْ كَرِهُوا[٢]، كَمَا يَمْقُتُوْنَ الْمُرَائِي، وَإِنْ زَادَ تَعَبُّدُهُ.

ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ الْمَوْصُوْفَ بِهَذِهِ الخِصَالِ لَا يَتَنَاهَىٰ عَنْ كَمَالِ الْعُلُوْمِ، وَلَا يُقَصِّرُ عَنْ طَلَبِ الفَضَائِلِ؛ فَمَلأَ الزَّمَانَ أَكْثَرَ مَا يَسَعُهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَقَلْبُهُ لَا يَفْتُرُ عَنِ الْعَمَلِ القَلْبِيِّ، إِلَىٰ[٣] أَنْ [يَصِيرَ[٤]] شُغْلُهُ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ.

* [٢٩ -٢٠١] [خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ رَاءَى الخَلْقَ عَبَدَهُم وَهُوَ لَا يَعلَم]

مَا يَكَادُ يُحِبُّ الاجْتِمَاعَ بِالنَّاسِ إِلَّا فَارِغٌ؛ لِأَنَّ الْمَشْغُوْلَ الْقَلْبِ بِالْحَقِّ يَفِرُّ مِنَ الْخَلْقِ، وَمَتَىٰ تَمَكَّنَ فَرَاغُ الْقَلْبِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ؛ امْتَلأَ بِالْخَلْقِ، فَصَارَ يَعْمَلُ لَهُمْ، وَمِنْ أَجْلِهِم، وَيَهْلِكُ بِالرِّيَاءِ، وَلَا يَعْلَمُ.

وَإِنِّي لأَتَأَمَّلُ عَلَىٰ بَعْضِ مَنْ يَتَزَيَّا بِالْفَقْرِ وَالتَّصَوُّفِ، وَهُوَ يَلْبَسُ ثِيَابًا لَا تُسَاوِي دِيْنَارًا، وَعِنْدَهُ الْمَالُ الْكَثِيْرُ، وَقَدْ أَمْرَحَ نَفْسَهُ[٥] فِي الْمَطَاعِمِ الشَّهِيَّةِ، وَهُوَ عَامِلٌ بِمُقْتَضَىٰ الكِبْرِ

(١) وهو الله تبارك وتعالىٰ.

(٢) كَأَنَّهم يُحبونه رغمًا عنهم، وقد قُذف في قلوبهم هذا الحب، وإن كانوا يُظهرون غير ذلك.

(٣) جاء في الأصل: [إلَّا] ولعله تصحيف، وما أثبتناه هو الصواب لتمام المعنىٰ به.

(٤) ليست في الأصل وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

(٥) يُقَالُ أَمْرَحَ فُلَانًا: جَعَلَهُ يَلْهُو وَيَلْعَب بِفَرَحٍ وَسَعَادَة؛ فكأنَّه أَلْهَا نفسه بالمطاعم الشهية وفرح بها وسعد. وفي بعض نسخ الكتاب المطبوع: [أمرَع] وَأَمْرَعَ لُغَةً وَمَرِعَ مَرَعًا فَهُوَ مَرِعٌ مِنْ بَابِ تَعِبَ. إذًا يكون المعنىٰ: أتعب نفسه في جمع المطاعم. وقد تكون بمعنىٰ: [شبع]؛ يقال للرجل إذا أخصب أَمْرَع واديك وأَمْرَعت الأرضُ: شَبِعَ مالُها كلُّه. والله أعلم.

وَالتَّصَدُّرِ، فَيَتَقَرَّبُ إِلَىٰ أَربَابِ الْدُّنيَا، وَيَسْتَزْرِي أَربَابِ العِلْمِ[١]، وَيَزُوْرُ أوْلَئِكَ دُوْنَهُم؛ وَإِنَّمَا يَرُدُّ مَا يُعطِىٰ لِيَشِيْعَ لَهُ اِسْمُ زَاهِدٍ، فَتَرَاهُ يُرَبِّي النَّامُوْسَ، وَهُوَ فِي اِحْتِيَالِهِ كَثَعْلَبٍ، وَفِي نُهُوْضِهِ إِلَىٰ أَغْرَاضِهِ فِي البَاطِنِ كَلْبٌ شَرِيَ[٢].

فَأَقُوْلُ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا يَزْهَدُ إِلَّا الثِّيَابُ! أَتُرَىٰ مَا سَمِعَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ»[٣]؟!

وَأَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ رُؤْيَةِ النَّفْسِ وَرُؤْيَةِ الْخَلْقِ: فَإِنَّ مَنْ رَأَىٰ نَفْسَهُ؛ تَكَبَّرَ، وَالْمُتَكَبِّرُ أَحْمَقُ؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ يَتَكَبَّرُ بِهِ إِلَّا وَلِغَيْرِهِ أَكْثَرُ مِنْهُ. وَمَنْ رَاءَىٰ الخَلْقَ؛ عَبَدَهُمْ وَهُوَ لا يَعْلَمُ!

فَأَمَّا الْعَامِلُ للهِ ﷻ، فَهُوَ بَعِيْدٌ مِنَ الْخَلْقِ؛ فَإِنْ تَقَرَّبُوْا إِلَيْهِ، سَتَرَ حَالَهُ بِمَا يُوْجِبُ بُعْدَهُمْ عَنْهُ.

وَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ يُرَائِي وَلا يَدْرِي، فَيَمْتَنِعُ مِنَ الْمَشْيِ فِي السُّوْقِ، وَمِنْ زِيَارَةِ الإِخْوَانِ، وَمِنْ أَنْ يَشْتَرِيَ شَيْئًا بِنَفْسِهِ! وَتُوْهِمُهُ نَفْسُهُ أَنِّي أَكْرَهُ مُخَالَطَةَ السُّوْقَةِ!! وَإِنَّمَا هَذَا يُرَبِّي جَاهًا بَيْنَ العُلَمَاءِ؛ إِذْ لَوْ خَالَطَهُم؛ لَامْتُحِيَ جَاهُهُ، وَبَطَلَ تَقْبِيْلُ يَدِهِ!

وَقَد كَانَ بِشْرٌ الحَافِي[٤] يَجْلِسُ فِي مَجْلِسٍ عِنْدَ العَطَّارِ.

وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ أَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ كَانَ يَشْتَرِي حَاجَتَهُ وَيَحْمِلُهَا.

وَخَرَجَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ[٥]، وَهُوَ أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ إِلَىٰ السُّوْقِ، فَاشْتَرَىٰ ثَوْبًا.

---

(١) الإزراء: التَّهاوُن بالشيء؛ يقال: أَزْرَيْت به إذا قَصَّرْتَ بِهِ وتَهاوَنْتَ، وازْدَرَيْته؛ أَيْ: حَقَّرته. وَفِي الحَدِيثِ: «فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لا تُزْدَرَىٰ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْكُم» وَالازْدِرَاء الاحْتِقَارُ وَالانْتِقَاصُ وَالعَيْبُ.

(٢) شَرِيَ: بَالَغَ، وَتَقَدَّمَ، وَمَضَىٰ، وَأَجَدَّ مِنْ غَيْرِ فُتُورٍ.

(٣) رواه الترمذي كتاب «الأدب» بَابُ «مَا جَاءَ إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ أَنْ يَرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ» حديث (٢٨١٩)

(٤) سبق في الخاطرة رقم: [٢٤-١٧٩].

(٥) عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب بْن عَبْد الْمُطَّلِب بْن هَاشِم بْن عَبْد مَنَاف، ﷺ، أَمِيْر الْمُؤْمِنِيْن، أَبُو الحَسَن القُرَشِيّ الهَاشِمِيّ. رَوَىٰ الكَثِيْر عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ مِنَ السَّابِقِيْنَ الأَوَّلِيْن، مَاتَ ﷺ سَنَةَ: (٤٠هـ).

وَقَد كَانَ طَلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفٍ[١] قَارِئَ أَهْلِ الْكُوفَةِ؛ فَلَمَّا كَثُرَ النَّاسُ عَلَيْهِ، مَشَىٰ إِلَىٰ الأَعْمَشِ[٢]، فَقَرَأَ عَلَيْهِ، فَمَالَ النَّاسُ إِلَىٰ الأَعْمَشِ، وَتَرَكُوا طَلْحَةَ.

هَذَا وَاللهِ الْكِبْرِيتُ الأَحْمَرُ وَالإِكْسِيرُ[٣]، لَا مَا يُظَنُّ إِكْسِيرًا فِي الكِيْمَيَاءِ. وَالْمُعَامَلَةُ مَعَ اللهِ تَعَالَىٰ هَكَذَا تَكُوْنُ. فَأَمَّا ضِدُّ هَذِهِ الحَالِ؛ فَحَالَةُ عَابِدٍ لِلْخَلْقِ مُلَبِّسٍ. وَقَدْ عَمَّ هَذَا جُمْهُوْرَ الْخَلْقِ، حَاشَا السَّلَفِ.

أَفْدِي ظِبَاءَ فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا ... مَضْغَ الْكَلَامِ وَلَا صَبْغَ الْحَوَاجِيبِ[٤]

* [٢٧-٢٧٠] [خَاطِرَةٌ]:

[الرِّيَاء يُضيع العَمَل]

عَجِبْتُ لِمَنْ يَتَصَنَّعُ لِلنَّاسِ بِالزُّهْدِ، يَرْجُوْ بِذَلِكَ قُرْبَهُ مِنْ قُلُوْبِهِمْ، وَيَنْسَىٰ أَنَّ قُلُوْبَهُم بِيَدِ مَنْ يَعْمَلُ لَهُ؛ فَإِنْ رَضِيَ عَمَلَهُ، وَرَآهُ خَالِصًا، لَفَتَ الْقُلُوْبَ إِلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَرَهُ خَالِصًا، أَعْرَضَ بِهَا عَنْهُ.

وَمَتَىٰ نَظَرَ العَامِلُ إِلَىٰ التِفَاتِ الْقُلُوْبِ إِلَيْهِ؛ فَقَد زَاحَمَ الشِّرْكَ[٥]؛ لِأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَقْنَعَ بِنَظَرِ مَنْ يَعْمَلُ لَهُ.

---

(١) طَلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفِ بن عَمْرو أَبُو مُحَمَّدٍ اليَامِيُّ، الكُوْفِيُّ. كَانَ يُحَرِّمُ النَّبِيْذَ وَيُحِبُّ عُثْمَانَ ﷺ فَهَاتَانِ خَصْلَتَانِ عَزِيْزَتَانِ فِي الرَّجُلِ الكُوْفِيِّ. تُوُفِّيَ طَلْحَةُ: فِي آخِرِ سَنَةِ:(١١٢هـ).

(٢) سُلَيْمَانُ بنُ مِهْرَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ الأَسَدِيُّ، الإِمَامُ، شَيْخُ الإِسْلَامِ، شَيْخُ الْمُقْرِئِيْنَ وَالْمُحَدِّثِيْنَ، مَاتَ سَنَةَ:(١٤٨هـ).

(٣) الكِبْرِيتُ: مادّة معدنيّة لا فلزّيّة صفراء اللّون، هشّة، لا تنحلّ في الماء، عديمة الطّعم والرائحة، شديدة الاشتعال، ذات لهب أزرق، توجد حول البراكين. والكبريت الأحمر مثل يُضرب بالشيء النادر العزيز الوجود. * أمّا الإكسير: فكان يسود اعتقاد قديم من الخرفات بأنَّ الإكسير مادة يمكن أن تحول المواد الرخيصة إلى مواد ثمينة، وقالوا: إنّه شراب يُطيل الحياة. وعند الفلاسفة يُطلق عليه (حجر الفلاسفة)، وصاروا يسمون كل مادة عجيبة التأثير (إكسيرا).

(٤) البيت من البحر:[البسيط].

(٥) أي: قارب الشرك. تقول: زاحم الخمسين من عُمُره: قاربها.

وَمِنْ ضَرُوْرَةِ الإِخْلَاصِ [أَلَّا يَقْصِدَ[١]] التِفَاتَ الْقُلُوْبِ إِلَيْهِ[٢]؛ فَذَاكَ يَحْصُلُ لَا بِقَصْدِهِ، بَلْ بِكَرَاهَتِهِ لِذَلِكَ.

وَلْيَعْلَمِ الإِنْسَانُ أَنَّ أَعْمَالَهُ كُلَّهَا يَعْلَمُهَا الخَلْقُ جُمْلَةً، وَإِنْ لَمْ يَطَّلِعُوْا عَلَيْهَا؛ فَالْقُلُوْبُ تَشْهَدُ لِلصَّالِحِ بِالصَّلَاحِ، وَإِنْ لَمْ يُشَاهَدْ مِنْهُ ذَلِكَ.

فَأَمَّا مَنْ يَقْصِدُ رُؤْيَةَ الْخَلْقِ بِعَمَلِهِ؛ فَقَدْ مَضَى العَمَلُ ضَائِعًا؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَقْبُوْلٍ عِنْدَ الْخَالِقِ، وَلَا عِنْدَ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ قُلُوبَهُم قَد التَفَتَتْ عَنْهُ؛ فَقَدْ ضَاعَ العِلْمُ، وَذَهَبَ الْعُمُرُ!

وَلَقَدْ أَخْبَرَنَا ابْنُ الْحُصَيْنِ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمَذْهَبِ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ؛ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي؛ قَالَ: حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ مُوْسَى؛ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيْعَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا دَرَّاجٌ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُم يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ، لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ[٣]، لَخَرَجَ [عَمَلُهُ[٤]] لِلنَّاسِ[٥]، كَائِنًا مَا كَانَ»[٦].

فَلْيَتَّقِ اللهَ الْعَبْدُ، وَيَقْصِدْ مَنْ يَنْفَعُهُ قَصْدُهُ، وَلَا يَتَشَاغَلْ بِمَدْحِ مَنْ عَنْ قَلِيلٍ يَبْلَى هُوَ وَهُمْ.

---

(١) ليست في الأصل وأثبتناها لتمام المعنى بها.

(٢) جاء في الأصل: [إلفات القلوب إليه] ولعله تصحيف، وما أثبتناه هو الصواب لتمام المعنى به.

(٣) الْكُوَّة: هي الخرق في الحائط والثُّقب في البيت ونحوه.

(٤) ليست في الأصل وأثبتناها من الحديث في «المسند».

(٥) قوله: «لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ»؛ أي: ظهر لهم إذا أراد الله تعالى إظهاره.

(٦) رواه أحمد في «المسند»(١١١٧٣). رواه ابن حبان كِتَابُ «الْحَظْرِ وَالْإِبَاحَةِ» بَابُ «التَّوَاضُعِ وَالْكِبْرِ وَالْعُجْبِ» (٥٦٧٨). يُنظر: «السلسلة الضعيفة» (١٨٠٧)، «ضعيف الجامع» (٤٧٩٩).

(٤)

[كلامٌ مُهِمٌّ فِي الْعَقِيدَةِ وَعِلْمِ الْكَلامِ]

* [٢٨-٢٤٧] [خَاطِرَةٌ]:

[التَّسْلِيمُ فِي مَعْرِفَةِ ذَاتِ اللهِ تَعَالَى]

مِنْ أَعْجَبِ الأُمُوْرِ طَلَبُ الاطِّلَاعِ عَلَىٰ تَحْقِيْقِ العِرْفَانِ لِذَاتِ اللهِ ﷻ، وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ!

وَهَيْهَاتَ؛ لَيْسَ إِلَّا الْمَعْرِفَةُ بِالْجُمْلَةِ، وَلَقَدْ أَوْغَلَ الْمُتَكَلِّمُوْنَ، فَمَا وَقَعُوْا بِشَيْءٍ، فَرَجَعَ عُقَلَاؤُهُم إِلَىٰ التَّسْلِيْمِ.

وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ، مَالُوا إِلَىٰ القِيَاسِ؛ فَإِذَا أَشْيَاءُ كَثِيْرَةٌ بِعَكْسِ مُرَادِهِم، فَلَمْ يَجِدُوْا مَلْجَأً إِلَّا التَّسْلِيْمَ، فَسَمَّوا مَا خَالَفَهُمْ إِسْتِحْسَانًا.

فَالْفَقِيْهُ مَنْ عَلَّلَ بِمَا يُمْكِنُ؛ فَإِذَا عَجَزَ؛ إِسْتَطرَحَ لِلتَّسْلِيْمِ. هَذَا شَأْنُ الْعَبِيْدِ.

فَأَمَّا مَنْ يَقُوْلُ: لِمَ فَعَلَ كَذَا؟ وَمَا مَعْنَىٰ كَذَا؟ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ الأَطِّلَاعَ عَلَىٰ سِرِّ الْمَلِكِ، وَمَا يَجِدُ إِلَىٰ ذَلِكَ سَبِيْلًا، لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ سَتَرَ كَثِيْرًا مِنْ حِكَمِهِ عَنِ الْخَلْقِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ لَيْسَ فِي قُوَىٰ الْبَشَرِ إِدْرَاكُ حِكَمِ اللهِ تَعَالَىٰ كُلِّهَا.

فَلَا يَبْقَىٰ مَعَ الْمُعْتَرِضِ سِوَىٰ الاعتِرَاضِ الْمُخْرِجِ إِلَىٰ الكُفْرِ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾[الحج: ١٥]، وَالْمَعْنَىٰ: مَنْ رَضِيَ بِأَفْعَالِي، وَإِلَّا، فَلْيَخْنُقْ نَفْسَهُ؛ فَمَا أَفْعَلُ إِلَّا مَا أُرِيْدُ.

* [٢٩-٣٠] [خَاطِرَةٌ]:

[مِنْ أَعْجَبِ الأَدِلَّةِ عَلَى وُجُودِ اللهِ تَعَالَى]

نَظَرتُ فِي الأَدِلَّةِ عَلَى الحَقِّ ﷻ، فَوَجَدْتُهَا أَكْثَرَ مِنَ الرَّمْلِ، وَرَأَيْتُ مِنْ أَعْجَبِهَا أَنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يُخْفِي مَا لَا يَرْضَاهُ اللهُ ﷻ، فَيُظْهِرُهُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ، وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، وَيُنْطِقُ الأَلْسِنَةَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يُشَاهِدْهُ النَّاسُ.

وَرُبَّمَا أَوْقَعَ صَاحِبَهُ فِي آفَةٍ يَفْضَحُهُ بِهَا بَيْنَ الخَلْقِ، فَيَكُونُ جَوَابًا لِكُلِّ مَا أَخفَى مِنَ الذُّنُوبِ، وَذَلِكَ لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ هُنَالِكَ مَنْ يُجَازِي عَلَى الزَّلَلِ، وَلَا يَنْفَعُ مِنْ قَدَرِهِ وَقُدْرَتِهِ حِجَابٌ وَلَا اِسْتِتَارٌ، وَلَا يُضَاعُ لَدَيْهِ عَمَلٌ.

وَكَذَلِكَ يُخْفِي الإِنْسَانُ الطَّاعَةَ، فَتَظْهَرُ عَلَيْهِ، وَيَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَا وَبِأَكْثَرَ مِنْهَا، حَتَّى إِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ لَهُ ذَنْبًا، وَلَا يَذْكُرُونَهُ إِلَّا بِالْمَحَاسِنِ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ هُنَالِكَ رَبًّا لَا يُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ.

وَإِنَّ قُلُوبَ النَّاسِ لَتَعْرِفُ حَالَ الشَّخْصِ وَتُحِبُّهُ أَوْ تَأْبَاهُ، وَتَذُمُّهُ أَوْ تَمْدَحُهُ [وفْقَ مَا](١) يَتَحَقَّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى(٢) فَإِنَّهُ يَكْفِيهِ كُلَّ هَمٍّ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ كُلَّ شَرٍّ.

وَمَا أَصْلَحَ عَبْدٌ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ، دُونَ الْحَقِّ؛ إِلَّا اِنْعَكَسَ مَقْصُودُهُ، وَعَادَ حَامِدُهُ ذَامًّا.

* [٣٠-٢٧٢] [خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ تَفَكَّرَ فِي عَظَمَةِ اللهِ ﷻ، طَاشَ عَقْلُهُ]

مَنْ تَفَكَّرَ فِي عَظَمَةِ اللهِ ﷻ؛ طَاشَ عَقْلُهُ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ أَنْ يُثْبِتَ مَوْجُودًا لَا أَوَّلَ لِوُجُودِهِ، وَهَذَا شَيْءٌ لَا يَعْرِفُهُ الْحِسُّ؛ وَإِنَّمَا يُقِرُّ بِهِ الْعَقْلُ ضَرُورَةً؛ وَهُوَ مُتَحَيِّرٌ بَعْدَ هَذَا الإِقْرَارِ، ثُمَّ

(١) ليست في الأصل وأثبتناها لتمام المعنى بها. وجاء في الأصل، وفي مخطوط (ي): [وربما لم].

(٢) جاء في الأصل وفي مخطوط (ي): [لم يتحقق ما بينه وبين الله تَعَالَى]. والصواب ما أثبتناه لتمام المعنى به.

يَرَىٰ مِنْ أَفْعَالِهِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ وُجُوْدِهِ، فَلَا يَخْفَىٰ وُجُوْدُهُ.

ثُمَّ تَجْرِي فِي أَقْدَارِهِ أُمُوْرٌ، لَوْلَا ثُبُوْتُ الدَّلِيْلِ عَلَىٰ وُجُوْدِهِ؛ لَأَوْجَبَتِ الجَحْدَ.

فَإِنَّهُ يَفْرُقُ الْبَحْرَ لِبَنِي إِسْرَائِيْلَ - وَذَلِكَ شَيْءٌ لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ سِوَىٰ الْخَالِقِ -.

وَيُصَيِّرُ الْعَصَا حَيَّةً، ثُمَّ يُعِيْدُهَا عَصَا، تَلْقَفُ مَا صَنَعُوْا، وَلَا يَزِيْدُ فِيْهَا شَيْءٌ.

فَهَلْ بَعْدَ هَذَا بَيَانٌ؟!

فَإِذَا آمَنَتْ السَّحَرَةُ؛ تَرَكَهُم مَعَ فِرْعَوْنَ يَصْلِبُهُمْ، وَلَا يَمْنَعُ.

وَالأَنْبِيَاءُ يُبْتَلَوْنَ بِالْجُوْعِ وَالْقَتْلِ، وَزَكَرِيَّا يُنْشَرُ، وَيَحيَىٰ تَقْتُلُهُ زَانِيَةٌ[1].

---

(١) أَمَّا نَشْر زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالمِنْشَار؛ فَقَد قَالَ الحَافِظ اِبْنُ كَثِير رَحِمَهُ اللهُ فِي: «البِدَايَة وَالنِّهَايَة» (ج٢/ ص٤٧، ٤٨): «وَقَدِ اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَةُ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، هَلْ مَاتَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْتًا، أَوْ قُتِلَ قَتْلًا؟ عَلَىٰ رِوَايَتَيْنِ؛ فَرَوَىٰ عَبْدُ الْمُنْعِمِ بْنُ إِدْرِيسَ بْنِ سِنَانٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، أَنَّهُ قَالَ: هَرَبَ مِنْ قَوْمِهِ، فَدَخَلَ شَجَرَةً فَجَاءُوا فَوَضَعُوا الْمِنْشَارَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا وَصَلَ الْمِنْشَارُ إِلَىٰ أَضْلَاعِهِ أَنَّ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: لَئِنْ لَمْ يَسْكُنْ أَنِينُكَ لَأَقْلِبَنَّ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا. فَسَكَنَ أَنِينُهُ حَتَّىٰ قُطِعَ بِاثْنَتَيْنِ. وَرَوَىٰ إِسْحَاقُ بْنُ بِشْرٍ، عَنْ إِدْرِيسَ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ وَهْبٍ، أَنَّهُ قَالَ: الَّذِي انْصَدَعَتْ لَهُ الشَّجَرَةُ هُوَ أَشْعِيَا، فَأَمَّا زَكَرِيَّا فَمَاتَ مَوْتًا. فَاللهُ أَعْلَمُ»اهـ. وذكر الإمام ابن الأثير في «الكامل في التاريخ»(ج١/ ص٢٣٥) كيفية قتل زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ والسبب في ذلك؛ فقال رَحِمَهُ اللهُ: «لَمَّا قُتِلَ يَحْيَىٰ وَسَمِعَ أَبُوهُ بِقَتْلِهِ فَرَّ هَارِبًا فَدَخَلَ بُسْتَانًا عِنْدَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِيهِ أَشْجَارٌ، فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ فِي طَلَبِهِ، فَمَرَّ زَكَرِيَّاءُ بِالشَّجَرَةِ. فَنَادَتْهُ: هَلُمَّ إِلَيَّ يَا نَبِيَّ اللهِ! فَلَمَّا أَتَاهَا انْشَقَّتْ فَدَخَلَهَا، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِ وَبَقِيَ فِي وَسَطِهَا. فَأَتَىٰ عَدُوُّ اللهِ إِبْلِيسُ فَأَخَذَ هُدْبَ رِدَائِهِ فَأَخْرَجَهُ مِنَ الشَّجَرَةِ لِيُصَدِّقُوهُ إِذَا أَخْبَرَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا نَلْتَمِسُ زَكَرِيَّاءَ. فَقَالَ: إِنَّهُ سَحَرَ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَانْشَقَّتْ لَهُ فَدَخَلَهَا، قَالُوا: لَا نُصَدِّقُكَ! قَالَ: فَإِنَّ لِي عَلَامَةً تُصَدِّقُونِي بِهَا، فَأَرَاهُمْ طَرَفَ رِدَائِهِ، فَأَخَذُوا الْفُئُوسَ وَقَطَعُوا الشَّجَرَةَ بِاثْنَتَيْنِ وَشَقُّوهَا بِالْمِنْشَارِ، فَمَاتَ زَكَرِيَّاءُ فِيهَا»اهـ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

* وأمَّا قتل يحيىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد حرَّضت امرأة علىٰ قتله، والحديث رواه الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «تَوَارِيخِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ» حديث (٤١٥١). ولفظ الحديث: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «بُعِثَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ وَيَحْيَىٰ بْنُ زَكَرِيَّا فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْحَوَارِيِّينَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ قَالَ: وَكَانَ فِيمَا يَنْهَوْنَهُمْ عَنْهُ نِكَاحُ ابْنَةِ الأَخِ قَالَ: وَكَانَتْ لِمَلِكِهِمُ ابْنَةُ أَخٍ تُعْجِبُهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فَكَانَتْ لَهَا كُلَّ يَوْمٍ حَاجَةٌ يَقْضِيهَا فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ أُمَّهَا قَالَتْ لَهَا: إِذَا دَخَلْتِ عَلَىٰ الْمَلِكِ فَسَأَلَكِ حَاجَتَكِ فَقُولِي حَاجَتِي أَنْ تَذْبَحَ لِي يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ
=

وَنَبِيُّنَا ﷺ يَقُوْلُ كُلَّ عَامٍ: «مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟»[(١)]، فَيَكَادُ الجَاهِلُ بِوجُودِ الْخَالِقِ يَقُوْلُ: لَوْ كَانَ مَوْجُوْدًا؛ لَنَصَرَ أَوْلِيَاءَهُ!

فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ الَّذِي قَدْ ثَبَتَ عِنْدَهُ وُجُوْدُهُ بِالأَدِلَّةِ الظَّاهِرَةِ الْجَلِيَّةِ: أَلَّا يُمَكِّنَ عَقْلَهُ مِنَ الاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ فِي أَفْعَالِهِ[(٢)]، وَلَا يَطْلُبَ لَهَا عِلَّةً[(٣)]، إِذْ قَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ مَالِكٌ وَحَكِيمٌ، فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْنَا وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي فِعْلِهِ؛ نَسَبْنَا ذَلِكَ الْعَجْزَ إِلَىٰ فُهُوْمِنَا.

وَكَيْفَ لَا، وَقَدْ عَجَزَ مُوْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَعْرِفَ حِكْمَةَ خَرْقِ السَّفِينَةِ، وَقَتْلِ الْغُلَامِ، فَلَمَّا بَانَ لَهُ حِكْمَةُ ذَلِكَ الفَسَادِ فِي الظَّاهِرِ؛ أَقَرَّ؟! فَلَوْ قَدْ بَانَتِ الْحِكْمَةُ فِي أَفْعَالِ الخَالِقِ؛ [مَا[(٤)]] جَحَدَ الْعَقْلُ جَحْدَ مُوْسَىٰ يَوْمَ الْخَضِرِ.

فَمَتَىٰ رَأَيْتَ الْعَقْلَ يَقُوْلُ: لِمَ؟ فَأَخْرِسْهُ بِأَنْ تَقُوْلَ لَهُ: يَا عَاجِزُ! أَنْتَ لَا تَعْرِفُ حَقِيقَةَ نَفْسِكَ؛ فَمَا لَكَ وَالاعتِرَاضَ عَلَىٰ الْمَالِكِ؟!

وَرُبَّمَا قَالَ الْعَقْلُ: أَيُّ فَائِدَةٍ فِي الابْتِلَاءِ، وَهُوَ قَادِرٌ أَنْ يُثِيبَ، وَلَا بَلَاءَ؟! وَأَيُّ غَرَضٍ فِي تَعْذِيبِ أَهْلِ النَّارِ، وَلَيْسَ ثَمَّ تَشَفٍّ؟!

فَقُلْ لَهُ: حِكْمَتُهُ فَوْقَ مَرْتَبَتِكَ؛ فَسَلِّمْ لِمَا لا تَعْلَمُ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ مَنِ اعْتَرَضَ بِعَقْلِهِ إِبْلِيسُ، رَأَىٰ فَضْلَ النَّارِ عَلَىٰ الطِّينِ، فَأَعْرَضَ [عَنِ السُّجُوْدِ[(٥)]].

= سَأَلَهَا حَاجَتَهَا فَقَالَتْ: حَاجَتِي أَنْ تَذْبَحَ يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا فَقَالَ: سَلِينِي غَيْرَ هَذَا، فَقَالَتْ: مَا أَسْأَلُكَ إِلَّا هَذَا، فَقَالَ: فَلَمَّا أَبَتْ عَلَيْهِ دَعَا يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا وَدَعِي بِطَسْتٍ فَذَبَحَهُ فَنَدَرَتْ قَطْرَةٌ مِنْ دَمِهِ عَلَىٰ الأَرْضِ فَلَمْ تَزَلْ تَغْلِي حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ بُخْتُنَصَّرَ عَلَيْهِمْ فَجَاءَتْهُ عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَدَلَّتْهُ عَلَىٰ ذَلِكَ الدَّمِ فَأَلْقَىٰ اللهُ فِي قَلْبِهِ أَنْ يَقْتُلَ عَلَىٰ ذَلِكَ الدَّمِ مِنْهُمْ حَتَّىٰ يَسْكُنَ فَقَتَلَ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْهُمْ مِنْ سِنٍّ وَاحِدَةٍ حَتَّىٰ سَكَنَ».

(١) رواه أحمد في «المسند»(١٤٣٩٣، ١٤٥٨٨). والحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «تَوَارِيخِ الْمُتَقَدِّمِينَ»(٤٢٥١).

(٢) أي: لا يُعترض عليه سبحانه وتعالىٰ.

(٣) جاء في الأصل: [ولا يطلب بها علة] والصواب ما أثبتناه لتمام المعنىٰ به.

(٤) ليست في الأصل وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

(٥) ليست في الأصل وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

وَقَدْ رَأَيْنَا خَلْقًا كَثِيْرًا، وَسَمِعْنَا عَنْهُم أَنَّهُم يَقْدَحُوْنَ فِي الحِكْمَةِ؛ لِأَنَّهُم يُحَكِّمُوْنَ الْعُقُوْلَ عَلَىٰ مُقْتَضَاهَا، وَيَنْسَوْنَ أَنَّ حِكْمَةَ الخَالِقِ وَرَاءَ العُقُوْلِ.

فَإِيَّاكَ أَنْ تَفْسَحَ لِعَقْلِكَ فِي تَعْلِيْلٍ؛ أَوْ أَنْ تَطْلُبَ لَهُ جَوَابَ اِعْتِرَاضٍ، وَقُلْ لَهُ: سَلِّمْ تَسْلَمْ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي غَوْرَ الْبَحْرِ، إِلَّا وَقَدْ أَدْرَكَكَ الْغَرَقُ قَبْلَ ذَلِكَ.

هَذَا أَصْلٌ عَظِيْمٌ؛ مَتَىٰ فَاتَ الآدَمِيَّ، أَخْرَجَهُ الاعتِرَاضُ إِلَىٰ الْكُفْرِ.

* [٣١-٢٧٥] [خَاطِرَةٌ]:

[سُبْحَانَ مَنْ أَعْمَى أَكْثَرَ الْقُلُوبِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ]

ادَّعَىٰ الطَّبَائِعِيُّوْنَ(١) أَنَّ مَادَةَ الْمَوْجُوْدَاتِ الْمَاءُ وَالتُّرَابُ وَالنَّارُ وَالهَوَاءُ؛ فَإِذَا كَانَ فِي القِيَامَةِ؛ أَذْهَبَ الأُصُوْلَ، ثُمَّ أَعَادَ الحَيَوَانَ(٢)؛ لِيُعْلَمَ أَنَّهَا كَانَتْ بِالقُدْرَةِ، لَا عَنْ تَأْثِيْرِ الْكُلِّيَّاتِ!

[أَقُوْلُ(٣)]: وَمَنْ قَدَحَ فِي البَعْثِ؛ فَقَدْ(٤) بَالَغَ فِي القَدْحِ فِي الحِكْمَةِ.

وَمَنْ قَالَ: الرُّوْحُ عَرَضٌ؟ فَقَد جَحَدَ البَعْثَ؛ لِأَنَّ العَرَضَ لَا يَبْقَىٰ، وَالأَجْسَادَ تَصِيْرُ تُرَابًا؛ فَإِنْ وُجِدَ شَيْءٌ؛ فَهُوَ اِبْتِدَاءُ خَلْقٍ.

كَلَّا وَاللهِ، [بَلْ(٥)] يُعِيْدُ النَّفْسَ بِعَيْنِهَا [رُوْحًا وَجَسَدًا(٦)]؛ بِدَلِيْلِ إِعَادَةِ مَذْكُوْرَاتِهَا: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾[الصافات: ٥١].

---

(١) الطَّبَائِعِيُّوْنَ: هُم الَّذِين يَقُوْلُوْنَ: إِنَّ العَالَم وُجِدَ نَتِيجَة للطَّبِيعَة الَّتِي هِيَ عِبَارَة عَن: ذَات الأَشْيَاء مِنَ النَّبَاتِ وَالحَيَوَان وَالجَمَادَات فَهَذِهِ الكَائِنَات عِنْدَهُم هِي الطَّبِيعَة وَهِيَ الَّتِي أَوجَدَت نَفْسَهَا؛ وَأَكْثَرُهُم مِنَ الفَلَاسِفَة.

(٢) الحَيَوَانُ: يَقَعُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ. والمقصود: الْحَيَاةُ. وَمِنْهُ قَوْله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[العنكبوت: ٦٤].

(٣) ليست في الأصل وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

(٤) جاء في الأصل: [قد] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه لتمام المعنىٰ به.

(٥) ليست في الأصل وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

(٦) ليست في الأصل وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

وَعِزَّتِهِ؛ إِنَّ لُطْفَهُ فِي الْبِدَايَةِ دَلِيْلٌ عَلَىٰ النِّهَايَةِ. حَنَّنَ الْوَالِدَيْنِ، وَأَجْرَىٰ اللَّبَنَ فِي الثَّدْيِ، وَأَنْشَأَ الأَطْعِمَةَ، وَأَطْلَعَ العَقْلَ عَلَىٰ العَوَاقِبِ.

أَفَيَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ بَعْدَ هَذَا التَّدْبِيْرِ: إِنَّهُ يُهْمِلُ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ فَلَا يَبْعَثُ؟!

أَتَرَىٰ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْرَفَ، فَأَنْشَأَ الْخَلْقَ، وَقَالَ: «كُنْتُ كَنْزًا لا أُعْرَفُ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ»[1]؛ يُؤْثِرُ أَنْ يَعْدِمَهُمْ، فَيُجْهَلَ قَدْرُهُ؟!

سُبْحَانَ مَنْ أَعْمَىٰ أَكْثَرَ الْقُلُوْبِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ.

* [٣٢-٤٣] [خَاطِرَةٌ]:

[النَّهْيِ عَنِ التَّعَمُّقِ فِي الأُمُوْرِ الغَيْبِيَّةِ]

رَأَيْتُ كَثِيْرًا مِنَ الْخَلْقِ وَعَالَمًا مِنَ الْعُلَمَاءِ لَا يَنْتَهُوْنَ عَنِ الْبَحْثِ عَنْ أُصُوْلِ الأَشْيَاءِ الَّتِي أُمِرُوْا بِعِلْمِ جُمَلِهَا[2] مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ عَنْ حَقَائِقِهَا!

---

(١) لا أَصْلَ لَهُ اِتِّفَاقًا. قَالَ شَيْخُ الإِسْلام اِبْن تَيْمِيَّة رحمه الله في «مجموع الفتاوىٰ» (ج١٨/ ص٢١٦): «لَيْسَ هَذَا مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلا يُعْرَفُ لَهُ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَلا ضَعِيفٌ»اهـ. يقول الشيخ الألباني رحمه الله في «الضعيفة» (ج١٣/ ص٥٠/ ح٦٠٢٣): «وتبعه علىٰ هذا كل من جاء بعده؛ كالزركشي في «التذكرة في الأحاديث المشتهرة» (ص١٣٦)، والسخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٣٢٧/ ٨٣٨)؛ فقال عقبه: «وتبعه الزركشي وشيخنا»؛ يعني: ابن حجر. وكذا السيوطي في «الدرر المنتثرة»(ص١٦٣/ ٣٣٠)، وقال في «ذيل الأحاديث الموضوعة»(ص٢٠٣): «قال ابن تيمية: «موضوع». وهو كما قال». وتبعه ابن عراق في «تنزيه الشريعة»؛ فأورده في (الفصل الثالث) منه (١/ ١٤٨/ ٤٤)، ومُلا القاري في «الموضوعات الكبرىٰ»(٢٧٣/ ٣٥٣)، والشيخ العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ١٣٢/ ٢٠١٦) وقال: «وهو واقع كثيرًا في كلام الصوفية، واعتمدوه، وبنوا عليه أصولًا لهم». وقال الألوسي في «تفسيره» (٢٧/ ٢٢) عقب قول ابن تيمية: «ومَن يرويه من الصوفية مُعترِف بعدم ثبوته نقلًا؛ لكن يقول: إنه ثابت كشفًا، وقد نص علىٰ ذلك الشيخ الأكبر (يعني: ابن عربي... النكرة) في الباب:(١٩٨)«الفتوحات»، والتَّصحيح الكشفي شنشنة لهم». ومِن نكِد الدُّنيا أن يُؤلف بعضهم رسالة في شرح هذا الحديث الصوفي الباطل!»اهـ

(٢) جاء في الأصل: [جهلها] ولعله تصحيف، وما أثبتناه من مخطوط (ي) لتمام المعنىٰ به.

كَالرُّوْحِ مَثَلًا؛ فَاللهُ تَعَالَىٰ سَتَرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[الإسراء: ٨٥]، فَلَمْ يَقْنَعُوا، وَأَخَذُوا يَبْحَثُوْنَ عَنْ مَاهِيَّتِهَا، وَلَا يَقَعُوْنَ بِشَيْءٍ(١)، وَلَا يَثْبُتُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ بُرْهَانٌ عَلَىٰ مَا يَدَّعِيْهِ!

وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ؛ فَإِنَّهُ مَوْجُوْدٌ بِلَا شَكٍّ، كَمَا أَنَّ الرُّوْحَ مَوْجُوْدَةٌ بِلَا شَكٍّ، كِلَاهُمَا يُعْرَفُ بِآثَارِهِ، لَا بِحَقِيْقَةِ ذَاتِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا السِّرُّ فِي كَتْمِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ؟ قُلْتُ: لِأَنَّ النَّفْسَ مَا تَزَالُ تَتَرَقَّىٰ مِنْ حَالَةٍ إِلَىٰ حَالَةٍ، فَلَو اطَّلَعَتْ عَلَىٰ هَذِهِ الأَشْيَاءِ؛ لَتَرَقَّتْ إِلَىٰ خَالِقِهَا؛ فَكَانَ سَتْرُ مَا دُوْنَهُ زِيَادَةً فِي تَعظِيْمِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ بَعْضُ مَخْلُوْقَاتِهِ يُعْلَمُ جُمْلَةً، فَهُوَ أَجَلُّ وَأَعْلَىٰ.

وَلَو قَالَ قَائِلٌ: مَا الصَّوَاعِقُ؟ وَمَا البَرْقُ؟ وَمَا الزَّلَازِلُ؟ قُلْنَا: شَيْءٌ مُزْعِجٌ، وَيَكْفِي. وَالسِّرُّ فِي سَتْرِ هَذَا: أَنَّهُ لَوْ كُشِفَتْ حَقَائِقُهُ؛ خَفَّ مِقْدَارُ تَعْظِيْمِهِ(٢). وَمَنْ تَلَمَّحَ هَذَا الفَصْلَ؛ عَلِمَ أَنَّهُ فَصْلٌ عَزِيْزٌ.

فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فِي الْمَخْلُوْقَاتِ؛ فَالْخَالِقُ أَجَلُّ وَأَعَلَىٰ.

فَيَنْبَغِي أَنْ يُوْقَفَ فِي إِثْبَاتِهِ عَلَىٰ دَلِيْلِ وُجُوْدِهِ، ثُمَّ يُسْتَدَلَّ عَلَىٰ جَوَازِ بَعْثِهِ رُسُلَهُ، ثُمَّ تُتَلَقَّىٰ أَوْصَافُهُ مِنْ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ بِهِ، وَلَا يُزَادُ عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَلَقَدْ بَحَثَ خَلْقٌ كَثِيْرٌ عَنْ صِفَاتِهِ بِآرَائِهِمْ، فَعَادَ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ.

وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ مَوْجُوْدٌ، وَعَلِمْنَا مِنْ كَلَامِهِ أَنَّهُ سَمِيْعٌ بَصِيْرٌ حَيٌّ قَادِرٌ... كَفَانَا هَذَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا نَخُوْضُ فِي شَيْءٍ آخَرَ. وَكَذَلِكَ نَقُوْلُ: مُتَكَلِّمٌ، وَالقُرْآنُ كَلَامُهُ، وَلَا نَتَكَلَّفُ مَا فَوْقَ ذَلِكَ. وَلَمْ يَقُلِ السَّلَفُ: تِلَاوَةٌ وَمَتْلُوٌّ، وَقِرَاءَةٌ وَمَقْرُوْءٌ. وَلا قَالَوْا: اِسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرشِ بِذَاتِهِ. وَلا قَالَوا: يَنْزِلُ

---

(١) والمعنىٰ: لا يُحَصِّلُونَ شَيْئًا. تَقُولُ العَرَبُ: وَقَعَ رَبِيعٌ بالأرْضِ يَعْنُونَ بِهِ أوّلَ مَطَرٍ يَقَعُ في الخَرِيفِ أي: حَصَلَ. وفي بعض النسخ المطبوعة: [يقنعون] والمعنىٰ صحيح.

(٢) هذه الإجابة عن السؤال الذي طرحه الإمام ابن الجوزي رحمه الله قد تكون مُقنعة في زمنه وما وصل إليه العلم في وقته، ولكن وهب الله الإنسان العقل ليتفكر في مخلوقاته بل أُمرنا أن نتعلم هذه العلوم الطبيعية؛ وهذا الأمر مُشاهد الآن فما من شيء يَكتشفه العلماء إلا ويزداد به إيمانهم وإيمان طالب العلم.

بِذَاتِهِ... بَلْ أَطْلَقُوا مَا وَرَدَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ. وَنَفَوْا مَا ثَبَتَ بِالدَّلِيلِ مِمَّا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ[1].

وَهَذِهِ كَلِمَاتٌ كَالْمِثَالِ؛ فَقِسْ عَلَيْهَا جَمِيعَ الصِّفَاتِ؛ تَفُزْ سَلِيمًا مِنْ تَعْطِيلٍ، مُتَخَلِّصًا مِنْ تَشْبِيهٍ.

* [٣٣ - ١٧٤] [خَاطِرَةٌ]:

[المُؤْمِنُ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ]

تَأَمَّلْتُ حَالَةً أَزْعَجَتْنِي، وَهُوَ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَفْعَلُ مَعَ امْرَأَتِهِ كُلَّ جَمِيلٍ، وَهِيَ لَا تُحِبُّهُ، وَكَذَا يَفْعَلُ مَعَ صَدِيقِهِ، وَالصَّدِيقُ يُبْغِضُهُ، وَقَدْ يَتَقَرَّبُ إِلَى السُّلْطَانِ بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَالسُّلْطَانُ لَا يُؤْثِرُهُ؛ فَيَبْقَى مُتَحَيِّرًا يَقُولُ: مَا حِيلَتِي؟!

فَخِفْتُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ حَالَتِي مَعَ الخَالِقِ سُبْحَانَهُ؛ أَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ، وَهُوَ لَا يُرِيدُنِي، وَرُبَّمَا يَكُونَ قَدْ كَتَبَنِي شَقِيًّا فِي الأَزَلِ.

وَمِنْ هَذَا خَافَ الحَسَنُ، فَقَالَ: أَخَافُ أَنْ يَكُونَ اطَّلَعَ عَلَى بَعْضِ ذُنُوبِي، فَقَالَ: لَا غَفَرْتُ لَكَ.

فَلَيْسَ إِلَّا القَلَقُ وَالخَوْفُ، لَعَلَّ سَفِينَةَ الرَّجَاءِ تَسْلَمُ - يَوْمَ دُخُولِهَا الشَّاطِئَ - مِنْ جُرُفٍ[2].

* [٣٤-٨] [خَاطِرَةٌ]:

[سَبَقَتْ مَحَبَّةُ اللهِ تَعَالَى لِأَحْبَابِهِ]

سُبْحَانَ مَنْ سَبَقَتْ مَحَبَّتُهُ لِأَحْبَابِهِ؛ فَمَدَحَهُمْ عَلَى مَا وَهَبَ لَهُمْ، وَاشْتَرَى مِنْهُمْ مَا

(١) جاء في الأصل: [نَقُولُ لِمَا ثَبَتَ بِالدَّلِيلِ] وما أثبتناه من مخطوط (ي) لتمام المعنى به.

(٢) الجُرُفِ: ما أَكَلَ السَّيْلُ مِن أَسْفَلِ شِقِّ الوَادِي والنَّهرِ.

أَعْطَاهُمْ[(١)]، وَقَدَّمَ الْمُتَأَخِّرَ مِنْ أَوْصَافِهِمْ لِمَوْضِعِ إِيْثَارِهِمْ؛ فَبَاهَىٰ بِهِمْ فِي صَوْمِهِم، وَأَحَبَّ خُلُوْفَ أَفْوَاهِهِمْ[(٢)].

يَا لَهَا مِنْ حَالَةٍ مَصُوْنَةٍ! لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا كُلُّ طَالِبٍ، وَلَا يَبْلُغُ كُنْهَ[(٣)] وَصْفِهَا كُلُّ خَاطِبٍ.

* [٣٥-٩٥] [خَاطِرَةٌ]:

[الإِمْهَالُ ابْتِلَاءٌ لِصَبْرِ الصَّابِرِ وَإِمْلَاءٌ لِلظَّالِمِ]

سُبْحَانَ الْمَلِكِ العَظِيْمِ، الَّذِي مَنْ عَرَفَهُ خَافَهُ، وَمَا أَمِنَ مَكْرَه قَطُّ مَنْ عَرَفَهُ[(٤)].

لَقَدْ تَأَمَّلْتُ أَمْرًا عَظِيْمًا: أَنَّهُ ﷻ يُمْهِلُ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ يُهْمِلُ، فَتَرَىٰ أَيْدِي العُصَاةِ مُطْلَقَةً، كَأَنَّهُ لَا مَانِعَ؛ فَإِذَا زَادَ الانْبِسَاطُ، وَلَمْ تَرْعَوِ العُقُوْلُ[(٥)]، أَخَذَ أَخْذَ جَبَّارٍ.

---

(١) كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (ج٦/ ص١٨٨٦/ ح١٠٣٠٣) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، فَكَبَّرَ النَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ ثَانِيًا طَرَفَيْ رِدَائِهِ عَلَىٰ أَحَدِ عَاتِقَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: بَيْعٌ رَبِيحٌ، لَا نَقِيلُ وَلا نَسْتَقِيلُ.

(٢) يُشير ﵀ إلىٰ ما رواه البخاري، كِ:«الصَّوْمِ» بَ:«فَضْلِ الصَّوْمِ»(١٨٩٤). ومسلم، كِ:«الصِّيَامِ» بَ:«فَضْلِ الصِّيَامِ»(١١٥١).عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ فَلاَ يَرْفُثْ وَلا يَجْهَلْ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ - مَرَّتَيْنِ - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».
وَرَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ فِي «مسند الشاميين»(٢٢٣٨) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمًا وَحَضَرَ رَمَضَانَ: «أَتَاكُمْ رَمَضَانُ، شَهْرُ بَرَكَةٍ يُغْشِيكُمُ اللهُ فِيهِ، فَيُنْزِلُ الرَّحْمَةَ وَيَحُطُّ الْخَطَايَا، وَيَسْتَجِيبُ فِيهِ الدُّعَاءَ، يَنْظُرُ اللهُ إِلَىٰ تَنَافُسِكُمْ، وَيُبَاهِي بِكُمْ مَلائِكَتَهُ، فَأَرُوا اللهَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ فِيهِ رَحْمَةَ اللهِ ﷻ». قال الهيثمي في «المجمع»(ج٣/ ص١٤٢/ ح٤٧٨٣): رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَفِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي قَيْسٍ؛ وَلَمْ أَجِدْ مَنْ تَرْجَمَهُ.

(٣) كُنْهُ الأمرِ: حَقِيقَته. وَقِيْلَ: وَقْته وَقَدْرُه. وَقِيْلَ: غايَتُه.

(٤) جاء في الأصل: [ما عرفه] ولعله تصحيف، وما أثبتناه من مخطوط (ي) لتمام المعنىٰ به

(٥) أي: لم تنزجر ولم تتعظ وترتدع؛ تقول: ارعوىٰ الشَّخصُ عن غيِّه: كفَّ عنه وارتدع.

وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الإِمْهَالُ لِيَبْلُوَ صَبْرَ الصَّابِرِ، وَلِيُمْلِيَ فِي الإِمْهَالِ لِلظَّالِمِ، فَيُثِبْتَ هَذَا عَلَىٰ صَبْرِهِ، وَيَجْزِي هَذَا بِقَبِيحِ فِعْلِهِ.

مَعَ أَنَّ هُنَالِكَ مِنَ الْحِلْمِ فِي طَيِّ ذَلِكَ مَا لَا نَعْلَمُهُ، فَإِذَا أَخَذَ أَخْذَ عُقُوبَةٍ؛ رَأَيْتَ عَلَىٰ كُلِّ غَلْطَةٍ تَبِعَةً، وَرُبَّمَا جُمِعَتْ، فَضُرِبَ العَاصِي بِالحَجَرِ الدَّامِغِ[1].

وَرُبَّمَا خَفِيَ عَلَىٰ النَّاسِ سَبَبُ عُقُوبَتِهِ، فَقِيلَ: فُلَانٌ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ، فَمَا وَجْهُ مَا جَرَىٰ لَهُ؟! فَيَقُولُ القَدَرُ: حُدُودٌ لِذُنُوبٍ خَفِيَّةٍ، صَارَ اسْتِيفَاؤُهَا ظَاهِرًا.

فَسُبْحَانَ مَنْ ظَهَرَ حَتَّىٰ لَا خَفَاءَ بِهِ، وَاسْتَتَرَ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ لَا يُعْرَفُ، وَأَمْهَلَ حَتَّىٰ طُمِعَ فِي مُسَامَحَتِهِ، وَنَاقَشَ حَتَّىٰ تَحَيَّرَتِ العُقُولُ مِنْ مُؤَاخَذَتِهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

* [٣٦-٢٣٨] [خَاطِرَةٌ]:

[مِنْ أَسْبَابِ تَخْلِيطِ العَقَائِدِ]

تَأَمَّلْتُ سَبَبَ تَخْلِيطِ الْعَقَائِدِ؛ فَإِذَا هُوَ الْمَيْلُ إِلَىٰ الحِسِّ، وَقِيَاسُ الغَائِبَاتِ عَلَىٰ الحَاضِرِ؛ فَإِنَّ أَقْوَامًا غَلَبَ عَلَيْهِمُ الْحِسُّ؛ فَلَمَّا لَمْ يُشَاهِدُوا الصَّانِعَ؛ جَحَدُوا وُجُودَهُ، وَنَسُوا أَنَّهُ قَد ظَهَرَ بِأَفْعَالِهِ، وَأَنَّ هَذِهِ الأَفْعَالَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ فَاعِلٍ.

فَإِنَّ العَاقِلَ إِذَا مَرَّ عَلَىٰ صَحْرَاءَ خَالِيَةٍ، ثُمَّ عَادَ وَفِيهَا غَرْسٌ وَبِنَاءٌ؛ عَلِمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ غَارِسٍ إِذِ الْغَرْسُ لَا يَكُونُ بِنَفْسِهِ وَلَا البِنَاءُ.

ثُمَّ جَاءَ قَوْمٌ، فَأَثْبَتُوا وُجُودَ الصَّانِعِ، ثُمَّ قَاسُوهُ عَلَىٰ أَحْوَالِهِم، فَشَبَّهُوا، حَتَّىٰ إِنَّ قَائِلَهُم يَقُولُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «يَنْزِل إِلَىٰ السَّمَاءِ»[2]: يَنْتَقِلُ! وَيَسْتَدِلُّ بِأَنَّ الْعَرَبَ لَا تَعْرِفُ النُّزُولَ إِلَّا الانْتِقَالَ.

---

(١) الحَجَرِ الدَّامِغِ؛ أي: تبلغ الدِّماغَ فتقتل لوقتها؛ وضربة دامِغَة؛ أي: قاتلة.

(٢) يُشير رحمه الله إلىٰ ما رواه مسلم كِتَابُ «صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ» بَابُ «التَّرْغِيبِ فِي الدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ فِي آخِرِ اللَّيْلِ» (٧٥٨): =

وَضَلَّ خَلْقٌ كَثِيْرٌ فِي صِفَاتِهِ، كَمَا ضَلَّ خَلْقٌ كَثِيْرٌ فِي ذَاتِهِ، فَظَنَّ أَقْوَامٌ أَنَّهُ يَتَأَثَّرُ حِيْنَ سَمِعُوْا أَنَّهُ يَغْضَبُ وَيَرْضَىٰ، وَنَسُوْا أَنَّ صِفَتَهُ تَعَالَىٰ قَدِيْمَةٌ، لَا يَحْدُثُ مِنْهَا شَيْءٌ.

وَضَلَّ خَلْقٌ فِي أَفْعَالِهِ، فَأَخَذُوْا يُعَلِّلُوْنَ، فَلَمْ يَقَعُوا بِشَيْءٍ[1]، فَخَرَجَ مِنْهُمْ قَوْمٌ إِلَىٰ أَنْ نَسَبُوْا فِعْلَهُ إِلَىٰ ضِدِّ [الحِكْمَةِ[2]] تَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ!!

وَمَنْ رُزِقَ التَّوْفِيْقَ؛ فَلْيُحْضِرْ قَلْبَهُ لِمَا أَقُوْلُ: اِعْلَمْ أَنَّ ذَاتَهُ سُبْحَانَهُ لَا تُشْبِهُ الذَّوَاتِ، وَصِفَاتِهِ لَيْسَتْ كَالصِّفَاتِ، وَأَفْعَالَهُ لَا تُقَاسُ بِأَفْعَالِ الخَلْقِ.

أَمَّا ذَاتُهُ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّا لَا نَعْرِفُ ذَاتًا: إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ جِسْمًا، وَذَاكَ يَسْتَدْعِي سَابِقَةَ تَأْلِيْفٍ، وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْمُؤَلَّف. إِمَّا[3] أَنْ يَكُوْنَ جَوْهَرًا، فَالجَوْهَرُ مُتَحَيِّزٌ، وَلَهُ أَمْثَالٌ، وَقَدْ جَلَّ عَنْ ذَلِكَ. أَوْ عَرَضًا، فَالْعَرَضُ لَا يَقُوْمُ بِنَفْسِهِ، بَل بِغَيْرِهِ، وَقَدْ تَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ.

فَإِذَا أَثْبَتْنَا ذَاتًا قَدِيْمَةً خَارِجَةً عَمَّا يُعْرَفُ؛ فَلْيُعْلَمُ أَنَّ الصِّفَاتِ تَابِعَةٌ لِتِلْكَ الذَّاتِ؛ فَلَا يَجُوْزُ لَنَا أَنْ نَقِيْسَ شَيْئًا عَلَىٰ مَا نَفْعَلُهُ وَنَفْهَمُهُ، بَل نُؤْمِنُ بِهِ، وَنُسَلِّمُهُ.

وَكَذَلِكَ أَفْعَالُهُ؛ فَإِنَّ أَحَدَنَا لَوْ فَعَلَ فِعْلًا لَا يَجْتَلِبُ بِهِ نَفْعًا، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ ضُرًّا؛ عُدَّ عَابِثًا،

= عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا مَضَىٰ شَطْرُ اللَّيْلِ، أَوْ ثُلُثَاهُ، يَنْزِلُ اللهُ ﷻ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَىٰ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّىٰ يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ».

* قَالَ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الآجُرِّيُّ رحمه الله في «كتاب الشريعة» (ج٣/ ص١١٢٤/ باب: «الإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ بِأَنَّ اللهَ ﷻ يَنْزِلُ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ»): «الإِيمَانُ بِهَذَا وَاجِبٌ، وَلَا يَسَعُ الْمُسْلِمَ الْعَاقِلَ أَنْ يَقُولَ: كَيْفَ يَنْزِلُ؟ وَلَا يَرُدُّ هَذَا إِلَّا الْمُعْتَزِلَةُ وَأَمَّا أَهْلُ الْحَقِّ فَيَقُولُونَ: الإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ بِلَا كَيْفٍ؛ لِأَنَّ الأَخْبَارَ قَدْ صَحَّتْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «أَنَّ اللهَ ﷻ يَنْزِلُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ» وَالَّذِينَ نَقَلُوا إِلَيْنَا هَذِهِ الأَخْبَارَ هُمُ الَّذِينَ نَقَلُوا إِلَيْنَا الأَحْكَامَ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَعِلْمَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالْحَجِّ، وَالْجِهَادِ، فَكَمَا قَبِلَ الْعُلَمَاءُ عَنْهُمْ ذَلِكَ كَذَلِكَ قَبِلُوا مِنْهُمْ هَذِهِ السُّنَنَ، وَقَالُوا: مَنْ رَدَّهَا فَهُوَ ضَالٌّ خَبِيثٌ، يَحْذَرُونَهُ وَيُحَذِّرُونَ مِنْهُ» اهـ.

(١) والمعنىٰ: لا يُحَصِّلُونَ شَيْئًا. تَقُولُ العَرَبُ: وَقَعَ رَبِيعٌ بالأرضِ يَعْنُونَ بِهِ أَوَّلَ مَطَرٍ يَقَعُ فِي الخَرِيفِ؛ أي: حَصَلَ.

وفي بعض النسخ المطبوعة: [يقنعون] والمعنىٰ صحيح.

(٢) ليست في الأصل وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

(٣) جاء في الأصل: [أو] والصواب ما أثبتناه لتمام المعنىٰ به.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَوْجَدَ الْخَلْقَ، لَا لِنَفْعٍ يَعُوْدُ إِلَيْهِ وَلَا لِدَفْعِ ضُرٍّ؛ إِذِ الْمَنَافِعُ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ، وَالْمَضَارُّ لَا تَتَطَرَّقُ عَلَيْهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّمَا خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَنْفَعهُم. قُلْنَا: يُبْطِلُهُ أَنَّهُ خَلَقَ مِنْهُمْ [صِنْفًا(١)] لِلْكُفْرِ، وَعَذَّبَهُم، وَنَرَاهُ يُؤْلِمُ الْحَيَوَانَ وَالأَطفَالَ، وَيَخْلُقُ الْمَضَارَّ، وَهُوَ قَادِرٌ أَنْ لَا يَفْعَلَ ذَلِكَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهُ يُثِيبُ عَلَىٰ ذَلِكَ. قُلْنَا: وَهُوَ قَادِرٌ أَنْ يُثِيبَ بِلَا هَذِهِ الأَشْيَاءِ؛ فَإِنَّ السُّلْطَانَ لَوْ أَرَادَ أَنْ يُغْنِيَ فَقِيرًا، فَجَرَحَهُ، ثُمَّ أَغْنَاهُ؛ لِيْمَ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ قَادِرٌ أَنْ يُغْنِيَهُ بِلَا جِرَاحٍ.

ثُمَّ مَنْ يَرَىٰ مَا جَرَىٰ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَعَلَىٰ أَصْحَابِهِ مِنَ الْجُوْعِ وَالْقَتْلِ؛ مَعَ قُدْرَةِ النَّاصِرِ، ثُمَّ يَسْأَلُ فِي أُمِّهِ فَلَا يُجَابُ(٢)، وَلَوْ كَانَ الْمَسْؤُوْلَ بَعْضُنَا؛ قُلْنَا: لِمَ تَمْنَعُ مَا لَا يَضُرُّكَ؟!

غَيْرَ أَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ لَا تُقَاسُ أَفْعَالُهُ عَلَىٰ أَفْعَالِنَا، وَلَا تُعَلَّلُ، وَالَّذِي يُوْجِبُ عَلَيْنَا التَّسْلِيْمَ أَنَّ حِكْمَتَهُ فَوْقَ الْعَقْلِ؛ فَهِيَ تَقْضِي عَلَىٰ الْعُقُوْلِ، وَالعُقُوْلُ لَا تَقْضِي عَلَيْهَا، وَمَنْ قَاسَ فِعْلَهُ عَلَىٰ أَفْعَالِنَا؛ غَلِطَ الْغَلَطَ الفَاحِشَ.

وَإِنَّمَا هَلَكَتِ الْمُعْتَزِلَةُ(٣) مِنْ هَذَا الفَنِّ؛ فَإِنَّهُمْ قَالُوا: كَيْفَ يَأْمُرُ بِشَيْءٍ وَيَقْضِي بِامْتِنَاعِهِ؟! وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا دَعَانَا إِلَىٰ دَارِهِ، ثُمَّ أَقَامَ مَنْ يَصُدُّ الدَّاخِلَ؛ لَعِيْبَ. وَلَقَدْ صَدَقُوْا فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِالشَّاهِدِ؛ فَأَمَّا مَنْ أَفْعَالُهُ لَا تُعَلَّلُ، وَلَا يُقَاسُ بِشَاهِدٍ؛ فَإِنَّا لَا نَصِلُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ حِكْمَتِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَكَيْفَ يُمْكِنُنِي أَنْ أَقُوْدَ عَقْلِي إِلَىٰ مَا يُنَافِيْهِ؟ قُلْنَا: لَا مُنَافَاةَ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ قَدْ قَطَعَ بِالدَّلِيْلِ الجَلِيِّ أَنَّهُ حَكِيْمٌ، وَأَنَّهُ مَالِكٌ، وَالحَكِيْمُ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا لِحِكْمَةٍ؛ غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ الْحِكْمَةَ لَا يَبْلُغُهَا العَقْلُ.

---

(١) ليست في الأصل وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

(٢) يُشير ﵀ إلىٰ ما رواه مسلم، كِتَابُ «الْجَنَائِزِ» بَابُ «اسْتِئْذَانِ النَّبِيِّ ﷺ رَبَّهُ ﷻ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ»(٩٧٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي».

(٣) المعتزلة: فرقة إسلامية نشأت في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي، وقد اعتمدت علىٰ العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية لتأثرها ببعض الفلسفات المستوردة مما أدىٰ إلىٰ انحرافها. وقد أطلق عليها أسماء مختلفة منها: المعتزلة والقدرية والعدلية وأهل العدل والتوحيد والمقتصدة والوعيدية.

أَلا تَرَىٰ أَنَّ الْخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَقَ سَفِينَةً، وَقَتَلَ شَخْصًا، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحُكْمِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَطَّلِعْ عَلَىٰ حِكْمَةِ فِعْلِهِ، فَلَمَّا أَظْهَرَ لَهُ الْحِكْمَةَ؛ أَذْعَنَ؟ وَللهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ.

فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَقِيسَ شَيْئًا مِنْ أَفْعَالِهِ عَلَىٰ أَفْعَالِ الْخَلْقِ، أَوْ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِ، أَوْ ذَاتِهِ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّكَ إِنْ حَفِظْتَ هَذَا؛ سَلِمْتَ مِنَ التَّشْبِيهِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ مَنْ رَأَىٰ الاسْتِوَاءَ اعتِمَادًا، وَالنُّزُولَ نُقْلَةً، وَنَجَوْتَ مِنَ الاعتِرَاضِ، الَّذِي أَخْرَجَ قَوْمًا إِلَىٰ الكُفْرِ، حَتَّىٰ طَعَنُوا فِي الحِكْمَةِ.

وَأَوَّلُ القَوْمِ إِبْلِيسُ[(١)]؛ فَإِنَّهُ رَأَىٰ تَقْدِيمَ الطِّينِ عَلَىٰ النَّارِ لَيْسَ بِحِكْمَةٍ، فَنَسِيَ أَنَّهُ إِنَّمَا عَلِمَ ذَلِكَ - بِزَعْمِهِ - بِالْفَهْمِ الَّذِي وُهِبَ لَهُ، وَالْعَقْلِ الَّذِي مُنِحَهُ، فَنَسِيَ أَنَّ الوَاهِبَ أَعْلَمُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[فصلت: ١٥]!

وَلَقَد رَأَيْتُ لِابْنِ الرُّومِيِّ[(٢)] اعْتِرَاضًا عَلَىٰ مَنْ يَقُولُ بِتَخْلِيدِ الْكُفَّارِ فِي النَّارِ، [قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ التَّأْبِيدَ مَزِيدٌ مِنَ الانْتِقَامِ، يُنْكِرُهُ الْعَقْلُ، [وَ[(٣)]] يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ كُلُّ مَا يَقُولُهُ العَقْلُ، وَلَا يُرَدَّ بَعْضُهُ؛ إِذْ لَيْسَ رَدُّ بَعْضِهِ بِأَوْلَىٰ مِنْ رَدِّ الْكُلِّ، وَتَخْلِيدُ الْكُفَّارِ لَا غَرَضَ فِيهِ لِلْمُعَذِّبِ وَلَا لِلْمُعَذَّبِ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ.

فَقُلْتُ: العَجَبُ مِنْ هَذَا الَّذِي يَدَّعِي وُجُودَ الْعَقْلِ، وَلَا عَقْلَ عِنْدَهُ! وَأَوَّلُ مَا أَقُولُ لَهُ: أَصَحَّ عِنْدَكَ الْخَبَرُ عَنِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِخُلُودِ أَهْلِ النَّارِ[(٤)]، أَمْ لَمْ يَصِحَّ؟ فَإِنْ كَانَ [مَا[(٥)]] صَحَّ عِنْدَهُ؛ فَالْكَلَامُ إِذَنْ فِي إِثْبَاتِ النُّبُوَّةِ، وَصِحَّةِ القُرآنِ؛ فَمَا وَجْهُ ذِكْرِكَ الفَرْعَ مَعَ جَحْدِ الأَصْلِ؟!

---

(١) أي: أول القوم اعتراضًا. وسيذكر خبره في الخاطرة القادمة [٣٧-١٩٢].

(٢) كذا جاء في الأصل. وبعيد جدًا أن يكون قد قصد الشاعر المعروف أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ العَبَّاسِ بنِ جُرَيْجٍ؛ لاسيما وقد أثنىٰ عليه مَن ترجم له مِن أهل السنة. حتىٰ أن ابن الجوزي ترجم له في كتاب «المنتظم» ولم يذكره بسوء؛ فالله أعلم بمراد ابن الجوزي رحمه الله ومَن يقصد.

(٣) ليست في الأصل وأثبتناها من المطبوع لتمام المعنى بها.

(٤) كَأَنَّهُ رحمه الله يُشِيرِ إِلىٰ ما رواه البخاري، كِتَابُ «الرِّقَاقِ» بَابٌ: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ» (٦٥٤٤). ومسلم كتاب «الْجَنَّةِ» بَابُ «النَّارُ يَدْخُلُهَا الْجَبَّارُونَ»(٢٨٥٠) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُومُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ: يَا أَهْلَ النَّارِ لا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ الجَنَّةِ لا مَوْتَ، خُلُودٌ».

(٥) ليست في الأصل وأثبتناها من المطبوع لتمام المعنى بها.

وَإِنْ قَالَ: قَدْ ثَبَتَ عِنْدِي: فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَتَمَحَّلَ(١) لِإِقَامَةِ العُذْرِ؛ إِلَّا أَنْ يَقِفَ فِي وَجْهِ الْمُعَارَضَةِ.

وَإِنَّمَا يُنْكِرُ هَذَا مَنْ يَأْخُذُ الأَمْرَ مِنَ الشَّاهِدِ، وَقَد بَيَّنَّا أَنَّ ذَاتَ الحَقِّ لَا كَالذَّوَاتِ، وَأَنَّ صِفَاتِهِ لَا كَالصِّفَاتِ، وَأَنَّ أَفْعَالَهُ لَا تُعَلَّلُ.

وَلَوْ تَلَمَّحَ شَيْئًا مِنَ التَّعْلِيْلِ لِخُلُوْدِ الْكُفَّارِ، لَبَانَ. إِذْ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَكُوْنَ دَوَامُ تَعْذِيْبِهِمْ لِإِظْهَارِ صِدْقِ الْوَعِيْدِ، فَإِنَّهُ قَالَ: مَنْ كَفَرَ بِي، خَلَّدْتُهُ فِي العَذَابِ، وَلَا جِنَايَةَ كَالكُفْرِ، وَلَا عُقُوْبَةَ كَدَوَامِ الإِحرَاقِ؛ فَهُوَ يَدُوْمُ لِيُظْهِرَ صِدْقَ الوَعِيْدِ(٢).

وَمِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَكُوْنَ ذَلِكَ لِتَتِمَّةِ تَنْعِيْمِ الْمُؤْمِنِيْنَ؛ فَإِنَّهُمْ أَعْدَاءُ الكُفَّار، وَقَد قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١٤].

وَكَمْ مِنْ قَلَقٍ فِي صَدْرٍ، وَحَنَقٍ عَلَىٰ أَبِي جَهْلٍ فِيْمَا فَعَلَ! وَكَمْ مِنْ غَمٍّ فِي قَلْبِ عَمَّارٍ، وَأُمِّهِ سُمَيَّةَ وَغَيْرِهِم مِنْ أَفْعَالِ الكُفَّارِ بِهِمْ! فَدَوَامُ عَذَابِهِم شِفَاءٌ لِقُلُوْبِ أَهْلِ الإِيمَانِ.

وَمِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَدُوْمَ الْعَذَابُ لِدَوَامِ الاعتِرَاضِ، وَذِكْرِ الْمُعذِّبِ بِمَا لَا يَحْسُنُ؛ فَكُلَّمَا زَادَ عَذَابُهُم، زَادَ كُفْرُهُم وَاعتِرَاضُهُم؛ فَهُمْ يُعَذَّبُوْنَ لِذَلِكَ(٣).

وَدَلِيْلُ دَوَامِ كُفْرِهِم: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾[المجادلة: ١٨]؛ فَإِذَنْ كُفْرُهُم مَا زَالَ، وَمَعْرِفَتُهُم

---

(١) يَتَمَحَّل: تَمَحُّلًا، فَهُوَ مُتَمَحِّل. وَتَمَحَّلَ؛ أَيْ: اِحْتَالَ؛ تَقُولُ: تَمَحَّل الشَّخصُ لِبُلُوغِ هَدفه: اِحتَالَ، التَمَسَ حِيلة، سَلَكَ طُرقًا مُلْتَوِية للوصول إلىٰ الأمرِ.

(٢) جاء في الأصل: [الوعد] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه لتمام المعنىٰ به.

(٣) هذا الذي ذكره ابن الجوزي رحمه الله وإن استقام في حق بعض أهل النَّار؛ فإنه لا يستقيم في حق الجميع؛ لأنَّ الله تعالىٰ حكىٰ عن بعضهم اعترافهم بالذنب، كمال قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الملك: ١٠، ١١]. وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[السجدة: ١٢]. فتخليد الكفار في النار إنما هو بسبب عزمهم على الكفر في الدنيا أبد الآبدين؛ فكان التعذيب علىٰ هذا العزم.

بِهِ مَا حَصَلَتْ، وَالشَّرُّ كَامِنٌ فِي البَوَاطِنِ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ يَقَعُ التَّعْذِيبُ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[الأنعام: ٢٨].

* [٣٧-١٩٢] [خَاطِرَةٌ]:

[أَصْلُ كُلِّ مِحْنَةٍ فِي العَقَائِدِ]

أَصْلُ كُلِّ مِحْنَةٍ فِي العَقَائِدِ قِيَاسُ أَمْرِ الخَالِقِ عَلَىٰ أَحْوَالِ الخَلْقِ؛ فَإِنَّ الفَلَاسِفَةَ لَمَّا رَأَوْا إِيْجَادَ شَيْءٍ لَا مِنْ شَيْءٍ، كَالْمُسْتَحِيْلِ فِي العَادَاتِ، قَالُوْا بِقِدَمِ العَالَمِ!

وَلَمَّا عَظُمَ عِنْدَهُمْ فِي العَادَةِ الإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، قَالُوْا: إِنَّهُ يَعْلَمُ الجُمَلَ لَا التَّفَاصِيْلَ!

وَلَمَّا رَأَوْا تَلَفَ الأَبْدَانِ بِالبَلَاءِ؛ أَنْكَرُوا إِعَادَتَهَا، وَقَالُوا: الإِعَادَةُ رُجُوْعُ الأَرْوَاحِ إِلَىٰ مَعَادِنِهَا!

وَكُلُّ مَنْ قَاسَ صِفَةَ الخَالِقِ عَلَىٰ صِفَاتِ المَخْلُوْقِيْنَ؛ خَرَجَ إِلَىٰ الكُفْرِ، فَإِنَّ الْمُجَسِّمَةَ[1] دَخَلُوْا فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ حَمَلُوْا أَوْصَافَهُ عَلَىٰ مَا يَعْقِلُوْنَ.

وَكَذَلِكَ تَدْبِيْرُهُ ﷻ؛ فَإِنَّ مَنْ حَمَلَهُ عَلَىٰ مَا يُعْقَلُ فِي العَادَاتِ؛ رَأَىٰ ذَبْحَ الحَيَوَانِ لَا يُسْتَحْسَنُ، وَالأَمْرَاضَ تُسْتَقْبَحُ، وَقِسْمَةَ الْغِنَىٰ لِلأَبْلَهِ، وَالْفَقْرِ لِلْجَلْدِ الْعَاقِلِ[2] أَمْرًا يُنَافِي الْحِكْمَةَ.

وَهَذَا فِي الأَوْضَاعِ بَيْنَ الْخَلْقِ؛ فَأَمَّا الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ العَقْلَ لَا يَنْتَهِي إِلَىٰ حِكْمَتِهِ. بَلَىٰ؛ قَد ثَبَتَ عِنْدَهُ وُجُوْدُهُ، وَمُلْكُهُ، وَحِكْمَتُهُ، فَتَعَرُّضُهُ بِالتَّفَاصِيْلِ عَلَىٰ مَا تَجْرِي بِهِ عَادَاتُ الخَلْقِ جَهْلٌ.

---

(١) الْمُجَسِّمَةَ: هُم الَّذين يُثبتون لله الصِّفات، ولكن يقولون -تعالىٰ الله عن ذلك- بأن له جوارح، فله أيد كأيدينا، وعين كأعيننا، ووجه كوجوهنا، ومن هؤلاء: داود الجواربي، وهشام بن الحكم الرافضي.

(٢) الْجَلْد: القُوّة والصَّبْر.

أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ أَوَّلِ الْمُعتَرِضِيْنَ - وَهُوَ إِبْلِيْسُ - كَيْفَ نَاظَرَ فَقَالَ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف: ١٢]؟! وَقَوْلُ خَلِيْفَتِهِ - وَهُوَ أَبُو العَلَاءِ الْمَعَرِّي(١) -.

رَأَىٰ مِنْـــكَ مَـــا لا يَشْـــتَهِي فَتَزَنْـــدَقَا

وَنَسْأَلُ اللهَ ﷻ تَوْفِيْقًا لِلتَّسْلِيْمِ، وَتَسْلِيْمًا لِلْحَكِيْمِ، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[آل عمران:٨].

أَتُرَىٰ نَقْدِرُ عَلَىٰ تَعْلِيْلِ أَفْعَالِهِ فَضْلًا عَنْ مُطَالَعَةِ ذَاتِهِ؟! وَكَيْفَ نَقِيْسُ أَمْرَهُ عَلَىٰ أَحوَالِنَا؟!

فَإِذَا رَأَيْنَا نَبِيَّنَا ﷺ يَسْأَلُ فِي أُمِّهِ وَعَمِّهِ، فَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ(٢)، وَيَتَقَلَّبُ جَائِعًا؛ وَالدُّنْيَا مِلْكُ يَدِهِ، وَيُقْتَلُ أَصْحَابُهُ، وَالنَّصْرُ بِيَدِ خَالِقِهِ.

أَوَلَيْسَ هَذَا مِمَّا يُحَيِّرُ؟! فَمَا لَنَا وَالاعتِرَاضَ عَلَىٰ مَالِكٍ قَد ثَبَتَتْ حِكْمَتُهُ وَاسْتَقَرَّ مُلْكُهُ؟!

* [٣٨-١٩٠] [خَاطِرَةٌ]:

[الأَوْلَى لِلعَاقِلِ أَنْ يَكُفَّ عَنِ التَّطَلُّعِ إِلَى مَا لَا يُطِيقُ]

مَا نَهَىٰ السَّلَفُ عَنِ الخَوْضِ فِي الكَلَامِ إِلَّا لِأَمْرٍ عَظِيْمٍ، وَهُوَ أَنَّ الإِنْسَانَ يُرِيْدُ أَنْ يَنْظُرَ مَا

(١) أَبُو العَلَاءِ الْمَعَرِّيُّ أَحْمَدُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ سُلَيْمَانَ هُوَ شَيْخُ الآدَابِ؛ اتُّهِمَ بِالزَّنْدَقَةِ؛ وَيُقَالُ: تَابَ مِنْ ذَلِكَ وَارعَوَىٰ. وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا خُتِمَ لَهُ. «أباطيل وأسمار» محمود محمد شاكر. (ج/١ ص١٧: ٨٥) وَفِيْهِ مِنَ الفَوَائِدِ الكَثِيرِ.

(٢) يُشِير ﵀ إلىٰ ما رواه مسلم، كِتَابُ «الْجَنَائِزِ» بَابُ «اسْتِئْذَانِ النَّبِيِّ ﷺ رَبَّهُ ﷻ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ»(٩٧٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي».

* وكذلك ما رواه البخاري، كِ: «مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ» بَ: «قِصَّةِ أَبِي طَالِبٍ»(٣٨٨٤) ومسلم، كِ: «الإِيمَانَ» بَ: «أَوَّلُ الإِيمَانِ قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»(٢٤) عَنِ حَزَن، أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «أَيْ عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّىٰ قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ» فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص: ٥٦].

لَا يَقْوَىٰ عَلَيْهِ بَصَرُهُ، فَرُبَّمَا تَحَيَّرَ، فَخَرَجَ إِلَىٰ الحَجَبِ[١]؛ لِأَنَّا إِذَا نَظَرنَا فِي ذَاتِ الْخَالِقِ؛ حَارَ الْعَقْلُ، وَبُهِتَ الحِسُّ[٢]؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا لَا بِدَايَةَ لَهُ! [وَ[٣]] لا يَعْلَمُ إِلَّا الجِسْمَ وَالْجَوْهَرَ وَالْعَرَضَ؛ فَإِثْبَاتُ مَا يَخْرُجُ عَنْ ذَاكَ لَا يَفْهَمُهُ.

وَإِنْ نَظَرْنَا فِي أَفْعَالِهِ؛ رَأَيْنَاهُ يُحْكِمُ البِنَاءَ ثُمَّ يَنْقُضُهُ! وَلَا نَطَّلِعُ عَلَىٰ تِلْكَ الحِكْمَةِ.

فَالأَوْلَىٰ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُفَّ التَّطَلُّعَ إِلَىٰ مَا لا يُطِيْقُ النَّظَرَ إِلَيْهِ.

وَمَتَىٰ قَامَ الْعَقْلُ، فَنَظَرَ فِي دَلِيْلِ وُجُوْدِ الْخَالِقِ بِمَصْنُوعَاتِهِ، وَأَجَازَ بَعْثَةَ نَبِيٍّ، وَاسْتَدَلَّ بِمُعْجِزَاتِهِ؛ كَفَاهُ ذَلِكَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِمَا قَدْ أُغْنِيَ عَنْهُ.

وَإِذَا قَالَ: القُرآنُ كَلامُ اللهِ تَعَالَىٰ، بِدَلِيْلِ قَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٦]، كَفَاهُ.

وَأَمَّا مَنْ تَحَذْلَقَ[٤] فَقَالَ: التِّلَاوَةُ هِيَ الْمَتْلُوُّ أَوْ غَيْرُ الْمَتْلُوِّ، وَالْقِرَاءَةُ هِيَ الْمَقْرُوءُ أَوْ غَيْرُ الْمَقْرُوءِ؛ فَيُضَيِّعُ الزَّمَانَ فِي غَيْرِ تَحْصِيْلٍ، وَالْمَقْصُوْدُ الْعَمَلُ بِمَا فَهِمَ.

وَقَد حُكِيَ أَنَّ مَلِكًا كَتَبَ إِلَىٰ عُمَّالِهِ فِي البُلْدَانِ: إِنِّي قَادِمٌ عَلَيكُمْ، فَاعمَلُوا كَذَا وَكَذَا! فَفَعَلُوا، إِلَّا وَاحِدًا مِنهُمْ؛ فَإِنَّهُ قَعَدَ يَتَفَكَّرُ فِي الكِتَابِ، فَيَقُوْلُ:

أَتُرَىٰ كَتَبَهُ بِمِدَادٍ أَوْ بِحِبْرٍ؟! أَتُرَىٰ كَتَبَهُ قَائِمًا أَوْ قَاعِدًا؟! فَمَا زَالَ يَتَفَكَّرُ حَتَّىٰ قَدِمَ المَلِكُ، وَلَمْ يَعْمَل مِمَّا أَمَرَهُ بِهِ شَيْئًا! فَأَحْسَنَ جَوَائِزَ الكُلِّ، وَقَتَلَ هَذَا.

---

(١) الحَجَبُ: - مُحَرَّكَةً - مَجْرَىٰ النَّفَسِ وَبِانقِطَاعِهِ يَمُوتُ الإِنْسَان. وَهُوَ كِنَايَة عَن تَمَام الغَلَبَة وَالعَجْزِ. وَقَد يَكُوْنُ ضَبْط الكَلِمَة هَكَذَا: (الحَجْبُ) - سكون الجيم - وَهُوَ: الْمَنْعُ؛ فَكُلُّ شيءٍ مَنَعَ شَيئًا مِنْ شَيْءٍ فَقَد حَجَبَهُ حَجْبًا. وأرىٰ - والله أعلم - أنَّ الضبط الأول أقرب إلىٰ المعنىٰ المراد ولذلك أثبته.

(٢) أي: عجز لم يجد معارضة. وفي القرآن العزيز: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾[البقرة:٢٥٨]؛ أي: انقطَع وسكَتَ متحيرًا عنها.

(٣) ليست في الأصل وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

(٤) تحذلقَ يتحذلق، تَحَذْلُقًا، فهو مُتحذلِق؛ ادّعىٰ أكثر ممّا عنده. أو ادعاء العلم، والتظاهر بالمعرفة للتباهي.

* [٣٩-٤٩] [خَاطِرَةٌ]:

[المَيْلُ إِلَى التَّشْبِيهِ يُوَصِّل إِلَى التَّعطِيلِ]

عجِبتُ مِنْ أَقْوَامٍ يَدَّعُوْنَ الْعِلْمَ، وَيَمِيْلُوْنَ إِلَىٰ التَّشْبِيْهِ؛ بِحَمْلِهِمُ الأَحَادِيْثَ عَلَىٰ ظَوَاهِرِهَا؛ فَلَوْ أَنَّهُمْ أَمَرُّوْهَا كَمَا جَاءَتْ؛ سَلِمُوْا؛ لِأَنَّ مَنْ أَمَرَّ مَا جَاءَ، وَمَرَّ مِنْ غَيْرِ اِعْتِرَاضٍ وَلَا تَعَرُّضٍ؛ فَمَا قَالَ شَيْئًا، لا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ.

وَلَكِنَّ أَقْوَامًا قَصُرَتْ علُومُهُم؛ فَرَأَتْ أَنَّ حَمْلَ الْكَلَامِ عَلَىٰ غَيْرِ ظَاهِرِهِ نَوْعُ تعطِيلٍ، وَلَوْ فَهِمُوْا سَعَةَ اللُّغَةِ؛ لَمْ يَظُنُّوْا هَذَا، وَمَا هُمْ إِلَّا بِمَثَابَةِ قَوْلِ الحَجَّاجِ[١] لِكَاتِبِهِ وَقَد مَدَحَتْهُ [لَيْلَىٰ الأَخْيَلِيَّةِ][٢] فَقَالَت:

إِذَا هَبَطَ الحَجَّاجُ أرضًا مريضَةً ... تَتَبَّعَ أَقْصَىٰ دَائِهَا فَشَفَاهَا

شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ العُضَالِ الَّذِي بِهَا ... غُلَامٌ إِذَا هَزَّ القَنَاةَ شَفَاهَا

فَلَمَّا أَتَمَّتِ الْقَصِيْدَةَ؛ قَالَ لِكَاتِبِهِ: اِقْطَعْ لِسَانَهَا! فَجَاءَ ذَاكَ الكَاتِبُ الْمُغَفَّلُ بِالْمُوْسَىٰ، فَقَالَت لَهُ: وَيْلَكَ! إِنَّمَا قَالَ: أَجْزِلْ لَهَا العَطَاءَ، ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَىٰ الحَجَّاجِ، فَقَالَت: كَادَ وَاللهِ يَقْطَعُ مِقْوَلِي[٣].

---

(١) الحَجَّاجُ بنُ يُوْسُفَ بْن الحَكَم الثَّقَفِيُّ كَانَ ذَا شَجَاعَةٍ، وَإِقْدَامٍ، وَمَكْرٍ، وَدَهَاءٍ، وَفَصَاحَةٍ، وَبَلَاغَةٍ.مات:(٩٥هـ).

(٢) جاء في الأصل، وفي مخطوط:(ي):[الخَنساء] والصواب ما أثبتناه؛ لأنَّ الخنساء تماضر بنت عمرو . أسلمت ووفدت علىٰ رسول اللهﷺ مع قومها بني سليم. وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية (١٤هـ) واستشهدوا جميعًا فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم. توفيت:(٢٤هـ). وأمَّا الحجاج فقد ولِدَ(٣٩) أو(٤٠هـ)أو(٤١).

* البيتان من البحر [الطويل] وقائله: ليلىٰ بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب الأَخْيَلِيَّة. شاعرة فصيحة ذكية. وفدت علىٰ الحجاج مرات فكان يُكرمها ويُقربها. وسُمِّيَت (الأَخْيَلِيَّة) لقولها أو قول جدها، من أبيات:

نحن الأخايل ما يزال غلامنا ... حتىٰ يدب علىٰ العصا مذكورا

تُوفيت سنة (٨٠هـ).

(٣) الْمَقْول: اللِّسَان. وَالْمِقْوَلُ أَيْضًا: الْمَلِكُ، قَالَ الرَّاجِزُ يَصِفُ الثَّوْرَ:

=

فَكَذَلِكَ الظَّاهِرِيَّةُ[١] الَّذِينَ لَمْ يُسَلِّمُوا بِالتَّسْلِيمِ، فَإِنَّهُ مَنْ قَرَأَ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثَ وَلَمْ يَزِدْ، لَم أَلُمْهُ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ السَّلَفِ.

فَأَمَّا مَنْ قَالَ: الحَدِيثُ يَقْتَضِي كَذَا، وَيُحْمَلُ عَلَىٰ كَذَا، مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: اِسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرشِ بِذَاتِهِ، وَيَنْزِلُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِذَاتِهِ؛ فَهَذِهِ زِيَادَةٌ فَهِمَهَا قَائِلُهَا مِنَ الحِسِّ لَا مِنَ النَّقْلِ.

وَلَقَد عَجِبْتُ لِرَجُلٍ أَنْدَلُسِيٍّ يُقَالَ له: اِبْنُ عَبْدِ البَرِّ، صَنَّفَ كِتَابَ «التَّمْهِيدِ»[٢]، فَذَكَرَ فِيهِ حَدِيثَ النُّزُولِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَقَالَ: «هَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ العَرشِ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا ذَلِكَ؛ لَمَا كَانَ لِقَوْلِهِ: «يَنْزِلُ» مَعْنَىٰ»[٣].

= كَأَنَّـــــــهُ مُتَـــــــوَّجٌ رُومِــــــــيُّ أَوْ مِقْـــــــوَلٌ تُـــــــوِّجَ حِمْيَــــــرِيُّ

(١) الظَّاهِرِيَّةُ من الفُقَهاءِ: منسوبون إلىٰ القول بالظاهر، وترك الرأي والتأويل، وهم أتباع دَاوُد بن عَلِيِّ بنِ خَلَفٍ البَغْدَادِيِّ الأَصْبَهَانِيِّ الظَّاهِرِيِّ. رَئِيسُ أَهْلِ الظَّاهِرِ. تُوفي في رمضان سنة: (٢٧٠).

(٢) أَبُو عُمَرَ يُوسُفُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ البَرِّ بنِ الأَنْدَلُسِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيفِ الفَائِقَةِ. مَاتَ سَنَةَ: (٧١٨هـ). وَكِتَاب التَّمْهِيد هُوَ:(التَّمْهِيد لما فِي الْمُوَطَّأِ مِنَ الْمَعَانِي وَالأَسَانِيد) فَرَتَّبَهُ عَلَىٰ أَسْمَاء شُيُوخ مَالِك، عَلَىٰ حُرُوف الْمُعْجَم، قَالَ ابنُ حَزم: لا أَعْلَمُ فِي الكَلامِ عَلَىٰ فِقه الحَدِيث مِثْلَه فَكَيْفَ أَحْسَن مِنْهُ.

(٣) هذه الفقرة لم أجدها في:(التمهيد) إنَّما نص كلام ابن عبد البر ﵀:«وَقَالَ آخَرُونَ: يَنْزِلُ بِذَاتِهِ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ صَالِحٍ بِمِصْرَ قَالَ: سَمِعْتُ نُعَيْمَ بْنَ حَمَّادٍ يَقُولُ: حَدِيثُ النُّزُولِ يَرُدُّ عَلَىٰ الْجَهْمِيَّةِ قَوْلَهُمْ. قَالَ: وَقَالَ نُعَيْمٌ: يَنْزِلُ بِذَاتِهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ».

قَالَ أَبُو عُمَرَ ﵀: «لَيْسَ هَذَا بِشَيْءٍ عِنْدَ أَهْلِ الْفَهْمِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ؛ لِأَنَّ هَذَا كَيْفِيَّةٌ وَهُمْ يَفْزَعُونَ مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا فِيمَا يُحَاطُ بِهِ عِيَانًا وَقَدْ جَلَّ اللهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ وَمَا غَابَ عَنِ الْعُيُونِ فَلَا يَصِفُهُ ذَوُو الْعُقُولِ إِلَّا بِخَبَرٍ وَلَا خَبَرَ فِي صِفَاتِ اللهِ إِلَّا مَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ فَلَا نَتَعَدَّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ تَشْبِيهٍ أَوْ قِيَاسٍ أَوْ تَمْثِيلٍ أَوْ تَنْظِيرٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البصير».

قَالَ أَبُو عُمَرَ ﵀: «أَهْلُ السُّنَّةِ مُجْمِعُونَ عَلَىٰ الْإِقْرَارِ بِالصِّفَاتِ الْوَارِدَةِ كُلِّهَا فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِيمَانِ بِهَا وَحَمْلِهَا عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ لَا عَلَىٰ الْمَجَازِ إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يُكَيِّفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَحُدُّونَ فِيهِ صِفَةً مَحْصُورَةً. وَأَمَّا أَهْلُ الْبِدَعِ وَالْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ كُلُّهَا وَالْخَوَارِجُ فَكُلُّهُمْ يُنْكِرُهَا وَلَا يَحْمِلُ شَيْئًا مِنْهَا عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَنْ أَقَرَّ بِهَا مُشَبِّهٌ وَهُمْ عِنْدَ مَنْ أَثْبَتَهَا نَافُونَ لِلْمَعْبُودِ وَالْحَقُّ فِيمَا قَالَهُ الْقَائِلُونَ بِمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ وَهُمْ أَئِمَّةُ الْجَمَاعَةِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ».

=

وَهَذَا كَلَامُ جَاهِلٍ بِمَعْرِفَةِ اللهِ ﷻ(١)؛ لِأَنَّ هَذَا اِسْتَسْلَفَ(٢) مِنْ حِسِّهِ مَا يَعْرِفُهُ مِنْ نُزُوْلِ الأَجْسَامِ، فَقَاسَ صِفَةَ الحَقِّ عَلَيْهِ.

فَأَيْنَ هَؤُلَاءِ وَاتِّبَاعَ الأَثَرِ؟! وَلَقَد تَكَلَّمُوْا بِأَقْبَحِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ الْمُتَأَوِّلُوْنَ، ثُمَّ عَابُوا الْمُتَكَلِّمِيْنَ.

وَاعْلَمْ أَيُّهَا الطَّالِبُ لِلرَّشَادِ أَنَّهُ قَد سَبَقَ إِلَيْنَا مِنَ الْعَقْلِ وَالْنَّقْلِ أَصْلَانِ رَاسِخَانِ، عَلَيْهِمَا أَمْرُ الأَحَادِيْثِ كُلِّهَا: أَمَّا النَّقْلُ؛ فَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى: ١١]، وَمَنْ فَهِمَ هَذَا؛ لَمْ يَحْمِلْ وَصْفًا لَهُ عَلَى مَا يُوْجِبُهُ الْحِسُّ.

= قَالَ أَبُو عُمَرَ رحمه الله: «الَّذِي أَقُولُ أَنَّهُ مَنْ نَظَرَ إِلَى إِسْلَامِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَسَعْدٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ وَسَائِرِ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ﷺ وَجَمِيعِ الْوُفُودِ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا عَلِمَ أَنَّ اللهَ ﷻ لَم يَعرِفْهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِتَصْدِيقِ النَّبِيِّينَ بِأَعْلَامِ النُّبُوَّةِ وَدَلَائِلِ الرِّسَالَةِ لَا مِنْ قِبَلِ حَرَكَةٍ وَلَا مِنْ بَابِ الْكُلِّ وَالْبَعْضِ وَلَا مِنْ بَابِ كَانَ وَيَكُونُ وَلَوْ كَانَ النَّظَرُ فِي الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ عَلَيْهِمْ وَاجِبًا وَفِي الْجِسْمِ وَنَفْيِهِ وَالتَّشْبِيهِ وَنَفْيِهِ لَازِمًا مَا أَضَاعُوهُ وَلَوْ أَضَاعُوا الْوَاجِبَ مَا نَطَقَ الْقُرْآنُ بِتَزْكِيَتِهِمْ وَتَقْدِيمِهِمْ وَلَا أُطْنِبَ فِي مَدْحِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِمْ مَشْهُورًا أَوْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ مَعْرُوفًا لَاسْتَفَاضَ عَنْهُمْ وَلَشَهَرُوا بِهِ كَمَا شَهَرُوا بِالْقُرْآنِ وَالرِّوَايَاتِ وَقَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا» عِنْدَهُمْ مِثْلُ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ وَمِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ كُلُّهُمْ يَقُولُ: يَنْزِلُ وَيَتَجَلَّى وَيَجِيءُ بِلَا كَيْفٍ. لَا يَقُولُونَ: كَيْفَ يَجِيءُ؟ وَكَيْفَ يَتَجَلَّى؟ وَكَيْفَ يَنْزِلُ؟ وَلَا مِنْ أَيْنَ جَاءَ؟ وَلَا مِنْ أَيْنَ تَجَلَّى؟ وَلَا مِنْ أَيْنَ يَنْزِلُ؟؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ كَشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ وَتَعَالَى عَنِ الأَشْيَاءِ وَلَا شَرِيكَ لَهُ» (ج/٧ ص/١٤٤: ١٥٣) ط/ وزارة الأوقاف المغرب.

(١) هَذَا الكَلَام خَرَجَ مَخْرَج كَلامُ الأقْرانِ فِي بَعضِهِم، وهذه مسألة مشهورة بين العلماء. قال الإمام شمس الدين الذهبي في «تاريخ الإسلام»: «لَو سَمِعنَا كَلام الأقْرَان بَعضهُم فِي بَعضٍ لأتَّسَعَ الخَرق». وقال أيضًا في «سير أعلام النبلاء»: «كَلَامُ الأَقْرَانِ يُطْوَى وَلا يُرْوَى إِلاَّ أَنْ يَتَّفِقَ الْمُتَعَاصِرُوْنَ عَلَى جَرْحِ شَيْخٍ، فَيُعْتَمَدُ قَوْلُهُم»، أي: كلام الأقران الذين هم في منزلة واحدة ورتبة واحدة من العلم، فإذا تكلم بعض أهل العلم في البعض الآخر فيجب عليك أن تطويه ولا ترويه، ولا تُشهر به، ولا تعتبره حجة على الخصوم والأقران في الناحية الأخرى، وإنما يجب عليك ألا تلتفت لمثل هذا، بل خذ الحق من كل من جاء به، وإن خالفك، ورد الباطل على كل من جاء به وإن كان إمامًا من أئمة المسلمين. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «خُذُوا الْعِلْمَ حَيْثُ وَجَدْتُمْ وَلا تَقْبَلُوا قَوْلَ الْفُقَهَاءِ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ؛ فَإِنَّهُمْ يَتَغَايَرُونَ تَغَايُرَ التُّيُوسِ فِي الزَّرِيبَةِ» [«جامع بيان العلم وفضله» بَابُ «حُكْمِ قَوْلِ الْعُلَمَاءِ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ» لابن عبد البر حديث (٢١٩٥)]. نسأل الله الستر والسلامة.

(٢) اسْتَسْلَفَ؛ أي: اسْتَقْرَض. وَالتَّسْلِيفُ أَيضًا: التَّقْدِيمُ.

وَأَمَّا العَقْلُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ عَلِمَ مُبَايَنَةَ الصَّانِعِ لِلْمَصْنُوْعَاتِ[١]، وَاسْتَدَلَّ عَلَىٰ حُدُوْثِهَا بِتَغَيُّرِهَا، وَدُخُوْلِ الانْفِعَالِ عَلَيْها، فَثَبَتَ لَهُ قِدَمُ الصَّانِعِ[٢].

وَا عَجَبًا كُلَّ العَجَبِ مِنْ رَادٍّ لَمْ يَفْهَمْ طَبِيْعَةَ الكَلَامِ! أَلَيْسَ فِي الحَدِيْثِ الصَّحِيْحِ: «أَنَّ الْمَوْتَ يُذْبَحُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ»[٣]؟!

أَوَلَيْسَ العَقْلُ إِذَا اسْتُفْتِيَ فِي هَذَا، صَرَفَ الأَمْرَ عَنْ حَقِيْقَتِهِ؛ لِمَا ثَبَتَ عِنْدَ مَنْ يَفْهَمُ مَاهِيَّةَ الْمَوْتِ، فَقَالَ: الْمَوْتُ عَرَضٌ يُوْجِبُ بُطْلَانَ الحَيَاةِ؛ فَكَيْفَ يُمَاتُ الْمَوْتُ؟!

فَإِذَا قِيْلَ لَهُ: فَمَا تَصنَعُ بِالْحَدِيْثِ؟! قَالَ: هَذَا ضُرِبَ مَثَلًا بِإِقَامَةِ صُوْرَةٍ؛ لِيُعْلَمَ بِتِلْكَ الصُّوْرَةِ الْحِسِّيَّةِ فَوَاتُ ذَلِكَ الْمَعْنَىٰ. قُلْنَا لَهُ: فَقَد رُوِيَ فِي (الصَّحِيْحِ): «تَأْتِي البَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ»[٤]. فَقَالَ: الكَلَامُ لَا يَكُوْنُ غَمَامَةً، وَلَا يَتَشَبَّهُ بِهَا. قُلْنَا لَهُ: أَفَتُعَطِّلُ النَّقْلَ؟! قَالَ: لَا، وَلَكِنْ يَأْتِي ثَوَابُهُمَا. قُلْنَا: فَمَا الدَّلِيْلُ الصَّارِفُ لَكَ عَنْ هَذِهِ الحَقَائِقِ؟. فَقَالَ: عِلْمِي بِأَنَّ الكَلَامَ لَا يَتَشَبَّهُ بِالأَجْسَامِ، وَالْمَوْتَ لَا يُذْبَحُ ذَبْحَ الأَنْعَامِ، وَلَوْ عَلِمْتُمْ[٥] سَعَةَ لُغَةِ العَرَبِ، مَا ضَاقَتْ أَعْطَانُكُمْ[٦] مِنْ سَمَاعِ مِثْلِ هَذَا. فَقَالَ العَلَمَاءُ: صَدَقْتَ، هَكَذَا نَقُوْلُ فِي تَفْسِيرِ مَجِيْءِ البَقَرَةِ، وَفِي ذَبْحِ الْمَوْتِ. فَقَالَ: وَا عَجَبًا لَكُمْ! صَرَفْتُمْ عَنِ الْمَوْتِ وَالكَلَامِ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِمَا حِفْظًا لِمَا عَلِمْتُمْ مِنْ حَقَائِقِهِمَا؛ فَكَيْفَ لَمْ تَصْرِفُوْا عَنِ الإِلَهِ القَدِيْمِ مَا يُوْجِبُ التَّشْبِيْهَ لَهُ بِخَلْقِهِ بِمَا قَدْ دَلَّ الدَّلِيْلُ عَلَىٰ تَنْزِيْهِهِ عَنْهُ؟!

---

(١) أي: خالفه وغايره.

(٢) صفة القِدَم؛ أي: أنه تعالىٰ لا أولية لوجوده. قديم لذاته، لا لعلّة قديمة اقتضت وجوده - تعالىٰ عن ذلك -.

(٣) رواه البخاري، كِتَابُ «الرِّقَاقِ» بَابُ «صِفَةِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ»(٦٥٤٨). ومسلم، كِتَابُ «الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا» بَابُ «النَّارُ يَدْخُلُهَا الْجَبَّارُونَ وَالْجَنَّةُ يَدْخُلُهَا الضُّعَفَاءُ»(٢٨٤٩، ٢٨٥٠).

(٤) رواه مسلم، كِتَابُ «صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا» بَابُ «فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَسُورَةِ الْبَقَرَةِ» حديث (٨٠٤). والغمامة والغَيَابة: كل شيءٍ أظَلَّ الإنسانَ فوق رَأسِهِ مثلُ السّحابة والغَبَرة وغيرهما.

(٥) جاء في الأصل: [ولقد علمتم] وما أثبتناه من مخطوط (ي) لتمام المعنىٰ به.

(٦) تَقُوْلُ فلانٌ ضَيِّقُ العَطَنِ؛ أي: قَلِيل العَطَاء، ضَيق النَّفَس، وواسِعُ العَطَنِ: واسِعُ الصَّدر سَخِيٌّ.

فَمَا زَالَ يُجَادِلُ الخُصُوْمَ بِهَذِهِ الأَدِلَّةِ، وَيَقُوْلُ: لا أَقْطَعُ حَتَّىٰ أُقْطَعَ، فَمَا قَطَعَ حَتَّىٰ قُطِعَ(١).

* [٤٠-١٣٤] [خَاطِرَةٌ]:

[بِقَدرِ إجلَالِكَ للهِ يُجِلُّكَ الله]

إِخْوَانِي! اِسْمَعُوْا نَصِيْحَةَ مَنْ قَد جَرَّبَ وَخَبَرَ. إِنَّهُ بِقَدْرِ إِجْلَالِكُمْ للهِ ﷻ يُجِلُّكُم؛ وَبِمِقْدَارِ تَعْظِيْمِ قَدرِهِ وَاحتِرَامِهِ يُعَظِّمُ أَقْدَارَكُم وَحُرمَتَكُمْ.

وَلَقَد رَأَيْتُ - وَاللهِ - مَنْ أَنْفَقَ عُمُرَهُ فِي العِلْمِ، إِلَىٰ أَنْ كَبِرَتْ سِنُّهُ، ثُمَّ تَعَدَّىٰ الحُدُوْدَ، فَهَانَ عِنْدَ الخَلْقِ، وَكَانُوْا لَا يَلْتَفِتُوْنَ إِلَيْهِ؛ مَعَ غَزَارَةِ عِلْمِهِ، وَقُوَّةِ مُجَاهَدَتِهِ.

وَلَقَد رَأَيْتُ مَنْ كَانَ يُرَاقِبُ اللهَ ﷻ فِي صَبْوَتِهِ(٢) مَعَ قُصُوْرِهِ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ ذَلِكَ العَالِمِ - فَعَظَّمَ اللهُ قَدرَهُ فِي القُلُوْبِ، حَتَّىٰ عَلِقَتْهُ النُّفُوْسُ(٣)، وَوَصَفَتْهُ بِمَا يَزِيْدُ عَلَىٰ مَا فِيْهِ مِنَ الْخَيْرِ.

وَرَأَيْتُ مَنْ كَانَ يَرَىٰ الاستِقَامَةَ إِذَا اِسْتَقَامَ(٤): فَإِذَا زَاغَ؛ مَالَ عَنْهُ اللُّطفُ. وَلَوْلَا عُمُوْمُ السَّتْرِ، وَشُمُوْلُ رَحمَةِ الْكَرِيْمِ؛ لافْتُضِحَ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُوْرُوْنَ. غَيْرَ أَنَّهُ فِي الأَغْلَبِ تَأْدِيْبٌ أَوْ تَلَطُّفٌ فِي العِقَابِ؛ كَمَا قِيْلَ(٥):

وَمَنْ كَانَ فِي سُخْطِهِ مُحْسِنًا ... فَكَيْفَ يَكُوْنُ إِذَا مَا رَضِي

غَيْرَ أَنَّ الْعَدلَ لا يُحَابِي، وَحَاكِمَ الْجَزَاءِ لا يَجُوْرُ، وَمَا يَضِيْعُ عِنْدَ الأَمِيْنِ شَيْءٌ.

---

(١) أي: لا أتوقف عن الجدال حتىٰ تقام عليَّ الحجة القاطعة.

(٢) الصَّبْوَة: أي في وقت الفُتُوَّةِ وصباه. والمصدر الصِّبا، يقال: رأيتُه في صِباهُ؛ أي: في صِغَرِه.

(٣) عَلِقَ عَلاقةً - بالفتح - وكلُّ شيءٍ وقع مَوْقِعه فقد عَلِقَ مَعَالِقَه والعَلاقة الهوىٰ والحُبُّ اللازم للقلب. والتَعَلُّق بالشيء: لزومه وشِدَّةُ الأخذ به.

(٤) أي: يرىٰ التوفيق إذا أطاع.

(٥) البيت من البحر: [المُتَقَارِب].

* [٤١-٦٧] [خَاطِرَةٌ]:

[طُوبَى لِمَنْ عَرَفَ المُسَبِّبَ، وتَعَلَّقَ بِهِ]

قُلُوبُ الْعَارِفِيْنَ يُغَارُ عَلَيْهَا مِنَ الأَسْبَابِ، وَإِنْ كَانَتْ لَا تُسَاكِنُهَا؛ لِأَنَّهَا لَمَّا انْفَرَدَتْ لِمَعْرِفَتِهَا؛ انْفَرَدَ لَهَا بِتَوَلِّي أُمُوْرِهَا؛ فَإِذَا تَعَرَّضَتْ بِالأَسْبَابِ؛ مَحَا أَثَرَ الأَسْبَابِ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾[التوبة: ٢٥].

وَتَأَمَّلْ فِي حَالِ يَعْقُوْبَ وَحَذَرِهِ عَلَىٰ يُوْسُفَ ﷺ، حَتَّىٰ قَالَ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾[يوسف:١٣]، فَقَالُوا: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾[يوسف:١٧]، فَلَمَّا جَاءَ أَوَانُ الفَرَجِ؛ خَرَجَ يَهُوْذَا بِالقَمِيْصِ، فَسَبَقَهُ الرِّيْحُ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾[يوسف:٩٤].

وَكَذَلِكَ قَوْلُ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْسَّاقِي: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[يوسف:٤٢]، فَعُوْقِبَ بِأَنْ لَبِثَ سَبْعَ سِنِيْنَ، وَإِنْ كَانَ يُوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا خَلَاصَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ، وَأَنَّ التَّعَرُّضَ بِالأَسْبَابِ مَشْرُوْعٌ؛ غَيْرَ أَنَّ الغَيْرَةَ أَثَّرَتْ فِي العُقُوْبَةِ.

وَمِنْ هَذِهِ قِصَّةُ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[آل عمران:٣٧]، فَغَارَ الْمُسَبِّبُ مِنْ مُسَاكَنَةِ الأَسْبَابِ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾[آل عمران:٣٧].

وَمِنْ هَذَا القَبِيْلِ مَا يُرْوَىٰ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَبَىٰ اللهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ»(١).

وَالأَسْبَابُ طَرِيْقٌ، وَلا بُدَّ مِنْ سُلُوْكِهَا، وَالعَارِفُ لَا يُسَاكِنُهَا؛ غَيْرَ أَنَّهُ يُجَلَّىٰ لَهُ مِنْ أَمْرِهَا مَا لَا يُجَلَّىٰ لِغَيْرِهِ مِنْ أَنَّهَا لَا تُسَاكَنُ، وَرُبَّمَا عُوْقِبَ(٢) إِنْ مَالَ إِلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ مَيْلًا لَا يَقْبَلُهُ، غَيْرَ أَنَّ أَقَلَّ الْهَفَوَاتِ يُوْجِبُ الأَدَبَ.

---

(١) قال ابن الجوزي في «الموضوعات» كتاب «الصَّدَقَة» بَاب «ثَمَرَة العفاف» (ج٢/ ص٧١، ٧٢): «قَالَ أَبُو حَاتِمِ بْنُ حِبَّانَ: هَذَا حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ. وَأَحمد بْن دَاوُدَ كَانَ يَضَعُ الْحَدِيثَ. وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ: هُوَ مَتْرُوكٌ كَذَّابٌ».

(٢) جاء في الأصل: [عرفت] وما أثبتناه من مخطوط (ي) لتمام المعنى به.

وَتَأَمَّلْ عُقْبَىٰ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ: «لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَىٰ مِئَةِ امْرَأَةٍ، تَلِدُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا، وَلَم يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ! فَمَا حَمَلَتْ إِلَّا وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ»[1].

وَلَقَد طَرَقَتْنِي حَالَةٌ أَوْجَبَتِ التَّشَبُّثَ بِبَعْضِ الأَسْبَابِ؛ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مِنْ ضَرُورَةِ ذَلِكَ لِقَاءُ بَعضِ الظَّلَمَة، وَمُدَارَاتُهُ بِكَلِمَةٍ[2]، فَبَيْنَا أَنَا أُفَكِّرُ فِي تِلْكَ الحَالِ؛ دَخَلَ عَلَيَّ قَارِئٌ، فَاسْتَفْتَحَ، فَتَفَاءَلْتُ بِمَا يَقْرَأُ، فَقَرَأَ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[هود:١١٣].

فَبُهِتُّ مِنْ إِجَابَتِي عَلَىٰ خَاطِرِي، وَقُلْتُ لِنَفْسِي: اِسْمَعِي! فَإِنِّي طَلَبْتُ النَّصرَ فِي هَذِهِ الْمُدَارَاةِ، فَأَعْلَمَنِي الْقُرآنُ أَنَّنِي إِذَا رَكَنْتُ إِلَىٰ ظَالِمٍ؛ فَاتَنِي مَا رَكَنْتُ لأَجْلِهِ مِنَ النَّصرِ.

فَيَا طُوبَىٰ لِمَنْ عَرَفَ الْمُسَبِّبَ، وَتَعَلَّقَ بِهِ؛ فَإِنَّهَا الغَايَةُ القُصوَىٰ؛ فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَرزُقَنَا.

* [٤٢-٣٢٧] [خَاطِرَةٌ]:

[اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ]

يَنْبَغِي الاحْتِرَازُ مِنْ كُلِّ مَا يَجُوزُ أَنْ يَكُوْنَ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: الغَالِبُ السَّلَامَةُ، وَقَد رَأَيْنَا مَنْ نَزَلَ مَعَ الخَيْلِ فِي سَفِيْنَةٍ، فَاضطَرَبَتْ، فَغَرَقَ مَنْ فِي السَّفِيْنَةِ، وَإِنْ كَانَ الغَالِبُ فِي هَذِهِ السَّلَامَةَ.

---

(١) رواه البخاري، كِتَابُ «الجِهَادِ وَالسِّيَرِ» بَابُ «مَنْ طَلَبَ الوَلَدَ لِلْجِهَادِ»(٢٨١٩) ومسلم، كِتَابُ «الأَيْمَانِ» بَابُ «الاِسْتِثْنَاءِ»(١٦٥٤). ولفظ الحديث: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هُرْمُزَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عليهما السلام: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ كُلُّهُنَّ، يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ».

(٢) دَارَىٰ الأَمرَ: غَطَّاهُ وَسَتَرَهُ، خَبَّأَهُ وَأَخْفَاهُ. وَدَارَىٰ فُلَانًا: لَايَنَهُ وَلَاطَفَهُ وَرَفَقَ بِهِ لِيَتَّقِيَهِ.

وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقْدِرِ الإِنْسَانُ فِي نَفَقَتِهِ[(١)]، وَإِنْ رَأَىٰ الدُّنْيَا مُقْبِلَةً؛ لِجَوَازِ أَنْ تَنْقَطِعَ تِلْكَ الأَسْبَابُ، وَحَاجَةُ النَّفْسِ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا؛ فَإِذَا بَذَّرَ وَقْتَ السَّعَةِ، فَجَاءَ وَقْتُ الضِّيْقِ؛ لَمْ يَأْمَنْ أَنْ يَدْخُلَ فِي مَدَاخِلِ سَوْءٍ، وَأَنْ يَتَعَرَّضَ بِالطَّلَبِ مِنَ النَّاسِ[(٢)].

وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لِلْمُعَافَىٰ أَنْ يُعِدَّ لِلْمَرَضِ، وَلِلْقَوِيِّ أَنْ يَتَهَيَّأَ لِلْهَرَمِ[(٣)].

وَفِي الجُمْلَةِ؛ فَالنَّظَرُ فِي العَوَاقِبِ، وَفِيْمَا يَجُوْزُ أَنْ يَقَعَ: شَأْنُ العُقَلَاءِ. فَأَمَّا النَّظَرُ فِي الحَالَةِ الرَّاهِنَةِ فَحَسْبُ؛ فَحَالَةُ الجَهَلَةِ الحَمْقَىٰ. مِثْلُ أَنْ يَرَىٰ نَفْسَهُ مُعَافَىٰ، وَيَنْسَىٰ المَرَضَ، أَوْ غَنِيًّا، وَيَنْسَىٰ الفَقْرَ، أَوْ يَرَىٰ لَذَّةً عَاجِلَةً، وَيَنْسَىٰ مَا تَجْنِي عَوَاقِبِهَا، وَلَيْسَ لِلْعَقْلِ شُغْلٌ إِلَّا النَّظَرَ فِي العَوَاقِبِ، وَهُوَ يُشِيْرُ بِالصَّوَابِ مِنْ أَيْنَ يُقْبِلُ.

* [٤٣-٥١] [خَاطِرَةٌ]:

[مِنَ الإِيمَانِ الأَخْذ بِالأَسْبَابِ]

عَرَضَتْ لِي حَالَةٌ لَجَأْتُ فِيْهَا بِقَلْبِي إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ؛ عَالِمًا بِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ جَلْبِ نَفْعِي، وَدَفْعِ ضُرِّي سِوَاهُ، ثُمَّ قُمْتُ أَتَعَرَّضُ بِالأَسْبَابِ.

---

(١) أي: يقتصد في نفقته. وَالقَدْرُ: الوَسَطُ من الرِّحالِ والسُّرُوجِ. والقَدْرُ: تَدْبِيرُ الأَمْرِ. يُقَالُ: قَدَرَهُ يَقْدِرُه؛ أي: دبَّرَه.

(٢) وَمَسَاوِئ الطَّلَب مِنَ النَّاس لا تُعدّ ولا تُحصىٰ، ويكفي أنَّ فيه إراقة ماء الوجه. وصدق ﷺ إذ يقول: «لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الحَطَبِ عَلَىٰ ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ». رواه البخاري، كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ «الِاسْتِعْفَافِ عَنِ المَسْأَلَةِ» حديث (١٤٧١) عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رضي الله عنه. وَقَالَ ﷺ أيضًا: «مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ». رواه البخاري، كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُّرًا» حديث (١٤٧٤) عَنِ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما. وَالمُرَاد: أَنَّهُ يَجِيء ذَلِيلًا لا جَاه لَهُ وَلَا قَدْرَ أَوْ أَنَّهُ يُعَذَّب فِي وَجْهه حَتَّىٰ يَسْقُط لَحمه أَوْ أَنَّهُ يُجْعَل لَهُ ذَلِكَ عَلَامَة يُعْرَف بِهِ، وَالظَّاهِر مَا قِيلَ أَنَّهُ جَازَاهُ الله مِنْ جِنْس ذَنْبه فَإِنَّهُ صَرَفَ بِالسُّؤَالِ مَاء وَجْهه عِنْد النَّاس.

(٣) الهَرَم: الكِبَر. وَقَد هَرِم يَهْرَم فهُو هَرِم. وَجَعَل الْهَرَمَ داءً تَشْبِيهًا به؛ لأنَّ الْمَوْتَ يَتَعَقَّبه كالأدْوَاء.

فَأَنْكَرَ عَلَيَّ يَقِيْنِي، وَقَالَ: هَذَا قَدْحٌ فِي التَّوَكُّلِ! فَقُلْتُ: لَيْسَ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَضَعَهَا مِنَ الْحِكَمِ[1]، وَكَانَ مَعْنَىٰ حَالِي: أَنَّ مَا وَضَعْتَ لَا يُفِيْدُ، وَأَنَّ وُجُوْدَهُ كَالْعَدَمِ[2]!

وَمَا زَالَتِ الأَسْبَابُ فِي الشَّرعِ: كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾[النساء:١٠٢]. وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾[يوسف:٤٧].

وَقَد ظَاهَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ دِرْعَيْنِ، وَشَاوَرَ طَبِيْبَيْنِ[3]، وَلَمَّا خَرَجَ إِلَىٰ الطَّائِفِ؛ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ دُخُوْلِ مَكَّةَ، حَتَّىٰ بَعَثَ إِلَىٰ الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ، فَقَالَ: «أَدْخُلُ فِي جُوارك»[4]، وَقَد كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَدْخُلَ مُتَوَكِّلًا بِلَا سَبَبٍ.

فَإِذَا جَعَلَ الشَّرْعُ الأُمُوْرَ مَنُوْطَةً بِالأَسْبَابِ؛ كَانَ إِعْرَاضِي عَنِ الأَسْبَابِ دَفْعًا لِلْحِكْمَةِ، وَلِهَذَا أَرَىٰ أَنَّ التَّدَاوِي مَنْدُوْبٌ إِلَيْهِ، وَقَد ذَهَبَ صَاحِبُ مَذْهَبِي[5] إِلَىٰ أَنَّ تَرَكَ التَّدَاوِي أَفضَلُ، وَمَنَعَنِي الدَّلِيْلُ مِن اتِّبَاعِهِ فِي هَذَا: فَإِنَّ الحَدِيْثَ الصَّحِيْحَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً، إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ

---

(١) جاء في الأصل: [وضع] والصواب ما أثبتناه لتمام المعنىٰ به؛ فإن معناه: وضع الأسباب من الحِكَم.

(٢) يعني حالي في ترك الأسباب؛ كأني بهذا أقول: يا رب! إن ما وضعت من الأسباب لا يُفيد، فلن آخذ بها.

(٣) ظَاهَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ دِرْعَيْنِ؛ هكذا رواه أحمد في «المسند»(١٥٦٦٢). وأبو داود، كتاب «الْجِهَادِ» باب «في لُبس الدُّروع»(٢٥٩٠). «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَاهَرَ بَيْنَ دِرْعَيْنِ يَوْمَ أُحُدٍ». وَالتَّظَاهُر: بِمَعْنَىٰ التَّعَاوُن وَالتَّسَاعُد. وَالْمَعْنَىٰ: لَبِسَ أَحَدهمَا فَوْق الْآخَر. أمّا مُشَاوَرَته لِلطَّبِيْب؛ فإن كان لنفسه؛ فإنه لم يثبت ذلك فيما بين يدي من المراجع. وَلَكِن ثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ شَاوَرَ لِغَيْرِهِ؛ كما رواه مسلم، كِتَابُ «السَّلَام» بَابُ «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ»(٢٢٠٧). عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ طَبِيبًا، فَقَطَعَ مِنْهُ عِرْقًا، ثُمَّ كَوَاهُ عَلَيْهِ»؛ بل ربما كان الطبيب هو الذي يشاور النبي ﷺ في بعض الأوقات. كما رواه النسائي، كِتَابُ «الصَّيْدِ، وَالذَّبَائِحِ» بَابُ «الضِّفْدِعِ»(٤٣٥٧) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ، «أَنَّ طَبِيبًا ذَكَرَ ضِفْدَعًا فِي دَوَاءٍ، عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَنَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قَتْلِهِ».

(٤) يُنظر: «زاد المعاد» لابن القيم. (ج٣/ ص٣١) قال رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَكَّةَ فَأَرْسَلَ رَجُلًا مِنْ خُزَاعَةَ إِلَىٰ مُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ أَدْخُلُ فِي جِوَارِكَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَدَعَا بَنِيهِ وَقَوْمَهُ فَقَالَ: الْبَسُوا السِّلَاحَ وَكُونُوا عِنْدَ أَرْكَانِ الْبَيْتِ فَإِنِّي قَدْ أَجَرْتُ مُحَمَّدًا»اهـ.و«البداية والنهاية» لابن كثير. (ج٣/ ص١٣٥) قال رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ مَرْجِعَهُ مِنَ الطَّائِفِ فِي جِوَارِ الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ، وَازْدَادَ قَوْمُهُ عَلَيْهِ حَنَقًا، وَغَيْظًا، وَجُرْأَةً، وَتَكْذِيبًا، وَعِنَادًا»اهـ.

(٥) يعني: الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ.

دَوَاءً؛ فَتَدَاوَوْا»[١]، وَمَرتَبَةُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ الأَمْرُ[٢].

وَالأَمْرُ إِمَّا أَنْ يَكُوْنَ وَاجِبًا، أَوْ نَدبًا، وَلَمْ يَسْبِقْهُ حَظْرٌ؛ فَيُقَالَ: هُوَ أَمْرُ إِبَاحَةٍ[٣].

وَكَانَتْ عَائِشَةُ ﵂ تَقُوْلُ: «تَعَلَّمْتُ الطِبَّ مِنْ كَثْرَةِ أَمْرَاضِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَمَا يُنْعَتُ لَهُ»[٤].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﵁: «كُلْ مِنْ هَذَا؛ فإِنَّهُ أَوْفَقُ لَكَ مِنْ هَذَا»[٥].

---

(١) رواه أبو داود في «سننه» كِتَابُ «الطب» بَابُ «في الأدوية المكروهة» حديث (٣٨٦٦) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً فَتَدَاوَوْا وَلا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ».

(٢) أي: «فَتَدَاوَوْا» وَالتَّدَاوِي مَشْرُوعٌ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ؛ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي حُكْمِهِ، فَذَهَبَ جُمْهُورُ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةُ إِلَى أَنَّهُ مُبَاحٌ. وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْقَاضِي وَابْنُ عَقِيلٍ وَابْنُ الْجَوْزِيِّ مِنَ الْحَنَابِلَةِ إِلَى اسْتِحْبَابِهِ. وَمَحَل الاسْتِحْبَابِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ عِنْدَ عَدَمِ الْقَطْعِ بِإِفَادَتِهِ، أَمَّا لَوْ قُطِعَ بِإِفَادَتِهِ كَعَصْبِ مَحَل الْفَصْدِ فَإِنَّهُ وَاجِبٌ. وَجُمْهُورُ الْحَنَابِلَةِ عَلَى أَنَّ تَرْكَ التَّدَاوِي أَفْضَل؛ لأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى التَّوَكُّل. وَالرَّاجِحُ رَأْيِ الجُمْهُور.

(٣) الإِبَاحَة عِندَ أَهْلِ الأُصُول: خِطَابُ اللهِ تَعَالَى الْمُتَعَلِّقُ بِأَفْعَال الْمُكَلَّفِينَ تَخْيِيرًا مِنْ غَيْرِ بَدَلٍ. وعند الْفُقَهَاء: الإِذْنُ بِإِتْيَانِ الْفِعْل حَسَبَ مَشِيئَةِ الْفَاعِلِ فِي حُدُودِ الإِذْنِ. وَقَدْ تُطْلَقُ الإِبَاحَةُ عَلَى مَا قَابَل الْحَظْرَ، فَتَشْمَل الْفَرْضَ وَالإِيجَابَ وَالنَّدْبَ. وَالأَمْرُ بَعْدَ الْحَظْرِ يُفِيدُ الإِبَاحَةَ عِنْدَ الأَكْثَرِ، وَمِنْهُمُ الشَّافِعِيُّ وَالآمِدِيُّ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]. وَكَقَوْل النَّبِيِّ ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَلا فَزُورُوهَا». وَلِلْوُجُوبِ عِنْدَ عَامَّةِ الْحَنَفِيَّةِ وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنِ الْقَاضِي وَاخْتَارَهُ الرَّازِيُّ، وَتَوَقَّفَ فِيهِ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ. وَاخْتَارَ ابْنُ الْهُمَامِ وَالشَّيْخُ زَكَرِيَّا الأَنْصَارِيُّ أَنَّهُ يَرْجِعُ الْحُكْمُ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْل الْحَظْرِ إِبَاحَةً أَوْ وُجُوبًا.

(٤) رواه أبو نعيم في «الطب النبوي» (٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦١). ولفظه: عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَعلَمَ بِالطِّبِّ مِنْ عَائِشَةَ ﵂ فَقُلْتُ: يَا خَالَة مِمَّن تَعَلَّمْتِ الطِّبَّ؟ قَالَت: كُنْتُ أَسْمَع النَّاسَ يَنْعِتُ بَعضُهُم لِبَعضٍ فَأَحفَظُ». ورواه أحمد في «المسند» (٢٤٣٦١) ولفظه: هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ قَالَ: «كَانَ عُرْوَةُ يَقُولُ لِعَائِشَةَ: يَا أُمَّتَاهُ، لَا أَعْجَبُ مِنْ فَهْمِكِ، أَقُولُ: زَوْجَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَلَا أَعْجَبُ مِنْ عِلْمِكِ بِالشِّعْرِ، وَأَيَّامِ النَّاسِ، أَقُولُ ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ أَوْ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ، وَلَكِنْ أَعْجَبُ مِنْ عِلْمِكِ بِالطِّبِّ كَيْفَ هُوَ؟ وَمِنْ أَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فَضَرَبَتْ عَلَى مَنْكِبِهِ وَقَالَتْ: أَيْ عُرَيَّةُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَسْقَمُ عِنْدَ آخِرِ عُمْرِهِ، أَوْ فِي آخِرِ عُمْرِهِ، فَكَانَتْ تَقْدَمُ عَلَيْهِ وُفُودُ الْعَرَبِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَتَنْعَتُ لَهُ الْأَنْعَاتَ، وَكُنْتُ أُعَالِجُهَا لَهُ، فَمِنْ ثَمَّ».

(٥) رواه الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «الطِّبِّ» حديث (٧٤٥٣). ولفظه: «يَا عَلِيُّ كُلْ مِنْ هَذَا فَهُوَ أَوْفَقُ لَكَ».

وَمَنْ ذَهَبَ إِلَىٰ أَنَّ تَركَهُ أَفْضَلُ؛ احْتَجَّ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَدخُلُ الجَنَّةَ سَبْعُوْنَ أَلفًا بِلَا حِسَابٍ»، ثُمَّ وَصَفَهُم فقَالَ: «لا يَكْتَوُوْنَ، وَلا يَسْتَرقُوْنَ، وَلا يَتَطَيَّرُوْنَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِم يَتَوَكَّلُوْنَ»[١].

وَهَذَا لا يُنَافِي التَّدَاوِي[٢]؛ لِأَنَّهُ قَد كَانَ أَقْوَامٌ يَكْتَوُوْنَ لِئَلَّا يَمْرَضُوْا، وَيَسْتَرقُوْنَ لِئَلَّا تُصِيبَهُمْ نَكْبَةٌ، وَقَد كَوَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَسْعَد بْنَ زُرَارَةَ[٣]، وَرخَّصَ فِي الرُّقْيَةِ فِي الحَدِيْثِ الصَّحِيْحِ[٤]، فَعَلِمْنَا أَنَّ الْمُرَاد مَا أَشَرنَا إِلَيْهِ.

وَإِذَا عَرَفْتُ الحَاجَةَ إِلَىٰ إِسْهَالِ الطَّبْعِ؛ رَأَيْتُ أَنَّ أَكْلَ البَلُّوْطِ[٥] مِمَّا يَمْنَعُ عَنْهُ عِلْمِي، وَشُربُ مَاءِ التَّمْرِ هِنْدِي أَوْفَقُ، وَهَذَا طِبٌّ، فَإِذَا لَمْ أَشْرَبْ مَا يُوَافِقُنِي، ثُمَّ قُلْتُ: اللَّهُمَّ! عَافِنِي!

قَالَتْ لِي الحِكْمَةُ: أَمَا سَمِعتَ: «اِعْقِلْهَا وتوكَّلْ»[٦]؟! اشْرَبْ! وَقُلْ: عَافِنِي! وَلَا تَكُنْ

---

(١) رواه البخاري، كِتَابُ «الطِّبِّ» بَابُ «مَنْ لَمْ يَرْقِ» حديث (٥٧٥٢) ورواه مسلم، كِتَابُ «الإِيمَانِ» بَابُ «الدَّلِيلِ عَلَىٰ دُخُولِ طَوَائِفَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ» حديث (٢١٨).

(٢) قَال ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله: «الأَمْرُ بِالتَّدَاوِي، لاَ يُنَافِي التَّوَكُّل، كَمَا لاَ يُنَافِيهِ دَفْعُ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ بِأَضْدَادِهَا، بَل لاَ تَتِمُّ حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ إِلاَّ بِمُبَاشَرَةِ الأَسْبَابِ الَّتِي نَصَبَهَا اللهُ مُقْتَضِيَاتٍ لِمُسَبَّبَاتِهَا قَدَرًا وَشَرْعًا، وَأَنَّ تَعْطِيلَهَا يَقْدَحُ فِي نَفْسِ التَّوَكُّل، كَمَا يَقْدَحُ فِي الأَمْرِ وَالْحِكْمَةِ، وَيُضْعِفُهُ مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ مُعَطِّلُهَا أَنَّ تَرْكَهَا أَقْوَىٰ فِي التَّوَكُّل، فَإِنَّ تَرْكَهَا عَجْزٌ يُنَافِي التَّوَكُّل الَّذِي حَقِيقَتُهُ اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَىٰ اللهِ فِي حُصُول مَا يَنْفَعُ الْعَبْدَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَلاَ بُدَّ مَعَ هَذَا الاعْتِمَادِ مِنْ مُبَاشَرَةِ الأَسْبَابِ، وَإِلاَّ كَانَ مُعَطِّلًا لِلْحِكْمَةِ وَالشَّرْعِ، فَلاَ يَجْعَل الْعَبْدُ عَجْزَهُ تَوَكُّلًا، وَلاَ تَوَكُّلَهُ عَجْزًا» اهـ. «زاد المعاد» (ج٣/ ص١١٧).

(٣) جاء في الأصل: [سعد] والصواب ما أثبتناه من مخطوط (ي). والحديث رواه الترمذي في «جامعه» كِتَابُ «الطِّبِّ» بَابُ «مَا جَاءَ فِي الرُّخْصَةِ فِي ذَلِكَ» (٢٠٥٠). * أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ بنِ عُدَسَ بنِ عُبَيْدِ بنِ ثَعْلَبَةَ الأَنْصَارِيُّ نَقِيبُ بَنِي النَّجَّارِ، وَلَمَّا تُوُفِّيَ يَجْعَلِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَهُ نَقِيبًا عَلَىٰ بَنِي النَّجَّارِ. وَقَالَ: (أَنَا نَقِيبُكُم) فَكَانُوا يَفْخَرُوْنَ بِذَلِكَ. وَهُوَ أَوَّلُ مَدْفُوْنٍ فِي البَقِيْعِ. وَقِيْلَ: عُثْمَانُ بنُ مَظْعُوْنٍ.

(٤) رواه البخاري، ك: «الطِّبِّ» ب: «رقية الحية والعقرب» (٥٧٤١) ومسلم، ك: «السلام» ب: «استحباب العين» (٢١٩٣). سَأَلْتُ عَائِشَةَ عَنِ الرُّقْيَةِ مِنَ الحُمَةِ، فَقَالَتْ: «رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ الرُّقْيَةَ مِنْ كُلِّ ذِي حُمَةٍ». والحُمَةُ: هِيَ السُّم.

(٥) البَلُّوطُ: ثَمَرُ شَجَرٍ يُؤْكَلُ وَيُدْبَغُ بِقِشْرِهِ. وَهُوَ شَجَرٌ جَمِيْلُ الْمَنْظَرِ، غَلِيظ السَّاق، كَثِير الخَشَب.

(٦) رواه ابن حبان، كِتَابُ «الرَّقَائِقِ» بَابُ «الْوَرَعِ وَالتَّوَكُّلِ» (٧٣١).

كَمَنْ بَيْنَ زَرعِهِ وَبَيْنَ النَّهْرِ كَفٌّ مِنْ تُرَابٍ، تَكَاسَلَ أَنْ يَرفَعَهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي صَلَاةَ الاسْتِسْقَاءِ!

وَمَا هَذِهِ الحَالَةُ إِلَّا كَحَالِ مَنْ سَافَرَ عَلَىٰ التَّجْرِيدِ(١)، وَإِنَّمَا سَافَرَ عَلَىٰ التَّجْرِيدِ؛ لِأَنَّهُ يُجَرِّبُ رَبَّهُ(٢) ﷻ، هَلْ يَرزُقُهُ أَوْ لَا؟ وَقَد تَقَدَّمَ الأَمْرَ إِلَيْهِ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾[البقرة:١٩٧]، فَقَالَ: لَا أَتَزَوَّدُ! فَهَذَا هَالِكٌ قَبْلَ أَنْ يُهْلِكَهُ، وَلَوْ جَاءَ وَقْتُ صَلَاةٍ وَلَيْسَ مَعَهُ مَاءٌ؛ لِيمَ عَلَىٰ تَفْرِيطِهِ، وَقِيْلَ لَهُ: هَلَا اسْتَصْحَبْتَ الْمَاءَ قَبْلَ الْمَفَازَةِ!

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ أَفْعَالِ أَقْوَامٍ دَقَّقُوا، فَمَرَقُوا(٣) عَنِ الأَوْضَاعِ الدِّيْنِيَّةِ، وَظَنُّوا أَنَّ كَمَالَ الدِّيْنِ بِالخُرُوْجِ عَنِ الطِّبَاعِ، وَالْمُخَالَفَةِ لِلأَوْضَاعِ، وَلَوْلَا قُوَّةُ العِلْمِ وَالرُّسُوْخُ فِيْهِ؛ لَمَا قَدِرْتُ عَلَىٰ شَرحِ هَذَا وَلَا عَرَفْتُهُ. فَافْهَمْ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ، فَهُوَ أَنْفَعُ لَكَ مِنْ كَرَارِيْسَ تَسْمَعُهَا، وَكُنْ مَعَ أَهْلِ الْمَعَانِي لَا مَعَ أَهْلِ الْحَشْوِ.

* [٤١-٤٤] [خَاطِرَةٌ]:

[مِنَ الْخَطَأِ أَنْ تَقِفَ مَعَ الأَسْبَابِ وَتَنْسَى الْمُسَبِّبَ]

مِمَّا يَزِيْدُ الْعِلْمَ عِنْدِي فَضْلًا: أَنَّ قَوْمًا تَشَاغَلُوْا بِالتَّعَبُّدِ عَنِ العِلْمِ، فَوَقَفُوْا عَنِ الْوُصُوْلِ إِلَىٰ حَقَائِقِ الطَّلَبِ.

فَرُوِيَ عَنْ بَعْضِ القُدَمَاءِ أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ: يَا أَبَا الوَلِيْدِ! إِنْ كُنْتَ أَبَا الوَلِيْدِ! يَتَوَرَّعُ أَنْ يُكْنِيْهِ وَلَا وَلَدَ لَهُ! وَلَوْ أَوْغَلَ هَذَا فِي العِلْمِ، لَعَلِمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَنَّىٰ صُهَيْبًا أَبَا يَحيَىٰ(٤)، وَكَنَّىٰ طِفْلًا

(١) أي: دون زاد أو راحلة أو رفيق.

(٢) جاء في الأصل: [بربه] والصواب ما أثبتناه من مخطوط (ي) لتمام المعنىٰ به.

(٣) مرَقَ يَمرُق، مُروقًا، فهو مارق. وهو الخروج من الشيء؛ أي: خرجوا عن الأوضاع الدينية.

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ» «ذِكْرُ مَنَاقِبِ صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ» (٥٧٠٦). * أَمَّا صُهَيْبًا فهو: صُهَيْب بن سِنَانٍ أَبُو يَحْيَىٰ الرُّومِيُّ؛ لأَنَّهُ أَقَامَ فِي الرُّومِ مُدَّةً. كَانَ مِنْ كِبَارِ السَّابِقِيْنَ البَدْرِيِّيْنَ مَاتَ سَنَةَ:(٣٨هـ).

[فَقَالَ(١)]: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ! مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»(٢).

وَقَالَ بَعضُ الْمُتَزَهِّدِينَ: قِيْلَ لِي يَوْمًا: كُلْ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ! فَقُلْتُ: هَذَا يَضُرُّنِي. ثُمَّ وَقَفْتُ بَعْدَ مُدَّةٍ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ! إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي مَا أَشْرَكْتُ بِكَ طَرفَةَ عَيْنٍ. فَهَتَفَ بِي هَاتِفٌ: وَلا يَوْمَ اللَّبَنِ؟!

وَهَذَا لَوْ صَحَّ؛ جَازَ أَنْ يَكُوْنَ تَأْدِيْبًا لَهُ؛ لِئَلَّا يَقِفَ مَعَ الأَسْبَابِ نَاسِيًا لِلْمُسَبِّبِ، وَإِلَّا، فَالرَّسُوْلُ ﷺ قَد قَالَ: «مَا زَالَتْ أُكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي حَتَّىٰ الآنَ قَطَعَتْ أَبْهَرِي»(٣)، وَقَالَ: «مَا نَفَعَنِي مَالٌ كَمَالِ أَبِي بَكْرٍ»(٤).

وَمِنَ الْمُتَزَهِّدِيْنَ أَقْوَامٌ يَرَوْنَ التَّوَكُّلَ قَطْعَ الأَسْبَابِ كُلِّهَا، وَهَذَا جَهْلٌ بِالعِلْمِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ: دَخَلَ الغَارَ(٥)، وَشَاوَرَ الطَّبِيْبَ، وَلَبِسَ الدِّرعَ(٦)، وَحَفَرَ الخَنْدَقَ(٧)، وَدَخَلَ مَكَّةَ فِي جِوَارِ الْمُطعَمِ بْنِ عَدِيٍّ، وَكَانَ كَافِرًا(٨)، وَقَالَ لِسَعدٍ: «لأَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُوْنَ النَّاسَ»(٩).

---

(١) ليست في الأصل، ولا في مخطوط (ي): وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

(٢) رواه البخاري، كِ: «الأَدَبِ» بَ: «الإِنْبِسَاطِ إِلَىٰ النَّاسِ» (٦١٢٩). ومسلم، كِ: «الآدَابِ» بَ: «تَحْنِيكِ الْمَوْلُودِ» (٢١٥٠)

(٣) رواه البزار في «مسنده» (٨٠٠٧). والبخاري، «الْمَغَازِي» (٤٤٢٨) (أَبْهَرِي) عِرقٌ إِذَا انقَطَعَ مَاتَ الإِنْسَان.

(٤) رواه الترمذي في «جامعه» كِتَابُ «الْمَنَاقِبِ» بَابُ «مَنَاقِبِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﵁» (٣٦٦١): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ ﷺ: «مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَقَدْ كَافَيْنَاهُ مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِئُهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَا نَفَعَنِي مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ».

(٥) رواه البخاري، كِتَابُ «مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ» بَابُ «هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ» حديث (٣٩٠٥).

(٦) ينظر الخاطرة السابقة: [٤٣-٥١].

(٧) رواه البخاري، كِ: «الْمَغَازِي» بَ: «غَزْوَةِ الخَنْدَقِ» (٤١٠١). ومسلم، كِ: «الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ» بَ: «غَزْوَةِ الأَحْزَابِ» (١٨٠٣).

(٨) ينظر الخاطرة السابقة: [٤٣-٥١].

(٩) رواه البخاري، كِ: «النَّفَقَاتِ» بَ: «فَضْلِ النَّفَقَةِ عَلَىٰ الأَهْلِ» (٥٣٥٤). ومسلم، كِ: «الْوَصِيَّةِ» بَ: «الْوَصِيَّةِ بِالثُّلُثِ» (١٦٢٨). * وَأَمَّا سَعْد فَهُوَ: سَعْد بن أَبِي وَقَّاصٍ مَالِكِ بنِ أُهَيْبِ الزُّهْرِيُّ. أَبُو إِسْحَاقَ القُرَشِيُّ، أَحَدُ العَشَرَةِ، وَأَحَدُ السَّابِقِيْنَ الأَوَّلِيْنَ، مَاتَ سَنَةَ: (٥٦أو٥٧هـ).

فَالوُقُوْفُ مَعَ الأَسْبَابِ مَعَ نِسْيَانِ الْمُسَبِّبِ غَلَطٌ، وَالعَمَلُ عَلَىٰ الأَسْبَابِ مَعَ تَعَلُّقِ القَلْبِ بِالْمُسَبِّبِ هُوَ الْمَشْرُوعُ. وَكُلُّ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ إِنَّمَا تُقْطَعُ بِمِصْبَاحِ العِلْمِ، وَلَقَد ضَلَّ مَنْ مَشَىٰ فِي ظُلْمَةِ الجَهْلِ، أَوْ فِي زُقَاقِ الهَوَىٰ.

* [٤٥-١٦٠] [خَاطِرَةٌ]:

[مَتَى تَحَقَّقَتِ المُرَاقَبَةُ؛ حَصَلَ الأُنسُ]

الْحَقُّ ﷻ أَقْرَبُ إِلَىٰ عَبْدِهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيْدِ؛ لَكِنَّهُ عَامَلَ الْعَبْدَ مُعَامَلَةَ الغَائِبِ عَنْهُ، البَعِيْدِ مِنْهُ؛ فَأَمَرَهُ بِقَصْدِ بَيْتِهِ، وَرَفْعِ اليَدَيْنِ إِلَيْهِ، وَالسُّؤَالِ لَهُ.

فَقُلُوْبُ الجُهَّالِ تَسْتَشْعِرُ البُعْدَ، وَلِذَلِكَ تَقَعُ مِنْهُمُ الْمَعَاصِي؛ إِذْ لَوْ تَحَقَّقَتْ مُرَاقَبَتُهُمْ لِلْحَاضِرِ النَّاظِرِ؛ لَكَفُّوا الأَكُفَّ عَنِ الخَطَايَا.

وَالْمُتَيَقِّظُوْنَ عَلِمُوْا قُرْبَهُ، فَحَضَرَتْهُمُ الْمُرَاقَبَةُ، وَكَفَّتْهُمْ عَنِ الانْبِسَاطِ.

وَلَوْلَا نَوْعُ تَغْطِيَةٍ عَلَىٰ عَيْنِ الْمُرَاقَبَةِ الْحَقِيْقِيَّةِ؛ لَمَا انْبَسَطَتْ كَفٌّ بِأَكْلٍ، وَلَا قَدَرَتْ عَيْنٌ عَلَىٰ نَظَرٍ. وَمِنْ هَذَا الجِنْسِ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي»[1].

وَمَتَىٰ تَحَقَّقَتِ الْمُرَاقَبَةُ؛ حَصَلَ الأُنْسُ. وَإِنَّمَا يَقَعُ الأُنْسُ بِتَحْقِيْقِ الطَّاعَةِ؛ لِأَنَّ الْمُخَالَفَةَ تُوْجِبُ الْوَحْشَةَ، وَالْمُوَافَقَةُ مَبْسَطَةُ الْمُسْتَأْنِسِيْنَ.

فَيَا لَذَّةَ[2] عَيْشِ الْمُسْتَأْنِسِيْنَ! وَيَا خَسَارَةَ الْمُسْتَوحِشِيْنَ! وَلَيْسَتِ الطَّاعَةُ كَمَا يَظُنُّ أَكْثَرُ الْجُهَّالِ أَنَّهَا مُجَرَّدُ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ. إِنَّمَا الطَّاعَةُ الْمُوَافَقَةُ بِامْتِثَالِ الأَمْرِ، وَاجْتِنَابِ النَّهْيِ، هَذَا هُوَ الأَصْلُ وَالقَاعِدَةُ الكُلِّيَّةُ.

فَكَمْ مِنْ مُتَعَبِّدٍ بَعِيْدٌ؛ لأَنَّهُ مُضَيِّعُ الأَصلِ، وَهَادِمُ القَوَاعِدِ بِمُخَالَفَةِ الأَمْرِ، وَارتِكَابِ النَّهْيِ.

---

(١) رواه مسلم، كِ: «الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ» بَ: «اسْتِحْبَابِ الإِسْتِغْفَارِ» (٢٧٠٢). وَالغَيْن وَالغَيم بمعنىٰ واحد، والمراد هنا: ما يتغشىٰ القلب من الفترات والغفلات عن الذكر الله، الذي شأنه الدوام عليه؛ فإذا فتر عنه أو غفل عُدَّ ذَلِكَ ذَنبًا وَاستغفر مِنْهُ.

(٢) جاء في الأصل: [للذة] والصواب ما أثبتناه من مخطوط (ي)؛ لتمام المعنىٰ به.

وَإِنَّمَا الْمُحَقِّقُ مَنْ أَمْسَكَ ذُؤَابَةَ(١) مِيزَانِ الْمُحَاسَبَةِ لِلنَّفْسِ؛ فَأَدَّىٰ مَا عَلَيْهِ، وَاجْتَنَبَ مَا نُهِيَ عَنْهُ؛ فَإِنْ رُزِقَ زِيَادَةَ تَنَفُّلٍ؛ وَإِلَّا؛ لَم يَضُرَّهُ. وَالسَّلَامُ(٢).

* [٤٦-١٢٣] [خَاطِرَةٌ]:

[الأَصْلَحُ لِاعتِقَادِ الْعَوَامِّ ظَوَاهِرُ الآيِ وَالسُّنَنِ]

قَدِمَ إِلَىٰ بَغْدَادَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ الأَعَاجِمِ، فَارتَقَوْا مَنَابِرَ التَّذْكِيرِ لِلْعَوَامِّ، فَكَانَ مُعْظَمَ مَجَالِسِهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُوْنَ: لَيْسَ للهِ فِي الأَرضِ كَلَامٌ! وَهَلِ الْمُصحَفُ إِلَّا وَرَقٌ وَعَفصٌ وَزَاجٌ(٣)؟! وَإِنَّ اللهَ لَيْسَ فِي السَّمَاءِ!

وَإِنَّ الْجَارِيَةَ الَّتِي قَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «أَيْنَ اللهُ؟»(٤): كَانَتْ خَرْسَاءَ(٥)، فَأَشَارَتْ إِلَىٰ

(١) الذُّؤَابَة: من العِزِّ والشَّرَفِ ومن كلِّ شيءٍ: أعلاهُ وأرفَعُه، ويقالُ: هُمْ ذُؤَابَةُ قَوْمِهِم؛ أي: أشرافُهُمْ وَأعلاهُمْ.

(٢) يعني: أنه إذا رُزق من فضل الله تعالىٰ المواظبة علىٰ النوافل فنِعمَّ هي، وإلَّا؛ فمجرد أنه اجتنب ما نهي عنه وحافظ علىٰ الأصول؛ فهذا يكفيه إن شاء الله. * وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إذا أرَادَ بِعَبْدِهِ خيرا أنساه رُؤيَة طاعاته، ورفعها من قلبه وَلسَانه؛ فَإِذا ابتُلِيَ بالذنب جعله نُصب عَيْنَيْهِ، وَنَسِيَ طاعاته، وَجعل همه كُله بِذَنبِهِ، فَلَا يزَال ذَنبه أمامه إن قَامَ أَوْ قعد أَوْ غَدا أَوْ رَاح، فَيكون هَذَا عين الرَّحْمَة فِي حَقه. فعلامة السَّعَادَة أن تكون حَسَنَات العَبْد خلف ظَهره، وسيئاته نُصب عَيْنَيْهِ. وعلامة الشقاوة أن يَجْعَل حَسَنَاته نُصب عَيْنَيْهِ وسيئاته خلف ظَهره، وَالله الْمُسْتَعَان»[«مفتاح دار السعادة» (ج٢/ ٢٩٤)].

(٣) العَفْصُ: شجر البَلُّوط، يُستخدم ثمرُه في صناعة الأصباغ، ويُتَّخذُ منه الحِبرُ لِسَوَادِ صَبغَتِهِ. والزَّاجُ: اسم شامل يُستعمَل للدَّلالة علىٰ بعض الأملاح الَّتي يُصْبَغ به، وَيُسْتَعمَل فِي خَلطة حِبر الكِتَابة. مِنْهُ: الزَّاجُ الأزرقُ: كبريتاتُ النحاس، والزَّاجُ الأخضرُ: كبريتات الحديد.

(٤) رواه مسلم، كِتَابُ «الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ» بَابُ «تَحْرِيمِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ»(٥٣٧). عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.... وَفِيْهِ: قَالَ: «وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَىٰ غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْم فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «ائْتِنِي بِهَا» فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ».

(٥) هَذَا القَوْل مَردُود؛ لأنَّ نَصّ الحَدِيث الَّذِي فِي الهَامِش السَّابق يثبتُ أنَّ الجَارِيَة لَم تَكُن خَرسَاء، وقد ثبت في =

السَّمَاءِ؛ أَيْ: لَيْسَ هُوَ مِنَ الأَصنَامِ الَّتِي تُعْبَدُ فِي الأَرضِ!. ثُمَّ يَقُوْلُوْنَ: أَيْنَ الحُرُوْفِيَّةُ الَّذِيْنَ يَزْعُمُوْنَ أَنَّ القُرآنَ حَرْفٌ وَصَوْتٌ؟! هَذَا عِبَارَةُ جِبْرِيْلَ!!

فَمَا زَالُوْا كَذَٰلِكَ، حَتَّىٰ هَانَ تَعْظِيْمُ القُرْآنِ فِي صُدُوْرِ أَكْثَرِ العَوَامِّ، وَصَارَ أَحَدُهُم يَسْمَعُ فَيَقُوْلُ: هَذَا هُوَ الصَّحِيْحُ؛ وَإِلَّا؛ فَالقُرْآنُ شَيْءٌ يَجِيْءُ بِهِ جِبْرِيْلُ فِي كِيْسٍ[1]!

فَشَكَا إِلَيَّ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، فَقُلْتُ لَهُمْ: اِصْبِرُوْا، فَلَا بُدَّ لِلشُّبُهَاتِ أَنْ تَرْفَعَ رَأْسَهَا فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ، وَإِنْ كَانَتْ مَدْمُوْغَةً[2]، وَلِلْبَاطِلِ جَوْلَةٌ، وَلِلْحَقِّ صَوْلَةٌ، وَالدَّجَّالُوْنَ كَثِيْرٌ، وَلَا يَخْلُوْ بَلَدٌ مِمَّنْ يَضرِبُ البَهْرَجَ عَلَىٰ مِثْلِ سِكَّةِ السُّلْطَانِ[3].

قَالَ قَائِلٌ: فَمَا جَوَابُنَا عَنْ قَوْلِهِم؟ قُلْتُ: اِعْلَمْ - وَفَّقَكَ الله تَعَالَىٰ - أَنَّ اللهَ ﷻ وَرَسُوْلَهُ قَنِعَا مِنَ الخَلْقِ بِالإِيْمَانِ بِالجُمَلِ، وَلَم يُكَلِّفَا مَعْرِفَةَ التَّفَاصِيْلِ: إِمَّا؛ لِأَنَّ الاطِّلَاعَ عَلَىٰ التَّفَاصِيْلِ يُخَبِّطُ العَقَائِدَ، وَإِمَّا؛ لِأَنَّ قُوَىٰ البَشَرِ تَعْجِزُ عَنْ مُطَالَعَةِ ذَٰلِكَ.

= رواية أخرىٰ عند أحمَد في «المسند»(٧٨٩٣). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِجَارِيَةٍ أَعْجَمِيَّةٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ عَلَيَّ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَفَأُعْتِقُ هَذِهِ؟ فَقَالَ لَهَا ﷺ: «أَيْنَ اللهُ؟» فَأَشَارَتْ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَقَالَ لَهَا: «فَمَنْ أَنَا؟» فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ السَّمَاءِ، أَيْ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» وروىٰ الطبراني في «الكبير»(١٢٣٦٩) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَجُلًا أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ عَلَيَّ رَقَبَةً وَعِنْدِي جَارِيَةٌ سَوْدَاءُ أَعْجَمِيَّةٌ، فَقَالَ: «ائْتِنِي بِهَا»، فَقَالَ: «أَتَشْهَدِينَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «أَتَشْهَدِينَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «فَأَعْتِقْهَا». وَيُؤَوَّلُ قَوْلُهُ: قَالَتْ: نَعَمْ، عَلَىٰ أَنَّهَا قَالَتْ بِالإِشَارَةِ أَوْ أَنَّهُ وَقَعَ مِنْهَا الأَمْرَانِ، فَقَالَتْ: نَعَمْ، بِاللَّفْظِ حِينَ قَوْلِهِ أَتَشْهَدِينَ.. إِلَخْ، فَأَشَارَتْ إِلَىٰ السَّمَاءِ حِينَ قَوْلِهِ «أَيْنَ اللهُ؟ وَمَنْ أَنَا؟» وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ. هذا أولا. أمّا ثانيًا: فإنَّ التَّأْوِيْل الَّذي ذُكِرَ[«لَيْسَ هُوَ مِنَ الأَصنَامِ الَّتِي تُعْبَدُ فِي الأَرضِ». فَهَذَا التَّأْوِيْل لَم يَقُلْهُ أحد مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ.

(١) هَذَا مِنْ وَسَوسَات الشَّيَاطِيْن، * قال ابن القيم رحمه الله: «ومن حيله ومكايده: الكلام الباطل، والآراء المتهافتة، والخيالات المتناقضة، التي هي زبالة الأذهان، ونُحاتة الأفكار، والزبد الذي يقذف به القلوب المظلمة المتحيرة، التي تعدل الحق بالباطل، والخطأ بالصواب، قد تقاذفت بها أمواج الشبهات، ورانت عليها غيوم الخيالات، فمركبها القيل والقال، والشك والتشكيك، وكثرة الجدال» اهـ[«إغاثة اللهفان»(ب:١٣/ ص١٣٨)].

(٢) مَدْموغ: إِسْمُ مَفْعُول مِن دمَغَ. ودَمَغَه يَدْمَغُه دَمْغًا غَلَبَهُ؛ أي أنها شُبهة لا حُجة لها فهي باطلة مغلوبة.

(٣) البَهْرَجُ: الباطِلُ وَالزائفُ والرَّدِيءُ مِن كلّ شيْءٍ. وَالسِكَّة: حَدِيْدَةٌ مَنْقُوشَةٌ تُضْرَبُ عَلَيهَا النُّقُود. والمعنىٰ: أنه لا يخلو بلد من البلدان إلا وفيه مَن يزور المال ويزيفه علىٰ نفس صفة المال الذي يصدره الحاكم للناس.

فَأَوَّلُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُوْلُ ﷺ إِثْبَاتُ الخَالِقِ(١)، وَنَزَلَ عَلَيْهِ القُرآنُ بِالدَّلِيْلِ عَلَىٰ وُجُوْدِ الخَالِقِ، بِالنَّظَرِ فِي صُنْعِهِ: فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾[النمل:٦١]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات:٢١] وَمَا زَالَ يَسْتَدِلُّ عَلَىٰ وُجُوْدِهِ بِمَخْلُوْقَاتِهِ، وَعَلَىٰ قُدْرَتِهِ بِمَصْنُوْعَاتِهِ.

ثُمَّ أَثْبَتَ نُبُوَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ بِمُعْجِزَاتِهِ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِهَا القُرآنُ الَّذِي جَاءَ بِهِ، فَعَجَزَ الخَلَائِقُ عَنْ مِثْلِهِ، وَاكْتَفَىٰ بِهَذِهِ الأَدِلَّةِ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَمَضَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ القَرْنُ الأَوَّلُ، وَالْمَشْرَبُ صَافٍ لَمْ يَتَكَدَّرْ(٢).

وَعَلِمَ اللهُ ﷻ مَا سَيَكُوْنُ مِنَ الْبِدَعِ، فَبَالَغَ فِي إِثْبَاتِ الأَدِلَّةِ، وَمَلأَ بِهَا القُرآنَ.

وَلَمَّا كَانَ القُرآنُ هُوَ مَنْبَعَ العُلُوْمِ، وَأَكْبَرَ الْمُعْجِزَاتِ لِلرَّسُوْلِ ﷺ، أَكَّدَ الأَمْرَ فِيْهِ: فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[الأنعام:٩٢]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾[الإسراء:٨٢].

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ كَلامُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[الفتح:١٥].

وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَسْمُوْعٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَحْفُوْظٌ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾[البروج:٢٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَۚ﴾[العنكبوت:٤٩].

وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَكْتُوْبٌ وَمَتْلُوٌّ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾[العنكبوت:٤٨]، إِلَىٰ مَا يَطُوْلُ شَرْحُهُ مِنْ تَعَدُّدِ الآيَاتِ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي، الَّتِي تُوْجِبُ إِثْبَاتَ القُرآنِ.

---

(١) أي: إثبات أنَّ الخالق واحد لا شريك له، وليس له أنداد؛ وإلا فإن كفار قريش كان مستقرًا عندهم أن هناك خالق لهذا الكون، ولكن كان لهم آلهة أخرىٰ علىٰ زعمهم؛ وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وقالوا عن آلهتهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]

(٢) الْمَشْرَبُ: اسم مَكَان من شرِبَ: مورد؛ مكان الشرب قد صار له مشرب يعرفه فلا يتعدّاه لمشرب غيره وهو تسمية الشيء باسم مكانه، وإضافة المشرب إليهم؛ لأن القرن الأول كانوا لا يتعدون كلام الرسول ﷺ.

ثُمَّ نَزَّهَ نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ أَنْ يَكُوْنَ أَتَىٰ بِهِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[السجدة: ٣].

وَتَوَعَّدَهُ لَوْ فَعَلَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[الحاقة: ٤٤- ٤٦].

وَقَالَ فِي حَقِّ الزَّاعِمِ أَنَّهُ كَلَامُ الْخَلْقِ حِيْنَ قَالَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٥-٢٦].

وَلَمَّا عَذَّبَ كُلَّ أُمَّةٍ بِنَوْعِ عَذَابٍ تَوَلَّاهُ بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ؛ كَصَيْحَةِ جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِثَمُوْدَ، وَإِرْسَالِ الرِّيْحِ عَلَىٰ عَادٍ، وَالخَسْفِ بِقَارُوْنَ، وَقَلْبِ جِبْرِيْلَ دِيَارَ قَوْمِ لُوْطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِرْسَالِ الطَّيْرِ الأَبَابِيْلِ عَلَىٰ مَنْ قَصَدَ تَخْرِيْبَ الكَعْبَةِ.

تَوَلَّىٰ هُوَ بِنَفْسِهِ، عِقَابَ الْمُكَذِّبِيْنَ بِالقُرْآنِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]، ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[المدثر: ١١].

وَهَذَا؛ لأَنَّهُ أَصْلُ هَذِهِ الشَّرَائِعِ، وَالْمُثْبِتُ لِكُلِّ شَرِيْعَةٍ تَقَدَّمَتْ؛ لِأَنَّ جَمِيْعَ المِلَلِ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا كَانُوْا فِيْهِ إِلَّا كِتَابَنَا؛ لِأَنَّ كُتُبَهُم غُيِّرَتْ وَبُدِّلَتْ.

وَقَد عَلِمَ كُلُّ ذِي عَقْلٍ أَنَّ القَائِلَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[المدثر: ٢٥]: إِنَّمَا أَشَارَ إِلَىٰ مَا سَمِعَهُ.

وَلا يَخْتَلِفُ أُوْلُوْ الأَلْبَابِ وَأَهْلُ الفَهْمِ لِلْخِطَابِ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَإِنَّهُ﴾ كِنَايَةٌ عَنِ القُرآنِ، وَقَوْلَهُ: ﴿نَزَلَ بِهِ﴾: كِنَايَةٌ أَيْضًا عَنْهُ. وَقَوْلَهُ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾: إِشَارَةٌ إِلَىٰ حَاضِرٍ، وَهَذَا أَمْرٌ مُسْتَقِرٌّ، لَمْ يَخْتَلِفْ فِيْهِ أَحَدٌ مِنَ القُدَمَاءِ فِي زَمَنِ الرَّسُوْلِ ﷺ وَالصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِم.

ثُمَّ دَسَّ الشَّيْطَانُ دَسَائِسَ البِدَعِ، فَقَالَ قَوْمٌ: هَذَا الْمُشَارُ إِلَيْهِ مَخْلُوْقٌ[1]!

فَثَبَتَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ ثُبُوْتًا لَمْ يَثْبُتْهُ غَيْرُهُ عَلَىٰ دَفْعِ هَذَا القَوْلِ؛ لِئَلَّا يَتَطَرَّقَ إِلَىٰ القُرْآنِ مَا يَمْحُوْ بَعْضَ تَعْظِيْمِهِ فِي النُّفُوْسِ، وَيُخْرِجُهُ عَنِ الإِضَافَةِ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَأَىٰ أَنَّ اِبْتِدَاعَ مَا

---

(١) ومن هؤلاء: الجهمية والمعتزلة ومَن نهج نهجهم من الأشاعرة وغيرهم.

لَمْ يُقَلْ فِيْهِ لَا يَجُوْزُ اِسْتِعْمَالُهُ، فَقَالَ: كَيْفَ أَقُوْلُ مَا لَمْ يُقَلْ؟!

ثُمَّ لَمْ يَخْتَلِفِ النَّاسُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ إِلَىٰ أَنْ نَشَأَ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيْلَ الأَشْعَرِيُّ(١)، فَقَالَ مَرَّةً بِقَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ، ثُمَّ عَنَّ لَهُ(٢)، فَادَّعَىٰ أَنَّ الكَلَامَ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِالنَّفْسِ(٣)!

فَأَوْجَبَتْ دَعْوَاهُ هَذِهِ أَنَّ مَا عِنْدَنَا مَخْلُوْقٌ(٤)، وَزَادَتْ فَخَبَّطَتِ العَقَائِدَ، فَمَا زَالَ أَهْلُ البِدَعِ يَجُوْبُوْنَ فِي تَيَّارِهَا إِلَىٰ اليَوْمِ.

وَالكَلَامُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مُرَتَّبٌ بِذِكْرِ الحُجَجِ وَالشُّبَهِ فِي كُتُبِ الأُصُوْلِ؛ فَلَا أُطِيْلُ بِهِ هَا هُنَا، بَلْ أَذْكُرُ لَكَ جُمْلَةً تَكْفِي مَنْ أَرَادَ اللهُ هُدَاهُ:

وَهُوَ أَنَّ الشَّرْعَ قَنِعَ مِنَّا بِالإِيْمَانِ جُمْلَةً، وَبِتَعْظِيْمِ الظَّوَاهِرِ، وَنَهَىٰ عَنِ الخَوْضِ فِيْمَا يُثِيْرُ غُبَارُهُ شُبْهَةً(٥)، وَلَا تَقْوَىٰ عَلَىٰ قَطْعِ طَرِيْقِهِ أَقْدَامُ الفَهْمِ.

وَإِذَا كَانَ قَد نَهَىٰ عَنِ الْخَوْضِ فِي القَدَرِ؛ فَكَيْفَ يُجَوِّزُ الخَوْضَ فِي صِفَاتِ الْمُقَدِّرِ؟!

وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَحَدِ الأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْتُهُمَا: إِمَا لِخَوْفِ إِثَارَةِ شُبْهَةٍ تُزَلْزِلُ العَقَائِدَ، أَوْ؛ لِأَنَّ قُوَىٰ البَشَرِ تَعْجِزُ عَنْ إِدرَاكِ الحَقَائِقِ.

فَإِذَا كَانَتْ ظَوَاهِرُ القُرْآنِ تُثْبِتُ وُجُوْدَ القُرآنِ؛ فَقَالَ قَائِلٌ: لَيْسَ هَا هُنَا قُرآنٌ، فَقَد رَدَّ الظَّوَاهِرَ الَّتِي تَعِبَ الرَّسُوْلُ ﷺ فِي إِثْبَاتِهَا، وَقَرَّرَ وُجُوْدَهَا فِي النُّفُوْسِ.

---

(١) يُنظر ترجمته في الخاطرة رقم: [٢ - ٢٦].

(٢) عَنَّ لَهُ: عَرَض، ظهر، خَطَر في بالِه.

(٣) الصفة النفسية: هي صفة ثبوتية، يَدُل الوصف بها على نفس الذات، دون معنىٰ زائد عليها. وعند الأشاعرة أنَّ صفة الكلام من صفات المعاني، وهي كل صفة قائمة بموصوف، زائد علىٰ الذات، موجبة لها حكمًا.

(٤) بل هناك أعظم من ذلك وهو قول بعضهم وهو الباجوري في «شرح الجوهرة» (ص٩٤): «وهل القرآن بمعنىٰ اللفظ المقروء أفضل أو سيدنا محمد ﷺ؟... والحق أنه ﷺ أفضل؛ لأنه أفضل من كل مخلوق!»اهـ.

(٥) جاء في الأصل: [غبار شبهته] والصواب ما أثبتناه من مخطوط (ي)؛ لتمام المعنىٰ به.

وَبِمَاذَا يُحَلُّ وَيُحَرَّمُ، وَيُبَتُّ وَيُقْطَعُ؛ وَلَيْسَ عِنْدَنَا مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ تَقَدُّمٌ بِشَيْءٍ[١]؟!

وَهَلْ لِلْمُخَالِفِ دَلِيلٌ إِلَّا أَنْ يَقُوْلَ: قَالَ اللهُ، فَيَعُوْدَ، فَيُثْبِتُ مَا نَفَىٰ؟!

فَلَيْسَ الصَّوَابُ لِمَنْ وُفِّقَ إِلَّا الوُقُوْفَ مَعَ ظَاهِرِ الشَّرعِ.

فَإِنِ اعْتَرَضَهُ ذُوْ شُبْهَةٍ، فَقَالَ: هَذَا صَوْتُكَ، وَهَذَا خَطُّكَ؛ فَأَيْنَ القُرْآنُ؟!

فَلْيَقُلْ لَهُ: قَد أَجْمَعْنَا أَنَا وَأَنْتَ عَلَىٰ وُجُوْدِ شَيْءٍ بِهِ نَحْتَجُّ جَمِيعًا، وَكَمَا أَنَّكَ تُنْكِرُ عَلَيَّ أَنْ أُثْبِتَ شَيْئًا لَا يَتَحَقَّقُ لِي إِثْبَاتُهُ حِسًّا؛ فَأَنَا أُنْكِرُ عَلَيْكَ كَيْفَ تَنْفِي وُجُوْدَ شَيْءٍ قَدْ ثَبَتَ شَرعًا؟!

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: هَلْ فِي الْمُصْحَفِ إِلَّا وَرَقٌ وَعَفصٌ وَزَاجٌ؟![٢].

فَهَذَا كَقَوْلِ القَائِلِ: هَلِ الآدَمِيُّ إِلَّا لَحْمٌ وَدَمٌ؟! هَيْهَاتَ! إِنَّ مَعْنَىٰ الآدَمِيِّ هُوَ الرُّوْحُ؛ فَمَنْ نَظَرَ إِلَىٰ اللَّحْمِ وَالدَّمِ؛ وَقَفَ مَعَ الْحِسِّ.

فَإِنْ قَالَ: فَكَذَا أَقُوْلُ: إِنَّ الْمَكْتُوْبَ غَيْرُ الكِتَابَةِ. قُلْنَا لَهُ: وَهَذَا مِمَّا نُنْكِرُهُ عَلَيْكَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَثْبُتُ تَحْقِيقُ هَذَا لَكَ وَلَا لِخَصْمِكَ: فَإِنْ أَرَدْتَ بِالكِتَابَةِ الحِبْرَ وَتَخْطِيطَهُ؛ فَهَذَا لَيْسَ هُوَ القُرآنَ، وَإِنْ أَرَدْتَ الْمَعْنَىٰ القَائِمَ بِذَلِكَ؛ فَهَذَا لَيْسَ هُوَ الكِتَابَةَ.

وَهَذِهِ الأَشْيَاءُ لا يَصْلُحُ الخَوْضُ فِيْهَا؛ فَإِنَّ مَا دُوْنَهَا لَا يُمْكِنُ تَحْقِيقُهُ عَلَىٰ التَّفْصِيْلِ؛ كَالرُّوْحِ مَثَلًا؛ فَإِنَّا نَعْلَمُ وُجُوْدَهَا فِي الجُمْلَةِ؛ فَأَمَّا حَقِيقَتُهَا؛ فَلَا؛ فَإِذَا جَهِلْنَا حَقَائِقَهَا؛ كُنَّا لِصِفَاتِ الحَقِّ أَجْهَلَ، فَوَجَبَ الوُقُوْفُ مَعَ السَّمْعِيَاتِ، مَعَ نَفْيِ مَا لَا يَلِيْقُ بِالحَقِّ؛ لِأَنَّ الخَوْضَ يَزِيْدُ الخَائِضَ تَخْبِيطًا، وَلَا يَفِيْدُهُ تَحصِيلًا، بَلْ يُوْجِبُ عَلَيْهِ نَفْيَ مَا يَثْبُتُ بِالسَّمْعِ مِنْ غَيْرِ تَحْقِيْقِ أَمْرٍ عَقْلِيٍّ؛ فَلَا وَجْهَ لِلسَّلَامَةِ إِلَّا طَرِيْقُ السَّلَفِ، وَالسَّلَامُ.

وَكَذَلِكَ أَقُوْلُ: إِنَّ إِثْبَاتَ الإِلَهِ بِظَوَاهِرِ الآيَاتِ وَالسُّنَنِ أَلْزَمُ لِلْعَوَامِّ مِنْ تَحْدِيْثِهِم بِالتَّنْزِيهِ، وَإِنْ كَانَ التَّنْزِيهِ لَازِمًا.

---

(١) أي: أمر سابق.

(٢) سبق التعريف بهما في نفس الخاطرة: [٤٦-١٢٣].

وَقَد كَانَ اِبْنُ عَقِيْلٍ(١) يَقُوْلُ: الأَصْلَحُ لِاعْتِقَادِ العَوَامِّ ظَوَاهِرُ الآيِ وَالسُّنَنِ؛ لِأَنَّهُمْ يَأْنَسُوْنَ بِالإِثْبَاتِ، فَمَتَىٰ مَحَوْنَا ذَلِكَ مِنْ قُلُوْبِهِم، زَالَتِ السِّيَاسَاتُ وَالحِشْمَةُ، وَتَهَافُتُ العَوَامِّ فِي الشُّبْهَةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِغْرَاقِهِم فِي التَّنْزِيْهِ؛ لِأَنَّ التَّشْبِيْهَ يَغْمِسُهُمْ فِي الإِثْبَاتِ، فَيَطْمَعُوْا وَيَخَافُوْا شَيْئًا قَد أَنِسُوْا إِلَىٰ مَا يُخَافُ مِثْلُهُ وَيُرْجَىٰ؛ وَالتَّنْزِيْهُ يَرْمِي بِهِم إِلَىٰ النَّفْيِ، وَلَا طَمَعَ وَلَا مَخَافَةَ مِنَ النَّفْيِ.

وَمَنْ تَدَبَّرَ الشَّرِيْعَةَ؛ رَآهَا غَامِسَةً(٢) لِلْمُكَلَّفِيْنَ فِي التَّشْبِيْهِ بِالأَلْفَاظِ، الَّتِي يُعْطِي ظَاهِرُهَا سِوَاهُ(٣)؛ كَقَوْلِ الأَعْرَابِيِّ: أَوَيَضْحَكُ رَبُّنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»(٤)؛ فَلَمْ يَكْفَهِرَّ(٥) مِنْ هَذَا(٦).

---

(١) يُنظر ترجمته في الخاطرة رقم: [٢٠-٣١٩].

(٢) جاء في الأصل ومخطوط (ي): [عامه] وما أثبتناه من «سير أعلام النبلاء»؛ لتمام المعنىٰ به. فـ«مُغَامَسة الأمر» دُخُولُكَ فِيْهِ. تَقُوْلُ: غمَسَ يغمِس، غُمُوسًا، فَهُوَ غَامِس؛ دَخَلَ وَغَاصَ.

(٣) ظَاهِرُ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لَا يَقْتَضِي التَّشْبِيْهِ بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ، وَاشْتِرَاكُ المَخْلُوقِ فِي أَصْلِ الصِّفَةِ لَا يَقْتَضِي تَشْبِيهَهَا بِعضهَا بِبَعض؛ فَيَدُ الآدَمِيِّ لَيْسَت كَيَدِ الحَيَوَان، أَو كَيَد البَاب مَثَلًا، وَرِجْل الآدَمِي لَيْسَت كَرِجْل الكُرسِي مَثَلًا؛ فَكَيْفَ يَقْتَضِي إِثْبَات صِفَات البَارِي تَشْبِيهه بِالخَلْق؟! تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ.

(٤) رواه أحمد في «المسند»(١٦١٣١، ١٦١٤٥). وابن ماجة، كِتَابُ «السُّنَّةِ»(١٨١) عَنْ أَبِي رَزِينٍ، قَالَ ﷺ: «ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غِيَرِهِ» قِيْلَ: أَوَيَضْحَكُ الرَّبُّ ﷻ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا.

(٥) اكفهرَّ يكفهرّ: حَزِن، عَبَس وَتَجَهَّم وَتَغَيَّر وَجْهُه. والمعنىٰ: لم يحدث له من هذه المعاني السابقة شيء.

(٦) هذا الكلام لابن عقيل ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (ج١٤/ ص٣٩٤) وقام بالرد عليه؛ فقال: «قَدْ صَارَ الظَّاهِرُ اليَوْم ظَاهِرَيْنِ: أَحَدُهُمَا حقّ، وَالثَّانِي بَاطِل، فَالحَقّ أَنْ يَقُوْلَ: إِنَّهُ سمِيْع بَصِيْر، مُرِيْدٌ متكلّم، حَيٌّ عَلِيْم، كُلّ شَيْء هَالك إِلاَّ وَجهَهُ، خلق آدَمَ بِيَدِهِ، وَكلَّم مُوْسَىٰ تَكليمًا، وَاتَّخَذَ إِبْرَاهِيْمَ خَلِيْلًا، وَأَمثَال ذَلِكَ، فَنُمِرُّه عَلَىٰ مَا جَاءَ، وَنفهَمُ مِنْهُ دلاَلَةَ الخِطَابِ كَمَا يَلِيق بِهِ تَعَالَىٰ، وَلاَ نَقُوْلُ: لَهُ تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ ذَلِكَ. وَالظَّاهِرُ الآخر وَهُوَ البَاطِل، وَالضَّلاَل: أَنْ تَعتَقِدَ قيَاس الغَائِب عَلَىٰ الشَّاهد، وَتُمَثِّل البَارِئ بِخلقه، تَعَالَىٰ الله عَنْ ذَلِكَ، بَلْ صِفَاتُهُ كَذَاته، فَلاَ عِدْلَ لَهُ، وَلاَ ضِدَّ لَهُ، وَلاَ نَظِيرَ لَهُ، وَلاَ مِثْل لَهُ، وَلاَ شبيهَ لَهُ، وَلَيْسَ كَمثله شَيْء، لاَ فِي ذَاته، وَلاَ فِي صفَاته، وَهَذَا أَمرٌ يَسْتَوِي فِيْهِ الفَقِيْهُ وَالعَامِيُّ - وَاللهُ أَعْلَمُ» اهـ.

* [٤٧-٦١] [خَاطِرَةٌ]:(١)

[أضَرُّ الأشياء عَلَى العَوامّ: كثرة كَلَام المُتَأَوِّلِينَ]

مِنْ أَضَرِّ الأَشْيَاءِ عَلَىٰ العَوَامِّ كَلَامُ الْمُتَأَوِّلِيْنَ وَالنُّفَاةِ لِلصِّفَاتِ وَالإِضَافَاتِ. فَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَالَغُوا فِي الإِثْبَاتِ؛ لِيَتَقَرَّرَ فِي أَنْفُسِ العَوَامِّ وُجُوْدُ الخَالِقِ، فَإِنَّ النُّفُوْسَ تَأْنَسُ بِالإِثْبَاتِ؛ فَإِذَا سَمِعَ العَامِيُّ مَا يُوْجِبُ النَّفْيَ؛ طَرَدَ عَنْ قَلْبِهِ الإِثْبَاتَ، فَكَانَ أَعْظَمَ ضَرَرٍ عَلَيْهِ، وَكَانَ هَذَا الْمُنَزِّهُ مِنَ العُلَمَاءِ - عَلَىٰ زَعْمِهِ - مُقَاوِمًا لإِثْبَاتِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِم الصَّلاة وَالسَّلَام بِالْمَحْوِ، وَشَارِعًا فِي إِبْطَالِ مَا يُفْتُوْنَ بِهِ.

وَبَيَانُ هَذَا: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخْبَرَ بِاسْتِوَائِهِ عَلَىٰ العَرْشِ(٢)، فَأَنِسَتِ النُّفُوْسُ إِلَىٰ إِثْبَاتِ الإِلَهِ وَوُجُوْدِهِ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[الرحمن:٢٧]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]. وقَالَ: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح:٦]. ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾[البينة:٨].

وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَنْزِلُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا(٣). وَقَالَ: «قُلُوبُ العِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ»(٤). وَقَالَ: «كَتَبَ

---

(١) الْمُتدبر في هذه الخاطرة وغيرها من خواطر الإمام ابن الجوزي رحمه الله والذي يتحدث فيها عن «الأسماء والصفات» مثل الخواطر أرقام:[٢٠-٣١٩]،[٣٢-٤٣]،[٣٩-٤٩]،[٤٦-١٢٣]،[٤٨-٣٢١]،[٥٠-١٩٥]،[١٢٦-٣٦٦]، [١٩٠-٧١]، سَيَتَيَقَّن أَنَّ اِبْنَ تَيمِيَّةَ رحمه الله كَانَ مُحِقًّا بَوَصْفِه لِابْن الجَوْزِيِّ رحمه الله بِالتَّنَاقُض فِي بَابِ: «الأَسْمَاء وَالصِّفَات» فَقَدْ قَالَ رحمه الله فِي «مَجْمُوعَة الفَتَاوَىٰ»(ج٤/ ص١٠٢): «أَنَّ أَبَا الْفَرَجِ نَفْسَهُ مُتَنَاقِضٌ فِي هَذَا الْبَابِ: لَمْ يَثْبُتْ عَلَىٰ قَدَمِ النَّفْيِ وَلا عَلَىٰ قَدَمِ الإِثْبَاتِ؛ بَلْ لَهُ مِنْ الْكَلامِ فِي الإِثْبَاتِ نَظْمًا وَنَثْرًا مَا أَثْبَتَ بِهِ كَثِيرًا مِنْ الصِّفَاتِ الَّتِي أَنْكَرَهَا فِي هَذَا الْمُصَنَّفِ. فَهُوَ فِي هَذَا الْبَابِ مِثْلُ كَثِيرٍ مِنْ الْخَائِضِينَ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ أَنْوَاعِ النَّاسِ يُثْبِتُونَ تَارَةً، وَيَنْفُونَ أُخْرَىٰ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ الصِّفَاتِ، كَمَا هُوَ حَالُ أَبِي الْوَفَاءِ بْنِ عَقِيلٍ وَأَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ» اهـ.

(٢) يُشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

(٣) أي: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخْبَرَ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُوْلِهِ ﷺ أَنَّهُ يَنْزِلُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا. وَقَد سَبَقَ تَخْرِيج حَدِيث النُّزُول وَالكَلَام عَلَيْهِ فِي الخَاطِرَة رَقَم: [٣٦-٢٣٨].

(٤) رواه أحمد في «المسند»(٢٦٠١١). ورواه الآجُرِّيُّ في «الشريعة»(٧٣٣). واللفظ له، من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوَ تَخَافُ؟ قَالَ: «وَمَا يُؤْمِنُنِي، وَإِنَّمَا قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عز وجل، إِذَا شَاءَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ» ورواه مسلم =

التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ»[(١)]. وَ«كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرشِ»[(٢)]. إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَطُوْلُ ذِكْرُهُ.

فَإِذَا امْتَلأَ العَامِيُّ وَالصَّبِيُّ مِنَ الإِثْبَاتِ، وَكَادَ يَأْنَسُ مِنَ الأَوْصَافِ بِمَا يَفْهَمُهُ الحِسُّ؛ قِيْلَ لَهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١]، فَمَحَا مِنْ قَلْبِهِ مَا نَقَشَهُ الخَيَالُ، وَتَبْقَىٰ أَلْفَاظُ الإِثْبَاتِ مُتَمَكِّنَةً.

وَلِهَذَا أَقَرَّ الشَّرعُ مِثْلَ هَذَا، فَسَمِعَ مُنْشِدًا يَقُوْلُ:[(٣)].

= ولكن من طريق آخر من حديث عَبْدِ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ». كِتَابُ «الْقَدَرِ» بَابُ «تَصْرِيفِ اللهِ تَعَالَىٰ الْقُلُوبَ كَيْفَ شَاءَ»(٢٦٥٤).

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في كتاب «السنة»(٥٧٦). عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ﷺ: «أَنَّ اللهَ ﷻ لَمَّا كَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ قَالَ: بِسْمِ اللهِ هَذَا كِتَابُ اللهِ بِيَدِهِ لِعَبْدِهِ مُوسَىٰ يُسَبِّحُنِي وَيُقَدِّسُنِي وَلا يَحْلِفُ بِاسْمِي آثِمًا فَإِنِّي لا أُزَكِّي مَنْ حَلَفَ بِاسْمِي آثِمًا». ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» كِتَابُ «صِفَةِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ»(٣٥٨٩) عَنْ حَكِيمِ بْنِ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَمَسَّ بِيَدِهِ مَنْ خَلَقَهُ غَيْرَ ثَلاثَةِ أَشْيَاءَ؛ غَرَسَ الْجَنَّةَ بِيَدِهِ، ثُمَّ جَعَلَ تُرَابَهَا الْوَرْسَ وَالزَّعْفَرَانَ، وَجِبَالَهَا الْمِسْكَ، وَخَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ لِمُوسَىٰ». وأمَّا ما ثبت في «الصحيحين» فلفظه: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَىٰ، فَقَالَ مُوسَىٰ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَىٰ، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ...». البخاري، كِتَابُ «القدر» بَابُ «تحاج آدم وموسى»(٦٦١٤). ومسلم، كِتَابُ «القدر» بَابُ «حجاج آدم وموسى»(٢٦٥٢).

(٢) رواه البخاري، كِتَابُ «بَدْءِ الخَلْقِ» بَابُ «مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]»(٣١٩٤). ومسلم، كِتَابُ «التَّوْبَةِ» بَابُ «فِي سِعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ»(٢٧٥١). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا قَضَىٰ اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي».

(٣) البيت من البحر:[الوافر]. وَالقَائِل هو: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الخزرجي، الأنصاري، الشاعر، أحد السابقين، شهد بدرًا واستشهد بمؤتة وكان ثالث الأمراء بها في جمادىٰ الأولىٰ سنة ثمان؛ وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر ﷺ في «الاستيعاب» (ج٢/ ص٢٩٦) في ترجمته. فقال: «وقصته مع زوجته في حين وقع علىٰ أمته مشهورة، رويناها من وجوه صحاح، وذلك أَنَّهُ مشىٰ ليلة إِلَىٰ أمة لَهُ فنالها، وفطنت لَهُ امرأته فلامته، فجحدها. وكانت قد رأت جماعة لَهَا، فقالت لَهُ: إن كنت صادقا فاقرأ القرآن فالجنب لا يقرأ القرآن، فقال:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَىٰ الْكَافِرِينَا
وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَا
وَتَحْمِلُهُ مَلائِكَةٌ شِدَادٌ ... مَلائِكَةُ الإِلَهِ مُسَوَّمِينَا

قَالَت امْرَأَته صدق الله وكذبت عَيْنِي، وَكَانَت لَا تحفظ الْقُرْآن وَلَا تقرؤه».

وَفَـــوْقَ العَـــرْشِ رَبُّ العَالَمِيْنَـــا

«فَضَحِكَ»(١). وَقَالَ لَهُ آخَرُ: أَوَيَضْحَكُ رَبُّنَا؟ فَقَالَ: «نَعَمْ»(٢). وَقَالَ: «إِنَّهُ عَلَىٰ عَرْشِهِ هَكَذَا»(٣). كُلُّ هَذَا لِيُقَرِّرَ الإِثْبَاتَ فِي النُّفُوْسِ!

وَأَكْثَرُ الخَلْقِ لا يَعْرِفُوْنَ الإِثْبَاتَ إِلَّا عَلَىٰ مَا يَعْلَمُوْنَ مِنَ الشَّاهِدِ، فَيُقْنَعُ مِنْهُمْ بِذَلِكَ، إِلَىٰ أَنْ يَفْهَمُوْا التَّنْزِيْهَ. وَلِهَذَا صُحِّحَ إِسْلامُ مَنِ اعْتَصَمَ مِنَ الْقَتْلِ بِالسُّجُوْدِ(٤).

---

(١) ليس في الخبر الذي ذكره ضحك النبيﷺ فضلًا عن علم النبيﷺ بهذه القصة. «الاستيعاب» (ج٢/ ص٢٩٦)

(٢) سبق تخريجه في الخاطرة السابقة: [٤٦-١٢٣].

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. وقد روى أبو داود في «سننه» كِتَابُ «السنة» بَابُ «في الجهمية والمعتزلة» حديث (٤٧٢٦). «إِنَّ عَرْشَهُ عَلَىٰ سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا».

(٤) هكذا مخطوط: (ي) وفي الأصل: [وَلِهَذَا صُحِّحَ إِسْلامُ مِنَ الْقَتْلِ بِالسُّجُوْدِ] وليس لها معنىٰ. وفي بعض المطبوع: [وَلِهَذَا صُحِّحَ إِسْلامُ مَنِ انفتل بِالسُّجُوْدِ] وهذا أيضًا معناه غير واضح. وفي كثير من المطبوع حُذِفت الجملة كلها؛ وكأنها ليس لها معنىٰ.

* وَأَقُوْلُ وَبِاللهِ التَّوْفِيْق: أَنَّ مَعنىٰ هذه الجملة [وَلِهَذَا صُحِّحَ إِسْلامُ مَنِ اعْتَصَمَ مِنَ الْقَتْلِ بِالسُّجُوْدِ] أَنَّ الإِنْسَانَ بِمُجَرَّدِ أَنَّهُ صَلَّىٰ صَلاتَنَا عُصِمَ دَمَهُ، وَكَأَنَّ اِبْن الجَوْزِي ﷺ يُشِيْرُ إِلَىٰ مَا ثَبَتَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ». البخاري، كِتَابُ «الإِيمَانِ» بَابُ «﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]»(٢٥). وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ صَلاَتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلاَ تُخْفِرُوا اللهَ فِي ذِمَّتِهِ». البخاري، كتاب «الصَّلاَةِ» باب «فَضْلِ اسْتِقْبَالِ القِبْلَةِ»(٣٩١). * يَقُوْلُ الإِمَامِ الخَطَّابِيِّ ﷺ: «في هذا الحديث من العِلْم أنَّ أُمورَ النَّاس في معاملة بعضهم بعضًا إنما تجري علىٰ الظاهر من أحوالهم دون باطنها، وأنَّ مَن أظهر شِعارَ الدِّين وتَشَكَّل بشمائل أهله أُجري علىٰ أحكامها، ولم يُكْشَف عن باطن أمره، فلو أنَّ رجلًا وُجِدَ في جماعةٍ يُصلُّون في مسجد، أو كان في رِفقة مُسافرين، يُصلِّي معهم الصَّلوات في أوقاتها مُستقبلًا قبلتَهم، وقد رأوه يأكل معهم من ذبائحهم، ومن أطعمتهم، ثم مات ولم يَعرفوه باسْمٍ أو نَسَبٍ ولا اعتقاد دينٍ أو مَذهَبٍ، كان الظَّاهرُ من حُكمه أنَّه مُسلم، والواجب من حَقِّه أن يُصلِّي عليه إن مات، وأن يُدفَن في مقابر المسلمين، وأن يُحفظ دَمُه ومالُه ما دام حَيًّا فيهم ومعهم..»اهـ [يُنظر: «أعلام الحديث»(ج١/ ص٣٧٤، ٣٧٥)].

فَأَمَّا إِذَا اِبْتُدِئَ بِالعَامِيِّ الفَارِغِ مِنْ فَهْمِ الإِثْبَاتِ، فَقُلْنَا: لَيْسَ فِي السَّمَاءِ! وَلَا عَلَىٰ العَرْشِ! وَلَا يُوْصَفُ بِيَدٍ! وَكَلَامُهُ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مِنْهُ شَيْءٌ! وَلَا يُتَصَوَّرُ نُزُوْلُهُ: اِنْمَحَىٰ مِنْ قَلْبِهِ تَعْظِيْمُ الْمُصْحَفِ، وَلَمْ يَتَرَصع[1] فِي سِرِّهِ إِثْبَاتُ إِلَهٍ.

وَهَذِهِ جِنَايَةٌ عَظِيْمَةٌ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ، تُوْجِبُ نَقْضَ مَا تَعِبُوا فِي بَيَانِهِ، وَلَا يَجُوْزُ لِعَالِمٍ أَنْ يَأْتِيَ إِلَىٰ عَقِيْدَةِ عَامِيٍّ قَدْ أَنِسَ بِالإِثْبَاتِ فَيُهَوِّشَهَا[2]؛ فَإِنَّهُ يُفْسِدُهُ، وَيَصْعُبُ صَلَاحُهُ.

فَأَمَّا العَالِمُ؛ فَإِنَّا قَد أَمِنَّاهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ اِسْتِحَالَةُ تَجَدُّدِ صِفَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ اِسْتَوَىٰ كَمَا يُعْلَمُ، وَلَا يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ مَحْمُوْلًا، وَلَا أَنْ يُوْصَفَ بِمُلَاصَقَةٍ وَمَسٍّ، وَلَا أَنْ يَنْتَقِلَ، وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُرَادَ بِتَقْلِيْبِ القُلُوْبِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ الإِعْلَامُ بِالتَّحَكُّمِ فِي القُلُوْبِ؛ فَإِنَّ مَا يُدِيْرُهُ الإِنْسَانُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ هُوَ مُتَحَكِّمٌ فِيْهِ إِلَىٰ الغَايَةِ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَأْوِيْلِ مَنْ قَالَ: الإِصْبَعُ الأَثَرُ الحَسَنُ؛ فَالْقُلُوْبُ بَيْنَ أَثَرَيْنِ مِنْ آثَارِ الرُّبُوْبِيَّةِ، وَهُمَا: الإِقَامَةُ، وَالإِزَاغَةُ. وَلا إِلَىٰ تَأْوِيْلِ مَنْ قَالَ: يَدَاهُ: نِعْمَتَاهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا فَهِمَ أَنَّ الْمَقْصُوْدَ الإِثْبَاتُ، وَقَد حُدِّثْنَا بِمَا نَعْقِلُ، وَضُرِبَتْ لَنَا الأَمْثَالُ بِمَا نَعْلَمُ، وَقَد ثَبَتَ عِنْدَنَا بِالأَصْلِ الْمَقْطُوْعِ بِهِ أَنَّهُ لَا يَجُوْزُ عَلَيْهِ مَا يَعْرِفُهُ الحِسُّ؛ عَلِمْنَا الْمَقْصُوْدَ بِذِكْرِ ذَلِكَ.

وَأَصْلَحُ مَا نَقُوْلُ لِلعَوَامِّ: أَمِرُّوا هَذِهِ الأَشْيَاءَ كَمَا جَاءَتْ، وَلاَ تَتَعَرَّضُوا لِتَأْوِيْلِهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ يُقْصَدُ بِهِ حِفْظُ الإِثْبَاتِ، وَهَذَا الَّذِي قَصَدَهُ السَّلَفُ.

وَكَانَ أَحْمَدُ يَمْنَعُ مِنْ أَنْ يُقَالَ: لَفِظِي بِالقُرآنِ مَخْلُوْقٌ أَوْ غَيْرُ مَخْلُوْقٍ. كُلُّ ذَلِكَ لِيَحْمِلَ عَلَىٰ الاتِّبَاعِ، وَتَبْقَىٰ أَلْفَاظُ الإِثْبَاتِ عَلَىٰ حَالِهَا.

وَأَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ جَاءَ إِلَىٰ مَا قَصَدَ النَّبِيُّ ﷺ تَعْظِيْمَهُ، فَأَضْعَفَ فِي النُّفُوْسِ قُوَىٰ التَّعْظِيْمِ:

---

(١) هكذا في الأصل والمخطوط ومعنىٰ: يَتَرَصع: يترسخ ويلزق. تقول: رَصِع به الشيءُ يَرْصَع رَصَعًا ورُصوعًا لزِق به. وفي المطبوع [يتوضع] و [يتحقق] وفي «أقاويل الثقات» [يَتَنَقَش]. وما أثبتاه هو المتفق مع سياق الكلام.

(٢) الهَوْشَةُ: الفِتْنَةُ والهَيْجُ والاضطرابُ وَالهَرْجُ والاختِلاطُ، يُقَالُ: قَد هَوَّشَ القوم إِذا اختلطوا، وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ خَلَطْتَه فَقَد هَوَّشْته. وَقولُ العَامة: شَوَّشَ النَّاسُ إِنَّمَا صَوَابُهُ: هَوَّشَ. وشَوَّشَ خطأٌ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا تُسَافِرُوا بِالقُرآنِ إِلَىٰ أَرْضِ العَدُوِّ»[١]؛ يُشِيرُ إِلَىٰ الْمُصْحَفِ.

وَمَنَعَ الشَّافِعِيُّ[٢] أَنْ يَحْمِلَهُ الْمُحْدِثُ بِعِلَاقَتِهِ[٣]؛ تَعْظِيمًا لَهُ.

فَإِذَا جَاءَ مُتَحَذْلِقٌ[٤] فَقَالَ: الكَلَامُ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِ الْمُتَكَلِّمِ! بِمَعْنَىٰ قَوْلِهِ هَذَا أَنَّ مَا هَا هُنَا شَيْءٌ يُحْتَرَم! فَهَذَا قَد ضَادَّ بِمَا أَتَىٰ بِهِ مَقْصُودَ الشَّرعِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَفْهَمَ أَوْضَاعَ الشَّرعِ وَمَقَاصِدَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَقَد مَنَعُوا مِنْ كَشْفِ مَا قَد قَنَّعَ الشَّرعُ؛ فَنَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الكَلَامِ فِي القَدَرِ[٥]، وَنَهَىٰ عَنِ الاخْتِلَافِ[٦]؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأَشْيَاءَ تَخْرُجُ إِلَىٰ مَا يُؤْذِي؛ فَإِنَّ البَاحِثَ عَنِ القَدَرِ إِذَا بَلَغَ فَهْمُهُ أَنْ يَقُولَ: قَضَىٰ وَعَاقَبَ؛ تَزَلْزَلَ إِيمَانُهُ بِالعَدْلِ، وَإِنْ قَالَ: لَمْ يُقَدِّر، وَلَم يَقْضِ؛ تَزَلْزَلَ إِيمَانُهُ بِالقُدْرَةِ وَالْمُلْكِ؛ فَكَانَ الأَوْلَىٰ تَركَ الخَوضِ فِي هَذِهِ الأَشْيَاءِ.

---

(١) رواه البخاري، كِتَابُ «الجهاد والسير» بَابُ «السَّفَرِ بِالمَصَاحِفِ إِلَىٰ أَرْضِ العَدُوِّ»(٢٩٩٠). ومسلم، كِتَابُ «الإِمَارَةِ» بَابُ «النَّهْيِ أَنْ يُسَافَرَ بِالْمُصْحَفِ إِلَىٰ أَرْضِ الْكُفَّارِ»(١٨٦٩). عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تُسَافِرُوا بِالْقُرْآنِ، فَإِنِّي لا آمَنُ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُو»، قَالَ أَيُّوبُ: «فَقَدْ نَالَهُ الْعَدُوُّ وَخَاصَمُوكُمْ بِهِ».

(٢) الشَّافِعِيُّ: مُحَمَّدُ بنُ إِدْرِيسَ بنِ العَبَّاسِ، نَاصِرُ الحَدِيثِ، فَقِيهُ المِلَّةِ، أَبُو عَبْدِ اللهِ القُرَشِيُّ،مَاتَ سَنَةَ:(٢٠٤هـ).

(٣) العلاقة: ما يُعلَّق به السَّيفُ وغيره. فَعِندَ الشَّافِعِيَّةِ يَحْرُمُ عَلَىٰ الْمُحْدِثِ مَسُّ الْمُصْحَفِ وَحَمْلُهُ سَوَاءٌ حَمَلَهُ بِعَلاقَتِهِ أَوْ فِي كُمِّهِ أَوْ عَلَىٰ رَأْسِهِ، وَسَوَاءٌ مَسَّ نَفْسَ الأَسْطُرِ أَوْ مَا بَيْنَهَا أَوِ الْحَوَاشِيَ أَوِ الْجِلْدَ.

(٤) سبق في الخاطرة رقم: [٣٨-١٩٠]. والمقصود بهم هنا: أصحاب هذا القول من الأشاعرة وأضرابهم.

(٥) روىٰ الطبراني في «المعجم الكبير» حديث (١٠٤٤٨) عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَتِ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا» [«السلسلة الصحيحة» حديث: (٣٤)]. «وَأَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ اللهِ تَعَالَىٰ فِي خَلْقِهِ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَىٰ ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الْخِذْلانِ، وَسُلَّمُ الْحِرْمَانِ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ، فَالْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ طَوَىٰ عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ. فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» [«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز. (ص/ ٣٢٠)]

(٦) روىٰ البخاري، كِتَابُ «أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ» بَابُ «حَدِيثِ الغَارِ»(٣٤٧٦). عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا قَرَأَ آيَةً، وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ خِلافَهَا، فَجِئْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الكَرَاهِيَةَ، وَقَالَ: «كِلاكُمَا مُحْسِنٌ، وَلاَ تَخْتَلِفُوا، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا».

وَلَعَلَّ قَائِلًا يَقُولُ: هَذَا مَنْعٌ لَنَا عَنِ الاطِّلَاعِ عَلَىٰ الحَقَائِقِ، وَأَمْرٌ بِالوُقُوفِ مَعَ التَّقْلِيدِ!

فَأَقُولُ: لا، إِنَّمَا أَعْلَمَكَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْكَ الإِيْمَانُ بِالجُمَلِ، وَمَا أُمِرْتَ بِالتَّنْقِيرِ [لِمَعْرِفَةِ الكُنْهِ[١]]، مَعَ أَنَّ قُوَىٰ فَهمِكَ تَعْجِزُ عَنْ إِدرَاكِ الحَقَائِقِ.

فَإِنَّ الخَلِيْلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[البقرة:٢٦٠]. فَأَرَاهُ مَيْتًا أُحْيِيَ، وَلَمْ يُرِه كَيْفَ أَحْيَاهُ؛ لأَنَّ قُوَاهُ تَعْجِزُ عَنْ إِدرَاكِ ذَلِكَ.

وَقَد كَانَ النَّبِيُّ ﷺ - الَّذِي[٢] بُعِثَ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ - يَقْنَعُ مِنَ النَّاسِ بِنَفْسِ الإِقْرَارِ، وَاعتِقَادِ الجُمَلِ.

وَكَذَلِكَ كَانَتِ الصَّحَابَةُ، فَمَا نُقِلَ عَنْهُم أَنَّهُم تَكَلَّمُوا فِي تِلَاوَةٍ وَمَتْلُوٍّ، وَقِرَاءَةٍ وَمَقْرُوءٍ، وَلَا أَنَّهُم قَالَوا: اِسْتَوَىٰ بِمَعنَىٰ اِسْتَوْلَىٰ! وَيَنْزِلُ بِمَعنَىٰ يَرحَمُ!

بَلْ قَنَعُوا بِإِثْبَاتِ الجُمَلِ الَّتِي تُثْبِتُ التَّعظِيْمَ عِنْدَ النُّفُوسِ، وَكَفُّوا كَفَّ الخَيَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[الشورىٰ: ١١].

ثُمَّ هَذَا مُنكَرٌ وَنَكِيرٌ[٣]، إِنَّمَا يَسْأَلَانِ عَنِ الأُصُوْلِ الْمُجمَلَةِ، فَيَقُوْلَانِ: «مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِيْنُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟»[٤].

وَمَنْ فَهِمَ هَذَا الفَصلَ؛ سَلِمَ مِنْ تَشْبِيْهِ الْمُجَسِّمَةِ، وَتَعطِيْلِ الْمُعَطِّلَةِ، وَوَقَفَ عَلَىٰ جَادَّةِ السَّلَفِ الأَوَّلِ. وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

---

(١) ليست في الأصل، ولا مخطوط:(ي): وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها من المطبوع. وَكُنْهُ الأمر: حَقيقته. وَقِيْلَ: وَقْتُهُ وَقَدْرُهُ. وَقِيْلَ: غَايَتُهُ.

(٢) ليست في الأصل، وأثبتناها من مخطوط (ي)؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٣) مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ جَعْدَانِ يُبَاشِرَان سُؤَال القَبْر. وقد جاء ذكر اسمهما ووصفهما فيما رواه ابن أبي شيبة، كِتَابُ «الجنائز» بَابُ «الْمُساءلة في القبر»(١٢١٧٧). وَكِتَابُ «الزهد» بَابُ «١١١- كلام أبي الدرداء»(٣٥٧٥١).

(٤) رواه أبو داود في «سننه» كِتَابُ «السُّنَّة» بَابُ «في المسألة في القبر وعذاب القبر» حديث (٤٧٥٣).

* [٤٨-٣٢١] [خَاطِرَةٌ]:

[تَحدِيثُ العَوَامِّ بِمَا لَا تَحتَمِلُه قُلُوبُهم مُخَاطَرَة]

مِنَ الْمُخَاطَرَاتِ الْعَظِيْمَةِ تَحْدِيْثُ الْعَوَامِّ بِمَا لَا تَحْتَمِلُهُ قُلُوْبُهُم أَوْ بِمَا قَد رَسَخَ فِي نُفُوْسِهِم ضِدُّهُ.

مِثَالُهُ: أَنَّ قَوْمًا قَد رَسَخَ فِي قُلُوبِهِمُ التَّشْبِيْهُ، وَأَنَّ ذَاتَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ مُلَاصِقَةٌ لِلْعَرشِ! وَهِي بِقَدْرِ الْعَرشِ، وَيَفْضُلُ مِنَ الْعَرشِ أَربَعُ أَصَابِعَ!

وَسَمِعُوْا مِثْلَ هَذَا مِنْ أَشْيَاخِهِم، وَثَبَتَ عِندَهُمْ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ وَانْتَقَلَ إِلَىٰ السَّمَاءِ الْدُّنيَا، فَخَلَتْ مِنْهُ سِتُّ سَمَاوَاتٍ!!

فَإِذَا دُعِيَ أَحَدُهُمْ إِلَىٰ التَّنْزِيْهِ، وَقِيْلَ لَهُ: لَيْسَ كَمَا خَطَرَ لَكَ؛ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُمِرَّ الأَحَادِيْثَ كَمَا جَاءَتْ؛ مِنْ غَيْرِ مُسَاكَنَةٍ مَا تَوَهَّمْتَهُ؛ صَعُبَ هَذَا عَلَيْهِ لِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: لِغَلَبَةِ الْحِسِّ عَلَيْهِ، وَالْحِسُّ عَلَىٰ العَوَامِّ أَغْلَبُ. وَالثَّانِي: لِمَا قَد سَمِعَهُ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الأَشْيَاخِ، الَّذِيْنَ كَانُوْا أَجْهَلَ مِنْهُ.

فَالْمُخَاطِبُ بِهَذَا مُخَاطِرٌ بِنَفْسِهِ.

وَلَقَد بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ مَنْ كَانَ يَتَدَيَّنُ مِمَّنْ قَد رَسَخَ فِي قَلْبِهِ التَّشْبِيْهُ أَنَّهُ سَمِعَ مِنْ بَعْضِ العُلَمَاءِ شَيْئًا مِنَ التَّنْزِيْهِ، فَقَالَ: وَاللهِ، لَوْ قَدِرتُ عَلَيْهِ؛ لَقَتَلْتُهُ.

فَاللهَ اللهَ أَنْ تُحَدِّثَ مَخْلُوْقًا مِنَ العَوَامِّ بِمَا لَا يَحْتَمِلُهُ[1]؛ فَإِنَّهُ لَا يَزُوْلُ مَا فِي نَفْسِهِ، وَيُخَاطِرُ الْمُحَدِّثُ لَهُ بِنَفْسِهِ. فَكَذَلِكَ كُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالأُصُوْلِ.

---

(١) وَهَذَا مُوَافِقًا لِمَا ثَبَتَ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه: «حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللهُ وَرَسُولُهُ» البخاري، ك: «العِلْمِ» (١٢٧). قَالَ ابنُ وَهْبٍ: «وَذَلِكَ أَنْ يَتَأَوَّلُوهُ غَيْرَ تَأْوِيلِهِ، وَيَحْمِلُوهُ عَلَىٰ غَيْرِ وَجْهِهِ» اهـ. وَقَدْ قَالُوا فِي العَالِمِ الرَّبَّانِيِّ: إِنَّهُ الَّذِي يُرَبِّي بِصِغَارِ العِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ. وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي كُتُبِهِمْ، وَبَسَطُوهُ بَسْطًا شَافِيًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِنَّمَا نَبَّهنَا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ لا يُقَدِّرُ قَدرَ هَذَا الْمَوْضِعِ يَزِلُّ فِيهِ فَيُحَدِّثُ النَّاسَ بِمَا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ. [: «العواصم والقواصم» لليماني. (١/ ٧٣٠-٧٤٥). و«مغني المريد» لأبي عائش. (٧/ ٢٦٠٣-٢٦٠٧).

* [٤٩-٢٥٨] [خَاطِرَةٌ]:

[ضَرَر عِلْم الكَلَامِ عَلَى العَوَامِّ]

لَيْسَ عَلَىٰ العَوَامِّ أَضَرُّ مِنْ سَمَاعِهِم عِلْمَ الكَلَامِ؛ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُحَذَّرَ العَوَامُّ مِنْ سَمَاعِهِ وَالخَوْضِ فِيْهِ، كَمَا يُحَذَّرُ الصَّبِيُّ مِنْ شَاطِئِ النَّهْرِ خَوْفَ الغَرَقِ.

وَرُبَّمَا ظَنَّ العَامِيُّ أَنَّ لَهُ قُوَّةً يُدرِكُ بِهَا هَذَا، وَهُوَ فَاسِدٌ؛ فَإِنَّهُ قَد زَلَّ فِي هَذَا خَلْقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ؛ فَكَيْفَ العَوَامُّ؟!

وَمَا رَأَيْتُ أَحْمَقَ مِنْ جُمْهُوْرِ قُصَّاصِ زَمَانِنَا؛ فَإِنَّهُ يَحْضُرُ عِنْدَهُم العَوَامُّ الغُشْمُ[1]، فَلَا يَنْهَوْنَهُم عَنْ خَمْرٍ وَزِنَا وَغِيبَةٍ، وَلَا يُعَلِّمُوْنَهُم أركَانَ الصَّلَاةِ، وَوَظَائِفَ التَّعَبُّدِ، بَلْ يَمْلَؤُوْنَ الزَّمَانَ بِذِكْرِ الاسْتِوَاءِ، وَتَأْوِيْلِ الصِّفَاتِ، وَأَنَّ الكَلَامَ قَائِمٌ بِالذَّاتِ، فَيَتَأَذَّىٰ بِذَلِكَ مَنْ كَانَ قَلْبُهُ سَلِيْمًا.

وَإِنَّمَا عَلَىٰ العَامِيِّ أَنْ يُؤْمِنَ بِالأُصُوْلِ الخَمْسَةِ[2]، بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَيَقْنَعَ بِمَا قَالَ السَّلَفُ: القُرآنُ كَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوْقٍ، وَالاسْتِوَاءُ حَقٌّ، وَالكَيْفُ مَجْهُوْلٌ.

وَلْيُعْلَمْ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ لَمْ يُكَلِّفِ الأَعْرَابَ سِوَىٰ مُجَرَّدِ الإِيْمَانِ، وَلَمْ تَتكَلَّمِ الصَّحَابَةُ فِي الجَوَاهِرِ وَالأَعْرَاضِ؛ فَمَنْ مَاتَ عَلَىٰ طَرِيْقِهِم؛ مَاتَ مُؤْمِنًا سَلِيْمًا مِنْ بِدْعَةٍ. وَمَنْ تَعَرَّضَ لِسَاحِلِ البَحْرِ، وَهُوَ لَا يُحْسِنُ السِّبَاحَةَ؛ فَالظَّاهِرُ غَرَقُهُ[3].

---

(١) غَشُمَ يَغْشُمُ، غَشَامَةً، فَهُوَ غَشِيمٌ. غشُم الرَّجلُ: جهِل الأمورَ ولم يفطِنْ إليها ولا يُميز الصحيح من السقيم.

(٢) بل هي ستة؛ كما ثبت في الحديث: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». رواه، كِتَابُ «الْإِيمَانَ» بَابُ «معرفة الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامِ، والقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ»(٨).

(٣) يقول الإمام الغزالي رحمه الله في «إلجام العوام»(ص/ ٤٩): «تأويلُ العاميِّ على سبيل الاشتغال بنفسه، وهو حرامٌ، يُشْبِهُ خوضَ البحرِ الْمُغرقِ مِمَّن لا يُحسِنُ السِّبَاحَة، ولا شَكَّ في تحريم ذلك، وبحرُ معرفة اللهِ أبعد غورًا وأكثر معاطِبَ ومهالك من بحر الماء؛ لأن هلاك هذا البحر لا حياة بعده وهلاك بحر الدنيا لا يزيل إلا الحياة الفانية وذلك يزيل الحياة الأبدية فشتان بين الخطرين. والتأويل من العالِمِ للعاميِّ هو أيضًا ممنوع، ومثاله: أن يجر السبَّاح الغواص في البحر مع نفسه عاجزًا عن السباحة، مضطرب القلب والبدن، وذلك حرامٌ؛ لأنه عرَّضَه =

* [٥٠-١٩٥] [خَاطِرَةٌ]:

[طَرِيقُ السَّلَفِ أَوْضَحُ مَحَجَّةٍ]

أَضَرُّ مَا عَلَىٰ العَوَامِّ الْمُتَكَلِّمُوْنَ؛ فَإِنَّهُمْ يُخَلِّطُوْنَ عَقَائِدَهُم بِمَا يَسْمَعُوْنَهُ مِنْهُم.

مِنْ أَقْبَحِ الأَشْيَاءِ أَنْ يَحْضُرَ العَامِّيُّ - الَّذِي لَا يَعْرِفُ أَرْكَانَ الصَّلَاةِ، وَلَا الرِّبَا فِي البَيْعِ - مَجْلِسَ الوَعظِ؛ فَلَا يَنْهَاهُ عَنِ التَّوَانِي فِي الصَّلَاةِ، وَلَا يُعَلِّمُهُ الخَلَاصَ مِنَ الرِّبَا، بَلْ يَقُوْلُ لَهُ: القُرآنُ قَائِمٌ بِالذَّاتِ! وَالَّذِي عِنْدَنَا مَخْلُوْقٌ!! فَيَهُوْنُ القُرآنُ عِنْدَ ذَلِكَ العَامِّيِّ، فَيَحْلِفُ بِهِ عَلَىٰ الكَذِبِ.

وَيْحَ الْمُتَكَلِّمِ! لَوْ كَانَ لَهُ فَهْمٌ؛ لَعَلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَصَبَ أَعلَامًا[١] تَأْنَسُ بِهَا النُّفُوْسُ، وَتَطمَئِنُّ إِلَيْهَا؛ كَالكَعبَةِ - وَسَمَّاهَا بَيْتَهُ -، وَالْعَرشِ - وَذَكَرَ اِسْتِوَاءَهُ عَلَيْهِ -، وَذَكَرَ مِنْ صِفَاتِهِ اليَدَ، وَالسَّمْعَ، وَالبَصَرَ، وَالعَيْنَ، وَيَنْزِلُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الْدُّنْيَا، وَيَضْحَكُ، وَكُلُّ هَذَا لِتَأْنَسَ النُّفُوْسُ بِالعَادَاتِ، وَقَد جَلَّ عَمَّا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الصِّفَاتُ مِنَ الجَوَارِحِ.

وَكَذَلِكَ عَظَّمَ أَمْرَ القُرآنِ، وَنَهَىٰ الْمُحدِثَ أَنْ يَمَسَّ الْمُصحَفَ، فَآلَ الأَمْرُ بِقَوْمٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِيْنَ إِلَىٰ أَنْ أَجَازُوْا الاسْتِنْجَاءَ بِهِ!!

فَهَؤُلَاء عَلَىٰ مُعَانَدَةِ الشَّرِيْعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يُهِيْنُوْنَ مَا عَظَّمَ الشَّرعُ.

وَهَلْ الإِيْغَالُ فِي الكُلَامِ[٢] مِمَّا يُقَرِّبُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الحَقَائِقِ، الَّتِي لَا يُمْكِنُ خِلَافُهَا؟!

= لخطر الهلاك؛ فإنه لا يقوىٰ علىٰ حفظه في لُجَّة البحر، - لِقِلَّة عِلمِهِ بِعُمْقِ البحر، وتماسيحه وقُروشه -، وإن قَدَرَ علىٰ حفظه في القُربِ مِنَ السَّاحِلِ، وأمره بالوقوف بقرب الساحل لا يطيعه، وإن أمره بالسُّكون عند التطام الأمواج وإقبال التماسيح وقد فغرت فاها للالتقام اضطرب قلبه وبدنه ولم يسكن علىٰ حسب مراده لقصور طاقته، وهذا هو المثال الحق للعالم إذا فتح للعامي باب التأويلات والتصرف في خلاف الظواهر»اهـ.

[يُنظر: «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم» لابن الوزير القاسمي.(ج١/ ص٧٢٥)]

(١) أعلام: عَلَامَات، وَهُوَ كُلُّ مَا جُعِل عَلَامَةً يُهتدَىٰ به.

(٢) أوغل في الكلام: بالَغ فيه وغالىٰ. وأوغل في الدِّين: تعمَّق فيه - إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ -.

هَيْهَاتَ! لَوْ كَانَ كَذَلِكَ؛ مَا وَقَعَ بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِينَ خِلَافٌ.

أَوَلَيْسَ الشَّرِبُ الأَوَّلُ[١] مَا تَكَلَّمُوا فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا، وَإِنْ كَانُوا تَعَرَّضُوا بِبَعْضِ الأُصُولِ؟! ثُمَّ جَاءَ فُقَهَاءُ الأَمْصَارِ، فَنَهَوْا عَنِ الْخَوْضِ فِي الكَلَامِ؛ لِعِلْمِهِم مَا يُجْلَبُ وَمَا يُجْتَنَبُ!

وَمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِعَقِيْدَةٍ مِثْلِ الصَّحَابَةِ، وَلَا بِطَرِيْقٍ مِثْلَ طَرِيْقِ أَحْمَدَ وَالشَّافِعِيِّ فِي تَرْكِ الخَوْضِ؛ فَلَا كَانَ مَنْ كَانَ[٢].

ثُمَّ بِاللهِ تَأَمَّلُوْا، أَلَيْسَ قَد وَجَبَ عَلَيْنَا هَجْرُ الرِّبَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰٓا﴾[آل عمران:١٣٠]، وَهَجْرُ الزِّنَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾[الإسراء:٣٢]؟!

فَأَيُّ فَائِدَةٍ لَنَا فِي ذِكْرِ قِرَاءَةٍ وَمَقْرُوءٍ، وَتِلَاوَةٍ وَمَتْلُوٍّ، وَقَدِيْمٍ وَمُحْدَثٍ؟!

فَإِنْ قِيْلَ: فَلَا بُدَّ مِنِ اعْتِقَادِهِ. قُلْنَا: طَرِيْقُ السَّلَفِ أَوْضَحُ مَحَجَّةً؛ لِأَنَّا لَا نَقُوْلُهُ تَقْلِيْدًا؛ بَلْ بِالدَّلِيْلِ، وَلَكِنَّا لَمْ نَسْتَفِدْهُ عَنْ جَوْهَرٍ وَعَرَضٍ، وَجُزْءٍ لَا يَتَجَزَّأُ، بَلْ بِأَدِلَّةِ النَّقْلِ مَعَ مُسَاعَدَةِ العَقْلِ؛ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ عَمَّا لَا يُحتَاجُ إِلَيْهِ. وَلَيْسَ هَذَا مَكَانَ الشَّرحِ.

---

(١) سبق في الخاطرة رقم: [٤٦-١٢٣].

(٢) يقول الإمام ابن قدامة في كتابه: «لمعة الاعتقاد»=«تسديد رب العباد» (ص٧٧): «وَهَكَذَا مَنْ لَم يَسَعهُ مَا وَسِعَ رَسُول اللهِ ﷺ وَأَصحَابه ﷺ وَالتَّابِعِين لَهم بِإِحسَان وَالأَئِمَّة مِنْ بَعدِهِم وَالرَّاسِخين فِي العِلْمِ مِنْ تِلَاوَةِ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَقِرَاءَة أَخبَارِهَا وَإِمْرَارِهَا كَمَا جَاءَتْ، فَلَا وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ»اهـ.

(٥)

[الابتِلاءُ وَالصَّبرُ عَلَى الأذَى]

* [٥١-١١٥] [خَاطِرَةٌ]:

[البَلَايَا عَلَى مَقَادِيرِ الرِّجَالِ]

البَلَايَا عَلَىٰ مَقَادِيرِ الرِّجَالِ. فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ تَرَاهُمْ سَاكِتِيْنَ، رَاضِيْنَ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ دِيْنٍ وَدُنْيَا، وَأُوْلَئِكَ قَوْمٌ لَمْ يُرَادُوْا لِمَقَامَاتِ الصَّبْرِ الرَّفِيْعَةِ، أَوْ عُلِمَ ضَعْفُهُمْ عَنْ مُقَاوَمَةِ البَلَاءِ فَلُطِفَ بِهِمْ.

إِنَّمَا المِحْنَةُ العُظْمَىٰ أَنْ تُرزَقَ هِمَّةً عَالِيَةً، لَا تَقْنَعُ مِنْكَ؛ إِلَّا بِتَحْقِيْقِ الوَرَعِ، وَتَجْوِيْدِ الدِّيْنِ، وَكَمَالِ العِلْمِ.

ثُمَّ تُبْتَلَىٰ بِنَفْسٍ تَمِيْلُ إِلَىٰ الْمُبَاحَاتِ، وَتَدَّعِي أَنَّهَا تَجْمَعُ بِذَلِكَ هَمَّهَا، وَتَشْفِي مَرَضَهَا، لِتُقْبِلَ مُزَاحَةَ العِلَّةِ[1] عَلَىٰ تَحصِيْلِ الفَضَائِلِ.

وَهَاتَانِ الحَالَتَانِ كَضِدَّيْنِ؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ضَرَّتَانِ.

وَاللَّازِمُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُرَاعَاةُ الوَاجِبَاتِ، وَأَنْ لَا يُفْسَحَ لِلنَّفْسِ فِي مُبَاحٍ لَا يُؤْمَنُ أَنْ يَتَعَدَّىٰ مِنْهُ إِعرَاضٌ عَنْ وَاجِبٍ وَرَعٍ.

الْمُبْتَلَىٰ يَصِيْحُ، فَلأَنْ يَبْكِيَ الطِّفْلُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَبْكِيَ الوَالِدُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ فَتْحَ بَابِ الْمُبَاحَاتِ رُبَّمَا جَرَّ أَذًى كَثِيرًا فِي الدِّيْنِ، فَأَوْثِقِ السَّكْرَ قَبْلَ فَتْحِ الْمَاءِ[2]، وَالْبَسِ الدِّرعَ قَبْلَ لِقَاءِ الْحَربِ، وَتَلَمَّح عَوَاقِبَ مَا تَجْنِي قَبْلَ تَحرِيْكِ اليَدِ،

---

(١) خالية من الشواغل.

(٢) أي: أَوْثِق سَدَّ الشَّق قَبلَ فَتحِ الماءِ؛ فـ«السَّكْر» تَقُولُ: سُكِرَ وسَكِرَ النَّهْرَ يَسْكُرُه سَكْرًا سَدَّ فَاهُ، وكُلُّ شَقٍّ سُدَّ فَقَد =

وَاسْتَظْهِر فِي الحَذَرِ بِاجْتِنَابِ مَا يُخَافُ مِنْهُ، وَإِنْ لَم يُتَيَقَّنْ.

* [٥٢-١١٧] [خَاطِرَةٌ]:

[الحِكْمَةُ مِنَ الابتِلَاءِ]

سُبْحَانَ الْمُتَصَرِّفِ فِي خَلْقِهِ بِالاغتِرَابِ وَالإِذْلَالِ لِيَبْلُوَ صَبْرَهُمْ، وَيُظْهِرَ جَوَاهِرَهُم فِي الابْتِلَاءِ!

هَذَا آدَمُ ﷺ تَسْجُدُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ يُخرَجُ مِنَ الجَنَّةِ[1]. وَهَذَا نُوحٌ ﷺ يُضْرَبُ حَتَّىٰ يُغْشَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ يَنْجُو فِي السَّفِينَةِ، وَيَهْلِكُ أَعْدَاؤُهُ[2]. وَهَذَا الخَلِيلُ ﷺ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ يَخْرُجُ إِلَىٰ السَّلَامَةِ[3]. وَهَذَا الذَّبِيحُ[4] يَضطَجِعُ

= سُكِرَ. و«السَّكْرُ» ما سُدَّ بِهِ. و«السَّكْرُ» سَدُّ الشق ومُنْفَجِرِ الماء. و«السُّكْرُ» إِسْمُ ذَلِكَ السِّدادِ الَّذِي يُجْعَلُ سَدًّا لِلشَّقِ وَنَحوهُ وَفِي الحَدِيثِ: «اِسْكُرِيهِ»، أي: سُدِّيهِ بِخِرقَةٍ وَشُدِّيهِ بعضابة، تَشْبِيهًا بِسَكْرِ الْمَاءِ.

(١) يُشير رحمه الله لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة].

(٢) يُشِيرُ رحمه الله إلىٰ ما رواه أحمد في «الزهد»(ح٢٧٨/ ص٦٦) عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: «كَانَ قَوْمُ نُوحٍ يَضْرِبُونَهُ حَتَّىٰ يُغْشَىٰ عَلَيْهِ». * وَكَذَلِكَ يُشِيرُ رحمه الله لقوله تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣].

(٣) يُشير رحمه الله لقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[البقرة].

(٤) المَقصُودُ بِهِ إِسْمَاعِيلُ ﷺ. أَقُول هَذَا؛ لِأَنَّ الإِمَامَ اِبنَ الجَوزِيِّ رحمه الله ذهب في الخاطرة رقم: [٩٢-٢٩٤] إلىٰ أنَّ الذبيح هو: إسحاق ﷺ. وكذلك في كتابه: «زاد المسير» (ج٦/ ٣٦٤، ٣٦٥-سورة الصافات: ١٠٢). والصحيح أن الذبيح هو: إسماعيل ﷺ. وقد قال ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد»(ج١/ ٢٩- في نسبه): «وَإِسْمَاعِيلُ: هُوَ الذَّبِيحُ عَلَىٰ الْقَوْلِ الصَّوَابِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ. وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ إِسْحَاقُ فَبَاطِلٌ بِأَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ وَجْهًا، وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- يَقُولُ: هَذَا الْقَوْلُ إِنَّمَا هُوَ مُتَلَقًّىٰ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَعَ أَنَّهُ بَاطِلٌ بِنَصِّ كِتَابِهِمْ، فَإِنَّ فِيهِ: إِنَّ اللهَ أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ بِكْرَهُ، وَفِي لَفْظٍ: وَحِيدَهُ، وَلَا يَشُكُّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَعَ =

مُسْتَسْلِمًا، ثُمَّ يَسْلَمُ، وَيَبْقَىٰ الْمَدحُ[(١)]. وَهَذَا يَعقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَذْهَبُ بَصَرُهُ بِالفِرَاقِ، ثُمَّ يَعُودُ بِالوُصُولِ[(٢)]. وَهَذَا الكَلِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَشْتَغِلُ بِالرَّعي، ثُمَّ يَرقَىٰ إِلَىٰ التَّكْلِيمِ[(٣)].

وَهَذَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ يُقَالَ لَهُ بِالأَمسِ: اليَتِيمُ، وَيُقَلَّبُ فِي عَجَائِبَ يُلَاقِيهَا مِنَ الأَعدَاءِ تَارَةً، وَمِنْ مَكَايِدِ الفَقرِ أُخرَىٰ، وَهُوَ أَثْبَتُ مِنْ جَبَلِ حِرَاءَ، ثُمَّ لَمَّا تَمَّ لَهُ مُرَادُهُ مِنَ الْفَتحِ، وَبَلَغَ الغَرَضَ مِنْ أَكْبَرِ

= الْمُسْلِمِينَ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ هُوَ بِكْرُ أَوْلَادِهِ، وَالَّذِي غَرَّ أَصْحَابَ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ فِي التَّوْرَاةِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ: اذْبَحِ ابْنَكَ إِسْحَاقَ، قَالَ: وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ مِنْ تَحْرِيفِهِمْ وَكَذِبِهِمْ لِأَنَّهَا تُنَاقِضُ قَوْلَهُ: اذْبَحْ بِكْرَكَ وَوَحِيدَكَ، وَلَكِنَّ الْيَهُودَ حَسَدَتْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ عَلَىٰ هَذَا الشَّرَفِ وَأَحَبُّوا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ، وَأَنْ يَسُوقُوهُ إِلَيْهِمْ وَيَحْتَازُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ دُونَ الْعَرَبِ، وَيَأْبَىٰ اللهُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ فَضْلَهُ لِأَهْلِهِ. وَكَيْفَ يَسُوغُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الذَّبِيحَ إِسْحَاقُ، وَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ بَشَّرَ أُمَّ إِسْحَاقَ بِهِ وَبِابْنِهِ يَعْقُوبَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ عَنِ الْمَلَائِكَةِ: إِنَّهُمْ قَالُوا لِإِبْرَاهِيمَ لَمَّا أَتَوْهُ بِالْبُشْرَىٰ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[هود:٧٠-٧١] فَمُحَالٌ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِأَنَّهُ يَكُونُ لَهَا وَلَدٌ ثُمَّ يَأْمُرَ بِذَبْحِهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَاخِلٌ فِي الْبِشَارَةِ، فَتَنَاوُلُ الْبِشَارَةِ لِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي اللَّفْظِ وَاحِدٌ، وَهَذَا ظَاهِرُ الْكَلَامِ وَسِيَاقُهُ»اهـ. * وَقَالَ ابن كَثِير رَحِمَهُ اللهُ في «تفسيره»(ج٤/ ص٣٤٥): «وَمِنْ هَاهُنَا اسْتَدَلَّ مَنِ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ -﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾-، عَلَىٰ أَنَّ الذَّبِيحَ إِنَّمَا هُوَ إِسْمَاعِيلُ، وَأَنَّهُ يُمْتَنَعُ أَنْ يَكُونَ هُوَ إِسْحَاقُ؛ لِأَنَّهُ وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ بِهِ، وَأَنَّهُ سَيُولَدُ لَهُ يَعْقُوبُ، فَكَيْفَ يُؤْمَرُ إِبْرَاهِيمُ بِذَبْحِهِ وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ، وَلَمْ يُولَدْ لَهُ بَعْدُ يَعْقُوبُ الْمَوْعُودُ بِوُجُودِهِ. وَوَعْدُ اللهِ حَقٌّ لَا خُلْفَ فِيهِ، فَيُمْتَنَعُ أَنْ يُؤْمَرَ بِذَبْحِ هَذَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ إِسْمَاعِيلَ. وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الِاسْتِدْلَالِ وَأَصَحِّهِ وَأَبْيَنِهِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ»اهـ.

(١) يُشير رَحِمَهُ اللهُ إلىٰ قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[الصافات]. ومدح الله إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[٥٤: مريم]. وبقوله: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[ص:٤٨].

(٢) يُشير رَحِمَهُ اللهُ لقصة يعقوب ويوسف عليهما السلام قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[يوسف:٨٤]، ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف:٩٣]

(٣) يُشير رَحِمَهُ اللهُ إلىٰ قصة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا ذهب إلىٰ مدين وعمل بالرعي وتزوج، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[القصص: ٢٢-٣٠].

الْمُلُوْكِ وَأَهْلِ الأَرضِ؛ نَزَلَ بِهِ ضَيْفُ النَّقْلَةِ، فقَالَ: «وَاكَرْبَاهُ»(١).

فَمَنْ تَلَمَّحَ بَحرَ الدُّنْيَا، وَعَلِمَ كَيفَ تُتَلَقَّىٰ الأمْوَاجُ، وَكَيْفَ يُصْبَرُ عَلَىٰ مُدَافَعَةِ الأَيَّامِ؛ لَمْ يَسْتَهوِلْ نُزُوْلَ بَلَاءٍ(٢)، وَلَمْ يَفْرح بِعَاجِلِ رَخَاءٍ.

* [٥٣-٣٩] [خَاطِرَةٌ]:

[كَيفَ تُستَقبَلُ البَلَايَا؟]

مَنْ نَزَلَتْ بِهِ بَلِيَّةٌ، فَأَرَادَ تَمْحِيقَهَا(٣)، فَلْيَتَصَوَّرْهَا أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ؛ تَهُنْ، وَلْيَتَخَايَلْ ثَوَابَهَا، وَلْيَتَوَهَّمْ نُزُوْلَ أَعْظَمَ مِنْهَا؛ يَرَ الرِّبْحَ فِي الاقْتِصَارِ عَلَيْهَا(٤).

وَلْيَتَلَمَّح سُرعَةَ زَوَالِهَا؛ فَإِنَّهُ لَوْلا كَربُ الشِّدَّةِ؛ مَا رُجِيَتْ سَاعَاتُ الرَّاحَةِ، وَلْيَعلَمْ أَنَّ مُدَّةَ مَقَامِهَا عِنْدَهُ كَمُدَّةِ مُقَامِ الضَّيفِ؛ فَلْيَتَفَقَّد حَوَائِجَهُ فِي كُلِّ لَحظَةٍ؛ فَيَا سُرعَةَ انْقِضَاءِ مَقَامِهِ! وَيَا لَذَّةَ مَدَائِحِهِ وَبِشْرِهِ فِي الْمَحَافِلِ(٥)، وَوَصفِ الْمُضِيفِ بِالْكَرَمِ!

فَكَذَلِكَ الشِّدَّةِ؛ يَنْبَغِي أَنْ تُرَاعَىٰ السَّاعَاتِ، وَيُتَفَقَّدُ فِيهَا أَحوَالَ النَّفْسِ، وَيُتَلَمَّحُ الجَوَارِحَ؛

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير»(٢٦٧٦). قال الهيثمي في «المجمع»(ج٩/ ص٣١):«وفيه عبد المنعم بن إدريس وهو كذاب وضاع». وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات». وفي كلمة «واكرباه» إشعارًا بتسخط النَّبِيِّ ﷺ وجزعه عند الموت، وحاشاه من ذلك. والثابت كما في «مسند أحمد»(٢٥٧١٧) [«وَارَأْسَاهُ»] ففيه: «فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ مَا شَأْنُكِ؟ فَقُلْتُ: «أَشْتَكِي رَأْسِي فَقَالَ: «أَنَا وَارَأْسَاهُ»، فَذَهَبَ فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّىٰ جِيءَ بِهِ مَحْمُولًا فِي كِسَاءٍ، فَدَخَلَ عَلَيَّ، وَبَعَثَ إِلَىٰ النِّسَاءِ، فَقَالَ: «إِنِّي قَدْ اشْتَكَيْتُ، وَإِنِّي لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدُورَ بَيْنَكُنَّ»...».

(٢) أي: لم يجده هائلًا مُفزعًا، ولم يخافه. تقول: استهالَ الأمرَ: وجده هائلًا؛ مفزعًا. وَالهَوْلُ: المخافة من الأمر لا يَدرىٰ ما يَهجِم عليه منه كَهَوْل الليل وهَوْل البحر

(٣) الْمَحْقُ: النَّقص وَالْمَحو وَالإبطَال؛ تَقُوْلُ: امَّحق الشَّيءُ: بَطَل وَاضمَحَلّ، وَذَهَبَت بَرَكَتُه.

(٤) قَالَ شُرَيْحٌ:«إِنِّي لأُصَابُ بِالْمُصِيبَةِ، فَأَحْمَدُ اللهَ عَلَيْهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، أَحْمَدُ إِذْ لَمْ يَكُنْ أَعْظَمَ مِنْهَا، وَأَحْمَدُ إِذْ رَزَقَنِي الصَّبْرَ عَلَيْهَا، وَأَحْمَدُ إِذْ وَفَّقَنِي لِلاسْتِرْجَاعِ لِمَا أَرْجُو مِنَ الثَّوَابِ، وَأَحْمَدُ إِذْ لَمْ يَجْعَلْهَا فِي دِينِي»«سير النبلاء».

(٥) الْمَحْفِل: مُجْتَمَع النَّاس وَمَجَالِسهِم. ويُجمع علىٰ الْمَحافِل.

مَخَافَةَ أَنْ يَبْدُوَ مِنَ اللِّسَانِ كَلِمَةٌ، أَوْ مِنَ القَلْبِ تَسَخُّطٌ، فَكَأَنْ قَد لَاحَ فَجْرُ الأَجْرِ، فَانْجَابَ لَيْلُ البَلَاءِ(١)، وَمُدِحَ السَّارِيْ بِقَطْعِ الدُّجَىٰ؛ فَمَا طَلَعَتْ شَمْسُ الجَزَاءِ؛ إِلَّا وَقَد وَصَلَ إِلَىٰ مَنْزِلِ السَّلَامَةِ.

---

* [٥٤-٢١١] [خَاطِرَةٌ]:

[وُجُوبُ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ فِي المُلِمَّاتِ]

مِنَ الابْتِلَاءِ العَظِيْمِ إِقَامَةُ الرَّجُلِ فِي غَيْرِ مَقَامِهِ.

مِثْلُ أَنْ يُحوِجَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ إِلَىٰ مُدَارَاةِ الظَّالِمِ وَالتَّرَدُّدِ إِلَيْهِ، وَإِلَىٰ مُخَالَطَةِ مَنْ لَا يَصلُحُ، وَإِلَىٰ أعمَالٍ لَا تَلِيْقُ بِهِ، أَوْ إِلَىٰ أُمُوْرٍ تَقْطَعُ عَلَيْهِ مُرَادَهُ الَّذِي يُؤْثِرُهُ.

مِثْلُ أَنْ يُقَالَ لِلْعَالِمِ: تَرَدَّد إِلَىٰ الأَمِيْرِ؛ وَإِلَّا؛ خِفْنَا عَلَيْكَ سَطوَتَهُ! فَيَتَرَدَّدُ، فَيَرَىٰ مَا لَا يَصلُحُ لَهُ، وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُنْكِرَ.

أَوْ يَحتَاجُ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا - وَقَد مُنِعَ حَقَّهُ - فَيَحتَاجُ إِلَىٰ أَنْ يُعَرِّضَ بِذِكْرِ ذَلِكَ، أَوْ يُصَرِّحُ لِيَنَالَ بَعضَ حَقِّهِ، وَيَحتَاجُ إِلَىٰ مُدَارَاةِ مَنْ تَصعُبُ مُدَارَاتُهُ، بَلْ يَتَشَتَّتُ هَمُّهُ لِتِلْكَ الضَّرُوْرَاتِ.

وَكَذَلِكَ يَفْتَقِرُ إِلَىٰ الدُّخُوْلِ فِي أُمُوْرٍ لَا تَلِيْقُ بِهِ، مِثْلُ أَنْ يَحتَاجَ إِلَىٰ الكَسْبِ، فَيَتَرَدَّدَ إِلَىٰ السُّوْقِ، أَوْ يَخْدُمَ مَنْ يُعطِيْهِ أُجْرَتَهُ!

وَهَذَا لا يَحتَمِلُهُ قَلْبُ المُرَاقِبِ للهِ سُبْحَانَهُ، لِأَجْلِ مَا يُخَالِطُهُ مِنَ الأَكْدَارِ، أَوْ يَكُوْنَ لَهُ عَائِلَةٌ وَهُوَ فَقِيْرٌ، فَيَتَفَكَّرَ فِي إِغْنَائِهِم، فَيَدخُلَ فِي مَدَاخِلَ كُلُّهَا عِنْدَهُ عَظِيْمَةٌ.

وَقَد يُبْتَلَىٰ بِفَقْدِ مَنْ يُحِبُّ، أَوْ بِبَلَاءٍ فِي بَدَنِهِ، أَوْ بِعَكْسِ أَغْرَاضِهِ، وَتَسْلِيْطِ مُعَادِيْهِ عَلَيْهِ،

---

(١) لاحَ الفَجرُ؛ أي: أضاءَ وَتَلألأَ. وَانجَابَ اللَّيْلُ؛ أي: انقَشَعَ وَزَالَ وَانكَشَفَ وَانقَضَى.

فَيَرَىٰ الفَاسِقَ يَقْهَرُهُ، وَالظَّالِمَ يُذِلُّهُ!

وَكُلُّ هَذِهِ الأَشْيَاءِ تُكَدِّرُ عَلَيْهِ العَيْشَ، وَتَكَادُ تُزَلْزِلُ القَلْبَ.

وَلَيْسَ فِي الابتِلاءِ بِقُوَّةِ الأَشْيَاءِ(١) إِلَّا التَّسْلِيْمُ، وَاللَّجَأُ إِلَىٰ الْمُقَدِّرِ فِي الفَرَجِ، فَيَرَىٰ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ الحَازِمُ يَثْبُتُ لِهَذِهِ العَظَائِمِ، وَلَا يَتَغَيَّرُ قَلْبُهُ، وَلَا يَنْطِقُ بِالشَّكْوَىٰ لِسَانُهُ.

أَوَلَيْسَ الرَّسُوْلُ ﷺ يحتَاجُ أَنْ يَقُوْلَ: «مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟»(٢). وَيَفْتَقِرُ إِلَىٰ أَنْ يَدخُلَ مَكَّةَ فِي جِوَارِ كَافِرٍ(٣)، وَيُلْقَىٰ السَّلَىٰ عَلَىٰ ظَهْرِهِ(٤)، وَتُقْتَلُ أَصحَابُهُ(٥)، وَيُدَارِي الْمُؤَلَّفَةَ(٦)، وَيَشْتَدُّ جُوْعُهُ، وَهُوَ سَاكِنٌ لَا يَتَغَيَّرُ؟!(٧).

وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ اِبْتِلَاءٍ، لِيَنْظُرَ اللهُ فِيهَا كَيْفَ تَعمَلُوْنَ؟

---

(١) أي: بقوة وشدة المصائب العظيمة.

(٢) سبق في الخاطرة رقم: [٣٠-٢٧٢].

(٣) سبق في الخاطرة رقم: [٤٣-٥١].

(٤) السَّلىٰ: غِشَاءٌ رَقِيْقٌ يُحِيطُ بِالجَنِينِ وَيَخْرُجَ مَعهُ عِنْدَ الوِلَادَةِ. رَوَىٰ الشَّيْخَانِ عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ، وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ، جَاءَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ بِسَلَىٰ جَزُورٍ، فَقَذَفَهُ عَلَىٰ ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ ﵂ فَأَخَذَتْهُ مِنْ ظَهْرِهِ، وَدَعَتْ عَلَىٰ مَنْ صَنَعَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ المَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ: أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ أَوْ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ، فَرَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ، فَأُلْقُوا فِي بِئْرٍ، غَيْرَ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ أَوْ أُبَيٍّ تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ، فَلَمْ يُلْقَ فِي البِئْرِ». البخاري، ك: «مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ» ب: «مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (٣٨٥٤). ومسلم، ك: «الْجِهَادِ» بَابُ «مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَذَىٰ الْمُشْرِكِينَ» (١٧٩٤).

(٥) روىٰ البخاري، ك: «الجِهَادِ وَالسِّيَرِ» ب: «فَضلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾» (٢٨١٤). عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: «دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الَّذِينَ قَتَلُوا أَصْحَابَ بِئْرِ مَعُونَةَ ثَلَاثِينَ غَدَاةً، عَلَىٰ رِعْلٍ، وَذَكْوَانَ، وَعُصَيَّةَ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ». وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

(٦) رواه البخاري، كِتَابُ «فَرْضِ الخُمُسِ» بَابُ «مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الخُمُسِ» (٣١٤٦). عَنْ أَنَسٍ ﵁ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي أُعْطِي قُرَيْشًا أَتَأَلَّفُهُمْ، لِأَنَّهُمْ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ».

(٧) روىٰ البخاري، كِتَابُ «الْمَغَازِي» بَابُ «غَزْوَةِ الخَنْدَقِ وَهِيَ الأَحْزَابُ» (٤١٠١). عَنْ جَابِرٍ ﵁ قَالَ: إِنَّا يَوْمَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ، فَقَالَ: «أَنَا نَازِلٌ». ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا...». [يُنظر: «فتح الباري» لابن حجر. (ج٤/ ص٢٩١- ٢٩٣/ ح١٩٦٦)]

وَمِمَّا يُهَوِّنُ هَذِهِ الأَشْيَاءَ عِلْمُ الْعَبْدِ بِالأَجْرِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُرَادُ الْحَقِّ.

فَمَـا لِجُـرحٍ إِذَا أَرضَـاكُمُ أَلَـمُ(١)

---

* [٥٥-١٩٩] [خَاطِرَةٌ]:

[عَلَى المُؤْمِنِ التَّصَبُّر مَهمَا أَمْكَن]

لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَنْزَعِجَ مِنْ مَرَضٍ أَوْ نُزُوْلِ مَوْتٍ، وَإِنْ كَانَ الطَّبْعُ لَا يُمْلَكُ؛ إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ التَّصَبُّرُ مَهْمَا أَمْكَنَ: إِمَّا لِطَلَبِ الأَجْرِ بِمَا يُعَانِي، أَوْ لِبَيَانِ أَثَرِ الرِّضَا بِالقَضَاءِ، وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ ثُمَّ تَنْقَضِي.

وَلْيَتَفَكَّرِ الْمُعَافَى مِنَ الْمَرَضِ فِي السَّاعَاتِ الَّتِي كَانَ يَقْلَقُ فِيْهَا: أَيْنَ هِيَ فِي زَمَانِ العَافِيَةِ؟! ذَهَبَ البَلَاءُ، وَحَصَلَ الثَّوَابُ؛ كَمَا تَذْهَبُ حَلَاوَةُ اللَّذَّاتِ الْمُحَرَّمَةِ، وَيَبْقَىٰ الوِزْرُ، وَيَمْضِي زَمَانُ التَّسَخُّطِ بِالأَقْدَارِ، وَيَبْقَىٰ العِتَابُ.

وَهَلِ الْمَوْتُ إِلَّا آلَامٌ تَزِيْدُ، فَتَعْجِزُ النَّفْسُ عَنْ حَمْلِهَا، فَتَذْهَبُ؟! فَلْيَتَصَوَّرِ الْمَرِيْضُ وُجُوْدَ الرَّاحَةِ بَعْدَ رَحِيْلِ النَّفْسِ، وَقَد هَانَ مَا يَلْقَىٰ؛ كَمَا يَتَصَوَّرُ العَافِيَةَ بَعْدَ شُربِ الشَّرْبَةِ الْمُرَّةِ.

وَلا يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ جَزَعٌ بِذِكْرِ البِلَىٰ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ شَأْنُ الْمَركَبِ، أَمَّا الرَّاكِبُ(٢)؛ فَفِي الجَنَّةِ أَوِ النَّارِ.

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ الاهْتِمَامُ الكُلِّيُّ بِمَا يَزِيْدُ فِي دَرَجَاتِ الفَضَائِلِ، قَبْلَ نُزُوْلِ الْمُعَوِّقِ عَنْهَا.

فَالسَّعِيْدُ مَنْ وُفِّقَ لِاغْتِنَامِ العَافِيَةِ، ثُمَّ يَخْتَارُ تَحصِيْلَ الأَفْضَلِ فَالأَفْضَلِ فِي زَمَنِ الاغْتِنَامِ.

---

(١) عجز بيت للمتنبي، وصدره: [إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا] من البحر: [البسيط].

(٢) يعني بِالْمَركَبِ الجسد، أَمَّا الرَّاكِبُ فهي الروح.

وَلْيَعْلَمْ أَنَّ زِيَادَةَ الْمَنَازِلِ فِي الجَنَّةِ عَلَىٰ قَدرِ التَّزَيُّدِ مِنَ الفَضَائِلِ هَا هُنَا، وَالعُمُرُ قَصِيرٌ، وَالفَضَائِلُ كَثِيرَةٌ؛ فَلْيُبَالِغْ فِي البِدَارِ.

فَيَا طُوْلَ رَاحَةِ التَّعِبِ! وَيَا فَرحَةَ الْمَغْمُوْمِ! وَيَا سُرُوْرَ الْمَحزُوْنِ! وَمَتَىٰ تَخَايَلَ دَوَامَ اللَّذَّةِ فِي الجَنَّةِ مِنْ غَيْرِ مُنَغِّصٍ وَلَا قَاطِعٍ؛ هَانَ عَلَيْهِ كُلُّ بَلَاءٍ وَشِدَّةٍ.

---

* [٥٦-١٠٣] [خَاطِرَةٌ]:

[الصَّبر وَالدُّعاء عِندَ البَلاء]

لِلْبَلَاءِ نِهَايَاتٌ مَعْلُوْمَةُ الوَقْتِ عِنْدَ اللهِ ﷻ، فَلَا بُدَّ لِلْمُبْتَلَىٰ مِنَ الْصَّبْرِ إِلَىٰ أَنْ يَنقَضِيَ أَوَانُ البَلَاءِ؛ فَإِنْ تَقَلْقَلَ قَبْلَ الوَقْتِ؛ لَمْ يَنْفَعِ التَّقَلْقُلُ[١]؛ كَمَا أَنَّ الْمَادَّةَ إِذَا انْحَدَرَتْ إِلَىٰ عُضوٍ؛ فَإِنَّهَا لَنْ تَرجِعَ؛ فَلَا بُدَّ مِنَ الْصَّبْرِ إِلَىٰ حِيْنِ البَطَالَةِ[٢].

فَاسْتِعْجَالُ زَوَالِ البَلَاءِ مَعَ تَقْدِيْرِ مُدَّتِهِ لا يَنْفَعُ.

فَالْوَاجِبُ الصَّبْرُ، وَإِنْ كَانَ الدُّعَاءُ مَشْرُوْعًا، وَلَا يَنْفَعُ إِلَّا بِهِ[٣]. إِلَّا أَنَّهُ لا يَنْبَغِي لِلدَّاعِي أَنْ يَسْتَعْجِلَ، بَلْ يَتَعَبَّدُ بِالصَّبْرِ وَالدُّعَاءِ، وَالتَّسْلِيْمِ إِلَىٰ الحَكِيْمِ، وَيَقْطَعُ الْمَوَادَّ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا لِلْبَلَاءِ؛ فَإِنَّ غَالِبَ البَلَاءِ أَنْ يَكُوْنَ عُقُوْبَةً. فَأَمَّا الْمُسْتَعْجِلُ، فَمُزَاحِمٌ لِلْمُدَبِّرِ، وَلَيْسَ هَذَا مَقَامَ العُبُوْدِيَّةِ.

وَإِنَّمَا الْمَقَامُ الأَعلَىٰ هُوَ الرِّضَا، وَالصَّبْرُ هُوَ اللَّازِمُ، وَالتَّلَاجِي بِكَثْرَةِ الدُّعَاءِ نِعَمَ

---

(١) تَقَلْقَل: التَّقَلْقُل قِلَّة الثُّبُوت فِي الْمَكَانِ وَالاضطِرَاب.

(٢) والمقصود بقوله: فَلَا بُدَّ مِنَ الْصَّبْرِ إِلَىٰ حِيْنِ البَطَالَةِ؛ أي: لَا بُدَّ لِلْمُبْتَلَىٰ مِنَ الصَّبْرِ؛ فَالبَلَاء لَهُ أَجَل مُسَمَّىٰ وَيَذْهَب وَيَنْقَضِي. والله أعلم.

(٣) أي: لا ينفع الصبر إلا إذا اقترن مع الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى.

الْمُعْتَمَدُ(١). وَالاعتِرَاضُ حَرَامٌ، وَالاسْتِعجَالُ مُزَاحَمَةٌ لِلتَّدبِيْرِ.

فَافْهَمْ هَذِهِ الأَشْيَاءَ؛ فَإِنَّهَا تُهَوِّنُ البَلَاءَ.

---

* [٥٧-١٠٤] [خَاطِرَةٌ]:

[زَادُ الصَّابِرِ عَلَى البَلَاءِ]

لَيْسَ فِي الوُجُوْدِ شَيْءٌ أَصعَبَ مِنَ الصَّبْرِ: إِمَّا عَنِ الْمَحبُوْبِ، أَوْ عَلَى الْمَكْرُوْهَاتِ، وَخُصُوْصًا إِذَا اِمْتَدَّ الزَّمَانُ، أَوْ تَوَقَّعَ الْيَأْسَ مِنَ الْفَرَجِ.

وَتِلْكَ الْمُدَّةُ تَحتَاجُ إِلَىٰ زَادٍ يُقْطَعُ بِهِ سَفَرُهَا. وَالزَّادُ يَتَنَوَّعُ مِنْ أَجْنَاسٍ: فَمِنْهُ: تَلَمُّح مِقْدَارِ البَلَاءِ، وَقَد يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ أَكْثَرَ. وَمِنْهُ: أَنَّهُ فِي حَالٍ فَوْقَهَا أَعْظَمُ مِنْهَا؛ مِثْلُ أَنْ يُبْتَلَىٰ بِفَقْدِ وَلَدٍ؛ وَعِنْدَهُ أَعَزُّ مِنْهُ. وَمِنْ ذَلِكَ: رَجَاءُ العِوَضِ فِي الدُّنْيَا. وَمِنْهُ: تَلَمُّح الأَجْرِ فِي الآخِرَةِ. وَمِنْهُ: التَّلَذُّذُ بِتَصوِيْرِ الْمَدحِ وَالثَّنَاءِ مِنَ الْخَلْقِ فِيْمَا يَمْدَحُوْنَ عَلَيْهِ، وَالأَجْرِ مِنَ الْحَقِّ ﷻ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الجَزَعَ لَا يُفِيْدُ، بَلْ يَفْضَحُ صَاحِبَهُ... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَشْيَاءِ الَّتِي يَقْدَحُهَا العَقْلُ وَالفِكْرُ؛ فَلَيْسَ فِي طَرِيْقِ الصَّبْرِ نَفَقَةٌ سِوَاهَا. فَيَنْبَغِي لِلصَّابِرِ أَنْ يَشْغَلَ بِهَا نَفْسَهُ، وَيَقْطَعَ بِهَا سَاعَاتِ اِبْتِلَائِهِ؛ وَقَد صَبَّحَ الْمَنْزِلَ(٢).

---

(١) أي: ينبغي الالتجاء إلىٰ الله بكثرة الدعاء؛ فهو نعم السند الذي يعتمد عليه المسلم. والله أعلم.

(٢) هَذِهِ كِنَايَة عَنِ الْوُصُوْلِ إِلَىٰ مَحِلَّةِ الإِقَامَة. والمعنىٰ: ما هي إلا أيام أو ساعات وينتهي ويزول زمن البلاء؛ فعلىٰ المبتلىٰ أن يتصور زمن البلاء بزمن السفر؛ فإن السفر مهما طال فلا بد للمسافر أن يصل بلده وبيته.

* [٥٨-٧٣] [خَاطِرَةٌ]:

[أَثَرُ الإِيمَانِ فِي الصَّبْرِ عَلَى البَلَاءِ]

تَأَمَّلْتُ أَمْرًا عَجِيبًا وَأَصلًا ظَرِيفًا، وَهُوَ انْهِيَالُ الابْتِلَاءِ عَلَى الْمُؤْمِنِ(١)، وَعَرضُ صُوْرَةِ اللَّذَّاتِ عَلَيْهِ؛ مَعَ قُدرَتِهِ عَلَى نَيْلِهَا، وَخُصُوْصًا مَا كَانَ فِي غَيْرِ كُلْفَةٍ مِنْ تَحصِيلِهِ؛ كَمَحْبُوْبٍ مُوَافِقٍ فِي خَلْوَةٍ حَصِيْنَةٍ.

فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! هَا هُنَا يَبِيْنُ أَثَرُ الإِيْمَانِ؛ لَا فِي صَلَاةِ رَكْعَتَيْنِ.

وَاللهِ؛ مَا صَعِدَ يُوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَا سَعِدَ إِلَّا فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْمَقَامِ.

فَبِاللهِ عَلَيْكُمْ يَا إِخْوَانِي؛ تَأَمَّلُوْا حَالَهُ، لَوْ كَانَ وَافَقَ هَوَاهُ، مَنْ كَانَ يَكُوْنُ؟!

وَقِيْسُوْا بَيْنَ تِلْكَ الحَالَةِ وَحَالَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ زِنُوْا بِمِيْزَانِ العَقْلِ عُقْبَى تِلْكَ الخَطِيْئَةِ، وَثَمَرَةَ هَذَا الصَّبْرِ، وَاجْعَلُوْا فَهْمَ الحَالِ عُدَّةً عِنْدَ كُلِّ مُشْتَهَى.

وَإِنَّ اللَّذَّاتِ لَتُعَرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ؛ فَمَتَى لَقِيَهَا فِي صَفِّ حَربِهِ وَقَد تَأَخَّرَ عَنْهُ عَسْكَرُ التَّدَبُّرِ لِلعَوَاقِبِ؛ هُزِمَ. وَكَأَنِّي أَرَى الوَاقِعَ فِي بَعضِ أَشْرَاكِهَا، وَلِسَانُ الحَالِ يَقُوْلُ لَهُ: قِفْ مَكَانَكَ؛ أَنْتَ وَمَا اخْتَرتَ لِنَفْسِكَ.

فَغَايَةُ أَمْرِهِ النَّدَمُ وَالبُكَاءُ، فَإِنْ أَمِنَ إِخْرَاجَهُ مِنْ تِلْكَ الهُوَّةِ؛ لَمْ يَخْرُجْ إِلَّا مَدهُوْنًا بِالخُدُوْشِ.

وَكَمْ مِنْ شَخْصٍ زَلَّتْ قَدَمُهُ، فَمَا ارتَفَعَتْ بَعدَهَا.

وَمَنْ تَأَمَّلَ ذُلَّ إِخْوَةِ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ قَالُوْا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾[يوسف:٨٨]، عَرَفَ شُؤْمَ الزَّلَلِ. وَمَنْ تَدَبَّرَ أَحوَالَهُمْ؛ قَاسَ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَخِيهِم مِنَ الْفُرُوْقِ، وَإِنْ كَانَتْ تَوْبَتُهُمْ قُبِلَتْ؛

(١) انهال: انصب وسقط وتتابع عليه.

لِأَنَّهُ لَيْسَ مَنْ رَقَعَ وَخَاطَ كَمَنْ ثَوْبُهُ صَحِيحٌ(١).

وَرُبَّ عَظْمٍ هِيضَ لَمْ يَنْجَبِرِ، فَإِنْ جُبِرَ؛ فَعَلَىٰ وَهْيٍ(٢).

فَتَيَقَّظُوْا - إِخْوَانِي - لِعَرضِ الْمُشْتَهَيَاتِ عَلَىٰ النُّفُوْسِ، وَاسْتَوْثِقُوا مِنْ لُجُمْ الخَيْلِ، وَانْتَبِهُوا لِلْغَيْمِ، إِذَا تَرَاكَمَ بِالصُّعُوْدِ إِلَىٰ تَلْعَةٍ(٣)؛ فَرُبَّمَا مَدَّ الوَادِي فَرَاحَ بِالرَّكْبِ(٤).

* [٥٩-٨٧] [خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ عَرَفَ اللهَ تَعَالَىٰ رَضِيَ أَوْ صَبَرَ عَلَى البَلَاءِ]

مَنْ عَاشَ مَعَ اللهِ ﷻ طَيِّبَ النَّفْسِ(٥) فِي زَمَنِ السَّلَامَةِ؛ خِفْتُ عَلَيْهِ زَمَنَ البَلَاءِ؛ فَهُنَاكَ الْمَحَكُّ. إِنَّ الْمَلِكَ ﷻ بَيْنَا يَبْنِي نَقَضَ، وَبَيْنَا يُعطِي سَلَبَ؛ فَطِيْبُ النَّفْسِ(٦) وَالرِّضَا هُنَاكَ

---

(١) يقول ابن القيم رحمه الله: «التَّحْقِيقُ أَنَّ مِنَ التَّائِبِينَ مَنْ يَعُودُ إِلَىٰ أَرْفَعَ مِنْ دَرَجَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُودُ إِلَىٰ مِثْلِ دَرَجَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَىٰ دَرَجَتِهِ. وَهَذَا بِحَسَبِ قُوَّةِ التَّوْبَةِ وَكَمَالِهَا، وَمَا أَحْدَثَتْهُ الْمَعْصِيَةُ لِلْعَبْدِ مِنَ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالْإِنَابَةِ، وَالْحَذَرِ وَالْخَوْفِ مِنَ اللهِ، وَالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، فَقَدْ تَقْوَىٰ هَذِهِ الْأُمُورُ، حَتَّىٰ يَعُودَ التَّائِبُ إِلَىٰ أَرْفَعَ مِنْ دَرَجَتِهِ، وَيَصِيرَ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ، فَهَذَا قَدْ تَكُونُ الْخَطِيئَةُ فِي حَقِّهِ رَحْمَةً. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَكُونُ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِمَّا كَانَ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ وَأَرْفَعَ دَرَجَةً، وَقَدْ تُضْعِفُ الْخَطِيئَةُ هِمَّتَهُ وَتُوهِنُ عَزْمَهُ، وَتُمْرِضُ قَلْبَهُ، فَلَا يَقْوَىٰ دَوَاءُ التَّوْبَةِ عَلَىٰ إِعَادَتِهِ إِلَىٰ الصِّحَّةِ الْأُولَىٰ، فَلَا يَعُودُ إِلَىٰ دَرَجَتِهِ، وَقَدْ يَزُولُ الْمَرَضُ بِحَيْثُ تَعُودُ الصِّحَّةُ كَمَا كَانَتْ وَيَعُودُ إِلَىٰ مِثْلِ عَمَلِهِ، فَيَعُودُ إِلَىٰ دَرَجَتِهِ. هَذَا كُلُّهُ إِذَا كَانَ نُزُولُهُ إِلَىٰ مَعْصِيَةٍ، فَإِنْ كَانَ نُزُولُهُ إِلَىٰ أَمْرٍ يَقْدَحُ فِي أَصْلِ إِيمَانِهِ، مِثْلِ الشُّكُوكِ وَالرِّيَبِ وَالنِّفَاقِ، فَذَاكَ نُزُولٌ لَا يُرْجَىٰ لِصَاحِبِهِ صُعُودٌ إِلَّا بِتَجْدِيدِ إِسْلَامِهِ» اهـ. [«الجواب الكافي» (٦٥، ٦٦) بتصرف].

(٢) الهَيْضُ: الكَسْرُ بَعْدَ الجَبْرِ. وهُو أَشَدّ ما يَكُون من الكَسْر. وَالوَهْيُ: الضَّعف.

(٣) التَّلاع: مَسايِل الماء من عُلوٍ إلىٰ سُفْل. وقيل: هو من الأضداد يَقَع علىٰ ما انْحَدر مِنَ الأرضِ وَأَشرَف مِنْهَا.

(٤) والمعنىٰ: فربما سال الوادي وقد عُمّي علىٰ الصاعد؛ فسقط في الوادي وهو لا يدري؛ فهلك.

(٥) جاء في الأصل: [العيش] والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٦) جاء في الأصل: [العيش] والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ بها.

يَبِيْنُ[١]. فَأَمَّا مَنْ تَوَاصَلَتْ لَدَيْهِ النِّعَمُ؛ فَإِنَّهُ يَكُوْنُ طَيِّبَ القَلْبِ لِتَوَاصُلِهَا، فَإِذَا مَسَّتْهُ نَفْحَةٌ مِنَ البَلَاءِ، فَبَعِيْدٌ ثَبَاتُهُ. قَالَ الْحَسَنُ البَصرِيُّ:[٢] «كَانُوْا يَتَسَاوَوْنَ فِي وَقْتِ النِّعَمِ، فَإِذَا نَزَلَ البَلَاءُ، تَبَايَنُوْا»[٣]. فَالعَاقِلُ مَنْ أَعَدَّ ذُخْرًا، وَحَصَّلَ زَادًا، وَازْدَادَ مِنَ العَدَدِ؛ لِلِقَاءِ حَربِ البَلَاءِ... وَلَا بُدَّ مِنْ لِقَاءِ البَلَاءِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عِنْدَ صَرعَةِ الْمَوْتِ؛ فَإِنَّهَا إِنْ نَزَلَتْ - وَالعِيَاذُ بِاللهِ - فَلَمْ تَجِد مَعرِفَةً تُوْجِبُ الرِّضَا أَوْ الصَّبْرَ، أَخرَجَتْ إِلَىٰ الكُفْرِ[٤].

وَلَقَد سَمِعتُ بَعضَ مَنْ كُنْتُ أَظُنُّ فِيْهِ كَثْرَةَ الْخَيْرِ، وَهُوَ يَقُوْلُ فِي لَيَالِي مَوْتِهِ: رَبِّي هُوَ ذَا يَظْلِمُنِي! فَلَمْ أَزَلْ مُنْزَعِجًا مُهْتَمًّا بِتَحصِيْلِ عُدَّةٍ أَلْقَىٰ بِهَا ذَلِكَ اليَوْمَ[٥]. كَيْفَ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَقُوْلُ لِأَعوَانِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا؛ فَإِنْ فَاتَكُمْ؛ فَلَمْ تَقْدِرُوْا عَلَيْهِ؟!. وَأَيُّ قَلْبٍ يَثْبُتُ عِنْدَ إِمْسَاكِ النَّفْسِ، وَالأَخذِ بِالكَظَمِ[٦]، وَنَزْعِ النَّفْسِ، وَالعِلْمِ بِمُفَارَقَةِ الْمَحبُوْبَاتِ إِلَىٰ مَا لَا يَدرِي مَا هُوَ، وَلَيْسَ فِي ظَاهِرِهِ إِلَّا القَبْرَ وَالبَلَاءَ.

فَنَسْأَلُ اللهَ ﷻ يَقِيْنًا يَقِيْنَا[٧] شَرَّ ذَلِكَ اليَوْمِ؛ لَعَلَّنَا نَصبِرُ لِلْقَضَاءِ أَوْ نَرضَىٰ بِهِ، وَنَرغَبُ إِلَىٰ مَالِكِ الأُمُوْرِ فِي أَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ فَوَاضِلِ نِعَمِهِ عَلَىٰ أَحبَابِهِ؛ حَتَّىٰ يَكُوْنَ لِقَاؤُهُ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ بَقَائِنَا، وَتَفْوِيْضُنَا إِلَىٰ تَقْدِيْرِهِ أَشْهَىٰ لَنَا مِنِ اخْتِيَارِنَا. وَنَعُوْذُ بِاللهِ مِنِ اعْتِقَادِ الكَمَالِ لِتَدبِيْرِنَا، حَتَّىٰ إِذَا انْعَكَسَ عَلَيْنَا أَمْرٌ، عُدنَا إِلَىٰ القَدَرِ بِالتَّسَخُّطِ. وَهَذَا هُوَ الْجَهْلُ الْمَحْضُ وَالْخِذْلَانُ الصَّرِيْحُ، أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهُ.

---

(١) أي: يظهر. والمعنىٰ: أن الرضا وطيب النفس يظهر مع الاختبار.

(٢) الحَسَنُ البَصْرِيُّ بنُ أَبِي الحَسَنِ يَسَارٍ، أَبُو سَعِيْدٍ، شيخ أهل البصرة، وسيد أهل زمانه، مَاتَ سَنَةَ: (١١٠هـ).

(٣) تباينوا: اختلفوا وتفاوتوا. والأثر رواه البيهقي في «السنن الصغرى» (١٦). ولفظه: «قَدْ وَاللهِ رَأَيْنَاهُمْ يَتَقَرَّبُونَ فِي العَافِيَةِ فَإِذَا نَزَلَ البَلَاءُ تَفَارَقُوا» وروىٰ بلفظ آخر في كتاب «الزهد» للإمام أحمد (١٦١٧) ولفظه: «قَدْ وَاللهِ رَأَيْتُهُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي العَافِيَةِ فَإِذَا نَزَلَ البَلَاءُ تَسَاوَوْا». واللفظ الأول هو أقرب للمعنىٰ الذي ذكره ابن الجوزي.

(٤) وَذَلِكَ، لِأَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَعْلَمْ نُزُولَ البَلَاءِ عَلَيْهِ، فَإِذَا نَزَلَ البَلَاءُ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، أَمَّا إِذَا كَانَ عَالِمًا بِأَنَّهُ سَيَنْزِلُ، فَإِذَا نَزَلَ لَمْ يَعْظُمْ وَقْعُهُ عَلَيْهِ.

(٥) جاء في الأصل: [القرن] والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٦) الكظم: مَخْرَج النَّفَس مِنَ الحَلْقِ.

(٧) يَقِيْنًا يَقِيْنَا: بمعنىٰ: إيمانا يحفظنا.

* [٦٠-١٩١] [خَاطِرَةٌ]:

[اِسْتِوَاءُ النَّاسِ فِي العَافِيَةِ، وَتَبَايُنُهم فِي البَلَاءِ]

لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالَّذِي يُؤَدِّي فَرَائِضَ العِبَادَاتِ صُورَةً، وَيَتَجَنَّبُ الْمَحْظُورَاتِ فَحَسْبُ! إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ هُوَ الكَامِلُ الإِيْمَانِ، وَلَا يَخْتَلِجُ فِي قَلْبِهِ اِعْتِرَاضٌ، وَلَا يُسَاكِنُ [نَفْسَهُ(١)] فِيْمَا يَجْرِي وَسْوَسَةٌ. وَكُلَّمَا اِشْتَدَّ البَلَاءُ عَلَيْهِ، زَادَ إِيْمَانُهُ، وَقَوِيَ تَسْلِيْمُهُ، وَقَد يَدعُوْ، فَلَا يَرَىٰ لِلإِجَابَةِ أَثَرًا؛ وَسِرُّهُ لَا يَتَغَيَّرُ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَمْلُوْكٌ، وَلَهُ مَالِكٌ يَتَصَرَّفُ بِمُقْتَضَىٰ إِرَادَتِهِ. فَإِنِ اخْتَلَجَ فِي قَلْبِهِ اِعْتِرَاضٌ؛ خَرَجَ مِنْ مَقَامِ العُبُوْدِيَّةِ إِلَىٰ مَقَامِ الْمُنَاظَرَةِ؛ كَمَا جَرَىٰ لِإِبْلِيْسَ. وَالإِيْمَانُ القَوِيُّ يَبِيْنُ أَثَرُهُ عِنْدَ قُوَّةِ البَلَاءِ.

فَأَمَّا إِذَا رَأَيْنَا مِثْلَ يَحْيَىٰ بْنِ زَكَرِيَّا؛ تَسَلَّطَ عَلَيْهِ فَاجِرٌ، فَيَأْمُرُ بِذَبْحِهِ، فَيُذْبَحُ! وَرُبَّمَا اِخْتَلَجَ فِي الطَّبْعِ أَنْ يَقُوْلَ: فَهَلَّا رَدَّ عَنْهُ مَنْ جَعَلَهُ نَبِيًّا؟!. وَكَذَلِكَ كُلُّ تَسَلُّطٍ مِنَ الكُفَّارِ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِيْنَ؛ وَمَا وَقَعَ رَدٌّ عَنْهُمْ! فَإِنْ هَجَسَ بِالفِكْرِ أَنَّ القُدْرَةَ تَعجِزُ عَنِ الرَّدِّ عَنْهُمْ؛ كَانَ ذَلِكَ كُفْرًا.

وَإِنْ عَلِمَ أَنَّ القُدْرَةَ مُتَمَكِّنَةٌ مِنَ الرَّدِّ، وَمَا رَدَّتْ، وَيُجَوِّعُ الْمُؤْمِنِيْنَ، وَيُشْبِعُ الكُفَّارَ، وَيُعَافِي العُصَاةَ، وَيُمْرِضُ الْمُتَّقِيْنَ؛ لَمْ يَبْقَ إِلَّا التَّسْلِيْمُ لِلْمَالِكِ، وَإِنْ أَمَضَّ وَأَرْمَضَ(٢).

وَقَدْ ذَهَبَ يُوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ ﷺ، فَبَكَىٰ يَعْقُوبُ ثَمَانِيْنَ سَنَةً(٣)، ثُمَّ لَمْ يَيْأَسْ. [فَلَمَّا

---

(١) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٢) أَمَضَّ: آلَمَهُ وَأَوْجَع. وَأَرمَضَ: أحرق، وتأتي بمعنىٰ أوجع أيضًا.

(٣) روىٰ ابن أبي حاتم في «تفسيره» (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾ ج٧/ ص٢٢٠٢/ ح ١٢٠١) عَنِ الْحَسَنِ «أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُلْقِيَ فِي الْجُبِّ وَهُوَ ابْنُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَعَاشَ فِي الْعُبُودِيَّةِ وَالْمُلْكِ ثَمَانِينَ سَنَةً ثُمَّ جَمَعَ اللهُ لَهُ شَمْلَهُ فَعَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً»اهـ. قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (ج١/ ص٢٠٣): «قِيلَ: إِنَّهَا ثَمَانُونَ سَنَةً، وقيل: ثلاث وَثَمَانُونَ سَنَةً وَهُمَا رِوَايَتَانِ عَنِ الْحَسَنِ. وَقِيلَ: خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقَالَ مُحَمَّدُ ابن إِسْحَاقَ ذَكَرُوا أَنَّهُ غَابَ عَنْهُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً. قَالَ: وَأَهْلُ الْكِتَابِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ غَابَ عَنْهُ أَرْبَعِين سَنَةً وَظَاهِر سِيَاقِ الْقِصَّةِ يُرْشِدُ إِلَىٰ تَحْدِيدِ الْمُدَّةِ تَقْرِيبًا فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَاوَدَتْهُ وَهُوَ شَابٌّ ابْنُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً فَامْتَنَعَ فَكَانَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ وَهِيَ سَبْعٌ. ثُمَّ أُخْرِجَ فَكَانَتْ سَنَوَاتُ الْخِصْبِ السَّبْعُ ثُمَّ لَمَّا أَمْحَلَ النَّاسُ فِي السَّبْعِ

ذَهَبَ إِبْنُهُ الآخَرُ[(١)]؛ قَالَ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾[يوسف: ٨٣][(٢)].

وَقَدْ دَعَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ فِرعَوْنَ، فَأُجِيْبَ بَعْدَ أَربَعِيْنَ سَنَةً[(٣)]؛ وَكَانَ يَذْبَحُ الأَنْبِيَاءَ، وَلا تَرُدُّهُ القُدرَةُ القَدِيْمَةُ العَظِيْمَةُ، وَصَلَبَ السَّحَرَةَ، وَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ[(٤)].

وَكَمْ مِنْ بَلِيَّةٍ نَزَلَتْ بِمُعَظَّمِ الْقَدْرِ؛ فَمَا زَادَهُ ذَلِكَ إِلَّا تَسْلِيْمًا وَرِضًا!

فَهُنَاكَ يَبِيْنُ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾[البينة: ٨]، وَهَا هُنَا يَظْهَرُ قَدرُ قُوَّةِ الإِيْمَانِ لَا فِي رَكَعَاتٍ. قَالَ الْحَسَنُ البَصْرِيُّ: «اِسْتَوَىٰ النَّاسُ فِي العَافِيَةِ؛ فَإِذَا نَزَلَ البَلاءُ؛ تَبَايَنُوا»[(٥)].

* [٦١-٣٢٨] [خَاطِرَةٌ]:

[لا تيأس من رَوحِ اللهِ، وَإِنْ طَالَ البَلاءُ]

يَبِيْنُ إِيْمَانُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ الابْتِلاءِ؛ فَهُوَ يُبَالِغُ فِي الدُّعَاءِ، وَلَا يَرَىٰ أَثَرًا لِلإِجَابَةِ، وَلَا يَتَغَيَّرُ أَمَلُهُ وَرَجَاؤُهُ، وَلَوْ قَوِيَتْ أَسْبَابُ اليَأْسِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ الْحَقَّ أَعْلَمُ بِالْمَصَالِحِ، أَوْ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ الصَّبْرُ أَوْ الإِيْمَانُ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَحْكُمْ عَلَيْهِ بِذَلِكَ إِلَّا وَهُوَ يُرِيْدُ مِنَ الْقَلْبِ التَّسْلِيْمَ؛ لِيَنْظُرَ كَيْفَ صَبْرُهُ، أَوْ يُرِيْدُ كَثْرَةَ اللَّجَإِ وَالدُّعَاءِ.

فَأَمَّا مَنْ يُرِيْدُ تَعْجِيْلَ الإِجَابَةِ، وَيَتَذَمَّرُ إِنْ لَمْ تَتَعَجَّلْ؛ فَذَاكَ ضَعِيْفُ الإِيْمَانِ، يَرَىٰ أَنَّ لَهُ حَقًّا فِي الإِجَابَةِ، وَكَأَنَّهُ يَتَقَاضَىٰ أُجْرَةَ عَمَلِهِ.

= البَوَاقِي جَاءَ إِخْوَتهم يَمْتَارون فِي السَّنَةِ الأُولَى وَحدَهُمْ وَفِي الثَّانِيَةِ وَمَعَهُمْ أَخُوهُ بِنْيَامِينُ. وَفِي الثَّالِثَةِ تَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ وَأَمَرَهُمْ بِإِحْضَارِ أَهْلِهِمْ أَجْمَعِينَ فَجَاءُوا كُلُّهُمْ»اهـ.

(١) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٢) يَعْنِي: يُوسُفَ وَبِنْيَامِينَ وَرُوبِيلَ.

(٣) ذكره الطبري في «تفسيره»(ج٥/ ص٤٢٥٩). والسيوطي في «الدر المنثور» (ج٤/ ص٣٤٨/ يونس:٨٩) عن مجاهد.

(٤) يُشير لقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: ٧١].

(٥) سبق في الخاطرة رقم: [٥٩-٨٧].

أَمَا سَمِعْتَ قِصَّةَ يَعْقُوْبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بَقِيَ ثَمَانِيْنَ سَنَةً فِي البَلَاءِ، وَرَجَاؤُهُ لَا يَتَغَيَّرُ، فَلَمَّا ضُمَّ إِلَىٰ فَقْدِ يُوْسُفَ فَقْدُ بِنْيَامِيْنَ؛ لَمْ يَتَغَيَّرْ أَمَلُهُ، وَقَالَ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]؟[١].

وَقَد كَشَفَ هَذَا الْمَعْنَىٰ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ هَذَا لا يَصْدُرُ مِنَ الرَّسُوْلِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِيْنَ إِلَّا بَعْدَ طُوْلِ البَلَاءِ، وَقُرْبِ الْيَأْسِ مِنَ الفَرَجِ.

وَمِنْ هَذَا قَوْلُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ: «لا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلُ»، قِيْلَ لَهُ: وَمَا يَسْتَعْجِلُ؟ قَالَ: «يَقُوْلُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»[٢].

فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَطِيْلَ زَمَانَ البَلَاءِ، وَتَضْجَرَ مِنْ كَثْرَةِ الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّكَ مُبْتَلَىٰ بِالبَلَاءِ، مُتَعَبَّدٌ بِالصَّبْرِ وَالدُّعَاءِ، وَلا تَيْأَسْ مِنْ رَوْحِ اللهِ؛ وَإِنْ طَالَ البَلَاءُ.

* [٦٢-١٦١] [خَاطِرَةٌ]:

[السَّعِيْدُ مَنْ ذَلَّ للهِ، وَسَأَلَ العَافِيَةَ]

وَالسَّعِيْدُ مَنْ ذَلَّ للهِ، وَسَأَلَ العَافِيَةَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُوْهَبُ العَافِيَةُ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ؛ إِذْ لَا بُدَّ مِنْ بَلَاءٍ، وَلَا يَزَالُ العَاقِلُ يَسْأَلُ العَافِيَةَ؛ لِتَغْلِبَ عَلَىٰ جُمْهُوْرِ أَحْوَالِهِ، فَيَقْرُبَ الصَّبْرُ عَلَىٰ يَسِيْرِ البَلَاءِ.

وَفِي الْجُمْلَةِ: يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لَا سَبِيْلَ إِلَىٰ مَحْبُوْبَاتِهِ [خَالِصَةً[٣]]؛ فَفِي كُلِّ

---

(١) سبق في الخاطرة رقم: [٦٠-١٩٤].

(٢) رواه أحمد في «مسنده»(١٣٩٤٢، ١٣١٣١). ورواه الطبراني في «كتاب الدعاء» بَابُ «كراهية الاستعجال في الدعاء»(٨١). ورواه أبو يعلى في «مسنده»(٢٨٦٥). [يُنظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٥٠)].

(٣) ليست في الأصل، ولا المخطوط، وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

جُرْعَةٍ غُصَصٌ، وَفِي كُلِّ لُقْمَةٍ شَجًى[١]:

وَكَـمْ مَـنْ يَعْشَـقُ الـدُّنْيَا قَـدِيمًا ... وَلَكِـنْ لا سَـبِيْلَ إِلَـى الوِصَـالِ[٢]

وَعَلَى الْحَقِيْقَةِ؛ مَا الصَّبْرُ إِلَّا عَلَى الأَقْدَارِ، وَقَلَّ أَنْ تَجْرِيَ الأَقْدَارُ إِلَّا عَلَى خِلَافِ مُرَادِ النَّفْسِ.

فَالعَاقِلُ مَنْ دَارَى نَفْسَهُ فِي الصَّبْرِ بِوَعْدِ الأَجْرِ، وَتَسْهِيْلِ الأَمْرِ؛ لِيَذْهَبَ زَمَانُ البَلَاءِ، سَالِمًا مِنْ شَكْوَى، ثُمَّ يَسْتَغِيْثُ بِاللهِ تَعَالَى سَائِلًا العَافِيَةَ.

فَأَمَّا الْمُتَجَلِّدُ[٣]، فَمَا عَرَفَ اللهَ قَطُّ. نَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الْجَهْلِ بِهِ، وَنَسْأَلُهُ عِرْفَانَهُ، إِنَّهُ كَرِيْمٌ مُجِيْبٌ.

---

(١) **شجِي الآكِلُ**: اعترض ونشِب في حلقه عظمٌ أو طعامٌ أو نحوُهما فمنعه التَّنفُّس والبلع.

(٢) البيت للمتنبي. من البحر: [الوافر].

(٣) يعني: تكلَّف الجَلَدَ أو أظْهَرَهُ لِلنَّاسِ وَلَيْسَ خَالِصًا لله. [تجلَّدَ يتجلَّد، تجلُّدًا، فهو مُتجلِّد؛ والأصل فيه: الثَّبات والرِّضا بالقدر].

(٦)

[الرِّضَا بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَحِكْمَة أَحْكَمِ الحَاكِمِينَ]

* [٦٣-٢١٥] [خَاطِرَةٌ]:

[كَيفِيَّةِ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الرِّضَا عَنِ اللهِ ﷻ]

مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ حَقِيْقَةَ الرِّضَا عَنِ اللهِ ﷻ فِي أَفْعَالِهِ، وَأَنْ يَدْرِيَ مِنْ أَيْنَ يَنْشَأُ الرِّضَا؛ فَلْيَتَفَكَّرْ فِي أَحْوَالِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

فَإِنَّهُ لَمَّا تَكَامَلَتْ مَعْرِفَتُهُ بِالْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، رَأَىٰ أَنَّ الْخَالِقَ مَالِكٌ، وَلِلْمَالِكِ التَّصَرُّفُ فِي مَمْلُوْكِهِ، وَرَآهُ حَكِيْمًا لا يَصْنَعُ شَيْئًا عَبَثًا، فَسَلَّمَ تَسْلِيْمَ مَمْلُوْكٍ لِحَكِيْمٍ؛ فَكَانَتِ الْعَجَائِبُ تَجْرِي عَلَيْهِ، وَلَا يُوْجَدُ مِنْهُ تَغَيُّرٌ، وَلَا مِنَ الْطَّبْعِ تَأَفُّفٌ، وَلَا يَقُوْلُ بِلِسَانِ الْحَالِ: لَوْ كَانَ كَذَا! بَلْ يَثْبُتُ لِلأَقْدَارِ ثُبُوْتَ الْجَبَلِ لِعَوَاصِفِ الرِّيَاحِ.

هَذَا سَيِّدُ الرُّسُلِ ﷺ بُعِثَ إِلَىٰ الْخَلْقِ وَحْدَهُ، وَالكُفْرُ قَدْ مَلأَ الآفَاقَ، فَجَعَلَ يَفِرُّ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ، وَاسْتَتَرَ فِي دَارِ الْخَيْزُرَانِ[١]، وَهُمْ يَضْرِبُوْنَهُ إِذَا خَرَجَ، وَيُدْمُوْنَ عَقِبَهُ[٢]، وَأُلْقِيَ السَّلَىٰ عَلَىٰ ظَهْرِهِ[٣]، وَهُوَ سَاكِتٌ سَاكِنٌ وَيَخْرُجُ كُلَّ مَوْسِمٍ فَيَقُوْلُ: «مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ

---

(١) ذكر أهل السير وأصحاب السنن وغيرهم أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان مُختفيًا في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي يدعو فيها الناس إلىٰ الإسلام؛ والتي هي عند الصفا وتعرف اليوم بِالخَيْزُرَانِ؛ نِسْبَتًا إلىٰ زوجة الخليفة العباسي محمد المهدي، وكانت ملكة حازمة متفقهة، توفيت سنة:(١٧٣هـ). * والأرقم صاحب حلف الفضول. هاجر إلىٰ المدينة وشهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ. مَاتَ سَنَةَ:(٥٥هـ).

(٢) يُنظر: «دلائل النبوة» للبيهقي. (ج٢/ ص٤١٥/ بَابُ: عَرْضِ النَّبِيِّ ﷺ نَفْسَهُ عَلَىٰ قَبَائِلِ الْعَرَبِ). «زاد المعاد» لابن القيم. (ج١/ ص٤٥/ فَصْلٌ: فِي ذِكْرَىٰ الْهِجْرَتَيْنِ)، (ج٢/ ص٩٩/ فَصْلٌ: الْخُرُوجُ إِلَىٰ الطَّائِفِ).

(٣) سبق في الخاطرة رقم: [٥٤-٢١١].

يَنْصُرُنِي؟»[(١)] ... ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ العَوْدِ إِلَّا فِي جِوَارِ كَافِرٍ[(٢)].

وَلَمْ يُوجَدْ مِنَ الطَّبْعِ تَأَفُّفٌ، وَلَا مِنَ البَاطِنِ اعْتِرَاضٌ؛ إِذْ لَوْ كَانَ غَيْرُهُ، لَقَالَ: يَا رَبِّ! أَنْتَ مَالِكُ الخَلْقِ، وَقَادِرٌ عَلَىٰ النَّصْرِ؛ فَلِمَ أُذَلُّ؟!.

كَمَا قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه يَوْمَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ: «أَلَسْنَا عَلَىٰ الحَقِّ؟! فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟!» وَلَمَّا قَالَ هَذَا، قَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ: «إِنِّي عَبْدُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي»[(٣)].

فَجَمَعَتِ الكَلِمَتَانِ الأَصْلَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا:

فَقَوْلُهُ: «إِنِّي عَبْدُ اللهِ»: إِقْرَارٌ بِالمِلْكِ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: أَنَا مَمْلُوكٌ يَفْعَلُ بِي مَا يَشَاءُ.

وَقَوْلُهُ: «لَنْ يُضَيِّعَنِي»: بَيَانُ حِكْمَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا عَبَثًا.

ثُمَّ يُبْتَلَىٰ بِالجُوعِ، فَيَشُدُّ الحَجَرَ[(٤)]، ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[المنافقون: ٧].

وَيُقْتَلُ أَصْحَابُهُ[(٥)]، وَيُشَجُّ وَجْهُهُ، وَتُكْسَرُ رَبَاعِيَتُهُ[(٦)]، وَيُمَثَّلُ بِعَمِّهِ[(٧)]... وَهُوَ سَاكِتٌ.

ثُمَّ يُرْزَقُ ابْنًا، وَيُسْلَبُ مِنْهُ[(٨)]، فَيَتَعَلَّلُ بِالحَسَنِ وَالحُسَيْنِ[(٩)]، فَيُخْبَرُ بِمَا سَيَجْرِي

---

(١) سبق في الخاطرة رقم: [٣٠-٢٧٢].

(٢) سبق في الخاطرة رقم: [٤٣-٥١].

(٣) رواه البخاري، كِتَابُ «الجِزْيَةِ» بَابُ «إِثْمِ مَنْ عَاهَدَ ثُمَّ غَدَرَ» (٣١٨٢). وَكِتَابُ «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» بَابُ «قَوْلِهِ: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾» (٤٨٤٤). ومسلم، كِتَابُ «الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ» بَابُ «صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ فِي الْحُدَيْبِيَةِ» (١٧٨٥).

(٤) سبق في الخاطرة رقم: [٥٤-٢١١].

(٥) سبق في الخاطرة رقم: [٥٤-٢١١].

(٦) رواه البخاري، كِتَابُ «الجِهَادِ» بَابُ «المِجَنّ وَمَنْ يَتَّرِسُ بِتُرْسِ صَاحِبِهِ» (٢٩٠٣). ومسلم، كِتَابُ «الْجِهَادِ» بَابُ «غَزْوَةِ أُحُدٍ» (١٧٩٠). الرَبَاعِيَة: سِنٌّ بين الثَنيّة وَالنَّاب، وَهِيَ: اِثْنَتَانِ فِي الفَكّ الأَعلَىٰ وَاثْنَتَانِ في الفَكّ الأَسْفَل.

(٧) رواه أبو داود، كِتَابُ «الجنائز» بَابُ «فِي الشهيد يُغَسَّل» (٣١٣٤، ٣١٣٥). مَثَّلَ بِهِ: عَذَّبَهُ وَنَكَّلَ بِهِ.

(٨) رواه البخاري، كِتَابُ «الجَنَائِزِ» بَابُ «قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ»» حديث (١٣٠٣).

(٩) يَتَعَلَّلُ، أي: يُسَلِّي نفسه بهما. وَالعِلَّةُ: الحَدَثُ يَشْغَلُ صاحِبَه عن حَاجَتِهِ، كَأَنَّ تِلْكَ العِلَّةَ صَارَت شُغْلًا ثانيًا مَنَعَه =

عَلَيْهِمَا[(١)].

وَيَسْكُنُ بِالطَّبْعِ إِلَىٰ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فَيُنَغَّصُ عَيْشُهُ بِقَذْفِهَا[(٢)].

وَيُبَالِغُ فِي إِظْهَارِ الْمُعْجِزَاتِ، فَيُقَامُ فِي وَجْهِهِ مُسَيْلَمَةُ وَالعَنْسِيُّ وَابْنُ صَيَّادٍ[(٣)].

وَيُقِيمُ نَامُوسَ[(٤)] الأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ، فَيُقَالُ: كَذَّابٌ! سَاحِرٌ!

ثُمَّ يَعْلَقُهُ الْمَرَضُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ، وَهُوَ سَاكِنٌ سَاكِتٌ[(٥)]. فَإِنْ أُخْبِرَ بِحَالِهِ؛ فَلْيُعَلِّمِ الصَّبْرَ.

= عَنْ شُغلِهِ الأَوّل. أَمَّا الْحَسَن وَالْحُسَيْن اِبْنَا عَلِيِّ بْن أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنهم سَيِّدَا شَبَاب أَهْل الْجَنَّة، وَمَوْلِد الْحَسَن فِي رَمَضَان سَنَة ثَلَاث مِنَ الْهِجْرَة عِنْد الأَكْثَر، وَمَاتَ بِالْمَدِينَةِ مَسْمُومًا سَنَة خَمْسِينَ وَقِيلَ غَيْر ذَلِكَ. وَكَانَ مَوْلِد الْحُسَيْن فِي شَعْبَان سَنَة أَرْبَع عِنْدَ الأَكْثَر. وَقُتِلَ يَوْم عَاشُورَاء سَنَة إِحْدَىٰ وَسِتِّينَ بِكَرْبَلَاء مِنْ أَرْض الْعِرَاق.

(١) روىٰ البخاري، كِتَابُ «الصُّلْحِ» بَابُ «قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهما ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ»(٢٧٠٤). قَالَ الحَسَنُ: وَلَقَدْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرَةَ يَقُولُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ وَالحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَىٰ جَنْبِهِ، وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً، وَعَلَيْهِ أُخْرَىٰ وَيَقُولُ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

* وأمَّا إخباره عن الحسين رضي الله عنه فقد روىٰ الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا»(٨٢٠٢). عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ اضْطَجَعَ ذَاتَ لَيْلَةٍ لِلنَّوْمِ فَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ حَائِرٌ، ثُمَّ اضْطَجَعَ فَرَقَدَ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ حَائِرٌ، دُونَ مَا رَأَيْتُ بِهِ الْمَرَّةَ الأُولَىٰ، ثُمَّ اضْطَجَعَ فَاسْتَيْقَظَ وَفِي يَدِهِ تُرْبَةٌ حَمْرَاءُ يُقَبِّلُهَا، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ التُّرْبَةُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «أَخْبَرَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ هَذَا يُقْتَلُ بِأَرْضِ الْعِرَاقِ - لِلْحُسَيْنِ - فَقُلْتُ لِجِبْرِيلَ: أَرِنِي تُرْبَةَ الأَرْضِ الَّتِي يُقْتَلُ بِهَا فَهَذِهِ تُرْبَتُهَا».

(٢) يُشير إلىٰ حادثة الإفك؛ والتي ذُكرت وبراءتها في كتاب الله تعالىٰ في (سورة النور الآيات: ١١-٢٠)، وذُكرت في السنة فقد رواها البخاري، كِتَابُ «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» بَابُ «﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾»(٤٧٥٠). ومسلم، كِتَابُ «التَّوْبَةِ» بَابُ «فِي حَدِيثِ الإِفْكِ وَقَبُولِ تَوْبَةِ القَاذِفِ»(٢٧٧٠).

(٣) أمَّا مُسَيْلَمَةُ: فهو مسيلمة بن حبيب الكذاب، ولد ونشأ باليمامة، قتل سنة:(١٢هـ). وَالعَنْسِيُّ: عَيْهَلَة أو عَبْهلة بن كعب قتل سنة:(١١هـ). وسيذكر ابن الجوزي رحمه الله خبرهما في الخاطرة:[٣٧١-٣١٠]. وَابْنُ صَيَّادٍ: ويُقال له ابن صائد؛ فاسمه صافي، من كهنة يهود المدينة وخبره في «الصحيحين» البخاري، كِ:«الجَنَائِزِ» بَ:«إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ، هَلْ يُصَلَّىٰ عَلَيْهِ...»(١٣٥٤، ١٣٥٥). ومسلم، كِ:«الْفِتَنِ» بَ:«ذِكْرِ ابْنِ صَيَّادٍ»(٢٩٣٠، ٢٩٣١).

(٤) ناموس: قانون أو شريعة.

(٥) يَعْلَقُهُ الْمَرَضُ: نَشِبَ بِهِ وَاسْتَمْسَكَ. يُوعَكُ رَجُلَانِ: تقولُ: وعَكَ الشَّخصُ: أصابه ألمٌ من شدّة التَّعب أو المرض. ووعَكَتْهُ الحُمَّىٰ: آذته وأوجعته. وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا =

ثُمَّ يُشَدَّدُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ، فَيُسْلَبُ رُوحَهُ الشَّرِيفَةَ، وَهُوَ مُضْطَجِعٌ فِي كِسَاءٍ مُلَبَّدٍ، وَإِزَارٍ غَلِيظٍ(١)، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ زَيْتٌ يُوقَدُ بِهِ الْمِصْبَاحُ لَيْلَتَئِذٍ(٢).

هَذَا الشَّيْءُ مَا قَدَرَ عَلَىٰ الصَّبْرِ عَلَيْهِ كَمَا يَنْبَغِي نَبِيٌّ قَبْلَهُ، وَلَوِ ابْتُلِيَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ؛ مَا صَبَرَتْ.

هَذَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تُبَاحُ لَهُ الْجَنَّةُ سِوَىٰ شَجَرَةٍ(٣)، فَلَا يَقَعُ ذُبَابُ حِرْصِهِ إِلَّا عَلَىٰ العَقْرِ(٤).

وَنَبِيُّنَا ﷺ يَقُولُ فِي الْمُبَاحِ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟!»(٥).

وَهَذَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَضِجُّ مِمَّا لَاقَىٰ، فَيَصِيحُ مِنْ كَمَدِ وَجْدِهِ(٦): ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح: ٢٦].

= رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا؟ قَالَ: «أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ» قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا». رواه البخاري، كِتَابُ «الْمَرْضَىٰ» بَابُ «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ»(٥٦٤٨). واللفظ له. ومسلم، كِتَابُ «الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ» بَابُ «ثَوَابِ الْمُؤْمِنِ فِيمَا يُصِيبُهُ مِنْ مَرَضٍ»(٢٥٧١).

(١) مُلَبَّدًا: مُرَقَّعًا أَوْ الْمُلَبَّد الكِسَاء الغَلِيظ الَّذِي يُرَكَّب بَعضُهُ عَلَى بَعْضٍ. وَالإِزَار: مَا يُلْبَس عَلَىٰ أَسَافِلِ البَدَن. والحديث رواه الشيخان عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، قَالَ: «أَخْرَجَتْ إِلَيْنَا عَائِشَةُ رضي الله عنها كِسَاءً مُلَبَّدًا، وَقَالَتْ: فِي هَذَا نُزِعَ رُوحُ النَّبِيِّ ﷺ ... أَخْرَجَتْ إِلَيْنَا عَائِشَةُ: إِزَارًا غَلِيظًا مِمَّا يُصْنَعُ بِالْيَمَنِ، وَكِسَاءً مِنْ هَذِهِ الَّتِي يَدْعُونَهَا الْمُلَبَّدَةَ» رواه البخاري، كِتَابُ «فَرْضِ الخُمُسِ» بَابُ «مَا ذُكِرَ مِنْ دِرْعِ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَصَاهُ...»(٣١٠٨). واللفظ له. ومسلم، كِتَابُ «اللِّبَاسِ وَالزِّينَةِ» بَابُ «التَّوَاضُعِ فِي اللِّبَاسِ...»(٢٠٨٠).

(٢) لم أقف عليه فيما بين يدي من المصادر.

(٣) يُشير رحمه الله لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٣٥].

(٤) الذُّبَابُ: الشُّؤْمُ. وَقِيلَ: الذُّبَابُ الشَّرُّ الدائمُ. وَذُبَابُ السيف: طَرَفُه الذي يُضرَبُ به. أمّا العَقْر: فأصلُه: ضَرْب قوائِمِ البعير أو الشاةِ بالسيفِ وهو قائمٌ. ثم اتُّسِع في (العَقْر) حتىٰ استعمل في القَتْل والهلاك.

(٥) رواه البخاري، كِتَابُ «الهِبَةِ وَفَضْلِهَا وَالتَّحْرِيضِ عَلَيْهَا» بَابُ «هَدِيَّةِ مَا يُكْرَهُ لُبْسُهَا» حديث (٢٦١٣).

(٦) كَمَدَ: حزن حُزْنًا شَدِيدًا، وَوَجْدِهِ: غَضبه وكرهه. ولم يفعل ذلك نوح إلَّا بعد أن لبث في قومه: (٩٥٠) عامًا يدعوهم؛ فقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[هود: ٣٦].

وَنَبِيُّنَا ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ! اهْدِ قَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»(١).

هَذَا الْكَلِيمُ مُوسَىٰ ﷺ، يَسْتَغِيثُ عِنْدَ عِبَادَةِ قَوْمِهِ الْعِجْلَ عَلَىٰ الْقَدَرِ(٢) قَائِلًا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾[الأعراف: ١٥٥]، وَيُوَجَّهُ إِلَيْهِ مَلَكُ الْمَوْتِ فَيَقْلَعُ عَيْنَهُ(٣).

وَعِيسَىٰ ﷺ يَقُولُ: إِنْ صَرَفْتَ الْمَوْتَ عَنْ أَحَدٍ، فَاصْرِفْهُ عَنِّي(٤).

وَنَبِيُّنَا ﷺ يُخَيَّرُ بَيْنَ الْبَقَاءِ وَالْمَوْتِ، فَيَخْتَارُ الرَّحِيلَ إِلَىٰ الرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ(٥).

---

(١) رواه البخاري، كِتَابُ «اسْتِتَابَةِ الْمُرْتَدِّينَ» بَابُ «٥»(٦٩٢٩). وَكِتَابُ «أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ» بَابُ «حَدِيثِ الْغَارِ»(٣٤٧٧). ومسلم، كِتَابُ «الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ» بَابُ «غَزْوَةِ أُحُدٍ»(١٧٩٢). عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، فَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ».

* قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «لَمْ أَقِفْ عَلَىٰ اسْمِ هَذَا النَّبِيِّ صَرِيحًا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد ذكر بن إِسْحَاق فِي «الْمُبْتَدَأ» وَأخرجه بن أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِ الشُّعَرَاءِ» مِنْ طَرِيقِ بن إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ لا أَتَّهِمُ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيِّ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ كَانُوا يَبْطِشُونَ بِهِ فَيَخْنُقُونَهُ حَتَّىٰ يُغْشَىٰ عَلَيْهِ فَإِذَا أَفَاقَ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ» قُلْتُ: وَإِنْ صَحَّ ذَلِكَ، فَكَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الأَمْرِ، ثُمَّ لَمَّا يَئِسَ مِنْهُمْ قَالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ وَقَدْ ذَكَرَ مُسْلِمٌ بَعْدَ تَخْرِيجِ هَذَا الْحَدِيثِ حَدِيثَ أَنَّهُ ﷺ قَالَ فِي قِصَّةِ أُحُدٍ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ دَمَّوْا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ» فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وَمِنْ ثَمَّ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُوَ الْحَاكِي وَالْمَحْكِيُّ. وَأَمَّا النَّوَوِيُّ فَقَالَ: هَذَا النَّبِيُّ الَّذِي جَرَىٰ لَهُ مَا حَكَاهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ ﷺ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَقَدْ جَرَىٰ لِنَبِيِّنَا نَحْوُ ذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ»اهـ. [«فتح الباري» (ج٦/ ص٥٨٥، ٥٨٦/ ح٣٤٧٧)].

(٢) وهذا من باب الاحتجاج بالقدر على المصيبة؛ مثل: قدَّر الله وما شاء فعل. وليس احتجاجًا على المعصية بالقدر.

(٣) رواه البخاري، كِـ: «أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ»(٣٤٠٧). ومسلم، كِـ: «الْفَضَائِلِ»(٢٣٧٢). «أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَىٰ مُوسَىٰ، فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ، فَرَجَعَ إِلَىٰ رَبِّهِ، فَقَالَ: أَرْسَلْتَنِي إِلَىٰ عَبْدٍ لا يُرِيدُ الْمَوْتَ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ يَضَعُ يَدَهُ عَلَىٰ مَتْنِ ثَوْرٍ، فَلَهُ بِمَا غَطَّتْ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ، قَالَ: أَيْ رَبِّ، ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ، قَالَ: فَالآنَ».

(٤) وهذا ليس قدحًا في عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بل إنَّ الله تعالىٰ قال في الحديث القدسي: «وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ». رواه البخاري، كِتَابُ «الرِّقَاقِ» بَابُ «التَّوَاضُعِ» حديث (٦٥٠٢). وكان عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «يا معشر الحواريين ادعوا الله أن يخفف عني سكرة الموت فلقد خفت الموت خوفًا وقفني مخافة الموت علىٰ الموت» وكان أيضًا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إذا ذكر الموت يقطر جلده دما» رواهما ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (ج٤٧/ ص٤٦٩)؛ وهذا إن دَلَّ فإنَّما يدل علىٰ خوفه الشديد من ربه لا لحبه للحياة. وإن كنت لم أقف علىٰ الأثر الذي ذكره ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ فيما بين يدي من المصادر.

(٥) رواه البخاري، كِتَابُ «مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ» بَابُ «هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ» حديث (٣٩٠٤). ورواه مسلم، كِتَابُ «الْفَضَائِلِ» بَابُ «مِنْ فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»(٢٣٨٢). عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَلَسَ عَلَىٰ
=

هَذَا سُلَيْمَانُ ﷺ يَقُوْلُ: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾[ص: ٣٥].

وَنَبِيُّنَا ﷺ يَقُوْلُ: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوْتًا»[١].

هَذَا وَاللهِ فِعْلُ رَجُلٍ عَرَفَ الوُجُوْدَ وَالْمَوْجِدَ، فَمَاتَتْ أَغْرَاضُهُ، وَسَكَنَتْ اِعْتِرَاضَاتُهُ، فَصَارَ هَوَاهُ فِيْمَا يَجْرِي.

* [٦٤-٢٣٩] [خَاطِرَةٌ]:

[الرِّضَى بِتَدْبِيرِ اللهِ تَعَالَى فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ]

يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ بِالله سُبْحَانَهُ إِذَا نَظَرَ فِي الفَصْلِ الَّذِي قَدْ تَقَدَّمَ هَذَا[٢] أَلَّا يَعْتَرِضَ عَلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي شَيْءٍ؛ لَا فِي بَاطِنِهِ، وَلَا فِي ظَاهِرِهِ، وَلَا يَطْلُبَ تَعْلِيْلَاتِ أَفْعَالِهِ كُلِّهَا؛ فَإِنَّ الْمُتَكَلِّمِيْنَ أَعْرَضُوْا عَنِ الْسُّنَنِ، وَتَكَلَّمُوْا بِآرَائِهِمْ؛ فَمَا صَفَا لَهُمْ شِرْبٌ[٣]، بِدَلِيْلِ اِخْتِلَافِهِم. وَكَذَلِكَ إِضْمَارُ القِيَاسِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا أَعْلَمُوْهُ؛ جَاءَتْ أَحَادِيْثُ تُعَكِّرُ عَلَيْهِم.

وَالصَّوَابُ التَّعْلِيْلُ لِمَا يُمْكِنُ، وَالتَّسْلِيْمُ لِمَا يَخْفَىٰ.

= المِنْبَرِ فَقَالَ: «إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ». وروى البخاري، كِ: «الْمَغَازِي» بَ: «مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَفَاتِهِ» (٤٤٣٧). ومسلم، كِ: «فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ» بَ: «فَضْلِ عَائِشَةَ» (٢٤٤٤). عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ وَهُوَ صَحِيحٌ يَقُولُ: «إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّىٰ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ثُمَّ يُحَيَّا أَوْ يُخَيَّرَ»، فَلَمَّا اشْتَكَىٰ وَحَضَرَهُ القَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَىٰ فَخِذِ عَائِشَةَ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ البَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ» فَقُلْتُ: إِذًا لَا يُجَاوِرُنَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ».

(١) رواه البخاري، كِتَابُ «الرِّقَاقِ» بَابُ «كَيْفَ كَانَ عَيْشُ النَّبِيِّ ﷺ» (٦٤٦٠). ومسلم، كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ «فِي الْكَفَافِ وَالْقَنَاعَةِ» (١٠٥٥).

(٢) الخاطرة رقم: [٣٦-٢٣٨].

(٣) سبق في الخاطرة رقم: [٤٦-١٢٣].

وَكَذَلِكَ سُؤَالُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ، فَإِذَا دَعَاهُ الْمُؤْمِنُ، وَلَمْ يَرَ إِجَابَةً: سَلَّمَ، وَفَوَّضَ، وَتَأَوَّلَ لِلْمَنْعِ.

فَيَقُولُ: رُبَّمَا يَكُوْنُ الْمَنْعُ أَصْلَحَ، وَرُبَّمَا يَكُوْنُ لِأَجْلِ ذُنُوْبِي، وَرُبَّمَا يَكُوْنُ التَّأْخِيْرُ أَوْلَىٰ، وَرُبَّمَا لَمْ يَكُنْ هَذَا مَصْلَحَةً.

وَإِذَا لَمْ يَجِدْ تَأْوِيْلًا، لَمْ يَخْتَلِجْ فِي بَاطِنِهِ نَوْعُ اعْتِرَاضٍ، بَلْ يَرَىٰ أَنَّهُ قَدْ تَعَبَّدَ بِالدُّعَاءِ؛ فَإِنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ. فَبِفَضْلٍ، وَإِنْ لَمْ يُجِبْ؛ فَمَالِكٌ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

عَلَىٰ أَنَّ أَكْثَرَ السُّؤَالِ إِنَّمَا يَقَعُ فِي طَلَبِ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا الَّتِي إِذَا رُدَّتْ؛ كَانَ أَصْلَحَ!

فَلْيَكُنْ هَمُّ العَاقِلِ فِي إِقَامَةِ حَقِّ الْحَقِّ، وَالرِّضَا بِتَدْبِيْرِهِ، وَإِنْ أَسَاءَ[١]!!.

فَمَتَىٰ أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ؛ أَقْبَلَ عَلَىٰ إِصْلَاحِ شَأْنِكَ. وَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّهُ كَرِيْمٌ؛ فَلُذْ بِهِ، وَلَا تَسْأَلْ[٢]!

وَمَتَىٰ أَقْبَلْتَ عَلَىٰ طَاعَتِهِ؛ فَمُحَالٌ أَنْ يَجُوْدَ صَانِعٌ، وَيَنْصَحَ فِي العَمَلِ، ثُمَّ لَا يُعْطَىٰ الأُجْرَةَ.

* [٦٥-٥٤] [خَاطِرَةٌ]:

[الصَّبْرُ عَلَى القَضَاءِ وَمَا يُعِيْنُ عَلَيْهِ]

لَيْسَ فِي التَّكْلِيْفِ أَصْعَبُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَىٰ القَضَاءِ، وَلَا فِيْهِ أَفْضَلُ مِنَ الرِّضَا بِهِ.

فَأَمَّا الصَّبْرُ؛ فَهُوَ فَرْضٌ، وَأَمَّا الرِّضَا؛ فَهُوَ فَضْلٌ.

وَإِنَّمَا صَعُبَ الصَّبْرُ؛ لِأَنَّ الْقَدَرَ يَجْرِي فِي الأَغْلَبِ بِمَكْرُوْهِ النَّفْسِ، وَلَيْسَ مَكْرُوْهُ النَّفْسِ يَقِفُ

(١) أي: وإن أساءك وأحزنك بما قُدِّر عليك من المصائب؛ فالواجب أن يصبر، وينبغي أن يرضى.

(٢) والمعنى: وَلَا تَسْأَل سُؤَال مُتَشَكِّكٍ، بَل تَيَقَّن أَنَّهُ سَيُعطِيكَ مَا سَأَلْتَ وَلَو بَعدَ حِين؛ بِدَلِيل الجُملَة الَّتِي بَعدَهَا.

عَلَىٰ الْمَرَضِ وَالأَذَىٰ فِي البَدَنِ؛ بَلْ هُوَ يَتَنَوَّعُ، حَتَّىٰ يَتَحَيَّرَ الْعَقْلُ فِي حِكْمَةِ جَرَيَانِ القَدَرِ.

فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّكَ إِذَا رَأَيْتَ مَغْمُوْرًا بِالدُّنْيَا؛ قَدْ سَالَتْ لَهُ أَوْدِيَتُهَا(١)، حَتَّىٰ لَا يَدْرِيْ مَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ؛ فَهُوَ يَصُوْغُهُ أَوَانِيَ يَسْتَعْمِلُهَا، وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ الْبِلَّوْرَ وَالْعَقِيْقَ وَالشَّبَهَ(٢) قَدْ يَكُوْنُ أَحْسَنَ مِنْهَا صُوْرَةً؛ غَيْرَ أَنَّ قِلَّةَ مُبَالَاتِهِ بِالشَّرِيْعَةِ جَعَلَتْ عِنْدَهُ وُجُوْدَ النَّهْيِ كَعَدَمِهِ! وَيَلْبَسُ الْحَرِيْرَ، وَيَظْلِمُ النَّاسَ، وَالدُّنْيَا مُنْصَبَّةٌ عَلَيْهِ.

ثُمَّ تَرَىٰ خَلْقًا مِنْ أَهْلِ الدِّيْنِ وَطُلَّابِ الْعِلْمِ؛ مَغْمُوْرِيْنَ بِالفَقْرِ وَالبَلَاءِ، مَقْهُوْرِيْنَ تَحْتَ وِلَايَةِ ذَلِكَ الظَّالِمِ: فَحِيْنَئِذٍ يَجِدُ الشَّيْطَانُ طَرِيْقًا لِلْوَسْوَاسِ، وَيَبْتَدِئُ بِالقَدْحِ فِي حِكْمَةِ القَدَرِ؛ فَيَحْتَاجُ الْمُؤْمِنُ إِلَىٰ الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا يَلْقَىٰ مِنَ ضُرٍّ فِي الدُّنْيَا، وعَلَىٰ جِدَالِ إِبْلِيْسَ فِي ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ فِي تَسْلِيْطِ الْكُفَّارِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِيْنَ وَالفُسَّاقِ عَلَىٰ أَهْلِ الدِّيْنِ.

وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا إِيْلَامُ الْحَيَوَانِ، وَتَعْذِيْبُ الأَطْفَالِ؛ فَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاطِنِ يَتَمَحَّصُ الإِيْمَانُ.

وَمِمَّا يُقَوِّي الصَّبْرَ عَلَىٰ الْحَالَتَيْنِ: النَّقْلُ، وَالعَقْلُ: أَمَّا النَّقْلُ؛ فَالقُرآنُ وَالسُّنَّةُ.

أَمَّا القُرآنُ؛ فَمُنْقَسِمٌ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: بَيَانُ سَبَبِ إِعْطَاءِ الكَافِرِ وَالعَاصِي، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾[آل عمران:١٧٨]، ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾[الزخرف: ٣٣]، ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾[الإسراء: ١٦]... وَفِي القُرآنِ مِنْ هَذَا كَثِيْرٌ.

وَالقِسْمُ الثَّانِي: اِبْتِلَاءُ الْمُؤْمِنِ بِمَا يَلْقَىٰ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ

---

(١) أَوْدِيَةٌ: وَادٍ: وهو الموضع الذي فيه الماء بكثرة. وهنا كناية عن كثرة أبواب الرزق التي فُتحت لهذا المغمور.

(٢) البَلُّوْر: حَجَرٌ أَبيَضُ شَفَّاف. وَالعَقِيْقُ: حجرٌ كريمٌ أحمر تُعمل منه الفصوصُ، يُوجد باليمن وسواحل البحر المتوسط. والشَّبّ: مِلْح معدنيّ، حامض الطَّعم لونه أبيض أو أزرق أو بنفسجيّ، ويُستعمل في حفظ الجلود.

﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾[آل عمران: ١٤٢]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ﴾[البقرة: ٢١٤]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾[التوبة: ١٦]... **وَفِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذَا كَثِيرٌ.**

وَأَمَّا السُّنَّةُ؛ فَمُنْقَسِمَةٌ إِلَىٰ قَوْلٍ وَحَالٍ:

أَمَّا الْحَالُ؛ فَإِنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَقَلَّبُ عَلَىٰ رِمَالِ حَصِيرٍ تُؤَثِّرُ فِي جَنْبِهِ[(١)]، فَبَكَىٰ عُمَرُ رضي الله عنه، وَقَالَ: كِسْرَىٰ وَقَيْصَرُ فِي الْحَرِيرِ وَالدِّيبَاجِ! فَقَالَ ﷺ: **«أَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا عُمَرُ؟! أَلَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟!»**[(٢)].

وَأَمَّا القَوْلُ؛ فَكَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تُسَاوِي عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ؛ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»**[(٣)].

وَأَمَّا العَقْلُ؛ فَإِنَّهُ يُقَوِّي عَسَاكِرَ الصَّبْرِ بِجُنُودٍ:

مِنْهَا: أَنْ يَقُولَ: قَدْ ثَبَتَ عِنْدِي الأَدِلَّةُ القَاطِعَةُ عَلَىٰ حِكْمَةِ الْمُقَدِّرِ؛ فَلَا أَتْرُكُ الأَصْلَ الثَّابِتَ لِمَا يَظُنُّهُ الجَاهِلُ خَلَلًا.

وَمِنْهَا: أَنْ يَقُولَ: مَا قَدِ اسْتَهْوَلْتَهُ أَيُّهَا النَّاظِرُ مِنْ بَسْطِ يَدِ العَاصِي هِيَ قَبْضٌ فِي الْمَعْنَىٰ، وَمَا قَدْ أَثَّرَ عِنْدَكَ مِنْ قَبْضِ يَدِ الطَّائِعِ بَسْطٌ فِي الْمَعْنَىٰ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الْبَسْطَ يُوجِبُ عِقَابًا طَوِيلًا،

---

(١) **رِمَالِ الحَصِيرِ**: الضلوع المتداخلة بمنزلة الخيوط. وكان الحصير يصنع من سعف النخيل أو الخوص.

(٢) رواه البخاري، كِتَابُ «الْمَظَالِمِ وَالغَصْبِ» بَابُ «الغُرْفَةِ وَالعُلِّيَّةِ الْمُشْرِفَةِ وَغَيْرِ الْمُشْرِفَةِ فِي السُّطُوحِ وَغَيْرِهَا» حديث (٢٤٦٨). عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وفيه: **فَقَالَ عُمَر** رضي الله عنه: «فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَىٰ رِمَالِ حَصِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ، قَدْ أَثَّرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ مُتَّكِئٌ عَلَىٰ وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ.... ثُمَّ رَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئًا يَرُدُّ البَصَرَ غَيْرَ أَهَبَةٍ ثَلَاثَةٍ، فَقُلْتُ: ادْعُ اللهَ فَلْيُوَسِّعْ عَلَىٰ أُمَّتِكَ، فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ، وَأُعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللهَ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ ﷺ: **«أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا»**.

(٣) رواه الترمذي في «جامعه» كِتَابُ «الزهد» بَابُ «ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل» حديث (٢٣٢٠). **«لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»** عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه.

وَهَذَا القَبْضُ يُؤَثِّرُ انْبِسَاطًا فِي الأَجْرِ جَزِيْلًا[١]؛ فَزَمَانُ الرَّجُلَيْنِ يَنْقَضِي عَنْ قَرِيْبٍ، وَالْمَرَاحِلُ تُطْوَىٰ، وَالرُّكْبَانُ فِي [السَّيْرِ[٢]] الْحَثِيْثِ.

وَمِنْهَا: أَنْ يَقُوْلَ: قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِاللهِ كَالأَجِيْرِ، وَأَنَّ زَمَنَ التَّكْلِيْفِ كَبَيَاضِ نَهَارٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُسْتَعْمَلِ فِي الطِّيْنِ أَنْ يَلْبَسَ نَظِيْفَ الثِّيَابِ؛ بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُصَابِرَ سَاعَاتِ الْعَمَلِ؛ فَإِذَا فَرَغَ؛ تَنَظَّفَ، وَلَبِسَ أَجْوَدَ ثِيَابِهِ؛ فَمَنْ تَرَفَّهَ وَقْتَ العَمَلِ؛ نَدِمَ وَقْتَ تَفْرِيْقِ الأُجْرَةِ، وَعُوْقِبَ عَلَىٰ التَّوَانِي فِيْمَا كُلِّفَ[٣].

فَهَذِهِ النُّبْذَةُ تُقَوِّي أَزْرَ الصَّبْرِ[٤]، وَأَزِيْدُهَا بَسْطًا فَأَقُوْلُ: أَتَرَىٰ إِذَا أُرِيْدَ اتِّخَاذُ شُهَدَاءَ؛ فَكَيْفَ لَا يُخْلَقُ أَقْوَامٌ يَبْسُطُوْنَ أَيْدِيَهُمْ لِقَتْلِ الْمُؤْمِنِيْنَ؟!.

أَفَيَجُوْزُ أَنْ يَقْتُلَ بِعُمَرَ[٥] ﷺ إِلَّا مِثْلُ أَبِي لُؤْلُؤَةَ[٦]؟! وَبِعَلِيٍّ ﷺ إِلَّا مِثْلُ ابْنِ مُلْجِمٍ[٧]؟! أَفَيَصِحُّ أَنْ يَقْتُلَ يَحيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا ﷺ إِلَّا جَبَّارٌ كَافِرٌ؟![٨].

وَلَوْ أَنَّ عَيْنَ الفَهْمِ زَالَ عَنْهَا غِشَاءُ العَشَا[٩]؛ لَرَأَتِ الْمُسَبِّبَ لَا الأَسْبَابَ، وَالْمُقَدِّرَ لَا الأَقْدَارَ، فَصَبَرَتْ عَلَىٰ بَلَائِهِ؛ إِيْثَارا لِمَا يُرِيْدُ.

---

(١) المقصود بقوله: ذلك البسط؛ أي: هذا العطاء. تقول: بسَط يدَه في الإنفاق: أعطىٰ بسَخاء. والمقصود بقوله: وهذا القبض؛ أي: وهذا المنع أو التضييق. تقول: قَبَضَ اللهُ عليه الرِّزقَ: ضيَّقه، عكسه بسَطه ووسَّعه.

(٢) ليست في الأصل، ولا المخطوط، وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

(٣) تَوَانَىٰ: قصَّر فيه ولم يهتمّ به ولم يبادر إلىٰ ضبطه.

(٤) أي: قوّاه ودعّمه.

(٥) عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بْنُ نُفَيْلِ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّىٰ ﷺ. أَمِيرُ الْمُؤْمِنِيْنَ الْقُرَشِيُّ العَدَوِيُّ، أَبُو حَفْصٍ، اسْتُشْهِدَ سَنَةَ ٢٣هـ.

(٦) فيروز الفارسي المجوسي.

(٧) عبد الرحمن بن ملجم المُرادي الحميري الخارجي الخبيث.

(٨) أحد ملوك بني إسرائيل، وقد سبق في الخاطرة رقم: [٣٠-٢٧٩].

(٩) العَشَا: ضَعفُ البصر. ويقال: سَاءَ بَصرُه بالليل وبالنَّهار، ـ أو أبصر بالنَّهار ولم يبصر بالليل، أو عمِي.

وَمِنْ هَا هُنَا يَنْشَأُ الرِّضَا، كَمَا قِيْلَ لِبَعْضِ أَهْلِ البَلَاءِ: ادْعُ اللهَ بِالعَافِيَةِ! فَقَالَ: أَحَبُّهُ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَىٰ اللهِ ﷻ!!

إِنْ كَـــانَ رِضَـــاكُمُ فِـــي سَـــهَرِي	فَسَـــلَامُ اللهِ عَلَـــىٰ وَسَـــنِي[1]

* [٦٦-٥٥] [خَاطِرَةٌ]:

[الرِّضَا بِالقَضَاءِ مِنْ ثَمَرَاتِ الْمَعْرِفَةِ]

لَمَّا أَنْهَيْتُ كِتَابَةَ الفَصْلِ الْمُتَقَدِّمِ، هَتَفَ بِي هَاتِفٌ مِنْ بَاطِنِي: دَعْنِي مِنْ شَرْحِ الصَّبْرِ عَلَىٰ الأَقْدَارِ، فَإِنِّي قَدْ اِكْتَفَيْتُ بِأُنْمُوْذَجِ مَا شَرَحْتَ! وَصِفْ حَالَ الرِّضَا، فَإِنِّي أَجِدُ نَسِيْمًا مِنْ ذِكْرِهِ فِيْهِ رَوْحٌ لِلرُّوْحِ[2]!

فَقُلْتُ: أَيُّهَا الْهَاتِفُ! اِسْمَعِ الْجَوَابَ! وَافْهَمِ الْصَّوَابَ! إِنَّ الرِّضَا مِنْ جُمْلَةِ ثَمَرَاتِ الْمَعْرِفَةِ، فَإِذَا عَرَفْتَهُ، رَضِيْتَ بِقَضَائِهِ. وَقَدْ يَجْرِيْ فِي ضِمْنِ القَضَاءِ مَرَارَاتٌ، يَجِدُ بَعْضَ طَعْمِهَا الرَّاضِي.

أَمَّا العَارِفُ، فَتَقِلُّ عِنْدَهُ الْمَرَارَةُ، لِقُوَّةِ حَلَاوَةِ الْمَعْرِفَةِ، فَإِذَا تَرَقَّىٰ بِالْمَعْرِفَةِ إِلَىٰ الْمَحَبَّةِ، صَارَتْ مَرَارَةُ الأَقْدَارِ حَلَاوَةً.

كَمَا قَالَ القَائِلُ:[3]

عَذَابُـــهُ فِيْـــكَ عَـــذْبُ	وَبُعْـــدُهُ فِيْـــكَ قُـــرْبُ
وَأَنْـــتَ عِنْـــدِي كَرُوْحِـــيْ	بَـــلْ أَنْـــتَ مِنْهَـــا أَحَـــبُّ
حَسْـــبِيَ مِـــنَ الْحُـــبِّ أَنِّـــي	لِمَـــا تُحِـــبُّ أُحِـــبُّ

---

(١) البيت من البحر: [الخفيف]. ومعنىٰ وَسَنَي: النوم الخفيف. تقول: وَسِنَ فُلان، أي: أَخَذَته سِنَةُ النُّعاس.

(٢) أي: فيه راحة وطمأنينة للنفس، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

(٣) الأبيات من البحر: [المجتث] وقائلها: الحلاج.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُحِبِّيْنَ فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ:[١]

وَيَقْــبُحُ مِــنْ سِــوَاكَ الفِعْــلُ عِنْــدِي ... فَتَفْعَلُــهُ فَيَحْسُــنُ مِنْــكَ ذَاكَــا

فَصَاحَ بِيَ الْهَاتِفُ: حَدِّثْنِي؛ بِمَاذَا أَرْضَىٰ؟! قَدِّرْ أَنِّي أَرْضَىٰ فِي أَقْدَارِهِ بِالْمَرَضِ وَالْفَقْرِ؛ أَفَأَرْضَىٰ بِالْكَسَلِ عَنْ خِدْمَتِهِ، وَالْبُعْدِ عَنْ أَهْلِ مَحَبَّتِهِ؟! فَبَيِّنْ لِي مَا الَّذِي يَدْخُلُ تَحْتَ الرِّضَا مِمَّا لَا يَدْخُلُ!

فَقُلْتُ لَهُ: نِعْمَ مَا سَأَلْتَ؛ فَاسْمَعِ الْفَرْقَ سَمَاعَ مَنْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيْدٌ: اِرْضَ بِمَا كَانَ مِنْهُ، فَأَمَّا الْكَسَلُ وَالتَّخَلُّفُ، فَذَاكَ مَنْسُوْبٌ إِلَيْكَ؛ فَلَا تَرْضَ بِهِ مِنْ فِعْلِكَ. وَكُنْ مُسْتَوْفِيًا حَقَّهُ عَلَيْكَ، مُنَاقِشًا نَفْسَكَ فِيْمَا يُقَرِّبُكَ مِنْهُ، غَيْرَ رَاضٍ مِنْهَا بِالتَّوَانِي فِي الْمُجَاهَدَةِ. فَأَمَّا مَا يَصْدُرُ مِنْ أَقْضِيَتِهِ الْمُجَرَّدَةِ، الَّتِي لَا كَسْبَ لَكَ فِيْهَا؛ فَكُنْ رَاضِيًا بِهَا. كَمَا قَالَتْ رَابِعَةُ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا[٢]؛ وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَهَا رَجُلٌ مِنَ الْعُبَّادِ يَلْتَقِطُ مِنْ مَزْبَلَةٍ فَيَأْكُلُ، فَقِيْلَ: هَلَا سَأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَ رِزْقَهُ مِنْ غَيْرِ هَذَا؟! فَقَالَتْ: إِنَّ الرَّاضِي لَا يَتَخَيَّرُ، وَمَنْ ذَاقَ طَعْمَ الْمَعْرِفَةِ؛ وَجَدَ فِيْهِ طَعْمَ الْمَحَبَّةِ، فَوَقَعَ الرِّضَا عِنْدَهُ ضَرُوْرَةً.

فَيَنْبَغِي الاجْتِهَادُ فِي طَلَبِ الْمَعْرِفَةِ بِالأَدِلَّةِ، ثُمَّ الْعَمَلُ بِمُقْتَضَىٰ الْمَعْرِفَةِ بِالْجِدِّ فِي الْخِدْمَةِ، لَعَلَّ ذَلِكَ يُوْرِثُ الْمَحَبَّةَ؛ فَقَدْ قَالَ ﷺ: «لا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ....»[٣]. فَذَلِكَ الغِنَىٰ الأَكْبَرُ... وَوَا فَقْرَاهُ!.

---

(١) البيت من البحر: [الوافر]. وقائله: أبو بكر الشبلي.

(٢) رَابِعَةُ العَدَوِيَّةُ أُمُّ عَمْرٍو بِنْتُ إِسْمَاعِيْلَ، حَكَىٰ عَنْهَا: سُفْيَانُ وَشُعْبَةُ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ بُطْلَانِ مَا قِيْلَ عَنْهَا. مَاتَت:١٨٠هـ

(٣) رواه البخاري، كِتَابُ «الرِّقَاقِ» بَابُ «التَّوَاضُعِ» حديث (٦٥٠٢).

* [٦٧-١١٦] [خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ عَرَفَ جَرَيَانَ الأَقْدَارِ؛ ثَبَتَ لَهَا]

مَنْ عَرَفَ جَرَيَانَ الأَقْدَارِ؛ ثَبَتَ لَهَا[١]، وَأَجْهَلُ النَّاسِ بَعْدَ هَذَا مَنْ قَاوَاهَا[٢]؛ لِأَنَّ مُرَادَ الْمُقَدِّرِ الذُّلُّ لَهُ، فَإِذَا قَاوَيْتَ القَدَرَ، فَنِلْتَ مُرَادَكَ مِنْ ذَلِكَ؛ لم يَبْقَ لَكَ ذُلٌّ.

مِثَالُ هَذَا: أَنْ يَجُوعَ الفَقِيرُ، فَيَصْبِرَ قَدْرَ الطَّاقَةِ؛ فَإِذَا عَجَزَ؛ خَرَجَ إِلَىٰ سُؤَالِ الْخَلْقِ؛ مُسْتَحِيًا مِنَ اللهِ كَيْفَ يَسْأَلُهُمْ؛ وَإِنْ كَانَ لَهُ عُذْرٌ بِالْحَاجَةِ الَّتِي أَلْجَأَتْهُ؛ غَيْرَ أَنَّهُ يَرَىٰ أَنَّهُ مَغْلُوبُ الصَّبْرِ، فَيَبْقَىٰ مُعْتَذِرًا مُسْتَحِيًا، وَذَاكَ الْمُرَادُ مِنْهُ.

أَوَلَيْسَ بِخُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ فَلَا يَقْدِرُ عَلَىٰ العَوْدِ إِلَيْهَا، حَتَّىٰ يَدْخُلَ فِي خِفَارَةِ[٣] الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ وَهُوَ كَافِرٌ[٤] [عِبْرَةٌ فِي ذَلِكَ][٥]؟!

فَسُبْحَانَ مَنْ نَاطَ الأُمُورَ بِالأَسْبَابِ[٦]؛ لِيَحْصُلَ ذُلُّ العَارِفِ بِالْحَاجَةِ إِلَىٰ التَّسَبُّبِ.

* [٦٨-٣٧٢] [خَاطِرَةٌ]:

[يَجْرِيَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَجْرِيَ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ]

قَدْ تَكَرَّرَ مَعْنَاهُ فِي هَذَا الكِتَابِ؛ إِلَّا أَنَّ إِعَادَتَهُ عَلَىٰ النُّفُوسِ مُهِمَّةٌ؛ لِئَلَّا يُغْفَلَ عَنْ مِثْلِهِ:

يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مَالِكٌ حَكِيمٌ لَا يَعْبَثُ، وَهَذَا العَلْمُ يُوجِبُ نَفْيَ

---

(١) أي: ثبت علىٰ مكروهاتها.

(٢) أي: قاومها، أو تقاوىٰ أمامها. والمعنىٰ الظاهر: «الجاهل مَن سَخِطَ وَغَضِبَ مِنَ الأَقْدَارِ». وَالْمُقاومة: السعي في كشف الكُربة والخروج منها؛ فهذا أمر مطلوب شرعًا؛ فنحن نفر من قدر الله إلىٰ قدر الله. والله أعلم.

(٣) الخفارة: [بكسر الخاء أو ضمها]؛ الذمَّة والعهد والأمان.

(٤) سبق في الخاطرة رقم: [٤٣-٥١].

(٥) ليست في الأصل، ولا المخطوط. وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها.

(٦) نَاطَ: يَنُوط، نُطْ، نَوْطًا، فهو نَائِط، والمفعول مَنُوط. والمعنىٰ: علَّق.

الاعْتِرَاضِ عَلَىٰ القَدَرِ. وَقَد لَهَجَ خَلْقٌ بِالاعْتِرَاضِ قَدْحًا فِي الحِكْمَةِ، وَذَلِكَ كُفْرٌ. وَأَوَّلُهُمْ إِبْلِيسُ فِي قَوْلِهِ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[ص:٧٦] وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ: إِنَّ تَفْضِيلَكَ الطِّينَ عَلَىٰ النَّارِ لَيْسَ بِحِكْمَةٍ!!

وَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ كَانَ فَقِيهًا دَأْبُهُ الاعْتِرَاضُ؛ وَهَذَا لِأَنَّ المُعْتَرِضَ يَنْظُرُ إِلَىٰ صُورَةِ الفِعْلِ، وَلَوْ أَنَّ صُورَةَ الفِعْلِ صَدَرَتْ مِنْ مَخْلُوقٍ مِثْلِنَا؛ حَسُنَ أَنْ يُعْتَرَضَ عَلَيْهِ؛ فَأَمَّا مَنْ نَقَصَتِ الأَفْهَامُ عَنْ مُطَالَعَةِ حِكْمَتِهِ؛ فَاعْتِرَاضُ النَّاقِصِ الجَاهِلِ عَلَيْهِ جُنُونٌ.

فَأَمَّا اِعْتِرَاضُ الخُلَعَاءِ فَدَائِمٌ: لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ جَرَيَانَ الأُمُورِ عَلَىٰ أَغْرَاضِهِمْ؛ فَمَتَىٰ اِنْكَسَرَ لِأَحَدِهِمْ غَرَضٌ؛ اِعْتَرَضَ. وَفِيهِمْ مَنْ يَتَعَدَّىٰ إِلَىٰ ذِكْرِ المَوْتِ، فَيَقُولُ: بَنَىٰ وَنَقَضَ!!

وَكَانَ لَنَا رَفِيقٌ؛ قَرَأَ القُرْآنَ وَالقِرَاءَاتِ، وَسَمِعَ الحَدِيثَ الكَثِيرَ، ثُمَّ وَقَعَ فِي الذُّنُوبِ، وَعَاشَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ المَوْتُ؛ ذُكِرَ لِي أَنَّهُ قَالَ: قَدْ ضَاقَتِ الدُّنْيَا إِلَّا مِنْ رُوحِي!!

وَمِنْ هَذَا الجِنْسِ سَمِعْتُ شَخْصًا يَقُولُ عِنْدَ المَوْتِ: رَبِّي يَظْلِمُنِي!! وَهَذَا كَثِيرٌ!

وَيُكْرَهُ أَنْ يُحْكَىٰ كَلَامُ الخُلَعَاءِ فِي جُنُونِهِم وَاعْتِرَاضَاتِهِم البَارِدَةِ.

وَلَوْ فَهِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا مَيْدَانُ مُسَابَقَةٍ، وَمَارِسْتَانُ صَبْرٍ[(١)]، لِيَبِينَ بِذَلِكَ أَثَرُ الخَالِقِ؛ لَمَا اِعْتَرَضُوا، وَالَّذِي طَلَبُوهُ مِنَ السَّلَامَةِ وَبُلُوغِ الأَغْرَاضِ أَمَامَهُم لَوْ فَهِمُوا[(٢)]؛ فَهُمْ كَالرُّوزْجَارِي[(٣)]؛ يَتَلَوَّثُ بِالطِّينِ؛ فَإِذَا فَرَغَ؛ لَبِسَ ثِيَابَ النَّظَافَةِ.

وَلَمَّا أُرِيدَ نَقْضُ هَذَا البَدَنِ الَّذِي لَا يَصْلُحُ لِلْبَقَاءِ؛ نُحِّيَتْ عَنْهُ النَّفْسُ الشَّرِيفَةُ، وَبُنِيَ بِنَاءٌ يَقْبَلُ الدَّوَامَ[(٤)].

---

(١) مارَسْتان: مَصحّة أو مستشفىٰ أو دار المرضىٰ.

(٢) وَبُلُوغِ الأَغْرَاضِ أَمَامَهُم لَوْ فَهِمُوا؛ أي: سيبلغ أغراضه في يوم القيامة؛ فهو أمامهم ولا يشعرون.

(٣) الروزجار: هو الذي يعمل في الطين بالمجرفة ونحوها. فالروزجاريون هم عمَّال الطين. ويُقال ببغداد لمن يعمل بالنهار الروزجارية، واشتهر بهذه النسبة أبو علي الحسن الروزجاري الأحول.

(٤) أي: بُني بناء آخر يقبل الدوام في الآخرة في الجنة، يا أهل الجنة خُلود بلا موت.

وَبَعْدَ هَذَا، فَقُلْ لِلْمُعْتَرِضِ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾[الحج:١٥].

قُلْ لَهُ: إِنِ اعْتَرَضَ، لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ جَرَيَانَ الْقَدَرِ، وَإِنْ سَلَّمَ، جَرَىٰ الْقَدَرُ، فَلَأَنْ يَجْرِيَ وَهُوَ مَأْجُوْرٌ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَجْرِيَ وَهُوَ مَأْزُوْرٌ.

وَمَا أَحْسَنَ سُكُوْتَ وَضَّاحِ الْيَمَنِ[(١)] لَمَّا اِخْتَبَأَ فِي صُنْدُوْقٍ، فَقَالَ السُّلْطَانُ: أَيُّهَا الصُّنْدُوْقُ! إِنْ كَانَ فِيْكَ مَا نَظُنُّ، فَقَدْ مَحَوْنَا أَثَرَكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ، فَلَيْسَ بِدَفْنِ خَشَبٍ مِنْ جُنَاحٍ[(٢)]، فَلَوْ أَنَّهُ صَاحَ، مَا انْتَفَعَ بِشَيْءٍ، وَلَرُبَّمَا أُخْرِجَ فَقُتِلَ أَقْبَحَ قِتْلَةٍ.

* [٦٩-٣٥٩] [خَاطِرَةٌ][(٣)]:

[التَّسْلِيْمُ لِحِكْمَةِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ]

يَنْبَغِي لِمَنْ آمَنَ بِاللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يُسَلِّمَ لَهُ فِي أَفْعَالِهِ، وَيَعْلَمَ أَنَّهُ حَكِيْمٌ وَمَالِكٌ، وَأَنَّهُ لَا يَعِيْبُ[(٤)].

---

(١) عبد الرَّحْمَن بن إِسْمَاعِيل بن عبد كلال الْحِمْيَرِي، الْمَعْرُوف بوضاح الْيمن. شاعر. مات سنة: (٩٠هـ).

(٢) ذكر هذه القصة مجموعة من أهل العلم في التواريخ والتراجم ومن هؤلاء: الخرائطي في «اعتلال القلوب»(ج٢/ ص٢٨٨). والصفدي في «الوافي»(ج١٨/ ص٧١-٢٧). وقال رحمه الله: «قَالَ البلاذري: أم الْبَنِينَ صَاحِبَة وضاح الْيمن لَيست بنت عبد الْعَزِيز بن مَرْوَان وَإِنَّمَا هِيَ أم الْبَنِينَ بنت الْمحرم من حمير من أهل الْيمن وَكَانَت جميلَة عَشِقَهَا وضاح وعشقته فَتَزَوجهَا وَخرج بهَا إِلَىٰ مَكَّة وَطَلقهَا فحج الْوَلِيد وَهِي بِمَكَّة فَبَلغهُ حسنها وجمالها فَتَزَوجهَا وَخرج بهَا إِلَىٰ الشَّام وَخرج وضاح خلفهَا فَفعل بِهِ الْوَلِيد مَا فعل». ثم قال الصفدي: «أنا فِي حيرة من أَمر أم الْبَنِينَ وَمَا جرىٰ لَهَا مَعَ وضاح إِن قُلْنَا إِنَّهَا بنت عبد الْعَزِيز فنحاشيها من ذَلِك، لِأَنَّهَا كَانَت من العفائف العابدات. وَقد قيل: إِنَّهَا كَانَت تُوجد فِي ذَلِك الْمَكَان تبْكي إِلَىٰ أَن وجدت يَوْمًا مكبوبة علىٰ وَجههَا ميتَة وَهَذَا لَا يَصح أَيْضا، فَإِنَّهَا توفيت:(١١٧هـ). والوليد مات:(٦٩هـ). وَكَانَ أَبوهُ قد زوجه إِيَّاهَا فِي حَال حَيَاته. وَإِن قُلْنَا: أَن أم الْبَنِينَ هِيَ بنت الْمحرم الحميرية فَلَا يَصح احْتِمَال الْوَلِيد قصَّتهَا مَعَ وضاح الْيمن وَأَنه مَا واجهها بذلك، لِأَنَّهُ إِنَّمَا فعل ذَلِك مَعَ أم الْبَنِينَ بنت عبد الْعَزِيز بن مَرْوَان لشرفها ومكانها من قَومهَا»اهـ.

(٣) جاء في الأصل: [فَصْلٌ مُلَاحَظَتُهُ مِنْ أَهَمِّ الأَشْيَاءِ].

(٤) هكذا في الأصل، وفي المطبوع: [يَعْبَثُ]، وكلاهما له معنى.

فَإِنْ خَفِيَتْ عَلَيْهِ حِكْمَةُ فِعْلِهِ؛ نَسَبَ الجَهْلَ إِلَىٰ نَفْسِهِ، وَسَلَّمَ لِلْحَكِيْمِ الْمَالِكِ.

فَإِذَا طَالَبَهُ العَقْلُ بِحِكْمَةِ الفِعْلِ؛ قَالَ: مَا بَانَتْ لِي؛ فَيَجِبُ عَلَيَّ تَسْلِيْمُ الأَمْرِ لِمَالِكِهِ.

وَإِنَّ أَقْوَامًا نَظَرُوْا بِمُجَرَّدِ العَقْلِ إِلَىٰ كَثِيْرٍ مِنْ أَفْعَالِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ؛ فَرَأَوْهَا لَوْ صَدَرَتْ مِنْ مَخْلُوْقٍ؛ نُسِبَ فِيْهَا إِلَىٰ ضِدِّ الْحِكْمَةِ، فَنَسَبُوْا الخَالِقَ إِلَىٰ ذَلِكَ!! وَهَذَا الْكُفْرُ الْمَحْضُ، وَالجُنُوْنُ البَارِدُ!.

وَالْوَاجِبُ نِسْبَةُ الْجَهْلِ إِلَىٰ النُّفُوْسِ؛ فَإِنَّ العُقُوْلَ قَاصِرَةٌ عَنْ مُطَالَعَةِ حِكْمَتِهِ، وَأَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ إِبْلِيْسُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ رَآهُ قَدْ فَضَّلَ طِيْنًا عَلَىٰ نَارٍ، وَالعَقْلُ يَرَىٰ النَّارَ أَفْضَلَ[1]، فَعَابَ حِكْمَتَهُ.

وَعَمَّتْ هَذِهِ الْمِحْنَةُ خَلْقًا مِمَّنْ يُنْسَبُ إِلَىٰ العِلْمِ، وَكَثِيْرًا مِنَ الْعَوَامِ؛ فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا عَالِمًا يَعْتَرِضُ، وَعَامِّيًّا يَرُدُّ فَيَكْفُرُ!. وَهَذِهِ مِحْنَةٌ قَدْ شَمِلَتْ أَكْثَرَ الْخَلْقِ؛ يَرَوْنَ عَالِمًا يُضَيَّقُ عَلَيْهِ، وَفَاسِقًا وُسِّعَ عَلَيْهِ؛ فَيَقُوْلُوْنَ: هَذَا لَا يَلِيْقُ بِالْحِكْمَةِ!!.

وَقَدْ عَلِمَ العُلَمَاءُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ فَرَضَ الزَّكَوَاتِ وَالْخَرَاجَ وَالْجِزْيَةَ وَالغَنَائِمَ وَالكَفَّارَاتِ لِيَسْتَغْنِيَ بِهَا الفُقَرَاءُ، فَاخْتَصَّ بِذَلِكَ الظَّلَمَةُ، وَصَانَعَ مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ بِإِخْرَاجِ بَعْضِهَا؛ فَجَاعَ الفَقِيْرُ!

---

(١) قال الإمام القرطبي رحمه الله في «الجامع لأحكام القرآن» (ج٧/ ص١٧١/ سورة الأعراف: ١٢): «وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ: أَخْطَأَ عَدُوُّ اللهِ مِنْ حَيْثُ فَضَّلَ النَّارَ عَلَىٰ الطِّينِ، وَإِنْ كَانَا فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ حَيْثُ هِيَ جَمَادٌ مَخْلُوقٌ. فَإِنَّ الطِّينَ أَفْضَلُ مِنَ النَّارِ مِنْ وُجُوهٍ أَرْبَعَةٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ مِنْ جَوْهَرِ الطِّينِ الرَّزَانَةَ وَالسُّكُونَ، وَالْوَقَارَ وَالأَنَاةَ، وَالْحِلْمَ، وَالْحَيَاءَ، وَالصَّبْرَ. وَذَلِكَ هُوَ الدَّاعِي لِآدَمَ عليه السلام بَعْدَ السَّعَادَةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ إِلَىٰ التَّوْبَةِ وَالتَّوَاضُعِ وَالتَّضَرُّعِ، فَأَوْرَثَهُ الْمَغْفِرَةَ وَالِاجْتِبَاءَ وَالْهِدَايَةَ. وَمِنْ جَوْهَرِ النَّارِ الْخِفَّةُ، وَالطَّيْشُ، وَالْحِدَّةُ، وَالِارْتِفَاعُ، وَالِاضْطِرَابُ. وَذَلِكَ هُوَ الدَّاعِي لِإِبْلِيسَ بَعْدَ الشَّقَاوَةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ إِلَىٰ الِاسْتِكْبَارِ وَالْإِصْرَارِ، فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء، قَالَهُ الْقَفَّالُ. الثَّانِي: أَنَّ الْخَبَرَ نَاطِقٌ بِأَنَّ تُرَابَ الْجَنَّةِ مِسْكٌ أَذْفَرُ، وَلَمْ يَنْطِقِ الْخَبَرُ بِأَنَّ فِي الْجَنَّةِ نَارًا وَأَنَّ فِي النَّارِ تُرَابًا. الثَّالِثُ: أَنَّ النَّارَ سَبَبُ الْعَذَابِ، وَهِيَ عَذَابُ اللهِ لِأَعْدَائِهِ، وَلَيْسَ التُّرَابُ سَبَبًا لِلْعَذَابِ. الرَّابِعُ: أَنَّ الطِّينَ مُسْتَغْنٍ عَنِ النَّارِ، وَالنَّارُ مُحْتَاجَةٌ إِلَىٰ المكان ومكانها التراب. قُلْتُ: وَيُحْتَمَلُ قَوْلًا خَامِسًا: وَهُوَ أَنَّ التُّرَابَ مَسْجِدٌ وَطَهُورٌ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ. وَالنَّارُ تَخْوِيفٌ وَعَذَابٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ [الزمر: ١٦]»اهـ.

فَيَنْبَغِي أَنْ نَذُمَّ هَؤُلَاءِ الظَّلَمَةَ، وَلَا نَعْتَرِضَ عَلَىٰ مَنْ قَدَّرَ الكِفَايَةَ لِلْفُقَرَاءِ.

وَقَدْ حَصَلَ فِي ضِمْنِ هَذَا عُقُوبَةُ الظَّالِمِيْنَ فِي حَبْسِهِمُ الْحُقُوْقَ، وَابْتِلَاءُ الفُقَرَاءِ بِصَبْرِهِم عَنْ حُظُوْظِهِم.

وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَرِضِيْنَ لَا يَكَادُوْنَ يَسْلَمُوْنَ وَقْتَ خُرُوْجِ الرُّوْحِ مِنِ اعْتِرَاضٍ يُخْرِجُ إِلَىٰ الكُفْرِ، فَتَخْرُجُ النَّفْسُ كَافِرَةً.

فَكَمْ عَامِّيٌّ يَقُوْلُ: فُلَانٌ قَدِ ابْتُلِيَ، وَمَا يَسْتَحِقُّ! وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ قَدْ فُعِلَ بِهِ مَا لَا يَلِيْقُ بِالصَّوَابِ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْخُلَعَاءِ:

أَيَـا رَبِّ تَخْلُـقُ أَقْمَـارَ لَيْـلٍ ... وَأَغْصَـانَ بَـانٍ، وَكُثْبَـانَ رَمْـلِ
وَتَنْهَـىٰ عِبَـادَكَ أَنْ يَعْشَـقُوْا ... أَيَـا حَـاكِمَ العَـدْلِ ذَا حُكْـمُ عَـدْلِ[1]

وَمِثْلُ هَذَا يُنْشِدُهُ جَمَاعَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ وَيَسْتَحْسِنُوْنَهُ، وَهُوَ كُفْرٌ مَحْضٌ!!.

وَمَا فَهِمَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ القَائِلِيْنَ لِهَذَا[2]؛ لِأَنَّهُ مَا نَهَىٰ عَنِ الْعِشْقِ، وَإِنَّمَا نَهَىٰ عَنِ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَىٰ العِشْقِ مِنَ الأَشْيَاءِ الْمُحَرَّمَةِ؛ كَالنَّظَرِ، وَاللَّمْسِ، وَالفِعْلِ القَبِيْحِ.

وَفِي الامْتِنَاعِ عَنِ الْمُشْتَهَىٰ دَلِيْلٌ عَلَىٰ الإِيْمَانِ بِوُجُوْدِ النَّاهِي، كَصَبْرِ العَطْشَانِ فِي رَمَضَانَ عَنِ الْمَاءِ؛ فَإِنَّهُ دَلِيْلٌ عَلَىٰ الإِيْمَانِ بِوُجُوْدِ مَنْ أَمَرَ بِالصَّوْمِ، وَتَسْلِيْمُ النُّفُوْسِ إِلَىٰ القَتْلِ وَالْجِهَادِ دَلِيْلٌ عَلَىٰ اليَقِيْنِ بِالْجَزَاءِ. ثُمَّ الْمُسْتَحْسَنُ أُنْمُوْذَجُ مَا قَدْ أُعِدَّ؛ فَأَيْنَ العَقْلُ الْمُتَأَمِّلُ؟! كَلَّا؛ لَوْ تَأَمَّلَ، وَصَبَرَ قَلِيْلًا؛ لَرَبِحَ كَثِيْرًا.

وَلَوْ ذَهَبْتُ أَذْكُرُ مَا قَدْ عَرَفْتُ مِنْ اِعْتِرَاضِ العُلَمَاءِ وَالعَوَامِّ؛ لَطَالَ، وَمِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ حَالًا

(١) الأبيات من البحر: [المتقارب]..

(٢) يقصد بالثلاثة؛ الأصناف التي ذكرها آنفًا؛ وهي: العَامِّيّ، وَبَعْضُ الْخُلَعَاءِ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ.

فِي ذَلِكَ مَا يُحْكَىٰ عَنْ اِبْنِ الرَّاوَنْدِيِّ[1] أَنَّهُ جَاعَ يَوْمًا، وَاشْتَدَّ جُوْعُهُ، فَجَلَسَ عَلَىٰ الْجِسْرِ وَقَدْ أَمَضَّهُ الْجُوْعُ[2]، فَمَرَّتْ خَيْلٌ مُزَيَّنَةٌ بِالْحَرِيْرِ والدِّيْبَاجِ، فَقَالَ: لِمَنْ هَذِهِ؟ فَقَالُوا: لِعَلِيِّ بْنِ بَلْتَقٍ غُلَامِ الْخَلِيْفَةِ. فَمَرَّتْ جَوَارٍ مُسْتَحْسَنَاتٌ، فَقَالَ: لِمَنْ هَذِهِ؟ فَقَالُوا: لِعَلِيِّ بْنِ بَلْتَقٍ. فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَرَآهُ، وَعَلَيْهِ أَثَرُ الضُّرِّ، فَرَمَىٰ إِلَيْهِ رَغِيْفَيْنِ، فَأَخَذَهُمَا، وَرَمَىٰ بِهِمَا، وَقَالَ: هَذِهِ[3] لِعَلِيِّ بْنِ بَلْتَقٍ! وَنَسِيَ الجَاهِلُ الأَحْمَقُ مَا يَقُوْلُ وَيَعْتَرِضُ وَيَفْعَلُ -[4]- قَبْلَ هَذِهِ الْمَجَاعَةِ.

فَيَا مُعْتَرِضِيْنَ وَهُمْ فِي غَايَةِ النَّقْصِ - عَلَىٰ مَنْ لَا عَيْبَ فِي فِعْلِهِ! أَنْتُمْ فِي البِدَايَةِ مِنْ مَاءٍ وَطِيْنٍ، وَفِي الثَّانِي مِنْ مَاءٍ مَهِيْنٍ، ثُمَّ تَحْمِلُوْنَ الأَنْجَاسَ عَلَىٰ الدَّوَامِ، وَلَوْ حُبِسَ عَنْكُمُ الْهَوَاءُ؛ لَصِرْتُم جِيَفًا، وَلَوْ أَلْيَقَ[5] مِنْكُمْ أَهْلَكَكُمْ.

وَكَمْ مِنْ رَأْيٍ يَرَاهُ حَازِمُكُمْ؛ فَإِذَا عَرَضَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ؛ تَبَيَّنَ لَهُ قُبْحُ رَأْيِهِ.

ثُمَّ الْمَعَاصِي مِنْكُم زَائِدَةٌ فِي الْحَدِّ؛ فَمَا فِيكُم إِلَّا الاعْتِرَاضُ عَلَىٰ الْمَالِكِ الْحَكِيْمِ؟! وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ البَلَاوَىٰ[6] إِلَّا أَنْ يُرَادَ مِنَّا التَّسْلِيْمُ؛ لَكَفَىٰ.

وَلَوْ أَنَّهُ أَنْشَأَ الْخَلْقَ لِيَدُلُّوْا عَلَىٰ وُجُوْدِهِ. ثُمَّ أَهْلَكَهُم، وَلَمْ يَعِدْهُمْ؛ كَانَ ذَلِكَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ مَالِكٌ؛ لَكِنَّهُ بِفَضْلِهِ وَعَدَ بِالإِعَادَةِ وَالْجَزَاءِ وَالبَقَاءِ الدَّائِمِ فِي النَّعِيْمِ.

فَمَتَىٰ مَا جَرَىٰ أَمْرٌ لا تَعْرِفُ عِلَّتَهُ؛ فَانْسُبْ ذَلِكَ إِلَىٰ قُصُوْرِ عِلْمِكَ.

وَقَدْ تَرَىٰ مَقْتُوْلًا ظُلْمًا، وَكَمْ قَدْ قَتَلَ وَظَلَمَ، حَتَّىٰ قُوْبِلَ بِبَعْضِهِ.

---

(١) أحمد بن يحيىٰ بن إسحاق أبو الحسين بن الراوندي الزنديق الشهير مات سنة: (٢٩٨هـ).

(٢) أَمَضَّهُ الجُوعُ؛ أي: آلمه وأوجعه.

(٣) [هذه]؛ أي: الأشياء التي ذكرتها آنفًا، أي من الخَيْل الْمُزَيَّنَة بِالْحَرِيْرِ وَالدِّيْبَاجِ، والجَوَاري الْمُسْتَحْسَنَات.

(٤) في حاشية الأصل: بياض بالأصل.

(٥) في حاشية الأصل: كذلك أيضًا؛ أي: بياض بالأصل.

(٦) بَلاوَىٰ: مفردها: بَلْوىٰ؛ أي: مُصيبة ومِحْنَة.

وَقَلَّ أَنْ يَجْرِيَ لِأَحَدٍ آفَةٌ إِلَّا وَيَسْتَحِقُّهَا؛ غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ الآفَاتِ الْمُجَازَىٰ بِهَا غَائِبَةٌ عَنَّا، وَرَأَيْنَا الْجَزَاءَ وَحْدَهُ.

فَسَلِّمْ تَسْلَمْ، وَاحْذَرْ كَلِمَةَ اعْتِرَاضٍ أَوْ إِضْمَارٍ؛ فَرُبَّمَا أَخْرَجَتْكَ مِنْ دَائِرَةِ الإِسْلَامِ.

* [٧٠-٢٧٦] [خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ سَلَّمَ سَلِمَ، وَمَنْ اعْتَرَضَ هَلَكَ]

سُبْحَانَ مَنْ ظَهَرَ لِخَلْقِهِ حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ خَفَاءٌ، ثُمَّ خَفِيَ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ لَا ظُهُوْرَ. أَيُّ ظُهُوْرٍ أَجْلَىٰ مِنْ هَذِهِ الْمَصْنُوْعَاتِ الَّتِي تَنْطِقُ كُلُّهَا بِأَنَّ لِي صَانِعًا صَنَعَنِي، وَرَتَّبَنِي عَلَىٰ قَانُوْنِ الْحِكْمَةِ؟!

خُصُوْصًا هَذَا الآدَمِيَّ الَّذِي أَنْشَأَهُ مِنْ قَطْرَةٍ، وَبَنَاهُ عَلَىٰ أَعْجَبِ فِطْرَةٍ، وَرَزَقَهُ الفَهْمَ وَالذِّهْنَ، وَاليَقْظَةَ وَالعِلْمَ، وَبَسَطَ لَهُ الْمِهَادَ، وَأَجْرَىٰ لَهُ الْمَاءَ وَالرِّيْحَ، وَأَنْبَتَ لَهُ الزَّرْعَ، وَرَفَعَ لَهُ مِنْ فَوْقِهِ السَّمَاءَ، فَأَوْقَدَ لَهُ مِصْبَاحَ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ، وَجَاءَ بِالظُّلْمَةِ لِيَسْكُنَ. إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا يَخْفَىٰ.

وَكُلُّهُ يَنْطِقُ بِصَوْتٍ فَصِيحٍ يَدُلُّ عَلَىٰ خَالِقِهِ، وَقَدْ تَجَلَّىٰ الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ بِهَذِهِ الأَفْعَالِ؛ فَلَا خَفَاءَ.

ثُمَّ بَعَثَ الرُّسُلَ فُقَرَاءَ مِنَ الدُّنْيَا، ضِعَافَ الأَبْدَانِ، فَقَهَرَ بِهِمُ الْجَبَابِرَةَ، وَأَظْهَرَ عَلَىٰ أَيْدِيْهِم مِنَ الْمُعْجِزَاتِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ مَقْدُوْرِ بَشَرٍ.

وكُلُّ ذَلِكَ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ، وَقَدْ تَجَلَّىٰ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ لِعِبَادِهِ.

ثُمَّ يَأْتِي مُوْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ البَحْرِ، فَيَنْفَرِقُ؛ فَلَا يَبْقَىٰ شَكٌّ فِي أَنَّ الْخَالِقَ فَعَلَ هَذَا. وَيُكَلِّمُ عِيْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَيِّتَ، فَيَقُوْمُ. وَيَبْعَثُ طَيْرًا أَبَابِيْلَ، تَحْفَظُ بَيْتَهُ، فَيُهْلِكُ قَاصِدِيْهِ.

وَهَذَا أَمْرٌ يَطُوْلُ ذِكْرُهُ كُلِّهِ، يَدُلُّ عَلَىٰ تَجَلِّي الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ بِغَيْرِ خَفَاءٍ.

فَإِذَا ثَبَتَ عِنْدَ العُقَلَاءِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ ارْتِيَابٍ وَلَا شَكٍّ، [ثُمَّ][١] جَاءَتْ أَشْيَاءُ كَأَنَّهَا تَسْتُرُ الظَّاهِرَ؛ مِثْلُ مَا سَبَقَ مِنْ تَسْلِيطِ الأَعْدَاءِ عَلَى الأَوْلِيَاءِ.

وَإِذَا ثَبَتَ التَّجَلِّي بِأَدِلَّةٍ لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ؛ عَلِمْتَ أَنَّ لِهَذَا الخَفَاءِ سِرًّا لَا نَعْلَمُهُ، يُفْتَرَضُ عَلَى العَقْلِ فِيهِ التَّسْلِيمُ لِلْحَكِيمِ، فَمَنْ سَلَّمَ سَلِمَ، وَمَنْ اعْتَرَضَ هَلَكَ.

* [٧١-٢٣٤] [خَاطِرَةٌ]:

[إِيَّاكَ وَالتَّعَلُّل بِالأَقْدَارِ]

رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ الخَلْقِ يَتَعَلَّلُونَ بِالأَقْدَارِ، فَيَقُولُ قَائِلُهُمْ: إِنْ وُفِّقْتُ؛ فَعَلْتُ!

وَهَذَا تَعَلُّلٌ بَارِدٌ[٢]، وَدَفْعٌ لِلأَمْرِ بِالرَّاحِ[٣]، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى رَدِّ أَقْوَالِ الأَنْبِيَاءِ وَالشَّرَائِعِ جَمِيعِهَا؛ فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ كَافِرٌ لِلرَّسُولِ: إِنْ وَفَّقَنِي؛ أَسْلَمْتُ! لَمْ يُجِبْهُ إِلَّا بِضَرْبِ العُنُقِ.

وَهَذَا مِنْ جِنْسِ قَوْلِ النَّاسِ لِعَلِيٍّ ﷺ: نَدْعُوكَ إِلَى كِتَابِ اللهِ. فَقَالَ: «كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ»[٤].

وَكَذَلِكَ قَوْلُ المُمْتَنِعِينَ عَنِ الصَّدَقَةِ: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]!

وَلَعَمْرِي إِنَّ التَّوْفِيقَ أَصْلُ الفِعْلِ، وَلَكِنَّ التَّوْفِيقَ أَمْرٌ خَفِيٌّ، وَالخِطَابُ بِالفِعْلِ أَمْرٌ جَلِيٌّ؛

---

(١) ليست في الأصل وأثبتناها؛ لتمام المعنى بها.

(٢) تَعَلُّلٌ بَارِدٌ: غث، ركيك.

(٣) الرَّاحِ: باطن الكفّ. ومعنى: وَدَفْعٌ لِلأَمْرِ بِالرَّاحِ؛ أي: كأنه يرد أوامر الله بباطن يده الضعيفة، وهذا مستحيل.

(٤) هذا قوله ﷺ للخوارج الذين عارضوه في الاحتكام يوم صفين. قال ابن الأثير رحمه الله: «ثُمَّ خَطَبَ عَلِيٌّ يَوْمًا آخَرَ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ! ثُمَّ تَوَالَى عِدَّةُ رِجَالٍ يُحَكِّمُونَ. فَقَالَ عَلِيٌّ: اللهُ أَكْبَرُ، كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ! أَمَا إِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا ثَلَاثًا مَا صَحِبْتُمُونَا: لَا نَمْنَعُكُمْ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ تَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَهُ، وَلَا نَمْنَعُكُمُ الفَيْءَ مَا دَامَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَ أَيْدِينَا، وَلَا نُقَاتِلُكُمْ حَتَّى تَبْدَأُونَا، إِنَّمَا فِيكُمْ أَمْرُ اللهِ. ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ مِنَ الخُطْبَةِ». [يُراجع: «الكامل في التاريخ» (ج٣/ ص٢١٣سنة (٣٧)): ذكر خَبَرِ الخَوَارِجِ عِنْدَ تَوْجِيهِ الحَكَمَيْنِ وَخَبَرِ يَوْمِ النَّهْرِ].

فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَشَاغَلَ عَنِ الْجَلِيِّ بِذِكْرِ الْخَفِيِّ.

وَمِمَّا يَقْطَعُ هَذَا الاحتِجَاجَ أَنْ يُقَالَ لِهَذَا القَائِلِ: إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُكَلِّفْكَ شَيْئًا إِلَّا وَعِنْدَكَ أَدَوَاتُ ذَلِكَ الفِعْلِ، وَلَكَ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ؛ فَإِنْ كَانَتِ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ مَعْدُوْمَةً، وَالأَدَوَاتُ غَيْرَ مُحَصَّلَةٍ؛ فَلَا أَمْرَ، وَلَا تَكْلِيْفَ.

وَإِنْ كُنْتَ تَسْعَىٰ بِتِلْكَ الأَدَوَاتِ فِي تَحْصِيْلِ غَرَضِكَ وَهَوَاكَ؛ فَاسْعَ بِهَا فِي إِقَامَةِ مَفْرُوْضِكَ.

مِثَالُ ذَلِكَ: أَنَّكَ تُسَافِرُ فِي طَلَبِ الرِّبْحِ، وَتُسْأَلُ الْحَجَّ، فَلَا تَفْعَلُ! وَيَثْقُلُ عَلَيْكَ الانْتِبَاهُ بِاللَّيْلِ؛ فَلَوْ أَرَدْتَ الْخُرُوْجَ إِلَىٰ العِيْدِ؛ انْتَبَهْتَ سَحَرًا! وَتَقِفُ فِي بَعْضِ أَغْرَاضِكَ مَعَ صَدِيْقٍ تُحَادِثُهُ سَاعَاتٍ؛ فَإِذَا وَقَفْتَ فِي الصَّلَاةِ؛ اِسْتَعْجَلْتَ، وَثَقُلَ عَلَيْكَ!

فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِأَمْرٍ لا حُجَّةَ لَكَ فِيْهِ! ثُمَّ مِنْ نَصِيْبِكَ يَنْقُصُ، وَمِنْ حَظِّكَ يَضِيْعُ؛ فَإِنَّمَا تُحَرِّكُ لَكَ، وَإِنَّمَا تُحَرِّضُ لِنَفْعِكَ؛ فَبَادِرْ؛ فَإِنَّكَ مُبَادَرٌ بِكَ!

وَمِمَّا يُزِيْلُ كَسَلَكَ - إِنْ تَأَمَّلْتَهُ - أَنْ تَتَخَايَلَ ثَوَابَ الْمُجْتَهِدِيْنَ، وَقَدْ فَاتَكَ! وَيَكْفِي ذَلِكَ فِي تَوْبِيْخِ الْمُقَصِّرِ إِنْ كَانَتْ لَهُ نَفْسٌ.

فَأَمَّا الْمَيِّتُ الْهِمَّةِ؛ فَـ[حَالُهُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ]:[1]

مَـــا لِجُـــرْحٍ بِمَيِّـــتٍ إِيْـــلَامُ[2]

كَيْفَ بِكَ إِذَا قُمْتَ مِنْ قَبْرِكَ، وَقَد قُرِّبَتْ نَجَائِبُ النَّجَاةِ[3] لِأَقْوَامٍ وَتَعَثَّرْتَ، وَأَسْرَعَتْ أَقْدَامُ الصَّالِحِيْنَ عَلَىٰ الصِّرَاطِ وَتَخَبَّطْتَ؟!

---

(١) ليست في الأصل وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٢) عجز بيت صدره [من الخفيف]: مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الْهَوَانُ عَلَيْهِ...

(٣) نَجَائِبُ الأشياء: لبابُها، وخالصُها. النَّجيب من الخَيْل: الكريم العتيق. والنَّجيب من الإبل: القويّ، الخفيف، السَّريع؟ ونجائبُ الإبل: خيارُها.

هَيْهَاتَ! ذَهَبَتْ حَلَاوَةُ البَطَالَةِ، وَبَقِيَتْ مَرَارَةُ الأَسَفِ، وَنَضَبَ مَاءُ كَأْسِ الْكَسَلِ، وَبَقِيَ رُسُوبُ النَّدَامَةِ(١)!

وَمَا قَدْرُ البَقَاءِ فِي الدُّنْيَا بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ دَوَامِ الآخِرَةِ؟! ثُمَّ مَا قَدْرُ عُمُرِكَ فِي الدُّنْيَا؛ وَنِصْفُهُ نَوْمٌ، وَبَاقِيهِ غَفْلَةٌ؟

فَيَا خَاطِبًا حُورَ الْجَنَّةِ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ فَلْسًا مِنْ عَزِيمَةٍ(٢)! افْتَحْ عَيْنَ الفِكْرِ فِي ضَوْءِ العِبَرِ، لَعَلَّكَ تُبْصِرُ مَوَاقِعَ خِطَابِكَ!

فَإِنْ رَأَيْتَ تَثْبِيطًا مِنَ البَاطِنِ؛ فَاسْتَغِثْ بِعَوْنِ اللُّطْفِ، وَتَنَبَّهْ فِي الأَسْحَارِ؛ لَعَلَّكَ تَتَلَمَّحُ رَكْبَ الأَرْبَاحِ!

وَتَعَلَّقْ عَلَىٰ قِطَارِ الْمُسْتَغْفِرِينَ، وَلَوْ خُطُوَاتٍ، وَانْزِلْ فِي رِبَاعِ الْمُجْتَهِدِينَ(٣)، وَلَوْ مَنْزِلًا؛ أَيَّ مَنْزِلٍ!

* [٧٢-٣١٨] [خَاطِرَةٌ]:

[الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ مَا يُؤْذِي]

إِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَيُّ فَائِدَةٍ فِي خَلْقِ مَا يُؤْذِي؟! فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَتْ حِكْمَةُ الْخَالِقِ؛ فَإِذَا خَفِيَتْ فِي بَعْضِ الأُمُورِ؛ وَجَبَ التَّسْلِيمُ، ثُمَّ إِنَّ الْمُسْتَحْسَنَاتِ فِي الجُمْلَةِ أُنْمُوذَجُ مَا أُعِدَّ مِنَ الثَّوَابِ، وَالْمُؤْذِيَاتِ أُنْمُوذَجُ مَا أُعِدَّ مِنَ العِقَابِ، وَمَا خُلِقَ شَيْءٌ يَضُرُّ؛ إِلَّا وَفِيهِ مَنْفَعَةٌ.

---

(١) هذا فيه تشبيه بديع، حيث شبه الكسل بكأس شراب يتعلل به صاحب الظمأ؛ فإذا فرغ الكأس، بقي رواسب الكأس الذي يؤذي ولا ينفع، وكذلك الكسل يؤذي صاحبه ولا ينفع.

(٢) الفَلَس: اسم من أفلس. والفَلس: ما يتعامل به مما ليس فضة ولا ذهبا. والفلس: القشرة علىٰ ظهر السمكة.

(٣) أي: منازل المجتهدين، ومنه حديث أُسَامَةَ قَال: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَنْزِلُ فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ فَقَالَ: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دُورٍ» مسلم كِتَابُ «الْحَجِّ» بَابُ «النُّزُولِ بِمَكَّةَ لِلْحَاجِ» حديث (١٣٥١). وَالرَّبع: الْمَنزِل ودارُ الإقامةِ.

قِيْلَ لِبَعْضِ الأَطِبَّاءِ: إِنَّ فُلَانًا يَقُوْلُ: أَنَا كَالعَقْرَبِ أَضُرُّ وَلَا أَنْفَعُ؟

فَقَالَ: مَا أَقَلَّ عِلْمَهُ! إِنَّهَا لَتَنْفَعُ إِذَا شُقَّ بَطْنُهَا، ثُمَّ شُدَّتْ عَلَىٰ مَوْضِعِ اللَّسْعَةِ، وَقَدْ تُوْضَعُ فِي جَوْفِ فَخَّارٍ مَسْدُوْدِ الرَّأْسِ، مُطْبَقِ الجَوَانِبِ، ثُمَّ يُوْضَعُ الفَخَّارُ فِي تَنُّوْرٍ؛ فَإِذَا صَارَتْ رَمَادًا؛ سُقِيَ مِنْ ذَلِكَ الرَّمَادِ مِقْدَارَ نِصْفِ دَانِقٍ[1] أَوْ أَكْثَرَ مَنْ بِهِ الحَصَاةُ، فَيُفَتِّتُهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَضُرَّ بِشَيْءٍ مِنْ سَائِرِ الأَعْضَاءِ!

وَقَدْ تَلْسَعُ العَقْرَبُ مَنْ بِهِ حُمَّىٰ عَتِيْقَةٌ فَتَزُوْلُ. وَلَسَعَتْ رَجُلًا مَفْلُوْجًا، فَزَالَ عَنْهُ الفَالِجُ[2]. وَقَد تُلْقَىٰ فِي الدُّهْنِ، حَتَّىٰ يَجْتَذِبَ قُوَاهَا، فَيُزِيْلُ ذَلِكَ الدُّهْنُ الأَوْرَامَ الغَلِيْظَةَ. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيْرٌ.

فَالْجَاهِلُ عَدُوٌّ لِمَا جَهِلَهُ، وَأَكْبَرُ الْحَمَاقَةِ رَدُّ الجَاهِلِ عَلَىٰ العَالِمِ.

* [٧٣-٣٤٩] [خَاطِرَةٌ]:

[الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ بَعْضِ مَنَافِعِ الإِنْسَانِ]

نَظَرْتُ فِي حِكْمَةِ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَنْكَحِ؛ فَرَأَيْتُ أَنَّ الآدَمِيَّ لَمَّا خُلِقَ مِنْ أُصُوْلٍ تَتَحَلَّلُ، وَهِيَ الْمَاءُ وَالتُّرَابُ وَالنَّارُ وَالْهَوَاءُ، وَبَقَاؤُهُ إِنَّمَا يَكُوْنُ بِالْحَرَارَةِ وَالرُّطُوْبَةِ، [وَالْحَرَارَةُ تُحَلِّلُ الرُّطُوْبَةَ][3] دَائِمًا؛ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بُدٌّ مِنْ شَيْءٍ يَخْلُفُ مَا بَطَلَ.

وَلَمَّا كَانَ اللَّحْمُ لا يَنُوْبُ عَنْهُ إِلَّا اللَّحْمُ؛ أَبَاحَ الشَّرْعُ ذَبْحَ الْحَيَوَانِ، لِيَتَقَوَّىٰ بِهِ مَنْ هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ.

(١) الدَّانَق: سُدُسُ الدِّينار والدِّرهَم. وقيل: سدس الدرهم فقط. والدينار: عملة ذهبية إسلامية، وزنة الدينار مثقال، وقدره بالغرامات (٤.٢٥). والدرهم عملة فضية إسلامية وقدر الدرهم بالغرامات (٢.٩٧٥).

(٢) الفَالِجُ: عاهة تصيب البدن فتشل بعضه أو كله عن الحركة.

(٣) ليست في الأصل وأثبتناها؛ لتمام المعنى بها.

وَلَمَّا كَانَ بَدَنُهُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ كُسْوَةٍ، وَلَهُ قُدْرَةُ تَمْيِيزٍ، وَقُدْرَةٌ يَصْنَعُ بِهَا مَا يَقِيهِ الأَذَىٰ مِنَ الْقُطْنِ وَالصُّوفِ، لَمْ يَجْعَلْ عَلَىٰ جِلْدِهِ مَا يَقِيهِ خِلْقَةً؛ بِخِلَافِ الْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَىٰ مَا يُغَطِّي جِلْدَهُ؛ عَوَّضَهُ بِالرِّيشِ وَالشَّعْرِ وَالوَبَرِ.

وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ فَنَاءِ الآدَمِيِّ وَالْحَيَوَانِ؛ هَيَّجَ شَهْوَةَ الْجِمَاعِ؛ لِتُخْلِفَ النَّسْلَ؛ فَمُقْتَضَىٰ العَقْلِ الَّذِي حُرِّكَ عَلَىٰ طَلَبِ هَذِهِ الْمَصَالِحِ أَنْ يَكُونَ التَّنَاوُلُ لِلْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ مِقْدَارَ الْحَاجَةِ وَالْمَصْلَحَةِ؛ لِيَقَعَ الالْتِذَاذُ بِالعَافِيَةِ.

وَمِنَ الْبَلِيَّةِ طَلَبُ الالْتِذَاذِ بِالْمَطْعَمِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ صَالِحٍ، وَالإِكْثَارُ مِنْهُ، وَالشَّرَهُ فِي تَنَاوُلِهِ، وَكَذَلِكَ الكُسْوَةُ وَالنِّكَاحُ!

وَمِنَ الْحَزْمِ جَمْعُ الْمَالِ، وَادِّخَارُهُ لِعَارِضِ حَاجَةٍ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنَ التَّغْفِيلِ إِنْفَاقُ الْحَاصِلِ؛ فَرُبَّمَا عَرَضَتْ حَاجَةٌ؛ فَلَمْ يُقْدَرْ عَلَيْهَا، فَأَثَّرَ عَدَمُهَا فِي البَدَنِ، أَوْ فِي العِرْضِ بِطَلَبِهَا مِنَ الأَنْذَالِ!

وَمِنْ أَقْبَحِ الأُمُورِ الانْهِمَاكُ فِي النِّكَاحِ طَلَبًا لِصُورَةِ اللَّذَّةِ؛ نَاسِيًا مَا يَجْنِي ذَلِكَ مِنَ انْحِلَالِ القُوَّةِ، وَيَزِيدُ فِي الْحَرَامِ بِالعُقُوبَةِ.

فَمَنْ مَالَ إِلَىٰ تَدْبِيرِ العَقْلِ سَلِمَ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ مُشَاوَرَتِهِ أَوْ عَنِ القَبُولِ مِنْهُ؛ تَعَجَّلَ عَطَبَهُ.

فَلْيُفْهَمْ مَقْصُودُ الْمَوْضُوعَاتِ وَحِكَمُهَا وَالْمُرَادُ مِنْهَا!

فَمَنْ لَمْ يَفْهَمْ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَىٰ مَا فَهِمَ؛ كَانَ كَأَجْهَلِ الْعَوَامِّ، وَإِنْ كَانَ عَالِمًا.

* [٧٤-٢٢٦] [خَاطِرَةٌ]:

[الحِكْمَةُ مِنْ أَخْذِ الجِزْيَةِ]

تَفَكَّرْتُ فِي إِبْقَاءِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ بَيْنَنَا، وَأَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْهُم؛ فَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ حِكَمًا

عَجِيبَةٌ: مِنْهَا: مَا قَدْ ذُكِرَ أَنَّ الإِسْلَامَ كَانَ ضَعِيفًا، فَتَقَوَّىٰ بِمَا يُؤْخَذُ مِنْ جِزْيَتِهِم. وَمِنْهَا: ظُهُوْرُ عِزِّهِ بِذُلِّهِمْ. إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ قِيْلَ.

وَوَقَعَ لِي فِيْهِ مَعْنًىٰ عَجِيبٌ، وَهُوَ أَنَّ وُجُوْدَهُمْ وَتَعَبُّدَهُمْ، وَحِفْظَهُمْ شَرْعَ نَبِيِّهِمْ ﷺ دَلِيْلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَنْبِيَاءُ وَشَرَائِعُ. وَأَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ لَيْسَ بِبِدْعٍ مِنَ الرُّسُلِ؛ فَقَدْ اِجْتَمَعَتِ الْجِنُّ وَهُمْ عَلَىٰ إِثْبَاتِ صَانِعٍ، وَإِقْرَارٍ بِرُسُلٍ، فَبَانَ أَنَّنَا مَا ابْتَدَعْنَا مَا لَمْ يَكُنْ.

وَهُمْ يَصْبِرُوْنَ عَلَىٰ بَاطِلِهِم، وَيُؤَدُّونَ الجِزْيَةَ؛ فَكَيْفَ لَا نَصْبِرُ عَلَىٰ حَقٍّ، وَالدَّوْلَةُ لَنَا، وَفِي بَقَائِهِم اِحْتِرَامٌ لِمَا كَانَ صَحِيْحًا مِنَ الدِّيْنِ، وَلِيَرْجِعَ مُتَبَصِّرٌ، وَلِيَسْتَعْمِلَ مُفَكِّرٌ.

* [٢٧-٧٥] [خَاطِرَةٌ]:

[عَجْزُ الْعَقْلِ عَنْ إِدْرَاكِ عِلَلِ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ]

تَأَمَّلْتُ حَالًا عَجِيْبَةً، وَهِيَ أَنَّ اللهَ ﷻ قَدْ بَنَىٰ هَذِهِ الأَجْسَامَ مُتْقَنَةً عَلَىٰ قَانُوْنِ الْحِكْمَةِ، فَدَلَّ بِذَلِكَ الْمَصْنُوعِ عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَلَطِيْفِ حِكْمَتِهِ. ثُمَّ عَادَ فَنَقَضَهَا.

فَتَحَيَّرَتِ الْعُقُوْلُ بَعْدَ إِذْعَانِهَا لَهُ بِالْحِكْمَةِ فِي سِرِّ ذَلِكَ الفِعْلِ؟! فَأُعْلِمَتْ أَنَّهَا سَتُعَادُ لِلْمَعَادِ، وَأَنَّ هَذِهِ البُنْيَةَ لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لِتَجُوْزَ فِي مَجَازِ الْمَعْرِفَةِ، وَتَتَّجِرَ فِي مَوْسِمِ الْمُعَامَلَةِ. فَسَكَنَتِ الْعُقُوْلُ لِذَلِكَ. ثُمَّ رَأَيْتُ أَشْيَاءَ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ أَظْرَفَ مِنْهُ: مِثْلُ اِخْتِرَامِ شَابٍّ[١] مَا بَلَغَ بَعْضَ الْمَقْصُوْدِ بِنْيَانُهُ! وَأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ: أَخْذُ طِفْلٍ مِنْ أَكُفِّ أَبَوَيْهِ؛ يَتَمَلْمَلَانِ[٢]، وَلَا يَظْهَرُ سِرُّ سَلْبِهِ، وَاللهُ الغَنِيُّ عَنْ أَخْذِهِ، وَهُمَا أَشَدُّ الْخَلْقِ فَقْرًا إِلَىٰ بَقَائِهِ! وَأَظْرَفُ مِنْهُ إِبْقَاءُ هَرِمٍ[٣]، لَا يَدْرِي مَعْنَىٰ البَقَاءِ، وَلَيْسَ لَهُ فِيْهِ إِلَّا مُجَرَّدُ أَذًىٰ! وَمِنْ هَذَا الْجِنْسِ تَقْتِيْرُ الرِّزْقِ

(١) اخترم الموتُ القومَ: استأصلهم، أهلكهم وأفناهم، واخترمته المنيّة: أخذته، واخترمه المرضُ: هزّله.

(٢) تململ الشَّخصُ: تقلَّب في فراشه من مَرَض أو همٍّ أو غيره، وتململ من الألم: تلوَّى.

(٣) هَرِم فُلانٌ: بلغ مُنتهىٰ الكِبَر.

عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ الْحَكِيْمِ[1]، وَتَوْسِعَتُهُ عَلَىٰ الكَافِرِ الأَحْمَقِ. وَفِي نَظَائِرَ لِهَذِهِ الْمَذْكُوْرَاتِ يَتَحَيَّرُ العَقْلُ فِي تَعْلِيْلِهَا فَيَبْقَىٰ مَبْهُوْتًا[2].

فَلَمْ أَزَلْ أَتَلَمَّحُ جُمْلَةَ التَّكَالِيْفِ؛ فَإِذَا عَجَزَتْ قُوَىٰ العَقْلِ عَنِ الاطِّلَاعِ عَلَىٰ حِكْمَةِ ذَلِكَ، وَقَدْ ثَبَتَ لَهَا حِكْمَةُ الفَاعِلِ؛ عَلِمَتْ قُصُوْرَهَا عَنْ دَرْكِ جَمِيْعِ الْمَطْلُوْبِ، فَأَذْعَنَتْ مُقِرَّةً بِالعَجْزِ، وَبِذَلِكَ تُؤَدِّي مَفْرُوضَ تَكْلِيْفِهَا.

وَلَوْ قِيْلَ لِلْعَقْلِ: قَدْ ثَبَتَ عِنْدَكَ حِكْمَةُ الخَالِقِ بِمَا بَنَىٰ؛ أَفَيَجُوْزُ أَنْ يَقْدَحَ[3] فِي حِكْمَتِهِ أَنَّهُ نَقَضَ؟ لَقَالَ: لَا؛ لِأَنِّي عَرَفْتُ بِالبُرْهَانِ أَنَّهُ حَكِيْمٌ، وَأَنَا أَعْجَزُ عَنْ إِدْرَاكِ عِلَلِ حِكْمَتِهِ، فَأُسَلِّمُ عَلَىٰ رَغْمِي، مُقِرًّا بِعَجْزِي[4].

* [٧٦-٩٠] [خَاطِرَةٌ]:

[ثَبَتَت حِكْمَة الخَالِق فِي حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ]

رَأَيْتُ فِي العَقْلِ نَوْعَ مُنَازَعَةٍ لِلتَّطَلُّعِ إِلَىٰ [مَعْرِفَةِ][5] جَمِيْعِ حِكَمِ الْحَقِّ ﷻ فِي حُكْمِهِ!

فَرُبَّمَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ بَعْضُهَا - مِثْلُ النَّقْضِ بَعْدَ البِنَاءِ - فَيَقِفُ مُتَحَيِّرًا!

وَرُبَّمَا انْتَهَزَ الشَّيْطَانُ تِلْكَ الفُرْصَةَ، فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ: أَيْنَ الحِكْمَةُ مِنْ هَذَا؟!

فَقُلْتُ لَهُ: احْذَرْ أَنْ تُخْدَعَ يَا مِسْكِيْنُ! فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ [عِنْدَكَ][6] بِالدَّلِيْلِ القَاطِعِ - لِمَا

---

(١) أقتر اللهُ رزقَ فلان: ضيّقه وقلّله.

(٢) بُهِت فلانٌ: دَهِش وتحيّر، أو أُخِذ بالحُجَّة، وسكت متحيِّرًا.

(٣) جاء في الأصل: [يَنْقَدِحَ] وما أثبتناه من المخطوط هو الصواب؛ لتمام المعنىٰ به.

(٤) الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَكِيمٌ رَحِيمٌ. أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَأَتْقَنَ مَا صَنَعَ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا. وَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْهِ. وَالشَّرُّ لَيْسَ إلَيْهِ. بَلْ لَا يَفْعَلُ إلَّا خَيْرًا. وَمَا خَلَقَهُ مِنْ أَلَمٍ لِبَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ أَوْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ الْمَذْمُومَةِ: فَلَهُ فِيهَا حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ وَنِعْمَةٌ جَسِيمَةٌ؛ فَكُلُّ مَا خَلَقَهُ اللهُ فَلَهُ فِيهِ حِكْمَةٌ. [يُراجع: «مجموعة الفتاوىٰ» لابن تيمية (ج٨/ ص٩٤ وما بعدها)]

(٥) ليست في الأصل وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٦) ليست في الأصل وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

رَأَيْتَ مِنْ إِتْقَانِ الصَّنَائِعِ - [مَبْلَغُ][1] حِكْمَةِ الصَّانِعِ؛ فَإِنْ خَفِيَ عَلَيْكَ بَعْضُ الْحِكَمِ؛ فَلِضَعْفِ إِدْرَاكِكَ.

ثُمَّ مَا زَالَتْ لِلْمُلُوكِ أَسْرَارٌ؛ فَمَنْ أَنْتَ حَتَّىٰ تَطَّلِعَ بِضَعْفِكَ عَلَىٰ جَمِيعِ حِكَمِهِ؟! يَكْفِيكَ الْجُمَلُ!

وَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَتَعَرَّضَ لِمَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّكَ بَعْضُ مَوْضُوعَاتِهِ، وَذَرَّةٌ مِنْ مَصْنُوعَاتِهِ؛ فَكَيْفَ تَتَحَكَّمُ عَلَىٰ مَنْ صَدَرْتَ عَنْهُ؟!

ثُمَّ قَدْ ثَبَتَتْ عِنْدَكَ حِكْمَتُهُ فِي حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ؛ فَأَعْمِلْ آلَتَكَ عَلَىٰ قَدْرِ قُوَّتِكَ فِي مُطَالَعَةِ مَا يُمْكِنُ مِنَ الْحِكَمِ، فَإِنَّهُ سَيُورِثُكَ الدَّهَشَ! وَغَمِّضْ عَمَّا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ؛ فَحَقِيقٌ بِذِي الْبَصَرِ الضَّعِيفِ أَلَّا يُقَاوِيَ نُورَ الشَّمْسِ[2].

* [٧٧-٣٠٨] [خَاطِرَةٌ]:

[الرَّدُّ عَلَى مَنْ يَعْتَرِضُ عَلَى حِكْمَةِ الْخَالِقِ]

تَأَمَّلْتُ عَلَىٰ قَوْمٍ يَدَّعُونَ الْعُقُولَ، وَيَعْتَرِضُونَ عَلَىٰ حِكْمَةِ الْخَالِقِ!

فَيَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: هَذَا الْفَهْمُ الَّذِي دَلَّكُمْ عَلَىٰ رَدِّ حِكْمَتِهِ؛ أَلَيْسَ هُوَ مَنْ مَنَحَهُ؟! فَأَعْطَاكُمُ الْكَمَالَ، وَرَضِيَ لِنَفْسِهِ بِالنَّقْصِ؟!

هَذَا هُوَ الْكُفْرُ الْمَحْضُ، الَّذِي يَزِيدُ فِي الْقُبْحِ عَلَىٰ الْجَحْدِ.

فَأَوَّلُ الْقَوْمِ إِبْلِيسُ؛ فَإِنَّهُ رَأَىٰ بِعَقْلِهِ أَنَّ جَوْهَرَ النَّارِ أَشْرَفُ مِنْ جَوْهَرِ الطِّينِ، فَرَدَّ حِكْمَةَ الْخَالِقِ.

---

(١) جاء في الأصل: [عندك] وما أثبتناه هو الصواب؛ لتمام المعنىٰ به.

(٢) أي: يحاول أن يغالب ويقاوم نور الشمس.

وَمَرَّ عَلَىٰ هَذَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعْتَرِضِينَ؛ مِثْلُ ابْنِ الرَّاوَنْدِيِّ(١)، وَالبَصرِيِّ(٢).

وَهَذَا الْمَعَرِّيُّ اللَّعِينُ(٣)، يَقُوْلُ: كَيْفَ يُعَابُ ابْنُ الْحَجَّاجِ(٤) بِالسُّخْفِ(٥)، وَالدَّهْرُ أَقْبَحُ فِعْلًا مِنْهُ؟!

أَتَرَىٰ يَعْنِي بِهِ الزَّمَانَ؟! كَلَّا؛ فَإِنَّ مَمَرَّ الأَوْقَاتِ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا؛ وَإِنَّمَا هُوَ تَسْفِيفٌ(٦)!

وَكَانَ يَسْتَعْجِلُ الْمَوْتَ؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ يَسْتَرِيحُ! وَكَانَ يُوْصِي بِتَرْكِ النِّكَاحِ، وَالنُّسْكِ! وَلَا يَرَىٰ فِي الإِيْجَادِ حِكْمَةً إِلَّا العَنَاءَ وَالتَّعَبَ! وَمَصِيرَ الأَبْدَانِ إِلَىٰ البِلَىٰ!!

وَهَذَا لَوْ كَانَ كَمَا ظَنَّ؛ كَانَ الإِيْجَادُ عَبَثًا، وَالْحَقُّ مُنَزَّهًا عَنِ الْعَبَثِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾[ص: ٢٧]، فَإِذَا كَانَ مَا خُلِقَ لَنَا لَمْ يُخْلَقْ عَبَثًا؛ أَفَنَكُوْنُ نَحْنُ - وَنَحْنُ مَوَاطِنُ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَالُّ تَكْلِيفِهِ - قَدْ وُجِدْنَا عَبَثًا؟!

وَمِثْلُ هَذَا الْجَهْلِ إِنَّمَا يَصْدُرُ مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي قَضَايَا العُقُوْلِ الَّتِي يُحْكَمُ بِهَا عَلَىٰ الظَّوَاهِرِ؛ مِثْلُ أَنْ يَرَىٰ مَبْنِيًّا يُنْقَضُ.

وَالعَقْلُ بِمُجَرَّدِهِ لا يَرَىٰ ذَلِكَ حِكْمَةً، وَلَوْ كُشِفَتْ لَهُ حِكْمَةُ ذَلِكَ؛ لَعَلِمَ أَنَّهُ صَوَابٌ؛ كَمَا كُشِفَ لِمُوْسَىٰ مُرَادُ الْخَضِرِ فِي خَرْقِ السَّفِينَةِ، وَقَتْلِ الغُلَامِ.

وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ ذَبْحَ الْحَيَوَانِ، وَتَقْطِيعَ الرَّغِيفِ، وَمَضْغَ الطَّعَامِ، لَا يَظْهَرُ لَهُ فَائِدَةٌ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ؛

---

(١) سبق في الخاطرة رقم: [٦٩-٣٥٩].

(٢) البَصرِي العَلَوِي الْخَبِيث صَاحِب الزَّنْجِ، زَعَمَ أَنَّهُ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ، وَانتُسِبَ إِلي الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبِ. وَقُتِلَ سَنَةَ:(٢٧٠هـ).. وَخَبَرُهُ فِي «الكامل» لابن الأثير.(ج٦/ ص٢٠٦ و ٢٣١/ سنة٢٥٥، و٢٧٠)]

(٣) سبق في الخاطرة رقم: [٣٧-١٩٢].

(٤) ابْنُ الحَجَّاجِ أَبُو عَبْدِ اللهِ الحُسَيْنُ بنُ أَحْمَدَ، الكَاتِبُ. شَاعِرُ العَصْرِ، وَسَفِيهُ الأُدَبَاءِ، مَاتَ: سَنَةَ:(٣٩١هـ).

(٥) السُّخْفِ: فِي الْعَقْلِ خَاصَّةً: النَّقص والضعف. وَالسَّخَافَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

(٦) جاء في الأصل: [تَسْقِيف] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به. والسَّفْسَافُ: الرَّدِيءُ مِن كُلِّ شَيْءٍ والأَمْرُ الْحَقِيرُ. وَأَسفَّ فِي حديثه أو مناقَشته: هبط إلىٰ مستوىً متدنٍّ.

فَإِذَا عُلِمَ أَنَّهُ غِذَاءٌ لِبَدَنٍ مَنْ هُوَ أَشْرَفُ بَدَنًا مِنَ الْمَذْبُوحِ؛ حَسُنَ ذَلِكَ الفِعْلُ.

وَاعَجَبًا! أَوَمَا تَقْضِي العُقُولُ بِوُجُوبِ طَاعَةِ الْحَكِيمِ؛ الَّذِي تَعْجِزُ عَنْ مَعْرِفَةِ حِكَمِ مَخْلُوقَاتِهِ؟! فَكَيْفَ تُعَارِضُهُ فِي أَفْعَالِهِ؟! نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْخِذْلَانِ.

* [٧٨-١٩٨] [خَاطِرَةٌ]:

[وَاهِبُ العَقْلِ أَعْلَى مِنَ العَقْلِ]

رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الْمُغَفَّلِينَ يَظْهَرُ عَلَيْهِمُ السَّخَطُ بِالأَقْدَارِ. وَفِيهِم مَنْ قَلَّ إِيمَانُهُ، فَأَخَذَ يَعْتَرِضُ! وَفِيهِم مَنْ خَرَجَ إِلَىٰ الْكُفْرِ، وَرَأَىٰ أَنَّ مَا يَجْرِي كَالْعَبَثِ، وَقَالَ: مَا فَائِدَةُ الإِعْدَامِ بَعْدَ الإِيجَادِ، وَالابْتِلَاءِ مِمَّنْ هُوَ غَنِيٌّ عَنْ أَذَانَا؟!

فَقُلْتُ لِبَعْضِ مَنْ كَانَ يَرْمُزُ إِلَىٰ هَذَا: إِنْ حَضَرَ عَقْلُكَ وَقَلْبُكَ؛ حَدَّثْتُكَ، وَإِنْ كُنْتَ تَتَكَلَّمُ بِمُجَرَّدِ وَاقِعِكَ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَإِنْصَافٍ؛ فَالْحَدِيثُ مَعَكَ ضَائِعٌ.

وَيْحَكَ! أَحْضِرْ عَقْلَكَ وَقَلْبَكَ! وَاسْمَعْ مَا أَقُولُ:

أَلَيْسَ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ مَالِكٌ، وَلِلْمَالِكِ أَنْ يَتَصَرَّفَ كَيْفَ يَشَاءُ؟ أَلَيْسَ قَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ حَكِيمٌ، وَالْحَكِيمُ لَا يَعْبَثُ؟!

وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ فِي نَفْسِكَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ شَيْئًا، فَإِنَّهُ قَدْ سَمِعْنَا عَنْ جَالِينُوسَ(١) أَنَّهُ قَالَ: مَا أَدْرِي أَحَكِيمٌ هُوَ أَمْ لَا؟!

وَالسَّبَبُ فِي قَوْلِهِ هَذَا؟ أَنَّهُ رَأَىٰ نَقْضًا بَعْدَ إِحْكَامٍ، فَقَاسَ الْحَالَ عَلَىٰ أَحْوَالِ الْخَلْقِ، وَهُوَ أَنَّ مَنْ بَنَىٰ ثُمَّ نَقَضَ لَا لِمَعْنًىٰ فَلَيْسَ بِحَكِيمٍ.

---

(١) جالينوس: ومعناها الساكن. - وهو يوناني المنشأ - من أشهر علماء الطب والصيدلة في العصر الروماني، أول مَن أدخل المستحضرات الدوائية المركبة في مجال الصيدلة، وأول مَن حضر صبغة الأفيون ومستحضرات بعض النباتات الطبية، التي أطلق عليها فيما بعد اسم (الجالينات). ولابن الحزم:(اخْتِصَار كَلَامِ جَالِينوس).

وَجَوَابُهُ لَوْ كَانَ حَاضِرًا أَنْ يُقَالَ: بِمَاذَا بَانَ لَكَ أَنَّ النَّقْصَ لَيْسَ بِحِكْمَةٍ؟ أَلَيْسَ بِعَقْلِكَ الَّذِي وَهَبَهُ الصَّانِعُ لَكَ؟ وَكَيْفَ يَهَبُ لَكَ الذِّهْنَ الْكَامِلَ وَيَفُوتُهُ هُوَ الْكَمَالُ؟!

وَهَذِهِ الْمِحْنَةُ الَّتِي جَرَتْ لِإِبْلِيسَ، فَإِنَّهُ أَخَذَ يَعِيبُ الْحِكْمَةَ بِعَقْلِهِ.

فَلَوْ فَكَّرَ عَلِمَ أَنَّ وَاهِبَ الْعَقْلِ أَعْلَىٰ مِنَ الْعَقْلِ، وَأَنَّ حِكْمَتَهُ أَوْفَىٰ مِنْ كُلِّ حَكِيمٍ؛ لِأَنَّهُ بِحِكْمَتِهِ التَّامَّةِ أَنْشَأَ الْعُقُولَ.

فَهَذَا إِذَا تَأَمَّلَهُ الْمُنْصِفُ، زَالَ عَنْهُ الشَّكُّ.

وَقَدْ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَىٰ نَحْوِ هَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾[الطور:٣٩]؛ أَيْ: أَجَعَلَ لِنَفْسِهِ النَّاقِصَاتِ، وَأَعْطَاكُمُ الْكَامِلِيْنَ؟!

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ نُضِيْفَ الْعَجْزَ عَنْ فَهْمِ مَا يَجْرِي إِلَىٰ نَفْسِنَا، وَنَقُوْلَ: هَذَا فِعْلُ عَالِمٍ حَكِيْمٍ، وَلَكِنْ مَا يَبِيْنُ لَنَا مَعْنَاهُ.

وَلَيْسَ هَذَا بِعَجَبٍ؛ فَإِنَّ مُوْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَفِيَ عَلَيْهِ وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي نَقْضِ السَّفِيْنَةِ الصَّحِيْحَةِ، وَقَتْلِ الْغُلَامِ الْجَمِيْلِ، فَلَمَّا بَيَّنَ لَهُ الْخَضِرُ وَجْهَ الْحِكْمَةِ؛ أَذْعَنَ. فَلْنَكُنْ مَعَ الْخَالِقِ كَمُوْسَىٰ مَعَ الْخَضِرِ.

أَوَلَسْنَا نَرَىٰ الْمَائِدَةَ الْمُسْتَحْسَنَةَ بِمَا عَلَيْهَا مِنْ فُنُوْنِ الطَّعَامِ النَّظِيْفِ[1] الظَّرِيْفِ يُقْطَعُ وَيُمْضَغُ، [وَيَصِيرُ إِلَىٰ مَا نَعْلَمُ][2]، وَلَسْنَا نَمْلِكُ تَرْكَ تِلْكَ الأَفْعَالِ، وَلَا تُنْكِرُ الإِفْسَادَ لَهُ؛ لِعِلْمِنَا بِالْمَصْلَحَةِ البَاطِنَةِ فِيْهِ.

فَمَا الْمَانِعُ أَنْ يَكُوْنَ فِعْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ لَهُ بَاطِنٌ لا نَعْلَمُهُ؟!

وَمِنْ أَجْهَلِ الْجُهَّالِ العَبْدُ الْمَمْلُوْكُ إِذَا طَلَبَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَىٰ سِرِّ مَوْلَاهُ؛ فَإِنَّ فَرْضَهُ التَّسْلِيْمُ لَا الاعْتِرَاضُ.

---

(١) جاء في الأصل: [النفيف] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنى به.

(٢) ليست في الأصل وأثبتناها؛ لتمام المعنى بها.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الابْتِلَاءِ بِمَا تُنْكِرُهُ الطِّبَاعُ إِلَّا أَنْ يَقْصِدَ إِذْعَانَ العَقْلِ وَتَسْلِيمَهُ؛ لَكَفَىٰ.

وَلَقَدْ تَأَمَّلْتُ حَالَةً عَجِيبَةً، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَقْصُودُ بِالْمَوْتِ هِيَ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ فِي غَيْبٍ لا يُدْرِكُهُ الإِحْسَاسُ؛ فَلَوْ أَنَّهُ لَمْ يَنْقُضْ هَذِهِ البُنْيَةَ؛ لَتَخَايَلَ لِلإِنْسَانِ أَنَّهُ صُنِعَ لَا بِصَانِعٍ؛ فَإِذَا وَقَعَ الْمَوْتُ؛ عَرَفَتِ النَّفْسُ نَفْسَهَا، الَّتِي كَانَتْ لَا تَعْرِفُهَا؛ لِكَوْنِهَا فِي الْجَسَدِ، وَتُدْرِكُ عَجَائِبَ الأُمُورِ بَعْدَ رَحِيلِهَا؛ فَإِذَا رُدَّتْ إِلَىٰ البَدَنِ؛ عَرَفَتْ ضَرُورَةً أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِمَنْ أَعَادَهَا، وَتَذَكَّرَتْ حَالَهَا فِي الدُّنْيَا - فَإِنَّ الأَفْكَارَ[1] تُعَادُ كَمَا تُعَادُ الأَبْدَانُ -، فَيَقُولُ قَائِلُهُم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾[الطور: ٢٦].

وَمَتَىٰ رَأَتْ مَا قَدْ وُعِدَتْ بِهِ مِنْ أُمُورِ الآخِرَةِ؛ أَيْقَنَتْ يَقِينًا لَا شَكَّ مَعَهُ - وَلَا يَحْصُلُ هَذَا بِإِعَادَةِ مَيِّتٍ سِوَاهَا؛ وَإِنَّمَا يَحْصُلُ بِرُؤْيَةِ هَذَا الأَمْرِ فِيهَا -، فَتُبْنَىٰ بُنْيَةٌ تَقْبَلُ البَقَاءَ، وَتُسْكَنُ جَنَّةً لَا يَنْقَضِي دَوَامُهَا، فَيَصْلُحُ بِذَلِكَ اليَقِينِ أَنْ تُجَاوِرَ الْحَقَّ؛ لِأَنَّهَا آمَنَتْ بِمَا وَعَدَ، وَصَبَرَتْ بِمَا ابْتَلَىٰ، وَسَلَّمَتْ لِأَقْدَارِهِ، فَلَمْ تَعْتَرِضْ، وَرَأَتْ فِي غَيْرِهَا العِبَرَ، ثُمَّ فِي نَفْسِهَا؛ فَهَذِهِ هِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾[الفجر: ٢٨-٢٩].

فَأَمَّا الشَّاكُّ وَالكَافِرُ، فَيَحِقُّ لَهُمَا الدُّخُولُ إِلَىٰ النَّارِ، وَاللُّبْثُ فِيهَا؛ لِأَنَّهُمَا رَأَيَا الأَدِلَّةَ، وَلَمْ يَسْتَفِيدَا، وَنَازَعَا الْحَكِيمَ، وَاعْتَرَضَا عَلَيْهِ، فَعَادَ شُؤْمُ كُفْرِهِمَا يَطْمِسُ قُلُوبَهُمَا، فَبَقِيَتْ عَلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا لَمْ تَنْتَفِعْ بِالدَّلِيلِ فِي الدُّنْيَا؛ لَمْ تَنْتَفِعْ بِالْمَوْتِ وَالإِعَادَةِ، وَدَلِيلُ بَقَاءِ الْخَبَثِ فِي القُلُوبِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾[الأنعام: ٢٨].

فَنَسْأَلُ اللهَ ﷻ عَقْلًا مُسَلِّمًا، يَقِفُ عَلَىٰ حَدِّهِ، وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَىٰ خَالِقِهِ وَمُوجِدِهِ، ثُمَّ الوَيْلُ لِلْمُعْتَرِضِ! أَيَرُدُّ اعْتِرَاضُهُ الأَقْدَارَ؟! فَمَا يَسْتَفِيدُ إِلَّا الْخِزْيَ! نَعُوذُ بِاللهِ مِمَّنْ خُذِلَ.

---

(١) جاء في الأصل: [الأذكار] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنى به..

* [٧٩-٢٨٥] [خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ لَمْ يَحْتَرِزْ بِعَقلِهِ؛ هَلَكَ بِعَقلِهِ]

سَأَلَنِي سَائِلٌ: قَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: «مَنْ لَمْ يَحْتَرِزْ بِعَقْلِهِ؛ هَلَكَ بِعَقْلِهِ» فَمَا مَعْنَىٰ هَذَا؟

فَبَقِيْتُ مُدَّةً لَا يَنْكَشِفُ لِي الْمَعْنَىٰ، ثُمَّ اتَّضَحَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا طُلِبَتْ مَعْرِفَةُ ذَاتِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ مِنَ العَقْلِ؛ فَزِعَ إِلَىٰ الْحِسِّ، فَوَقَعَ التَّشْبِيهُ.

فَالاحْتِرَازُ مِنَ الْعَقْلِ بِالْعَقْلِ هُوَ: أَنْ يَنْظُرَ، فَيَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ جِسْمًا وَلَا شِبْهًا لِشَيْءٍ[1].

وَإِذَا نَظَرَ العَاقِلُ إِلَىٰ أَفْعَالِ البَارِي سُبْحَانَهُ؛ رَأَىٰ أَشْيَاءَ لَا يَقْتَضِيهَا العَقْلُ؛ مِثْلَ الآلَامِ، وَالذَّبْحِ لِلْحَيَوَانِ، وَتَسْلِيْطِ الأَعْدَاءِ عَلَىٰ الأَوْلِيَاءِ، مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ الْمَنْعِ، وَالابْتِلَاءِ بِالْمَجَاعَةِ لِلصَّالِحِيْنَ، وَالْمُعَاقَبَةِ عَلَىٰ الذَّنْبِ بَعْدَ البُعْدِ بِزَلَّةٍ، وَأَشْيَاءَ كَثِيْرَةٍ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ؛ يَعْرِضُهَا العَقْلُ عَلَىٰ العَادَاتِ فِي تَدْبِيْرِهِ، فَيَرَىٰ أَنَّهُ لَا حِكْمَةَ تَظْهَرُ لَهُ فِيهَا.

فَالاحْتِرَازُ مِنَ العَقْلِ بِهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ ثَبَتَ عِنْدِي أَنَّهُ مَالِكٌ، وَأَنَّهُ حَكِيْمٌ، وَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا عَبَثًا؟ فَيَقُوْلُ: بَلَىٰ. فَيُقَالُ: فَنَحْنُ نَحْتَرِزُ مِنْ تَدْبِيْرِكَ الثَّانِي بِمَا ثَبَتَ عِنْدَكَ فِي الأَوْلِ؛ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنَّهُ خَفِيَ عَلَيْكَ وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي فِعْلِهِ، فَيَجِبُ التَّسْلِيْمُ لَهُ؛ لِعِلْمِنَا أَنَّهُ حَكِيْمٌ، حِيْنَئِذٍ يُذْعِنُ وَيَقُوْلُ: قَدْ سَلَّمْتَ.

وَكَثِيْرٌ مِنَ الْخَلْقِ نَظَرُوْا لِمُقْتَضَىٰ وَاقِعِ الْعَقْلِ الأَوَّلِ، فَاعْتَرَضُوْا!

---

(١) اِعْلَم أَنَّ الْحُكْمَ فِي الْمَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ الْفِقْهِيَّةِ وَمَسَائِلِ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَحَقَائِقِهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ كُلُّ هَذِهِ الأُمُورِ قَدْ دَخَلَ فِيهَا أَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ مُحْدَثَةٌ وَأَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ مُشْتَرَكَةٌ. فَالْوَاجِبُ أَنْ يَجْعَلَ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ أَصْلًا فِي جَمِيعِ هَذِهِ الأُمُورِ ثُمَّ يَرُدَّ مَا تَكَلَّمَ فِيهِ النَّاسُ إِلَىٰ ذَلِكَ وَيُبَيِّنُ مَا فِي الأَلْفَاظِ الْمُجْمَلَةِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُوَافِقَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَتُقْبَلُ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَعَانِي الْمُخَالَفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَتُرَدُّ. ومثل ذلك: الجسم والعرض والجوهر والحيز وأمثالها من تعابير أهل الكلام من المشترك اللفظي أو المجمل الذي لا يثبته أهل السنة ولا ينفونه، وإنما لهم فيه تفصيل يُراجع في «مجموعة الفتاوى» لابن تيمية.(ج٥/ ص٢٥ وج١٧/ ص١٦٨).

حَتَّىٰ إِنَّ العَامِيَّ يَقُوْلُ: كَيْفَ قَضَىٰ عَلَيَّ بِسُوْءِ عَاقِبَتِي؟![١] وَلِمَ ضَيَّقَ رِزْقِي؟! وَمَا وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي ابْتِلَائِي بِفُنُوْنِ البَلَاءِ؟!

وَلَوْ أَنَّهُ تَلَمَّحَ أَنَّهُ مَالِكٌ حَكِيْمٌ؛ لَمْ يَبْقَ إِلَّا التَّسْلِيْمُ لِمَا خَفِيَ.

وَلَقَدْ أَنِسَ بِبَدِيْهَةِ العَقْلِ خَلْقٌ مِنَ الأَكَابِرِ[٢]، أَوَّلُهُمْ إِبْلِيْسُ؛ فَإِنَّهُ رَأَىٰ تَفْضِيْلَ النَّارِ عَلَىٰ الطِّيْنِ، فَاعتَرَضَ.

وَرَأَيْنَا خَلْقًا مِمَّنْ نُسِبَ إِلَىٰ العِلْمِ قَدْ زَلُّوْا فِي هَذَا، وَاعْتَرَضُوْا، وَرَأَوْا أَنَّ كَثِيْرًا مِنَ الأَفْعَالِ لَا حِكْمَةَ تَحْتَهَا.

وَالسَّبَبُ مَا ذَكَرْنَا، وَهُوَ الأُنْسُ بِنَظَرِ العَقْلِ فِي البَدِيْهَةِ وَالعَادَاتِ، وَالقِيَاسُ عَلَىٰ أَفْعَالِ الْمَخْلُوْقِيْنَ.

وَلَوْ اِسْتَخْرَجُوْا عِلْمَ العَقْلِ البَاطِنِ، وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ الكَمَالُ لِلْخَالِقِ، وَانْتَفَتْ عَنْهُ النَّقَائِصُ، وَعُلِمَ أَنَّهُ حَكِيْمٌ لَا يَعْبَثُ؛ لَبَقِيَ التَّسْلِيْمُ لِمَا لَا يُعْقَلُ.

وَاعْتَبِرْ هَذَا بِحَالِ الْخَضِرِ وَمُوْسَىٰ ﷺ، لَمَّا فَعَلَ الْخَضِرُ أَشْيَاءَ تَخْرُجُ عَنِ الْعَادَاتِ أَنْكَرَ مُوْسَىٰ، وَنَسِيَ إِعْلَامَهُ لَهُ بِأَنِّي أَنْظُرُ فِيْمَا لَا تَعْلَمُهُ مِنَ الْعَوَاقِبِ؛ فَإِذَا خَفِيَتْ مَصْلَحَةُ الْعَوَاقِبِ عَلَىٰ مُوْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ مَخْلُوْقٍ؛ فَأَوْلَىٰ أَنْ يَخْفَىٰ عَلَيْنَا كَثِيْرٌ مِنْ حِكْمَةِ الْحَكِيْمِ.

وَهَذَا أَصْلٌ؛ إِنْ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَ الإِنْسَانِ؛ أَخْرَجَهُ إِلَىٰ الاعْتِرَاضِ وَالكُفْرِ، وَإِنْ ثَبَتَ؛ اِسْتَرَاحَ عِنْدَ نُزُوْلِ كُلِّ آفَةٍ.

---

(١) جاء في الأصل [سُوْء] والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٢) أي: أكابر المجرمين المتكبرين؛ لقوله بعد ذلك: أَوَّلُهُمْ إِبْلِيْسُ.

(٧)

[الدُّعَاءُ وَالدَّاعِي وَاخْتِيَار اللهِ رَبّ العَالَمِيْن]

* [٧٧-٨٠] [خَاطِرَةٌ]:

[وُجُوبُ مُلازَمَة بَاب المَولَى ﷻ عَلَى كُلّ حَالٍ]

يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُلازِمَ بَابَ مَوْلاهُ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، وَأَنْ يَتَعَلَّقَ بِذَيْلِ فَضْلِهِ، إِنْ عَصَىٰ وَإِنْ طَاعَ، وَلْيَكُنْ لَهُ أُنْسٌ فِي خَلْوَتِهِ بِهِ؛ فَإِنْ وَقَعَتْ وَحْشَةٌ؛ فَلْيَجْتَهِدْ فِي رَفْعِ الْمُوْحِشِ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ[1]:

أَمُسْتَوْحِشٌ أَنْتَ مِمَّا جَنَيْتَ ... فَأَحْسِنْ إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسِ

فَإِنْ رَأَىٰ نَفْسَهُ مَائِلًا إِلَىٰ الدُّنْيَا؛ طَلَبَهَا مِنْهُ، أَوْ إِلَىٰ الآخِرَةِ؛ سَأَلَهُ التَّوْفِيْقَ لِلْعَمَلِ لَهَا؛ فَإِنْ خَافَ ضَرَرَ مَا يَرُوْمُهُ مِنَ الدُّنْيَا؛ سَأَلَ اللهَ إِصْلَاحَ قَلْبِهِ، وَطِبَّ مَرَضِهِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا صَلَحَ؛ لَمْ يَطْلُبْ مَا يُؤْذِيْهِ. وَمَنْ كَانَ هَكَذَا؛ كَانَ فِي العَيْشِ الرَّغِدِ.

غَيْرَ أَنَّ مِنْ ضَرُوْرَةِ هَذِهِ الْحَالِ مُلَازَمَةَ التَّقْوَىٰ؛ فَإِنَّهُ لَا يَصْلُحُ الأُنْسُ إِلَّا بِهَا.

وَقَدْ كَانَ أَرْبَابُ التَّقْوَىٰ يَتَشَاغَلُوْنَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا عَنِ اللَّجَإِ وَالسُّؤَالِ.

وَفِي الْحَدِيْثِ:[2] أَنَّ قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ لَمَّا صَافَّ التُّرْكَ؛ هَالَهُ أَمْرُهُمْ، فَقَالَ: أَيْنَ مُحَمَّدُ بْنُ

---

(١) البيت من البحر: [المتقارب]

(٢) هذا الخبر ذكره الدينوري في «عيون الأخبار» (ج١/ ص٢٩٤/ الدعاء عند اللقاء) والذهبي في «السير» (ج٦/ ص٣٤٣/ ترجمة: ابن واسع) أَمَّا قُتَيْبَةَ فهو: قُتَيْبَةُ بنُ مُسْلِمِ بنِ عَمْرِو بنِ البَاهِلِيُّ الأَمِيْرُ، أَبُو حَفْصٍ، أَحَدُ الأَبْطَالِ وَالشُّجْعَانِ، وَمِنْ ذَوِي الحَزْمِ، وَالدَّهَاءِ، مَاتَ سَنَةَ:(٩٦هـ). وَأَمَّا مُحَمَّدُ فهو: مُحَمَّدُ بنُ وَاسِعِ بنِ جَابِرِ بنِ الأَخْنَسِ الأَزْدِيُّ الإِمَامُ، الرَّبَّانِيُّ، أَبُو بَكْرٍ البَصْرِيُّ. مَاتَ سَنَةَ:(١٢٧هـ). *«صَافَّ التُّرْكَ»؛ أي: واجههم في المعركة. وَ«جَانِحٌ»؛ أي: مَالَ أو أَقْبَلَ. وفي «السير»: «جَامِحٌ»؛ أي: أَسْرَعَ. وَ«سِيَةِ قَوْسِهِ»؛ أي: ما انعطف من طرفيه. والسِّيَةُ: العَصَا أو طَرَفُها. وَ«يُوْمِيءُ» الإيماء: الإشارة. وفي «السير»: «يُبَصْبِصُ» وفي «العيون»: «ينضنض»؛ أي: يُحَرِّكُه. وَ«الفَارِدَةُ»؛ أي: الوحيدة. وَ«سَيْفِ شَهِيْرٍ»؛ أي: مشهور في وجه الأعداء. وَ«سِنَانٍ =

وَاسِعٍ؟ فَقِيلَ: هُوَ فِي أَقْصَىٰ الْمَيْمَنَةِ، جَانِحٌ عَلَىٰ سِيَةِ قَوْسِهِ، يُوْمِيءُ بِإِصْبَعِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ. فَقَالَ قُتَيْبَةُ: تِلْكَ الإِصْبَعُ الفَارِدَةُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ سَيْفٍ شَهِيْرٍ وَسِنَانٍ طَرِيْرٍ. فَلَمَّا فُتِحَ عَلَيْهِمْ؛ قَالَ لَهُ: مَا كُنْتَ تَصنَعُ؟ قَالَ: آخُذُ لَكَ بِمَجَامِعِ الطُّرُقِ.

* [٨١-٢٨٦] [خَاطِرَةٌ]:

[التَّوَسُّلُ بِنِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ قَبْلَ الدُّعَاءِ]

بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ الْكُرَمَاءِ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ، فَقَالَ: أَنَا الَّذِي أَحْسَنْتَ [إِلَيَّ][1] يَوْمَ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ: مَرْحَبًا بِمَنْ يَتَوَسَّلُ إِلَيْنَا بِنَا، ثُمَّ قَضَىٰ حَاجَتَهُ. فَأَخَذْتُ مِنْ ذَلِكَ إِشَارَةً، فَنَاجَيْتُ بِهَا، فَقُلْتُ: أَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُ مِنْ زَمَنِ الطُّفُوْلَةِ، وَحَفِظْتَهُ مِنَ الضَّلَالِ، وَعَصَمْتَهُ عَنْ كَثِيْرٍ مِنَ الذُّنُوْبِ.

وَأَلْهَمْتَهُ طَلَبَ العِلْمِ، لَا بِفَهْمٍ لِشَرَفٍ؛ لِمَوْضِعِ الصِّغَرِ، وَلَا بِحُبِّ وَالِدِهِ؛ وَرَزَقْتَهُ فَهْمًا لِتَفَقُّهِهِ وَتَصْنِيْفِهِ، وَهَيَّأْتَ لَهُ أَسْبَابَ جَمْعِهِ، وَقُمْتَ بِرِزْقِهِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ مِنْهُ، وَلَا ذُلٍّ لِلْخَلْقِ بِالسُّؤَالِ. وَحَامَيْتَ عَنْهُ الأَعْدَاءَ، فَلَمْ يَقْصِدْهُ جَبَّارٌ. وَجَمَعْتَ لَهُ مَا لَمْ تَجْمَعْ لِأَكْثَرِ الْخَلْقِ مِنْ فُنُوْنِ العِلْمِ، الَّتِي لَا تَكَادُ تَجْتَمِعُ فِي شَخْصٍ. وَأَضَفْتَ إِلَيْهَا تَعَلُّقَ القَلْبِ بِمَعْرِفَتِكَ وَمَحَبَّتِكَ، وَحُسْنَ العِبَارَةِ[2] وَلُطْفَهَا فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْكَ. وَوَضَعْتَ لَهُ فِي الْقُلُوْبِ القَبُوْلَ، حَتَّىٰ إِنَّ الْخَلْقَ يُقْبِلُوْنَ عَلَيْهِ، وَيَقْبَلُوْنَ مَا يَقُوْلُهُ، وَلَا يَشُكُّوْنَ فِيْهِ، وَيَشْتَاقُوْنَ إِلَىٰ كَلَامِهِ، وَلَا يُدْرِكُهُمُ الْمَلَلُ مِنْهُ. وَصُنْتَهُ بِالعُزْلَةِ عَنْ مُخَالَطَةِ مَنْ لَا يَصْلُحُ. وَآنَسْتَهُ فِي خَلْوَتِهِ بِالعِلْمِ تَارَةً، وَبِمُنَاجَاتِكَ أُخْرَىٰ، وَإِنْ ذَهَبْتُ أَعُدُّ؛ لَمْ أَقْدِرْ عَلَىٰ إِحْصَاءِ عُشَيْرِ العُشَيْرِ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فَيَا مُحْسِنًا إِلَيَّ قَبْلَ أَنْ أَطْلُبَ! لَا تُخَيِّبْ أَمَلِي فِيْكَ وَأَنَا أَطْلُبُ؛ فَبِإِنْعَامِكَ الْمُتَقَدِّمِ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ.

= طَرِيْرٍ»؛ أي: سِنَانُ الرُّمحِ مُحَدَّدٌ؛ أي: لَهُ حَدٌّ. ويكون «الطَّرُّ» هُنَا: الشَّقُّ والقَطعَ. وفي «السير» «شَابٌّ طَرِيْرٌ»؛ أي: ذُو طُرَّةٍ وهَيْئةٍ حَسَنَةٍ. وَقِيلَ: الْمُستَقبِل الشَّبَاب. وبِـ«مَجَامِعِ الطُّرُقِ»؛ أي: أنه جمع في دعائه أنواع الحمد والثناء على الله تعالى؛ فجمع بذلك طرق إجابة الدعاء.

(١) جاء في الأصل: [إليك] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٢) جاء في الأصل: [العبادة] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

* [٨٢-٢٥٠] [خَاطِرَةٌ]:

[فلْتَكُنْ مِنَ المُتَعَبِّدِينَ بِالدُّعَاءِ، المُوقِنِينَ بِالإِجَابَةِ]

إِذَا وَقَعْتَ فِي مِحْنَةٍ يَصْعُبُ الْخَلَاصُ مِنْهَا؛ فَلَيْسَ لَكَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَاللَّجَأُ، بَعْدَ أَنْ تُقَدِّمَ التَّوْبَةَ مِنَ الذُّنُوْبِ؛ فَإِنَّ الزَّلَلَ يُوْجِبُ العُقُوْبَةَ؛ فَإِذَا زَالَ الزَّلَلُ بِالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوْبِ، ارتَفَعَ السَّبَبُ. فَإِذَا تُبْتَ وَدَعَوْتَ، وَلَمْ تَرَ لِلإِجَابَةِ أَثَرًا؛ فَتَفَقَّدْ أَمْرَكَ: فَرُبَّمَا كَانَتِ التَّوْبَةُ مَا صَحَّتْ، فَصَحِّحْهَا، ثُمَّ ادْعُ، وَلا تَمَلَّ مِنَ الدُّعَاءِ. فَرُبَّمَا كَانَتِ المَصْلَحَةُ فِي تَأْخِيرِ الإِجَابَةِ، وَرُبَّمَا لَمْ تَكُنْ الْمَصْلَحَةُ فِي الإِجَابَةِ؛ فَأَنْتَ تُثَابُ، وَتُجَابُ إِلَىٰ مَنَافِعِكَ، وَمِنْ مَنَافِعِكَ أَلَّا تُعْطَىٰ مَا طَلَبْتَ، بَلْ تُعَوَّضَ غَيْرَهُ. فَإِذَا جَاءَ إِبْلِيْسُ، فَقَالَ: كَمْ تَدْعُوْهُ وَلَا تَرَىٰ إِجَابَةً! فَقُلْ: أَنَا أَتَعَبَّدُ بِالدُّعَاءِ، وَأَنَا مُوْقِنٌ أَنَّ الْجَوَابَ حَاصِلٌ؛ غَيْرَ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ تَأْخِيْرُهُ لِبَعْضِ الْمَصَالِحِ عَلَيَّ مُنَاسِبٌ، وَلَو لَمْ يَحْصُلْ؛ حَصَلَ التَّعَبُّدُ وَالذُّلُّ. فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْأَلَ شَيْئًا إِلَّا وَتُقْرِنُهُ بِسُؤَالِ الْخِيَرَةِ؛ فَرُبَّ مَطْلُوْبٍ مِنَ الدُّنْيَا كَانَ حُصُوْلُهُ سَبَبًا لِلْهَلَاكِ. وَإِذَا كُنْتَ قَدْ أُمِرْتَ بِالْمُشَاوَرَةِ فِي أُمُوْرِ الدُّنْيَا لِجَلِيْسِكَ، لِيُبَيِّنَ لَكَ فِي بَعْضِ الآرَاءِ مَا يُعْجِزُ رَأْيَكَ، وَتَرَىٰ أَنَّ مَا وَقَعَ لَكَ لَا يَصْلُحُ. فَكَيْفَ لا تَسْأَلُ الْخَيْرَ رَبَّكَ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمَصَالِحِ؟! وَالاسْتِخَارَةُ مِنْ حُسْنِ الْمُشَاوَرَةِ.

* [٨٣-٧٤] [خَاطِرَةٌ]:

[إِيَّاكَ أَنْ تَستَطِيلَ مُدَّةَ الإِجَابَةِ]

تَأَمَّلْتُ حَالَةً عَجِيْبَةً، وَهِيَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ تَنْزِلُ بِهِ النَّازِلَةُ، فَيَدْعُوْ، وَيُبَالِغُ، فَلَا يَرَىٰ أَثَرًا لِلإِجَابَةِ، فَإِذَا قَارَبَ اليَأْسَ؛ نُظَرَ حِيْنَئِذٍ إِلَىٰ قَلْبِهِ؛ فَإِنْ كَانَ رَاضِيًا بِالأَقْدَارِ، غَيْرَ قَنُوْطٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ ﷻ فَالغَالِبُ تَعْجِيْلُ الإِجَابَةِ حِيْنَئِذٍ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ يَصْلُحُ الإِيْمَانُ، وَ [يُطْرَدُ][1] الشَّيْطَانُ، وَهُنَاكَ، تَبِيْنُ مَقَادِيْرُ الرِّجَالِ. وَقَدْ أُشِيْرَ إِلَىٰ هَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ

(١) ليست في الأصل وأثبتناها من مخطوط «ي»، لتمام المعنىٰ بها. وفي بعض النسخ المطبوعة: [ويُهزم].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢١٤].

وَكَذَلِكَ جَرَىٰ لِيَعْقُوْبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ لَمَّا فَقَدَ وَلَدًا، وَطَالَ الأَمْرُ عَلَيْهِ، لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الْفَرَجِ، فَأُخِذَ وَلَدُهُ الآخَرُ، وَلَمْ يَنْقَطِعْ أَمَلُهُ مِنْ فَضْلِ رَبِّهِ: ﴿أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

وَكَذَلِكَ قَالَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[مريم: ٤].

فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَطِيْلَ مُدَّةَ الإِجَابَةِ، وَكُنْ نَاظِرًا إِلَىٰ أَنَّهُ الْمَالِكُ. وَإِلَىٰ أَنَّهُ الْحَكِيْمُ فِي التَّدْبِيْرِ، وَالعَالِمُ بِالْمَصَالِحِ. وَإِلَىٰ أَنَّهُ يُرِيْدُ اِخْتِبَارَكَ، لِيَبْلُوَ أَسْرَارَكَ[1]. وَإِلَىٰ أَنَّهُ يُرِيْدُ أَنْ يَرَىٰ تَضَرُّعَكَ. وَإِلَىٰ أَنَّهُ يُرِيْدُ أَنْ يَأْجُرَكَ بِصَبْرِكَ... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ. وَإِلَىٰ أَنَّهُ يَبْتَلِيْكَ بِالتَّأْخِيْرِ، لِتُحَارِبَ وَسْوَسَةَ إِبْلِيْسَ.

وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ تُقَوِّي الظَّنَّ فِي فَضْلِهِ، وَتُوْجِبُ الشُّكْرَ لَهُ، إِذْ أَهَّلَكَ بِالبَلَاءِ لِلالتِفَاتِ إِلَىٰ سُؤَالِهِ، وَفَقْرُ[2] الْمُضْطَرِّ إِلَىٰ اللَّجَإِ إِلَيْهِ غِنًىٰ كُلُّهُ.

* [٨٤-٣٨] [خَاطِرَةٌ]:

[مِنْ أَسْبَابِ تَأْخِيرِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ[3]]

رَأَيْتُ مِنَ الْبَلَاءِ الْعُجَابِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَدْعُوْ فَلَا يُجَابُ، فَيُكَرِّرُ الدُّعَاءَ، وَتَطُوْلُ الْمُدَّةُ، وَلَا يَرَىٰ أَثَرًا لِلإِجَابَةِ. فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هَذَا مِنَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَىٰ الصَّبْرِ، وَمَا يَعْرِض

(١) جاء في الأصل: [أسراركم] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتاه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٢) جاء في الأصل: [الفقر] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتاه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٣) قال ابن القيم في «الجواب الكافي»(ص٦، ٧): «الدُّعَاءُ مِنْ أَقْوَىٰ الأَسْبَابِ فِي دَفْعِ الْمَكْرُوهِ، وَحُصُولِ الْمَطْلُوبِ، وَلَكِنْ قَدْ يَتَخَلَّفُ أَثَرُهُ عَنْهُ، إِمَّا لِضَعْفِهِ فِي نَفْسِهِ - بِأَنْ يَكُونَ دُعَاءً لَا يُحِبُّهُ اللهُ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْعُدْوَانِ - وَإِمَّا لِضَعْفِ الْقَلْبِ وَعَدَمِ إِقْبَالِهِ عَلَىٰ اللهِ وَجَمْعِيَّتِهِ عَلَيْهِ وَقْتَ الدُّعَاءِ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الْقَوْسِ الرِّخْوِ جِدًّا، فَإِنَّ السَّهْمَ يَخْرُجُ مِنْهُ خُرُوجًا ضَعِيفًا، وَإِمَّا لِحُصُولِ الْمَانِعِ مِنَ الإِجَابَةِ: مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ، وَالظُّلْمِ، وَرَيْنِ الذُّنُوبِ عَلَىٰ الْقُلُوبِ، وَاسْتِيلَاءِ الْغَفْلَةِ وَالشَّهْوَةِ وَاللَّهْوِ، وَغَلَبَتِهَا عَلَيْهَا».

لِلنَّفْسِ مِنَ الْوَسْوَاسِ فِي تَأْخِيرِ الْجَوَابِ مَرَضٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ طِبٍّ.

وَلَقَدْ عَرَضَ لِيْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ؛ فَإِنَّهُ نَزَلَتْ بِي نَازِلَةٌ، فَدَعَوْتُ، وَبَالَغْتُ، فَلَمْ أَرَ الإِجَابَةَ، فَأَخَذَ إِبْلِيْسُ يَجُوْلُ فِي حَلَبَاتِ كَيْدِهِ. فَتَارَةً يَقُوْلُ: الكَرَمُ وَاسِعٌ، وَالبُخْلُ مَعْدُوْمٌ؛ فَمَا فَائِدَةُ تَأْخِيْرِ الْجَوَابِ؟! فَقُلْتُ لَهُ: اِخْسَأْ يَا لَعِيْنُ! فَمَا أَحْتَاجُ إِلَىٰ تَقَاضٍ، وَلَا أَرْضَاكَ وَكِيْلًا.

ثُمَّ عُدْتُ إِلَىٰ نَفْسِي فَقُلْتُ: إِيَّاكِ وَمُسَاكَنَةَ وَسْوَسَتِهِ؛ فَإِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي تَأْخِيرِ الإِجَابَةِ إِلَّا أَنْ يَبْلُوَكَ الْمُقَدِّرُ فِي مُحَارَبَةِ العَدُوِّ؛ لَكَفَىٰ فِي الْحِكْمَةِ. قَالَتْ: فَسَلِّنِي[1] عَنْ تَأْخِيرِ الإِجَابَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ النَّازِلَةِ! فَقُلْتُ: قَدْ ثَبَتَ بِالبُرْهَانِ أَنَّ اللهَ ﷻ مَالِكٌ، وَلِلْمَالِكِ التَّصَرُّفُ بِالْمَنْعِ وَالعَطَاءِ؛ فَلَا وَجْهَ لِلاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ[2].

وَالثَّانِي: أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَتْ حِكْمَتُهُ بِالأَدِلَّةِ القَاطِعَةِ؛ فَرُبَّمَا رَأَيْتِ الشَّيْءَ مَصْلَحَةً، وَالْحِكْمَةُ لَا تَقْتَضِيهِ، وَقَدْ يَخْفَىٰ وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِيْمَا يَفْعَلُهُ الطَّبِيْبُ مِنْ أَشْيَاءَ تُؤْذِي فِي الظَّاهِرِ، يَقْصِدُ بِهَا الْمَصْلَحَةَ؛ فَلَعَلَّ هَذَا مِنْ ذَاكَ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ قَدْ يَكُوْنُ التَّأْخِيرُ مَصْلَحَةً، وَالاسْتِعْجَالُ مَضَرَّةً، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا يَزَالُ العَبْدُ فِي خَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ؛ يَقُوْلُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي!»[3].

وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ قَدْ يَكُوْنُ اِمْتِنَاعُ الإِجَابَةِ لِآفَةٍ فِيْكِ؛ فَرُبَّمَا يَكُوْنُ فِي مَأْكُوْلِكِ شُبْهَةٌ، أَوْ قَلْبُكَ وَقْتَ الدُّعَاءِ فِي غَفْلَةٍ، أَوْ تُزَادُ عُقُوْبَتُكَ فِي مَنْعِ حَاجَتِكِ لِذَنْبٍ مَا صَدَقْتِ فِي التَّوْبَةِ مِنْهُ.

فَابْحَثِي عَنْ بَعْضِ هَذِهِ الأَسْبَابِ؛ لَعَلَّكِ تَقَعِي بِالْمَقْصُوْدِ.

---

(١) فَسَلِّنِي؛ أَيْ: اِكْشِفْ عَنِي هَمَّ هَذِهِ الْمِحْنَةِ، وَطَيِّبْ نَفْسِي وَأَذْهِبْ مَا بِهَا مِنْ سَأَمٍ وَضِيْقٍ. تَقُوْل: سَلَّىٰ يُسَلِّي، سَلِّ، تَسْلِيَةً، فَهُوَ مُسَلٍّ، وَالْمَفْعُول مُسَلًّىٰ..

(٢) هَذَا أَوَّلُ أَسْبَابِ تَأْخِيرِ الإِجَابَةِ، وَالَّتِي ذَكَرَهَا الإِمَامُ اِبْنِ الجَوْزِيِّ.

(٣) رواه أحمد في «مسنده»(١٢٩٤٢، ١٣١٣١). ورواه الطبراني في «كتاب الدعاء» بَابُ «كراهية الاستعجال في الدعاء»(٨١). ورواه أبو يعلى في «مسنده»(٢٨٦٥). [يُنظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٥٠)].

كَمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي يَزِيْدَ رحمه الله[١]: أَنَّهُ نَزَلَ بَعْضُ الأَعَاجِمِ فِي دَارِهِ، فَجَاءَ، فَرَآهُ، فَوَقَفَ بِبَابِ الدَّارِ، وَأَمَرَ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَدَخَلَ، فَقَلَعَ طِيْنًا جَدِيْدًا قَدْ طَيَّنَهُ، فَقَامَ الأَعْجَمِيُّ وَخَرَجَ، فَسُئِلَ أَبُوْ يَزِيْدَ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: هَذَا الطِّيْنُ مِنْ وَجْهٍ فِيْهِ شُبْهَةٌ، فَلَمَّا زَالَتِ الشُّبْهَةُ؛ زَالَ صَاحِبُهَا.

وَعَنْ إِبْرَاهِيْمَ الْخَوَّاصِ[٢] رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: أَنَّهُ خَرَجَ لإِنْكَارِ مُنْكَرٍ، فَنَبَحَهُ كَلْبٌ لَهُ، فَمَنَعَهُ أَنْ يَمْضِيَ، فَعَادَ، وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، وَصَلَّىٰ، ثُمَّ خَرَجَ، فَبَصْبَصَ الكَلْبُ لَهُ[٣]، فَمَضَىٰ، وَأَنْكَرَ، فَزَالَ الْمُنْكَرُ، فَسُئِلَ عَنْ تِلْكَ الْحَالِ؟ فَقَالَ: كَانَ عِنْدِي مُنْكَرٌ، فَمَنَعَنِي الكَلْبُ، فَلَمَّا عُدْتُ؛ تُبْتُ مِنْ ذَلِكَ، فَكَانَ مَا رَأَيْتُمْ.

وَالْخَامِسُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ البَحْثُ عَنْ مَقْصُوْدِكِ بِهَذَا الْمَطْلُوْبِ؛ فَرُبَّمَا كَانَ فِي حُصُوْلِهِ زِيَادَةُ إِثْمٍ، أَوْ تَأْخِيرٌ عَنْ مَرْتَبَةِ خَيْرٍ؛ فَكَانَ الْمَنْعُ أَصْلَحَ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: أَنَّهُ كَانَ يَسْأَلُ اللهَ الغَزْوَ، فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ: إِنَّكَ إِنْ غَزَوْتَ؛ أُسِرْتَ، وَإِنْ أُسِرْتَ؛ تَنَصَّرْتَ.

وَالسَّادِسُ: أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ فَقْدُ مَا فَقَدْتِهِ سَبَبًا لِلْوُقُوْفِ عَلَىٰ البَابِ وَاللَّجَا، وَحُصُوْلُهُ سَبَبًا لِلاشْتِغَالِ عَنِ الْمَسْؤُوْلِ. وَهَذَا الظَّاهِرُ؛ بِدَلِيْلِ أَنَّهُ لَوْلَا هَذِهِ النَّازِلَةُ؛ مَا رَأَيْنَاكَ عَلَىٰ بَابِ اللَّجَا.

فَالْحَقُّ ﷻ عَلِمَ مِنَ الْخَلْقِ اشْتِغَالَهُمْ بِالبِرِّ عَنْهُ، فَلَذَعَهُمْ فِي خِلَالِ النِّعَمِ بِعَوَارِضَ تَدْفَعُهُمْ إِلَىٰ بَابِهِ؛ يَسْتَغِيْثُوْنَ بِهِ، فَهَذَا مِنَ النِّعَمِ فِي طَيِّ البَلَاءِ، وَإِنَّمَا البَلَاءُ الْمَحْضُ مَا يَشْغَلُكِ عَنْهُ، فَأَمَّا مَا يُقِيْمُكِ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ فَفِيْهِ جَمَالُكِ. وَقَدْ حُكِيَ عَنْ يَحْيَىٰ البَكَّاءِ[٤] أَنَّهُ رَأَىٰ رَبَّهُ ﷻ فِي الْمَنَامِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ! كَمْ أَدْعُوْكَ وَلَا تُجِيْبُنِي؟ فَقَالَ: يَا يَحْيَىٰ! إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَكَ. وَإِذَا تَدَبَّرْتِ هَذِهِ الأَشْيَاءَ؛ تَشَاغَلْتِ بِمَا هُوَ أَنْفَعُ لَكِ مِنْ حُصُوْلِ مَا فَاتَكِ؛ مِنْ رَفْعِ خَلَلٍ، أَوْ اعْتِذَارٍ مِنْ زَلَلٍ، أَوْ وُقُوْفٍ عَلَىٰ البَابِ إِلَىٰ رَبِّ الأَرْبَابِ.

---

(١) أَبُو يَزِيْدَ البِسْطَامِيُّ طَيْفُوْرُ بنُ عِيْسَىٰ أَحَدُ الزُّهَادُ، وَ سُلْطَانُ العَارِفِيْنَ، مَاتَ سَنَة:(٢٦١هـ).

(٢) إِبْرَاهِيمُ الْخَوَّاصُ إِبْرَاهِيمُ بنُ أَحْمَدَ بن إسماعيل، أَبُو إِسْحَاق، أَحَد شُيُوخ الصُّوفِيَّة. مَاتَ سَنَةَ:(٢٩١هـ).

(٣) بَصْبَص الكلبُ بِذَنَبه إذا حرَّكه وإنما يَفْعل ذلك من طَمع أو خَوف.

(٤) يَحْيَىٰ البَكَّاءُ شَيْخٌ، بَصْرِيٌّ، تَابِعِي، مُحَدِّثٌ، فِيهِ لِيْنٌ، وَهُوَ قَلِيْلُ الرِّوَايَةِ. مُخْتَلَفٌ فِي اسم أَبِيهِ. مَاتَ سَنَةَ: (١٣٠).

* [٨٥-١٤٨] [خَاطِرَةٌ]:

[كَيفَ نَفهَمُ أَسبَابَ تَأَخُّرِ إجَابَةِ الدُّعَاءِ]

نَزَلْتُ فِي شِدَّةٍ، وَأَكْثَرْتُ مِنَ الدُّعَاءِ أَطْلُبُ الفَرَجَ وَالرَّاحَةَ، وَتَأَخَّرَتِ الإِجَابَةُ، فَانْزَعَجَتِ النَّفْسُ، وَقَلِقَتْ؛ فَصِحْتُ بِهَا: وَيْلَكِ! تَأَمَّلِي أَمْرَكِ! أَمَمْلُوكَةٌ أَنْتِ أَمْ حُرَّةٌ مَالِكَةٌ؟! أَمُدَبَّرَةٌ أَنْتِ أَمْ مُدَبِّرَةٌ؟! أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ اِبْتِلَاءٍ وَاخْتِبَارٍ؛ فَإِذَا طَلَبْتِ أَغْرَاضَكِ، وَلَمْ تَصْبِرِي عَلَىٰ مَا يُنَافِي مُرَادَكِ. فَأَيْنَ الابْتِلَاءُ؟! وَهَلِ الابْتِلَاءُ إِلَّا الإِعْرَاضُ، وَعَكْسُ الْمَقَاصِدِ؟ فَافْهَمِي مَعْنَىٰ التَّكْلِيفِ؛ وَقَدْ هَانَ عَلَيْكِ مَا عَزَّ، وَسَهُلَ مَا اِسْتَصْعَبَ!

فَلَمَّا تَدَبَّرَتْ مَا قُلْتُهُ؛ سَكَنَتْ بَعْضَ السُّكُونِ. فَقُلْتُ لَهَا: وَعِنْدِي جَوَابٌ ثَانٍ، وَهُوَ أَنَّكِ تَقْتَضِيْنَ الْحَقَّ بِأَغْرَاضِكِ، وَلَا تَقْتَضِيْنَ نَفْسَكِ بِالْوَاجِبِ لَهُ[١]، وَهَذَا عَيْنُ الْجَهْلِ؛ وَإِنَّمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ الأَمْرُ بِالْعَكْسِ؛ لِأَنَّكِ مَمْلُوكَةٌ، وَالْمَمْلُوكُ العَاقِلُ يُطَالِبُ نَفْسَهُ بِأَدَاءِ حَقِّ الْمَالِكِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَىٰ الْمَالِكِ تَبْلِيغُهُ مَا يَهْوَىٰ.

فَسَكَنَتْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ السُّكُونِ. فَقُلْتُ لَهَا: وَعِنْدِي جَوَابٌ ثَالِثٌ، وَهُوَ أَنَّكِ قَدْ اِسْتَبْطَأْتِ الإِجَابَةَ، وَأَنْتِ سَدَدْتِ طُرُقَهَا بِالْمَعَاصِي؛ فَلَوْ قَدْ فَتَحْتِ الطَّرِيْقَ؛ أَسْرَعَتْ. كَأَنَّكِ مَا عَلِمْتِ أَنَّ سَبَبَ الرَّاحَةِ التَّقْوَىٰ! أَوَ مَا سَمِعْتِ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ﴾[الطلاق:٢-٣] ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[الطلاق:٤]؟! أَوَ مَا فَهِمْتِ أَنَّ الْعَكْسَ بِالْعَكْسِ؟! آهٍ مِنْ سُكْرِ غَفْلَةٍ صَارَ أَقْوَىٰ مِنْ كُلِّ سَكْرٍ[٢] فِي وَجْهِ مِيَاهِ الْمُرَادِ، يَمْنَعُهَا مِنَ الْوُصُوْلِ إِلَىٰ زَرْعِ الأَمَانِي!

فَعَرَفَتِ النَّفْسُ أَنَّ هَذَا حَقٌّ، فَاطْمَأَنَّتْ. فَقُلْتُ: وَعِنْدِي جَوَابٌ رَابِعٌ، وَهُوَ أَنَّكِ تَطْلُبِيْنَ مَا لَا

---

(١) اقتضىٰ؛ أي: طَلَبَ. والمعنىٰ: أنك يا نفس تطلبين وتُطالبين بحاجاتك وكأن ذلك واجب علىٰ الله تعالىٰ، وتظنين أنك صاحبة حق تنتظرين وفاءه، وفي ذات الوقت لا تطالبين نفسك بالحق الذي عليك مما أمرك الله تعالىٰ به وترك ما نهاك عنه؛ فهذا عين الجهل؛ بل عين الجور.

(٢) سُكْر [بضم السين]؛ أي: غاب عقلُه وإدراكُه. أمّا سَكْر [بفتح السين] فهو السدّ والغلق. وهذا تشبيه لغلبة دواعي الهوىٰ علىٰ دواعي الرشاد بذهاب العقل وغشيته

تَعْلَمِيْنَ عَاقِبَتَهُ، وَرُبَّمَا كَانَ فِيْهِ ضَرَرُكِ؛ فَمَثَلُكِ كَمَثَلِ طِفْلٍ مَحْمُوْمٍ يَطْلُبُ الْحَلْوَىٰ، وَالْمُدَبِّرُ لَكِ أَعْلَمُ بِالْمَصَالِحِ؛ كَيْفَ وَقَدْ قَالَ اللهُ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]؟!

فَلَمَّا بَانَ الصَّوَابُ لِلنَّفْسِ فِي هَذِهِ الإِجَابَةِ، زَادَتْ طُمَأْنِيْنَتُهَا. فَقُلْتُ لَهَا: وَعِنْدِي جَوَابٌ خَامِسٌ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْمَطْلُوْبَ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِكِ، وَيَحُطُّ مِنْ مَرْتَبَتِكِ، فَمَنْعُ الْحَقِّ لَكِ مَا هَذَا سَبِيْلُهُ عَطَاءٌ مِنْهُ لَكِ، وَلَوْ أَنَّكِ طَلَبْتِ مَا يُصْلِحُ آخِرَتَكِ، كَانَ أَوْلَىٰ لَكِ.

فَأَوْلَىٰ لَكِ أَنْ تَفْهَمِي مَا قَدْ شَرَحْتُ. فَقَالَتْ: لَقَدْ سَرَحْتُ فِي رِيَاضِ مَا شَرَحْتَ، فَهِمْتُ إِذْ فَهِمْتُ[١].

* [٨٦-١٣١] [خَاطِرَةٌ]:

[مِنْ أَسْبَابِ امْتِنَاعِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ]

مِنَ الْعَجَبِ إِلْحَاحُكَ فِي طَلَبِ أَغْرَاضِكَ! وَكُلَّمَا زَادَ تَعْوِيْقُهَا؛ زَادَ إِلْحَاحُكَ! وَتَنْسَىٰ أَنَّهَا قَدْ تَمْتَنِعُ لأَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا لِمَصْلَحَتِكَ؛ فَرُبَّمَا [طَلَبْتَ][٢] مُعَجَّلَ أَذًىٰ. وَإِمَّا لِذُنُوْبِكَ؛ فَإِنَّ صَاحِبَ الذُّنُوْبِ بَعِيْدٌ عَنِ الإِجَابَةِ.

فَنَظِّفْ طُرُقَ الإِجَابَةِ مِنْ أَوْسَاخِ الْمَعَاصِي، وَانْظُرْ فِيْمَا تَطْلُبُهُ؛ هَلْ هُوَ لإِصْلَاحِ دِيْنِكَ، أَوْ لِمُجَرَّدِ هَوَاكَ؟ فَإِنْ كَانَ لِلْهَوَىٰ الْمجَرَّدِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ مِنَ اللُّطْفِ بِكَ وَالرَّحْمَةِ لَكَ تَعْوِيْقَهُ، وَأَنْتَ فِي إِلْحَاحِكَ بِمَثَابَةِ الطِّفْلِ يَطْلُبُ مَا يُؤْذِيْهِ، فَيُمْنَعُ رِفْقًا بِهِ. وَإِنْ كَانَ لِصَلَاحِ دِيْنِكَ؛ فَرُبَّمَا كَانَتِ الْمَصْلَحَةُ تَأْخِيْرَهُ، أَوْ كَانَ صَلَاحُ الدِّيْنِ بِعَدَمِهِ.

---

(١) [هِمْتُ]: إمَّا أن تكون من هام على وجهه: إذا خرج وهو لا يدري أين يتوجَّه. أو تكون من هام به: أحبَّهُ وشُغِفَ به؛ فهو هائم في حُبِّهِ. أمَّا [فَهِمْتُ]؛ أي: أدركتُ، علمتُ، استوعبتُ. والمعنى: أنَّ النَّفس لَمَّا فَهِمَتْ مَقْصِد الكَلام خَرَجَتْ تَطُوف هَائِمَة من شدَّة الحُبِّ.

(٢) ليست في الأصل وأثبتناها؛ لتمام المعنى بها.

وَفِي الجُمْلَةِ؛ تَدْبِيْرُ الْحَقِّ ﷻ لَكَ خَيْرٌ مِنْ تَدْبِيْرِكَ، وَقَدْ يَمْنَعُكَ مَا تَهْوَىٰ ابْتِلاءً؛ لِيَبْلُوَ صَبْرَكَ؛ فَأَرِهِ الصَّبْرَ الْجَمِيْلَ؛ تَرَ عَنْ قُرْبٍ مَا يَسُرُّ.

وَمَتَىٰ نَظَّفْتَ طُرُقَ الإِجَابَةِ عَنْ أَدْرَانِ الذُّنُوْبِ، وَصَبَرْتَ عَلَىٰ مَا يَقْضِيْهِ لَكَ؛ فَكُلُّ مَا يَجْرِي أَصْلَحُ لَكَ؛ عَطَاءً كَانَ أَوْ مَنْعًا.

* [٨٥-٨٧] [خَاطِرَةٌ]:

[تَذَكُّرِ الْجِنَايَاتِ عِنْدَ طَلَبِ الْحَاجَاتِ]

رَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي عَجَبًا! تَسْأَلُ اللهَ ﷻ حَاجَاتِهَا، وَتَنْسَىٰ جِنَايَاتِهَا!! فَقُلْتُ: يَا نَفْسَ السَّوْءِ! أَوَ مِثْلُكِ يَنْطِقُ؟! فَإِنْ نَطَقَ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ السُّؤَالُ الْعَفْوَ فَحَسْبُ.

فَقَالَتْ: فَمِمَّنْ أَطْلُبُ مُرَادَاتِي؟!

قُلْتُ: مَا أَمْنَعُكِ مِنْ طَلَبِ الْمُرَادِ، إِنَّمَا أَقُوْلُ: حَقِّقِي التَّوْبَةَ وَانْطِقِي؛ كَمَا نَقُوْلُ فِي العَاصِي بِسَفَرِهِ إِذَا اضْطُرَّ إِلَىٰ الْمَيْتَةِ: لَا يَجُوْزُ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ.

فَإِنْ قِيْلَ لَنَا: أَفَيَمُوْتُ؟! قُلْنَا: لَا، بَلْ يَتُوْبُ وَيَأْكُلُ[1].

---

(١) الاِضْطِرَارُ هُوَ الْخَوْفُ عَلَىٰ النَّفْسِ مِنَ الْهَلاكِ عِلْمًا أَوْ ظَنًّا أَوْ بُلُوغُ الإِنْسَانِ حَدًّا إِنْ لَمْ يَتَنَاوَلِ الْمَمْنُوعَ يَهْلِكُ. وَهُوَ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ حِلِ الانْتِفَاعِ بِالْمُحَرَّمِ لإِنْقَاذِ النَّفْسِ مِنَ الْهَلاكِ. وَيُشْتَرَطُ لِحِلِ الانْتِفَاعِ بِهِ أَنْ يَكُونَ الاضْطِرَارُ مُلْجِئًا، بِحَيْثُ يَجِدُ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي حَالَةٍ يَخْشَىٰ فِيهَا الْمَوْتَ، وَأَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ قَائِمًا فِي الْحَالِ لاَ مُنْتَظَرًا، وَأَلاَّ يَكُونَ لِدَفْعِهِ وَسِيلَةٌ أُخْرَىٰ. وَيَحْرُمُ الأَكْلُ مِنَ الْمَيْتَةِ عَلَىٰ الْمُضْطَرِّ فِي سَفَرِ الْمَعْصِيَةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٧٣] قَالَ مُجَاهِدٌ: غَيْرَ بَاغٍ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَلاَ عَادٍ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِذَا خَرَجَ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ فَلاَ رُخْصَةَ لَهُ، فَإِنْ تَابَ وَأَقْلَعَ عَنْ مَعْصِيَتِهِ حَلَّ لَهُ الأَكْلُ. فَاشْتَرَطَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ فِي السَّفَرِ الَّذِي تَتَغَيَّرُ بِهِ الأَحْكَامُ أَلاَّ يَكُونَ الْمُسَافِرُ عَاصِيًا بِسَفَرِهِ إِذْ مَشْرُوعِيَّةُ التَّرَخُّصِ فِي السَّفَرِ لِلإِعَانَةِ. وَالْعَاصِي لاَ يُعَانُ؛ لأَنَّ الرُّخَصَ لاَ تُنَاطُ بِالْمَعَاصِي. وَالْمُرَادُ بِالْمُسَافِرِ الْعَاصِي بِسَفَرِهِ أَوْ سَفَرِ الْمَعْصِيَةِ أَنْ يَكُونَ الْحَامِلُ عَلَىٰ السَّفَرِ نَفْسَ الْمَعْصِيَةِ. وَلَمْ يَشْتَرِطِ الْحَنَفِيَّةُ هَذَا الشَّرْطَ، فَلِلْمُسَافِرِ الْعَاصِي =

فَاللهَ اللهَ مِنْ جَرَاءَةٍ عَلَىٰ طَلَبِ الأَغْرَاضِ، مَعَ نِسْيَانِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الذُّنُوبِ، الَّتِي تُوجِبُ تَنْكِيسَ الرَّأْسِ، وَلَئِنْ تَشَاغَلْتَ بِإِصْلَاحِ مَا مَضَىٰ، وَالنَّدَمِ عَلَيْهِ؛ جَاءَتْكَ مُرَادَاتُكَ؛ كَمَا رُوِيَ: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي؛ أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ»(١).

وَقَدْ كَانَ بِشْرٌ الْحَافِي(٢) يَبْسُطُ يَدَيْهِ لِلسُّؤَالِ، ثُمَّ يُسْبِلُهُمَا، وَيَقُولُ: مِثْلِي لَا يَسْأَلُ! مَا أَبْقَتِ الذُّنُوبُ لِي وَجْهًا. وَهَذَا يَخْتَصُّ بِبِشْرٍ لِقُوَّةِ مَعْرِفَتِهِ، كَانَ وَقْتَ السُّؤَالِ كَالْمُخَاطِبِ كِفَاحًا، فَاسْتَحْيَا لِلزَّلَلِ. فَأَمَّا أَهْلُ الغَفْلَةِ؛ فَسُؤَالُهُمْ عَلَىٰ بُعْدٍ. فَافْهَمْ مَا ذَكَرْتُهُ، وَتَشَاغَلْ بِالتَّوْبَةِ مِنَ الزَّلَلِ.

ثُمَّ العَجَبُ مِنْ سُؤَالاتِكَ! فَإِنَّكَ لَا تَكَادُ تَسْأَلُ مُهِمًّا مِنَ الدُّنْيَا، بَلْ فُضُولَ الْعَيْشِ، وَلَا تَسْأَلُ صَلَاحَ القَلْبِ وَالدِّينِ مِثْلَ مَا تَسْأَلُ صَلَاحَ الدُّنْيَا. فَاعْقِلْ أَمْرَكَ؛ فَإِنَّكَ مِنَ الانْبِسَاطِ وَالغَفْلَةِ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ.

وَلْيَكُنْ حُزْنُكَ عَلَىٰ زَلَّاتِكَ شَاغِلًا لَكَ عَنْ مُرَادَاتِكَ؛ فَقَدْ كَانَ الْحَسَنُ البَصْرِيُّ(٣) شَدِيدَ الْخَوْفِ، فَلَمَّا قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «وَمَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ اطَّلَعَ عَلَىٰ بَعْضِ ذُنُوبِي فَقَالَ: اِذْهَبْ؛ لا غَفَرْتُ لَكَ؟!».

= بِسَفَرِهِ أَنْ يَتَرَخَّصَ بِرُخَصِ السَّفَرِ كُلِّهَا لِإِطْلَاقِ نُصُوصِ الرُّخَصِ. وَأَمَّا الْعَاصِي فِي سَفَرِهِ وَهُوَ مَنْ يَقْصِدُ سَفَرًا مُبَاحًا ثُمَّ تَطْرَأُ عَلَيْهِ مَعْصِيَةٌ يَرْتَكِبُهَا فَقَدِ اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ يَتَرَخَّصُ فِي سَفَرِهِ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدِ السَّفَرَ لِلْمَعْصِيَةِ وَلأَنَّ سَبَبَ تَرَخُّصِهِ - وَهُوَ السَّفَرُ - مُبَاحٌ قَبْلَهَا وَبَعْدَهَا.

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» كِتَابُ «الدعاء» بَابُ «الدعاء بلا نية ولا عمل»(٢٩٨٨٣). ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» «فصل في إدامة ذكر الله»(٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩). «الوقوف يوم عرفة بعرفات»(٣٧٨٦). واللفظ له.

(٢) سبق في الخاطرة رقم: [٢٤-١٧٩].

(٣) سبق في الخاطرة رقم: [٥٩-٨٧].

* [٨٨-٦٤] [خَاطِرَةٌ]:

[الاعترافُ بالتقصيرِ أنجحَ في تلبيةِ الحَوائجِ]

عَرَضَ لِيْ أَمْرٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ سُؤَالُ اللهِ ﷻ وَدُعَائِهِ، فَدَعَوْتُ وَسَأَلْتُ، فَأَخَذَ بَعْضُ أَهْلِ الْخَيْرِ يَدْعُوْ مَعِي، فَرَأَيْتُ نَوْعًا مِنْ أَثَرِ الإِجَابَةِ. فَقَالَت لِي نَفْسِي: هَذَا بِسُؤَالِ ذَلِكَ الْعَبْدِ لَا بِسُؤَالِكَ. فَقُلْتُ لَهَا: أَمَّا أَنَا؛ فَإِنِّي أَعْرِفُ مِنْ نَفْسِي مِنَ الذُّنُوْبِ وَالتَّقْصِيرِ مَا يُوْجِبُ مَنْعَ الْجَوَابِ؛ غَيْرَ أَنَّهُ يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ أَنَا الَّذِي أُجِبْتُ؛ لِأَنَّ هَذَا الدَّاعِي الصَّالِحَ سَلِيْمٌ مِمَّا أَظُنُّهُ مِنْ نَفْسِي؛ لِأَنَّ مَعِيَ انْكِسَارُ تَقْصِيْرِي، وَمَعَهُ الفَرَحُ بِمُعَامَلَتِهِ، وَرُبَّمَا كَانَ الاعْتِرَافُ بِالتَّقْصِيْرِ أَنْجَحَ فِي الْحَوَائِجِ.

عَلَىٰ أَنِّي أَنَا وَهُوَ نَطْلُبُ مِنَ الْفَضْلِ لا بِأَعْمَالِنَا؛ فَإِذَا وَقَفْتُ أَنَا عَلَىٰ قَدَمِ الانْكِسَارِ، مُعْتَرِفًا بِذُنُوْبِي، وَقُلْتُ: أَعْطُوْنِي بِفَضْلِكُم؛ فَمَا لِي فِي سُؤَالِي شَيْءٌ أُجِبْتُ بِهِ، وَرُبَّمَا تَلَمَّحَ ذَاكَ حُسْنَ عَمَلِهِ، وَكَانَ صَادًّا لَهُ. فَلَا تَكْسِرِيْنِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ؛ فَيَكْفِيْنِي كَسْرُ عِلْمِي بِي لِي! وَمَعِيَ مِنَ الْعِلْمِ الْمُوْجِبِ لِلأَدَبِ، وَالاعْتِرَافِ بِالتَّقْصِيْرِ، وَشِدَّةِ الْفَقْرِ إِلَىٰ مَا سَأَلْتُ، وَيَقِيْنِي بِفَضْلِ الْمَطْلُوْبِ عَنْهُ: مَا لَيْسَ مَعَ ذَلِكَ الْعَابِدِ. فَبَارَكَ اللهُ فِي عِبَادَتِهِ؛ فَرُبَّمَا كَانَ اعْتِرَافِي بِتَقْصِيْرِي أَوْفَىٰ.

* [٨٩-٢٢٩] [خَاطِرَةٌ]:

[عَلَى الدَّاعِي أَنْ يَرْضَى بِتَدْبِيرِ الْخَالِقِ ﷻ]

قَدْ سَمِعْنَا بِجَمَاعَةٍ مِنَ الصَّالِحِيْنَ عَامَلُوْا اللهَ ﷻ عَلَىٰ طَرِيْقِ السَّلَامَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَاللُّطْفِ، فَعَامَلَهُمْ كَذَلِكَ؛ لأَنَّهُم لَا يَحْتَمِلُ طَبْعُهُم غَيْرَ ذَلِكَ. فَفِي الأَوَائِلِ بُرْخٌ العَابِدُ[1]، خَرَجَ

(١) لم أقف عليه فيما بين يدي من المصادر. والذي وقفت عليه ممن اسمه: برخ. برخيا بن أحنيا بن زر بابل بن شلتيل من ولد يهوذا.

يَسْتَسْقِي، فَقَالَ[١]: «مَا هَذَا الَّذِي لَا نَعْرِفُهُ مِنْكَ؟! اِسْقِنَا السَّاعَةَ! فَسُقُوْا». وَفِي الصَّحَابَةِ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ[٢]؛ يَقُوْلُ: وَاللهِ؛ لَا تُكْسَرُ سِنُّ الرُّبَيِّعِ[٣]. فَجَرَىٰ الأَمْرُ كَمَا قَالَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لأَبَرَّهُ»[٤]. وَهَؤُلَاء قَوْمٌ غَلَبَ عَلَيْهِمْ مُلَاحَظَةُ اللُّطْفِ وَالرِّفْقِ، فَلَطَفَ بِهِم، وَأُجْرُوْا عَلَىٰ مَا اعْتَقَدُوْا. وَهُنَاكَ أَعْلَىٰ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ يَسْأَلُوْنَ فَلَا يُجَابُوْنَ، وَهُمْ بِالْمَنْعِ رَاضُوْنَ، لَيْسَ لِأَحَدِهِمْ اِنْبِسَاطٌ، بَلْ قَدْ قَيَّدَهُمُ الْخَوْفُ، وَنَكَسَ رُؤُوْسَهُم الْحَذَرُ، وَلَمْ يَرَوْا أَلْسِنَتَهُم أَهْلًا لِلانْبِسَاطِ؛ فَغَايَةُ آمَالِهِمُ الْعَفْوُ؛ فَإِنْ اِنْبَسَطَ أَحَدُهُم بِسُؤَالٍ، فَلَمْ يَرَ الإِجَابَةَ؛ عَادَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالتَّوْبِيْخِ، فَقَالَ: مِثْلُكَ لا يُجَابُ! وَرُبَّمَا قَالَ: لَعَلَّ الْمَصْلَحَةَ فِي مَنْعِي. وَهَؤُلاءِ الرِّجَالُ حَقًّا.

وَالأَبْلَهُ الَّذِي يَرَىٰ لَهُ مِنَ الْحَقِّ أَن يُجَابَ؛ فَإِنْ لَمْ يُجَبْ؛ تَذَمَّرَ فِي بَاطِنِهِ، كَأَنَّهُ يَطْلُبُ أُجْرَةَ عَمَلِهِ، وَكَأَنَّهُ قَدْ نَفَعَ الْخَالِقَ بِعِبَادَتِهِ! وَإِنَّمَا العَبْدُ حَقًّا مَنْ يَرْضَىٰ مَا يَفْعَلُهُ الْخَالِقُ؛ فَإِنْ سَأَلَ، فَأُجِيبَ؛ رَأَىٰ ذَلِكَ فَضلًا، وَإِنْ مُنِعَ؛ رَأَىٰ تَصَرُّفَ مَالِكٍ فِي مَمْلُوْكٍ، فَلَمْ يَجُلْ فِي قَلْبِهِ اعْتِرَاضٌ بِحَالٍ.

* [٩٠-١٠٥] [خَاطِرَةٌ]:

[الْخِيَرَةُ فِيمَا اِخْتَارَهُ اللهُ تَعَالَىٰ]

يَنْبَغِي لِمَنْ وَقَعَ فِي شِدَّةٍ، ثُمَّ دَعَا أَنْ لَا يَخْتَلِجَ فِي قَلْبِهِ أَمْرٌ مِنْ تَأْخِيْرِ الإِجَابَةِ أَوْ عَدَمِهَا؛ لِأَنَّ الَّذِي إِلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَ، وَالْمَدْعُوُّ مَالِكٌ حَكِيْمٌ؛ فَإِنْ لَمْ يُجِبْ؛ فَعَلَ مَا يَشَاءُ فِي مُلْكِهِ، وَإِنْ أَخَّرَ؛ فَعَلَ بِمُقْتَضَىٰ حِكْمَتِهِ. فَالْمُعْتَرِضُ عَلَيْهِ فِي سِرِّهِ خَارِجٌ عَنْ صِفَةِ عَبْدٍ، مُزَاحِمٌ

---

(١) يَعْنِي: مُنَاجِيًا اللهَ تَعَالَىٰ.

(٢) أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ بن ضَمْضَم بْنِ زَيْدِ بنِ حَرَامٍ، عَمّ أَنَس بن مَالِك، قُتِلَ يَوْم أُحِد شَهِيدًا. وَكَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ مَعَ اللهَ عَلَيْهِ.

(٣) الرُّبَيِّع بِنْت النَّضر بن ضَمْضَم الأَنْصَارِيَّة، أُخت أَنَس بن النَّضر، وَهِيَ أُمّ حَارِثَة بن سُرَاقَة بن الْحَارِث.

(٤) رواه البخاري، كِتَابُ «الصلح» «الصلح في الدية» (٢٧٠٣). ومسلم، كِتَابُ «القسامة» «إثبات القصاص» (١٦٧٥).

[لِمَرتَبَتِهِ](١)، مُسْتَحِقٌّ [لِعُقُوبَتِهِ](٢).

ثُمَّ لِيَعْلَمْ أَنَّ اخْتِيَارَ اللهِ ﷻ لَهُ خَيْرٌ مِنْ اِخْتِيَارِهِ لِنَفْسِهِ. فَرُبَّمَا سَأَلَ سَيْلًا سَالَ بِهِ! وَفِي الْحَدِيْثِ:(٣) أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يَرْزُقَهُ الْجِهَادَ، فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ: «إِنَّكَ إِنْ غَزَوْتَ؛ أُسِرْتَ، وَإِنْ أُسِرْتَ؛ تَنَصَّرْتَ».

فَإِذَا سَلَّمَ العَبْدُ تَحْكِيْمًا لِحِكْمَتِهِ وَحُكْمِهِ، وَأَيْقَنَ أَنَّ الكُلَّ مُلْكَهُ؛ طَابَ قَلْبُهُ؛ قُضِيَتْ حَاجَتُهُ، أَوْ لَمْ تُقْضَ. وَفِي الْحَدِيْثِ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ دَعَا اللهَ تَعَالَىٰ إِلَّا أَجَابَهُ: فَإِمَّا أَنْ يُعَجِّلَهَا، وَإِمَّا أَنْ يُؤَخِّرَهَا، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ»(٤).

فَإِذَا رَأَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّ مَا أُجِيْبَ فِيْهِ قَدْ ذَهَبَ، وَمَا لَمْ يُجَبْ فِيْهِ قَدْ بَقِيَ ثَوَابُهُ؛ قَالَ: «لَيْتَكَ لَمْ تُجِبْ لِي دَعْوَةً قَطُّ»(٥).

فَافْهَمْ هَذِهِ الأَشْيَاءَ! وَسَلِّمْ قَلْبَكَ مِنْ أَنْ يَخْتَلِجَ فِيْهِ رَيْبٌ أَوْ اِسْتِعْجَالٌ.

* [٩١-٢٦٣] [خَاطِرَةٌ]:

[الْهِدَايَةُ بِاخْتِيَارِ اللهِ تَعَالَىٰ]

تَفَكَّرْتُ فِي سَبَبِ هِدَايَةِ مَنْ يَهْتَدِي، وَانْتِبَاهِ مَنْ يَتَيَقَّظُ مِنْ رُقَادِ غَفْلَتِهِ، فَوَجَدْتُ السَّبَبَ الأَكْبَرَ اخْتِيَارَ الْحَقِّ ﷻ لِذَلِكَ الشَّخْصِ؛ كَمَا قِيْلَ: إِذَا أَرَادَكَ لِأَمْرٍ؛ هَيَّأَكَ لَهُ.

فَتَارَةً تَقَعُ اليَقَظَةُ بِمُجَرَّدِ فِكْرٍ يُوْجِبُهُ نَظَرُ العَقْلِ، فَيَتَلَمَّحُ الإِنْسَانُ وُجُوْدَ نَفْسِهِ، فَيَعْلَمُ أَنَّ لَهَا صَانِعًا، وَقَدْ طَالَبَهُ بِحَقِّهِ، وَشُكْرِ نِعْمَتِهِ، وَخَوَّفَهُ عِقَابَ مُخَالَفَتِهِ، وَلَا يَكُوْنُ ذَلِكَ بِسَبَبٍ ظَاهِرٍ.

---

(١) جاء في الأصل: [بمرتبته] وجاء في حاشية الأصل: في الأحمدية: [لمرتبة مستحق].

(٢) ليست في الأصل وأثبتناها؛ ليتضح المعنىٰ بها.

(٣) لم أقف عليه فيما بين يدي من المصادر.

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «الدعاء»(١٨١٦، ١٨٢٩). والبخاري في «الأدب المفرد»(٧١٣، ٧١٤).

(٥) كأنه ﵀ يُشير إلىٰ ما أخرجه الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «الدعاء والتكبير»(١٨١٩). من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵄: «فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ يَا لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ عُجِّلَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ دُعَائِهِ».

وَمِنْ هَذَا مَا جَرَىٰ لِأَهْلِ الكَهْفِ؛ ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]. وَفِي التَّفْسِيرِ: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُم ٱلْفَىٰ(١) فِي قَلْبِهِ يَقَظَةً، فَقَالَ: لَا بُدَّ لِهَذَا الْخَلْقِ مِنْ خَالِقٍ.

فَاشْتَدَّ كَرْبُ بَوَاطِنِهِم مِنْ وَقُوْدِ نَارِ الْحَذَرِ، فَخَرَجُوْا إِلَىٰ الصَّحْرَاءِ، فَاجْتَمَعُوْا عَنْ غَيْرِ مَوْعِدٍ، فَكُلُّ وَاحِدٍ يَسْأَلُ الآخَرَ: مَا الَّذِي أَخْرَجَكَ فَتَصَادَقُوْا(٢).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ الْخَالِقُ ﷻ - لِذَلِكَ السَّبَبِ الَّذِي هُوَ الفِكْرُ وَالنَّظَرُ - سَبَبًا ظَاهِرًا، إِمَّا مِنْ مَوْعِظَةٍ يَسْمَعُهَا، أَوْ يَرَاهَا، فَيُحَرِّكُ هَذَا السَّبَبُ الظَّاهِرُ فِكْرَةَ القَلْبِ البَاطِنَةَ.

ثُمَّ يَنْقَسِمُ الْمُتَيَقِّظُوْنَ: فَمِنْهُم: مَنْ يَغْلِبُهُ هَوَاهُ، وَيَقْتَضِيْهِ طَبْعُهُ مَا يَشْتَهِيْ مِمَّا قَدِ اعْتَادَهُ، فَيَعُوْدُ القَهْقَرِي، وَلَا يَنْفَعُهُ مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الانْتِبَاهِ، فَانْتِبَاهُ مِثْلِ هَذَا زِيَادَةٌ فِي الْحُجَّةِ عَلَيْهِ.

وَمِنْهُم: مَنْ هُوَ وَاقِفٌ فِي مَقَامِ الْمُجَاهَدَةِ بَيْنَ صَفَّيْنِ: الْعَقْلِ الآمِرِ بِالتَّقْوَىٰ، وَالْهَوَىٰ الْمُتَقَاضِي بِالشَّهَوَاتِ. فَمِنْهُم: مَنْ يُغْلَبُ بَعْدَ الْمُجَاهَدَاتِ الطَّوِيلَةِ، فَيَعُوْدُ إِلَىٰ الشَّرِّ، وَيُخْتَمُ لَهُ بِهِ.

وَمِنْهُم: مَنْ يَغْلِبُ تَارَةً، وَيُغْلَبُ أُخْرَىٰ؛ فَجِرَاحَاتُهُ لَا فِي مَقْتَلٍ.

وَمِنْهُم: مَنْ يَقْهَرُ عَدُوَّهُ، فَيَسْجُنُهُ فِي حَبْسٍ؛ فَلَا يَبْقَىٰ لِلْعَدُوِّ مِنَ الْحِيْلَةِ إِلَّا الوَسَاوِسُ.

وَمِنَ الصَّفْوَةِ أَقْوَامٌ؛ مُذْ تَيَقَّظُوْا مَا نَامُوْا(٣)، وَمُذْ سَلَكُوْا مَا وَقَفُوْا؛ فَهَمُّهُم صُعُوْدٌ وَتَرَقٍّ، كُلَّمَا عَبَرُوْا مَقَامًا إِلَىٰ مَقَامٍ؛ رَأَوْا نَقْصَ مَا كَانُوْا فِيْهِ، فَاسْتَغْفَرُوا.

---

(١) أي: وجد وصادف. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

(٢) يُراجع: «الدر المنثور» للسيوطي. (ج٥/ ص٣٢٢). وَقَالَ ﵀: «وَأخرج ابْن أبي شيبَة وَابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم عَن ابْن عَبَّاس ﵄... وفيه: إِنَّهُم كَانُوا فِي مملكة ملك من الْجَبَابِرَة يعبد الْأَوْثَان وَقد أجبر النَّاس علىٰ عبادتها وَكَانَ وَهَؤُلَاء الْفتية فِي الْمَدِينَة فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِك خَرجُوا من تِلْكَ الْمَدِينَة فَجَمعهُمْ الله علىٰ غير ميعاد فَجعل بَعضهم يَقُول لبَعض: أَيْن تُرِيدُونَ أَيْن تذهبون فَجعل بَعضهم يخفي علىٰ بعض لِأَنَّهُ لَا يدْرِي هَذَا علىٰ مَا خرج هَذَا وَلَا يدْرِي هَذَا فَأخذُوا العهود والمواثيق أَن يخبر بَعضهم بَعْضًا فَإِن اجْتَمعُوا علىٰ شَيْء وَإِلَّا كتم بَعضهم بَعْضًا فَاجْتمعُوا علىٰ كلمة وَاحِدَة ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إِلَىٰ قَوْله: ﴿مِّرْفَقًا﴾».

(٣) جاء في الأصل: [ما قاموا] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

وَمِنْهُم: مَنْ يَرْقَىٰ عَنِ الاحْتِيَاجِ إِلَىٰ مُجَاهَدَةٍ: إِمَّا لِخِسَّةِ مَا يَدْعُوْ إِلَيْهِ الطَّبْعُ عِنْدَهُ، وَلَا وَقْعَ لَهُ. وَإِمَّا لِشَرَفِ مَطْلُوْبِهِ، فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ عَائِقٍ عَنْهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الطَّرِيْقَ الْمُوَصِلَةَ إِلَىٰ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ لَيْسَتْ مِمَّا يُقْطَعُ بِالأَقْدَامِ، وَإِنَّمَا يُقْطَعُ بِالقُلُوْبِ.

وَالشَّهَوَاتُ العَاجِلَةُ قُطَّاعُ الطَّرِيْقِ، وَالسَّبِيْلُ كَاللَّيْلِ الْمُدْلَهِمِّ؛ غَيْرَ أَنَّ عَيْنَ الْمُوَفَّقِ بَصَرُ فَرَسٍ؛ لِأَنَّهُ يَرَىٰ فِي الظُّلْمَةِ كَمَا يَرَىٰ فِي الضَّوْءِ، وَالصِّدْقُ فِي الطَّلَبِ مَنَارٌ(١)، أَيْنَ وُجِدَ يَدُلُّ عَلَىٰ الْجَادَّةِ؛ وَإِنَّمَا يَتَعَثَّرُ مَنْ لَمْ يُخْلِصْ، وَإِنَّمَا يَمْتَنِعُ الإِخْلَاصُ مِمَّنْ لَا يُرَادُ. فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

* [٩٢-٣٠٧][خَاطِرَةٌ]:

[مِنْ حِكْمَتِهِ تَعَالَىٰ اِخْتِيَارُ الكَامِلِ]

لَقَدِ اعْتَبَرْتُ(٢) عَلَىٰ مَوْلَايَ ـ أَمْرًا عَجِيبًا، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَا يَخْتَارُ لِمَحَبَّتِهِ، وَالْقُرْبِ مِنْهُ: إِلَّا الكَامِلَ صُوْرَةً وَمَعْنًىٰ.

وَلَسْتُ أَعْنِي حُسْنَ التَخَاطِيْطِ(٣)؛ وَإِنَّمَا كَمَالُ الصُّوْرَةِ اعْتِدَالُهَا، وَالْمُعْتَدِلَةُ مَا تَخْلُو مِنْ حُسْنٍ، فَيَتْبَعُهَا حُسْنُ الصُّوْرَةِ الْبَاطِنَةِ، وَهُوَ كَمَالُ الأَخْلَاقِ، وَزَوَالُ الأَكْدَارِ، وَلَا يُرَىٰ فِي بَاطِنِهِ خَبَثًا وَلَا كَدَرًا، بَلْ قَدْ حَسُنَ بَاطِنُهُ كَمَا حَسُنَ ظَاهِرُهُ.

وَقَدْ كَانَ مُوسَىٰ ﷺ كُلُّ مَنْ رَآهُ يُحِبُّهُ(٤)، وَكَانَ نَبِيُّنَا ﷺ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ(٥).

---

(١) جاء في الأصل: [اينار] والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٢) اعْتَبَرْتُ: من الاعتبار، وهو التَّأمل والتَّدبر والاستدلال بذلك علىٰ عِظَم القدرة وبديع الصَّنعة.

(٣) التَخَاطِيْطِ: حدود تعرجات جسم الإنسان، وهي الْمَلَامِح والقسمات.

(٤) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حَاتِم عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩] قَالَ: «كَانَ كُلُّ مَنْ رَآهُ أَلْقَيْتُ عَلَيْهِ مِنْهُ مَحبَّةً». [يُنظر: «الدر المنثور» للسيوطي].

(٥) رواه البخاري، كِ: «المَنَاقِبِ» بَ: «صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ» (٣٥٥٢). عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سُئِلَ البَرَاءُ أَكَانَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ، =

وَقَدْ يَكُوْنُ الْوَلِيُّ أَسْوَدَ اللَّوْنِ؛ لَكِنَّهُ حَسَنُ الصُّوْرَةِ، لَطِيفُ الْمَعَانِي.

فَعَلَىٰ قَدْرِ مَا عِنْدَ الإِنْسَانِ مِنَ التَّمَامِ فِي كَمَالِ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ يَكُوْنُ عَمَلُهُ، وَيَكُوْنُ تَقْرِيبُهُ إِلَىٰ الْحَضْرَةِ بِحَسَبِ ذَلِكَ[1]؛ فَمِنْهُمْ كَالْخَادِمِ عَلَىٰ الْبَابِ، وَمِنْهُمْ حَاجِبٌ، وَمِنْهُمْ مُقَرَّبٌ . . .

وَيَنْدُرُ مَنْ يَتِمُّ لَهُ الْكَمَالُ، وَلَعَلَّهُ لَا يُوْجَدُ فِي مِئَةِ سَنَةٍ مِنْهُمْ غَيْرُ وَاحِدٍ.

وَهَذِهِ حِكَايَةٌ مَا تَحْصُلُ بِالاجْتِهَادِ؛ بَلِ الاجْتِهَادُ يَحْصُلُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا وَقَعَ تَمَامٌ؛ حَثَّ عَلَىٰ الْجِدِّ عَلَىٰ قَدْرِ نُقْصَانِهِ . . . وَهَذَا لَا حِيلَةَ فِي أَصْلِهِ؛ إِنَّمَا هُوَ جِبِلَّةٌ، وَإِذَا أَرَادَكَ لِأَمْرٍ؛ هَيَّأَكَ لَهُ.

* [٩٣-٢٦٧] [خَاطِرَةٌ]:

[بَعْضُ صِفَاتِ الَّذِينَ يَخْتَارُهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ لِوِلَايَتِهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ]

تَأَمَّلْتُ الَّذِيْنَ يَخْتَارُهُمُ الْحَقُّ ﷻ لِوِلَايَتِهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ؛ - فَقَدْ سَمِعْنَا أَوْصَافَهُم، وَمَنْ نَظُنُّهُ مِنْهُم مِمَّنْ رَأَيْنَاهُ -: فَوَجَدْتُهُ سُبْحَانَهُ لَا يَخْتَارُ إِلَّا شَخْصًا كَامِلَ الصُّوْرَةِ؛ لَا عَيْبَ فِي صُوْرَتِهِ، وَلَا نَقْصَ فِي خِلْقَتِهِ، فَتَرَاهُ حَسَنَ الوَجْهِ، مُعْتَدِلَ القَامَةِ، سَلِيمًا مِنْ آفَةٍ فِي بَدَنِهِ.

ثُمَّ يَكُوْنُ كَامِلًا فِي بَاطِنِهِ، سَخِيًّا، جَوَادًا، عَاقِلًا، غَيْرَ خِبٍّ[2]، وَلَا خَادِعٍ، وَلَا حَقُوْدٍ، وَلَا حَسُوْدٍ، وَلَا فِيهِ عَيْبٌ مِنْ عُيُوْبِ البَاطِنِ. فَذَاكَ الَّذِي يُرَبِّيْهِ مِنْ صِغَرِهِ.

فَتَرَاهُ فِي الطُّفُوْلَةِ مُعْتَزِلًا عَنِ الصِّبْيَانِ، كَأَنَّهُ فِي الصِّبَا شَيْخٌ، يَنْبُو عَنِ الرَّذَائِلِ[3]، وَيَفْزَعُ مِنَ

= مِثْلَ السَّيْفِ؟ قَالَ: «لَا بَلْ مِثْلَ القَمَرِ». وروىٰ الترمذي، ك: «الأدب» ب: «مَا جَاءَ فِي الرُّخْصَةِ فِي لُبْسِ الحُمْرَةِ لِلرِّجَالِ» (٢٨١١) عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ إِضْحِيَانٍ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَإِلَىٰ القَمَرِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، فَإِذَا هُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ القَمَرِ».

(١) الْحَضْرَةِ: المَقصود بها هنا مكان الحضور.

(٢) خَبّ وخِبّ: الغِشّ وَالخِدَاع.

(٣) أي: يَتَجَافَىٰ عَنْهَا وَيَبْتَعِد، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا.

النَّقَائِصِ. ثُمَّ لا تَزَالُ شَجَرَةُ هِمَّتِهِ تَنْمُوْ، حَتَّىٰ يَرَىٰ ثَمَرَهَا مُتَهَدِّلًا[1] عَلَىٰ أَغْصَانِ الشَّبَابِ؛ فَهُوَ حَرِيْصٌ عَلَىٰ العِلْمِ مُنْكَمِشٌ عَلَىٰ العَمَلِ، مُحَافِظٌ لِلزَّمَانِ، مُرَاعٍ لِلأَوْقَاتِ، سَاعٍ فِي طَلَبِ الْفَضَائِلِ، خَائِفٌ مِنَ النَّقَائِصِ. وَلَوْ رَأَيْتَ التَّوْفِيْقَ وَالإِلْهَامَ الرَّبَّانِيَّ كَيْفَ يَأْخُذُ بِيَدِهِ إِنْ عَثَرَ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ الْخَطَإِ إِنْ هَمَّ، وَيَسْتَخْدِمُهُ فِي الفَضَائِلِ، وَيَسْتُرُ عَمَلَهُ عَنْهُ حَتَّىٰ لَا يَرَاهُ مِنْهُ.

ثُمَّ يَنْقَسِمُ هَؤُلاءِ: فَمِنْهُم مَنْ تَفَقَّهَ عَلَىٰ قَدَمِ الزُّهْدِ وَالتَّعَبُّدِ. وَمِنْهُم مَنْ تَفَقَّهَ عَلَىٰ العِلْمِ وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ. وَيَنْدُرُ مِنْهُم مَنْ يُجْمَعُ لَهُ الكُلُّ، وَيُرَقِّيْهِ [اللهُ][2] إِلَىٰ مُزَاحَمَةِ الكَامِلِيْنَ.

وَعَلَامَةُ إِثْبَاتِ الكَمَالِ فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ الإِقْبَالُ بِالكُلِّيَّةِ عَلَىٰ مُعَامَلَةِ الْحَقِّ وَمَحَبَّتِهِ، وَاسْتِيْعَابُ الفَضَائِلِ كُلِّهَا؛ فَلَوْ تُصُوِّرَتِ النُّبُوَّةُ أَنْ تُكْتَسَبَ؛ لَدَخَلَتْ فِي كَسْبِهِ.

وَمَرَاتِبُ هَذَا لا يَحْتَمِلُهَا الوَصْفُ؛ لِكَوْنِهِ دُرَّةَ الوُجُوْدِ، الَّتِي لَا تَكَادُ تَنْعَقِدُ فِي الصَّدَفِ إِلَّا فِي كُلِّ وَدُوْدٍ. نَسْأَلُ اللهَ ﷻ تَوْفِيْقَنَا لِمَرَاضِيْهِ وَقُرْبِهِ، وَنَعُوْذُ بِهِ مِنْ طَرْدِهِ وَإِبْعَادِهِ.

---

(١) أي: ساقِطٌ أَوْ مَائِلٌ أَوْ اسْتَرْخَىٰ. وَفِي الأَثَر: «وروْضَة قَدْ تَهَدَّلَ اغْصانُها»؛ أَيْ: تَدَلَّت واسْتَرخَت، لِثِقَلِها بالثَّمرة.

(٢) ليست في الأصل وأثبتناها؛ ليتضح المعنىٰ بها.

(٨)

[مَفْهُوم التَّكْلِيف وَأَقْسَامِهِ وَالفَرْقُ بَيْنَ تَكْلِيف الجَوَارِح وَتَكْلِيف العَقْل]

* [٩٤-٢٩٤] [خَاطِرَةٌ]:

[مُرَادُ التَّكْلِيف مَوْضُوعٌ عَلَى عَكْسِ الأَغْرَاضِ]

مِنَ الْجَهْلِ أَنْ يَخْفَىٰ عَلَىٰ الإِنْسَانِ مُرَادُ التَّكْلِيفِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ عَلَىٰ عَكْسِ الأَغْرَاضِ.

فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَأْنَسَ بِانْعِكَاسِ الأَغْرَاضِ؛ فَإِنْ دَعَا، وَسَأَلَ بُلُوْغَ غَرَضٍ؛ تَعَبَّدَ اللهَ بِالدُّعَاءِ: فَإِنْ أُعْطِيَ مُرَادَهُ؛ شَكَرَ، وَإِنْ لَمْ يَنَلْ مُرَادَهُ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُلِحَّ فِي الطَّلَبِ[1]؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لِبُلُوْغِ الأَغْرَاضِ، وَلْيَقُلْ لِنَفْسِهِ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة:٢١٦].

وَمِنْ أَعْظَمِ الْجَهْلِ، أَنْ يَمْتَعِضَ فِي بَاطِنِهِ[2] لِانْعِكَاسِ أَغْرَاضِهِ، وَرُبَّمَا اعْتَرَضَ فِي البَاطِنِ، أَوْ رُبَّمَا قَالَ: حُصُوْلُ غَرَضِي لَا يَضُرُّ، وَدُعَائِي لَمْ يُسْتَجَبْ[3]!! وَهَذَا كُلُّهُ دَلِيْلٌ عَلَىٰ جَهْلِهِ، وَقِلَّةِ إِيْمَانِهِ وَتَسْلِيْمِهِ لِلْحِكْمَةِ. وَمَنِ الَّذِي حَصَلَ لَهُ غَرَضٌ ثُمَّ لَمْ يُكَدَّرْ؟! هَذَا آدَمُ؛ طَابَ عَيْشُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَأُخْرِجَ مِنْهَا، وَنُوْحٌ سَأَلَ فِي ابْنِهِ فَلَمْ يُعْطَ مُرَادَهُ، وَالْخَلِيْلُ ابْتُلِيَ بِالنَّارِ، وَإِسْحَاقُ

---

(١) بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُلِحَّ فِي الطَّلَبِ؛ لاسيما وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي» رواه البخاري، كِتَابُ «الدَّعَوَاتِ» بَابُ «يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَعْجَلْ»(٦٣٤٠). ومسلم، كِتَابُ «الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ» بَابُ «بَيَانِ أَنَّهُ يُسْتَجَابُ لِلدَّاعِي مَا لَمْ يَعْجَلْ»(٢٧٣٥). وقد ذكر ابن الجوزي في الخاطرة رقم: [٦١-٣٢٨] أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يَتْرُكَ الطَّلَبَ مِنْ رَبِّهِ فَإِنَّهُ مُتَعَبِّد بِالدُّعَاءِ كَمَا هُوَ مُتَعَبِّد بِالتَّسْلِيمِ وَالتَّفْوِيض. فَقَالَ ﵀: [فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَطِيْلَ زَمَانَ البَلَاءِ، وَتَضْجَرَ مِنْ كَثْرَةِ الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّكَ مُبْتَلَىً بِالبَلَاءِ، مُتَعَبَّدٌ بِالصَّبْرِ وَالدُّعَاءِ، وَلَا تَيْأَسْ مِنْ رَوْحِ اللهِ؛ وَإِنْ طَالَ البَلَاءُ].

(٢) امتعض الشَّخصُ من الأمر: غضِب منه وتألَّم، وشقَّ عليه.

(٣) روىٰ مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: «قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ». كِتَابُ «الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ» بَابُ «يُسْتَجَابُ لِلدَّاعِي مَا لَمْ يَعْجَلْ»(٢٧٣٥).

بِالذَّبْحِ، وَيَعْقُوبُ بِفَقْدِ الوَلَدِ، وَيُوسُفُ بِمُجَاهَدَةِ الْهَوَىٰ، وَأَيُّوبُ بِالبَلَاءِ، وَدَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ بِالفِتْنَةِ. وَجَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ عَلَىٰ هَذَا(١).

---

(١) * أمّا ما حدث لآدم عليه السلام وخروجه من الجنة، والخليل عليه السلام ورميه في النار، ويعقوب عليه السلام وفقده لولده، فقد سبق التعليق علىٰ ذلك في الخاطرة رقم: [٥٢ - ١١٧].

* وَأَمَّا قصة نُوحٍ عليه السلام، فكأنّه رحمه الله يُشير لِقَوْلِهِ تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦].

* وَأَمَّا إِسْحَاقُ عليه السلام، فقد سبق التعليق علىٰ ذلك في الخاطرة: [٥٢-١١٧]. والجمهور علىٰ أنَّ الذبيح هو إسماعيل.

* وَأَمَّا قصة يُوسُفُ عليه السلام وَمُجَاهَدَةِ الْهَوَىٰ، فَكَأَنَّه رحمه الله يُشير إلىٰ قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز والنسوة، في قوله تعالىٰ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٣، ٢٤]. وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤].

* وَأَمَّا بَلَاء أَيُّوبُ عليه السلام، فَكَأَنَّه رحمه الله يُشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] وقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

* وَأَمَّا فِتْنَةِ دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ عليهما السلام، فَكَأَنَّه رحمه الله يُشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩، ٨٠]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]. والله أعلم.

* قال العلامة الآلوسيّ في «تفسيره» (ج١٢/ ص١٩٠، ١٩١): «أظهر ما قيل في فتنة سُلَيْمَانَ عليه السلام أَنَّهُ قال: «لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَىٰ سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ - أَوِ الْمَلَكُ -: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةٌ مِنْ نِسَائِهِ إِلَّا وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ». فَالْمُراد بالجسد ذلك الشِّق الذي ولد له، ومعنىٰ إلقائه علىٰ كرسيه: وضع القابلة له عليه؛ ليَرَاهُ». وذكر نحوه ابن حيان الأندلسي في «تفسيره» (ج٧/ ص٣٩٧). ثم قال الآلوسيّ بعد أن ساق القصة من رواية ابن عباس: قال أبو حيان وغيره: «إن هذه المقالة من أوضاع اليهود وزنادقة السُّوفسطائيَّة، ولا ينبغي لعاقل أن يعتقد صحة ما فيها، وكيف يجوز تمثل الشيطان بصورة نبي حتىٰ يلتبس أمره علىٰ الناس، ويعتقدوا أن ذلك المتصور هو النبي؟! ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي، نسأل الله سلامة ديننا وعقولنا، ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان علىٰ نساء نبيه حتىٰ وطئهن وهن حيض! الله أكبر، هذا بهتان عظيم، وخطب جسيم!! ونسبة الخبر إلىٰ ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما لا تسلم صحتها، وكذا لا تسلم دعوىٰ قوة سنده إليه وإن قال بها مَن قال. وجاء عن ابن =

وَأَمَّا مَا لَقِيَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْجُوْعِ وَالأَذَىٰ وَكَدَرِ العَيْشِ؛ فَمَعْلُوْمٌ[١].

فَالدُّنْيَا وُضِعَتْ لِلْبَلَاءِ؛ فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُوَطِّنَ نَفْسَهُ عَلَىٰ الصَّبْرِ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا حَصَلَ مِنَ الْمُرَادِ؛ فَلُطْفٌ، وَمَا لَمْ يَحْصُلْ؛ فَعَلَىٰ أَصْلِ الْخَلْقِ وَالْجِبِلَّةِ لِلدُّنْيَا[٢].

كَمَا قِيْلَ[٣]:

طُبِعَتْ عَلَىٰ كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيْدُهَا ... صَفْوًا مِنَ الأَقْذَاءِ وَالأَكْدَارِ

وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا ... مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

وَهَا هُنَا تَتَبَيَّنُ قُوَّةُ الإِيْمَانِ وَضَعْفُهُ.

فَلْيَسْتَعْمِلِ الْمُؤْمِنُ مِنْ أَدْوِيَةِ هَذَا الْمَرَضِ التَّسْلِيْمَ لِلْمَالِكِ، وَالتَّحْكِيْمَ لِحِكْمَتِهِ.

وَلْيَقُلْ: قَدْ قِيْلَ لِسَيِّدِ الكُلِّ ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨]، ثُمَّ لِيُسَلِّ نَفْسَهُ بِأَنَّ الْمَنْعَ لَيْسَ عَنْ بُخْلٍ، وَإِنَّمَا هُوَ لِمَصْلَحَةٍ لَا يَعْلَمُهَا، وَلِيُؤْجَرَ الصَّابِرُ عَنْ أَغْرَاضِهِ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِيْنَ سَلَّمُوْا وَرَضُوْا، وَأَنَّ زَمَنَ الابْتِلَاءِ مِقْدَارٌ يَسِيْرٌ، وَالأَغْرَاضُ مُدَّخَرَةٌ تُلْقَىٰ بَعْدَ قَلِيْلٍ،

= عباس برواية عبد الرزاق وابن المنذر ما هو ظاهر في أن ذلك من أخبار كعب، ومعلوم أن كَعْبًا يرويه عن كتب اليهود، وهي لا يوثق بها، علىٰ أن إشعار ما يأتي بأن تسخير الشياطين بعد الفتنة يأبىٰ صحة هذه المقالة كما لا يخفىٰ. ثم إن أمر خاتم سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في غاية الشهرة بين الخواص والعوام، ويستبعد جِدًّا أن يكون الله تعالىٰ قد ربط ما أعطىٰ نبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ من الملك بذلك الخاتم، وعندي أنه لو كان في ذلك الخاتم السر الذي يقولون؛ لذكره الله ﷻ في كتابه. والله تعالىٰ أعلم بحقيقة الحال»اهـ. [يُراجع:«السلسلة الضعيفة»(ج١٢/ ص٩٨٤، ٩٨٥/ ح٥٩٩٢)]. وَأَمَّا ما ذُكر في بعض الأحاديث مِن أَنَّ فِتْنَةَ دَاوُد كَانَتْ النَّظَرَ؛ أي: بنظره إلىٰ امرأة الجندي أوريا؛ فلا يشك مسلم عاقل في بطلانها لما فيها من نسبة ما لا يليق بمقام الأنبياء عليهم السلام مثل محاولته تعريض زوجها للقتل، ليتزوجها من بعده![يُراجع:«السلسلة الضعيفة»(ج١/ ص٤٨٣-٤٨٥/ ح٣١٣، ٣١٤)].

والسُّفِسْطائيّة؛ فرقة تُنْكِر الحِسِّيات والبديهيات وغيرها، وتُعنىٰ بالجدل والتَّلاعب بالألفاظ بقصد الإقناع.

(١) سبق التعليق علىٰ ذلك، في الخاطرة رقم: [٥٤-٢١١].

(٢) الْجِبِلَّةُ وَالطَّبِيعَةُ وَالْخَلِيقَةُ وَالْغَرِيزَةُ بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ، وَجَبَلَهُ اللهُ عَلَىٰ كَذَا؛ أي: فَطَرَهُ عَلَيْهِ.

(٣) البيتين من البحر: [الكامل]. وقائلهما هو: أبو الحسن علي بن محمد بن فهد التهامي. مات سنة: (٤١٦هـ).

وَكَأَنَّهُ بِالظُّلْمَةِ قَدِ انجلَتْ، وَبِفَجْرِ الأَجْرِ قَدْ طَلَعَ.

وَمَتَىٰ ارْتَقَىٰ فَهْمُهُ إِلَىٰ أَنَّ مَا جَرَىٰ مُرَادُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ؛ اقْتَضَىٰ إِيْمَانُهُ أَنْ يُرِيْدَ مَا يُرِيْدُ، وَيَرضَىٰ بِمَا يُقَدِّرُ، إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؛ كَانَ خَارِجًا عَنْ حَقِيقَةِ الْعُبُوْدِيَّةِ فِي الْمَعْنَىٰ.

وَهَذَا أَصْلٌ يَنْبَغِي أَنْ يُتَأَمَّل، وَيَعْمَلَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ غَرَضٍ انْعَكَسَ.

* [٩٥-١٣] [خَاطِرَةٌ]:

[أَقْسَامُ التَّكْلِيفِ]

تَفَكَّرْتُ يَوْمًا فِي التَّكْلِيفِ، فَرَأَيْتُهُ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ سَهْلٍ وَصَعْبٍ: فَأَمَّا السَّهْلُ: فَهُوَ أَعْمَالُ الْجَوَارِحِ؛ إِلَّا أَنَّ مِنْهُ مَا هُوَ أَصْعَبُ مِنْ بَعْضٍ؛ فَالْوُضُوْءُ وَالصَّلَاةُ أَسْهَلُ مِنَ الصَّوْمِ، وَالصَّوْمُ رُبَّمَا كَانَ عِنْدَ قَوْمٍ أَسْهَلُ مِنَ الزَّكَاةِ. وَأَمَّا الصَّعْبُ؛ فَيَتَفَاوَتُ؛ فَبَعْضُهَا أَصْعَبُ مِنْ بَعْضٍ: فَمِنَ الْمُسْتَصْعَبِ: النَّظَرُ وَالاسْتِدْلَالُ الْمُوَصِلَانِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الخَالِقِ؛ فَهَذَا صَعْبٌ عِنْدَ مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ أُمُوْرُ الحِسِّ، سَهْلٌ عِنْدَ أَهْلِ العَقْلِ. وَمِنَ الْمُسْتَصْعَبِ: غَلَبَةُ الْهَوَىٰ، وَقَهْرُ النُّفُوْسِ، وَكَفُّ أَكُفِّ الطِّبَاعِ عَنِ التَّصَرُّفِ فِيمَا يُؤْثِرُهُ، وَكُلُّ هَذَا يَسْهُلُ عَلَىٰ العَاقِلِ النَّظَرُ فِي ثَوَابِهِ، وَرَجَاءُ عَاقِبَتِهِ، وَإِنْ شَقَّ عَاجِلًا.

وَإِنَّمَا أَصْعَبُ التَّكَالِيفِ وَأَعْجَبُهَا: أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَتْ حِكْمَةُ الْخَالِقِ عِنْدَ العَقْلِ ثُمَّ يَرَاهُ(١) يُفْقِرُ الْمُتَشَاغِلَ بِالعِلْمِ، الْمُقْبِلَ عَلَىٰ العِبَادَةِ، حَتَّىٰ يَعَضَّهُ الفَقْرُ بِنَاجِذَيْهِ(٢)، فَيَذِلَّ لِلْجَاهِلِ فِي طَلَبِ القُوْتِ، وَيُغْنِي الفَاسِقَ مَعَ الْجَهْلِ حَتَّىٰ تَفِيْضَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ. ثُمَّ نَرَاهُ يُنْشِئُ الأَجْسَامَ وَيُحْكِمُهَا، ثُمَّ يَنْقُضُ بِنَاءَ الشَّبَابِ فِي مَبْدَءِ أَمْرِهِ، وَعِنْدَ اسْتِكْمَالِ بِنَائِهِ؛ فَإِذَا بِهِ قَدْ عَادَ هَشِيْمًا. ثُمَّ نَرَاهُ يُؤْلِمُ

---

(١) أي: العقل يرىٰ الخالق يفعل هذه الأمور التي سيذكرها ابن الجوزي.

(٢) النَّوَاجِذُ من الأسنان: الضَّواحِك وهي الَّتِي تَبْدو عند الضَّحك. والأكثر الأشهر أنها أقصىٰ الأسنان، ضرس العقل. [يَعَضُّهُ الفَقْرُ بِنَاجِذَيْهِ]؛ مثلٌ يُضرب لِمَن بَلَغَ شدَّة الفقر.

الأَطْفَالَ، حَتَّىٰ يَرْحَمَهُمْ كُلُّ طَبْعٍ، ثُمَّ يُقَالَ لَهُ: إِيَّاكَ أَنْ تَشُكَّ فِي أَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. ثُمَّ يَسْمَعُ بِإِرْسَالِ مُوسَىٰ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَيُقَالَ لَهُ: اِعْتَقِدْ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَضَلَّ فِرْعَوْنَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَا كَانَ لِآدَمَ بُدٌّ مِنْ أَكْلِ الشَّجَرَةِ؛ وَقَدْ وُبِّخَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾[طه: ١٢١].

وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ تَحَيَّرَ خَلْقٌ، حَتَّىٰ خَرَجُوا إِلَىٰ الكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، وَلَوْ فَتَّشُوا عَلَىٰ سِرِّ هَذِهِ الأَشْيَاءَ؛ لَعَلِمُوا أَنَّ تَسْلِيمَ هَذِهِ الأُمُورِ تَكْلِيفُ العَقْلِ لِيُذْعِنَ.

هَذَا أَصْلٌ؛ إِذَا فُهِمَ، حَصَلَ مِنْهُ السَّلَامَةُ وَالتَّسْلِيمُ. نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يَكْشِفَ لَنَا الغَوَامِضَ، الَّتِي حَيَّرَتْ مَنْ ضَلَّ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

* [٩٦-٢١] [خَاطِرَةٌ]:

[الفَرْقُ بَيْنَ تَكْلِيفِ الجَوَارِحِ وَتَكْلِيفِ العَقْلِ]

قُلْتُ يَوْمًا فِي مَجْلِسِي: لَوْ أَنَّ الجِبَالَ حَمَلَتْ مَا حُمِّلْتُ، لَعَجَزَتْ؛ فَلَمَّا عُدْتُ إِلَىٰ مَنْزِلِي. قَالَتْ لِيَ النَّفْسُ: كَيْفَ قُلْتُ هَذَا، وَرُبَّمَا أَوْهَمَ النَّاسَ أَنَّ بِكَ بَلَاءً، وَأَنْتَ فِي عَافِيَةٍ فِي نَفْسِكَ وَأَهْلِكَ؟! وَهَلِ الَّذِي حُمِّلْتَ إِلَّا التَّكْلِيفُ الَّذِي يَحْمِلُهُ الخَلْقُ كُلُّهُمْ؟! فَمَا وَجْهُ هَذِهِ الشَّكْوَىٰ؟!

فَأَجَبْتُهَا: إِنِّي لَمَّا عَجَزْتُ عَمَّا حُمِّلْتُ؛ قُلْتُ هَذِهِ الكَلِمَةَ، لَا عَلَىٰ سَبِيلِ الشَّكْوَىٰ، وَلَكِنْ لِلاسْتِرْوَاحِ. وَقَدْ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ قَبْلِي: «لَيْتَنَا لَمْ نُخْلَقْ!»[1] وَمَا ذَاكَ إِلَّا

---

(١) وقد جمع الإمام هَنَّاد بن السري في كتاب «الزُّهد» مَن قال: «يَا لَيْتَنِي لَمْ أُخْلَقْ» أو ما في معناها. وذكر منهم: أَبُو بَكْرٍ، وَأَبُو ذَرٍّ ﭬ وغيرهما. وجمع بعضهم أيضًا ابن أبي في كِتَاب «الْمُتَمَنِّين» وذكر منهم: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ ﭬ وَيَزِيد الرَّقَاشِيّ، وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ ﭬ. وثبت كذلك عن أُم الْمُؤمنين عائشة ﭬ. أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» كِتَابُ «الزهد» بَابُ «كلام عائشة ﭬ»(٣٥٨٨٢). وَهَذِهِ الْكَلِمَةَ قِيلَتْ، لَا عَلَىٰ سَبِيلِ الشَّكْوَىٰ، وَلَكِنْ لِلاسْتِرْوَاحِ. لاسيما وقد ثبت النهي عن تمني الموت عند الضرر قال ﷺ: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ مُتَمَنِّيًا فَلْيَقُلِ: اللهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا
=

لِأَثْقَالٍ عَجَزُوا عَنْهَا، ثُمَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ التَّكَالِيفَ سَهْلَةٌ فَمَا عَرَفَهَا. أَتَرَىٰ يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّ التَّكَالِيفَ غَسْلُ الأَعْضَاءِ بِرَطْلٍ مِنَ الْمَاءِ[1]، أَوِ الوُقُوفُ فِي مِحْرَابٍ لِأَدَاءِ رَكْعَتَيْنِ؟! هَيْهَاتَ! هَذَا أَسْهَلُ التَّكْلِيفِ!

وَإِنَّ التَّكْلِيفَ هُوَ الَّذِي عَجَزَتْ عَنْهُ الْجِبَالُ[2].

وَمِنْ جُمْلَتِهِ: أَنَّنِي إِذَا رَأَيْتُ القَدَرَ يَجْرِي بِمَا لَا يَفْهَمُهُ العَقْلُ؛ أَلْزَمْتُ العَقْلَ الإِذْعَانَ لِلْمُقَدِّرِ.

فَكَانَ مِنْ أَصْعَبِ التَّكْلِيفِ، وَخُصُوصًا فِيمَا لَا يَعْلَمُ العَقْلُ مَعْنَاهُ، كَإِيلَامِ الأَطْفَالِ، وَذَبْحِ الحَيَوَانِ؛ مَعَ الاعْتِقَادِ بِأَنَّ الْمُقَدِّرَ لِذَلِكَ؛ وَالآمِرَ بِهِ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ؛ فَهَذَا مِمَّا يَتَحَيَّرُ العَقْلُ فِيهِ، فَيَكُونُ تَكْلِيفُهُ التَّسْلِيمَ وَتَرْكَ الاعْتِرَاضِ.

فَكَمْ بَيْنَ تَكْلِيفِ البَدَنِ وَتَكْلِيفِ العَقْلِ! وَلَوْ شَرَحْتُ هَذَا لَطَالَ؛ غَيْرَ أَنِّي أَعْتَذِرُ عَمَّا قُلْتُهُ، فَأَقُولُ عَنْ نَفْسِي - وَمَا يَلْزَمُنِي حَالُ غَيْرِي -:

إِنِّي رَجُلٌ حُبِّبَ إِلَيَّ العِلْمُ مِنْ زَمَنِ الطُّفُولَةِ، فَتَشَاغَلْتُ بِهِ، ثُمَّ لَمْ يُحَبَّبْ إِلَيَّ فَنٌّ وَاحِدٌ

= كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي». وهذه الكلمة فيها من معنىٰ تمني الموت؛ إلا إذا رأىٰ المرء تقصيرًا في الدين وضعفًا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جاز له أن يتمنىٰ الموت. وَفِي الحديث أن النبي ﷺ قال: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ».

(١) الرِّطْل: مِعْيَارٌ يُوزَنُ بِهِ، وهو يُعادل اثْنَتَا عَشْرَةَ أُوقِيَّةً، والأوقية وزن من الأوزان يختلف مقداره من بلدٍ إلىٰ آخر.

(٢) اي: أَنَّ أَشَدَّ التَّكْلِيف وأعظَمُهُ؛ بَل هو التَّكْلِيفُ الحَقِيقِي الَّذِي عَجَزَتْ عَنْهُ الْجِبَالُ؛ وَكَأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب: ٧٢]. وَالأَمَانَة تَشْمَل جَمِيع تَكَالِيف الشَّرع وَوَظَائِف الدِّين، عَلَىٰ الصَّحِيح مِنَ الأَقْوَالِ، وَهُوَ قَوْل الجُمْهُور. وَقِيلَ: الأَمَانَةُ الْعَقْلُ؛ وَتَسْمِيَتُهُ أَمَانَةَ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ وَلِأَنَّ الأَشْيَاء النَّفِيسة تُودَعُ عِنْدَ مَنْ يَحْتَفِظُ بِهَا. وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ الحِكْمَةَ اقْتَضَتْ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مُسْتَوْدَعَ الْعَقْلِ مِنْ بَيْنِ الْمَوْجُودَاتِ الْعَظِيمَةِ؛ لِأَنَّ خِلْقَتَهُ مُلَائِمَةٌ لِأَنْ يَكُونَ عَاقِلًا فَإِنَّ الْعَقْلَ يَبْعَثُ عَلَىٰ التَّغَيُّرِ وَالِانْتِقَالِ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ وَمِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَلَوْ جُعِلَ ذَلِكَ فِي سَمَاءٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ أَوْ فِي جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ أَوْ جَمِيعِهَا لَكَانَ سَبَبًا فِي اضْطِرَابِ الْعَوَالِمِ وَانْدِكَاكِهَا». [يُنظر: «التحرير والتنوير» لابن عاشور. (ج٢٢/ ١٢٧، ١٢٨) بتصرف].

مِنْهُ، بَلْ فُنُوْنُهُ كُلُّهَا، ثُمَّ لَا تَقْتَصِرُ هِمَّتِي فِي فَنٍّ عَلَىٰ بَعْضِهِ، بَلْ أَرُوْمُ اِسْتِقْصَاءَهُ، وَالزَّمَانُ لَا يَسَعُ، وَالعُمْرُ أَضْيَقُ، وَالشَّوْقُ يَقْوَىٰ، وَالعَجْزُ يَظْهَرُ[١]، فَيَبْقَىٰ وُقُوْفُ بَعْضِ الْمَطْلُوْبَاتِ حَسَرَاتٍ. ثُمَّ إِنَّ العِلْمَ دَلَّنِي عَلَىٰ مَعْرِفَةِ الْمَعْبُوْدِ، وَحَثَّنِي عَلَىٰ خِدْمَتِهِ، ثُمَّ صَاحَتْ بِيَ الأَدِلَّةُ عَلَيْهِ إِلَيْهِ، فَوَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ فِي نَعْتِهِ، وَعَرَفْتُهُ بِصِفَاتِهِ، وَعَايَنَتْ بَصِيرَتِي مِنْ أَلْطَافِهِ مَا دَعَانِي إِلَىٰ الْهَيَمَانِ فِي مَحَبَّتِهِ[٢]، وَحَرَّكَنِي إِلَىٰ التَّخَلِّي لِخِدْمَتِهِ، وَصَارَ يَمْلِكُنِي أَمْرٌ كَالوَجْدِ[٣]، كُلَّمَا ذَكَرْتُهُ، فَعَادَتْ خَلْوَتِي فِي خِدْمَتِي لَهُ أَحْلَىٰ عِنْدِي مِنْ كُلِّ حَلَاوَةٍ.

فَكُلَّمَا مِلْتُ إِلَىٰ الانقِطَاعِ عَنِ الشَّوَاغِلِ إِلَىٰ الْخَلْوَةِ[٤]؛ صَاحَ بِيَ العِلْمُ: أَيْنَ تَمْضِي؟! أَتُعْرِضُ عَنِّي، وَأَنَا سَبَبُ مَعْرِفَتِكَ بِهِ؟! فَأَقُوْلُ لَهُ: إِنَّمَا كُنْتَ دَلِيْلًا، وَبَعْدَ الوُصُوْلِ يُسْتَغْنَىٰ عَنِ الدَّلِيْلِ. قَالَ: هَيْهَاتَ! كُلَّمَا زِدْتَ؛ زَادَتْ مَعْرِفَتُكَ لِمَحْبُوْبِكَ، وَفَهِمْتَ كَيْفَ القُرْبُ مِنْهُ. وَدَلِيْلُ هَذَا: أَنَّكَ تَعْلَمُ غَدًا أَنَّكَ اليَوْمَ فِي نُقْصَانٍ.

أَوَمَا تَسْمَعُهُ يَقُوْلُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه:١١٤]؟! ثُمَّ أَلَسْتَ تَبْغِي القُرْبَ مِنْهُ؟! فَاشْتَغِلْ بِدِلَالَةِ عِبَادِهِ عَلَيْهِ؛ فَهِيَ حَالَاتُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُم آثَرُوا تَعْلِيْمَ الْخَلْقِ عَلَىٰ خَلَوَاتِ التَّعَبُّدِ؛ لِعِلْمِهِم أَنَّ ذَلِكَ آثَرُ عِنْدَ حَبِيْبِهِم؟! أَمَا قَالَ الرَّسُوْلُ ﷺ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[٥]؟!

فَلَمَّا فَهِمْتُ صِدْقَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ؛ تَهَوَّسْتُ عَلَىٰ تِلْكَ الْحَالَةِ[٦]، وكُلَّمَا تَشَاغَلْتُ بِجَمْعِ

---

(١) أي: غلبه، وقوي عليه. وجاء في حاشية الأصل: في الأحمدية: [يُقعد]. فيكون بمعنىٰ: حَبَسَهُ ومنعه.

(٢) الْهَيَمَانُ: شِدَّةُ الْمَحَبَّةِ والشَّغَف الغَالِبُ عَلَىٰ القَلْبِ.

(٣) الوَجْدُ: ما يُصادف قلبك ويرد عليك بلا تعمد وتكلّف.

(٤) الخَلوةُ: مُحادثة السّر مع الحقّ فلا يرىٰ غيره، وما يُتوصل به إلىٰ هذا من التبتل إلىٰ الله والانقطاع عن الغير.

(٥) رواه البخاري، كِتَابُ «الجِهَادِ وَالسِّيَرِ» بَابُ «فَضْلِ مَنْ أَسْلَمَ عَلَىٰ يَدَيْهِ رَجُلٌ»(٣٠٠٩). ومسلم، كِتَابُ «فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ» بَابُ «مِنْ فَضَائِلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ»(٢٤٠٦).

(٦) الْهَوَسُ: المشيُ الَّذي يعتمد فيه صاحبه علىٰ الأرض اعتمادًا شديدًا. هَوِس: صفة مشبّهة تدلّ علىٰ الثبوت. وبهذا يكون المعنىٰ: ثَبَتُّ عَلَىٰ حَالَتِي الَّتِي أنا عَلَيْهَا.

النَّاسِ؛ تَفَرَّقَ هَمِّي، وَإِذَا وَجَدْتُ مُرَادِي مِنْ نَفْعِهِمْ؛ ضَعُفْتُ أَنَا، فَأَبْقَىٰ فِي حَيِّزِ التَّحَيُّرِ مُتَرَدِّدًا، لَا أَدْرِي عَلَىٰ أَيِّ القَدَمَيْنِ أَعْتَمِدُ؟

فَإِذَا وَقَفْتُ مُتَحَيِّرًا؛ صَاحَ العِلْمُ: قُمْ لِكَسْبِ الْعِيَالِ، وَادْأَبْ[1] فِي تَحْصِيلِ وَلَدٍ يَذْكُرُ اللهَ؛ فَإِذَا شَرَعْتُ فِي ذَلِكَ؛ قَلَصَ ضَرْعُ الدُّنْيَا وَقْتَ الْحَلْبِ[2]، وَرَأَيْتُ بَابَ الْمَعَاشِ مَسْدُودًا فِي وَجْهِي؛ لِأَنَّ صِنَاعَةَ العِلْمِ شَغَلَتْنِي عَنْ تَعَلُّمِ صِنَاعَةٍ.

فَإِذَا الْتَفَتُّ إِلَىٰ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، رَأَيْتُهُمْ لَا يَبِيعُونَ شَيْئًا مِنْ سِلَعِهَا إِلَّا بِدِينِ الْمُشْتَرِي! أَوَلَيْتَ مَنْ نَافَقَهُمْ أَوْ رَاءَاهُمْ نَالَ مِنْ دُنْيَاهُمْ، بَلْ رُبَّمَا ذَهَبَ دِينُهُ، وَلَمْ يُحَصِّلْ مُرَادَهُ!!

فَإِنْ قَالَ الضَّجَرُ: اهْرُبْ! قَالَ الشَّرْعُ: «كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا، أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»[3]، وَإِنْ قَالَ العَزْمُ: انْفَرِدْ! قَالَ: فَكَيْفَ بِمَنْ تَعُولُ؟![4].

فَغَايَةُ الأَمْرِ أَنِّي أَشْرَعُ فِي التَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا؛ وَقَدْ رُبِّيتُ فِي نَعِيمِهَا، وَغُذِّيتُ بِلِبَانِهَا[5]، وَلُطْفَ مَزَاجِي فَوْقَ لُطْفِ وَضْعِهِ بِالعَادَةِ، فَإِذَا غَيَّرْتُ لِبَاسِي، وَخَشَّنْتُ مَطْعَمِي؛ لِأَنَّ القُوتَ لَا يَحْتَمِلُ الانْبِسَاطَ؛ نَفَرَ الطَّبْعُ لِفِرَاقِ العَادَةِ، فَحَلَّ الْمَرَضُ، فَقَطَعَ عَنْ وَاجِبَاتٍ، وَأَوْقَعَ فِي آفَاتٍ!

---

(١) أي: استمرّ واجتهد وواظب عليه.

(٢) قَلَصَ الضَّرْعُ: اجْتَمَع. وَأَصلُ الضرعِ الَّذي لا يَخلُو من اللَّبَن أو لا يَكادُ يَخلُو منه، ولا يُسمىٰ بذلك إلاَّ أن يكونَ فيه لَبَنٌ فإذا قَلَصَ الضرعُ وذهَبَ اللَّبنُ قيل له: خَيْفٌ. والمقصود من كلام ابن الجوزي: أنه لما شرع فيما دلَّه عليه العلم من الكسب للعيال وتحصيل الولد، فإذا بالدنيا تجتمع وتتذ بالعوارض والمصائب....

(٣) رواه أبو داود كِتَابُ «الزَّكَاة» بَابُ «فِي صِلَةِ الرَّحِمِ»(١٦٨٩). رواه الحاكم كِتَابُ «الزَّكَاة» حديث (١٥١٥). رواه ابن حبان كِتَابُ «الرضاع» بَابُ «النفقة» «ذِكْرُ الزَّجْرِ عَنْ أَنْ يُضَيِّعَ الْمَرْءُ مَنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ مِنْ عِيَالِهِ»(٤٢٤٠).

(٤) روىٰ ابن خزيمة، كِتَابُ «الزَّكَاة» بَابُ «فَضْلِ الْمُتَصَدِّقِ»(٢٤٣٦). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا أَبْقَتْ غِنًى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَىٰ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَقُولُ امْرَأَتُكَ: أَنْفِقْ عَلَيَّ أَوْ طَلِّقْنِي، وَيَقُولُ مَمْلُوكُكَ: أَنْفِقْ عَلَيَّ أَوْ بِعْنِي، وَيَقُولُ وَلَدُكَ: إِلَىٰ مَنْ تَكِلُنَا».

(٥) وهذا فيه تشبيه بديع؛ حيث شبه الدنيا بأمِّه التي يرضع منها ولا يستغني عنها.

وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ لِيْنَ اللُّقْمَةِ بَعْدَ التَّحْصِيْلِ مِنَ الْوُجُوْهِ الْمُسْتَطَابَةِ، ثُمَّ تَخْشِيْنَهَا لِمَنْ لَمْ يَأْلَفْ سَعْيٌ فِي تَلَفِ النَّفْسِ.

فَأَقُوْلُ: كَيْفَ أَصْنَعُ؟! وَمَا الَّذِي أَفْعَلُ؟! وَأَخْلُو بِنَفْسِي فِي خَلَوَاتِي، وَأَتَزَيَّدُ مِنَ الْبُكَاءِ عَلَىٰ نَقْصِ حَالَاتِي.

وَأَقُوْلُ: أَصِفُ حَالَ الْعُلَمَاءِ؛ وَجِسْمِي يَضْعُفُ عَنْ إِعَادَةِ العِلْمِ!!

وَحَالَ الزُّهَادِ؛ وَبَدَنِي لَا يَقْوَىٰ عَلَىٰ الزُّهْدِ!! وَحَالَ الْمُحِبِّيْنَ.

وَمُخَالَطَةُ الْخَلْقِ تُشَتِّتُ هَمِّي، وَتَنْقُشُ صُوَرَ الْمَحْبُوبَاتِ مِنَ الْهَوَىٰ فِي نَفْسِي، فَتَصْدَأُ مِرْآةُ قَلْبِي!! وَشَجَرَةُ الْمَحَبَّةِ تَحْتَاجُ إِلَىٰ تَرْبِيَةٍ فِي تُرْبَةٍ طَيِّبَةٍ تُسْقَىٰ مَاءَ الْخَلْوَةِ مِنْ دُولَابِ الفِكْرَةِ[١].

وَإِنْ آثَرْتُ التَّكَسُّبَ؛ لَمْ أُطِقْ، وَإِنْ تَعَرَّضْتُ لِأَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ مَعَ أَنَّ طَبْعِيَ الْأَنَفَةَ مِنَ الذُّلِّ، وَتَدَيُّنِي يَمْنَعُنِي؛ فَلَا يَبْقَىٰ لِلمَيْلِ مَعَ هَذَيْنِ الْجَاذِبَيْنِ أَثَرٌ!

وَمُخَالَطَةُ الخَلْقِ يُؤْذِي النَّفْسَ مَعَ الأَنْفَاسِ؛ فَلَا تَحْقِيْقَ التَّوْبَةِ أَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلَا نَيْلَ مَرْتَبَةٍ مِنْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ مَحَبَّةٍ يَصِحُّ لِي.

فَإِذَا رَأَيْتُنِي كَمَا قَالَ القَائِلُ:[٢]

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ ... إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ

تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِي، وَبَكَيْتُ عَلَىٰ عُمْرِي، وَأُنَادِيْ فِي فَلَوَاتِ[٣] خَلَوَاتِي بِمَا سَمِعْتُهُ مِنْ بَعْضِ العَوَامِّ، وَكَأَنَّهُ وَصْفَ حَالِي:[٤]

---

(١) الدُّولابُ: آلة تديرها الدَّابَّة ليُستقىٰ بها. أو هي: كلّ أداة تدور وتُحدث حركة تدفع غيرها
(٢) البيت من البحر: [البسيط].
(٣) فَلَوات: مفردها: فَلاة: أرض واسعة مُقفِرة لا ماء فيها.
(٤) البيتان من البحر: [البسيط].

وَاحَسْـرَتِي كَـمْ أُدَارِيْ فِيـكَ تَعْثِيـرِي مِثْـلَ الأَسِـيرِ بِـلا حَيْـلٍ ولَا سَـيْرِ (١)

مَا حِيْلَتِي فِي الْهَوَىْ قَدْ ضَاعَ تَدْبِيرِي لَمَّا شَكَلْتَ جَنَاحِي (٢) قُلْتَ لِي: طِيْرِي

---

(١) حَيْل: قوّة ومقدرة. وَسَيْر: أَسْيَار وَسُيور: خَيْطٌ أو قطعةٌ مستطيلة من الجلد تُستخدم لربط الأشياء مع بعضها.

(٢) شَكَلْتَ جَنَاحِي: ربَطْتَهُ؛ تقول: شكَل الدَّابَّةَ ونحوَها: قيَّدها بالشّكال وهو القيد؛ ربَطها به.

(٩)

[النَّفْسُ وَمُجَاهَدتِهَا، وَالتَّلَطُّف بِهَا]

* [٩٧-١٨١] [خَاطِرَةٌ]:

[النَّفسُ مِنْ أَكْبَرِ الأَدِلَّة عَلَى وُجُود الخَالِق سُبحَانَه]

مِنْ أَكْبَرِ الدَّلِيْلِ عَلَىٰ وُجُودِ الخَالِقِ سُبْحَانَهُ هَذِهِ النَّفْسُ النَّاطِقَةُ الْمُمَيِّزَةُ، الْمُحَرِّكَةُ لِلْبَدَنِ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ إِرَادَتِهَا، وَ [الَّتِي](١) دَبَّرَتْ مَصَالِحَهَا، وَتَرَقَّتْ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الأَفْلَاكِ، وَاكْتَسَبَتْ مَا أَمْكَنَ تَحْصِيْلُهُ مِنَ الْعُلُوْمِ، وَشَاهَدَتِ الصَّانِعَ فِي الْمَصْنُوْعِ؛ فَلَمْ يَحْجُبْهَا سِتْرٌ، وَإِنْ تَكَاثَفَ(٢)! [(٣) وَ] لا يُعْرَفُ مَعَ هَذَا مَاهِيَّتُهَا، وَلَا كَيْفِيَّتُهَا، وَلَا جَوْهَرُهَا، وَلَا مَحَلُّهَا(٤)، وَلَا يُفْهَمُ مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ؟ وَلَا يُدْرَىٰ أَيْنَ تَذْهَبُ؟ وَلَا كَيْفَ تَعَلَّقَتْ بِهَذَا الْجَسَدِ؟ وَهَذَا كُلُّهُ يُوْجِبُ عَلَيْهَا أَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا وَخَالِقًا، وَكَفَىٰ بِذَلِكَ دَلِيْلًا عَلَيْهِ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ وُجِدَتْ بِهَا؛ لَمَا خَفِيَتْ أَحْوَالُهَا عَلَيْهَا، فَسُبْحَانَهُ سُبْحَانَهُ.

---

(١) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها. وفي الأصل: [ودبرت].

(٢) تَكَاثَف السَّحابُ: كَثُفَ؛ غَلُظَ وَثَخُنَ، كَثُرَ وَتَرَاكَب.

(٣) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها. وفي الأصل: [لا].

(٤) جاء في الأصل: [ولا محلها بأشغالها].

* [٩٨-٢٠] [خَاطِرَةٌ]:

[أَمْرُ النَّفْسِ وَمَاهِيَّتُهَا(١) وَمَصِيرِهَا]

قَدْ أَشْكَلَ عَلَىٰ النَّاسِ أَمْرُ النَّفْسِ وَمَاهِيَّتُهَا؛ مَعَ إِجْمَاعِهِمْ عَلَىٰ وُجُودِهَا، وَلَا يَضُرُّ الْجَهْلُ بِذَاتِهَا مَعَ إِثْبَاتِهَا. ثُمَّ أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مَصِيرُهَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَمَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ أَنَّ لَهَا وُجُودًا بَعْدَ مَوْتِهَا، وَأَنَّهَا تُنَعَّمُ وَتُعَذَّبُ، قَالَ أَحْمُد بْنُ حَنْبَلٍ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ، وَأَرْوَاحُ الْكُفَّارِ فِي النَّارِ. وَقَدْ جَاءَ فِي أَحَادِيثِ الشُّهَدَاءِ أَنَّهَا فِي: «حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَعْلَقُ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ»(٢).

وَقَدْ أَخَذَ بَعْضُ الْجَهَلَةِ بِظَوَاهِرِ أَحَادِيثِ النَّعِيمِ؛ فَقَالَ: إِنَّ الْمَوْتَىٰ يَأْكُلُوْنَ فِي الْقُبُوْرِ وَيَنْكِحُوْنَ. وَالصَّوَابُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ النَّفْسَ تَخْرُجُ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَىٰ نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ، وَأَنَّهَا تَجِدُ ذَلِكَ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ؛ فَإِذَا كَانَتِ القِيَامَةُ؛ أُعِيدَتْ إِلَىٰ الجَسَدِ؛ لِيَتَكَامَلَ لَهَا التَّنَعُّمُ بِالوَسَائِطِ.

وَقَوْلُهُ: «فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ» دَلِيْلٌ عَلَىٰ أَنَّ النُّفُوْسَ لَا تَنَالُ لَذَّةً إِلَّا بِوَاسِطَةٍ؛ إِلَّا أَنَّ تِلْكَ اللَّذَّةَ لَذَّةُ مَطْعَمٍ أَوْ مَشْرَبٍ، فَأَمَّا لَذَّاتُ الْمَعَارِفِ وَالعُلُوْمِ؛ فَيَجُوْزُ أَنْ تَنَالَهَا بِذَاتِهَا مَعَ عَدَمِ الوَسَائِطِ.

---

(١) مَاهِيَّتُهَا: حقيقتها وجوهرها. وَيُقْصَدُ بِالنَّفْسِ هُنَا: الرُّوح. وَالرُّوحُ: يُطْلَقُ عَلَىٰ الْمَوْجُودِ الْخَفِيِّ الْمُنْتَشِرِ فِي سَائِرِ الْجَسَدِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ آثَارُهُ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَالتَّفْكِيرِ، وَهُوَ الَّذِي يَتَقَوَّمُ فِي الْجَسَدِ الْإِنْسَانِيِّ حِينَ يَكُونُ جَنِينًا بَعْدَ أَنْ يَمْضِيَ عَلَىٰ نُزُولِ النُّطْفَةِ فِي الرَّحِمِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا. وَهَذَا الْإِطْلَاقُ هُوَ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[ص:٧٢]. وَهَذَا يُسَمَّىٰ أَيْضًا بِالنَّفْسِ كَقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾[الفجر:٢٧]. وَيُطْلَقُ الرُّوحُ عَلَىٰ الْكَائِنِ الشَّرِيفِ الْمُكَوَّنِ بِأَمْرٍ إِلَهِيٍّ بِدُونِ سَبَبٍ اعْتِيَادِيٍّ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[الشورى:٥٢] وَقَوْلُهُ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[النساء:١٧١]. وَيُطْلَقُ لَفْظُ (الرُّوحِ) عَلَىٰ الْمَلَكِ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْوَحْيِ عَلَىٰ الرُّسُلِ. وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[الشعراء:١٩٣]. [يُنظر: «التحرير والتنوير» لابن عاشور. (ج١٥/ ١٩٦، ١٩٧) بتصرف].

(٢) هذا اللفظ رواه البغوي في «شرح السنة» (ج٧/ ص٣٦٥/ ح٣٦٢٩) وَمَعْنَىٰ «تَعْلَقُ»؛ أَيْ: تُصِيبُ مِنْ وَرَقِهَا. ورواه الترمذي كِتَابُ «فضائل الجهاد» بَابُ «ما جاء في ثواب الشهداء» (١٦٤١). عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي طَيْرٍ خُضْرٍ تَعْلُقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ أَوْ شَجَرِ الْجَنَّةِ». ورواه الدارمي كتاب «الجهاد» باب «أرواح الشهداء» (٢٤١٠). عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: «أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ فِي أَيِّ الْجَنَّةِ شَاءُوا».

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْمَذْكُوْرِ أَنِّي رَأَيْتُ بَعْضَ الانْزِعَاجِ مِنَ الْمَوْتِ، وَمُلَاحَظَةَ النَّفْسِ بِعَيْنِ العَدَمِ عِنْدَهُ.

فَقُلْتُ لَهَا: إِنْ كُنْتِ مُصَدِّقَةً لِلشَّرِيْعَةِ؛ صَارَ الكَلَامُ فِي بَيَانِ صِحَّةِ الشَّرِيْعَةِ. فَقَالَتْ: لَا رَيْبَ عِنْدِي.

قُلْتُ: فَاجْتَهِدِي فِي تَصْحِيْحِ الإِيْمَانِ، وَتَحْقِيْقِ التَّقْوَى، وَأَبْشِرِي حِيْنَئِذٍ بِالرَّاحَةِ مِنْ سَاعَةِ الْمَوْتِ؛ فَإِنِّي لَا أَخَافُ عَلَيْكِ إِلَّا مِنَ التَّقْصِيْرِ فِي العَمَلِ.

وَاعْلَمِي أَنَّ تَفَاوُتَ النَّعِيْمِ بِمِقْدَارِ دَرَجَاتِ الفَضَائِلِ؛ فَارتَفِعِي بِأَجْنِحَةِ الْجِدِّ إِلَى أَعْلَى أَبْرَاجِهَا، وَاحْذَرِي مِنْ قَانِصِ هَوًى، أَوْ شَرَكِ غِرَّةٍ[1]، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

* [٩٩-٩١] [خَاطِرَةٌ]:

[أَعْجَبُ الأَشْيَاءِ مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ]

أَعْجَبُ الأَشْيَاءِ مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ؛ لِأَنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى صِنَاعَةٍ عَجِيْبَةٍ: فَإِنَّ أَقْوَامًا أَطْلَقُوْهَا فِيْمَا تُحِبُّ، فَأَوْقَعَتْهُمْ فِيْمَا كَرِهُوا. وَإِنَّ أَقْوَامًا بَالَغُوْا فِي خِلَافِهَا، حَتَّى مَنَعُوْهَا حَقَّهَا، وَظَلَمُوْهَا، وَأَثَّرَ ظُلْمُهُمْ لَهَا فِي تَعَبُّدَاتِهِمْ:

فَمِنْهُمْ: مَنْ أَسَاءَ غِذَاءَهَا، فَأَثَّرَ ذَلِكَ ضَعْفَ بَدَنِهَا عَنْ إِقَامَةِ وَاجِبِهَا.

وَمِنْهُمْ: مَنْ أَفْرَدَهَا فِي خَلْوَةٍ؛ أَثْمَرَتِ الْوَحْشَةَ مِنَ النَّاسِ، وَآلَتْ إِلَى تَرْكِ فَرْضٍ أَوْ فَضْلٍ؛ مِنْ عِيَادَةِ مَرِيْضٍ، أَوْ بِرِّ وَالِدَةٍ.

وَإِنَّمَا الْحَازِمُ مَنْ تَعَلَّمَ مِنْهُ نَفْسُهُ الْجِدَّ وَحِفْظَ الأُصُوْلِ؛ فَإِذَا فَسَحَ لَهَا فِي مُبَاحٍ؛ لَمْ

---

(١) قَانِصِ: صائِد؛ أي: الصَّيَّاد. وَ«شَرَكِ»؛ أي: حَبَائِل، والشَّرَك حِبالةُ الصائد. وَ«غِرَّة»؛ أي: غفلة وخديعة.

تَتَجَاسَر أَنْ تَتَعَدَّاهُ، فَيَكُوْنُ مَعَهَا كَالْمَلِكِ إِذَا مَازَحَ بَعْضَ جُنْدِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَسِطُ إِلَيْهِ الْغُلَامُ؛ فَإِنِ انْبَسَطَ؛ ذَكَرَ هَيْبَةَ الْمَمْلَكَةِ. فَكَذَلِكَ الْمُحَقِّقُ؛ يُعْطِيْهَا حَظَّهَا، وَيَسْتَوْفِي مِنْهَا مَا عَلَيْهَا.

* [١٠-٣٧] [خَاطِرَةٌ]:

[جِهَادُ النَّفْسِ: أَعْظَمَ الْجِهَادِ]

تَأَمَّلْتُ جِهَادُ النَّفْسِ، فَرَأَيْتُهُ أَعْظَمَ الْجِهَادِ، وَرَأَيْتُ خَلْقًا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالزُّهَادِ لَا يَفْهَمُوْنَ مَعْنَاهُ؛ لِأَنَّ فِيْهِمْ مَنْ مَنَعَهَا حُظُوْظَهَا عَلَىٰ الإِطْلَاقِ. وذَلِكَ غَلَطٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ رُبَّ مَانِعٍ لَهَا شَهْوَةً أَعْطَاهَا بِالْمَنْعِ أَوْفَىٰ مِنْهَا، مِثْلُ أَنْ يَمْنَعَهَا مُبَاحًا، فَيَشْتَهِرَ بِمَنْعِهِ إِيَّاهَا ذَلِكَ، فَتَرْضَىٰ النَّفْسُ بِالْمَنْعِ؛ لِأَنَّهَا قَدْ اسْتَبْدَلَتْ بِهِ الْمَدْحَ. وَأَخْفَىٰ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَرَىٰ - بِمَنْعِهِ إِيَّاهَا مَا مَنَعَ - أَنَّهُ قَدْ فَضَلَ سِوَاهُ مِمَّنْ لَمْ يَمْنَعْهَا ذَلِكَ. وَهَذِهِ دَقَائِقُ[١] تَحْتَاجُ إِلَىٰ مِنْقَاشٍ[٢] فَهْمٍ يُخَلِّصُهَا.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّنَا قَدْ كُلِّفْنَا حِفْظَهَا، وَمِنْ أَسْبَابِ حِفْظِهَا مَيْلُهَا إِلَىٰ الأَشْيَاءِ الَّتِي تُقِيْمُهَا؛ فَلَا بُدَّ مِنْ إِعْطَائِهَا مَا يُقِيْمُهَا، وَأَكْثَرُ ذَلِكَ أَوْ كُلُّهُ مِمَّا تَشْتَهِيْهِ، وَنَحْنُ كَالْوُكَلَاءِ فِي حِفْظِهَا؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ لَنَا، بَلْ هِيَ وَدِيْعَةٌ عِنْدَنَا[٣]؛ فَمَنْعُهَا حُقُوْقَهَا عَلَىٰ الإِطْلَاقِ خَطَرٌ.

ثُمَّ رُبَّ شَدٍّ أَوْجَبَ اسْتِرْخَاءً، وَرُبَّ مُضَيِّقٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ فَرَّتْ مِنْهُ، فَصَعُبَ عَلَيْهِ تَلَافِيْهَا.

وَإِنَّمَا الْجِهَادُ لَهَا كَجِهَادِ الْمَرِيْضِ الْعَاقِلِ؛ يَحْمِلُهَا عَلَىٰ مَكْرُوْهِهَا فِي تَنَاوُلِ مَا تَرْجُوْ بِهِ الْعَافِيَةَ، وَيَذُوْبُ فِي الْمَرَارَةِ قَلِيْلًا مِنَ الْحَلَاوَةِ، وَيَتَنَاوَلُ مِنَ الأَغْذِيَةِ مِقْدَارَ مَا يَصِفُهُ الطَّبِيْبُ، وَلَا تَحْمِلُهُ شَهْوَتُهُ عَلَىٰ مُوَافَقَةِ غَرَضِهَا مِنْ مَطْعَمٍ رُبَّمَا جَرَّ جُوْعًا، وَمِنْ لُقْمَةٍ رُبَّمَا حَرَمَتْ لُقَمَاتٍ.

---

(١) جاء في الأصل: [دفائن]، وما أثبتناه من مخطوط: (ي). دَفَائِن: مَسْتُورٌ مَخْفِيٌّ. دَقَائِق: مَا دَقَّ وَغَمُضَ مِنَ الأَشْيَاء.

(٢) المِنْقَاش: أداة معدنيّة تُستخرج بها الأشياء الصغيرة.

(٣) الْوَدِيعَةُ: مَا اسْتُودِعَ. هَذَا فِي اللُّغَةِ. وَفِي الاصْطِلاَحِ: هِيَ الْمَالُ الْمَوْضُوعُ عِنْدَ الْغَيْرِ لِيَحْفَظَهُ بِلاَ عِوَضٍ.

فَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ العَاقِلُ؛ لا يَتْرُكُ لِجَامَهَا، وَلَا يُهْمِلُ مِقْوَدَهَا[(١)]، بَلْ يُرْخِي لَهَا فِي وَقْتٍ، وَالطِّوَلُ بِيَدِهِ[(٢)]، فَمَا دَامَتْ عَلَىٰ الجَادَّةِ[(٣)]؛ لَم يُضَايِقْهَا فِي التَّضْيِيقِ عَلَيْهَا، فَإِذَا رَآهَا قَدْ مَالَتْ؛ رَدَّهَا بِاللُّطْفِ، فَإِنْ وَنَتْ وَأَبَتْ[(٤)]؛ وَإِلَّا فَبِالْعُنْفِ، وَيَحْبِسُهَا فِي مَقَامِ الْمُدَارَاةِ[(٥)] كَالزَّوْجَةِ، الَّتِي مَبْنَىٰ عَقْلِهَا عَلَىٰ الضَّعْفِ وَالقِلَّةِ؛ فَهِيَ تُدَارَىٰ عِنْدَ نُشُوزِهَا بِالْوَعْظِ، فَإِنْ لَم تَصْلُحْ؛ فَبِالْهَجْرِ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَقِمْ؛ فَبِالضَّرْبِ[(٦)]. وَلَيْسَ فِي سِيَاطِ التَّأْدِيبِ أَجْوَدُ مِنْ سَوْطِ عَزْمٍ[(٧)]. هَذِهِ مُجَاهَدَةٌ مِنْ حَيْثُ العَمَلُ.

فَأَمَّا مِنْ حَيْثُ وَعْظُهَا وَتَأْنِيبُهَا؛ فَيَنْبَغِي لِمَنْ رَآهَا تَسْكُنُ لِلْخَلْقِ، وَتَتَعَرَّضُ بِالدَّنَاءَةِ مِنَ الأَخْلَاقِ[(٨)] أَنْ يُعَرِّفَهَا تَعْظِيمَ خَالِقِهَا لَهَا، فَيَقُولَ:

أَلَسْتِ الَّتِي قَالَ فِيكِ: خَلَقْتُكِ بِيَدَيَّ[(٩)]، وَأَسْجَدْتُ لَكِ مَلَائِكَتِي[(١٠)]، وَارتَضَاكِ لِلْخِلَافَةِ

---

(١) الْمِقْوَد: ما تُقاد به الدابَّة من حبل أو لِجَام.

(٢) الطِّوَلُ: الحبْل الطويل يُشَدُّ أحد طَرَفَيه في وتِد أو غَيره وطَرَف في يَد الفَرس لِيَدُورَ فيه ويَرْعَىٰ ولا يَذْهَب. وجاء: «مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ»(ن/ ٣١٣٤). وجاء في حاشية الأصل: [في الهندية: [والطواء بيده].

(٣) الجَادَّة: الطريق مستقيم، أو طريقٌ أعظم يجمعُ الطُّرُقَ.

(٤) وَنَتْ: ونَىٰ عن: تركه وأهمله. ونَىٰ في: ضَعُف وفتَر، وكَلَّ. والمقصود الثاني. وَأَبَتْ: أبَىٰ: أنف، كره ولم يرض.

(٥) الْمُدَارَاة: الرِّفْق بِالْجَاهِلِ فِي التَّعْلِيمِ وَبِالْفَاسِقِ فِي النَّهْيِ عَنْ فِعْله، وَتَرْك الإِغْلَاظ عَلَيْهِ حَيْثُ لَا يَظْهَر مَا هُوَ فِيهِ، وَالإِنْكَار عَلَيْهِ بِلُطْفِ الْقَوْل وَالفِعْل، وَلَا سِيَّمَا إِذَا احْتِيجَ إِلَىٰ تَأَلُّفه وَنَحْو ذَلِكَ.

(٦) كأنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ يُشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]. وقوله ﷺ: «فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا»(ت/ ١١٦٣). وَأَصْلُ النُّشُوزِ: الِارْتِفَاعُ، فَالْمَرْأَةُ النَّاشِزُ كَأَنَّهَا تَرْتَفِعُ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي يُضَاجِعُهَا فِيهِ زَوْجُهَا، وَهُوَ فِي اصْطِلَاحِ الْفُقَهَاءِ: الْخُرُوجُ عَنْ طَاعَةِ الزَّوْجِ.

(٧) كأنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إنَّ الجفاء والغفلة ليس لهما دواء أفضل من سَوْطِ عزم، وهو أن يُخوفها ويهددها من غير أن يُهينها؛ فهذا أدعىٰ لرجوع النفس إلىٰ سلوك الطريق القويم. وكأنه أخذ هذا من قول النبي ﷺ: «عَلِّقُوا السَّوْطَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُ الْبَيْتِ، فَإِنَّهُ لَهُمْ أَدَبٌ»؛ أي: هُوَ باعث لَهُم علىٰ التأدب والتَّخلق بالأخلاق الفاضلة. والحديث رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٣٨٢). «صَحِيح الْجَامِع» (٤٠٢٢)، «السلسلة الصَّحِيحَة» (١٤٤٧).

(٨) الدَّنَاءَة مِنَ الأَخْلَاقِ؛ أي: الخَسِيسُ والخَبِيثُ من الأخلاق؛ فَيَتَّبِعُ خَسِيسَهَا وَأَصَاغِرَهَا وَأَخْبَثَهَا.

(٩) كأنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ يُشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

(١٠) كأنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ يُشير لقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

فِي أَرْضِهِ(١)، وَرَاسَلَكِ(٢)، وَاقْتَرَضَ مِنْكِ وَاشْتَرَىٰ؟!(٣).

فَإِنْ رَآهَا تَتَكَبَّرُ، قَالَ لَهَا: هَلْ أَنْتِ إِلَّا قَطْرَةٌ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ(٤)، تَقْتُلُكِ شَرْقَةٌ، وَتُؤْلِمُكِ بَقَّةٌ(٥)؟!.

وَإِنْ رَأَىٰ تَقْصِيرَهَا؛ عَرَّفَهَا حَقَّ الْمَوَالِي عَلَىٰ العَبِيْدِ.

وَإِنْ وَنَتْ فِي العَمَلِ؛ حَدَّثَهَا بِجَزِيْلِ الأَجْرِ.

وَإِنْ مَالَتْ إِلَىٰ الهَوَىٰ؛ خَوَّفَهَا عَظِيْمَ الوِزْرِ.

ثُمَّ يُحَذِّرُهَا عَاجِلَ العُقُوْبَةِ الحِسِّيَّةِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾[الأنعام: ٤٦]، وَالْمَعْنَوِيَّةِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[الأعراف: ١٤٦]. فَهَٰذَا جِهَادٌ بِالقَوْلِ، وَذَاكَ جِهَادٌ بِالْفِعْلِ.

---

(١) كأنه رحمه الله يُشير إلىٰ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: ٣٠]. وَالْمُرَادُ بِالْخَلِيفَةِ: الْخَلَائِفُ مِنْ آدَمَ وَبَنِيهِ. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام: ١٦٥]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[فاطر: ٣٩]. وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[النمل: ٦٢]. وَالْمُرَادُ بِخِلَافَةِ آدَمَ الْخِلَافَةُ الشَّرْعِيَّةُ، وَبِخِلَافَةِ ذُرِّيَّتِهِ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يَذْهَبُ مِنْهُمْ قَرْنٌ وَيَخْلُفُهُ قَرْنٌ آخَرُ. وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٥٥] أي: يَجْعَلُ مِنْهُمْ خُلَفَاءَ.

(٢) وَرَاسَلَكِ: رَاسَلَ يُرَاسِل، مُرَاسَلَةً، تقولُ: رَاسَلَ فُلانًا فِي الأَمْرِ: بَعَثَ إِلَيْهِ بِمَبْعُوثٍ أَوْ خِطَابٍ أَوْ رِسَالَة. وَالْمَقْصُود: أرسَل لَكِ الرُّسُل وَأَنْزَل عَلَيْكِ الكُتُب.

(٣) كأنه رحمه الله يُشير إلىٰ قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

(٤) كأنه رحمه الله يُشير إلىٰ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]؛ أي: ضعيف، وهو المني.

(٥) شَرْقَةٌ: غُصَّة؛ أي: ما اعترض في الحلق من طعام أو شراب. تقول: أخذته شرْقة كادت تقتله. وَبَقَّةٌ: شَكَّة، نَخْزَة، وَخزَة، لَسْعَة، لَدْغَة. وَالْبَقُّ: كِبَارُ الْبَعُوضِ الْوَاحِدَةُ بَقَّةٌ.

* [١٠١-٣٥٦] [خَاطِرَةٌ]:

[مُحَاسَبَةُ النَّفسِ قَبْلَ أنْ تُحَاسَب]

تَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي يَوْمًا تَفَكُّرَ مُحَقِّقٍ، فَحَاسَبْتُهَا قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبَ، وَوَزَنْتُهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنَ[١]، فَرَأَيْتُ اللُّطْفَ الرَّبَّانِي: فَبَدْأُ الطُّفُوْلَةِ وَإِلَىٰ الآنَ أَرَىٰ لُطْفًا بَعْدَ لُطْفٍ، وَسَتْرًا عَلَىٰ قَبِيْحٍ، وَعَفْوًا عَمَّا يُوْجِبُ عُقُوْبَةً، وَمَا أَرَىٰ لِذَلِكَ شُكْرًا إِلَّا بِاللِّسَانِ!.

وَلَقَدْ تَفَكَّرْتُ فِي خَطَايَا، لَوْ عُوْقِبْتُ بِبَعْضِهَا؛ لَهَلَكْتُ سَرِيْعًا، وَلَوْ كُشِفَ لِلنَّاسِ بَعْضُهَا؛ لَاسْتَحْيَيْتُ.

وَلَا يَعْتَقِدْ مُعْتَقِدٌ عِنْدَ سَمَاعِ هَذَا أَنَّهَا مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوْبِ، حَتَّىٰ يَظُنَّ فِيَّ مَا يَظُنُّ فِي الفُسَّاقِ؛ بَلْ هِيَ ذُنُوْبٌ قَبِيْحَةٌ فِي حَقِّ مِثْلِي، وَقَعَتْ بِتَأْوِيْلَاتٍ فَاسِدَةٍ فَصِرْتُ إِذَا دَعَوْتُ. أَقُوْلُ: اللَّهُمَّ! بِحَمْدِكَ وَسَتْرِكَ عَلَيَّ اغْفِرْ لِي!

ثُمَّ طَالَبْتُ نَفْسِي بِالشُّكْرِ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ فَمَا وَجَدْتُهُ كَمَا يَنْبَغِي. ثُمَّ أَنَا أَتَقَاضَىٰ القَدَرَ مُرَادَاتِي، وَلَا أَتَقَاضَىٰ نَفْسِي بِصَبْرٍ عَلَىٰ مَكْرُوْهٍ، وَلَا بِشُكْرٍ عَلَىٰ نِعْمَةٍ[٢]. فَأَخَذْتُ أَنُوْحُ عَلَىٰ تَقْصِيْرِي فِي شُكْرِ الْمُنْعِمِ، وَكَوْنِي أَتَلَذَّذُ بِإِيْرَادِ العِلْمِ مِنْ غَيْرِ تَحْقِيْقِ عَمَلٍ بِهِ.

وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو مَقَامَاتِ الكِبَارِ؛ فَذَهَبَ العُمُرُ، وَمَا حَصَلَ الْمَقْصُوْدُ!! فَوَجَدْتُ أَبَا الوَفَاءِ ابْنَ عُقِيْلٍ[٣] قَدْ نَاحَ نَحْوَ مَا نُحْتُ، فَأَعْجَبَتْنِي نِيَاحَتُهُ، فَكَتَبْتُهَا هَا هُنَا، قَالَ لِنَفْسِهِ: «يَا رَعْنَاءُ[٤]! تُقَوِّمِيْنَ الأَلْفَاظَ لِيُقَالَ: مُنَاظِرٌ!! وَثَمَرَةُ هَذَا أَنْ يُقَالَ: يَا مُنَاظِرُ! كَمَا يُقَالُ لِلْمُصَارِعِ الفَارِهُ[٥].

---

(١) كأنه رحمه الله يُشير إلىٰ ما رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» كِتَابُ «الزهد» بَابُ «كلام عمر بن الخطاب»(٣٥٦٠٠). عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «حاسِبُوا أَنفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا».

(٢) أَتَقَاضَىٰ؛ أي: أطلُب. والمعنىٰ: أنني اطلُب وأطَالب بحاجاتي وكأن ذلك حَقّ لي، وفي ذات الوقت لا أُطالِبُ نَفْسِي بِصَبْرٍ عَلَىٰ مَكْرُوْهٍ، وَلَا بِشُكْرٍ عَلَىٰ نِعْمَةٍ.

(٣) يُنظر ترجمته في الخاطرة رقم: [٢٠-٣١٩].

(٤) رَعناء: حَمقَاء، والرعن: الحُمق والطَّيش.

(٥) الْفَارِهُ: الْحَاذِقُ بِالشَّيْءِ. وَهُوَ النَّشَاطُ وَالْخِفَّةُ. [مادة: ف. ر. ه].

ضَيَّعْتِ أَعَزَّ الأَشْيَاءِ وَأَنْفَسَهَا عِنْدَ العُقَلَاءِ - وَهِيَ أَيَّامُ العُمُرِ - حَتَّىٰ شَاعَ لَكِ بَيْنَ مَنْ يَمُوْتُ غَدًا اسْمُ مُنَاظِرٍ، ثُمَّ يُنْسَىٰ الذَّاكِرُ وَالْمَذْكُوْرُ إِذْ دَرَسَتِ القُلُوْبُ(١)!. هَذَا إِنْ تَأَخَّرَ الأَمْرُ إِلَىٰ مَوْتِكِ؛ بَلْ رُبَّمَا نَشَأَ شَابٌّ أَفْرَهُ مِنْكِ، فَمَوَّهُوْا لَهُ(٢)، وَصَارَ الاسْمُ لَهُ!! وَالعُقَلَاءُ عَنِ اللهِ تَشَاغَلُوْا بِمَا إِذَا انْطَوَوْا نَشَرَهُم(٣)، وَهُوَ العَمَلُ بِالعِلْمِ، وَالنَّظَرُ الخَالِصُ لِنُفُوْسِهِم.

أُفٌّ لِنَفْسِي! وَقَدْ سَطَّرْتُ عِدَّةَ مُجَلَّدَاتٍ فِي فُنُوْنِ العُلُوْمِ(٤)، وَمَا عَبَقَ بِهَا فَضِيْلَةٌ(٥)، إِنْ نُوْظِرْتُ؛ شَمَخَتْ(٦)، وَإِنْ نُوْصِحَتْ؛ تَعَجْرَفَتْ(٧)، وَإِنْ لَاحَتِ الدُّنْيَا(٨)؛ طَارَتْ إِلَيْهَا طَيَرَانَ الرَّخَمِ(٩)، وَسَقَطَتْ عَلَيْهَا سُقُوْطَ الغُرَابِ عَلَىٰ الجِيَفِ(١٠)، فَلَيْتَهَا أَخَذَتْ أَخْذَ الْمُضْطَرِّ مِنَ الْمَيْتَةِ، تُوفِّرُ فِي الْمُخَالَطَةِ عُيُوْبًا تُبْلِي(١١)، وَلَا تَحْتَشِمُ نَظَرَ الْحَقِّ إِلَيْهَا!! وَإِنِ انْكَسَرَ لَهَا غَرَضٌ؛ تَضَجَّرَتْ؛ فَإِنْ أُمِدَّتْ بِالنِّعَمِ؛ اشْتَغَلَتْ عَنِ الْمُنْعِمِ!!

أُفٌّ وَاللهِ مِنِّي، اليَوْمَ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ، وَغَدًا تَحْتَهَا!

---

(١) دَرَسَتِ القُلُوْبُ: عَفَتْ وَخَفِيَتْ. أو امَّحَت ذِكْرَاهُ من القُلُوب.

(٢) قَوْلٌ مُمَوَّهٌ؛ أَيْ: مُزَخْرَفٌ أَوْ مَمْزُوجٌ مِنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

(٣) انطوىٰ: انقضىٰ. والمعنىٰ: الَّذين تدبَّروا وأدركوا الأمرَ علىٰ حقيقته تشاغلوا بما يُرضِي الله تعالىٰ - وَهُوَ العَمَلُ بِالعِلْمِ، وَالنَّظَرُ الخَالِصُ لِنُفُوْسِهِم -؛ لذلك أحيا الله ذكراهم بعد موتهم.

(٤) كِتَاب (الفُنُوْنِ) لابن عقيل، وَهُوَ أَزْيَدُ مِنْ أَرْبَعِ مِائَة مُجلَّد، حشد فِيْهِ كُلَّ مَا كَانَ يَجرِي لَهُ مَعَ الفُضَلَاءِ وَالتَّلَامذَة، وَمَا يَسْنَحُ لَهُ مِنَ الدَّقَائِقِ وَالغَوَامِضِ، فَفِيْهِ فَوَائِد كَثِيْرَة جَلِيْلَة، طُبِعَ مِنْه جُزء في دار المشرق لبنان سنة ١٩٦٩م.

(٥) عَبَقَ: ظَهَرَ أو لِزق أو لَزِمَ.

(٦) نُوْظِرْتُ: مِنَ الْمُنَاظَرَةِ. شَمَخَتْ: تعاظمت، ارتفعت كِبْرًا وغطرسةً.

(٧) نُوْصِحَتْ: مِنَ النُّصْحِ، وَهُوَ الْمُبالغة في النَّصِيحَةُ. تَعَجْرَفَتْ: تكبَّرت واحتقرَت الآخرين.

(٨) لاحَت: بدا وظهر.

(٩) الرَّخَم: طَائِرٌ يَأْكُلُ الْعَذِرَةَ وَهُوَ مِنَ الْخَبَائِثِ وَلَيْسَ مِنَ الصَّيْدِ، وهو موصوفٌ بالغَدْر.

(١٠) الجِيَف: جُثَّة الْمَيِّت إذا أنتنت، أو هو كل ما يُسبِّب النَّتانة والرَّائحة الخبيثة من أوساخ ونحوها

(١١) تُوفِّرُ: وِفْر جَمْعُ أَوْقار: وهو الحِمْلُ الثَّقِيل. والمقصود: أنها تحمل من الأوزار بسبب الْمُخالطة ما يوقع في مُصيبة ومِحْنَة. وجاء في الأصل: [توفر] ولعله تصحيف. وقد يكون هو من باب وفَرَ يفِرُ؛ أي: كَثُرَ واتَّسع. فيكون المعنىٰ: أنها تكثر من الْمُخالطة فيُصيبها العيوب التي تُسبب البلايا. والله أعلم بالْمُراد.

وَاللهِ؛ إِنَّ نَتَنَ جَسَدِي بَعْدَ ثَلَاثٍ تَحْتَ التُّرَابِ أَقَلُّ مِنْ نَتَنِ خَلَائِقِي وَأَنَا بَيْنَ الأَصْحَابِ(١)!

وَاللهِ؛ إِنَّنِي قَدْ بَهَرَنِي(٢) حِلْمُ هَذَا الكَرِيمِ عَنِّي؛ كَيْفَ سَتَرَنِي، وَأَنَا أَتَهَتَّكُ، وَيَجْمَعُنِي وَأَنَا أَتَشَتَّتُ؟! وَغَدًا يُقَالُ: مَاتَ الحَبْرُ العَالِمُ الصَّالِحُ، وَلَوْ عَرَفُونِي حَقَّ مَعْرِفَتِي بِنَفْسِي؛ مَا دَفَنُونِي.

وَاللهِ؛ لَأُنَادِيَنَّ عَلَىٰ نَفْسِي نِدَاءَ الْمُكَشِّفِيْنَ مَعَائِبَ الأَعْدَاءِ، وَلَأَنُوحَنَّ نَوْحَ الثَّاكِلِيْنَ لِلأَبْنَاءِ؛ إِذْ لَا نَائِحَ لِي يَنُوحُ عَلَيَّ لِهَذِهِ الْمَصَائِبِ الْمَكْتُوْمَةِ، وَالخِلَالِ الْمُغَطَّاةِ، الَّتِي قَدْ سَتَرَهَا مَنْ خَبَرَهَا، وَغَطَّاهَا مَنْ عَلِمَهَا.

وَاللهِ؛ مَا أَجِدُ لِنَفْسِي خَلَّةً(٣) أَسْتَحْسِنُ أَنْ أَقُوْلَ مُتَوَسِّلًا بِهَا: اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي كَذَا بِكَذَا.

وَاللهِ؛ مَا التَفَتُّ قَطُّ إِلَّا وَجَدْتُ مِنْهُ سُبْحَانَهُ بِرًّا يَكْفِيْنِي، وَوِقَايَةً تَحْمِيْنِي مِنْ تَسَلُّطِ الأَعْدَاءِ، وَلَا عَرَضَتْ حَاجَةٌ فَمَدَدْتُ يَدِي إِلَّا قَضَاهَا. هَذَا فِعْلُهُ مَعِي، وَهُوَ رَبٌّ غَنِيٌّ عَنِّي، وَهَذَا فِعْلِي، وَأَنَا عَبْدٌ فَقِيرٌ إِلَيْهِ!! وَلا عُذْرَ لِيَ فَأَقُوْلُ: مَا دَرَيْتُ، أَوْ: سَهَوْتُ.

وَاللهِ؛ لَقَدْ خَلَقَنِي خَلْقًا صَحِيْحًا سَلِيْمًا، وَنَوَّرَ قَلْبِي بِالْفِطْنَةِ، حَتَّىٰ إِنَّ الغَائِبَاتِ وَالْمَكْنُوْنَاتِ تَنْكَشِفُ لِفَهْمِي، فَوَا حَسْرَتَاهُ عَلَىٰ عُمُرٍ انْقَضَىٰ فِيْمَا لَا يُطَابِقُ الرِّضَا! وَا حِرْمَانِي لِمَقَامَاتِ الرِّجَالِ الفُطَنَاءِ! يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ، وَشَمَاتَةَ العَدُوِّ بِي! وَا خَيْبَةَ مَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِي إِذَا شَهِدَتِ الْجَوَارِحُ عَلَيَّ! وَا خُذْلَانِي عِنْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ! سَخِرَ - وَاللهِ - مِنِّي الشَّيْطَانُ، وَأَنَا الفَطِنُ!!

---

(١) خَلَائِقِي: إِمَّا أن تكون من «خُلُقُ» بِضَمَّتَيْنِ، السَّجِيَّةُ فِي النَّفْسِ البَاعِثَةُ عَلَىٰ عَمَلٍ يُنَاسِبُهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ. فَكَأَنَّهُ يقول: «إِنَّ الخُلُق التي تَسير بها نفسي بين الأصحاب أنتن من نتن الجسد في القبر بعد ثلاث، إشارة إلىٰ الأخلاق الشريرة». وَإِمَّا أَنْ تكون من «الْخَلْق» بِفَتْحِ الْخَاءِ وَسُكُونِ اللَّامِ. مَصْدَرُ «خَلَقَ»، إِذَا كَذَبَ. وَيُقَالُ: اخْتِلَاقٌ بِصِيغَةِ الِافْتِعَالِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ التَّكَلُّفِ وَالِاخْتِرَاعِ. فكأنه يقول: «إن كلامي بين الأصحاب والذي يحمل من التَّكَلُّفِ وَالِاخْتِرَاعِ أنتن من نتن الجسد إذا مرَّ عليه ثلاث في القبر». والله أعلم بالْمُراد.

(٢) أبْهَرهُ: أدهشه وحيَّره.

(٣) الخَلَّةُ: الخَصْلة الفضيلة.

اللَّهُمَّ! تَوْبَةً خَالِصَةً مِنْ هَذِهِ الأَقْذَارِ، وَنَهْضَةً صَادِقَةً لِتَصْفِيَةِ مَا بَقِيَ مِنَ الأَكْدَارِ! وَقَدْ جِئْتُكَ بَعْدَ الْخَمْسِيْنَ، وَأَنَا مِنْ خَلَقِ الْمَتَاعِ[1]، وَأَبَى العِلْمُ إِلَّا أَنْ يَأْخُذَ بِيَدِي إِلَىٰ مَعْدِنِ الكَرَمِ، وَلَيْسَ لِي وَسِيلَةٌ إِلَّا التَّأَسُّفَ وَالنَّدَمَ؛ فَوَاللهِ مَا عَصَيْتُكَ جَاهِلًا بِمِقْدَارِ نِعَمِكَ، وَلا نَاسِيًا لِمَا أَسْلَفْتَ مِنْ كَرَمِكَ؛ فَاغْفِرْ لِي سَالِفَ فِعْلِي».

* [٢-١٠٢-١٢] [خَاطِرَةٌ]:

[لَا يَعرِفُ الزِّيَادَةَ مِنَ النُّقصَانِ إِلَّا المُحَاسِبُ لِنَفسِهِ]

مَنْ أَحَبَّ تَصْفِيَةَ الأَحْوَالِ[2]؛ فَلْيَجْتَهِدْ فِي تَصْفِيَةِ الأَعْمَالِ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٩].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ: «لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُوْنِي، لَسَقَيْتُهُمْ الْمَطَرَ بِاللَّيْلِ، وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ، وَلَمْ أُسْمِعْهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ»[3]. وقَالَ ﷺ: «الْبِرُّ لا يَبْلَىٰ، وَالإِثْمُ لا يُنْسَىٰ، وَالدَّيَّانُ لا يَنَامُ، وَكَمَا تَدِيْنُ تُدَانُ»[4].

وَقَالَ أَبُوْ سُلَيْمَانُ الدَّارَانِي: «مَنْ صَفَّىٰ؛ صُفِيَ لَهُ، وَمَنْ كَدَّرَ؛ كُدِّرَ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي لَيْلِهِ؛ كُوْفِئَ فِي نَهَارِهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي نَهَارِهِ؛ كُوْفِئَ فِي لَيْلِهِ»[5].

---

(١) خَلَقِ الْمَتَاعِ: بَلِي ورَثَّ.

(٢) يعني: أحوال القلب والنفس.

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ: «التفسير» (٣٣٣١). وَ: «التوبة والإنابة» (٧٦٥٧). «السلسلة الضعيفة» (٤٠٦٢).

(٤) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (ج١/ ص١٤٠). «السلسلة الضعيفة» (١٥٧٦)، «ضعيف الجامع» (٢٣٦٩).

(٥) الدَّارَانِيُّ أَبُو سُلَيْمَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ أَحْمَدَ. كَانَ أَحد عُبَّاد اللهِ، وَمِنَ الزهّاد المتعبِّدين، مَاتَ سَنة: (٢٠٥ أو ٢١٥هـ). * وخبره في «الحلية» لأبي نعيم. (ج١٠/ ص٢٩٥) عَنْ ابْنِ الشِّخِّيرِ قَالَ: «مَنْ صَفَّىٰ صُفِّي لَهُ وَمَنْ خَلَطَ خُلِطَ لَهُ» وفي: (ج٩/ ص٢٥٥) عَنْ ابن أَبِي الْحَوَارِيِّ عَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ قَالَ: «مَنْ أَحْسَنَ فِي نَهَارِهِ كُفِيَ فِي لَيْلِهِ وَمَنْ أَحْسَنَ فِي لَيْلِهِ كُفِيَ فِي نَهَارِهِ وَمَنْ صَدَقَ فِي تَرْكِ شَهْوَةٍ كُفِيَ مُؤْنَتَهَا وَكَانَ اللهُ أَكْرَمَ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَ قَلْبًا بِشَهْوَةٍ تُرِكَتْ لَهُ».

وَكَانَ شَيْخٌ يَدُوْرُ فِي الْمَجَالِسِ وَيَقُوْلُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَدُوْمَ لَهُ العَافِيَةُ؛ فَلْيَتَّقِ الله ﷻ».

وَكَانَ الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ يَقُوْلُ: «إِنِّي لأَعْصِي اللهَ، فَأَعْرِفُ ذَلِكَ فِي خُلُقِ دَابَّتِي وَجَارِيَتِي»[(١)].

وَاعْلَمْ - وَفَّقَكَ اللهُ - أَنَّهُ لَا يُحِسُّ بِضَرْبَةِ مُبَنَّجٍ[(٢)]، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ الزِّيَادَةَ مِنَ النُّقْصَانِ الْمُحَاسِبُ لِنَفْسِهِ.

وَمَتَىٰ رَأَيْتَ تَكْدِيْرًا فِي حَالٍ؛ فَاذْكُرْ نِعْمَةً مَا شُكِرَتْ، أَوْ زَلَّةً قَدْ فُعِلَتْ.

وَاحْذَرْ مِنْ نِفَارِ النِّعَمِ، وَمُفَاجَأَةِ النِّقَمِ[(٣)]، وَلَا تَغْتَرِرْ بِسَعَةِ بِسَاطِ الْحِلْمِ؛ فَرُبَّمَا عُجِّلَ انْقِبَاضُهُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وَكَانَ أَبُو عَلِيٍّ الرُّوْذْبَارِيُّ[(٤)] يَقُوْلُ: «مِنَ الاغْتِرَارِ أَنْ تُسِيءَ، فَيُحْسِنَ إِلَيْكَ، فَتَتْرُكَ التَّوْبَةَ تَوَهُّمًا أَنَّكَ تُسَامَحُ فِي الهَفَوَاتِ».

* [١٠٣-٢٣] [خَاطِرَةٌ]:

[أَسْبَابُ حِرْصِ النَّفْسِ عَلَىٰ مَا مُنِعَتْ مِنْهُ]

تَأَمَّلْتُ حِرْصَ النَّفْسِ عَلَىٰ مَا مُنِعَتْ مِنْهُ، فَرَأَيْتُ حِرْصَهَا يَزِيْدُ عَلَىٰ قَدْرِ قُوَّةِ الْمَنْعِ.

---

(١) الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضِ بنِ مَسْعُوْدٍ التَّمِيْمِيُّ أَبُو عَلِيٍّ. الإِمَامُ، شَيْخُ الإِسْلَامِ، الْمُجَاوِرُ بِحَرَمِ اللهِ.(ت: ١٨٧هـ). * وخبره في «الحلية» لأبي نعيم.(ج٨/ ص١٠٩) وَفِيْهِ: «...فَأَعْرِفُ ذَلِكَ فِي خُلُقِ حِمَارِي وَخَادِمِي».

(٢) الْمُبَنَّجُ: آخذ البنج وهو من العربي الفصيح. مُركَّب كيماوي مُخدِّر يُستخلص من نباتات طبيَّة مخدِّرة.

(٣) وَمِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ». رواه مسلم، كِتَابُ «الرِّقَاقِ» بَابُ «أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْفُقَرَاءُ» حديث (٢٧٣٩).

(٤) أَبُو عَلِيٍّ الرُّوْذبَارِيُّ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ القَاسِمِ. شَيْخُ الصُّوفِيَّةِ، وَسُئِلَ عَمَّنْ يَسْمَعُ الْمَلَاهِي وَيَقُوْلُ: هِيَ حَلَالٌ لِي؛ لأَنِّي قَدْ وَصَلْتُ إِلَىٰ رُتْبَةٍ لَا يُؤَثِّرُ فِيْهِ اخْتِلَافُ الأَحْوَالِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَدْ وَصَلَ، وَلَكِنْ إِلَىٰ سَقَرَ.(ت٣٢٢).

وَرَأَيْتُ فِي السِّرْبِ الأَوَّلِ(١): أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا نُهِيَ عَنِ الشَّجَرَةِ؛ حَرَصَ عَلَيْهَا مَعَ كَثْرَةِ الأَشْجَارِ الْمُغْنِيَةِ عَنْهَا.

وَفِي الأَمْثَالِ: الْمَرْءُ حَرِيصٌ عَلَىٰ مَا مُنِعَ، وَتَوَّاقٌ إِلَىٰ مَا لَم يَنَلْ، وَيُقَالُ: لَوْ أُمِرَ النَّاسُ بِالجُوْعِ، لَصَبَرُوا، وَلَوْ نُهُوا عَنْ تَفْتِيتِ البَعْرِ؛ لَرَغِبُوا فِيهِ، وَقَالُوا: مَا نُهِيْنَا عَنْهُ إِلَّا لِشَيْءٍ.

وَقَدْ قِيْلَ(٢):

أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَىٰ الإِنْسَانِ مَا مُنِعَا

فَلَمَّا بَحَثْتُ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ؛ وَجَدْتُ سَبَبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ النَّفْسَ لَا تَصْبِرُ عَلَىٰ الحَصْرِ؛ فَإِنَّهُ يَكْفِي حَصْرُهَا فِي البَدَنِ صُوْرَةٍ(٣)؛ فَإِذَا حُصِرَتْ فِي الْمَعْنَىٰ بِمَنْعٍ؛ زَادَ طَيْشُهَا، وَلِهَذَا لَوْ قَعَدَ الإِنْسَانُ فِي بَيْتِهِ شَهْرًا؛ لَم يَصْعُبْ عَلَيْهِ، وَلَوْ قِيْلَ لَهُ: لَا تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِكَ يَوْمًا، طَالَ عَلَيْهِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهَا يَشُقُّ عَلَيْهَا الدُّخُوْلُ تَحتَ حُكْمٍ؛ وَلِهَذَا تَسْتَلِذُّ الحَرَامَ، وَلَا تَكَادُ تَسْتَطِيْبُ الْمُبَاحَ، وَلِذَلِكَ يَسْهُلُ عَلَيْهَا التَّعَبُّدُ عَلَىٰ مَا تَرَىٰ وَتُؤْثِرُ، لَا عَلَىٰ مَا يُؤْثَرُ(٤).

* [١٩٨-٣٢] [خَاطِرَةٌ]:

[كَيْفِيَة مُعَالَجَة مَيْل النَّفْس إِلَى الشَّهَوَاتِ]

رَأَيْتُ مَيْلَ النَّفْسِ إِلَىٰ الشَّهَوَاتِ زَائِدًا فِي الْمِقْدَارِ، حَتَّىٰ إِنَّهَا إِذَا مَالَتْ؛ مَالَتْ بِالقَلْبِ

(١) هكذا جاء في الأصل. والسِّرب: فريق أو جماعة من ظباء أو طير أو حيوان أو غير ذلك؛ وقد يكون تصحيف لكلمة: [الشَّرب] وهي الرعيل الأول أو القرن أو الجيل من الناس.

(٢) عجز بيت من البحر:[البسيط]. وصدره:[وَزَادَنِي كَلَفًا فِي الحُبِّ أَنْ مُنِعَتْ].

(٣) هكذا جاء في الأصل، وفي المطبوع: [في صُوْرَةِ البَدَنِ]، وما أثبتناه يصح به المعنىٰ.

(٤) بمعنىٰ: أنها تتعبد بما تهواه وتراه هي صالح لها، أو سهل عليها، حتىٰ لو كان هذا التعبد بالبدعة، ولا تتعبد بما ثبت في الكتاب والسنة، حيث تراه صعب ويحتاج إلىٰ صبر وجلد.

وَالعَقْلِ وَالذِّهْنِ؛ فَلَا يَكَادُ يُنْتَفَعُ بِشَيْءٍ مِنَ [النُّصْحِ][١]! فَصِحْتُ بِهَا يَوْمًا، وَقَدْ مَالَتْ بِكُلِّيَّتِهَا إِلَىٰ شَهْوَةٍ: وَيْحَكِ! قِفِي لَحْظَةً؛ أُكَلِّمْكِ كَلِمَاتٍ، ثُمَّ افْعَلِي مَا بَدَا لَكِ! قَالَتْ: قُلْ؛ أَسْمَعْ. قُلْتُ: قَدْ تَقَرَّرَ قِلَّةُ مَيْلِكِ إِلَىٰ الْمُبَاحَاتِ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَأَمَّا جُلُّ مَيْلِكِ إِلَىٰ الْمُحَرَّمَاتِ. وَأَنَا أَكْشِفُ لَكِ عَنِ الأَمْرَيْنِ؛ فَرُبَّمَا رَأَيْتِ الْحُلْوَيْنِ مُرَّيْنِ:

أَمَّا الْمُبَاحَاتُ مِنَ الشَّهَوَاتِ؛ فَمُطْلَقَةٌ لَكِ، وَلَكِنَّ طَرِيقَهَا صَعْبٌ: لِأَنَّ الْمَالَ قَدْ يَعْجِزُ عَنْهَا، وَالْكَسْبَ قَدْ لَا يُحَصِّلُ مُعْظَمَهَا، وَالوَقْتَ الشَّرِيفَ يَذْهَبُ بِذَلِكَ، ثُمَّ شُغْلُ الْقَلْبِ بِهَا وَقْتَ التَّحْصِيلِ، وَفِي حَالَةِ الْحُصُوْلِ، وَيُحْذَرُ الْفَوَاتُ، ثُمَّ يُنَغِّصُهَا مِنَ النَّقْصِ مَا لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ مُمَيِّزٍ: إِنْ كَانَ مَطْعَمًا؛ فَالشِّبَعُ يُحْدِثُ آفَاتٍ، وَإِنْ كَانَ شَخْصًا؛ فَالْمَلَلُ أَوِ الْفِرَاقُ أَوْ سُوءُ الْخُلُقِ، ثُمَّ أَلَذُّ النِّكَاحِ أَكْثَرُهُ إِيهَانًا لِلْبَدَنِ[٢]، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَطُوْلُ شَرْحُهُ.

وَأَمَّا الْمُحَرَّمَاتُ؛ فَتَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْمُبَاحَاتِ، وَتَزِيْدُ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا آفَةُ الْعِرْضِ، وَخَوْفُ عِقَابِ الدُّنْيَا وَفَضِيْحَتِهَا، وَوَعِيْدُ الآخِرَةِ، ثُمَّ الْجَزَعُ كُلَّمَا ذَكَرَهَا التَّائِبُ.

وَفِي قُوَّةِ قَهْرِ الهَوَىٰ لَذَّةٌ تَزِيْدُ عَلَىٰ كُلِّ لَذَّةٍ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ كُلِّ مَغْلُوْبٍ بِالْهَوَىٰ كَيْفَ يَكُوْنُ ذَلِيْلًا؛ لِأَنَّهُ قُهِرَ؛ بِخِلَافِ غَالِبِ الْهَوَىٰ؛ فَإِنَّهُ يَكُوْنُ قَوِيَّ الْقَلْبِ عَزِيْزًا؛ لِأَنَّهُ قَهَرَ؟!

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ رُؤْيَةِ الْمُشْتَهَىٰ بِعَيْنِ الْحُسْنِ، كَمَا يَرَىٰ اللِّصُّ لَذَّةَ أَخْذِ الْمَالِ مِنَ الحِرْزِ[٣]، وَلَا يَرَىٰ بِعَيْنِ فِكْرِهِ الْقَطْعَ!

وَلْيَفْتَحْ عَيْنَ الْبَصِيْرَةِ؛ لِتَأَمُّلِ الْعَوَاقِبِ، وَاسْتِحَالَةِ اللَّذَّةِ نَغْصَةً، وَانْقِلَابِهَا عَنْ كَوْنِهَا لَذَّةً؛

---

(١) جاء في الأصل والمخطوط: [البدن] والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٢) وهَن الشَّخصُ: ضَعُفَ في الأمرِ أوْ العَمَلِ أوْ البَدَن. جعله المرضُ واهنًا لا يَقوىٰ عَلَىٰ السَّيرِ السَّريع.

(٣) الْحِرْزُ فِي اللُّغَةِ: الْمَوْضُوعُ الَّذِي يُحْفَظُ فِيهِ الشَّيْءُ، وَالْجَمْعُ أَحْرَازٌ، وَلِلْحِرْزِ مَعَانٍ أُخْرَىٰ مِنْهَا: الْمَوْضِعُ الْحَصِينُ، وَالتَّعْوِيذَةُ، وَالنَّصِيبُ. وَفِي الِاصْطِلَاحِ: هُوَ مَا نُصِبَ عَادَةً لِحِفْظِ أَمْوَالِ النَّاسِ، كَالدَّارِ، وَالشَّخْصِ. وَالْفُقَهَاءُ مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ تَحْدِيدَ الْحِرْزِ مَرْجِعُهُ إِلَىٰ الْعُرْفِ وَالْعَادَةِ. وَالأَخْذُ مِنَ الْحِرْزِ شَرْطٌ مِنْ شُرُوطِ الْقَطْعِ فِي السَّرِقَةِ لِلْمَالِ الْمَمْلُوكِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ.

إِمَّا لِمَلَلٍ، أَوْ لِغَيْرِهِ مِنَ الْآفَاتِ، أَوْ لِانْقِطَاعِهَا بِامْتِنَاعِ الْحَبِيبِ، فَتَكُوْنُ الْمَعْصِيَةُ الْأُوْلَىٰ كَلُقْمَةٍ تَنَاوَلَهَا جَائِعٌ، فَمَا رَدَّتْ كَلِبَ الْجُوْعِ(١)، بَلْ شَهَّتِ الطَّعَامَ(٢).

وَلْيَتَذَكَّرِ الإِنْسَانُ لَذَّةَ قَهْرِ الْهَوَىٰ مَعَ تَأَمُّلِ فَوَائِدِ الصَّبْرِ عَنْهُ؛ فَمَنْ وُفِّقَ لِذَلِكَ؛ كَانَتْ سَلَامَتُهُ قَرِيْبَةً مِنْهُ.

* [١٠٥-٣٤٠] [خَاطِرَةٌ]:

[لَيْسَ لِلآدَمِيِّ أَعَزُّ مِنْ نَفْسِهِ]

لَيْسَ لِلآدَمِيِّ أَعَزُّ مِنْ نَفْسِهِ، وَقَدْ عَجِبْتُ مِمَّنْ يُخَاطِرُ بِهَا، وَيُعَرِّضُهَا لِلْهَلَاكِ! وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ قِلَّةُ العَقْلِ، وَسُوْءُ النَّظَرِ!! فَمِنْهُم مَنْ يُعَرِّضُهَا لِلتَّلَفِ، لِيُمْدَحَ بِزَعْمِهِ؛ مِثْلُ قَوْمٍ يَخْرُجُوْنَ إِلَىٰ قَتْلِ السَّبُعِ! وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْعَدُ إِلَىٰ إِيْوَانِ كِسْرَىٰ(٣)؛ لِيُقَالُ: شَاطِرٌ(٤)! وَسَاعٍ يَمْشِي ثَلَاثِيْنَ فَرْسَخًا(٥)! وَهَؤُلَاءِ إِذَا تَلِفُوْا، حُمِلُوْا إِلَىٰ النَّارِ؛ فَإِنْ هَلَكَ؛ ذَهَبَتِ النَّفْسُ الَّتِي يُرَادُ الْمَالُ لِأَجْلِهَا. وَأَعْجَبُ مِنَ الْكُلِّ مَنْ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ فِي الهَلَاكِ وَلَا يَدْرِي؛ مِثْلُ أَنْ يَغْضَبَ، فَيَقْتُلَ الْمُسْلِمَ، فَيَشْفِيَ غَيْظَهُ بِالتَّعْذِيْبِ فِي جَهَنَّمَ.

وَأَطْرَفُ مِنْ هَذَا اليَهُوْدُ وَالنَّصَارَىٰ؛ فَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَبْلُغُ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ فِي نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ؛ فَإِذَا فَرَّطَ فَمَاتَ؛ فَلَهُ الْخُلُوْدُ فِي جَهَنَّمَ. وَلَقَدْ قُلْتُ لِبَعْضِهِم: وَيْحَكَ! تُخَاطِرُ

(١) أي: شِدَّةُ الْجُوعِ. تقول: كَلِبَ الشَّخصُ علىٰ الشَّيء: اشتدّ حرْصُه عليه.

(٢) أي: اشتدت رغبتُه فيه وحرصُه عليه وتطلُّبه له.

(٣) إِيْوَانُ: دَارٌ شَامِخَةٌ مَكْشُوْفَةُ الوَجْهِ مَعقُودة السَّقف. وَإِيْوَانُ كِسْرَىٰ: مَثَلٌ: يُضرَب لِلبُنْيَان الرَّفيع العَجِيب الصَّنِيعة، الْمُتَنَاهِي الحَصَانة وَالوَثَاقة بَنَاه كِسْرَىٰ في عِشْرين سَنَة وَنيف بِمَدِينة الْمَدَائِن جَنُوبِي بَغْدَاد.

(٤) شَاطِرٌ: حاذ الفهم، سريع التصرُّف. جمعها: شاطِرون وشُطّار: ولها أكثر من معنىٰ علىٰ حسب موقعها في الجملة. ومن هذه المعاني: داهية، مكير، خبيث، لِصّ.

(٥) الفَرْسَخ: مِقْيَاس لِلطُّول يُقَدَّر بِثَلَاثة أَمْيَال (٤٨٢٧ مترًا) أَوْ ثَمَانِيَة عَشَر أَلْف قَدَم، أَوْ أَربَعة كِيلُومِتْرَات.

بِنَفْسِكَ فِي عَذَابِ الأَبَدِ! نَحْنُ نُؤْمِنُ بِنَبِيِّكُمْ فَنَقُوْلُ: لَوْ أَنَّ مُسْلِمًا آمَنَ بِنَبِيِّنَا، وَكَذَّبَ بِنَبِيِّكُمْ أَوْ بِالتَّوْرَاةِ؛ خُلِّدَ فِي النَّارِ؛ فَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ خِلافٌ!![1] إِذْ نَحْنُ مُؤْمِنُوْنَ بِصِدْقِهِ وَكِتَابِهِ؛ فَلَوْ لَقِيْنَاهُ؛ لَمْ نَخْجَلْ، وَلَوْ عَاتَبَنَا مَثَلًا وقَالَ: هَلْ قُمْتُمْ بِالسَّبْتِ؟ وَالسَّبْتُ مِنَ الْفُرُوْعِ، وَالْفُرُوْعُ لَا يُعَاقَبُ عَلَيْهَا بِالْخُلُوْدِ. فَقَالَ لِي رَئِيْسُ القَوْمِ: مَا نُطَالِبُكُمْ بِهَذَا؛ لِأَنَّ السَّبْتَ إِنَّمَا يَلْزَمُ بَنِي إِسْرَائِيْلَ. فَقُلْتُ: فَقَدْ سَلِمْنَا بِإِجْمَاعِكُم، وَأَنْتُمْ هَالِكُوْنَ؛ لِأَنَّكُمْ تُخَاطِرُوْنَ بِأَرْوَاحِكُمْ فِي العَذَابِ الدَّائِمِ!!

وَالْعَجَبُ بِمَنْ يُهْمِلُ النَّظَرَ فِيْمَا إِذَا تَوَانَىٰ فِيْهِ أَوْجَبَ الْخُلُودَ فِي العِقَابِ الدَّائِمِ. وَأَعْجَبُ مِنَ الْكُلِّ جَاحِدُ الخَالِقِ، وَهُوَ يَرَىٰ إِحْكَامَ الصَّنْعَةِ، وَيَقُوْلُ: لَا صَانِعَ. وَالسَّبَبُ فِي هَذِهِ الأَشْيَاءِ كُلِّهَا قِلَّةُ العَقْلِ، وَتَرْكُ إِعْمَالِهِ فِي النَّظَرِ وَالاسْتِدْلَالِ.

* [١٠٦-٥٩] [خَاطِرَةٌ]:

[يَنْبَغِي مُدَارَاةُ النَّفْسِ]

مَرَّ بِي حَمَّالانِ[2] تَحْتَ جِذْعٍ ثَقِيْلٍ، وَهُمَا يَتَجَاوَبَانِ بِإِنْشَاءِ النَّغَمِ[3]، وَكَلِمَاتِ الاسْتِرَاحَةِ؛ فَأَحَدُهُمَا يُصْغِي إِلَىٰ مَا يَقُوْلُهُ الآخَرُ، ثُمَّ يُعِيْدُهُ، أَوْ يُجِيْبُهُ بِمِثْلِهِ، وَالآخَرُ هِمَّتُهُ مِثْلُ ذَلِكَ، فَرَأَيْتُ أَنَّهُمَا لَوْ لَمْ يَفْعَلَا هَذَا؛ زَادَتِ الْمَشَقَّةُ عَلَيْهِمَا، وَثَقُلَ الأَمْرُ، وَكُلَّمَا فَعَلَا هَذَا؛ هَانَ الأَمْرُ.

فَتَأَمَّلْتُ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ؛ فَإِذَا بِهِ تَعْلِيْقُ فِكْرِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِمَا يَقُوْلُهُ الآخَرُ، وَطَرَبُهُ بِهِ، وَإِجَالَةُ فِكْرِهِ فِي الْجَوَابِ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَيَنْقَطِعُ الطَّرِيْقُ، وَيَنْسَىٰ ثِقَلَ الْمَحْمُوْلِ.

---

(١) ظاهر هذه الجملة خلاف الحقيقة، فهم لا يؤمنون بنبوة عيسىٰ عليه السلام ويتخذونه إلها من دون الله، وبعضهم يتخذوه ابنًا لله. تعالىٰ الله عن ذلك. فقد يكون لابن الجوزي رحمه الله قصد آخر . والله أعلم بالمراد.

(٢) حَمَّال: صِيْغَة مُبَالَغَة مِنْ حَمَلَ، وَهُوَ الَّذِي يَرْفَعُ وَيَنْقُلُ الأَشْيَاءَ عَلَى ظَهْرِهِ أَوْ غَيْرِهِ لِلنَّاسِ بِأَجْرٍ؛ [عَتَّال].

(٣) يتجاوبان؛ أي: يَرُدُّ كلًّا منهما علىٰ الآخر. وَالنَّغَمُ: الكَلامُ الخَفِيُّ.

فَأَخَذْتُ مِنْ هَذَا إِشَارَةً عَجِيْبَةً، وَرَأَيْتُ الإِنْسَانَ قَدْ حُمِّلَ مِنَ التَّكْلِيْفِ أُمُوْرًا صَعْبَةً، وَمِنْ أَثْقَلِ مَا حُمِّلَ مُدَارَةُ نَفْسِهِ، وَتَكْلِيْفُهَا الصَّبْرَ عَمَّا تُحِبُّ، وَعَلَىٰ مَا تَكْرَهُ، فَرَأَيْتُ الصَّوَابَ قَطْعَ طَرِيْقِ الصَّبْرِ بِالتَّسْلِيَةِ وَالتَّلَطُّفِ لِلنَّفْسِ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ[(١)]:

فَإِن تَشَكَّتْ فَعَلِّلْهَا الْمَجَرَّةَ مِنْ ... ضَوْءِ الصَّبَاحِ، وَعِدْها بِالرَّوَاحِ ضُحَىٰ

وَمِنْ هَذَا مَا يُحْكَىٰ عَنْ بِشْرٍ الحَافِي رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ[(٢)]: سَارَ وَمَعَهُ رَجُلٌ فِي طَرِيْقٍ، فَعَطِشَ صَاحِبُهُ، فَقَالَ لَهُ: أَنَشْرَبُ مِنْ هَذَا البِئْرِ؟ فَقَالَ بِشْرٌ: اصْبِرْ إِلَىٰ البِئْرِ الأُخْرَىٰ! فَلَمَّا وَصَلَا إِلَيْهَا، قَالَ لَهُ: البِئْرِ الأُخْرَىٰ! فَمَا زَالَ يُعَلِّلُهُ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: هَكَذَا تَنْقَطِعُ الدُّنْيَا.

وَمَنْ فَهِمَ هَذَا الأَصْلَ؛ عَلَّلَ النَّفْسَ، وَتَلَطَّفَ بِهَا، وَوَعَدَهَا الْجَمِيْلَ؛ لِتَصْبِرَ عَلَىٰ مَا قَدْ حُمِّلَتْ، كَمَا كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُوْلُ لِنَفْسِهِ: وَاللهِ؛ مَا أُرِيْدُ بِمَنْعِكِ مِنْ هَذَا الَّذِي تُحِبِّيْنَ إِلَّا الإِشْفَاقَ عَلَيْكِ.

وَقَالَ أَبُوْ يَزِيْدَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: «مَا زِلْتُ أَسُوْقُ نَفْسِي إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَهِيَ تَبْكِي، حَتَّىٰ سُقْتُهَا وَهِيَ تَضْحَكُ»[(٣)].

وَاعْلَمْ أَنَّ مُدَارَاةَ النَّفْسِ وَالتَّلَطُّفَ بِهَا لازِمٌ، وَبِذَلِكَ يَنْقَطِعُ الطَّرِيْقُ، فَهَذَا رَمْزٌ إِلَىٰ الإِشَارَةِ، وَشَرْحُهُ يَطُوْلُ.

---

(١) البيت من البحر: [البسيط].

(٢) سبق في الخاطرة رقم: [٢٤-١٧٩].

(٣) تقدمت ترجمة أَبُوْ يَزِيْدَ البِسْطَامِيّ في الخاطرة: [٨٤-٣٨]. * وخبره في «طبقات الأولياء» لابن النحوي. (ج/١ ص٣٩٩). وفي «حلية الأولياء» لأبي نعيم. (ج/١٠ ص٣٦) عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْمَرْوَزِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ امْرَأَةَ أَبِي يَزِيدَ، تَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا يَزِيدَ يَقُولُ: «دَعَوْتُ نَفْسِي إِلَىٰ اللهِ فَأَبَتْ عَلَيَّ وَاسْتَصْعَبَتْ فَتَرَكْتُهَا وَمَضَيْتُ إِلَىٰ اللهِ».

* [١٠٧-٩٦] [خَاطِرَةٌ]:

[ضَرُورَةُ التَّلَطُّفِ بِالنَّفْسِ]

تَأَمَّلْتُ العِلْمَ وَالْمَيْلَ إِلَيْهِ، وَالتَّشَاغُلَ بِهِ؛ فَإِذَا هُوَ يُقَوِّي القَلْبَ قُوَّةً تَمِيْلُ بِهِ إِلَىٰ نَوْعِ قَسَاوَةٍ، وَلَوْلَا قُوَّةُ القَلْبِ، وَطُوْلُ الأَمَلِ؛ لَمْ يَقَعِ التَّشَاغُلُ بِهِ؛ فَإِنِّي أَكْتُبُ الْحَدِيْثَ أَرْجُوْ أَنْ أَرْوِيَهُ، وَأَبْتَدِئُ بِالتَّصْنِيْفِ أَرْجُوْ أَنْ أُتِمَّهُ.

فَإِذَا تَأَمَّلْتُ إِلَىٰ بَابِ الْمُعَامَلاتِ[١]؛ قَلَّ الأَمَلُ، وَرَقَّ القَلْبُ، وَجَاءَتِ الدُّمُوْعُ، وَطَابَتِ الْمُنَاجَاةُ، وَغَشِيَتِ السَّكِيْنَةُ، وَصِرْتُ كَأَنِّي فِي مَقَامِ الْمُرَاقَبَةِ[٢].

إِلَّا أَنَّ العِلْمَ أَفْضَلُ، وَأَقْوَىٰ حُجَّةً، وَأَعْلَىٰ رُتْبَةً؛ وَإِنْ حَدَثَ مِنْهُ مَا شَكَوْتُ مِنْهُ.

وَالْمُعَامَلَةُ؛ وَإِنْ كَثُرَتِ الْفَوَائِدُ الَّتِي أَشَرْتُ إِلَيْهَا مِنْهَا؛ فَإِنَّهَا قَرِيبَةٌ إِلَىٰ أَحْوَالِ الْجَبَانِ الْكَسْلَانِ، الَّذِي قَدِ اقْتَنَعَ بِصَلَاحِ نَفْسِهِ عَنْ هِدَايَةِ غَيْرِهِ، وَانْفَرَدَ بِعُزْلَتِهِ عَنِ اجْتِذَابِ الْخَلْقِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ.

فَالصَّوَابُ العُكُوْفُ عَلَىٰ العِلْمِ، مَعَ تَلْذِيْعِ النَّفْسِ بِأَسْبَابِ الْمُرَقِّقَاتِ[٣] تَلْذِيْعًا لَا يَقْدَحُ فِي كَمَالِ التَّشَاغُلِ بِالعِلْمِ. فَإِنِّي لَأَكْرَهُ لِنَفْسِي مِنْ جِهَةِ ضَعْفِ قَلْبِي وَرِقَّتِه أَنْ أُكْثِرَ زِيَارَةَ القُبُوْرِ، وَأَنْ أَحْضُرَ الْمُحْتَضَرِيْنَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُؤَثِّرُ فِي فِكْرِي، وَيُخْرِجُنِي مِنْ حَيِّزِ الْمُتَشَاغِلِيْنَ بِالعِلْمِ إِلَىٰ مَقَامِ الْفِكْرِ فِي الْمَوْتِ، وَلَا أَنْتَفِعُ بِنَفْسِي مُدَّةً.

وَفَصْلُ الْخِطَابِ فِي هَذَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُقَاوَمَ الْمَرَضُ بِضِدِّهِ: فَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ قَاسِيًا شَدِيْدَ

---

(١) أي: أعمال القلب والنفس أو علم السلوك.

(٢) الْمُنَاجَاةُ: إِسْرَارُ الْحَدِيْثِ إِلىٰ الغَيْرِ. وَغَشِيَت: أَتَتْ. وَالسَّكِيْنَةُ: السُّكُون والهُدُوء أو الطُّمَأْنِيْنَة وَالأمن. وَالْمُرَاقَبَةُ: دَوَامُ عِلْمِ الْعَبْدِ، وَتَيَقُّنِهِ بِاطِّلَاعِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ. وَمَقَامُ الْمُرَاقَبَةِ: هُوَ الْجَامِعُ لِمَقَامَاتِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ.

(٣) اللَّذْع: الألم الخَفيف. وَالْمُرَقِّقَاتِ: ما يُرقق القلب من زيارة مريض أو قبر أو حضور مجالس العلم وغير ذلك.

الْقَسْوَةِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُرَاقَبَةِ مَا يَكُفُّهُ عَنِ الْخَطَأ؛ قَاوَمَ ذَلِكَ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَمُحَاضَرَةِ الْمُحْتَضَرِيْنَ. فَأَمَّا مَنْ قَلْبُهُ شَدِيْدُ الرِّقَّةِ؛ فَيَكْفِيْهِ مَا بِهِ؛ بَلْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَشَاغَلَ بِمَا يُنْسِيْهِ ذَلِكَ، لِيَنْتَفِعَ بِعَيْشِهِ، وَلْيَفْهَمَ مَا يُفْتِي بِهِ.

وَقَدْ كَانَ الرَّسُوْلُ ﷺ يَمْزَحُ، وَيُسَابِقُ عَائِشَةَ رضي الله عنها، وَيَتَلَطَّفُ بِنَفْسِهِ(١).

فَمَنْ سَارَ سِيْرَتَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فَهِمَ مِنْ مَضْمُوْنِهَا مَا قُلْتُهُ مِنْ ضَرُوْرَةِ التَّلَطُّفِ بِالنَّفْسِ.

---

* [١٠٨-١٧١] [خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرَى التَّلَطُّف بِالنَّفْسِ؛ فَلْيَنْظُر فِي سِيَرِ الرَّسُوْلِ ﷺ]

لَمَّا سَطَّرْتُ هَذَا الفَصْلَ الْمُتَقَدِّمَ(٢)؛ رَأَيْتُ ادِّكَارَ النَّفْسِ(٣) بِمَا لَا بُدَّ لَهَا فِي الطَّرِيْقِ مِنْهُ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ التَّلَطُّفِ؛ فَإِنَّ قَاطِعَ مَرْحَلَتَيْنِ فِي مَرْحَلَةٍ خَلِيْقٌ بِأَنْ يَقِفَ(٤)؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَقْطَعَ

---

(١) المِزاح: الْمُبَاسَطَة إِلىٰ الغَيْرِ علىٰ جِهَةِ التَّلَطُّف والاستِعْطَافِ دونَ أَذِيَّة حتّىٰ يَخْرُجَ الاستهزاءُ والسُّخرية. وكان ﷺ لا يقول في مزاحه إلا صدقًا؛ كما روىٰ الترمذي، كِتَابُ «البِرِّ وَالصِّلَةِ»(١٩٩٠). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا، قَالَ ﷺ: «إِنِّي لا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا». * وَأَمَّا مُسَابقته ﷺ عَائِشَةَ رضي الله عنها؛ فقد رواه أحمد في «المسند»(٢٤٠٠١) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «تَقَدَّمُوا» فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: «تَعَالَيْ حَتَّىٰ أُسَابِقَكِ» فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّىٰ إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «تَقَدَّمُوا» فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَيْ حَتَّىٰ أُسَابِقَكِ» فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: «هَذِهِ بِتِلْكَ». ورواه أبو داود، كِتَابُ «الجهاد» حديث (٢٥٧٨). وأمّا تلطفه ﷺ بنفسه: فيعني بها أنه كان معتدلًا في أمره كله.

(٢) الخاطرة رقم (١١٤) في «الترتيب الزاهر». ورقم (١٧٠) في أصل «صيد الخاطر».

(٣) ادِّكَارَ النَّفْسِ: الادِّكَار هو التذكير.

(٤) خَلِيْقٌ بِأَنْ يَقِفَ؛ أي: صار جديرًا به أنْ يَقِفَ.

الطَّرِيْقَ بِأَلْطَفِ مُمْكِنٍ، وَإِذَا تَعِبَتِ الرَّوَاحِلُ؛ نَهَضَ الحَادِي يُغَنِّيْهَا[١]، وَأَخْذُ الرَّاحَةِ لِلْجِدِّ جِدٌّ، وَغَوْصُ السَّابِحِ فِي طَلَبِ الدُّرِّ صُعُوْدٌ، وَدَوَامُ السَّيْرِ يَحْسُرُ الإِبِلَ[٢]، وَالْمَفَازَةُ صَعْبَةٌ[٣].

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرَىٰ التَّلَطُّفَ بِالنَّفْسِ؛ فَلْيَنْظُرْ فِي سِيَرِ الرَّسُوْلِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَتَلَطَّفُ بِنَفْسِهِ، وَيُمَازِحُ، وَيُخَالِطُ النِّسَاءَ، وَيُقَبِّلُ، وَيَمَصُّ اللِّسَانَ، وَيَخْتَارُ الْمُسْتَحْسَنَاتِ، وَيُسْتَعْذَبُ لَهُ الْمَاءُ، وَيَخْتَارُ الْمَاءَ البَارِدَ، وَالأَوْفَقَ مِنَ الْمَطَاعِمِ؛ كَلَحْمِ الظَّهْرِ وَالذِّرَاعِ وَالْحَلْوَىٰ[٤].

وَهَذَا كُلُّهُ رِفْقٌ بِالنَّاقَةِ فِي طَرِيْقِ السَّيْرِ، فَأَمَّا مَنْ جَرَّدَ عَلَيْهَا السَّوْطَ؛ فَإِنَّهُ يُوْشِكُ أَلَّا يَقْطَعَ الطَّرِيْقَ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّيْنَ مَتِيْنٌ؛ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ؛ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَعَ، وَلا ظَهْرًا أَبْقَىٰ»[٥].

---

(١) الحَادِي يُغَنِّيْهَا: الحداء: غناء شعبيّ يحدو به البدوُ وراء إبلهم.

(٢) يَحْسُرُ الإِبِلَ؛ أي: كَلَّتْ وَتَعِبَتْ، وَمِنْهُ الأَثَر: [الحَسِير لا يُعْقَرُ]؛ أي: لا يجوز للغازي إِذَا حَسَرَت دَابَّته وَأَعْيت أَنْ يَعْقِرَها مَخَافَة أَنْ يَأخذهَا العَدُو وَلَكِن يُسَيّبهَا. وَيَكُون لَازِمًا وَمُتَعِدّيًا.

(٣) الْمَفَازَةُ: الْمَكَان الَّذِي يَغْلِبُ عَلَىٰ ظَنِّ سَالِكِهِ أَنَّهُ يَهْلَك فِيهِ. أو هِيَ الصَّحَرَاء الْمُهْلِكَة الْمُضَيِّعَة. وهي من أسماء الأضداد سُمِيَّت بذلك تَفَاؤُلًا بِالسَّلامَةِ.

(٤) روىٰ البخاري، كِتَابُ «الصَّوْمِ» بَابُ «الْمُبَاشَرَةِ لِلصَّائِمِ»(١٩٢٧). عَنْ عَائِشَةَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُقَبِّلُ وَيُبَاشِرُ وَهُوَ صَائِمٌ، وَكَانَ أَمْلَكَكُمْ لِإِرْبِهِ» وروىٰ أبو داود، كِتَابُ «الصَّوْمِ»(٢٣٨٦). عَنْ عَائِشَةَ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُقَبِّلُهَا وَهُوَ صَائِمٌ، وَيَمُصُّ لِسَانَهَا». وَروىٰ أحمد في «المسند»(١٦٧٩١) عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «يَمُصُّ لِسَانَهُ - أَوْ قَالَ: شَفَتَهُ، يَعْنِي الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ - وَإِنَّهُ لَنْ يُعَذَّبَ لِسَانٌ أَوْ شَفَتَانِ مَصَّهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ». وَروىٰ أبو داود، كِتَابُ «الأَشْرِبَة»(٣٧٣٥). والحاكم في «المستدرك»(٧٢٠٤) عَنْ عَائِشَةَ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُسْتَعْذَبُ لَهُ الْمَاءُ مِنْ بُيُوتِ السُّقْيَا». وروىٰ البخاري، كِتَابُ «الذَّبَائِحِ وَالصَّيْدِ»(٥٥١٧). عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ قَالَ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَأْكُلُ دَجَاجًا» وروىٰ أحمد في «المسند» (٨٣٥٩). وأبو داود، كِتَابُ «الأَطْعِمَةِ»(١٨٣٧). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ الذِّرَاعَ». وروىٰ البخاري، كِتَابُ «الأَطْعِمَةِ» بَابُ «الحَلْوَاءِ وَالعَسَلِ»(٥٤٣١). عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ الحَلْوَاءَ وَالعَسَلَ».

(٥) رواه ابن بشران في «أماليه»(٨٤٧). والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» كِتَابُ «الصَّلَاةِ» «جُمَّاعُ أَبْوَابِ صَلَاةِ التَّطَوُّعِ» =

وَاعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُغَالِطَ نَفْسَهُ فِيمَا يَكْشِفُ العَقْلُ عَنْ عُوَارِهِ[١]؛ فَإِنَّ فِكْرَ الْمُتَيَقِّظِ يَسْبِقُ قَبْلَ مُبَاشَرَةِ الْمَرْأَةِ إِلَىٰ أَنَّهَا اعْتِنَاقُ جَسَدٍ يَحْتَوِي عَلَىٰ قَذَارَةٍ، وَقَبْلَ بَلْعِ اللُّقْمَةِ إِلَىٰ أَنَّهَا مُتَقَلِّبَةٌ فِي الرِّيقِ، لَوْ أَخْرَجَهَا اللِّسَانُ[٢]؛ [لَفَظَهَا، وَلَوْ فَكَّرَ][٣] فِي قُرْبِ الْمَوْتِ، وَمَا يَجْرِي عَلَيْهِ بَعْدَهُ؛ لِيَغَصَّ عَاجِلَ لَذَّتِهِ... فَلا بُدَّ مِنْ مُغَالَطَةٍ تَجْرِي لِيَنْتَفِعَ الإِنْسَانُ بِعَيْشِهِ.

كَمَا قَالَ لَبِيدٌ[٤]:

فَأَكْذِبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثْتَهَا ... إِنَّ صِدْقَ النَّفْسِ يُزْرِي بِالأَمَلْ

وَقَالَ البُسْتِيُّ[٥]:

أَفِدْ طَبْعَكَ الْمَكْدُودَ بِالهَمِّ رَاحَةً ... تُجِمُّ، وَعَلِّلْهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَزْحِ
وَلَكِنْ إِذَا أَعْطَيْتَهُ ذَاكَ فَلْيَكُنْ ... بِمِقْدَارِ مَا يُعْطَىٰ الطَّعَامُ مِنَ الْمِلْحِ

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ بْنُ الشِّبْلِ[٦]:

وَإِذَا هَمَمْتَ فَنَاجِ نَفْسَكَ بِالْمُنَىٰ ... وَعْدًا فَخَيْرَاتُ الجِنَانِ عِدَاتُ
وَاجْعَلْ رَجَاءَكَ دُونَ يَأْسِكَ جُنَّةً ... حَتَّىٰ تَزُولَ بِهَمِّكَ الأَوْقَاتُ

= بَابُ «الْقَصْدِ فِي الْعِبَادَةِ، وَالْجُهْدِ فِي الْمُدَاوَمَةِ»(١٧٤٣). الْمُنْبَتُّ: الْمُجهِدُ دابّته في السَّير

(١) الْعَوَارُ: الْعَيْبُ والْخَلَلُ.

(٢) جاء في الأصل: [الإنسان]، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٣) ليست في الأصل. وفي هامش الأصل:[بياض بالأصل في ثلاث نسخ]. وأثبتناها من المطبوع؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٤) البيت من البحر:[الرمل] * لَبِيد بن رَبِيعَة بن عَامِر بن مَالِك أَبُو عقيل، الشَّاعر. قدم على النَّبِيِّ ﷺ سَنَةَ وُفَدَ قومه فأسلم وحسن إسلامه. قال ﷺ: «أصدق كلمةٍ قالها الشاعر كلمة لبيد» ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل، وهو شعر حسن. وفي القصيدة ما يدل علىٰ أنه قالها في الإسلام. تُوفي سنة: (٤١هـ).

(٥) البيتان من البحر:[الطويل] * البُسْتِيُّ أَبُو الفَتْحِ عَلِيُّ بنُ مُحَمَّدٍ الكَاتِبُ العَلاَّمَةُ، شَاعِرُ زَمَانِه، مَاتَ سَنَةَ:(٤٠١هـ).

(٦) الأبيات من البحر:[الكامل]* أَبُو عَلِيٍّ بْنُ الشِّبْلِ مُحَمَّدُ بنُ الحُسَيْنِ، شَاعِرُ العَصْرِ. مَاتَ سَنَةَ:(٤٧٣هـ).

وَاسْتُرْ عَنِ الجُلَسَاءِ بَثَّكَ إِنَّمَا ... جُلَسَاؤُكَ الحُسَّادُ وَالشُّمَّاتُ
وَدَعِ التَّوَقُّعَ لِلْحَوَادِثِ إِنَّهُ ... لِلْحَيِّ مِنْ قَبْلِ الْمَمَاتِ مَمَاتُ
فَالهَمُّ لَيْسَ لَهُ ثَبَاتٌ مِثْلَمَا ... فِي أَهْلِهِ مَا لِلْسُّرُوْرِ ثَبَاتُ
لَوْلا مُغَالَطَةُ النُّفُوْسِ عُقُوْلَهَا ... لَم تَصْفُ لِلْمُتَيَقِّظِيْنِ حَيَاةُ

وَقَالَ أيضًا[1]:

بِحِفْظِ الْجِسْمِ تَبْقَىٰ النَّفْسُ فِيْهِ ... بَقَاءَ النَّارِ تُحْفَظُ بِالوِعَاءِ
فَبِالْيَأْسِ الْمُمِضِّ فَلا تُمِتْهَا ... وَلا تَمْدُدْ لَهَا طُوْلَ الرَّجَاءِ
وَعِدْهَا فِي شَدَائِدِهَا رَخَاءً ... وَذَكِّرْهَا الشَّدَائِدَ فِي الرَّخَاءِ
يُعَدُّ صَلاحُهَا هَذَا وَهَذَا ... وَبِالتَّرْكِيْبِ مَنْفَعَةُ الدَّوَاءِ

وَقَدْ كَانَ عُمُوْمُ السَّلَفِ يَخْضِبُوْنَ الشَّيْبَ[2]؛ لِئَلَّا يَرَىٰ الإِنْسَانُ مِنْهُمْ مَا يَكْرَهُ، وَإِنْ كَانَ الخِضَابُ لَا يُعْدِمُ النَّفْسَ عِلْمَهَا بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ نَوْعُ مُخَادَعَةٍ لِلْنَّفْسِ، وَمَا زَالَتِ النُّفُوْسُ تَرَىٰ الظَّاهِرَ، وَإِنَّمَا الفِكْرُ وَالعَقْلُ مَعَ الغَائِبِ.

وَلا بُدَّ مِنْ مُغَالَطَةٍ تَجْرِي لِيَتِمَّ العَيْشُ، وَلَوْ عَمِلَ العَامِلِ بِمُقْتَضَىٰ قِصَرِ الأَمَلِ؛ مَا كَتَبَ العِلْمَ وَلَا صَنَّفَ.

فَافْهَمْ هَذَا الفَصْلَ مَعَ الَّذِي تَقَدَّمَهُ[3]؛ فَإِنَّ الأَوَّلَ فِي مَقَامِ العَزِيْمَةِ، وَهَذَا فِي مَكَانِ

---

(١) الأبيات من البحر: [الوافر].

(٢) روىٰ أحمد في «المسند» (١٥٨٢٥). عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ: «كَانَ خِضَابُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْوَرْسَ، وَالزَّعْفَرَانَ». وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٥٥٣٢). عَنْ عَطَاءٍ: «مَا كَانُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُخَضِّبُونَ إِلاَّ بِالْحِنَّاءِ»

(٣) الخاطرة رقم (١١٤) فِي «الترتيب الزاهر». ورقم (١٧٠) فِي أصل «صيد الخاطر».

الرُّخْصَةِ، وَلَا بُدَّ لِلتَّعِبِ مِنْ رَاحَةٍ وَإِعَانَةٍ، وَاللهُ ﷻ [مَعَكَ][١] عَلَىٰ قَدْرِ صِدْقِ الطَّلَبِ[٢]، وَقُوَّةِ اللَّجَإِ، وَخَلْعِ الحَوْلِ وَالقُوَّةِ، وَهُوَ الْمُوَفِّقُ.

---

(١) ليست في الأصل. وأثبتناها؛ ليتضح المعنىٰ بها.

(٢) كَأَنَّهُ ﵀ يُشِيرُ إِلَىٰ قوله ﷺ: «صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ» رواه الحاكم في «الْمُستدرك» (٦٥٢٧). والنسائي في «الْمُجتبىٰ» كِتَابُ «الْجَنَائِزِ» بَابُ «الصَّلَاةُ عَلَىٰ الشُّهَدَاءِ» (١٩٥٣). عَنْ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ ﵁: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَعْرَابِ جَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَآمَنَ وَاتَّبَعَهُ. فَقَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ، فَأَوْصَىٰ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ أَصْحَابِهِ. فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةُ خَيْبَرَ غَنِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ فَأَعْطَىٰ أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَىٰ ظَهْرَهُمْ فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ. فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: قَسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ ﷺ فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: مَا هَذَا يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ ﷺ: «قَسْمٌ قَسَمْتُهُ لَكَ». قَالَ: مَا عَلَىٰ هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِي اتَّبَعْتُكَ عَلَىٰ أَنْ أُرْمَىٰ هَا هُنَا وَأَشَارَ إِلَىٰ حَلْقِهِ بِسَهْمٍ فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ. فَقَالَ ﷺ: «إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ». ثُمَّ نَهَضُوا إِلَىٰ قِتَالِ الْعَدُوِّ فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يُحْمَلُ وَقَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هُوَ هُوَ». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ ﷺ: «صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ».

(١٠)

[جَمعُ الهَمّ، وعُلوّ الهِمّة]

* [١٠٩-٢٦٥] [خَاطِرَةٌ]:

[لَا يَجْتَمِع الهَمّ مَعَ التَّلَبُّسِ بِأُمُورِ الدُّنيا]

هَيْهَاتَ أَنْ يَجْتَمِعَ الهَمُّ مَعَ التَّلَبُّسِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا! خُصُوصًا الشَّابَّ الفَقِيرَ، الَّذِي قَدْ أَلِفَ الفَقْرَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَ، وَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا؛ اهْتَمَّ بِالكَسْبِ، أَوْ بِالطَّلَبِ مِنَ النَّاسِ، فَتَشَتَّتْ هِمَّتُهُ، وَجَاءَهُ الأَوْلَادُ، فَزَادَ الأَمْرُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ يُرَخِّصُ لِنَفْسِهِ فِيمَا يُحَصِّلُ إِلَىٰ أَنْ يَتَلَبَّسَ بِالحَرَامِ.

وَمَنْ يُفَكِّرُ؛ فَهِمَّتُهُ مَا يَأْكُلُ، وَمَا يَأْكُلُهُ أَهْلُهُ، وَمَا تَرْضَىٰ بِهِ الزَّوْجَةُ مِنَ النَّفَقَةِ وَالكِسْوَةِ، وَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ؛ فَأَيُّ قَلْبٍ يَحْضُرُ لَهُ؟! وَأَيُّ هَمٍّ يَجْتَمِعُ؟!

هَيْهَاتَ! وَاللهِ، لَا يَجْتَمِعُ الهَمُّ؛ وَالعَيْنُ تَنْظُرُ إِلَىٰ النَّاسِ، وَالسَّمْعُ يَسْمَعُ حَدِيثَهُم، وَاللِّسَانُ يُخَاطِبُهُم، وَالقَلْبُ مُتَوَزِّعٌ فِي تَحْصِيلِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَكَيْفَ أَصْنَعُ؟! قُلْتُ: إِنْ وَجَدْتَ مَا يَكْفِيكَ مِنَ الدُّنْيَا، أَوْ مَعِيشَةً تَكُفُّكَ؛ فَاقْنَعْ بِهَا، وَانْفَرِدْ فِي خَلْوَةٍ عَنِ الخَلْقِ مَهْمَا قَدَرْتَ. وَإِنْ تَزَوَّجْتَ؛ فَبِفَقِيرَةٍ تَقْنَعُ بِاليَسِيرِ، وَتَصْبِرُ أَنْتَ عَلَىٰ صُورَتِهَا وَفَقْرِهَا، وَلَا تَتْرُكْ نَفْسَكَ تَطْمَحُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَاجُ إِلَىٰ فَضْلِ نَفَقَتِهِ؛ فَإِنْ رُزِقْتَ امْرَأَةً صَالِحَةً جَمَعَتْ هَمَّكَ؛ [فَذَاكَ][1]، وَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ؛ فَمُعَالَجَةُ الصَّبْرِ أَصْلَحُ لَكَ مِنَ المُخَاطَرَةِ، وَإِيَّاكَ وَالمُسْتَحْسَنَاتِ؛ فَإِنَّ صَاحِبَهُنَّ - إِذَا سَلِمَ - كَعَابِدِ صَنَمٍ، وَإِذَا حَصَلَ بِيَدِكَ شَيْءٌ؛ فَأَنْفِقْ بَعْضَهُ؛ فَبِحِفْظِ البَاقِي تَحْفَظُ شَتَاتَ قَلْبِكَ.

---

(١) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنى بها.

وَاحْذَرْ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ هَذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ؛ فَمَا بَقِيَ مُوَاسٍ، وَلَا مُؤْثِرٍ، وَلَا مَنْ يَهْتَمُّ لِسَدِّ خَلَّةٍ[١] وَلَا مَنْ لَوْ سُئِلَ أَعْطَىٰ؛ إِلَّا أَنْ يُعْطِيَ نَزْرًا بِتَضَجُّرٍ وَمِنَّةٍ، يَسْتَعْبِدُ بِهَا الْمُعْطَىٰ بَقِيَّةَ الْعُمُرِ، وَيَسْتَثْقِلُهُ كُلَّمَا رَآهُ، أَوْ يَسْتَدْعِي بِهَا خِدْمَتَهُ لَهُ، وَالتَّرَدُّدَ إِلَيْهِ.

وَإِنَّمَا كَانَ فِي الزَّمَانِ الْمَاضِي مِثْلُ أَبِي عَمْرِو بْنِ نُجَيْدٍ، سَمِعَ أَبَا عُثْمَانَ [الْحَيرِيَّ[٢]] يَقُولُ يَوْمًا عَلَى الْمِنْبَرِ: عَلَيَّ أَلْفُ دِينَارٍ، وَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي. فَمَضَىٰ أَبُو عَمْرٍو إِلَيْهِ فِي اللَّيْلِ بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَقَالَ: اِقْضِ دَيْنَكَ! فَلَمَّا عَادَ وَصَعَدَ الْمِنْبَرَ؛ قَالَ: نَشْكُرُ اللهَ لِأَبِي عَمْرٍو؛ فَإِنَّهُ أَرَاحَ قَلْبِي، وَقَضَىٰ دَيْنِي، فَقَامَ أَبُو عَمْرٍو فَقَالَ: أَيُّهَا الشَّيْخُ! ذَلِكَ الْمَالُ كَانَ لِوَالِدَتِي، وَقَدْ شَقَّ عَلَيْهَا مَا فَعَلْتُ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَقَدَّمَ بِرَدِّهِ؛ فَافْعَلْ؛ فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ عَادَ إِلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ: لِمَاذَا شَهَرْتَنِي بَيْنَ النَّاسِ؟! فَأَنَا مَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِأَجْلِ الْخَلْقِ؛ فَخُذْهُ وَلَا تَذْكُرْنِي![٣]

مَاتُوا وَغُيِّبَ فِي التُّرَابِ شُخُوصُهُم ... وَالنَّشْرُ مِسْكٌ، وَالعِظَامُ رَمِيمُ[٤]

فَالْبُعْدَ الْبُعْدَ عَمَّنْ هِمَّتُهُ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ زَادَهُمُ الْيَوْمَ إِلَىٰ أَنْ يَحْصُلَ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَىٰ أَنْ يُؤْثَرَ، وَلَا تَكَادُ تَرَىٰ إِلَّا عَدُوًّا فِي الْبَاطِنِ، صَدِيقًا فِي الظَّاهِرِ، شَامِتًا عَلَىٰ الضُّرِّ، حَسُودًا عَلَىٰ النِّعْمَةِ.

فَاشْتَرِ الْعُزْلَةَ بِمَا بِيعَتْ؛ فَإِنَّ مَنْ لَهُ قَلْبٌ إِذَا مَشَىٰ فِي الْأَسْوَاقِ، وَعَادَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ؛ تَغَيَّرَ قَلْبُهُ؛ فَكَيْفَ إِنْ عَرْقَلَهُ بِالْمَيْلِ إِلَىٰ أَسْبَابِ الدُّنْيَا؟! وَاجْتَهِدْ فِي جَمْعِ الْهَمِّ بِالْبُعْدِ عَنِ الْخَلْقِ؛ لِيَخْلُوَ الْقَلْبُ بِالتَّفَكُّرِ فِي الْمَآبِ، وَتَتَلَمَّحَ عَيْنُ الْبَصِيرَةِ خِيَمَ الرَّحِيلِ!

---

(١) الخَلَّة: - بالفَتح - الحاجة والفَقر.

(٢) جاء في الأصل: [الْمَغْرِبِي] والصواب ما أثبتناه من «سير أعلام النبلاء». * وَأَبُو عَمْرِو بْنِ نُجَيْدٍ: فَهُوَ إِسْمَاعِيلُ بنُ نُجَيْدِ بنِ أَحْمَدَ السُّلَمِيُّ النَّيْسَابُورِيُّ الصُّوفِيُّ. مَاتَ:(٣٦٥هـ). * وَأَمَّا أَبُو عُثْمَانَ الْحَيرِيَّ: فَهُوَ سَعِيدُ بنُ إِسْمَاعِيلَ، الصُّوفِيُّ، كَانَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ، وَكَانَ مَجْمَعَ العُبَّادِ وَالزُّهَّادِ. مَاتَ:(٢٩٨هـ).

(٣) ورد هذا الخبر في «سير أعلام النبلاء» للذهبي. (ج١٢/ ص٢٨١). ولكن فيه:«أَنَّ أَبَا عُثْمَانَ الحِيْرِيَّ طلبَ فِي مَجْلِسِهِ مَالًا لبعضِ الثُّغُورِ، فتَأَخَّرَ، فتَأَلَّمَ وَبَكَىٰ عَلَىٰ رُؤُوسِ النَّاسِ».

(٤) البيت من البحر:[الكامل]. النَّشْرُ: رِيحٌ طيِّبَة. تقول: له نَشْر طيِّب. وتقول: هَبَّ في الحديقة نشْرٌ مُنعِش.

* [١١٠-٣٤٥] [خَاطِرَةٌ]:

[أُمِرْنَا بِجَمْعِ الْهَمِّ لِذِكْرِ الآخِرَةِ]

الآدَمِيُّ مَوْضُوعٌ عَلَىٰ مَطْلُوبَاتٍ تُشَتِّتُ الهَمَّ؛ الْعَيْنُ تَطْلُبُ الْمَنْظُورَ، وَاللِّسَانُ يَطْلُبُ الكَلَامَ، وَالبَطْنُ يَطْلُبُ الْمَأْكُولَ، وَالفَرْجُ الْمَنْكُوحَ، وَالطَّبْعُ يُحِبُّ جَمْعَ الْمَالِ. وَقَدْ أُمِرْنَا بِجَمْعِ الْهَمِّ لِذِكْرِ الآخِرَةِ وَالْهَوَىٰ يُشَتِّتُهُ؛ فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ حَاجَاتٌ لَازِمَةٌ مِنْ طَلَبِ قُوتِ الْبَدَنِ، وَقُوتِ الْعِيَالِ؟!

وَهَذَا يُبَكِّرُ إِلَىٰ دُكَّانِهِ، وَيَتَفَكَّرُ فِي التَّحْصِيلِ، وَيَسْتَعْمِلُ آلَةَ الفَهْمِ فِي نَيْلِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ؛ فَأَيُّ هَمٍّ يَجْتَمِعُ مِنْهُ؟! خُصُوصًا إِنْ أَخَذَهُ الشَّرَهُ فِي صُورَةٍ[1]، فَيَمْضِي العُمُرُ، فَيَنْهَضُ مِنَ الدُّكَّانِ إِلَىٰ القَبْرِ؛ فَكَيْفَ يُحَصِّلُ الْعِلْمَ أَوِ الْعَمَلَ أَوْ إِخْلَاصَ القَصْدِ أَوْ طَلَبَ الفَضَائِلِ؟!

فَمَنْ رُزِقَ يَقَظَةً؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُصَابِرَ لِنَيْلِ الفَضَائِلِ: فَإِنْ كَانَ مُتَزَهِّدًا بِغَيْرِ عَائِلَةٍ؛ اكْتَفَىٰ بِسَعْيٍ قَلِيلٍ؛ فَقَدْ كَانَ السَّبْتِيُّ[2] يَعْمَلُ يَوْمَ السَّبْتِ فَيَكْتَفِي بِهِ طُولَ الأُسْبُوعِ. فَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ؛ بَاضَعَ بِهِ[3] مَنْ يَكْفِيهِ بِدِينِهِ وَثِقَتِهِ مِنْ أَنْ يَهْتَمَّ هُوَ. وَإِنْ كَانَ لَهُ عَائِلَةٌ؛ جَمَعَ هَمَّهُ فِي نِيَّةِ الْكَسْبِ عَلَيْهِم، فَيَكُونُ مُتَعَبِّدًا، أَوْ أَنْ يَكُونَ [لَهُ][4] قِنْيَةٌ[5] مَالٍ كَعَقَارٍ؛ نَاصَفَهُ فِي نَفَقَتِهِ[6]؛ لِيَكْفِيَهُ دَخْلَهُ، وَلْيُقَلِّلِ الْهَمَّ عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا يُمْكِنُهُ مِنْ حَذْفِ الْعَلَائِقِ جَهْدَهُ؛ لِيَجْمَعَ الْهَمَّ فِي ذِكْرِ الآخِرَةِ؛ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؛ أُخِذَ فِي غَفْلَتِهِ، وَنَدِمَ فِي حُفْرَتِهِ.

وَأَقْبَحُ الأَحْوَالِ حَالُ عَالِمٍ فَقِيهٍ، كُلَّمَا جَمَعَ هَمَّهُ لِذِكْرِ الآخِرَةِ، شَتَّتَهُ طَلَبُ القُوتِ لِلْعَائِلَةِ، وَرُبَّمَا احْتَاجَ إِلَىٰ التَّعَرُّضِ لِلظَّلَمَةِ، وَأَخْذِ الشُّبُهَاتِ، وَبَذْلِ الوَجْهِ. فَيَلْزَمُ هَذَا التَّقْدِيرُ فِي النَّفَقَةِ،

---

(١) الشَّرَهُ: اشتدَّ طلبُه له وحرصه عليه حتىٰ يصل إلىٰ جشع وطمع.

(٢) السَّبْتِيُّ: أحمد بن هَارُون الرَّشِيد بْن الْمَهْدي بن الْمَنْصُور العَبَّاسِيّ الزَّاهِد الوَلِيّ الصَّالِح. تُوفي سنة: (١٨٤).

(٣) بَاضَعَ: اشترىٰ بضاعة وأعطاها لمن يُتاجر له فيها ويبيعها، وهي ما تعرف بالْمُضاربة.

(٤) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ ليتضح المعنىٰ بها.

(٥) القِنْيَةُ: مَا اقْتَنَيْتَه لنفسك لا للتِّجارة.

(٦) أي: سكن النصف وأجَّر النصف الآخر.

وَإِذَا حَصَلَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ وَجْهٍ؛ دَبَّرَ فِيهِ. وَلا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ قِصَرُ الأَمَلِ عَلَىٰ إِخْرَاجِ مَا فِي يَدِهِ؛ فَقَدْ قَالَ ﷺ: «لِأَنْ تَتْرُكَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»[١].

وَأَذَلُّ مِنْ كُلِّ ذُلٍّ التَّعَرُّضُ لِلْبُخَلاءِ وَالأُمَرَاءِ؛ فَلْيُدَبِّرْ أَمْرَهُ، وَيُقَلِّلِ الْعَلَائِقَ، وَيَحْفَظْ جَاهَهُ؛ فَالأَيَّامُ قَلَائِلُ. وَقَدْ بُعِثَ إِلَىٰ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلَ مَالٌ، فَسَأَلَهُ ابْنُهُ قَبُولَهُ، فَقَالَ: يَا صَالِحُ! صُنِّي! ثُمَّ قَالَ: أَسْتَخِيرُ اللهَ، فَأَصْبَحَ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ! قَدْ عُزِمَ لِي أَلَّا أَقْبَلَهُ، هَذَا[٢]؛ وَكَانَ الْعَطَاءُ هَنِيًّا، وَجَاءَهُ مِنْ وُجُوهٍ! فَانْعَكَسَ الأَمْرُ الْيَوْمَ.

---

* [١١١-٢٢٢] [خَاطِرَةٌ]:

[احفظ قُوتك وإلَّا تشتَّت همُّك]

اعْلَمْ أَنَّ الآدَمِيَّ قَدْ خُلِقَ لِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَهُوَ مُطَالَبٌ بِمَعْرِفَةِ خَالِقِهِ بِالدَّلِيلِ، وَلَا يَكْفِيهِ التَّقْلِيدُ[٣]، وَذَلِكَ يَفْتَقِرُ إِلَىٰ جَمْعِ الهَمِّ فِي طَلَبِهِ، وَهُوَ مُطَالَبٌ بِإِقَامَةِ الْمَفْرُوضَاتِ، وَاجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ؛ فَإِنْ سَمَتْ هِمَّتُهُ إِلَىٰ طَلَبِ الْعِلْمِ؛ احْتَاجَ إِلَىٰ زِيَادَةِ جَمْعِ الْهَمِّ.

فَأَسْعَدُ النَّاسِ مَنْ لَهُ قُوتُ دَارٍ بِقَدْرِ الْكِفَايَةِ، لَا مِنْ مِنَنِ النَّاسِ وَصَدَقَاتِهِم، وَقَدْ قَنِعَ بِهِ. فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَجْتَمِعُ هَمُّهُ لِمَطْلُوبَاتِهِ مِنَ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالعِلْمِ.

وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ قُوتٌ يَكْفِي[٤]؛ فَالهَمُّ الَّذِي يُرِيدُ اجْتِمَاعَهُ فِي تِلْكَ الأُمُورِ يَتَشَتَّتُ، وَيَصِيرُ طَالِبًا لِلتَّحَيُّلِ فِي [جَمْعِ][٥] القُوتِ، فَيَذْهَبُ الْعُمُرُ فِي تَحْصِيلِ قُوتِ الْبَدَنِ الَّذِي

---

(١) رواه أحمد في «المسند»(١٥٤٦). وابن ماجة في «سننه» كِتَابُ «الْوَصَايَا» بَابُ «الْوَصِيَّةِ بِالثُّلُثِ»(٢٧٠٨).

(٢) يُراجع: «سير أعلام النبلاء» للذهبي. (ترجمة: أَحْمَدُ بنُ حَنْبَل) ففيها أخبار كثيرة مثل الذي ذكره ابن الجوزي.

(٣) أي: معرفة الله تعالىٰ من حيث معرفة أسمائه وصفاته وأفعاله وأوامره ينبغي أن يتبع فيها الدَّليل، لا التقليد.

(٤) قُوت: جمع أقوات: رزق؛ وهو مَن يكون دخله هو المصدر الرئيسي لإعالة مَن يعتمدون عليه في معيشتهم.

(٥) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

يُرِيْدُ مِنْ بَقَائِهِ غَيْرَ بَقَائِهِ، وَيَفُوْتُ الْمَقْصُوْدُ بِبَقَائِهِ، وَرُبَّمَا احْتَاجَ إِلَىٰ الانْذِلَالِ[١].

قَالَ الشَّاعِرُ[٢]:

حَسْبِي مِنَ الدَّهْرِ مَا كَفَانِي ... يَصُوْنُ عِرْضِي عَنِ الْهَوَانِ

مَخَافَةَ أَنْ يَقُوْلَ قَوْمٌ ... فَضْلُ فُلَانٍ عَلَىٰ فُلَانِ

فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ إِذَا رُزِقَ قُوْتًا، أَوْ كَانَ لَهُ مَوَادٌ[٣]: أَنْ يَحْفَظَهَا؛ لِيَتَجَمَّعَ هَمُّهُ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُبَذِّرَ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ فَيَتَشَتَّتُ هَمُّهُ، وَالنَّفْسُ إِذَا أَحْرَزَتْ قُوْتَهَا اطْمَأَنَّتْ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ؛ اكْتَسَبَ بِقَدْرِ كِفَايَتِهِ، وَقَلَّلَ الغُلُوَّ؛ لِيَجْمَعَ هَمَّهُ. وَلْيَقْنَعْ بِالْقَلِيْلِ؛ فَإِنَّهُ مَتَىٰ سَمَتْ هِمَّتُهُ إِلَىٰ فُضُوْلِ الْمَالِ؛ وَقَعَ الْمَحْذُوْرُ مِنَ التَّشَتُّتِ؛ لِأَنَّ التَّشَتُّتَ فِي الأَوَّلِ لِلْعَدَمِ، وَهَذَا التَّشَتُّتُ يَكُوْنُ لِلْحِرْصِ عَلَىٰ الفُضُوْلِ، فَيَذْهَبُ العُمُرُ عَلَىٰ البَارِدِ[٤]:

وَمَنْ يُنْفِقُ الأَيَّامَ فِي حِفْظِ مَالِهِ ... مَخَافَةَ فَقْرٍ، فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ[٥]

فَافْهَمْ هَذَا يَا صَاحِبَ الْهِمَّةِ فِي طَلَبِ الفَضَائِلِ؛ فَإِنَّكَ مَا لَم تَعْزِلْ قُوْتَ الصِّبْيَانِ، شَتَّتُوْا قَلْبَكَ، وَطَبْعُكَ طِفْلٌ؛ فَفَرِّغْ هَمَّكَ مِنِ اسْتِعَانَتِهِ. وَاعْرِفْ قَدْرَ شَرَفِ الْمَالِ الَّذِي أَوْجَبَ جَمْعَ هَمِّكَ، وَصَانَ عِرْضَكَ عَنِ الْخَلْقِ، وَإِيَّاكَ أَنْ يَحْمِلَكَ الْكَرَمُ عَلَىٰ فَرْطِ الإِخْرَاجِ، فَتَصِيرَ كَالفَقِيْرِ الْمُتَعَرِّضِ لَكَ بِالتَّعَرُّضِ لِغَيْرِكَ. وَفِي الْحَدِيْثِ: أَنَّ رَجُلًا أَتَىٰ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ، فَرَأَىٰ عَلَيْهِ آثَارَ الفَقْرِ، فَعَرَّضَ بِهِ، فَأُعْطِيَ شَيْئًا، فَجَاءَ فَقِيْرٌ آخَرُ، فَآثَرَهُ الأَوَّلُ بِبَعْضِ مَا أُعْطِيَ، فَرَمَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ، وَنَهَاهُ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ[٦].

---

(١) هكذا في الأصل: ولعله يقصد:[الأَنْذَالُ]. الخَسِيسُ من النَّاس، والْمُحْتَقَرُ في جميع أحوالِهِ.

(٢) البيتان [من مخلع البسيط] والقائل: أَبُو الحَسَنِ، عَلِيُّ بن أحمد بن منصور بن نَصْرِ بنِ بِسَّام الشَّاعِرُ.

(٣) مَوَادُّ: مفرد: مَادَّةٌ، وَهِيَ كُلُ مَا أُعِنْتَ بِهِ فَهُوَ مَادَّة لَكَ.

(٤) أي: دون نفع ولا فائدة.

(٥) البيت من البحر: [الطويل]، وقائله: المتنبي.

(٦) رواه النسائي، كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ «إِذَا تَصَدَّقَ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، هَلْ يُرَدُّ عَلَيْهِ؟»(٢٥٣٦). ولفظه: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، =

وَالقَنَاعَةُ بِمَا يَكْفِي؛ وَتَرْكُ التَشَوُّفِ إِلَىٰ الفُضُوْلِ أَصْلُ الأُصُوْلِ. وَلَمَّا آيَسَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ نَفْسَهُ مِنْ قَبُوْلِ الْهَدَايَا وَالصِّلَاتِ؛ اجْتَمَعَ هَمُّهُ، وَحَسُنَ ذِكْرُهُ، وَلَمَّا أَطْمَعَهَا ابْنُ الْمَدِيْنِيِّ وَغَيْرُهُ؛ سَقَطَ ذِكْرُهُم[١].

ثُمَّ فِيْمَنْ يُطْمَع؟! إِنَّمَا هُوَ سُلْطَانٌ جَائِرٌ، أَوْ مُزَكٍّ مَنَّانٌ، أَوْ صَدِيْقٌ مُدِلٌّ بِمَا يُعْطِي[٢]. وَالْعِزُّ أَلَذُّ[٣] مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ، وَالْخُرُوْجُ عَنْ رِبقَةِ الْمِنَنِ[٤] - وَلَوْ بِسَفِّ التُّرَابِ - [أَفْضَلُ][٥].

* [١١٢-٢١٣] [خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ عَرَفَ شَرَفَ الْوُجُوْدِ حَصَّلَ أَفْضَلَ الْمَوْجُوْد]

يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ شَرَفَ الْوُجُوْدِ أَنْ يُحَصِّلَ أَفْضَلَ الْمَوْجُوْدِ.

= أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ فَقَالَ: «صَلِّ رَكْعَتَيْنِ» ثُمَّ جَاءَ الْجُمُعَةَ الثَّانِيَةَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فَقَالَ: «صَلِّ رَكْعَتَيْنِ» ثُمَّ جَاءَ الْجُمُعَةَ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: «صَلِّ رَكْعَتَيْنِ» ثُمَّ قَالَ: «تَصَدَّقُوا» فَتَصَدَّقُوا، فَأَعْطَاهُ ثَوْبَيْنِ ثُمَّ قَالَ: «تَصَدَّقُوا» فَطَرَحَ أَحَدَ ثَوْبَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَمْ تَرَوْا إِلَىٰ هَذَا، أَنَّهُ دَخَلَ الْمَسْجِدَ بِهَيْئَةٍ بَذَّةٍ فَرَجَوْتُ أَنْ تَفْطِنُوا لَهُ، فَتَتَصَدَّقُوا عَلَيْهِ، فَلَمْ تَفْعَلُوا، فَقُلْتُ: تَصَدَّقُوا، فَتَصَدَّقْتُمْ فَأَعْطَيْتُهُ ثَوْبَيْنِ، ثُمَّ قُلْتُ: تَصَدَّقُوا، فَطَرَحَ أَحَدَ ثَوْبَيْهِ، خُذْ ثَوْبَكَ، وَانْتَهَرَهُ».

(١) ابْنُ الْمَدِيْنِيِّ عَلِيُّ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ جَعْفَرٍ، أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ فِي الحَدِيْثِ، أَبُو الحَسَنِ. مَاتَ سَنَة: (٢٣٤هـ).

* تنبيه: [قَوْلُ ابْنُ الجَوْزِيِّ ﵀ عَنْ عَلِيِّ ابن الْمَدِيْنِيِّ ﵀ أَنَّهُ مِمَّن: (سَقَطَ ذِكْرُهُم) قَدْ يَكُوْن بِسَبَبِ أَنَّ ابن الْمَدِيْنِيِّ ﵀ أَجَابَ فِي مِحْنَةِ خَلْقِ القُرْآن. وَلَقَد قَالَ ابْن الْمَدِيْنِيِّ لِرَجُلٍ لَمَّا قَالَ لَهُ: إِنَّهُم لاَ يَقْبَلُوْنَ مِنْكَ، إِنَّمَا يَقْبَلُوْنَ مِنْ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ. قَالَ: قَوِيَ أَحْمَدُ عَلَىٰ السُّوطِ، وَأَنَا لاَ أَقْوَىٰ. وَمَعَ ذَلِكَ فَهَذِهِ الْمَقُولَة مِنِ ابْنِ الجَوْزِيِّ ﵀ لَا يُأخذ بِهَا، لِمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ العِلْمِ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَىٰ ابن الْمَدِيْنِيِّ؛ بَل لا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَم مِنْهَا ازْدِرَاء ابْنِ الجَوْزِيِّ ﵀ بِابْنِ الْمَدِيْنِيِّ ﵀. وَلِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تُرَاجع تَرجَمَة: ابْنُ الْمَدِيْنِيِّ، وَمَا قِيْلَ عَنْهُ وَفِيْهِ فِي: «سِيَرِ أَعلَامِ النُّبَلَاء».

(٢) أدلَّ، إدلالًا، فهو مُدِلّ. افتَخَرَ وَازْدَهَىٰ بِمَا يُعْطِي.

(٣) جاء في الأصل: [الزمن] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٤) الرِّبْقَة فِي الأصْل: عُرْوَة فِي حَبْل تُجْعَل فِي عُنُق الْبَهِيمَة أَوْ يَدهَا تُمْسِكهَا.

(٥) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

هَذَا العُمُرُ مَوْسِمٌ، وَالتِّجَارَاتُ تَخْتَلِفُ، وَالعَامَّةُ تَقُوْلُ: عَلَيْكُمْ بِمَا خَفَّ حَمْلُهُ، وَكَثُرَ ثَمَنُهُ؛ فَيَنْبَغِي لِلْمُسْتَيْقِظِ أَلَّا يَطْلُبَ إِلَّا الأَنْفَسَ. وَأَنْفَسُ الأَشْيَاءِ فِي الدُّنْيَا مَعْرِفَةُ الْحَقِّ ﷻ.

فَمِنَ الْعَارِفِيْنَ السَّالِكِيْنَ مَنْ وَافَىٰ فِي طَرِيْقِهِ بُغْيَتَهُ فِي السَّفَرِ. وَمِنْهُمْ مَنْ هِمَّتُهُ مُتَعَلِّقَةٌ بِطَلَبِ رِبْحِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ مَا يُرْضِي الْحَبِيْبَ، فَيَجْلِبُهُ إِلَىٰ بَلَدِ الْمُعَامَلَةِ، وَيَرْضَىٰ بِالْقَبُوْلِ ثَمَنًا، وَيَرَىٰ أَنَّ كُلَّ البَضَائِعِ لَا تَفِي بِحَقِّ الْخِفَارَةِ[1]. وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَىٰ لُزُوْمَ الشُّكْرِ فِي اخْتِيَارِهِ [هَذَا][2] السُّلُوْكَ دُوْنَ غَيْرِهِ، فَيُقِرُّ بِالْعَجْزِ.

وَقَدِ ارْتَفَعَ قَوْمٌ عَنْ هَذِهِ الأَحْوَالِ، فَرَأَوْا مُجَرَّدَ التَّوْفِيْقِ يَشْغَلُهُمْ عَنِ النَّظَرِ إِلَىٰ العَمَلِ. أُوْلَئِكَ الأَقَلُّوْنَ عَدَدًا، وَأَنَّهُم الأَعْظَمُوْنَ[3] قَدْرًا أَقَلُّ نَسْلًا مِنْ عَنْقَاءِ مُغْرِبَ[4].

* [١١٣-٧] [خَاطِرَةٌ]:

[دَلِيْلُ كَمَالِ العَقْلِ عُلُوُّ الْهِمَّةِ]

مِنْ عَلَامَةِ كَمَالِ العَقْلِ عُلُوُّ الْهِمَّةِ، وَالرَّاضِي بِالدُّوْنِ دَنِيٌّ[5].

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوْبِ النَّاسِ عَيْبًا ... كَنَقْصِ القَادِرِيْنَ عَلَىٰ التَّمَامِ[6]

(١) الخفارةُ: بالضم وبالكسر، هِيَ الذِّمَّة والعَهد وَالأَمَان.

(٢) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٣) جاء في الأصل: [وَأَنَّ الأَعْظَمُوْنَ]، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.فـ«أَنَّ» حرف نسخ. و«هُم» ضمير متصل مبني في محل نصب اسم «أَنَّ» و«الأَعْظَمُوْنَ» خبر «أَنَّ» مرفوع وعلامة رفعه «الْوَاو».

(٤) العَنْقَاءُ الْمُغْرِب: طائر عظيم معروف الاسم مَجهول الجِسْم. وقيل: طائر خُرافيّ زعَم الأقدمون أنّه يُعَمَّر خمسة قرون وبعد أن يحرق نفسه ينبعث من رماده من جديد. ويُضرب به المثل عند العرب لما يستحيل وجوده.

(٥) الدُّوْنِ: الخَسِيس، الحقير. والدَّنِيُّ: الدَّنِيء الضعيفُ الخسيسُ الذي لا غَنَاءَ عِندَه الْمُقصِّر في كلِّ ما أخذ فيه.

(٦) البيت من البحر: [الوافر]، وقائله: المتنبي.

* [١١٤-٣٥٣] [خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ رُزِقَ هِمَّةً عَالِيَةً؛ يُعَذَّبُ بِمِقْدَارِ عُلُوِّهَا!]

مَنْ رُزِقَ هِمَّةً عَالِيَةً؛ يُعَذَّبُ بِمِقْدَارِ عُلُوِّهَا! كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ[١]:

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا ... تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

وَقَالَ الآخَرُ[٢]:

وَلِكُلِّ جِسْمٍ فِي النُّحُولِ بَلِيَّةٌ ... وَبَلَاءُ جِسْمِي مِنْ تَفَاوُتِ هِمَّتِي

وَبَيَانُ هَذَا: أَنَّ مَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ؛ طَلَبَ العُلُوْمَ كُلَّهَا، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَىٰ بَعْضِهَا، وَطَلَبَ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ نِهَايَتَهُ، وَهَذَا لَا يَحْتَمِلُهُ البَدَنُ. ثُمَّ يَرَىٰ أَنَّ المُرَادَ العَمَلُ، فَيَجْتَهِدُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ، وَصِيَامِ النَّهَارِ، وَالجَمْعُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ العِلْمِ صَعْبٌ. ثُمَّ يَرَىٰ تَرْكَ الدُّنْيَا، وَيَحْتَاجُ إِلَىٰ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ. وَيُحِبُّ الإِيْثَارَ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَىٰ البُخْلِ، وَيَتَقَاضَاهُ الكَرَمُ البَذْلَ، وَيَمْنَعُهُ عِزُّ النَّفْسِ عَنِ الكَسْبِ[٣]؛ فَإِنْ هُوَ جَرَىٰ عَلَىٰ طَبْعِهِ مِنَ الكَرَمِ؛ احْتَاجَ وَافْتَقَرَ، وَتَأَثَّرَ بَدَنُهُ وَعَائِلَتُهُ، وَإِنْ أَمْسَكَ؛ فَطَبْعُهُ يَأْبَىٰ ذَلِكَ.

وَفِي الجُمْلَةِ؛ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مُعَانَاةٍ؛ وَجَمْعٍ بَيْنَ أَضْدَادٍ؛ فَهُوَ أَبَدًا فِي نَصَبٍ لَا يَنْقَضِي[٤]، وَتَعَبٍ لَا يَفْرَغُ، ثُمَّ إِذَا حَقَّقَ الإِخْلَاصَ فِي الأَعْمَالِ؛ زَادَ تَعَبُهُ، وَقَوِيَ وَصَبُهُ[٥].

فَأَيْنَ هُوَ؛ وَمَنْ دَنَتْ هِمَّتُهُ؟! إِنْ كَانَ فَقِيْهًا، فَسُئِلَ عَنْ حَدِيْثٍ؛ قَالَ: مَا أَعْرِفُهُ! وَإِنْ كَانَ مُحَدِّثًا، فَسُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِقْهِيَّةٍ؛ قَالَ: مَا أَدْرِي! وَلَا يُبَالِي إِنْ قِيْلَ عَنْهُ: مُقَصِّرٌ!!

---

(١) البيت من البحر: [الخفيف]، وقائله: المتنبي.

(٢) البيت من البحر: [الكامل]، وقائله: مِهْيَارُ الدَّيْلَمِي وَهُوَ: مِهْيَارُ بنُ مَرْزَوَيْهِ أَبُو الحَسَنِ، الأَدِيْبُ، البَاهِرُ، ذُو البَلَاغَتَيْنِ. كَانَ مَجُوْسِيًّا، فَأَسْلَمَ، عَلَىٰ يَدِ الشَّرِيْفِ الرَّضِيِّ، مَاتَ سَنَةَ (٤٢٨هـ) والبَيْت فِي الخَاطِرَة:[١١٤-١٧٠].

(٣) أي: عن الكسب الذي معه ترك الاحتشام والتصوّن؛ وإلا فالكسب وطلب الرّزق والمعيشة مطلوب شرعًا.

(٤) النَّصَب: الإعياء، وقيل: هو تَغَيُّر الحَال مِن مرض أو تعب أو حُزن.

(٥) الوَصَبُ: المَرض والألَم والتَّوَجُّع.

وَالعَالِي الْهِمَّةِ يَرَىٰ التَّقْصِيرَ فِي بَعْضِ الْعُلُوْمِ فَضِيْحَةً قَدْ كَشَفَتْ عَيْبَهُ، وَقَدْ أَرَتِ النَّاسَ عَوْرَتَهُ. وَالْقَصِيرُ الْهِمَّةِ لَا يُبَالِي بِمِنَنِ النَّاسِ، وَلَا يَسْتَقْبِحُ سُؤَالَهُم، وَلَا يَأْنَفُ مِنْ رَدٍّ.

وَالعَالِي الْهِمَّةِ لَا يَحْمِلُ ذَلِكَ. وَلَكِنَّ تَعَبَ العَالِي الهِمَّةِ رَاحَةٌ فِي الْمَعْنَىٰ، وَرَاحَةُ القَصِيرِ الهِمَّةِ تَعَبٌ وَشَيْنٌ(١)؛ إِنْ كَانَ ثَمَّ فَهْمٌ(٢).

وَالدُّنْيَا دَارُ سِبَاقٍ إِلَىٰ أَعَالِي الْمَعَالِي؛ فَيَنْبَغِي لِذِي الهِمَّةِ أَلَّا يُقَصِّرَ فِي شَوْطِهِ؛ فَإِنْ سَبَقَ؛ فَهُوَ الْمَقْصُوْدُ، وَإِنْ كَبَا جَوَادُهُ(٣) مَعَ اجْتِهَادِهِ؛ لَمْ يُلَمْ.

* [١١٥-١٧٠] [خَاطِرَةٌ]:

[مَا ابْتُلِيَ الإِنْسَانُ قَطُّ بِأَعْظَمَ مِنْ عُلُوِّ هِمَّتِهِ]

مَا ابْتُلِيَ الإِنْسَانُ قَطُّ بِأَعْظَمَ مِنْ عُلُوِّ هِمَّتِهِ؛ فَإِنَّ مَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ يَخْتَارُ الْمَعَالِي، وَرُبَّمَا لَا يُسَاعِدُهُ الزَّمَانُ، وَقَدْ تَضْعُفُ الآلَةُ، فَيَبْقَىٰ فِي عَذَابٍ.

وَإِنِّي أُعْطِيتُ مِنْ عُلُوِّ الهِمَّةِ طَرَفًا؛ فَأَنَا بِهِ فِي عَذَابٍ، وَلَا أَقُوْلُ: لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ؛ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَحْلُوْ العَيْشُ بِقَدْرِ عَدَمِ العَقْلِ، وَالعَاقِلُ لَا يَخْتَارُ زِيَادَةَ اللَّذَّةِ بِنُقْصَانِ العَقْلِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا يَصِفُوْنَ عُلُوَّ هِمَمِهِم، فَتَأَمَّلْتُهَا، فَإِذَا بِهَا فِي فَنٍّ وَاحِدٍ، وَلَا يُبَالُوْنَ بِالنَّقْصِ فِيْمَا هُوَ أَهَمُّ. قَالَ الرَّضِيُّ(٤):

وَلِكُلِّ جِسْمٍ فِي النُّحُوْلِ بَلِيَّةٌ ... وَبَلَاءُ جِسْمِي مِنْ تَفَاوُتِ هِمَّتِي

---

(١) الشَّيْنُ: النَّقْصُ وَالْعَيْبُ. وَهُوَ خِلَافُ الزَّيْنِ.

(٢) ثَمَّ: [كلمة وظيفيّة]: اسم إشارة للمكان البعيد بمعنىٰ هناك، وهو ظرف لا يتصرف، وقد تلحقه التاء فيُقال: ثَمَّة.

(٣) كَبَا جَوَادُهُ: أَخْفَقَ وَفَشَلَ أَوْ: سَقَطَ عَلَىٰ وَجْهِهِ.

(٤) البيت من البحر: [الكامل]، وقائله: مِهْيَارُ الدَّيْلَمِي. الخَاطِرة: [١١٣-٣٥٣]. وَأَمَّا الرَّضِيُّ فَهُوَ: مُحَمَّدُ بنُ الحُسَيْنِ، الشَّاعِرُ وَهُوَ جَامِع (نَهْجِ البلاغَة)، المَنْسُوْبَة إِلَىٰ الإِمَامِ عَلِيٍّ ﷺ، وَلاَ أَسَانِيدَ لَهَا، وَبَعْضُهَا بَاطِلٌ مَوْضُوْعٌ حَاشَا الإِمَامَ مِنَ النُّطْقِ بِهَا!. وَالَّذِي لَقَّبَهُ بِالرَّضِيِّ ذِي الْحَسَبَيْنِ بَهَاءُ الدَّوْلَة، مَاتَ سَنَةَ (٤٠٦هـ) وَكَانَ شِيْعِيًّا.

فَنَظَرْتُ؛ فَإِذَا غَايَةُ أَمَلِهِ الإِمَارَةُ.

وَكَانَ أَبُوْ مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِي[(١)] فِي حَالِ شَبِيبَتِهِ لَا يَكَادُ يَنَامُ، فَقِيْلَ لَهُ فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: ذِهْنٌ صَافٍ، وَهَمٌّ بَعِيْدٌ، وَنَفْسٌ تَتُوْقُ إِلَىٰ مَعَالِي الأُمُوْرِ؛ مَعَ عَيْشٍ كَعَيْشِ الْهَمَجِ الرَّعَاعِ! قِيْلَ: فَمَا الَّذِي يُبْرِدُ غَلِيْلَكَ؟ قَالَ: الظَّفَرُ بِالْمُلْكِ. قِيْلَ: فَاطْلُبْهُ. قَالَ: لَا يُطْلَبُ إِلَّا بِالأَهْوَالِ. قِيْلَ: فَاركَبِ الأَهْوَالَ. قَالَ: العَقْلُ مَانِعٌ. قِيْلَ: فَمَا تَصْنَعُ؟ قَالَ: سَأَجْعَلُ مِنْ عَقْلِي جَهْلًا، وَأُحَاوِلُ بِهِ خَطَرًا، لَا يُنَالُ إِلَّا بِالجَهْلِ، وَأُدَبِّرُ بِالعَقْلِ مَا لَا يُحْفَظُ إِلَّا بِهِ، فَإِنَّ الخُمُوْلَ أَخُو العَدَمِ.

فَنَظَرْتُ إِلَىٰ حَالِ هَذَا الْمِسْكِيْنِ؛ فَإِذَا هُوَ قَدْ ضَيَّعَ أَهَمَّ الْمُهِمَّاتِ، وَهُوَ جَانِبُ الآخِرَةِ، وَانْتَصَبَ فِي طَلَبِ الوِلَايَاتِ؛ فَكَمْ فَتَكَ وَقَتَلَ حَتَّىٰ نَالَ بَعْضَ مُرَادِهِ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا! ثُمَّ اغْتِيْلَ، وَنَسِيَ تَدْبِيْرَ العَقْلِ، فَقُتِلَ، وَمَضَىٰ إِلَىٰ الآخِرَةِ عَلَىٰ أَقْبَحِ حَالٍ.

وَكَانَ الْمُتَنَبِّي[(٢)] يَقُوْلُ:

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَىٰ بِمَيْسُوْرِ عَيْشِهِ ... وَمَرْكُوْبُهُ رِجْلَاهُ وَالثَّوْبُ جِلْدُهُ

وَلَكِنَّ قَلْبًا بَيْنَ جَنْبَيَّ مَا لَهُ ... مَدَىً يَنْتَهِي بِي فِي مُرَادٍ أَحُدُّهُ

يَرَىٰ جِسْمَهُ يُكْسَىٰ شُفُوْفًا تَرُبُّهُ ... فَيَخْتَارُ أَنْ يُكْسَىٰ دُرُوْعًا تَهُدُّهُ

فَتَأَمَّلْتُ هَذَا الآخَرَ؛ فَإِذَا نَهْمَتُهُ[(٣)] فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا فَحَسْبُ.

وَنَظَرْتُ إِلَىٰ عُلُوِّ هِمَّتِي؛ فَرَأَيْتُهَا عَجَبًا، وذَلِكَ أَنَّنِي أَرُوْمُ[(٤)] مِنَ الْعِلْمِ مَا أَتَيَقَّنُ أَنِّي لَا

---

(١) أَبُوْ مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِي: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مُسْلِمٍ. وَيُقَالُ: إِبْرَاهِيْمُ بنُ عُثْمَانَ بنِ يَسَارٍ الخُرَاسَانِيُّ، صَاحِبُ الدَّعْوَةِ فِي الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ. وَكَانَ سَفَّاكًا لِلدِّمَاءِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ لِلدَّوْلَةِ لُبْسَ السَّوَادِ. قَتَلَهُ الْمَنْصُور سنة: (١٣٧هـ).

(٢) الأبيات من البحر: [الطويل]. وَالْمُتَنَبِّي: أَبُو الطَّيِّبِ أَحْمَدُ بنُ حُسَيْنٍ الكُوْفِيُّ الأَدِيبُ شَاعِرُ الزَّمَانِ، وَكَانَ مِنْ أَذكِيَاءِ عَصْرِهِ، وَسَارَ ديوانُهُ فِي الآفَاقِ. قُتِلَ سَنَةَ: (٣٥٤هـ). فِي بُلَيْدَةٍ بَيْنَ وَاسِطٍ وَبَغْدَادَ، وَأَهْلُهَا شِيْعَةٌ غَالِيَة.

(٣) نَهْمَتُهُ: طِلْبَته وَرَغْبَته وَشَغَفه. وَنَهَمَ فِي الشَّيْءِ يَنْهَمُ نَهْمَةً بَلَغَ هِمَّتَهُ فِيهِ فَهُوَ نَهِيمٌ. وَالنَّهَمُ إِفْرَاطُ الشَّهْوَةِ.

(٤) أَرُوْمُ: أطلُبه وَأَرغَبُ فيه وَأَرجُوه.

أَصِلُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّنِي أُحِبُّ نَيْلَ كُلِّ العُلُوْمِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ فُنُوْنِهَا، وَأُرِيْدُ اسْتِقْصَاءَ كُلِّ فَنٍّ(١)! هَذَا أَمْرٌ يَعْجِزُ العُمْرُ عَنْ بَعْضِهِ؛ فَإِنْ عَرَضَ لِي ذُوْ هِمَّةٍ فِي فَنٍّ قَدْ بَلَغَ مُنْتَهَاهُ؛ رَأَيْتُهُ نَاقِصًا فِي غَيْرِهِ؛ فَلَا أَعُدُّ هِمَّتَهُ تَامَّةً؛ مِثْلُ الْمُحَدِّثِ فَاتَهُ الفِقْهُ، وَالفَقِيْهِ فَاتَهُ عِلْمُ الْحَدِيْثِ؛ فَلَا أَرَىٰ الرِّضَا بِنُقْصَانِ العُلُوْمِ إِلَّا حَادِثًا عَنْ نَقْصِ الْهِمَّةِ.

ثُمَّ إِنِّي أَرُوْمُ نِهَايَةَ العَمَلِ بِالْعِلْمِ، فَأَتُوْقُ إِلَىٰ وَرَعِ بِشْرٍ، وَزَهَادَةِ مَعْرُوْفٍ(٢)! وَهَذَا - مَعَ مُطَالَعَةِ التَّصَانِيْفِ، وَإِفَادَةِ الْخَلْقِ، وَمُعَاشَرَتِهِم - بَعِيْدٌ.

ثُمَّ إِنِّي أَرُوْمُ الغِنَىٰ عَنِ الْخَلْقِ، وَأَسْتَشْرِفُ الإِفْضَالَ عَلَيْهِم(٣)! وَالاشْتِغَالُ بِالعِلْمِ مَانِعٌ مِنَ الْكَسْبِ، وَقَبُوْلُ الْمِنَنِ مِمَّا تَأْبَاهُ الهِمَّةُ العَالِيَةُ.

ثُمَّ إِنِّي أَتُوْقُ إِلَىٰ طَلَبِ الأَوْلَادِ، كَمَا أَتُوْقُ إِلَىٰ تَحْقِيْقِ التَّصَانِيْفِ؛ لِيَبْقَىٰ الخَلَفَانِ نَائِبَيْنِ عَنِّي بَعْدَ التَّلَفِ(٤)! وَفِي طَلَبِ ذَلِكَ مَا فِيْهِ مِنْ شُغْلِ القَلْبِ الْمُحِبِّ لِلْتَّفَرُّدِ.

ثُمَّ إِنِّي أَرُوْمُ الاسْتِمْتَاعَ بِالْمُسْتَحْسَنَاتِ! وَفِي ذَلِكَ امْتِنَاعٌ مِنْ جِهَةِ قِلَّةِ الْمَالِ، ثُمَّ لَوْ حَصَلَ؛ فَرَّقَ جَمْعَ الهِمَّةِ. وَكَذَلِكَ أَطْلُبُ لِبَدَنِي مَا يُصْلِحُهُ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ(٥)؛ فَإِنَّهُ

---

(١) اسْتِقْصَاءَ: بُلُوغ الغَايَة فيه.

(٢) فَأَتُوْقُ: أَشْتَاقُ، وَأَطْمَحُ. وَالوَرَعُ: تَرْكُ كُلِّ شُبْهَةٍ، وَتَرْكُ مَا لَا يَعْنِي مِنَ الْكَلَامِ، وَالنَّظَرِ، وَالِاسْتِمَاعِ، وَالْبَطْشِ، وَالْمَشْيِ، وَالْفِكْرِ، وَسَائِرِ الْحَرَكَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ. وَالزُّهْدُ: قِصَرُ الأَمَلِ. لَا بِأَكْلِ الْغَلِيظِ، وَلَا لُبْسِ الْعَبَاءِ. وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ رحمه الله: الزُّهْدُ: تَرْكُ مَا لَا يَنْفَعُ فِي الآخِرَةِ. وَالْوَرَعُ: تَرْكُ مَا تَخَافُ ضَرَرُهُ فِي الآخِرَةِ. وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ. وَترجمة بِشْرٍ، وَمَعْرُوْفٍ، في الخاطرة:[٢٤-١٧٩].

(٣) اسْتَشْرَفَ: تَحَرَّىٰ الأَشْرَف، وَتَطَلَّعَ إِلَيْهِ.

(٤) الخَلَفَانِ هُنَا: الأَوْلَاد، وَالتَّصَانِيْف. خلَفَ يَخلُف: قامَ مقامه بعد موته.

(٥) يُنظر كلامه رحمه الله عن مأكله ومشربه وملبسه وأنه حاول أن يُغير من نظام حياته في ذلك فلم يستطع؛ بل إنه مرض. في الخاطرة:[٩٥-٢١]،[٢٧٨-٣٤٣]. وَقَالَ الذهبي رحمه الله في «السير»: «قَالَ الْمُوَفَّق عَبْد اللَّطِيفِ: كَانَ ابْن الجَوْزِيّ لَطِيف الصّورَة... يُرَاعِي حِفْظ صحته، وَتلطيف مِزَاجه، وَمَا يُفِيد عَقْله قُوَّة، وَذهنه حدَّة. جلّ غذَائِهِ الفَرَارِيج وَالْمزَاوِير، وَيَعتَاض عَنِ الفَاكهة بِالأَشرِبَة وَالْمَعجُونَات، وَلباسه أَفضَل لِبَاس: الأَبيض النَّاعم المطيّب».

مُتَعَوِّدٌ لِلتَّرَفُّهِ وَالتَّلَطُّفِ! وَفِي قِلَّةِ الْمَالِ مَانِعٌ، وكُلُّ ذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ أَضْدَادٍ.

فَأَيْنَ أَنَا وَمَا وَصَفْتُهُ مِنْ حَالِ مَنْ كَانَتْ غَايَةُ هِمَّتِهِ الدُّنْيَا، وَأَنَا لَا أُحِبُّ أَنْ يَخْدُشَ حُصُوْلُ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَجْهَ دِيْنِي بِسَبَبٍ، وَلَا أَنْ يُؤَثِّرَ فِي عِلْمِي، وَلَا فِي عَمَلِي؟!

فَوَا قَلَقِي مِنْ طَلَبِ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَتَحْقِيْقِ الوَرَعِ؛ مَعَ إِعَادَةِ الْعِلْمِ، وَشُغْلِ الْقَلْبِ بِالتَّصَانِيْفِ، وَتَحْصِيْلِ مَا يُلَائِمُ البَدَنَ مِنَ الْمَطَاعِمِ!

وَوَا أَسَفِي عَلَىٰ مَا يَفُوْتُنِي مِنَ الْمُنَاجَاةِ فِي الخَلْوَةِ؛ مَعَ مُلَاقَاةِ النَّاسِ وَتَعْلِيْمِهِم!.

وَيَا كَدَرَ الوَرَعِ؛ مَعَ طَلَبِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ لِلْعَائِلَةِ! غَيْرَ أَنِّي قَدِ اسْتَسْلَمْتُ لِتَعْذِيْبِي، وَلَعَلَّ تَهْذِيْبِي فِي تَعْذِيْبِي؛ لِأَنَّ عُلُوَّ الهِمَّةِ تَطْلُبُ الْمَعَالِي الْمُقَرِّبَةَ إِلَىٰ الحَقِّ ﷻ، وَرُبَّمَا كَانَتِ الْحَيْرَةُ فِي الطَّلَبِ دَلِيْلًا إِلَىٰ الْمَقْصُوْدِ.

وَهَا أَنَا أَحْفَظُ أَنْفَاسِي مِنْ أَنْ يَضِيْعَ مِنْهَا نَفَسٌ فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ. وَإِنْ بَلَغَ هَمِّي مُرَادَه، وَإِلَّا فَـ«نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ أَبْلَغُ مِنْ عَمَلِهِ»[1].

* [١١٦-١٢٤] [خَاطِرَةٌ]:

[الفَرْقُ بَيْنَ أَصْحَابِ الهِمَمِ العَالِيَة وَالخَسِيْسَة]

أَعْظَمُ البَلَايَا أَنْ: يُعْطِيَكَ هِمَّةً عَالِيَةً، وَيَمْنَعَكَ مِنَ العَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا، فَيَكُوْنَ مِنْ تَأْثِيْرِ هِمَّتِكَ الأَنَفَةُ مِنْ قَبُوْلِ إِرْفَاقِ الخَلْقِ[2]؛ اسْتِثْقَالًا لِحَمْلِ مِنَنِهِم، ثُمَّ يَبْتَلِيَكَ بِالفَقْرِ، فَتَأْخُذَ مِنْهُم! وَيُلَطِّفَ مِزَاجَكَ، فَلَا تَقْبَلُ مِنَ الْمَأْكُوْلَاتِ مَا سَهُلَ إِحْضَارُهُ، فَتَحْتَاجُ إِلَىٰ فَضْلِ نَفَقَةٍ، ثُمَّ يُقَلِّلَ رِزْقَكَ! وَيُعَلِّقَ هِمَّتَكَ بِالْمُسْتَحْسَنَاتِ، وَيَقْطَعَ بِالْفَقْرِ السَّبِيْلَ إِلَيْهِنَّ! وَيُرِيَكَ العُلُوْمَ فِي مَقَامِ مَعْشُوْقٍ،

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان»(٦٤٤٥، ٦٤٤٧). وأبو نعيم في «الحلية»(ج٢/ ص٣٢٦، ج٣/ ص٧٠) عن ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ، وَيَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ. «السلسلة الضعيفة»(٢٢١٦، ٢٧٨٩، ٦٠٤٥، ٦٠٤٦). «ضعيف الجامع»(٥٩٧٦، ٥٩٧٧)].

(٢) إِرْفَاقِ الخَلْقِ: رِفْقِهِم وَنَفْعِهِم وَمُسَاعَدَتِهِم. تَقُوْلُ: رَفَقَ فُلَانٌ فُلَانًا: إذا نَفَعَهُ.

وَيُضْعِفَ بَدَنَكَ عَنِ الإعَادَةِ، وَيُخْلِيَ يَدَيْكَ مِنَ المَالِ الَّذِي تُحَصِّلُ بِهِ الكُتُبَ! وَيُقَوِّيَ تَوَقَكَ إِلَىٰ دَرَجَاتِ العَارِفِيْنَ وَالزُّهَّادِ، وَيُحْوِجَكَ إِلَىٰ مُخَالَطَةِ أَرْبَابِ الدُّنْيَا! وَهَذَا البَلَاءُ المُبِيْنُ.

وَأَمَّا الخَسِيْسُ الهِمَّةِ، الَّذِي لا يَسْتَنْكِفُ[1] مِنْ سُؤَالِ الخَلْقِ، وَلا يَرَىٰ الاسْتِبْدَالَ بِزَوْجَتِهِ، وَيَكْتَفِي بِيَسِيْرٍ مِنَ العِلْمِ، وَلا يَتُوقُ إِلَىٰ أَحْوَالِ العَارِفِيْنَ؛ فَذَاكَ لَا يُؤْلِمُهُ فَقْدُ شَيْءٍ، وَيَرَىٰ مَا وَجَدَ هُوَ الغَايَةَ؛ فَهُوَ يَفْرَحُ فَرَحَ الأَطْفَالِ بِالزَّخَارِفِ[2]؛ فَمَا أَهْوَنَ الأَمْرَ عَلَيْهِ!

إِنَّمَا البَلاءُ عَلَىٰ العَارِفِ، ذِي الهِمَّةِ العَالِيَةِ، الَّذِي تَدْعُوْهُ هِمَّتُهُ إِلَىٰ جَمِيْعِ الأَضْدَادِ[3]، لِلتَّزَيُّدِ مِنْ مَقَامِ الكَمَالِ، وَتَقْصُرُ خُطَاهُ عَنْ مَدَارِكِ مَقْصُوْدِهِ. فَيَا لَهُ مِنْ حَالٍ يَنْفَدُ فِي طَرِيْقِهِ زَادُ الصَّابِرِيْنَ!

وَلَوْلا حَالاتُ غَفْلَةٍ تَعْتَرِي هَذَا المُبْتَلَىٰ يَعِيْشُ بِهَا؛ لَكَانَ دَوَامُ مُلاحَظَتِهِ لِلْمَقَامَاتِ يُعْمِي بَصَرَهُ، وَاجْتِهَادُهُ فِي السُّلُوْكِ يُخْفِي قَدَمَهُ. لَكِنَّ مُلاحَظَاتِ الإِمْدَادِ لَهُ - تَارَةً بِبُلُوْغِ بَعْضِ مُرَادِهِ، وَتَارَةً بِالغَفْلَةِ عَمَّا قَصَدَ - تُهَوِّنُ عَلَيْهِ العَيْشَ.

وَهَذَا كَلامٌ عَزِيْزٌ؛ لا يَفْهَمُهُ إِلَّا أَرْبَابُهُ، وَلا يَعْلَمُ كُنْهَهُ[4] إِلَّا أَصْحَابُهُ.

---

* [١١٧-١٧٨] [خَاطِرَةٌ]:

[الآمَالُ أَكْبَرُ مِنَ الآجَالِ]

خُلِقَتْ لِي هِمَّةٌ عَالِيَةٌ تَطْلُبُ الغَايَاتِ، بَلَغْتُ السِّنَّ وَمَا بَلَغْتُ مَا أَمَّلْتُ!

---

(١) لا يَسْتَنْكِفُ: لا يَأْنَفُ ولا يَمْتَنِعُ.

(٢) الزَّخَارِفُ: دُوَيْبَّات ذَوَاتُ أَرْبَعٍ كَالذُّبَابِ تَطِيرُ عَلَىٰ المَاءِ. وَهَذا هُوَ الأَقْرَبُ إِلَىٰ المَعْنَىٰ لِدَنَاءَةِ هِمَّةِ هَذَا الشَّخْص. وَقَدْ تَكُوْنُ الزَّخَارِفُ كِنَايَةً عَنِ الزِّيْنَةِ مُخْتَلِفَةِ الأَلْوَان وَالأَحْجَام، تُزَيَّن بِهَا النَّوَافِذ وَالأَبْوَاب، فَيَفْرَحُ بِهَا الأَطْفَال، وَهَذَا أَيْضًا لِدَنَاءَةِ هِمَّتِهِ.

(٣) الأَضْدَادُ: كُلّ مَا دَالٌ عَلَىٰ مَعْنَيينِ مُتَقَابِلَيْن. كَالأَبْيَض وَالأَسْوَد مَثَلًا.

(٤) الكُنْهُ: أي: جَوْهَرُهُ وَحَقِيقَتُهُ.

فَأَخَذْتُ أَسْأَلُ تَطْوِيْلَ الْعُمُرِ، وَتَقْوِيَةَ الْبَدَنِ، وَبُلُوْغَ الآمَالِ، فَأَنْكَرَتْ عَلَيَّ الْعَادَاتُ، وَقَالَتْ: مَا جَرَتْ عَادَةٌ بِمَا تَطْلُبُ. فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَطْلُبُ مِنْ قَادِرٍ يَخْرِقُ الْعَادَاتِ.

وَقَدْ قِيْلَ لِرَجُلٍ: لَنَا حُوَيْجَةٌ. فَقَالَ: اطْلُبُوا لَهَا رُجَيْلًا[1]. وَقِيْلَ لِآخَرَ[2]: جِئْنَاكَ فِي حَاجَةٍ لَا تَرْزَؤُكَ[3]. فَقَالَ: هَلَّا طَلَبْتُمْ لَهَا سَفَاسِفَ النَّاسِ[4]! فَإِذَا كَانَ أَهْلُ الأَنَفَةِ مِنْ أَرْبَابِ الدُّنْيَا يَقُوْلُوْنَ هَذَا؛ فَلِمَ لا نَطْمَعُ فِي فَضْلِ كَرِيْمٍ قَادِرٍ؟!

وَقَدْ سَأَلْتُهُ هَذَا السُّؤَالَ فِي رَبِيعٍ الآخِرِ مِنْ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِيْنَ[5]؛ فَإِنْ مَدَّ لِي أَجَلِي، وَبَلَغْتُ مَا أَمَّلْتُهُ؛ نَقَلْتُ هَذَا الفَصْلَ إِلَىٰ مَا بَعْدُ، وَبَيَّضْتُهُ، وَأَخْبَرْتُ بِبُلُوْغِ آمَالِي، وَإِنْ لَمْ يَتَّفِقْ ذَلِكَ؛ فَسَيِّدِي أَعْلَمُ بِالْمَصَالِحِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَمْنَعُ بُخْلًا، وَلَا حَوْلَ إِلَّا بِهِ.

* [١١٨-١٢٠] [خَاطِرَةٌ]:

[كَيْفِيَّة تَحْصِيل مَعَالِي الأُمُوْر]

اللَّذَّاتُ كُلُّهَا بَيْنَ حِسِّيٍّ وَعَقْلِيٍّ: فَنِهَايَةُ اللَّذَّاتِ الحِسِّيَّةِ وَأَعْلَاهَا النِّكَاحُ، وَغَايَةُ اللَّذَّاتِ العَقْلِيَّةِ العِلْمُ؛ فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ الغَايَتَانِ فِي الدُّنْيَا؛ فَقَدْ نَالَ النِّهَايَةَ، وَأَنَا أُرْشِدُ الطَّالِبَ إِلَىٰ أَعْلَىٰ الْمَطْلُوْبَيْنِ.

غَيْرَ أَنَّ لِلطَّالِبِ الْمَرْزُوْقِ عَلَامَةً، وَهُوَ أَنْ يَكُوْنَ مَرْزُوْقًا عُلُوَّ الْهِمَّةِ، وَهَذِهِ الْهِمَّةُ تُوْلَدُ مَعَ الطِّفْلِ، فَتَرَاهُ مِنْ زَمَنِ طُفُوْلَتِهِ يَطْلُبُ مَعَالِيَ الأُمُوْرِ؛ كَمَا يُرْوَىٰ فِي الْحَدِيْثِ: «أَنَّهُ كَانَ

(١) حُوَيْجَةٌ: تَصْغِيْر حَاجَة. و رُجَيْلًا: تَصْغِيْر رَجُل.

(٢) ورد هذا عن الأحنف بن قيس أن رجلا قال له: أتيتك في حاجة لا تنكيك ولا ترزؤك. فقال: إذًا لا تقضى! أمثلي يؤتى في حاجة لا تنكي ولا ترزأ!. [يُنظر: «عيون الأخبار» للدينوري. كِتَابُ «الحوائج»(ج٣/ ص ١٥٤)].

(٣) لا تَرْزَؤُكَ: لا تُنقصك أيّ شيء. يقال: يقال رَزَأته أرْزَؤُه. وأصله النَّقْص.

(٤) السَّفَاسِفُ: التافهة الحقيرة.

(٥) أي: سنة: (٥٧٥).

لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَفْرَشٌ فِي الحِجْرِ[1]، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي وَهُوَ طِفْلٌ، فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنَّ لِابْنِي هَذَا شَأْنًا»[2].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَإِذَا كَانَتْ لِي هِمَّةٌ، وَلَمْ أُرْزَقْ مَا أَطْلُبُ؛ فَمَا الحِيْلَةُ؟ فَالجَوَابُ: أَنَّهُ إِذَا امْتَنَعَ الرِّزْقُ مِنْ نَوْعٍ؛ لَمْ يَمْتَنِعْ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، ثُمَّ مِنَ الْبَعِيْدِ أَنْ يَرْزُقَكَ هِمَّةً، وَلَا يُعِيْنُكَ!

فَانْظُرْ فِي حَالِكَ: فَلَعَلَّهُ أَعْطَاكَ شَيْئًا مَا شَكَرْتَهُ، أَوِ ابْتَلَاكَ بِشَيْءٍ مِنَ الهَوَىٰ مَا صَبَرْتَ عَنْهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ رُبَّمَا زَوَىٰ عَنْكَ[3] مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا كَثِيرًا لِيُؤْثِرَكَ بِلَذَّاتِ العِلْمِ؛ فَإِنَّكَ ضَعِيفٌ، رُبَّمَا لَا تَقْوَىٰ عَلَىٰ الجَمْعِ؛ فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يُصْلِحُكَ.

وَأَمَّا مَا أَرَدْتُ شَرْحَهُ لَكَ:

فَإِنَّ الشَّابَّ الْمُبْتَدِئَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ طَرَفًا، وَيَجْعَلَ عِلْمَ الْفِقْهِ الأَهَمَّ، وَلَا يُقَصِّرَ فِي مَعْرِفَةِ النَّقْلِ؛ فَبِهِ تَبِيْنُ سِيَرُ الكَامِلِيْنَ، وَإِذَا رُزِقَ فَصَاحَةً مِنْ حَيْثُ الوَضْعُ، ثُمَّ أُضِيْفَ إِلَيْهَا مَعرِفَةُ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ؛ فَقَدْ شُحِذَتْ شَفْرَةُ لِسَانِهِ عَلَىٰ أَجْوَدِ مِسَنٍّ[4].

وَمَتَىٰ أَدَّىٰ العِلْمَ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَخِدْمَةِ الله ﷻ؛ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابٌ لا تُفْتَحُ لِغَيْرِهِ.

وَيَنْبَغِي لَهُ بِالتَّلَطُّفِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ زَمَانِهِ مَصْرُوْفًا إِلَىٰ تَوْفِيْرِ الاكْتِسَابِ وَالتِّجَارَةِ، مُسْتَنِيْبًا فِيْهَا، غَيْرَ مُبَاشِرٍ لَهَا، مَعَ التَّدْبِيْرِ فِي العَيْشِ الْمُمْتَنِعِ مِنَ الإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيْرِ.

---

(١) الْحِجْر: إِسْمُ الحَائِط الْمُسْتَدير إلىٰ جَانِب الكَعْبَة مِن جِهَة الغَرب. حِجْر إِسْمَاعِيل عليه السلام.

(٢) ذكره ابن إسحاق في «كتاب السير والمَغازي»(ج١/ ص٦٦) وفيه: «كان يوضع لعبد المطلب جد رسول الله ﷺ فراش في ظل الكعبة، فكان لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له، وكان رسول الله ﷺ يأتي حتىٰ يجلس عليه، فيذهب أعمامه يؤخرونه، فيقول جده عبد المطلب: دعوا ابني، فيمسح علىٰ ظهره، ويقول: إن لبني هذا شأنًا».

(٣) زَوَىٰ عَنْكَ: مَنَعَهُ وَحَجَبَهُ عَنْكَ.

(٤) شُحِذَتْ: قَوِيَتْ. شَفْرَةُ: ما عُرِّض وحُدِّد من الحديد كحدّ السِّكين. مِسَنٌّ: جمعها: مَسَانُّ: اسم آلة من سَنَّ.

فَإِنَّ رِوَايَةَ العِلْمِ وَالعَمَلَ بِهِ [يُوَصِّلَا][(١)] إِلَىٰ دَرَجَةِ الْمَعْرِفَةِ للهِ ﷻ، فَرُبَّمَا شَغَلَتْهُ لَذَّةُ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَا لَهَا حَالَةٌ سَلِيْمَةٌ مِنْ آفَةٍ!

وَإِنْ وَجَدَ مِنْ طَبْعِهِ مُنَازِعًا إِلَىٰ الشَّوْقِ فِي النِّكَاحِ؛ فَلْيَتَخَيَّرِ السَّرَارِيَ؛ فَإِنَّ الحَرَائِرَ فِي الأَغْلَبِ غَلٌّ[(٢)].

وَلْيَعْزِلْ عَنِ الْمَمْلُوكَاتِ إِلَىٰ أَنْ يُجَرِّبَ خُلُقَهُنَّ وَدِيْنَهُنَّ؛ فَإِنْ رَضِيَهُنَّ؛ طَلَبَ الوَلَد مِنْهُنَّ، وَإِلَّا؛ فَالاسْتِبْدَالُ بِهِنَّ سَهْلٌ.

وَلا يَتَزَوَّجْ حُرَّةً، إِلَّا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا تَصْبِرُ عَلَىٰ التَّزْوِيْجِ عَلَيْهَا وَالتَّسَرِّي، وَلْيَكُنْ قَصْدُهُ الاسْتِمْتَاعَ بِهَا، لا إِجْهَادَ النَّفْسِ فِي الإِنْزَالِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَهْدِمُ قُوَّتَهُ، فَيَضْعُفُ الأَصْلُ.

فَهَذِهِ الحَالَةُ الجَامِعَةُ مِنْ لَذَّتِي الْحِسِّ وَالعَقْلِ، ذَكَرْتُهَا عَلَىٰ وَجْهِ الإِشَارَةِ، وَفَهْمُ الذَّكِيِّ يُمْلِي عَلَيْهِ مَا لَمْ أَشْرَحْهُ.

* [١١٩-٣٠٦] [خَاطِرَةٌ]:

[هِمَّةُ المُؤْمِنِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالآخِرَةِ]

هِمَّةُ الْمُؤْمِنِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالآخِرَةِ؛ فَكُلُّ مَا فِي الدُّنْيَا يُحَرِّكُهُ إِلَىٰ ذِكْرِ الآخِرَةِ، وَكُلُّ مَنْ شَغَلَهُ شَيْءٌ؛ فَهِمَّتُهُ شُغْلُهُ.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ لَوْ دَخَلَ أَرْبَابُ الصَّنَائِعِ إِلَىٰ دَارٍ مَعْمُورَةٍ؛ رَأَيْتَ البَزَّازَ يَنْظُرُ إِلَىٰ الفَرْشِ[(٣)]،

(١) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٢) غَلٌّ: قَيْدٌ. تقول: غَلَّ فلانًا: وضع القيدَ في يده أو عنقه.

(٣) البَزَّازُ: بائع الثياب والأقمشة.

وَيَحْزِرُ قِيْمَتَهُ(١)، وَالنَّجَّارَ إِلَىٰ السَّقْفِ، وَالبَنَّاءَ إِلَىٰ الحِيْطَانِ، وَالحَائِكَ إِلَىٰ نَسْجِ الثِّيَابِ(٢).

وَالْمُؤْمِنُ إِذَا رَأَىٰ ظُلْمَةً؛ ذَكَرَ ظُلْمَةَ القَبْرِ، وَإِنْ رَأَىٰ مُؤْلِمًا؛ ذَكَرَ العِقَابَ، وَإِنْ سَمِعَ صَوْتًا فَظِيْعًا؛ ذَكَرَ نَفْخَةَ الصُّوْرِ، وَإِنْ رَأَىٰ النَّاسَ نِيَامًا؛ ذَكَرَ الْمَوْتَىٰ فِي القُبُوْرِ، وَإِنْ رَأَىٰ لَذَّةً؛ ذَكَرَ الجِنَّةَ؛ فَهِمَّتُهُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَا ثَمَّ(٣)، وَذَلِكَ يَشْغَلُهُ عَنْ كُلِّ مَا تَمَّ.

وَأَعْظَمُ مَا عِنْدَهُ أَنَّهُ يَتَخَايَلُ دَوَامَ البَقَاءِ فِي الجَنَّةِ، وَأَنَّ بَقَاءَهُ لَا يَنْقَطِعُ، وَلَا يَزَالُ، وَلَا يَعْتَرِيْهِ نَغْصَةٌ(٤)، فَيَكَادُ إِذَا تَخَايَلَ نَفْسَهُ مُتَقَلِّبًا فِي تِلْكَ اللَّذَّاتِ الدَّائِمَةِ، الَّتِي لَا تَفْنَىٰ: يَطِيْشُ فَرَحًا، وَيَسْهُلُ عَلَيْهِ مَا فِي الطَّرِيْقِ إِلَيْهَا، مِنْ أَلَمٍ، وَمَرَضٍ، وَابْتِلَاءٍ، وَفَقْدِ مَحْبُوْبٍ، وَهُجُوْمِ الْمَوْتِ، وَمُعَالَجَةِ غُصَصِهِ(٥)؛ فَإِنَّ الْمُشْتَاقَ إِلَىٰ الكَعْبَةِ يَهُوْنُ عَلَيْهِ رَمْلُ زَرُوْدَ(٦)، وَالتَّائِقَ إِلَىٰ العَافِيَةِ(٧) لَا يُبَالِي بِمَرَارَةِ الدَّوَاءِ.

وَيَعْلَمُ أَنَّ جَوْدَةَ الثَّمَرِ ثَمَّ(٨) عَلَىٰ مِقْدَارِ جَوْدَةِ البِذْرِ هَاهُنَا؛ فَهُوَ يَتَخَيَّرُ الأَجْوَدَ، وَيَغْتَنِمُ الزَّرْعَ فِي تِشْرِيْنَ(٩) العُمُرِ مِنْ غَيْرِ فُتُوْرٍ.

ثُمَّ يَتَخَايَلُ الْمُؤْمِنُ دُخُوْلَ النَّارِ وَالعُقُوْبَةِ، فَيَتَنَغَّصُ عَيْشُهُ، وَيَقْوَىٰ قَلَقُهُ، فَعِنْدَهُ بِالحَالَيْنِ

---

(١) حَزَرَ يَحزُر: حَزَر الشَّيءَ: قدَّره بالتَّخمين أو قدَّره بالحَدْس.

(٢) الحائك: مَنْ يَنْسج الثِّيابَ ونحوَها.

(٣) ثَـمَّ: [كلمة وظيفيَّة]: اسم إشارة للمكان البعيد بمعنىٰ هناك وهو ظرف لا يتصرف، وقد تلحقه التاء فيُقال: ثَمَّة.

(٤) نغصة: مَانِعٌ أَوْ قَاطِعٌ. وَكُلُّ مَنْ قَطَعَ شيْئًا مِمَّا يُحَبُّ الازدِيَادُ مِنْه فهو مُنَغِّصٌ.

(٥) غُصَص: مفردها: غُصَّة. حُزْنٌ وَهَمٌّ وَغَمٌّ شَدِيْدٌ مُتَوَاصِلٌ.

(٦) زَرُود: اسم موضع كثير الرِّمَال في طريق الحاج من الكوفة إلىٰ مكة.

(٧) التَّائِقُ: الْمُشْتَاق. تقول: تاقت نفسُه؛ أي: اشتاقت إليه ونزعت وطمحت.

(٨) ثَـمَّ: بمعنىٰ هناك.

(٩) تِشْرِيْنَ: تِشْرِيْنَ الأَوَّل: شهر من شهور السَّنة الشمسيَّة، يقابله شهر أكتوبر، وَتِشْرِيْنَ الثَّاني: يقابله شهر نوفمبر.

شُغِلَ عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَقَلْبُهُ هَائِمٌ فِي بَيْدَاءِ الشَّوْقِ تَارَةً، وَفِي صَحْرَاءِ الخَوْفِ أُخْرَىٰ؛ فَمَا يَرَىٰ البُنْيَانَ؛ فَإِذَا نَازَلَهُ الْمَوْتُ؛ قَوَّىٰ ظَنَّهُ الْمَلَائِكَة بِالسَّلَامَةِ، وَرَجَىٰ لِنَفْسِهِ النَّجَاةَ، فَيُهَوَّنُ عَلَيْهِ[١]؛ فَإِذَا نَزَلَ إِلَىٰ القَبْرِ، وَجَاءَهُ يَسْأَلُونَهُ[٢]؛ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: دَعُوهُ؛ فَمَا اسْتَرَاحَ إِلَّا السَّاعَةَ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً تَامَّةً؛ تُحَرِّكُنَا إِلَىٰ طَلَبِ الفَضَائِلِ، وَتَمْنَعُنَا مِنِ اخْتِيَارِ الرَّذَائِلِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ وُفِّقَ؛ وَإِلَّا؛ فَلَا نَافِعَ.

---

(١) هَوَّن الأمرَ عليه: سَهَّلَ وَيَسَّرَ وَخَفَّ.

(٢) أي: المَلائكة.

(١١)

[شرفُ العلمِ والعلَماء، وبعض آفات طلَب العلمِ والعلَماء]

*[١٢٠-٥٨][خَاطِرَةٌ]:

[أشرفُ الموْجوْدات : العلم]

لَيْسَ فِي الْوُجُوْدِ شَيْءٌ أَشْرَفُ مِنَ الْعِلْمِ. كَيْفَ لَا وَهُوَ الدَّلِيْلُ؛ فَإِذَا عُدِمَ؛ وَقَعَ الضَّلَالُ؟!

وَإِنَّ مِنْ خَفِيِّ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ أَنْ يُزَيِّنَ فِي نَفْسِ الإِنْسَانِ التَّعَبُّدَ؛ لِيَشْغَلَهُ عَنْ أَفْضَلِ التَّعَبُّدِ، وَهُوَ الْعِلْمُ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ زَيَّنَ لِجَمَاعَةٍ مِنَ الْقُدَمَاءِ أَنَّهُمْ دَفَنُوْا كُتُبَهُمْ، وَرَمَوْهَا فِي الْبَحْرِ! وَهَذَا قَدْ وَرَدَ عَنْ جَمَاعَةٍ.

وَأَحْسَنُ ظَنِّي بِهِمْ أَنْ أَقُوْلَ: كَانَ فِيْهَا شَيْءٌ مِنْ رَأْيِهِمْ وَكَلَامِهِمْ، فَمَا أَحَبُّوا انْتِشَارَهُ، وَإِلَّا؛ فَمَتَىٰ كَانَ فِيْهَا عِلْمٌ مُفِيْدٌ صَحِيْحٌ لَا يُخَافُ عَوَاقِبُهُ؛ كَانَ رَمْيُهَا إِضَاعَةً لِلْمَالِ لَا يَحِلُّ.

وَقَدْ دَنَتْ حِيْلَةُ إِبْلِيْسَ إِلَىٰ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ، حَتَّىٰ مَنَعُوْا مِنْ حَمْلِ الْمَحَابِرِ تَلَامِذَتَهُمْ، وَحَتَّىٰ قَالَ جَعْفَرٌ الْخُلْدِيُّ(١): لَوْ تَرَكَنِي الصُّوْفِيَّةُ؛ جِئْتُكُمْ بِإِسْنَادِ الدُّنْيَا، كَتَبْتُ مَجْلِسًا عَنْ عَبَّاسٍ الدُّوْرِيِّ(٢)، فَلَقِيَنِي بَعْضُ الصُّوْفِيَّةِ، فقَالَ: دَعْ عِلْمَ الْوَرَقِ، وَعَلَيْكَ بِعِلْمِ الْخِرَقِ. وَرُئِيَتْ مَحْبَرَةٌ مَعَ بَعْضِ الصُّوْفِيَّةِ؛ فَقَالَ لَهُ صُوْفِيٌّ آخَرُ: اسْتُرْ عَوْرَتَكَ! وَقَدْ أَنْشَدُوْا لِلشِّبْلِيِّ(٣):

إِذَا طَالَبُوْنِي بِعِلْمِ الْوَرَقْ ... بَرَزْتُ عَلَيْهِمْ بِعِلْمِ الْخِرَقْ

---

(١) جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ نُصَيْرِ بنِ قَاسم البَغْدَادِيُّ، أَبُو مُحَمَّدٍ الخُلْدِيّ، الإمَام، القُدْوَة، شَيْخ الصُّوْفِيَّة، مَاتَ:(٣٤٨هـ).

(٢) جاء في الأصل:[أبي العباس] وفي المخطوط:[ابن عباس] والصواب ما أثبتناه؛ وذلك من كتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي.(ج٧/ ص٢٣٥). وَعَبَّاسٍ الدُّوْرِيِّ هُوَ: أَبُو الفَضْلِ عَبَّاسُ بنُ مُحَمَّدٍ الدُّوْرِيُّ، ثُمَّ البَغْدَادِيُّ، الإِمَامُ، الحَافِظُ، الثِّقَةُ، النَّاقِدُ. لاَزَمَ يَحْيَىٰ بنَ مَعِيْنٍ. حَدَّثَ عَنْهُ: أَرْبَابُ السُّنَنِ الأَرْبَعَةِ. تُوُفِّيَ:(٢٧١هـ).

(٣) البيت من البحر:[المُتقارب].

وَهَذَا مِنْ خَفِيِّ حِيَلِ إِبْلِيْسَ، ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾[سبأ: ٢٠][(١)]. وَإِنَّمَا فَعَلَ وَزَيَّنَهُ عِنْدَهُمْ لِسَبَبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَرَادَهُمْ يَمْشُوْنَ فِي الظُّلْمَةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ تَصَفُّحَ العِلْمِ كُلَّ يَوْمٍ يَزِيْدُ فِي العَالِمِ، وَيَكْشِفُ لَهُ مَا كَانَ خَفِيَ عَنْهُ، وَيُقَوِّي إِيْمَانَهُ وَمَعْرِفَتَهُ، وَيُرِيْهِ عَيْبَ كَثِيْرٍ مِنْ مَسَالِكِهِ، إِذَا تَصَفَّحَ مِنْهَاجَ الرَّسُوْلِ ﷺ وَالصَّحَابَةِ.

فَأَرَادَ إِبْلِيْسُ سَدَّ تِلْكَ الطُّرُقِ بِأَخْفَىٰ حِيْلَةٍ؛ فَأَظْهَرَ أَنَّ المَقْصُوْدَ العَمَلُ لَا العِلْمُ لِنَفْسِهِ، وَخَفِيَ عَلَىٰ المَخْدُوْعِ أَنَّ العِلْمَ عَمَلٌ، وَأَيُّ عَمَلٍ!

فَاحْذَرْ مِنْ هَذِهِ الْخَدِيْعَةِ الخَفِيَّةِ؛ فَإِنَّ العِلْمَ هُوَ الأَصْلُ الأَعْظَمُ وَالنُّوْرُ الأَكْبَرُ.

وَرُبَّمَا كَانَ تَقْلِيْبُ الأَوْرَاقِ أَفْضَلَ مِنَ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَالحَجِّ وَالغَزْوِ، وَكَمْ مِنْ مُعْرِضٍ عَنِ الْعِلْمِ يَخُوْضُ فِي عَذَابٍ مِنَ الْهَوَىٰ فِي تَعَبُّدِهِ، وَيُضَيِّعُ كَثِيْرًا مِنَ الْفَرْضِ بِالنَّفْلِ، وَيَشْتَغِلُ بِمَا يَزْعُمُهُ الأَفْضَلَ عَنِ الوَاجِبِ، وَلَوْ كَانَتْ عِنْدَهُ شُعْلَةٌ مِنْ نُوْرِ الْعِلْمِ؛ لَاهْتَدَىٰ، فَتَأَمَّلْ مَا ذَكَرْتُ لَكَ؛ تَرْشُدْ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ.

*[١٢١-٢٣٠] [خَاطِرَةٌ]:

[الْعِلْمُ مَعْرِفَةُ الأُصُوْلِ]

رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ يَتَفَسَّحُوْنَ[(٢)]، وَيَظُنُّوْنَ أَنَّ الْعِلْمَ يَدْفَعُ عَنْهُم! وَمَا يَدْرُوْنَ أَنَّ الْعِلْمَ خَصْمُهُم! وَأَنَّهُ يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعُوْنَ ذَنْبًا قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لِلْعَالِمِ ذَنْبٌ[(٣)]، وَذَاكَ؛ لِأَنَّ

(١) أي: صدق إبليس علىٰ الكفار والمنافقين والعُصاة، والمعنىٰ: ظن بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه. فَاتَّبَعُوهُ أي فصدق في ظنه، أو صدّق ظنه بأن وجده صادقا.

(٢) جاء في الأصل: [يتقسمون] ولعله تصحيف. ومعنىٰ يتفسحون؛ أي: يتوسعون في استعمال الرخص. تقول: فسّح له: أي وسَّع له. ومَنْزِل فَسِيح: أي واسِع.

(٣) ورد هذا عن الفُضَيْل بْنِ عِيَاضٍ رحمه الله؛ كما ذكره أبو نعيم في «حلية الأولياء»(ج٧/ ص٢٨٦).

الجَاهِلَ لَمْ يَتَعَرَّفْ بِالْحَقِّ، وَالعَالِمَ لَمْ يَتَأَدَّبْ مَعَهُ.

وَرَأَيْتُ بَعْضَ الْقَوْمِ يَقُوْلُ: أَنَا قَدْ أَلْقَيْتُ مِنْجَلِي بَيْنَ الْحَصَّادِيْنَ وَنِمْتُ! ثُمَّ كَانَ يَتَفَسَّحُ فِي أَشْيَاءَ لَا تَجُوْزُ!!

فَتَفَكَّرْتُ، فَإِذَا العِلْمُ - الَّذِي هُوَ مَعْرِفَةُ الحَقَائِقِ، وَالنَّظَرُ فِي سِيَرِ الْقُدَمَاءِ، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِ القَوْمِ، وَمَعْرِفَةُ الْحَقِّ، وَمَا يَجِبُ لَهُ - لَيْسَ عِنْدَ الْقَوْمِ، إِنَّ مَا عِنْدَهُمْ صُوَرُ أَلْفَاظٍ، يَعْرِفُوْنَ بِهَا مَا يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ.

إِنَّمَا الْعِلْمُ فَهْمُ الأُصُوْلِ، وَمَعْرِفَةُ الْمَعْبُوْدِ وَعَظَمَتِهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ، وَالنَّظَرُ فِي سِيَرِ الرَّسُوْلِ ﷺ وَصَحَابَتِهِ، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِهِمْ، وَفَهْمُ مَا نُقِلَ عَنْهُم، هُوَ العِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي يَدَعُ أَعْظَمَ الْعُلَمَاءِ أَحْقَرَ عِنْدَ نَفْسِهِ مِنْ أَجْهَلِ الجُهَّالِ.

وَرَأَيْتُ بَعْضَ مَنْ تَعَبَّدَ مُدَّةً، ثُمَّ فَتَرَ، فَبَلَغَنِي أَنَّهُ قَالَ: عَبَدْتُهُ عِبَادَةً مَا عَبَدَهُ بِهَا أَحَدٌ!! وَالآنَ قَدْ ضَعُفْتُ. فَقُلْتُ: مَا أَخْوَفَنِي أَنْ تَكُوْنَ كَلِمَتُهُ هَذِهِ سَبَبًا لِرَدِّ الْكُلِّ! لِأَنَّهُ قَدْ رَأَى أَنَّهُ عَمِلَ مَعَ الْحَقِّ شَيْئًا، وَإِنَّمَا وَقَفَ يَسْأَلُ النَّجَاةَ بِطَلَبِ الدَّرَجَاتِ؛ فَفِي حَقِّ نَفْسِهِ فَعَلَ، وَمَا مَثَلُهُ إِلَّا كَمَثَلِ مَنْ وَقَفَ يُكْدِي[1]؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَمُنَّ عَلَى المُعْطِي[2].

وَإِنَّمَا سَبَبُ هَذَا الانْبِسَاطِ الْجَهْلُ بِالحَقَائِقِ.

وَأَيْنَ هُوَ مِنْ كِبَارِ عُلَمَاءِ الْمُعَامَلَةِ، وَالَّذِيْنَ كَانَ فِيْهِم مِثْلُ صِلَةَ بْنِ أَشْيَمَ[3]؛ إِذَا رَآهُ السَّبُعُ؛ هَرَبَ مِنْهُ، وَهُوَ يَقُوْلُ إِذَا انْقَضَى اللَّيْلُ عِنْدَ صَلَاتِهِ: «يَا رَبِّ! أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ، وَمِثْلِي يَسْأَلُ الْجَنَّةَ؟!»[4].

---

(١) أَكْدَى: أَلَحَّ فِي المَسْأَلَةِ.

(٢) هذا تشبيه بديع، شبه - مَنْ قَالَ: عَبَدْتُهُ عِبَادَةً مَا عَبَدَهُ بِهَا أَحَدٌ!! وَالآنَ قَدْ ضَعُفْتُ - بالذي يلحّ في مسألة الناس، ويستجدي منهم؛ فلا ينبغي لمثله أن يمن على أحد منهم!.

(٣) صِلَةُ بنُ أَشْيَمَ أَبُو الصَّهْبَاءِ العَدَوِيُّ، البَصْرِيُّ، الزَّاهِدُ، العَابِدُ، القُدْوَةُ، التَّابِعِيّ، اسْتُشْهِدَ فِي سَنَةَ:(٦٢هـ).

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء»(ج٢/ ص٢٤٠) عن مَالِك بْن مِغْوَلٍ، قَالَ: كَانَ بِالْبَصْرَةِ ثَلَاثَةٌ مُتَعَبِّدُونَ صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ، =

وَأَبْلَغُ مِنْ ذَا قَوْلُ عُمَر: «وَدِدْتُ أَنْ أَنْجُوَ كَفَافًا لا لِي وَلا عَلَيَّ!»(١).

وَقَوْلُ سُفْيَانَ عِنْدَ مَوْتِهِ لِحَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ(٢): «أَتَرْجُوْ لِمِثْلِي أَنْ يَنْجُوَ مِنَ النَّارِ»(٣).

وَقَوْلُ أَحْمَدَ: «لا، بَعْدُ»(٤).

فَأَنَا أَحْمَدُ اللهَ ﷻ إِذْ تَخَلَّصْتُ مِنْ جَهْلِ الْمُتَسَمِّيْنَ بِالْعِلْمِ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِيْنَ ذَمَمْتُهُمْ، وَبِالزُّهْدِ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِيْنَ عِبْتُهُم؛ فَإِنِّي قَدِ اطَّلَعْتُ مِنْ عَظَمَةِ الْخَالِقِ وَسِيَرِ الْمُحَقِّقِيْنَ عَلَىٰ مَا يُخْرِسُ لِسَانَ الانْبِسَاطِ، وَيَمْحُو النَّظَرَ إِلَىٰ كُلِّ فِعْلٍ. وَكَيْفَ أَنظُرُ إِلَىٰ فِعْلِي الْمُسْتَحْسَنِ؛ وَهُوَ الَّذِي وَهَبَهُ لِي، وَأَطْلَعَنِي عَلَىٰ مَا خَفِيَ عَنْ غَيْرِي؟! فَهَلْ حَصَلَ ذَلِكَ بِي أَوْ بِلُطْفِهِ؟ وَكَيْفَ أَشْكُرُ تَوْفِيْقِي لِلشُّكْرِ؟!

ثُمَّ أَيُّ عَالِمٍ إِذَا سَبَرَ أُمُوْرَ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْقُدَمَاءِ لَا يَحْتَقِرُ نَفْسَهُ؟! هَذَا فِي صُوْرَةِ الْعِلْمِ، فَدَعْ مَعْنَاهُ. وَأَيُّ عَابِدٍ يَسْمَعُ بِالْعُبَّادِ، وَلَا يُجْرِي فِي صُوْرَةِ التَّعَبُّدِ؟! فَدَعِ الْمُعْنَىٰ.

= وَكُلْثُومُ بْنُ الأَسْوَدِ، وَرَجُلٌ آخَرُ فَكَانَ صِلَةُ إِذَا كَانَ اللَّيْلُ خَرَجَ إِلَىٰ أَجَمَةٍ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَىٰ فِيهَا فَفَطِنَ لَهُ رَجُلٌ فَقَامَ لَهُ فِي الأَكَمَةِ لِيَنْظُرَ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ فَأَتَىٰ سَبُعٌ فَبَصُرَ بِهِ صِلَةُ فَأَتَاهُ فَقَالَ: «قُمْ أَيُّهَا السَّبُعُ فَابْتَغِ الرِّزْقَ» فَتَمَطَّىٰ السَّبُعُ وَذَهَبَ ثُمَّ قَامَ لِعِبَادَتِهِ فَلَمَّا كَانَ فِي السَّحَرِ قَالَ: «اللهُمَّ إِنَّ صِلَةَ لَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يَسْأَلَكَ الْجَنَّةَ وَلَكِنْ سِتْرًا مِنَ النَّارِ».

(١) رواه البخاري كِتَابُ «الأحكام» بَابُ «الإِسْتِخْلاف» حديث (٧٢١٨).

(٢) تقدمت ترجمة سفيان الثوري في الخاطرة رقم: [١٤-١١٨]. أَمَّا حَمَّادٍ فَهُوَ: حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ بنِ دِيْنَارٍ الإِمَامُ، القُدْوَةُ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ، أَبُو سَلَمَةَ البَصْرِيُّ، كَان فَقِيْهًا، فَصِيْحًا، رَأْسًا فِي السُّنَّةِ، صَاحِبَ تَصَانِيْفَ. مَاتَ سَنَةَ: (١٦٧هـ).

(٣) أورد هذا الخبر الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (ج٧/ ص٣٤٠) وَفِيْهِ: «عَادَ حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ، فَقَالَ سُفْيَانُ: يَا أَبَا سَلَمَةَ! أَتَرَىٰ اللهَ يَغْفِرُ لِمِثْلِي؟ فَقَالَ حَمَّادٌ: وَاللهِ لَوْ خُيِّرْتُ بَيْنَ مُحَاسَبَةِ اللهِ إِيَّايَ، وَبَيْنَ مُحَاسَبَةِ أَبَوَيَّ، لاَخْتَرْتُ مُحَاسَبَةَ اللهِ، وَذَلِكَ لأَنَّ اللهَ أَرْحَمُ بِي مِنْ أَبَوَيَّ».

(٤) تقدمت ترجمة أحمد بن حنبل في الخاطرة رقم: [٢٤-١٧٩]. أَمَّا الخبر فقد أورده الذهبي في «السير» (ج٩/ ص٥٣٦، ٥٣٧). قال: وَفِي جُزْءِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَلَمِ الدِّيْنِ: سَمِعنَاهُ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بنَ أَحْمَدَ يَقُوْلُ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبِي الوَفَاةُ، جَلَسْتُ عِنْدَهُ وَبِيَدِي الخِرْقَةُ لأَشُدَّ بِهَا لَحْيَيْهِ، فَجَعَلَ يَغْرَقُ ثُمَّ يُفِيقُ، ثُمَّ يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ، وَيَقُوْلُ بِيَدِهِ هَكَذَا لاَ بَعْدُ لاَ بَعْدُ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَةِ، قُلْتُ: يَا أَبَةِ، أَيُّ شَيْءٍ هَذَا الَّذِي لَهِجْتَ بِهِ فِي هَذَا الوَقْتِ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، مَا تَدْرِي؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: إِبْلِيْسُ - لَعَنَهُ اللهُ - قَائِمٌ بِحِذَائِي، وَهُوَ عَاضٌّ عَلَىٰ أَنَامِلِه، يَقُوْلُ: يَا أَحْمَدُ فُتَّنِي، وَأَنَا أَقُوْلُ: لاَ بَعْدُ حَتَّىٰ أَمُوتَ» قَالَ الذَّهَبِيُّ: فَهَذِهِ حِكَايَةٌ غَرِيْبَةٌ، تَفَرَّدَ بِهَا ابْنُ عَلَمٍ - فَاللهُ أَعْلَمُ -.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ مَعْرِفَةً تُعَرِّفُنَا أَقْدَارَنَا، حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ لِلْعُجْبِ بِمُحْتَقَرِ مَا عِنْدَنَا أَثَرٌ فِي قُلُوبِنَا، وَنَرْغَبُ إِلَيْهِ فِي مَعْرِفَةٍ لِعَظَمَتِهِ تُخْرِسُ الأَلْسُنَ أَنْ تَنْطِقَ بِالإِدْلَالِ، وَنَرْجُو مِنْ فَضْلِهِ تَوْفِيقًا نُلَاحِظُ بِهِ آفَاتِ الأَعْمَالِ الَّتِي بِهَا نَزْهُو، حَتَّىٰ تُثْمِرَ الْمُلَاحَظَةُ لِعُيُوبِهَا الْخَجَلَ مِنْ وُجُودِهَا! إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

*[١٢٢-١٨٢] [خَاطِرَةٌ]:

[الْعُلَمَاءُ هُمْ حَفَظَةُ الشَّرِيعَةِ]

سُبْحَانَ مَنْ مَنَّ عَلَىٰ الخَلْقِ بِالْعُلَمَاءِ الْفُقَهَاءِ، الَّذِينَ فَهِمُوا مَقْصُودَ الأَمْرِ وَمُرَادَ الشَّارِعِ؛ فَهُمْ حَفَظَةُ الشَّرِيعَةِ، فَأَحْسَنَ اللهُ جَزَاءَهُمْ.

وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَتَجَافَاهُمْ خَوْفًا مِنْهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ أَذَاهُ، وَهُوَ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ.

وَلَقَدْ تَلَاعَبَ بِأَهْلِ الْجَهْلِ وَالقَلِيلِي الفَهْمِ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ تَلَاعُبِهِ أَنْ حَسَّنَ لِأَقْوَامٍ تَرْكَ الْعِلْمِ، ثُمَّ لَمْ يَقْنَعُوا بِهَذَا حَتَّىٰ قَدَحُوا فِي الْمُتَشَاغِلِينَ بِهِ، وَهَذَا - لَوْ فَهِمُوهُ - قَدْحٌ فِي الشَّرِيعَةِ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «بَلِّغُوا عَنِّي»(١)، وَقَدْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ ﷻ: ﴿بَلِّغْ﴾[المائدة:٦٧]؛ فَإِذَا لَمْ يَتَشَاغَلْ بِالْعِلْمِ؛ فَكَيْفَ يُبَلِّغُ الشَّرِيعَةَ إِلَىٰ الْخَلْقِ؟!

وَلَقَدْ نُقِلَ مِثْلُ هَذَا عَنْ كِبَارِ الزُّهَّادِ؛ كَبِشْرٍ الحَافِي(٢)! فَإِنَّهُ قَالَ لِعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْعَظِيمِ(٣): لَا تُجَالِسْ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ. وَقَالَ لِإِسْحَاقَ بْنِ الضَّيْفِ: إِنَّكَ صَاحِبُ حَدِيثٍ؛ فَأُحِبُّ أَنْ لَا تَعُودَ إِلَيَّ(٤). ثُمَّ اعْتَذَرَ، فَقَالَ: إِنَّمَا الحَدِيثُ فِتْنَةٌ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ، وَإِذَا لَمْ يُعْمَلْ بِهِ؛ فَتَرْكُهُ أَفْضَلُ.

---

(١) رواه البخاري، كِ: «أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ» (٣٤٦١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً».

(٢) تقدمت ترجمته في الخاطرة رقم: [٢٤-١٧٩].

(٣) العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ العَظِيمِ بنِ إِسْمَاعِيلَ بنِ تَوْبَةَ الحَافِظُ، الحُجَّةُ، الإِمَامُ، أَبُو الفَضْلِ، العَنْبَرِيُّ مَاتَ سَنَةَ: (٢٤٦).

(٤) إِسْحَاق بْن الضَّيف الباهليّ العسكريّ البَصْريُّ، نزيل مصر، وقيل: هُوَ إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم بْن الضَّيف. لَهُ رحلة واسعة قال أبو زرعة: صدوق. أمَّا الخبر ففي «تاريخ دمشق» لابن عساكر. (ج٨/ ص٢٢٧/ ترجمة: ابْن الضَّيف).

وَهَذَا عَجَبٌ مِنْهُ! مِنْ أَيْنَ لَهُ أَنَّ طُلَّابَهُ لَا يُرِيْدُوْنَ اللهَ بِهِ، وَأَنَّهُم لَا يَعْمَلُوْنَ بِهِ؟!

أَوْ لَيْسَ الْعَمَلُ بِهِ عَلَىٰ ضَرْبَيْنِ: عَمَلٌ بِمَا يَجِبُ، وَذَلِكَ لَا يَسَعُ أَحَدًا تَرْكُهُ. وَالثَّانِي: نَافِلَةٌ، وَلا يَلْزَمُ.

وَالتَّشَاغُلُ بِالْحَدِيْثِ أَفْضَلُ مِنَ التَّنَفُّلِ بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ.

وَمَا أَظُنُّهُ أَرَادَ إِلَّا طَرِيْقَهُ فِي دَوَامِ الجُوْعِ وَالتَّهَجُّدِ، وَذَلِكَ شَيْءٌ لَا يُلَامُ تَارِكُهُ. فَإِنْ كَانَ يُرِيْدُ أَنْ لَا يُوْغِلَ فِي عُلُوْمِ الْحَدِيْثِ؛ فَهَذَا خَطأٌ؛ لِأَنَّ جَمِيْعَ أَقْسَامِهِ مَحْمُوْدَةٌ.

أَفَتَرَىٰ لَوْ تَرَكَ النَّاسُ طَلَبَ الْحَدِيْثِ؛ كَانَ بِشْرٌ يُفْتِي؟!

فَاللهَ اللهَ فِي الالْتِفَاتِ إِلَىٰ قَوْلِ مَنْ لَيْسَ بِفَقِيْهٍ، وَلَا يَهُوْلَنَّكَ تَعْظِيْمُ اسْمِهِ؛ فَاللهُ يَعْفُوْ عَنْهُ.

*[١٢٣-١٠٦] [خَاطِرَةٌ]:

[أَقْرَبُ الْخَلْقِ مِنَ اللهِ الْعُلَمَاءِ]

مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ رُتْبَةَ الْعُلَمَاءِ عَلَىٰ الزُّهَّادِ؛ فَلْيَنْظُرْ فِي رُتْبَةِ جِبْرِيْلَ وَمِيكَائِيْلَ، وَمَنْ خُصَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِوِلَايَةٍ تَتَعَلَّقُ بِالْخَلْقِ: وَبَاقِي المَلَائِكَةِ قِيَامٌ لِلتَّعَبُّدِ، فِي مَرَاتِبِ الرُّهْبَانِ فِي الصَّوَامِعِ.

وَقَدْ حَظِيَ أُوْلَئِكَ بِالتَّقْرِيْبِ عَلَىٰ مَقَادِيْرِ عِلْمِهِمْ بِاللهِ تَعَالَىٰ.

فَإِذَا مَرَّ أَحَدُهُمْ بِالوَحْيِ؛ انْزَعَجَ أَهْلُ السَّمَاءِ، حَتَّىٰ يُخْبِرَهُم بِالخَبَرِ، فَـ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾[سبا:٢٣][1]؛ كَمَا إِذَا انْزَعَجَ الزَّاهِدُ مِنْ حَدِيْثٍ يَسْمَعُهُ؛ سَأَلَ الْعُلَمَاءَ عَنْ صِحَّتِهِ وَمَعْنَاهُ.

---

(١) كَأَنَّهُ رحمه الله يُشِيْرُ إِلَىٰ مَا رواه البخاري، كِتَابُ «تَفْسِيرِ القُرْآنِ»(٤٧٠١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَىٰ صَفْوَانٍ؛ فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ...» الحديث.

فَسُبْحَانَ مَنْ خَصَّ فَرِيْقًا بِخَصَائِصَ شُرِّفُوْا بِهَا عَلَىٰ جِنْسِهِم! وَلَا خَصِيْصَةَ أَشْرَفُ مِنَ الْعِلْمِ؛ بِزِيَادَتِهِ صَارَ آدَمُ مَسْجُوْدًا لَهُ، وَبِنُقْصَانِهِ صَارَتِ الْمَلَائِكَةُ سَاجِدَةً؛ فَأَقْرَبُ الْخَلْقِ مِنَ اللهِ الْعُلَمَاءُ.

وَلَيْسَ الْعِلْمُ بِمُجَرَّدِ صُوْرَتِهِ هُوَ النَّافِعُ، بَلْ مَعْنَاهُ. وَإِنَّمَا يَنَالُ مَعْنَاهُ مَنْ تَعَلَّمَهُ لِلْعَمَلِ بِهِ؛ فَكُلَّمَا دَلَّهُ عَلَىٰ فَضلٍ؛ اجْتَهَدَ فِي نَيْلِهِ، وَكُلَّمَا نَهَاهُ عَنْ نَقْصٍ؛ بَالَغَ فِي مُبَاعَدَتِهِ[1]؛ فَحِيْنَئِذٍ يَكْشِفُ الْعِلْمُ لَهُ سِرَّهُ، وَيُسَهِّلُ عَلَيْهِ طَرِيْقَهُ، فَيَصِيْرُ كَمُجْتَذِبٍ يَحُثُّ الْجَاذِبَ؛ فَإِذَا حَرَّكَهُ؛ عَجَّلَ فِي سَيْرِهِ.

وَالَّذِي لا يَعْمَلُ بِالْعِلْمِ؛ لَا يُطْلِعُهُ الْعِلْمُ عَلَىٰ غَوْرِهِ، وَلَا يَكْشِفُ لَهُ عَنْ سِرِّهِ، فَيَكُوْنُ كَمَجْذُوْبٍ لِجَاذِبٍ جَاذَبَهُ. فَافْهَمْ هَذَا الْمَثَلَ، وَحَسِّنْ قَصْدَكَ، وَإِلَّا؛ فَلَا تَتْعَبْ.

*[١٢٤-٢٥] [خَاطِرَةٌ]:

[اعتِرَافُ العُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ بِالتَّقْصِيرِ دَلِيلٌ عَلَى إِخْلَاصِهِم]

تَأَمَّلْتُ الْمُرَادَ مِنَ الْخَلْقِ؛ فَإِذَا هُوَ الذُّلُّ، وَاعْتِقَادُ التَّقْصِيْرِ وَالعَجْزِ. وَمَثَّلْتُ الْعُلَمَاءَ وَالزُّهَّادَ العَامِلِيْنَ صِنْفَيْنِ:

فَأَقَمْتُ فِي صَفِّ الْعُلَمَاءِ: مَالِكًا، وَسُفْيَانَ، وَأَبَا حَنِيْفَةَ، وَالشَّافِعِيَّ، وَأَحْمَدَ[2].

وَفِي صَفِّ الْعُبَّادِ: مَالِكَ بْنَ دِيْنَارٍ، وَرَابِعَةَ، وَمَعْرُوْفًا الكَرْخِيَّ، وَبِشْرَ بْنَ الحَارِثِ[3].

---

(١) جاء في الأصل:[مساعدته] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به من مخطوط (ي).

(٢) ترجمة سُفْيَانَ الثَّورِي في:[١٤-١١٨]، وَالشَّافِعِيِّ في:[٤٧-٦١]، وَأَحْمَدَ بن حَنْبَل في:[٢٤-١٧٩]. وَأَبُو حَنِيْفَةَ: النُّعْمَانُ بنُ ثَابِتٍ. عُنِيَ بِطَلَبِ الآثَارِ، وَأَمَّا الفِقْهُ وَالتَّدْقِيْقُ فِي الرَّأْيِ وَغوَامِضِهِ، فَإِلَيْهِ المُنْتَهَىٰ، مَاتَ شَهِيْدًا سَنَةَ:(١٥٠هـ). وَمَالِكُ: بنُ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ المَدَنِيُّ إِمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ، أَبُو عَبْدِ اللهِ. مَاتَ سَنَةَ(١٧٩هـ).

(٣) ترجمة كلا من: رَابِعَةَ العَدَوِيَّة في:[٦٦-٥٥]، وَمَعْرُوْف الكَرْخِيِّ، وَبِشْرَ الحَافِي في:[٢٤-١٧٩]. وَمَالِكَ بْنَ دِيْنَارٍ عَلَمُ العُلَمَاءِ الأَبْرَارِ، مَعْدُوْدٌ فِي ثِقَاتِ التَّابِعِيْنَ، وَمِنْ أَعْيَانِ كَتَبَةِ المَصَاحِفِ، مَاتَ سَنَةَ:(١٢٧أو١٣٠هـ).

فَكُلَّمَا جَدَّ الْعُبَّادُ فِي العِبَادَةِ؛ صَاحَ بِهِمْ لِسَانُ الْحَالِ: عِبَادَاتُكُمْ لا يَتَعَدَّاكُمْ نَفْعُهَا؛ وَإِنَّمَا يَتَعَدَّىٰ نَفْعُ الْعُلَمَاءِ، وَهُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَخُلَفَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ، وَهُمُ الَّذِيْنَ عَلَيْهِمُ الْمُعَوَّلُ، وَلَهُمُ الفَضْلُ إِذَا أَطْرَقُوْا وَانْكَسَرُوا، وَعَلِمُوْا صِدْقَ تِلْكَ الحَالِ.

وَجَاءَ مَالِكُ بْنُ دِيْنَارٍ إِلَىٰ الحَسَنِ[1]، يَتَعَلَّمُ مِنْهُ، وَيَقُوْلُ: الحَسَنُ أُسْتَاذُنَا.

وَإِذَا رَأَىٰ العُلَمَاءُ أَنَّ لَهُمْ بِالْعِلْمِ فَضْلًا؛ صَاحَ لِسَانُ الحَالِ بِالْعُلَمَاءِ: وَهَلِ الْمُرَادُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا العَمَلُ؟!

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ: وَهَلْ يُرَادُ بِالعِلْمِ إِلَّا مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مَعْرُوْفٌ؟![2]

وَصَحَّ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ؛ قَالَ: وَدِدْتُ أَنَّ يَدِيْ قُطِعَتْ وَلَمْ أَكْتُبِ الْحَدِيْثَ.

وَقَالَتْ أُمُّ الدَّرْدَاءِ[3] لِرَجُلٍ: هَلْ عَمِلْتَ بِمَا عَلِمْتَ؟ قَالَ: لَا. قَالَتْ: فَلِمَ تَسْتَكْثِرُ مِنْ حُجَّةِ اللهِ عَلَيْكَ؟!

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ[4]: وَيْلٌ لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ وَلَمْ يَعْمَلْ مَرَّةً، وَوَيْلٌ لِمَنْ عَلِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ سَبْعِيْنَ مَرَّةً.

وَقَالَ الفُضَيْلُ: يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعُوْنَ ذَنْبًا قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لِلْعَالِمِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ[5].

فَمَا يَبْلُغُ مِنَ الْكُلِّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾[الزمر: ٩].

---

(١) تقدمت ترجمته في الخاطرة رقم: [٥٩-٨٧] وهو الحسن البصري.

(٢) يُنظر هذا الخبر في ترجمة مَعْرُوْفٌ الكَرْخِيُّ عند الذهبي في «سير أعلام النبلاء».

(٣) أُمّ الدَّرْدَاء: الصغرىٰ، زوج أبي الدَّرْدَاء، اسمها هُجَيمة، وقيل: جُهَيمة بنت حُيَي الدمشقية، وأم الدَّرْدَاء الكبرىٰ خَيْرَة بنت أبي حَدْرَد. وأم الدَّرْدَاء الصغرىٰ التي يُروىٰ عنها الحديث الكثير، وأم الدَّرْدَاء الكبرىٰ صحابيّة.

(٤) أبو الدَّرْدَاء عويمر بن مَالِك أو عامر بن زيد بن قيس، من الأنصار، أسلم يوم بدر، وشهد أحدًا، وأبلىٰ فيها بلاءً حسنًا. مات في خلافة عثمان قبل موته بسنتين. وخبره هذا في «السير» وفيه بدل [سبعين] [سَبْعَ مَرَّاتٍ].

(٥) تقدمت ترجمة الفُضَيْل بْنِ عِيَاضٍ في الخاطرة رقم: [٣١-١٢] والخبر في «حلية الأولياء» لأبي نعيم. (ج٧/ ص٢٨٦).

وَجَاءَ سُفْيَانُ إِلَىٰ رَابِعَةَ، فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهَا، يَنْتَفِعُ بِكَلَامِهَا(١).

فَدَلَّ العُلَمَاءَ العِلْمُ عَلَىٰ أَنَّ المَقْصُوْدَ مِنْهُ العَمَلُ بِهِ، وَأَنَّهُ آلَةٌ، فَانْكَسَرُوْا، وَاعْتَرَفُوْا بِالتَّقْصِيْرِ، فَحَصَلَ الكُلُّ عَلَىٰ الاعتِرَافِ وَالذُّلِّ، فَاسْتَخْرَجَتِ المَعْرِفَةُ مِنْهُمْ حَقِيْقَةَ العُبُوْدِيَّةِ بِاعتِرَافِهِمْ؛ فَذَلِكَ هُوَ المَقْصُوْدُ مِنَ التَّكْلِيْفِ.

* [١٢٥-١٤٧] [خَاطِرَةٌ]:

[إِذَا صَحَّ قَصْدُ العَالِمِ؛ فَاحَ عَبِيْرُ فَضْلِهِ]

إِذَا صَحَّ قَصْدُ العَالِمِ؛ اسْتَرَاحَ مِنْ كُلَفِ التَّكَلُّفِ.

فَإِنَّ كَثِيْرًا مِنَ العُلَمَاءِ يَأْنَفُوْنَ مِنْ قَوْلِ: لا أَدْرِي، فَيَحْفَظُوْنَ بِالْفَتْوَىٰ جَاهَهُمْ عِنْدَ النَّاسِ؛ لِئَلَّا يُقَالَ: جَهِلُوْا الجَوَابَ، وَإِنْ كَانُوْا عَلَىٰ غَيْرِ يَقِيْنٍ مِمَّا قَالَوا، وَهَذَا نِهَايَةُ الخِذْلَانِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَقَالَ: لا أَدْرِي! فَقَالَ: سَافَرْتُ البُلْدَانَ إِلَيْكَ! فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ بَلَدِكَ، وَقُلْ: سَأَلْتُ مَالِكًا، فَقَالَ: لا أَدْرِي(٢).

فَانْظُرْ إِلَىٰ دِيْنِ هَذَا الشَّخْصِ وَعَقْلِهِ؛ كَيْفَ اسْتَرَاحَ مِنَ الكُلْفَةِ، وَسَلِمَ عِنْدَ اللهِ ﷻ.

ثُمَّ إِنْ كَانَ المَقْصُوْدُ الجَاهَ عِنْدَهُمْ؛ فَقُلُوْبُهُمْ بِيَدِ غَيْرِهِمْ(٣).

وَاللهِ؛ لَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ يُكْثِرُ الصَّلَاةَ وَالصَّوْمَ وَالصَّمْتَ، وَيَتَخَشَّعُ فِي نَفْسِهِ وَلِبَاسِهِ، وَالقُلُوْبُ تَنْبُوْ عَنْهُ، وَقَدْرُهُ فِي النُّفُوْسِ لَيْسَ بِذَاكَ!

وَرَأَيْتُ مَنْ يَلْبَسُ فَاخِرَ الثِّيَابِ، وَلَيْسَ لَهُ كَبِيْرُ نَفْلٍ، وَلَا تَخَشُّعٌ، وَالقُلُوْبُ تَتَهَافَتُ عَلَىٰ

---

(١) يُنظر هذا الخبر في ترجمة رَابِعَة العَدَوِيَّة عند الذهبي في «سير أعلام النبلاء».

(٢) ترجمة مَالك بْن أَنَس في: [١٢٣-٢٥] وخبر قوله: [لا أدري] في «الحلية» لأبي نعيم. و«السير» للذهبي. في ترجمته.

(٣) أي: مَن كان قصده في العلم رضىٰ الناس، فقلوب الناس بيد ربّ الناس يقلبها كيف يشاء، ثم ضرب بعض الأمثلة.

مَحَبَّتِهِ، فَتَدَبَّرْتُ السَّبَبَ، فَوَجَدْتُهُ السَّرِيْرَة. كَمَا رُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[١]: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ كَبِيْرُ عَمَلٍ مِنْ صَلَاةٍ وَصَوْمٍ؛ وَإِنَّمَا كَانَتْ لَهُ سَرِيْرَةٌ.

فَمَنْ أَصْلَحَ سَرِيْرَتَهُ؛ فَاحَ عَبِيْرُ فَضْلِهِ، وَعَبَقَتِ القُلُوْبُ بِنَشْرِ طِيْبِهِ، فَاللهَ اللهَ فِي السَّرَائِرِ؛ فَإِنَّهُ مَا يَنْفَعُ مَعَ فَسَادِهَا صَلَاحُ ظَاهِرٍ.

*[١٢٦-٩٤] [خَاطِرَةٌ]:

[أنفعُ العلماءِ في الصُّحبةِ العاملِ منهم بعلمهِ]

لَقِيْتُ مَشَايِخ، أَحْوَالُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ، يَتَفَاوَتُوْنَ فِي مَقَادِيْرِهِمْ فِي العِلْمِ، وَكَانَ أَنْفَعُهُمْ لِي فِي صُحْبَتِهِ العَامِلَ مِنْهُمْ بِعِلْمِهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ أَعْلَمَ مِنْهُ.

وَلَقِيْتُ جَمَاعَةً مِنْ عُلَمَاءِ الْحَدِيْثِ يَحْفَظُوْنَ وَيَعْرِفُوْنَ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوْا يَتَسَامَحُوْنَ بِغِيْبَةٍ يُخْرِجُوْنَهَا مَخْرَجَ جَرْحٍ وَتَعْدِيْلٍ، وَيَأْخُذُوْنَ عَلَىٰ قِرَاءَةِ الْحَدِيْثِ أُجْرَةً، وَيُسْرِعُوْنَ بِالجَوَابِ؛ لِئَلَّا يَنْكَسِرَ الجَاهُ، وَإِنْ وَقَعَ خَطَأٌ.

وَلَقِيْتُ عَبْدَ الْوَهَّابِ الأَنْمَاطِيَّ[٢]، فَكَانَ عَلَىٰ قَانُوْنِ السَّلَفِ، لَمْ تُسْمَعْ فِي مَجْلِسِهِ غِيْبَةٌ، وَلَا كَانَ يَطْلُبُ أَجْرًا عَلَىٰ سَمَاعِ الْحَدِيْثِ، وَكُنْتُ إِذَا قَرَأْتُ عَلَيْهِ أَحَادِيْثَ الرَّقَائِقِ؛ بَكَىٰ، وَاتَّصَلَ بُكَاؤُهُ، فَكَانَ - وَأَنَا صَغِيْرُ السِّنِّ حِيْنَئِذٍ - يَعْمَلُ بُكَاؤُهُ فِي قَلْبِي، وَيَبْنِي قَوَاعِدَ، وَكَانَ عَلَىٰ سَمْتِ الْمَشَايِخِ الَّذِيْنَ سَمِعْنَا أَوْصَافَهُمْ فِي النَّقْلِ.

وَلَقِيْتُ الشَّيْخَ أَبَا مَنْصُوْرٍ الجَوَالِيْقِيَّ[٣]، فَكَانَ كَثِيْرَ الصَّمْتِ، شَدِيْدَ التَّحَرِّي فِيْمَا يَقُوْلُ،

---

(١) أَنَسُ بنُ مَالِكِ بنِ النَّضرِ بنِ ضَمْضَمِ الأَنْصَارِيُّ رَاوِيَةُ الإِسْلَامِ، أَبُو حَمْزَةَ، خَادِمُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وَتِلْمِيذُهُ، وَتَبَعُهُ، وَآخِرُ أَصْحَابِهِ مَوْتًا. دَعَا لَهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: (اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَأَطِلْ حَيَاتَهُ) بَلَغَ: (١٠٣) سنة.

(٢) عَبْدُ الوَهَّابِ بن المُبَارَكِ بن أَحْمَدَ بنِ الحَسَنِ الأَنْمَاطِيُّ. أَبُو البَرَكَاتِ، الإِمَامُ، الثِّقَةُ، المُسْنِدُ، مَاتَ سَنَةَ: [٥٣٨هـ].

(٣) أَبُو مَنْصُورٍ ابْنُ الجَوَالِيْقِيِّ مَوْهُوبُ بنُ أَحْمَدَ بنِ مُحَمَّدٍ الإِمَامُ، اللُّغَوِيُّ، إِمَامُ الخَلِيْفَةِ المُقْتَفِي. مات سنة: [٥٤٠هـ].

مُتْقِنًا، مُحَقِّقًا، وَرُبَّمَا سُئِلَ الْمَسْأَلَةَ الظَّاهِرَةَ، الَّتِي يُبَادِرُ بِجَوَابِهَا بَعْضُ غِلْمَانِهِ، فَيَتَوَقَّفُ فِيْهَا حَتَّىٰ يَتَيَقَّنَ، وَكَانَ كَثِيْرَ الصَّوْمِ وَالصَّمْتِ، فَانْتَفَعْتُ بِرُؤْيَةِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ أَكْثَرَ مِنِ انْتِفَاعِي بِغَيْرِهِمَا فَفَهِمْتُ مِنْ هَذِهِ الحَالَةِ أَنَّ الدَّلِيْلَ بِالفِعْلِ أَرْشَدُ مِنَ الدَّلِيْلِ بِالقَوْلِ.

وَرَأَيْتُ مَشَايِخَ كَانَتْ لَهُمْ خَلَوَاتٌ فِي انْبِسَاطٍ وَمُزَاحٍ، فَرَاحُوْا عَنِ الْقُلُوْبِ، وَبَدَّدَ تَفْرِيطُهُمْ مَا جَمَعُوْا مِنَ الْعِلْمِ، فَقَلَّ الانتِفَاعُ بِهِمْ فِي حَيَاتِهِم، وَنُسُوْا بَعْدَ مَمَاتِهِم، فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَىٰ مُصَنَّفَاتِهِم.

فَاللهَ اللهَ فِي العِلْمِ بِالعَمَلِ؛ فَإِنَّهُ الأَصْلُ الأَكْبَرُ.

وَالْمِسْكِيْنُ كُلُّ الْمِسْكِيْنِ مَنْ ضَاعَ عُمُرُهُ فِي عِلْمٍ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ، فَفَاتَتْهُ لَذَّاتُ الدُّنْيَا وَخَيْرَاتُ الآخِرَةِ، فَقَدِمَ مُفْلِسًا، عَلَىٰ قُوَّةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ.

*[١٢٧-٣٦٦] [خَاطِرَةٌ]:

[تفاوت العلماء في الفهوم]

مَا أَكْثَرَ تَفَاوُتَ النَّاسِ فِي الفُهُوْمِ! حَتَّىٰ العُلَمَاءُ يَتَفَاوَتُوْنَ التَّفَاوُتَ الْكَثِيْرَ فِي الأُصُوْلِ وَالفُرُوْعِ:

فَتَرَىٰ أَقْوَامًا يَسْمَعُوْنَ أَخْبَارَ الصِّفَاتِ، فَيَحْمِلُوْنَهَا عَلَىٰ مَا يَقْتَضِيْهِ الْحِسُّ؛ كَقَوْلِ قَائِلِهِم: يَنْزِلُ بِذَاتِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَيَنْتَقِلُ!! وَهَذَا فَهْمٌ رَدِيْءٌ؛ لِأَنَّ الْمُنْتَقِلَ يَكُوْنُ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ، وَيُوْجِبُ ذَلِكَ كَوْنَ الْمَكَانِ أَكْبَرَ مِنْهُ[١]، وَيَلْزَمُ مِنْهُ الْحَرَكَةُ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُحَالٌ عَلَىٰ الحَقِّ ﷻ.

وَأَمَّا فِي الفُرُوْعِ: فَكَمَا يُرْوَىٰ عَنْ دَاوُدَ[٢]: أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «لا يَبُوْلَنَّ أَحَدُكُمْ فِي المَاءِ الدَّائِمِ

(١) جاء في الأصل: [أكثر منه] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنى به.

(٢) دَاوُدُ بنُ عَلِيِّ بنِ خَلَفٍ أَبُو سُلَيْمَانَ البَغْدَادِيُّ الظَّاهِرِيُّ، الأَصْبَهَانِيُّ، رَئِيسُ أَهْلِ الظَّاهِرِ. مَاتَ سَنَةَ: (٢٧٠هـ).

ثُمَّ يَتَوَضَّأُ مِنْهُ»[١]، فَقَالَ: إِنْ بَالَ غَيْرُهُ؛ جَازَ!! فَمَا يَفْهَمُ الْمُرَادَ مِنَ التَّنْجِيسِ، بَلْ يَأْخُذُ بِمُجَرَّدِ اللَّفْظِ!! وَكَذَلِكَ يَقُوْلُ: لَحْمُ الْخِنْزِيرِ حَرَامٌ: لَا جِلْدُهُ!! نَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ سُوْءِ الْفَهْمِ[٢].

وَكَذَلِكَ يَتَفَاوَتُ الشُّعَرَاءُ الَّذِيْنَ شَغَلَهُمُ التَّفَطُّنُ لِدَقَائِقِ الأَحْوَالِ: كَقَوْلِ قَائِلِهِم[٣]:

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَىٰ ... وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وَ«الجَفَنَاتُ» عَدَدٌ يَسِيْرٌ؛ فَلَوْ قَالَ:«الجِفَانُ»؛ لَكَانَ أَبْلَغَ! وَلَوْ قَالَ: بِـ«الدُّجَىٰ»؛ لَكَانَ أَحْسَنَ! وَ«يَقْطُرْنَ» دَلِيْلٌ عَلَىٰ القِلَّةِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُ القَائِلِ[٤]:

هَمُّهَا العِطْرُ وَالفِرَاشُ، وَيَعْلُوْ ... هَا لُجَيْنٌ وَلُؤْلُؤٌ مَنْظُوْمُ

وَهَذَا قَاصِرٌ؛ فَإِنَّهُ لَوْ فَعَلَتْ هَذَا سَوْدَاءُ؛ لَحَسَّنَهَا. إِنَّمَا المَادِحُ هُوَ القَائِلُ[٥]:

أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا ... وَجَدْتُ بِهَا طِيْبًا وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

وَكَذَا قَوْلُ القَائِلِ[٦]:

أَدْعُوْا إِلَىٰ هَجْرِهَا قَلْبِي فَيَتْبَعُنِي ... حَتَّىٰ إِذَا قُلْتُ هَذَا صَادِقٌ نَزَعَا

وَلَوْ كَانَ صَادِقًا فِي المَحَبَّةِ لَمَا كَانَ لَهُ قَلْبٌ يُخَاطِبُهُ، وَإِذَا خَاطَبَهُ فِي الهَجْرِ؛ لَمْ يُوَافِقْهُ!

---

(١) رواه البخاري، كِتَاب «الوُضُوءِ»(٢٣٩). ومسلم، كِتَاب «الطَّهَارَةِ»(٢٨٢).

(٢) قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي «السير»(ت: دَاوُدُ الظَّاهِرِيُّ):«وَبِكُلِّ حَالٍ فَلَهُم أَشْيَاءُ أَحْسَنُوا فِيهَا، وَلَهُم مَسَائِلُ مُسْتَهْجَنَةٌ، يُشْغَبُ عَلَيْهِم بِهَا... ولاَ رَيْبَ أَنَّ كُلَّ مَسَأَلَةٍ انفَرَدَ بِهَا، وَقُطِعَ بِبُطْلاَنِ قَوْلِهِ فِيْهَا، فَإِنَّهَا هَدْرٌ، وَإِنَّمَا نَحْكِيهَا لِلتَّعَجُّبِ، وَكُلَّ مَسَأَلَةٍ لَهُ عَضَدَهَا نَصٌّ، وَسَبَقَهُ إِلَيْهَا صَاحِبٌ أَوْ تَابِعٌ، فَهِيَ مِنْ مَسَائِلِ الخِلاَفِ، فَلاَ تُهْدَرُ»اهـ.

(٣) البيت من البحر:[البسيط] وقائله:ابن الوردي.

(٤) البيت من البحر:[الخفيف] وقائله: حسان بن ثابت.

(٥) البيت من البحر:[الطويل] وقائله: امرؤ القيس.

(٦) البيت من البحر:[البسيط] وقائله: الأحوص الأنصاري.

إِنَّمَا المُحِبُّ الصَّادِقُ هُوَ القَائِلُ[(١)]:

يَقُوْلُـوْنَ: لَـوْ عَاتَبْـتَ قَلْبَـكَ لارْعَـوَىٰ ... فَقُلْـتُ: وَهَـلْ لِلْعَاشِـقِيْنَ قُلُـوْبُ؟

وَمِثْلُ هَذَا إِذَا نُوْقِشَ كَثِيْرٌ؛ فَأَقَلُّ مَوْجُوْدٍ فِي النَّاسِ الفَهْمُ وَالغَوْصُ عَلَىٰ دَقَائِقِ الْمَعَانِي.

*[١٢٨-١٦٣] [خَاطِرَةٌ]:

[مَدَاخِلُ الخَلَلِ فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ: الفَلْسَفَةُ؛ وَالرَّهْبَانِيَّةُ]

تَأَمَّلْتُ الدَّخَلَ الَّذِي دَخَلَ فِي دِيْنِنَا فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ[(٢)]، فَرَأَيْتُهُ مِنْ طَرِيْقَيْنِ قَدْ تَقَدَّمَا هَذَا الدِّيْنَ، وَأَنِسَ [النَّاسُ[(٣)]] بِهِمَا:

فَأَمَّا أَصْلُ الدَّخَلِ فِي العِلْمِ وَالاعْتِقَادِ؛ فَمِنَ الفَلْسَفَةِ. وَهُوَ أَنَّ خَلْقًا مِنَ العُلَمَاءِ فِي دِيْنِنَا لَمْ يَقْنَعُوْا بِمَا قَنَعَ بِهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ مِنَ الانْعِكَافِ عَلَىٰ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَأَوْغَلُوْا فِي النَّظَرِ فِي مَذَاهِبِ أَهْلِ الفَلْسَفَةِ، وَخَاضُوا فِي الكَلَامِ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَىٰ مَذَاهِبَ رَدِيَّةٍ، أَفْسَدُوْا بِهَا العَقَائِدَ.

وَأَمَّا أَصْلُ الدَّخَلِ فِي بَابِ الْعَمَلِ؛ فَمِنَ الرَّهْبَانِيَّةِ. فَإِنَّ خَلْقًا مِنَ الْمُتَزَهِّدِيْنَ أَخَذُوْا عَنِ الرُّهْبَانِ طَرِيْقَ التَّقَشُّفِ، وَلَمْ يَنْظُرُوْا فِي سِيرَةِ نَبِيِّنَا ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَسَمِعُوْا ذَمَّ الدُّنْيَا، وَمَا فَهِمُوْا المَقْصُوْدَ، فَاجْتَمَعَ لَهُمُ الإِعْرَاضُ عَنْ عِلْمِ شَرْعِنَا، مَعَ سُوْءِ الْفَهْمِ لِلْمَقْصُوْدِ، فَحَدَثَتْ مِنْهُم بِدَعٌ قَبِيْحَةٌ.

فَأَوَّلُ مَا ابْتَدَأَ بِهِ إِبْلِيْسُ أَنَّهُ أَمَرَهُم بِالإِعْرَاضِ عَنِ الْعِلْمِ، فَدَفَنُوْا كُتُبَهُمْ، وَغَسَلُوْهَا، وَأَلْزَمَهُم زَاوِيَةَ التَّعَبُّدِ فِيْمَا زَعَمَ، وَأَظْهَرَ لَهُمْ مِنَ الْخُزَعْبَلَاتِ[(٤)] مَا أَوْجَبَ إِقْبَالَ الْعَوَامِّ

(١) البيت من البحر: [الطويل] وقائله: بشار.

(٢) الدَّخَلَ -بالتَّحْرِيكِ-: العَيْبُ والغِشُّ والفَسَادُ. والمعنىٰ: رأيت الفساد الداخل في ديننا من ناحيتي العلم والعمل.

(٣) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٤) الْخُزَعْبَلَاتِ: أحاديث باطلة، أو أحاديث مستطرفة تبعث علىٰ الضحك

عَلَيْهِم، فَجَعَلَ إِلهَهُم هَوَاهُم، وَلَوْ عَلِمُوا أَنَّهُم مُنْذُ دَفَنُوْا كُتُبَهُم؛ وَفَارَقُوا العِلْمَ؛ انْطَفَأَ مِصْبَاحُهُم: مَا فَعَلُوْا.

لَكِنَّ إِبْلِيْسَ دَقِيْقُ المِنْقَبِ[١]، وَفَخُّهُ[٢] دَفِيْنٌ تَحْتَ الأَرْضِ[٣]. وَبِالْعِلْمِ يُعْلَمُ فَسَادُ الطَّرِيْقَيْنِ، وَيُهْتَدَىٰ إِلَىٰ الأَصْوَبِ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَلَّا يَحْرِمَنَا إِيَّاهُ فَإِنَّهُ النُّوْرُ فِي الظُّلَمِ، وَالأَنِيْسُ فِي الوَحْدَةِ، وَالْوَزِيْرُ عِنْدَ الْحَادِثَةِ.

*[١٢٩-٣٦٢] [خَاطِرَةٌ]:

[مَا آلَ إِلَيهِ بَعْض العُلَمَاء وَالزُّهَّاد مِنَ الانْحِرَافِ]

رَأَيْتُ جُمْهُوْرَ النَّاسِ حَائِدِيْنَ عَنِ الشَّرِيْعَةِ، جَارِيْنَ عَلَىٰ مَا أَلِفُوْا مِنَ العَادَةِ وَقَدْ يَخْلُصُ مِنْهُم فَرِيْقَانِ: عُلَمَاءٌ وَعُبَّادٌ.

فَتَأَمَّلْتُ جُمْهُوْرَ الْعُلَمَاءِ؛ فَرَأَيْتُهُم فِي تَخْلِيْطٍ: مِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَىٰ مُعَامَلَاتِ الدُّنْيَا، وَيُعْرِضُ عَنْ مُعَامَلَاتِ الآخِرَةِ: إِمَّا لِجَهْلِهِ بِهَا، أَوْ لِثِقَلِ أَمْرِهَا عَلَيْهِ؛ فَهُوَ لَا يَجْرِي عَلَىٰ مَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ مِمَّا يُوْجِبُهُ الْعِلْمُ، وَيَتَّبِعُ فِي البَاقِي العَادَاتِ! وَرُبَّمَا تَخَايَلَ أَنَّهُ يُسَامَحُ فِي الخَطَايَا، لِكَوْنِهِ عَالِمًا؛ وَقَدْ نَسِيَ أَنَّ العِلْمَ حُجَّةٌ عَلَيْهِ.

وَمِنْهُمْ: مَنْ هُوَ وَاقِفٌ مَعَ صُوْرَةِ الْعِلْمِ، غَافِلٌ عَنِ الْمَقْصُوْدِ بِالْعِلْمِ.

---

(١) الْمِنْقَبِ: كَثِيرُ البَحْث عَنِ الأَشْيَاءِ.

(٢) جاء في الأصل في] والصواب ما أثبتناه من مخطوط [ي] وَالفَخُّ: المصْيَدَة التَّي يُصَاد بها. وهي أيضًا: خُدعَة أو طريقة ملتوية لوضع شخصٍ ما في أزمة أو خطر. تقول: نصَب له فخًّا: دبَّر له مؤامرة، أوقعه في مكروه. وَالدَفِين، هُوَ الشَّيْءُ:[الْمَدْفُونُ الَّذِي لَا يُعْلَم بِهِ حَتَّى يَظْهَر شرُّه.

(٣) جاءت هذه الجملة في المطبوع هكذا:[لَكِنَّ إِبْلِيس كَانَ دَقِيْقَ الْمَكْرِ يَوْمَ جَعَلَ عِلْمَهُم فِي دَفِيْنٍ تَحْتَ الأَرْضِ.]

وَفِيهِمْ: مَنْ يُخَالِطُ السُّلْطَانَ، فَيَتَأَذَّىٰ الْمُخَالِطُ بِمَا يَرَىٰ مِنَ الذُّنُوْبِ وَالظُّلْمِ، وَلَا يُمْكِنُهُ الإِنْكَارُ، وَرُبَّمَا مَدَحَ! وَيَتَأَذَّىٰ السُّلْطَانُ بِصُحْبَتِهِ، فَيَقُوْلُ: لَوْلَا أَنِّي عَلَىٰ صَوَابٍ مَا جَالَسَنِي هَذَا! وَيَتَأَذَّىٰ العَوَامُّ، فَيَقُوْلُوْنَ: لَوْلَا أَنَّ أَمْرَ السُّلْطَانِ قَرِيْبٌ؛ مَا خَالَطَهُ هَذَا العَالِمُ! وَرَأَيْتُ الأَشْرَافَ يَتَّقُوْنَ بِشَفَاعَةِ آبَائِهِم، وَيَنْسَوْنَ أَنَّ الْيَهُوْدَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ!

وَأَمَّا الفَرِيْقُ الثَّانِي، وَهُمُ الْعُبَّادُ؛ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَهُمْ فِي تَخْلِيْطٍ:

أَمَّا الصَّحِيْحُو القَصْدِ مِنْهُم؛ فَعَلَىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ فِي أَكْثَرِ عَمَلِهِم: قَدْ وَضَعَ لَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَقَدِّمِيْنَ كُتُبًا فِيْهَا دَفَائِنُ قَبِيْحَةٌ، وَأَحَادِيْثُ غَيْرُ صَحِيْحَةٍ، وَيَأْمُرُوْنَ فِيْهَا بِأَشْيَاءَ تُخَالِفُ الشَّرِيْعَةَ؛ مِثْلَ كُتُبِ الْحَارِثِ[1] الْمُحَاسِبِيِّ[2]، وَأَبِي عَبْدِ اللهِ التِّرْمِذِيِّ[3]، وَ«قُوْتِ القُلُوْبِ» لِأَبِي طَالِبٍ الْمَكِّيِّ[4]، وَكِتَابِ «الإِحْيَاءِ» لِأَبِي حَامِدٍ الطُّوْسِيِّ[5].

فَإِذَا فَتَحَ الْمُبْتَدِئُ عَيْنَهُ، وَهَمَّ بِسُلُوْكِ الطَّرِيْقِ بِهَذِهِ الْكُتُبِ؛ فَحَمَلَتْهُ إِلَىٰ الخَطَايَا؛ لِأَنَّهُم قَدْ بَنَوْا عَلَىٰ أَحَادِيْثَ مُحَالَةٍ[6].

وَيَذُمُّوْنَ الدُّنْيَا، وَلا يَدْرُوْنَ مَا الْمَذْمُوْمُ مِنْهَا؟ فَيَتَصَوَّرُ الْمُبْتَدِئُ ذَمَّ ذَاتِ الدُّنْيَا، فَيَهْرُبُ الْمُنْقَطِعُ إِلَىٰ الجَبَلِ، وَرُبَّمَا فَاتَتْهُ الْجَمَاعَةُ وَالْجُمُعَةُ، وَيَقْتَصِرُ عَلَىٰ البَلُّوْطِ وَالْكُمَّثْرَىٰ[7]

---

(١) جاء في الأصل: [الحرث] ولعله تصحيف.

(٢) أَبُو عَبْدِ اللهِ الحَارِثُ بنُ أَسَدٍ البَغْدَادِيُّ، المُحَاسِبِيُّ الزَّاهِدُ، العَارِفُ، شَيْخُ الصُّوْفِيَّةِ، مَاتَ: (٢٤٣هـ).

(٣) أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيِّ بنِ الحَسَنِ بنِ بِشْرٍ الحَكِيْمِ التِّرْمِذِيّ. الإِمَامُ، الحَافِظُ، العَارِفُ، وَلَهُ مُصَنَّفَاتٌ وَفَضَائِلُ.

(٤) أَبُو طَالِبٍ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيِّ بنِ عطيَّةَ، الحَارِثِيُّ، المكِّيُّ المنشَأِ، العجميُّ الأصلِ. الإِمَامُ، الزَّاهِدُ، مَاتَ سَنَةَ: [٣٨٦هـ].

(٥) كِتَاب «إِحْيَاء عُلُوْم الدِّيْن». أَشْهَر مِنْ أَنْ يُذْكَر، وَأَعْرَف مِنْ أَنْ يَعَرَّف. كِتَابٌ جَامِعٌ تَنَاوَلَ بَعْضَ نَوَاحِي العَقِيْدَة وَتَرْبِيَة النَّفْس وَالسُّمُو بِهَا، وَأَسْرَار العِبَادَات وَفَضَائِلِهَا، وَالأَخْلَاق، وَجَوَانِب رَوْحِية كَثِيْرَة * وَأَبُو حَامِد الغَزَّالِيّ مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الطُّوْسِيّ فَيْلَسُوف مُتَصَوِّف فَقِيْه أُصُوْلِيّ، رَحَلَ فِي طَلَبِ العِلْم، مَاتَ سَنَةَ: (٥٠٥هـ).

(٦) المُحَال: مَا لَا يُمْكِنُ وُجُوده. وَأَحَادِيْثٌ مُحَالَةٌ؛ أي: باطلة أو ساقطة أو موضوعة.

(٧) البَلُّوطُ: ثَمَرُ شَجَرٍ يُؤْكَلُ وَيُدْبَغُ بِقِشْرِهِ. وَهُوَ شَجَرٌ جَمِيْلُ المَنْظَر، غَلِيظ السَّاق، كَثِيْر الخَشَب. وَالكُمَّثْرَىٰ: شَجَرٌ مُثْمِرٌ مِنَ الفَصِيلَة الوردِيَّة، أَصنَافُهُ كَثِيْرَة، وَيُسَمَّىٰ فِي بَعض البِلْدَان الإِجَاص، وَيَكْثُر فِي بِلَاد الشَّام.

فَيُوْرِثُهُ القُوْلَنْجَ(١)، وَيَقْنَعُ بَعْضُهُمْ بِشُرْبِ اللَّبَنِ، فَيَنْحَلُّ الطَّبْعُ، أَوْ يَأْكُلُ البَاقِلَّاءَ وَالعَدَسَ(٢) فَيَحْدُثُ لَهُ قَرَاقِرُ(٣)!!

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِقَاصِدِ الْحَجِّ أَنْ يَرْفُقَ أَوَّلًا بِالنَّاقَةِ لِيَصِلَ، أَلَا تَرَىٰ لِلْفَطِنِ مِنَ الأَتْرَاكِ، يَهْتَمُّ بِفَرَسِهِ قَبْلَ تَحْصِيْلِ قُوْتِ نَفْسِهِ؟!

وَرُبَّمَا تَصَدَّىٰ القَاصُّ لِشَرْحِ أَحْوَالِ قَوْمٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْمُتَزَهِّدِيْنَ، فَيَتْبَعُهُم الْمُرِيْدُ، فَيَتَأَذَّىٰ بِذَلِكَ!

وَمَتَىٰ رَدَدْنَا ذَلِكَ الْمَنْقُوْلَ، وَبَيَّنَّا خَطَأَ فَاعِلِهِ؛ قَالَ الْجُهَّالُ. أَتَرُدُّ عَلَىٰ الزُّهَّادِ؟! وَإِنَّمَا يَنْبَغِي اتِّبَاعُ الصَّوَابِ، وَلَا يَنْظَرُ إِلَىٰ أَسْمَاءِ الْمُعَظَّمِيْنَ فِي النُّفُوْسِ؛ فَإِنَّا نَقُوْلُ: قَالَ أَبُوْ حَنِيْفَةَ: ثُمَّ يُخَالِفُهُ الشَّافِعِيِ! وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَّبَعَ الدَّلِيْلُ.

قَالَ المِرْوَذِيُّ(٤): مَدَحَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ(٥) النِّكَاحَ، فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ(٦)، فَصَاحَ وَقَالَ: وَقَعْنَا فِي بُنَيَّاتِ الطَّرِيْقِ! عَلَيْكَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ.

وَتَكَلَّمَ أَحْمَدُ فِي الحَارِثِ(٧) المُحَاسِبِيِّ؛ وَرَدَّ عَلَىٰ سَرِيٍّ السَّقْطِيِّ(٨) حِيْنَ قَالَ: لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْحُرُوْفَ؛ وَقَفَ الأَلِفُ، وَسَجَدَتِ البَاءُ! فَقَالَ: نَفِّرُوا النَّاسَ عَنْهُ. فَالْحَقُّ لا يَنْبَغِي أَنْ يُحَابِي؛ فَإِنَّهُ جِدٌّ.

---

(١) القُوْلَنْجَ: مَرَضٌ مِعَوِيّ مُؤْلِم يَصعُب مَعَهُ خُرُوج البرَاز وَالرِّيح، وَسَبَبُهُ التِهاب القولُون.

(٢) البَاقِلَّاءَ: فول، نبات عُشبيّ من الفصيلة القرنيّة تؤكل قرونُه مطبوخة وكذلك بذورُه. ويُسمَّىٰ:[فول حراتي].

(٣) قَرَاقِرُ: قَرقرة صوتُ حركة الغازات والسوائل في الأمعاء، صوت البطن.

(٤) المَرُّوْذِيُّ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ الحَجَّاجِ الإِمَامُ، الفَقِيْهُ، المُحَدِّثُ، وَصَاحِبُ أَحْمَدَ، قَدْ رَوَىٰ عَنْهُ مَسَائِلَ.

(٥) تقدمت ترجمته في الخاطرة رقم:[٢٤-١٧٩].

(٦) إِبْرَاهِيْمُ بنُ أَدْهَمَ بنِ مَنْصُوْرِ بنِ العِجْلِيُّ أَبُو إِسْحَاقَ. القُدْوَةُ، الإِمَامُ، العَارِفُ، سَيِّدُ الزُّهَّادِ، مَاتَ سَنَةَ:(١٦٢هـ).

(٧) جاء في الأصل:[الحرث] ولعله تصحيف.

(٨) السَّرِيُّ بنُ المُغَلِّسِ السَّقَطِيُّ الإِمَامُ، القُدْوَةُ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ، أَبُو الحَسَنِ البَغْدَادِيُّ. مَاتَ سَنَةَ:(٢٥٣هـ).

وَإِنِّي أَرَىٰ أَكْثَرَ النَّاسِ قَدْ حَادُوْا عَنِ الْشَّرِيْعَةِ، وَصَارَ كَلَامُ الْمُتَزَهِّدِيْنَ كَأَنَّهُ شَرِيْعَةٌ لَهُمْ! فَيُقَالُ: قَالَ أَبُوْ طَالِبٍ الْمَكِّيُّ(١): كَانَ مِنَ الْسَّلَفِ مَنْ يَزِنُ قُوْتَهُ بِكَرَبَةٍ(٢)، فَيَنْقُصُ كُلَّ يَوْمٍ!!(٣).

وَهَذَا شَيْءٌ مَا عَرَفَهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وَلَا أَصْحَابُهُ؛ وَإِنَّمَا كَانُوْا يَأْكُلُوْنَ دُوْنَ الْشِّبَعِ؛ فَأَمَّا الحَمْلُ عَلَىٰ النَّفْسِ بِالْجُوْعِ؛ فَمَنْهِيٌّ عَنْهُ.

وَيَقُوْلُ: قَالَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ لِسُفْيَانَ(٤): إِذَا كُنْتَ تَشْرَبُ الْمَاءَ البَارِدَ؛ مَتَىٰ تُحِبُّ الْمَوْتَ؟! وَكَانَ مَاؤُهُ فِي دَنٍّ(٥)!.

وَمَا عَلِمَ أَنَّ لِلْنَّفْسِ حَظًّا، وَأَنَّ شُرْبَ الْمَاءِ الْحَارِّ يُرَهِّلُ الْمَعِدَةَ، وَيُؤْذِي(٦)، وَأَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ كَانَ يُبَرِّدُ الْمَاءَ.

وَيَقُوْلُ آخَرُ مِنْهُم: مُنْذُ خَمْسِيْنَ سَنَةً أَشْتَهِي الشِّوَاءَ(٧)، مَا صَفَا لِي دِرْهَمُهُ!!

وَيَقُوْلُ آخَرُ: أَشْتَهِي أَنْ أَغْمِسَ جَزَرَةً فِي دِبْسٍ(٨)؛ فَمَا صَحَّ لِي!!.

أَتُرَاهُمْ أَرَادُوْا حَبَّةً مُنْذُ خَرَجَتْ مِنَ الْمَعْدِنِ(٩) مَا دَخَلَتْ فِي شُبْهَةٍ؟!

هَذَا شَيْءٌ مَا نَظَرَ فِيْهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ! وَإِنْ كَانَ الوَرَعُ حَسَنًا، وَلَكِنْ لَا عَلَىٰ حَمْلِ الْمَشَاقِّ الْشَّدِيْدَةِ.

---

(١) تقدمت ترجمته في الخاطرة:[١٢٨-٣٦٢].

(٢) الكرب: أصول تبقىٰ في جذع النخلة بعد قطع السّعف. وتُسمَّىٰ: كرانيفُ.

(٣) يُنظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي.(الفصل:٣٩/ ترتيب الأقوات). وراجع كلام ابن الجوزي في:[١٨١-٤٩]

(٤) دَاوُدُ الطَّائِيُّ أَبُو سُلَيْمَانَ بنُ نُصَيْرٍ الإِمَامُ، الزَّاهِدُ، أَحَدُ الأَوْلِيَاءِ. مَاتَ سَنَةَ:[١٦٢هـ أو ١٦٥هـ]. وَالثَّوْرِيُّ في:[٤٤-١١٨].

(٥) الدَّن: إناء أو جرة يوضع فيه الماء ويدفن في الأرض لئلا يبرد.

(٦) رهِل: وَرِمَ وَانتَفَخَ وَاسْتَرخَىٰ. وَمَعنَىٰ : يُرَهِّلُ الْمَعِدَةَ؛ أي: يُصيبها بالاضطراب والاسترخاء.

(٧) الشِّوَاءَ: طعامٌ عُرِّض للنّار فنضجَ فصار مشويًّا صالحًا للأكل.

(٨) دِبْس: عسل التّمر وعصارته.

(٩) أي: المنجم.

وَهَذَا بِشْرٌ الحَافِيّ[١] يَقُوْلُ: لَا أُحدِّثُ؛ لِأنِّي أَشْتَهِي أَنْ أُحَدِّثَ!!. وَهَذَا تَعْلِيْلٌ لا يَصْلُحُ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ مَأْمُوْرٌ بِالنِّكَاحِ، وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْمُشْتَهىٰ.

وَكَانَ بِشْرٌ حَافِيًا، حَتَّىٰ قِيْلَ لَهُ: الحَافِي! وَلَوْ سَتَرَ أَمْرَهُ بِنَعْلَيْنِ؛ كَانَ أَصْلَحَ، وَالحَفَاءُ يُؤْذِي العَيْنَ، وَلَيْسَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا[٢] فِي شَيْءٍ؛ فَقَدْ كَانَ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ نَعْلَانِ[٣].

وَمَا كَانَتْ سِيْرَةُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ عَلَىٰ مَا الْمُتَزَهِّدُوْنَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ؛ فَقَدْ كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ، وَيَمْزَحُ، وَيَخْتَارُ الْمُسْتَحْسَنَاتِ، وَيُسَابِقُ عَائِشَةَ رضي الله عنها، وَكَانَ يَأْكُلُ اللَّحْمَ، وَيُحِبُّ الْحَلْوَىٰ، وَيُسْتَعْذَبُ لَهُ الْمَاءُ، وَعَلَىٰ هَذَا كَانَ طَرِيْقَةُ أَصْحَابِهِ[٤].

فَأَظْهَرَ الْمُتَزَهِّدُوْنَ طَرَائِقَ كَأَنَّهَا ابْتِدَاءُ شَرِيْعَةٍ، وَكُلُّهَا عَلَىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ، وَيَحْتَجُّوْنَ بِقَوْلِ الْمُحَاسِبِيِّ وَالْمَكِّيِّ! وَلا يَحْتَجُّ أَحَدٌ مِنْهُم بِصَحَابِيٍّ وَلَا تَابِعِيٍّ، وَلَا بِإِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ الإِسْلَامِ!! فَإِنْ رَأَوْا عَالِمًا لَبِسَ ثَوْبًا جَمِيْلًا، أَوْ تَزَوَّجَ مُسْتَحْسَنَةً، أَوْ أَفْطَرَ بِالنَّهَارِ، أَوْ ضَحِكَ؛ عَابُوْهُ!!

فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ صَحَّ قَصْدُهُ مِنْهُم عَلَىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ: لِقِلَّةِ عِلْمِهِم، حَتَّىٰ إِنَّ بَعْضَهُم يَقُوْلُ: مُنْذُ ثَمَانِيْنَ سَنَةً مَا اضْطَجَعْتُ! وَيَقُوْلُ آخَرُ: حَلَفْتُ لَا أَشْرَبُ الْمَاءَ سَنَةً[٥]!!. وَهَؤُلَاءِ عَلَىٰ غَيْرِ الصَّوَابِ؛ فَإِنَّ لِلنَّفْسِ حَقًّا.

فَأَمَّا مَنْ سَاءَ قَصْدُهُ، مِمَّنْ نَافَقَ وَرَاءَىٰ لِاجْتِلَابِ الْدُّنْيَا، وَتَقْبِيْلِ الأَيْدِي؛ فَلَا كَلَامَ مَعَهُ، وَهُمْ جُمْهُوْرُ الْمُتَصَوِّفَةِ؛ فَإِنَّهُم رَقَّعُوْا الثِّيَابَ الْمُلَوَّنَةَ؛ لِيَرَاهُمُ النَّاسُ بِعَيْنِ التَّرْكِ لِلزِّيْنَةِ، وَمَا

---

(١) تقدمت ترجمته في الخاطرة رقم:[٢٤-١٧٩].

(٢) ليس من أمر الدُّنيا ولا من أمر الدِّين.

(٣) روىٰ البخاري، ك:«فَرْضِ الخُمُسِ»(٣١٠٧). عَنْ عِيسَىٰ بْنِ طَهْمَانَ، قَالَ: أَخْرَجَ إِلَيْنَا أَنَسٌ بـ«نَعْلَيْنِ جَرْدَاوَيْنِ لَهُمَا قِبَالانِ»، فَحَدَّثَنِي ثَابِتٌ البُنَانِيُّ بَعْدُ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّهُمَا «نَعْلاَ النَّبِيِّ ﷺ». وروىٰ مسلم، ك:«الإِيمَانَ»(٣١). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه وَفِيهِ: فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ» وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ، قَالَ:«اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ».

(٤) تقدَّم التعليق علىٰ هذه الجملة:[كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ، وَيَمْزَحُ،....] في الخاطرة رقم:[٣٦-٩٦]و[٣٧-١٧١].

(٥) أي الماء البارد.

مَعَهُمْ أَحْسَنُ مِنَ السَّقْلَاطُوْن[(١)]؛ وَإِنَّمَا رَقَّعَ القُدَمَاءُ لِلْفَقْرِ. فَهُمْ فِي اللَّذَّاتِ. وَجَمْعِ المَالِ، وَأَخْذِ الشُّبُهَاتِ، وَاسْتِعْمَالِ الرَّاحَةِ وَاللَّعِبِ، وَمُخَالَطَةِ السَّلَاطِيْنِ. وَهَؤُلَاءِ قَدْ كَشَفُوْا القِنَاعَ، وَبَايَنُوْا زُهْدَ أَوَائِلِهِمْ، بَلَىٰ؛ أَعْجَبُ مِنْهُمْ مَنْ يُنْفِقُ هَذَا عَلَيْهِم!

*[١٣٠-٣١٦] [خَاطِرَةٌ]:

[مِنَ الآفَاتِ الظَّاهِرَةِ: التَّشَاغُلُ بِصُوْرَةِ الْعِلْمِ]

رَأَيْتُ أَكْثَرَ العُلَمَاء يَتَشَاغَلُوْنَ بِصُوْرَةِ الْعِلْمِ؛ فَهَمُّ الفَقِيْهِ التَّدْرِيْسُ، وَهَمُّ الْوَاعِظِ الْوَعْظُ.

فَهَذَا يُرَاعِي دَرْسَهُ؛ فَيَفْرَحُ بِكَثْرَةِ مَنْ يَسْمَعُهُ، وَيَقْدَحُ فِي كَلَامِ مَنْ يُخَالِفُهُ، وَيَمْضِي زَمَانُهُ فِي التَّفَكُّرِ فِي المَنَاقَضَاتِ؛ لِيَقْهَرَ مَنْ يُجَادِلُهُ، وَعَيْنُهُ إِلَىٰ التَّصَدُّرِ وَالارْتِفَاعِ فِي المَجَالِسِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ هِمَّتُهُ جَمْعَ الْحُطَامِ وَمُخَالَطَةَ السَّلَاطِيْنِ!.

وَالْوَاعِظُ هِمَّتُهُ مَا يُزَوِّقُ بِهِ كَلَامَهُ، وَيُكَثِّرُ [بِهِ[(٢)]] جَمْعَهُ، وَيَجْلِبُ بِهِ قُلُوْبَ النَّاسِ إِلَىٰ تَعْظِيْمِهِ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُ نَظِيْرٌ فِي شُغْلِهِ؛ أَخَذَ يَطْعَنُ فِيْهِ.

وَهَذِهِ قُلُوْبٌ غَافِلَةٌ عَنِ اللهِ ﷻ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ لَهَا بِهِ مَعْرِفَةٌ، لَاشْتَغَلَتْ بِهِ، وَكَانَ أُنْسُهَا بِمُنَاجَاتِهِ، وَإِيْثَارُهَا لِطَاعَاتِهِ، وَإِقْبَالُهَا عَلَىٰ الخُلْوَةِ بِهِ. لَكِنَّهَا لَمَّا خَلَتْ مِنْ هَذَا؛ تَشَاغَلَتْ بِالدُّنْيَا، وَذَاكَ دُنْيَا مِثْلُهَا؛ فَإِذَا خَلَتْ بِخِدْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ لَمْ تَجِدْ لَهَا طَعْمًا، وَكَانَ جَمْعُ النَّاسِ أَحَبَّ إِلَيْهَا، وَزِيَارَةُ الْخَلْقِ لَهَا آثَرَ عِنْدَهَا، وَهَذِهِ عَلَامَةُ الْخِذْلَانِ.

وَعَلَىٰ ضِدِّ هَذَا؛ مَتَىٰ كَانَ العَالِمُ مُقْبِلًا عَلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ، مَشْغُوْلًا بِطَاعَتِهِ؛ كَانَ أَصْعَبَ الأَشْيَاءِ عِنْدَهُ لِقَاءُ الخَلْقِ وَمُحَادَثَتُهُمْ، وَأَحَبَّ الأَشْيَاءِ إِلَيْهِ الْخَلْوَةُ، وَكَانَ عِنْدَهُ شُغْلٌ عَنِ

(١) جاء في الأصل: [السفلاطون] بالفاء، وهو تصحيف. السَّقْلَاطُونُ: نوع من الملابس الملونة وهو اسم بلد بالروم تُصنع فيه الملابس وتنسب إليه.

(٢) ليست في الأصل وأثبتناها؛ لتمام المعنى بها.

الْقَدْحِ فِي النُّظَرَاءِ[(١)]، أَوْ عَنْ طَلَبِ الرِّئَاسَةِ؛ فَإِنَّ مَا عَلَّقَ بِهِ هِمَّتَهُ مِنَ الآخِرَةِ أَعْلَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ.

وَالنَّفْسُ لا بُدَّ لَهَا مِمَّا تَشَّاغَلُ بِهِ؛ فَمَنِ اشْتَغَلَ لِخِدْمَةِ الْخَلْقِ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ؛ فَإِنَّمَا يُرَبِّي رِئَاسَتَهُ، وَذَٰلِكَ يُوْجِبُ الإِعْرَاضَ عَنِ الْحَقِّ، وَ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[الأحزاب: ٤].

*[١٣١-٣٣٧] [خَاطِرَةٌ]:

[عَاقِبَةُ التَّشَاغُلِ بِصُوْرَةِ العِلْمِ]

رَأَيْتُ أَكْثَرَ العُلَمَاءِ مُشْتَغِلِيْنَ بِصُوْرَةِ العِلْمِ دُوْنَ فَهْمِ حَقِيْقَتِهِ وَمَقْصُوْدِهِ.

فَالقَارِئُ مَشْغُوْلٌ بِالرِّوَايَاتِ، عَاكِفٌ عَلَىٰ الشَّوَاذِّ، يَرَىٰ أَنَّ الْمَقْصُوْدَ نَفْسُ التِّلَاوَةِ، وَلَا يَتَلَمَّحُ عَظَمَةَ الْمُتَكَلِّمِ، وَلَا زَجْرَ القُرْآنِ وَوَعْدَه، وَرُبَّمَا ظَنَّ أَنَّ حِفْظَ القُرْآنِ يَدْفَعُ عَنْهُ؛ فَتَرَاهُ يَتَرَخَّصُ فِي الذُّنُوْبِ، وَلَوْ فَهِمَ؛ لَعَلِمَ أَنَّ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ أَقْوَىٰ مِمَّنْ لَمْ يَقْرَأْ!

وَالْمُحَدِّثُ يَجْمَعُ الطُّرُقَ، وَيَحْفَظُ الأَسَانِيْدَ، وَلَا يَتَأَمَّلُ مَقْصُوْدَ الْمَنْقُوْلِ، وَيَرَىٰ أَنَّهُ قَدْ حَفِظَ عَلَىٰ النَّاسِ الأَحَادِيْثَ؛ فَهُوَ يَرْجُوْ بِذَٰلِكَ السَّلَامَةَ، وَرُبَّمَا تَرَخَّصَ فِي الخَطَايَا؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ مَا فَعَلَ فِي الشَّرِيْعَةِ يَدْفَعُ عَنْهُ!

وَالفَقِيْهُ قَدْ وَقَعَ لَهُ أَنَّهُ بِمَا قَدْ عَرَفَ مِنَ الجِدَالِ، الَّذِي يُقَوِّي بِهِ خِصَامَهُ، أَوْ المَسَائِلِ الَّتِي قَدْ عَرَفَ فِيْهَا المَذْهَبَ: قَدْ حَصَّلَ بِمَا يُفْتِي بِهِ النَّاسَ مَا يَرْفَعُ قَدْرَهُ، وَيَمْحُوْ ذَنْبَهُ؛ فَرُبَّمَا هَجَمَ عَلَىٰ الخَطَايَا؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ ذَٰلِكَ يَدْفَعُ عَنْهُ! وَرُبَّمَا لَمْ يَحْفَظِ القُرْآنَ، وَلَمْ يَعْرِفِ الْحَدِيْثَ، وَأَنَّهُمَا يَنْهَيَانِ عَنِ الْفَوَاحِشِ بِزَجْرٍ وَرِفْقٍ، وَيَنْضَافُ إِلَيْهِ - مَعَ الجَهْلِ بِهِمَا - حُبُّ الرِّئَاسَةِ، وَإِيْثَارُ الغَلَبَةِ فِي الجَدَلِ، فَتَزِيْدُ قَسْوَةُ قَلْبِهِ!

وَعَلَىٰ هَٰذَا أَكْثَرُ النَّاسِ؛ صُوَرُ العِلْمِ عِنْدَهُمْ صِنَاعَةٌ، فَهِيَ تُكْسِبُهُم الكِبْرَ وَالحَمَاقَةَ.

(١) جاء في الصل: [النظر] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

وَقَدْ حَكَىٰ بَعْضُ الْمُعْتَبَرِيْنَ، عَنْ شَيْخٍ أَفْنَىٰ عُمُرَهُ فِي عُلُوْمٍ كَثِيْرَةٍ، أَنَّهُ فُتِنَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ بِفِسْقٍ أَصَرَّ عَلَيْهِ، وَبَارَزَ اللهَ بِهِ، وَكَانَتْ حَالُهُ تُعْطِي بِمَضْمُوْنِهَا: أَنَّ عِلْمِي يَدْفَعُ عَنِّي شَرَّ مَا أَنَا فِيْهِ، وَلَا يَبْقَىٰ لَهُ أَثَرٌ! وَكَانَ كَأَنَّهُ قَدْ قَطَعَ لِنَفْسِهِ بِالنَّجَاةِ؛ فَلَا يَرَىٰ عِنْدَهُ أَثَرٌ لِخَوْفٍ، وَلَا نَدَمٌ عَلَىٰ ذَنْبٍ!! قَالَ: فَتَغَيَّرَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، وَلَازَمَهُ الفَقْرُ؛ فَكَانَ يَلْقَىٰ الشَّدَائِدَ، وَلَا يَنْتَهِي عَنْ قُبْحِ حَالِهِ، إِلَىٰ أَنْ جُمِعَتْ لَهُ يَوْمًا قَرَارِيْطُ[1] عَلَىٰ وَجْهِ الكُدْيَةِ[2]، فَاسْتَحْيَا مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: يَا رَبِّ! إِلَىٰ هَذَا الحَدِّ؟!

قَالَ الحَاكِي: فَتَعَجَّبْتُ مِنْ غَفْلَتِهِ؛ كَيْفَ نَسِيَ اللهَ ﷻ، وَأَرَادَ مِنْهُ حُسْنَ التَّدْبِيْرِ لَهُ، وَالصِّيَانَةَ، وَسَعَةَ الرِّزْقِ؟! وَكَأَنَّهُ مَا سَمِعَ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾[الجن: ١٦]، وَلَا عَلِمَ أَنَّ الْمَعَاصِي تَسُدُّ أَبْوَابَ الرِّزْقِ، وَأَنَّ مَنْ ضَيَّعَ أَمْرَ اللهِ ضَيَّعَهُ اللهُ؟!

فَمَا رَأَيْتُ عِلْمًا مَا أَفَادَ كَعِلْمِ هَذَا؛ لِأَنَّ العَالِمَ إِذَا زَلَّ انْكَسَرَ[3]، وَهَذَا مُصِرٌّ، لَا تُؤْلِمُهُ مَعْصِيَتُهُ، وَكَأَنَّهُ يَجُوْزُ لَهُ مَا يَفْعَلُ، أَوْ كَانَ لَهُ التَّصَرُّفُ فِي الدِّيْنِ تَحْلِيْلًا وَتَحْرِيْمًا، فَمَرِضَ عَاجِلًا، وَمَاتَ عَلَىٰ أَقْبَحِ حَالٍ.

قَالَ الحَاكِي: وَرَأَيْتُ شَيْخًا آخَرَ، حَصَّلَ صُوَرَ عِلْمٍ فَمَا أَفَادَتْهُ؛ كَانَ أَيُّ فِسْقٍ أَمْكَنَهُ، لَمْ يَتَحَاشَ مِنْهُ[4]، وَأَيُّ أَمْرٍ لَمْ يُعْجِبْهُ مِنَ القَدَرِ، عَارَضَهُ بِالاعْتِرَاضِ عَلَىٰ المُقَدِّرِ وَاللَّوْمِ، فَعَاشَ أَكْدَرَ عَيْشٍ[5]، وَعَلَىٰ أَقْبَحِ اعْتِقَادٍ، حَتَّىٰ دَرَجَ[6].

وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَفْهَمُوْا مَعْنَىٰ العِلْمِ، وَلَيْسَ العِلْمُ صُوَرَ الأَلْفَاظِ؛ إِنَّمَا الْمَقْصُوْدُ فَهْمُ الْمُرَادِ مِنْهُ، وَذَاكَ يُوْرِثُ الخَشْيَةَ وَالخَوْفَ، وَيُرِي المِنَّةَ لِلْمُنْعِمِ بِالعِلْمِ، وَقُوَّةَ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَىٰ المُتَعَلِّمِ.

---

(١) القِيرَاطُ: مِقْدَارٌ صَغِيرٌ يَخْتَلِفُ وَزْنُهُ بِاخْتِلَافِ البُلْدَانِ.

(٢) أَكْدَىٰ، أي: أَلَحَّ في المَسْأَلَة. والمعنى: جُمِعَ لَهُ قَرَارِيط عَلَىٰ وَجْهِ الإِلْحَاح وسؤال الناس.

(٣) انْكَسَرَ، أي: خَابَ وَذَلَّ. وفيه تشبيه الانحراف عن الطريق المستقيم بِمَنْ زَلَّت قَدَمُهُ وَزَلِقَت، فلم يَثْبُت.

(٤) أي: لم يهرب منه.

(٥) الكَدَرُ نقيض الصفاء أو خلاف الصَّفْوِ.

(٦) درَج، أي: مات وما ترك نسلًا. وتقول: أكذبُ مَنْ دَبَّ ودرَج، أي: أكذب الأحياءِ والأموات.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً تُفْهِمُنَا الْمَقْصُوْدَ، وَتُعَرِّفُنَا الْمَعْبُوْدَ. وَنَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ سَبِيْلِ رَعَاعٍ يَتَسَمَّوْنَ بِالعُلَمَاءِ؛ لَا يَنْهَاهُم مَا يَحمِلُوْنَ، وَيَعْلَمُوْنَ وَلَا يَعْمَلُوْنَ، وَيَتَكَبَّرُوْنَ عَلَىٰ النَّاسِ بِمَا لَا يَعْمَلُوْنَ، وَيَأْخُذُوْنَ عَرَضَ الأَدْنَىٰ[1]، وَقَدْ نُهُوْا عَمَّا يَأْخُذُوْنَ، غَلَبَتْهُم طِبَاعُهُم، وَمَا رَاضَتْهُم عُلُوْمُهُم الَّتِي يَدْرُسُوْنَ؛ فَهُمْ[2] أَخَسُّ حَالًا مِنَ العَوَامِّ الَّذِيْنَ يَجْهَلُوْنَ، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم:٧].

---

*[١٣٢-٢٧١] [خَاطِرَةٌ]:

[غَلَبَةُ الأَهْوَاءِ عَلَى بَعْضِ الْعُلَمَاءِ]

قَدِمَ عَلَيْنَا بَعْضُ فُقَهَاءَ مِنْ بِلَادِ الأَعَاجِمِ، وَكَانَ قَاضِيًا بِبَلَدِهِ، فَرَأَيْتُ عَلَىٰ دَابَّتِهِ الذَّهَبَ، وَمَعَهُ أَتْوَارُ الفِضَّةِ[3]، وَأَشْيَاءُ كَثِيْرَةٌ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ.

فَقُلْتُ: أَيَّ شَيْءٍ أَفَادَ هَذَا الْعِلْمُ؟! بَلَىٰ وَاللهِ؛ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْهِ الْحُجَجُ.

وَأَكْبَرُ الأَسْبَابِ قِلَّةُ عِلْمِ هَؤُلَاءِ بِسِيْرَةِ السَّلَفِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ! لَا أَنَّهُم يَجْهَلُوْنَ الْجُمْلَةَ؛ وَلَكِنَّهُم يَتَشَاغَلُوْنَ بِعِلْمِ الْخِلَافِ، وَيَقْصِدُوْنَ التَّقَدُّمَ، وَلَا قَصْدِهِم سَمَاعُ حَدِيْثٍ، وَلَا نَظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ، وَيُخَالِطُوْنَ السَّلَاطِيْنَ، فَيَحْتَاجُوْنَ إِلَىٰ التَّزَيِّي بِزِيِّهِم، وَرُبَّمَا خَطَرَ لَهُمْ أَنَّ هَذَا قَرِيْبٌ، وَإِنْ لَمْ يَخْطُرْ لَهُم؛ فَالْهَوَىٰ غَالِبٌ بِلَا صَادٍّ، وَرُبَّمَا خَطَرَ لَهُمْ أَنَّ هَذَا يُحْتَمَلُ، وَيُغْفَرُ فِي جَانِبِ تَشَاغُلِنَا بِالعِلْمِ، ثُمَّ يَرَوْنَ الْعُلَمَاءَ يُكْرِمُوْنَهُم لِنَيْلِ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ، وَلَا يُنْكِرُوْنَ عَلَيْهِم.

---

(١) عَرَضَ الأَدْنَىٰ: العَرَض: متاع الدُّنيا وحُطامها، والأدنىٰ: الشيء الدَّني، والمراد: يأخذون المال أو هذا الشيء الدنيء من حلال وحرام. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩].

(٢) جاء في الأصل:[فهي] ولعله تصحيف. والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٣) التَّوْرُ: من الأواني مذكر، قيل: هو عربي. وقيل: دخيل. وَهُوَ إِنَاء من صُفْر أو حِجَارَة يُشْرَب فِيْهِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ الَّذِيْنَ يَتَسِبُوْنَ إِلَىٰ العِلْمِ مَنْ يَسْتَصْحِبُ الْمُرْدَانَ[١]، وَيَشْتَرِي الْمَمَالِيْكَ[٢]، وَمَا كَانَ يَفْعَلُ هَذَا إِلَّا مَنْ قَدْ يَئِسَ مِنَ الآخِرَةِ. وَرَأَيْتُ مَنْ قَدْ بَلَغَ الثَّمَانِيْنَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَهُوَ عَلَىٰ هَذِهِ الحَالَةِ.

فَاللهَ اللهَ يَا مَنْ يُرِيْدُ حِفْظَ دِيْنِهِ، وَيُوْقِنُ بِالآخِرَةِ! إِيَّاكَ وَالتَّأْوِيْلَاتِ الفَاسِدَةَ، وَالأَهْوَاءَ الغَالِبَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَرَخَّصْتَ بِالدُّخُوْلِ فِي بَعْضِهَا؛ جَرَّكَ الأَمْرُ إِلَىٰ البَاقِي، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَىٰ الخُرُوْجِ لِمَوْضِعِ إِلْفِ الْهَوَىٰ فَاقْبَلْ نُصْحِي، وَاقْنَعْ بِالكِسْرَةِ، وَابْعُدْ عَنْ أَرْبَابِ الدُّنْيَا؛ فَإِذَا ضَجَّ الْهَوَىٰ؛ فَدَعْهُ لِهَذَا، وَرُبَّمَا قَالَ لَكَ: فَالأَمْرُ الفُلَانِي قَرِيْبٌ! فَلَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّهُ - وَلَوْ كَانَ قَرِيْبًا - يَدْعُوْ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَيَصْعُبُ التَّلَافِي.

فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ عَلَىٰ شَظَفِ الْعَيْشِ! وَالْبُعْدَ [الْبُعْدَ][٣] عَنْ أَرْبَابِ الْهَوَىٰ! فَمَا يَتِمُّ دِيْنٌ إِلَّا بِذَلِكَ، وَمَتَىٰ وَقَعَ التَّرَخُّصُ؛ حَمَلَ إِلَىٰ غَيْرِهِ؛ كَالشَّاطِئِ إِلَىٰ اللُّجَّةِ[٤]. وَإِنَّمَا هُوَ طَعَامٌ دُوْنَ طَعَامٍ، وَلِبَاسٌ دُوْنَ لِبَاسٍ، وَوَجْهٌ أَصْبَحُ مِنْ وَجْهٍ. وَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ يَسِيْرَةٌ.

*[١٣٣-١٠٧] [خَاطِرَةٌ]:

[خَيْرُ الأُمُوْرِ الوَسَط]

اعْلَمْ أَنَّ أَصْلَحَ الأُمُوْرِ الاعْتِدَالُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَإِذَا رَأَيْنَا أَرْبَابَ الدُّنْيَا قَدْ غَلَبَتْ آمَالُهُمْ، وَفَسَدَتْ فِي الخَيْرِ أَعْمَالُهُمْ؛ أَمَرْنَاهُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَالْقُبُوْرِ وَالآخِرَةِ.

فَأَمَّا إِذَا كَانَ العَالِمُ لا يَغِيْبُ عَنْ ذِكْرِهِ الْمَوْتُ، وَأَحَادِيْثُ الآخِرَةِ تُقْرَأُ عَلَيْهِ، وَتَجْرِي عَلَىٰ لِسَانِهِ؛ فَتَذْكَارُهُ الْمَوْتَ - زِيَادَةً عَلَىٰ ذَلِكَ - لا يُفِيْدُ إِلَّا انْقِطَاعَهُ بِالْمَرَّةِ.

---

(١) المَرَدُ: نَقاءُ الخدين من الشعر. والأمْرَدُ: الشابُّ الذي بلغَ خروج لِحيته وطَرَّ شاربه ولم تبد لحيته.
(٢) المَمَالِيْكَ: مفرده، مملوك: عبد من الأتراك أو الجراكسة الذين استخدمهم الأيوبيون في الجيش بمصر
(٣) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.
(٤) اللُّجَّة: ماء كثير تصطخب أمواجُه.

بَلْ يَنْبَغِي لِهَذَا العَالِمِ الشَّدِيْدِ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، الكَثِيْرِ الذِّكْرِ لِلآخِرَةِ، أَنْ يُشَاغِلَ نَفْسَهُ عَنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ؛ لِيَمْتَدَّ نَفَسُ أَمَلِهِ قَلِيْلًا، فَيُصَنِّفَ، وَيَعْمَلَ أَعْمَالَ خَيْرٍ، وَيَقْدِرَ عَلَىٰ طَلَبِ وَلَدٍ؛ فَأَمَّا إِذَا لَهِجَ بِذِكْرِ الْمَوْتِ؛ كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ.

أَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَابَقَ عَائِشَةَ ﵂ فَسَبَقَتْهُ، وَسَابَقَهَا فَسَبَقَهَا، وَكَانَ يَمْزَحُ[(١)] وَيُشَاغِلُ نَفْسَهُ؟[(٢)] فَإِنَّ مُطَالَعَةَ الحَقَائِقِ عَلَىٰ التَّحْقِيْقِ تُفْسِدُ الْبَدَنَ، وَتُزْعِجُ النَّفْسَ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: أَنَّهُ سَأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْهِ بَابَ الْخَوْفِ، فَفَتَحَ عَلَيْهِ، فَخَافَ عَلَىٰ عَقْلِهِ، فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يَرُدَّ ذَلِكَ عَنْهُ.

فَتَأَمَّلْ هَذَا الأَصْلَ؛ فَإِنَّهُ لَابُدَّ مِنْ مُغَالَطَةِ النَّفْسِ[(٣)]، وَفِي ذَلِكَ صَلَاحُهَا[(٤)]. وَاللهُ الْمُوَفِّقُ، وَالسَّلَامُ.

* [١٣٤-١٧] [خَاطِرَةٌ]:

[الأخذ بالحزم أولى بالعالِم]

تَأَمَّلْتُ إِقْدَامَ الْعُلَمَاءِ [(٥)] عَلَىٰ شَهَوَاتِ النَّفْسِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا، فَرَأَيْتُهَا مَرْتَبَةً تُزَاحِمُ الْكُفْرَ؛ لَوْلَا تَلَوُّحُ مَعْنًىٰ[(٦)]: وَهُوَ أَنَّ النَّاسَ عِنْدَ مُوَاقَعَةِ الْمَحْظُوْرِ يَنْقَسِمُوْنَ:

فَمِنْهُمْ جَاهِلٌ بِالْمَحْظُوْرِ أَنَّهُ مَحْظُوْرٌ؛ فَهَذَا نَوْعُ عُذْرٍ.

(١) سبق تخرجه في الخاطرة رقم:[٦٦-٩٦].

(٢) شاغلَ اسم فاعل من شغَلَ. وهو ما يملأ فكرَ الشَّخص وعقلَه وقلبَه.

(٣) الغَلَطُ محرَّكةً: أنْ تَعْيا بالشَّيْءِ فلا تَعْرِفَ وَجْهَ الصَّوابِ.

(٤) يُنظر الخاطرة رقم: [٦٦-٩٦]و[٧٧-١٧١].

(٥) في الأصل والمخطوط [بالعقاب].

(٦) لاحَ: ظهر وبدا. تقول: لاح إلى الشَّيءِ: نظر إليه من بعيد.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ الْمَحْظُوْرَ مَكْرُوْهًا لا مُحَرَّمًا؛ فَهَذَا قَرِيْبٌ مِنَ الأَوَّلِ، وَرُبَّمَا دَخَلَ فِي هَذَا القِسْمِ آدَمُ ﷺ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَأَوَّلُ فَيَغْلَطُ؛ كَمَا يُقَالُ: إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ نُهِيَ عَنْ شَجَرَةٍ بِعَيْنِهَا، فَأَكَلَ مِنْ جِنْسِهَا لا مِنْ عَيْنِهَا!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ التَّحْرِيْمَ؛ غَيْرَ أَنَّ غَلَبَاتِ الشَّهْوَةِ أَنْسَتْهُ تَذَكُّرَ ذَاكَ، فَشَغَلَهُ مَا رَأَىٰ عَمَّا يَعْلَمُ، وَلِهَذَا لا يَذْكُرُ السَّارِقُ القَطْعَ؛ بَلْ يَغِيْبُ بِكُلِّيَّتِهِ فِي نَيْلِ الْحَظِّ، وَلا يَذْكُرُ رَاكِبُ الفَاحِشَةِ الفَضِيْحَةَ وَلَا الحَدَّ؛ لِأَنَّ مَا يُرَىٰ يُذْهِلُهُ عَمَّا يُعْلَمُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ الْحَظْرَ، وَيَذْكُرُهُ؛ [غَيْرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ سَعَةَ الْعَفْوِ وَعُمُوْمِ الْمُسَامَحَةِ؛ فَيَجْعَلُ فِي نَفْسِهِ التَّوْبَةَ وَإِنْ قَدَّمَ الْمَعْصِيَةَ؛ كَمَا قَالَ إِخْوَةُ يُوْسُفَ: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾[يوسف:٩]. فَهَذَا مُخَاطِرٌ.

وَرُبَّمَا اِسْتُنْقِذَ بِالتَّوْبَةِ(١)؛ لِأَنَّهُ رَأَىٰ عَفو الكَرِيْم أَعْظَم مِنْ ذَنْبِهِ](٢)؛ غَيْرَ أَنَّ الأَخْذَ بِالْحَزْمِ أَوْلَىٰ بِالْعَاقِلِ.

---

(١) اِسْتُنْقِذَ: نَجَا وَخَلُصَ وَتَحَرَّرَ مِنَ المَعصِيَةِ بِالتَّوبَةِ؛ لِأَنَّهُ رَأَىٰ عَفو الكَرِيْم أَعْظَم مِنْ ذَنْبِهِ. وَفِي هَذَا إِشَارَة إِلَىٰ مَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا - وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ، فَاغْفِرْهُ؟ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ - أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ - آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ». البخاري، كِ:«التَّوْحِيدِ»(٧٥٠٧). ومسلم، كِ:«التَّوْبَةِ»(٢٧٥٨). قَالَ المُنْذِرِيّ فِي «التَّرغِيْب والتَّرهِيْب»(ج٤/ ص١٢٣/ ح٤٥٨٢): «قوله: «فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»، مَعْنَاهُ -: أَنَّهُ مَا دَامَ كُلَّمَا أَذْنَب ذَنْبًا اِسْتَغْفَر وَتَابَ مِنْهُ، وَلَم يَعُد إِلَيْهِ، بِدَلِيْل قَوله: «ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا» - فَلْيَعْمَل إِذَا كَانَ هَذَا دَأْبُهُ. مَا شَاءَ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا أَذْنَبَ كَانَت تَوْبَته وَاسْتِغْفَاره كَفَّارَة لِذَنْبِه، فَلَا يَضُره. لَا أَنَّهُ يُذْنِب الذَّنْب، فَيَسْتَغْفِر مِنْهُ بِلِسَانِهِ مِنْ غَيْرِ إِقْلَاعٍ ثُمَّ يُعَاوِده، فَإِنَّ هَذِه تَوْبَة الكَذَّابِيْن»اهـ. وَلَكِن كَمَا قَالَ اِبْن الجَوْزِي هُنَا: «غَيْرَ أَنَّ الأَخْذَ بِالْحَزْمِ أَوْلَىٰ بِالْعَاقِلِ».

(٢) ليست في الأصل، وأثبتناها من مخطوط (ي).

كَيْفَ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ هَذَا المَلِكَ الْحَكِيْمَ قَطَعَ الْيَدَ فِي رُبُعِ دِيْنَارٍ[1].

(١) روى البخاري، كِ:«الحُدُودِ»(٦٧٨٩، ٦٧٩٠، ٦٧٩١).عَنْ عَائِشَةَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«تُقْطَعُ اليَدُ فِي رُبُعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا» وفي رواية:«تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ فِي رُبُعِ دِينَارٍ». * وَالثَّلَاثَةُ دَرَاهِمَ هِيَ مِقْدَارُ رُبُعِ دِينَارٍ؛ فقد روى البخاري، كِ:«الحُدُودِ» (٦٧٩٥). ومسلم، كِ:«الْحُدُودِ»(١٦٨٦). عَنِ ابْنِ عُمَرَ:«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَطَعَ سَارِقًا فِي مِجَنٍّ قِيمَتُهُ - ثَمَنُهُ - ثَلَاثَةُ دَرَاهِمَ» يَقُوْلُ ابْنُ القَيِّمِ في «إِعْلَامِ المُوَقِّعِيْنَ»(ج٢/ ص٤٨-):«وَأَمَّا قَطْعُ الْيَدِ فِي رُبُعِ دِينَارٍ وَجَعْلُ دِيَتِهَا خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ فَمِنْ أَعْظَمِ الْمَصَالِحِ وَالْحِكْمَةِ؛ فَإِنَّهُ احْتَاطَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلْأَمْوَالِ وَالْأَطْرَافِ، فَقَطَعَهَا فِي رُبُعِ دِينَارٍ حِفْظًا لِلْأَمْوَالِ، وَجَعَلَ دِيَتَهَا خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ حِفْظًا لَهَا وَصِيَانَةً، وَقَدْ أَوْرَدَ بَعْضُ الزَّنَادِقَةِ هَذَا السُّؤَالَ، فَقَالَ:

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينٍ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ
تَنَاقُضٌ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ ... وَنَسْتَجِيرُ بِمَوْلَانَا مِنَ الْعَارِ

* فَأَجَابَهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بِأَنَّهَا كَانَتْ ثَمِينَةً لَمَّا كَانَتْ أَمِينَةً، فَلَمَّا خَانَتْ هَانَتْ، وَضَمَّنَهُ النَّاظِمُ قَوْلَهُ:

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِي مِنْ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... لَكِنَّهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ
حِمَايَةُ الدَّمِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا ... خِيَانَةُ الْمَالِ فَانْظُرْ حِكْمَةَ الْبَارِي

* وَأَجَابَ شَمْسُ الدِّينِ الْكُرْدِيُّ بِقَوْلِهِ:

قُلْ لِلْمَعَرِّيِّ عَارٌ أَيُّمَا عَارِ ... جَهْلُ الْفَتَى وَهُوَ عَنْ ثَوْبِ التُّقَى عَارِ
لَا تَقْدَحَنَّ زِنَادَ الشِّعْرِ عَنْ حِكَمٍ ... شَعَائِرُ الشَّرْعِ لَمْ تُقْدَحْ بِأَشْعَارِ
فَقِيمَةُ الْيَدِ نِصْفُ الْأَلْفِ مِنْ ذَهَبٍ ... فَإِنْ تَعَدَّتْ فَلَا تَسْوَى بِدِينَارِ

* وَأَمَّا تَخْصِيصُ الْقَطْعِ بِهَذَا الْقَدْرِ فَلِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مِقْدَارٍ يُجْعَلُ ضَابِطًا لِوُجُوبِ الْقَطْعِ؛ إذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: يُقْطَعُ بِسَرِقَةِ فِلْسٍ أَوْ حَبَّةِ حِنْطَةٍ أَوْ تَمْرَةٍ، وَلَا تَأْتِي الشَّرِيعَةُ بِهَذَا، وَتُنَزَّهُ حِكْمَةُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ وَإِحْسَانُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَلَا بُدَّ مِنْ ضَابِطٍ، وَكَانَتْ الثَّلَاثَةُ دَرَاهِمَ أَوَّلَ مَرَاتِبِ الْجَمْعِ، وَهِيَ مِقْدَارُ رُبُعِ دِينَارٍ، وَقَالَ إبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ التَّابِعِينَ: كَانُوا لَا يَقْطَعُونَ فِي الشَّيْءِ التَّافِهِ؛ فَإِنَّ عَادَةَ النَّاسِ التَّسَامُحُ فِي الشَّيْءِ الْحَقِيرِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، إذْ لَا يَلْحَقُهُمْ ضَرَرٌ بِفَقْدِهِ.

* وَفِي التَّقْدِيرِ بِثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ حِكْمَةٌ ظَاهِرَةٌ؛ فَإِنَّهَا كِفَايَةُ الْمُقْتَصِدِ فِي يَوْمِهِ لَهُ وَلِمَنْ يَمُونُهُ غَالِبًا، وَقُوتُ الْيَوْمِ لِلرَّجُلِ وَأَهْلِهِ لَهُ خَطَرٌ عِنْدَ غَالِبِ النَّاسِ؛ وَفِي الْأَثَرِ الْمَعْرُوفِ: «مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا»»اهـ

وَهَدَمَ بِنَاءَ الْجِسْمِ الْمُحْكَمِ بِالرَّجْمِ بِالْحِجَارَةِ لِالتِذَاذِ سَاعَةٍ[1]، وَخَسَفَ، وَمَسَخَ، وَأَغْرَقَ ... ؟!

---

(١) إِشَارَة إِلَىٰ حَدّ زِنَا المُحصَن. يَقُولُ الأُسْتَاذ مُصْطَفَىٰ صَادِق الرَّافِعِيّ فِي «وَحي القَلَم»(ج٣/ ص١٣٣): «لِمَاذَا أَوْجَبَت الشَّرِيْعَة الرَّجم بِالحِجَارَة عَلَىٰ المُحْصَن؟ أَهِيَ تُرِيْد القَتْل وَالتَّعْذِيب وَالمُثْلَة؟ كَلَّا، فَإِنَّ القَتْل مُمْكِن بِغَيْرِ هَذَا وَبِأَشَدّ مِنْ هَذَا، وَلَكِنَّهَا الحِكْمَة السَّامِيَة العَجِيبَة: إِنَّ هَذَا الفَاسِق هَدَمَ بَيْتًا فَهُوَ يُرجَم بِحِجَارَتِهِ! كُلّ الأَحْجَار يَجِبُ أَنْ تَنْتَقِمَ لِحَجَرِ دَارِ الأُسْرَةِ إِذَا انهَدَمَ» اهـ

(١٢)

[أشرفُ العُلُومِ ، وَمَا يَنبَغِي عَلَى طَالِبِ العِلْمِ]

*[١٣٥ - ٢٢٧][خَاطِرَةٌ]:

[أشرفُ العُلُومِ أنفعُها]

قَدْ ثَبَتَ بِالدَّلِيْلِ شَرَفُ الْعِلْمِ وَفَضْلُهُ؛ إِلَّا أَنَّ طُلَّابَ الْعِلْمِ افْتَرَقُوْا؛ فَكُلٌّ تَدْعُوْهُ نَفْسُهُ إِلَىٰ شَيْءٍ:

فَمِنْهُمْ مَنْ أَذْهَبَ عُمُرَهُ فِي القِرَاءَاتِ، وَذَاكَ تَفْرِيْطٌ فِي العُمُرِ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَىٰ المَشْهُوْرِ مِنْهَا لَا عَلَىٰ الشَّاذِّ، وَمَا أَقْبَحَ القَارِئَ يَسْأَلُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِي الفِقْهِ، وَهُوَ لَا يَدْرِي! وَلَيْسَ مَا شَغَلَهُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا كَثْرَةُ الطُّرُقِ فِي رِوَايَاتِ الْقِرَاءَاتِ!!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَشَاغَلُ بِالنَّحْوِ وَعِلَلِهِ فَحَسْبُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَشَاغَلُ بِاللُّغَةِ فَحَسْبُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْتُبُ الْحَدِيْثِ، وَيُكْثِرُ، وَلا يَنْظُرُ فِي فَهْمِ مَا كَتَبَ.

وَقَدْ رَأَيْنَا فِي مَشَايِخِنَا المُحَدِّثِيْنَ مَنْ كَانَ يُسْأَلُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِي الصَّلَاةِ؛ فَلَا يَدْرِي مَا يَقُوْلُ! وَكَذَلِكَ القُرَّاءُ! وَكَذَلِكَ أَهْلُ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ![١].

وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عِيْسَىٰ الفَقِيْهُ؛ قَالَ: حَدَّثَنِي اِبْنُ الْمَنْصُوْرِي؛ قَالَ: حَضَرْنَا مَعَ أَبِي مُحَمَّد بْنِ الْخَشَّابِ[٢]، - وَكَانَ إِمَامَ النَّاسِ فِي النَّحْوِ وَاللُّغَةِ -، فَتَذَاكَرُوْا الفِقْهَ، فَقَالَ:

(١) القراءات: أوجه قراءة القرآن التي رواها القرّاء في الحروف أو في كيفيّتها من تخفيف أو تشديد وغيرهما. أمّا اللُّغَة: فهي أصواتٌ يعبّر بها كُلُّ قومٍ عن أغراضهم. وعلم اللُّغَة: علم يدرس أوضاع الأصوات والألفاظ والتراكيب وأنظمتها. وَأمّا النَّحو: علمٌ يُعرف به أحوال أواخر الكلام إعرابًا وبناءً.

(٢) ابنُ الخَشَّابِ أبو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ بنِ البَغْدَادِيُّ، الشَّيْخُ، الإمَامُ، العَلاَّمَةُ، المُحَدِّثُ، مَاتَ سَنَةَ:(٥٦٧هـ).

سَلُوْنِي عَمَّا شِئْتُم! فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنْ قِيْلَ لَنَا: رَفْعُ اليَدَيْنِ فِي الصَّلَاةِ؛ مَا هُوَ؟ فَمَاذَا نَقُوْلُ؟ فَقَالَ: هُوَ رُكْنٌ! فَدُهِشَتِ الْجَمَاعَةُ مِنْ قِلَّةِ فِقْهِهِ.

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ طَرَفًا، ثُمَّ يَهْتَمَّ بِالفِقْهِ، ثُمَّ يَنْظُرَ فِي مَقْصُوْدِ العُلُوْمِ، وَهُوَ المُعَامَلَةُ للهِ سُبْحَانَهُ، وَالمَعْرِفَةُ بِهِ، وَالحُبُّ لَهُ.

وَمَا أَبْلَهَ مَنْ يَقْطَعُ عُمُرَهُ فِي مَعْرِفَةِ عِلْمِ النُّجُوْمِ[١]! وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ مِنْ ذَلِكَ الْيَسِيرَ[٢] وَالمَنَازِلَ لِعِلْمِ الأَوْقَاتِ[٣]؛ فَأَمَّا النَّظَرُ فِيْمَا يُدَّعَىٰ أَنَّهُ القَضَاءُ وَالحُكْمُ[٤]؛ فَجَهْلٌ مَحْضٌ؛ لِأَنَّهُ لَا سَبِيْلَ إِلَىٰ عِلْمِ ذَلِكَ حَقِيْقَةً، وَقَدْ جُرِّبَ فَبَانَ جَهْلُ مُدَّعِيْهِ، وَقَدْ تَقَعُ الإِصَابَةُ فِي وَقْتٍ، وَعَلَىٰ تَقْدِيْرِ الإِصَابَةِ! لَا فَائِدَةَ فِيْهِ إِلَّا تَعْجِيْلُ الغَمِّ! فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: يُمْكِنُ دَفْعُ ذَلِكَ؛ فَقَدْ سَلَّمَ أَنَّهُ لا حَقِيْقَةَ لَهُ!

وَأَبْلَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَشَاغَلُ بِعِلْمِ الكِيمِيَاءِ[٥]؛ فَإِنَّهُ هَذَيَانٌ فَارِغٌ، وَإِذَا كَانَ لَا يُتَصَوَّرُ قَلْبُ الذَّهَبِ نُحَاسًا، لَمْ يُتَصَوَّرْ قَلْبُ النُّحَاسِ ذَهَبًا؛ فَإِنَّمَا فَاعِلُ هَذَا مُسْتَحِلٌّ لِلتَّدْلِيْسِ عَلَىٰ النَّاسِ فِي النُّقُوْدِ. هَذَا إِذَا صَحَّ لَهُ مُرَادُهُ!

وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يُصَحِّحَ قَصْدَهُ؛ إِذْ فُقْدَانُ الإِخْلَاصِ يَمْنَعُ قَبُوْلَ الأَعْمَالِ! وَلْيَجْتَهِدْ فِي مُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ، وَالنَّظَرِ فِي الأَقْوَالِ المُخْتَلِفَةِ، وَتَحْصِيْلِ الْكُتُبِ؛ فَلَا يَخْلُوْ

---

(١) علم النُّجوم: علم يدرس أحوال النجوم وطرق سيرها في سبيل ضبط المواقيت والأنواء.

(٢) جاء في الأصل:[التَّـسْيِيْرَ] ولعله تصحيف.

(٣) منازل القَمَر: المدارات التي يدور فيها القمرُ حول الأرض، وهي ثمانية وعشرون: السَّرطان والبُطين ....

(٤) يعني: تعلم علم النجوم لمعرفة ما سيقع من القضاء والقدر؛ فهذا هو الجهل المحض، والدجل الذي لا أصل له؛ فهو يصيب ويخطئ، فإذا أصاب؛ فما استفاد المرء إلا تعجيل معرفة المصيبة.

(٥) علم الكيمياء في عصر المصنف هو تحويل المعدن الخسيس إلىٰ معدن نفيس؛ ولذلك تجده يذم هذا العلم ويصفه بالهذيان؛ لما فيه من التلبيس علىٰ الناس وأكل أموالهم بالباطل. أمّا في عصرنا فعلم الكيمْيَاء: هو علم يتناول دراسة خواصّ العناصر والمركّبات والقوانين التي تحكم تفاعلاتها، وبخاصّة عند اتحاد بعضها ببعض، أو تخليص بعضها من بعض. وهي أنواع: الكيمياء النَّوويّة، الحيويّة، العضويّة، الضَّوئيّة، الكَهْرُبَائِيَة... وغيرها.

كِتَابٌ مِنْ فَائِدَةٍ! وَلْيَجْعَلْ هِمَّتَهُ لِلْحِفْظِ، وَلَا يَنْظُرْ، وَلَا يَكْتُبْ إِلَّا وَقْتَ التَّعَبِ مِنَ الْحِفْظِ! وَلْيَحْذَرْ صُحْبَةَ السُّلْطَانِ! وَلْيَنْظُرْ فِي مِنْهَاجِ الرَّسُوْلِ ﷺ وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ! وَلْيَجْتَهِدْ فِي رِيَاضَةِ نَفْسِهِ، وَالعَمَلِ بِعِلْمِهِ! وَمَنْ تَوَلَّاهُ الْحَقُّ؛ وَفَّقَهُ.

*[١٣٦ - ١٧٦] [خَاطِرَةٌ]:

[اللُّغَة مَنطِق العَرَب]

اعْلَمْ أَنَّ اللهَ ﷻ وَضَعَ فِي النُّفُوْسِ أَشْيَاءَ لَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ دَلِيْلٍ؛ فَالنُّفُوْسُ تَعْلَمُهَا ضَرُوْرَةً، وَأَكْثَرُ الخَلْقِ لَا يُحْسِنُوْنَ التَّعْبِيْرَ عَنْهَا.

فَإِنَّهُ وَضَعَ فِي النُّفُوْسِ أَنَّ الْمَصْنُوْعَ لَابُدَّ لَهُ مِنْ صَانِعٍ، وَأَنَّ الْمَبْنِيَّ لَابُدَّ لَهُ مِنْ بَانٍ، وَأَنَّ الاثْنَيْنِ أَكْثَرُ مِنَ الْوَاحِدِ، وَأَنَّ الْجِسْمَ الوَاحِدَ لَا يَكُوْنُ فِي مَكَانَيْنِ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، وَمِثْلُ هَٰذِهِ الأَشْيَاءِ لَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ دَلِيْلٍ.

وَأَلْهَمَ الْعَرَبَ النُّطْقَ بِالصَّوَابِ مِنْ غَيْرِ لَحْنٍ[١]؛ فَهُمْ يُفَرِّقُوْنَ بَيْنَ الْمَرْفُوْعِ وَالْمَنْصُوْبِ بِأَمَارَاتٍ فِي جِبِلَّتِهِمْ[٢]، وَإِنْ عَجَزُوْا عَنِ النُّطْقِ بِالْعِلَّةِ[٣].

قَالَ عُثْمَانُ بْنُ جِنِّيٍّ[٤]: سَأَلْتُ يَوْمًا أَبَا عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَسَّافٍ الْعُقَيْلِيَّ[٥] فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ تَقُوْلُ: «ضَرَبْتُ أَخُوْكَ»؟ فَقَالَ: أَقُوْلُ: «ضَرَبْتُ أَخَاكَ». فَأَدَرْتُهُ عَلَى الرَّفْعِ؛ فَأَبَىٰ، وَقَالَ: لَا أَقُوْلُ: «أَخُوْكَ» أَبَدًا! قُلْتُ: فَكَيْفَ تَقُوْلُ: «ضَرَبَنِي أَخُوْكَ»؟ فَرَفَعَ، فَقُلْتُ: أَلَيْسَ زَعَمْتَ أَنَّكَ لَا

---

(١) اللَّحْنِ: خطأ في الإعراب ومخالفة وجه الصواب.

(٢) الجِبِلَّة: الخِلْقَة، والطبيعة.

(٣) المقصود بالعلة: السَّبب.

(٤) أَبُو الفَتْحِ عُثْمَانُ بنُ جِنِّي المَوْصِلِيُّ إِمَامُ العَرَبِيَّةِ، صَاحِبُ التَّصَانِيفِ. مَاتَ سَنَةَ: (٣٩٢هـ).

(٥) مُحَمَّدَ بْنَ العَسَّافِ الْعُقَيْلِيِّ التَّمِيمِي، أَخَذَ عَنْهُ ابْنِ جِنِّي اللُّغَةَ وَكَانَ يَثِقُ بِهِ، وَقَد يَذْكُره بِاسْم أَبِي عَبْدِ اللهِ الشَّجَرِيّ، وَيَقُوْلُ: قَلَّمَا رَأَيْتُ بَدَوِيَّ أَفْصَحَ مِنْهُ. وَابْنُ جِنِّي لَا يَأْخذ عَنْ بَدَوِيٍّ إِلَّا بَعْد أَنْ يَمْتَحِنَه وَيَتَثَبَّت مِنْهُ.

تَقُوْلُ: «أَخُوْكَ» أَبَدًا. فَقَالَ: إِيْشٍ هَذَا؟! اِخْتَلَفَتْ جِهَتَا الكَلَامِ[(١)]! وَهَذَا أَدَلُّ شَيْءٍ عَلَىٰ تَأَمُّلِهِم مَوَاقِعَ الكَلَامِ، وَإِعْطَائِهِمْ إِيَّاهُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ حَقَّهُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ اسْتِرْسَالًا وَلَا تَرْخِيْمًا.

قَالَ عُثْمَانُ: وَاللُّغَةُ هِيَ أَصْوَاتٌ، يُعَبِّرُ بِهَا كُلُّ قَوْمٍ عَنْ أَغْرَاضِهِم، وَالنَّحْوُ انْتِحَاءُ سَمْتِ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي تَصَرُّفِهِ؛ مِنْ إِعْرَابٍ وَغَيْرِهِ؛ كَالتَّثْنِيَةِ، وَالْجَمْعِ، وَالتَّحْقِيْرِ[(٢)]، وَالتَّكْسِيْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِيَلْحَقَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ أَهْلَهَا.

*[١٣٧ - ٣٣٣] [خَاطِرَةٌ]:

[الفِقْهُ هُوَ أَعْظَمُ الْعُلُوْمِ وَأَهَمُّهَا]

هَذَا فَصْلٌ عَزِيْزُ الفَائِدَةِ: اِعْلَمْ أَنَّهُ لَوِ اتَّسَعَ الْعُمُرُ؛ لَمْ أَمْنَعْ مِنَ الإِيْغَالِ فِي كُلِّ عِلْمٍ إِلَىٰ مُنْتَهَاهُ؛ غَيْرَ أَنَّ الْعُمُرَ قَصِيْرٌ، وَالْعِلْمَ كَثِيْرٌ.

فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنَ القِرَاءَاتِ إِذَا حَفِظَ القُرْآنَ عَلَىٰ العَشْرِ، وَمِنَ الْحَدِيْثِ عَلَىٰ الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالمَسَانِيْدِ المُصَنَّفَةِ؛ فَإِنَّ عُلُوْمَ الْحَدِيْثِ قَدِ انْبَسَطَتْ زَائِدَةً فِي الحَدِّ، وَمَا فِي هَذَا الجُزْءِ[(٣)]، وَإِنَّمَا الطُّرُقُ تَخْتَلِفُ. وَعِلْمُ الْحَدِيْثِ يَتَعَلَّقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَهُوَ مُشْتَهَىٰ، وَالفُقَهَاءُ يُسَمُّوْنَهُ عِلْمَ الكُسَالَىٰ؛ لِأَنَّهُم يَتَشَاغَلُوْنَ بِكِتَابَتِهِ وَسَمَاعِهِ، وَلَا يَكَادُوْنَ يُعَانُوْنَ حِفْظَهُ، وَيَفُوْتُهُم الْمُهِمُّ، وَهُوَ الفِقْهُ.

وَقَدْ كَانَ الْمُحَدِّثُوْنَ قَدِيْمًا هُمُ الْفُقَهَاءِ، ثُمَّ صَارَ الفُقَهَاءُ لا يَعْرِفُوْنَ الْحَدِيْثَ، وَالْمُحَدِّثُوْنَ لا يَعْرِفُوْنَ الفِقْهَ!!

فَمَنْ كَانَ ذَا هِمَّةٍ، وَنَصَحَ نَفْسَهُ؛ تَشَاغَلَ بِالمُهِمِّ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ، وَجَعَلَ جُلَّ شُغْلِهِ الفِقْهَ؛ فَهُوَ أَعْظَمُ الْعُلُوْمِ، وَأَهَمُّهَا.

---

(١) ينظر: الخصائص لابن جني.(ج/١ ص٧٦، ٧٨، ٢٤٠، ٢٥٠)].

(٢) التَّحْقِيْرِ؛ أي: التَّصغير، وهو زيادة ياء ساكنة بعد ثاني الاسم المعرب مع تغيير هيئته.

(٣) أي: وما في هذا الجزء من المتون الصحيحة المحصورة في عدد قليل، وإنما الكثرة والاختلاف في الطرق.

وَقَدْ قَالَ أَبُوْ زُرْعَةَ[١]: كَتَبَ إِلَيَّ أَبُوْ ثَوْرٍ[٢]: فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيْثَ قَدْ رَوَاهُ ثَمَانِيَةٌ وَتِسْعُوْنَ رَجُلًا عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وَالَّذِي صَحَّ مِنْهُ طُرُقٌ يَسِيرَةٌ. فَالتَّشَاغُلُ بِغَيْرِ مَا صَحَّ يَمْنَعُ التَّشَاغُلَ بِمَا هُوَ أَهَمُّ.

وَلَوِ اتَّسَعَ الْعُمُرُ؛ كَانَ اسْتِيْفَاءُ كُلِّ الطُّرُقِ فِي كُلِّ الأَحَادِيْثِ غَايَةً فِي الجَوْدَةِ؛ وَلَكِنَّ الْعُمُرَ قَصِيرٌ.

وَلَمَّا تَشَاغَلَ بِالطُّرُقِ مِثْلُ يَحْيَىٰ بْنِ مَعِيْنٍ[٣]؛ فَاتَهُ مِنَ الْفِقْهِ كَثِيْرٌ، حَتَّىٰ إِنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْحَائِضِ: أَيَجُوْزُ أَنْ تُغَسِّلَ الْمَوْتَىٰ؟ فَلَمْ يَعْلَمْ، حَتَّىٰ جَاءَ أَبُوْ ثَوْرٍ، فَقَالَ: يَجُوْزُ؛ لِأَنَّ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «كُنْتُ أُرَجِّلُ رَأْسَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَأَنَا حَائِضٌ[٤]»[٥]. فَيَحْيَىٰ أَعْلَمُ بِالْحَدِيْثِ مِنْهُ، وَلَكِنْ لَمْ يَتَشَاغَلْ بِفَهْمِهِ.

فَأَنَا أَنْهَىٰ أَهْلَ الْحَدِيْثِ أَنْ تَشْغَلَهُمْ كَثْرَةُ الطُّرُقِ. وَمِنْ أَقْبَحِ الأَشْيَاءِ أَنْ تَجْرِيَ حَادِثَةٌ، يُسْأَلُ عَنْهَا شَيْخٌ قَدْ كَتَبَ الْحَدِيْثَ سِتِّيْنَ سَنَةً؛ فَلَا يَعْرِفُ حُكْمَ اللهِ ﷻ فِيْهَا!

وَكَذَلِكَ أَنْهَىٰ مَنْ يَتَشَاغَلُ بِالتَّزَهُّدِ وَالانْقِطَاعِ عَنِ النَّاسِ أَنْ يُعْرِضَ عَنِ الْعِلْمِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَ لِنَفْسِهِ مِنْهُ حَظًّا؛ لِيَعْلَمَ إِنْ زَلَّ كَيْفَ يَتَخَلَّصُ.

*[١٣٨ - ١١٠] [خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ أَرَادَ عِزَّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ فَعَلَيْهِ بِالْفِقْهِ]

أَعْظَمُ دَلِيْلٍ عَلَىٰ فَضِيْلَةِ الشَّيْءِ النَّظَرُ إِلَىٰ ثَمَرَتِهِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ ثَمَرَةَ الْفِقْهِ؛ عَلِمَ أَنَّهُ أَفْضَلُ

---

(١) أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ عُبَيْدُ اللهِ بنُ عَبْدِ الكَرِيْمِ بنِ يَزِيْدَ بنِ فَرُّوْخٍ (٢٠٠-٢٦٤هـ) الإِمَامُ، سَيِّدُ الحُفَّاظِ، كَانَ إِمَامًا رَبَّانِيًّا.

(٢) أَبُو ثَوْرٍ إِبْرَاهِيْمُ بنُ خَالِدٍ، البَغْدَادِيُّ، الفَقِيْهُ. الإِمَامُ، الحَافِظُ، الحُجَّةُ، المُجْتَهِدُ، مُفْتِي العِرَاقِ، مَاتَ سَنَةَ: (٢٤٠هـ).

(٣) يَحْيَىٰ بنُ مَعِيْنِ بنِ عَوْنِ بنِ زِيَادِ بنِ بِسْطَامَ. أَبُو زَكَرِيَّا الإِمَامُ، الحَافِظُ، الجِهْبَذُ، شَيْخُ المُحَدِّثِيْنَ، تُوفي سنة: (٢٣٣).

(٤) رواه البخاري، كِتَابُ «الحَيْضِ» (٢٩٥). ومسلم، كِتَابُ «الْحَيْضِ» (٢٩٧).

(٥) ذَكَرَ هَذِهِ القِصَّةَ الرَّامَهُرْمُزِيُّ في كتاب «الْمُحَدِّثُ الْفَاصِلُ بَيْنَ الرَّاوِي وَالْوَاعِي» (ص٢٤٩) وفي سندها مجهول.

العُلُوْم. فَإِنَّ أَرْبَابَ المَذَاهِبِ فَاقُوْا بِالفِقْهِ الخَلَائِقَ أَبَدًا، وَإِنْ كَانَ فِي زَمَنِ أَحَدِهِمْ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ بِالقُرْآنِ أَوْ بِالحَدِيْثِ أَوْ بِاللُّغَةِ.

وَاعْتَبِرْ هَذَا بِأَهْلِ زَمَانِنَا؛ فَإِنَّكَ تَرَىٰ الشَّابَّ يَعْرِفُ مَسَائِلَ الْخِلَافِ الظَّاهِرَةَ، فَيَسْتَغْنِي، وَيَعْرِفُ مِنْ حُكْمِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الحَوَادِثِ مَا لَا يَعْرِفُهُ النِّحْرِيْرُ[1] مِنْ بَاقِي العُلَمَاءِ! وَكَمْ رَأَيْنَا مُبَرِّزًا[2] فِي عِلْمِ القُرْآنِ، أَوْ فِي الحَدِيْثِ، أَوْ فِي التَّفْسِيْرِ، أَوْ فِي اللُّغَةِ لَا يَعْرِفُ - مَعَ الشَّيْخُوْخَةِ - مُعْظَمَ أَحْكَامِ الشَّرْعِ، وَرُبَّمَا جَهِلَ عِلْمَ مَا يَنْوِيْهِ فِي صَلَاتِهِ!

عَلَىٰ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْفَقِيْهِ أَلَّا يَكُوْنَ أَجْنَبِيًّا عَنْ بَاقِي العُلُوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكُوْنُ فَقِيْهًا، بَلْ يَأْخُذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِحَظٍّ[3]، ثُمَّ يَتَوَفَّرُ عَلَىٰ الفِقْهِ؛ فَإِنَّهُ عِزُّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

*[١٣٩ - ٢١٨] [خَاطِرَةٌ]:

[عِلْمُ الحَدِيثِ هُوَ الشَّرِيعَةُ]

عِلْمُ الْحَدِيْثِ هُوَ الشَّرِيْعَةُ؛ لِأَنَّهُ مُبَيِّنٌ لِلْقُرْآنِ، وَمُوَضِّحٌ لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَكَاشِفٌ عَنْ سِيَرِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَسِيَرِ أَصْحَابِهِ.

وَقَدْ مَزَجُوْهُ بِالْكَذِبِ[4]، وَأَدْخَلُوْا فِي المَنْقُوْلَاتِ كُلَّ قَبِيْحٍ. فَإِذَا وُفِّقَ الزَّاهِدُ وَالوَاعِظُ؛ لَمْ يَذْكُرْ إِلَّا مَا شَهِدَا بِصِحَّتِهِ. وَإِنْ حُرِمَا التَّوْفِيْقَ؛ عَمِلَ الزَّاهِدُ بِكُلِّ حَدِيْثٍ يَسْمَعُهُ؛ لِحُسْنِ ظَنِّهِ

(١) النِّحْرِيْرُ: جمعها، نَحَارِيرُ وهو: الفَطِن، العالمُ الحاذق في علمه.

(٢) برَّزَ يبرِّز، تَبريزًا، فهو مُبرِّز، تقول: برَّز الشَّخصُ: فاق أصحابَه علمًا أو فضلًا أو شجاعةً.

(٣) وَفِي هَذَا الخَيْرُ كُلُّه؛ كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ رحمه الله: «يَا رَبِيعُ، رِضَىٰ النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ، فَعَلَيْكَ بِمَا يُصْلِحُكَ فَالْزَمْهُ. فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ رِضَاهُمْ. وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ جَلَّ فِي عُيونِ النَّاسِ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الحَدِيثَ قَوِيَتْ حُجَّتُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ النَّحْوَ هِيبَ، وَمَنْ تَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ رَقَّ طَبْعُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الحِسَابَ جَلَّ رَأْيُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الفِقْهَ نَبُلَ قَدْرُهُ، وَمَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ وَمِلَاكُ ذَلِكَ كُلِّهِ التَّقْوَىٰ». [يُنظر: «النجم الوهاج» (١/ ٢٠٦)، «الحلية» (٩/ ١٢٣)].

(٤) المَزْجُ: الخَلْطُ؛ أي: أن بعض الجهلة من الزهاد والوعاظ خلطوا حديث رسول الله ﷺ بالكذب والافتراء.

بِالرُّوَاةِ! وَقَالَ الْوَاعِظُ كُلَّ شَيْءٍ يَرَاهُ؛ لِجَهْلِهِ بِالتَّصْحِيحِ! فَفَسَدَتْ أَحْوَالُ الزَّاهِدِ، وَانْحَرَفَ عَنْ جَادَّةِ الْهُدَىٰ، وَهُوَ لا يعلم.

وَكَيْفَ لا، وَعُمُومُ الأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ الزُّهْدِ لا تَثْبُتُ؟!

مِثْلُ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ؛ اشْتَهَىٰ شَهْوَةً، فَرَدَّ شَهْوَتَهُ، وَآثَرَ عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ غُفِرَ لَهُ». وَهَذَا حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ[١]، يَمْنَعُ الإِنْسَانَ مَا أُبِيحَ لَهُ، مِمَّا يَتَقَوَّىٰ بِهِ عَلَىٰ الطَّاعَةِ.

وَمِثْلُ قَوْلِهِ: «مَنْ وَضَعَ ثِيَابًا حِسَانًا ... »[٢].

وَكَذَلِكَ مَا رَوَوْا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُدِّمَ لَهُ أُدْمَانِ[٣]، فَقَالَ: «أُدْمَانِ فِي قَدَحٍ؟! لا حَاجَةَ لِي فِيهِ، أَكْرَهُ أَنْ يَسْأَلَنِي اللهُ عَنْ فُضُولِ الدُّنْيَا»[٤].

وَفِي «الصَّحِيحِ»[٥]: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَكَلَ الْبِطِّيخَ بِالرُّطَبِ»[٦].

وَمِثْلُ هَذَا إِذَا تُتُبِّعَ كَثِيرٌ[٧]! فَقَدْ بَنَوْا عَلَىٰ فَسَادِهِ، فَفَسَدَتْ أَحْوَالُ الْوَاعِظِ وَالْمَوْعُوظِ؛ لِأَنَّهُ يَبْنِي كَلَامَهُ عَلَىٰ أَشْيَاءَ فَاسِدَةٍ وَمُحَالَاتٍ.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» كتاب «الزهد»(ج٣/ ص٣٢٥) والشوكاني في «الفوائد المجموعة» كتاب «الأدب والزهد»(ص٢٣٩/ ح٦٦) وقال: «رواه الدارقطني عن ابن عمر مرفوعا، وهو موضوع.

(٢) أظن أن ابن الجوزي ضرب بهذا مثالا للحديث المكذوب علىٰ رسول الله ﷺ.

(٣) الإِدَام والأُدْم: ما يُستمرأ به الخبز أو ما يُؤكَلُ مع الخُبْزِ أيّ شيء كان.

(٤) رواه الطبراني في «الأوسط»(٤٨٩٤) وقال: «لَمْ يَرْوِ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ إِلَّا نُعَيْمُ بْنُ مُوَرِّعٍ، تَفَرَّدَ بِهِ: أَحْمَدُ بْنُ سُهَيْلٍ الْوَرَّاقُ » وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» كتاب «الأطعمة»(ج٢/ ص٢٩٠).

(٥) ليس في «الصحيحين» وثبت عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ رضي الله عنهما قَالَ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَأْكُلُ الرُّطَبَ بِالْقِثَّاءِ» البخاري، ك: «الأَطْعِمَةِ»(٥٤٤٠). ومسلم، ك: «الأَشْرِبَةِ»(٢٠٤٣). و(الرُّطَبِ) ثمر النخل إذا أدرك ونضج قبل أن يصير تمرا. و(القِثَّاءِ) قيل: هو الخيار، وقيل: نوع خاص يشبهه.

(٦) رواه أبو داود، ك: «الأطعمة»(٣٨٣٦). والترمذي، ك: «الأطعمة»(١٨٤٣).

(٧) هَيَّأَ اللهُ تَعَالَىٰ لِلسُّنَّةِ جَهَابِذَةً مِنَ الْمُحَدِّثِينَ، فَنَفَوْا عَنْهَا كُلَّ دَخِيلٍ، وهناك كتب كثيرة جمعت الأحاديث الموضوعة منها: «الموضوعات» لابن الجوزي. و«الفوائد المجموعة» للشوكاني. و«اللآلئ المصنوعة وذيله» للسيوطي.

وَلَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَزَهِّدِيْنَ، يَعْمَلُوْنَ عَلَىٰ أَحَادِيْثَ وَمَنْقُوْلَاتٍ لَا تَصِحُّ، فَيَضِيْعُ زَمَانُهُمْ فِي غَيْرِ الْمَشْرُوْعِ، ثُمَّ يُنْكِرُوْنَ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ اسْتِعْمَالَهُمْ لِلْمُبَاحَاتِ، وَيَرَوْنَ أَنَّ التَّجَفُّفَ[1] هُوَ الدِّيْنُ!

وَكَذَلِكَ الْوُعَّاظُ يُحَدِّثُوْنَ النَّاسَ بِمَا لَا يَصِحُّ عَنِ الرَّسُوْلِ ﷺ وَلَا أَصْحَابِهِ؛ فَقَدْ صَارَ الْمُحَالُ عِنْدَهُمْ شَرِيْعَةً.

فَسُبْحَانَ مَنْ حَفِظَ هَذِهِ الشَّرِيْعَةَ بِأَخْبَارِ أَخْيَارٍ، يَنْفُوْنَ عَنْهَا تَحْرِيْفَ الغَالِيْنَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِيْنَ!

*[١٤٠ - ١٧٥] [خَاطِرَةٌ]:

[مُنَاظَرَةٌ حَوْلَ عَدَدِ الأَحَادِيْث]

جَرَىٰ بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَدِ أَصْحَابِ الْحَدِيْثِ كَلَامٌ فِي قَوْلِ الإِمَامِ أَحْمَدَ: «صَحَّ مِنَ الْحَدِيْثِ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ سَبْعُ مِئَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ». فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّمَا يَعْنِي بِهِ الطُّرُقَ. فَقَالَ: لَا، بَلِ الْمُتُوْنَ! فَقُلْتُ: هَذَا بَعِيْدُ التَّصَوُّرِ.

ثُمَّ رَأَيْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ الْحَاكِمِ[2] كَلَامًا يَنْصُرُ مَا قَالَ ذَلِكَ الشَّخْصُ، وَهُوَ أَنَّهُ قَالَ فِي كِتَابِ «الْمَدْخَلِ إِلَىٰ كِتَابِ الإِكْلِيْلِ»[3]: «كَيْفَ يَجُوْزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ حَدِيْثَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ لَا يَبْلُغُ عَشَرَةَ آلَافِ حَدِيْثٍ؛ وَقَدْ رَوَىٰ عَنْهُ مِنْ أَصْحَابِهِ أَرْبَعَةُ آلَافِ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، صَحِبُوْهُ نَيِّفًا وَعِشْرِيْنَ سَنَةً بِمَكَّةَ، ثُمَّ بِالْمَدِيْنَةَ، حَفِظُوْا أَقْوَالَهُ، وَأَفْعَالَهُ، وَنَوْمَهُ، وَيَقَظَتَهُ، وَحَرَكَاتِهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، سِوَىٰ مَا حَفِظُوْا مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيْعَةِ؟!»[4].

---

(١) التَّجَفُّفَ: ما جف وخشن من الطعام. والجَفِيفُ ما يَبِس من النبت.

(٢) الحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ النَّيْسَابُوْرِيُّ، الشَّافِعِيُّ، الحَافِظُ، شَيْخُ المُحَدِّثِيْنَ، مَاتَ سَنَةَ: (٤٠٥هـ).

(٣) صَنَّفَهُ لأَبِي عَلِيٍّ بنِ سَيْمَجُور. وَهُوَ كِتَاب فِي أَيَّامِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَزواجِه وَأَحَادِيثِه.

(٤) يُراجع: «المدخل إلىٰ كتاب الإكليل» للحاكم النيسابوري. (ص٣٤).

واحتج بقول أحمد: «صَحَّ مِنَ الْحَدِيْثِ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ سَبْعُ مِئَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ وَكَسْرٌ»، وَأَنَّ إِسْحَاقَ بْنَ رَاهَوَيْهِ[١] «كَانَ يُمْلِي سَبْعِيْنَ أَلْفَ حَدِيْثٍ حِفْظًا»، وَأَنَّ أَبَا الْعَبَّاسِ بْنَ عُقْدَةَ[٢] قَالَ: «أَحْفَظُ لِأَهْلِ الْبَيْتِ ثَلَاثَ مِئَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ». قَالَ ابْنُ عُقْدَةَ: «وَظَهَرَ لِابْنِ كُرَيْبٍ[٣] بِالْكُوْفَةِ ثَلَاثُ مِئَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ».

قُلْتُ: وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُشَارَ بِهَذَا إِلَىٰ الْمُتُوْنِ.

وَقَدْ عَجِبْتُ كَيْفَ خَفِيَ هَذَا عَلَىٰ الحَاكِمِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ أَجْمَعَ الْمَسَانِيْدِ الظَّاهِرَةِ «مُسْنَدُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ»[٤]، وَقَدْ طَافَ الدُّنْيَا مَرَّتَيْنِ حَتَّىٰ حَصَّلَهُ، وَهُوَ أَرْبَعُوْنَ أَلْفَ حَدِيْثٍ، مِنْهَا عَشَرَةُ آلَافٍ مُكَرَّرَةٌ.

قَالَ حَنْبَلُ بْنُ إِسْحَاقَ[٥]: «جَمَعَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَنَا وَصَالِح وَعَبْدَ اللهِ[٦]، وَقَرَأَ عَلَيْنَا «الْمُسْنَدَ»، وَقَالَ لَنَا: هَذَا كِتَابٌ جَمَعْتُهُ مِنْ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِ مِئَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِيْنَ أَلْفًا، فَمَا اخْتَلَفَ الْمُسْلِمُوْنَ فِيْهِ مِنْ حَدِيْثِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ؛ فَارْجِعُوْا إِلَيْهِ؛ فَإِنْ وَجَدْتُمُوْهُ، وَإِلَّا؛ فَلَيْسَ بِحُجَّةٍ»[٧].

---

(١) إِسْحَاقُ بنُ رَاهَوَيْه أَبُو يَعْقُوبَ الإِمَامُ الكَبِيْرُ، شَيْخُ المَشْرِقِ، سَيِّدُ الحُفَّاظِ، تُوُفِّيَ سَنَةَ: (٢٣٨هـ).

(٢) أَبُو العَبَّاسِ ابْنُ عُقْدَةَ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدٍ الهَمْدَانِيِ، الحَافِظ، أَحد أَعلاَم الحَدِيْث وَنَادِرَةُ الزَّمَان، مَاتَ سَنَةَ: (٣٣٢هـ).

(٣) أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بنُ العَلاَءِ بنِ كُرَيْبٍ الهَمْدَانِيُّ الكُوْفِيُّ الحَافِظُ، الثِّقَةُ، الإِمَامُ شَيْخُ المُحَدِّثِيْنَ مَاتَ سَنَةَ: (٢٤٨هـ).

(٤) كِتَاب (المُسْنَد) لَمْ يصنِّفه هُوَ، وَلاَ رتَّبه، وَلاَ اعتنَى بتَهْذِيْبه، بَلْ كَانَ يَرْوِيْهِ لوَلَده نُسَخًا وَأَجزَاءً، وَيَأْمره: أَن ضَعْ هَذَا فِي مُسْنَدِ فُلاَن، وَهَذَا فِي مُسْنَد فُلاَن. وَلِعَبْدِ اللهِ زِيَادَات كَثِيْرَة فِي (مُسند) وَالده وَاضِحَةٌ عَنْ عَوَالِي شُيوخه.

(٥) حَنْبَلُ بنُ إِسْحَاقَ بنِ حَنْبَلِ بنِ هِلاَلٍ أَبُو عَلِيٍّ الشَّيْبَانِيُّ الحَافِظُ ابْنُ عَمِّ الإِمَامِ أَحْمَدَ، وَتِلْمِيْذُهُ، مَاتَ سَنَةَ: (٢٧٣هـ).

(٦) صَالِحُ بنُ أَحْمَدَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ حَنْبَلٍ أَبُو الفَضْلِ الشَّيْبَانِيُّ الإِمَامُ، المُحَدِّثُ، هُوَ أَكبرُ إِخوَتِهِ مَاتَ سَنَةَ: (٢٧٥هـ). وَعَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ حَنْبَلٍ الشَّيْبَانِيُّ أَبُو عبد الرَّحْمَن الإِمَام، الحَافِظ، النَّاقِد، مَاتَ سَنَةَ: (٢٩٠هـ).

(٧) قَالَ الذَّهَبِيّ فِي «السِّيَر»: «فِي (الصَّحِيْحَيْنِ) أَحَادِيْثُ قَلِيْلَةٌ لَيْسَتْ فِي (المُسْنَدِ). لَكِنْ قَدْ يُقَالُ: لاَ تَرِدُ عَلَىٰ قَوْلِهِ، =

أَفَتَرَىٰ يَخْفَىٰ عَلَىٰ مُتَيَقِّظٍ أَنَّهُ أَرَادَ بِكَوْنِهِ جَمَعَهُ مِنْ سَبْعِ مِئَةِ أَلْفٍ أَنَّهُ أَرَادَ الطُّرُقَ؟! لِأَنَّ السَّبْعَ مِئَةِ الأَلْفِ إِنْ كَانَتْ مِنْ كَلَامِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ؛ فَكَيْفَ أَهْمَلَهَا؟!

فَإِنْ قِيْلَ: فَقَدْ أَخْرَجَ فِي «مُسْنَدِهِ» أَشْيَاءَ ضَعِيْفَةً[1].

ثُمَّ أَعُوْذُ بِاللهِ أَنْ يَكُوْنَ سَبْعُ مِئَةِ أَلْفٍ مَا تَحَقَّقَ مِنْهَا سِوَىٰ ثَلَاثِيْنَ أَلْفًا!

وَكَيْفَ ضَاعَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ؟! وَلِمَ أُهْمِلَتْ، وَقَدْ وَصَلَتْ كُلُّهَا إِلَىٰ زَمَنِ أَحْمَدَ، فَانْتَقَىٰ مِنْهَا، وَرَمَىٰ البَاقِي؟! وَأَصْحَابُ الْحَدِيْثِ قَدْ كَتَبُوْا كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْمَوْضُوْعِ وَالْكَذِبِ.

وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُوْ دَاوُدَ[2]: جَمَعْتُ كِتَابَ «السُّنَنِ» مِنْ سِتِّ مِئَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ.

وَلا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الصَّحَابَةَ الَّذِيْنَ رَوَوْهَا مَاتُوْا، وَلَمْ يُحَدِّثُوْا بِهَا التَّابِعِيْنَ؛ فَإِنَّ الأَمْرَ قَدْ وَصَلَ إِلَىٰ أَحْمَدَ، فَأَحْصَىٰ سَبْعَ مِئَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ، وَمَا كَانَ الأَمْرُ لِيَذْهَبَ هَكَذَا عَاجِلًا!

وَمَعْلُوْمٌ أَنَّهُ لَوْ جُمِعَ الصَّحِيْحُ وَالْمُحَالُ الْمَوْضُوْعُ وَكُلُّ مَنْقُوْلٍ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ؛ مَا بَلَغَ خَمْسِيْنَ أَلْفًا! فَأَيْنَ البَاقِي؟!

وَلا يَجُوْزُ أَنْ يُقَالَ: تِلْكَ الأَحَادِيْثُ كَلَامُ التَّابِعِيْنَ؛ فَإِنَّ الْفُقَهَاءَ نَقَلُوْا مَذَاهِبَ الْقَوْمِ، وَدَوَّنُوْهَا، وَأَخَذُوْا بِهَا، وَلَا وَجْهَ لِتَرْكِهَا!

فَفَهِمَ كُلُّ ذِي لُبٍّ أَنَّ الإِشَارَةَ إِلَىٰ الطُّرُقِ، وَأَنَّ مَا تَوَهَّمَهُ الْحَاكِمُ فَاسِدٌ، وَلَوْ عُرِضَ هَذَا الاعْتِرَاضُ عَلَيْهِ، وَقِيْلَ لَهُ: فَأَيْنَ البَاقِي؟! لَمْ يَكُنْ لَهُ جَوَابٌ. لَكِنَّ الْفَهْمَ عَزِيْزٌ، وَاللهُ الْمُنْعِمُ بِالتَّوْفِيْقِ.

= فَإِنَّ الْمُسْلِمِيْنَ مَا اخْتَلَفُوا فِيْهَا، ثُمَّ مَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ: أَنَّ مَا وُجِدَ فِيْهِ أَنْ يَكُوْنَ حُجَّةً، فَفِيْهِ جُمْلَةٌ مِنَ الأَحَادِيْثِ الضَّعِيفَةِ مِمَّا يَسُوغُ نَقْلُهَا، وَلاَ يَجِبُ الاحْتِجَاجُ بِهَا، وَفِيْهِ أَحَادِيْثُ مَعْدُوْدَةٌ شِبْهُ مَوْضُوْعَةٍ، وَلَكِنَّهَا قَطْرَةٌ فِي بَحرٍ».

(١) يَعْنِي: فَإِنْ قِيْلَ: إِنَّهَا مِنْ كَلَامِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وَلَكِن أَهْمَلَهَا؛ لِأَنَّهَا لَم تَصِحّ، قُلْنَا: فَقَدْ أَخْرَجَ فِي مُسْنَدِهِ أَشْيَاءَ ضَعِيفَةً.

(٢) أَبُو دَاوُدَ سُلَيْمَانُ بنُ الأَشْعَثِ بنِ شَدَّادٍ الإِمَامُ، شَيْخُ السُّنَّةِ مُقَدَّمُ الحُفَّاظِ، أَبُو دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيُّ، مَاتَ سَنَةَ: (٢٧٥هـ).

وَمِثْلُ هَذَا تَغْفِيْلُ قَوْمٍ قَالُوْا: إِنَّ الْبُخَارِيَّ لَمْ يُخَرِّجْ كُلَّ مَا صَحَّ عِنْدَهُ، وَإِنَّ مَا أَخْرَجَ كَالأُنْمُوْذَجِ؛ وَإِلَّا فَكَانَ يَطُوْلُ. وَقَدْ ذَهَبَ إِلَىٰ نَحْوِ هَذَا أَبُوْ بَكْرٍ الإِسْمَاعِيْلِيُّ[1]، وَحَكَىٰ عَنِ الْبُخَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «مَا تَرَكْتُ مِنَ الصَّحِيْحِ أَكْثَرُ»، وَإِنَّمَا يَعْنِي الطُّرُقَ.

يَدُلُّ عَلَىٰ مَا قُلْتُهُ أَنَّ الدَّارَقُطْنِيَّ[2] - وَهُوَ سَيِّدُ الْحُفَّاظِ - جَمَعَ مَا يَلْزَمُ الْبُخَارِيَّ وَمُسْلِمًا[3] إِخْرَاجُهُ، [فَبَلَغَ][4] مَا لَمْ يَذْكُرَاهُ أَحَادِيْثَ يَسِيْرَةً، وَلَوْ كَانَ كَمَا قَالُوْا؛ لأَخْرَجَ مُجَلَّدَاتٍ.

ثُمَّ قَوْلُهُ: «مَا يَلْزَمُ الْبُخَارِيَّ»: دَلِيْلٌ صَرِيْحٌ عَلَىٰ مَا قُلْتُهُ؛ لِأَنَّهُ مَنْ أَخْرَجَ الأُنْمُوْذَجَ؛ لَا يَلْزَمُهُ شَيْءٌ.

وَكَذَلِكَ أَخْرَجَ أَبُوْ عَبْدِ اللهِ الحَاكِمُ كِتَابًا جَمَعَ فِيْهِ مَا يَلْزَمُ الْبُخَارِيَّ إِخْرَاجُهُ[5]، فَذَكَرَ حَدِيْثَ الطَّائِرِ[6]، فَلَمْ يَلْتَفِتِ الْحُفَّاظُ إِلَىٰ مَا قَالَهُ.

---

(١) أَبُو بَكْرٍ الإِسْمَاعِيلِيُّ أَحْمَدُ بنُ إِبْرَاهِيمَ بنِ إِسْمَاعِيْلَ الجُرْجَانِيُّ الشَّافِعِيُّ، الحَافِظُ، الحجَّةُ، مَاتَ سنَةَ: (٣٧١هـ).

(٢) الدَّارَقُطْنِيُّ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ عُمَرَ، المُحَدِّثُ الإِمَامُ، انْتَهَىٰ إِلَيْهِ الحِفْظُ وَمَعْرِفَةُ عِلَلِ الحَدِيْثِ مَاتَ سَنَةَ: (٣٨٥هـ).

(٣) وَهُوَ كِتَاب: «الإِلْزَامَات عَلَىٰ الصَّحِيْحَيْن» جُزْءٌ صَغِير، ذَكَرَ فِيْهِ الأَحَادِيْث الَّتِي يَرَىٰ أَنَّهَا صَحِيْحَة عَلَىٰ شَرط الشَّيْخَان أَوْ أَحدهمَا، أَو يُمَاثِل شَرطهمَا وَلَيْسَت فِي صَحِيْحَيْهِمَا، وَبَلَغَت الأَحَادِيث نَحو: (٧٠) حَدِيْثًا. وَقَدْ أَوْرَدَ بَعْض الأَحَادِيْثَ مُدَّعِيًا أَنَّهَا عَلَىٰ شَرطِ الشَّيْخَيْن، وَلَيْسَت كَذَلِكَ، وَطُبِعَ بِعُنْوَان: «الإِلْزَامَات وَالتَّتَبُّع».

(٤) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٥) وَهُوَ كِتَاب: «الجَامِع الصَّحِيْح المُسْتَدْرَك» وَالمَشْهُور بـ«الْمُسْتَدْرَكِ عَلَىٰ الصَّحِيْحَيْن» وَقَدْ اِهْتَمَّ بِدِرَاسَة الكِتَاب جَمْع مِنْ أَهْل العِلْم مِنْهُم الذَّهَبِيّ وَابْن حَجَرٍ وَالسُّيُوطِيّ. قَالَ الذَّهَبِيّ تَعْلِيْقًا عَلَىٰ حَدِيْثِ الطَّائِر: «وَلَقَدْ كُنْتُ زَمَنًا طَوِيْلًا أَظُنّ أَنَّ حَدِيْث الطَّيْر لَم يَجْسُر الحَاكِم أَنْ يُودَعَهُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، فَلَمَّا عَلَّقْتُ هَذَا الكِتَاب رَأَيْتُ الهَوْلَ مِنَ الْمَوْضُوْعَات الَّتِي فِيْه، فَإِذَا حَدِيْث الطَّيْر بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا سَمَاء» [«المُسْتَدْرَك» كِتَابُ «مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ» (٤٦٥٠)، «المطَالِبُ العَالِيَةُ» لِابْن حَجَر. (ج١٦/ ص١١٤)، «الانْتِبَاه لِمَا قَالَ الحَاكِم» محمد بن محمود بن إبراهيم عطية].

(٦) رواه الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ» (٤٦٥٠، ٤٦٥١). عَنْ ثَابِت الْبُنَانِيِّ، أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه كَانَ شَاكِيًا، فَأَتَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَجَّاجِ يَعُودُهُ فِي أَصْحَابٍ لَهُ، فَجَرَىٰ الْحَدِيثُ حَتَّىٰ ذَكَرُوا عَلِيًّا رضي الله عنه فَتَنَقَّصَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَجَّاجِ، فَقَالَ أَنَسٌ: مَنْ هَذَا؟ أَقْعِدُونِي فَأَقْعَدُوهُ، فَقَالَ: يَا ابْنَ الْحَجَّاجِ، أَلا أَرَاكَ تَنْقُصُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَالَّذِي
=

فَمَا أَقَلَّ فَهْمَ هَؤُلَاءِ الَّذِيْنَ شَغَلَهُمْ نَقْلُ الْحَدِيْثِ عَنِ التَّدْقِيْقِ، الَّذِي لَا يَلْزَمُ فِي صِحَّةِ الْحَدِيْثِ. وَإِنَّمَا وَقَعَ لِقِلَّةِ الْفِقْهِ وَالفَهْمِ.

إِنَّ الْبُخَارِيَّ وَمُسْلِمًا(١) تَرَكَا أَحَادِيْثَ أَقْوَامٍ ثِقَاتٍ؛ لِأَنَّهُم خُوْلِفُوْا فِي الحَدِيْثِ، فَنَقَصَ الأَكْثَرُوْنَ مِنَ الْحَدِيْثِ وَزَادُوْا، وَلَوْ كَانَ ثَمَّ فِقْهٌ؛ لَعَلِمُوْا أَنَّ الزِّيَادَةَ مِنَ الثِّقَةِ مَقْبُوْلَةٌ! وَتَرَكُوْا أَحَادِيْثَ أَقْوَامٍ؛ لِأَنَّهُم انْفَرَدُوْا بِالرِّوَايَةِ عَنْ شَخْصٍ، وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ انْفِرَادَ الثِّقَةِ لَا عَيْبَ فِيْهِ! وَتَرَكُوْا مِنْ ذَلِكَ الْغَرَائِبَ. وَكُلُّ ذَلِكَ سُوْءُ فَهْمٍ. وَلِهَذَا لَمْ يَلْتَزِمِ الْفُقَهَاءُ هَذَا، وَقَالُوا: الزِّيَادَةُ مِنَ الثِّقَةِ مَقْبُوْلَةٌ(٢)، وَلَا يُقْبَلُ القَدْحُ حَتَّى يُبَيِّنَ سَبَبُهُ.

وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُخَالِطِ الْفُقَهَاءَ وَجَهَدَ مَعَ الْمُحَدِّثِيْنَ؛ تَأَذَّى، وَسَاءَ فَهْمُهُ!!(٣).

فَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِالْحَالَتَيْنِ.

= بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، لَقَدْ كُنْتُ خَادِمَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ يَخْدُمُ بَيْنَ يَدِي رَسُولِ اللهِ ﷺ غُلَامٌ مِنْ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ، فَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمِي فَجَاءَتْ أُمُّ أَيْمَنَ مَوْلَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِطَيْرٍ فَوَضَعَتْهُ بَيْنَ يَدِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أُمَّ أَيْمَنَ مَا هَذَا الطَّائِرُ؟» قَالَتْ: هَذَا الطَّائِرُ أَصَبْتُهُ فَصَنَعْتُهُ لَكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ جِئْنِي بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إِلَيْكَ وَإِلَيَّ يَأْكُلُ مَعِي مِنْ هَذَا الطَّائِرِ» وَضَرَبَ الْبَابَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أَنَسُ انْظُرْ مَنْ عَلَى الْبَابِ»، قُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ فَذَهَبْتُ، فَإِذَا عَلِيٌّ بِالْبَابِ، قُلْتُ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى حَاجَةٍ فَجِئْتُ حَتَّى قُمْتُ مِنْ مَقَامِي فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ ضَرَبَ الْبَابَ، فَقَالَ: «يَا أَنَسُ، انْظُرْ مَنْ عَلَى الْبَابِ» فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَذَهَبْتُ فَإِذَا عَلِيٌّ بِالْبَابِ، قُلْتُ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى حَاجَةٍ، فَجِئْتُ حَتَّى قُمْتُ مَقَامِي، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ ضَرَبَ الْبَابَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أَنَسُ اذْهَبْ فَأَدْخِلْهُ، فَلَسْتَ بِأَوَّلِ رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمَهُ لَيْسَ هُوَ مِنَ الأَنْصَارِ»، فَذَهَبْتُ فَأَدْخَلْتُهُ، فَقَالَ: «يَا أَنَسُ قَرِّبْ إِلَيْهِ الطَّيْرَ»، قَالَ: فَوَضَعْتُهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَكَلَا جَمِيعًا، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَجَّاجِ: يَا أَنَسُ، كَانَ هَذَا بِمَحْضَرٍ مِنْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «أُعْطِي بِاللهِ عَهْدًا أَلَّا أَنْتَقِصَ عَلِيًّا بَعْدَ مَقَامِي هَذَا، وَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا يَنْتَقِصُهُ إِلَّا أَشْنَبَ لَهُ وَجْهَهُ». وَيُرْوَى هَذَا الحَدِيثُ مِنْ وُجُوهٍ بَاطِلَةٍ، أَوْ مُظْلِمَةٍ، مُخْتَلَقَةٍ وَمُفْتَعَلَة. يُرَاجَع: «مختصرُ استدرَاك الذَّهبي على المُستدرَك» لابن الملقن.

(١) الْبُخَارِيُّ هُوَ: أَبُو عَبْدِ اللهِ الْبُخَارِيُّ مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيلَ بنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُغِيرَةِ. تُوُفِّيَ سَنَةَ: (٢٥٦هـ). وَأَمَّا مُسْلِمًا فَهُوَ: مُسْلِمُ أَبُو الحُسَيْنِ بنُ الحَجَّاجِ بنِ مُسْلِمٍ القُشَيْرِيُّ الإِمَامُ، الحَافِظُ، المُجَوِّدُ، الحُجَّةُ، تُوُفِّيَ سَنَةَ (٢٦١هـ).

(٢) زِيَادَةُ الثِّقَاتِ إِنَّمَا تُقْبَلُ عَلَى المُعْتَمَدِ إِذَا لَمْ تَكُنْ مُنَافِيَةً لِمَا رَوَاهُ الثِّقَاتُ وَإِلَّا كَانَتْ مَعْلُوْلَةً.

(٣) يُراجع كلام ابن الجوزي في الخَاطِرة رقم: [١٣٦-٣٣٣] حَتَّى يُفهم كلامه هنا، وأنَّه ليس قدحًا في المُحدثين. حيث قال: وَقَدْ كَانَ الْمُحَدِّثُوْنَ قَدِيْمًا هُمُ الْفُقَهَاءِ، ثُمَّ صَارَ الْفُقَهَاءُ لَا يَعْرِفُوْنَ الحَدِيْثَ، وَالْمُحَدِّثُوْنَ لَا يَعْرِفُوْنَ الفِقْهَ!!.

*[١٤١ - ٢١٩] [خَاطِرَةٌ]:

[هَلْ فِي مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ مَا لَيْسَ بِصَحِيْحٍ؟]

كَانَ قَدْ سَأَلَنِي بَعْضُ أَصْحَابِ الْحَدِيْثِ: هَلْ فِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ» مَا لَيْسَ بِصَحِيْحٍ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ.

فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَىٰ جَمَاعَةٍ يُنْسَبُوْنَ إِلَىٰ المَذْهَبِ! فَحَمَلْتُ أَمْرَهُمْ عَلَىٰ أَنَّهُم عَوَامٌّ، وَأَهْمَلْتُ فِكْرَ ذَلِكَ. وَإِذَا بِهِمْ قَدْ كَتَبُوْا فَتَاوَىٰ، فَكَتَبَ فِيْهَا جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ، - مِنْهُمْ أَبُو العَلَاءِ الْهَمْذَانِيُّ[١] - يُعْظِمُوْنَ هَذَا القَوْلَ، وَيَرُدُّوْنَهُ، وَيُقَبِّحُوْنَ قَوْلَ مَنْ قَالَهُ!

فَبَقِيْتُ دَهِشًا مُتَعَجِّبًا، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَا عَجَبًا! صَارَ الْمُتَنَسِبُوْنَ إِلَىٰ العِلْمِ عَامَّةً أَيْضًا! وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُمْ سَمِعُوْا الحَدِيْثَ، وَلَمْ يَبْحَثُوْا عَنْ صَحِيْحِهِ وَسَقِيْمِهِ، وَظَنُّوْا أَنَّ مَنْ قَالَ مَا قُلْتُهُ تَعَرَّضَ لِلطَّعْنِ فِيْمَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ!

فَإِنَّ الإِمَامَ أَحْمَدَ رَوَىٰ المَشْهُوْرَ وَالْجَيِّدَ وَالرَّدِيْءَ، ثُمَّ هُوَ قَدْ رَدَّ كَثِيْرًا مِمَّا رَوَىٰ، وَلَمْ يَقُلْ بِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مَذْهَبًا لَهُ. أَلَيْسَ هُوَ القَائِلُ فِي حَدِيْثِ الْوُضُوْءِ بِالنَّبِيْذِ[٢]: مَجْهُوْلٌ؟!

وَمَنْ نَظَرَ فِي «كِتَابِ الْعِلَلِ» الَّذِي صَنَّفَهُ أَبُوْ بَكْرٍ الْخَلَّالُ[٣]؛ رَأَىٰ أَحَادِيْثَ كَثِيْرَةً، كُلُّهَا فِي «المُسْنَدِ»، وَقَدْ طَعَنَ فِيْهَا أَحْمَدُ.

وَنَقَلْتُ مِنْ خَطِّ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَىٰ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ الْفَرَّاءِ[٤] فِي مَسْأَلَةِ النَّبِيْذِ؛ قَالَ: إِنَّمَا رَوَىٰ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» مَا اشْتَهَرَ، وَلَمْ يَقْصِدِ الصَّحِيْحَ وَلَا السَّقِيْمَ.

---

(١) أَبُو العَلَاءِ الهَمْذَانِيُّ الحَسَنُ بنُ أَحْمَدَ بنِ الحَسَنِ، الإِمَامُ، الحَافِظُ، المُقْرِئُ، شَيْخُ الإِسْلَامِ، مَاتَ سَنَةَ (٥٦٩).

(٢) حَدِيْثِ الْوُضُوْءِ بِالنَّبِيْذِ رواه أبو داود، كِ: «الطهارة» بَابُ «الوضوء بالنبيذ» (٨٤). والترمذي، كِ: «الطهارة» بَابُ «ما جاء في الوضوء بالنبيذ» (٨٨). إِسْنَاده ضَعِيْف لِجَهَالَة أَبِي زَيْد مَوْلَىٰ عَمْرو بن حُرَيث، اِتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنَّ حَدِيثَهُ مُنْكَرٌ.

(٣) أَبُوْ بَكْرٍ الْخَلَّالُ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ هَارُوْنَ البَغْدَادِيُّ، الحَافِظُ الفَقِيْهُ، شَيْخُ الحَنَابِلَةِ وَعَالِمُهُم، مَاتَ سَنَةَ: (٣١١هـ).

(٤) أَبُو يَعْلَىٰ مُحَمَّدُ بنُ الحُسَيْنِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ خَلَفِ بنِ أَحْمَدَ، الحَنْبَلِيُّ، ابْنُ الفَرَّاءِ، شَيْخُ الحَنَابِلَةِ مَاتَ سَنَةَ (٤٥٨هـ).

وَيَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ: أَنَّ عَبْدَ اللهِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي: مَا تَقُولُ فِي حَدِيْثِ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ عَنْ حُذَيْفَةَ؟ قَالَ: الَّذِي يَرْوِيْهِ عَبْدُ الْعَزِيْزِ بْنُ أَبِي رَوَّادٍ[١]؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: الأَحَادِيْثُ بِخِلَافِهِ. قُلْتُ: فَقَدْ ذَكَرْتَهُ فِي «الْمُسْنَدِ»[٢]؟ قَالَ: قَصَدْتُ فِي «الْمُسْنَدِ» الْمَشْهُوْرَ؛ فَلَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْصِدَ مَا صَحَّ عِنْدِي؛ لَمْ أُرِدْ بِهَذَا «الْمُسْنَدِ» إِلَّا الشَّيْءَ بَعْدَ الشَّيْءِ الْيَسِيْرِ؛ وَلَكِنَّكَ يَا بُنَيَّ تَعْرِفُ طَرِيْقَتِي فِي الْحَدِيْثِ؛ لَسْتُ أُخَالِفُ مَا ضَعُفَ مِنَ الْحَدِيْثِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْبَابِ شَيْءٌ يَدْفَعُهُ[٣].

قَالَ الْقَاضِي[٤]: وَقَدْ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ كَيْفَ طَرِيْقُهُ فِي «الْمُسْنَدِ»؛ فَمَنْ جَعَلَهُ أَصْلًا لِلصِّحَّةِ؛ فَقَدْ خَالَفَهُ، وَتَرَكَ مَقْصِدَهُ.

قُلْتُ: قَدْ غَمَّنِي فِي هَذَا الزَّمَانِ أَنَّ الْعُلَمَاءَ - لِتَقْصِيْرِهِم فِي الْعِلْمِ - صَارُوْا كَالْعَامَّةِ، وَإِذَا مَرَّ بِهِم حَدِيْثٌ مَوْضُوْعٌ؛ قَالُوا: قَدْ رُوِيَ!

وَالْبُكَاءُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ عَلَىٰ خَسَاسَةِ الْهِمَمِ. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيْمِ.

*[١٤٢ - ١٢١] [خَاطِرَةٌ]:

[كَيْفَ يُحَافِظُ طَالِبُ الْعِلْمِ عَلَىٰ دَوَامِ الْحِفْظِ؟]

اعْلَمْ أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ يَفْتَقِرُ إِلَىٰ دَوَامِ الدِّرَاسَةِ، وَمِنَ الْغَلَطِ الانْهِمَاكُ فِي الإِعَادَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا؛ فَإِنَّهُ لَا يَلْبَثُ صَاحِبُ هَذِهِ الْحَالِ إِلَّا أَيَّامًا، ثُمَّ يَفْتُرُ أَوْ يَمْرَضُ.

---

(١) عَبْدُ الْعَزِيْزِ بْنُ أَبِي رَوَّادٍ الأَزْدِيُّ شَيْخُ الْحَرَمِ. صَدُوْقٌ عابد، ربما وهم، رُمِيَ بالإرجاء. تُوُفِّيَ فِي سَنَةِ: (١٥٩هـ).

(٢) طلبته في «المسند» فلم أجده.

(٣) قَالَ الْحَافِظُ أَبُو مُوْسَىٰ الْمَدِيْنِي: «وَهَذَا مَا أَظُنّه يَصِح؛ لِأَنَّهُ كَلَام مُتَنَاقِض؛ لِأَنَّهُ يَقُوْل لَسْتُ أُخَالِف مَا فِيْهِ ضَعْف إِذَا لَم يَكُن فِي الْبَابِ شَيْء يَدْفَعه وَهُوَ يَقُول فِي هَذَا الْحَدِيْث بِخِلَافِهِ وَإِنْ صَحّ فَلَعَلَّهُ كَانَ أَوَّلًا ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْهُ مَا ضَعُفَ» اهـ. يُنظَر: «خصائص مسند الإمام أحمد» (ص٢١)

(٤) يعني: أَبُو يَعْلَىٰ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْقَاضِي.

وَقَدْ رُوِّيْنَا أَنَّ الطَّبِيْبَ دَخَلَ عَلَىٰ أَبِي بَكْرِ بْنِ الأَنْبَارِي[١] فِي مَرَضِ مَوْتِهِ، فَنَظَرَ إِلَىٰ مَائِهِ، وَقَالَ: قَدْ كُنْتَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَا يَفْعَلُهُ أَحَدٌ! ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: مَا يَجِيءُ مِنْهُ شَيْءٌ[٢]، فَقِيْلَ لَهُ: مَا الَّذِي كُنْتَ تَفْعَلُ؟ قَالَ: كُنْتُ أُعِيْدُ كُلَّ أُسْبُوْعٍ عَشَرَةَ آلَافِ وَرَقَةٍ؟

وَمِنَ الْغَلَطِ [تَحْمِيْلُ الْقَلْبِ[٣]] حِفْظَ الْكَثِيْرِ أَوِ الحِفْظَ مِنْ فُنُوْنٍ [شَتَّىٰ[٤]]؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ جَارِحَةٌ مِنَ الْجَوَارِحِ، وَكَمَا أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْمِلُ الْمِئَةَ رَطْلٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ عِشْرِيْنَ رَطْلًا؛ فَكَذَلِكَ الْقُلُوْبُ.

فَيَأْخُذِ الإِنْسَانُ عَلَىٰ قَدْرِ قُوَّتِهِ وَدُوْنَهَا؛ فَإِنَّهُ إِذَا اسْتَنْفَدَهَا فِي وَقْتٍ؛ ضَاعَتْ مِنْهُ أَوْقَاتٌ: كَمَا أَنَّ الشَّرِهِ يَأْكُلُ فَضْلَ لُقَيْمَاتٍ، فَيَكُوْنُ سَبَبًا إِلَىٰ مَنْعِ أَكَلَاتٍ!

وَالصَّوَابُ أَنْ يَأْخُذَ قَدْرَ مَا يَطِيْقُ، وَيُعِيْدُهُ فِي وَقْتَيْنِ مِنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَيُرَفِّهَ الْقُوَىٰ فِي بَقِيَّةِ الزَّمَانِ.

وَالدَّوَامُ أَصْلٌ عَظِيْمٌ؛ فَكَمْ مِمَّنْ تَرَكَ [الاسْتِذْكَارَ[٥]] بَعْدَ الْحِفْظِ، فَضَاعَ زَمَنٌ طَوِيْلٌ فِي اسْتِرْجَاعِ مَحْفُوْظٍ قَدْ نُسِيَ.

وَلِلْحِفْظِ أَوْقَاتٌ مِنَ الْعُمُرِ؛ فَأَفْضَلُهَا الصِّبَا، وَمَا يُقَارِبُهُ مِنْ أَوْقَاتِ الزَّمَانِ، وَأَفْضَلُهَا عَادَةَ الأَسْحَارِ، وَأَنْصَافُ النَّهَارِ، وَالغَدَوَاتُ خَيْرٌ مِنَ الْعَشِيَّاتِ، وَأَوْقَاتُ الْجُوْعِ خَيْرٌ مِنْ أَوْقَاتِ الشِّبَعِ.

وَلَا يُحْمَدُ الْحِفْظُ بِحَضْرَةِ خُضْرَةٍ، وَعَلَىٰ شَاطِئِ نَهْرٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُلْهِي، وَالأَمَاكِنُ العَالِيَةُ لِلْحِفْظِ خَيْرٌ مِنَ السَّوَافِلِ.

وَالْخَلْوَةُ أَصْلٌ. وَجَمْعُ الهَمِّ أَصْلُ الأُصُوْلِ، وَتَرْفِيْهُ النَّفْسِ مِنَ الإِعَادَةِ يَوْمًا فِي الأُسْبُوْعِ:

---

(١) ابْنُ الأَنْبَارِيِّ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بنُ القَاسِمِ بنِ بَشَّارٍ الإِمَامُ، الحَافِظُ اللُّغَوِيُّ ذُو الفُنُوْنِ، مَاتَ سَنَةَ: (٣٢٨هـ).

(٢) يعني: لا أمل في شفائه.

(٣) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٤) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٥) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

لِيَثْبُتَ الْمَحْفُوظُ، وَتَأْخُذَ النَّفْسُ قُوَّةً؛ كَالبُنْيَانِ يُتْرَكُ أَيَّامًا حَتَّىٰ يَسْتَقِرَّ، ثُمَّ يُبْنَىٰ عَلَيْهِ.

وَتَقْلِيلُ الْمَحْفُوظِ مَعَ الدَّوَامِ أَصْلٌ عَظِيمٌ. وَأَلَّا يَشْرَعَ فِي فَنٍّ حَتَّىٰ يُحْكِمَ مَا قَبْلَهُ. وَمَنْ لَمْ يَجِدْ نَشَاطًا لِلْحِفْظِ؛ فَلْيَتْرُكْهُ؛ فَإِنَّ مُكَابَرَةَ النَّفْسِ لا تَصْلُحُ.

وَإِصْلَاحُ الْمَزَاجِ مِنَ الأُصُولِ الْعَظِيمَةِ؛ فَإِنَّ لِلْمَأْكُولَاتِ أَثَرًا فِي الحِفْظِ[١].

قَالَ الزُّهْرِيُّ[٢]: مَا أَكَلْتُ خَلًّا مُنْذُ عَالَجْتُ الْحِفْظَ.

وَقِيْلَ لِأَبِي حَنِيْفَةَ[٣]: بِمَ يُسْتَعَانُ عَلَىٰ حِفْظِ الْفِقْهِ؟ قَالَ: بِجَمْعِ الْهَمِّ.

وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ[٤]: بِقِلَّةِ الغَمِّ.

وَقَالَ مَكْحُولٌ[٥]: مَنْ نَظُفَ ثَوْبُهُ؛ قَلَّ هَمُّهُ، وَمَنْ طَابَتْ رِيحُهُ؛ زَادَ عَقْلُهُ، وَمَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا: زَادَتْ مُرُوءَتُهُ.

وَأَخْتَارُ لِلْمُبْتَدِئِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ أَنْ يُدَافِعَ النِّكَاحَ مَهْمَا أَمْكَنَ؛ فَإِنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ لَمْ يَتَزَوَّجْ حَتَّىٰ تَمَّتْ لَهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَهَذَا لِأَجْلِ جَمْعِ الْهَمِّ؛ فَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الأَمْرُ؛ تَزَوَّجَ،

---

(١) هذا الكلام ليس علىٰ عمومه؛ فلابد من استشارة طبيب متخصص في هذا، لاسيما وأن الأشياء التي تكون نافعة لشخص قد تكون ضررًا لشخص آخر؛ وها هو ابن الجوزي نفسه وقد وُصِفَ له البَلاَذُرَ. وقيل له إنه يقوي الحفظ؛ فأكل منه ليزداد حفظه، فَسَقَطت لِحيته، فَكَانَتْ قصِيرَة جِدًّا، وَكَانَ يَخضبهَا بِالسَّوَاد إِلَىٰ أَنْ مَاتَ. وشَرِبَه أيضًا ابنُ مَهْدِيٍّ، وَالطَّيَالِسِيُّ، فَبَرِصَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَجُذِمَ الآخَرُ. وَالبَلاَذُرَ هو شجر من فصيلة البطميات. قال ابن سينا: «البَلاَذُرَ: ثمرة شبيهة بنوىٰ التمر، ولبه مثل لب الجوز، حلو لا مضرة فيه، وقشرة متخلخل متقب، في تخلخله عسل لزج ذو رائحة، ومن الناس من يقضمه فلا يضره وخصوصا مع الجوز». «القانون» (ج١/ ص٣٦٧).

(٢) الزُّهْرِيُّ مُحَمَّدُ بنُ مُسْلِمِ بنِ عُبَيْدِ اللهِ بنِ شِهَابٍ، الإِمَامُ، حَافِظُ زَمَانِهِ، أَبُو بَكْرٍ القُرَشِيُّ، الزُّهْرِيُّ. مات سنة: (١٢٤).

(٣) تقدمت ترجمته في الخاطرة رقم: [١٢٣-٢٥].

(٤) تقدمت ترجمته في الخاطرة رقم: [١٢٠-٢٣٠].

(٥) مَكْحُولٌ الدِّمَشْقِيُّ أَبُو عَبْدِ اللهِ الفَقِيْهُ، عَالِمُ أَهْلِ الشَّامِ. تَابِعِيٌّ، ثِقَةٌ. وَفَاتُهُ مُخْتَلَفٌ فِيهَا: قِيلَ: مَاتَ سَنَةَ: (١١٦).

وَاجْتَهَدَ فِي المُدَافَعَةِ(١) بِالْفِعْلِ؛ لِتَتَوَفَّرَ الْقُوَّةُ عَلَىٰ إِعَادَةِ الْعِلْمِ.

ثُمَّ لِيَنْظُرْ مَا يَحْفَظُ مِنَ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ الْعُمُرَ عَزِيزٌ، وَالعِلْمَ غَزِيرٌ، وَإِنَّ أَقْوَامًا يَصْرِفُوْنَ الزَّمَانَ إِلَىٰ حِفْظِ مَا غَيْرُهُ أَوْلَىٰ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ الْعُلُوْمِ حَسَنًا؛ وَلَكِنَّ الأَوْلَىٰ تَقْدِيمُ الأَهَمِّ وَالأَفْضَلِ.

وَأَفْضَلُ مَا تُشُوْغِلَ بِهِ حِفْظُ الْقُرْآنِ، ثُمَّ الفِقْهُ، وَمَا بَعْدَ هَذَا بِمَنْزِلَةِ تَابعٍ. وَمَنْ رُزِقَ يَقَظَةً؛ دَلَّتْهُ يَقَظَتُهُ، فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَىٰ دَلِيْلٍ.

وَمَنْ قَصَدَ وَجْهَ اللهِ تَعَالَىٰ بِالْعِلْمِ؛ دَلَّهُ الْمَقْصُوْدُ عَلَىٰ الأَحْسَنِ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[البقرة: ٢٨٢].

*[١٤٣-١٨٧] [خَاطِرَةٌ]:

[التّكرار يُساعد على الحفظ]

مَا رَأَيْتُ أَصْعَبَ عَلَىٰ النَّفْسِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْعِلْمِ وَالتَّكْرَارِ، خُصُوْصًا تِكْرَارَ مَا لَيْسَ لَهَا فِي تَكْرَارِهِ وَحِفْظِهِ حَظٌّ، مِثْلُ مَسَائِلِ الْفِقْهِ؛ بِخِلَافِ الشِّعْرِ وَالسَّجْعِ؛ فَإِنَّ لَهَا لَذَّةً فِي إِعَادَتِهِ، وَإِنْ كَانَ يَصْعُبُ؛ لِأَنَّهَا تَلْتَذُّ بِهِ مَرَّةً وَمَرَّتَيْنِ؛ فَإِذَا زَادَ التَّكْرَارُ؛ صَعُبَ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ دُوْنَ صُعُوْبَةِ الْفِقْهِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُسْتَحْسَنَاتِ عِنْدَ الطَّبْعِ، فَتَرَاهَا تَخْلُدُ إِلَىٰ الحَدِيْثِ وَالشِّعْرِ وَالتَّصَانِيفِ وَالنَّسْخِ؛ لِأَنَّهُ يَمُرُّ بِهَا كُلَّ لَحْظَةٍ مَا لَمْ تَرَهُ؛ فَهُوَ فِي المَعْنَىٰ كَالْمَاءِ الْجَارِي؛ لِأَنَّهُ جُزْءٌ بَعْدَ جُزْءٍ، وَكَذَا مَنْ يَنْسَخُ مَا يُحِبُّ أَنْ يَسْمَعَهُ أَوْ يُصَنِّفُ، فَإِنَّهُ يَلْتَذُّ بِالْجِدَّةِ، وَيَسْتَرِيحُ مِنْ تَعَبِ الإِعَادَةِ.

إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُوْنَ جُلُّ زَمَانِهِ لِلإِعَادَةِ، خُصُوْصًا الصَّبِيَّ وَالشَّابَّ؛ فَإِنَّهُ يَسْتَقِرُّ الْمَحْفُوْظُ عِنْدَهُمَا اسْتِقْرَارًا لَا يَزُوْلُ، وَيَجْعَلُ أَوْقَاتَ التَّعَبِ مِنَ الإِعَادَةِ لِلنَّسْخِ، وَيَحْذَرُ مِنْ تَفَلُّتِهَا إِلَىٰ النَّسْخِ عِنْدَ الإِعَادَةِ، فَيَقْهَرُهَا؛ فَإِنَّهُ يَحْمَدُ ذَلِكَ حَمْدَ السُّرَى وَقْتَ الصَّبَاحِ(٢).

(١) أي: اجْتَهَدَ فِي مُدَافَعَةِ الجِمَاعِ.

(٢) هذا مثل يُضرب في تقدير المجهود الذي يؤدّي إلى تحقيق الغاية. والسُّرَىٰ: المسافر ليلًا.

وَسَيَنْدَمُ مَنْ لَمْ يَحْفَظْ نَدَمَ الْكُسَعِيِّ[1] وَقْتَ الحَاجَةِ إِلَىٰ النَّظَرِ وَالفَتْوَىٰ.

وَفِي الحِفْظِ نُكْتَةٌ يَنْبَغِي أَنْ تُلْحَظَ، وَهُوَ: أَنَّ الْفَقِيْهَ يَحْفَظُ الدَّرْسَ وَيُعِيْدُهُ، ثُمَّ يَتْرُكُهُ فَيَنْسَاهُ، فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ زَمَانٍ آخَرَ لِحِفْظِهِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُحْكِمَ الْحِفْظَ، وَيُكْثِرَ التَّكْرَارَ؛ لِيُثَبِّتَ قَاعِدَةَ الْحِفْظِ.

*[١٤١-١٩٣] [خَاطِرَةٌ]:

[لا يَحصُلُ العِلمُ إلَّا بِالتَّكرَارِ، وَهَجرِ اللَّذَّاتِ وَغَيرِهمَا]

تَأَمَّلْتُ عَجَبًا، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ نَفِيسٍ خَطِيْرٍ يَطُوْلُ طَرِيْقُهُ، وَيَكْثُرُ التَّعَبُ فِي تَحْصِيْلِهِ.

فَإِنَّ العِلْمَ لَمَّا كَانَ أَشْرَفَ الأَشْيَاءِ؛ لَمْ يَحْصُلْ إِلَّا بِالتَّعَبِ وَالسَّهَرِ وَالتَّكْرَارِ، وَهَجْرِ اللَّذَّاتِ وَالرَّاحَةِ. حَتَّىٰ قَالَ بَعْضُ الفُقَهَاءِ: بَقِيْتُ سِنِيْنَ أَشْتَهِي الهَرِيْسَةَ لَا أَقْدِرُ[2]؛ لِأَنَّ وَقْتَ بَيْعِهَا وَقْتُ سَمَاعِ الدَّرْسِ!

وَنَحْوُ هَذَا تَحْصِيْلُ المَالِ؛ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ المُخَاطَرَاتِ وَالأَسْفَارِ وَالتَّعَبِ الكَثِيْرِ.

---

(١) الْكُسَعِيُّ هو رجل من كُسَع، واسمه مُحَارب بن قيس، وقيل: غامد بن الحارث. ومن حديثه أنه كان يَرْعَىٰ إبلًا له بوادٍ مُعْشِب، فبينما هو كذلك إذ أبْصَرَ نَبْعَة في صخرة، فأعجبَتْه، فَقَالَ: ينبغي أن تكون هذه قوسًا فجعل يتعهدها ويرصدها حتىٰ إذا أدْرَكتْ قطعها وجَفَّفها، فلما جفت اتخذ منها قوسًا، ثم دهَنَها وخطمها بوَتَر، ثم عمد إلىٰ ما كان من بُرَايتها فجعل منها خمسة أسْهُمْ، ثم خرج حتىٰ أتىٰ قُتَرَةً علىٰ مَوَارد حُمُر فكمن فيها، فرمىٰ قطيع منها، فرمىٰ عَيرًا منها فأمخطه السهمُ: أي أنفذه فيه وجازه، وأصاب الجبل فأورَىٰ نارًا، فظنَّ انه أخطأه ثم مكث علىٰ حاله فمر قطيع آخر، فرمىٰ منها عَيْرا فأمْخَطَهَ السهم، وصَنَعَ صنيع الأول، ثم مكث علىٰ حاله، فمر قطيع آخر، فرمىٰ منها عيرًا فأمخطه السهم، فصنع صنيع الثاني، ثم مكث مكانه، فمر به قطيع آخر، فرمىٰ عيرًا منها فصنع صنيع الثالث، ثم مر به قطيع أخر، فرمىٰ عيرًا منها فصنع صنيع الرابع، ثم عمد إلىٰ قوسه فضرب بها حَجَرًا فكسرها، ثم بات، فلما أصبح نظر فإذا الْحُمُرُ مطروحة حوله مُصَرعة، أسهمه بالدم مُضَرَّجة، فندم علىٰ كَسْر القوس، فشدَّ علىٰ إبهامه فقطعها.[يُنظر: «مجمع الأمثال» الميداني.(ج٢/ ص ٣٤٨)]

(٢) الهَرِيْسَة: طعام يُطبخ من القمح المدقوق واللَّحم. وهو أيضًا: نوع من الحلوىٰ يُصنع من الدّقيق والسّمن والسُّكَّر.

وَكَذَلِكَ نَيْلُ الشَّرَفِ بِالْكَرَمِ وَالْجُوْدِ؛ فَإِنَّهُ يَفْتَقِرُ إِلَىٰ جِهَادِ النَّفْسِ فِي بَذْلِ الْمَحْبُوْب، وَرُبَّمَا آلَ إِلَىٰ الفَقْرِ.

وَكَذَلِكَ الشَّجَاعَةُ؛ فَإِنَّهَا لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْمُخَاطَرَةِ بِالنَّفْسِ. قَالَ الشَّاعِرُ[1]:

لَوْلا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الجُوْدُ يُفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ

وَمِنْ هَذَا الفَنِّ تَحْصِيْلُ الثَّوَابِ فِي الآخِرَةِ؛ فَإِنَّهُ يَزِيْدُ عَلَىٰ قُوَّةِ الاجْتِهَادِ وَالتَّعَبُّدِ، أَوْ عَلَىٰ قَدْرِ وَقْعِ الْمَبْذُوْلِ مِنَ الْمَالِ فِي النَّفْسِ، أَوْ عَلَىٰ قَدْرِ الصَّبْرِ عَلَىٰ فَقْدِ الْمَحْبُوْبِ، وَمَنْعِ النَّفْسِ مِنَ الْجَزَعِ.

وَكَذَلِكَ الزُّهْدُ، يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ عَنِ الْهَوَىٰ.

وَالْعَفَافُ لا يَكُوْنُ إِلَّا بِكَفِّ كَفِّ الشَّرَهِ. وَلَوْلا مَا عَانَىٰ يُوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا قِيْلَ لَهُ: ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾[يوسف:٤٦].

وَللهِ أَقْوَامٌ مَا رَضُوْا مِنَ الْفَضَائِلِ إِلَّا بِتَحْصِيْلِ جَمِيْعِهَا؛ فَهُمْ يُبَالِغُوْنَ فِي كُلِّ عِلْمٍ، وَيَجْتَهِدُوْنَ فِي كُلِّ عَمَلٍ، وَيُثَابِرُوْنَ عَلَىٰ كُلِّ فَضِيْلَةٍ؛ فَإِذَا ضَعُفَتْ أَبْدَانُهُم عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ؛ قَامَتِ النِّيَّاتُ نَائِبَةً، وَهُمْ لَهَا سَابِقُوْنَ. وَأَكْمَلُ أَحْوَالِهِمْ إِعْرَاضُهُمْ عَنْ أَعْمَالِهِمْ؛ فَهُمْ يَحْتَقِرُوْنَهَا مَعَ التَّمَامِ، وَيَعْتَذِرُوْنَ مِنَ التَّقْصِيرِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَزِيْدُ عَلَىٰ هَذَا، فَيَتَشَاغَلُ بِالشُّكْرِ عَلَىٰ التَّوْفِيْقِ لِذَلِكَ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَرَىٰ مَا عَمِلَ أَصْلًا؛ لِأَنَّهُ يَرَىٰ نَفْسَهُ وَعَمَلَهُ لِسَيِّدِهِ.

وَبِالْعَكْسِ مِنَ الْمَذْكُوْرِ مِنْ أَرْبَابِ الاجْتِهَادِ حَالُ أَهْلِ الْكَسَلِ وَالشَّرَهِ وَالشَّهَوَاتِ؛ فَلَئِنْ الْتَذُّوْا بِعَاجِلِ الرَّاحَةِ؛ لَقَدْ أَوْجَبَتْ مَا يَزِيْدُ عَلَىٰ كُلِّ تَعَبٍ مِنَ الأَسَفِ وَالْحَسْرَةِ.

وَمَنْ تَلَمَّحَ صَبْرَ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَجَلَةَ مَاعِزٍ[2]؛ بَانَ لَهُ الفَرْقُ، وَفَهِمَ الرِّبْحَ مِنَ

---

(١) البيت من البحر: [البسيط] وقائله: المتنبي.

(٢) مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ الأَسْلَمِيُّ، أَسْلَمَ وَصَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ، معدود فِي المدنيين، كتب لَهُ رَسُول اللهِ ﷺ كتابًا بإسلام قومه، وَلَيْسَت لَهُ رِوَايَة، قَالَ عَنْهُ ﷺ: «لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي لأَجْزَتْ عَنْهُمْ» وَقَالَ فِيهِ أَيضًا: «لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَتَخَضْخَضُ فِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ» وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ».

الْخُسْرَانِ! وَلَقَدْ تَأَمَّلْتُ نَيْلَ الدُّرِّ مِنَ الْبَحْرِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ مُعَانَاةِ الشَّدَائِدِ. وَمَنْ تَفَكَّرَ فِيْمَا ذَكَرْتُهُ مَثَلًا؛ بَانَتْ لَهُ أَمْثَالٌ.

فَالْمُوَفَّقُ مَنْ تَلَمَّحَ قِصَرَ الْمَوْسِمِ الْمَعْمُوْلِ فِيْهِ، وَامْتِدَادَ زَمَانِ الْجَزَاءِ الَّذِي لَا آخِرَ لَهُ، فَانْتَهَبَ حَتَّىٰ اللَّحْظَةَ[1]، وَزَاحَمَ كُلَّ فَضِيْلَةٍ[2]؛ فَإِنَّهَا إِذَا فَاتَتْ؛ فَلَا وَجْهَ لاسْتِدْرَاكِهَا.

أَوَلَيْسَ فِي الحَدِيْثِ[3]: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ: اقْرَأْ وَارْقَ؛ فَمَنْزِلُكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»؟ فَلَوْ أَنَّ الْفِكْرَ عَمِلَ فِي هَذَا حَقَّ الْعَمَلِ؛ حَفِظَ القُرآنَ عَاجِلًا.

---

*[١٤٥ - ١٤٦] [خَاطِرَةٌ]:

[كَيْفِيَّة تَقْسِيمِ الوَقْتِ لِطَالِبِ العِلْمِ]

يَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَكُوْنَ جُلُّ هِمَّتِهِ مَصْرُوْفًا إِلَىٰ الحِفْظِ وَالإِعَادَةِ؛ فَلَوْ صَحَّ صَرْفُ الزَّمَانِ إِلَىٰ ذَلِكَ؛ كَانَ الأَوْلَىٰ؛ غَيْرَ أَنَّ الْبَدَنَ مَطِيَّةٌ[4]، وَإِجْهَادُ السَّيْرِ مَظِنَّةُ الانْقِطَاعِ[5].

وَلَمَّا كَانَتِ الْقُوَىٰ تَكِلُّ[6]، فَتَحْتَاجُ إِلَىٰ تَجْدِيْدٍ، وَكَانَ النَّسْخُ وَالْمُطَالَعَةُ وَالتَّصْنِيْفُ لَا بُدَّ مِنْهُ، مَعَ أَنَّ الْمُهِمَّ الْحِفْظُ؛ وَجَبَ تَقْسِيْمُ الزَّمَانِ عَلَىٰ الأَمْرَيْنِ:

فَيَكُوْنُ الحِفْظُ فِي طَرَفِي النَّهَارِ، وَطَرَفِي اللَّيْلِ، وَيُوَزَّعُ البَاقِي بَيْنَ عَمَلٍ بِالنَّسْخِ، وَالْمُطَالَعَةِ، وَبَيْنَ رَاحَةٍ لِلْبَدَنِ، وَأَخْذٍ لِحَظِّهِ.

---

(١) انْتَهَبَ حَتَّىٰ اللَّحْظَةَ ؛ أي: انتهز وأسرع وأخذ وسابق هذه اللحظة. تقول: إنَّه لينهب الغايةَ: سبَّاق

(٢) زَاحَمَ كُلَّ فَضِيْلَةٍ؛ أي: نافس في كل فضيلة.

(٣) رواه أبو داود، كِتَابُ «الصلاة» بَابُ «استحباب الترتيل»(١٤٦٤). والترمذي، كِتَابُ «فضائل القرآن» (٢٩١٤).

(٤) المَطِيَّة: ما يُركب ويمتطىٰ كالبعير والنَّاقة.

(٥) جاء في الأصل:[واعداد السَّيْرِ مَظِنَّةُ الانْقِطَاعِ] وما أثبتناه أصوب؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٦) تَكِلُّ: تتعب وتضعُف.

وَلا يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ الْغَبْنُ بَيْنَ الشُّرَكَاءِ: فَإِنَّهُ مَتَىٰ أَخَذَ أَحَدُهُمْ فَوْقَ حَقِّهِ؛ أَثَّرَ الْغَبْنُ، وَبَانَ أَثَرُهُ[١].

وَإِنَّ النَّفْسَ لَتَهْرُبُ إِلَىٰ النَّسْخِ وَالْمُطَالَعَةِ وَالتَّصْنِيفِ عَنِ الإِعَادَةِ وَالتَّكْرَارِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَشْهَىٰ وَأَخَفُّ عَلَيْهَا. فَلْيَحْذَرِ الرَّاكِبُ مِنْ إِهْمَالِ النَّاقَةِ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا مَا لَا تَطِيقُ[٢]. وَمَعَ الْعَدْلِ وَالإِنْصَافِ يَتَأَتَّىٰ كُلُّ مُرَادٍ.

وَمَنِ انْحَرَفَ عَنِ الْجَادَّةِ؛ طَالَتْ طَرِيقُهُ، وَمَنْ طَوَىٰ مَنَازِلَ فِي مَنْزِلٍ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَفُوتَهُ مَا جَدَّ لِأَجْلِهِ[٣].

عَلَىٰ أَنَّ الإِنْسَانَ إِلَىٰ التَّحْرِيضِ أَحْوَجُ؛ لِأَنَّ الْفُتُورَ أَلْصَقُ بِهِ مِنَ الْجِدِّ[٤].

وَبَعْدُ، فَاللَّازِمُ فِي الْعِلْمِ طَلَبُ الْمُهِمِّ؛ فَرُبَّ صَاحِبِ حَدِيثٍ حَفِظَ مَثَلًا لِحَدِيثِ: «مَنْ أَتَىٰ الْجُمُعَةَ؛ فَلْيَغْتَسِلْ»[٥] عِشْرِينَ طَرِيقًا، وَالْحَدِيثُ قَدْ ثَبَتَ مِنْ طَرِيقٍ وَاحِدٍ، فَشَغَلَهُ ذَلِكَ عَنْ مَعْرِفَةِ آدَابِ الْغُسْلِ.

وَالْعُمُرُ أَقْصَرُ وَأَنْفَسُ مِنْ أَنْ يُفَرَّطَ مِنْهُ فِي نَفَسٍ، وَكَفَىٰ بِالْعَقْلِ مُرْشِدًا إِلَىٰ الصَّوَابِ[٦]. وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

*[١٤٦ - ٣٤٢] [خَاطِرَةٌ]:

[لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّىٰ تَلْعَقَ الصَّبِرَا]

مَا يَتَنَاهَىٰ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَّا عَاشِقُ الْعِلْمِ، وَالْعَاشِقُ يَنْبَغِي أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ الْمَكَارِهِ، وَمِنْ

(١) الْغَبْنُ: الخسارة. تقول: رجَع بصفقة المغبون: خسر ورجع فارغ اليدين، عاد خائبًا. وَبَانَ؛ أي: ظهر واتّضح.

(٢) وكأنه يرمز بذلك إلى بدن الإنسان.

(٣) مَا جَدَّ لِأَجْلِهِ؛ أي: ما سعىٰ واجتهد لأجله

(٤) الْفُتُورُ: السكون بعد الحِدّة. وَالْجِدُّ: - بكسر الجيم - الاجتهاد. وبفتحها: الحظ.

(٥) رواه الترمذي، ك: «الجمعة» (٤٩٢) واللفظ له. ورواه البخاري، ك: «الجمعة» (٨٧٧): «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْجُمُعَةَ، فَلْيَغْتَسِلْ» ورواه مسلم، ك: «الجمعة» (٨٤٤): «إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْتِيَ الْجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ».

(٦) جاء في الأصل: [من عضده وبالله التوفيق]

ضَرُورَةِ الْمُتَشَاغِلِ بِهِ الْبُعْدُ عَنِ الْكَسْبِ. وَمُذْ فُقِدَ التَّفَقُّدُ لَهُمْ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَمِنَ الْإِخْوَانِ؛ لَازَمَهُمُ الْفَقْرُ ضَرُورَةً، وَالْفَضَائِلُ تُنَادِي:﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[الأحزاب:١١]؛ فَكُلَّمَا خَافَتْ مِنِ ابْتِلَاءٍ؛ قَالَتْ[١]:

لا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّىٰ تَلْعَقَ الصَّبِرَا

وَلَمَّا آثَرَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ﷺ طَلَبَ الْعِلْمِ، وَكَانَ فَقِيرًا؛ بَقِيَ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتَشَاغَلُ بِهِ، وَلَا يَتَزَوَّجُ.

فَيَنْبَغِي لِلْفَقِيرِ أَنْ يُصَابِرَ فَقْرَهُ كَمَا فَعَلَ أَحْمَدُ، وَمَنْ يُطِيقُ مَا أَطَاقَ؟! فَقَدْ رَدَّ مِنَ الْمَالِ خَمْسِينَ أَلْفًا، وَكَانَ يَأْكُلُ الْكَامَخَ وَيَتَأَدَّمُ بِالْمِلْحِ[٢]؛ فَمَا شَاعَ لَهُ الذِّكْرُ الْجَمِيلُ جُزَافًا، وَلَا تَرَدَّدَتِ الْأَقْدَامُ إِلَىٰ قَبْرِهِ إِلَّا لِمَعْنًىٰ عَجِيبٍ، فَيَا لَهُ ثَنَاءً مَلأَ الآفَاقَ، وَجَمَالًا زَيَّنَ الْوُجُودَ، وَعِزًّا نَسَخَ كُلَّ ذُلٍّ! هَذَا فِي الْعَاجِلِ، وَثَوَابُ الآجِلِ لا يُوصَفُ.

وَتَلَمَّحْ قُبُورَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ؛ لا تُعْرَفُ وَلَا تُزَارُ، تَرَخَّصُوا، وَتَأَوَّلُوا، وَخَالَطُوا السَّلَاطِينَ، فَذَهَبَتْ بَرَكَةُ الْعِلْمِ، وَمُحِيَ الْجَاهُ، وَوَرَدُوا عِنْدَ الْمَوْتِ حِيَاضَ النَّدَمِ[٣]!

فَيَا لَهَا حَسَرَاتٍ لا تُتَلَافَىٰ، وَخُسْرَانًا لَا يَنْجَبِرُ! وَكَانَتْ صُحْبَةُ اللَّذَّاتِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَازَمَ الأَسَفُ دَائِمًا.

فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ أَيُّهَا الطَّالِبُ لِلْفَضَائِلِ؛ فَإِنَّ لَذَّةَ الرَّاحَةِ بِالْهَوَىٰ أَوْ بِالبِطَالَةِ تَذْهَبُ، وَيَبْقَىٰ الأَسَىٰ. وَقَالَ الشَّافِعِي ﷺ[٤]:

---

(١) البيت من البحر:[البسيط].

(٢) الْكَامَخ: هو لفظ معرب اسم لما يؤتدم به، أو للمخلَّلات المشهية، أو هو دقيق وملح ولبن ينشّف في الشمس كإدام يؤتدم به وتسمية العامة: شنكليش أو كشك. ومعنى وَيَتَأَدَّمُ بِالْمِلْحِ ؛ أي: يأكل الملح بالخبز

(٣) وَوَرَدُوا عِنْدَ الْمَوْتِ حِيَاضَ النَّدَمِ؛ أي: لما أشرف عليهم الموت، وأتاهم، دخلوا في حياض - حوض - الندم؛ وكأنهم غرقوا في الندم.

(٤) البيت من البحر:[البسيط]. وتقدمت ترجمة الشافعي في الخاطرة رقم:[٤٧-٦١].

يَـا نَفْـسُ مَـا هُـوَ إِلَّا صَـبْرُ أَيَّـامِ كَـأَنَّ مُـدَّتَهَا أَضْـغَاثُ أَحْـلَامِ
يَـا نَفْـسُ جُـوْزِي عَـنِ الـدُّنْيَا مُبَـادِرَةً وَخَـلِّ عَنْهَـا فَـإِنَّ الْعَـيْشَ قُـدَّامِي

ثُمَّ أَيُّهَا العَالِمُ الفَقِيْرُ! أَيَسُرُّكَ مُلْكُ سُلْطَانٍ مِنَ السَّلَاطِيْنِ، وَأَنَّ مَا تَعْلَمُهُ مِنَ الْعِلْمِ لَا تَعْلَمُهُ؟ كَلَّا؛ مَا أَظُنُّ بِالْمُتَيَقِّظِ أَنْ يُؤْثِرَ هَذَا!

ثُمَّ أَنْتَ إِذَا وَقَعَ لَكَ خَاطِرٌ مُسْتَحْسَنٌ أَوْ مَعْنًىٰ عَجِيْبٌ؛ تَجِدُ لَذَّةً لَا يَجِدُهَا مُلْتَذٌّ بِاللَّذَّاتِ الْحِسِّيَّةِ، فَقَدْ حُرِمَ مَنْ رُزِقَ الْشَّهَوَاتِ مَا قَدْ رُزِقْتَ، وَقَدْ شَارَكْتَهُمْ فِي قِوَامِ الْعَيْشِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الفُضُوْلُ، الَّذِي إِذَا أُخِذَ لَمْ يَكَدْ يَضُرُّ. ثُمَّ هُمْ عَلَىٰ المُخَاطَرَةِ فِي بَابِ الآخِرَةِ غَالِبًا، وَأَنْتَ عَلَىٰ السَّلَامَةِ فِي الأَغْلَبِ.

فَتَلَمَّحْ يَا أَخِي عَوَاقِبَ الأَحْوَالِ! وَاقْمَعِ الْكَسَلَ الْمُثَبِّطَ عَنِ الْفَضَائِلِ؛ فَإِنَّ كَثِيْرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِيْنَ مَاتُوا مُفَرِّطِيْنَ يَتَقَلَّبُوْنَ فِي حَسَرَاتٍ وَأَسَفٍ.

رَأَىٰ رَجُلٌ شَيْخَنَا ابْنَ الزَّاغُوانِي[١] فِي الْمَنَامِ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: أَكْثَرُ مَا عِنْدَكُمُ الْغَفْلَةُ، وَأَكْثَرُ مَا عِنْدَنَا النَّدَامَةُ.

فَاهْرُبْ وَفَّقَكَ اللهُ قَبْلَ الْحَبْسِ! وَافْسَخْ عَقْدَ الْهَوَىٰ عَلَىٰ الغَبْنِ الفَاحِشِ! وَاعْلَمْ أَنَّ الفَضَائِلَ لَا تُنَالُ بِالْهُوَيْنَىٰ[٢]، وَأَنَّ يَسِيرَ التَّفْرِيطِ يَشِيْنُ وَجْهَ الْمَحَاسِنِ[٣]!

فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ؛ وَنَفَسُ النَّفْسِ يَتَرَدَّدُ، وَمَلَكُ الْمَوْتِ غَائِبٌ مَا قَدِمَ بَعْدُ، وَانْهَضْ بِعَزِيْمَةِ عَازِمٍ[٤]:

إِذَا هَـمَّ أَلْقَـىٰ بَـيْنَ عَيْنَيْـهِ عَزْمَـهُ وَنَكَّـبَ عَـنْ ذِكْـرِ الْعَوَاقِـبِ جَانِبَـا

(١) ابن الزَّاغُوَاني أبو الحسن، علي بن عبد الله ، وقيل: عبيد الله بن نصر ابن السري البغدادي، أحد أعيان الحنابلة: كان من بحور العلم أحد شيوخ ابن الجوزي. مات سنة ٥٢٧هـ. الزَّاغُوَاني: نسبة إلى زاغوان جبل ببلاد المغرب.
(٢) الْهُوَيْنَىٰ: اتِّئاد وتمهّل وخفض ودَعَة؛ تقول: يعيش في هُوَيْنَىٰ.
(٣) يَشِيْنُ وَجْهَ الْمَحَاسِنِ؛ أي: يُشوّهه ويُعيبه.
(٤) البيتان من البحر: [الطويل]، والقائل: سعد بن ناشب المازني.

وَلَـمْ يَـرْضَ إِلَّا قَـائِمَ السَّـيْفِ صَـاحِبَا　　وَلَـمْ يَسْتَشِـرْ فِـي أَمْـرِهِ غَيْـرَ نَفْسِـهِ

وَارْفُضْ فِي هَذِهِ الْعَزِيمَةِ الدُّنْيَا وَأَرْبَابَهَا؛ فَبَارَكَ اللهُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ؛ فَنَحْنُ الأَغْنِيَاءُ، وَهُمُ الْفُقَرَاءُ؛ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ: لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ؛ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ(١).

فَأَبْنَاءُ الدُّنْيَا؛ أَحَدُهُمْ لَا يَكَادُ يَأْكُلُ لُقْمَةً إِلَّا حَرَامًا أَوْ شُبْهَةً، وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يُؤْثِرْ ذَلِكَ؛ فَوَكِيلُهُ يَفْعَلُهُ، وَلَا يُبَالِي هُوَ بِقِلَّةِ دِينٍ وَكِيلِهِ، وَإِنْ عَمَرُوا دَارًا؛ سَخَّرُوا الفَعَلَةَ(٢)، وَإِنْ جَمَعُوا مَالًا؛ فَمِنْ وُجُوهٍ لَا تَصْلُحُ، ثُمَّ كُلٌّ مِنْهُمْ خَائِفٌ أَنْ يُقْتَلَ أَوْ يُعْزَلَ أَوْ يُشْتَمَ؛ فَعَيْشُهُم نَغَصٌ.

وَنَحْنُ نَأْكُلُ مَا ظَاهِرُ الشَّرْعِ يَشْهَدُ لَهُ بِالإِبَاحَةِ، وَلَا نَخَافُ مِنْ عَدُوٍّ، وَلَا وِلَايَتُنَا تَقْبَلُ الْعَزْلَ، وَالعِزُّ فِي الدُّنْيَا لَنَا لَا لَهُمْ، وَإِقْبَالُ الْخَلْقِ عَلَيْنَا، وَتَقْبِيلُ أَيْدِينَا وَتَعْظِيمُنَا عِنْدَهُمْ كَثِيرٌ.

وَفِي الآخِرَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم تَفَاوُتٌ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ؛ فَإِنْ لَفَتَ أَرْبَابُ الدُّنْيَا أَعْنَاقَهُم؛ يَعْلَمُونَ قَدْرَ مَزِيَّتِنَا، وَإِنْ غُلَّتْ أَيْدِيهِم عَنْ إِعْطَائِنَا؛ فَلَذَّةُ الْعَفَافِ أَطْيَبُ، وَمَرَارَةُ الْمِنَنِ لَا تَفِي بِالمَأْخُوذِ، وَإِنَّمَا هُوَ طَعَامٌ دُونَ طَعَامٍ، وَلِبَاسٌ دُونَ لِبَاسٍ؛ وَإِنَّهَا أَيَّامٌ قَلَائِلُ(٣).

وَالْعَجَبُ لِمَنْ شَرُفَتْ نَفْسُهُ حَتَّىٰ طَلَبَ العِلْمَ - إِذْ لَا تَطْلُبُهُ إِلَّا ذُو نَفْسٍ شَرِيفَةٍ -، كَيْفَ يَذِلُّ لِبَذْلِ مَنْ لَا عِزُّهُ إِلَّا بِالدَّنَانِيرِ؛ وَلَا فَخْرُهُ إِلَّا بِالْمَكْنَةِ؟!

وَلَقَدْ أَنْشَدَنِي أَبُو يَعْلَىٰ العَلَوِيُّ(٤):

رُبَّ قَـــوْمٍ فِـــي خَلَائِقِهِـــمْ　　عَـــرَرٌ قَـــدْ صُـــيِّرُوا غُـــرَرَا

---

(١) ترجمة إبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ في الخاطرة رقم: [١٢٨-٣٦٢] والخبر ففي «الحلية/ ترجمته» (ج٧/ ص٣٧٠) بلفظ: «لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ، مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ السُّرُورِ وَالنَّعِيمِ إِذًا لَجَالَدُونَا - قَاتَلُونَا - عَلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ بِأَسْيَافِهِمْ».

(٢) هم الذين يعملون في أعمال البناء والترميم ونحوها.

(٣) يُراجع الخاطرة رقم: [١٣١-٢٧١].

(٤) البيتان من البحر: [المديد]. وَأَبُو يَعْلَىٰ العَلَوِيُّ: مُحَمَّد بن عليّ بن حمزة. كَانَ أَدِيبًا شَاعِرًا. مات سنة: (٥٧٥هـ).

سَتَرَ الْمَالُ الْقَبِيْحَ لَهُمْ   سَتَرَىٰ إِنْ زَالَ مَا سَتَرَا[١]

أَيْقَظَنَا اللهُ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِيْنَ، وَرَزَقَنَا فِكْرَ الْمُتَيَقِّظِيْنَ، وَوَفَّقَنَا لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَىٰ العِلْمِ وَالْعَقْلِ؛ إِنَّهُ قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ.

*[١٤٧ - ١٥٣] [خَاطِرَةٌ]:

[الْوَاجِبُ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَّبِعَ الدَّلِيلَ]

الْوَاجِبُ عَلَىٰ العَاقِلِ أَنْ يَتَّبِعَ الدَّلِيْلَ، ثُمَّ لا يَنْظُرُ فِيْمَا يَجْنِي مِنْ مَكْرُوْهٍ.

مِثَالُهُ: أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ بِالدَّلِيْلِ القَاطِعِ حِكْمَةُ الْخَالِقِ ﷻ وَمُلْكُهُ وَتَدْبِيْرُهُ؛ فَإِذَا رَأَىٰ الإِنْسَانُ عَالِمًا مَحْرُوْمًا، وَجَاهِلًا مَرْزُوْقًا، أَوْجَبَ عَلَيْهِ الدَّلِيْلُ الْمُثْبِتُ حِكْمَةَ الْخَالِقِ التَّسْلِيْمَ إِلَيْهِ، وَنِسْبَةَ الْعَجْزِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ إِلَىٰ نَفْسِهِ؛ فَإِنَّ أَقْوَامًا لَمْ يَفْعَلُوْا ذَلِكَ جَهْلًا مِنْهُم! أَفَتَرَاهُمْ بِمَاذَا حَكَمُوْا بِفَسَادِ هَذَا التَّدْبِيْرِ؟! أَلَيْسَ بِمُقْتَضَىٰ عُقُوْلِهِم؟! أَوَمَا عُقُوْلُهُمْ مِنْ جُمْلَةِ مَوَاهِبِهِ؟! فَكَيْفَ يُحْكَمُ عَلَىٰ حِكْمَتِهِ وَتَدْبِيْرِهِ بِبَعْضِ مَخْلُوْقَاتِهِ الَّتِي هِيَ بِالإِضَافَةِ إِلَيْهِ أَنْقَصُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؟!

وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنِ اللَّعِيْنِ ابْنِ الرَّوَانْدِيِّ[٢] أَنَّهُ كَانَ جَالِسًا عَلَىٰ الجِسْرِ، وَفِي يَدِهِ رَغِيْفٌ يَأْكُلُهُ، فَجَازَتْ خَيْلٌ وَأَمْوَالٌ، فَقَالَ: لِمَنْ هَذِهِ؟ فَقِيْلَ: لِفُلَانٍ الْخَادِمِ[٣]. ثُمَّ جَازَتْ خَيْلٌ وَأَمْوَالٌ، فَقَالَ: لِمَنْ هَذِهِ؟ فَقِيْلَ: لِفُلَانٍ الْخَادِمِ، فَلَمَّا مَرَّ الْخَادِمُ؛ رَأَىٰ شَخْصًا مُحْتَقَرًا، فَرَمَىٰ الرَّغِيْفَ إِلَىٰ نَاحِيَتِهِ، وَقَالَ: وَهَذَا لِفُلَانٍ! مَا هَذِهِ القِسْمَةُ؟!

---

(١) العَرَرُ والعُرُورُ : الجَرَبُ نَفْسُه وَالْفَضِيحَةُ وَالْقَذَرُ. ورجل معرور: ملطوخ بشر. والغُرر: جمع الغُرّة: الحَسَنُ والعَمل الصالح شبَّهه بغُرّة الفَرس، وكل شيء تُرْفَع قيمتُهُ فهو غُرّة. والمعنىٰ: رُبَّ قوم قبيحة أعمالهم سيئة أفعالهم وأخلاقهم؛ لكنهم وضعوا في الموضع العالي وحازوا علىٰ المراتب العالية بما يملكون من أموال.

(٢) تقدمت ترجمته وهذه القصة في الخاطرة رقم:[٦٩-٣٥٩].

(٣) علي بن بلتق غلام الخليفة.

وَلَوْ فَكَّرَ الْمُعْتَرِضُ[1]؛ لَبَانَتْ لَهُ وُجُوهٌ، أَقَلُّهَا: جَهْلُهُ بِمَنْ يَدَّعِي مَعْرِفَتَهُ، وَقِلَّةُ تَعْظِيمِهِ لَهُ، وَذَلِكَ يُوجِبُ عَلَيْهِ أَشَدَّ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ تَضْيِيقِ الْعَيْشِ؛ وَلَكِنَّهُ مِيرَاثُ إِبْلِيسَ؛ حَيْثُ اعْتَقَدَ سُوءَ التَّدْبِيرِ فِي تَفْضِيلِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَالْعَجَبُ مِنْ تِلْمِيذٍ يَتَعَالَمُ عَلَىٰ أُسْتَاذِهِ، وَمِنْ مَمْلُوكٍ يَتِيهُ عَلَىٰ سَيِّدِهِ!

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُتَّبَعَ فِيهِ الدَّلِيلُ، وَلَا يُلْتَفَتَ إِلَىٰ مَا جَنَتِ الْحَالُ: أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ مُكْتَسَبٍ. وَقَدْ رَأَىٰ جَمَاعَةٌ مِنَ الْجَهَلَةِ قِلَّةَ حُظُوظِ الْعُلَمَاءِ مِنَ الدُّنْيَا، فَأَزْرَوا عَلَىٰ الْعِلْمِ، وَقَالُوا: لَا فَائِدَةَ فِيهِ! وَذَلِكَ لِجَهْلِهِم بِمِقْدَارِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ تَابِعَ الدَّلِيلِ لَا يُبَالِي مَا جَنَىٰ؛ وَإِنَّمَا يَبِينُ الاخْتِيَارُ بِفَقْدِ الْغَرَضِ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الدَّلِيلِ عَلَىٰ صِدْقِ نَبِيِّنَا ﷺ إِلَّا إِعْرَاضُهُ عَنِ الدُّنْيَا، وَتَضْيِيقُ الْعَيْشِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لَمْ يُخَلِّفْ شَيْئًا، وَحَرَمَ أَهْلَهُ الْمِيرَاثَ؛ لَكَفَاهُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَىٰ صِدْقِ طَلَبِهِ لِمَطْلُوبٍ آخَرَ.

وَرُبَّمَا رَأَىٰ الْجَاهِلُ قَوْمًا مِنَ الْعُلَمَاءِ يَفْعَلُونَ خَطِيئَةً، فَيَزْدَرِي عَلَىٰ الْعِلْمِ[2]، وَيَدَّعِيهِ نَاقِصًا، وَهَذَا غَلَطٌ كَبِيرٌ.

فَلْيَتَّقِ اللهَ الْعَاقِلُ، وَلْيَعْمَلْ بِمُقْتَضَىٰ الْعَقْلِ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَالْعَمَلِ بِالْعِلْمِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الابْتِلَاءَ فِي الصَّبْرِ عَلَىٰ فَوَاتِ الْمَطْلُوبَاتِ، وَلْيَلْزَمِ اتِّبَاعَ الدَّلِيلِ؛ وَإِنْ جَنَىٰ مَكْرُوهًا، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

* [١٤٨ - ١٥٢] [خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ فَهِمَ الْمَقْصُودَ عَمِلَ بِالدَّلِيلِ]

مَدَارُ الْأَمْرِ كُلِّهِ عَلَىٰ الْعَقْلِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ؛ لَمْ يَعْمَلْ صَاحِبُهُ إِلَّا عَلَىٰ أَقْوَىٰ دَلِيلٍ.

---

(١) جاء في الأصل: [المدبر]، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٢) فَيَزْدَرِي عَلَىٰ العِلْمِ؛ أي: حقَّره واستخفَّ به.

وَثَمَرَةُ العَقْلِ: فَهْمُ الْخِطَابِ، وَتَلَمُّحُ الْمَقْصُوْدِ مِنَ الأَمْرِ.

وَمَنْ فَهِمَ الْمَقْصُوْدَ، وَعَمِلَ عَلَىٰ الدَّلِيْلِ؛ كَانَ كَالْبَانِي عَلَىٰ أَسَاسٍ وَثِيْقٍ.

وَإِنِّي رَأَيْتُ كَثِيْرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَعْمَلُوْنَ عَلَىٰ دَلِيْلٍ، بَلْ كَيْفَ اتَّفَقَ، وَرُبَّمَا كَانَ دَلِيْلُهُم العَادَاتِ! وَهَذَا أَقْبَحُ شَيْءٍ يَكُوْنُ.

ثُمَّ رَأَيْتُ خَلْقًا كَثِيْرًا لَا يَتَّبِعُوْنَ الدَّلِيْلَ بِطَرِيْقِ إِثْبَاتِهِ؛ كَالْيَهُوْدِ وَالنَّصَارَىٰ؛ فَإِنَّهُم يُقَلِّدُوْنَ الآبَاءَ، وَلَا يَنْظُرُوْنَ فِيْمَا جَاءَ مِنَ الشَّرَائِعِ؛ هَلْ صَحِيْحٌ أَمْ لَا؟! وَكَذَلِكَ يُثْبِتُوْنَ الإِلَهَ، وَلَا يَعْرِفُوْنَ مَا يَجُوْزُ عَلَيْهِ مِمَّا لَا يَجُوْزُ، فَيَنْسِبُوْنَ إِلَيْهِ الْوَلَدَ! وَيَمْنَعُوْنَ جَوَازَ تَغْيِيْرِهِ مَا شَرَعَ!

وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَنْظُرُوْا حَقَّ النَّظَرِ؛ لَا فِي إِثْبَاتِ الصَّانِعِ وَمَا يَجُوْزُ عَلَيْهِ، وَلَا فِي الدَّلِيْلِ عَلَىٰ صِحَّةِ النُّبُوَّاتِ، فَتَقَعُ أَعْمَالُهُمْ ضَائِعَةً؛ كَالبَانِي عَلَىٰ رَمْلٍ.

وَمِنْ هَذَا القَبِيْلِ فِي المَعْنَىٰ قَوْمٌ يَتَعَبَّدُوْنَ وَيَتَزَهَّدُوْنَ، وَيُنْصِبُوْنَ أَبْدَانَهُمْ فِي العَمَلِ[1] بِأَحَادِيْثَ بَاطِلَةٍ، وَلَا يَسْأَلُوْنَ عَنْهَا مَنْ يَعْلَمُ!

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُثْبِتُ الدَّلِيْلَ، وَلَا يَفْهَمُ الْمَقْصُوْدَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيْلُ.

وَمِنْ هَذَا الجِنْسِ قَوْمٌ سَمِعُوْا ذَمَّ الْدُّنْيَا، فَتَزَهَّدُوْا، وَمَا فَهِمُوْا المَقْصُوْدَ، فَظَنُّوْا أَنَّ الْدُّنْيَا تُذَمُّ لِذَاتِهَا، وَأَنَّ النَّفْسَ تَجِبُ عَدَاوَتُهَا، فَحَمَلُوْا عَلَىٰ أَنْفُسِهِم فَوْقَ مَا يُطَاقُ، وَعَذَّبُوْهَا بِكُلِّ نَوْعٍ، وَمَنَعُوْهَا حُظُوْظَهَا؛ جَاهِلِيْنَ بِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[2].

وَفِيْهِم مَنْ أَدَّتْهُ الحَالُ إِلَىٰ تَرْكِ الْفَرَائِضِ، وَنُحُوْلِ الْجِسْمِ، وَضَعْفِ الْقُوَىٰ! وَكُلُّ ذَلِكَ لِضَعْفِ الْفَهْمِ الْمَقْصُوْدِ، وَالتَّلَمُّحِ لِلْمُرَادِ.

---

(١) جاء في الأصل: [العلم] والصواب ما أثبتناه من مخطوط: (ي)؛ لتمام المعنىٰ به.

(٢) رواه بهذا اللفظ أبي داود، كِتَابُ «قِيَامِ اللَّيْلِ» (١٣٦٩). ورواه الترمذي، كِتَابُ «الزُّهْدِ» (٢٤١٣). ولفظ البخاري: «وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» كِتَابُ «الصَّوْمِ» بَابُ «مَنْ أَقْسَمَ عَلَىٰ أَخِيهِ لِيُفْطِرَ فِي التَّطَوُّعِ» (١٩٦٨).

كَمَا رُوِيَ عَنْ دَاوُدَ الطَّائِي[(١)]: «أَنَّهُ كَانَ يَتْرُكُ مَاءً فِي دَنٍّ تَحْتَ الأَرْضِ[(٢)]، فَيَشْرَبُ مِنْهُ، وَهُوَ شَدِيْدُ الْحَرِّ»! وَقَالَ لِسُفْيَانَ: «إِذَا كُنْتَ تَأْكُلُ اللَّذِيْذَ الطَّيِّبَ، وَتَشْرَبُ المَاءَ البَارِدَ الْمُبَرَّدَ، فَمَتَىٰ تُحِبُّ الْمَوْتَ وَالقُدُوْمَ عَلَىٰ اللهِ»؟![(٣)].

وَهَذَا جَهْلٌ بِالْمَقْصُوْدِ؛ فَإِنَّ شُرْبَ الْمَاءِ الْحَارِّ يُوْرِثُ أَمْرَاضًا فِي البَدَنِ، وَلَا يَحْصُلُ بِهِ الرِّيُّ، وَمَا أُمِرْنَا بِتَعْذِيْبِ أَنْفُسِنَا فِي الصُّوْرَةِ[(٤)]، بَلْ بِخِلَافِ مَا تَدْعُوْ إِلَيْهِ مِمَّا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ.

وَفِي الحَدِيْثِ الصَّحِيْحِ: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه لَمَّا حَلَبَ لَهُ الرَّاعِي فِي طَرِيْقِ الْهِجْرَةِ؛ صَبَّ المَاءَ عَلَىٰ القَدَحِ حَتَّىٰ بَرَدَ أَسْفَلُهُ، ثُمَّ سَقَىٰ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ، وَفَرَشَ لَهُ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ»[(٥)]. وَ«كَانَ يُسْتَعْذَبُ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ المَاءُ»[(٦)]، وَقَالَ: «إِنْ كَانَ عِنْدَكُمْ مَاءٌ بَاتَ فِي شَنٍّ، وَإِلَّا؛ كَرَعْنَا»[(٧)].

---

(١) تقدمت ترجمته في الخاطرة رقم: [١٢٨-٣٦٢].

(٢) الدَّن: إناء أو جرة يوضع فيه الماء ويدفن في الأرض لئلا يبرد. ومنه الأثر: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي اللِّحَافِ فَدَخَلَتْ شَاةٌ لِجَارٍ لَنَا فَأَخَذَتْ قُرْصًا مِنْ تَحْتِ دَنٍّ لَنَا ....» «معجم ابن الأعرابي» برقم: (٣٦١).

(٣) الخبرين في «حلية الأولياء» لأبي نعيم. (ج/٧ ص/٣٤٦، ٣٤٩). وفيه: «وَكَانَ لَهُ دَنَّانِ، دَنٌّ لِلْمَاءِ، وَدَنٌّ لِلْخُبْزِ، فَأَمَّا دَنُّ الْمَاءِ فَكَانَ قَدْ جَعَلَهُ فِي الأَرْضِ لِئَلَّا يُصِيبَهُ الرُّوحُ فَيَبْرُدَ».

(٤) هكذا في الأصل والمخطوط، ولها معنىً. وفي المطبوع: [عَلَىٰ هَذِهِ الصُّوْرَةِ]؛ وهي قريبة المعنىٰ أيضًا.

(٥) رواه البخاري، كِ: «مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ» (٣٩١٧). قَالَ أَبُو بَكْرٍ: «أُخِذَ عَلَيْنَا بِالرَّصَدِ، فَخَرَجْنَا لَيْلًا فَأَحْثَثْنَا لَيْلَتَنَا وَيَوْمَنَا حَتَّىٰ قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ، ثُمَّ رُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ، فَأَتَيْنَاهَا وَلَهَا شَيْءٌ مِنْ ظِلٍّ، قَالَ: فَفَرَشْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَرْوَةً مَعِي، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَانْطَلَقْتُ أَنْفُضُ مَا حَوْلَهُ، فَإِذَا أَنَا بِرَاعٍ قَدْ أَقْبَلَ فِي غُنَيْمَةٍ يُرِيدُ مِنَ الصَّخْرَةِ مِثْلَ الَّذِي أَرَدْنَا، فَسَأَلْتُهُ: لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلَامُ؟ فَقَالَ: أَنَا لِفُلَانٍ، فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ فِي غَنَمِكَ مِنْ لَبَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ لَهُ: هَلْ أَنْتَ حَالِبٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَخَذَ شَاةً مِنْ غَنَمِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: انْفُضِ الضَّرْعَ، قَالَ: فَحَلَبَ كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ، وَمَعِي إِدَاوَةٌ مِنْ مَاءٍ عَلَيْهَا خِرْقَةٌ، قَدْ رَوَّأْتُهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَصَبَبْتُ عَلَى اللَّبَنِ حَتَّىٰ بَرَدَ أَسْفَلُهُ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَشَرِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ رَضِيتُ، ثُمَّ ارْتَحَلْنَا وَالطَّلَبُ فِي إِثْرِنَا».

(٦) تقدَّم التعليق علىٰ هذا في الخاطرة رقم: [٦٦-٩٦] و[٧٧-١٧١].

(٧) رواه البخاري، كِ: «الأَشْرِبَةِ» (٥٦٢١): «إِنْ كَانَ عِنْدَكَ مَاءٌ بَاتَ فِي شَنَّةٍ، وَإِلَّا كَرَعْنَا». الشِّنَانُ: جمع شَنٍّ؛ وهو: جلدٌ يابس يُغطَّىٰ به الطبقُ. وَالشَّنَّةُ الْقِرْبَةُ الْبَالِيَةُ، وَهِيَ أشد تبريدا للْمَاء. وَ«كَرَعْنَا»: تقول: كَرَع في الإناء: مدَّ عنقه نحوه وتناوله بفمه مباشرة من موضعه من غير أن يشرب بكفّيه ولا بإناء. قَالَ الْمُهَلَّبُ: الْحِكْمَةُ فِي طَلَبِ الْمَاءِ =

وَلَوْ فَهِمَ دَاوُدُ ﷺ أَنَّ إِصْلَاحَ عَلَفِ النَّاقَةِ مُتَعَيِّنٌ لِقَطْعِ الْمَسَافَةِ؛ لَمْ يَفْعَلْ هَذَا.

أَلا تَرَىٰ إِلَىٰ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ؛ فَإِنَّهُ كَانَ شَدِيْدَ الْمَعْرِفَةِ وَالْخَوْفِ، وَكَانَ يَأْكُلُ اللَّذِيْذَ، وَيَقُوْلُ: إِنَّ الدَّابَّةَ إِذَا لَمْ يُحْسَنْ إِلَيْهَا؛ لَمْ تَعْمَلْ.

وَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَسْمَعُ كَلَامِي هَذَا يَقُوْلُ: هَذَا مَيْلٌ عَلَىٰ الزُّهَّادِ!

فَأَقُوْلُ: كُنْ مَعَ الْعُلَمَاءِ، وَانْظُرْ إِلَىٰ طَرِيْقِ الْحَسَنِ وَسُفْيَانَ وَمَالِكٍ وَأَبِي حَنِيْفَةَ وَأَحْمَدَ وَالشَّافِعِيِّ[1]، وَهَؤُلَاءِ أُصُوْلُ الإِسْلَامِ، وَلَا تُقَلِّدْ دِيْنَكَ مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ؛ وَإِنْ قَوِيَ زُهْدُهُ، وَاحْمِلْ أَمْرَهُ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ يُطِيْقُ هَذَا.

وَلا تَقْتَدِ بِهِم فِيْمَا لا تُطِيْقُهُ؛ فَلَيْسَ أَمْرُنَا إِلَيْنَا، وَالنَّفْسُ وَدِيْعَةٌ عِنْدَنَا، فَإِنْ أَنْكَرْتَ مَا شَرَحْتُهُ؛ فَأَنْتَ مُلْحَقٌ بِالقَوْمِ الَّذِيْنَ أَنْكَرْتُ عَلَيْهِم.

هَذَا رَمْزٌ إِلَىٰ المَقْصُوْدِ، وَالشَّرْحُ يَطُوْلُ.

*[١٤٩ - ٣٣٨] [خَاطِرَةٌ]:

[الفَقِيْهُ يَحْتَاجُ إِلَى جَمِيْعِ العُلُوْمِ]

لِلْفَقِيْهِ أَنْ يُطَالِعَ مِنْ كُلِّ فَنٍّ طَرَفًا: مِنْ تَارِيْخٍ، وَحَدِيْثٍ، وَلُغَةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الفِقْهَ

= الْبَائِت أَنَّهُ يَكُون أَبْرَد وَأَصْفَىٰ. قال ابن الجوزي في «كشف المشكل»: «وَقد نبه هَذَا الحَدِيث علىٰ حفظ النَّفس وإعطائها حَقّهَا مِمَّا يصلحها؛ فَإِن المَاء الْحَار يوهن الأمعاء، ويولد رهلا، وَيفْسد الهضم ويذبل الْبدن، وَالْمَاء الْبَارِد يُقَوي الشَّهْوَة، ويشد الْمعدة، وَيحسن اللَّوْن، وَيمْنَع عفن الدَّم وصعود الأبخرة إِلَىٰ الدِّمَاغ، ويحفظ الصِّحَّة، إِلَّا أنه يَنْبَغِي أن يكون معتدلا، فَإِن المثلوج والشديد الْبُرُودَة يُؤْذِي. وَفِي هَذَا رد علىٰ جهلة المتزهدين الَّذين حرمُوا أنفسهم حظوظها الْمصلحَة لَهَا، وحملوا عَلَيْهَا مَا تعجز عَنهُ، وهم إِلَىٰ أن يذموا بظُلْم النُّفُوس أقرب من أن يمدحوا بترك الْمصَالح».

(١) الْحَسَنِ:[٥٩-٨٧]. وَسُفْيَانَ:[١٤-١١٨]. وَمَالِكٍ وَأَبِي حَنِيْفَةَ:[١٣٣-٢٥]. وَأَحْمَدَ:[٢٤-١٧٩]. وَالشَّافِعِيِّ:[٤٧-٦١].

يَحْتَاجُ إِلَىٰ جَمِيْعِ الْعُلُوْمِ؛ فَلْيَأْخُذْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا مُهِمًّا.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ الْفُقَهَاءِ يَقُوْلُ: اجْتَمَعَ الشِّبْلِيُّ وَشَرِيْكُ الْقَاضِي[1]! فَاسْتَعْجَبْتُ لَهُ! كَيْفَ لا يَدْرِي بُعْدَ مَا بَيْنَهُمَا؟!

وَقَالَ آخَرُ فِي مُنَاظَرَةٍ: كَانَتِ الزَّوْجِيَّةُ بَيْنَ فَاطِمَةَ وَعَلِيٍّ ﵄ غَيْرَ مُنْقَطِعَةِ الْحُكْمِ؛ فَلِهَذَا غَسَّلَهَا! فَقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ! فَقَدْ تَزَوَّجَ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ، وَهِيَ ابْنَةُ أُخْتِهَا![2] فَانْقَطَعَ[3].

وَرَأَيْتُ فِي كِتَابِ «إِحْيَاءُ عُلُوْمِ الدِّيْنِ» لِلْغَزَالِي[4] مِنْ هَذَا مَا يُدْهِشُ مِنَ التَّخْلِيْطِ فِي الأَحَادِيْثِ وَالتَّوَارِيْخِ؛ فَجَمَعْتُ مِنْ أَغَالِيْطِهِ فِي كِتَابٍ[5].

وَقَدْ ذَكَرَ فِي كِتَابٍ لَهُ سَمَّاهُ «الْمُسْتَظْهِرِي»[6] وَعَرَضَهُ عَلَىٰ الْمُسْتَظْهِرِ بِاللهِ[7]: أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِك[8] بَعَثَ إِلَىٰ أَبِي حَازِمٍ[9]، فَقَالَ لَهُ: ابْعَثْ لِي مِنْ فُطُوْرِكَ! فَبَعَثَ إِلَيْهِ

---

(١) ترجمة الشِّبْلِيُّ في:[٧-٨٠]. وَشَرِيْكُ الْقَاضِي بنُ عَبْدِ اللهِ أَبُو عَبْدِ اللهِ النَّخَعِيُّ، الحَافِظُ، أَحَدُ الأَعْلَامِ، عَلَىٰ لِيْنٍ مَا فِي حَدِيْثِهِ.(م٩٥هـ-ت١٧٧هـ)؛ وَالشِّبْلِيّ:(م٢٤٧هـ-ت٣٣٤هـ)؛ فكيف يلتقيان؟!.

(٢) تَغْسِيل الزَّوْجِ لِزَوْجَتِهِ: ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ فِي الأَصَحِّ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ إِلَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ لِلزَّوْجِ غُسْلُهَا، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الثَّوْرِيُّ؛ لأَنَّ الْمَوْتَ فُرْقَةٌ تُبِيحُ أُخْتَهَا وَأَرْبَعًا سِوَاهَا، فَحَرَّمَتِ الْفُرْقَةُ النَّظَرَ وَاللَّمْسَ كَالطَّلَاقِ. وَيَرَىٰ الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ، وَهُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ أَنَّ لِلزَّوْجِ غُسْل امْرَأَتِهِ، وَهُوَ قَوْل عَلْقَمَةَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ وَقَتَادَةَ وَحَمَّادٍ وَإِسْحَاقَ؛ لأَنَّ عَلِيًّا ﵁ غَسَّل فَاطِمَةَ ﵂ وَاشْتَهَرَ ذَلِكَ فِي الصَّحَابَةِ فَلَمْ يُنْكِرُوهُ، فَكَانَ إِجْمَاعًا. وَلأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال لِعَائِشَةَ ﵂: مَا ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِي فَقُمْتُ عَلَيْكِ، فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ، وَصَلَّيْتُ عَلَيْكِ، وَدَفَنْتُكِ.

(٣) انْقَطَعَ؛ أي: لم يستطع الجواب وتحير. أو حيل بينه وبين ما يأمله، ويئس.

(٤) تقدم الكلام علىٰ كتاب «إِحْيَاء عُلُوم الدِّيْن». وترجمة أَبُو حَامِدٍ الْغَزَّالِيّ الطُّوسِيّ في الخاطرة رقم:[١٢٩-٣٦٢].

(٥) لم أعثر علىٰ هذا الكتاب. وله:«منهاج القاصدين ومفيد الصادقين». اختصر فيه كتاب «الإحياء». وهو مطبوع.

(٦) كِتَاب:«الْمُسْتَظْهِرِي فِي فَضَائِحِ الْبَاطِنِيَّةِ» أو «فَضَائِحُ الْبَاطِنِيَّةِ» أَهْدَاهُ إِلَىٰ الْخَلِيْفَةِ. وهو مطبوع.

(٧) الْمُسْتَظْهِرِ بِاللهِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بنُ الْمُقْتَدِي بِأَمر الله. كَانَ مَوْصُوْفًا بِالسَّخَاء وَالجُود، مَاتَ سَنَةَ:(٥١٢هـ).

(٨) سُلَيْمَانُ بنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بنِ مَرْوَانَ الأُمَوِيُّ. كَانَ دَيِّنًا، فَصِيْحًا، مُفَوَّهًا، عَادِلًا، مُحِبًّا لِلْغَزْوِ مَاتَ سَنَةَ:(٩٩هـ).

(٩) أَبُو حَازِمٍ: سَلَمَةُ بنُ دِيْنَارٍ الْمَدِيْنِيُّ الْمَخْزُوْمِيُّ الإِمَامُ، الْقُدْوَةُ، الوَاعِظُ، شَيْخُ الْمَدِيْنَةِ النَّبَوِيَّةِ. (ت:١٤٠هـ).

نُخَالَةً مَقْلُوَّةً، فَأَفْطَرَ عَلَيْهَا، ثُمَّ جَامَعَ زَوْجَتَهُ، فَجَاءَتْ بِعَبْدِ الْعَزِيزِ، ثُمَّ وَلَدَ لَهُ عُمَرُ[١]!!.

وَهَذَا تَخْلِيطٌ قَبِيحٌ؛ فَإِنَّهُ جَعَلَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ! فَجَعَلَ سُلَيْمَانَ جَدَّهُ، وَإِنَّمَا هُوَ ابْنُ عَمِّهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الْمَعَالِي الْجُوَيْنِيُّ[٢] فِي أَوَاخِرِ كِتَابِ «الشَّامِلِ فِي الْأُصُولِ»[٣]؛ قَالَ: «قَدْ ذَكَرَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الثِّقَاتِ الْمُعْتَنِينَ بِالْبَحْثِ عَنِ الْبَوَاطِنِ أَنَّ الْحَلَّاجَ وَالْجَنَّابِيَّ[٤] الْقِرْمِطِيَّ وَابْنَ الْمُقَفَّعِ[٥] تَوَاصَوْا عَلَىٰ قَلْبِ الدُّوَلِ، وَإِفْسَادِ الْمَمْلَكَةِ، وَاسْتِعْطَافِ الْقُلُوبِ، وَارْتَادَ كُلٌّ مِنْهُمْ قُطْرًا[٦].

فَقَطَنَ الْجَنَّابِيُّ فِي الْأَحْسَاءِ، وَتَوَغَّلَ ابْنُ الْمُقَنَّعِ فِي أَطْرَافِ بِلَادِ التُّرْكِ[٧]، وَقَطَنَ الْحَلَّاجُ

---

(١) عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ بنِ الحَكَمِ أَمِيرُ مِصْرَ، أَبُو الأَصْبَغِ. وَثَّقَهُ: ابْنُ سَعْدٍ وَالنَّسَائِيُّ. مَاتَ سَنَةَ:(٨٥هـ). وَابنه: عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ بنِ مَرْوَانَ الأُمَوِيُّ الإِمَامُ، العَلَامَةُ، أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ، أَبُو حَفْصٍ، الزَّاهِدُ، الرَّاشِدُ. مَاتَ سَنَةَ:(١٠١هـ).

(٢) أَبُو المَعَالِي الجُوَيْنِيُّ: عَبْدُ المَلِكِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بنِ يُوسُفَ، ضِيَاءُ الدِّينِ، إِمَامُ الحَرَمَيْنِ. مَاتَ سَنَةَ:(٤٧٨هـ).

(٣) كِتَاب «الشَّامِلُ فِي أُصُولِ الدِّينِ» مِنْ كُتُبِ الجُوَيْنِي الكَلَامِيَّةِ المُطَوَّلَةِ، لَم يُعْثَرْ عَلَيْهِ كَامِلًا، طُبِعَ جُزْء مِنْهُ بِدَارِ العَرَبِ لِلبستَانِي القاهرة. ثُمَّ طُبِعَ جُزْء أَكْبَر بِدَارِ المَعَارِف، الإِسْكَنْدَرِية، ١٣٨٩هـ=١٩٦٩م.

(٤) جاء في الأصل:[الجبائي] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه من «وفيات الأعيان» لابن خلكان.

(٥) جاء في الأصل:[المُقَنَّع] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه من «وفيات الأعيان». * وَابْنُ المُقَنَّعُ: عَطَاءٌ السَّاحِرُ العَجَمِيُّ، ادَّعَىٰ الرُّبُوبِيَّةَ، وَرَبَطَ النَّاسَ بِالخَوَارِقِ وَالأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، حَتَّىٰ ضَلَّ بِهِ خَلَائِقُ مِنَ الصُّمِّ وَالبُكْمِ. جَيَّشَ لَهُ المَهْدِيّ إِلَيْهِ الجُيُوش فَسَمَّ نَفْسَهُ وَمَاتَ سَنَةَ:(١٦٣هـ).

(٦) الحَلَّاجُ الحُسَيْنُ بنُ مَنْصُورِ بن مَحْمِيٍّ، أَبُو عَبْدِ اللهِ - وَيُقَالُ: أَبُو مُغِيثٍ - الفَارِسِيُّ، الصُّوفِيُّ. وَالبَيْضَاء: مَدِينَة بِبلَادِ فَارس. تبرأ مِنْهُ سَائِرُ الصُّوفِيَّةِ وَالمَشَايِخِ وَالعُلَمَاءِ، هَلَكَ سَنَةَ:(٣٠٩هـ). وَالجَنَّابِيُّ القِرْمِطِيُّ الحَسَن بْن بِهْرَام الجَنَّابِيُّ، أَبُو سَعِيد: كَبِيرُ القَرَامِطَةِ وَمُعْلِنِ مَذْهَبِهِم. قُتِلَ عَلَىٰ يَدِي خَادِمِهِ سَنَةَ:(٣٠١ هـ). وَابنُ المُقَفَّعِ عَبْدُ اللهِ بنُ المُقَفَّعِ أَحَدُ البُلَغَاءِ وَالفُصَحَاءِ، وَرَأْسُ الكُتَّابِ، كَانَ مِنْ مَجُوسِ فَارِسٍ، فَأَسْلَمَ عَلَىٰ يَدِ الأَمِيرِ عِيسَىٰ عَمّ السَّفَّاحِ، وَكَتَبَ لَهُ. وَكَانَ ابنُ المُقَفَّعِ يُتَّهَمُ بِالزَّنْدَقَةِ، وَهُوَ الَّذِي عَرَّبَ (كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ) . وَأُهْلِكَ فِي سَنَةِ:(١٤٤هـ).

(٧) قَالَ ابْنُ خَلِّكَان فِي «وَفَيَات الأَعْيَان»(ج٢/ ص١٥١): «ابْنُ المُقَفَّع لَم يُفَارِق العِرَاق، فَكَيْفَ يَقُول: إِنَّهُ تَوَغَّل فِي بِلَاد التُّرك، وَإِنَّمَا كَانَ مُقِيمًا بِالبَصرَة وَيَتَرَدَّد فِي بِلَاد العِرَاق، وَلَم تَكُن بَغْدَاد مَوْجُودَة فِي زَمَنِهِ، فَإِنَّ المَنْصُور أَنْشَأَهَا فِي مُدَّةِ خِلَافَتِهِ: فَاخْتَطَّهَا فِي سَنَةِ:(١٤٠هـ)، وَاسْتَتَمّ بِنَاءهَا وَنَزَلَهَا فِي سَنَة:(١٤٦هـ)، وَفِي سَنَةِ (١٤٩هـ) تَمَّ جَمِيع بِنَائِهَا».

بِبَغْدَادَ، فَحَكَمَ عَلَيْهِ صَاحِبَاهُ بِالْهَلَكَةِ[١] وَالْقُصُوْرِ عَنْ بُلُوْغِ الأُمْنِيَةِ؛ لِبُعْدِ أَهْلِ بَغْدَادَ عَنِ الانْخِدَاعِ، وَتَوَفُّرِ فِطْنَتِهِم، وصِدقِ فِرَاسَتِهِم».

قُلْتُ: وَلَوْ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ أَوْ مَنْ حَكَىٰ عَنْهُ عَرَفَ التَّارِيْخَ؛ لَعَلِمَ أَنَّ الْحَلَّاجَ لَمْ يُدْرِكِ ابْنَ الْمُقَفَّعِ؛ فَإِنَّ ابْنَ الْمُقَفَّعِ أَمَرَ بِقَتْلِهِ الْمَنْصُوْرُ[٢]، فَقُتِلَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَمِئَةٍ، وَأَبُو سَعِيْدٍ الْجَنَّابِيُّ[٣] الْقِرْمِطِيُّ ظَهَرَ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِيْنَ وَمِئَتَيْنِ، وَالْحَلَّاجُ قُتِلَ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِ مِئَةٍ؛ فَزَمَانُ الْقِرْمِطِيِّ وَالْحَلَّاجِ مُتَقَارِبَانِ؛ فَأَمَّا ابْنُ الْمُقَفَّعِ[٤]؛ فَكَلَّا[٥].

فَيَنْبَغِي لِكُلِّ ذِي عِلْمٍ أَنْ يُسَاهِمَ بِبَاقِي الْعُلُوْمِ، فَيُطَالِعَ مِنْهَا طَرَفًا؛ إِذْ لِكُلِّ عِلْمٍ بِعِلْمٍ تَعَلُّقٌ.

وَأَقْبَحُ[٦] بِمُحَدِّثٍ يُسْأَلُ عَنْ حَادِثَةٍ فَلَا يَدْرِي، وَقَدْ شَغَلَهُ مِنْهَا جَمْعُ الأَحَادِيْثِ.

---

(١) المَقْصُودُ بِصَاحِبَاهُ: أَبِي مُحَمَّدٍ الجَرِيْرِيّ، وَالشِّبْلِيّ؛ كما في «سير أعلام النبلاء» للذهبي. في ترجمة: الحَلاَّجُ.

(٢) جاء في الأصل:[الْمُقَنَّعِ] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لأنَّ الَّذِي قَتَلَهُ الْمَنْصُوْرُ هو عَبْدُ اللهِ بنُ الْمُقَفَّعِ.

(٣) جاء في الأصل:[الجبائي] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه من «وفيات الأعيان» لابن خلكان.

(٤) جاء في الأصل:[الْمُقَنَّعِ] ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه.

(٥) قال ابن خلكان «وفيات الأعيان» (ج٢/ ص١٥٥): «وَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَىٰ كَلَامِ إِمَام الحَرَمَيْن - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ - وَلَم يُمْكِنُ أن يَكُون اِبْن المُقَفَّع أَحد الثَّلَاثَة المَذْكُورِين قُلْتُ: لَعَلَّهُ أَرَادَ المُقَنَّع الخُرَاسَانِيّ الَّذِي ادَّعَىٰ الرُّبُوبِيَّة وَيَكُون النَّاسِخ قَد حَرَّفَ كَلَام الإِمَام فَأَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ المُقَنّع فَكَتَبَ المُقَفَّع فَإِنَّهُ يَقْرُب مِنْهُ في الخَطّ. فَيَكُون الغَلَط وَالتَّحْرِيف مِنَ النَّاسِخ لَا مِنَ الإِمَام، ثُمَّ أَفْكَرْتُ في أنه لا يَسْتَقِيم أَيْضًا، لِأَنَّ المُقَنَّع الخُرَاسَانِي قَتَلَ نَفْسَهُ بِالسُّمّ في سَنة:(٢٦٣) فَمَا أَدْرَكَ الحَلَّاج وَالجُنَّابِي أَيْضًا. وَإِذَا أَرَدْنَا تَصْحِيْح هَذَا القَوْل وَأَنَّ ثَلَاثَة اِجْتَمَعُوا وَاتَّفَقُوا عَلَىٰ الصُّوْرَة الَّتِي ذَكَرَهَا إِمَامُ الحَرَمَيْن فَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ الثَّالِثُ إِلَّا اِبْن الشَّلْمَغَانِيُّ، فَإِنَّهُ كَانَ في عَصْر الحَلَّاج وَالجُنَّابِيّ، وَأُمُوْره كُلّهَا مَبْنِيَّة عَلَىٰ التَّموِيْهَات، وَقَد ذَكَرَهُ جَمَاعَة مِنْ أَرْبَابِ التَّارِيْخ، فَقَالَ شَيْخُنَا اِبْنُ الأَثِيْر في «تَارِيْخِهِ» في سَنَةِ:(٣٢٢هـ) فَصْلًا طَوِيْلًا اِخْتَصَرتُه، وَفِيْهِ: وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ قُتِلَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الشَّلْمَغَانِيُّ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ أَبِي الْعَزَاقِرِ، (وَشَلْمَغَانُ قَرْيَةٌ بِنَوَاحِي وَاسِطَ)». للتذكرة: الْحَلَّاجُ وَالْجَنَّابِيُّ ماتا سنة:(٣٠١ هـ). وَالشَّلْمَغَانِيُّ مَاتَ في سَنَةِ:(٣٢٢هـ). وَأَمَّا ابنُ الْمُقَفَّع فَمَات في سَنَةِ:(١٤١هـ).

(٦) جاء في الأصل:[وما أقبح]، وهذا لا يستقيم مع ما بعده، وما أثبتناه هو الصواب؛ لتمام المعنىٰ به.

وَقَبِيحٌ بِالْفَقِيهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: مَا مَعْنَىٰ قَوْلِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ كَذَا؟ فَلَا يَدْرِي صِحَّةَ الْحَدِيْثِ وَلَا مَعْنَاهُ!
نَسْأَلُ اللهَ ﷻ هِمَّةً عَالِيَةً، لَا تَرْضَىٰ بِالنَّقَائِصِ بِمَنِّهِ وَلُطْفِهِ.

*[١٥٠ - ١٦٥] [خَاطِرَةٌ]:

[نفعُ التَّصنيف واغتنامه في وَسط العُمر]

رَأَيْتُ مِنَ الرَّأْيِ القَوِيْمِ أَنَّ نَفْعَ التَّصَانِيْفِ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِ التَّعْلِيْمِ بِالْمُشَافَهَةِ؛ لِأَنِّي أُشَافِهُ فِي عُمُرِي عَدَدًا مِنَ الْمُتَعَلِّمِيْنَ، وَأُشَافِهُ بِتَصْنِيْفِي خَلْقًا لَا تُحْصَىٰ مَا خُلِقُوْا بَعْدُ، وَدَلِيْلُ هَذَا أَنَّ انْتِفَاعَ النَّاسِ بِتَصَانِيْفِ الْمُتَقَدِّمِيْنَ أَكْثَرُ مِنِ انْتِفَاعِهِم بِمَا يَسْتَفِيْدُوْنَهُ مِنْ مَشَايِخِهِم.

فَيَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَتَوَفَّرَ عَلَىٰ التَّصَانِيْفِ إِنْ وُفِّقَ لِلتَّصْنِيْفِ الْمُفِيْدِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ صَنَّفَ صَنَّفَ، وَلَيْسَ الْمَقْصُوْدُ جَمْعَ شَيْءٍ كَيْفَ كَانَ، وَإِنَّمَا هِيَ أَسْرَارٌ يُطْلِعُ اللهُ ﷻ عَلَيْهَا مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَيُوَفِّقُهُ لِكَشْفِهَا؛ فَيَجْمَعُ مَا فُرِّقَ، أَوْ يُرَتِّبُ مَا شُتِّتَ، أَوْ يَشْرَحُ مَا أُهمِلَ، هَذَا هُوَ التَّصْنِيْفُ الْمُفِيْدُ[١].

وَيَنْبَغِي اغْتِنَامُ التَّصْنِيْفِ فِي وَسَطِ الْعُمُرِ؛ لِأَنَّ أَوَائِلَ الْعُمُرِ زَمَنُ الطَّلَبِ، وَآخِرَهُ كَلَالُ الحَوَاسِّ[٢]. وَرُبَّمَا خَانَ الْفَهْمُ وَالْعَقْلُ مَنْ قَدَّرَ عُمُرَهُ، وَإِنَّمَا يَكُوْنُ التَّقْدِيْرُ عَلَىٰ العَادَاتِ الغَالِبَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ. فَيَكُوْنُ زَمَانُ الطَّلَبِ وَالحِفْظِ وَالتَّشَاغُلِ إِلَىٰ الأَرْبَعِيْنَ.

ثُمَّ يَبْتَدِئُ بَعْدَ الأَرْبَعِيْنَ بِالتَّصَانِيْفِ وَالتَّعْلِيْمِ، هَذَا إِذَا كَانَ قَدْ بَلَغَ مَعَ مَا يُرِيْدُ مِنَ الْجَمْعِ وَالْحِفْظِ، وَأُعِيْنَ عَلَىٰ تَحْصِيْلِ الْمَطَالِبِ. فَأَمَّا إِذَا قَلَّتِ الآلَاتُ عِنْدَهُ مِنَ الْكُتُبِ، أَوْ كَانَ فِي

(١) ذكر الإمام ابن الجوزي بعض مقاصد التأليف، وقد أجملها العلماء في سبعة مقاصد: (١- شيء لم يُسبق إلىٰ استخراجه فيستخرجه. ٢- شيء ناقص فيتممه. ٣- شيء مُخطأ فيصحّحه. ٤- شيء مُستغلق فيشرحه. ٥- شيء طويل فيختصره. ٦- شيء مُتفرق فيجمعه. ٧- شيء مثور فيرتبه).

(٢) كَلَالُ الحَوَاسِّ: التَّعب والإعياء والضعف.

أَوَّلِ عُمُرِهِ ضَعِيفَ الطَّلَبِ، فَلَمْ يَنَلْ مَا يُرِيْدُهُ فِي هَذَا الأَوَانِ؛ أَخَّرَ التَّصَانِيْفَ إِلَىٰ تَمَامِ خَمْسِيْنَ سَنَةً، ثُمَّ ابْتَدَأَ بَعْدَ الْخَمْسِيْنَ فِي التَّصْنِيْفِ وَالتَّعْلِيْمِ إِلَىٰ رَأْسِ السِّتِّيْنَ.

ثُمَّ يَزِيْدُ فِيْمَا بَعْدَ السِّتِّيْنَ فِي التَّعْلِيْمِ، وَيُسْمِعُ الحَدِيْثَ وَالعِلْمَ، وَيُعَلِّلُ التَّصَانِيْفَ[1] إِلَىٰ أَنْ يَقَعَ مُهِمٌّ إِلَىٰ رَأْسِ السَّبْعِيْنَ.

فَإِذَا جَاوَزَ السَّبْعِيْنَ؛ جَعَلَ الْغَالِبَ عَلَيْهِ ذِكْرَ الآخِرَةِ وَالتَّهَيُّؤَ لِلرَّحِيْلِ، فَيُوَفِّرُ نَفْسَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ إِلَّا مِنْ تَعْلِيْمٍ يَحْتَسِبُهُ، أَوْ تَصْنِيْفٍ يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ؛ فَذَلِكَ أَشْرَفُ الْعُدَدِ لِلآخِرَةِ.

وَلْتَكُنْ هِمَّتُهُ فِي تَنْظِيْفِ نَفْسِهِ، وَتَهْذِيْبِ خِلَالِهِ[2]، وَالْمُبَالَغَةِ فِي اسْتِدْرَاكِ زَلَّاتِهِ؛ فَإِنِ اخْتُطِفَ فِي خِلَالِ مَا ذَكَرْنَاهُ؛ فَـ«نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»[3]، وَإِنْ بَلَغَ إِلَىٰ هَذِهِ الْمَنَازِلِ؛ فَقَدْ بَيَّنَّا مَا يَصْلُحُ لِكُلِّ مَنْزِلٍ.

وَقَدْ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: مَنْ بَلَغَ سِنَّ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ؛ فَلْيَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ كَفَنًا[4].

وَقَدْ بَلَغَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ سَبْعًا وَسَبْعِيْنَ سَنَةً، مِنْهُم أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ؛ فَإِنْ بَلَغَهَا؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ عَلَىٰ شَفِيْرِ الْقَبْرِ، وَأَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَأْتِي بَعْدَهَا مُسْتَطْرَفٌ[5].

---

(١) هكذا في الأصل. وجاء في مخطوط:(ي):[وَبَطَلَ]. وفي المطبوع:[وَيُقَلِّلُ] ولكلٍ معنىً وهو صحيح. أمَّا:[وَيُعَلِّلُ]؛ أي: بيَّن عِلَّته، وَفَسَّره، وأثبته بالدَّليل والبُرهان. و[وَبَطَلَ]؛ أي: عطَّل. و[وَيُقَلِّلُ] جعله قليلًا أو أنقصه. والمعنىٰ: ثُمَّ يَزِيْدُ فِيْمَا بَعْدَ السِّتِّيْنَ فِي التَّعْلِيْمِ، وَيُسْمِعُ الْحَدِيْثَ وَالْعِلْمَ، وَيُعَلِّلُ التَّصَانِيْفَ الَّتِي صَنَّفَهَا؛ بأن يُراجعها فيبين ما حقه البيان، إلىٰ غير ذلك من الأمور. أَوَ يُقَلِّلُ أَوْ يُعَطِّلُ التَّصنيف إِلَىٰ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ مُهِمٌّ احتِيجَ فِيْهِ إلىٰ التَّصنيف.

(٢) خِلَالِهِ؛ أي: خصاله. مفردها: خُلَّة؛ أي: خصلة فضيلةً كانت أو رذيلةً وقد غلبت الخصلة علىٰ الفضيلة.

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان»(٦٤٤٥، ٦٤٤٧). وأبو نعيم في «الحلية»(ج٢/ ص٢٣٦، ج٣/ ص٧٠) عن ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ، وَيَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ.[يُنظر:«السلسلة الضعيفة»(٢٢١٦، ٢٧٨٩، ٦٠٤٥، ٦٠٤٦). «ضعيف الجامع»(٥٩٧٦، ٥٩٧٧)].

(٤) تقدمت ترجمة سفيان الثوري في الخاطرة رقم:[١٤-١١٨]. الخبر في «حلية الأولياء» لأبي نعيم.(ج٧/ ص٧٣).

(٥) شَفِيْرِ: حرفُ الشَّيء وجانبُه. والْمُسْتَطْرَفُ: المستأنف أو المستحدث، تقول: استطرف الشَّيءَ: استحدثه. وكأن كل يوم يأتي علىٰ الإنسان بعد السبعين بل وقبلها هو عمر جديد له وفرصة يجب أن يستفيد منها فهو كالغنيمة.

فَإِنْ تَمَّتْ لَهُ الثَمَانُوْنَ؛ فَلْيَجْعَلْ هِمَّتَهُ كُلَّهَا مَصْرُوْفَةً إِلَىٰ تَنْظِيْفِ خِلَالِهِ، وَتَهْيِئَةِ زَادِهِ، وَلْيَجْعَلِ الاسْتِغْفَارِ حَلِيْفَهُ، وَالذِّكْرَ أَلِيْفَهُ، وَلْيُدَقِّقْ فِي مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، وَفِي بَذْلِ الْعِلْمِ، أَوْ مُخَالَطَةِ الْخَلْقِ.

فَإِنَّ قُرْبَ الاسْتِعْرَاضِ لِلْجَيْشِ يُوْجِبُ عَلَيْهِ الْحَذَرَ مِنَ الْعَارِضِ[1]، وَلْيُبَالِغْ فِي إِبْقَاءِ أَثَرِهِ قَبْلَ رَحِيْلِهِ؛ مِثْلُ بَثِّ عِلْمِهِ، وَإِنْفَاقِ كُتُبِهِ، وَشَيْءٍ مِنْ مَالِهِ.

وَبَعْدُ: فَمَنْ تَوَلَّاهُ اللهُ ﷻ عَلَّمَهُ، وَمَنْ أَرَادَهُ أَلْهَمَهُ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يُنْعِمَ عَلَيْنَا بِأَنْ يَتَوَلَّانَا، وَلَا يَتَوَلَّىٰ عَنَّا، إِنَّهُ قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ.

*[١٥١ - ٣٣٩] [خَاطِرَةٌ]:

[مِنْ أَسْبَابِ الْكَمَالِ فِي الطَّلَبِ: الاطِّلَاعُ عَلَىٰ الْكُتُبِ]

كَانَتْ هِمَمُ الْقُدَمَاءِ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَالِيَةً، تَدُلُّ عَلَيْهَا تَصَانِيْفُهُم، الَّتِي هِيَ زُبْدَةُ أَعْمَارِهِمْ؛ إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَ تَصَانِيْفِهِم دُثِرَتْ[2]؛ لِأَنَّ هِمَمَ الطُّلَّابِ ضَعُفَتْ، فَصَارُوْا يَطْلُبُوْنَ الْمُخْتَصَرَاتِ، وَلَا يَنْشَطُوْنَ لِلْمُطَوَّلَاتِ، ثُمَّ اقْتَصَرُوْا عَلَىٰ مَا يَدْرُسُوْنَ بِهِ مِنْ بَعْضِهَا، فَدُثِرَتِ الْكُتُبُ، وَلَمْ تُنْسَخْ!

فَسَبِيْلُ طَالِبِ الْكَمَالِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الاطِّلَاعُ عَلَىٰ الْكُتُبِ، الَّتِي قَدْ تَخَلَّفَتْ مِنَ الْمُصَنَّفَاتِ؛ فَلْيُكْثِرْ مِنَ الْمُطَالَعَةِ؛ فَإِنَّهُ يَرَىٰ مِنْ عُلُوْمِ الْقَوْمِ، وَعُلُوِّ هِمَمِهِم مَا يَشْحَذُ خَاطِرَهُ، وَيُحَرِّكُ عَزِيْمَتَهُ لِلْجِدِّ، وَمَا يَخْلُوْ كِتَابٌ مِنْ فَائِدَةٍ.

وَأَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ سِيَرِ هَؤُلَاءِ الَّذِيْنَ نُعَاشِرُهُم! لَا نَرَىٰ فِيْهِم ذَا هِمَّةٍ عَالِيَةٍ؛ فَيَقْتَدِي بِهَا الْمُبْتَدِئ، وَلَا صَاحِبَ وَرَعٍ، فَيَسْتَفِيْدَ مِنْهُ الزَّاهِدُ.

---

(١) الْعَارِضِ: حادثٌ غير مُتوقَّع.

(٢) دُثِرَتْ؛ أي: زَالَتْ وَامَّحَت.

فَاللهَ اللهَ وَعَلَيْكُمْ بِمُلاحظَةِ سِيَرِ السَّلَفِ، وَمُطَالَعَةِ تَصَانِيْفِهِم وَأَخْبَارِهِم؛ فَالاسْتِكْثَارُ مِنْ مُطَالَعَةِ كُتُبِهِم رُؤْيَةٌ لَهُم، كَمَا قَالَ(١):

فَــاتَنِي أَنْ أَرَىٰ الــدِّيَارَ بِطَرْفِــي ... فَلَعَلِّـي أَرَىٰ الــدِّيَارَ بِسَــمْعِي

وَإِنِّي أُخْبِرُ عَنْ حَالِي: مَا أَشْبَعُ مِنْ مُطَالَعَةِ الْكُتُبِ، وَإِذَا رَأَيْتُ كِتَابًا لَمْ أَرَهُ؛ فَكَأَنِّي وَقَعْتُ عَلَىٰ كَنْزٍ؛ وَلَقَدْ نَظَرْتُ فِي ثَبَتِ الْكُتُبِ الْمَوْقُوْفَةِ فِي الْمَدْرَسَةِ النِّظَامِيَّةِ(٢)؛ فَإِذَا بِهِ يَحْتَوِي عَلَىٰ نَحْوِ سِتَّةِ آلَافِ مُجَلَّدٍ، وَفِي ثَبَتِ كُتُبِ أَبِي حَنِيْفَةَ، وَكُتُبِ الْحُمِيْدِيِّ، وَكُتُبِ شَيْخِنَا عَبْدِ الْوَهَّابِ، وَابْنِ نَاصِرٍ، وَكُتُبِ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ الخَشَّابِ(٣) - وَكَانَتْ أَحْمَالًا - وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ كِتَابٍ أَقْدِرُ عَلَيْهِ.

وَلَوْ قُلْتُ: إِنِّي طَالَعْتُ عِشْرِيْنَ أَلْفَ مُجَلَّدٍ؛ كَانَ أَكْثَرَ، وَأَنَا بَعْدُ فِي الطَّلَبِ!

فَاسْتَفَدْتُ بِالنَّظَرِ فِيْهَا مِنْ مُلَاحَظَةِ سِيَرِ الْقَوْمِ، وَقَدْرِ هِمَمِهِم، وَحِفْظِهِم وَعِبَادَاتِهِم، وَغَرَائِبِ عُلُوْمِهِم: مَا لَا يَعْرِفُهُ مَنْ لَمْ يُطَالِعْ، فَصِرْتُ أَسْتَزْرِي مَا النَّاسُ فِيْهِ(٤)، وَأَحْتَقِرُ هِمَمَ الطُّلَّابِ. وَللهِ الْحَمْدُ.

---

(١) البيت من البحر :[الخفيف]، وقائله: الشريف الرضي.

(٢) ثَبَت الْكُتُبِ: الثَّبَتُ: فهرسُ الكتاب. والمَدْرَسَة النِّظَامِيَّة: أَنْشَأَهَا الوَزِيْرِ الكَبِير أَبُو عَلِيٍّ، الحَسَنُ بنُ عَلِيِّ بنِ نَصْر بن مَنْصُوْرِ الطُّوْسِيِّ. المَعرُوف بِنِظَام المَلِك، وَبُدِأَ التَدرِيس فِيْهَا سَنَةَ:(٤٥٩هـ).

(٣) أَبُو حَنِيْفَةَ؛ ترجمته في:[١٢٣-٢٥]، والحُمِيْدِيُّ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي نَصْرٍ فُتُّوح بن عَبْدِ اللهِ. الإِمَامُ، القُدْوَةُ، شَيْخُ المُحَدِّثِيْنَ. مَاتَ سَنَةَ:(٤٨٨هـ). وَعَبْدِ الْوَهَّاب الأَنْمَاطِيُّ؛ ترجمته في:[١٢٥-٩٤]. وَابْنُ نَاصِرٍ مُحَمَّدُ بنُ نَاصرِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيٍّ السَّلَامِيُّ. كَانَ فَصِيْحًا، جمَّ الفَضَائِل. مَاتَ سَنَةَ:(٥٥٠هـ). وَابْنِ الخَشَّاب ترجمته في:[١٣٤-٢٢٧].

(٤) أَسْتَزْرِي: استخف أو أحتقر. والازدراء أقسىٰ أنواع التأنيب.

*[١٥٢ - ٦٩] [خَاطِرَةٌ]:

[مَنِ اقْتَصَرَ عَلَى مَا يَعْلَمُهُ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ]

أَفْضَلُ الأَشْيَاءِ التَّزَيُّدُ مِنَ الْعِلْمِ(١)؛ فَإِنَّهُ مَنِ اقْتَصَرَ عَلَىٰ مَا يَعْلَمُهُ، فَظَنَّهُ كَافِيًا؛ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ(٢)، وَصَارَ تَعْظِيمُهُ لِنَفْسِهِ مَانِعًا لَهُ مِنَ الاسْتِفَادَةِ، وَالْمُذَاكَرَةُ تُبَيِّنُ لَهُ خَطَأَهُ، وَرُبَّمَا كَانَ مُعَظَّمًا فِي النُّفُوسِ، فَلَمْ يُتَجَاسَرْ عَلَىٰ الرَّدِّ عَلَيْهِ(٣)، وَلَوْ أَنَّهُ أَظْهَرَ الاسْتِفَادَةَ؛ لأُهْدِيَتْ إِلَيْهِ مَسَاوِئُهُ، فَعَادَ عَنْهَا.

وَلَقَدْ حَكَىٰ اِبْنُ عَقِيْلٍ عَنْ أَبِي الْمَعَالِي الْجُوَيْنِيِّ(٤): أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَعْلَمُ جُمَلَ الأَشْيَاءِ وَلَا يَعْلَمُ التَّفَاصِيْلَ»!.

وَلا أَدْرِي أَيَّ شُبْهَةٍ وَقَعَتْ فِي وَجْهِ هَذَا الْمِسْكِيْنِ حَتَّىٰ قَالَ هَذَا!.

وَكَذَلِكَ أَبُوْ حَامِدٍ(٥) حِيْنَ قَالَ: «النُّزُوْلُ التَّنَقُّلُ، وَالاسْتِوَاءُ مُمَاسَّةٌ»!.

وَكَيْفَ أَصِفُ هَذَا بِالْفِقْهِ، أَوْ هَذَا بِالزُّهْدِ(٦)، وَهُوَ لَا يَدْرِي مَا يَجُوْزُ عَلَىٰ اللهِ مِمَّا لَا يَجُوْزُ؟! وَلَوْ أَنَّهُ تَرَكَ تَعْظِيْمَ نَفْسِهِ؛ لَرَدَّ صِبْيَانُ الْكُتَّابِ رَأْيَهُ عَلَيْهِ، فَبَانَ لَهُ صِدْقُهُمْ.

وَمِنْ هَذَا الفَنِّ أَبُوْ بَكْرِ بْنُ مِقْسَمٍ(٧)؛ فَإِنَّهُ عَمِلَ كِتَابَ «الاحْتِجَاجِ لِلْقُرَّاءِ»(٨) فَأَتَىٰ فِيْهِ بِفَوَائِدَ؛ إِلَّا

---

(١) التَّزَيُّدُ مِنَ الْعِلْمِ: تحصيل الكثير منه.

(٢) اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ: انفرد به، مضىٰ عليه ولم يستشر أحدًا.

(٣) تجاسر عليه: اجترأ عليه وأقدم. وتجاسر الشَّخْصُ: تشجَّع، تطاول ورفع رأسه

(٤) تقدمت ترجمت اِبْنُ عَقِيْلٍ في الخاطرة رقم:[٢٠-٣١٩]. وَأبو المَعَالِي الجُوَيْنِيِّ في الخاطرة رقم:[١٤٨-٣٣٨].

(٥) يُشير إلىٰ أبي حامد الغزالي، وقد تقدمت ترجمته في الخاطرة رقم:[١٤٨-٣٣٨].

(٦) رحم الله الإمام ابن الجوزي. فخطأ أحد الأئمة في مسألة لا يقدح في مكانته وعلمه.

(٧) ابْنُ مِقْسَمٍ مُحَمَّدُ بنُ الحَسَنِ أَبُو بَكْرٍ البَغْدَادِيُّ العَطَّارُ. طُعِنَ عَلَيْهِ بِأَنْ خَالَفَ الإِجمَاعَ، مَاتَ سَنَةَ:(٣٥٤أو٣٥٥هـ).

(٨) وَيُذْكَرُ أيضًا باسم:«الاحتجاج في القراءات». و«احتجاج القراء في القراءة» ولم أقف عليه مطبوعًا. ولقد تتبع بعض =

أَنَّهُ أَفْسَدَ عِلْمَهُ بِإِجَازَتِهِ أَنْ يُقْرَأَ بِمَا لَمْ يُقْرَأْ بِهِ، ثُمَّ تَفَاقَمَ ذَلِكَ مِنْهُ، حَتَّىٰ أَجَازَ مَا يُفْسِدُ الْمَعْنَىٰ.

مِثْلَ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾[يوسف: ٨٠]، فَقَالَ: يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ هُنَا: (نُجَبَاء)[1]؛ أي: خَلَصُوْا كِرَامًا بُرَآءَ مِنَ السَّرِقَةِ.

وَهَذَا سُوْءُ فَهْمٍ لِلْقِصَّةِ؛ فَإِنَّ الَّذِي نُسِبَ إِلَىٰ السَّرِقَةِ، فَظَهَرَتْ مَعَهُ مَا خَلَصَ؛ فَمَا الَّذِي يَنْفَعُ خَلاصُهُمْ؟! وَإِنَّمَا سِيْقَتِ الْقِصَّةُ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُمُ انْفَرَدُوْا وَتَشَاوَرُوْا فِيْمَا يَصْنَعُوْنَ، وَكَيْفَ يَرْجِعُوْنَ إِلَىٰ أَبِيْهِم، وَقَدِ احْتُبِسَ أَخُوهُمْ؛ فَأَيُّ وَجْهٍ لِلْنَّجَاةِ هَا هُنَا؟!

وَمَنْ تَأَمَّلَ كِتَابَهُ؛ رَأَىٰ فِيْهِ مِنْ هَذَا الجِنْسِ مَا يَزِيْدُ عَلَىٰ الإِحْصَاءِ، أَكْثَرَ مِنَ هَذَا الفَنِّ الْقَبِيْحِ، وَلَوْ أَنَّهُ أَصْغَىٰ إِلَىٰ عُلَمَاءِ وَقْتِهِ، وَتَرَكَ تَعْظِيْمَ نَفْسِهِ؛ لَبَانَ لَهُ الْصَّوَابُ.

غَيْرَ أَنَّ اقْتِصَارَ الرَّجُلِ عَلَىٰ عِلْمِهِ إِذَا مَازَجَهُ نَوْعُ رُؤْيَةٍ لِلْنَّفْسِ؛ حُبِسَ عَنْ إِدْرَاكِ الْصَّوَابِ. نَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ.

---

*[١٥٣ - ١٠٩] [خَاطِرَةٌ]:

[مَن جَمَعَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَالِ فَقَدْ حِيزَ لَهُ الْكَمَال]

لَيْسَ فِي الْدُّنْيَا أَنْفَعُ لِلْعُلَمَاءِ مِنْ جَمْعِ الْمَالِ لِلاسْتِغْنَاءِ عَنِ النَّاسِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا ضُمَّ إِلَىٰ

= الباحثين ما أُلِّف في «الاحتجاج للقراءات»، فأحصوا بضعة وسبعين كتابًا.من أنفسها:«الاحتجاج للقرّاء» لابن درستويه (ت٣٤٧هـ). ومعنىٰ:«بيان وجه كل قارئ فيما اختاره من قراءة. وأكثرها لغوية، ومنها ما ليس كذلك.

(١) جاء في الأصل والمطبوع:[نُجبًا]، وما أثبتناه من مخطوط:(ي)، وكذلك من كتاب «معجم الأدباء»(ج٦/ ص٢٥٣) للحموي، قال:«وله - ابْن مِقْسَم - عدة تصانيف، ولم يكن له عيب إلَّا أنَّه قرأ بحروف تُخالف الإجماع واستخرج لها وجوهًا من اللغة والمعنىٰ مثل ما ذكر في «كتاب الاحتجاج» في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ (يوسف: ٨٠) [فقال: لو قرئ (خلصوا نجباء) -بالباء- لكان جائزًا] وهذا مع كونه يخالف الاجماع بعيد من المعنىٰ، إذ لا وجه للنجابة عند يأسهم من أخيهم، إنما اجتمعوا يتناجون. وله من هذا الجنس- من تصحيف الكلمة واستخراج وجه بعيد لها مع كونها لم يقرأ بها أحد»اهـ.

العِلْمِ؛ حِيْزَ الْكَمَالُ.

وَإِنَّ جُمْهُوْرَ الْعُلَمَاءِ شَغَلَهُم العِلْمُ عَنِ الْكَسْبِ، فَاحْتَاجُوْا إِلَىٰ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ، وَقَلَّ الصَّبْرُ، فَدَخَلُوْا مَدَاخِلَ شَانَتْهُمْ[١]، وَإِنْ تَأَوَّلُوْا فِيْهَا، إِلَّا أَنَّ غَيْرَهَا كَانَ أَحْسَنَ لَهُمْ!

فَالزُّهْرِيُّ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ[٢]، وَأَبُوْ عُبَيْدٍ[٣] مَعَ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ[٤]، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مُؤَدِّبُ الْمُعْتَضِدِ[٥]، وَابْنُ قُتَيْبَةَ صَدَّرَ كِتَابَهُ بِمَدْحِ الْوَزِيْرِ[٦].

---

(١) شَانَتْهُمْ: الشَّيْنُ: العَيْبُ. تقول: شانَ موقفَه: شوّهه وعابه، عكسه زانه، وسلوكٌ شائن: مخجل يحطّ من القدر.

(٢) ترجمة الزُّهْرِيُّ في:[١٤١-١٢١] وَعَبْد الْمَلِك بنُ مَرْوَانَ بنِ الحَكَمِ بْنِ أَبِي العَاصِ الخَلِيْفَةُ، مَاتَ سَنَةَ:(٨٦هـ)

(٣) جاء في الأصل والمخطوط:[عبيدة]؛ ولعله تصحيف، وما أثبتناه من «المنتظم»و«تاريخ بغداد»و«سير أعلام النبلاء»(ت:القاسم بن سلام) وفيها:«أَنَّ طَاهِرَ بنَ الحُسَيْنِ حِيْنَ سَارَ إِلَىٰ خُرَاسَانَ، نَزَلَ بِمَرْوَ، فَطَلَبَ رَجُلًا يُحَدِّثُهُ لَيْلَةً، فَقِيْلَ: مَا هَا هُنَا إِلاَّ رَجُلٌ مُؤَدِّبٌ. فَأَدْخَلُوا عَلَيْهِ أَبَا عُبَيْدٍ، فَوَجَدَهُ أَعْلَمَ النَّاسِ بِأَيَّامِ النَّاسِ وَالنَّحْوِ وَاللُّغَةِ، فَقَالَ لَهُ: مِنَ المَظَالِمِ تَرْكُكَ أَنْتَ بِهَذِهِ البَلْدَةِ. فَأَعْطَاهُ أَلْفَ دِيْنَارٍ...»اهـ.

(٤) أَبُوْ عُبَيْدٍ القَاسِمُ بنُ سَلاَّمِ بنِ عَبْدِ اللهِ. كَانَ مُؤَدِّبًا، ثِقَةً، دَيِّنًا، وَرِعًا، كَبِيْرَ الشَّأْنِ، مَاتَ سَنَةَ:(٢٢٤هـ). وَطَاهِر بْن الْحُسَيْنِ بنِ مُصْعَبِ بنِ رُزَيْقٍ الخُزَاعِيُّ، أَبُو طَلْحَةَ، القَائِمُ بِنَصْرِ خِلاَفَةِ المَأْمُوْنِ مَاتَ سَنَةَ:(٢٠٧هـ).

(٥) ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَبْدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ عُبَيْدٍ، البَغْدَادِيُّ، المُؤَدِّبُ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ السَّائِرَةِ، مَاتَ سَنَةَ:(٢٨١هـ). وَالْمُعْتَضِد بِاللهِ أَحْمَد بن المُوَفَّق بِاللهِ طَلْحَة بن المُتَوَكِّل بن المُعْتَصِم. كَانَ شُجَاعًا، جَبَّارًا، مَاتَ سَنَةَ:(٢٨٩هـ).

(٦) اِبْنُ قُتَيْبَةَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بنُ مُسْلِمِ الدِّيْنَوَرِيُّ العَلاَّمَةُ، الكَبِيْرُ، ذُو الفُنُوْنِ صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ. مَاتَ سَنَةَ:(٢٧٦هـ). وَأَمَّا الْوَزِيْرِ فَهُوَ: ابْنُ خَاقَانَ أَبُو الحَسَنِ عُبَيْدُ اللهِ بنُ يَحْيَىٰ التُّرْكِيُّ، ثُمَّ البَغْدَادِيُّ. الوَزِيْرُ الكَبِيْرُ، وَزَرَ لِلْمُتَوَكِّلِ، وَلِلْمُعْتَمِدِ. وَلَهُ أَخْبَارٌ فِي الحِلْمِ وَالسَّخَاءِ. مَاتَ سَنَةَ:(٢٦٣هـ). وَاسْم الكِتَاب الَّذِي صَدَّرَهُ اِبْنُ قُتَيْبَةَ بِمَدْحِ الْوَزِيْرِ فَهُوَ:«أَدَبُ الكَاتِبِ»أو«أَدَبُ الكُتَّابِ»أو«كِتَابًا فِي آدَابِ الكَتَبَةِ». وَلَهُ شُرُوْح أَشْهَرهَا وَهِيَ المَطْبُوعَة:«شَرح أَدَب الكَاتِب» لِأَبِي القَاسِمِ النَّهَاوَنْدِيّ.و«الاقْتِضَاب فِي شَرحِ أَدَب الكُتَّاب» لِأَبِي مُحَمَّد البَطَلْيُوسِيّ.وَ«شَرح أَدَب الكَاتِب» مَوْهُوب الجَوَالِيْقِيّ. وَأَمَّا مَدْحُهُ فَقَوْلُهُ:«فَالحَمْدُ لله الَّذِي أَعَاذَ الوَزِيْر أَبَا الحَسَن -أَيَّدَهُ الله- مِنْ هَذِهِ الرَّذِيْلَة، وَأَبَانَهُ بِالْفَضِيْلَة، وَحَبَاه بِخِيَم السَّلَف الصَّالِح، وَرَدَّاه رِدَاء الإِيْمَان، وَغَشَّاه بِنُورِه، وَجَعَلَهُ هُدًىٰ مِنَ الضَّلاَلاَتِ، وَمِصْبَاحًا فِي الظُّلُمَاتِ، وَعَرَّفَهُ مَا اخْتُلِفَ فِيْهِ المُخْتَلِفُون، عَلَىٰ سَنَن الكِتَاب وَالسُّنَّة؛ فَقُلُوب الخِيَار لَهُ مُعْتَلِقَةٌ، وَنُفُوسُهُم إِلَيْهِ مَائِلَةٌ، وَأَيْدِيهِم إِلَىٰ الله فِيْه مَظَانَّ القَبُول مُمْتَدَّةٌ، وَأَلْسِنتهم بِالدُّعَاءِ لَهُ شَافِعَةٌ...».

وَمَا زَالَ خَلْفٌ[(١)] مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ يَعِيْشُوْنَ فِي ظِلِّ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمَعْرُوْفِيْنَ بِالظُّلْمِ، وَهَؤُلَاءِ وَإِنْ كَانُوْا سَلَكُوْا طَرِيْقًا مِنَ التَّأْوِيْلِ؛ فَإِنَّهُم فَقَدُوْا مِنْ قُلُوْبِهِم وَكَمَالِ دِيْنِهِم أَكْثَرَ مِمَّا نَالُوْا مِنَ الدُّنْيَا.

وَقَدْ رَأَيْنَا جَمَاعَةً مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالعُلَمَاءِ يَغْشَوْنَ الوُلَاةَ[(٢)]؛ لِأَجْلِ نَيْلِ مَا فِي أَيْدِيْهِم؛ فَمِنْهُم: مَنْ يُدَاهِنُ وَيُرَائِي. وَمِنْهُمْ: مَنْ يَمْدَحُ بِمَا لَا يَجُوْزُ. وَمِنْهُمْ: مَنْ يَسْكُتُ عَنْ مُنْكَرَاتٍ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَدَاهَنَاتِ[(٣)].

وَسَبَبُهَا الفَقْرُ، فَعَلِمْنَا أَنَّ كَمَالَ العِزِّ، وَبُعْدَ الرِّيَاءِ، إِنَّمَا يَكُوْنُ فِي البُعْدِ عَنِ الْعُمَّالِ الظَّلَمَةِ.

وَلَمْ نَرَ مَنْ صَحَّ لَهُ هَذَا إِلَّا فِي أَحَدِ رَجُلَيْنِ:

إِمَّا مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ: كَسَعِيْدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ؛ كَانَ يَتَّجِرُ فِي الزَّيْتِ وَغَيْرِهِ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ؛ كَانَتْ لَهُ بَضَائِعُ، وَابْنِ الْمُبَارَكِ[(٤)].

وَإِمَّا مَنْ كَانَ شَدِيْدَ الصَّبْرِ، قَنُوْعًا بِمَا رُزِقَ، وَإِنْ لَمْ يَكْفِهِ؛ كَبِشْرٍ الْحَافِي، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ[(٥)].

وَمَتَىٰ لَمْ يَجِدِ الإِنْسَانُ كَصَبْرِ هَذِيْنِ، وَلَا كَمَالَ أُوْلَئِكَ؛ فَالظَّاهِرُ تَقَلُّبُهُ فِي المِحَنِ وَالآفَاتِ، وَرُبَّمَا تَلِفَ دِيْنُهُ.

---

(١) الْخَلْفُ: الْقَرْنُ بَعْدَ الْقَرْنِ. أَي: بَقِيَّةُ سَوْءٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ.

(٢) يَغْشَوْنَ الوُلَاةَ؛ أي: يزْدَحِمُوا عليهم.

(٣) الْمَدَاهَنَاتِ: أدهنَ يُدهن، إدهانًا، فهو مُدهِن؛ أي: أظهر خلاف ما أضمر بقصد الخداع والغِشِّ.

(٤) سَعِيْد بْنِ الْمُسَيَّبِ بنِ حَزْنٍ، الإِمَامُ، أَبُو مُحَمَّدٍ، عَالِمُ أَهْلِ المَدِيْنَةِ، وَسَيِّدُ التَّابِعِيْنَ فِي زَمَانِهِ. مَاتَ سَنَةَ:(٩٣هـ).
وَخَبَرُهُ الَّذِي فِيْهِ أَنَّه كَانَ يَتَّجِرُ فِي الزَّيْتِ؛ رواها الترمذي، ك:«الْبُيُوعِ»(١٢٦٧) وفيه:«رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ كَانَ يَحْتَكِرُ الزَّيْتَ» وَالاحْتِكَار هُنَا: الانفِرَاد بِبَيْعِ الزَّيْت أو جَلْبِهِ إِلَىٰ بَلَدِهِ. وَلَيْسَ مَعْنَاهُ إِخْفَاءُه حَتَّىٰ يَرتَفِع سِعْره؛ فَهَذَا حَرَامٌ. وَسُفْيَان الثَّوْرِيّ؛ ترجمته في:[١٤-١١٨]. وَابْن الْمُبَارَك عَبْدُ اللهِ بنُ الْمُبَارَكِ بنِ وَاضِحٍ، الإِمَامُ، الحَافِظُ، الغَازِي، شَيْخُ الإِسْلَامِ وَعَالِمُ زَمَانِهِ. مَاتَ سَنَةَ:(١٨١هـ).

(٥) بِشْر الْحَافِي، وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَل؛ تقدمت ترجمتهما في الخاطرة رقم:[٢٤-١٧٩].

فَعَلَيْكَ - يَا طَالِبَ العِلْمِ - بِالاجْتِهَادِ فِي جَمْعِ الْمَالِ لِلْغِنَىٰ عَنِ النَّاسِ؛ فَإِنَّهُ يَجْمَعُ لَكَ دِينَكَ!

فَمَا رَأَيْنَا فِي الأَغْلَبِ مُنَافِقًا فِي التَّدَيُّنِ وَالتَّزَهُّدِ وَالتَّخَشُّعِ وَلَا آفَةَ طَرَأَتْ عَلَىٰ عَالِمٍ؛ إِلَّا بِحُبِّ الدُّنْيَا، وَغَالِبُ ذَلِكَ الفَقْرُ.

فَإِنْ كَانَ مَنْ لَهُ مَالٌ يَكْفِيهِ، ثُمَّ يَطْلُبُ بِتِلْكَ الْمُخَالَطَةِ الزِّيَادَةَ؛ فَذَلِكَ مَعْدُوْدٌ فِي أَهْلِ الشَّرَهِ[1]، خَارِجٌ عَنْ حَيِّزِ الْعُلَمَاءِ. نَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ تِلْكَ الأَحْوَالِ.

*[١٥٤ - ١٥٥] [خَاطِرَةٌ]:

[كَيفِيَّة صَلاح القَلْب لِطَالِب العِلْمِ]

رَأَيْتُ الاشْتِغَالَ بِالفِقْهِ وَسَمَاعِ الْحَدِيْثِ لَا يَكَادُ يَكْفِي فِي صَلَاحِ الْقَلْبِ؛ إِلَّا أَنْ يُمْزَجَ بِالرَّقَائِقِ، وَالنَّظَرِ فِي سِيَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِيْنَ.

فَأَمَّا مُجَرَّدُ العِلْمِ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ؛ فَلَيْسَ لَهُ كَبِيْرُ عَمَلٍ فِي رِقَّةِ الْقَلْبِ؛ وَإِنَّمَا تَرِقُّ الْقُلُوْبُ بِذِكْرِ رَقَائِقِ الأَحَادِيْثِ، وَأَخْبَارِ السَّلَفِ الصَّالِحِيْنَ؛ لِأَنَّهُم تَنَاوَلُوْا مَقْصُوْدَ النَّقْلِ، وَخَرَجُوْا عَنْ صُوَرِ الأَفْعَالِ الْمَأْمُوْرِ بِهَا إِلَىٰ ذَوْقِ مَعَانِيْهَا وَالْمُرَادِ بِهَا.

وَمَا أَخْبَرْتُكَ بِهَذَا إِلَّا بَعْدَ مُعَالَجَةٍ وَذَوْقٍ، لِأَنِّي وَجَدْتُ جُمْهُوْرَ الْمُحَدِّثِيْنَ وَطُلَّابَ الْحَدِيْثِ هِمَّةُ أَحَدِهِم فِي الحَدِيْثِ العَالِي، وَتَكْثِيْرِ الأَجْزَاءِ، وَجُمْهُوْرَ الْفُقَهَاءِ فِي عُلُوْمِ الْجَدَلِ، وَمَا يُغَالَبُ بِهِ الْخَصْمُ. وَكَيْفَ يَرِقُّ القَلْبُ مَعَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ؟!

وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَقْصِدُوْنَ الْعَبْدَ الصَّالِحَ لِلنَّظَرِ إِلَىٰ سَمْتِهِ وَهَدْيِهِ لَا لِاقْتِبَاسِ عِلْمِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ ثَمَرَةَ عِلْمِهِ هَدْيُهُ وَسَمْتُهُ. فَافْهَمْ هَذَا، وَامْزُجْ طَلَبَ الْفِقْهِ وَالْحَدِيْثِ بِمُطَالَعَةِ سِيَرِ السَّلَفِ وَالزُّهَّادِ فِي الدُّنْيَا؛ لِيَكُوْنَ سَبَبًا لِرِقَّةِ قَلْبِكَ.

(١) أَهْلِ الشَّرَهِ: أهل النَّهمُ والحِرصُ علىٰ الدنيا وعدم الشبع. وَالشَّرَهُ: أَسْوَأُ الحِرْصِ وهو غلبة الحِرْصِ.

وَقَدْ جَمَعْتُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ مَشَاهِيرِ الأَخْيَارِ كِتَابًا فِيهِ أَخْبَارُهُ وَآدَابُهُ؛ فَجَمَعْتُ كِتَابًا فِي أَخْبَارِ الْحَسَنِ، وَكِتَابًا فِي أَخْبَارِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ، وَبِشْرٍ الْحَافِي، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَمَعْرُوفٍ[١]، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ. وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلْمَقْصُودِ.

وَلَا يَصْلُحُ الْعَمَلُ مَعَ قِلَّةِ الْعِلْمِ؛ فَهُمَا فِي ضَرْبِ الْمَثَلِ كَسَائِقٍ وَقَائِدٍ، وَالنَّفْسُ بَيْنَهُمَا حَرُونٌ[٢]، وَمَعَ جِدِّ السَّائِقِ وَالْقَائِدِ يَنْقَطِعُ الْمَنْزِلُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْفُتُورِ[٣].

---

*[١٥٥ - ٢٧٧] [خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ طَلَبَ الْهُدَى فَعَلَيْهِ بِأَسْبَابِهِ]

قَدْ يَدَّعِي أَهْلُ كُلِّ مَذْهَبِ الاجْتِهَادَ فِي طَلَبِ الصَّوَابِ، وَأَكْثَرُهُم لَا يَقْصِدُ إِلَّا الْحَقَّ؛ فَتَرَى الرَّاهِبَ يَتَعَبَّدُ، وَيَتَجَوَّعُ، وَالْيَهُودِيَّ يَذِلُّ، وَيُؤَدِّي الجِزْيَةَ، وَصَاحِبَ كُلِّ مَذْهَبٍ يُبَالِغُ فِيهِ، وَيَحْتَمِلُ الضَّيْمَ[٤] وَالأَذَى طَلَبًا لِلْهُدَى، وَتَحْصِيلِ الأَجْرِ [فِي اعْتِقَادِهِ][٥]، وَمَعَ هَذَا، فَيَقْطَعُ الْعَقْلُ بِضَلَالِ الأَكْثَرِينَ.

وَهَذَا قَدْ يُشْكِلُ؛ وَإِنَّمَا كَشْفُهُ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَبَ الْهُدَى بِأَسْبَابِهِ، وَيُسْتَعْمَلَ الاجْتِهَادُ بِالإِبَانَةِ[٦]، فَأَمَّا مَنْ فَاتَتْهُ الأَسْبَابُ، أَوْ فَقَدَ بَعْضَ الآلَاتِ؛ فَلَا يُقَالُ لَهُ مُجْتَهِدٌ.

فَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بَيْنَ عَالِمٍ قَدْ عَرَفَ صِدْقَ نَبِيِّنَا ﷺ؛ ثُمَّ يُمْسِكُ لِرِئَاسَتِهِ[٧]؛ فَهَذَا مُعَانِدٌ.

---

(١) ترجمة الْحَسَنِ الْبَصري في:[٥٩-٨٧]. وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ في:[١٤-١١٨]. وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ في:[١٢٨-٣٦٢]. وَبِشْرٍ الْحَافِي، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِيِّ؛ في:[٢٤-١٧٩].

(٢) وَالنَّفْسُ بَيْنَهُمَا حَرُونٌ؛ أي: وَقَفَت وَلَم تُطِع صَاحِبَهَا وَأَبَت أَنْ تَنْقَاد؛ فَكَانَت صَعْبَة الانقِيَاد. وَجَمْعُهَا: حُرُن.

(٣) الفَتْرَةُ: الانكِسَار وَالضَّعف، تَقُولُ: فلان يَفْتُر ويَفتِر فُتُورًا وَفُتَارًا؛ أي: سَكَنَ بَعدَ حِدَّة وَلَانَ بَعدَ شِدَّة.

(٤) الضَّيْمَ: القَهر والظُلم والإذلال.

(٥) ليست في الأصل، وأثبتناها لتمام المعنى بها.

(٦) الإِبَانَةِ: إيضاح المعَاني والألفاظ.

(٧) أي: أمسك عن إتباع النبي ﷺ وجحد بنبوته ﷺ؛ إبقاء لرئاسته، وهذا هو الكبر والعناد بعينه.

وَبَيْنَ مُقَلِّدٍ لا يَنْظُرُ(١)، فَهَذَا مُهْمِلٌ، فَهُوَ يَتَعَبَّدُ مَعَ إِهْمَالِ الأَصْلِ، وَذَاكَ(٢) لا يَنْفَعُ.

وَبَيْنَ نَاظِرٍ مِنْهُم لا يَنْظُرُ حَقَّ النَّظَرِ، فَيَقُوْلُ: فِي التَّوْرَاةِ: إِنَّ دِيْنَنَا لَا يُنْسَخُ! وَهُوَ عَلَىٰ غَيْرِ ثِقَةٍ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مَعْمُوْلٍ، وَلَا مَدْخَلَ فِيْهَا(٣). وَيَقُوْلُ: النَّسْخُ بَدَاءٌ(٤)! وَلَا يَنْظُرُ فِي الفَرْقِ(٥)؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ حَقَّ النَّظَرِ.

وَمِنْ هَذَا الجِنْسِ تَعَبُّدُ الخَوَارِجِ، مَعَ اقْتِنَاعِهِم بِعِلْمِهِم القَاصِرِ، وَهُوَ قَوْلُهُم: لَا حُكْمَ إِلَّا للهِ، وَلَمْ يَفْهَمُوْا أَنَّ التَّحْكِيْمَ مِنْ حُكْمِ اللهِ، فَجَعَلُوْا قِتَالَ عَلِيٍّ رضي الله عنه وَقَتْلَهُ مَبْنِيًّا عَلَىٰ ظَنِّهِمُ الْفَاسِدِ(٦).

---

(١) أي: لَا يَنْظُرُ بِعَقْلِهِ.

(٢) جاء في الأصل:[هذا]، والأولىٰ ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٣) جاء في النسخ المطبوعة: [وَنَسْخُ الشَّرَائِعِ لِاخْتِلَافِ الأَزْمِنَةِ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُ يَقُوْلُ].

(٤) جاء في الأصل:[ذا] وفي هامشه:[كذا]، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به. قال الإمام ابن الجوزي في «ناسخ القرآن ومنسوخه»(ص١٥):«الفَرْقُ بَيْنَ النَّسْخِ وَالبَدَاءِ؛ فذلك من وجهين: الأول: أن النسخ: تغيير عبادة أُمِرَ بها المُكَلَّف، وقد عَلِمَ الآمِر حين الأمر أنَّ لِتكليف المُكَلَّف بها غاية ينتهي الإيجاب إليها ثم يرتفع بنسخها. والبداء: أن ينتقل الأمر عن ما أمر به وأراده دائما بأمر حادث، لا بعلم سابق. والثاني: أن سبب النسخ لا يُوجِب إفساد المُوجب لصحّة الخطاب الأول، والبداء يكون سببه دالًّا على إفساد المُوجب لصحّة الأمر الأول، مثل: أن يأمره بعمل يقصد به مطلوبًا، فيتبين أنَّ المطلوب لا يحصل بذلك الفعل، فيبدو له ما يوجب الرجوع عنه، -كقولك: امض إلىٰ فلان اليوم، ثم تقول لا تمض إليه، فيبدو لك العدول عن القول الأول- وكلا الأمرين يدل علىٰ قصور في العلم، - وهذا يلحق البشر لنقصانهم- والحق عزّ وجلّ منزّه عن ذلك»اهـ.

(٥) أي: فِي الفَرْقِ بَيْنَهُمَا؛ أي: بَيْنَ النَّسْخِ وَالبَدَاءِ.

(٦) الخَوَارِجِ يَرَوْنَ عَلِيٍّ رضي الله عنه عَلَىٰ بَاطِلٍ بِقَبُولِهِ التَّحْكِيمَ، وَيُوجِبُونَ قِتَالَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ دِمَاءَ أَهْلِ الْعَدْلِ؛ لأَنَّهُمْ فِي نَظَرِهِمْ كُفَّارٌ. وَأَكْثَرُ الْفُقَهَاءِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ بُغَاةٌ، وَلاَ يَرَوْنَ تَكْفِيرَهُمْ. وَسُئِلَ عَلِيٌّ رضي الله عنه أَكُفَّارٌ هُمْ؟ فَقَالَ: مِنَ الْكُفْرِ فَرُّوا. قِيلَ: فَمُنَافِقُونَ؟ قَالَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلًا. قِيلَ فَمَا هُمْ؟ قَالَ: هُمْ قَوْمٌ أَصَابَتْهُمْ فِتْنَةٌ، فَعَمُوا وَصَمُّوا، وَبَغَوْا عَلَيْنَا، وَقَاتَلُوا فَقَاتَلْنَاهُمْ. وَلَمَّا قَامَ رَجُلٌ وَقَالَ: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ! فَقَالَ عَلِيٌّ: اللهُ أَكْبَرُ، كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ! أَمَا إِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا ثَلَاثًا مَا صَحِبْتُمُونَا: لا نَمْنَعُكُمْ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ تَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَهُ، وَلا نَمْنَعُكُمُ الْفَيْءَ مَا دَامَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَ أَيْدِينَا، وَلا نُقَاتِلُكُمْ حَتَّىٰ تَبْدَأُونَا، إِنَّمَا فِيكُمْ أَمْرُ اللهِ. ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ مَكَانِهِ مِنَ الْخُطْبَةِ»[«الكامل في التاريخ»(ج٣/ ص٢١٣سنة(٣٧)): خَبَرِ الْخَوَارِجِ عِنْدَ تَوْجِيهِ الْحَكَمَيْنِ].

وَلَمَّا نَهَبَ مُسْلِمُ بْنُ عُقْبَةَ الْمَدِينَةَ[١]، وَقَتَلَ الْخَلْقَ؛ قَالَ: إِنْ دَخَلْتُ النَّارَ بَعْدَ هَذَا إِنِّي لَشَقِيٌّ، فَظَنَّ بِجَهْلِهِ أَنَّهُم لَمَّا خَالَفُوْا بَيْعَةَ يَزِيْد؛ يَجُوْزُ اسْتِبَاحَتُهُم وَقَتْلُهُم.

فَالْوَيْلُ لِعَامِّي قَلِيْلِ الْعِلْمِ؛ لَا يَتَّهِمُ نَفْسَهُ فِي وَاقِعَةٍ، وَلَا يُذَاكِرُ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ؛ بَلْ يَقْطَعُ بِظَنِّهِ وَيُقْدِمُ.

وَهَذَا أَصْلٌ يَنْبَغِي تَأَمُّلُهُ؛ فَقَدْ هَلَكَ فِي إِهْمَالِهِ خَلْقٌ لَا تُحْصَىٰ، وَقَدْ رَأَيْنَا خَلْقًا مِنَ الْعَوَامِّ إِذَا وَقَعَتْ لَهُمْ وَاقِعَةٌ؛ لَمْ يَقْبَلُوْا فَتْوَىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية].

* [١٥٦-١٥١] [خَاطِرَةٌ]:

[عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَصُوْنَ الْعِلْمَ الَّذِي يَحْمِلُهُ]

رَأَيْتُ عُمُوْمَ أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ يَسْتَخْدِمُوْنَ الْعُلَمَاءَ، وَيَسْتَذِلُّوْنَهُمْ بِشَيْءٍ يَسِيْرٍ يُعْطُوْنَهُمْ مِنْ زَكَاةِ أَمْوَالِهِم: فَإِنْ كَانَ لِأَحَدِهِم خَتْمَةٌ؛ قَالَ: فُلَانٌ مَا حَضَرَ! وَإِنْ مَرِضَ؛ قَالَ: فُلَانٌ مَا تَرَدَّدَ! وَكُلُّ مِنَّتِهِ عَلَيْهِ شَيْءٌ نَزْرٌ[٢] يَجِبُ تَسْلِيْمُهُ إِلَىٰ مِثْلِهِ!!

وَقَدْ رَضِيَ الْعُلَمَاءُ بِالذُّلِّ فِي ذَلِكَ؛ لِمَوْضِعِ الضَّرُوْرَةِ.

فَرَأَيْتُ أَنَّ هَذَا جَهْلٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم مِنْ صِيَانَةِ الْعِلْمِ، وَدَوَاؤُهُ مِنْ جِهَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: الْقَنَاعَةِ بِالْيَسِيْرِ؛ كَمَا قِيْلَ: مَنْ رَضِيَ بِالْخَلِّ وَالْبَقْلِ[٣]؛ لَمْ يَسْتَعْبِدْهُ أَحَدٌ.

---

(١) مُسْلِمُ بْنُ عُقْبَةَ بْنُ رَبَاح، كَانَ أَمِيْرًا مِنْ قِبَلِ يَزِيد عَلَىٰ الجَيْشِ الَّذِي غَزَا المَدِيْنَة. وَأَفْحَشَ فِي القَوْلِ وَالفِعْلِ بِأَهْلِ المَدِيْنَة، وَأَبَاح المَدِيْنَةَ ثَلَاثَة أَيَّام، وَتَوَجَّه إِلَىٰ مَكَّة لِيُحَارِب ابْن الزُّبَيْر لِتَخَلُّفِهِ؛ فَمَات بِالطَّرِيْق، وَاسْتَمَرَّ الجَيْش إِلَىٰ مَكَّة، وَنَصَبُوا المَنْجَنِيْق عَلَىٰ أَبِي قُبَيْس؛ فَجَاءَهُم الخَبَر بِمَوتِ يَزِيْد؛ فَانْصَرَفُوا، وَكَفَىٰ الله المُؤْمِنِيْنَ القِتَال.

(٢) أي: شيء قليل. تقول: نَزُر الشيءُ: قَلَّ.

(٣) الْبَقْلُ: مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مِنَ الْعُشْبِ، وَيُقَالُ: كُلُّ نَبَاتٍ اخضَرَّتْ لَهُ الأَرْضُ.

وَالثَّانِي: صَرْفُ بَعْضِ الزَّمَانِ الْمَصْرُوْفِ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ إِلَىٰ كَسْبِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهُ يَكُوْنُ سَبَبًا لِإِعْزَازِ الْعِلْمِ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ مِنْ صَرْفِ جَمِيْعِ الزَّمَانِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، مَعَ احْتِمَالِ هَذَا الذُّلِّ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا تَأَمَّلْتُهُ، وَكَانَتْ لَهُ أَنَفَةٌ؛ قَدَّرَ قُوْتَهُ، وَاحْتَفَظَ بِمَا مَعَهُ، أَوْ سَعَىٰ فِي مُكْتَسَبٍ يَكْفِيه. وَمَنْ لَمْ يَأْنَفْ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ؛ لَمْ يَحْظَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا بِصُوْرَتِهِ دُوْنَ مَعْنَاهُ.

* [١٥٧-١٤٩] [خَاطِرَةٌ]:

[العَالِمُ الَّذِي يَتَكَسَّبُ يَصُونُ عِرْضَهُ وَدِينَهُ]

حَضَرْنَا بَعْضَ أَغْدِيَةِ[1] أَرْبَابِ الأَمْوَالِ، فَرَأَيْتُ الْعُلَمَاءَ أَذَلَّ النَّاسِ عِنْدَهُمْ، الْعُلَمَاءُ يَتَوَاضَعُوْنَ لَهُمْ، وَيَذِلُّوْنَ لِمَوْضِعِ طَمَعِهِم فِيْهِم، وَهُمْ لَا يَحْفَلُوْنَ بِهِمْ[2]، لِمَا يَعْلَمُوْنَهُ مِنِ احْتِيَاجِهِم إِلَيْهِم.

فَرَأَيْتُ هَذَا عَيْبًا فِي الفَرِيْقَيْنِ: أَمَّا فِي أَهْلِ الدُّنْيَا؛ فَوَجْهُ الْعَيْبِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْبَغِي لَهُمْ تَعْظِيْمُ الْعِلْمِ، وَلَكِنْ لِجَهْلِهِم بِقَدْرِهِ؛ فَاتَهُمْ، وَآثَرُوْا عَلَيْهِ كَسْبَ الأَمْوَالِ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَبَ مِنْهُمْ تَعْظِيْمُ مَا لا يَعْرِفُوْنَ، وَلَا يَعْلَمُوْنَ قَدْرَهُ.

وَإِنَّمَا أَعُوْدُ بِاللَّوْمِ عَلَىٰ العُلَمَاءِ، وَأَقُوْلُ: يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَصُوْنُوْا أَنْفُسَكُم الَّتِي شَرُفَتْ بِالعِلْمِ عَنِ الذُّلِّ لِلأَنْذَالِ. وَإِنْ كُنْتُمْ فِي غِنًىٰ عَنْهُم؛ كَانَ الذُّلُّ لَهُمْ، وَالطَّلَبُ مِنْهُمْ حَرَامًا عَلَيْكُمْ. وَإِنْ كُنْتُم فِي كَفَافٍ؛ فَلِمَ لَمْ تُؤْثِرُوْا التَّنَزُّهَ عَنِ الذُّلِّ بِالْعِفَّةِ عَنِ الْحُطَامِ الفَانِي الحَاصِلِ بِالذِّلَّةِ.

إِلَّا أَنَّهُ يَتَخَيَّلُ لِي مِنْ هَذَا الأَمْرِ أَنِّي عَلِمْتُ قِلَّةَ صَبْرِ النَّفْسِ عَلَىٰ الكَفَافِ[3]، وَالْعُزُوْفِ

---

(١) أَغْدِيَةِ: مُفْرَدها: غَداء: وهي أكلة الظَّهيرة؛ أي: تناول طعامَ الغداء، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾.

(٢) لا يَحْفَلُوْنَ بِهِمْ؛ أي: لا يَهْتَمُّونَ بِهِم.

(٣) الكَفَافُ: ما كان قدْر الحاجة دون زيادة أو نُقصان، وكفّ عن النَّاس وأغنى. «اللهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا».

عَنِ الْفُضُوْلِ؛ فَإِنْ وُجِدَ ذَلِكَ مِنْهَا فِي وَقْتٍ؛ لَمْ يُوْجَدْ عَلَىٰ الدَّوَامِ.

فَالأَوْلَىٰ لِلْعَالِمِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي طَلَبِ الْغِنَىٰ، وَيُبَالِغَ فِي الكَسْبِ، وَإِنْ ضَاعَ بِذَلِكَ عَلَيْهِ كَثِيْرٌ مِنْ زَمَانِ طَلَبِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُ يَصُوْنُ بِعَرَضِهِ عِرْضَهُ[1].

وَقَدْ كَانَ سَعِيْدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ يَتَّجِرُ فِي الزَّيْتِ، وَخَلَّفَ مَالًا. وَخَلَّفَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ مَالًا، وَقَالَ: «لَوْلَاكَ لَتَمَنْدَلُوا بِي»[2].

وَقَدْ سَبَقَ فِي كِتَابِي هَذَا فِي بَعْضِ الْفُصُوْلِ شَرَفُ الْمَالِ[3]، وَمَنْ كَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالْعُلَمَاءِ يَقْتَنِيْهِ، وَالسِّرُّ فِي فِعْلِهِم ذَلِكَ، وَحَثِّي طَالِبِي العِلْمِ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ مَا بَيَّنْتُهُ مِنْ أَنَّ النَّفْسَ لا تَثْبُتُ عَلَىٰ التَّعَفُّفِ، وَلا تَصْبِرُ عَلَىٰ دَوَامِ التَّزَهُّدِ.

وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ شَخْصٍ قَوِيَتْ عَزِيْمَتُهُ عَلَىٰ طَلَبِ الآخِرَةِ، فَأَخْرَجَ مَا فِي يَدِهِ، ثُمَّ ضَعُفَتْ، فَعَادَ يَكْتَسِبُ مِنْ أَقْبَحِ وَجْهٍ! فَالأَوْلَىٰ ادِّخَارُ الْمَالِ، وَالاسْتِغْنَاءُ عَنِ النَّاسِ، فَيَخْرُجُ الطَّمَعُ مِنَ الْقَلْبِ، وَيَصْفُوْ نَشْرُ الْعِلْمِ مِنْ شَائِبَةِ مَيْلٍ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ أَخْبَارَ الأَخْيَارِ مِنَ الأَحْبَارِ، وَجَدَهُمْ عَلَىٰ هَذِهِ الطَّرِيْقَةِ؛ وَإِنَّمَا سَلَكَ طَرِيْقَ التَّرَفُّهِ[4] عَنِ الْكَسْبِ مَنْ لَمْ يُؤْثِرْ عِنْدَهُ بَذْلُ الدِّيْنِ وَالوَجْهِ، فَطَلَبَ الرَّاحَةَ، وَنَسِيَ أَنَّهَا فِي المَعْنَىٰ عَنَاءٌ؛ كَمَا فَعَلَ جَمَاعَةٌ مِنْ جُهَّالِ الْمُتَصَوِّفَةِ فِي إِخْرَاجِ مَا فِي أَيْدِيْهِم، وَادِّعَاءِ التَّوَكُّلِ! وَمَا عَلِمُوْا أَنَّ الكَسْبَ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ! وَإِنَّمَا طَلَبُوْا طَرِيْقَ الرَّاحَةِ، وَجَعَلُوْا التَّعَرُّضَ لِلنَّاسِ كَسْبًا!

وَهَذِهِ طَرِيْقَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ شَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا: قِلَّةُ الأَنَفَةِ عَلَىٰ العِرْضِ، وَالثَّانِي: قِلَّةُ الْعِلْمِ.

---

(١) أي: أنه يصون بما يملكه من الدنيا كرامته وماء وجهه عن إهراقه في الطلب من أرباب الدنيا.

(٢) تَرجَمة ابْن الْمُسَيَّبِ، وَخَبَرُهُ؛ فِي: [١٥٢-١٦٩]. وَسُفْيَان الثَّوْرِيّ فِي: [١١٤-١١٨]. وخبره في «الحلية» للأصبهاني. (ج٦/ ص٣٨١) و«السير» للذهبي. (ج٧/ ص٢٤١) كلاهما في ترجمة: سُفْيَان الثَّوْرِيّ. وَفِيهِ: «لَوْلَا هَذِهِ الدَّنَانِيرُ لَتَمَنْدَلَ بِنَا هَؤُلَاءِ الْمُلُوكُ» لَتَمَنْدَل؛ أي: جَعَلُونِي كَالمَنْدِيل يَمْسَحُونَ بِهِ قَذَارَاتِهم؛ لِهَوَانِي عَلَيْهِم».

(٣) سيأتي في الخاطرة رقم: [١٨٢ - ١٩١] تحت عنوان: فضيلة المال، وسوء فهم بعض الصوفية.

(٤) هكذا جاء في الأصل والمخطوط. بِمَعنَىٰ: سَلَكَ طَرِيق الرَّاحَة، مِنْ قَوْلِكَ: رَفَّهَ نَفْسَهُ تَرْفِيهًا؛ أي: أَرَاحَهَا.

*[١٥٨-١١٣] [خَاطِرَةٌ]:

[مِنَ الخَطأِ طَلَبُكَ لِلعِلمِ وَإهمَالُكَ طَلَبَ المَعَاشِ]

رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِمَّنْ أَفْنَىٰ أَوَائِلَ عُمُرِهِ وَرَيْعَانَ شَبَابِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، يَصْبِرُ عَلَىٰ أَنْوَاعِ الْأَذَىٰ، وَهَجْرِ فُنُوْنِ الرَّاحَاتِ؛ أَنَفَةً مِنَ الْجَهْلِ وَرَذِيْلَتِهِ، وَطَلَبًا لِلْعِلْمِ وَفَضِيْلَتِهِ، فَلَمَّا نَالَ مِنْهُ طَرَفًا رَفَعَهُ عَنْ مَرَاتِبِ أَرْبَابِ الدُّنْيَا، وَمَنْ لَا عِلْمَ لَهُ إِلَّا بِالْعَاجِلِ؛ ضَاقَ بِهِ مَعَاشُهُ، فَسَافَرَ الْبِلَادَ؛ يَطْلُبُ مِنَ الْأَرَاذِلِ، وَيَتَوَاضَعُ لِلسَّفَلَةِ وَأَهْلِ الدَّنَاءَةِ وَالْمُكَّاسِ وَغَيْرِهِم![١].

فَخَاطَبْتُ بَعْضَهُم، وَقُلْتُ: وَيْحَكَ! أَيْنَ تِلْكَ الأَنَفَةُ مِنَ الْجَهْلِ، الَّتِي سَهِرْتَ لِأَجْلِهَا، وَأَظْمَأْتَ نَهَارَكَ بِسَبَبِهَا؟! فَلَمَّا ارْتَفَعْتَ وَانْتَفَعْتَ؛ عُدْتَ إِلَىٰ أَسْفَلَ سَافِلِيْنَ!

أَفَمَا بَقِيَ عِنْدَكَ ذَرَّةٌ مِنَ الأَنَفَةِ تَنْبُوْ بِهَا[٢] عَنْ مَقَامَاتِ الأَرَاذِلِ؟! وَلا مَعَكَ يَسِيْرٌ مِنَ الْعِلْمِ يَسِيْرُ بِكَ عَنْ مَنَاخِ الْهَوَىٰ؟! وَلا حَصَّلْتَ بِالْعِلْمِ قُوَّةً تَجْذِبُ بِهَا زِمَامَ النَّفْسِ عَنْ مَرَاعِي السَّوْءِ؟! عَلَىٰ أَنَّهُ يَبِيْنُ لِي أَنَّ سَهَرَكَ وَتَعَبَكَ كَأَنَّهُ كَانَ[٣] لِنَيْلِ الدُّنْيَا؟

ثُمَّ إِنِّي أَرَاكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ تُرِيْدُ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا تَسْتَعِيْنُ بِهِ عَلَىٰ طَلَبِ الْعِلْمِ!

فَاعْلَمْ أَنَّ الْتِفَاتَكَ إِلَىٰ نَوْعِ كَسْبٍ تَسْتَغْنِي بِهِ عَنِ الأَرَاذِلِ أَفْضَلُ مِنَ التَّزَيُّدِ فِي عِلْمِكَ؛ فَلَوْ عَرَفْتَ مَا يَنْقُصُ بِهِ [دِيْنُكَ][٤]؛ لَمْ تَرَ فِيْمَا قَدْ عَزَمْتَ عَلَيْهِ زِيَادَةً، مِمَّا يَحْتَوِي عَلَيْهِ هَذَا الْعَزْمُ: السَّفَرُ الَّذِي كُلُّهُ مُخَاطَرَةٌ بِالنَّفْسِ، وَبَذْلُ الْوَجْهِ لِمَنْ لا يَصْلُحُ الْتِفَاتُ مِثْلِكَ إِلَىٰ مِثْلِهِ.

وَبَعِيْدٌ أَنْ تَقْنَعَ بَعْدَ شُرُوْعِكَ فِي هَذَا الأَمْرِ بِقَدْرِ الْكَفَافِ، وَقَدْ عَلِمْتَ مَا فِي السُّؤَالِ بَعْدَ الكَفَافِ مِنَ الْإِثْمِ!

---

(١) السَّفَلَةُ: أَرَاذِل النَّاس وَغَوغَاؤهم، سَيِّئ الخُلُق، خَسِيس نَذْل. وَالدَّنَاءَةُ: الخِسَّة وَالدُّون وَاللُّؤم. وَالمُكَّاس: هُمُ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ مِنْ أَمْوَال النَّاسِ شَيْئًا مُرَتَّبًا فِي الْغَالِبِ، وَيُقَال لَهُم: الْعَشَّارُ؛ لأَنَّهُ يَأْخُذُ الْعُشُورَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ.

(٢) تَنْبُوْ: تُعرِض وَتَنْفُر.

(٣) هكذا جاء في الأصل والمخطوط، وفي المطبوع: [كَأَنَّهُمَا كَانَا].

(٤) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنى بها.

وَأَبْعَدُ مِنْهُ أَنْ تَقْدِرَ عَلَىٰ الوَرَعِ فِي الْمَأْخُوْذِ! وَمَنْ لَكَ بِالسَّلَامَةِ وَالرُّجُوْعِ إِلَىٰ الوَطَنِ؟! وَكَمْ رَمَىٰ فَقْرٌ فِي بَوَادِيهِ مِنْ هَالِكٍ[١]!

ثُمَّ مَا تُحَصِّلُهُ يَفْنَىٰ، وَيَبْقَىٰ مِنْهُ مَا أُعْطِيَ، وَعَيْبُ الْمُتَّقِيْنَ إِيَّاكَ، وَاقْتِدَاءُ الْجَاهِلِيْنَ بِكَ، وَيَكْفِيْكَ أَنَّكَ عُدْتَ عَلَىٰ مَا عَلِمْتَ مِنْ ذَمِّ الدُّنْيَا بِشَيْنِهِ[٢]؛ إِذْ فَعَلْتَ مَا يُنَاقِضُهُ، خُصُوْصًا وَقَدْ مَرَّ أَكْثَرُ الْعُمُرِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيْمَا مَضَىٰ يُحْسِنُ فِيْمَا بَقِيَ.

*[١٥٩ - ٥٦] [خَاطِرَةٌ]:

[عَاقِبَةُ انْشِغَالِ طَالِبِ العِلْمِ عَنْ أُمُوْرِ مَعَاشِهِ]

رَأَيْتُ جُمْهُوْرَ الْعُلَمَاءِ يَشْغَلُهُمْ طَلَبُهُمْ لِلْعِلْمِ فِي زَمَانِ الصِّبَا عَنِ الْمَعَاشِ، فَيَحْتَاجُوْنَ إِلَىٰ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ، فَلَا يَصِلُهُمْ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ شَيْءٌ، وَلَا مِنْ صِلَاتِ الإِخْوَانِ مَا يَكْفِي، فَيَحْتَاجُوْنَ إِلَىٰ التَّعَرُّضِ بِالإِذْلَالِ!

فَلَمْ أَرَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ إِلَّا سَبَبَيْنِ: أَحَدُهُمَا: قَمْعُ إِعْجَابِهِمْ بِهَذَا الإِذْلَالِ. وَالثَّانِي: نَفْعُ أُوْلَئِكَ بِثَوَابِهِمْ.

ثُمَّ أَمْعَنْتُ الْفِكْرَ، فَتَلَمَّحْتُ نُكْتَةً لَطِيْفَةً[٣]، وَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ الأَبِيَّةَ إِذَا رَأَتْ حَالَ الدُّنْيَا كَذَلِكَ؛ لَمْ تُسَاكِنْهَا بِالْقَلْبِ، وَنَبَتْ[٤] عَنْهَا بِالْعَزْمِ، وَرَأَتْ أَقْرَبَ الأَشْيَاءِ شَبَهًا بِهَا مَزْبَلَةً عَلَيْهَا الْكِلَابُ، أَوْ غَائِطًا[٥] يُؤْتَىٰ لِضَرُوْرَةٍ؛ فَإِذَا نَزَلَ الْمَوْتُ بِالرِّحْلَةِ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الدَّارِ؛ لَمْ يَكُنْ لِلْقَلْبِ بِهَا مُتَعَلَّقٌ مُتَمَكِّنٌ، فَتَهُوْنُ حِيْنَئِذٍ.

---

(١) جاء في حاشية الأصل: في الهندية: فقر من فؤاد به من هالك.

(٢) شانَ يَشِين، شِنْ، شَيْنًا، فَهُوَ شَائِن: مُخجل مُخزٍ، مَهين مُحقِّر.

(٣) أَمْعَنَ الفِكْرَ: جَدَّ وَبَالَغَ فِي استِقصَائِهِ وَأَطَالَ التَّفْكِيرَ فِيْهِ. تَلَمَّحَ: أبصر بنظرٍ خفيف. والنُّكْتَة هنا هي: مسألة علميَّة دقيقة أُخرجت بدقَّة النَّظر وإمعان الفكر.

(٤) نَبَتْ: تباعدت.

(٥) الغَائِط: مُنْخَفَض وَاسِعٌ مِنَ الأَرضِ، مَوضِع قَضَاء الحاجة.

*[١٦٠ - ٢٨٠] [خَاطِرَةٌ]:

[عَلَى طَالِبِ العِلْمِ أنْ يَصُونَ نَفْسَهُ]

كَثِيْرًا مَا أُعِيْدُ هَذَا المَعْنَىٰ الَّذِي أَنَا ذَاكِرُهُ فِي هَذَا الكِتَابِ بِعِبَارَاتٍ شَتَّىٰ:

يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَشَاغَلَ بِمَعَاشِهِ، وَيَرْفُقَ فِي نَفَقَتِهِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لِلْعُلَمَاءِ شَيْءٌ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، وَرِفْقٌ مِنَ الإِخْوَانِ، وَمَعُوْنَةٌ مِنَ الْعَوَامِّ، فَانْقَطَعَ الْكُلُّ، وَبَقِيَ الْمُتَشَاغِلُ بِالْعِلْمِ أَوْ التَّعَبُّدِ مِسْكِيْنًا، خُصُوْصًا ذُو الْعَائِلَةِ[١].

وَمَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا الزَّمَانِ القَبِيْحِ[٢]؛ فَمَا بَقِيَ مَنْ يُوْمَأُ إِلَيْهِ بِمَعُوْنَةٍ، وَلَا بِاسْتِقْرَاضٍ، فَيَحْتَاجُ الإِنْسَانُ الْمُؤْمِنُ أَنْ يَدْخُلَ فِي مَدَاخِلَ لَا تَلِيْقُ بِهِ، وَأَنْ يَتَعَرَّضَ بِمَا لَا يَصْلُحُ.

فَيَنْبَغِي تَقْلِيْلُ العَائِلَةِ، وَتَقْوِيْتُ الْقُوْتِ، وَتَرْقِيْعُ الْخَلَقِ[٣].

وَإِنْ أَمْكَنَ مَعَاشٌ؛ فَهُوَ أَوْلَىٰ مِنَ التَّشَاغُلِ بِالتَّعَبُّدِ، وَالتَّعَلُّمِ لِفُضُوْلِ الْعِلْمِ؛ وَإِلَّا ضَاعَ الدِّيْنُ فِي مَدَاخِلَ لا تَصْلُحُ، أَوْ التَّعَرُّضِ لِبَذْلِ نَذْلٍ.

---

*[١٦١ - ٣٦٩] [خَاطِرَةٌ]:

[عَلَى طَالِبِ العِلْمِ اغْتِنَام الزَّمَانِ]

رَأَيْتُ الْعَادَاتِ قَدْ غَلَبَتِ النَّاسَ فِي تَضْيِيْعِ الزَّمَانِ، وَكَانَ الْقُدَمَاءُ يُحَذِّرُوْنَ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ الفُضَيْلُ[٤]: أَعْرِفُ مَنْ يَعُدُّ كَلَامَهُ مِنَ الْجُمُعَةِ إِلَىٰ الجُمُعَةِ.

---

(١) هكذا في الأصل! ولها وجه، والأفضل أن يُقال: ذا العائلة.

(٢) قال الإمام ابن الجوزي في الخاطرة رقم:[١٧-٣٠]: «مَا رَأَتْ عَيْنِي مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِالْخَلْقِ أَعْظَمَ مِنْ سَبِّهِم لِلزَّمَانِ، وَعَيْبِهِم لِلدَّهْرِ، وَقَدْ كَانَ هَذَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ نَهَىٰ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «لا تَسُبُّوْا الدَّهْرَ»».

(٣) تَقْوِيْتُ الْقُوْتِ؛ أي: حفظه، والقصد فيه وعدم الإسراف وتضييعه. وَتَرْقِيْعُ الْخَلَقِ؛ أي: الثياب البالي القديم.

(٤) الفُضَيْلُ بن عِيَاض تقدمت ترجمته في الخاطرة رقم:[٣١-١٢].

وَدَخَلُوْا عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْسَّلَفِ، فَقَالَو: لَعَلَّنَا شَغَلْنَاكَ؟ فَقَالَ: أَصْدُقُكُمْ؛ كُنْتُ أَقْرَأُ، فَتَرَكْتُ الْقِرَاءَةَ لِأَجْلِكُم.

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَعَبِّدِيْنَ إِلَىٰ سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ[1]، فَرَأَىٰ عِنْدَهُ جَمَاعَةً، فَقَالَ: صِرْتَ مَنَاخَ الْبَطَّالِيْنَ[2]؟ ثُمَّ مَضَىٰ وَلَمْ يَجْلِسْ.

وَمَتَىٰ لانَ الْمَزُوْرُ؛ طَمِعَ فِيْهِ الزَّائِرُ، فَأَطَالَ الْجُلُوْسَ، فَلَمْ يَسْلَمْ مِنْ أَذَىً.

وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ قُعُوْدًا عِنْدَ مَعْرُوْفٍ[3]، فَأَطَالُوْا، فَقَالَ: إِنَّ مَلَكَ الشَّمْسِ لَا يَفْتُرُ فِي سَوْقِهَا؛ أَفَمَا تُرِيْدُوْنَ الْقِيَامَ؟!

وَمِمَّنْ كَانَ يَحْفَظُ اللَّحَظَاتِ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ[4]؛ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: قِفْ أُكَلِّمْكَ. قَالَ: فَأَمْسِكِ الشَّمْسَ.

وَقِيْلَ لِكُرْزِ بْنِ وَبَرَةَ: لَوْ خَرَجْتَ إِلَىٰ الصَّحَرَاءِ؟ فَقَالَ: يَبْطُلُ الرُّوزْجَار[5].

وَكَانَ دَاوُدُ الطَّائِي يَسْتَفُّ الْفَتِيْتَ، وَيَقُوْلُ: بَيْنَ سَفِّ الْفَتِيْتِ وَأَكْلِ الْخُبْزِ قِرَاءَةُ خَمْسِيْنَ آيَةً[6].

وَكَانَ عُثْمَانُ البَاقِلَّاوِيُّ دَائِمَ الذِّكْرِ للهِ تَعَالَىٰ؛ فَقَالَ: إِنِّي وَقْتَ الإِفْطَارِ أُحِسُّ بِرُوْحِي كَأَنَّهَا تَخْرُجُ؛ لِأَجْلِ اشْتِغَالِي بِالْأَكْلِ عَنِ الذِّكْرِ[7].

---

(١) سَرِيّ السَّقَطِيّ تقدمت ترجمته في الخاطرة رقم:[١٢٨-٣٦٢].

(٢) وكأنه يقول: صرت مقصدًا للفارغين الذين لا شغل لهم إلا القيل والقال.

(٣) مَعْرُوْفِ الْكَرْخِيّ ترجمته في:[٢٤-١٧٩]. والخبر في «الحلية» للأصبهاني.(ج٨/ ص٣٦٦) وفيه:«قَدِمَ قَوْمٌ إِلَىٰ مَعْرُوفٍ فَأَطَالُوا الْجُلُوسَ، فَقَالَ:«يَا قَوْمُ إِنَّ الْمَلِكَ دَائِمٌ لا يَفْتُرُ عَنْ سُوقِهَا».

(٤) عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ أَبُو عَبْدِ اللهِ - وَيُقَالُ: أَبُو عَمْرٍو -، البَصْرِيُّ. القُدْوَةُ، الوَلِيُّ، الزَّاهِدُ، الثِّقَة، مَاتَ سَنَة:(٥٥هـ).

(٥) كُرْزُ بْن وَبَرَة الحَارِثِيُّ، الكُوْفِيُّ، الزَّاهِدُ، القُدْوَةُ، النَّاسِكُ.وَالرُّوزْجَار: الَّذِي يَعْمَلُ فِي الطِّيْنِ وَالبِنَاء بِالْمَجْرَفَةِ.

(٦) ترجمة دَاوُدُ الطَّائِي في:[١٢٨-٣٦٢]. والخبر في «الحلية» للأصبهاني.(ج٧/ ص٣٥) وفيه:«بَيْنَ مَضْغِ الْخُبْزِ وَشُرْبِ الْفَتِيتِ قِرَاءَةُ خَمْسِينَ آيَةً».[وَالْفَتِيْتَ: الخبز اليابس المفتوت المبلل بالماء].

(٧) عُثْمَانُ بن عِيسَىٰ البَاقِلَّاوِيُّ أَبُو عَمْرو أَحَد الزُّهَّاد المُتَعَبِّدِيْن مَاتَ سَنَةَ:(٢٠١هـ) وَالْخَبر في «تاريخ بغداد»(١١/ ٣١١).

وَأَوْصَىٰ بَعْضُ السَّلَفِ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: إِذَا خَرَجْتُم مِنْ عِنْدِي؛ فَتَفَرَّقُوا؛ لَعَلَّ أَحَدَكُمْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي طَرِيقِهِ، وَمَتَىٰ اجْتَمَعْتُم، تَحَدَّثْتُم.

وَاعْلَمْ أَنَّ الزَّمَانَ أَشْرَفُ مِنْ أَنْ يُضَيَّعَ مِنْهُ لَحْظَةٌ: فَإِنَّ فِي «الصَّحِيحِ»[١] عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ؛ غُرِسَتْ لَهُ بِهَا نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ». فَكَمْ يُضَيِّعُ الآدَمِيُّ مِنْ سَاعَاتٍ يَفُوتُهُ فِيهَا الثَّوَابُ الْجَزِيلُ!

وَهَذِهِ الأَيَّامُ مِثْلُ الْمَزْرَعَةِ؛ فَكَأَنَّهُ قِيلَ لِلإِنْسَانِ: كُلَّمَا بَذَرْتَ حَبَّةً؛ أَخْرَجْنَا لَكَ أَلْفَ كُرٍّ[٢]؛ فَهَلْ يَجُوزُ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَوَقَّفَ فِي البَذْرِ وَيَتَوانَىٰ؟!

وَالَّذِي يُعِينُ عَلَىٰ اغْتِنَامِ الزَّمَانِ: الانْفِرَادُ وَالعُزْلَةُ مَهْمَا أَمْكَنَ، وَالاخْتِصَارُ عَلَىٰ السَّلَامِ أَوْ حَاجَةٍ مُهِمَّةٍ لِمَنْ يَلْقَىٰ، وَقِلَّةُ الأَكْلِ؛ فَإِنَّ كَثْرَتَهُ سَبَبُ النَّوْمِ الطَّوِيلِ وَضَيَاعِ اللَّيْلِ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ، وَآمَنَ بِالْجَزَاءِ؛ بَانَ لَهُ مَا ذَكَرْتُهُ.

*[١٦٢-١١٤] [خَاطِرَةٌ]:

[عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ البَدْءِ بِالأَهَمِّ فَالمُهِمِّ]

رَأَيْتُ الشَّرَهَ فِي تَحْصِيلِ الأَشْيَاءِ يُفَوِّتُ النَّفْسَ مَقْصُودَهَا[٣]، وَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ كَانَ شَرِهًا فِي جَمْعِ الْمَالِ، فَحَصَلَ لَهُ الْكَثِيرُ مِنْهُ، وَهُوَ حَرِيصٌ عَلَىٰ الازْدِيَادِ.

وَلَوْ فَهِمَ؛ عَلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْمَالِ إِنْفَاقُهُ فِي العُمُرِ؛ فَإِذَا أَنْفَقَ الْعُمُرَ فِي تَحْصِيلِهِ؛ فَاتَ الْمَقْصُودَانِ جَمِيعًا! وَكَمْ رَأَيْنَا مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ، وَلَمْ يَتَمَتَّعْ بِهِ، فَأَبْقَاهُ لِغَيْرِهِ، وَأَفْنَىٰ نَفْسَهُ؛

(١) رواه الترمذي، كِ: «الدَّعَوَاتِ» (٣٤٦٤). وابن أبي شيبة، كِ: «الدعاء» (٣٠٠٥١، ٣٠٠٦٤).

(٢) الكُرُّ: كَيْلٌ مَعْرُوفٌ وَالْجَمْعُ أَكْرَارٌ، وَهُوَ: (٢٩٢٥كغ).

(٣) هكذا في مخطوط: (ي)، وجاء في الأصل: [يُفَوِّتُ الشَّرَهُ مَقْصُودَهُ].

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ[١]:

كَــدُودَةِ القَــزِّ مَــا تَبْنِيــهِ يَهْــدِمُهَا وَغَيْرُهَــا بِالَّــذِي تَبْنِيــهِ يَنْتَفِــعُ

وَكَذَلِكَ رَأَيْنَا خَلْقًا كَثِيْرًا يَحْرِصُوْنَ عَلَىٰ جَمْعِ الْكُتُبِ، فَيُنْفِقُوْنَ أَعْمَارَهُمْ فِي كِتَابَتِهَا. وَكَذَأْبِ أَهْلِ الْحَدِيْثِ؛ يُنْفِقُوْنَ الأَعْمَارَ فِي النَّسْخِ وَالسَّمَاعِ إِلَىٰ آخِرِ الْعُمُرِ.

ثُمَّ يَنْقَسِمُوْنَ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَشَاغَلُ بِالْحَدِيْثِ وَعِلْمِهِ وَتَصْحِيْحِهِ، وَلَعَلَّهُ لَا يَفْهَمُ جَوَابَ حَادِثَةٍ، وَلَعَلَّ عِنْدَهُ لِحَدِيْثِ: «أَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ»[٢] مِئَةُ طَرِيْقٍ، وَقَدْ حُكِيَ لِي عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ الْحَدِيْثِ أَنَّهُ سَمِعَ «جُزْءَ ابْنُ عَرَفَةَ»[٣] عَنْ مِئَةِ شَيْخٍ، وَكَانَ عِنْدَهُ سَبْعُوْنَ نُسْخَةً.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْمَعُ الْكُتُبَ وَيَسْمَعُهَا، وَلَا يَدْرِي مَا فِيْهَا، لَا مِنْ حَيْثُ صِحَّتِهَا، وَلَا مِنْ فَهْمِ مَعْنَاهَا، فَتَرَاهُ يَقُوْلُ: الْكِتَابُ الْفُلَانِيُّ سَمَاعِي، وَعِنْدِي مِنْهُ نُسْخَةٌ[٤]، وَالْكِتَابُ الْفُلَانِيُّ، وَالْفُلَانِيُّ . . . فَلَا يَعْرِفُ عِلْمَ مَا عِنْدَهُ مِنْ حَيْثُ فَهْمِ صَحِيْحِهِ مِنْ سَقِيْمِهِ، وَقَدْ صَدَّهُ اشْتِغَالُهُ بِذَلِكَ عَنِ الْمُهِمِّ مِنَ الْعِلْمِ! فَهُمْ كَمَا قَالَ [ابْنُ أَبِي حَفْصَةَ][٥].

---

(١) البيت من البحر: [البسيط]، وقائله: أبو الفتح البستي.

(٢) رواه البخاري، كِ: «المَنَاقِبِ» (٣٥١٤). ومسلم، كِ: «فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ» (٢٥١٤).

(٣) الحَسَنُ بنُ عَرَفَةَ بنِ يَزِيْدَ أَبُو عَلِيٍّ البَغْدَادِيُّ، المُؤَدِّبُ الإِمَامُ، المُحَدِّثُ، الثِّقَةُ، مَاتَ سَنَةَ: (٢٥٧هـ). و«جُزْءُ ابْنُ عَرَفَةَ» يُعَدُّ مِنَ الأَجْزَاء الحَدِيْثِيَّةِ الَّتِي تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا العَدِيْد مِنَ الْفَوَائِدِ الإِسْنَادِيَّةِ وَالمَتْنِيَّةِ الَّتِي يَعْتَنِي بِمَعْرِفَتِهَا أَهْل الحَدِيْث، فَضْلًا عَنْ عُلُوِّ سَنَدِ ابْن عَرَفَة؛ لِأَنَّه مِنَ المُعَمَّرِيْن. وَفِي الكِتَابِ (٩٤) نصًّا مُسْنَدًا.

(٤) جاء في الأصل والمخطوط: [بِهِ نُسْخَةٌ]، والصواب ما أثبتناه.

(٥) جاء في الأصل: [قيل] وما أثبتناه من مخطوط: (ي). وَفِي الأصل: [الْحُطَيْئَةُ] وفي مخطوط: (ي): [الخطيب] ولعله تصحيف. وما أثبتناه من: «الكامل في اللغة» (ج٣/ ص٩٨) للمبرد، (ت: ٢٨٥هـ)، «العقد الفريد» (ج٢/ ص٣١٢) لابن عبد ربه، (ت: ٣٢٨هـ). وفيهما: «وَهَجَا مَرْوَانُ بنُ سُلَيْمَانَ بنِ يَحْيَىٰ بنِ أَبِي حَفْصَةَ قَوْمًا مِنْ رُوَاةِ الشِّعرِ بِأَنَّهُم لَا يَعلَمُونَ مَا هُوَ، عَلَىٰ كَثْرَةِ استِكْثَارِهِم رِوَايَتِهِ، فَقَالَ: زَوَامِلُ لِلأَشْعَارِ...». وَالْحُطَيْئَةُ أبو مُلَيْكَة جَرْوَل بْن أَوْس بْن مَالِك العَبْسِي. شَاعِرٌ مُخَضْرَم أَدْرَكَ الجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلَام. اِشْتَدَّ فِي هِجَاءِ النَّاس حَتَّىٰ أَنّه هَجَا أُمّه وَأَبَاه وَنَفْسَهُ. مَاتَ سَنَةَ: (٤٥هـ). وَابنُ أَبِي حَفْصَةَ مَرْوَانُ بنُ سُلَيْمَانَ بنِ يَحْيَىٰ، مَوْلَىٰ مَرْوَانَ بنِ الحَكَمِ، مَاتَ سَنَةَ: (١٨٢هـ).

زَوَامِـلُ لِلأَخْبَـارِ لا عِلْـمَ عِنْـدَهَا ... بِمُتْقَلِهَـا إِلَّا كَعِلْـمِ الأَبَـاعِرِ[(١)]

لَعَمْـرُكَ مَـا يَـدْرِي البَعِيْـرُ إِذَا غَـدَا ... بِأَوْسَـاقِهِ أَوْ رَاحَ: مَـا فِـي الغَرَائِـرِ[(٢)]

ثُمَّ تَرَىٰ مِنْهُمْ مَنْ يَتَصَدَّرُ، وَيَفْتَقِرُ الزَّمَانُ إِلَىٰ تَصَدُّرِهِ لِلرِّوَايَةِ، فَيَمُدُّ يَدَهُ إِلَىٰ مَا لَيْسَ مِنْ شُغْلِهِ؛ فَإِنْ أَفْتَىٰ؛ أَخْطَأَ، وَإِنْ تَكَلَّمَ فِي الأُصُوْلِ، خَلَّطَ!

وَلَوْلا أَنِّي لا أُحِبُّ ذِكْرَ النَّاسِ؛ لَذَكَرْتُ مِنْ أَخْبَارِ كِبَارِ عُلَمَائِهِم، وَمَا خَلَّطُوْا مَا يُعْتَبَرُ بِهِ، وَلَكِنَّهُ لا يَخْفَىٰ عَلَىٰ المُحَقِّقِ حَالُهُمْ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ فِي الحَدِيْثِ: «مَنْهُوْمَانِ لا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عَلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا»[(٣)]؟!

قُلْتُ: أَمَّا العَالِمُ؛ فَلا أَقُوْلُ لَهُ: اشْبَعْ مِنَ العِلْمِ، وَلَا اقْتَصِرْ عَلَىٰ بَعْضِهِ. بَلْ أَقُوْلُ لَهُ: قَدِّمِ الْمُهِمَّ؛ فَإِنَّ العَاقِلَ مَنْ قَدَّرَ عُمُرَهُ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهُ، وَإِنْ كَانَ لَا سَبِيْلَ إِلَىٰ العِلْمِ بِمِقْدَارِ الْعُمُرِ؛ غَيْرَ أَنَّهُ يَبْنِي عَلَىٰ الأَغْلَبِ؛ فَإِنْ وَصَلَ؛ فَقَدْ أَعَدَّ لِكُلِّ مَرْحَلَةٍ زَادًا، وَإِنْ مَاتَ قَبْلَ الوُصُوْلِ؛ فَنِيَّتُهُ تَسْلُكُ بِهِ[(٤)].

فَإِذَا عَلِمَ الْعَاقِلُ أَنَّ الْعُمُرَ قَصِيْرٌ، وَأَنَّ العِلْمَ كَثِيْرٌ، فَقَبِيْحٌ بِالْعَاقِلِ الطَّالِبِ لِكَمَالِ الفَضَائِلِ أَنْ يَتَشَاغَلَ مَثَلًا بِسَمَاعِ الْحَدِيْثِ وَنَسْخِهِ؛ لِيُحَصِّلَ كُلَّ طَرِيْقٍ، وَكُلَّ رِوَايَةٍ، وَكُلَّ غَرِيْبٍ، وَهَذَا لَا يَفْرَغُ مِنْ مَقْصُوْدِهِ مِنْهُ فِي خَمْسِيْنَ سَنَةً؛ خُصُوْصًا إِنْ تَشَاغَلَ بِالنَّسْخِ، ثُمَّ لَا يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، أَوْ يَتَشَاغَلُ بِعُلُوْمِ الْقُرْآنِ، وَلا يَعْرِفُ الْحَدِيْثَ، أَوْ بِالْخِلَافِ فِي الفِقْهِ، وَلا يَعْرِفُ النَّقْلَ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ الْمَسْأَلَةِ.

---

(١) الزَّوَامِل: جمع زاملة: بعير يستظهر به الرجل يحمل عليه متاعه وطعامه. وَ(مُتْقَلِهَا): اسم فاعل؛ يعني: المحمول الذي أثقل ظهرها. و(الأباعر): جمع بعير.

(٢) البيتان من البحر:[الطويل]. و(الأوساق): جمع وسق، وهو الحمل. و(الغرائر): جمع الغرارة: وهي الأكياس التي توضع فيها الحبوب والأحمال، وتكون من الصوف أو الشعر، وهو أكبر من الجوالق.

(٣) رواه بهذا اللفظ البزار في «مسنده»(٤٨٨٠). عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما. والحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «العلم»(٣١٢) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لا يَشْبَعُ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لا يَشْبَعُ».

(٤) جاء في حاشية الأصل:[قبل الوصول فحسبه تلك].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَدَبِّرْ لِي مَا تَخْتَارُ لِنَفْسِكَ.

فَأَقُوْلُ: ذُو الهِمَّةِ لَا يَخْفَىٰ مِنْ زَمَانِ الصِّبَا؛ كَمَا قَالَ سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ[1]: قَالَ لِي أَبِي، وَقَدْ بَلَغْتُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً: إِنَّهُ قَدِ انْقَضَتْ عَنْكَ شَرَائِعُ الصِّبَا؛ فَاتْبَعِ الْخَيْرَ؛ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ. فَجَعَلْتُ وَصِيَّةَ أَبِي قِبْلَةً أَمِيْلُ إِلَيْهَا، وَلا أَمِيْلُ عَنْهَا.

ثُمَّ قَبْلَ شُرُوْعِي فِي الجَوَابِ أَقُوْلُ: يَنْبَغِي لِمَنْ لَهُ أَنَفَةٌ أَنْ يَأْنَفَ مِنَ التَّقْصِيْرِ، الْمُمْكِنِ دَفْعُهُ عَنِ النَّفْسِ؛ فَلَوْ كَانَتِ النُّبُوَّةُ مَثَلًا تَأْتِي بِكَسْبٍ؛ لَمْ يَجُزْ لَهُ أَنْ يَقْنَعَ بِالْوِلَايَةِ، أَوْ تَصَوَّرَ أَنْ يَكُوْنَ مَثَلًا خَلِيْفَةً؛ لَمْ يَحْسُنْ بِهِ أَنْ يَقْتَنِعَ بِإِمَارَةٍ، وَلَوْ صَحَّ لَهُ أَنْ يَكُوْنَ مَلَكًا؛ لَمْ يَرْضَ أَنْ يَكُوْنَ بَشَرًا، وَالْمَقْصُوْدُ أَنْ يَنْتَهِيَ بِالنَّفْسِ إِلَىٰ كَمَالِهَا الْمُمْكِنِ لَهَا فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ.

وَقَدْ عُلِمَ قِصَرُ الْعُمُرِ، وَكَثْرَةُ الْعِلْمِ: فَيَبْتَدِئُ بِالْقُرْآنِ وَحِفْظِهِ، وَيَنْظُرُ فِي تَفْسِيْرِهِ نَظَرًا مُتَوَسِّطًا، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ بِذَلِكَ مِنْهُ شَيْءٌ. وَإِنْ صَحَّ لَهُ قِرَاءَةُ الْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ، وَأَشْيَاءُ مِنَ النَّحْوِ، وَكُتُبِ اللُّغَةِ.

وَابْتَدَأَ بِأُصُوْلِ الْحَدِيْثِ مِنْ حَيْثُ النَّقْلِ؛ كَالصِّحَاحِ وَالْمَسَانِيْدِ وَالْسُّنَنِ. وَمِنْ حَيْثُ عِلْمِ الْحَدِيْثِ؛ كَمَعْرِفَةِ الضُّعَفَاءِ وَالأَسْمَاءِ؛ فَلْيَنْظُرْ فِي أُصُوْلِ ذَلِكَ.

وَقَدْ رَتَّبَتِ الْعُلَمَاءُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَسْتَغْنِي بِهِ الطَّالِبُ عَنِ التَّعَبِ.

وَلْيَنْظُرْ فِي التَّوَارِيْخِ؛ لِيَعْرِفَ مَا لَا يُسْتَغْنَىٰ عَنْهُ؛ كَنَسَبِ الرَّسُوْلِ ﷺ وَأَقَارِبِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَمَا جَرَىٰ لَهُ.

ثُمَّ لِيُقْبِلْ عَلَىٰ الفِقْهِ؛ فَلْيَنْظُرْ فِي المَذْهَبِ وَالخِلَافِ، وَلْيَكُنِ اعْتِمَادُهُ عَلَىٰ مَسَائِلِ الْخِلَافِ؛ فَلْيَنْظُرْ فِي المَسْأَلَةِ وَمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ، فَيَطْلُبُهُ مِنْ مَظَانِّهِ؛ كَتَفْسِيْرِ آيَةٍ وَحَدِيْثٍ وَكَلِمَةٍ لُغَةٍ.

وَيَتَشَاغَلُ بِأُصُوْلِ الفِقْهِ وَبِالفَرَائِضِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الفِقْهَ عَلَيْهِ مَدَارُ العُلُوْمِ.

---

(١) سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ بنِ أَبِي عِمْرَانَ مَيْمُوْنٍ. الإِمَامُ الكَبِيْرُ، حَافِظُ العَصْرِ، شَيْخُ الإِسْلَامِ، مَاتَ سَنَةَ: (١٩٨هـ).

وَيَكْفِيْهِ مِنَ النَّظَرِ فِي الأُصُوْلِ(١) مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَىٰ وُجُوْدِ الصَّانِعِ؛ فَإِذَا أَثْبَتَهُ بِالدَّلِيْلِ، وَعَرَفَ مَا يَجُوْزُ عَلَيْهِ مِمَّا لَا يَجُوْزُ، وَأَثْبَتَ إِرْسَالَ الرُّسُلِ، وَعَلِمَ وُجُوْبَ القَبُوْلِ مِنْهُم؛ فَقَدِ احْتَوَىٰ عَلَىٰ المَقْصُوْدِ مِنْ عِلْمِ الأُصُوْلِ.

فَإِنِ اتَّسَعَ الزَّمَانُ لِلتَّزَيُّدِ مِنَ العِلْمِ؛ فَلْيَكُنْ مِنَ الفِقْهِ؛ فَإِنَّهُ الأَنْفَعُ.

وَمَهْمَا فُسِحَ لَهُ فِي المُهَلِ، فَأَمْكَنَهُ تَصْنِيْفٌ فِي عِلْمٍ؛ فَإِنَّهُ يُخَلِّفُ بِذَلِكَ خَلَفَهُ خَلَفًا صَالِحًا. مَعَ اجْتِهَادِهِ فِي التَّسَبُّبِ إِلَىٰ اتِّخَاذِ الوَلَدِ.

ثُمَّ يَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْبَرَةٌ، فَيَلْتَفِتُ إِلَىٰ فَهْمِ مُعَامَلَةِ اللهِ ﷻ؛ فَإِنَّ مَجْمُوْعَ مَا حَصَّلَهُ مِنَ العِلْمِ يَدُلُّهُ عَلَيْهِ. فَإِذَا تَعَرَّضَ لِتَحْقِيْقِ مَعْرِفَتِهِ، وَوَقَفَ عَلَىٰ بَابِ مُعَامَلَتِهِ؛ فَقَلَّ أَنْ يَقِفَ صَادِقٌ إِلَّا وَيُجْذَبَ إِلَىٰ مَقَامِ الوِلَايَةِ، وَمَنْ أُرِيْدَ وُفِّقَ.

وَإِنَّ للهِ ﷻ أَقْوَامًا يَتَوَلَّىٰ تَرْبِيَتَهُم، وَيَبْعَثُ إِلَيْهِمْ فِي زَمَنِ الطُّفُوْلِيَّةِ مُؤَدِّبًا؟ وَيُسَمَّىٰ العَقْلَ، وَمُقَوِّمًا، وَيُقَالُ لَهُ: الفَهْمُ.

وَيَتَوَلَّىٰ تَأْدِيْبَهُم وَتَثْقِيْفَهُم، وَيُهَيِّئُ لَهُم أَسْبَابَ القُرْبِ مِنْهُ؛ فَإِنْ لَاحَ قَاطِعٌ قَطَعَهُم عَنْهُ؛ [حَمَاهُم مِنْهُ](٢)، وَإِنْ تَعَرَّضَتْ بِهِم فِتْنَةٌ؛ دَفَعَهَا عَنْهُمْ.

فَنَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ، وَنَعُوْذُ بِهِ مِنْ خِذْلَانٍ لَا يَنْفَعُ مَعَهُ اجْتِهَادٌ.

* [١٦٣ - ٢٨٣] [خَاطِرَةٌ]:

[المُوَفَّقُ مِنْ طُلَّابِ العِلْمِ مَنْ طَلَبَ الأَهَمَّ]

تَأَمَّلْتُ حَالَةً تَدْخُلُ عَلَىٰ طُلَّابِ العِلْمِ تُوْجِبُ الغَفْلَةَ عَنِ المَقْصُوْدِ، وَهُوَ حِرْصُهُم عَلَىٰ

(١) أي: أصول الدين في علم العقيدة.

(٢) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

الكِتَابَةِ، خُصُوْصًا الْمُحَدِّثِيْنَ، فَيَسْتَغْرِقُ ذَلِكَ زَمَانَهُم عَنْ أَنْ يَحْفَظُوْا وَيَفْهَمُوْا، فَيَذْهَبُ الْعُمُرُ وَقَدْ عَرَوْا[١] عَنِ العِلْمِ إِلَّا اليَسِيْرَ.

فَمَنْ وُفِّقَ؛ جَعَلَ مُعْظَمَ الزَّمَانِ مَصْرُوْفًا فِي الإِعَادَةِ وَالحِفْظِ، وَجَعَلَ وَقْتَ التَّعَبِ مِنَ التَّكْرَارِ لِلنَّسْخِ، فَيَحْصُلُ لَهُ الْمُرَادُ.

وَالْمُوَفَّقُ مَنْ طَلَبَ الْمُهِمَّ؛ فَإِنَّ الْعُمُرَ يَعْجِزُ عَنْ تَحْصِيلِ الْكُلِّ، وَجُمْهُوْرُ الْعُلُوْمِ الفِقْهُ، وَفِي النَّاسِ مَنْ حَصَلَ لَهُ الْعِلْمُ، وَغَفَلَ عَنِ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ، وَكَأَنَّهُ مَا حَصَّلَ شَيْئًا، نَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الْخِذْلَانِ.

*[١٦٤ – ٣٥٤] [خَاطِرَةٌ]:

[مُصِيبَةُ طَالِبِ العِلمِ رِضَاهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَاقْتِنَاعُهُ بِعِلْمِهِ!]

الْمُصِيْبَةُ الْعُظْمَىٰ رِضَا الإِنْسَانِ عَنْ نَفْسِهِ، وَاقْتِنَاعُهُ بِعِلْمِهِ!

وَهَذِهِ مِحْنَةٌ قَدْ عَمَّتْ أَكْثَرَ الْخَلْقِ: فَتَرَىٰ اليَهُوْدِيَّ أَوْ النَّصْرَانِيَّ يَرَىٰ أَنَّهُ عَلَىٰ الصَّوَابِ، وَلَا يَبْحَثُ وَلَا يَنْظُرُ فِي دَلِيْلِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ، وَإِذَا سَمِعَ مَا يُلَيِّنُ قَلْبَهُ، مِثْلَ القُرْآنِ الْمُعْجِزِ؛ هَرَبَ؛ لِئَلَّا يَسْمَعَ!

وَكَذَلِكَ كُلُّ ذِي هَوَىٰ يَثْبُتُ عَلَيْهِ: إِمَّا لِأَنَّهُ مَذْهَبُ أَبِيْهِ وَأَهْلِهِ، أَوْ لِأَنَّهُ نَظَرَ نَظَرًا أَوَّلَ فَرَآهُ صَوَابًا، وَلَمْ يَنْظُرْ فِيْمَا يُنَاقِضُهُ، وَلَمْ يُبَاحِثِ الْعُلَمَاءَ لِيُبَيِّنُوْا لَهُ خَطَأَهُ!

وَمِنْ هَذَا حَالُ الخَوَارِجِ عَلَىٰ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلِيٍّ رضي الله عنه[٢]؛ فَإِنَّهُم اسْتَحْسَنُوْا مَا وَقَعَ لَهُمْ، وَلَمْ يَرْجِعُوْا إِلَىٰ مَنْ يَعْلَمُ، وَلَمَّا لَقِيَهُم عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فَبَيَّنَ لَهُمْ خَطَأَهُمْ؛ رَجَعَ عَنْ مَذْهَبِهِ مِنْهُم أَلْفَانِ[٣].

(١) عَرَوْا؛ أي: تجرّدوا. تقول: عَرِيَ الشَّيءُ: تجرّد مِمَّا يُغطّيه أو يكسوه.

(٢) ترجمة أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلِيّ بن أَبِي طَالِب رضي الله عنه في الخاطرة:[٣٦-٢٠١]. وأمَّا الخوارج وخبروهم ففي:[١٥٤-٢٧٧].

(٣) عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ البَحْرُ أَبُو العَبَّاسِ ابْنُ عَمِّ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، حَبْرُ الأُمَّةِ، تُوُفِّيَ سَنَةَ:(٦٨هـ). وَالخبر
=

وَمِمَّنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ هَوَاهُ ابْنُ مُلْجِمٍ[١]، فَرَأَىٰ مَذْهَبَهُ هُوَ الْحَقَّ، فَاسْتَحَلَّ قَتْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْنَ ﷺ، وَرَآهُ دِيْنًا، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَمَّا قُطِّعَتْ أَعْضَاؤُهُ، لَمْ يُمَانِعْ، فَلَمَّا طُلِبَ لِسَانُهُ لِيُقْطَعَ؛ انْزَعَجَ، وَقَالَ: كَيْفَ أَبْقَىٰ سَاعَةً فِي الدُّنْيَا لَا أَذْكُرُ اللهَ؟! وَمِثْلُ هَذَا مَا لَهُ دَوَاءٌ.

وَكَذَلِكَ كَانَ الْحَجَّاجُ[٢] يَقُوْلُ: «وَاللهِ؛ مَا أَرْجُو الخَيْرَ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ»! هَذَا قَوْلُهُ! وَكَمْ قَدْ قَتَلَ مَنْ لَا يَحِلُّ قَتْلُهُ، مِنْهُمْ سَعِيْدُ بْنُ جُبَيْرٍ[٣].

وَقَدْ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ، وَابْنُ نَاصِرٍ الحَافِظِ؛ قَالَا: أَخْبَرَنَا المُبَارَكُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا الحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ النُّصَيْبِيُّ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيْلُ بْنُ سَعِيْدٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُوْ بَكْرِ بْنُ الأَنْبَارِيِّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُوْ عِيْسَىٰ الخُتُّلِي؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُوْ يَعْلَىٰ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا الأَصْمَعِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُوْ عَاصِمٍ، عَنْ عَبَّادِ بْنِ كَثِيْرٍ، عَنْ قَحْذَمٍ؛ قَالَ: «وُجِدَ فِي سِجْنِ الْحَجَّاجِ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُوْنَ أَلْفًا، مَا يَجِبُ عَلَىٰ وَاحِدٍ مِنْهُم قَطْعٌ، وَلَا قَتْلٌ، وَلَا صَلْبٌ».

قُلْتُ: وَعُمُوْمُ السَّلَاطِيْنِ يَقْتُلُوْنَ وَيَقْطَعُوْنَ، ظَنًّا مِنْهُمْ جَوَازَ ذَلِكَ! وَلَوْ سَأَلُوْا العُلَمَاءَ؛ بَيَّنُوْا لَهُم.

وَعُمُوْمُ الْعَوَامِّ يُبَارِزُوْنَ بِالذُّنُوْبِ اعْتِمَادًا عَلَىٰ العَفْوِ، وَيَنْسَوْنَ الْعِقَابَ!

وَمِنْهُم مَنْ يَعْتَمِدُ أَنِّي مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، أَوْ أَنَّ لِي حَسَنَاتٍ قَدْ تَنْفَعُ، وَكُلُّ هَذَا لِقُوَّةِ الْجَهْلِ.

فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُبَالِغَ فِي مَعْرِفَةِ الدَّلِيْلِ، وَلَا يُسَاكِنَ شُبْهَتَهُ، وَلَا يَثِقَ بِعِلْمِ نَفْسِهِ. فَنَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ مِنْ جَمِيْعِ الآفَاتِ.

= في «مسند أحمد» (٦٥٦)، «مستدرك الحاكم» (٢٦٥٦، ٢٦٥٧) وَفِيهِمَا: «فَرَجَعَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلافٍ كُلُّهُمْ تَائِبٌ».

(١) تقدم ذكره في الخاطرة: [٦٥-٥٤]. وخبره في «الطبقات الكبرى» لابن سعد. (ج٣/ ص٣٩، ٤٠ - ذكر ابن ملجم).

(٢) ترجمته في: [٣٩-٤٩]. وخبره في «البداية والنهاية» لابن كثير. (ج١٢/ ص٥١٩) وفيه: «وَقَالَ الأَصْمَعِيُّ: لَمَّا مَرِضَ الْحَجَّاجُ أَرْجَفَ النَّاسُ بِمَوْتِهِ، فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: إِنَّ طَائِفَةً مِنْ أَهْلِ الشِّقَاقِ وَالنِّفَاقِ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ، فَقَالُوا: مَاتَ الْحَجَّاجُ، وَمَاتَ الْحَجَّاجُ. فَمَهْ، وَهَلْ يَرْجُو الْحَجَّاجُ الْخَيْرَ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ؟».

(٣) سَعِيْدُ بْنُ جُبَيْرِ بنِ هِشَامٍ أَبُو مُحَمَّدٍ - وَيُقَالُ: أَبُو عَبْدِ اللهِ - الأَسَدِيُّ، الكُوْفِيُّ، أَحَدُ الأَعْلَامِ، قُتِلَ سَنَةَ: (٩٥هـ).

*[١٦٥-٥٧] [خَاطِرَةٌ]:

[كَيفَ يُحافِظ الطَّالِبُ عَلَى آلَةِ العِلمِ]

مَا زَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَزَهِّدِيْنَ يُزْرُوْنَ عَلَىٰ كَثِيْرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ[١] إِذَا انْبَسَطُوْا فِي مُبَاحَاتٍ.

وَالَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَىٰ هَذَا الجَهْلُ؛ فَلَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ فَضْلُ عِلْمٍ؛ مَا عَابُوْهُمْ، وَهَذَا؛ لِأَنَّ الطِّبَاعَ لَا تَتَسَاوَىٰ؛ فَرُبَّ شَخْصٍ يَصْلُحُ عَلَىٰ خُشُوْنَةِ الْعَيْشِ، وَآخَرُ لَا يَصْلُحُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَا يَجُوْزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ غَيْرَهُ عَلَىٰ مَا يُطِيْقُهُ هُوَ؛ غَيْرَ أَنَّ لَنَا ضَابِطًا - هُوَ الشَّرْعُ - فِيْهِ الرُّخْصَةُ، وَفِيْهِ الْعَزِيْمَةُ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُلَامَ مَنْ حَصَرَ نَفْسَهُ فِي ذَلِكَ الضَّابِطِ، وَرُبَّ رُخْصَةٍ كَانَتْ أَفْضَلَ مِنْ عَزَائِمَ لِتَأْثِيْرِ نَفْعِهَا.

وَلَوْ عَلِمَ الْمُتَزَهِّدُوْنَ أَنَّ الْعِلْمَ يُوْجِبُ الْمَعْرِفَةَ بِاللهِ تَعَالَىٰ، فَتَنْبَتُّ الْقُلُوْبُ مِنْ خَوْفِهِ، وَتَنْحَلُّ الأَجْسَامُ لِلْحَذَرِ مِنْهُ[٢]؛ فَوَجَبَ التَّلَطُّفُ بِالأَجْسَامِ حِفْظًا لِقُوَّةِ الرَّاحِلَةِ؛ وَلِأَنَّ آلَةَ الْعِلْمِ وَالْحِفْظِ الْقَلْبُ وَالْفِكْرُ؛ فَإِذَا رُفِّهَتِ الآلَةُ؛ جَادَ الْعَمَلُ.

وَهَذَا أَمْرٌ لا يُعْلَمُ إِلَّا بِالْعِلْمِ؛ فَلِجَهْلِ الْمُتَزَهِّدِيْنَ بِالْعِلْمِ أَنْكَرُوْا مَا لَمْ يَعْلَمُوْا، وَظَنُّوْا أَنَّ الْمُرَادَ إِتْعَابُ الأَبْدَانِ، وَإِنْضَاءُ الرَّوَاحِلِ[٣]، وَمَا عَلِمُوْا أَنَّ الْخَوْفَ الْمُضْنِي[٤] يَحْتَاجُ إِلَىٰ رَاحَةٍ مُقَاوِمَةٍ؛ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: «رَوِّحُوا الْقُلُوْبَ تَعِي الذِّكْرَ»[٥].

---

(١) يُزْرُوْنَ: يَعِيبُونَ وَيَسْتَهْزِئُونَ وَيَسْتَخِفونَ بِهِم. زرَىٰ يَزرِي، ازْرِ، زَرْيًا وزِرايةً، فهو زارٍ، والمفعول مَزرِيّ.

(٢) فَتَنْبَتُّ الْقُلُوْبُ، أي: تَنْقَطِعُ، تَقُولُ: بَتَّ الحَبْلَ وَغَيرَه: نَزَعَهُ مِنْ أَصلِهِ أو جِذرِهِ. وَتَنْحَلُّ الأَجْسَامُ: أَصَابَهَا الضَّعف.

(٣) إِنْضَاءُ الرَّوَاحِلِ: إتعَابَهَا حَتَّىٰ تهزل. وَجَمَلٌ نِضوٌ؛ أَيْ: مَهْزُولٌ وَالْجَمْعُ أَنْضَاءٌ.

(٤) الْخَوْفَ الْمُضْنِي؛ أي: الخوف الَّذِي يَجْعل صَاحِبه يمْرَضُ مَرَضًا مُلَازِمًا حَتَّىٰ يُشْرِفَ عَلَىٰ الْمَوْتِ.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» كِتَابُ «الزهد» الأثر رقم: (٣٦٦٦٣) عَنْ قَسَامَةَ بْنِ زُهَيْرٍ، أَبُو الْمِنْهَالِ.

*[١٦٦ - ١٠] [خَاطِرَةٌ]:

[هَلَاكُ طَالِبِ الْعِلْمِ فِي تَرْكِ الْعَمَلِ بِهِ]

لَمَّا رَأَيْتُ رَأْيَ نَفْسِي فِي العِلْمِ حَسَنًا؛ فَهِيَ تُقَدِّمُهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَعْتَقِدُ الدَّلِيْلَ، وَتُفَضِّلُ سَاعَةَ التَّشَاغُلِ بِهِ عَلَىٰ سَاعَاتِ النَّوَافِلِ.

وَتَقُوْلُ: أَقْوَىٰ دَلِيْلٍ لِيَ عَلَىٰ فَضْلِهِ عَلَىٰ النَّوَافِلِ: أَنِّي رَأَيْتُ كَثِيْرًا مِمَّنْ شَغَلَتْهُمْ نَوَافِلُ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ عَنْ نَوَافِلِ الْعِلْمِ عَادَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِالقَدْحِ فِي الأُصُوْلِ؛ فَرَأَيْتُهَا فِي هَذَا الاتِّجَاهِ عَلَىٰ الجَادَّةِ السَّلِيْمَةِ[1] وَالرَّأْيُ الصَّحِيْحِ.

إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُهَا وَاقِفَةً مَعَ صُوْرَةِ التَّشَاغُلِ بِالْعِلْمِ، فَصِحْتُ بِهَا: فَمَا الَّذِي أَفَادَكِ الْعِلْمُ؟! أَيْنَ الْخَوْفُ؟! أَيْنَ القَلَقُ؟! أَيْنَ الْحَذَرُ؟! أَوَ مَا سَمِعْتِ بِأَخْبَارِ أَخْيَارِ الأَحْبَارِ فِي تَعَبُّدِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ؟!

أَمَا كَانَ الرَّسُوْلُ ﷺ سَيِّدَ الْكُلِّ[2]، ثُمَّ إِنَّهُ قَامَ حَتَّىٰ وَرِمَتْ قَدَمَاهُ[3]؟!

أَمَا كَانَ أَبُوْ بَكْرٍ رضي الله عنه شَجِيَّ النَّشِيْجِ، كَثِيْرَ الْبُكَاءِ؟![4].

أَمَا كَانَ فِي خَدِّ عُمَرَ رضي الله عنه خَطَّانِ[5] مِنْ آثَارِ الدُّمُوْعِ؟![6].

---

(١) الجَادَّةِ: الطَّرِيق الْمُسْتَقِيم. وقد جاء في حاشية الأصل:[في الأحمدية: الجادة السهلة].

(٢) كَأَنَّهُ رحمه الله يُشِيْرُ لِقَوْلِهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ» رواه ابن ماجة، كِتَابُ «الزُّهْدِ» بَابُ «الشَّفَاعَةِ»(٤٣٠٨) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ.

(٣) رواه مسلم، كِتَابُ «صِفَةِ الْقِيَامَةِ»(٢٨١٩). عَنْ الْمُغِيرَةِ، قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ وَرِمَتْ قَدَمَاهُ، قَالُوا: قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ ﷺ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا».

(٤) أَبُوْ بَكْرٍ الصِّدِّيقُ السَّابِقُ إِلَىٰ التَّصْدِيقِ، الْمُلَقَّبُ بِالْعَتِيقِ، صَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَضَرِ وَالأَسْفَارِ. وَالشَّجْوُ: الحُزنُ. وَالنَّشِيْجُ: الصَّوْتُ الذي يتردَّدُ في الحَلْق. وَرُوِيَ فِي حَدِيْثٍ عَنْ عَائِشَةَ تَصِفُ أَبَاهَا رضي الله عنه: «وَكَانَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ غَزِيرَ الدَّمْعَةِ وَقِيذَ الْجَوَانِحِ شَجِيَّ النَّشِيجِ». الطبراني في «الكبير»(٣٠) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٢٤٧٢). وَكَثْرَة بُكَائه رضي الله عنه؛ فَرَواها البخاري، كِ: «الكَفَالَةِ» عَنْ عَائِشَةَ، وَفِيهِ: «وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لا يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ»، وفي رواية: «لا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ». البخاري، كِ: «الصَّلاَةِ»(٤٧٦).

(٥) جاء في الأصل والمخطوط:[خطين]. والصواب ما أثبتناه.

(٦) ترجمة عُمَرَ بنُ الخَطَّاب في:[٦٥-٥٤]. والخبر رواه ابن أبي الدنيا «الرقة والبكاء»(ح٦١). عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عِيسَىٰ.

أَمَا كَانَ عُثْمَانُ ﵁ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ فِي رَكْعَةٍ؟![1].

أَمَا كَانَ عَلِيٌّ ﵁ يَبْكِيْ بِاللَّيْلِ فِي مِحْرَابِهِ حَتَّىٰ تَخْضَلَّ لِحْيَتُهُ بِالدُّمُوْعِ، وَيَقُوْلُ: يَا دُنْيَا غُرِّي غَيْرِيْ؟![2].

أَمَا كَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَحْيَا عَلَىٰ قُوَّةِ الْقَلَقِ[3].

أَمَا كَانَ سَعِيْدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ مُلَازِمًا لِلْمَسْجِدِ، فَلَمْ تَفُتْهُ صَلَاةٌ فِي جَمَاعَةٍ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً؟![4].

أَمَا صَامَ الأَسْوَدُ بْنُ يَزِيْدَ حَتَّىٰ اخْضَرَّ وَاصْفَرَّ؟![5]

أَمَا قَالَتِ ابْنَةُ الرَّبِيْعِ بْنِ خُثَيْمٍ لَهُ: مَا لِي أَرَىٰ النَّاسَ يَنَامُوْنَ وَأَنْتَ لا تَنَامُ؟! فَقَالَ: إِنَّ أَبَاكِ يَخَافُ عَذَابَ البَيَاتِ؟![6].

أَمَا كَانَ أَبُوْ مُسْلِمٍ الْخَوْلانِيُّ يُعَلِّقُ سَوْطًا فِي المَسْجِدِ يُؤَدِّبُ بِهِ نَفْسَهُ إِذَا فَتَرَ؟![7].

أَمَا صَامَ يَزِيْدُ الرَّقَاشِيُّ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً، وَكَانَ يَقُوْلُ: وَا لَهَفَاهُ! سَبَقَنِي العَابِدُوْنَ، وَقُطِعَ بِي؟![8].

أَمَا صَامَ مَنْصُوْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً؟![9].

---

(١) عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ الْقَانِتُ ذُو النُّورَيْنِ وَالْهِجْرَتَيْنِ وَالْمُصَلِّي إِلَىٰ الْقِبْلَتَيْنِ. والخبر رواه ابن أبي شيبة(٣٧٢٠)و(٨٦٨٠).

(٢) ترجمة عَلِيٌّ بنَ أَبِي طَالِبٍ في:[٢٦-٢٠١]. والخبر أخرجه الآجُرِّيُّ في «كتاب الشريعة»(١٢١٨).

(٣) ترجمة الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ في:[٥٩-٨٧].

(٤) ترجمة سَعِيْدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ في:[١٥٢-١٦٩]. والخبر في «حلية الأولياء»الأصبهاني (ج٢/ ص١٦٢).

(٥) الأَسْوَدُ بْنُ يَزِيْدَ بنِ قَيْسٍ أَبُو عَمْرٍو النَّخَعِيُّ الإِمَامُ، القُدْوَةُ، مَاتَ سَنَةَ:(٧٥هـ). وَخَبَرُهُ فِي «السِّيَرِ» قَالَ الذَّهَبِيُّ: وَرَوَىٰ شُعْبَةُ عَنِ الحَكَمِ أَنَّ الأَسْوَدَ كَانَ يَصُوْمُ الدَّهْرَ -هَذَا صَحِيْحٌ عَنْهُ- وَكَأَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْهُ النَّهْيُ عَنْ ذَلِكَ أَوْ تَأَوَّلَ.

(٦) الرَّبِيْعُ بْنُ خُثَيْمِ بنِ عَائِذٍ أَبُو يَزِيْد الثَّوْرِيُّ الكُوْفِيُّ، الإِمَامُ، القُدْوَةُ، العَابِدُ، مَاتَ سَنَةَ:(٦٥هـ). وَالْخَبَرَ فِي «الحلية»(ج٢/ ص١٦٢):«إِنَّ الْبَيَاتَ النَّارَ لا تَدَعُ أَبَاكِ أَنْ يَنَامَ». وَمَعْنَىٰ: عَذَابَ البَيَاتِ؛ أي: الأخذ بغتة في الليل.

(٧) أَبُوْ مُسْلِمٍ الْخَوْلانِيُّ عَبْدُ اللهِ بنُ ثُوَبٍ، سَيِّدُ التَّابِعِيْنَ وَزَاهِدُ العَصْرِ. مَاتَ سَنَةَ:(٦٢هـ). وَخَبَرُهُ في:«الحلية»(٢/ ١٢٧).

(٨) يَزِيْدُ الرَّقَاشِيُّ بْنُ أَبَانَ الصَّائِمُ الظَّامِي، لَهُ أَخْبَارٌ كَثِيْرَةٌ فِي الزُّهدِ مَاتَ سَنَةَ: (١١٠و١٢٠هـ). وَخَبَرُهُ فِي «الحلية»(٣/ ٥٠).

(٩) مَنْصُوْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ أَبُو عَتَّابٍ، أَحَدُ الأَعْلَامِ الحَافِظُ القُدْوَةُ، مَاتَ سَنَةَ:(١٣٣هـ). وَخَبَرُهُ فِي «الحلية»(٥/ ٤٠).

أَمَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَبْكِي الدَّمَ مِنَ الْخَوْفِ؟![١].

أَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ يَبُولُ الدَّمَ مِنَ الْخَوْفِ؟![٢].

أَمَا تَعْلَمِينَ أَخْبَارَ الأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ فِي زُهْدِهِمْ وَتَعَبُّدِهِمْ؛ أَبُو حَنِيفَةَ، وَمَالِكٌ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ؟![٣].

احْذَرِي مِنَ الإِخْلادِ إِلَى صُورَةِ الْعِلْمِ مَعَ تَرْكِ الْعَمَلِ بِهِ؛ فَإِنَّهَا حَالَةُ الْكُسَالَى الزَّمْنَى[٤]:

وَخُذْ لَكَ مِنْكَ عَلَى مُهْلَةٍ ... وَمُقْبِلُ عَيْشِكَ لَمْ يُدْبِرِ

وَخَفْ هَجْمَةً لا تُقِيلُ العِثَارَ[٥]، ... وَتَطْوِي الْوُرُودَ عَلَى المَصْدَرِ

وَمَثِّلْ لِنَفْسِكَ أَيَّ الرَّعِيلِ[٦] ... يَضُمُّكَ فِي حَلْبَةِ الْمَحْشَرِ

---

(١) ترجمة سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ في الخاطرة رقم:[١٤-١١٨].

(٢) ترجمة إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ في الخاطرة رقم:[١٢٨-٣٦٢].

(٣) ترجمة أَبُو حَنِيفَةَ، وَمَالِكٌ في الخاطرة:[١٢٣-٢٥]. وَالشَّافِعِيُّ في:[٤٧-٦١]. وَأَحْمَدُ بنُ حَنْبَل في:[٢٤-١٧٩].

(٤) زَمِنَ الشَّخْصُ زَمَنًا وَزَمَانَةً فَهُوَ زَمِنٌ مِنْ بَابِ تَعِبَ وَهُوَ مَرَضٌ يَدُومُ زَمَانًا طَوِيلًا.

(٥) لا تُقِيلُ العِثَار: العثرة: هي الزَّلَة أو الهفوة أو المِحنة. والمعنى: لا تساعده في محنته أو زلته.

(٦) الأبيات من البحر:[المتقارب]. وجاء في حاشية الأصل:[في هامش الهندية: الرعيل - بالعين المهملة والياء المثناة التحتية - قال في النهاية: يقال للقِطعة من الفُرسان: رَعْلَة، ولجماعة الخيل: رَعِيل].

(١٣)

[العُزْلَة والخَلْوَة والمُخَالَطَة]

*[١٦٧ - ١٨٨] [خَاطِرَةٌ]:

[العُزْلَة للعَالِمِ والزَّاهِدِ]

مَا أَعْرِفُ نَفْعًا كَالْعُزْلَةِ عَنِ الْخَلْقِ، خُصُوْصًا لِلْعَالِمِ وَالزَّاهِدِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَكَادُ تَرَىٰ إِلَّا شَامِتًا بِنَكْبَةٍ، أَوْ حَسُوْدًا عَلَىٰ نِعْمَةٍ، أَوْ مَنْ يَأْخُذُ عَلَيْكَ غَلَطَاتِكَ!

فَيَا لِلْعُزْلَةِ! مَا أَلَذَّهَا! سَلِمَتْ مِنْ كَدَرِ غِيْبَةٍ[١]، وَآفَاتِ تَصَنُّعٍ، وَأَحْوَالِ الْمُدَاجَاةِ[٢]، وَتَضْيِيعِ الْوَقْتِ، ثُمَّ خَلَا فِيْهَا الْقَلْبُ بِالْفِكْرِ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَلِذٌّ عَنْهُ بِالْمُخَالَطَةِ[٣]، فَدَبَّرَ أَمْرَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ؛ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْحِمْيَةِ[٤]؛ يَخْلُوْ فِيْهَا الْمَعْيُ بِالأَخْلَاطِ فَيُذِيْبُهَا.

وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَ مَا يَصْنَعُ الْمُخَالِطُ؛ لِأَنَّهُ يَرَىٰ حَالَتَهُ الْحَاضِرَةَ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ وَكَلَامِهِم، فَيَشْتَغِلُ بِهَا عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ؛ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ يُرِيْدُ سَفَرًا قَدْ أَزِفَ[٥]، فَجَالَسَ أَقْوَامًا، فَشَغَلُوْهُ بِالْحَدِيْثِ، حَتَّىٰ ضَرَبَ الْبُوْقُ[٦] وَمَا تَزَوَّدَ!

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْعُزْلَةِ إِلَّا التَّفْكِيْرُ فِي زَادِ الرَّحِيْلِ، وَالسَّلَامَةُ مِنْ شَرِّ الْمُخَالَطَةِ؛ كَفَىٰ.

ثُمَّ لا عُزْلَةَ عَلَىٰ الحَقِيْقَةِ إِلَّا لِلْعَالِمِ وَالزَّاهِدِ؛ فَإِنَّهُمَا يَعْلَمَانِ مَقْصُوْدَ العُزْلَةِ، وَإِنْ كَانَا لا فِي عُزْلَةٍ.

---

(١) كَدَرِ غِيْبَةٍ: ما ينمّ عن انشغال أو قلق أو غمّ؛ فيكون غير صافي القلب والفكر.

(٢) الْمُدَاجَاةِ: مُلاينة في القول والتَّصرّف غِشًّا ولإظهار خلاف الحقيقة.

(٣) يَعني: الْقَلْبُ كَانَ مَشْغُولًا عَنِ الْفِكْرِ بِلَذَّةِ الْمُخَالَطَةِ؛ فَلَمَّا اعتزَلَ خَلَا الْقَلْبُ بِالْفِكْرِ.

(٤) الْحِمْيَة: إقلال من الطَّعام ونحوه مدّة معيّنة واتّباع نظام غذاء صحّيّ. وفي الحكمة: الحِمية رأسُ كلّ دواء.

(٥) أَزِفَ: دنا وقرُب؛ ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾؛ أي: دنت القيامة.

(٦) الْبُوْقُ: شَيْءٌ يُنْفَخُ فِيهِ وَالْجَمْعُ بُوقَاتٌ وَبِيقَاتٌ، وَهُوَ مِن استِعمَال العَامَّة؛ لأنَّ ضَرْبَه يُنفِّر النَّاسَ ويُعجّلهم للسَّفر.

أَمَّا العَالِمُ؛ فَعِلْمُهُ مُؤْنِسُهُ، وَكُتُبُهُ مُحَدِّثُهُ، وَالنَّظَرُ فِي سِيَرِ السَّلَفِ مُقَوِّمُهُ، وَالتَّفْكِيرُ فِي حَوَادِثِ الزَّمَانِ السَّابِقِ فُرْجَتُهُ؛ فَإِنْ تَرَقَّىٰ بِعِلْمِهِ إِلَىٰ مَقَامِ الْمَعْرِفَةِ الكَامِلَةِ لِلْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَتَشَبَّثَ بِأَذْيَالِ مَحَبَّتِهِ: تَضَاعَفَتْ لَذَّاتُهُ، وَاشْتَغَلَ بِهَا عَنِ الْأَكْوَانِ وَمَا فِيهَا، فَخَلَا بِحَبِيبِهِ، وَعَمِلَ مَعَهُ بِمُقْتَضَىٰ عِلْمِهِ.

وَكَذَلِكَ الزَّاهِدُ؛ تَعَبُّدُهُ أَنِيسُهُ، وَمَعْبُودُهُ جَلِيسُهُ؛ فَإِنْ كُشِفَ لِبَصَرِهِ عَنِ الْمَعْمُولِ مَعَهُ؛ غَابَ عَنِ الْخَلْقِ، وَغَابُوا عَنْهُ؛ إِنَّمَا اعْتَزَلَ مَا يُؤْذِي؛ فَهُمَا فِي الوِحْدَةِ بَيْنَ جَمَاعَةٍ.

فَهَذَانِ رَجُلَانِ قَدْ سَلِمَا مِنْ شَرِّ الْخَلْقِ، وَسَلِمَ الْخَلْقُ مِنْ شُرُورِهِمَا؛ بَلْ هُمَا قُدْوَةٌ لِلْمُتَعَبِّدِينَ، وَعَلَمٌ لِلسَّالِكِينَ؛ يَنْتَفِعُ بِكَلَامِهِمَا السَّامِعُ، وَتُجْرِي مَوْعِظَتُهُمَا المَدَامِعَ، وَتَنْتَشِرُ هَيْبَتُهُمَا فِي المَجَامِعِ؛ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِأَحَدِهِمَا؛ فَلْيُصَابِرِ الْخَلْوَةَ، وَإِنْ كَرِهَهَا؛ لِيُثْمِرَ لَهُ الصَّبْرُ الْعَسَلَ.

وَأَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَالِمٍ مُخَالِطٍ لِلْعَالَمِ، خُصُوصًا لِأَرْبَابِ الْمَالِ وَالسَّلَاطِينِ؛ يَجْتَلِبُ وَيُجْتَلَبُ، [وَيَخْتَلِبُ[1]] وَيُخْتَلَبُ[2]؛ فَمَا يَحْصُلُ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَقَدْ ذَهَبَ مِنْ دِينِهِ أَمْثَالُهُ. ثُمَّ أَيْنَ الأَنَفَةُ مِنَ الذُّلِّ لِلْفُسَّاقِ؟!

فَالَّذِي لا يُبَالِي بِذَلِكَ هُوَ الَّذِي لا يَذُوقُ طَعْمَ الْعِلْمِ، وَلَا يَدْرِي مَا الْمُرَادُ بِهِ، وَكَأَنَّهُ بِهِ وَقَدْ وَقَعَ فِي بَادِيَةٍ جُرُزٍ، وَقَفْرٍ مُهْلِكٍ فِي تِلْكَ الْبَرَارِي[3].

وَكَذَلِكَ الْمُتَزَهِّدُ إِذَا خَالَطَ وَخَلَّطَ؛ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ إِلَىٰ الرِّيَاءِ وَالتَّصَنُّعِ وَالنِّفَاقِ، فَيَفُوتُهُ

---

(١) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٢) يَجْتَلِبُ وَيُجْتَلَبُ: الْجَلَبُ: مَا تَجْلُبُهُ مِنْ بَلَدٍ إِلَىٰ بَلَدٍ، أَوْ مِنْ مَوضِعٍ إِلَىٰ آخَرَ؛ وَكَأَنَّ المَعنَىٰ: يَشُدُّ أَهْلَ الدُّنْيَا إِلَيْهِ شَيْئًا وَيَشُدُّونَهُ إِلَيْهِم شَيْئًا، فَكَأَنَّهُ يَنْتَفِعُ مِنْ مُخَالَطَتِهِم بَعض الشَّيء وَيَنفَعهم بَعض الشَّيء. وَأَمَّا يَخْتَلِبُ وَيُخْتَلَبُ: الِاسْمُ الْخِلَابَةُ. وَالْفَاعِلُ خَلُوبٌ؛ أَي: كَثِيرُ الْخِدَاعِ. وَالمَعنَىٰ: خَدَعَهُم وَفَتَنَ قُلُوبهم بِمَا يُزينهُ لَهُم وَهُم كَذَلِكَ.

(٣) بَادِيَةٍ جُرُزٍ: البَادِيَةُ: فضاء واسع فيه المرعىٰ والماء، خلاف الحضر. ولكنها هنا جُرُز؛ أي: أرض جرداء لا نبات فيها وانقطع عنها الماء فهي يابسة. وَأَمَّا قَفْرٍ مُهْلِكٍ فِي تِلْكَ الْبَرَارِي؛ أي: مكان لا أنيس فيه ولا ماءَ ولا كلأ.

الحَظَّانِ؛ لا الدُّنْيَا وَنَعِيمُهَا تَحصُلُ لَهُ، وَلا الآخِرَةُ.

فَنَسْأَلُ اللهَ ﷻ خَلْوَةً حُلْوَةً، وَعُزْلَةً عَنِ الشَّرِّ لَذِيذَةً؛ يَسْتَصْلِحُنَا فِيهَا لِمُنَاجَاتِهِ، وَيُلْهِمُ كُلًّا مِنَّا طَلَبَ نَجَاتِهِ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

*[١٦٨ - ١٦٧] [خَاطِرَةٌ]:

[العُزْلَةُ صَونٌ لِلعِلْمِ والعَالِمِ]

مَا أَعْرِفُ لِلْعَالِمِ قَطُّ لَذَّةً وَلا عِزًّا وَلا شَرَفًا وَلا رَاحَةً وَلا سَلامَةً أَفْضَلَ مِنَ الْعُزْلَةِ؛ فَإِنَّهُ يَنَالُ بِهَا سَلامَةَ بَدَنِهِ وَدِينِهِ وَجَاهِهِ عِنْدَ اللهِ ﷻ وَعِنْدَ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ يَهُونُ عَلَيْهِم مَنْ يُخَالِطُهُم، وَلا يَعْظُمُ عِنْدَهُم قَدْرُ الْمُخَالِطِ لَهُم، وَلِهَذَا عَظُمَ قَدْرُ الْخُلَفَاءِ لِاحْتِجَابِهِم، وَإِذَا رَأَى العَوَامُّ أَحَدَ الْعُلَمَاءِ مُتَرَخِّصًا فِي أَمْرٍ مُبَاحٍ؛ هَانَ عِنْدَهُمْ.

فَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ صِيَانَةُ عِلْمِهِ، وَإِقَامَةُ قَدْرِ الْعِلْمِ عِنْدَهُم.

فَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «كُنَّا نَمْزَحُ وَنَضْحَكُ؛ فَإِذَا صِرْنَا يُقْتَدَى بِنَا؛ فَمَا أُرَاهُ يَسَعُنَا ذَلِكَ»[١].

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «تَعَلَّمُوا هَذَا العِلْمَ، وَاكْظِمُوا عَلَيْهِ، وَلا تَخْلِطُوهُ بِهَزْلٍ فَتَمُجَّهُ الْقُلُوبُ»[٢].

فَمُرَاعَاةُ النَّاسِ لا يَنْبَغِي أَنْ تُنْكَرَ. وَقَدْ قَالَ ﷺ لِعَائِشَةَ: «لَوْلا حِدْثَانُ قَوْمِكِ فِي الكُفْرِ؛ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ ...»[٣].

---

(١) ذُكِرَ ذَلِكَ عَنِ الأَوْزَاعِيِّ. وَفِي: «السير»: «كُنَّا نَضْحَكُ وَنَمزَحُ، فَلَمَّا صِرْنَا يُقْتَدَى بِنَا، خَشِيتُ أَنْ لا يَسَعَنَا التَّبَسُّمُ».

(٢) ترجمة الثَّوْرِيُّ في: [١٤-١١٨]. والخبر أورده أبو القاسم الأَصْبَهَانِيُّ «سير السلف» (ص/ ١٠٣) وفيه: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُ فَاكْظِمُوا عَلَيْهِ وَلا تَخْلِطُوهُ بِضَحِكٍ وَلا لَعِبٍ فَتَمُجَّهُ الْقُلُوبُ». وورد الخبر في «تاريخ بغداد» للخطيب. (ج٧/ ص٣٧٦/ ح٢١٦٠) عَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ الْمُلائِيِّ. وَمَعنَى: فَتَمُجَّهُ الْقُلُوبُ: تَسْتَكرِهه وَتَرفُضُه.

(٣) رواه البخاري، ك: «العِلْمِ» (١٢٦) عَنِ ابْنُ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَتْ لِي عَائِشَةُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ لَوْلا قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ - قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ - بِكُفْرٍ، لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ وَبَابٌ يَخْرُجُونَ».

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ المَغْرِبِ: «رَأَيْتُ النَّاسَ يَكْرَهُوْنَهُمَا فَتَرَكْتُهُمَا»(١).

وَلَا تَسْمَعْ مِنْ جَاهِلٍ يَرَىٰ مِثْلَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ رِيَاءً، إِنَّمَا هِيَ صِيَانَةٌ لِلْعِلْمِ. وَبَيَانُ هَذَا أَنَّهُ لَوْ خَرَجَ العَالِمُ إِلَىٰ النَّاسِ مَكْشُوْفَ الرَّأْسِ، أَوْ فِي يَدِهِ كَسْرَةٌ يَأْكُلُهَا؛ قَلَّ عِنْدَهُم، وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا، فَيَصِيْرُ بِمَثَابَةِ تَخْلِيْطِ الطَّبِيْبِ الآمِرِ بِالْحِمْيَةِ.

فَلَا يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَنْبَسِطَ عِنْدَ الْعَوَامِّ؛ حِفْظًا لَهُم، وَمَتَىٰ أَرَادَ مُبَاحًا؛ فَلْيَسْتَتِرْ بِهِ عَنْهُم.

وَهَذَا القَدْرُ الَّذِي لاحَظَهُ أَبُوْ عُبَيْدَةَ حِيْنَ رَأَىٰ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ(٢) قَدْ قَدِمَ الشَّامَ رَاكِبًا عَلَىٰ حِمَارٍ، وَرِجْلَاهُ مِنْ جَانِبٍ، فَقَالَ: يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ! يَتَلَقَّاكَ عُظَمَاءُ النَّاسِ!.

فَمَا أَحْسَنَ مَا لاحَظَ! إِلَّا أَنَّ عُمَرَ ﷺ أَرَادَ تَأْدِيْبَ أَبِي عُبَيْدَةَ بِحِفْظِ الأَصْلِ؛ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَعَزَّكُمْ بِالإِسْلَامِ؛ فَمَهْمَا طَلَبْتُمُ الْعِزَّ فِي غَيْرِهِ؛ أَذَلَّكُم(٣). وَالْمَعْنَىٰ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ طَلَبُكُمُ الْعِزَّ بِالدِّيْنِ، لَا بِصُوَرِ الأَفْعَالِ.

وَإِنْ كَانَتِ الصُّوَرُ تُلاحَظُ؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ يَخْلُو فِي بَيْتِهِ عُرْيَانًا؛ فَإِذَا خَرَجَ إِلَىٰ النَّاسِ؛ لَبِسَ ثَوْبَيْنِ وَعِمَامَةً وَرِدَاءً. وَمِثْلُ هَذَا لَا يَكُوْنُ تَصَنُّعًا، وَلَا يُنْسَبُ إِلَىٰ كِبْرٍ.

وَقَدْ كَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ(٤) يَغْتَسِلُ، وَيَتَطَيَّبُ، وَيَقْعُدُ لِلْحَدِيْثِ.

---

(١) تقدمت ترجمة أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل في الخاطرة رقم: [٢٤-١٧٩].

(٢) أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ عَامِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ أَحَدُ السَّابِقِيْنَ الأَوَّلِيْنَ، يَجْتَمِعُ فِي النَّسَبِ هُوَ وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي فِهْرٍ. وَشَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالجَنَّةِ، وَسَمَّاهُ: أَمِيْنَ الأُمَّةِ، وَمَنَاقِبُهُ شَهِيْرَةٌ. مَاتَ سَنَةَ: (١٨هـ). وترجمة عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ في: [٦٥-٥١].

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «الإيمان» (٢٠٧). وَفِيْهِ: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا، تَخْلَعُ خُفَّيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ، وَتَخُوضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ ؟ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ. فَقَالَ عُمَرُ: «أَوَّهْ لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ جَعَلْتُهُ نَكَالا لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللهُ بِالإِسْلامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللهُ».

(٤) ترجمة مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ في الخاطرة: [١٢٣-٢٥].

وَلا تَلْتَفِتْ - يَا هَذَا - إِلَىٰ مَا تَرَىٰ مِنْ بَذْلِ الْعُلَمَاءِ عَلَىٰ أَبْوَابِ السَّلَاطِيْنِ؛ فَإِنَّ الْعُزْلَةَ أَصْوَنُ لِلْعَالِمِ وَالْعِلْمِ، وَمَا يَخْسَرُهُ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ أَضْعَافُ مَا يَرْبَحُوْنَهُ.

وَقَدْ كَانَ سَيِّدُ الْفُقَهَاءِ سَعِيْدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ(١) لَا يَغْشَىٰ الْوُلَاةَ، وَعَنْ قَوْلِ هَذَا سَكَتُوْا عَنْهُ(٢)، وَهَذَا فِعْلُ الحَازِمِ.

فَإِنْ أَرَدْتَ اللَّذَّةَ وَالرَّاحَةَ؛ فَعَلَيْكَ أَيُّهَا العَالِمِ بِعُقْرِ بَيْتِكَ، وَكُنْ مُعْتَزِلًا عَنْ أَهْلِكَ؛ يَطِبْ لَكَ عَيْشُكَ، وَاجْعَلْ لِلِقَاءِ الأَهْلِ وَقْتًا؛ فَإِذَا عَرَفُوْهُ؛ تَصَنَّعُوْا لِلِقَائِكَ، فَكَانَتِ الْمُعَاشَرَةُ بِذَلِكَ أَجْوَدَ.

وَلْيَكُنْ لَكَ مَكَانٌ فِي بَيْتِكَ تَخْلُوْ فِيْهِ، وَتُحَادِثُ سُطُوْرَ كُتُبِكَ، وَتَجْرِي فِي حَلَبَاتِ فِكْرِكَ! وَاحْتَرِسْ مِنْ لِقَاءِ الْخَلْقِ، وَخُصُوْصًا الْعَوَامَّ! وَاجْتَهِدْ فِي كَسْبٍ يُعِفُّكَ عَنِ الطَّمَعِ! فَهَذِهِ نِهَايَةُ لَذَّةِ الْعَالِمِ فِي الدُّنْيَا.

وَقَدْ قِيْلَ لِابْنِ الْمُبَارَكِ: مَا لَكَ لا تُجَالِسُنَا؟ فَقَالَ: «أَنَا أَذْهَبُ فَأُجَالِسُ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِيْنَ»(٣). وَأَشَارَ بِذَلِكَ إِلَىٰ أَنَّهُ يَنْظُرُ فِي كُتُبِهِ.

وَمَتَىٰ رُزِقَ الْعَالِمُ الْغِنَىٰ عَنِ النَّاسِ وَالْخَلْوَةَ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُ فَهْمٌ يَجْلِبُ التَّصَانِيْفَ؛ فَقَدْ تَكَامَلَتْ لَذَّتُهُ، وَإِنْ رُزِقَ فَهْمًا يَرْتَقِي إِلَىٰ مُعَامَلَةِ الْحَقِّ وَمُنَاجَاتِهِ؛ فَقَدْ تَعَجَّلَ دُخُوْلَ الجَنَّةِ قَبْلَ الْمَمَاتِ.

---

(١) ترجمة سَعِيْدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ في الخاطرة:[١٥٢-١٠٩].

(٢) أَيْ: وَعَنْ فِعْلِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ سَكَتُوْا عَنْهُ؛ أي: لَمَّا فَعَلَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ هَذَا الفِعل بِأَنَّهُ كَانَ لَا يَأْتِي الوُلَاةَ؛ سَلِمَ مِنْهُم وَسَكَتُوْا عَنْهُ أو سَلِمَ مِنْ ذَمِّ العُلَمَاء وَسَكَتُوْا عَنْهُ. وَقَدْ وَرَدَ «القَول» بِمَعنىٰ «الفِعل» فِي لُغَةِ رَسُول اللهِ فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: «هُمُ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ» قَالَ: فَجِئْتُ حَتَّىٰ جَلَسْتُ، فَلَمْ أَتَقَارَّ أَنْ قُمْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمُ الأَكْثَرُونَ أَمْوَالًا، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا-مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ- وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ...» رواه مسلم، كِ:«الزَّكَاةِ»(٩٩٠) وَالْعَرَبُ تَجْعَلُ الْقَوْلَ عِبَارَة عَنْ جَمِيْعِ الأَفْعَال وَذَلِكَ عَلَىٰ سَبِيْلِ الْمَجَازِ وَالاتِّسَاع.

(٣) ترجمة عَبدُ الله بْنِ الْمُبَارَكِ في الخاطرة:[١٥٢-١٠٩]. والخبر في «حلية الأولياء»(ج٨/ ص١٦٤)

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ هِمَّةً عَالِيَةً تَسْمُوْ إِلَىٰ الكَمَالِ، وَتَوْفِيْقًا لِصَالِحِ الأَعْمَالِ؛ فَالسَّالِكُوْنَ طَرِيْقَ الْحَقِّ أَفْرَادٌ.

*[١٦٩ - ٢٦٢] [خَاطِرَةٌ]:

[المُخَالَطَة دَاءٌ والعُزْلَة دَوَاءٌ]

مَنْ أَرَادَ اجْتِمَاعَ هَمِّهِ وَإِصْلَاحَ قَلْبِهِ؛ فَلْيَحْذَرْ مِنْ مُخَالَطَةِ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ يَقَعُ الاجْتِمَاعُ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُ ذِكْرُهُ، فَصَارَ الاجْتِمَاعُ عَلَىٰ مَا يَضُرُّ!

وَقَدْ جَرَّبْتُ عَلَىٰ نَفْسِي مِرَارًا أَنْ أَحْصُرَهَا فِي بَيْتِ الْعُزْلَةِ، فَتَجْتَمِعُ هِيَ، وَيُضَافُ إِلَىٰ ذَلِكَ النَّظَرُ فِي سِيَرِ السَّلَفِ، فَأَرَىٰ العُزْلَةَ حِمْيَةً، وَالنَّظَرَ فِي سِيَرِ الْقَوْمِ دَوَاءً، وَاسْتِعْمَالَ الدَّوَاءِ مَعَ الْحِمْيَةِ عَنِ التَّخْلِيْطِ نَافِعٌ.

فَإِذَا فَسَحْتُ لِنَفْسِي فِي مُجَالَسَةِ النَّاسِ وَلِقَائِهِم؛ تَشَتَّتَ القَلْبُ الْمُجْتَمِعُ، وَوَقَعَ الذُّهُوْلُ عَمَّا كُنْتُ أُرَاعِيْهِ، وَانْتَقَشَ فِي القَلْبِ مَا قَدْ رَأَتْهُ الْعَيْنُ. وَفِي الضَّمِيْرِ مَا تَسْمَعُهُ الأُذُنُ، وَفِي النَّفْسِ مَا تَطْمَعُ فِي تَحْصِيْلِهِ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِذَا جُمْهُوْرُ الْمُخَالِطِيْنَ أَرْبَابُ غَفْلَةٍ، وَالطَّبْعُ بِمُجَالَسَتِهِم يَسْرِقُ مِنْ طِبَاعِهِم.

فَإِذَا عُدْتُ أَطْلُبُ الْقَلْبَ؛ لَمْ أَجِدْهُ، وَأَرُوْمُ ذَاكَ الْحُضُوْرَ فَأَفْقِدُهُ، فَيَبْقَىٰ فُؤَادِي فِي غِمَارِ ذَلِكَ اللِّقَاءِ لِلنَّاسِ أَيَّامًا، حَتَّىٰ يَنْسَلُوَ الْهَوَىٰ[١].

وَمَا فَائِدَةُ تَعْرِيْضِ البِنَاءِ لِلنَّقْضِ؟! فَإِنَّ دَوَامَ العُزْلَةِ كَالبِنَاءِ، وَالنَّظَرُ فِي سِيَرِ السَّلَفِ يَرْفَعُهُ؛ فَإِذَا وَقَعَتِ الْمُخَالَطَةُ؛ انْتَقَضَ مَا بُنِيَ فِي مُدَّةٍ فِي لَحْظَةٍ، وَصَعُبَ التَّلَافِي، وَضَعُفَ الْقَلْبُ!

وَمَنْ لَهُ فَهْمٌ يَعْرِفُ أَمْرَاضَ الْقَلْبِ، وَإِعْرَاضَهُ عَنْ صَاحِبِهِ، وَخُرُوْجَ طَائِرِهِ مِنْ قَفَصِهِ. وَلَا

---

(١) أَرُوْمُ ذَاكَ: أُرِيْدُهُ أطلُبُه أَرغَبُ فِيْهِ. وَغِمَارِ: مفردها؛ غَمْرَة وهي: الشدّة والمَكروه. وَيَنْسَلُوَ الْهَوَىٰ: ينكشف و يزول.

يُؤْمَنُ عَلَىٰ هَذَا المَرِيْضِ أَنْ يَكُوْنَ مَرَضُهُ هَذَا سَبَبَ التَّلَفِ، وَلَا عَلَىٰ هَذَا الطَّائِرِ الْمَحْصُوْرِ أَنْ يَقَعَ فِي الشَّبَكَةِ.

وَسَبَبُ مَرَضِ الْقَلْبِ أَنَّهُ كَانَ مَحْمِيًّا عَنِ التَّخْلِيْطِ، مُغَذًّيا بِالعِلْمِ وَسِيَرِ السَّلَفِ، فَخَلَّطَ، فَلَمْ يَحْتَمِلْ مِزَاجُهُ، فَوَقَعَ الْمَرَضُ.

فَالْجِدَّ الْجِدَّ؛ فَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ. وَمَا نَرَىٰ مَنْ يُلْقَىٰ، وَلَا مَنْ يُؤْخَذُ مِنْهُ، وَلَا مَنْ تَنْفَعُ مُجَالَسَتُهُ؛ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ نَادِرًا مَا أَعْرِفُهُ.

مَا فِي الصِّحَابِ أَخُوْ وَجْدٍ نُطَارِحُهُ ... حَدِيْثَ نَجْدٍ وَلا صَبٌّ نُجَارِيْهِ[1]

فَالْزَمْ خَلْوَتَكَ! وَرَاعِ مَا بَقِيْتَ! وَإِذَا قَلِقَتِ النَّفْسُ مُشْتَاقَةً إِلَىٰ لِقَاءِ الْخَلْقِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهَا بَعْدُ كَدِرَةٌ؛ فَرُضْهَا، لِيَصِيْرَ لِقَاؤُهُمْ عِنْدَهَا مَكْرُوْهًا ... وَلَوْ كَانَ عِنْدَهَا شُغْلٌ بِالْخَالِقِ؛ لَمَا أَحَبَّتِ الزَّحْمَةَ؛ كَمَا أَنَّ الَّذِي يَخْلُوْ بِحَبِيْبِهِ لَا يُؤْثِرُ حُضُوْرَ غَيْرِهِ... وَلَوْ أَنَّهَا عَشِقَتْ طَرِيْقَ اليَمَنِ؛ لَمْ تَلْتَفِتْ إِلَىٰ الشَّامِ.

***

*[١٧٠ - ٨٢] [خَاطِرَةٌ]:

[سُوءُ الفَهمِ عَنِ الْعُزْلَةِ]

بَكَّرْتُ يَوْمًا أَطْلُبُ الْخَلْوَةَ إِلَىٰ جَامِعِ الرُّصَافَةِ[2]، فَجَعَلْتُ أَجُوْلُ وَحْدِي وَأَتَفَكَّرُ فِي ذَلِكَ المَكَانِ، وَمَنْ كَانَ بِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ، وَرَأَيْتُ أَقْوَامًا قَدْ جَاوَزُوْا فِيْهِ، فَسَأَلْتُ أَحَدَهُمْ: مُنْذُ كَمْ أَنْتَ هَا هُنَا؟ فَأَوْمَأَ إِلَىٰ قَرِيْبٍ مِنْ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً! فَرَأَيْتُهُ فِي بَيْتٍ كَثِيْرِ الدَّرَنِ وَالْوَسَخِ، وَجَعَلْتُ أَتَفَكَّرُ فِي حَبْسِهِ لِنَفْسِهِ عَنِ النِّكَاحِ هَذِهِ الْمُدَّةَ!!

---

(١) البيت من: [البسيط]. العاملي. وَجْد: الحُبّ شَدِيد. نُطَارِحُهُ: نُبادله. صَبٌّ: عاشق. نُجَارِيْهِ: نُوافقه ونتفق معه.

(٢) الرُّصَافَة: كُلُّ مَنْبِتٍ بالسَّوَادِ وقد غَلَبَ علَىٰ مَوْضِعٍ بِغَدَادَ؛ مَحَلَّةٌ بِبَغْدَادَ بالشَّرْقِيَّةِ بها تُرَبُ أَكْثَرِ الخُلَفَاءِ وبِقُرْبِهَا مَشْهَدُ الإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رحمه الله. وإليها نُسِبَ الجامعُ. وموضع بالشَّأْمِ غَرْبِيَّ الرَّقَّةِ وهي رُصَافَةُ هِشَامِ بنِ عبدِ المَلِكِ.

فَأَخَذَتِ النَّفْسُ تُحَسِّنُ ذَلِكَ، وَتَذُمُّ الدُّنْيَا وَالاغْتِرَارَ بِهَا، فَأَقْبَلَ الْعِلْمَ يُنْكِرُ عَلَىٰ النَّفْسِ، وَنَهَضَ الْفَهْمُ لِحَقَائِقِ الأُمُوْرِ، وَمَوْضُوْعُ الشَّرْعِ يُقَوِّي مَا قَالَ العِلْمُ.

فَيَنْحَلُّ مِنْ ذَلِكَ[١] أَنْ قُلْتُ لِلنَّفْسِ: اعْلَمِي أَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَىٰ ضَرْبَيْنِ:

مِنْهُمْ مَنْ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ فِي الصَّبْرِ عَلَىٰ هَذِهِ الأَحْوَالِ، فَتَفُوْتُهُ فَضَائِلُ الْمُخَالَطَةِ لِأَهْلِ الْعِلْمِ، وَالْعَمَلُ، وَطَلَبُ الْوَلَدِ، وَنَفْعُ الْخَلْقِ، وَانْتِفَاعُ نَفْسِهِ بِمُجَالَسَةِ أَهْلِ الْفَهْمِ، فَيَحْدُثُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ حَالَةٌ تُشَابِهُ فِيْهَا الوَحْشَ، فَتُؤْثِرُ الانْفِرَادَ لِنَفْسِ الانْفِرَادِ.

وَرُبَّمَا: يَبِسَ الطَّبْعُ، وَسَاءَ الْخُلُقُ. وَرُبَّمَا: حَدَثَ مِنْ حَبْسِ مَائِهِ الْمُحْتَقِنِ سُمِّيَّةٌ[٢] أَفْسَدَتْ بَدَنَهُ وَعَقْلَهُ. وَرُبَّمَا: أَوْرَثَتْهُ الْخَلْوَةُ وَسْوَسَةً. وَرُبَّمَا: ظَنَّ أَنَّهُ مِنَ الأَوْلِيَاءِ، وَاسْتَغْنَىٰ بِمَا يَعْرِفُهُ. وَرُبَّمَا: خَيَّلَ لَهُ الشَّيْطَانُ أَشْيَاءَ مِنَ الْخَيَالَاتِ، وَهُوَ يَعُدُّهَا كَرَامَاتٍ!! وَرُبَّمَا: ظَنَّ أَنَّ الَّذِي هُوَ فِيْهِ الغَايَةُ، وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ إِلَىٰ الكَرَاهَةِ أَقْرَبُ.

فَإِنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ: «نَهَىٰ أَنْ يَبِيْتَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ»[٣]، وَهَؤُلَاءِ كُلٌّ مِنْهُمْ يَبِيْتُ وَحْدَهُ!. وَ«نَهَىٰ عَنِ التَّبَتُّلِ»[٤]، وهَذَا تَبَتُّلٌ!، وَ«نَهَىٰ عَنِ الرَّهْبَانِيَّةِ»[٥].

وَهَذَا مِنْ خَفِيِ خُدَعِ إِبْلِيْس الَّتِي يُوْقِعُ بِهَا فِي وَرَطَاتِ[٦] الضَّلَالِ بِأَلْطَفِ وَجْهٍ وَأَخْفَاهُ.

---

(١) فَيَنْحَلُّ مِنْ ذَلِكَ؛ أَيْ: فَيَسْتَخْلَصُ مِنْ ذَلِكَ. تَقُوْلُ: انحَلَّ يَنْحَلّ.

(٢) سُمِّيَّةٌ: مصدر صناعيّ من سُمّ: صفة التَّسمُّم، صفة ما هو سامّ.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥٦٥٠) عَن ابْنِ عُمَرَ، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَىٰ عَنِ الْوَحْدَةِ أَنْ يَبِيتَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ أَوْ يُسَافِرَ وَحْدَهُ».

(٤) رواه الترمذي، كِ: «النِّكاح» (١٠٨٢) عَنْ سَمُرَةَ. التَّبَتُّلِ هُوَ: الانقطاع عن النِّساء وترك النِّكاح انقطاعًا إلىٰ عبادة الله، أو هو ترك لذات الدنيا وشهواتها والانقطاع إلىٰ الله تعالىٰ بالتفرغ لعبادته.

(٥) رواه ابن حبان، كِتَابُ «المُقدمة» بَابُ «الِاعْتِصَام بِالسُّنَّةِ» (٩). وفيه: «يَا عُثْمَانُ إِنَّ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْنَا أَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فَوَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَحْفَظُكُمْ لِحُدُودِهِ». وَالرَّهْبَانِيَّة: مصدر صناعيّ من رَهْبَة: تقشّف وتخلٍّ عن أشغال الدُّنيا وترك ملاذّها والزُّهد فيها والعزلة عن أهلها، والاستغراق في العبادة.

(٦) وَرَطَاتِ: مُفْرَدهَا: وَرْطَة؛ وَهِيَ كُلُّ أمرٍ تَعْسُر النَّجاة منه.

وَالضَّرْبُ الثَّانِي: مَشَايِخُ قَدْ فَنُوْا، فَانْقَطَعُوْا ضَرُوْرَةً؛ إِذْ لَيْسَ لِأَحَدِهِم مَأْوَىٰ؛ فَهُمْ فِي مَقَامِ الزَّمْنَىٰ[1].

وَإِنْ كَانَ الضَّرْبُ الأَوَّلُ قَدْ قَطَعُوا حَبْلَ نُفُوْسِهِم فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ وَالْكَسْبِ، وَتَعَلَّقَتْ هِمَمُهُم بِفُتُوْحٍ يَطْرُقُ عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَرَضُوا بِالعَمَىٰ بَعْدَ البَصَرِ، وَبِالزَّمَنِ بَعْدَ الإِطْلَاقِ[2].

فَقَالَتْ لِيَ النَّفْسُ: لا أَرْضَىٰ هَذَا الَّذِي تَقُوْلُهُ؛ فَإِنَّكَ إِنَّمَا تَمِيْلُ إِلَىٰ إِيْثَارِ نِكَاحِ الْمُسْتَحْسَنَاتِ وَالْمَطَاعِمِ الْمُشْتَهِيَاتِ؛ فَإِذَا لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ التَّعَبُّدِ؛ فَلَا تَطْعَنْ فِيهِمْ.

فَقُلْتُ لَهَا: إِنْ فَهِمْتِ؛ حَدَّثْتُكِ، وَإِنْ كُنْتِ تُقَلِّدِيْنَ صُوَرَ الأَحْوَالِ؛ فَلَا فَهْمَ لَكِ.

أَمَّا الْمُسْتَحْسَنَاتُ، فَإِنَّ الْمَقْصُوْدَ مِنَ النِّكَاحِ أَشْيَاءُ: مِنْهَا: طَلَبُ الْوَلَدِ، وَمِنْهَا: شِفَاءُ النَّفْسِ بِإِخْرَاجِ الْفَضْلَةِ الْمُؤْذِيَةِ، وَكَمَالُ خُرُوْجِهَا لَا يَكُوْنُ إِلَّا بِوُجُوْدِ الْمُسْتَحْسَنِ!

وَاعْتَبِرْ هَذَا بِالْوَطْءِ دُوْنَ الْفَرْجِ؛ فَإِنَّهُ يُخرِجُ مِنَ الْفَضَلَاتِ مَا لَا يَخْرُجُ بِالْوَطْءِ مِنَ الْفَرْجِ! وَبِتَمَامِ خُرُوْجِ تِلْكَ الْفَضْلَةِ تَفْرُغُ النَّفْسُ عَنْ شَوَاغِلِهَا، فَتَدْرِي أَيْنَ هِيَ؛ كَمَا نَأْمُرُ الْقَاضِيَ بِالأَكْلِ قَبْلَ الْحُكْمِ، وَنَنْهَاهُ عَنِ الْحُكْمِ وَهُوَ غَضْبَانُ أَوْ حَاقِنٌ[3].

وَبِكَمَالِ بُلُوْغِ هَذَا الغَرَضِ يَكُوْنُ كَمَالُ الْوَلَدِ لِتَمَامِ النُّطْفَةِ الَّتِي تَخَلَّقَ مِنْهَا، ثُمَّ لِلنَّفْسِ حَظٌّ؛ فَهِيَ تَسْتَوْفِيهِ[4] اسْتِيْفَاءَ النَّاقَةِ حَظَّهَا مِنَ العَلَفِ فِي السَّفَرِ، وَذَلِكَ يُعِيْنُ عَلَىٰ سَيْرِهَا.

---

(١) الزَّمْنَىٰ: زمِنَ يَزمَن، زَمَنًا وزمَانَةً وزُمْنةً، فهو زَمِن وزَمين؛ أَي: طَالَ مَرَضُه وَدَامَ زَمَانًا طَوِيلًا. فَالزَّمْنَىٰ؛ مَنْ أَقْعَدهم المَرَض الَّذي لا يُرجىٰ بُرؤه.

(٢) أي: رضوا بالقعود كالمرضىٰ العجزة بعد أن أصلح الله حالهم وأصحّ جسدهم.

(٣) حَاقِنٌ؛ أَيْ: حَابِسٌ لِلْبَوْلِ أَوْ الْغَائِط. وَثَبَتَ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ في «الصَّحِيْحَيْنِ»: «لا يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ» رواه البخاري، كِ: «الأحْكَام» (٧١٥٨). ومسلم، كِ: «الأَقْضِيَة» (١٧١٧). وَيَلْتَحِقُ بِالغَضَب كُلّ حَال يُخْرِج الحَاكِم فِيهَا عَنْ سَدَادِ النَّظَر وَاسْتِقَامَة الحَال كَالشِّبَع المُفْرط وَالجُوع المُقْلِق وَالهَم وَالفَرح البَالِغ وَمُدَافَعة الحَدَث وَتَعَلُّق القَلْب بِأَمْر؛ فَكُلّ هَذِهِ الأَحْوَال يُكْرَهُ فِيهَا القَضَاء خَوْفًا مِنَ الغَلَط فَإِنْ قَضَىٰ صَحّ قَضَاؤُهُ».

(٤) جاء في الأصل: [فهو يستوفيه]، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به. من مخطوط: (ي).

وَأَمَّا المَطَاعِمُ؛ فَالْجَاهِلُ مَنْ يَطْلُبُهَا لِذَاتِهَا أَوْ لِنَفْسِ لَذَّاتِهَا، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ إِصْلَاحُ [النَّفْسِ][(١)] لِجَمْعِ هَمِّهَا، وَنَيْلِ مُرَادِهَا مِنْ غَرَضِهَا الصَّارِفِ لَهَا عَنِ الْفِكْرِ فِي هَوَاهَا.

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ حَالَ الشِّرْبِ الأَوَّلِ[(٢)]؛ رَأَيْتَ مِنْ هَذَا عَجَبًا:

فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ عَائِشَةَ ﵂، وَكَانَتْ مُسْتَحْسَنَةً. وَرَأَىٰ زَيْنَبَ، فَاسْتَحْسَنَهَا، فَتَزَوَّجَهَا. وَكَذَٰلِكَ اخْتَارَ صَفِيَّةَ. وَكَانَ إِذَا وُصِفَتْ لَهُ امْرَأَةٌ؛ بَعَثَ يَخْطِبُهَا[(٣)].

---

(١) ليست في الأصل وأثبتناها؛ لتمام المعنى بها؛ إذ لا يستقيم الكلام بما جاء في الأصل والمخطوط؛ فقد جاء في الأصل: [عدم الناقة]، وجاء في مخطوط: (ي): [عزم الناقة]. وَتَذَكَّر قوله في المقطع السابق: [ثُمَّ لِلنَّفْسِ حَظٌّ...].

(٢) هكذا في مخطوط: (ي). وَالشِّرب: الرعيل الأول أو القرن أو الجيل من الناس. وجاء في الأصل: [السِّرب]: وهو فريق أو جماعة من ظباء أو طير أو حيوان أو غير ذلك. ولعله تصحيف.

(٣) كَانَتْ السيدة عَائِشَةَ ﵂ مُسْتَحْسَنَةً؛ وَلَكِن لَم يَختَرهَا ﷺ مِنْ أَجْلِ ذَلِك، إِنَّمَا زَوَّجَهُ اللهُ إِيَّاهَا؛ كما ثبت في «الصحيحين» عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «أُرِيتُكِ فِي المَنَامِ مَرَّتَيْنِ، أَرَى أَنَّكِ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، وَيَقُولُ: هَذِهِ امْرَأَتُكَ، فَاكْشِفْ عَنْهَا، فَإِذَا هِيَ أَنْتِ، فَأَقُولُ: إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ يُمْضِهِ». رواه البخاري، كِتَابُ «مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ»(٣٨٩٥). ومسلم، كِتَابُ «فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ»(٢٤٣٨). فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ نِسَاءَهُ، وَكَانَ أَحَبُّهُنَّ إِلَيْهِ عائشة ﵂، وَلَمْ تَكُنْ تَبْلُغُ مَحَبَّتُهُ لَهَا وَلَا لِأَحَدٍ سِوَىٰ رَبِّهِ نِهَايَةَ الْحُبِّ.

وَزَوَاجُهُ ﷺ مِن زَيْنَب ﵂ فَلَم يَثْبُت مِمَّا صَحَّ أَنَّهُ ﷺ رَآهَا فَاسْتَحسَنَهَا فَأَحَبَّهَا فَتَزَوَّجَهَا! إِلَّا فِي حَدِيثٍ مُنكَرٍ جِدًّا وَإِنَّمَا ثَبَتَ فِي زَوَاجِهِ مِنْهَا مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِي عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَشْكُو، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اتَّقِ اللهَ، وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»، قَالَ أَنَسٌ: لَوْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ، قَالَ: فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ عَلَىٰ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ». كِتَاب «التَّوْحِيدِ»(٧٤٢٠).

يَقُولُ ابن القَيِّم ﵀ في «زاد المعاد»(ج٣/ ص٢٧٧ هَدْيِهِ ﷺ فِي عِلَاجِ الْعِشْقِ): «وَأَمَّا مَا زَعَمَهُ بَعْضُ مَنْ لَمْ يَقْدُرْ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَقَّ قَدْرِهِ أَنَّهُ ابْتُلِيَ بِهِ فِي شَأْنِ زَيْنَب، وَأَنَّهُ رَآهَا فَقَالَ: «سُبْحَانَ مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ». وَأَخَذَتْ بِقَلْبِهِ، وَجَعَلَ يَقُولُ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ: أَمْسِكْهَا حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب:٣٧]، فَظَنَّ هَذَا الزَّاعِمُ أَنَّ ذَلِكَ فِي شَأْنِ الْعِشْقِ، وَصَنَّفَ بَعْضُهُمْ كِتَابًا فِي الْعِشْقِ، وَذَكَرَ فِيهِ عِشْقَ الأَنْبِيَاءِ، وَذَكَرَ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ، وَهَذَا مِنْ جَهْلِ هَذَا الْقَائِلِ بِالْقُرْآنِ وَبِالرُّسُلِ، وَتَحْمِيلِهِ كَلَامَ اللهِ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ، وَنِسْبَتِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَىٰ مَا بَرَّأَهُ اللهُ مِنْهُ، فَإِنَّ زينب بنت جحش ﵂ كَانَتْ تَحْتَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﵁، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ تَبَنَّاهُ، وَكَانَ يُدْعَىٰ زيد بن محمد، وَكَانَتْ زينب فِيهَا شَمَمٌ وَتَرَفُّعٌ عَلَيْهِ، فَشَاوَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي طَلَاقِهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]،
=

وَكَانَ لِعَلِيٍّ ﷺ أَرْبَعُ حَرَائِرَ، وَسَبْعَ عَشْرَةَ سَرِّيَّةً، مَاتَ عَنْهُنَّ(١).

= وَأَخْفَىٰ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا إِنْ طَلَّقَهَا زيد، وَكَانَ يَخْشَىٰ مِنْ قَالَةِ النَّاسِ أَنَّهُ تَزَوَّجَ امْرَأَةَ ابْنِهِ؛ لِأَنَّ زيدا كَانَ يُدْعَىٰ ابْنَهُ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي أَخْفَاهُ فِي نَفْسِهِ، وَهَذِهِ هِيَ الْخَشْيَةُ مِنَ النَّاسِ الَّتِي وَقَعَتْ لَهُ. وَلِهَذَا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةَ يُعَدِّدُ فِيهَا نِعَمَهُ عَلَيْهِ لَا يُعَاتِبُهُ فِيهَا، وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَخْشَىٰ النَّاسَ فِيمَا أَحَلَّ اللهُ لَهُ، وَأَنَّ اللهَ أَحَقُّ أَنْ يَخْشَاهُ، فَلَا يَتَحَرَّجُ مَا أَحَلَّهُ لَهُ لِأَجْلِ قَوْلِ النَّاسِ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ زَوَّجَهُ إِيَّاهَا بَعْدَ قَضَاءِ زيد وَطَرَهُ مِنْهَا لِتَقْتَدِيَ أُمَّتُهُ بِهِ فِي ذَلِكَ، وَيَتَزَوَّجَ الرَّجُلُ بِامْرَأَةِ ابْنِهِ مِنَ التَّبَنِّي، لَا امْرَأَةِ ابْنِهِ لِصُلْبِهِ، وَلِهَذَا قَالَ فِي آيَةِ التَّحْرِيمِ: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣] وَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وَقَالَ فِي أَوَّلِهَا: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٤]، فَتَأَمَّلْ هَذَا الذَّبَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَدَفْعَ طَعْنِ الطَّاعِنِينَ عَنْهُ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ» اهـ. وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ ﷺ فِي «الفتح» كِتَابُ «التَّفْسِيرِ» (٤٧٨٧): «وَالْحَاصِلُ أَنَّ الَّذِي كَانَ يُخْفِيهِ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ إِخْبَارُ اللهِ إِيَّاهُ أَنَّهَا سَتَصِيرُ زَوْجَتَهُ وَالَّذِي كَانَ يَحْمِلُهُ عَلَى إِخْفَاءِ ذَلِكَ خَشْيَةَ قَوْلِ النَّاسِ تَزَوَّجَ امْرَأَةَ ابْنِهِ وَأَرَادَ اللهُ إِبْطَالَ مَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِ التَّبَنِّي بِأَمْرٍ لَا أَبْلَغَ فِي الْإِبْطَالِ مِنْهُ وَهُوَ تَزَوُّجُ امْرَأَةِ الَّذِي يُدْعَىٰ ابْنًا وَوُقُوعُ ذَلِكَ مِنْ إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ لِيَكُونَ أَدْعَىٰ لِقَبُولِهِمْ وَإِنَّمَا وَقَعَ الْخَبْطُ فِي تَأْوِيلِ مُتَعَلِّقِ الْخَشْيَةِ وَاللهُ أَعْلَمُ» اهـ. فَيَنْحَلُّ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ زَوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ زَيْنَبَ ﷺ كَانَ بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ، وَأَنَّ اللهَ ﷻ أَرَادَ أَنْ يُبْطِلَ مَا تَعَوَّدَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ.

وَزَوَاجُهُ ﷺ مِنْ صَفِيَّةَ ﷺ فقد رواه البخاري، كِتَابُ «الصَّلَاةِ» بَابُ «مَا يُذْكَرُ فِي الْفَخِذِ» (٣٧١). ومسلم، كِتَابُ «النِّكَاحِ» بَابُ «فَضِيلَةِ إِعْتَاقِهِ أَمَتَهُ، ثُمَّ يَتَزَوَّجُهَا» (١٣٦٥) وفيه: «وَجُمِعَ السَّبْيُ، فَجَاءَهُ دِحْيَةُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَعْطِنِي جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ. فَقَالَ: «اذْهَبْ فَخُذْ جَارِيَةً»، فَأَخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ، فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ سَيِّدِ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ؟ مَا تَصْلُحُ إِلَّا لَكَ، قَالَ: «ادْعُوهُ بِهَا»، قَالَ: فَجَاءَ بِهَا، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ: «خُذْ جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ غَيْرَهَا»، قَالَ: وَأَعْتَقَهَا، وَتَزَوَّجَهَا».

وَقَوْلُ الإِمَامِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ ﷺ: «وَكَانَ إِذَا وُصِفَتْ لَهُ امْرَأَةٌ؛ بَعَثَ يَخْطُبُهَا» فَفِيهِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ وَالتَّوَسُّعِ الغير مُسْتَسَاغٍ، وَإِنْ كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ الإِمَامَ ﷺ لَم يَقْصِد بِهَذَا إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّهُ مِنَ الطَّبِيعِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَخْطُبُ المَرأةَ الَّتِي تُعجبه بَعدَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا، لَا أَنَّهُ كَانَ يَتَتَبَّعُ أَوصَافَ النِّسَاءِ وَخِطبَتِهِنَّ. وَلَكِن لِسُوءِ فَهمِ المُرجِفُون وَمَنْ فِي قَلبِهِ مَرَض أَحبَبنَا أَنْ نُبَيِّنَ ذَلِكَ، وَفِي ذَاتِ الوَقت نُبَرِّأ سَاحَة الإِمَامِ ابنِ الجَوزِي ﷺ.

(١) يقول الإمام ابن الأثير في «الكامل في التاريخ» (ج٣/ ص٢٦٢-٢٦٣): «وَأَمَّا أَزْوَاجُهُ -أي: عَلِيٍّ ﷺ-، فَأَوَّلُ زَوْجَةٍ تَزَوَّجَهَا فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا حَتَّى تُوُفِّيَتْ عِنْدَهُ، ثُمَّ تَزَوَّجَ بَعْدَهَا أُمَّ الْبَنِينَ بِنْتَ حَرَامٍ الْكِلَابِيَّةَ، وَتَزَوَّجَ لَيْلَى بِنْتَ مَسْعُودِ بْنِ خَالِدٍ النَّهْشَلِيَّةَ التَّمِيمِيَّةَ، وَتَزَوَّجَ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ الْخَثْعَمِيَّةَ، وَتَزَوَّجَ أُمَامَةَ بِنْتَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وَأُمُّهَا زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَزَوَّجَ أُمَّ سَعِيدٍ ابْنَةَ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّةَ، وَتَزَوَّجَ مُخَبَّاةَ بِنْتَ امْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ الْكَلْبِيَّةَ».

وَقَبْلَ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ فَقَدْ كَانَ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِئَةُ امْرَأَةٍ[١]. وَلِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلْفُ امْرَأَةٍ[٢].

فَمَنِ ادَّعَىٰ خَلَلًا فِي هَذِهِ الطُّرُقِ، أَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ آثَرُوا هَوَاهُمْ، وَأَنْفَقُوا بَضَائِعَ الْعُمُرِ فِي هَذِهِ الأَغْرَاضِ، وَغَيْرُهَا أَفْضَلُ؛ فَقَدِ ادَّعَىٰ عَلَىٰ الكَامِلِيْنَ النُّقْصَانَ، وَإِنَّمَا هُوَ النَّاقِصُ فِي فَهْمِهِ لَا هُمْ.

وَقَدْ كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ إِذَا سَافَرَ؛ فَفِي سُفْرَتِهِ حَمَلٌ مَشْوِيٌّ وَفَالُوْذَجُ، وَكَانَ حَسَنَ الْمَطْعَمِ، وَكَانَ يَقُوْلُ: إِنَّ الدَّابَّةَ إِذَا لَمْ تُحْسِنْ إِلَيْهَا؛ لَمْ تَعْمَلْ.

وَهَذِهِ الفُنُوْنُ الَّتِي أَشَرْتُ إِلَيْهَا؛ إِنْ قُصِدَتْ لِلْحَاجَةِ إِلَيْهَا، أَوْ لِقَضَاءِ وَطَرِ النَّفْسِ مِنْهَا، أَوْ لِبُلُوْغِ الأَغْرَاضِ الدِّيْنِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ مِنْهَا: فَكُلُّهُ قَصْدٌ صَحِيْحٌ، لَا يُعَكِّرُ عَلَيْهِ مَنْ يَقُوْمُ وَيَقْعُدُ فِي رَكَعَاتٍ لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهَا، وَفِي تَسْبِيْحَاتٍ أَكْثَرُ أَلْفَاظِهَا رَدِيَّةٌ.

كَلَّا؛ لَيْسَ إِلَّا العِلْمُ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ الصِّفَاتِ، وَأَشْرَفُ العِبَادَاتِ، وَهُوَ الآمِرُ بِالْمَصَالِحِ، وَالنَّاطِقُ بِالنَّصَائِحِ. ثُمَّ مَنْفَعَةُ العِلْمِ مَعْرُوْفَةٌ، وَزُهْدُ الزَّاهِدِ لَا يَتَعَدَّىٰ عَتَبَةَ بَابِهِ؛ وَقَدْ قَالَ

---

(١) وَرَدَ هَذَا فِي «الدُّر المَنْثُور» للإمام السيوطي.(٧/ ١٣٥: ١٤٧) وَغَيْرِه مِنْ كُتُبِ التَّفَاسِير، عِنْدَ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص:٢١: ٢٥] وذكروا قصة زواج داود عَلَيْهِ السَّلَامُ من امرأة أوريا، وهي قصة باطلة من الإسرائيليات المذمومة والتي لا تليق أن تقال عن آحاد الناس، فضلًا عن نبي من أنبياء الله تعالىٰ. قال البيضاوي في «تفسيره»(ج٥/ ص٢٧) بعد ذكر هذه القصة:«هُزْء وَافْتِرَاء، وَلِذَلِكَ قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه :«مَنْ حَدَّثَ بِحَدِيثِ دَاوُد عَلَىٰ مَا يَروِيه القُصَّاص، جَلَدْتُهُ مِائَةً وَسِتِّينَ»»اهـ. وَقَالَ الرَّازِيّ فِي «تفسيره»(٢٦/ ١٧٣، ١٧٤) هَذِهِ الحِكَايَةِ المُفْتَرَاة بِوُجُوه ثَلاثَة مُلَخصَها:«الأَوَّل: أَنَّ هَذِهِ الْحِكَايَةَ لَوْ نُسِبَتْ إِلَىٰ أَفْسَقِ النَّاسِ وَأَشَدِّهِمْ فُجُورًا لاسْتَنْكَفَ مِنْهَا. الثَّانِي: أَنَّ حَاصِلَ الْقِصَّةِ يَرْجِعُ إِلَىٰ أَمْرَيْنِ إِلَىٰ السَّعْيِ فِي قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ وَإِلَىٰ الطَّمَعِ فِي زَوْجَتِهِ، وَكِلَاهُمَا مُنْكَرٌ. الثَّالِث: أَنَّ الله تَعَالَىٰ وَصَفَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ ذِكْرِ هَذِهِ القِصَّة بِصِفَاتٍ كَثِيرَةٍ بَعْدَ ذِكْرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَكُلُّ هَذِهِ الصِّفَاتِ تُنَافِي كَوْنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْصُوفًا بِهَذَا الْفِعْلِ الْمُنْكَرِ وَالْعَمَلِ الْقَبِيحِ»اهـ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تفسيره»(ج٧/ ص٥٦):«ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ هَاهُنَا قِصَّةً أَكْثَرُهَا مَأْخُوذٌ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَلَمْ يَثْبُتْ فِيهَا عَنِ الْمَعْصُومِ حَدِيثٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ، فَالأَوْلَىٰ أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَىٰ مُجَرَّدِ تِلَاوَةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَأَنْ يُرَدَّ عِلْمُهَا إِلَىٰ الله عز وجل فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ وَمَا تَضَمَّنَ فَهُوَ حَقٌّ أَيْضًا»اهـ.

(٢) فِي الصَّحِيْحِ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ تَحْتَهُ مِنْ سَبْعِينَ إِلَىٰ مِئَة امْرَأَة. قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَىٰ - سِتِّينَ - سَبْعِينَ - تِسْعٍ وَتِسْعِينَ - مِائَةِ امْرَأَةٍ - كُلُّهَا تَحْمِلُ غُلَامًا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ»[خ(٢٨١٩).م(١٦٥٤)].

ﷺ: «لأنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»(١).

ثُمَّ اعْتَبِرِ فَضْلَ الرُّسُلِ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالجَوَارِحِ عَلَىٰ الَّتِي لَا تَصِيْدُ، وَالطِّيْنِ الَّذِي يُعْمَلُ مِنْهُ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ عَلَىٰ الطِّيْنِ فِي المَقْلَعِ(٢).

وَغَايَةُ العُلَمَاءِ تَصَرُّفُهُمْ بِالعِلْمِ فِي المُبَاحِ، وَأَكْثَرُ المُتَزَهِّدِيْنَ جَهَلَةٌ، يَسْتَعْبِدُهُمْ تَقْبِيْلُ اليَدِ لِأَجْلِ تَرْكِهِم مَا أُبِيْحَ.

فَكَمْ فَوَّتَتِ الْعُزْلَةُ عِلْمًا يَصْلُحُ بِهِ أَصْلُ الدِّيْنِ، وَكَمْ أَوْقَعَتْ فِي بَلِيَّةٍ هَلَكَ بِهَا الدِّيْنُ، وَإِنَّمَا عُزْلَةُ العَالِمِ عَنِ الشَّرِّ فَحَسْبُ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

*[١٧١ - ٢٤] [خَاطِرَةٌ]:

[الْعُزْلَةُ عَنِ الشَّرِّ لَا عَنِ الْخَيْرِ]

مَا زَالَتْ نَفْسِي تُنَازِعُنِي - بِمَا يُوْجِبُهُ مَجْلِسُ الْوَعْظِ، وَتَوْبَةُ التَّائِبِيْنَ، وَرُؤْيَةُ الزَّاهِدِيْنَ - إِلَىٰ الزُّهْدِ، وَالانْقِطَاعِ عَنِ الْخَلْقِ، وَالانْفِرَادِ بِالآخِرَةِ.

فَتَأَمَّلْتُ ذَلِكَ، فَوَجَدْتُ عُمُوْمَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَرَىٰ أَنَّهُ لَا يَخْلُوْ لِي مَجْلِسٌ مِنْ خَلْقٍ لَا يُحْصَوْنَ، يَبْكُوْنَ، وَيَنْدُبُوْنَ عَلَىٰ ذُنُوْبِهِم، وَيَقُوْمُ فِي الغَالِبِ جَمَاعَةٌ، يَتُوْبُوْنَ، وَيَقْطَعُوْنَ شُعُوْرَ الصِّبَا، وَرُبَّمَا اتَّفَقَ خَمْسُوْنَ وَمِئَةٌ(٣).

وَلَقَدْ تَابَ عِنْدِي فِي بَعْضِ الأَيَّامِ أَكْثَرُ مِنْ مِئَةٍ، وَعُمُوْمُهُمْ صِبْيَانٌ، قَدْ نَشَؤُوْا عَلَىٰ اللَّعِبِ وَالانْهِمَاكِ فِي المَعَاصِي.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «معرفة الصحابة» بَابُ «ذكر أبي رافع مولىٰ رسول الله» حديث (٦٥٣٧).

(٢) المِقْلَع: اسم آلة تقلع النّباتات الصَّغيرة مع قليل من التُّراب لتُزرع في مكان آخر. والمَقلع: اسم للمكان الذي تلقعُ منه الحجارة، ويُستعان علىٰ ذلك بالماء فيكثر الطين في هذه المقالع؛ مقالع الحجارة.

(٣) جاء في الأصل: [خمسين]، والصواب ما أثبتناه؛ لأنه فاعل لـ[اتَّفَقَ].

فَكَأَنَّ الشَّيْطَانَ - لِبُعْدِ غَوْرِهِ فِي الشَّرِّ - رَآنِي أَجْتَذِبُ إِلَيَّ مَنْ أَجْتَذِبُ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَشْغَلَنِي عَنْ ذَلِكَ بِمَا يُزَخْرِفُهُ؛ لِيَخْلُوَ هُوَ بِمَنْ أَجْتَذِبُهُ مِنْ يَدِهِ.

وَلَقَدْ حَسَّنَ لِيَ الانْقِطَاعَ عَنِ الْمَجَالِسِ، وَقَالَ: لَا يَخْلُو مِنْ تَصَنُّعٍ لِلْخَلْقِ.

فَقُلْتُ: أَمَّا زَخْرَفَةُ الأَلْفَاظِ وَتَزْوِيقُهَا، وَإِخْرَاجُ الْمَعْنَى مِنْ مُسْتَحْسَنِ الْعِبَارَةِ؛ فَفَضِيلَةٌ لا رَذِيلَةٌ، وَأَمَّا أَنْ أَقْصِدَ النَّاسَ بِمَا لَا يَجُوزُ فِي الشَّرْعِ؛ فَمَعَاذَ اللهِ.

ثُمَّ رَأَيْتُهُ يُرِينِي فِي التَّزَهُّدِ قَطْعَ أَسْبَابِ ظَاهِرَةِ الإِبَاحَةِ مِنَ الاكْتِسَابِ!

فَقُلْتُ لَهُ: فَإِنْ طَابَ لِيَ الزُّهْدُ، وَتَمَكَّنْتُ مِنَ الْعُزْلَةِ، فَنَفِدَ مَا بِيَدِيْ، أَوْ احْتَاجَ بَعْضُ عَائِلَتِي؛ أَلَسْتُ أَعُوْدُ الْقَهْقَرَى؟!

فَدَعْنِي أَجْمَعُ مَا يَسُدُّ خَلَّتِي، وَيَصُوْنُنِي عَنْ مَسْأَلَةِ النَّاسِ؛ فَإِنْ مُدَّ عُمُرِي؛ كَانَ نِعْمَ السَّبَبُ، وَإِلَّا؛ كَانَ لِلْعَائِلَةِ، وَلا أَكُوْنُ كَرَاكِبٍ أَرَاقَ مَاءَهُ لِرُؤْيَةِ سَرَابٍ، فَلَمَّا نَدِمَ وَقْتَ الْفَوَاتِ؛ لَمْ يَنْتَفِعْ بِالنَّدَمِ.

وَإِنَّمَا الصَّوَابُ تَوْطِئَةُ الْمَضْجَعِ قَبْلَ النَّوْمِ، وَجَمْعُ الْمَالِ السَّادِّ لِلْخَلَّةِ قَبْلَ الْكِبَرِ؛ أَخْذًا بِالْحَزْمِ؛ وَقَدْ قَالَ الرَّسُوْلُ ﷺ: «لأَنْ تَتْرُكَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُوْنَ النَّاسَ»[1]، وَقَالَ: «نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»[2].

وَأَمَّا الانْقِطَاعُ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُوْنَ الْعُزْلَةُ عَنِ الشَّرِّ لَا عَنِ الْخَيْرِ، وَالْعُزْلَةُ عَنِ الشَّرِّ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَأَمَّا تَعْلِيمُ الطَّالِبِيْنَ، وَهِدَايَةُ الْمُرِيْدِيْنَ؛ فَإِنَّهُ عِبَادَةُ الْعَالِمِ.

وَإِنَّ مِنْ تَغْفِيلِ[3] بَعْضِ الْعُلَمَاءِ إِيْثَارَهُ لِلتَّنَقُّلِ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ عَنْ تَصْنِيفِ كِتَابٍ، أَوْ

---

(١) رواه أحمد في «المسند»(١٥٤٦). ورواه النسائي في «المُجتبى» كِ:«الْوَصَايَا»(٣٦٢٦). وأبو عوانة في «مستخرجه» أبواب «الْمَوَارِيثِ»(٥٧٧١). وهو أقربهم للفظ الذي أتى به ابن الجوزي رحمه الله.

(٢) رواه البيهقي في «الشعب»(١١٩٠). ورواه أحمد في «المسند»(١٧٧٦٣). ورواه الحاكم في «المستدرك»(٢١٣٠، ٢٩٢٦).

(٣) جاء في الأصل:[تَفْضِيْلِ] والصواب ما أثبتناه من مخطوط:(ي)؛ لتمام المعنى به.

تَعْلِيمِ عِلْمٍ يَنْفَعُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ بَذْرٌ يَكْثُرُ رَيْعُهُ، وَيَمْتَدُّ زَمَانُ نَفْعِهِ.

وَإِنَّمَا تَمِيلُ النَّفْسُ إِلَىٰ مَا يُزَخْرِفُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ ذَلِكَ لِمَعْنَيَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: حُبُّ البَطَالَةِ؛ لِأَنَّ الانْقِطَاعَ عِنْدَهَا أَسْهَلُ.

وَالثَّانِي: لِحُبِّ الْمَدْحَةِ؛ فَإِنَّهَا إِذَا تَوَسَّمَتْ بِالزُّهْدِ؛ كَانَ مَيْلُ الْعَوَامِّ إِلَيْهَا أَكْثَرُ.

فَعَلَيْكَ بِالنَّظَرِ فِي الشَّرْبِ الأَوَّلِ، فَكُنْ مَعَ الشَّرْبِ الْمُتَقَدِّمِ[1]، وَهُمْ الرَّسُوْلُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ.

فَهَلْ نُقِلَ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَا ابْتَدَعَهُ جَهَلَةُ الْمُتَزَهِّدِيْنَ وَالْمُتَصَوِّفَةُ، مِنَ الانْقِطَاعِ عَنِ الْعِلْمِ؟ وَالانْفِرَادِ عَنِ الْخَلْقِ.

وَهَلْ كَانَ شُغْلُ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا مُعَانَاةَ الْخَلْقِ؟ وَحَثُّهُم عَلَىٰ الخَيْرِ، وَنَهْيُهُمْ عَنِ الشَّرِّ؟!

إِلَّا أَنْ يَنْقَطِعَ مَنْ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِقَصْدِ الْكَفِّ عَنِ الشَّرِّ؛ فَذَاكَ مَرْتَبَةُ الْمُحْتَمِي، يَخَافُ شَرَّ التَّخْلِيْطِ؛ فَأَمَّا الطَّبِيْبُ العَالِمُ بِمَا يَتَنَاوَلُ؛ فَإِنَّهُ يَنْتَفِعُ بِمَا يَنَالُهُ.

***

*[١٧٢ - ٣٠٩] [خَاطِرَةٌ]:

[لَا يَسْتَقِيمُ التَّعَبُّدُ إِلَّا بِالانْقِطَاعِ عَنِ الْخَلْقِ]

لا يَصْفُو التَّعَبُّدُ وَالتَّزَهُّدُ وَالاشْتِغَالُ بِالآخِرَةِ إِلَّا بِالانْقِطَاعِ الْكُلِّيِّ عَنِ الْخَلْقِ؛ بِحَيْثُ لَا يُبْصِرُهُمْ، وَلا يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ إِلَّا فِي وَقْتِ ضَرُوْرَةٍ؛ كَصَلَاةِ جُمُعَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ، وَيَحْتَرِزُ فِي تِلْكَ السَّاعَاتِ مِنْهُم.

وَإِنْ كَانَ عَالِمًا يُرِيْدُ نَفْعَهُم؛ وَعَدَهُم وَقْتًا مَعْرُوْفًا، وَاحْتَرَزَ فِي الكَلَامِ مَعَهُم.

---

(١) هكذا في مخطوط:(ي). وَالشَّرب: الرعيل الأول أو القرن أو الجيل من الناس. وجاء في الأصل:[السِّرب]: وهو فريق أو جماعة من ظباء أو طير أو حيوان أو غير ذلك. ولعله تصحيف.

وَأَمَّا مَنْ يَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ اليَوْمَ، وَيَبِيعُ، وَيَشْتَرِي مَعَ هَذَا العَالَمِ الْمُظْلِمِ، وَيَرَىٰ الْمُنْكَرَاتِ وَالْمُسْتَهْجَنَاتِ؛ فَمَا يَعُوْدُ إِلَىٰ البَيْتِ إِلَّا وَقَدْ أَظْلَمَ القَلْبُ.

فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُرِيْدِ أَنْ يَكُوْنَ خُرُوْجُهُ إِلَّا إِلَىٰ الصَّحْرَاءِ وَالمَقَابِرِ.

وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَبِيْعُوْنَ، وَيَشْتَرُوْنَ، وَيَحْتَرِزُوْنَ، وَمَعَ هَذَا؛ مَا صَفَا لِصَافِيْهِم وَقْتٌ، حَتَّىٰ قَاطَعَ الخَلْقَ. قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «زَاوَلْتُ العِبَادَةَ وَالتِّجَارَةَ؛ فَلَمْ يَجْتَمِعَا، فَاخْتَرْتُ الْعِبَادَةَ»[1]. وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «الأَسْوَاقُ تُلْهِي وَتُلْغِي»[2].

فَمَنْ قَدَرَ عَلَىٰ الحِمْيَةِ النَّافِعَةِ، وَاضْطُرَّ إِلَىٰ المُخَالَطَةِ وَالْكَسْبِ لِلْعَائِلَةِ؛ فَلْيَحْتَرِزِ احْتِرَازَ المَاشِي فِي الشَّوْكِ، وَبَعِيْدٌ سَلَامَتُهُ.

*[١٧٣ - ١١٥] [خَاطِرَةٌ]:

[السِّرُّ فِي المَدْحِ وَالذَّمِّ عَلَى أَلْسِنَةِ الخَلْقِ]

إِنَّ لِلْخَلْوَةِ تَأْثِيْرَاتٍ تَبِيْنُ فِي الجَلْوَةِ. كَمْ مِنْ مُؤْمِنٍ بِاللهِ ﷻ، يَحْتَرِمُهُ عِنْدَ الخَلَوَاتِ، فَيَتْرُكُ مَا يَشْتَهِي حَذَرًا مِنْ عِقَابِهِ، أَوْ رَجَاءَ لِثَوَابِهِ، أَوْ إِجْلَالًا لَهُ، فَيَكُوْنُ بِذَلِكَ الفِعْلِ كَأَنَّهُ طَرَحَ

(١) ترجمة أَبو الدَّرداء في:[١٢٣-٢٥]، والأثر رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٩) وأحمد في «الزهد»(ح ٧٤٣). قَالَ أَبو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: «كُنْتُ تَاجِرًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَخَذْتُ التِّجَارَةَ وَالْعِبَادَةَ فَلَمْ يَجْتَمِعَا لِي فَأَقْبَلْتُ عَلَىٰ الْعِبَادَةِ وَتَرَكْتُ التِّجَارَةَ».

(٢) ثَبَتَ هَذَا مَوْقُوفًا مِنْ كَلَامِ أَبِي الدَّرْدَاء رضي الله عنه ؛ رواه أحمد في «الزهد»(ح ٧٢١) واللفظ له. وابن أبي شيبة في «مصنفه»(١٩/ ١٨٠/ ح٣٥٧٣٨). والبيهقي في «الشعب»(١٣/ ١٩٤/ ح ١٠١٧٣):«نِعْمَ صَوْمَعَةُ الْمُسْلِمِ بَيْتُهُ، يَكُفُّ بَصَرَهُ وَفَرْجَهُ، وَإِيَّاكُمْ وَالأَسْوَاقِ فَإِنَّهَا تُلْغِي وَتُلْهِي». وَالمَرفُوع رواه أحمد في «المسند»(١٦١٣٦). والحاكم في «المستدرك»(٢١٤٠). والنسائي في «المجتبىٰ»(٣٨٣٦). عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي غَرَزَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ السُّوقِ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، إِنَّ هَذَا -هَذِهِ- السُّوقَ يُخَالِطُهَا - اللَّغْوُ-، وَالْكَذِبُ -، -وَحَلِفٌ-، فَشُوبُوهَا -بِصَدَقَةٍ- -بِالصَّدَقَةِ-». وقوله: «فَشُوبُوهَا» الضمير راجع إلىٰ السوق، لكن بمعنىٰ ما يحدث فيها من البيع والشراء، من إطلاق المحلّ على الحال؛ أي: اخلطوا ما يقع فيها من تجاراتكم بالصدقة؛ تكفيرًا لخطاياكم.

عُودًا هِنْدِيًّا عَلَىٰ مِجْمَرٍ[١]، فَيَفُوْحُ طِيْبُهُ، فَيَسْتَنْشِقُهُ الْخَلَائِقُ، وَلا يَدْرُوْنَ أَيْنَ هُوَ؟

وَعَلَىٰ قَدْرِ الْمُجَاهَدَةِ فِي تَرْكِ مَا [يَهْوَىٰ[٢]] تَقْوَىٰ مَحَبَّتُهُ، أَوْ عَلَىٰ مِقْدَارِ زِيَادَةِ دَفْعِ ذَلِكَ الْمَحْبُوْبِ الْمَتْرُوْكِ يَزِيْدُ الطِّيْبُ، وَيَتَفَاوَتُ تَفَاوُتَ الْعُوْدِ، فَتَرَىٰ عُيُوْنَ الْخَلْقِ تُعَظِّمُ هَذَا الشَّخْصَ، وَأَلْسِنَتُهُمْ تَمْدَحُهُ، وَلا يَعْرِفُوْنَ لِمَ؟ وَلا يَقْدِرُوْنَ عَلَىٰ وَصْفِهِ: لِبُعْدِهِمْ عَنْ حَقِيْقَةِ مَعْرِفَتِهِ.

وَقَدْ تَمْتَدُّ هَذِهِ الأَرَايِيْحُ[٣] بَعْدَ الْمَوْتِ عَلَىٰ قَدْرِهَا؛ فَمِنْهُم مَنْ يُذْكَرُ بِالْخَيْرِ مُدَّةً مَدِيْدَةً ثُمَّ يُنْسَىٰ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُذْكَرُ مِئَةَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَخْفَىٰ ذِكْرُهُ وَقَبْرُهُ، وَمِنْهُم أَعْلَامٌ يَبْقَىٰ ذِكْرُهُم أَبَدًا.

وَعَلَىٰ عَكْسِ هَذَا مَنْ هَابَ الْخَلْقَ[٤]، وَلَمْ يَحْتَرِمْ خَلْوَتَهُ بِالْحَقِّ؛ فَإِنَّهُ عَلَىٰ قَدْرِ مُبَارَزَتِهِ بِالذُّنُوْبِ، وَعَلَىٰ مَقَادِيْرِ تِلْكَ الذُّنُوْبِ؛ يَفُوْحُ مِنْهُ رِيْحُ الْكَرَاهَةِ، فَتَمْقُتُهُ الْقُلُوْبُ: فَإِنْ قَلَّ مِقْدَارُ مَا جَنَىٰ؛ قَلَّ ذِكْرُ الأَلْسُنِ لَهُ بِالْخَيْرِ، وَبَقِيَ مُجَرَّدُ تَعْظِيْمِهِ. وَإِنْ كَثُرَ؛ كَانَ قُصَارَىٰ الأَمْرِ سُكُوْتُ النَّاسِ عَنْهُ؛ لا يَمْدَحُوْنَهُ وَلا يَذُمُّوْنَهُ.

وَرُبَّ خَالٍ بِذَنْبٍ كَانَ سَبَبَ وُقُوْعِهِ فِي هُوَّةِ شِقْوَةٍ فِي عَيْشِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَكَأَنَّهُ قِيْلَ لَهُ: ابْقَ بِمَا آثَرْتَ! فَيَبْقَىٰ أَبَدًا فِي التَّخْبِيْطِ.

فَانْظُرُوْا إِخْوَانِي إِلَىٰ المَعَاصِي أَثَّرَتْ وَعَثَّرَتْ.

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَخْلُوْ بِمَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَيُلْقِي اللهُ بُغْضَهُ فِي قُلُوْبِ الْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ»[٥].

---

(١) المِجْمَر -بكسر الميم-: هو الذي يُوضَع فيه النَّار للبَخُور. والمُجْمَر -بالضَّم-: الذي يُبَخَّر به وأُعِدَّ له الجَمْر.

(٢) ليست في الأصل، ولا المخطوط، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٣) الأَرَايِيْحُ: جمع الريحُ، نَسِيمُ الهَوَاءُ وَمَا يَحمِلُهُ مِنَ الرَّوَائِح، وَالمَقصُودُ هُنَا: الذِّكرُ الجَمِيلُ الَّذِي يَنْتَشِرُ فِي النَّاسِ.

(٤) هَابَ يَهابُه: إذا خَافَهُ وإذا وَقَّرَهُ وعَظَّمَه.

(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية»(ج١/ ص٢١٥). والبيهقي في «الأسماء والصفات»(ج٢/ ص٦٠/ ب:قوله ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾): كَتَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِلَىٰ مَسْلَمَةَ بْنِ مَخْلَدٍ: «سَلامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ بِطَاعَةِ اللهِ أَحَبَّهُ اللهُ، فَإِذَا أَحَبَّهُ اللهُ حَبَّبَهُ إِلَىٰ عِبَادِهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ بِمَعْصِيَةِ اللهِ أَبْغَضَهُ اللهُ، فَإِذَا أَبْغَضَهُ اللهُ بَغَّضَهُ إِلَىٰ عِبَادِهِ».

فَتَلَمَّحُوا مَا سطَّرْتُهُ، وَاعْرِفُوا مَا ذَكَرْتُهُ، وَلَا تُهْمِلُوا خَلَوَاتِكُمْ، وَلَا سَرَائِرَكُم؛ فَإِنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ، وَالْجَزَاءَ عَلَىٰ مِقْدَارِ الإِخْلَاصِ(١).

*[١٧٤ - ١٨٤] [خَاطِرَةٌ]:

[أَفضلُ الطُّرق في اختيار المُخالِط]

يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ الأُصُوْلِ فِيْمَنْ يُخَالِطُهُ، وَيُعَاشِرُهُ، وَيُشَارِكُهُ، وَيُصَادِقُهُ، وَيُزَوِّجُهُ، أَوْ يَتَزَوَّجُ إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الصُّوَرِ؛ فَإِنَّ صَلَاحَهَا دَلِيْلٌ عَلَىٰ صَلَاحِ البَاطِنِ(٢).

أَمَّا الأُصُوْلُ؛ فَإِنَّ الشَّيْءَ يَرْجِعُ إِلَىٰ أَصْلِهِ، وَبَعِيْدٌ مِمَّنْ لَا أَصْلَ لَهُ أَنْ يَكُوْنَ فِيْهِ مَعْنَىٰ مُسْتَحْسَنٌ، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ الْحَسْنَاءَ إِذَا كَانَتْ مِنْ بَيْتٍ رَدِيءٍ؛ فَقَلَّ أَنْ تَكُوْنَ صَيِّنَةً(٣)، وَكَذَلِكَ أَيْضًا الْمُخَالِطُ وَالصَّدِيْقُ وَالْمُبَاضِعُ(٤) وَالْمُعَاشِرُ.

---

(١) وَمِنَ الْجَزَاءِ الْحَسَنِ، الذِّكْرِ الْجَمِيلِ لِلْمُؤْمِنِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ، وَمَحَبَّةُ الْخَلْقِ وَالْخَالِقِ لَهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]؛ قَالَ الرَّازِيُّ «التفسير الكبير»: فَالله تَعَالَىٰ سَيُحْدِثُ لَهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوَدَّةً وَيَزْرَعُهَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ غَيْرِ تَوَدُّدٍ مِنْهُمْ وَلَا تَعَرُّضٍ لِلأَسْبَابِ الَّتِي يَكْتَسِبُ النَّاسُ بِهَا مَوَدَّاتِ الْقُلُوبِ مِنْ قَرَابَةٍ أَوْ صَدَاقَةٍ أَوِ اصْطِنَاعِ مَعْرُوفٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا هُوَ اخْتِرَاعٌ مِنْهُ تَعَالَىٰ وَابْتِدَاءً تَخْصِيصًا لِأَوْلِيَائِهِ بِهَذِهِ الْكَرَامَةِ كَمَا قَذَفَ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمُ الرُّعْبَ وَالْهَيْبَةَ إِعْظَامًا لَهُمْ وَإِجْلَالًا لِمَكَانِهِمْ.

(٢) وَفِي الْحَدِيْثِ عَنْ مُعَاوِيَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ كَالْوِعَاءِ، إِذَا طَابَ أَسْفَلُهُ، طَابَ أَعْلَاهُ، وَإِذَا فَسَدَ أَسْفَلُهُ، فَسَدَ أَعْلَاهُ». ابن ماجة، كِتَابُ «الزُّهْدِ» بَابُ «التَّوَقِّي عَلَىٰ الْعَمَلِ» (٤١٩٩).

(٣) وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُم: إِيَّاكُمْ وَخَضِرَ الدِّمَنِ، وَهِيَ: الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ فِي الْمَنْبَتِ السُّوءِ. وَالدِّمْنُ هو: الْبَعْرُ - الْعَذِرَةِ وَالْجَلَّةُ - تَجْمَعُهُ الرِّيحُ ثُمَّ يَرْكَبُهُ التُّرَابُ فَإِذَا أَصَابَهُ الْمَطَرُ يَنْبُتُ نَبْتًا نَاعِمًا يَهْتَزُّ وَتَحْتَهُ الدِّمْنُ الْخَبِيثُ. فَهَذِهِ هِيَ الشَّجَرَةُ الَّتِي تَنْبُتُ فِي الْمَزْبلة فتجيء خَضِرَةً نَاعِمَةً نَاضِرَةً، ومَنْبِتُها خَبِيثٌ قذِر. فَهَذَا مَثَلًا لِلْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ الْوَجْهِ اللَّئِيمة المنصب؛ وَالْمَعْنَىٰ: لَا تَنْكِحُوا الْمَرْأَةَ لِجَمَالِهَا وَهِيَ خَبِيثَةُ الأَصْلِ لِأَنَّ عِرْقَ السُّوءِ لَا يُنْجِبُ.

(٤) الْمُبَاضِعُ: الإِبْضَاعُ مَصْدَرُ أَبْضَعَ. وَيُعَرِّفُ الْفُقَهَاءُ الإِبْضَاعَ بِأَنَّهُ بَعْثُ الْمَالِ مَعَ مَنْ يَتَّجِرُ بِهِ تَبَرُّعًا، وَالرِّبْحُ كُلُّهُ لِرَبِّ الْمَالِ. بِعَكْسِ الْمُضَارَبَةِ، فَهِيَ دَفْعُ الرَّجُلِ مَالَهُ إِلَىٰ آخَرَ لِيَتَّجِرَ فِيهِ، عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ لِلْعَامِلِ جُزْءٌ شَائِعٌ مِنَ الرِّبْحِ. فَالْقِرَاضُ شَرِكَةٌ فِي الرِّبْحِ بَيْنَ رَبِّ الْمَالِ وَالْعَامِلِ، بَيْنَمَا الإِبْضَاعُ لَا يَحْمِلُ صُورَةَ الْمُشَارَكَةِ، بَل صُورَةَ التَّبَرُّعِ مِنَ الْعَامِلِ فِي التِّجَارَةِ لِرَبِّ الْمَالِ دُونَ مُقَابِلٍ.

فَإِيَّاكَ أَنْ تُخَالِطَ إِلَّا مَنْ لَهُ أَصْلٌ يَخَافُ عَلَيْهِ الدَّنَسَ؛ فَالْغَالِبُ السَّلَامَةُ، وَإِنْ وَقَعَ [غَيْرُ[1]] ذَلِكَ؛ كَانَ نَادِرًا.

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ[2] ﷺ لِرَجُلٍ: أَشِرْ عَلَيَّ فِيمَنْ أَسْتَعْمِلُ. فَقَالَ: «أَمَّا أَرْبَابُ الدِّيْنِ؛ فَلَا يُرِيْدُوْنَكَ[3]، وَأَمَّا أَرْبَابُ الدُّنْيَا، فَلَا تُرِدْهُمْ؛ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالأَشْرَافِ؛ فَإِنَّهُمْ يَصُوْنُوْنَ شَرَفَهُمْ عَمَّا لا يَصْلُحُ»[4].

وَقَدْ رَوَىٰ أَبُو بَكْرٍ الصُّوْلِيُّ[5]؛ قَالَ: حَدَّثَنِي الْحُسَيْنُ بْنُ يَحْيَىٰ، عَنْ إِسْحَاقَ[6]؛ قَالَ: دَعَانِي الْمُعْتَصِمُ[7] يَوْمًا، فَأَدْخَلَنِي مَعَهُ الْحَمَّامَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَخَلَا بِي، وَقَالَ: يَا إِسْحَاقَ[8]! فِي نَفْسِي شَيْءٌ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهُ:

إِنَّ أَخِي الْمَأْمُوْنَ[9] اصْطَنَعَ قَوْمًا فَأَنْجَبُوا[10]، وَاصْطَفَيْتُ أَنَا مِثْلَهُمْ فَلَمْ يَنْجُبُوْا؟

---

(١) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٢) سبقت ترجمته في الخاطرة رقم: [١٤٨-٣٣٨].

(٣) أي: لا يسألونك الرياسة.

(٤) يُراجع: «قوت قلوب» للمكي. (١/ ٢٣٣/ الفصل:٣١/ ك: العلم وتفضيله/ فضل علم المعرفة). «الإحياء» للغزالي. (١/ ٩٥/ ك:العلم.ب:٦) وفيهما: أن عمر بن عبد العزيز كتب إلىٰ الحسن رحمهما الله: أما بعد: فأشر عليَّ بقوم أستعين بهم علىٰ أمر الله تعالىٰ فكتب إليه: «أما أهل الدِّين؛ فلن يريدوك، وأما أهل الدُّنيا؛ فلن تريدهم، ولكن عليك بالأشراف؛ فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة».

(٥) أَبُو بَكْرٍ الصُّوْلِيُّ مُحَمَّدُ بنُ يَحْيَىٰ بنِ عَبْدِ اللهِ بن العَبَّاس، البَغْدَادِيُّ،، العَالِمُ الفَقِيْهُ، الإِخْبَارِي. مَاتَ سَنَةَ: (٣٣٥هـ).

(٦) الحُسَيْن بْن يَحْيَىٰ الكَاتِب أَبُو عَلِيٍّ. وَإسحاق بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنُ الحُسَيْن، المُصْعَبِيُّ، أَبُو الحُسَين: صاحب الشرطة ببغداد أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل. وكان وجيهًا ذا رأي وشجاعة. توفي سنة ٢٣٥.

(٧) المُعْتَصِمُ أَبُو إِسْحَاقَ مُحَمَّدُ بنُ الرَّشِيْدِ هَارُوْنَ بنِ مُحَمَّدٍ المَهْدِيِّ. كَانَ مَلِكًا شُجَاعًا مَهِيبًا. مَاتَ سَنَةَ: (٢٢٧هـ).

(٨) جاء في الأصل: [أبا إسحاق]؛ ولعله سبق قلم، والصواب ما أثبتناه من «تاريخ الطبري» و«الكامل في التاريخ».

(٩) المَأْمُوْنُ أَبُو العَبَّاسِ عَبْدُ اللهِ بنُ هَارُوْنَ الرَّشِيْدِ كَانَ ذَا وَهَيْبَة، وَحِلْمًا، وَمَحَاسِنُهُ كَثِيْرَةٌ. مَاتَ سَنَةَ: (٢١٨هـ).

(١٠) نَجُب يَنْجُب نَجابةً إذا كان فاضلًا نَفِيسًا كريمَ الأصل نبيلًا؛ يُحمَدُ في قوله، أو فِعْله.

قُلْتُ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: اصْطَنَعَ طَاهِرًا وَابْنَهُ، وَإِسْحَاقَ وَآلَ سَهْلٍ(١)؛ فَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ هُم. وَاصْطَنَعْتُ أَنَا الأَفْشِيْنَ(٢)؛ فَقَدْ رَأَيْتَ إِلَىٰ مَا آلَ أَمْرُهُ، وَأَشْنَاس؛ فَلَمْ أَجِدْهُ شَيْئًا، وَكَذَلِكَ إِيْتَاخُ وَوَصِيْفٌ(٣).

قُلْتُ: يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ! هَا هُنَا جَوَابٌ، عَلَيَّ أَمَانٌ مِنَ الْغَضَبِ(٤)؟

قَالَ: لَكَ ذَاكَ: قُلْتُ: نَظَرَ أَخُوْكَ إِلَىٰ الأُصُوْلِ فَاسْتَعْمَلَهَا، فَأَنْجَبَتْ فُرُوْعُهَا، وَاسْتَعْمَلْتَ فُرُوْعًا لَا أُصُوْلَ لَهَا، فَلَمْ تَنْجُبْ!

فَقَالَ: يَا إِسْحَاقُ(٥)! مُقَاسَاةُ مَا مَرَّ بِي طُوْلَ هَذِهِ الْمُدَّةِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ هَذَا الجَوَابِ(٦).

أَمَّا الصُّوَرُ؛ فَإِنَّهُ مَتَىٰ صَحَّتِ البُنْيَةُ، وَلَمْ يَكُنْ فِيْهَا عَيْبٌ؛ فَالغَالِبُ صِحَّةُ البَاطِنِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَمَتَىٰ كَانَ فِيْهَا عَيْبٌ؛ فَالْعَيْبُ فِي البَاطِنِ أَيْضًا.

فَاحْذَرْ مَنْ بِهِ عَاهَةٌ؛ كَالأَقْرَعِ وَالأَعْمَىٰ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ بَوَاطِنَهُمْ فِي الغَالِبِ رَدِيَّةٌ(٧).

---

(١) طَاهِر بْن الحُسَيْن ترجمته في:[١٥٢ :١٣٩]. وَابْنه عَبْدُ اللهِ بنُ طَاهِرِ بنِ الحُسَيْنِ بنِ مُصْعَبٍ. الأَمِيْرُ العَادِلُ، أَبُو العَبَّاسِ، كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا جَوَادًا. مَاتَ سَنَةَ:(٢٣٠هـ). وَإِسْحَاق بْنُ إِبْرَاهِيمَ المُصْعَبِيُّ؛ تقدم في هذه الخاطرة. وَأَمَّا آلُ سَهْلٍ؛ فَالفَضْلُ بنُ سَهْلٍ السَّرْخَسِيُّ الوَزِيْرُ، وَأَخُو الوَزِيْرِ الحَسَنِ بنِ سَهْلٍ السَّرْخَسِيُّ، أَسْلَمَ أَبُوْهُمَا عَلَىٰ يَدِ المَهْدِيِّ، وَأَسْلَمَ الفَضْلُ عَلَىٰ يَدِ المَأْمُوْنِ، قَتَلَهُ خَالُ المَأْمُوْنِ فِي سَنَةَ:(٢٠٢هـ). وَكَانَ الحَسَنُ بنُ سَهْلٍ مِنْ كِبَارِ الوُزَرَاءِ. أَسْلَمَ سَهْلٌ زَمَنَ البَرَامِكَةِ. اسْتَوْزَرَهُ المَأْمُوْنُ، وَلَمْ يَزَلْ فِي صُعُودٍ وَتَرَقٍّ. مَاتَ سَنَةَ:(٢٣٦هـ).

(٢) الأَفْشِيْن: لَقَبٌ لمن مَلَكَ أَشْرُوسَنَة. واسمه حيدر بن كاوس من أولاد الأكاسرة، كان موصوفًا بالشجاعة والرأي والخبرة، ولمَّا خان المعتصم، واتُّهِمَ بالكفر وعبادة الأصنام، سجنه المعتصم حتىٰ مات سنة:(٢٢٦ هـ).

(٣) أَشْنَاسُ التُّركِيُّ الأَمِيْر كَانَ أَحَد الشُّجْعَان، كَانَ مُقَدَّم جَيْش المُعْتَصم حِيْنَ فَتح عَمُّورِيَّة، وَكَانَ يَتَعَانَىٰ المُنْكِر، مَاتَ سَنَةَ:(٢٥٢هـ). وَإِيْتَاخُ التُّرْكِيُّ العَبَّاسِيُّ الأَمِيْر كَانَ سَيْف نِقْمَة الخُلَفَاء، بطلًا شجاعًا شَهْمًا جريئًا، مَاتَ سَنَةَ(٢٣٤هـ). وَوَصِيف التُّرْكِيُّ كَانَ مِنْ كُبَارِ الأُمَرَاء القُواد اِسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ المُعْتَزِّ بْن المُتَوَكِّل، قُتِلَ سَنَةَ:(٢٥٣هـ).

(٤) أي: لا تغضب عليَّ ممَّا أقول، وأن يكون ليَ الأمان.

(٥) جاء في الأصل:[أبا إسحاق]؛ ولعله سبق قلم، والصواب ما أثبتناه من «تاريخ الطبري» و«الكامل في التاريخ».

(٦) يُراجع:«التاريخ» للطبري.(ج٩/ ص١٢٣)«الكامل» لابن الأثير.(ج٦/ ص٧٣/ سَنَةُ:٢٢٧/ بعض سيرة المعتصم).

(٧) رحم الله الإمام ابن الجوزي ففي قوله هنا:[فِي الغَالِبِ رَدِيَّة] كأنّه يقول: ما قلته لكم من قولي:[فَاحْذَرْ مَنْ بِهِ عَاهَةٌ] ليس علىٰ التعميم، وحُسن المظهر لا يدل علىٰ حسن المخبر دائمًا.

ثُمَّ مَعَ مَعْرِفَةِ أُصُوْلِ الْمُخَالِطِ، وَكَمَالِ صُوْرَتِهِ، لا بُدَّ مِنَ التَّجْرِبَةِ قَبْلَ الْمُخَالَطَةِ، وَاسْتِعْمَالُ الْحَذَرِ لَازِمٌ؛ وَإِنْ كَانَ كَمَا يَنْبَغِي[1].

*[١٧٥ - ٢٢] [خَاطِرَةٌ]:

[الدَّوَاءُ مَعَ التَّخْلِيطِ لا يَنْفَع]

تَأَمَّلْتُ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَوَجَدْتُ حَوَادِثَ الدُّنْيَا حِسِّيَّةً طَبِعِيَّةً وَحَوَادِثَ الآخِرَةِ إِيْمَانِيَّةً يَقِيْنِيَّةً. وَالْحِسِّيَّاتُ أَقْوَىٰ جَذْبًا لِمَنْ لَمْ يَقْوَ عِلْمُهُ وَيَقِيْنُهُ.

وَالْحَوَادِثُ إِنَّمَا تَبْقَىٰ بِكَثْرَةِ أَسْبَابِهَا:

فَمُخَالَطَةُ النَّاسِ، وَرُؤْيَةُ الْمُسْتَحْسَنَاتِ، وَالتَّعَرُّضُ بِالْمَلْذُوْذَاتِ؛ يُقَوِّي حَوَادِثَ الْحِسِّ.

وَالْعُزْلَةُ وَالْفِكْرُ، وَالنَّظَرُ فِي العِلْمِ؛ يُقَوِّي حَوَادِثَ الآخِرَةِ.

وَيُبَيِّنُ هَذَا: بِأَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا خَرَجَ يَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ، وَيُبْصِرُ زِيْنَةَ الدُّنْيَا، ثُمَّ دَخَلَ إِلَىٰ المَقَابِرِ، فَتَفَكَّرَ، وَرَقَّ قَلْبُهُ، فَإِنَّهُ يُحِسُّ بَيْنَ الحَالَتَيْنِ فَرْقًا بَيِّنًا، وَسَبَبُ ذَلِكَ التَّعَرُّضُ بِأَسْبَابِ الْحَوَادِثِ.

فَعَلَيْكَ بِالْعُزْلَةِ، وَالذِّكْرِ، وَالنَّظَرِ فِي العِلْمِ؛ فَإِنَّ العُزْلَةَ حِمْيَةٌ، وَالفِكْرَ وَالعِلْمَ أَدْوِيَةٌ، وَالدَّوَاءُ مَعَ التَّخْلِيطِ لَا يَنْفَعُ، وَقَدْ تَمَكَّنَتْ مِنْكَ أَخْلَاطُ! المُخَالَطَةِ لِلْخَلْقِ وَالتَّخْلِيطُ فِي الأَفْعَالِ؛ فَلَيْسَ لَكَ دَوَاءٌ إِلَّا مَا وَصَفْتُ لَكَ.

فَأَمَّا إِذَا خَالَطْتَ الْخَلْقَ، وَتَعَرَّضْتَ لِلشَّهَوَاتِ، ثُمَّ رُمْتَ صَلَاحَ الْقَلْبِ[2]؛ رُمْتَ الْمُمْتَنِعَ.

---

(١) فَكَم مِن أُناس مَنظَرُهم يَرُوقُ جَمالًا وقولُهُم يَخلِبُ بَيانًا؛ وَلَهُم أَشرَفُ النَّسَب؛ لكنَّهم لاَ أفهامَ لَهُم نافِعَةٌ.

(٢) رُمْتَ؛ أي: قصدت. تقول: رمى إلى الشَّيء: قصده وعناه.

*[١٧٦ - ٢٤٨] [خَاطِرَةٌ]:

[إِيَّاكَ وَمُخَالَطَةَ الدُّونِ؛ فَإِنَّهَا تُؤْذِي]

مَنْ رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ العِلْمَ وَالنَّظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ؛ رَأَىٰ أَنَّ هَذَا العَالَمَ ظُلْمَةٌ، وَجُمْهُوْرَهُم عَلَىٰ غَيْرِ الْجَادَّةِ(١)، وَالْمُخَالَطَةَ لَهُمْ تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ!

فَالْعَجَبُ لِمَنْ يَتَرَخَّصُ فِي المُخَالَطَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الطَّبْعَ لِصٌّ(٢) يَسْرِقُ مِنَ المُخَالِطِ!

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَقَعَ الْمُخَالَطَةُ لِلأَرْفَعِ وَالأَعْلَىٰ فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ؛ لِيُسْتَفَادَ مِنْهُ، فَأَمَّا مُخَالَطَةُ الدُّوْنِ(٣)؛ فَإِنَّهَا تُؤْذِي؛ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ عَامِّيًا يَقْبَلُ مِنْ مُعَلِّمِهِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُخَالَطَ بِالاحْتِرَازِ.

وَفِي هَذَا الزَّمَانِ: إِنْ وَقَعَتِ الْمُخَالَطَةُ لِلْعَوَامِّ(٤)؛ فَهُمْ ظُلْمَةٌ مُسْتَحْكِمَةٌ؛ فَإِذَا ابْتُلِيَ العَالِمُ بِمُخَالَطَتِهِم؛ فَلْيُشَمِّرْ ثِيَابَ الحَذَرِ، وَلْتَكُنْ مُجَالَسَتُهُ إِيَّاهُم لِلتَّذْكِرَةِ وَالتَّأْدِيبِ فَحَسْبُ.

وَإِنْ وَقَعَتِ الْمُخَالَطَةُ لِلْعُلَمَاءِ؛ فَأَكْثَرُهُمْ عَلَىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ، مَقْصُوْدُهُم صُوْرَةُ العِلْمِ لَا العَمَلُ بِهِ؛ فَلَا تَكَادُ تَرَىٰ مَنْ تُذَاكِرُهُ أَمْرَ الآخِرَةِ؛ إِنَّمَا شُغْلُهُمُ الْغِيبَةُ، وَقَصْدُ الغَلَبَةِ، وَاجْتِلَابُ الدُّنْيَا، ثُمَّ فِيهِم مِنَ الْحَسَدِ لِلنُّظَرَاءِ مَا لَا يُوْصَفُ!

وَإِنْ وَقَعَتِ الْمُخَالَطَةُ لِلأُمَرَاءِ؛ فَذَاكَ تَعَرُّضٌ لِفَسَادِ الدِّيْنِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ تَوَلَّىٰ لَهُمْ وِلَايَةً دُنْيَوِيَّةً؛ فَالظُّلْمُ مِنْ ضَرُوْرَاتِهَا؛ لِغَلَبَةِ العَادَةِ عَلَيْهِم، وَالإِعْرَاضِ عَنِ الشَّرْعِ.

وَإِنْ كَانَتْ وِلَايَةً دِينِيَّةً، كَالقَضَاءِ؛ فَإِنَّهُم يَأْمُرُوْنَهُ بِأَشْيَاءَ لَا يَكَادُ يُمْكِنُهُ الْمُرَاجَعَةُ فِيهَا، وَلَوْ رَاجَعَ؛ لَمْ يَقْبَلُوْا، وَأَكْثَرُ الْقَوْمِ يَخَافُ عَلَىٰ مَنْصِبِهِ، فَيَفْعَلُ مَا أُمِرَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَجُزْ.

---

(١) الجَادَّة: الطَّريق المُستقِيم، أو طريقٌ أعظم يجمعُ الطُّرقَ. تقول: خرَج عن الجادّة: انحرف عن الحقِّ والصواب.

(٢) جاء في الأصل:[بصير]؛ ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٣) الدُّوْنِ: الخسيس والحقير والسَّاقط والذليل.

(٤) في بعض نسخ المطبوع:[إِنْ وَقَعَتِ الْمُخَالَطَةُ لِلْعَوَامِّ؛ عَكَّرَتِ الْفُؤَادَ؛ فَهُمْ ظُلْمَةٌ مُسْتَحْكِمَةٌ]

وَرُبَّمَا رَأَيْتُ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَقْوَامًا يَبْذُلُوْنَ المَالَ لِيَكُوْنُوْا قُضَاةً أَوْ شُهُوْدًا، وَمَقْصُوْدُهُمْ الرِّفْعَةُ، ثُمَّ أَكْثَرُ الشُّهُوْدِ يَشْهَدُ عَلَىٰ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ، وَيَقُوْلُ: إِنَّهُ مَعْرُوْفٌ! وَيَدْرِي أَنَّهُ كَذَّابٌ! وَإِنَّمَا عُرِفَ لِأَجْلِ حَبَّةٍ يُعْطَاهَا. وَكَمْ قَدْ وَقَعَتْ شَهَادَةٌ عَلَىٰ غَيْرِ الْمَشْهُوْدِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ مُكْرُوهٍ![1].

وَإِنْ وَقَعَتِ الْمُخَالَطَةُ لِلْمُتَزَهِّدِيْنَ؛ فَأَكْثَرُهُم عَلَىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ، وَعَلَىٰ خِلَافِ العِلْمِ؛ قَدْ جَعَلُوْا لِأَنْفُسِهِم نَوَامِيْسَ[2]؛ فَلَا يَتَنَسَّمُوْنَ[3]، وَلَا يَخْرُجُوْنَ إِلَىٰ سُوْقٍ، وَيُظْهِرُوْنَ التَّخَشُّعَ الزَّائِدَ، وَكُلُّهُ نِفَاقٌ، وَفِيْهِم مَنْ يَلْبَسُ الصُّوْفَ تَحْتَ ثِيَابِهِ، وَرُبَّمَا لَوَّحَ بِكُمِّهِ لِيُرَىٰ!

وَقَدْ حُكِيَ عَنْ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ[4]: أَنَّهُ قَالَ لِبَعْضِ الْمُتَزَهِّدِيْنَ: مُذْ كَمْ قَدِمْتَ الْعِرَاقَ؟ قَالَ: دَخَلْتُهَا مُنْذُ عِشْرِيْنَ سَنَةً، وَأَنَا مُنْذُ ثَلَاثِيْنَ سَنَةً صَائِمٌ! قَالَ: سَأَلْنَاكَ مَسْأَلَةً، فَأَجَبْتَ عَنِ اثْنَتَيْنِ.

وَبَنَتِ الصُّوْفِيَّةُ أَرْبِطَةً[5]؛ فَهِيَ خَوَارِجُ عَلَىٰ المَسَاجِدِ، وَهِيَ دَكَاكِيْنُ كَرِيْهَةٌ؛ يَقْعُدُ فِيْهَا الكُسَالَىٰ عَنِ الْكَسْبِ[6] مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، وَيَتَعَرَّضُوْنَ بِالْقُعُوْدِ لِلصَّدَقَاتِ، وَلِأَحْوَالِ الظَّلَمَةِ، وَقَدْ أَرَاحُوْا أَنْفُسَهُم مِنْ إِعَادَةِ العِلْمِ، وَأَكْثَرُهُم لَا يُصَلِّي نَافِلَةً، وَلَا يَقُوْمُ اللَّيْلَ؛ بَلْ هَمُّهُم[7] المَأْكُوْلُ وَالْمَشْرُوْبُ وَالرَّقْصُ.

وَقَدْ اتَّخَذُوْا سُنَنًا تُخَالِفُ الشَّرِيْعَةَ؛ فَهُمْ يَلْبَسُوْنَ المُرَقَّعَ، لَا مِنْ فَقْرٍ، وَهَذَا قَبِيْحٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُم مِنْ أَمَارَاتِ الزُّهْدِ سِوَىٰ المَلْبَسِ الدُّوْنِ؛ فَثِيَابُهُم تَصِيْحُ: نَحْنُ زُهَّادٌ! وَبَاقِي

---

(١) جاء في الأصل:[مُكْرَهٍ]، ولعل ما أثبتناه هو الصواب؛ لتمام المعنىٰ به.

(٢) النَّاموس هو: القانون أو الشريعة. فكأنهم جعلوا لأنفسهم شريعة خاصة، وقانون خاص يسيرون عليه.

(٣) يَتَنَسَّمُوْنَ: تنسَّمَ، يتنسَّم، تنسُّمًا، فهو مُتنسِّم. والمقصود: أنهم لا يخرجون في الهواء الطلق للتنزه والتفريج عن النفس - يَتَنَسَّمُوْنَ - يتتبعون الروائح الطيِّبة التي تنسَّمتِ بها الرِّيحُ.

(٤) سبقت ترجمته في الخاطرة رقم:[١٥٢-١٣٩].

(٥) جاء في الأصل:[وبيوت الصوفية]، ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به. وَالأَرْبِطَة: مبنىٰ مُجهز موقُوف علىٰ الفقراء من الصّوفيّة وغيرهم، وتكثر الرِّباطات في المغرب العربيّ.

(٦) جاء في الأصل:[من الكسب]، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٧) جاء في الأصل:[يهمهم]، ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

أَفْعَالِهِم الْمَسْتُوْرَةِ تَفْضَحُهُم إِذَا اطُّلِعَ عَلَيْهَا!! فَالْمَطْبَخُ دَائِرٌ، وَالحَمَّامُ، وَالحَلْوَىٰ كَثِيْرَةٌ، وَالطِّيْبُ وَالدَّعَةُ[١] وَالْكِبْرُ حَاصِلٌ بِذَٰلِكَ الزِّيِّ!

وَقَد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ[٢] وَقَدْ رَآهُ أَشْعَثَ الهَيْئَةِ: «أَمَا لَكَ مَالٌ؟». قَالَ: بَلَىٰ، مِنْ كُلِّ المَالِ آتَانِي اللهُ ﷻ، قَالَ: «فَإِنَّ اللهَ ﷻ إِذَا أَنْعَمَ عَلَىٰ عَبْدٍ نِعْمَةً؛ أَحَبَّ أَنْ تُرَىٰ عَلَيْهِ»[٣].

وَمِنْ أَخْلاقِهِم تَنْفِيْرُ النَّاسِ عَنِ العِلْمِ، وَيَزْعُمُوْنَ أَلَّا حَاجَةَ إِلَىٰ الوَسَائِطِ، وَإِنَّمَا هُوَ قَلْبٌ وَرَبٌّ!

وَلَهُمْ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ الْمُنْكَرَاتِ مَا قَدْ ذَكَرْتُهُ فِي «تَلْبِيْسِ إِبْلِيْسِ»[٤].

أَوَلَوْ كَانَ لِهَٰذَا الزَّمَانِ عُمَرُ؛ لَاحْتَاجَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَىٰ مِئَةِ دِرَّةٍ[٥]، لا؛ بَلْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ السَّيْفَ فِي هَؤُلَاءِ الخَوَارِجِ، وَهُمْ دَاخِلَ البَلَدِ لَا قُدْرَةَ لِلْعُلَمَاءِ عَلَيْهِم؛ إِذْ قَوْلُهُم فِيْهِم لَا يُقْبَلُ.

فَمَنْ رَزَقَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ النَّظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ، وَوَفَّقَهُ لِلاقْتِدَاءِ بِهِم: [آثَرَ[٦]] أَنْ يَعْتَزِلَ عَنْ أَكْثَرِ الْخَلْقِ، وَلا يُخَالِطَهُم؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَالَطَهُمْ؛ أُوْذِيَ، وَمَنْ دَارَىٰ؛ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْمُدَاهَنَةِ[٧]؛ فَالنُّصْحُ اليَوْمَ مَرْدُوْدٌ.

---

(١) الدَّعَةُ: هِيَ الرَّاحَةُ وَخَفْضُ الْعَيْشِ.

(٢) مَالِكُ بْنُ نَضْلَةَ -أَوِ ابْنُ عَوْف- بْنُ نَضْلَةَ الْجُشَمِيُّ، أَبُو أَبِي الأَحْوَصِ الْجُشَمِيُّ، لَهُ صُحبَة روىٰ عَنهُ ابنه عَوف.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (١٥٨٩٢). والطحاوي «شرح مشكل الآثار» (٣٣٣٨). والهيثمي «موارد الظمآن» (١٤٣٥).

(٤) كِتَاب: «تَلْبِيْسِ إِبْلِيْسِ» لِأَبِي الفَرَجِ ابْنِ الجَوْزِيِّ. كِتَابٌ نَافِعٌ جِدًّا وَمُفِيدٌ لِمَن يُرِيدُ الآخِرَة. قَالَ فِيْهِ: وَقَدْ وَضَعْتُ هَٰذَا الْكِتَابَ مُحَذِّرًا مِنْ فِتْنَتِهِ وَمُخَوِّفًا مِنْ مِحْنَتِهِ وَكَاشِفًا عَنْ مَسْتُورِهِ وَفَاضِحًا لَهُ فِي خَفِيِّ غُرُورِهِ وَاللهُ الْمُعِينُ.

(٥) عُمَرُ بن الخَطَّاب سبقت ترجمته في الخاطرة رقم: [٦٥-٥٤]. دِرَّة: الجَمْع: دِرَات ودِرَر: سَوْطٌ يُضْرَبُ به.

(٦) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٧) قَوْلُهُ: وَمَنْ دَارَىٰ، من الْمُدَارَاة، وَالْمُدَارَاةُ مُلايَنَةُ النَّاسِ وَمُعَاشَرَتُهُمْ بِالْحُسْنَىٰ مِنْ غَيْرِ ثَلْمٍ فِي الدِّينِ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ، وَالإِغْضَاءُ عَنْ مُخَالَفَتِهِمْ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ. وَأَصْلُهَا «الْمُدَارَأَةُ» بِالْهَمْزِ، مِنَ الدَّرْءِ وَهُوَ الدَّفْعُ، وَالْمُدَارَاةُ مَشْرُوعَةٌ، فَهِيَ لِدَفْعِ الضَّرَرِ وَجَلْبِ النَّفْعِ. وَأَمَّا الْمُدَاهَنَةِ: فَقَال ابْنُ حِبَّانَ: مَتَىٰ مَا تَخَلَّقَ الْمَرْءُ بِخُلُقٍ يَشُوبُهُ بَعْضُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ فَتِلْكَ هِيَ الْمُدَاهَنَةُ، وَهِيَ لا تَحِل أَصْلاً؛ لأَنَّهَا اللِّينُ فِي الدِّينِ وَهُوَ مَمْنُوعٌ شَرْعًا.

*[١٧٧ - ٢٦٦] [خَاطِرَةٌ]:

[المُخَالَطَةُ تُوْرِثُ ظُلْمَةَ القَلْبِ]

كَانَ الْمُرِيْدُ فِي بِدَايَةِ الزَّمَانِ إِذَا أَظْلَمَ قَلْبُهُ أَوْ مَرِضَ لُبُّهُ(١)؛ قَصَدَ زِيَارَةَ بَعْضِ الصَّالِحِيْنَ، فَانْجَلَىٰ مَا أَظْلَمَ(٢).

وَمَتَىٰ حَصَلَتْ ذَرَّةٌ مِنَ الْصِّدْقِ لِمُرِيْدٍ، فَرَدَّتْهُ فِي بَيْتِ عُزْلِةٍ، وَوَجَدَ نَسِيْمًا مِنْ رَوْحِ الْعَافِيَةِ، وَنُوْرًا فِي بَاطِنِ قَلْبِهِ، وَكَادَ هَمُّهُ يَجْتَمِعُ وَشَتَاتُهُ يَنْتَظِمُ، فَخَرَجَ، فَلَقِيَ مَنْ يُوْمَأُ إِلَيْهِ(٣) بِعِلْمٍ أَوْ زُهْدٍ؛ رَأَىٰ عِنْدَهُ البَطَّالِيْنَ، يَجْرِي مَعَهُمْ فِي مَسْلَكِ الْهَذَيَانِ(٤)، الَّذِي لَا يَنْفَعُ، وَرَأَىٰ صُوْرَتَهُ صُوْرَةَ مُنَمِّسٍ(٥)، وَأَهْوَنُ مَا عَلَيْهِ تَضْيِيْعُ الأَوْقَاتِ فِي الحَدِيْثِ الفَارِغِ.

فَمَا يَرْجِعُ الْمُرِيْدُ عَنْ ذَلِكَ الوَطَنِ؛ إِلَّا وَقَدِ اكْتَسَبَ ظُلْمَةً فِي القَلْبِ، وَشَتَاتًا فِي العَزْمِ، وَغَفْلَةً عَنْ ذِكْرِ الآخِرَةِ، فَيَعُوْدُ مَرِيْضَ القَلْبِ، يَتْعَبُ فِي مُعَالَجَتِهِ أَيَّامًا كَثِيْرَةً، حَتَّىٰ يَعُوْدَ إِلَىٰ مَا كَانَ فِيْهِ، وَرُبَّمَا لَمْ يَعُدْ؛ لِأَنَّ الْمُرِيْدَ فِيْهِ ضَعْفٌ؛ فَإِذَا رَأَىٰ شَيْخًا قَدْ جَرَّبَ وَعَرَفَ، ثُمَّ يُؤْثِرُ البَطَالَةَ؛ لَمْ يَأْمَنْ أَنْ يَتْبَعَهُ الطَّبْعُ.

فَالأَوْلَىٰ لِلْمُرِيْدِ الْيَوْمَ أَلَّا يَزُوْرَ إِلَّا المَقَابِرَ، وَلَا يُفَاوِضَ إِلَّا الكُتُبَ، الَّتِي قَدْ حَوَتْ مَحَاسِنَ الْقَوْمِ، وَلْيَسْتَعِنْ بِاللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ التَّوْفِيْقِ لِمَرَاضِيْهِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ أَرَادَهُ؛ هَيَّأَهُ لِمَا يُرْضِيْهِ.

---

(١) لُبُّهُ؛ أي: عقله. تقول: لُبَّ الشَّخصُ؛ أي: صار ذا عقل، أدرك وميَّز.

(٢) صدق رحمه الله فيما قال؛ فها هو ابن القيم رحمه الله يحكي عن شيخه ابن تيمية رحمه الله فيقول: «وَكُنَّا إِذَا اشتَدَّ بِنَا الخَوْفُ، وَسَاءَت مِنَّا الظُّنُون، وَضَاقَت بِنَا الأَرض: أَتَيْنَاهُ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ نَرَاهُ، وَنَسْمَع كَلَامهُ، فَيَذْهَبُ ذَلِكَ كُلُّه، وَيَنْقَلِب انْشِرَاحًا وَقُوَّة وَيَقِينًا وَطَمَأْنِينَة»[يُراجع: «الوابل الصيب» لابن القيم.(ص٤٨/ الفائدة رقم:٣٤ من فوائد الذكر).

(٣) يُوْمَأُ إِلَيْهِ؛ أي: يُشارُ إليه.

(٤) الْهَذَيَانُ: هُوَ الهَذَرُ، الكَلَام الَّذي لا يُعْبَأُ بِهِ وَيَكْثُر فِيْهِ الخَطَأ وَالبَاطِل. وَقِيلَ: هُوَ سَقَطُ الكَلَام. وفي لغة الطب، هو: مرض عقليّ مؤقَّت يتميّز باختلاط أحوال الوعي واضطرابها.

(٥) المُنَمِّسِ: المُخادع والمُحتال والمُراوغ. والتَّنْمِيسُ التَّلْبِيس.

*[١٧٨ - ٣١٤] [خَاطِرَةٌ]:

[مِنْ حِيَلِ إبْلِيس مُخالَطَةُ مَنْ لا يَصْلُحُ]

مَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ أَذًىٰ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ مُخَالَطَةِ مَنْ لا يَصْلُحُ؛ فَإِنَّ الطَّبْعَ يَسْرِقُ؛ فَإِنْ لَمْ يَتَشَبَّهْ بِهِمْ، وَلَمْ يَسْرِقْ مِنْهُمْ؛ فَتَرَ عَنْ عَمَلِهِ[(١)].

فَإِنَّ رُؤْيَةَ الدُّنْيَا تَحُثُّ عَلَىٰ طَلَبِهَا؛ وَقَدْ رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ سِتْرًا عَلَىٰ بَابِهِ، فَهَتَكَهُ، وَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟!»[(٢)].

وَلَبِسَ ثَوْبًا لَهُ طِرَازٌ، فَرَمَاهُ، وَقَالَ: «شَغَلَتْنِي أَعْلامُهُ»[(٣)]، وَلَبِسَ خَاتَمًا، ثُمَّ رَمَاهُ، وَقَالَ: «نَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ، وَنَظْرَةٌ إِلَيْهِ»[(٤)].

---

(١) فَتَرَ يَفْتُرُ فُتُورًا؛ فَهُوَ فَاتِرٌ. فَتَرَت هِمَّتُهُ: سكنت بعد حدَّة ونشاط، ضعفت، خفَّت. وَفتر عن عمله؛ أي: قصَّر فيه.

(٢) * إِمَّا أَنْ تَكُوْنَ هَذِهِ جُمْلَةَ وَاحِدَة؛ فَتَكُون حَدِيثًا وَاحِدًا، وَهُوَ مَا رَوَاهُ النسائي في «السنن الكبرىٰ» كِتَابُ «عِشْرَةِ النِّسَاءِ» بَابُ «إِبَاحَةُ الرَّجُلِ اللَّعِبَ لِزَوْجَتِهِ بِالْبَنَاتِ»(٨٩٠١) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ غَزْوَةٍ، وَقَدْ نَصَبْتُ عَلَىٰ بَابِ حُجْرَتِي عَبَاءَةً، وَعَلَىٰ عُرْضِ بَيْتِهَا سِتْرٌ أَرْمَنِيٌّ، فَدَخَلَ الْبَيْتَ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ لِي: «يَا عَائِشَةُ، مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ فَهَتَكَ الْعُرْضَ حَتَّىٰ وَقَعَ الأَرْضَ ... » وَإِمَّا أَنْ تَكُوْنَ جُمْلَتَيْنِ، أَحَدُهُمَا: «وَقَدْ رَأَىٰ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ سِتْرًا عَلَىٰ بَابِهِ، فَهَتَكَهُ» فهذا حديث رواه أحمد في «المسند»(٢٤٧١٨). عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «جَعَلْتُ عَلَىٰ بَابِ بَيْتِي سِتْرًا فِيهِ تَصَاوِيرُ، فَلَمَّا أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيَدْخُلَ، نَظَرَ إِلَيْهِ، فَهَتَكَهُ» ورواه البخاري، كِتَابُ «المَظَالِمِ وَالغَصْبِ» بَابُ «هَلْ تُكْسَرُ الدِّنَانُ الَّتِي فِيهَا الخَمْرُ، أَوْ ...»(٢٤٧٩). عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّهَا كَانَتِ اتَّخَذَتْ عَلَىٰ سَهْوَةٍ لَهَا سِتْرًا فِيهِ تَمَاثِيلُ، فَهَتَكَهُ النَّبِيُّ ﷺ... ». وَأَمَّا الجُمْلَةُ الثَّانِيَة: «وَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟!» فرواه البخاري، كِتَابُ «الهِبَةِ» بَابُ «هَدِيَّةِ مَا يُكْرَهُ لُبْسُهَا»(٢٦١٣). عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: أَتَىٰ النَّبِيُّ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ، فَلَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهَا، وَجَاءَ عَلِيٌّ، فَذَكَرَتْ لَهُ ذَلِكَ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ عَلَىٰ بَابِهَا سِتْرًا مَوْشِيًّا»، فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا» فَأَتَاهَا عَلِيٌّ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهَا، فَقَالَتْ: لِيَأْمُرْنِي فِيهِ بِمَا شَاءَ، قَالَ: «تُرْسِلُ بِهِ إِلَىٰ فُلاَنٍ، أَهْلِ بَيْتٍ بِهِمْ حَاجَةٌ». قَالَ النَّوَوِيّ: اِسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ يُمْنَع مِنْ سَتْر الْحِيطَان وَتَنْجِيد الْبُيُوت بِالثِّيَابِ وَهُوَ مَنْع كَرَاهَة تَنْزِيه لَا تَحْرِيم.

(٣) رواه البخاري، كِتَابُ «الأَذَانِ» بَابُ «الِالْتِفَاتِ فِي الصَّلاَةِ» حديث (٧٥٢). عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّىٰ فِي خَمِيصَةٍ لَهَا أَعْلاَمٌ، فَقَالَ: «شَغَلَتْنِي أَعْلاَمُ هَذِهِ، اذْهَبُوا بِهَا إِلَىٰ أَبِي جَهْمٍ وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةٍ».

(٤) سبق تخريجه في الخاطرة رقم: [١٢-٣٦١] الهامش رقم: (١).

وَكَذَلِكَ رُؤْيَةُ أَرْبَابِ الدُّنْيَا، وَدُوْرِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، خُصُوْصًا لِمَنْ لَهُ نَفْسٌ تَطْلُبُ الرِّفْعَةَ.

وَكَذَا سَمَاعُ الأَغَانِي، وَمُخَالَطَةُ الصُّوْفِيَّةِ، الَّذِيْنَ لَا نَظَرَ لَهُمُ الْيَوْمَ إِلَّا فِي الرِّزْقِ الحَاصِلِ، لَوْ كَانَ مِنْ أَيِّ كَانَ؛ قَبِلُوْهُ، وَلا يَتَوَرَّعُوْنَ أَنْ يَأْخُذُوْا مِنْ ظَالِمٍ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ خَوْفٌ كَمَا كَانَ أَوَائِلُهُمْ.

فَقَدْ كَانَ سَرِيٌّ السَّقَطِيُّ يَبْكِي طُوْلَ اللَّيْلِ، وَكَانَ يُبَالِغُ فِي الوَرَعِ، وَهُمْ لَيْسَ لَهُمْ وَرَعُ سَرِيٍّ، وَلا لَهُمْ تَعَبُّدُ الْجُنَيْدِ[١].

وَإِنَّمَا ثَمَّ أَكْلٌ وَرَقْصٌ، وَبِطَالَةٌ، وَسَمَاعُ أَغَانٍ مِنَ الْمُرْدَانِ، حَتَّىٰ قَالَ بَعْضُ مَنْ يُعْتَبَرُ قَوْلُهُ[٢]: حَضَرْتُ مَعَ رَجُلٍ كَبِيْرٍ، يُوْمَأُ إِلَيْهِ مِنْ مَشَايِخِ الرُّبُطِ، وَمُغَنِّيهِم أَمْرَدُ[٣]، فَقَامَ الشَّيْخُ، وَنَقَّطَهُ بِدِيْنَارٍ عَلَىٰ خَدِّهِ[٤].

وَادَّعَاؤُهُمْ أَنَّ سَمَاعَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ يَدْعُوْ إِلَىٰ الآخِرَةِ فَوْقَ الْكَذِبِ[٥]! وَلَيْسَ الْعَجَبُ مِنْهُمْ؛ إِنَّمَا العَجَبُ مِنْ جُهَّالٍ يَنْفُقُوْنَ عَلَيْهِم[٦]، فَيُنْفِقُوْنَ عَلَيْهِم.

وَلَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْقُدَمَاءِ يَرَوْنَ أَوَائِلَ الْصُّوْفِيَّةِ يَتَعَبَّدُوْنَ، وَيَتَوَرَّعُوْنَ، فَيُعْجِبُهُمْ حَالُهُمْ، وَهُمْ مَعْذُوْرُوْنَ فِي إِعْجَابِهِمْ بِهِمْ.

وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُ القَوْمِ فِي تَعَبُّدِهِمْ عَلَىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ؛ كَمَا ذَكَرْتُ فِي كِتَابِي الْمُسَمَّىٰ بِـ«تَلْبِيْسِ إِبْلِيْس»؛ فَأَمَّا اليَوْمَ؛ فَقَدْ بَرِحَ الخَفَاءُ[٧]؛ أَحَدُهُمْ يَتَرَدَّدُ إِلَىٰ الظَّلَمَةِ، وَيَأْكُلُ

---

(١) ترجمة سري السقطي في:[١٢٨-١٣٢]. وَالجُنَيْدُ أَبُو القَاسِمِ بنُ مُحَمَّدٍ النَّهَاوَنْدِيُّ شَيْخُ الصُّوْفِيَّةِ. مَاتَ سَنَةَ:(٢٩٧هـ).

(٢) أي: له مكانة في العلم بين الناس تُوجِبُ قبول كلامه واتباعه.

(٣) أَمْرَدُ: شابٌّ طلع شاربُه ولم تنبت لحيتُه.

(٤) نقَّط هنا بمعنىٰ: قدّم إليه مالًا علىٰ سبيل الهدية وألصقه علىٰ خده كفعل المُجان في حفلاتهم اليوم.

(٥) أي: فاق هذا القول منزلة الكذب؛ فإمَّا هو البُهتان بعينه، أو أسوأ من ذلك.

(٦) يَنْفُقُوْنَ عَلَيْهِم؛ أي: يروج عليهم خداعهم ودجلهم وكذبهم؛ فَيُنْفِقُوْنَ عَلَيْهِم أموالهم.

(٧) بَرِحَ الخَفَاءُ؛ أي: بان وظهر ما كان مخفيًا مستورًا.

أَمْوَالَهُم، وَيُصَافِحُهُمْ بِقَمِيْصٍ لَيْسَ فِي طِرَازٌ(١)! وَهَذَا هُوَ التَّصَوُّفُ فَحَسْبُ!!

أَوَلا يَسْتَحِي مِنَ اللهِ مَنْ زَهِدَ رَفِيْعَ الأَثْوَابِ لِأَجْلِ الْخَلَائِقِ، لا لِأَجْلِ الْحَقِّ، وَلا يَزْهَدُ فِي مَطْعَمٍ، وَلا فِي شُبْهَةٍ؟! فَالْبُعْدُ عَنْ هَؤُلاءِ لازِمٌ.

وَيَنْبَغِي لِلْمُنْفَرِدِ لِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ عَنِ الْخَلْقِ أَلَّا يَخْرُجَ إِلَىٰ سُوْقٍ جَهْدَهُ؛ فَإِنْ خَرَجَ ضَرُوْرَةً؛ غَضَّ بَصَرَهُ، وَأَلَّا يَزُوْرَ صَاحِبَ مَنْصِبٍ، وَلا يَلْقَاهُ؛ فَإِنْ اضطُرَّ؛ دَارَىٰ الأَمْرَ، وَلا يُخَالِطَ عَامِيًّا إِلَّا لِضَرُوْرَةٍ مَعَ التَّحَرُّزِ، وَلا يَفْتَحَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَابَ التَّزَوُّجِ، بَلْ يَقْنَعَ بِامْرَأَةٍ فِيْهَا دِيْنٌ؛ فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

وَالْمَــــرْءُ مَـــا دَامَ ذَا عَــــيْنٍ يُقَلِّبُهَـــا ... فِي أَعْيُنِ الْعِيْنِ مَوْقُوْفٌ عَلَىٰ الخَطَرِ

يَسُــــرُّ مُقْلَتَـــهُ مَـــا ضَـــرَّ مُهْجَتَـــهُ ... لا مَرْحَبًـــا بِسُــــرُوْرٍ عَـــادَ بِالضَّـــرَرِ

فَإِنْ كَانَ يَغْلِبُ عَلَيْهِ العِلْمُ؛ انْفَرَدَ بِدِرَاسَتِهِ، وَاحْتَرَزَ مِنَ الأَتْبَاعِ المُتَعَلِّمِيْنَ، وَإِنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ العِبَادَةُ؛ زَادَ فِي احتِرَازِهِ! وَلْيَجْعَلْ خَلْوَتَهُ أَنِيْسَهُ، وَالنَّظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ جَلِيْسَهُ!

وَلْتَكُنْ لَهُ وَظِيْفَةٌ مِنْ زِيَارَةِ قُبُوْرِ الصَّالِحِيْنَ وَالخَلْوَةِ بِهَا! وَلا يَنْبَغِي أَنْ يَفُوْتَهُ وِرْدُ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَلْيَكُنْ بَعْدَ النِّصْفِ الأَوَّلِ؛ فَلْيُطِلْ مَهْمَا قَدَرَ؛ فَإِنَّهُ زَمَانٌ بَعِيْدُ المِثْلِ(٢)!

وَلْيُمَثِّلْ رَحِيْلَهُ عَنْ قُرْبٍ؛ لِيَقْصُرَ أَمَلُهُ! وَلْيَتَزَوَّدْ فِي الطَّرِيْقِ عَلَىٰ قَدْرِ طُوْلِ السَّفَرِ!

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً مِنْ فَضْلِهِ، وَإِقْبَالًا عَلَىٰ خِدْمَتِهِ، وَأَلَّا يَخْذِلَنَا بِالالتِفَاتِ عَنْهُ؛ إِنَّهُ قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ.

---

(١) الطِّراز: النمط والشكل.

(٢) أي: هذا الوقت الشريف - بعد منتصف الليل - ليس له مثيل.

*[١٧٩ - ٣٦٨] [خَاطِرَةٌ]:

[مِنْ حِيَلِ إِبْلِيسَ مُخَالَطَةِ الْمُبْتَدِعَةِ]

رَأَيْتُ إِبْلِيْسَ قَدِ احْتَالَ بِفُنُوْنِ الْحِيَلِ عَلَىٰ الخَلْقِ، وَأَمَالَ أَكْثَرَهُمْ عَنِ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ مِصْبَاحُ السَّالِكِ، فَتَرَكَهُم يَتَخَبَّطُوْنَ فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ، وَشَغَلَهُم بِأُمُوْرِ الْحِسِّ(١)، وَلا يَلْتَفِتُوْنَ إِلَىٰ مَشُوْرَةِ الْعَقْلِ.

فَإِذَا ضَاقَ بِأَحَدِهِم عَيْشُهُ، أَوْ نُكِبَ؛ اعْتَرَضَ فَكَفَرَ:

فَمَنْهُم مَنْ يَنْسِبُ ذَلِكَ إِلَىٰ الدَّهْرِ.

وَمِنْهُم مَنْ يَسُبُّ الدُّنْيَا! وَهَذَا تَسْفِيْفٌ(٢)؛ لِأَنَّ الدَّهْرَ وَالدُّنْيَا لا يَفْعَلانِ؛ وَإِنَّمَا هُوَ عَيْبٌ لِلْمُقَدِّرِ.

وَمِنْهُم مَنْ يُخْرِجُهُ الأَمْرُ إِلَىٰ جَحْدِ الْحِكْمَةِ، فَيَقُوْلُ: أَيُّ فَائِدَةٍ فِي نَقْضِ الْمَبْنَىٰ؟!

وَزَعَمَ بَعْضُهُم أَنَّهُ لا يُتَصَوَّرُ عَوْدُ الْمَنْقُوْضِ، وَأَنْكَرُوْا البَعْثَ، وَيَقُوْلُوْنَ: مَا جَاءَ مِنْ ثَمَّ أَحَدٌ! وَنَسُوْا أَنَّ الْوُجُوْدَ مَا انْتَهَىٰ بَعْدُ، وَلَوْ خَلَّفَنَا(٣)؛ لَصَارَ الإِيْمَانُ بِالْغَيْبِ عَيَانًا، وَلا يَصْلُحُ أَنْ يُسْتَدَلَّ(٤) عَلَىٰ الإِحْيَاءِ بِالأَحْيَاءِ.

ثُمَّ نَظَرَ إِبْلِيْسُ، فَرَأَىٰ فِي الْمُسْلِمِيْنَ قَوْمًا فِيْهِم فِطْنَةٌ، فَأَرَاهُمْ أَنَّ الْوُقُوْفَ عَلَىٰ ظَوَاهِرِ

---

(١) جاء في الأصل:[الحسن]، ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به. ومعنىٰ:[وَشَغَلَهُم بِأُمُوْرِ الْحِسِّ] أي: أَنَّ إِبْلِيْسَ جَعَلَهُم يُحَسِّنُوْنَ مَا يُحَسِّنُهُ الحِسُّ؛ حَتَّىٰ وَلَو خَالَفَ الشَّرعَ، وَلَا يَلْتَفِتُوْنَ إِلَىٰ مَشُوْرَةِ الْعَقْلِ.

(٢) جاء في الأصل:[تَسْقِيْفٌ]، ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به. ومعنىٰ: [تَسْفِيْفٌ]؛ إِمَّا أَنْ تَكُون مِنَ [السَّفْاف]، الرَّدِيءُ مِن كُلِّ شَيْءٍ والأَمْرُ الْحَقِيرُ. تَقُول: أَسَفَّ فِي حَدِيثِهِ؛ أي: هَبِطَ إِلَىٰ مُسْتَوىً مُتَدَنٍّ. أَوْ تَكُون مِنَ [السَّفَه] وَهِيَ الخِفَّةُ وَالطَّيْش، تَقُول: سَفُهَ الشَّخْصُ: جَهِل وَطَاش، خَفَّ عَقلُه، وَصَارَ سَفِيهًا.

(٣) جاء في الأصل:[حلفت]، ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به. ومعنىٰ: [خَلَّفَنَا]؛ أي: تركنا وأخَّرنا؛ فبعثنا جيلًا بعد جيل.

(٤) جاء في الأصل:[يدل]، ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

الشَّرِيْعَةِ حَالَةٌ يُشَارِكُهُمْ فِيهَا العَوَامُّ، فَحَسَّنَ لَهُمْ عُلُوْمَ الكَلَامِ، وَصَارُوا يَحْتَجُّوْنَ بِقَوْلِ بُقْرَاطَ وَجَالِيْنُوْسَ وَفِيْثَاغُوْرس[١]!!

وَهَؤُلَاءِ لَيْسُوْا بِمُتَشَرِّعِيْنَ، وَلا تَبِعُوْا نَبِيَّنَا ﷺ؛ وَإِنَّمَا قَالَوا بِمُقْتَضَىٰ مَا سَوَّلَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُم.

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ إِذَا نَشَأَ لِأَحَدِهِمْ وَلَدٌ؛ شَغَلُوْهُ بِحِفْظِ القُرْآنِ وَسَمَاعِ الْحَدِيْثِ، فَيَثْبُتُ الإِيْمَانُ فِي قَلْبِهِ.

فَقَدْ تَوَانَىٰ النَّاسُ عَنْ هَذَا، فَصَارَ الْوَلَدُ الفَطِنُ يَتَشَاغَلُ بِعُلُوْمِ الأَوَائِلِ، وَيَنْبُذُ أَحَادِيْثَ الرَّسُوْلِ ﷺ، وَيَقُوْلُ: أَخْبَارُ آ

حَادٍ[٢]! وَأَصْحَابُ الْحَدِيْثِ عِنْدَهُم يُسَمَّوْنَ: حَشْوِيَّةً!![٣].

وَيَعْتَقِدُ هَؤُلَاءِ أَنَّ الْعِلْمَ الدَّقِيْقَ عِلْمُ الطَّفْرَةِ وَالْهَيُوْلَىٰ، وَالْجُزْءِ الَّذِي لا يَتَجَزَّأُ[١].

---

(١) بُقْرَاط أو أبقراط أو بقرات أكثر أطباء اليونان تجديدًا وشهرة في زمانه. أهم مؤلفاته: «الفصول» وهو حِكم طبية موجزة، شرحها موفق الدين البغدادي. وَجَالِيْنُوْسَ ترجمته في: [٧٨-١٩٨]. وَفِيْثَاغُوْرس: من فلاسفة يونان وحكمائهم، أوَّل مَن تفلسف. وتعاليمه تدعو للطهارة بالصمت واختبار الذات والامتناع عن اللحوم وغير ذلك.

(٢) خبر الواحد: هو ما لم تجتمع فيه شروط المُتواتر فيشمل ما رواه واحد في طبقة أو في جميع الطبقات، وما رواه اثنان وما رواه ثلاثة فصاعدًا ما لم يصل إلىٰ عدد التواتر. والصحابة الكرام احتجوا بخبر الآحاد، وعملوا بمضمونه، وإنما توقفوا في قبول بعضه دَفْعًا للريبة، أو رغبة في اليقن، أو تَوَاصِيًا بالحيطة البالغة في رواية الحديث. ويفسر هذا قول عمر لأبي موسىٰ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَتَّهِمْكَ وَلَكِنَّهُ الحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»!. ولهذا قال الآمدي: «وَمَا رَدُّوهُ مِنَ الأَخْبَارِ أَوْ تَوَقَّفُوا فِيهِ إِنَّمَا كَانَ لأُمُورٍ اقْتَضَتْ ذَلِكَ مِنْ وُجُودِ مُعَارِضٍ أَوْ فَوَاتِ شَرْطٍ، لا لِعَدَمِ الاِحْتِجَاجِ بِهَا فِي جِنْسِهَا، مَعَ كَوْنِهِمْ مُتَّفِقِينَ عَلَىٰ العَمَلِ بِهَا» والجمهور علىٰ أن خبر الواحد الثقة حجة يلزم به العمل. حتىٰ قال ابن حزم: «إِنَّ خَبَرَ الوَاحِدِ العَدْلِ عَنْ مِثْلِهِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُوجِبُ العِلْمَ وَالعَمَلَ مَعًا».

(٣) الحَشْو مِنَ الْكَلَام: الفَضْل الَّذِي لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ هُوَ مِنَ النَّاسِ؛ فَحَشْوة النَّاس: رِذَالَتِهِم. وَأَوَّلُ مَنْ عُرِفَ أَنَّه تَكَلَّم بِهَذَا اللَّفْظ: عَمْرُو بن عُبَيْد رَئِيس المُعتَزِلَة؛ فَإِنَّهُ ذُكِرَ لَهُ عَنْ اِبْن عُمَر شَيء يُخَالِف قَوله، فَقَال: كَان اِبْن عُمَر حَشْوِيًا، وَهُم العَامَّة وَالجُمْهُور. وَقِيلَ: الْمُرَادُ طَائِفَةٌ لَا يَرَوْنَ الْبَحْثَ فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ الَّتِي يُتَعَذَّرُ إِجْرَاؤُهَا عَلَىٰ ظَاهِرِهَا، بَلْ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَرَادَهُ اللهُ مَعَ جَزْمِهِمْ بِأَنَّ الظَّاهِرَ غَيْرُ مُرَادٍ وَيُفَوِّضُونَ التَّأْوِيلَ إِلَىٰ اللهِ.

ثُمَّ يَتَصَاعَدُوْنَ إِلَىٰ الكَلَامِ فِي صِفَاتِ الْخَالِقِ، فَيَدْفَعُوْنَ مَا صَحَّ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ بِوَاقِعَاتِهِم.

فَيَقُوْلُ الْمُعْتَزِلَةُ: «إِنَّ اللهَ لَا يُرَىٰ؛ لِأَنَّ الْمَرْئِيَّ يَكُوْنُ فِي جِهَةٍ»، وَيُخَالِفُوْنَ قَوْلَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ، لا تُضَامُّوْنَ فِي رُؤْيَتِهِ»(٢)؛ فَأَوْجَبَ هَذَا الحَدِيْثُ إِيْثَارَ رُؤْيَتِهِ، وَإِنْ عَجَزْنَا عَنْ فَهْمِ كَيْفِيَّتِهَا(٣).

وَقَدْ عُزِلَ هَؤُلَاءِ الأَغْبِيَاءُ عَنِ التَّشَاغُلِ بِالْقُرْآنِ، وَقَالَوا: مَخْلُوْقٌ! فَزَالَتْ حُرْمَتُهُ مِنَ الْقُلُوْبِ.

وَعَنِ السُّنَّةِ، وَقَالَوا: أَخْبَارُهُ آحَادٌ! وَإِنَّمَا مَذَاهِبُهُم السَّرِقَةُ مِنْ بُقْرَاطَ وَجَالِيْنُوْسَ. وَقَدِ اسْتَفَادَ مَنْ تَبِعَ الفَلَاسِفَةَ أَنَّهُ يُرَفِّهُ نَفْسَهُ عَنْ تَعَبِ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ!

---

(١) الطَّفْرَةِ: الوثوب في ارتفاع. وَالطَّفْرَةِ: المرة الواحدة. وَعِلْمُ الطَّفْرَةِ: هو انقسام كل جزء لا إلىٰ نهاية؛ أي: أن أجزاء الجزء لا تتناهىٰ. وقيل: هو أن يقطع المُتحرك مَسَافَة بِحَيْثُ يثب ويطفر من مَكَان إِلَىٰ مَكَان من غير أن يُحَاذِي بالمسافة المتوسطة. -وهذا كلام مَن لا عقل له- أَمَّا الْهَيُولَىٰ: فهي مادة ليس لها شكل ولا صورة ثابتة وإنما هي قابلة؛ لأن تأخذ صورًا وأشكالًا مُختلفة. وَالْهَيُولَىٰ إذا أطلقت فإنه يعني طينة العالم أعني جسم الفلك الأعلىٰ وما يحويه من الأفلاك والكواكب.

(٢) رواه البخاري، كِتَابُ «مواقيت الصلاة» بَابُ «فضل صلاة العصر»(٥٥٤). وبَابُ «فضل صلاة الفجر»(٥٧٣). ومسلم، كِتَابُ «المساجد» بَابُ «فَضْلِ صَلاتَي الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا»(٦٣٣/ ١٤٣٢).

(٣) قال الإمام ابن أبي جمرة في «بهجة النفوس»(ج/١ ص٤٤١): «وَهُنَا بَعْضُ التَّنْبِيهَات: الأَوَّلُ: أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنَ الرُّؤْيَةِ التَّحدِيد وَلا الإِحَاطَة؛ لِأَنَّ بَعض مَخْلُوقَاتِهِ سُبْحَانَه نَرَاهَا وَنَعلَم بِالقَطعِ أَنَّهَا مَحدُودَة وَلَكِن لَا نُحِيط نَحنُ بِهَا، مِثْل السَّمَاء وَالأَرض، نَحنُ نُدرِك كُلّ وَاحِدَةٍ مِنهَا وَنُبْصِرُهَا وَلا نُحِيط بِهَا، وَنَحنُ نَعلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهَا مَحصُورَة مَحدُودَة، فَكَيْفَ بِمَنْ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]؟!. تَنْبِيهٌ ثَانٍ: وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ أَيضًا مِنَ الرُّؤْيَةِ الجِهَةِ لِأَنَّا نَرَىٰ مِنْ خَلْقِهِ كَثِيرًا وَلَيسَ هُم فِي جِهَةٍ مِثْل اللَّيل وَالنَّهَار، فَإِنَّا نُبصرهمَا وَلَيسَا فِي جِهَةٍ، فَكَيْفَ بِمَنْ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾؟!. تَنْبِيهٌ ثَالِث: وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنَ الرُّؤْيَة إِدرَاك جَمِيع الصِّفَات؛ فَإِنَّا نُبصِر مِنْ بَعض مَخلُوقَاتِهِ مَا نُبصِرُهُ وَلا نُدرِك مِنْهُ حَقِيقَة صِفَتِهِ مِثل الْمَاء، فَإِنَّا نُبصِره وَنَشرَبه وَلا نَعلَم لَهُ لَونًا؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا جُعِلَ فِي شَيءٍ يَكُون لَونُهُ ذَلِكَ الشَّيء، وَحَقِيقَة لَونه القَائِمَة بِهِ لا يُدرِكهَا أَحَدٌ وَلَم يَقدِر أَحَدٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ أَنْ يُخبِرَ عَنْهَا بِلَونٍ مَا، فَكَيْفَ بِمَنْ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾؟!. فَتَحَصَّل مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ تَحقِيق رُؤيَتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِلَا رَيبٍ مَعَ نَفْيِ الكَيفِيَّةِ بِلَا رَيبٍ أَيضًا»اهـ بتصرف يسير.

وَقَدْ كَانَ كِبَارُ الْعُلَمَاءِ يَذُمُّوْنَ عِلْمَ الْكَلَامِ، حَتَّىٰ قَالَ الشَّافِعِيُّ: «حُكْمِي فِيْهِم أَنْ يُرْكَبُوا عَلَىٰ الْبِغَالِ[١]، وَيُشَهَّرُوْا، وَيُقَالَ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَاشْتَغَلَ بِالكَلَامِ»[٢].

وَقَدْ آلَ بِهِمُ الأَمْرُ إِلَىٰ أَنِ اعْتَقَدُوْا أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ تَحْرِيْرَ دَلِيْلِ التَّوْحِيْدِ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ!!

فَاللهَ اللهَ مِنْ مُخَالَطَةِ الْمُبْتَدِعَةِ، وَعَلَيْكُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ تَرْشُدُوْا.

---

*[١٨٠-٩٣] [خَاطِرَةٌ]:

[الْمُخَالَطَة تُدِيْمُ المَرَض؛ لا سِيَّمَا لِلعُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ]

أَضَرُّ مَا عَلَىٰ المَرِيْضِ التَّخْلِيْطُ[٣]، وَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ مَرِيْضٌ بِالْهَوَىٰ، وَالْحِمْيَةُ عَنْهُ رَأْسُ الدَّوَاءِ، وَالتَّخْلِيْطُ يُدِيْمُ الْمَرَضَ.

وَتَخْلِيْطُ أَرْبَابِ الآخِرَةِ عَلَىٰ ضَرْبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: تَخْلِيْطُ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ إِمَّا لِمُخَالَطَةِ الأَضْدَادِ[٤] كَالسَّلَاطِيْنِ؛ فَإِنَّهُم يُضْعِفُوْنَ قُوَىٰ يَقِيْنِهِمْ، كُلَّمَا زَادَتِ الْمُخَالَطَةُ؛ وَيَتَرَحُوْنَ فِي دَلِيْلِهِمْ[٥] عِنْدَ الْمُرِيْدِيْنَ؛ فَإِنِّي إِذَا رَأَيْتُ

---

(١) جاء في الأصل: [البال]، ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به من كتاب: «تاريخ بغداد وذيوله».

(٢) يُنظر: «ذم الكلام» للهروي.(٤/ ٢٤٦/ ح٧٠٨)، «تاريخ بغداد»(ج٢٢/ ص١٤٥)، «الإحياء» للغزالي.(١/ ١٢٨/ ك: قواعد العقائد. الفصل:٢)، «البداية والنهاية» لابن كثير.(١٠/ ٢٦٥/ ت: الشافعي)، «الدر المنثور» للسيوطي.(٢/ ١٥١ / آل عمران:٧)، «السير» للذهبي.(٨/ ٣٨٧/ ت:الشافعي): «حُكْمِي فِي أَهْلِ الكَلَامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالجَرِيْدِ، وَيُحْمَلُوا عَلَىٰ الإِبِلِ -الْبِغَالِ-، وَيُطَافُ بِهِم فِي العَشَائِرِ، يُنَادَىٰ عَلَيْهِم: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ الكَلَامِ».

(٣) أَصْلُ الْخَلْطِ تَدَاخُلُ أَجْزَاءِ الأَشْيَاءِ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَىٰ عَدَمِ الحِمْيَةِ، وَهُوَ المَقْصُود هُنَا.

(٤) الأَضْدَادِ: الضِّدُّ كُلُّ شَيْءٍ ضَادَّ شَيْئًا لِيَغْلِبَهُ، وَالْمُتَضَادَّانِ اللَّذَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ كَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

(٥) جاء في الأصل: [ويقدمون دليلهم]، وما أثبتناه من مخطوط: (ي)؛ ترِحَ يَترَح، تَرَحًا، فهو تَرِح، تقول: تَرِحَ الشَّخصُ: أَصَابَهُ الهَمُّ، أو الحُزنُ. وإن كان أيضًا ما ثبت في الأصل يحتمل معنىً، وسأذكر المعنيين بعد.

طَبِيبًا يَخْلِطُ وَيَحْمِينِي؛ شَكَكْتُ أَوْ وَقَفْتُ[١].

وَالثَّانِي: تَخْلِيطُ الزُّهَّادِ، وَقَدْ يَكُوْنُ بِمُخَالَطَةِ أَرْبَابِ الدُّنْيَا، وَقَدْ يَكُوْنُ بِحِفْظِ النَّامُوْسِ فِي إِظْهَارِ التَّخَشُّعِ[٢]، لِاجْتِلَابِ مَحَبَّةِ الْعَوَامِّ.

فَاللهَ اللهَ؛ فَإِنَّ نَاقِدَ الْجَزَاءِ بَصِيرٌ، وَالإِخْلَاصُ فِي البَاطِنِ، وَالصِّدْقُ فِي القَلْبِ، وَنِعْمَ طَرِيْقُ السَّلَامَةِ سَتْرُ الْحَالِ.

* [١٨١ - ٢٩٩] [خَاطِرَةٌ]:

[التَّوَسُّط بَيْنَ الْعُزْلَة وَالْمُخَالَطَة]

لا رَيْبَ أَنَّ الْقَلْبَ الْمُؤْمِنَ بِالإِلَهِ سُبْحَانَهُ وَبِأَوَامِرِهِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ الانْعِكَافِ عَلَىٰ ذِكْرِهِ وَطَاعَتِهِ[٣] وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَهَذَا يَفْتَقِرُ إِلَىٰ جَمْعِ الهَمِّ.

وَكَفَىٰ بِمَا وُضِعَ فِي الطَّبْعِ مِنَ الْمُنَازَعَةِ إِلَىٰ الشَّهَوَاتِ مُشَتِّتًا لِلْهَمِّ الْمُجْتَمِعِ.

فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي جَمْعِ هَمِّهِ؛ لِيَنْفَرِدَ هَمُّهُ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَوَامِرِهِ، وَالتَّهَيُّؤِ لِلِقَائِهِ.

وَذَلِكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِقَطْعِ القَوَاطِعِ، وَالامْتِنَاعِ عَنِ الشَّوَاغِلِ، وَمَا يُمْكِنُ قَطْعُ القَوَاطِعِ جُمْلَةً؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَقْطَعَ مَا يُمْكِنُ.

---

(١) والمقصود: أنَّ العُلَمَاء الَّذين يُكثِرُونَ مِنَ التَّخْلِيط يُصَابُونَ بِضَعفِ اليَقِين، فَإِذَا مَا جَلَسُوا بَينَ مُرِيدِيهم يُظهِرُون لَهُم الْهَمّ وَالحُزْن فِيْمَا يُقَدِّمُونَهُ مِنَ الأَدِلَّةِ، مَعَ مَا كَانُوا فِيه عِندَ السَّلاطِين وَغَيرِهم؛ وَلِذَلِكَ قَد لَا يَتَأَثَّر بِأَقوَالِهم المُرِيدِين. ثُمَّ ضَرَبَ لَهُم مَثَلًا بِالطَّبِيْبِ الَّذِي يَمْنَعُ الْمَرِيض وَيَحْمِيْهِ مِنْ أَشْيَاءٍ وَفِي ذَاتِ الوَقْت يَفْعَلُهَا هُوَ؛ فَحِينَئِذٍ يَتَشَكَّكُ الْمَرِيض فِي صِدقِهِ أَو فِي عِلْمِهِ؛ فَلَا يُطِيعُهُ.

(٢) يَعني: قَد يَحفَظ بَعض الزُّهَّادِ الشَّرِيعَة، وَيَتَكَلَّف الخُضُوعَ وَالاستِكَانَةَ؛ لِطَلَبِ مَحَبَّةِ العَوَامِّ.

(٣) الانعِكَاف عَلَىٰ...؛ أي: لَازَمَهُ وَوَاظَبَهُ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَحَبَسَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ بِحَيْثُ لا يَصْرِفُ عَنْهُ وَجْهَهُ، وَمِنْهُ الاعْتِكَافُ.

وَمَا رَأَيْتُ مُشَتِّتًا لِلْهَمِّ، مُبَدِّدًا لِلْقَلْبِ مِثْلَ شَيْئَيْنِ:

أحدهما: أَنْ تُطَاعَ النَّفْسُ فِي طَلَبِ كُلِّ شَيْءٍ تَشْتَهِيْهِ، وَذَلِكَ لَا يُوْقَفُ عَلَىٰ حَدٍّ فِيْهِ، فَيَذْهَبُ الدِّيْنُ وَالدُّنْيَا، وَلَا يُنَالُ كُلُّ الْمُرَادِ؛ مِثْلُ أَنْ تَكُوْنَ الْهِمَّةُ فِي الْمُسْتَحْسَنَاتِ، أَوْ فِي جَمْعِ الْمَالِ، أَوْ فِي طَلَبِ الرِّئَاسَةِ، وَمَا يُشْبِهُ هَذِهِ الأَشْيَاءَ.

فَيَا لَهُ مِنْ شَتَاتٍ لا جَامِعَ لَهُ! يَذْهَبُ الْعُمُرُ، وَلا يُنَالُ بَعْضُ الْمُرَادِ مِنْهُ.

وَالثَّانِي: مُخَالَطَةُ النَّاسِ - خُصُوْصًا الْعَوَامَّ - وَالْمَشْيُ فِي الأَسْوَاقِ؛ فَإِنَّ الطَّبْعَ يَتَقَاضَىٰ الشَّهَوَاتِ[١]، وَيَنْسَىٰ الرَّحِيْلَ عَنِ الدُّنْيَا، وَيُحِبُّ الْكَسَلَ عَنِ الطَّاعَةِ وَالبَطَالَةَ وَالغَفْلَةَ وَالرَّاحَةَ، فَيَثْقُلُ عَلَىٰ مَنْ أَلِفَ مُخَالَطَةَ النَّاسِ التَّشَاغُلُ بِالعِلْمِ، أَوْ بِالعِبَادَةِ، وَلا يَزَالُ يُخَالِطُهُم حَتَّىٰ تَهُوْنَ عَلَيْهِ الغِيْبَةُ، وَتَضِيْعَ السَّاعَاتُ فِي غَيْرِ شَيْءٍ.

فَمَنْ أَرَادَ اجْتِمَاعَ هَمِّهِ؛ فَعَلَيْهِ بِالْعُزْلَةِ؛ بِحَيْثُ لَا يَسْمَعُ صَوْتَ أَحَدٍ؛ فَحِيْنَئِذٍ يَخْلُوْ الْقَلْبُ بِمَعَارِفِهِ، وَلَا تَجِدُ النَّفْسُ رَفِيْقًا مِثْلَ الهَوَىٰ يُذَكِّرُهَا مَا تَشْتَهِي.

فَإِذَا اضْطُرَّ إِلَىٰ الْمُخَالَطَةِ؛ كَانَ عَلَىٰ وِفَاقٍ؛ كَمَا تَتَهَوَّىٰ الضِّفْدَعُ لَحْظَةً، ثُمَّ تَعُوْدُ إِلَىٰ المَاءِ[٢].

فَهَذِهِ طَرِيْقُ السَّلامَةِ؛ فَتَأَمَّلْ فَوَائِدَهَا؛ تَطِبْ لَكَ.

---

(١) يَتَقَاضَىٰ الشَّهَوَاتِ؛ أي: يَطلُبُ أَوْ يَتَطَلَّب الشَّهَوَات.

(٢) يعني: فَإِذَا اضطُرَّ الإِنْسَان إِلَىٰ المُخَالَطَةِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُخَالِطَ مَنْ يُوَافِقهُ وَيُعِينُهُ فِي سَعيِهِ لِطَلَبِ طَاعَةِ اللهِ وَمَرضَاتِهِ، وَذَلِكَ أَيْضًا بِحدُودٍ وَعَلَىٰ قَدرِ الحَاجَة، وَلَا يُخَالِطُ مُتَّبِعًا لِهَواه أَوْ شَهوَته؛ فَيَكُون حَاله مَعَهُ كَحَالِ الضِّفْدَعِ تَعرِضُ نَفْسَهَا لِلْهَوَاءِ لَحظَةً ثُمَّ تَعُودُ إِلَىٰ المَاءِ.

(١٤)

[أحوالُ بعضِ الصُّوفيّةِ والزُّهّادِ، وبيانُ مداخلِ الآفاتِ]

*[١٨٢ - ١٩][خاطِرَةٌ]:

[أحوالُ بعضِ الصُّوفيّةِ والزُّهّادِ]

تَأَمَّلْتُ أَحْوَالَ الصُّوفِيَّةِ وَالزُّهَّادِ، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَهَا مُنْحَرِفًا عَنِ الشَّرِيعَةِ؛ بَيْنَ جَهْلٍ بِالشَّرْعِ، وَابْتِدَاعٍ بِالرَّأْيِ؛ يَسْتَدِلُّونَ بِآيَاتٍ لَا يَفْهَمُونَ مَعْنَاهَا، وَبِأَحَادِيثَ لَهَا أَسْبَابٌ، وَجُمْهُورُهَا لا يَثْبُتُ[1].

فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ سَمِعُوا فِي الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥﴾[آل عمران:١٨٥]، ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾[الحديد:٢٠].

ثُمَّ سَمِعُوا فِي الحَدِيثِ: «لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ شَاةٍ مَيِّتَةٍ عَلَى أَهْلِهَا»[2].

فَبَالَغُوا فِي هَجْرِهَا مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ عَنْ حَقِيقَتِهَا!

وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا لَمْ يُعْرَفْ حَقِيقَةُ الشَّيْءِ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُمْدَحَ وَلا أَنْ يُذَمَّ.

فَإِذَا بَحَثْنَا عَنِ الدُّنْيَا؛ رَأَيْنَا هَذِهِ الأَرْضَ البَسِيطَةَ، الَّتِي جُعِلَتْ قَرَارًا لِلْخَلْقِ:

تَخْرُجُ مِنْهَا أَقْوَاتُهُمْ، وَيُدْفَنُ فِيهَا أَمْوَاتُهُمْ. وَمِثْلُ هَذَا لا يُذَمُّ لِمَوْضِعِ المَصْلَحَةِ فِيهِ.

وَرَأَيْنَا مَا عَلَيْهَا مِنْ مَاءٍ وَزَرْعٍ وَحَيَوَانٍ؛ كُلُّهُ لِمَصَالِحِ الآدَمِيِّ، وَفِيهِ حِفْظٌ لِسَبَبِ بَقَائِهِ.

وَرَأَيْنَا بَقَاءَ الآدَمِيِّ سَبَبًا لِمَعْرِفَةِ رَبِّهِ، وَطَاعَتِهِ إِيَّاهُ وَخِدْمَتِهِ.

---

(١) أي: أَنَّ أَكْثَرَ هَذِهِ الأَحَادِيثِ لا تَصِح.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد»(٩٦٢). ومسلم، كِتَابُ «الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ»(٢٩٥٧). عَنْ جَابِرٍ ﷺ. وابن أبي شيبة في «مصنفه» كِتَابُ «الزُّهْدِ» بَابُ «ما ذكر عن نبينا ﷺ في الزهد»(٣٥٥٣٠). عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ. والترمذي في «جامعه» كِتَابُ «الزُّهْدِ» بَابُ « مَا جَاءَ فِي هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللهِ ﷻ»(٢٣٢١) عَنِ المُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ ﷺ.

وَمَا كَانَ سَبَبًا لِيَقَاءِ العَارِفِ العَابِدِ يُمْدَحُ وَلا يُذَمُّ.

فَبَانَ لَنَا أَنَّ الذَّمَّ إِنَّمَا هُوَ لِأَفْعَالِ الْجَاهِلِ، أَوِ الْعَاصِي فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهُ إِذَا اقْتَنَىٰ الْمَالَ الْمُبَاحَ، وَأَدَّىٰ زَكَاتَهُ؛ لَمْ يُلَمْ:

فَقَدْ عُلِمَ مَا خَلَّفَ الزُّبَيْرُ وَابْنُ عَوْفٍ وَغَيْرُهُمَا[1].

وَبَلَغَتْ صَدَقَةُ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَرْبَعِينَ أَلْفًا[2].

وَخَلَّفَ ابْنُ مَسْعُوْدٍ تِسْعِينَ أَلْفًا[3].

وَكَانَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ يَسْتَغِلُّ كُلَّ سَنَةٍ عِشْرِيْنَ أَلْفًا[4].

وَكَانَ سُفْيَانُ يَتَّجِرُ بِمَالٍ[5].

وَكَانَ ابْنُ مَهْدِيٍّ يَسْتَغِلُّ كُلَّ سَنَةٍ أَلْفَيْ دِيْنَارٍ[6].

وَإِنْ أَكْثَرَ مِنَ النِّكَاحِ وَالسَّرَارِيِّ؛ كَانَ مَمْدُوْحًا لا مَلُومًا:

---

(١) الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ بنِ خُوَيْلِدِ بنِ أَسَدِ بنِ عَبْدِ العُزَّىٰ حَوَارِيُّ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَابْنُ عَمَّتِهِ صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَحَدُ العَشَرَةِ المَشْهُوْدِ لَهُم بِالجَنَّةِ، أَبُو عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه أَسْلَمَ وَهُوَ حَدَثٌ. قُتِلَ سَنَةَ:(٣٦هـ). اقْتُسِمَ مَالُ الزُّبَيْرِ عَلَىٰ أَرْبَعِينَ أَلْفِ أَلْفٍ. وَابْنُ عَوْفٍ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفِ بنِ عَبْدِ عَوْفٍ الزُّهْرِيُّ، أَبُو مُحَمَّدٍ. أَحَدُ العَشَرَةِ، وَأَحَدُ السَّابِقِيْنَ البَدْرِيِّيْنَ. مَاتَ سَنَةَ(٣٢هـ). كَثُرَ مَالُهُ وَتَصَدَّقَ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ بِشَطْرِ مَالِهِ. وَقُسِمَ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ مَائَةُ أَلْفٍ. أَوْ ثَلاثَ مَائَةِ أَلْفٍ وَعِشْرِيْنَ أَلْفًا. فَهَذَا هُوَ الغَنِيُّ الشَّاكِرُ.

(٢) ترجمة عليّ رضي الله عنه في:[٢٦-٢٠١]. وعَنْ صَدَقَاتِهِ رضي الله عنه يُنظر:«تاريخ المدينة» لابن شبة.(١/ ٢١٩ :٢٣١).

(٣) عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُوْدِ بنِ غَافِلٍ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مِنَ السَّابِقِيْنَ الأَوَّلِيْنَ، وَمَنَاقِبُهُ غَزِيْرَةٌ. مَاتَ سَنَةَ:(٣٢أو٣٣هـ).

(٤) يَسْتَغِلُّ: يَسْتَثْمِر كُلَّ سَنَةٍ عِشْرِيْنَ أَلْفًا، اسْتَغَلَّ يَسْتَغِلُّ. وَقَد تَكُونُ مِنَ الغَلَّةِ وَهِيَ كُلُّ شَيْءٍ يَحْصُلُ مِنْ رَيْعِ الأَرْضِ أَوْ أُجْرَتِهَا. جاء في الأصل:[يشتغل]، وهو تصحيف، وما أثبتناه من مخطوط:(ي)،و«وفيات الأعيان»(ج٤/ ص١٣٠). وَاللَّيْثُ بنُ سَعْدِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، شَيْخُ الإِسْلامِ، وَعَالِمُ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ، مَاتَ:(١٧٥هـ).

(٥) ترجمة سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ في:[١٤-١١٨]. وخبره في «السير» للذهبي. وفيه:«مَاتَ سُفْيَانُ وَلَهُ مائَةُ دِيْنَارٍ بِضَاعَةً».

(٦) ابْنُ مَهْدِيٍّ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مَهْدِيِّ بنِ حَسَّانٍ اللُّؤْلُؤِيُّ، الإِمَامُ، النَّاقِدُ، سَيِّدُ لحُفَّاظِ، أَبُو سَعِيْدٍ. مات سنة:(١٩٨هـ).

فَقَدْ كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ زَوْجَاتٌ وَسَرَارِيُّ.

وَجُمْهُوْرُ الصَّحَابَةِ كَانُوْا عَلَىٰ الإِكْثَارِ فِي ذَلِكَ.

وَكَانَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه أَرْبَعُ حَرَائِرَ، وَسَبْعَ عَشَرَةَ أَمَةً، وَتَزَوَّجَ وَلَدُهُ الْحَسَنُ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِ مِئَةٍ(١).

فَإِنْ طَلَبَ التَّزَوُّجَ لِلأَوْلادِ؛ فَهُوَ الْغَايَةُ فِي التَّعَبُّدِ، وَإِنْ أَرَادَ التَّلَذُّذَ؛ فَمُبَاحٌ، يَنْدَرِجُ فِيْهِ مِنَ التَّعَبُّدِ مَا لَا يُحْصَىٰ؛ مِنْ إِعْفَافِ نَفْسِهِ وَالْمَرْأَةِ ... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَدْ أَنْفَقَ مُوْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عُمُرِهِ الشَّرِيْفِ عَشْرَ سِنِيْنَ فِي مَهْرِ ابْنَةِ شُعَيْبٍ(٢).

فَلَوْلا أَنَّ النِّكَاحَ مِنْ أَفْضَلِ الأَشْيَاءِ؛ لَمَا ذَهَبَ كَثِيْرٌ مِنْ زَمَانِ الأَنْبِيَاءِ فِيْهِ.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «خِيَارُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً»(٣)، وَكَانَ يَطَأُ جَارِيَةً لَهُ، وَيُنْزِلُ فِي أُخْرَىٰ.

---

(١) أَزْوَاجُ عَلِيٍّ رضي الله عنه؛ فَتَقَدَّمَ فِي الخَاطِرَة: [١٧٠-٨٢] * وَأَمَّا الْحَسَنُ؛ فَقَد لَامَهُ أَبُوهُ عَلَىٰ هَذَا الفِعلِ، بَل أَوصَىٰ النَّاسَ أَلَّا يُزَوِّجُوهُ؛ كما في «السير» للذهبي. (ج٤ / ص٣٦٢): «قَالَ المَدَائِنِيُّ: أَحصَنَ الحَسَنُ تِسْعِيْنَ امْرَأَةً. وَعَنْ جَعْفَرِ بنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيْهِ: قَالَ عَلِيٌّ: مَا زَالَ حَسَنٌ يَتَزَوَّجُ وَيُطَلِّقُ حَتَّىٰ خَشِيْتُ أَنْ يَكُوْنَ يُورِثُنَا عَدَاوَةً فِي القَبَائِلِ، يَا أَهْلَ الكُوْفَةِ! لاَ تُزَوِّجُوهُ، فَإِنَّهُ مِطْلاَقٌ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ: وَاللهِ لَنُزَوِّجَنَّهُ، فَمَا رَضِيَ أَمْسَكَ، وَمَا كَرِهَ طَلَّقَ».

(٢) يُشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]. روىٰ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «سَأَلْتُ جِبْرِيلَ: أَيَّ الأَجَلَيْنِ قَضَىٰ مُوسَىٰ؟ قَالَ: أَتَمَّهُمَا - وَأَوْفَاهُمَا - وَأَكْمَلَهُمَا».

(٣) ترجمة ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما في: [١٦٣-٣٥١]. والأثر رواه البخاري، كِتَابُ «النِّكَاحِ» بَابُ «كَثْرَةِ النِّسَاءِ» (٥٠٦٩). عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: هَلْ تَزَوَّجْتَ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: «فَتَزَوَّجْ فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً» (خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ) أفضلها؛ يعني: النبيّ الأكرم ﷺ. (أَكْثَرُهَا نِسَاءً)؛ يعني: مَن كان عنده نساء أكثر مِن غيره، وسياق الكلام يدل علىٰ أن المُراد بالنساء الزوجات وهذه الأفضلية إذا تساوت مع غيرها في باقي الفضائل.

وَقَالَتْ سُرِّيَّةُ(١) الرَّبِيْعِ بْنِ خُثَيْمٍ: كَانَ الرَّبِيْعُ يَعْزِلُ(٢).

وَأَمَّا الْمَطْعَمُ؛ فَالْمُرَادُ مِنْهُ تَقْوِيَةُ هَذَا الْبَدَنِ لِخِدْمَةِ اللهِ ﷻ، وَحَقٌّ عَلَىٰ ذِي النَّاقَةِ أَنْ يُكْرِمَهَا لِتَحْمِلَهُ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْكُلُ مَا وَجَدَ؛ فَإِنْ وَجَدَ اللَّحْمَ أَكَلَهُ، وَيَأْكُلُ لَحْمَ الدَّجَاجِ، وَأَحَبُّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ الْحَلْوَىٰ وَالْعَسَلُ، وَمَا نُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ امْتَنَعَ مِنْ مُبَاحٍ(٣).

وَجِيْءَ عَلِيٌّ رضي الله عنه بِفَالُوْذَجٍ، فَأَكَلَ مِنْهُ، وَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوْا: يَوْمُ النَّوْرُوْزِ. فَقَالَ: «نَوْرِزُوْنَا كُلَّ يَوْمٍ»(٤).

وَإِنَّمَا يُكْرَهُ الْأَكْلُ فَوْقَ الشِّبَعِ، وَاللُّبْسُ عَلَىٰ وَجْهِ الاخْتِيَالِ وَالْبَطَرِ(٥).

---

(١) السرية الأمة التي يقتنيها سيدها ليتمتع بها وهي فُعْلِيَّة منسوبة إلىٰ السِّر وهو الجماع والإخفاء؛ لأن الإنسان كثيرًا ما يَسُرُّها ويَسْتُرُها عن حرته. والجمع السَّرارِي.

(٢) تقدمت ترجمة الرَّبِيْعِ بْنِ خُثَيْمٍ رحمه الله في الخاطرة:[١٦٥-٤٠]. وَالْعَزْلُ لُغَةً: التَّنْحِيَةُ، وَفِي الاِصْطِلاَحِ: عَزْلُ الرَّجُلِ الْمَاءَ عَنْ جَارِيَتِهِ إِذَا جَامَعَهَا لِئَلاَّ تَحْمِلَ.

(٣) يُراجع الخاطرة:[٢٧-١٧١]. وروىٰ أحمد في «المسند»(٨٣٥٩). وأبو داود، كِتَابُ «الأَطْعِمَةِ»(١٨٣٧). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ الذِّرَاعَ». والبخاري، كِتَابُ «الذَّبَائِحِ»(٥٥١٧). عَنْ أَبِي مُوسَىٰ قَالَ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَأْكُلُ دَجَاجًا» وكِتَابُ «الأَطْعِمَةِ»(٥٤٣١). عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ الْحَلْوَاءَ وَالْعَسَلَ».

(٤) الفَالُوْذَجِ: فارسي معرب؛ حلواء تعمل من الدقيق والعسل والماء. ونَوْرُوز، أَو نَيْروز: فارسي معرب؛ أي اليوم الجديد، وهو عيد رأس السنة عند الفرس. والأثر رواه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» كِتَابُ «الْجِزْيَةِ» بَابُ «كَرَاهِيَةِ الدُّخُولِ عَلَىٰ أَهْلِ الذِّمَّةِ...»(١٨٨٦٥). عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، قَالَ: أُتِيَ عَلِيٌّ رضي الله عنه بِهَدِيَّةِ النَّيْرُوزِ فَقَالَ: مَا هَذِهِ؟ قَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا يَوْمُ النَّيْرُوزِ، قَالَ: «فَاصْنَعُوا كُلَّ يَوْمٍ فَيْرُوزَ». قَالَ أَبُو أُسَامَةَ: كَرِهَ أَنْ يَقُولَ نَيْرُوزَ. قَالَ الشَّيْخُ -البيهقي-: وَفِي هَذَا كَالْكَرَاهَةِ لِتَخْصِيصِ يَوْمٍ بِذَلِكَ لَمْ يَجْعَلْهُ الشَّرْعُ مَخْصُوصًا بِهِ.

(٥) كَأَنَّهُ رحمه الله يُشير إلىٰ ما رواه ابن ماجة في «سننه» كِتَابُ «الأَطْعِمَةِ» بَابُ «الِاقْتِصَادِ فِي الْأَكْلِ، وَكَرَاهَةِ الشِّبَعِ» (٣٣٥٠). عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: تَجَشَّأَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «كُفَّ جُشَاءَكَ عَنَّا، فَإِنَّ أَطْوَلَكُمْ جُوعًا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَكْثَرُكُمْ شِبَعًا فِي دَارِ الدُّنْيَا» وما رواه الطبراني في «الكبير»(١١٦٩٣). عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الشِّبَعِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْجُوعِ فِي الْآخِرَةِ غَدًا» وما رواه أحمد في «المسند»(٦٦٩٥)، والنسائي في «المجتبىٰ» كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ «الاخْتِيَالُ فِي الصَّدَقَةِ»(٢٥٥٩). والحاكم في «المستدرك» (٧١٨٨). عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ =

وَقَدِ اقْتَنَعَ أَقْوَامٌ بِالدُّوْنِ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْحَلَالَ الصَّافِي لَا يَكَادُ يُمْكِنُ فِيْهِ تَحْصِيْلُ الْمُرَادِ؛ وَإِلَّا؛ فَقَدْ لَبِسَ النَّبِيُّ ﷺ حُلَّةً اشْتُرِيَتْ لَهُ بِسَبْعَةٍ وَعِشْرِيْنَ بَعِيْرًا(١).

وَكَانَ لِتَمِيْمٍ الدَّارِيِّ حُلَّةٌ اشْتُرِيَتْ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ يُصَلِّي فِيْهَا بِاللَّيْلِ(٢).

فَجَاءَ أَقْوَامٌ، فَأَظْهَرُوا التَّزَهُّدَ، وَابْتَكَرُوا طَرِيْقَةً زَيَّنَهَا لَهُمُ الهَوَىٰ، ثُمَّ تَطَلَّبُوا لَهَا الدَّلِيْلَ.

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَّبِعَ الدَّلِيْلَ، لا أَنْ يَتَّبِعَ طَرِيْقًا، وَيَتَطَلَّبَ دَلِيْلَهَا(٣)!

ثُمَّ انْقَسَمُوْا: فَمِنْهُم مُتَصَنِّعٌ فِي الظَّاهِرِ، لَيْثُ الشَّرَىٰ فِي البَاطِنِ(٤)، يَتَنَاوَلُ فِي خَلَوَاتِهِ الشَّهَوَاتِ، وَيَنْعَكِفُ عَلَىٰ اللَّذَّاتِ، وَيُرِي النَّاسَ بِزِيِّهِ أَنَّهُ مُتَصَوِّفٌ مُتَزَهِّدٌ، وَمَا تَزَهَّدَ إِلَّا القَمِيْصُ، وَإِذَا نُظِرَ إِلَىٰ أَحْوَالِهِ؛ فَعِنْدَهُ كِبْرُ فِرْعَوْنَ.

= رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كُلُوا، وَتَصَدَّقُوا، وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ، وَلَا مَخِيلَةٍ» وَالْمَخِيلَةِ والاخْتِيَالِ: التجبر وَالْكبر واحتقار النَّاس. وَالْبَطَرِ: الطغيان عِنْد النِّعْمَة. وحاصل المعنىٰ: أنه أباح الأكل، واللبس، والتصدق، إذا لم يُتَجَاوَز بها الحدُّ المشروع، وهو معنىٰ الإسراف، وخلا ذلك عن الخيلاء، وإلَّا حرم الجميع.

(١) تنبيه: إذا علمت أن قيمة البعير الشرائية التقريبية في هذه الحقبة كانت تساوي: (٨٠) درهمًا، كما في «سنن أبي داود» (٤٥٤٢): «كَانَتْ قِيمَةُ الدِّيَةِ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: ثَمَانَ مِائَةِ دِينَارٍ أَوْ ثَمَانِيَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ»؛ فإذا ضربنا هذا السعر: (٨٠) درهمًا، في العدد الذي ذكره ابن الجوزي: (٢٧) بعيرًا فسيكون الناتج: (٢١٦٠)؛ فبهذا يتضح أن ما ذكره ابن الجوزي هنا من قوله: «فَقَدْ لَبِسَ النَّبِيُّ ﷺ حُلَّةً اشْتُرِيَتْ لَهُ بِسَبْعَةٍ وَعِشْرِيْنَ بَعِيْرًا» كَأَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ يُشير به إلىٰ حَدِيْثِ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: لَبِسَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا قَبَاءً مِنْ دِيبَاجٍ أُهْدِيَ لَهُ، ثُمَّ أَوْشَكَ أَنْ نَزَعَهُ، فَأَرْسَلَ بِهِ إِلَىٰ عُمَرَ، فَقِيلَ لَهُ: قَدْ أَوْشَكَ مَا نَزَعْتَهُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «نَهَانِي عَنْهُ جِبْرِيلُ»، فَجَاءَهُ عُمَرُ يَبْكِي، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَرِهْتَ أَمْرًا، وَأَعْطَيْتَنِيهِ فَمَا لِي؟ قَالَ: «إِنِّي لَمْ أُعْطِكَهُ لِتَلْبَسَهُ، إِنَّمَا أَعْطَيْتُكَهُ تَبِيعُهُ»، فَبَاعَهُ بِأَلْفَيْ دِرْهَمٍ. رواه مسلم (٢٠٧٠).

(٢) تَمِيْمٌ الدَّارِيُّ أَبُو رُقَيَّةَ بنُ أَوْسِ بنِ خَارِجَةَ، صَاحِبُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وَحَدَّثَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ المِنْبَرِ بِقِصَّةِ الجَسَّاسَةِ فِي أَمْرِ الدَّجَّالِ، وَكَانَ عَابِدًا. مَاتَ سَنَةَ: (٤٠هـ). وَالأثر في «السير» للذهبي، وفي «الكبير» للطبراني. (١٢٤٨)

(٣) يُراجع كلام الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ في الخاطرة رقم: [١٤٦ - ١٥٣]، «الْوَاجِبُ عَلَىٰ العَاقِلِ أَنْ يَتَّبِعَ الدَّلِيْلَ».

(٤) الشَّرَىٰ: موضعٌ بتهامة تكثُر فيه الأُسْد، أشدّاءُ شجعان. وفيه تشبيه بديع.

وَمِنْهُمْ سَلِيْمُ البَاطِنِ؛ إِلَّا أَنَّهُ فِي الشَّرْعِ جَاهِلٌ.

وَمِنْهُمْ مَنْ تَصَدَّرَ، وَصَنَّفَ، فَاقْتَدَىٰ بِهِ الجَاهِلُوْنَ فِي هَذِهِ الطَّرِيْقَةِ، وَكَانُوا كَعُمْيٍ اتَّبَعُوْا أَعْمَىٰ، وَلَوْ أَنَّهُمْ تَلَمَّحُوْا لِلأَمْرِ الأَوَّلِ، الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُوْلُ ﷺ وَالصَّحَابَةُ ﷺ؛ لَمَا زَلُّوا[(١)].

وَلَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ لا يُبَالُونَ بِمُعَظَّمٍ فِي النُّفُوسِ إِذَا حَادَ عَنِ الشَّرِيعَةِ، بَلْ يُوسِعُونَهُ لَوْمًا.

فَنُقِلَ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ الْمَرُّوذِيُّ[(٢)]: مَا تَقُولُ فِي النِّكَاحِ؟ فَقَالَ: «سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ» فَقَالَ: فَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ[(٣)] قَالَ: فَصَاحَ بِي، وَقَالَ: «جِئْتَنَا بِبُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ؟»[(٤)].

وَقِيلَ لَهُ: إِنَّ سَرِيًّا السَّقَطِيَّ[(٥)] قَالَ: لَمَّا خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الْحُرُوفَ، وَقَفَ الأَلِفُ، وَسَجَدَتِ الْبَاءُ.. فَقَالَ: «نَفِّرُوا النَّاسَ عَنْهُ».

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُحَقِّقَ لا يَهُولُهُ اسْمُ مُعَظَّمٍ، كَمَا قَالَ رَجُلٌ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: أَتَظُنُّ أَنَّا نَظُنُّ أَنَّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ كَانَا عَلَىٰ الْبَاطِلِ؟ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ الْحَقَّ لا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ، اعْرِفِ الْحَقَّ، تَعْرِفْ أَهْلَهُ»[(٦)].

---

(١) جاء في الأصل: [زَاغُوْا]، وما أثبتناه من مخطوط: (ي).

(٢) تقدمت ترجمة: أحمد بن حنبل ﷺ في الخاطرة: [٢٤-١٧٩]، وأبو بكر المروذي ﷺ في الخاطرة: [١٢٨-٣٦٢].

(٣) تقدمت ترجمة: إبراهيم بن أدهم ﷺ في الخاطرة رقم: [١٢٨-٣٦٢].

(٤) بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ: هي الطُّرُقُ الصِغار تتشعب من الجادَّةِ، وهي التُّرَّهاتُ.

(٥) تقدمت ترجمة: سري بن المغلس السقطي ﷺ في الخاطرة رقم: [١٢٨-٣٦٢].

(٦) ترجمة: عليّ ﷺ في: [٣٦-٢٠١]. والزُّبير ﷺ في: [١٨١-١٩]. وَطَلْحَةَ بن عُبَيْدِ اللهِ بنِ عُثْمَانَ بنِ عَمْرٍو القُرَشِيُّ، التَّيْمِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ. أَحَدُ العَشَرَةِ المَشْهُوْدِ لَهُم بِالجَنَّةِ، قُتِلَ يَوْمَ الجَمَلِ وَالأثر أورده الجاحظ في «البيان والتبيين»(ج٣/ ص١٤٤). والآبي في «نثر الدر»(ج١/ ص١٨٦) وفيهما: «وَقَامَ إِلَيْهِ الْحَارِث بن حوط اللَّيْثِيّ وَهُوَ علىٰ الْمِنبَر فَقَالَ: أتظن أَنَّا نظن أن طَلْحَة وَالزُّبَيْر كَانَا علىٰ ضلال؟ فَقَالَ: يَا حَار؛ إِنَّك ملبوسٌ عَلَيْك؛ إِنَّ الْحَقَّ لَا يُعرَف بِالرِّجَالِ، فَاعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ » والقرطبي في «تفسيره»: البقرة: ٤٢) فقال: «وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَىٰ قَوْلُ عَلِيٍّ ﷺ لِلْحَارِثِ بْنِ حَوْطٍ يَا حَارِثُ إِنَّهُ مَلْبُوسٌ عَلَيْكَ، إِنَّ الْحَقَّ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ، اعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ».

وَلَعَمْرِي، إِنَّهُ قَدْ وَقَرَ فِي النُّفُوسِ تَعْظِيمُ أَقْوَامٍ، فَإِذَا نُقِلَ عَنْهُمْ شَيْءٌ، فَسَمِعَهُ جَاهِلٌ بِالشَّرْعِ، قَبِلَهُ، لِتَعْظِيمِهِمْ فِي نَفْسِهِ.

كَمَا يُنْقَلُ عَنْ أَبِي يَزِيدَ(١) ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «تَرَاعَنَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، فَحَلَفْتُ لا أَشْرَبُ الْمَاءَ سَنَةً»(٢).

وَهَذَا إِذَا صَحَّ عَنْهُ، كَانَ خَطأً قَبِيحًا، وَزَلَّةً فَاحِشَةً؛ لِأَنَّ الْمَاءَ يُنْفِذُ الْأَغْذِيَةَ إِلَىٰ الْبَدَنِ، وَلَا يَقُومُ مَقَامَهُ شَيْءٌ؛ فَإِذَا لَمْ يَشْرَبْ، فَقَدْ سَعَىٰ فِي أَذَىٰ بَدَنِهِ، وَقَدْ كَانَ يُسْتَعْذَبُ الْمَاءُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ»(٣).

أَفَتَرَىٰ هَذَا فِعْلَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ نَفْسَهُ لَيْسَتْ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّصَرُّفُ فِيهَا إِلَّا عَنْ إِذْنِ مَالِكِهِ؟!

وَكَذَلِكَ يَنْقُلُونَ عَنْ بَعْضِ الصُّوفِيَّةِ: أَنَّهُ قَالَ: «سِرْتُ إِلَىٰ مَكَّةَ عَلَىٰ طَرِيقِ التَّوَكُّلِ حَافِيًا، فَكَانَتِ الشَّوْكَةُ تَدْخُلُ فِي رِجْلِي، فَأَحُكُّهَا بِالْأَرْضِ، وَلَا أَرْفَعُهَا، وَكَانَ عَلَيَّ مِسْحٌ(٤)، فَكَانَتْ عَيْنِي إِذَا آلَمَتْنِي، أُدَلِّكُهَا بِالْمِسْحِ، فَذَهَبَتْ إِحْدَىٰ عَيْنَيَّ».

وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ، وَرُبَّمَا حَمَلَهَا الْقُصَّاصُ عَلَىٰ الْكَرَامَاتِ، وَعَظَّمُوهَا عِنْدَ الْعَوَامِّ، فَيُخَايَلُ لَهُمْ أَنَّ فَاعِلَ هَذَا أَعْلَىٰ مَرْتَبَةً مِنَ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ(٥).

وَلَعَمْرِي، إِنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ، وَأَقْبَحِ الْعُيُوبِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[النساء: ٢٩]، وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا». وَقَدْ طَلَبَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فِي طَرِيقِ الْهِجْرَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ ظِلًّا، حَتَّىٰ رَأَىٰ صَخْرَةً، فَفَرَشَ لَهُ فِي ظِلِّهَا(٦).

---

(١) تقدمت ترجمة: أبو يزيد البسطامي ﷺ في الخاطرة:[٨٤-٣٨].

(٢) تَرَاعَنَتْ عَلَيَّ نَفْسِي؛ أَيْ: تَطَاوَلَتْ وَتَمَرَّدَتْ وَهَاجَتْ وَشَرِدَتْ مِنِّي وَلَم تُطَاوِعني فِي فِعْلِ بَعضِ الطَّاعَاتِ، أَوْ أَنَّهَا تَطَلَّعَت إِلَىٰ مَا لَا يَرضَاهُ لَهَا؛ فَحَلَفَ لَا يَشْرَبُ الْمَاءَ البَارِدَ سَنَةً، لَا أَنَّهُ قَصَدَ مُطلَقَ المَاءِ؛ فَهَذَا لَا يَجُوزُ شَرعًا.

(٣) تقدَّم التعليق على هذا في الخاطرة رقم:[٣٦-٩٦]و[٣٧-١٧١].

(٤) المِسْحُ: ثوب غليظ خشن من الصوف أو من الشعر عادة، وهو شِعار الرُّهبان.

(٥) تقدمت ترجمة: أَحْمَد ﷺ في الخاطرة:[٢٤-١٧٩]، وَالشَّافِعِيّ ﷺ في الخاطرة:[٤٧-٦١].

(٦) تقدم تخريج الحديث وفعل أبي بكر ﷺ في الخاطرة رقم:[١٤٧ - ١٥٢].

وَقَدْ نُقِلَ عَنْ قُدَمَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ بِدَايَاتُ هَذَا التَّفْرِيطِ، وَكَانَ سَبَبُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الْجَهْلُ بِالْعِلْمِ. وَالثَّانِي: قُرْبُ الْعَهْدِ بِالرَّهْبَانِيَّةِ.

وَقَدْ كَانَ الْحَسَنُ يَعِيبُ فَرْقَدًا السَّبْخِيَّ وَمَالِكَ بْنَ دِينَارٍ[1] فِي زُهْدِهِمَا، فَرُئِيَ عِنْدَهُ طَعَامٌ فِيهِ لَحْمٌ، فَقَالَ: «لا رَغِيفَيْ مَالِكٍ، وَلا صَحْنَيْ فَرْقَدٍ»[2].

وَرَأَى عَلَى فَرْقَدٍ كِسَاءً فَقَالَ: «يَا فَرْقَدُ! إِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ أَصْحَابُ الأَكْسِيَةِ»[3].

وَكَمْ قَدْ زَوَّقَ قَاصٌّ مَجْلِسَهُ بِذِكْرِ أَقْوَامٍ خَرَجُوا إِلَى السِّيَاحَةِ بِلَا زَادٍ وَلَا مَاءٍ، وَهُوَ لا يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا مِنْ أَقْبَحِ الأَفْعَالِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُجَرَّبُ عَلَيْهِ، فَرُبَمَا سَمِعَهُ جَاهِلٌ مِنَ التَّائِبِينَ، فَخَرَجَ، فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ، فَصَارَ لِلْقَائِلِ نَصِيبٌ مِنْ إِثْمِهِ!!

وَكَمْ يَرْوُونَ عَنْ ذِي النُّونِ: أَنَّهُ لَقِيَ امْرَأَةً فِي السِّيَاحَةِ؛ فَكَلَّمَهَا وَكَلَّمَتْهُ[4]، وَيَنْسَوْنَ الأَحَادِيثَ الصِّحَاحَ: «لا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ أَنْ تُسَافِرَ يَوْمًا وَلَيْلَةً إِلَّا بِمَحْرَمٍ»[5]!!

وَكَمْ يَنْقُلُونَ أَنَّ أَقْوَامًا مَشَوْا عَلَى الْمَاءِ[6].

---

(١) ترجمة الحَسَن البَصرِي في: [٥٩-٨٧]، وَمَالِك بْن دِينَار في: [١٢٣-٢٥]، وَفَرْقَدًا السَّبْخِيَّ فَابْن يَعْقُوب، أَحَد زُهَّاد البَصرَة. غَيْرُ مُحْتَجٍّ بِحدِيثِهِ وَتَفَرُّدِهِ، مَاتَ سَنَةَ: (١٣١هـ). وجاء في الأصل: [السنجي] ولعله تصحيف.

(٢) وَكَأَنَّ الْحَسَن لَا يَتَقَشَّف تَقَشفهمَا. يُنظر الْخَبَر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد. (ج٧/ ص١٢٥/ ترجمة الْحَسَن)، «التاريخ الكبير» للبخاري. (ج٧/ ص٢٢٨/ كُلثُوم بْن مُحَمد بْن أَبي سِدرَة).

(٣) يُنظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم. (ج٢/ ص١٥٦). وفيه: «بَلَغَنِي أَنَّ عَامَّةَ أَهْلِ النَّارِ أَصْحَابُ الأَكْسِيَةِ».

(٤) ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ ثَوْبَانُ بنُ إِبْرَاهِيمَ، شَيْخُ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ، أَبُو الفَيْضِ، كَانَ عَالِمًا، حَكِيمًا. وَكَانَ أَبُوهُ نُوبِيًّا، مَاتَ سَنَةَ: (٢٤٥هـ). وَحَدِيثُهُ مَعَ المَرْأَةِ فِي السِّيَاحَةِ أوردها أبو نعيم في «الحلية». (ج٩/ ص٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٨، ٣٥٤).

(٥) رواه مسلم، كِتَابُ «الْحَجِّ» بَابُ «سَفَرِ الْمَرْأَةِ مَعَ مَحْرَمٍ» (١٣٣٩). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ أَنْ تُسَافِرَ ثَلَاثًا إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ مِنْهَا» وابن خزيمة، كِتَابُ «الْمَنَاسِكِ» بَابُ «الزَّجْرِ عَنْ سَفَرِ الْمَرْأَةِ يَوْمًا وَلَيْلَةً إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ» (٢٥٢٣): «لا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ تُسَافِرَ يَوْمًا وَلَيْلَةً إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ».

(٦) قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله: «وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ لَمْ يُتَّبَعْ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَمَنْ رَأَى مِنْ رَجُلٍ مُكَاشَفَةً أَوْ تَأْثِيرًا فَاتَّبَعَهُ فِي خِلَافِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَانَ مِنْ جِنْسِ أَتْبَاعِ الدَّجَّالِ فَإِنَّ الدَّجَّالَ يَقُولُ لِلسَّمَاءِ: أَمْطِرِي فَتُمْطِرُ وَيَقُولُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي فَتُنْبِتُ وَيَقُولُ لِلْخَرِبَةِ =

وَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ[(١)]: «لا يَصِحُّ أَنَّ أَحَدًا مَشَىٰ عَلَىٰ الْمَاءِ قَطُّ»! فَإِذَا سَمِعُوا هَذَا، قَالُوا: أَتُنْكِرُونَ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِينَ؟!.

فَنَقُولُ: لَسْنَا مِنَ الْمُنْكِرِينَ لَهَا، بَلْ نَتَّبِعُ مَا صَحَّ، وَالصَّالِحُونَ هُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّرْعَ، وَلا يَتَعَبَّدُونَ بِآرَائِهِمْ. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ»[(٢)].

وَكَمْ يَحُثُّونَ عَلَىٰ الْفَقْرِ، حَتَّىٰ حَمَلُوا أَقْوَامًا عَلَىٰ إِخْرَاجِ أَمْوَالِهِمْ، ثُمَّ آلَ بِهِمُ الْأَمْرُ: إِمَّا إِلَىٰ التَّسَخُّطِ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَإِمَّا إِلَىٰ التَّعَرُّضِ بِسُؤَالِ النَّاسِ!

وَكَمْ تَأَذَّىٰ مُسْلِمٌ بِأَمْرِهِمُ النَّاسَ بِالتَّقَلُّلِ! وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ثُلُثٌ طَعَامٌ، وَثُلُثٌ شَرَابٌ، وثُلُثٌ نَفَسٌ»[(٣)]، فَمَا قَنَعُوا حَتَّىٰ أُمِرُوا بِالْمُبَالَغَةِ فِي التَّقَلُّلِ.

فَحَكَىٰ أَبُو طَالِبٍ الْمَكِّيُّ[(٤)] فِي «قُوتِ الْقُلُوبِ»: «أَنَّ فِيهِمْ مَنْ كَانَ يَزِنُ قُوَّتَهُ بِكَرَبَةٍ رَطْبَةٍ[(٥)]، فَفِي كُلِّ لَيْلَةٍ يَذْهَبُ مِنْ رُطُوبَتِهَا قَلِيلٌ»[(٦)].

= أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فَيَخْرُجُ مَعَهُ كُنُوزُ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَيَقْتُلُ رَجُلًا ثُمَّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَقُومَ فَيَقُومُ وَهُوَ مَعَ هَذَا كَافِرٌ مَلْعُونٌ عَدُوٌّ لِلَّهِ. - وَقَد قَالَ ﷺ: «يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ كَذَّابُونَ دَجَّالُونَ يُحَدِّثُونَكُمْ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ» وَهَؤُلَاءِ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ الشَّيَاطِينُ وَتُوحِي إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ۝٢٢٣﴾ [الشعراء]، وَمَنْ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ الأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ وَالأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ : كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ سَوَّى بَيْنَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبَيْنَ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ؛ فَإِنَّ مُسَيْلِمَةَ كَانَ لَهُ شَيْطَانٌ يَنْزِلُ عَلَيْهِ وَيُوحِي إِلَيْهِ...»[يُراجع: «مجموع الفتاوى»(ج٦/ ص١٠٨)]

(١) إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بنُ إِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيمَ، كَانَ رَأْسًا فِي الزُّهْدِ، مَاتَ سَنَةَ: (٢٨٥هـ).

(٢) رواه ابن جرير في «تفسيره»(ج١/ ص٤٧٨/ البقرة:٦٩) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «لَوْ أَخَذُوا أَدْنَىٰ بَقَرَةٍ اكْتَفَوْا بِهَا، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ» وقال ابن كثير في «تفسيره»(ج١/ ص٢٥١): «إِسْنَادٌ صَحِيحٌ». وأورده الجصاص في «أحكام القرآن»(ج٢/ ص٢٧٩/ البقرة: ٢٨٦) فقال: «وَرُوِيَ عَنْهُ: «أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَدَّدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ»».

(٣) رواه الترمذي في «جامعه» كِتَابُ «الزُّهْدِ» بَابُ «مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ كَثْرَةِ الأَكْلِ» حديث (٢٣٨٠).

(٤) تقدمت ترجمته في الخاطرة: [١٢٨-٣٦٢].

(٥) الكَرَب: وتُسَمَّىٰ: كرانيفُ؛ أصول تبقىٰ في جذع النخلة بعد قطع السَّعَف - ورق النَّخل اليابس - ويُؤكل الطري.

(٦) يُنظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي. (فصل:٣٩/ ترتيب الأقوات). وراجع كلام ابن الجوزي في: [١٢٨-٣٦٢].

وَكُنْتُ أَنَا[(١)] مِمَّنِ اقْتَدَىٰ بِقَوْلِهِ فِي الصِّبَا، فَضَاقَ الْمَعِيُّ[(٢)]، وَأَوْجَبَ ذَلِكَ مَرَضَ سِنِينَ!

أَفَتَرَىٰ هَذَا شَيْئًا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ، أَوْ نَدَبَ إِلَيْهِ الشَّرْعُ؟!

وَإِنَّمَا مَطِيَّةُ الآدَمِيِّ قُوَاهُ؛ فَإِذَا سَعَىٰ فِي تَقْلِيلِهَا، ضَعُفَ عَنِ الْعِبَادَةِ[(٣)] [[(٤)]].

فَإِنَّا لَوْ دَخَلْنَا دِيَارَ الرُّومِ، فَوَجَدْنَا أَثْمَانَ الْخُمُورِ، وَأُجْرَةَ الْفُجُورِ، كَانَ لَنَا حَلالًا بِوَصْفِهِ الْغَنِيمَةَ.

أَفَتُرِيدُ حَلالًا عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّ الْحَبَّةَ مِنَ الذَّهَبِ لَمْ تَنْتَقِلْ مُنْذُ خَرَجَتْ مِنَ الْمَعْدِنِ[(٥)] عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يَجُوزُ؟ فَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يَنْظُرْ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

أَوَ لَيْسَ قَدْ سَمِعْتَ أَنَّ الصَّدَقَةَ عَلَيْهِ حَرَامٌ، فَلَمَّا تَصَدَّقَ عَلَىٰ بَرِيرَةَ بِلَحْمٍ، فَأَهْدَتْهُ؛ جَازَ لَهُ أَكْلُ تِلْكَ الْعَيْنِ لِتَغَيُّرِ الْوَصْفِ[(٦)].

---

(١) يعني نفسه - ابن الجوزي - رحمه الله.

(٢) الْمَعِيُّ: جمعها: أمعاء؛ وهي: ما ينتقل إليه الطَّعام بعد المعدة، وهو المصارين.

(٣) مَطِيَّة: الجمع: مطيَّات ومَطايَا ومَطِيّ. وَهِيَ: مَا يُرْكب ويمتطىٰ كالبعير والنَّاقة؛ فكأنه جعل قوة الإنسان البدنية والتي تتمثل في محافظته علىٰ الطعام والشراب كما وردت في السنة، هي الوسيلة والتي يستعان بها علىٰ العبادة. يَقُولُ الإِمَامُ مُحَمَّد الخَادِمِي فِي «بَرِيقَةٌ مَحْمُودِيَّةٌ»(ج١/ ص١٤٠): «الْمَطِيَّةُ: دَابَّةٌ تَمْطُو؛ أَيْ: تُسْرِعُ فِي سَيْرِهَا؛ لِأَنَّ بَقَاءَ الْوُجُودِ بِهَا، وَأَنْتَ تَحْمِلُ الطَّاعَةَ عَلَيْهَا وَهِيَ عَامِلَةٌ لَك فِي مَصَالِحِك الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ فَيَجِبُ عَلَيْك رِعَايَتُهَا وَصِيَانَتُهَا بِمَا يُقَوِّيهَا، فَإِنْ لَمْ تُرَاعِ خَرِبَ الْبَدَنُ وَفَسَدَ عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يَحِلُّ بِهِ رُوحُهُ فَتَهْلَكَ؛ فَارْفُقْ بِهَا: بِقَضَاءِ حَوَائِجِهَا وَبِمُحَافَظَةِ مَا يُوجِبُ اسْتِمْرَارَهَا عَلَىٰ قَدْرِ حَاجَتِهَا لَا عَلَىٰ قَدْرِ وَرَاءِ حَاجَتِهَا، وَلَيْسَ مِنْ الرِّفْقِ أَنْ تُجِيعَهَا وَتُذِيبَهَا عَلَىٰ وَجْهٍ يُؤَدِّي إِلَىٰ هَلَاكِهَا لَا مُطْلَقَ الْإِجَاعَةِ، وَإِنْ كَانَ أَصْلُ الْجُوعِ مَمْدُوحٌ وَإِدَامَةَ الشِّبَعِ مَذْمُومَةٌ؛ فَالْمُرَادُ التَّوَسُّطُ وَالِاقْتِصَادُ؛ لِأَنَّ تَرْكَ الْعِبَادَاتِ لَا يَجُوزُ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا» اهـ بتصرف.

(٤) هنا زيادة في طبعة دار الأرقم، أحببتُ أن أضعها هنا في الهامش؛ لأهميتها، وهي: «وَلا تَقُولَنَّ: الْحُصُولُ عَلَىٰ الْحَلالِ الْمَحْضِ مُسْتَحِيلٌ؛ لِذَلِكَ وَجَبَ الزُّهْدُ، تَجَنُّبًا لِلشُّبُهَاتِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ حَسْبُهُ أَنْ يَتَحَرَّىٰ فِي كَسْبِهِ هُوَ الْحَلالَ، وَلا عَلَيْهِ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي نَبَتَتْ مِنْهَا هَذِهِ الأَمْوَالُ».

(٥) خَرَجَتْ مِنَ الْمَعْدِنِ؛ أَي: مِنَ الْمَنجَم. وَالْمَعْدِنَ: كُل مَا خَرَجَ مِنَ الأَرضِ مِمَّا يُخْلَقُ فِيهَا مِنْ غَيْرِ جِنْسِهَا مِمَّا لَهُ قِيمَةٌ وَيُحْتَاجُ فِي إِخْرَاجِهِ إِلَىٰ اسْتِنْبَاطٍ؛ فَالْمَعَادِنُ هِيَ الَّتِي تُسْتَنْبَطُ، لَيْسَ هُوَ شَيْءٌ دُفِنَ.

(٦) بَرِيرَةُ مَوْلاةُ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِين ﵄ فكاتبتها واعتقت وَكَانَ زَوجهَا عبدا فَخَيرهَا النَّبِي ﷺ. والحديث رواه البخاري، =

وَقَدْ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «أَكْرَهُ التَّقَلُّلَ مِنَ الطَّعَامِ، فَإِنَّ أَقْوَامًا فَعَلُوهُ، فَعَجِزُوا عَنِ الْفَرَائِضِ»[(١)].

وَهَذَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ الْمُتَقَلِّلَ لا يَزَالُ يَتَقَلَّلُ إِلَىٰ أَنْ يَعْجَزَ عَنِ النَّوَافِلِ، ثُمَّ الْفَرَائِضِ، ثُمَّ يَعْجَزَ عَنْ مُبَاشَرَةِ أَهْلِهِ وَإِعْفَافِهِمْ، وَعَنْ بَذْلِ الْقُوَىٰ فِي الْكَسْبِ لَهُمْ، وَعَنْ فِعْلِ خَيْرٍ قَدْ كَانَ يَفْعَلُهُ.

وَلا يَهُولَنَّكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنَ الأَحَادِيثِ الَّتِي تَحُثُّ عَلَىٰ الْجُوعِ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهَا: إِمَّا الْحَثُّ عَلَىٰ الصَّوْمِ، وَإِمَّا النَّهْيُ عَنْ مُقَاوَمَةِ الشِّبَعِ[(٢)]، فَأَمَّا تَنْقِيصُ الْمَطْعَمِ عَلَىٰ الدَّوَامِ، فَمُؤَثِّرٌ فِي الْقُوَىٰ فَلا يَجُوزُ.

ثُمَّ فِي هَؤُلاءِ الْمَذْمُومِينَ مَنْ يَرَىٰ هَجْرَ اللَّحْمِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ يَوَدُّ أَنْ يَأْكُلَهُ كُلَّ يَوْمٍ[(٣)].

وَاسْمَعْ مِنِّي بِلا مُحَابَاةٍ: لا تَحْتَجَّنَّ عَلَيَّ بِأَسْمَاءِ الرِّجَالِ، فَتَقُولَ: قَدْ قَالَ بِشْرٌ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ[(٤)]؛ فَإِنَّ مَنِ احْتَجَّ بِالرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَقْوَىٰ حُجَّةً.

عَلَىٰ أَنَّ لِأَفْعَالِ أُولَئِكَ وُجُوهًا تَحْمِلُهَا عَلَيْهِمْ بِحُسْنِ الظَّنِّ:

= كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ «إِذَا تَحَوَّلَتِ الصَّدَقَةُ» (١٤٩٥). ومسلم، كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ «إِبَاحَةِ الْهَدِيَّةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ» (١٠٧٤). عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِلَحْمٍ تُصُدِّقَ بِهِ عَلَىٰ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: «هُوَ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ، وَهُوَ لَنَا هَدِيَّةٌ».

(١) قال الإمام محمد الخادمي في «بَرِيقَةٌ مَحْمُودِيَّةٌ» (ج١/ ص١٤٠): «قَالَ فِي «الاِخْتِيَارِ شَرْحِ الْمُخْتَارِ»: «لا تَجُوزُ الرِّيَاضَةُ بِتَقْلِيلِ الأَكْلِ حَتَّىٰ يَضْعُفَ عَنْ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ؛ لِأَنَّهُ يَرْتَكِبُ إِلَىٰ مَنْفَعَةٍ قَلِيلَةٍ مُؤَدِّيَةٍ إِلَىٰ مَضَرَّةٍ كَثِيرَةٍ؛ فَإِنَّ الرِّيَاضَةَ، أَيْ: تَعْلِيمَ النَّفْسِ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ غَايَتُهَا دَرْكُ فَضِيلَةٍ مَنْدُوبَةٍ؛ فَلَوْ بُولِغَتْ إِلَىٰ أَنْ تَضْعُفَ الْقُوَىٰ وَيَطْرَأَ عَدَمُ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ قِيَامِ الصَّلَاةِ مَثَلًا لَأَدَّتْ إِلَىٰ تَعْطِيلِ ذَلِكَ الْفَرْضِ، وَأَمَّا تَجْوِيعُ النَّفْسِ عَلَىٰ وَجْهٍ لا يُعْجِزُ وَلَا يُضْعِفُ عَنْ أَدَاءِ الْعِبَادَاتِ فَأَمْرٌ اسْتِحْبَابِيٌّ يَقْوَىٰ بِهِ عَلَىٰ الطَّاعَةِ» اهـ.

(٢) يعني: إِنَّمَا النَّهْيُ عَنِ الأَكْلِ فَوْقَ الشِّبَعِ.

(٣) ورد هذا في حديث أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (ج٧/ ح١٦٠٦/ ص١٢٨-١٣٠)، وابن بشران في «أماليه» (ج٢/ ح١٦٣٦) وفيه: «مَهْلًا يَا عُثْمَانُ، فَإِنِّي أُحِبُّ اللَّحْمَ وَآكُلُهُ إِذَا وَجَدْتُهُ، وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَنْ يُطْعِمَنِيهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَأَطْعَمَنِيهِ». وفيه: القاسم بن عبد الله العمري: كذَّبه أحمد بن حنبل، ويحيىٰ بن معين.

(٤) تقدمت ترجمة بِشْرٌ الْحَافِي رحمه الله في الخاطرة: [٢٤-١٧٩]، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ رحمه الله في الخاطرة: [١٢٨-٣٦٢].

وَلَقَدْ ذَاكَرْتُ بَعْضَ مَشَايِخِنَا مَا يُرْوَىٰ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّادَاتِ أَنَّهُمْ دَفَنُوا كُتُبَهُمْ! فَقُلْتُ لَهُ: مَا وَجْهُ هَذَا؟ فَقَالَ: أَحْسَنُ مَا تَقُولُ أَنْ تَسْكُتَ!

يُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّ هَذَا جَهْلٌ مِنْ فَاعِلِهِ، وَتَأَوَّلْتُ أَنَا لَهُمْ، فَقُلْتُ: لَعَلَّ مَا دَفَنُوا مِنْ كُتُبِهِمْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الرَّأْيِ، فَمَا رَأَوْا أَنْ يَعْمَلَ النَّاسُ بِهِ[1].

وَلَقَدْ رُوِّينَا فِي الْحَدِيثِ[2] عَنْ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْحَوَارِيِّ: أَنَّهُ أَخَذَ كُتُبَهُ، فَرَمَىٰ بِهَا فِي الْبَحْرِ، وَقَالَ: «نِعْمَ الدَّلِيلُ كُنْتِ، وَلا حَاجَةَ لَنَا إِلَىٰ الدَّلِيلِ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَىٰ الْمَدْلُولِ»![3].

وَهَذَا إِذَا أَحْسَنَّا بِهِ الظَّنَّ، قُلْنَا: كَانَ فِيهَا مِنْ كَلامِهِمْ مَا لا يَرْتَضِيهِ، فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ عُلُومًا صَحِيحَةً، كَانَ هَذَا مِنْ أَفْحَشِ الإِضَاعَةِ.

وَأَنَا وَإِنْ تَأَوَّلْتُ لَهُمْ هَذَا؛ فَهُوَ تَأْوِيلٌ صَحِيحٌ فِي حَقِّ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمْ: لِأَنَّا قَدْ رُوِّينَا عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قَدْ أَوْصَىٰ بِدَفْنِ كُتُبِهِ، وَكَانَ نَدِمَ عَلَىٰ أَشْيَاءَ كَتَبَهَا عَنْ قَوْمٍ، وَقَالَ: «حَمَلَنِي شَهْوَةُ الْحَدِيثِ»[4]. وَهَذَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ عَنِ الضُّعَفَاءِ وَالْمَتْرُوكِينَ، فَكَأَنَّهُ لَمَّا عَسُرَ عَلَيْهِ التَّمْيِيزُ، أَوْصَىٰ بِدَفْنِ الْكُلِّ.

وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ لَهُ رَأْيٌ مِنْ كَلامِهِ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ، جَازَ أَنْ يَدْفِنَ الْكُتُبَ الَّتِي فِيهَا ذَلِكَ. فَهَذَا وَجْهُ التَّأْوِيلِ لِلْعُلَمَاءِ.

فَأَمَّا الْمُتَزَهِّدُونَ الَّذِينَ رَأَوْا صُورَةَ فِعْلِ الْعُلَمَاءِ، وَدَفَنُوا كُتُبًا صَالِحَةً؛ لِئَلَّا تَشْغَلَهُمْ عَنِ التَّعَبُّدِ، فَإِنَّهُ جَهْلٌ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ شَرَعُوا فِي إِطْفَاءِ مِصْبَاحٍ يُضِيءُ لَهُمْ، مَعَ الإِقْدَامِ عَلَىٰ تَضْيِيعِ مَالٍ لَا يَحِلُّ تَضْيِيعُهُ.

---

(١) يُراجع كلام ابن الجوزي، والتعليق عليه في الخاطرة رقم: [١٤-١١٨].

(٢) يعني ما يتحدَّث به من كلام وخبر، وليس معناه كلام الرَّسول ﷺ وصحابته ﷺ، ويُعرف هذا من سياق الكلام.

(٣) تقدمت ترجمة أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْحَوَارِيِّ ﷀ في الخاطرة رقم: [١٤-١١٨]. والخبر في «حلية الأولياء»(ج١٠/ ص٦).

(٤) تقدمت ترجمة سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ﷀ في الخاطرة رقم: [١٤-١١٨]. والخبر في «حلية الأولياء»(ج٧/ ص٦٤).

وَمِنْ جُمْلَةِ مَنْ عَمِلَ بِوَاقِعَةِ دَفْنِ كُتُبِ الْعِلْمِ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ، ثُمَّ لَمْ يَصْبِرْ عَنِ التَّحْدِيثِ، فَخَلَّطَ، فَعُدَّ فِي الضُّعَفَاءِ[(١)].

أَنْبَأَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ الْمُبَارَكِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُظَفَّرِ الشَّامِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَتِيقِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ أَحْمَدَ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو الْعَقِيلِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَىٰ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ الْخَلَّالُ، قَالَ: سَمِعْتُ شُعَيْبَ بْنَ حَرْبٍ يَقُولُ: قُلْتُ لِيُوسُفَ بْنِ أَسْبَاطٍ: كَيْفَ صَنَعْتَ بِكُتُبِكَ؟ قَالَ: جِئْتُ إِلَىٰ الْجَزِيرَةِ، فَلَمَّا نَضَبَ الْمَاءُ دَفَنْتُهَا[(٢)]، حَتَّىٰ جَاءَ الْمَاءُ عَلَيْهَا فَذَهَبَتْ. قُلْتُ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ الْهَمُّ هَمًّا وَاحِدًا».

قَالَ الْعَقِيلِيُّ: وَحَدَّثَنِي آدَمُ: قَالَ: سَمِعْتُ الْبُخَارِيَّ، قَالَ: قَالَ صَدَقَةُ: «دَفَنَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ كُتُبَهُ، وَكَانَ بَعْدُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْوَهْمُ، فَلَا يَجِيءُ كَمَا يَنْبَغِي»[(٣)].

قَالَ الْمُؤَلِّفُ: قُلْتُ: الظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ كُتُبُ عِلْمٍ يَنْفَعُ؛ وَلَكِنَّ قِلَّةَ الْعِلْمِ أَوْجَبَتْ هَذَا التَّفْرِيطَ، الَّذِي قُصِدَ بِهِ الْخَيْرُ، وَهُوَ شَرٌّ؛ فَلَوْ كَانَتْ كُتُبُهُ مِنْ جِنْسِ كُتُبِ الثَّوْرِيِّ - فَإِنَّ فِيهَا

---

(١) تقدمت ترجمة يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ رحمه الله في الخاطرة رقم: [١٤-١١٨] وقد ذكرتُ هناك بعض من دفن كتبه.

(٢) نَضَبَ الْمَاءُ؛ أي: نَفِدَ، غَارَ في الأرضِ.

(٣) الخبر أورده العقيلي في «الضعفاء»(ج٤/ ص١٥٥٦/ ت:٢٠٨٨). أمّا رِجَال إِسْنَادِ الخَبَرِ؛ فَأَوَّلهُم شَيْخ اِبن الجَوْزِي عَبْد الوَهَّابِ الأَنْمَاطِيُّ ترجمته في:[١٢٥-٩٤]، وَمُحَمَّدُ بنُ المُظَفَّرِ بنِ بكرَانَ الشَّامِيُّ أَبُو بَكْرٍ الحَمَوِيُّ الإِمَامُ، شَيْخُ الشَّافعيَةِ، مَاتَ:(٤٨٨هـ)، وَأَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ أَحْمَدَ بنِ مَنْصُورٍ البَغْدَادِيُّ، العَتِيقِيُّ أَبُو الحَسَنِ الإِمَامُ، المُحَدِّثُ، مَاتَ:(٤٤١هـ)، وَيُوسُف بْن أحْمَد بْن يوسف بْن الدَّخِيل، أَبُو يعقوب الصَّيْدلاني رَاوِي «الضُّعَفَاء». مَاتَ:(٣٨٨هـ)، وَمُحَمَّدُ بنُ عَمْرِو بنِ مُوسَىٰ، العُقَيْلِيُّ أَبُو جَعْفَرٍ، الحَافِظُ، مصَنِّفُ كتَاب «الضُّعَفَاء» مَاتَ:(٣٢٢هـ)، وَمُحَمَّدُ بنُ عِيسَىٰ التِّرْمِذِيُّ الحَافِظُ، الإِمَامُ، البَارِعُ، مُصَنِّفُ «الجَامِعَ» . مَاتَ:(٢٧٩هـ)، وَأَحْمَدُ بنُ خَالِدٍ أَبُو جَعْفَرٍ الخَلاَّلُ الفَقِيهُ الكَبِيرُ، مَاتَ:(٢٤٧هـ)، وَشُعَيْبُ بنُ حَرْبٍ أَبُو صَالِحٍ المَدَائِنِيُّ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ، مَاتَ:(١٩٦أو١٩٧هـ)، وَآدم بْنِ مُوسَىٰ أَبُو عَلِيٍ الخواريَ صَاحِب البُخَارِيِّ مَاتَ:(٣٠٥هـ)، وَالبُخَارِيَّ مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ ترجمته في:[١٣٩-١٧٥]، وَصَدَقَةُ بنُ الفَضْلِ أَبُو الفَضْلِ المَرْوَزِيُّ ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ، مَاتَ:(٢٢٣أو٢٢٦هـ).

عَنْ ضُعَفَاءَ، وَلَمْ يَصِحَّ لَهُ التَّمْيِيزُ - قُرْبَ الْحَالُ[١]؛ إِنَّمَا تَعْلِيلُهُ بِجَمْعِ الْهَمِّ، هُوَ الدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ، فَانْظُرْ إِلَىٰ قِلَّةِ الْعِلْمِ مَاذَا تُؤَثِّرُ مَعَ أَهْلِ الْخَيْرِ!

وَلَقَدْ بَلَغَنَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ مَنْ نُعَظِّمُهُ، وَنَزُورُهُ: أَنَّهُ كَانَ عَلَىٰ شَاطِئِ دِجْلَةَ، فَبَالَ، ثُمَّ تَيَمَّمَ! فَقِيلَ لَهُ: الْمَاءُ قَرِيبٌ مِنْكَ! فَقَالَ: خِفْتُ أَلَّا أَبْلُغَهُ[٢]!

وَهَذَا، وَإِنْ كَانَ يَدُلُّ عَلَىٰ قِصَرِ الأَمَلِ، إِلَّا أَنَّ الْفُقَهَاءَ إِذَا سَمِعُوا عَنْهُ مِثْلَ هَذَا الْحَدِيثِ، تَلَاعَبُوا بِهِ، مِنْ جِهَةِ أَنَّ التَّيَمُّمَ إِنَّمَا يَصِحُّ عِنْدَ عَدَمِ الْمَاءِ؛ فَإِذَا كَانَ الْمَاءُ مَوْجُودًا، كَانَ تَحْرِيكُ الْيَدَيْنِ بِالتَّيَمُّمِ عَبَثًا، وَلَيْسَ مِنْ ضَرُورَةِ وُجُودِ الْمَاءِ أَنْ يَكُونَ إِلَىٰ جَانِبِ الْمُحْدِثِ، بَلْ لَوْ كَانَ عَلَىٰ أَذْرُعٍ كَثِيرَةٍ، كَانَ مَوْجُودًا، فَلَا فِعْلَ لِلتَّيَمُّمِ، وَلَا أَثَرَ حِينَئِذٍ[٣].

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الأَشْيَاءَ؛ عَلِمَ أَنَّ فَقِيهًا وَاحِدًا - وَإِنْ قَلَّ أَتْبَاعُهُ، وَخَفَّتْ إِذَا مَاتَ أَشْيَاعُهُ- أَفْضَلُ مِنْ أُلُوفٍ تَتَمَسَّحُ الْعَوَامُّ بِهِمْ تَبَرُّكًا! وَيُشَيِّعُ جَنَائِزَهُمْ مَا لَا يُحْصَىٰ.

وَهَلِ النَّاسُ إِلَّا صَاحِبَ أَثَرٍ يَتَّبِعُهُ، أَوْ فَقِيهٌ يَفْهَمُ مُرَادَ الشَّرْعِ، وَيُفْتِي بِهِ؟!

نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْجَهْلِ وَتَعْظِيمِ الأَسْلَافِ تَقْلِيدًا لَهُمْ بِغَيْرِ دَلِيلٍ، فَإِنَّ مَنْ وَرَدَ الْمَشْرَبَ الأَوَّلَ، رَأَىٰ سَائِرَ الْمَشَارِبِ كَدِرَةً.

وَالْمِحْنَةُ الْعُظْمَىٰ مَدَائِحُ الْعَوَامِّ، فَكَمْ غَرَّتْ! كَمَا قَالَ عَلِيٌّ ﵁: «مَا أَبْقَىٰ خَفْقُ النِّعَالِ وَرَاءَ الْحَمْقَىٰ مِنْ عُقُولِهِمْ شَيْئًا».

وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَسَمِعْنَا مِنَ الْعَوَامِّ أَنَّهُمْ يَمْدَحُونَ الشَّخْصَ، فَيَقُولُونَ: لَا يَنَامُ اللَّيْلَ، وَلَا يُفْطِرُ

---

(١) قُرْبَ الْحَالُ؛ يعني: فلا ملامة عليه.

(٢) يعني: أنه يخاف أن يدركه الموت قبل أن يبلغ موضع الماء. وهذا فعل مَن لم يتفقه.

(٣) الْمُبِيحُ لِلتَّيَمُّمِ فِي الْحَقِيقَةِ شَيْءٌ وَاحِدٌ: وَهُوَ الْعَجْزُ عَنِ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ، وَالْعَجْزُ، إِمَّا لِفَقْدِ الْمَاءِ وَإِمَّا لِعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ اسْتِعْمَالِهِ مَعَ وُجُودِهِ. وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي حَدِّ الْبُعْدِ عَنِ الْمَاءِ الَّذِي يُبِيحُ التَّيَمُّمَ: فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَىٰ أَنَّهُ مِيلٌ وَهُوَ يُسَاوِي أَرْبَعَةَ آلَافِ ذِرَاعٍ. - وَالْمِيلُ بِالْمَقَايِيسِ الْعَصْرِيَّةِ يُعَادِلُ ١٦٨٠ مِترًا - * وَحَدَّدَهُ الْمَالِكِيَّةُ بِمِيلَيْنِ، * وَالشَّافِعِيَّةُ بِأَرْبَعِمِائَةِ ذِرَاعٍ، وَيَطْلُبُهُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ فِيمَا قَرُبَ مِنْهُ عَادَةً.

النَّهَارَ، وَلَا يَعْرِفُ زَوْجَةً، وَلَا يَذُوقُ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا شَيْئًا، قَدْ نَحَلَ جِسْمُهُ، وَدَقَّ عَظْمُهُ، حَتَّىٰ إِنَّهُ يُصَلِّي قَاعِدًا، فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ، وَيَتَمَتَّعُونَ! ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ.

وَلَوْ عَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَوِ اجْتَمَعَتْ فِي لُقْمَةٍ، فَتَنَاوَلَهَا عَالِمٌ يُفْتِي عَنِ اللهِ، وَيُخْبِرُ بِشَرِيعَتِهِ، كَانَتْ فَتْوَىٰ وَاحِدَةٌ مِنْهُ، يُرْشِدُ بِهَا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ خَيْرًا وَأَفْضَلَ مِنْ عِبَادَةِ ذَلِكَ الْعَابِدِ بَاقِيَ عُمُرِهِ، وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَىٰ إِبْلِيسَ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ»(١).

وَمَنْ سَمِعَ هَذَا الْكَلَامَ، فَلَا يَظُنَّنَّ أَنِّي أَمْدَحُ مَنْ لَا يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ؛ وَإِنَّمَا أَمْدَحُ الْعَامِلِينَ بِالْعِلْمِ، وَهُمْ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ أَنْفُسِهِمْ؛ فَقَدْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَصْلُحُ عَلَىٰ خَشِنِ الْعَيْشِ، كَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ؛ وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ يَسْتَعْمِلُ رَقِيقَ الْعَيْشِ؛ كَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ مَعَ وَرَعِهِ، وَمَالِكٍ مَعَ تَدَيُّنِهِ، وَالشَّافِعِيِّ مَعَ قُوَّةِ فِقْهِهِ(٢).

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُطَالَبَ الْإِنْسَانُ بِمَا يَقْوَىٰ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، فَيَضْعُفُ هُوَ عَنْهُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ أَعْرَفُ بِصَلَاحِ نَفْسِهِ، وَقَدْ قَالَتْ رَابِعَةُ: «إِنْ كَانَ صَلَاحُ قَلْبِكَ فِي الْفَالَوْذَجِ؛ فَكُلْهُ»(٣).

وَلَا تَكُونَنَّ أَيُّهَا السَّامِعُ مِمَّنْ يَرَىٰ صُوَرَ الزُّهْدِ؛ فَرُبَّ مُتَنَعِّمٍ لَا يُرِيدُ التَّنَعُّمَ، وَإِنَّمَا يَقْصِدُ الْمَصْلَحَةَ، وَلَيْسَ كُلُّ بَدَنٍ يَقْوَىٰ عَلَىٰ الْخُشُونَةِ، خُصُوصًا مَنْ قَدْ لَاقَىٰ الْكَدَّ، وَأَجْهَدَهُ الْفِكْرُ، أَوْ أَمَضَّهُ الْفَقْرُ(٤)؛ فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَرْفِقْ بِنَفْسِهِ، تَرَكَ وَاجِبًا عَلَيْهِ مِنَ الرِّفْقِ(٥).

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ، لَوْ شَرَحْتُهَا بِذِكْرِ الْأَخْبَارِ وَالْمَنْقُولَاتِ لِطَالَ؛ غَيْرَ أَنِّي سَطَّرْتُهَا عَلَىٰ عَجَلٍ حِينَ جَالَتْ فِي خَاطِرِي. وَاللهُ وَلِيُّ النَّفْعِ بِرَحْمَتِهِ.

---

(١) رواه ابن ماجة في «سننه» كِتَابُ «المُقدمة» بَابُ «فَضْلِ الْعُلَمَاءِ» حديث (٢٢٢) وهو حديث «موضوع».

(٢) ترجمة سُفْيَانَ في:[١٤-١١٨]، وَأَحْمَدَ في:[٢٤-١٧٩]. وَالشَّافِعِيَّ في:[٤٧-٦١]، وَمَالِكُ بنُ أَنَسٍ في:[١٢٣-٢٥].

(٣) سبقت ترجمة رَابِعَةُ العَدَوِية في الخاطرة رقم:[٦٦-٥٥].

(٤) لاقَىٰ الكَدَّ؛ أي: أَرهَقَهُ وَأَتعَبَهُ. أَمَضَّهُ الفَقرُ؛ أي: آلَمَهُ وَأَوجَعَهُ.

(٥) أي: مِنَ الرِّفقِ بِهَا - بِنَفْسِهِ -

*[١٨٣ - ١٠١][خَاطِرَةٌ]:

[فَضِيلَةُ المَالِ، وَسُوءُ فَهْمِ بَعْضِ الصُّوفِيَّةِ]

اجْتِهَادُ الْعَاقِلِ فِيمَا يُصْلِحُهُ لَازِمٌ لَهُ بِمُقْتَضَى الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ.

فَمِنْ ذَلِكَ حِفْظُ مَالِهِ، وَطَلَبُ تَنْمِيَتِهِ، وَالرَّغْبَةُ فِي زِيَادَاتِهِ؛ لِأَنَّ(١) سَبَبَ بَقَاءِ الْإِنْسَانِ مَالُهُ.

فَقَدْ نُهِيَ عَنِ التَّبْذِيرِ فِيهِ: فَقِيلَ لَهُ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ فَأُعْلِمَ أَنَّهُ سَبَبٌ لِبَقَائِهِ: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[النِّسَاءُ:٥]؛ أَيْ: قِوَامًا لِمَعَاشِكُمْ. وَقَالَ ﷻ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[الإِسْرَاءُ:٢٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[الإِسْرَاءُ:٢٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[الفُرْقَانُ:٦٧].

وَمِنْ فَضِيلَةِ الْمَالِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[البَقَرَةُ:٢٤٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[البَقَرَةُ:١٩٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾[البَقَرَةُ:٢٦١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾[الحَدِيدُ:١٠].

وَجَعَلَ الْمَالَ نَعْمَةً، وَزَكَاتَهُ تَطْهِيرًا: فَقَالَ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[التَّوْبَةُ:١٠٣]، وَقَالَ ﷺ: «نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»(٢)، وَقَالَ: «مَا نَفَعَنِي مَالٌ كَمَالِ أَبِي بَكْرٍ»(٣).

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﵁ يَخْرُجُ إِلَى التِّجَارَةِ، وَيَتْرُكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَلَا يَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ.

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﵁: «لَأَنْ أَمُوتَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ جَبَلٍ، أَطْلُبُ كَفَافَ وَجْهِي؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ»(٤).

---

(١) جاء في الأصل: [لأنه]، وما أثبتناه من مخطوط: (ي)؛ لتمام المعنى به.

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» حديث (١١٩٠). ورواه أحمد في «المسند» حديث (١٧٧٦٣).

(٣) رواه الترمذي في «جامعه» كِتَابُ «الْمَنَاقِبِ» بَابُ «مَنَاقِبِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﵁» حديث (٣٦٦١).

(٤) ترجمة أبي بكر الصديق في: [١٦٥-٤٠]، وعمر بن الخطاب في: [٦٥-٥٤]. وخبره في «الدر المنثور» =

وَكَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ يَتَّجِرُونَ[١]: وَمِنْ سَادَاتِ التَّابِعِينَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ؛ مَاتَ وَخَلَّفَ مَالًا، وَكَانَ يَحْتَكِرُ الزَّيْتَ[٢]. . . وَمَا زَالَ السَّلَفُ عَلَىٰ هَذَا.

ثُمَّ قَدْ تَعْرِضُ نَوَائِبُ - كَالْمَرَضِ - يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَىٰ شَيْءٍ مِنَ الْمَالِ، فَلَا يَجِدُ الْإِنْسَانُ بُدًّا مِنَ الِاحْتِيَالِ فِي طَلَبِهِ[٣]؛ فَيَبْذُلُ عِرْضَهُ أَوْ دِينَهُ.

ثُمَّ لِلنَّفْسِ قُوَّةٌ بَدَنِيَّةٌ عِنْدَ وُجُودِ الْمَالِ، وَهُوَ مَعْدُودٌ عِنْدَ الْأَطِبَّاءِ مِنَ الْأَدْوِيَةِ؛ حِكْمَةٌ وَضَعَهَا الْوَاضِعُ.

وَإِنَّمَا نَبَغَ أَقْوَامٌ[٤]، طَلَبُوا طَرِيقَ الرَّاحَةِ، فَادَّعُوا أَنَّهُمْ مُتَوَكِّلَةٌ، وَقَالُوا: نَحْنُ لَا نُمْسِكُ شَيْئًا، وَلَا نَتَزَوَّدُ لِسَفَرٍ، وَرِزْقُ الْأَبْدَانِ يَأْتِي!

وَهَذَا عَلَىٰ مُضَادَّةِ الشَّرْعِ: فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَىٰ عَنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ[٥]، وَمُوسَىٰ عليه السلام لَمَّا سَافَرَ فِي طَلَبِ الْخِضْرِ تَزَوَّدَ[٦]، وَنَبِيُّنَا ﷺ لَمَّا هَاجَرَ تَزَوَّدَ[٧]، وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[البَقَرَة: ١٩٧][٨].

= للسيوطي.(ج٨/ ص٢٩٩/ المزمل:٢٠) وَفِيهِ: عَن عمر بن الخطاب قَالَ:«مَا مِنْ حَالٍ يَأْتِينِي عَلَيْهِ الْمَوْت بَعد الْجِهَاد فِي سَبِيلِ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَأْتِيَنِي وَأَنا بَين شُعْبَتَيْ رَحلِي أَلْتَمِسُ مِنْ فَضْلِ اللهِ» ثُمَّ تَلا هَذِه الْآيَة: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾». والبيهقي في «الشعب»(١١٩٨).

(١) منهم على سبيل المثال: أَبَانُ بْنُ سَعِيْدٍ الأُمَوِيُّ، وَحَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ، وَحَكِيْمُ بْنُ حِزَامِ بنِ خُوَيْلِدٍ ﷺ.

(٢) سَعِيْد بْن الْمُسَيَّب رحمه الله ترجمته في:[١٥٣-١٦٩] ※ وَالْخَبَرُ عند الترمذي في «جامعه» كِتَابُ «الْبُيُوعِ»(١٢٦٧).

(٣) طَلِبة: جمعها: طَلِبات: بُغية، أو حقّ يُطالَب به.

(٤) نَبَغَ أَقْوَامٌ؛ أي: ظَهَرُوا فَجْأَةً. يقال : نَبَغ الشَّيءُ إذَا ظَهَر، وَنَبَغ فِيهِم النِّفَاقُ: إِذَا ظَهر مَا كانوا يُخْفونه مِنْهُ.

(٥) رواه البخاري، كِ:«الِاسْتِقْرَاضِ»(٢٤٠٨). ومسلم، كِ:«الْأَقْضِيَة»(٥٩٣). عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَمَنَعَ وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ».

(٦) يُشير رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف:٦٢].

(٧) رواه البخاري، كِتَابُ «مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ» بَابُ «هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَى المَدِينَةِ» حديث (٣٩٠٥).

(٨) يُشير رحمه الله إلى ما رواه البخاري، كِ:«الحَجّ» ب:(١٥٢٣). عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:«كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾».

ثُمَّ يَدَّعِي هَؤُلاءِ الْمُتَصَوِّفَةُ بُغْضَ الدُّنْيَا؛ فَلَا يَفْهَمُونَ مَا الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُبْغَضَ، وَيَرَوْنَ زِيَادَةَ الطَّلَبِ لِلْمَالِ حِرْصًا وَشَرَهًا!!

وَفِي الْجُمْلَةِ؛ إِنَّمَا اخْتَرَعُوا بِآرَائِهِمْ طَرِيقًا: فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الرَّهْبَانِيَّةِ إِذَا صَدَقُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الْبَهْرَجَةِ إِذَا نَصَبُوا شِبَاكَ الصَّيْدِ بِالتَّزَهُّدِ! فَسَمَّوْا مَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الأَرْزَاقِ فُتُوحًا!![1].

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي «غَرِيبِ الْحَدِيثِ» عِنْدَ شَرْحِ قَوْلِهِ ﷺ:«وَالْيَدُ الْعُلْيَا ...»، قَالَ:«هِيَ الْمُعْطِيَةُ». قَالَ:«فَالْعَجَبُ عِنْدِي مِنْ قَوْمٍ يَقُولُونَ: هِيَ «الآخِذَةُ»! وَلَا أَرَىٰ هَؤُلاءِ الْقَوْمَ إِلَّا قَوْمًا اسْتَطَابُوا السُّؤَالَ، فَهُمْ يَحْتَجُّونَ لِلدَّنَاءَةِ، فَأَمَّا الشَّرَائِعُ، فَإِنَّهَا بَرِيئَةٌ مِنْ حَالِهِمْ»[2].

وَفِي الْحَدِيثِ[3]:«ضَاقَ الْبَلَدُ بِمَوَاشِي إِبْرَاهِيمَ وَلُوطٍ عليهما السلام فَافْتَرَقَا».

وَكَانَ شُعَيْبٌ عليه السلام كَثِيرَ الْمَالِ، ثُمَّ قَدْ نَدَّ طَمَعُهُ[4] فِي زِيَادَةِ الأَجْرِ مِنْ مُوسَىٰ عليه السلام،

---

(١) الرَّهْبَانِيَّةُ: مِنَ الرَّهْبَةِ، وَهِيَ الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ مَعَ تَحَرُّزٍ وَاضْطِرَابٍ، وَمِنْهَا الرَّاهِبُ: وَهُوَ الْمُتَعَبِّدُ فِي صَوْمَعَةٍ مِنَ النَّصَارَىٰ يَتَخَلَّىٰ عَنْ أَشْغَالِ الدُّنْيَا وَمَلاذِّهَا زَاهِدًا فِيهَا مُعْتَزِلًا أَهْلَهَا، وَالْجَمْعُ: رُهْبَانٌ. الْبَهْرَجَةِ: الشيء الْمُزَيَّف الْبَاطِل الرَّدِيء التَّافِه قَلِيل النَّفع. يعني بكلمة: فُتُوحًا؛ أي: الرِّزق الذي يفتح الله به.

(٢) ابْنُ قُتَيْبَةَ ترجمته في:[١٥٣-١٦٩]. وَأَمَّا كِتَابه «غَرِيبِ الْحَدِيثِ»: فقد ابتدأ بتفسير الألفاظ الدائرة بين الناس، في الفقه وأبوابه.. ثم ابتدأ بتفسير غريب أحاديث الرسول، وأشبع ذلك بذكر الاشتقاق والمصادر، والشواهد من كلام العرب، مثلًا، وخطبًا، وشعرًا»، وحديث:«وَالْيَدُ الْعُلْيَا» رواه البخاري، كِ:«النَّفَقَاتِ»(٥٣٥٥). وَتَفْسِير «وَالْيَدُ الْعُلْيَا» بِـ«الْمُعْطِيَةُ» ورد في «الصحيحين» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: وَهُوَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ، وَهُوَ يَذْكُرُ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَىٰ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا الْمُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَىٰ السَّائِلَةُ» رواه البخاري، كِ:«الزَّكَاةِ»(١٤٢٩). ومسلم، كِ:«الزَّكَاةِ»(١٠٣٣). [يُنظر مقدمة د:عبد الله الجبوري؛ لكتاب:«غريب الحديث» لابن قتيبة، و«فتح الباري» لابن حجر.(ج٣/ ص٣٣٨/ ح١٤٢٩)]

(٣) يعني ما يُتحدَّث به من كلامٍ وخبر، وليس معناه كلام الرَّسول ﷺ، ويُعرف هذا من سياق الكلام. ولم أقف فيما بين يدي من المصادر علىٰ ما يدل أن هذا من الأحاديث المرفوعة أو الموقوفة. ولكن وقعت علىٰ كلام في «الكتاب المقدس» خلاصته:«أنه حدثت مخاصمة بين رعاة مواشي لوط ورعاة مواشي إبراهيم في مرتفعات بيت إيل، وأن النتيجة كانت الهجرة لمكان أبعد حتىٰ تتوفر المياه والمراعي، واتجه لوط شرقًا إلىٰ سدوم وعمورة حيث الأراضي الخصبة التي يرويها نهر الأردن»اهـ.

(٤) نَدَّ طَمَعُهُ؛ أي: ذهب حرصه ورغبته الشديدة في استبقاء ابنته وزوجها أطول مدة ممكنة بجواره. وقد أنكر بعض =

فَقَالَ: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾[القَصَص:٢٧] .

وَكَانَ ابْنُ عَقِيلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[١]: «مَنْ قَالَ: إِنِّي لا أُحِبُّ الدُّنْيَا، فَهُوَ كَذَّابٌ، فَإِنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا طَلَبَ مِنْهُ ابْنُهُ بِنْيَامِينَ[٢]، قَالَ: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾[يُوسُفَ:٦٤] فَقَالُوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾[يُوسُفَ: ٦٥] فَقَالَ: خُذُوهُ».

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «مَنِ ادَّعَىٰ بُغْضَ الدُّنْيَا، فَهُوَ عِنْدِي كَذَّابٌ إِلَىٰ أَنْ يَثْبُتَ صِدْقُهُ، فَإِذَا ثَبَتَ صِدْقُهُ، فَهُوَ مَجْنُونٌ».

وَقَدْ نَفَّرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ خَلْقًا مِنَ الْخَلْقِ عَنِ الْكَسْبِ، وَأَوْحَشُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وَهُوَ دَأْبُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا طَرِيقَ الرَّاحَةِ، وَجَلَسُوا عَلَىٰ الْفُتُوحِ، فَإِذَا شَبِعُوا، رَقَصُوا، فَإِذَا انْهَضَمَ الطَّعَامُ، أَكَلُوا، فَإِذَا لَاحَتْ لَهُمْ حِيلَةٌ عَلَىٰ غَنِيٍّ، أَوْجَبُوا عَلَيْهِ دَعْوَةً، إِمَّا بِسَبَبِ شُكْرٍ، أَوْ بِسَبَبِ اسْتِغْفَارٍ. . . وَأَطَمُّ الطَّامَّاتِ ادِّعَاؤُهُمْ أَنَّ هَذَا قُرْبَةٌ!

وَقَدِ انْعَقَدَ إِجْمَاعُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ مَنِ ادَّعَىٰ الرَّقْصَ قُرْبَةً إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، كَفَرَ، فَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا: مُبَاحٌ، كَانَ أَقْرَبَ حَالًا! وَهَذَا؛ لِأَنَّ الْقُرَبَ لا تُعْرَفُ إِلَّا بِالشَّرْعِ، وَلَيْسَ فِي الشَّرْعِ أَمْرٌ بِالرَّقْصِ، وَلا نَدْبٌ إِلَيْهِ[٣].

وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُوقِدُونَ الشَّمْعَ فِي وُجُوهِ الْمُرْدَانِ[٤]، وَيَنْظُرُونَ

= المحققين على الإمام ابن الجوزي استخدامه للفظة:[طَمَعُهُ] هُنا، ونحن نُذكره بأن هذا اللفظ يُستخدم في المدح كما في قوله تعالىٰ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

(١) تقدمت ترجمة ابْنُ عَقِيلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في الخاطرة رقم:[٢٠-٣١٩].

(٢) جاء في الأصل:[يامين]، ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به. ويقول الإمام القسطنطيني رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام»(ص:٢٥): «والعامة تقول لأخي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ابن يامين. وهو خطأ. وفي «القاموس» للفيروزآبادي :(وبِنْيامينُ، كإسْرافيلَ : أخُو يوسُفَ ﷺ، وَلَا تَقُلْ ابن يامِينَ)».

(٣) يُرَاجَع كِتَاب: «الرَّهْص وَالوَقْص لِمُسْتَحِلِّ الرَّقص» محمد بن إبراهيم الحلبي. وكتاب: «الصَّاعِقَة المُحرِقَة علىٰ المُتَصَوِّفَة الرَّقَصَة المُتَزَنْدِقَة» محمد بن صفي الدين الحنفي.

(٤) الْمُرْدَانِ: جمع أمرد، وهو الغلام الذي لم تنبت لحيته بعد.

إِلَيْهِمْ، فَإِذَا سُئِلُوا عَنْ ذَلِكَ، سَخِرُوا بِالسَّائِلِ، فَقَالُوا: نَعْتَبِرُ بِخَلْقِ اللهِ!

أَفَتَرَاهُمْ أَقْوَىٰ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ أَجْلَسَ الشَّابَّ الَّذِي وَفَدَ عَلَيْهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَقَالَ: «وَهَلْ كَانَتْ فِتْنَةُ دَاوُدَ إِلَّا مِنَ النَّظَرِ»[١]؟!

هَيْهَاتَ! لَقَدْ تَمَلَّكَ الشَّيْطَانُ تِلْكَ الأَزِمَّةَ فَقَادَهَا إِلَىٰ مَا أَرَادَ[٢].

وَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَذُمُّ الدُّنْيَا وَهُوَ يَأْكُلُ فَيَشْبَعُ، وَلا يَنْظُرُ مِنْ أَيْنَ الْمَطْعَمُ!

وَمَا زَالَ صَالِحُوا السَّلَفِ يُفَتِّشُونَ عَنِ الْمَطْعَمِ: حَتَّىٰ كَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ يَسْهُو هُوَ وَأَصْحَابُهُ، وَيَقُولُونَ: مَعَ مَنْ نَعْمَلُ غَدًا؟!. وَكَانَ سَرِيٌّ السَّقَطِيُّ يُعْرَفُ بِطِيبِ الْغِذَاءِ، وَلَهُ فِي الْوَرَعِ مَقَامَاتٌ[٣].

فَجَاءَ قَوْمٌ يَتَّسِمُونَ بِالصُّوفِيَّةِ، يَدَّعُونَ اتِّبَاعَ أُولَئِكَ السَّادَةِ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ مَالِ فُلَانٍ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ أُصُولَ تِلْكَ الأَمْوَالِ، وَيَقُولُونَ: رِزْقُنَا!

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه»(ح٣٢٥٥٣) من كلام سعيد بن جبير. وتقدم التعليق علىٰ هذا في الخاطرة رقم:[٩٤-٢٩٤] وما ذُكر في بعض الأحاديث مِن أَنَّ فِتْنَةَ دَاوُد كَانَتْ النَّظَرَ؛ أي: بنظره إلىٰ امرأة الجندي أوريا؛ فلا يشك مسلم عاقل في بطلانها لما فيها من نسبة ما لا يليق بمقام الأنبياء؛ مثل محاولته تعريض زوجها للقتل، ليتزوجها من بعده! وعصمة الأنبياء الثابتة بالقطعي: لا يُقاومها أمثال هذه الأخبار المستنكرة![يُراجع كلام الإمام تقي الدين السبكي والذي أورده الشيخ محمد عوَّامة في تحقيقه لكتاب:«المصنف» لابن أبي شيبة.(ج١٦/ ح ٣٢٥٥٣/ ص٥٥٧-٥٥٩) ويُنظر:«سلسلة الأحاديث الضعيفة»(ج١/ ص٤٨٣-٤٨٥/ ح ٣١٣، ٣١٤)].

(٢) الزِّمام: الخَيْط الذي في أنف النَّاقة، والجمع: الأزِمّة. وكأن الشيطان جعل من هؤلاء أنعام يتلاعب بهم. وما أحسن ما قال أبو عبد الله مُحَمَّد بن خَفِيف الشِّيرَازِيُّ شَيْخُ الصُّوفِيَّةِ:«عَهْدِىٰ بِالصُّوفِيَّةِ يَسْخَرُونَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَالآن الشَّيْطَان يَسْخَر بِهِم»[يُنظر:«طبقات الشافعية الكبرىٰ» تاج الدين السبكي.(ج٣/ ص١٥٦)].

(٣) ترجمة ابْنُ أَدْهَمَ وَ سَرِيٌّ رحمهما الله في:[١٢٨-٣٦٢]. وَمَقَامَاتٌ؛ أي: حالات ثابتة ينالها السَّالكُ بجهده الخاصّ، أهمّها التَّوبة والورع والزُّهد والفقر والصَّبر والتَّوكّل والرِّضا. ولكل مقَام بَدْء وَنِهَايَة وَبَينهمَا أَحْوَال متفاوته وَلكُل مقَام علم وَإِلَىٰ كل حَال إِشَارَة وَمَعَ كل مقَام إِثْبَات وَنفي وَلَيْسَ كل مَا نفي فِي مقَام كَانَ منفيا فِيمَا قبله وَلَا كل مَا أثبت فِيهِ كَانَ مثبتا فِيمَا دونه. [يُراجع:«التعرف لمذهب أهل التصوف» لأبي بكر محمد الكَلَاَبَاذِيُّ.

فَوَاعَجَبًا! إِذَا كَانَ الآكِلُ لا يُبَالِي بِهِ مِنْ أَيْنَ، وَلا لَدَيْهِ امْتِنَاعٌ مِنْ شَهْوَةٍ وَلا تَقَلُّلٍ، وَلا يَخْلُو الرِّبَاطُ مِنَ الْمَطْبَخِ(١)، وَلا يَنْقَطِعُ لَيْلَةً، وَأَصْلُهُ مِنْ مَالٍ قَدْ عُرِفَ مِنْ أَيْنَ هُوَ، وَالْحَمَّامُ دَائِرٌ، وَالْمُغَنِّي يَدُقُّ بِدُفٍّ فِيهِ جَلاجِلُ، وَرَفِيقُهُ بِالشَّبَّابَةِ(٢)، وَسُعْدَى وَلَيْلَى فِي الإِنْشَادِ(٣)، وَالْمُرْدَانُ فِي الشَّمْعِ، ثُمَّ يَذُمُّ الدُّنْيَا بَعْدَ هَذَا.

فَقُولُوا لَنَا: مَنْ يَتَلَّهَى بِالنَّاسِ [«إِلَّا هَؤُلاءِ»؟!(٤)].

وَلَكِنْ، مَنْ مَرَّتْ عَلَيْهِ زَرْجَنَتُهُمْ(٥)؛ فَإِنَّهُ أَخَسُّ مِنْهُمْ.

*[١٨٤ - ٣٤][خَاطِرَةٌ]:

[دَعْوَى جَهَلَةِ الْمُتَزَهِّدِينَ إِلَى إِخْرَاجِ مَا فِي الْيَدِ]

تَفَكَّرْتُ، فَرَأَيْتُ أَنَّ حِفْظَ الْمَالِ مِنَ الْمُتَعَيِّنِ(٦)، وَمَا يُسَمِّيهِ جَهَلَةُ الْمُتَزَهِّدِينَ تَوَكُّلًا - مِنْ إِخْرَاجِ مَا فِي الْيَدِ - لَيْسَ بِالْمَشْرُوعِ!.

فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ»(٧)، أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ. وَقَالَ لِسَعْدٍ: «لأَنْ تَتْرُكَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»(٨).

(١) الرِّبَاط: مبنى مُجَهَّز مَوقُوفٌ عَلَى الفُقَرَاء مِنَ الصُّوفِيَّة وَغَيرهم، وَتَكثُر الرِّبَاطَات فِي المَغرِب العَربِيّ.

(٢) الجَلاجِلُ، أي: الأجراس الصغيرة، وَالشَّبَّابَة؛ أي: المزمار.

(٣) سُعْدَى الأسديَّة شَاعِرَة جَاهِلِيَّة، لَهَا شِعرٌ فِي عِشقِهَا لابْنِ عَمِّهَا. * وَلَيْلَى الأَخْيلِيَّة بِنْت عَبْدِ اللهِ بْن شَدَّاد مِنْ بَنِي عَامِر بن صَعْصَعَة شَاعِرَة فَصِيحَة ذَكِيَّة جَمِيلَة. اشتُهِرت بِأَخْبَارِهَا مَعَ تَوبَة بْن الحِمَير.

(٤) ليست في الأصل ولا المخطوط، وأثبتناها من المطبوع؛ لبيان المعنى بها.

(٥) الزَرْجَنَة: الحيلة والخدعة.

(٦) أي: حِفْظُ الْمَالِ مِنَ الأُمُور الْمُتَعَيِّنَة عَلَى كُلِّ إِنْسَان عَاقِل.

(٧) رواه البخاري، كِتَابُ «الوَصَايَا»(٢٧٥٧). ومسلم، كِتَابُ «التَّوْبَة»(٢٧٦٩).

(٨) رواه البخاري، كِ: «الفَرَائِضِ» بَ: «مِيرَاثِ البَنَاتِ»(٦٧٣٣). ومسلم، كِ: «الْوَصِيَّة» بَ: «الْوَصِيَّةِ بِالثُّلُثِ» (١٦٢٨).

فَإِنِ اعْتَرَضَ جَاهِلٌ، فَقَالَ: جَاءَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بِكُلِّ مَالِهِ(١).

فَالْجَوَابُ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ صَاحِبُ مَعَاشٍ وَتِجَارَةٍ؛ فَإِذَا أَخْرَجَ الْكُلَّ، أَمْكَنَهُ أَنْ يَسْتَدِينَ عَلَيْهِ فَيَتَمَعَّشَ(٢)؛ فَمَنْ كَانَ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ، لا أَذُمُّ إِخْرَاجَهُ لِمَالِهِ.

وَإِنَّمَا الذَّمُّ مُتَطَرِّقٌ إِلَىٰ مَنْ يُخْرِجُ مَالَهُ، وَلَيْسَ مِنْ أَرْبَابِ الْمَعَايِشِ، أَوْ يَكُونُ مِنْ أُولَئِكَ، إِلَّا أَنَّهُ يَنْقَطِعُ عَنِ الْمَعَاشِ، فَيَبْقَىٰ كَلًّا عَلَىٰ النَّاسِ، يَسْتَعْطِيهِمْ(٣)، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَلَىٰ الْفُتُوحِ(٤)، وَقَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْخَلْقِ، وَطَمَعُهُ نَاشِبٌ فِيهِمْ، وَمَتَىٰ حُرِّكَ بَابُهُ(٥)، نَهَضَ قَلْبُهُ، وَقَالَ: رِزْقٌ قَدْ جَاءَ!!.

وَهَذَا أَمْرٌ قَبِيحٌ بِمَنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ الْمَعَاشِ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ، كَانَ إِخْرَاجُ مَا يَمْلِكُ أَقْبَحَ؛ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ قَلْبُهُ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَرُبَمَا ذَلَّ لِبَعْضِهِمْ، أَوْ تَزَيَّنَ لَهُ بِالزُّهْدِ، وَأَقَلُّ أَحْوَالِهِ أَنْ يُزَاحِمَ الْفُقَرَاءَ وَالْمَكَافِيفَ وَالزَّمْنَىٰ فِي الزَّكَاةِ(٦).

فَعَلَيْكَ بِالشَّرْبِ الأَوَّلِ، فَانْظُرْ: هَلْ فِيهِمْ مَنْ فَعَلَ مَا يَفْعَلُهُ جَهَلَةُ الْمُتَزَهِّدِينَ؟!.

وَقَدْ أَشَرْتُ فِي أَوَّلِ هَذَا إِلَىٰ أَنَّهُمْ كَسَبُوا، وَخَلَّفُوا الأَمْوَالَ.

---

(١) رواه أبو داود، كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ «فِي الرُّخْصَةِ فِي ذَلِكَ»(١٦٧٨). والترمذي، كِتَابُ «الْمَنَاقِبِ» بَابُ «مَنَاقِبِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ»(٣٦٧٥). وفيه: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» قَالَ رضي الله عنه: «أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ».

(٢) السَّعيُ وَرَاء أَسْبَاب المَعِيشَة.

(٣) كَلًّا عَلَىٰ النَّاسِ، يَسْتَعْطِيهِمْ: الْكَلُّ - بِالْفَتْحِ - الثِّقْلُ؛ فَيُصبِحُ هَذَا الشَّخص عِبْئًا ثَقِيلًا عَلَىٰ النَّاس، يَسْتَعْطِيهِمْ؛ أَي: يَطلُب مِنْهُم العَطَاءَ وَالصَّدَقَةَ وَالإِحسَان.

(٤) أي: هذا الشخص يظن أنه من المفتوح عليهم بالهبات الإلهية من بركة ورزق.

(٥) أي: بمُجرد أن يطرق الباب أحد من الناس علىٰ هذا الشخص تحرّك قلبه وجوارحه مسرعًا لإجابته؛ ظنًّا منه أنه رزق ساقه الله إليه.

(٦) المَكْفُوف وجَمْعُه مَكَافِيفَ؛ أي: ذهبت أبصارهم، وهم العُميان. وَالزَّمْنَىٰ: الذي أُصيب بالمرض الذي لا يُرجىٰ شفاءه.

فَرُدَّ إِلَىٰ الشَّرْبِ الأَوَّلِ(١) الَّذِي لَمْ يُطْرَقْ، فَإِنَّهُ الصَّافِي، وَاحْذَرْ مِنَ الْمَشَارِعِ الْمَطْرُوقَةِ بِالآرَاءِ الْفَاسِدَةِ(٢)، الْخَارِجَةِ فِي الْمَعْنَىٰ كَالْكَمِيْنِ عَلَىٰ الشَّرِيعَةِ(٣)، مُدَّعِيَةً(٤) بِلِسَانِ حَالِهَا أَنَّ الشَّرْعَ نَاقِصٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَا يَتِمُّ بِهِ!

وَاعْلَمْ - وَفَّقَكَ اللهُ تَعَالَىٰ- أَنَّ الْبَدَنَ كَالْمَطِيَّةِ، وَلَا بُدَّ مِنْ عَلْفِ الْمَطِيَّةِ، وَالِاهْتِمَامِ بِهِ؛ فَإِذَا أَهْمَلْتَ ذَلِكَ، كَانَ سَبَبًا لِوُقُوفِكَ عَنِ السَّيْرِ.

وَقَدْ رُئِيَ سَلْمَانُ ﷺ يَحْمِلُ طَعَامًا عَلَىٰ عَاتِقِهِ، فَقِيلَ لَهُ: أَتَفْعَلُ هَذَا وَأَنْتَ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِﷺ؟! فَقَالَ: «إِنَّ النَّفْسَ إِذَا أَحْرَزَتْ قُوتَهَا، اطْمَأَنَّتْ»(٥).

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «إِذَا حَصَّلْتَ قُوتَ شَهْرٍ، فَتَعَبَّدْ»(٦).

وَقَدْ جَاءَ أَقْوَامٌ لَيْسَ عِنْدَهُمْ سِوَىٰ الدَّعَاوَىٰ، فَقَالُوا: هَذَا شَكٌّ فِي الرَّازِقِ، وَالثِّقَةُ بِي أَوْلَىٰ!! فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُمْ.

وَرُبَمَا وَرَدَ مِثْلُ هَذَا عَنْ بَعْضِ صُدُورِ الزُّهَّادِ مِنَ السَّلَفِ(٧)؛ فَلَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ، وَلَا يَهُولَنَّكَ خِلَافُهُمْ.

---

(١) الشَّرب:-بفتح الشين والتشديد- الرعيل الأول أو القرن أو الجيل من الناس. وَالشُّرب-بكسر الشين والتشديد - وَالْمَشْرَبُ: اسم مَكَان من شرِبَ: مورد؛ مكان الشَّرب قد صار له مشرب يعرفه فلا يتعدّاه لمشرب غيره وهو تسمية الشيء باسم مكانه، وإضافة المشرب إليهم؛ لأن القرن الأول كانوا لا يتعدون كلام الرسول ﷺ.

(٢) الْمَشَارِعِ جمع مشرعة؛ وهي الأماكن التي يردها الناس للوصول إلىٰ الماء، كشطوط الأنهار وأفواه الآبار ونحوهما، ويُكره التخلي في هذه الأماكن. ويقصد بها هنا: التُّرهاتُ الخارجة عن الصراط المستقيم.

(٣) الكَمين: جمع كمائنُ: موضعٌ يُختَفىٰ فيه ولا يُفْطَن له. أو غموض في الأمر لا يُفطَن له.

(٤) جاء في الأصل:[مذعنة]، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به، من مخطوط:(ي).

(٥) يُنظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم.(ج١/ ص٢٠٧) وتمامه: «وَتَفَرَّغَتْ لِلْعِبَادَةِ، وَأَيِسَ مِنْهَا الْوَسْوَاسُ».

(٦) يُنظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم.(ج٧/ ص١٧) وفيه: عَنْ سُفْيَانَ، قَالَ: مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ: «إِذَا كَانَ فِي الْبَيْتِ بُرٌّ فتعَبَّدْ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فَالْتَمِسْ».

(٧) وَمِنْهُمْ: الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ، وَجَعْفَرٌ الضُّبَعِيُّ، وَمَالِكَ بْنَ دِينَارٍ، وَثَابِتًا الْبُنَانِيَّ، وَأَبَا عِمْرَانَ الْجَوْنِيَّ، وَأَبَا التَّيَّاحِ، وَفَرْقَدًا السَّبَخِيَّ، وَشُمَيْطَ بْنَ عَجْلَانَ.

فَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمَرْوَذِيُّ: سَمِعْتُ أَحْمَدَبْنَ حَنْبَلٍ يُرَغِّبُ فِي النِّكَاحِ، فَقُلْتُ لَهُ: قَالَ ابْنُ أَدْهَمَ ..[(١)] فَمَا تَرَكَنِي أُتِمُّ حَتَّىٰ صَاحَ عَلَيَّ وَقَالَ: «أَذْكُرُ لَكَ حَالَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَتَأْتِينِي بِبُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ[(٢)]؟!».

وَاعْلَمْ - وَفَّقَكَ اللهُ - أَنَّهُ لَوْ رَفَضَ الأَسْبَابَ شَخْصٌ يَدَّعِي التَّزَهُّدَ، وَقَالَ: لا آكُلُ، وَلا أَشْرَبُ، وَلا أَقُومُ مِنَ الشَّمْسِ فِي الْحَرِّ، وَلا أَسْتَدْفِئُ مِنَ الْبَرْدِ! كَانَ عَاصِيًا بِالإِجْمَاعِ[(٣)].

وَكَذَلِكَ لَوْ قَالَ - وَلَهُ عَائِلَةٌ -: لا أَكْتَسِبُ، وَرِزْقُهُمْ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ! فَأَصَابَهُمْ أَذًىٰ؛ كَانَ آثِمًا؛ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»[(٤)].

وَاعْلَمْ أَنَّ الاِهْتِمَامَ بِالْكَسْبِ؛ يَجْمَعُ الْهَمَّ، وَيُفَرِّغُ الْقَلْبَ، وَيَقْطَعُ الطَّمَعَ فِي الْخَلْقِ؛ فَإِنَّ الطَّبْعَ لَهُ حَقٌّ يَتَقَاضَاهُ[(٥)].

وَقَدْ بَيَّنَ الشَّرْعُ ذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[(٦)].

---

(١) ترجمة أبو بكر المروذي في:[١٢٨-٣٦٢]. وقد جاء في الأصل والمخطوط:[المروزي]، والصواب ما أثبتناه. وترجمة أحمد بن حنبل في:[٢٤-١٧٩]، وإبراهيم بن أدهم في:[١٢٨-٣٦٢].

(٢) بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ: هي الطُّرُقُ الصِغار تتشعّب من الجادَّةِ، وهي التُّرَّهاتُ. أي: اقصد الأمر العظيم الشأن واترك صغار الأمور، ثم أطلقوا بنيات الطريق علىٰ الأباطيل والأكاذيب وبما لا أصل له.

(٣) روىٰ أبو داود، كِ:«الأَيْمَان وَالنُّذُور» بَ:«النَّذْر في المعصية»(٣٣٠٠). عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ فِي الشَّمْسِ فَسَأَلَ عَنْهُ؟ قَالُوا: هَذَا أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَلَا يَتَكَلَّمَ وَيَصُومَ، قَالَ:«مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ» قَالَ ابْنِ خُزَيْمَةَ فِي «صَحِيحِهِ»(ج٢/ ص١٠٦٩/ ح ٢٢٤٢):«فَأَمَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِالْوَفَاءِ بِالصَّوْمِ الَّذِي هُوَ طَاعَةٌ، وَتَرْكِ الْقِيَامِ فِي الشَّمْسِ، إِذْ لَا طَاعَةَ فِي الْقِيَامِ فِي الشَّمْسِ. وَإِنْ كَانَ الْقِيَامُ فِي الشَّمْسِ، لَيْسَ بِمَعْصِيَةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَعْذِيبٌ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ مَعْصِيَةً».

(٤) رواه أبو داود، كِتَابُ «الزكاة»(١٦٩٢). ورواه أحمد في «المسند»(٦٤٩٥). ورواه ابن حبان، كِتَابُ «الرَّضاع»(٤٢٤٠).

(٥) حَقٌّ يَتَقَاضَاهُ؛ أي: يطلبه.

(٦) رواه البخاري، كِتَابُ «الصَّوْمِ» بَابُ «حَقِّ الجِسْمِ فِي الصَّوْمِ»(١٩٧٥). عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عَبْدَ اللهِ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟»، فَقُلْتُ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «فَلاَ تَفْعَلْ صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ =

وَمِثَالُ الطَّبْعِ مَعَ الْمُرِيدِ السَّالِكِ كَمَثَلِ كَلْبٍ لا يَعْرِفُ الطَّارِقَ؛ فَكُلُّ مَنْ رَآهُ يَمْشِي؛ نَبَحَ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَلْقَىٰ إِلَيْهِ كِسْرَةً؛ سَكَتَ عَنْهُ.

فَالْمُرَادُ مِنَ الِاهْتِمَامِ بِذَلِكَ جَمْعُ الْهَمِّ لا غَيْرَ، فَافْهَمْ هَذِهِ الْأُصُولَ؛ فَإِنَّ فَهْمَهَا مُهِمٌّ.

*[١٨٥ - ٣٦][خَاطِرَةٌ]:

[خَيْرُ الْأُمُورِ الْوَسَطُ]

بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ زُهَّادِ زَمَانِنَا أَنَّهُ قُدِّمَ إِلَيْهِ طَعَامٌ، فَقَالَ: «لا آكُلُ»! فَقِيلَ لَهُ: لِمَ؟! قَالَ: «لِأَنَّ نَفْسِي تَشْتَهِيهِ، وَأَنَا مُنْذُ سِنِينَ مَا بَلَّغْتُ نَفْسِي مَا تَشْتَهِي»!

فَقُلْتُ: لَقَدْ خَفِيَتْ طَرِيقُ الصَّوَابِ عَنْ هَذَا مِنْ وَجْهَيْنِ، وَسَبَبُ خَفَائِهَا عَدَمُ الْعِلْمِ:

أَمَّا الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ هَذَا وَلا أَصْحَابُهُ.

وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «يَأْكُلُ لَحْمَ الدَّجَاجِ، وَيُحِبُّ الْحَلْوَىٰ وَالْعَسَلَ»(١).

وَدَخَلَ فَرْقَدٌ السَّبْخِيُّ عَلَىٰ الْحَسَنِ وَهُوَ يَأْكُلُ الْفَالَوْذَجَ، فَقَالَ: «يَا فَرْقَدُ! مَا تَقُولُ فِي هَذَا»؟ فَقَالَ: «لَا آكُلُهُ، وَلَا أُحِبُّ مَنْ أَكَلَهُ»، فَقَالَ الْحَسَنُ: «لُعَابُ النَّحْلِ، بِلُبَابِ الْبُرِّ، مَعَ سَمْنِ الْبَقَرِ؛ هَلْ يَعِيبُهُ مُسْلِمٌ؟!»(٢).

= وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ»، فَشَدَّدْتُ، فَشُدِّدَ عَلَيَّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً قَالَ: «فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلا تَزِدْ عَلَيْهِ»، قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ قَالَ: «نِصْفَ الدَّهْرِ»، فَكَانَ عَبْدُ اللهِ يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبِرَ: يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ ﷺ.

(١) تقدم تخريج هذا في الخاطرة رقم: [١٨٢ - ١٩].

(٢) ترجمة الحَسَن البَصرِي في: [٥٩-٨٧]، وَفَرْقَدًا السَّبْخِيَّ في: [١٨٢ - ١٩]. وَالْفَالَوْذَجَ: حلواء تعمل من الدقيق والعسل والماء. وَلُعَابُ النَّحْلِ: العسل. لُبَابِ الْبُرِّ؛ القمح: داخله الطَّرِيّ غير المُنْضَج جيِّدًا.

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ الْحَسَنِ، فَقَالَ: «إِنَّ لِي جَارًا لَا يَأْكُلُ الْفَالَوْذَجَ»، فَقَالَ: «وَلِمَ؟!» قَالَ: يَقُولُ: «لَا أُؤَدِّي شُكْرَهُ». فَقَالَ: «إِنَّ جَارَكَ جَاهِلٌ، وَهَلْ يُؤَدِّي شُكْرَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟!».

وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ(١) يَحْمِلُ فِي سَفَرِهِ الْفَالَوْذَجَ وَالْحَمَلَ الْمَشْوِيَّ، وَيَقُولُ: «إِنَّ الدَّابَّةَ إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا، عَمِلَتْ».

وَمَا حَدَثَ فِي الزُّهَّادِ بَعْدَهُمْ مِنْ هَذَا الْفَنِّ؛ فَأُمُورٌ مَسْرُوقَةٌ مِنَ الرَّهْبَانِيَّةِ، وَأَنَا خَائِفٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾[الْمَائِدَةُ:٨٧].

وَلَا يُحْفَظُ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ الْأَوَّلِ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْ هَذَا الْفَنِّ شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِعَارِضٍ.

وَأَمَّا سَبَبُ(٢) مَا يُرْوَىٰ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّهُ اشْتَهَىٰ شَيْئًا فَآثَرَ بِهِ فَقِيرًا، وَأَعْتَقَ جَارِيَتَهُ رُمَيْثَةَ، وَقَالَ: «إِنَّهَا أَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ»(٣)؛ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ حَسَنٌ؛ لِأَنَّهُ إِيثَارٌ بِمَا هُوَ أَجْوَدُ عِنْدَ النَّفْسِ مِنْ غَيْرِهِ، وَأَكْثَرُ لَهَا مِنْ سِوَاهُ؛ فَإِذَا وَقَعَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، كُسِرَتْ بِذَلِكَ الْفِعْلِ سَوْرَةُ هَوَاهَا أَنْ تَطْغَىٰ بِنَيْلِ كُلِّ مَا تُرِيدُ.

فَأَمَّا مَنْ دَامَ عَلَىٰ مُخَالَفَتِهَا عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، فَإِنَّهُ يُعْمِي قَلْبَهَا، وَيُبَلِّدُ خَوَاطِرَهَا، وَيُشَتِّتُ عَزَائِمَهَا، فَيُؤْذِيهَا أَكْثَرَ مِمَّا يَنْفَعُهَا.

وَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ(٤) «إِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ»، وَتَحْتَ مَقَالَتِهِ سِرٌّ لَطِيفٌ، وَهُوَ

(١) ترجمة سفيان الثوري في الخاطرة: [١٤-١١٨].

(٢) ليست في الأصل ولا المخطوط؛ وإنما فيهما: [وسبب ما يروى ...]، وما أثبتناه أصح للمعنى.

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (ج١/ ص٢٩٥- ٢٩٧) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي عُثْمَانَ، قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ أَعْتَقَ جَارِيَتَهُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا رميثة، وَقَالَ: «إِنِّي سَمِعْتُ اللهَ ﷻ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وَإِنِّي وَاللهِ إِنْ كُنْتُ لَأُحِبُّكِ فِي الدُّنْيَا، اذْهَبِي فَأَنْتِ حُرَّةٌ لِوَجْهِ اللهِ ﷻ». عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ: أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما نَزَلَ الْجُحْفَةَ - وَهُوَ شَاكٍ - فَقَالَ: «إِنِّي لَأَشْتَهِي حِيتَانًا»، فَالْتَمَسُوا لَهُ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ إِلَّا حُوتًا وَاحِدًا، فَأَخَذَتْهُ امْرَأَتُهُ صفية بنت أَبِي عُبَيْد فَصَنَعَتْهُ، ثُمَّ قَرَّبَتْهُ إِلَيْهِ، فَأَتَىٰ مِسْكِينٌ حَتَّىٰ وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: «خُذْهُ»، فَقَالَ أَهْلُهُ: سُبْحَانَ اللهِ، قَدْ عَنَّيْتَنَا وَمَعَنَا زَادٌ نُعْطِيهِ، فَقَالَ: «إِنَّ عَبْدَ اللهِ يُحِبُّهُ».

(٤) ترجمة إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ في الخاطرة: [١٢٨-٣٦٢].

أَنَّ اللهَ ﷻ قَدْ وَضَعَ طَبِيعَةَ الْآدَمِيِّ عَلَىٰ مَعْنًىٰ عَجِيبٍ، وَهُوَ أَنَّهَا تَخْتَارُ الشَّيْءَ مِنَ الشَّهَوَاتِ مِمَّا يُصْلِحُهَا، فَتَعْلَمُ بِاخْتِيَارِهَا لَهُ صَلَاحَهُ، وَصَلَاحَهَا بِهِ.

وَقَدْ قَالَ حُكَمَاءُ الطِّبِّ: يَنْبَغِي أَنْ يُفْسَحَ لِلنَّفْسِ فِيمَا تَشْتَهِي مِنَ الْمَطَاعِمِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ نَوْعُ ضَرَرٍ(١)؛ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَخْتَارُ مَا يُلَائِمُهَا؛ فَإِذَا قَمَعَهَا الزَّاهِدُ فِي مِثْلِ هَذَا، عَادَ عَلَىٰ بَدَنِهِ بِالضَّرَرِ، وَلَوْلَا جَوَاذِبُ الْبَاطِنِ مِنَ الطَّبِيعَةِ، مَا بَقِيَ الْبَدَنُ، فَإِنَّ الشَّهْوَةَ لِلطَّعَامِ تَثُورُ(٢)، فَإِذَا وَقَعَتِ الْغُنْيَةُ بِمَا يَتَنَاوَلُ؛ كَفَّتِ الشَّهْوَةُ.

فَالشَّهْوَةُ مُرِيدٌ وَرَائِدٌ، وَنِعْمَ الْبَاعِثُ هِيَ عَلَىٰ مَصْلَحَةِ الْبَدَنِ، غَيْرَ أَنَّهَا إِذَا أَفْرَطَتْ، وَقَعَ الْأَذَىٰ، وَمَتَىٰ مُنِعَتْ مَا تُرِيدُ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ مَعَ الْأَمْنِ مِنْ فَسَادِ الْعَاقِبَةِ، عَادَ ذَلِكَ بِفَسَادِ أَحْوَالِ النَّفْسِ، وَوَهَنِ الْجِسْمِ، وَاخْتِلَافِ السَّقَمِ، الَّذِي تَتَدَاعَىٰ بِهِ الْجُمْلَةُ، مِثْلَ أَنْ يَمْنَعَهَا الْمَاءَ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْعَطَشِ، وَالْغِذَاءِ عِنْدَ الْجُوعِ، وَالْجِمَاعِ عِنْدَ قُوَّةِ الشَّهْوَةِ، وَالنَّوْمِ عِنْدَ غَلَبَتِهِ، حَتَّىٰ إِنَّ الْمُغْتَمَّ إِذَا لَمْ يَتَرَوَّحْ بِالشَّكْوَىٰ، قَتَلَهُ الْكَمَدُ.

فَهَذَا أَصْلٌ، إِذَا فَهِمَهُ هَذَا الزَّاهِدُ، عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ خَالَفَ طَرِيقَ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مِنْ حَيْثُ النَّقْلِ، وَخَالَفَ الْمَوْضُوعَ مِنْ حَيْثُ الْحِكْمَةُ(٣).

وَلَا يَلْزَمُ عَلَىٰ هَذَا قَوْلُ الْقَائِلِ: فَمِنْ أَيْنَ يَصْفُو الْمَطْعَمُ؟ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَصِفْ؛ كَانَ التَّرْكُ وَرَعًا، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِي الْمَطْعَمِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مَا يُؤْذِي فِي بَابِ الْوَرَعِ، وَكَانَ مَا شَرَحْتُهُ جَوَابًا لِلْقَائِلِ: مَا أُبْلِغُ نَفْسِي شَهْوَةً عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ.

---

(١) قال الإمام السيوطي رحمه الله في «مصباح الزجاجة»(ج٢/ ح٧٩- ٣٤٤٠):«قَالَ الْمُوَفَّقُ عَبْدُ اللَّطِيفِ رحمه الله:«هَذَا الْحَدِيثُ -«إِذَا اشْتَهَىٰ مَرِيضُ أَحَدِكُمْ شَيْئًا فَلْيُطْعِمْهُ» - فِيهِ حِكْمَةٌ طِبِّيَّةٌ فَاضِلَةٌ تَشْهَدُ لِقَانُونٍ شَرِيفٍ ذَكَرَهُ بُقْرَاط، وَهِيَ: أَنَّ الْمَرِيضَ إِذَا تَنَاوَلَ مَا يَشْتَهِيهِ وَإِنْ كَانَ يَضُرُّ قَلِيلًا كَانَ أَنْفَعُ أَوْ أَقَلّ ضَرَرًا مِمَّا لا يَشْتَهِيهِ، وَإِنْ كَانَ نَافِعًا وَلاسِيَّمَا إِذَا كَانَ مَا يَشْتَهِيهِ غِذَاءً»اهـ.

(٢) جاء في الأصل:[تبور] وما أثبتناه من مخطوط:(ي)، وهو الصواب؛ لتمام المعنىٰ به.

(٣) تُراجع الخاطرة رقم:[١٧٠-٨٢].

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنِّي أَخَافُ عَلَىٰ الزَّاهِدِ أَنْ تَكُونَ شَهْوَتُهُ انْقَلَبَتْ إِلَىٰ التَّرْكِ؛ فَصَارَ يَشْتَهِي أَلَّا يَتَنَاوَلَ، وَلِلنَّفْسِ فِي هَذَا مَكْرٌ خَفِيٌّ، وَرِيَاءٌ دَقِيقٌ، فَإِنْ سَلِمَتْ مِنَ الرِّيَاءِ لِلْخَلْقِ، كَانَتِ الْآفَةُ مِنْ جِهَةِ تَعَلُّقِهَا بِمِثْلِ هَذَا الْفِعْلِ، وَإِدْلَالُهَا فِي الْبَاطِنِ بِهِ، فَهَذِهِ مُخَاطَرَةٌ وَغَلَطٌ.

وَرُبَمَا قَالَ بَعْضُ الْجُهَّالِ: هَذَا صَدٌّ عَنِ الْخَيْرِ وَعَنِ الزُّهْدِ! وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْحَدِيثَ قَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»[1].

وَلا يَنْبَغِي أَنْ يُغْتَرَّ بِعِبَادَةِ جُرَيْجٍ، وَلا بِتَقْوَىٰ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ[2].

وَلَقَدْ دَخَلَ الْمُتَزَهِّدُونَ فِي طُرُقٍ لَمْ يَسْلُكْهَا الرَّسُولُ ﷺ وَلا أَصْحَابُهُ، مِنْ إِظْهَارِ التَّخَشُّعِ الزَّائِدِ فِي الْحَدِّ، وَالتَّنَوُّقِ فِي تَخْشِينِ الْمَلْبَسِ[3]، وَأَشْيَاءَ صَارَ الْعَوَامُّ يَسْتَحْسِنُونَهَا، وَصَارَتْ لِأَقْوَامٍ كَالْمَعَاشِ؛ يَجْتَنُونَ مِنْ أَرْبَاحِهَا تَقْبِيلَ الْيَدِ، وَتَوْفِيرَ التَّوْقِيرِ، وَحِرَاسَةَ النَّامُوسِ! وَأَكْثَرُهُمْ فِي خَلْوَتِهِ عَلَىٰ غَيْرِ حَالَتِهِ فِي جَلْوَتِهِ!!.

وَقَدْ كَانَ ابْنُ سِيرِينَ: «يَضْحَكُ بَيْنَ النَّاسِ قَهْقَهَةً، وإِذَا خَلَا بِاللَّيْلِ، فَكَأَنَّهُ قَتِلَ أَهْلَ الْقَرْيَةِ»[4].

---

(١) رواه مسلم، كِ: «الْأَقْضِيَةِ» بَ: «نَقْضِ الْأَحْكَامِ الْبَاطِلَةِ» (١٧١٨). ولفظه: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

(٢) جُرَيْجٍ الرَّاهِبِ الذي ورد ذكره في الحديث: «وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ، كَانَ يُصَلِّي، جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ، فَقَالَ: أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي...» رواه البخاري، كِ: «أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ» بَ: «قَوْلِ اللهِ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾» (٣٤٣٦). ومسلم، كِ: «الْبِرِّ وَالصِّلَةِ» بَ: «تَقْدِيمِ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ عَلَىٰ التَّطَوُّعِ بِالصَّلَاةِ» (٢٥٥٠).
وَذُو الْخُوَيْصِرَةِ، اثْنَانِ: أَحَدُهُمَا: التَّمِيمِيُّ، وَهُوَ حُرْقُوصُ بْنُ زُهَيْرٍ الَّذِي صَارَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ رُءُوسِ الْخَوَارِجِ.
وَالثَّانِي: هُوَ الْيَمَانِيُّ وَهُوَ الصَّحَابِيُّ الَّذِي: «بَالَ فِي الْمَسْجِدِ»، وَهُوَ الَّذِي قَالَ: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا»، وَهُوَ الَّذِي قَالَ: «مَتَىٰ السَّاعَةُ؟» وَهُوَ «الْمَشْهُودُ لَهُ بِالْجَنَّةِ»، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَبَيَّنَ أَنَّ الْبَائِلَ فِي الْمَسْجِدِ هُوَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ الْمَشْهُودُ لَهُ بِالْجَنَّةِ» [: «عارضة الأحوزي» (ج١/ ص٢٠٩) «وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ الَّذِي عَنَاهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ هُوَ: ذُو الْخُوَيْصِرَةِ الْيَمَانِيُّ رضي الله عنه وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ».

(٣) التَّنَوُّقِ: الْمُبَالَغَة. وفي «لسان العرب» لابن منظور (مادة: نوق): «وَقَالَ اللَّيْثُ: النِّيقَةُ مِنَ التَّنَوُّقِ، تَنَوَّقَ فُلَانٌ فِي مَنْطِقِهِ وَمَلْبَسِهِ وَأُمُورِهِ إِذَا تَجَوَّدَ وَبَالَغَ وَتَنَيَّقَ لُغَةٌ» اهـ.

(٤) ترجمة ابْنُ سِيرِينَ في: [٢٥-٣٢٢]. والخبر في «الزهد» لابن حنبل. (ص٢٤٩/ ح ١٧٨٢) عَنْ أُمِّ عَبَّادٍ امْرَأَةُ هِشَامِ بْنِ حَسَّانَ، قَالَتْ: «كُنَّا نُزُلًا مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ فِي دَارِهِ وَكُنَّا نَسْمَعُ بُكَاءَهُ فِي اللَّيْلِ يَعْنِي: وَضَحِكَهُ بِالنَّهَارِ».

فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ عِلْمًا نَافِعًا، فَهُوَ الأَصْلُ، فَمَتَىٰ حَصَلَ، أَوْجَبَ مَعْرِفَةَ الْمَعْبُودِ ﷻ، وَحَرَّكَ إِلَىٰ خِدْمَتِهِ بِمُقْتَضَىٰ مَا شَرَّعَهُ وَأَحَبَّهُ، وَسَلَكَ بِصَاحِبِهِ طَرِيقَ الإِخْلَاصِ.

وَأَصْلُ الأُصُولِ الْعِلْمُ، وَأَنْفَعُ الْعُلُومِ النَّظَرُ فِي سِيَرِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠] .

❁[١٨٦ - ٢٩٣][خَاطِرَةٌ]:

[نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ رِيَاءٍ يُبْطِلُ أَعْمَالَنَا]

تَأَمَّلْتُ عَلَىٰ مُتَزَهِّدِي زَمَانِنَا أَشْيَاءَ تَدُلُّ عَلَىٰ النِّفَاقِ وَالرِّيَاءِ، وَهُمْ يَدَّعُونَ الإِخْلَاصَ:

مِنْهَا: أَنَّهُمْ يَلْزَمُونَ زَاوِيَةً، فَلَا يَزُورُونَ صَدِيقًا، وَلَا يَعُودُونَ مَرِيضًا، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الانْقِطَاعَ عَنِ النَّاسِ؛ اشْتِغَالًا بِالْعِبَادَةِ.

وَإِنَّمَا هِيَ إِقَامَةُ نَوَامِيسَ؛ لِيُشَارَ إِلَيْهِمْ بِالانْقِطَاعِ؛ إِذْ لَوْ مَشَوْا بَيْنَ النَّاسِ؛ زَالَتْ هَيْبَتُهُمْ!

ومَا كَانَ النَّاسُ كَذَلِكَ . . . كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُ الْمَرِيضَ، وَيَشْتَرِي الْحَاجَةَ مِنَ السُّوقِ، وَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَتَّجِرُ فِي الْبَزِّ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ يَحْفُرُ الْقُبُورَ، وَأَبُو طَلْحَةَ أَيْضًا، وَابْنُ سِيرِينَ يُغَسِّلُ الْمَوْتَىٰ. وَمَا كَانَ عِنْدَ الْقَوْمِ إِقَامَةُ نَامُوسٍ[1].

---

(١) عادَ المريضَ: زاره للسؤال والمواساة أو للعلاج، وقد ثبت أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعُودُ الْمَرِيضَ؛ حتىٰ لقد عاد غلامًا يهوديًا كان يخدمه؛ فأسلم. وفي الحديث الذي رواه الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «التَّفْسِيرِ»(٣٧٣٤)و(٣٧٣٥) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«يَعُودُ الْمَرِيضَ..» وَعَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«يَأْتِي ضُعَفَاءَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَزُورُهُمْ وَيَعُودُ مَرْضَاهُمْ...»، وَأَمَّا قوله:«وَيَشْتَرِي الْحَاجَةَ مِنَ السُّوقِ» فيكفي في الدلالة عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠]؛ فَلِأَيِّ شَيْءٍ يَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ؟، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ؛ فترجمته في:[١٦٥-٤٠]. وَالْبَزُّ: الثِّيَاب وَالأَقْمِشَة. وَخَبَر تِجَارَته عُمُومًا؛ في:«الزهد» لابن حنبل.(ح/ ٥٧٣،٥٨٨). وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ؛ فترجمته في:[١٦٧-١٦٧]. وَأَبُو طَلْحَةَ زَيْدُ بنُ سَهْلِ بنِ الأَسْوَدِ الأَنْصَارِيُّ أَحَدُ أَعْيَانِ البَدْرِيِّينَ. مَاتَ:(٣٤هـ)، وَحَفْرُ الْقُبُورِ كان تطوعًا من أَبِي عُبَيْدَةَ وأَبِي طَلْحَةَ رضي الله عنهما؛ فقد روىٰ ابن =

وَأَصْحَابُنَا يَلْزَمُونَ الصَّمْتَ بَيْنَ النَّاسِ وَالتَّخَشُّعَ وَالتَّمَاوُتَ[١]، وَهَذَا هُوَ النِّفَاقُ.

فَقَدْ كَانَ ابْنُ سِيرِينَ: «يَضْحَكُ بِالنَّهَارِ، وَبَيْنَ النَّاسِ، وَيَبْكِي بِاللَّيْلِ»[٢].

وَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ الْمُتَزَهِّدِينَ مَنْ يَلْزَمُ الْمَسْجِدَ وَيُصَلِّي، فَيَجْتَمِعُ النَّاسُ، فَيُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَقَدْ شَاعَ هَذَا لَهُ، فَتَقْوَىٰ نَفْسُهُ عَلَيْهِ بِحُبِّ الْمَحْمَدَةِ[٣].

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ فِي صَلَاةِ التَّطَوُّعِ: «اجْعَلُوا هَذِهِ فِي الْبُيُوتِ»[٤].

وَفِي أَصْحَابِنَا مَنْ يُظْهِرُ الصَّوْمَ الدَّائِمَ، وَيَتَقَوَّتُ بِقَوْلِ النَّاسِ: فُلَانٌ مَا يُفْطِرُ أَصْلًا!![٥].

وَهَذَا الْأَبْلَهُ مَا يَدْرِي أَنَّهُ لِأَجْلِ النَّاسِ يَفْعَلُ ذَلِكَ، لَوْلَا هَذَا، كَانَ يُفْطِرُ، وَالنَّاسُ يَرَوْنَهُ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، حَتَّىٰ يَذْهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ الِاسْمُ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَىٰ الصَّوْمِ.

وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ: «إِذَا مَرِضَ، يَتْرُكُ عِنْدَهُ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَأْكُلُهُ الْأَصِحَّاءُ»[٦].

= ماجة في «سننه» كِتَابُ «الْجَنَائِزِ» (١٥٥٧). عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ بِالْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَلْحَدُ، وَآخَرُ يَضْرَحُ، فَقَالُوا: نَسْتَخِيرُ رَبَّنَا، وَنَبْعَثُ إِلَيْهِمَا، فَأَيُّهُمَا سُبِقَ تَرَكْنَاهُ، فَأُرْسِلَ إِلَيْهِمَا، فَسَبَقَ صَاحِبُ اللَّحْدِ «فَلَحَدُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ». وفي «سنن ابن ماجة» (ح/ ١٥٥٧). وفي «مسند أحمد» (ح/ ٣٩) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَحْفِرُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ يَضْرَحُ كَحَفْرِ أَهْلِ مَكَّةَ، وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ زَيْدُ بْنُ سَهْلٍ يَحْفِرُ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ فَكَانَ يَلْحَدُ...». وَابْنُ سِيرِينَ ترجمته في: [٢٥-٣٢٢]. والخبر في تغسيله للأموات رواه ابن أبي شيبة، كِتَابُ «الجنائز» (١١٣٠٦-١١٣٠٦).
وَكَانَ ذَلِكَ تَطَوُّعًا مِنِ ابْنِ سِيرِينَ؛ لِأَنَّ عَمَلَ ابْنِ سِيرِينَ الْأَصْلِيَّ هُوَ الِاتِّجَارُ بِالطَّعَامِ وَالزَّيْتِ.

(١) التَّخَشُّعَ: تكلُّف الخضوع والاستكانة. وَالتَّمَاوُتَ: تظاهر بالموت وهو حيٌّ. والمعنىٰ: أظهر من نفسه التخافت والتضاعف من العبادة والزُّهد والصَّوْم.

(٢) تقدم خبر ابْنُ سِيرِينَ في الخاطرة: [١٨٥ - ٣٦].

(٣) يعني: بِسَبَبِ حُبِّ الْمَحْمَدَةِ تَقْوَىٰ نَفْسُهُ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَفْعَالِ؛ فَيَكُوْنُ عَمَلُهُ مِنْ أَجْلِ الْمَحْمَدَةِ، لَا مِنْ أَجْلِ اللهِ.

(٤) رواه البخاري، كِ: «الصَّلَاةِ» (٤٣٢). ومسلم، كِ: «صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ» (٧٧٧). عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْعَلُوا فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ صَلَاتِكُمْ وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا»

(٥) وَيَتَقَوَّتُ؛ أي: يَعِيشُ مُفْتَخِرًا بِقَوْلِ النَّاسِ: فُلَانٌ مَا يُفْطِرُ أَصْلًا.

(٦) تقدمت ترجمة إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ في الخاطرة: [١٢٨-٣٦٢]. وَكَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ حَتَّىٰ يَظُنَّ مَنْ يَعُودُه بِأَنَّهُ مُفْطِرٌ.

وَرَأَيْتُ فِي زُهَّادِنَا مَنْ يُصَلِّي الْفَجْرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِالنَّاسِ، وَيَقْرَأُ الْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَالْمَعْنَىٰ: قَدْ خَتَمْتُ[(١)]!!

فَإِنَّ هَذِهِ الأَعْمَالَ هِيَ صَرِيحَةٌ فِي النِّفَاقِ وَالرِّيَاءِ.

وَفِيهِمْ مَنْ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ، وَهُوَ غَنِيٌّ، وَلا يُبَالِي أَخَذَ مِنَ الظَّلَمَةِ أَوْ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ، وَيَمْشِي إِلَىٰ الأُمَرَاءِ يَسْأَلُهُمْ، وَهُوَ يَدْرِي مِنْ أَيْنَ حُصِّلَتْ أَمْوَالُهُمْ.

فَاللهَ اللهَ فِي إِصْلَاحِ النِّيَّاتِ؛ فَإِنَّ جُمْهُورَ هَذِهِ الأَعْمَالِ مَرْدُودٌ.

قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: «وَقُولُوا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ صَادِقًا: لا يَتَعَنَّىٰ»[(٢)]!

وَلْيَعْلَمِ الْمُرَائِي أَنَّ الَّذِي يَقْصِدُهُ يَفُوتُهُ، وَهُوَ الْتِفَاتُ الْقُلُوبِ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَتَىٰ لَمْ يُخْلِصْ، حُرِمَ مَحَبَّةَ الْقُلُوبِ، وَلَمْ يُلْتَفَتْ إِلَيْهِ، وَالْمُخْلِصُ مَحْبُوبٌ.

فَلَوْ عَلِمَ الْمُرَائِي أَنَّ قُلُوبَ الَّذِينَ يُرَائِيهِمْ بِيَدِ مَنْ يَعْصِيهِ؛ لَمَا فَعَلَ.

وَكَمْ رَأَيْنَا مَنْ يَلْبَسُ الصُّوفَ، وَيُظْهِرُ النُّسُكَ، لا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ، وَآخَرُ يَلْبَسُ جَيِّدَ الثِّيَابِ، وَيَبْتَسِمُ، وَالْقُلُوبُ تُحِبُّهُ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ إِخْلَاصًا يُخَلِّصُنَا، وَنَسْتَعِيذُ بِهِ مِنْ رِيَاءٍ يُبْطِلُ أَعْمَالَنَا، إِنَّهُ قَادِرٌ.

*[١٨٧ - ٢٧٩][خَاطِرَةٌ]:

[مَا دَخَلَ عَلَى الزُّهَّادِ مِنَ الْكِبْرِ وَالْمُخَالَفَاتِ]

رَأَيْتُ فِي زُهَّادِ زَمَانِنَا مِنَ الْكِبْرِ، وَحِفْظِ النَّامُوسِ، وَرُتْبَةِ الْجَاهِ فِي قُلُوبِ الْعَامَّةِ، مَا كِدْتُ أَقْطَعُ بِهِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ أَهْلُ رِيَاءٍ وَنِفَاقٍ!

(١) بمعنىٰ أن هذا الذي يقرأ في صلاة الفجر بالمعوذتين؛ كأنه بلسان حاله يقول للناس: ها أنا ذا قد قرأت ختمة كاملة الليلة، وهذا آخرها!!. ولو كان نيته غير ذلك لكان بإمكانه قراءتهما قبل الصلاة أو بعدها سرًّا.

(٢) أي: يتعب. وترجمة مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ في الخاطرة:[١٢٣-٢٥].وخبره في «حلية الأولياء»(ج٢/ ص٣٦٠).

فَتَرَىٰ أَحَدَهُمْ يَلْبَسُ الثَّوْبَ الَّذِي يُرَىٰ بِعَيْنِ الزُّهْدِ، وَيَأْكُلُ أَطَايِبَ الطَّعَامِ، وَيَتَكَبَّرُ عَلَىٰ أَبْنَاءِ الْجِنْسِ، وَيُصَادِقُ الْأَغْنِيَاءَ، وَيُبَاعِدُ الْفُقَرَاءَ، وَيُحِبُّ الْخِطَابَ بـ«مَوْلَانَا»[1]، وَالْمَشْيَ بِحَاجِبِهِ، وَيُضِيعُ الزَّمَانَ فِي الْهَذَيَانِ، وَيَتَقَوَّتُ بِخِدْمَةِ النَّاسِ لَهُ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ.

وَلَوْ أَنَّهُ لَبِسَ ثَوْبًا يَخْلِطُهُ بِالْفُقَهَاءِ؛ لَذَهَبَ الْجَاهُ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مُتَعَلَّقٌ! وَلَوْ أَنَّ أَفْعَالَهُ نَاسَبَتْ ثِيَابَهُ لَهَانَ الْأَمْرُ، لَكِنَّهُمْ بَهْرَجُوا[2] عَلَىٰ مَنْ لَا يَخْفَىٰ أَمْرُهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخَلْقِ؛ فَكَيْفَ الْخَالِقُ تَعَالَىٰ؟!

*[١٨٨ - ٢٠٣][خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ غَيْرِهِ فَقَدْ تَكَبَّرَ]

اعتَبَرْتُ[3] عَلَىٰ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ أَنَّهُمْ يُبْطِنُونَ الْكِبْرَ؛ فَهَذَا يَنْظُرُ فِي مَوْضِعِهِ، وَارْتِفَاعِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ، وَهَذَا لَا يَعُودُ مَرِيضًا فَقِيرًا، يَرَىٰ نَفْسَهُ خَيْرًا مِنْهُ ...

حَتَّىٰ إِنِّي رَأَيْتُ جَمَاعَةً يُومَأُ إِلَيْهِمْ[4]:

مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَا أُدْفَنُ إِلَّا فِي دِكَّةِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ[5]! وَيَعْلَمُ أَنَّ فِي ذَلِكَ كَسْرَ عِظَامِ الْمَوْتَىٰ، ثُمَّ يَرَىٰ نَفْسَهُ أَهْلًا لِذَلِكَ التَّصَدُّرِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: ادْفِنُونِي إِلَىٰ جَانِبِ مَسْجِدِي! ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ يَصِيرُ بَعْدَ مَوْتِهِ مَزَارًا؛ كَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِيِّ[6].

---

(١) جاء في الأصل:[لمولانا]، وما أثبتناه؛ لتمام المعنى به.

(٢) بَهْرَجُوا؛ أي: زوَّقوا، وزيَّنوا أمورهم كذبًا.

(٣) الِاعْتِبَارُ هُنَا: الِاخْتِبَارُ وَالِامْتِحَانُ، مِثْلُ: اعْتَبَرْتُ الدَّرَاهِمَ فَوَجَدْتُهَا أَلْفًا. وَيَكُونُ الِاعْتِبَارُ بِمَعْنَىٰ: الِاتِّعَاظِ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝﴾ [الحشر:٢]. . وَيَكُونُ الِاعْتِبَارُ بِمَعْنَىٰ: الِاعْتِدَادِ بِالشَّيْءِ فِي تَرَتُّبِ الْحُكْمِ.

(٤) يُومَأُ إِلَيْهِمْ: يُشار إليهم باليد أو بالعين أو بالحاجب أو بالرأس أو غيرها؛ كدلالة على المعرفة.

(٥) ترجمة أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ في:[٢٤-١٧٩]. ودكة أحمد؛ أي: التربة أو المقبرة التي دفن فيها رحمه الله.

(٦) تقدمت ترجمة مَعْرُوفٍ الْكَرْخِيِّ رحمه الله في الخاطرة:[٢٤-١٧٩].

وَهَذِهِ خَلَّةٌ مُهْلِكَةٌ! وَلا يَعْلَمُونَ!!

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ غَيْرِهِ، فَقَدْ تَكَبَّرَ»(١).

وَقَلَّ مَنْ رَأَيْتُ إِلَّا وَهُوَ يَرَىٰ نَفْسَهُ(٢)!

وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَرَىٰ نَفْسَهُ! أَتَرَاهُ بِمَاذَا رَآهَا؟! إِنْ كَانَ بِالْعِلْمِ؛ فَقَدْ سَبَقَهُ الْعُلَمَاءُ، وَإِنْ كَانَ بِالتَّعَبُّدِ، فَقَدْ سَبَقَهُ الْعُبَّادُ، أَوْ بِالْمَالِ، فَإِنَّ الْمَالَ لا يُوجِبُ بِنَفْسِهِ فَضِيلَةً دِينِيَّةً.

فَإِنْ قَالَ: قَدْ عَرَفْتُ مَا لَمْ يَعْرِفْ غَيْرِي مِنَ الْعِلْمِ فِي زَمَنِي، فَمَا عَلَيَّ مِمَّنْ تَقَدَّمَ؟

قِيلَ لَهُ: مَا نَأْمُرُكَ يَا حَافِظَ الْقُرْآنِ أَنْ تَرَىٰ نَفْسَكَ فِي الْحِفْظِ كَمَنْ يَحْفَظُ النِّصْفَ، وَلا يَا فَقِيهُ أَنْ تَرَىٰ نَفْسَكَ فِي الْعِلْمِ كَالْعَامِّيِّ؛ إِنَّمَا نُحَذِّرُ عَلَيْكَ أَنْ تَرَىٰ نَفْسَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ الشَّخْصِ الْمُؤْمِنِ، وَإِنْ قَلَّ عِلْمُهُ؛ فَإِنَّ الْخَيْرِيَّةَ بِالْمَعَانِي لا بِصُورَةِ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ.

وَمَنْ تَلَمَّحَ خِصَالَ نَفْسِهِ وَذُنُوبَهَا؛ عَلِمَ أَنَّهُ عَلَىٰ يَقِينٍ مِنَ الذُّنُوبِ وَالتَّقْصِيرِ، وَهُوَ مِنْ حَالِ غَيْرِهِ عَلَىٰ شَكٍّ؛ فَالَّذِي يُحَذَّرُ مِنْهُ الْإِعْجَابُ بِالنَّفْسِ، وَرُؤْيَةُ التَّقَدُّمِ فِي أَحْوَالِ الْآخِرَةِ.

وَالْمُؤْمِنُ لا يَزَالُ يَحْتَقِرُ نَفْسَهُ(٣).

وَقَدْ قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ﵀: إِنْ مِتَّ، نَدْفِنُكَ فِي حُجْرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: «لأَنْ أَلْقَىٰ اللهَ بِكُلِّ ذَنْبٍ غَيْرَ الشِّرْكِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَرَىٰ نَفْسِي أَهْلًا لِذَلِكَ»(٤).

وَقَدْ رُوِّينَا: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الرُّهْبَانِ رَأَىٰ فِي الْمَنَامِ قَائِلًا يَقُولُ لَهُ: فُلَانٌ الْإِسْكَافِيُّ خَيْرٌ

---

(١) هَذَا مِنْ قَوْلِ أَبِي حَازِمٍ سَلَمَةَ بن دِينَارٍ ﵀؛ كما في «مدارة الناس»(ح١٤٥): «مَنْ رَأَىٰ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ غَيْرِهِ فَهُوَ مُسْتَكْبِرٌ» ورواه أبو نعيم في «الحلية»(ج٧/ ص٢٧١، ٢٧٢) عَنْ اِبْنَ عُيَيْنَةَ ﵀: «مَنْ رَأَىٰ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ غَيْرِهِ فَقَدِ اسْتَكْبَرَ». ولم أجده فيما بين يديَّ من المصادر مرفوعًا للنبيِّ ﷺ.

(٢) يَعْنِي: قَلَّ مَنْ رَأَيْتُ إِلَّا وَهُوَ مُعْجَبٌ بِنَفْسِهِ، وَيَرَىٰ أَنَّهُ خَيرًا مِنْ غَيْرِهِ.

(٣) يَحْتَقِرُ نَفْسَهُ؛ بمعنىٰ: يستصغر نفسه، لا بمعنىٰ: الاستهانة والازدراء.

(٤) ترجمة عُمَر في:[١٤٨-٣٣٨]. وخبره في «الطبقات» لابن سعد.(ج٥/ ص٣٩٥)، «الحلية» لأبي نعيم. (ج٥/ ص٣٣٥): «لأَنْ يُعَذِّبَنِي اللهُ بِكُلِّ عَذَابٍ إِلا النَّارَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَعْلَمَ - اللهُ - أَنِّي - أَرَىٰ أَنِّي لِذَلِكَ أَهْلٌ - لِذَلِكَ أَهْلًا».

مِنْكَ[١]! فَنَزَلَ مِنْ صَوْمَعَتِهِ، فَجَاءَ إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ عَنْ عَمَلِهِ، فَلَمْ يَذْكُرْ كَبِيرَ عَمَلٍ! فَقِيلَ لَهُ فِي الْمَنَامِ: عُدْ إِلَيْهِ، وَقُلْ لَهُ: مِمَّ صُفْرَةُ وَجْهِكَ؟ فَعَادَ، فَسَأَلَهُ؟ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ مُسْلِمًا؛ إِلَّا وَظَنَنْتُهُ خَيْرًا مِنِّي. فَقِيلَ لَهُ: فَبِذَاكَ ارْتَفَعَ.

---

*[١٨٩ - ٨٦][خَاطِرَةٌ]:

[أعجبُ العجبِ دعوى المعرفةِ معَ البُعدِ عنِ العرفانِ]

أَعْجَبُ الْعَجَبِ دَعْوَىٰ الْمَعْرِفَةِ مَعَ الْبُعْدِ عَنِ الْعِرْفَانِ بِاللهِ! مَا عَرَفَهُ إِلَّا مَنْ خَافَ مِنْهُ[٢]؛ فَأَمَّا الْمُطْمَئِنُّ؛ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ.

وَفِي الْمُتَزَهِّدِينَ أَهْلُ تَغْفِيلٍ، يَكَادُ أَحَدُهُمْ يُوَطِّنُ [نَفْسَهُ[٣]] عَلَىٰ أَنَّهُ وَلِيٌّ مَحْبُوبٌ وَمَقْبُولٌ!

وَرُبَمَا تَوَالَتْ عَلَيْهِ أَلْطَافٌ ظَنَّهَا كَرَامَاتٍ، وَنَسِيَ الِاسْتِدْرَاجَ، الَّذِي لَفَّتَ مُسَاكَنَتَهُ الْأَلْطَافُ![٤].

وَرُبَّمَا احْتَقَرَ غَيْرَهُ، وَظَنَّ أَنَّ مَحِلَّتَهُ مَحْفُوظَةٌ بِهِ[٥]! تَغُرُّهُ رُكَيْعَاتٌ يَتَنَصَّبُ فِيهَا، أَوْ عِبَادَةٌ يَنْصَبُ بِهَا![٦].

---

(١) الإِسْكَافِيُّ: صَانِعُ الأَحذِيَةِ وَمُصْلِحِهَا.

(٢) جاء في الأصل:[إلا ما خاف] وما أثبتناه من مخطوط:(ي).

(٣) ليست في الأصل ولا المخطوط، وأثبتناها لتمام المعنىٰ بها. وقد جاء في الأصل والمخطوط:[يوطن علىٰ]. وفي المطبوع:[يُوقِنُ أنه وليّ]. ومعنىٰ: يُوَطِّنُ نَفْسَهُ؛ أي: يَحمِلُهَا وَيُهَيِّئُهَا.

(٤) الاِسْتِدْرَاج: هو أنّه كلما جدد العبد خطيئة جدد الله له نعمة، وأنساه الاستغفار إلىٰ أن يأخذه ولا يباغته. وصاحب الكرامة لا يستأنس بهذه النِّعَم بل يصير خوفه من الله أشدّ وحذره أقوىٰ، وإن كان بحسب الواقع كرامة له.

(٥) يعني: ربما ظن هذا الجاهل أن بلده وموطنه الذي يسكنه محفوظة من السوء بسبب وجوده فيها.

(٦) أي: يتعب

وَرُبَّمَا ظَنَّ أَنَّهُ قُطْبُ الأَرْضِ! وَأَنَّهُ لا يَنَالُ مَقَامَهُ بَعْدَهُ أَحَدٌ!!

وَكَأَنَّهُ مَا عَلِمَ أَنَّهُ بَيْنَا مُوسَىٰ مُكَالَمٌ، نُبِّئَ يُوشَعُ(١)!

وَبَيْنَا زَكَرِيَّا عليه السلام مُجَابُ الدَّعْوَةِ؛ نُشِرَ بِالْمِنْشَارِ!

وَبَيْنَا يَحْيَىٰ عليه السلام يُوصَفُ بِأَنَّهُ سَيِّدٌ؛ سُلِّطَ عَلَيْهِ كَافِرٌ احْتَزَّ رَأْسَهُ(٢)!

وَبَيْنَا بَلْعَامُ مَعَهُ الِاسْمُ الأَعْظَمُ؛ صَارَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ(٣)!

وَبَيْنَا الشَّرِيعَةُ يُعْمَلُ بِهَا؛ نُسِخَتْ، وَبَطَلَ حُكْمُهَا!

وَبَيْنَا الْبَدَنُ مَعْمُورٌ؛ خَرِبَ، وَسُلِّطَ الْبَلَاءُ عَلَيْهِ!

وَبَيْنَا الْعَالِمُ يَدْأَبُ حَتَّىٰ يَنَالَ مَرْتَبَةً يَعْتَقِدُهَا؛ نَشَأَ طِفْلٌ فِي زَمَانِهِ، تَرَقَّىٰ إِلَىٰ سَبْرِ عُيُوبِهِ وَغَلَطِهِ(٤).

---

(١) بَيْنَا؛ أي: بَيْنَما. وَيُوشَعُ هُوَ: يُوشَعُ بْنُ نُونِ بْنِ أَفْرَايِيمَ بْنِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليهم السلام، وَأَهْلُ الْكِتَابِ يَقُولُونَ: يُوشَعُ بْنُ عَمِّ هُودٍ. وَقَدْ ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْقُرْآنِ غَيْرَ مُصَرَّحٍ بِاسْمِهِ فِي قِصَّةِ الْخَضِرِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠] . ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٢] . وَثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ»، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، مِنْ أَنَّهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ». * وَفِي قَوْلِ الإِمَامِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ رحمه الله: [نُبِّئَ يُوشَعُ] إِشَارَةٌ إِلَىٰ مَا حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، مِنْ أَنَّ النُّبُوَّةَ حُوِّلَتْ مِنْ مُوسَىٰ إِلَىٰ يُوشَعَ فِي آخِرِ عُمْرِ مُوسَىٰ». قَالَ الإِمَامُ ابْنُ كَثِيرٍ رحمه الله: «فَفِي هَذَا نَظَرٌ؛ لِأَنَّ مُوسَىٰ عليه السلام لَمْ يَزَلِ الأَمْرُ، وَالْوَحْيُ، وَالتَّشْرِيعُ، وَالْكَلَامُ مِنَ اللهِ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ عز وجل وَلَمْ يَزَلْ مُعَزَّزًا، مُكَرَّمًا، مُدَلَّلًا، وَجِيهًا عِنْدَ اللهِ ... فَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، إِنْ كَانَ إِنَّمَا يَقُولُهُ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ»[يُرَاجع: «البداية والنهاية»(ج٢/ ص٢٢٧)][ذِكْرُ نُبُوَّةِ يُوشَعَ]

(٢) نَشر زَكَرِيَّا عليه السلام بِالمِنْشَار، وَقَتْل يَحيَىٰ عليه السلام سبق التعليق عليه في الخاطرة رقم:[٣٠-٢٧٢].

(٣) بَلْعَامُ بْنُ بَاعِرٍ، وَقِيلَ: بَلْعَمُ بْنُ بَاعُورَاءَ. وَقِيلَ: بَلْعَمُ بْنُ مُحَرَّرٍ، كَانَ يَسْكُن قَرْيَةً مِنْ قُرَىٰ البلقَاء، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَعرِف إِسْم الله الأَعظَم؛ فَانْسَلَخَ مِنْ دِينِهِ. وَيُشِيرُ ابْنِ الجَوزِيِّ بِقَوْلِهِ:[صَارَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ] إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]

(٤) سَبْر: خَبَرَ وَكَشَفَ عُيُوبه وَغَلَطه.

وَكَمْ مِنْ مُتَكَلِّمٍ يَقُولُ: مَا مِثْلِي! لَوْ عَاشَ فَسَمِعَ مَا حَدَثَ بَعْدَهُ مِنَ الْفَصَاحَةِ؛ عَدَّ نَفْسَهُ أَخْرَسَ!

هَذَا وَعْظُ ابْنِ السَّمَّاكِ وَابْنِ عَمَّارٍ وَابْنِ سَمْعُونَ[1]؛ لَا يَصْلُحُ لِبَعْضِ تَلَامِذَتِنَا وَلَا يَرْضَاهُ.

فَكَيْفَ يَعْجَبُ مَنْ يُنْفِقُ شَيْئًا[2]؟! وَرُبَّمَا أَتَىٰ بَعْدَنَا مَنْ لا يَعُدُّنَا!!

فَاللهَ اللهَ مِنْ مُسَاكَنَةِ مَسْكَنٍ، وَمُخَالَفَةِ مَقَامٍ ... وَلْيَكُنِ الْمُتَيَقِّظُ عَلَىٰ انْزِعَاجٍ، مُحْتَقِرًا لِلْكَثِيرِ مِنْ طَاعَاتِهِ، خَائِفًا عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ تَقَلُّبَاتِهِ، وَنُفُوذِ الأَقْدَارِ فِيهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ تَلَمُّحَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ الَّتِي أَشَرْتُ إِلَيْهَا يَضْرِبُ عُنُقَ الْعُجْبِ، وَيُذْهِبُ كِبْرَ الْكِبْرِ[3].

---

*[١٩٠ - ١٤٣][خَاطِرَةٌ]:

[أعظمُ فتنةٍ مُقاربةُ الفتنةِ]

مَا رَأَيْتُ أَعْظَمَ فِتْنَةً مِنْ مُقَارَبَةِ الْفِتْنَةِ، وَقَلَّ أَنْ يُقَارِبَهَا إِلَّا مَنْ يَقَعُ فِيهَا: «وَمَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَىٰ، يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»[4].

قَالَ بَعْضُ الْمُعْتَبِرِينَ: قَدَرْتُ مَرَّةً عَلَىٰ لَذَّةٍ ظَاهِرُهَا التَّحْرِيمُ، وَتَحْتَمِلُ الإِبَاحَةَ؛ إِذِ الأَمْرُ فِيهَا مُرَدَّدٌ؛ فَجَاهَدْتُ النَّفْسَ، فَقَالَتْ: أَنْتَ مَا تَقْدِرُ؛ فَلِهَذَا تَتْرُكُ؛ فَقَارِبِ الْمَقْدُورَ عَلَيْهِ؛ فَإِذَا تَمَكَّنْتَ؛ فَتَرَكْتَ؛ كُنْتَ تَارِكًا حَقِيقَةً. فَفَعَلْتُ، وَتَرَكْتُ.

---

(١) ابْنُ السَّمَّاكِ: أَبُو العَبَّاسِ مُحَمَّدُ بنُ صَبِيحٍ العِجْلِيُّ الزَّاهِدُ، القُدْوَةُ، سَيِّدُ الوُعَّاظِ. مَاتَ:(١٨٣هـ). وَابْنِ عَمَّارٍ: مَنْصُورُ بنُ عَمَّارِ بنِ كَثِيرٍ أَبُو السَّرِيِّ السُّلَمِيُّ، كَانَ عَدِيمَ النَّظِيرِ فِي المَوْعِظَةِ وَالتَّذْكِيرِ. لَيْسَ بِالقَوِيِّ. مَاتَ:(٢٠٠هـ). وَابْنُ سَمْعُونَ: أَبُو الحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ، الشَّيْخُ، الإِمَامُ، الوَاعِظُ الكَبِيرُ. مَاتَ سَنَةَ:(٣٨٧هـ).

(٢) جاء في حاشية الأصل:[كذا في الهندية. وفي الأحمدية: يتفق شيئا]

(٣) مُعظمه وجلّه.

(٤) رواه البخاري، كِ:«البُيوعِ»(٢٠٥١). من حديث النُّعْمَان بن بَشِيرٍ وفيه:«مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الحِمَىٰ يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ».

ثُمَّ عَاوَدَتْ مَرَّةً أُخْرَىٰ فِي تَأْوِيلٍ، أَرَتْنِي فِيهِ الْجَوَازَ، وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ يَحْتَمِلُ، فَلَمَّا وَافَقْتُهَا؛ أَثَّرَ ذَلِكَ ظُلْمَةً فِي قَلْبِي؛ لِخَوْفِ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ مُحَرَّمًا.

فَرَأَيْتُ أَنَّهَا تَارَةً تَقْوَىٰ عَلَيَّ بِالتَّرَخُّصِ وَالتَّأْوِيلِ، وَتَارَةً أَقْوَىٰ عَلَيْهَا بِالْمُجَاهَدَةِ وَالِامْتِنَاعِ؛ فَإِذَا تَرَخَّصْتُ، لَمْ آمَنْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْأَمْرُ مَحْظُورًا، ثُمَّ أَرَىٰ عَاجِلًا تَأْثِيرَ ذَلِكَ الْفِعْلِ فِي الْقَلْبِ.

فَلَمَّا لَمْ آمَنْ عَلَيْهَا التَّأْوِيلَ؛ تَفَكَّرْتُ فِي قَطْعِ طَمَعِهَا مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْمُؤَثِّرِ، فَلَمْ أَرَ ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ قُلْتُ لَهَا: قَدِّرِي أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ مُبَاحٌ قَطْعًا؛ فَوَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؛ لَا عُدْتُ إِلَيْهِ. فَانْقَطَعَ طَمَعُهَا بِالْيَمِينِ وَالْمُعَاهَدَةِ.

وَهَذَا أَبْلَغُ دَوَاءٍ وَجَدْتُهُ فِي امْتِنَاعِهَا؛ لِأَنَّ تَأْوِيلَهَا لَا يَبْلُغُ إِلَىٰ أَنْ تَأْمُرَ بِالْحِنْثِ وَالتَّكْفِيرِ.

فَأَجْوَدُ الْأَشْيَاءِ قَطْعُ أَسْبَابِ الْفِتَنِ، وَتَرْكُ التَّرَخُّصِ فِيمَا يَجُوزُ، إِذَا كَانَ حَامِلًا وَمُؤَدِّيًا إِلَىٰ مَا لَا يَجُوزُ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

*[١٩١ - ٧١][خَاطِرَةٌ]:

[بَيَانُ مَدَاخِلِ الْآفَاتِ]

اعْلَمْ أَنَّ شَرْعَنَا مَضْبُوطُ الْأُصُولِ مَحْرُوسُ الْقَوَاعِدِ، لَا خَلَلَ فِيهِ وَلَا دَخَلَ[١]، وَكَذَلِكَ كُلُّ الشَّرَائِعِ.

إِنَّمَا الْآفَةُ تَدْخُلُ مِنَ الْمُبْتَدِعِينَ فِي الدِّينِ أَوِ الْجُهَّالِ.

مِثْلُ مَا أُثِرَ عَنِ النَّصَارَىٰ حِينَ رَأَوْا إِحْيَاءَ الْمَوْتَىٰ عَلَىٰ يَدِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَتَأَمَّلُوا الْفِعْلَ الْخَارِقَ لِلْعَادَةِ، الَّذِي لَا يَصْلُحُ لِلْبَشَرِ، فَنَسَبُوا الْفَاعِلَ إِلَىٰ الْإِلَهِيَّةِ. وَلَوْ تَأَمَّلُوا ذَاتَهُ[٢]، لَعَلِمُوا

(١) الخَلَل: اضطراب الشيء وعدم انتظامه. الدَّخَلَ: الخِداع والمكر أو الفساد أو العَيْبُ والغِشُّ.

(٢) يعني: ذات المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ عَلَىٰ النَّقَائِصِ وَالْحَاجَاتِ، وَهَذَا الْقَدْرُ يَكْفِي فِي عَدَمِ صَلَاحِ إِلَهِيَّتِهِ، فَيُعْلَمُ حِينَئِذٍ أَنَّ مَا جَرَىٰ عَلَىٰ يَدَيْهِ فِعْلُ غَيْرِهِ.

وَقَدْ يُؤَثِّرُ ذَلِكَ فِي الْفُرُوعِ؛ مِثْلُ مَا رُوِيَ: «أَنَّهُ فُرِضَ عَلَىٰ النَّصَارَىٰ صَوْمُ شَهْرٍ، فَزَادُوا عِشْرِينَ يَوْمًا، ثُمَّ جَعَلُوهُ فِي فَصْلٍ مِنَ السَّنَةِ بِآرَائِهِمْ»(١).

وَمِنْ هَذَا الْجِنْسِ تَخْبِيطُ الْيَهُودِ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ.

وَقَدْ قَارَبَ الضُّلَّالُ فِي أُمَّتِنَا هَذِهِ الْمَسَالِكَ، وَإِنْ كَانَ عُمُومُهُمْ قَدْ حُفِظَ مِنَ الشِّرْكِ وَالشَّكِّ وَالْخِلَافِ الظَّاهِرِ الشَّنِيعِ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْقَلُ الْأُمَمِ وَأَفْهَمُهَا؛ غَيْرَ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَارَبَ بِهِمْ، وَلَمْ يَطْمَعْ فِي إِغْرَاقِهِمْ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَغْرَقَ بَعْضَهُمْ فِي بِحَارِ الضَّلَالِ.

فَمِنْ ذَلِكَ(٢): أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ جَاءَ بِكِتَابٍ عَزِيزٍ مِنَ اللهِ ﷻ، قِيلَ فِي صِفَتِهِ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام:٣٨]، وَبَيَّنَ مَا عَسَاهُ يُشْكِلُ(٣) مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَىٰ بَيَانِهِ بِسُنَّتِهِ؛ كَمَا قِيلَ لَهُ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل:٤٤]، فَقَالَ بَعْدَ الْبَيَانِ: «تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ»(٤).

فَجَاءَ أَقْوَامٌ فَلَمْ يَقْنَعُوا بِتَبْيِينِهِ، وَلَمْ يَرْضَوْا بِطَرِيقَةِ أَصْحَابِهِ، فَبَحَثُوا، ثُمَّ انْقَسَمُوا:

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] عَنِ الشَّعْبِيِّ وَالسُّدِّيِّ. ورواه الطبراني في «الكبير»(٤٢٠٣) عَنْ دَغْفَلِ بْنِ حَنْظَلَةَ، مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا. كَمَا ذَكَرَهُ الإِمَامِ الهَيْثَمِي في «المجمع»(ج٣/ ص١٣٩/ ح٤٧٧١): «كَانَ عَلَى النَّصَارَىٰ صَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ مَلِكٌ فَمَرِضَ، فَقَالَ: لَئِنْ شَفَاهُ اللهُ لَيَزِيدَنَّ عَشَرَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ كَانَ عَلَيْهِمْ مَلِكٌ بَعْدَهُ فَأَكَلَ اللَّحْمَ فَوَجِعَ، فَقَالَ: لَئِنْ شَفَاهُ اللهُ لَيَزِيدَنَّ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ كَانَ عَلَيْهِمْ مَلِكٌ بَعْدَهُ فَقَالَ: مَا يَفْرُغُ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ أَنْ نُتِمَّهَا، وَنَجْعَلَ صِيَامَنَا فِي الرَّبِيعِ، فَصَارَتْ خَمْسِينَ يَوْمًا». رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» مَوْقُوفًا عَلَىٰ دَغْفَلٍ، وَرِجَالُ إِسْنَادِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

(٢) هُنَا سَيَتَكَلَّمُ الإِمَامِ ابْنِ الجَوْزِيِّ عَنِ الْمَدْخَلِ الأَوَّلِ مِنْ مَدَاخِلِ الآفَاتِ عَلَىٰ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ: المُتَكَلِّمِين. وَقَدْ تَكَلَّمَ فِي الخَاطِرَةِ رَقَم:[١٢٨-١٦٣] عَنْ الدَّخَلَ الَّذِي دَخَلَ فِي دِينِنَا فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ مِنَ الفَلْسَفَةِ وَالرَّهْبَانِيَّةِ.

(٣) يُشْكِل: يَلْتَبِس مَعْنَاهُ.

(٤) رواه البيهقي في «الشعب»(١٧٤). ورواه أحمد في «المسند»(١٥١٥٦): «لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً». وابن ماجة في «سننه» كِتَابُ «المقدمة» بَابُ «اتِّبَاعِ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»(٥): «لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ».

فَمِنْهُمْ مَنْ تَعَرَّضَ لِمَا تَعِبَ الشَّرْعُ فِي إِثْبَاتِهِ[١] فِي الْقُلُوبِ فَمَحَاهُ مِنْهَا.

فَإِنَّ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ يُثْبِتَانِ الإِلَهَ ﷻ بِأَوْصَافٍ تُقَرِّرُ وُجُودَهُ فِي النُّفُوسِ:

كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأَعْرَافُ: ٥٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[الْمَائِدَةُ: ٦٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[طَهَ: ٣٩].

وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَنْزِلُ اللهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا»[٢]، «وَيَبْسِطُ يَدَهُ لِمُسِيءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»[٣]، وَ«يَضْحَكُ»، وَ«يَغْضَبُ»[٤].

وَكُلُّ هَذِهِ الأَشْيَاءِ - وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهَا يُوجِبُ تَخَايُلَ التَّشْبِيهِ - فَالْمُرَادُ مِنْهَا إِثْبَاتُ مَوْجُودٍ، فَلَمَّا عَلِمَ الشَّرْعُ مَا يَطْرُقُ الْقُلُوبَ مِنَ التَّوَهُّمَاتِ عِنْدَ سَمَاعِهَا؛ قَطَعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشُّورَىٰ: ١١].

ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ عَادُوا إِلَىٰ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ الْمُعْجِزُ الأَكْبَرُ، وَقَدْ قَصَدَ الشَّرْعُ تَقْرِيرَ وُجُودِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾[الْقَدْرُ: ١]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[الشُّعَرَاءُ: ١٩٣]، ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا

---

(١) تَعِبَ الشَّرْعُ فِي إِثْبَاتِهِ؛ أَي: بَالَغَ.

(٢) رواه مسلم كِتَابُ «صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا»(٧٥٨). ويُرجىٰ مُراجعة التعليق على الخاطرة رقم: [٣٦-٢٣٨].

(٣) رواه مسلم، كِ: «التَّوْبَةِ» ب: «قَبُولِ التَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ»(٢٧٥٩). عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

(٤) اعلَم أَنَّ اللهَ ﷻ يَغْضَبُ، وَيَرْضَىٰ، وَيُحِبُّ، وَيَكْرَهُ، وَيَضْحَكُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٩٣]، وَقَالَ: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[المائدة: ٦٠]، وَقَالَ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[المائدة: ١١٩]، وَقَالَ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الفتح: ١٨]؛ وَقَالَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١]، وَقَالَ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾[التوبة: ٤٦]؛ فَهَذَا وَشِبْهُهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ، وَجَاءَتِ السُّنَّةُ عَنِ الْمُصْطَفَىٰ ﷺ بِمَا يُوَافِقُ ذَلِكَ وَيُضَاهِيهِ، وَعَلَىٰ سَبِيلِ الْمِثَالِ لَا الحصر يُراجع ما رواه البخاري، كِ: «الْجِهَادِ»(٢٨٢٦). وَكِ: «مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ»(٣٧٩٨). وَكِ: «التَّوْحِيدِ» (٧٤٣٧). وَكِ: «أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ»(٣٣٤٠). ومسلم، كِ: «الإِيمَانَ»(١٨٢-١٩٤). وَكِ: «الإِمَارَةِ»(١٨٩٠). وَكِ: «فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ»(٢٥٠٤). كُلُّ ذَلِكَ مَعَ الاعتِقَاد بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١]. ويُرجىٰ مُراجعة التعليق على الخاطرة: [٤٧-٦١]

ٱلْحَدِيثِ﴾[القَلَم: ٤٤]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾[الأنعَام: ٩٢]، وَأَثْبَتَهُ فِي الْقُلُوبِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾[العَنْكَبُوتُ: ٤٩]، وَفِي الْمَصَاحِفِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[البُرُوجُ: ٢٢]، وَقَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: «لا تُسَافِرُوا بِالْقُرْآنِ إِلَىٰ أَرْضِ الْعَدُوِّ»(١).

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ هَؤُلاءِ: مَخْلُوقٌ(٢)! فَأَسْقَطُوا حُرْمَتَهُ مِنَ النُّفُوسِ، وَقَالُوا: لَمْ يَنْزِلْ! وَلَا يُتَصَوَّرُ نُزُولُهُ! وَكَيْفَ تَنْفَصِلُ الصِّفَةُ عَنِ الْمَوْصُوفِ؟! وَلَيْسَ فِي الْمُصْحَفِ إِلَّا حِبْرٌ وَوَرَقٌ! فَعَادُوا عَلَىٰ مَا تَعِبَ الشَّارِعُ فِي إِثْبَاتِهِ بِالْمَحْوِ(٣).

كَمَا قَالُوا(٤): إِنَّ اللهَ ﷻ لَيْسَ فِي السَّمَاءِ! وَلا يُقَالُ: اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ! وَلا يَنْزِلُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا! بَلْ ذَاكَ رَحْمَتُهُ!! فَمَحَوْا مِنَ الْقُلُوبِ مَا أُرِيدَ إِثْبَاتُهُ فِيهَا، وَلَيْسَ هَذَا مُرَادَ الشَّارِعِ.

وَجَاءَ آخَرُونَ، فَلَمْ يَقِفُوا عَلَىٰ مَا حَدَّهُ الشَّرْعُ، بَلْ عَمِلُوا فِيهِ بِآرَائِهِمْ، فَقَالُوا: اللهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ، وَلَمْ يَقْنَعُوا بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعْرَاف: ٥٤].

وَدَفَنَ لَهُمْ أَقْوَامٌ مِنْ سَلَفِهِمْ دَفَائِنَ، وَوَضَعَتْ لَهُمُ الْمَلَاحِدَةُ أَحَادِيثَ، فَلَمْ يَعْلَمُوا مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مِمَّا لَا يَجُوزُ، فَأَثْبَتُوا بِهَا صِفَاتٍ جُمْهُورِ الصَّحِيحِ مِنْهَا آتٍ عَلَىٰ تَوَسُّعِ الْعَرَبِ، فَأَخَذُوهُ هُمْ عَلَىٰ الظَّاهِرِ، فَكَانُوا فِي ضَرْبِ الْمَثَلِ كَـ«جُحَا»(٥)؛ فَإِنَّ أُمَّهُ قَالَتْ لَهُ: احْفَظِ الْبَابَ! فَقَلَعَهُ وَمَشَىٰ بِهِ، فَأُخِذَ مَا فِي الدَّارِ، فَلَامَتْهُ أُمُّهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا قُلْتِ: احْفَظِ الْبَابَ، وَمَا قُلْتِ: احْفَظِ الدَّارَ!!.

وَلَمَّا تَخَايَلُوا صُورَةً عَظِيمَةً عَلَىٰ الْعَرْشِ، أَخَذُوا يَتَأَوَّلُونَ مَا يُنَافِي وُجُودَهَا عَلَىٰ الْعَرْشِ:

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» «فَصْلٌ فِي تَعْظِيمِ الْمُصْحَفِ» (٢٦١٤) واللفظ له. عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ. ومسلم، كِ: «الإِمَارَةِ» بَ: «النَّهْيِ أَنْ يُسَافَرَ بِالْمُصْحَفِ إِلَىٰ أَرْضِ الْكُفَّارِ» (١٨٦٩): «لا تُسَافِرُوا بِالْقُرْآنِ، فَإِنِّي لا آمَنُ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ».

(٢) أي: القرآن بزعمهم.

(٣) تُراجع الخاطرة رقم: [٤٧-٦١] والتعليق عليها.

(٤) أمثال الجهمية والمعتزلة ومَن سار علىٰ نهجهم.

(٥) جُحَا أَبُو الْغُصْنِ دُجَيْنُ بْنُ ثَابِتٍ الْيَرْبُوعِيُّ صَاحِبُ النَّوَادِرِ. وَأَخْطَأَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ أَبُو الْغُصْنِ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ الْغِفَارِيُّ.

مِثْلَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(١)، فَقَالُوا: لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ دُنُوَّ الْبَابِ(٢)، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ قُرْبُ الْمَنْزِلِ وَالْحَظِّ!!

وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ﴾[البَقَرَة: ٢١٠]: هُوَ مَحْمُولٌ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا فِي مَجِيءِ الذَّاتِ. فَهُمْ يُحِلُّونَهُ عَامًا، وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا، وَيُسَمُّونَ الْإِضَافَاتِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ صِفَاتٍ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَضَافَ إِلَيْهِ النَّفْخَ وَالرُّوحَ.

وَأَثْبَتُوا خَلْقَهُ بِالْيَدِ؛ فَلَوْ قَالُوا: خَلَقَهُ(٣)، لَمْ يُمْكِنْ إِنْكَارُ هَذَا، بَلْ قَالُوا: هِيَ صِفَةٌ تَوَلَّىٰ بِهَا خَلْقَ آدَمَ دُونَ غَيْرِهِ؛ فَأَيُّ مَزِيَّةٍ كَانَتْ تَكُونُ لِآدَمَ؟! فَشَغَلَهُمُ النَّظَرُ فِي فَضِيلَةِ آدَمَ عَنِ النَّظَرِ إِلَىٰ مَا هُوَ يَلِيقُ بِالْحَقِّ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْمَسُّ، وَلَا الْعَمَلُ بِالْآلَاتِ؛ وَإِنَّمَا آدَمُ أَضَافَهُ إِلَيْهِ.

وَقَالُوا(٤): نُطْلِقُ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ اسْمَ الصُّورَةِ؛ لِقَوْلِهِ: «خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ»(٥).

وَفَهِمُوا هَذَا [مِنَ(٦)] الْحَدِيثِ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ، وَلا يَقُلْ: قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ، وَلا وَجْهًا أَشْبَهَ وَجْهَكَ؛ فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ»(٧).

---

(١) رواه البخاري، كِتَابُ «التَّوْحِيدِ»(٧٤٠٥). ومسلم، كِتَابُ «الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ»(٢٦٨٧) واللفظ له.

(٢) هكذا في الأصل والمخطوط، وفي المطبوع: [الِاقْتِرَابِ].

(٣) أي: خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٤) جاء في الأصل: [فقالوا].

(٥) رواه مسلم، كِتَابُ «الْبِرِّ وَالصِّلَةِ» بَابُ «النَّهْيِ عَنْ ضَرْبِ الْوَجْهِ» حديث (٢٦١٢).

(٦) ليست في الأصل ولا المخطوط، وأثبتناها، لبيان وتمام المعنىٰ بها.

(٧) رواه أحمد في «المسند»(٧٤١٤). ورواه ابن خزيمة في «كِتَابُ التَّوحِيد وَإِثْبَاتِ صِفَاتِ الرَّبِّ»(ج١/ ص٨١: ٨٥). وفيه: «وَوَجْهًا أَشْبَهَ وَجْهَكَ». قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «تَوَهَّمَ بَعْضُ مَنْ لَمْ يَتَحَرَّ الْعِلْمَ أَنَّ قَوْلَهُ: «عَلَىٰ صُورَتِهِ» يُرِيدُ صُورَةَ الرَّحْمَنِ عَزَّ رَبُّنَا وَجَلَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا مَعْنَىٰ الْخَبَرِ، بَلْ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: «خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ»، «الْهَاءُ» فِي هَذَا الْمَوْضِعِ كِنَايَةٌ عَنِ اسْمِ الْمَضْرُوبِ، وَالْمَشْتُومِ، أَرَادَ ﷺ أَنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَةِ هَذَا الْمَضْرُوبِ، الَّذِي أَمَرَ الضَّارِبَ بِاجْتِنَابِ وَجْهِهِ بِالضَّرْبِ، وَالَّذِي قَبَّحَ وَجْهَهُ، فَزَجَرَ ﷺ أَنْ يَقُولَ: «وَوَجْهَ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ»؛ لِأَنَّ وَجْهَ آدَمَ شَبِيهُ وُجُوهِ بَنِيهِ، فَإِذَا قَالَ الشَّاتِمُ لِبَعْضِ بَنِي آدَمَ: قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ، كَانَ مُقَبِّحًا =

فَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ اللهَ ﷻ؛ لَكَانَ وَجْهُ اللهِ سُبْحَانَهُ يُشْبِهُ وَجْهَ هَذَا الْمُخَاصِمِ؛ لِأَنَّ الْحَدِيثَ كَذَا جَاءَ: «وَلَا وَجْهًا أَشْبَهَ وَجْهَكَ».

وَرَوَوْا حَدِيثَ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ: «وَإِنَّ آخِرَ وَطْأَةٍ وَطِئَهَا اللهُ بِوَجٍّ»[1]!! وَمَا عَلِمُوا النَّقْلَ وَلَا السِّيَرَ، وَقَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَىٰ مُضَرَ»[2]، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ آخِرُ وَقْعَةٍ قَاتَلَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ بِوَجٍّ، وَهِيَ غَزَاةُ حُنَيْنٍ، فَقَالُوا: نَحْمِلُ الْخَبَرَ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ، وَأَنَّ اللهَ وَطِئَ ذَلِكَ الْمَكَانَ!! وَلَا شَكَّ أَنَّ عِنْدَهُمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَانَ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ!!

وَكَذَلِكَ قَالُوا فِي قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا»[3]، قَالُوا: يَجُوزُ أَنَّ اللهَ يُوصَفُ بِالْمَلَلِ، فَجَهِلُوا اللُّغَةَ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ «حَتَّىٰ» هَا هُنَا لِلْغَايَةِ، لَمْ تَكُنْ بِمَدْحٍ؛ لِأَنَّهُ إِذَا مَلَّ حِينَ يَمَلُّ، فَأَيُّ مَدْحٍ؟! وَإِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ[4]:

لا يَمَلُّ الشَّرَّ حَتَّىٰ يَمَلُّوا ... جَلَبَتْ مِنِّي هُذَيْلٌ بِخَرْقٍ

وَالْمَعْنَىٰ: لَا يَمَلُّ وَإِنْ مَلُّوا.

وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، تَتَعَلَّقُ بِحَقْوَيِ الرَّحْمَنِ»[5]، فَقَالُوا: الْحَقْوُ صِفَةُ ذَاتٍ.

= وَجْهَ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، الَّذِي وُجُوهُ بَنِيهِ شَبِيهَةٌ بِوَجْهِ أَبِيهِمْ، فَتَفَهَّمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ مَعْنَى الْخَبَرِ، لَا تَغْلَطُوا وَلَا تَغَالَطُوا فَتَضِلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَتَحْمِلُوا عَلَى الْقَوْلِ بِالتَّشْبِيهِ الَّذِي هُوَ ضَلَالٌ» اهـ.

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٧٣١٤، ١٧٥٦٢). وهذه قطعة من الحديث، وهي زيادة مُنكرة. وَبِوَجٍّ: المراد به: الطائف؛ أي: آخر قتال المسلمين كان بالطائف، فجعلَ ذلك وطأة الله؛ لأنه بأمره، والله أعلم.

(٢) رواه البخاري، كِتَابُ «الأَذَانِ» (٨٠٤). ومسلم، كِتَابُ «الْمَسَاجِدِ» (٦٧٥). من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٣) رواه البخاري، كِتَابُ «الإِيمَانِ» (٤٣). وَكِتَابُ «التَّهَجُّدِ» (١١٥١). ورواه مسلم، كِتَابُ «صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ» (٧٨٢).

(٤) البيت من البحر: [المديد] وقائله: الشنفري. وقيل: نُسب إلىٰ تأبط شرًا. وخلف الأحمر

(٥) رواه بهذا اللفظ الطبراني في «الأوسط» (٩٣٦٧، ٣٣٣١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ. وأحمد في «المسند» (٢٩٥٦). عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ. وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٣٧) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ؓ. بلفظ: «بِحُجْزَةِ الرَّحْمَنِ». الشُّجْنَةُ: عُرُوق الشَّجَر الْمُشْتَبِكَة وَالْحَقْوُ: مَعْقِد الْإِزَار، وَهُوَ الْمَوْضِع الَّذِي يُسْتَجَار بِهِ وَيُحْتَرَم بِهِ عَلَىٰ عَادَة الْعَرَب؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَحَقّ مَا يُحَامَىٰ عَنْهُ وَيُدْفَع، كَمَا قَالُوا نَمْنَعهُ =

وَذَكَرُوا أَحَادِيثَ لَوْ رُوِيَتْ -فِي نَقْضِ الْوُضُوءِ- مَا قُبِلَتْ، وَعُمُومُهَا وَضَعَتْهُ الْمَلَاحِدَةُ.

كَمَا يُرْوَىٰ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو(١)؛ قَالَ: «خَلَقَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ مِنْ نُورِ الذِّرَاعَيْنِ وَالصَّدْرِ»(٢)؛ فَقَالُوا: نُثْبِتُ هَذَا عَلَىٰ ظَاهِرِهِ، ثُمَّ أَرْضَوُا الْعَوَامَّ بِقَوْلِهِمْ: وَلَا نُثْبِتُ جَوَارِحَ! فَكَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: فُلَانٌ قَائِمٌ وَمَا هُوَ قَائِمٌ!!

فَاخْتَلَفَ قَوْلُهُمْ: هَلْ يُطْلَقُ عَلَىٰ اللهِ ﷻ أَنَّهُ جَالِسٌ أَوْ قَائِمٌ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾[آل عمران:١٨].

وَهَؤُلَاءِ أَخَسُّ فَهْمًا مِنْ جُحَا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: لا يُرَادُ بِهِ الْقِيَامُ؛ وَإِنَّمَا هُوَ كَمَا يُقَالُ: الأَمِيرُ قَائِمٌ بِالْعَدْلِ.

وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ بَعْضَ أَقْوَالِهِمْ؛ لِئَلَّا يُسْكَنَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْهَا؛ فَالْحَذَرُ مِنْ هَؤُلَاءِ عِبَادَةٌ، وَإِنَّمَا الطَّرِيقُ طَرِيقُ السَّلَفِ.

عَلَىٰ أَنِّي أَقُولُ لَكَ: قَدْ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: «مِنْ ضِيقِ عِلْمِ الرَّجُلِ أَنْ يُقَلِّدَ فِي دِينِهِ الرِّجَالَ»(٣).

= مِمَّا نَمْنَع مِنْهُ أُزرنَا، فَاسْتُعِيرَ ذَلِكَ مَجَازًا لِلرَّحِمِ فِي اسْتِعَاذَتِهَا بِاللهِ مِنَ الْقَطِيعَةِ. وَقَوْلُه: «مِنَ الرَّحْمَنِ»، أَيْ: أُخِذَ اسْمُهَا مِنْ هَذَا الِاسْم كَمَا فِي حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف فِي السُّنَن مَرْفُوعًا: «أَنَا الرَّحْمَن، خَلَقْت الرَّحِم وَشَقَقْت لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي» وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهَا أَثَر مِنْ آثَار الرَّحْمَة مُشْتَبِكَة بِهَا؛ فَالْقَاطِع لَهَا مُنْقَطِع مِنْ رَحْمَة الله.

(١) عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بنِ العَاصِ الإِمَامُ، الحَبْرُ، العَابِدُ، صَاحِبُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَابْنُ صَاحِبِهِ، مَاتَ سَنَةَ: (٦٥هـ).

(٢) أخرجه الشيخ الأصبهاني في كتاب «العظمة»(ج٢/ ص٧٣٣). وعبد الله بن أحمد في كتاب «السنة»(ج٢/ ص٥١٠/ ح ١١٩٥). وقد يكون هذا من الإسرائيليات التي لا يجوز الأخذ بها، وقد قال الإمام البيهقي بعد أن أورد هذا الأثر في كتاب «الأسماء والصفات»(ج٢/ ص٧٨/ بَابُ: مَا ذُكِرَ فِي السَّاعِدِ وَالذِّرَاعِ): «هَذَا مَوْقُوفٌ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمْرٍو رضي الله عنهما وَرَاوِيهِ رَجُلٌ غَيْرُ مُسَمًّىٰ، فَهُوَ مُنْقَطِعٌ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ ابْنَ عُيَيْنَةَ رَوَاهُ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو؛ فَإِنْ صَحَّ ذَلِكَ فَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو وَقَدْ كَانَ يَنْظُرُ فِي كُتُبِ الْأَوَائِلِ، فَمَا لَا يَرْفَعُهُ إِلَىٰ النَّبِيِّ عليه السلام يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِمَّا رَآهُ فِيمَا وَقَعَ بِيَدِهِ مِنْ تِلْكَ الْكُتُبِ، ثُمَّ لا يُنْكَرُ أَنْ يَكُونَ الصَّدْرُ وَالذِّرَاعَانِ مِنْ أَسْمَاءِ بَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَقَدْ وُجِدَ فِي النُّجُومِ مَا سُمِّيَ ذِرَاعَيْنِ: وَفِي الْحَدِيثِ الثَّابِتِ عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ». هَكَذَا مُطْلَقًا» اهـ.

(٣) تقدمت ترجمة أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رحمه الله في الخاطرة: [٢٤-١٧٩].

فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَسْمَعَ مِنْ مُعَظَّمٍ فِي النُّفُوسِ شَيْئًا فِي الْأُصُولِ فَتُقَلِّدُهُ فِيهِ، وَلَوْ سَمِعْتَ عَنْ أَحَدِهِمْ مَا لَا يُوَافِقُ الْأُصُولَ الصَّحِيحَةَ؛ فَقُلْ: هَذَا مِنَ الرَّاوِي؛ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عَنْ ذَلِكَ الْإِمَامِ أَنَّهُ لَا يَقُولُ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِهِ؛ فَلَوْ قَدَّرْنَا صِحَّتَهُ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يُقَلَّدُ فِي الْأُصُولِ وَلَا أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ ﷺ[1].

فَهَذَا أَصْلٌ يَجِبُ الْبِنَاءُ عَلَيْهِ؛ فَلَا يَهُولَنَّكَ ذِكْرُ مُعَظَّمٍ فِي النُّفُوسِ.

وَكَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ شَرْحِ هَذَا أَنَّ دِينَنَا سَلِيمٌ؛ وَإِنَّمَا أَدْخَلَ أَقْوَامٌ فِيهِ مَا تَأَذَّيْنَا بِهِ.

وَلَقَدْ أَدْخَلَ الْمُتَزَهِّدُونَ[2] فِي الدِّينِ مَا يُنَفِّرُ النَّاسَ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَفْعَالَهُمْ، فَيَسْتَبْعِدُونَ الطَّرِيقَ.

وَأَكْثَرُ أَدِلَّةِ هَذِهِ الطَّرِيقِ الْقِصَاصُ؛ فَإِنَّ الْعَامِّيَّ إِذَا دَخَلَ إِلَىٰ مَجْلِسِهِمْ وَهُوَ لَا يُحْسِنُ الْوُضُوءَ؛ كَلَّمُوهُ بِدَقَائِقِ الْجُنَيْدِ وَإِشَارَاتِ الشِّبْلِيِّ[3]، فَرَأَىٰ ذَلِكَ الْعَامِّيُّ أَنَّ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ لُزُومُ زَاوِيَةٍ، وَتَرْكُ الْكَسْبِ لِلْعَائِلَةِ، وَمُنَاجَاةُ الْحَقِّ فِي خَلْوَةٍ عَلَىٰ زَعْمِهِ؛ مَعَ كَوْنِهِ لَا يَعْرِفُ أَرْكَانَ الصَّلَاةِ، وَلَا أَدَّبَهُ الْعِلْمُ، وَلَا قَوَّمَ أَخْلَاقَهُ شَيْءٌ مِنْ مُخَالَطَةِ الْعُلَمَاءِ!!

فَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْ خَلْوَتِهِ إِلَّا كَمَا يَسْتَفِيدُ الْحِمَارُ مِنَ الْإِصْطَبْلِ؛ فَإِنِ امْتَدَّ عَلَيْهِ الزَّمَانُ فِي تَقَلُّلِهِ، زَادَ يُبْسُهُ، فَرُبَّمَا خَايَلَتْ لَهُ الْمَالِيخُولْيَا أَشْبَاحًا[4]، يَظُنُّهُمُ الْمَلَائِكَةَ، ثُمَّ يُطَأْطِئُ رَأْسَهُ، وَيَمُدُّ يَدَهُ لِلتَّقْبِيلِ!!

فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ أَكَّارٍ تَرَكَ الزَّرْعَ[5]، وَقَعَدَ فِي زَاوِيَةٍ؛ فَصَارَ إِلَىٰ هَذِهِ الْحَالَةِ، فَاسْتَرَاحَ مِنْ تَعَبِهِ!! فَلَوْ قِيلَ لَهُ: عُدْ مَرِيضًا! قَالَ: مَا لِي عَادَةٌ.

---

(١) تقدمت ترجمة أَبُو بَكْرٍ ﷺ في الخاطرة:[١٦٥-١٠]، وَعُمَرُ ﷺ في الخاطرة:[٦٥-٥٤].

(٢) هُنَا سَيَتَكَلَّمُ الإِمَامُ ابْنُ الجَوْزِيِّ عَنِ الْمَدخَلِ الثَّانِي مِنْ مَدَاخِلِ الآفَاتِ عَلَىٰ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ: الزُّهَّاد.

(٣) ترجمة الْجُنَيْدِ في الخاطرة:[١٧٨-٣١٤]، وَالشِّبْلِيِّ في الخاطرة:[٧-٨٠].

(٤) قال السيوطي في: «زهر الرُّبىٰ» (ج١/ ح٣): «الَّذِي يُسَمَّىٰ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ الْوَسْوَاسُ هُوَ الَّذِي فِي لُغَةِ الْيُونَانِ الْمَالِيخُولْيَا وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ فَسَادِ الْفِكْرِ وَقَدْ كَثُرَ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَالأَحَادِيثِ إِطْلَاقُ الْوَسْوَاسِ مُرَادًا بِهِ ذَلِكَ».

(٥) أَكَّارٍ: فَلَّاح، حَرَّاث، مُزَارِع، مُسْتَأْجِر المَزْرَعَة.

فَلَعَنَ اللهُ عَادَةً تُخَالِفُ الشَّرِيعَةَ.

فَيَرَىٰ الْعَامِّيُّ[١]- بِمَا يُورِدُهُ الْقُصَّاصُ - أَنَّ طَرِيقَ الشَّرْعِ هَذِهِ، لا الَّتِي عَلَيْهَا الْفُقَهَاءُ، فَيَقَعُونَ فِي الضَّلَالِ.

وَمِنَ الْمُتَزَهِّدِينَ مَنْ لا يُبَالِي عَمِلَ بِالشَّرْعِ أَمْ لا!! ثُمَّ يَتَفَاوَتُ جُهَّالُهُمْ:

فَمِنْهُمْ مَنْ سَلَكَ مَذْهَبَ الإِبَاحَةِ، وَيَقُولُ: الشَّيْخُ لَا يُعَارَضُ، وَيَنْهَمِكُ فِي الْمَعَاصِي!!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْفَظُ نَامُوسَهُ، فَيُفْتِي بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ لِئَلَّا يُقَالَ: الشَّيْخُ لَا يَدْرِي!!

وَلَقَدْ حَدَّثَنِي الشَّيْخُ أَبُو حَكِيمٍ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ[٢]: أَنَّ الشَّرِيفَ الدَّحَّالِيَّ - كَانَ يُقْصَدُ، فَيُزَارُ، وَيُتَبَرَّكُ بِهِ - حَضَرَ عِنْدَهُ يَوْمًا، فَسُئِلَ أَبُو حَكِيمٍ: هَلْ تَحِلُّ الْمُطَلَّقَةُ ثَلَاثًا إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا؟ قَالَ: فَقُلْتُ: لا وَاللهِ. فَقَالَ لِيَ الشَّرِيفُ: اسْكُتْ! فَوَاللهِ؛ لَقَدْ أَفْتَيْتُ النَّاسَ بِأَنَّهَا تَحِلُّ مِنْ هَا هُنَا إِلَىٰ الْبَصْرَةِ.

وَحَكَىٰ لِيَ الشَّيْخُ أَبُو حَكِيمٍ أَنَّ جَدَّ آذَادَ الْحَدَّادَ[٣] - وَكَانَ يَتَوَسَّمُ بِالْعِلْمِ – جَاءَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ، فَزَوَّجَهَا مِنْ رَجُلٍ، وَلَمْ يَسْأَلْ عَنِ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ، فَاعْتَرَضَهَا الْحَاكِمُ، وَفَرَّقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الزَّوْجِ، وَأَنْكَرَ عَلَىٰ الْمُزَوِّجِ، فَلَقِيَتْهُ الْمَرْأَةُ، فَقَالَتْ: يَا سَيِّدِي! أَنَا امْرَأَةٌ لَا أَعْلَمُ؛ فَكَيْفَ زَوَّجْتَنِي؟! فَقَالَ: دَعِي حَدِيثَهُمْ! مَا أَنْتِ إِلَّا طَاهِرَةٌ مُطَهَّرَةٌ!!

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ الْفُقَهَاءِ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْعُبَّادِ أَنَّهُ كَانَ يَسْجُدُ لِلسَّهْوِ سِنِينَ، وَيَقُولُ: وَاللهِ؛ مَا سَهَوْتُ، وَلَكِنْ أَفْعَلُهُ احْتِرَازًا! فَقَالَ لَهُ الْفَقِيهُ: قَدْ بَطَلَتْ صَلَاتُكَ كُلُّهَا؛ لِأَنَّكَ زِدْتَ سُجُودًا غَيْرَ مَشْرُوعٍ!!

ثُمَّ مِنَ الدَّخَلِ الَّذِي دَخَلَ دِينَنَا طَرِيقُ الْمُتَصَوِّفَةِ[٤]؛ فَإِنَّهُمْ سَلَكُوا طُرُقًا أَكْثَرُهَا تُنَافِي

---

(١) هكذا جاء في الأصل والمخطوط، وفي المطبوع:[فَيَرَىٰ الْعَامَّةُ].

(٢) أَبُو حَكِيمٍ إِبْرَاهِيمُ بنُ دِينَارٍ النَّهْرُوَانِيُّ، الحَنْبَلِيُّ، أَحَدُ أَئِمَّةِ بَغْدَادَ. إِمَام زَاهِد وَرع خَيِّرٌ حَلِيمٌ،مَاتَ سَنَةَ(٥٥٦هـ).

(٣) جاء في حاشية الأصل:[في الهندية: ذا الجذاذ، وما أثبتناه فعن الأحمدية]

(٤) هُنَا سَيَتَكَلَّمُ الإِمَام اِبْن الجَوْزِيّ عَنِ الْمَدخَلِ الثَّالِث مِنْ مَدَاخِل الآفَاتِ عَلَىٰ الأُمَّة الإِسْلَامِيَّة: بَعض الْمُتَصَوِّفَة.
=

الشَّرِيعَةَ، وَأَهْلُ التَّدَيُّنِ مِنْهُمْ يُقَلِّلُونَ وَيُخَفِّفُونَ، وَهَذَا لَيْسَ بِشَرْعٍ.

حَتَّىٰ إِنَّ رَجُلًا كَانَ قَرِيبًا مِنْ زَمَانِي، يُقَالُ لَهُ: كَثِيرٌ، دَخَلَ إِلَىٰ جَامِعِ الْمَنْصُورِ، وَقَالَ: عَاهَدْتُ اللهَ عَهْدًا وَنَقَضْتُهُ؛ فَقَدْ أَلْزَمْتُ نَفْسِي أَنْ لَا تَأْكُلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا! فَحَدَّثَنِي مَنْ رَآهُ أَنَّهُ بَقِيَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ فِي الْعُشْرِ الرَّابِعِ أَشْرَفَ عَلَىٰ الْمَوْتِ. قَالَ: فَمَا انْقَضَتْ حَتَّىٰ تَفَرَّغَ[1]، فَصُبَّ فِي حَلْقِهِ مَاءٌ، فَسَمِعْنَا لَهُ نَشِيشًا كَنَشِيشِ الْمِقْلَاةِ[2]، ثُمَّ مَاتَ بَعْدَ أَيَّامٍ. فَانْظُرُوا إِلَىٰ هَذَا الْمِسْكِينِ وَمَا فَعَلَهُ بِهِ جَهْلُهُ!!

وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَحَ لِنَفْسِهِ فِي كُلِّ مَا يُحِبُّ مِنَ التَّنَعُّمِ وَاللَّذَّاتِ، وَاقْتَنَعَ مِنَ التَّصَوُّفِ بِالْقَمِيصِ وَالْفُوطَةِ[3] وَالْعِمَامَةِ اللَّطِيفَةِ، وَلَمْ يَنْظُرْ مِنْ أَيْنَ يَأْكُلُ، وَلَا مِنْ أَيْنَ يَشْرَبُ، وَخَالَطَ الْأُمَرَاءَ مِنْ أَرْبَابِ الدُّنْيَا، وَلُبَّاسِ الْحَرِيرِ، وَشُرَّابِ الْخُمُورِ؛ حِفْظًا لِمَالِهِ وَجَاهِهِ.

وَمِنْهُمْ أَقْوَامٌ عَمِلُوا سُنَنًا لَهُمْ، تَلَقَّوْهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أَكْثَرُهَا لَا يَثْبُتُ!!

وَمِنْهُمْ مَنْ أَكَبَّ عَلَىٰ سَمَاعِ الْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ وَاللَّعِبِ، ثُمَّ انْقَسَمَ هَؤُلَاءِ:

فَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي الْعِشْقَ فِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بِالْحُلُولِ[4]، وَمِنْهُمْ [مَنْ][5] يَسْمَعُ عَلَىٰ وَجْهِ الْهَوَىٰ وَاللَّعِبِ، وَكِلَا الطَّرِيقَيْنِ يُفْسِدُ الْعَوَامَّ الْفَسَادَ الْعَامَّ.

= وَأُذَكِّرُ القَارِئَ الكَرِيمَ بِأَنَّ الإِمَامَ ابْنَ الجَوْزِيِّ وَقَدْ تَكَلَّمَ فِي الخَاطِرَةِ رَقَم:[١٢٨-١٦٣] عَنِ الدَّخَلِ الَّذِي دَخَلَ فِي دِينِنَا فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ مِنَ الفَلْسَفَةِ وَالرَّهْبَانِيَّةِ. فَتَكُونُ مَدَاخِلُ الآفَاتِ عَلَىٰ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي خَمْسَةِ أشياء: الفَلْسَفَةِ وَالرَّهْبَانِيَّةِ وَالزُّهَّادِ وَالمُتَكَلِّمِينَ وَالمُتَصَوِّفَةِ.

(١) حَتَّىٰ تَفَرَّغَ؛ أي: خلا جسمه من الماء؛ فأصابه الجفاف واشتد إعياؤه وهزاله حتىٰ قارب الموت. وقد جاء في حاشية الأصل:[في الأحمدية هكذا (لعوع) وفي الهندية (تفوع)].

(٢) النَّشيش: مصدر نَشَّ؛ وهو صوت الماء وغيره عند الغليان.

(٣) الفُوطَة: إزارٌ يُلبس فوق الثياب.

(٤) مَذْهَب الحُلُول: هُوَ القَوْلُ بِأَنَّ اللهَ حَالٌّ وَمَوجُودٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِمَعْنَىٰ حُلُول الخَالِقِ بِالمَخْلُوقِ. تَعَالَىٰ اللهُ وتقدَّس.

(٥) ليست في الأصل ولا المخطوط، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ به.

وَهَذَا الشَّرْحُ يَطُولُ، وَقَدْ صَنَّفْتُ كُتُبًا تَرَىٰ فِيهَا الْبَسْطَ الْحَسَنَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ، مِنْهَا: «تَلْبِيسُ إِبْلِيس».

وَالْمَقْصُودُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الشَّرْعَ تَامٌّ كَامِلٌ؛ فَإِنْ رُزِقْتَ فَهْمًا لَهُ؛ فَأَنْتَ تَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، وَتَتْرُكُ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ، وَلا تُقَلِّدُ [فِي[1]] دِينِكَ الرِّجَالَ؛ فَإِنْ فَعَلْتَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ وَصِيَّةٍ أُخْرَىٰ.

وَاحْذَرْ جُمُودَ النَّقَلَةِ، وَانْبِسَاطَ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَجُمُوحَ الْمُتَزَهِّدِينَ[2]، وَشَرَهَ أَهْلِ الْهَوَىٰ[3]، وَوُقُوفَ الْعُلَمَاءِ عَلَىٰ صُورَةِ الْعِلْمِ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ، وَعَمَلَ الْمُتَعَبِّدِينَ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

وَمَنْ أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِلُطْفِهِ؛ رَزَقَهُ الْفَهْمَ، وَأَخْرَجَهُ عَنْ رِبْقَةِ التَّقْلِيدِ، وَجَعَلَهُ أُمَّةً وَحْدَهُ فِي زَمَانِهِ؛ لا يُبَالِي بِمَنْ عَبَثَ، وَلا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ مَنْ لَامَ، قَدْ سَلَّمَ زِمَامَهُ إِلَىٰ دَلِيلِهِ فِي وَاضِحِ السَّبِيلِ.

عَصَمَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ تَقْلِيدِ الْمُعَظَّمِينَ، وَأَلْهَمَنَا اتِّبَاعَ الرَّسُولِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ دُرَّةُ الْوُجُودِ، وَمَقْصُودُ الْكَوْنِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَرَزَقَنَا اتِّبَاعَهُ مَعَ أَتْبَاعِهِ.

---

(١) ليست في الأصل ولا المخطوط، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ به.

(٢) جاء في الأصل: [جموع] وفي المخطوط: [جوع]، والأقرب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به. وَالْجُمُوح: الرَّاكِبُ هَوَاهُ.

(٣) الشَّرَه: شِدَّةُ الحرص. أَوْ: أَسْوَأُ الْحِرْص، يُقَالُ: شَرِهَ شَرَهًا، فَهُوَ شَرِهٌ وشَرْهانُ.

(١٥)

[المعَاصِي وأثرُها والتوْبَة ووُجوبُها]

*[١٩٢ - ٢٠٢][خَاطِرَةٌ]:

[قُبحُ المعَاصي]

كُلُّ الْمَعَاصِي قَبِيحَةٌ، وَبَعْضُهَا أَقْبَحُ مِنْ بَعْضٍ: فَإِنَّ الزِّنَا مِنْ أَقْبَحِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهُ يُفْسِدُ الْفَرْشَ، وَيُغَيِّرُ الْأَنْسَابَ. وَهُوَ بِالْجَارَةِ أَقْبَحُ:

فَقَدْ رُوِيَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ ذَنْبٍ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»[١].

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي «تَارِيخِهِ» مِنْ حَدِيثِ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «لأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ؛ وَلأَنْ يَسْرِقَ مِنْ عَشَرَةِ أَبْيَاتٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ بَيْتِ جَارِهِ»[٢].

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا؛ لِأَنَّهُ يَضُمُّ إِلَىٰ مَعْصِيَةِ اللهِ ﷻ انْتِهَاكَ حَقِّ الْجَارِ.

وَمِنْ أَقْبَحِ الذُّنُوبِ أَنْ يَزْنِيَ الشَّيْخُ؛ فَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الشَّيْخَ الزَّانِيَ»[٣].

لِأَنَّ شَهْوَةَ الطَّبْعِ قَدْ مَاتَتْ، وَلَيْسَ فِيهَا قُوَّةٌ تَغْلِبُ؛ فَهُوَ يُحَرِّكُهَا وَيُبَالِغُ[٤]، فَكَانَتْ

---

(١) رواه البخاري، كِتَابُ «الحُدُودِ» بَابُ «إِثْمِ الزُّنَاةِ» حديث (٦٨١١).

(٢) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (ج٨/ ص٥٤/ ترجمة: المِقداد). و«الأدب المفرد» (١٠٣). وأحمد في «المسند» (٢٣٨٥٤). والبزار في «مسنده» (٢١١٥).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الخرائطي في «مساوئ الأخلاق» حديث (٥٨٢). وأحمد في «المسند» حديث (٢١٣٥٦).

(٤) يُحَرِّكُهَا وَيُبَالِغُ؛ أي: يَعمَل عَلَى إِثَارَةِ شَهْوَتِهِ وَيُبَالِغُ فِي ذَلِكَ.

مَعْصِيَتُهُ عِنَادًا.

وَمِنَ الْمَعَاصِي الَّتِي تُشْبِهُ الْمُعَانَدَةَ لُبْسَ الرَّجُلِ الْحَرِيرَ وَالذَّهَبَ، خُصُوصًا خَاتَمَ الذَّهَبِ، الَّذِي يَتَحَلَّىٰ بِهِ الشَّيْخُ، وَإِنَّهُ مِنْ أَبْرَدِ الأَفْعَالِ، وَأَقْبَحِ الْخَطَايَا.

وَمِنْ هَذَا الْفَنِّ الرِّيَاءُ وَالتَّخَاشُعُ، وَإِظْهَارُ التَّزَهُّدِ لِلْخَلْقِ؛ فَإِنَّهُ كَالْعِبَادَةِ لَهُمْ؛ مَعَ إِهْمَالِ جَانِبِ الْحَقِّ ﷻ[1].

وَكَذَلِكَ الْمُعَامَلَةُ بِالرِّبَا الصَّرِيحِ، خُصُوصًا مِنَ الْغَنِيِّ الْكَثِيرِ الْمَالِ.

وَمِنْ أَقْبَحِ الأَشْيَاءِ أَنْ يَطُولَ الْمَرَضُ بِالشَّيْخِ الْكَبِيرِ، وَلا يَتُوبُ مِنْ ذَنْبٍ، وَلا يَعْتَذِرُ مِنْ زَلَّةٍ، وَلا يَقْضِي دَيْنًا، وَلا يُوصِي بِإِخْرَاجِ حَقٍّ عَلَيْهِ!

وَمِنْ قَبَائِحِ الذُّنُوبِ أَنْ يَتُوبَ السَّارِقُ أَوِ الظَّالِمُ وَلا يَرُدُّ الْمَظَالِمَ. وَالْمُفَرِّطُ فِي الزَّكَاةِ، أَوْ فِي الصَّلَاةِ، وَلا يَقْضِي.

وَمِنْ أَقْبَحِهَا أَنْ يَحْنَثَ فِي يَمِينِ طَلَاقِهِ، ثُمَّ يُقِيمُ مَعَ الْمَرْأَةِ!

وَقِسْ عَلَىٰ مَا ذَكَرْتُهُ؛ فَالْمَعَاصِي كَثِيرَةٌ، وَأَقْبَحُهَا لا يَخْفَىٰ.

وَهَذِهِ الْمُسْتَقْبَحَاتُ - فَضْلًا عَنِ الْقَبَائِحِ - تُشْبِهُ الْعِنَادَ لِلآمِرِ، فَيَسْتَحِقُّ صَاحِبُهَا اللَّعْنَ، وَدَوَامَ الْعُقُوبَةِ.

وَإِنِّي لأَرَىٰ شُرْبَ الْخَمْرِ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مُشْتَهَاةً لِذَاتِهَا، وَلا لِرِيحِهَا، وَلا لِطَعْمِهَا - فِيمَا يُذْكَرُ -؛ إِنَّمَا لَذَّتُهَا - فِيمَا يُقَالُ - بَعْدَ تَجَرُّعِ مَرَارَتِهَا؛ فَالإِقْدَامُ عَلَىٰ مَا لا يَدْعُو إِلَيْهِ الطَّبْعُ - إِلَىٰ أَنْ يَصِلَ التَّنَاوُلُ إِلَىٰ اللَّذَّةِ - مُعَانَدَةٌ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ إِيمَانًا يَحْتَجِزُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُخَالَفَتِهِ، وَتَوْفِيقًا لِمَا يُرْضِيهِ؛ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ.

---

(١) كأنه رحمه الله يُشير إلىٰ ما رواه الحاكم في «المستدرك» كتاب «الرِّقَاق»(٧٩٣٦). عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ لِمَكَانِ الرَّجُلِ».

*[١٩٣ - ٢٦٠][خَاطِرَةٌ]:

[أسباب العصيان والتفريط]

تَأَمَّلْتُ عَلَىٰ الخَلْقِ، وَإِذَا هُمْ فِي حَالَةٍ عَجِيبَةٍ، يَكَادُ يُقْطَعُ مَعَهَا بِفَسَادِ الْعَقْلِ!

وَذَلِكَ أَنَّ الإِنْسَانَ يَسْمَعُ الْمَوَاعِظَ، وَتُذْكَرُ لَهُ الآخِرَةُ، فَيَعْلَمُ صِدْقَ الْقَائِلِ، فَيَبْكِي وَيَنْزَعِجُ عَلَىٰ تَفْرِيطِهِ، وَيَعْزِمُ عَلَىٰ الِاسْتِدْرَاكِ، ثُمَّ يَتَرَاخَىٰ عَمَلُهُ بِمُقْتَضَىٰ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ.

فَإِذَا قِيلَ لَهُ: أَتَشُكُّ فِيمَا وَعَدْتَ بِهِ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَاعْمَلْ! فَيَنْوِي ذَلِكَ، ثُمَّ يَتَوَقَّفُ عَنِ الْعَمَلِ، وَرُبَّمَا مَالَ إِلَىٰ لَذَّةٍ مُحَرَّمَةٍ، وَهُوَ يَعْلَمُ النَّهْيَ عَنْهَا!

وَمِنْ هَذَا الْجِنْسِ تَأَخُّرُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا(١)، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُذْرٌ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ قُبْحَ التَّأَخُّرِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ عَاصٍ وَمُفَرِّطٍ(٢).

فَتَأَمَّلْتُ السَّبَبَ - مَعَ أَنَّ الِاعْتِقَادَ صَحِيحٌ، وَالْفِعْلَ بَطِيءٌ -؛ فَإِذَا لَهُ ثَلَاثَةُ أَسْبَابٍ:

أَحَدُهَا: رُؤْيَةُ الْهَوَىٰ الْعَاجِلِ؛ فَإِنَّ رُؤْيَتَهُ تَشْغَلُ عَنِ الْفِكْرِ فِيمَا يَجْنِيهِ.

وَالثَّانِي: التَّسْوِيفُ بِالتَّوْبَةِ؛ فَلَوْ حَضَرَ الْعَقْلُ؛ لَحَذَّرَ مِنْ آفَاتِ التَّأْخِيرِ؛ فَرُبَّمَا هَجَمَ الْمَوْتُ وَلَمْ تَحْصُلِ التَّوْبَةُ!

وَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَجُوزُ سَلْبُ رُوحِهِ قَبْلَ مُضِيِّ سَاعَةٍ، وَلَا يَعْمَلُ عَلَىٰ الْحَزْمِ! غَيْرَ أَنَّ الْهَوَىٰ يُطِيلُ الأَمَدَ.

---

(١) الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ: كَعْبُ بنُ مَالِكٍ الأَنْصَارِيُّ، وَمُرَارَةُ بنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيُّ، وَهِلَالُ بنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ. وقد أشار القرآن إليهم في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ...﴾ [التوبة:١١٨]. وقصتهم في «الصحيحين» رواها البخاري، ك:«المَغَازِي»(٤٤١٨). ومسلم، ك:«التَّوْبَةِ»(٢٧٦٩). وَفِي مَعْنَىٰ «خُلِّفوا»: قَوْلَانِ: أَحدهما: خُلِّفُوا عَنِ التَّوْبَةِ، لَمْ يُتَبْ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ تَابَ اللهُ عَلَىٰ أَبِي لُبَابَةَ وَأَصْحَابِهِ. وَالثَّانِي: خُلِّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ.

(٢) يعني: وَكَذَلِكَ كُلُّ عَاصٍ وَمُفَرِّطٍ؛ يَعلَمُ قُبْحَ مَعصِيَتِهِ وَتَفرِيطه.

وَقَدْ قَالَ صَاحِبُ الشَّرْعِ ﷺ: «صَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ»[1]، وَهَذَا نِهَايَةُ الدَّوَاءِ لِهَذَا الدَّاءِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لا يَبْقَىٰ إِلَىٰ صَلَاةٍ أُخْرَىٰ، جَدَّ وَاجْتَهَدَ.

وَالثَّالِثُ: رَجَاءُ الرَّحْمَةِ، فَيَرَىٰ الْعَاصِي يَقُولُ: رَبِّي رَحِيمٌ! وَيَنْسَىٰ أَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ!!

وَلَوْ عَلِمَ أَنَّ رَحْمَتَهُ لَيْسَتْ رِقَّةً - إِذْ لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ، لَمَا ذَبَحَ عُصْفُورًا وَلا آلَمَ طِفْلًا - وَعِقَابُهُ غَيْرُ مَأْمُونٍ - فَإِنَّهُ شَرَعَ قَطْعَ الْيَدِ الشَّرِيفَةِ بِسَرِقَةِ خَمْسَةِ قَرَارِيطَ[2]؛ لَجَدَّ وَأَنَابَ.

فَنَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يَهَبَ لَنَا حَزْمًا يَبُتُّ الْمَصَالِحَ جَزْمًا.

*[١٩٤ - ٨١][خَاطِرَةٌ]:

[الغفلة سبب الوقوع في الذنوب]

لا يَنَالُ لَذَّةَ الْمَعَاصِي إِلَّا سَكْرَانُ الْغَفْلَةِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ؛ فَإِنَّهُ لا يَلْتَذُّ، لِأَنَّهُ عِنْدَ الْتِذَاذِهِ يَقِفُ بِإِزَائِهِ عِلْمُ التَّحْرِيمِ، وَحَذَرُ الْعُقُوبَةِ.

فَإِنْ قَوِيَتْ مَعْرِفَتُهُ؛ رَأَىٰ بِعَيْنِ عِلْمِهِ قُرْبَ النَّاهِي، فَيَتَنَغَّصُ عَيْشُهُ فِي حَالِ الْتِذَاذِهِ.

فَإِنْ غَلَبَ سُكْرُ الْهَوَىٰ؛ كَانَ الْقَلْبُ مُتَنَغِّصًا بِهَذِهِ الْمُرَاقَبَاتِ، وَإِنْ كَانَ الطَّبْعُ فِي شَهْوَتِهِ.

وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ، ثُمَّ خُذْ مِنْ غَرِيمِ نَدَمٍ مُلَازِمٍ، وَبُكَاءٍ مُتَوَاصِلٍ، وَأَسَفٍ عَلَىٰ مَا كَانَ مَعَ طُولِ الزَّمَانِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَوْ تَيَقَّنَ الْعَفْوَ؛ وَقَفَ بِإِزَائِهِ حَذَرُ الْعِتَابِ.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «معجمه»(٣٢٣)، والطبراني في «الأوسط»(٤٤٢٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب»(٩٥٢). وابن ماجة، كِ: «الزُّهْدِ» بَ: «الْحِكْمَةِ»(٤١٧١): «إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ». وهو في «الصحيحة»(١٩١٤).

(٢) الْقِيرَاطُ فِي الْعِرَاقِ: نِصْفُ عُشْرِ دِينَارٍ؛ والدِّينار=(٤، ٢٥) مِنَ الْجِرَامِ مِنَ الذَّهَبِ. وَالْقِيرَاط الوَاحِد يُسَاوِي (٢٠٠) مليجرام؛ فالجرام الواحد =(٥) قراريط. ويُراجع الخاطرة رقم:[١٣٤-١٧] عند قول الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «كَيْفَ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ هَذَا المَلِكَ الْحَكِيْمَ قَطَعَ الْيَدَ فِي رُبُعِ دِيْنَارٍ» والتعليق عليه فهو مهم جدًا.

فَأُفٌّ لِلذُّنُوبِ[(١)]! مَا أَقْبَحَ آثَارَهَا! وَمَا أَسْوَأَ أَخْبَارَهَا! وَلا كَانَتْ شَهْوَةٌ لا تُنَالُ إِلَّا بِمِقْدَارِ قُوَّةِ الْغَفْلَةِ.

*[١٩٥ - ٨٤][خَاطِرَةٌ]:

[التَّسَامُحُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ يُوقِعُ فِي الذُّنُوبِ]

كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَتَسَامَحُونَ فِي أُمُورٍ يَظُنُّونَهَا قَرِيبَةً، وَهِيَ تَقْدَحُ فِي الْأُصُولِ؛ كَاسْتِعَارَةِ طُلَّابِ الْعِلْمِ جُزْءًا لَا يَرُدُّونَهُ، وَقَصْدِ الدُّخُولِ عَلَىٰ مَنْ يَأْكُلُ لِيُؤْكَلَ مَعَهُ، وَتَنَاوُلِ طَعَامٍ لَمْ يُدْعَ الْإِنْسَانُ إِلَيْهِ، وَالتَّسَامُحِ بِعِرْضِ الْعَدُوِّ الْتِذَاذًا بِذَلِكَ، وَاسْتِصْغَارًا لِمِثْلِ هَذَا الذَّنْبِ، وَإِطْلَاقِ الْبَصَرِ فِي الْمُحَرَّمِ؛ هَوَانًا بِتِلْكِ الْخَطِيئَةِ، وَفَتْوَىٰ مَنْ لَا يَعْلَمُ لِئَلَّا يُقَالَ: هُوَ جَاهِلٌ ... وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُظَنُّ صَغِيرًا وَهُوَ عَظِيمٌ.

وَأَهْوَنُ مَا يَصْنَعُ ذَلِكَ بِصَاحِبِهِ أَنْ يَحُطَّهُ مِنْ مَرْتَبَةِ الْمُتَمَيِّزِينَ بَيْنَ النَّاسِ، وَمِنْ مَقَامِ رِفْعَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ الْحَقِّ ... وَرُبَّمَا قِيلَ لَهُ بِلِسَانِ الْحَالِ: يَا مَنِ اؤْتُمِنَ عَلَىٰ أَمْرٍ يَسِيرٍ فَخَانَ! مَا بَلِيَّةُ حَظِّكَ فَانْوِ بِهِ[(٢)].

قَال بَعْضُ السَّلَفِ: «تَسَامَحْتُ بِلُقْمَةٍ، فَتَنَاوَلْتُهَا؛ فَأَنَا الْيَوْمَ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَىٰ خَلْفٍ»[(٣)].

فَاللهَ اللهَ! اسْمَعُوا مِمَّنْ قَدْ جَرَّبَ! كُونُوا عَلَىٰ مُرَاقَبَةٍ! وَانْظُرُوا فِي الْعَوَاقِبِ! وَاعْرِفُوا عَظَمَةَ النَّاهِي! وَاحْذَرُوا مِنْ نَفْخَةٍ تُحْتَقَرُ، وَشَرَرَةٍ تُسْتَصْغَرُ، فَرُبَّمَا أَحْرَقَتْ بَلَدًا!

وَهَذَا الَّذِي أَشَرْتُ إِلَيْهِ؛ يَسِيرٌ يَدُلُّ عَلَىٰ كَثِيرٍ، وَأُنْمُوذَجٌ يُعَرِّفُ بَاقِيَ الْمُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ.

---

(١) أُفٌّ: لفظة تُقال عند استقذار شيءٍ والتضجُّر والتقزُّز منه. وهي اسم فعل مضارع.

(٢) فَانْوِ بِهِ؛ أي: ابتعِد بِهِ وَتَحَوَّل عَنَّا. وجاء في بعض المطبوع مكان هذه الجملة: [كيف ترجو بتدلُّيك رضا الرحمن].

(٣) يُراجع: «تاريخ بغداد وذيوله» (ج٨/ ص٣١٠/ ترجمة: خزرج بن عَلِي، أَبُو طَالِب الصوفي) وفيه: «فأكلت لقمة، وَأنا منذ أربعين سنة إِلَى خلف»؛ يعني: أنا منذ فعلت ذلك في تقهقر ومن سيئ إلى اسوأ.

وَالعِلْمُ وَالمُرَاقَبَةُ[(١)] يُعَرِّفَانِكَ مَا أَخْلَلْتَ بِذِكْرِهِ، وَيُعَلِّمَانِكَ إِنْ تَلَمَّحْتَ بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ أَثَرَ شُؤْمِ فِعْلِهِ[(٢)]، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

*[١٩٦ - ٨٣][خَاطِرَةٌ]:

[الحَذَرُ مِنْ عَوَاقِبِ المَعَاصِي]

يَنْبَغِي لِكُلِّ ذِي لُبٍّ وَفِطْنَةٍ أَنْ يَحْذَرَ عَوَاقِبَ الْمَعَاصِي؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ آدَمِيٍّ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَىٰ قَرَابَةٌ وَلَا رَحِمٌ، وَإِنَّمَا هُوَ قَائِمٌ بِالْقِسْطِ، حَاكِمٌ بِالْعَدْلِ.

وَإِنْ كَانَ حِلْمُهُ يَسَعُ الذُّنُوبَ؛ إِلَّا أَنَّهُ إِذَا شَاءَ؛ عَفَا، فَعَفَّىٰ كُلُّ كَثِيفٍ مِنَ الذُّنُوبِ[(٣)]، وإِذَا شَاءَ أَخَذَ بِالْيَسِيرِ. فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ!

وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا مِنَ الْمُتْرَفِينَ[(٤)]، كَانُوا يَتَقَلَّبُونَ فِي الظُّلْمِ وَالْمَعَاصِي بَاطِنَةً وَظَاهِرَةً، فَتَعِبُوا مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا.

فَقُلِعَتْ أُصُولُهُمْ، وَنُقِضَ مَا بَنَوْا مِنْ قَوَاعِدَ أَحْكَمُوهَا لِذَرَارِيهِمْ.

وَمَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ أَهْمَلُوا جَانِبَ الْحَقِّ ﷻ، وَظَنُّوا أَنَّ مَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ خَيْرٍ يُقَاوِمُ مَا يَجْرِي مِنْ شَرٍّ، فَمَالَتْ سَفِينَةُ ظُنُونِهِمْ، فَدَخَلَهَا مِنْ مَاءِ الْكَيْدِ مَا أَغْرَقَهُمْ.

وَرَأَيْتُ أَقْوَامًا مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ الْعِلْمِ، أَهْمَلُوا نَظَرَ الْحَقِّ ﷻ إِلَيْهِمْ فِي الْخَلَوَاتِ، فَمَحَا مَحَاسِنَ ذِكْرِهِمْ فِي الْجَلَوَاتِ[(٥)]، فَكَانُوا مَوْجُودِينَ كَالْمَعْدُومِينَ، لَا حَلَاوَةَ

(١) هكذا في الأصل، وجاء في مخطوط (ي):[والعلم والمعرفة].

(٢) أي: أنك بالعلم والمُراقبة ترى بعين بصيرتك شؤم فعل المعصية.

(٣) عَفَا: صَفَحَ عَنْهُ وَلَم يُعَاقِبْهُ، وَغَفَرَ وَتَجَاوَزَ. وَعفَّىٰ: زَالَ وَامَّحَىٰ. وَكَثِيف: ثَقِيل.

(٤) الْمُتْرَفُون: أهل النِّعمَة وَسَعَة العِيْش. وهم طبقة الكُبراء النَّاعمين الَّذِين ينعمون بالدِّعة والراحة والسيادة، حتىٰ تترهل نفوسهم وتأسن، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات.

(٥) الْخَلَوَاتِ: مَكَانُ اختِلاَءِ الإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ أَوْ بِغَيْرِهَا، وَعَكسهَا الْجَلَوَاتِ: وَهِي الظهُور.

لِرُؤْيَتِهِمْ، وَلَا قَلْبَ يَحِنُّ إِلَىٰ لِقَائِهِمْ.

فَاللهَ اللهَ فِي مُرَاقَبَةِ الْحَقِّ ﷻ؛ فَإِنَّ مِيزَانَ عَدْلِهِ تَبِينُ فِيهِ الذَّرَّةُ، وَجَزَاؤُهُ مُرَاصِدٌ لِلْمُخْطِئِ، وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، وَرُبَّمَا ظَنَّ أَنَّهُ الْعَفْوُ[1]، وَإِنَّمَا هُوَ إِمْهَالٌ، وَلِلذُّنُوبِ عَوَاقِبُ سَيِّئَةٌ.

فَاللهَ اللهَ! الْخَلَوَاتِ [الْخَلَوَاتِ[2]]! الْبَوَاطِنَ الْبَوَاطِنَ! النِّيَّاتِ النِّيَّاتِ؛ فَإِنَّ عَلَيْكُنَّ مِنَ اللهِ عَيْنًا نَاظِرَةً!

وَإِيَّاكُمْ وَالِاغْتِرَارَ بِحِلْمِهِ وَكَرَمِهِ؛ فَكَم اسْتَدْرَجَ! وَكُونُوا عَلَىٰ مُرَاقَبَةِ الْخَطَايَا، مُجْتَهِدِينَ فِي مَحْوِهَا! وَمَا شَيْءٌ يَنْفَعُ كَالتَّضَرُّعِ مَعَ الْحِمِيَّةِ عَنِ الْخَطَايَا؛ فَلَعَلَّهُ[3].

وَهَذَا فَصْلٌ إِذَا تَأَمَّلَهُ الْمُعَامِلُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ نَفَعَهُ.

وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُرَاقِبِينَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ: قَدَرْتُ عَلَىٰ لَذَّةٍ وَلَيْسَتْ بِكَبِيرَةٍ؛ فَنَازَعَتْنِي نَفْسِي إِلَيْهَا؛ اعْتِمَادًا عَلَىٰ صِغَرِهَا، وَعِظَمِ فَضْلِ اللهِ تَعَالَىٰ وَكَرَمِهِ.

فَقُلْتُ لِنَفْسِي: إِنْ غَلَبْتِ هَذِهِ؛ فَأَنْتِ أَنْتِ، وَإِذَا أَتَيْتِ هَذِهِ، فَمَنْ أَنْتِ؟!

وَذَكَّرْتُهَا حَالَةَ أَقْوَامٍ كَانُوا يُفْسِحُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فِي مُسَامَحَةٍ؛ كَيْفَ انْطَوَتْ أَذْكَارُهُمْ، وَتَمَكَّنَتْ عُقُوبَةُ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ مِنْهُمْ، فَارْعَوَتْ وَرَجَعَتْ عَمَّا هَمَّتْ بِهِ[4]، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

*[١٩٧ - ٣٤٤][خَاطِرَةٌ]:

[غَبَاءُ الْعُصَاةِ وَغَفْلَتُهُمْ]

إِذَا تَكَامَلَ الْعَقْلُ؛ قَوِيَ الذَّكَاءُ وَالْفِطْنَةُ، وَالذَّكِيُّ يَتَخَلَّصُ إِذَا وَقَعَ فِي آفَةٍ؛ كَمَا قَالَ

---

(١) يعني: وَرُبَّمَا ظَنَّ هَذَا العَاصِي إِمْهَالَه وَعَدَمَ مُعَاقَبَتِه فِي الحَالِ أَنَّ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ العَفْوِ عَنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ إِمْهَالٌ.

(٢) ليست في الأصل، وأثبتناها من مخطوط: (ي)؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٣) فَلَعَلَّهُ؛ أي: فَلَعَلَّهُ يَنْفَع. و«لعلَّ» حرف ناسخ يفيد التوقُّع والترجِّي في الأمر المحبوب، والإشفاق من المكروه.

(٤) فَارْعَوَتْ؛ أي: كَفَّتْ وَارْتَدَعَتْ وَاتَّعَظَتْ وَرَجَعَتْ عَمَّا هَمَّتْ بِهِ مِنَ الْمَعصِيَة.

الْحَسَنُ: «إِذَا كَانَ اللِّصُّ ظَرِيفًا؛ لَمْ يُقْطَعْ»[١]، فَأَمَّا الْمُغَفَّلُ؛ فَيَجْنِي عَلَىٰ نَفْسِهِ الْمِحَنَ.

هَؤُلَاءِ إِخْوَةُ يُوسُفَ عليه السلام؛ أَبْعَدُوهُ عَنْ أَبِيهِ، لِيَتَقَدَّمُوا عِنْدَهُ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّ حُزْنَهُ عَلَيْهِ يَشْغَلُهُ عَنْهُمْ، وَتُهْمَتَهُ إِيَّاهُمْ تُبَغِّضُهُمْ إِلَيْهِ.

ثُمَّ رَمَوْهُ فِي الْجُبِّ، فَقَالُوا: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾[يُوسُفُ: ١٠]، وَلَيْسَ بِطِفْلٍ؛ إِنَّمَا هُوَ صَبِيٌّ كَبِيرٌ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّهُ إِذَا الْتُقِطَ؛ يُحَدِّثُ بِحَالِهِ، فَيُبْلِغُ الْخَبَرَ إِلَىٰ أَبِيهِ! وَهَذَا تَغْفِيلٌ.

ثُمَّ إِنَّهُمْ قَالُوا: أَكَلَهُ الذِّئْبُ؛ وَجَاؤُوا بِقَمِيصِهِ صَحِيحًا، وَلَوْ خَرَّقُوهُ، احْتَمَلَ الْأَمْرَ.

ثُمَّ لَمَّا مَضَوْا إِلَيْهِ يَمْتَارُونَ[٢]، قَالَ: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم﴾[يُوسُفُ: ٥٩]؛ فَلَوْ فَطِنُوا؛ عَلِمُوا أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ لَا غَرَضَ لَهُ فِي أَخِيهِمْ.

ثُمَّ حَبَسَهُ بِحُجَّةٍ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا الصُّوَاعُ يُخْبِرُنِي أَنَّهُ كَانَ كَذَا وَكَذَا! هَذَا كُلُّهُ وَمَا يَفْطِنُونَ.

فَلَمَّا أَحَسَّ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ يَعْقُوبُ عليه السلام؛ قَالَ: ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾[يُوسُفُ:٨٧].

وَكَانَ يُوسُفُ عليه السلام قَدْ نُهِيَ بِالْوَحْيِ أَنْ يُعْلِمَ أَبَاهُ بِوُجُودِهِ، وَلِهَذَا؛ لَمَّا الْتَقَيَا؛ قَالَ لَهُ: هَلَّا كَتَبْتَ إِلَيَّ! فَقَالَ: إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام مَنَعَنِي.

فَلَمَّا نُهِيَ أَنْ يُعَرِّفَهُ خَبَرَهُ، لِيَنْفُذَ الْبَلَاءُ؛ كَانَ مَا فَعَلَ بِأَخِيهِ تَنْبِيهًا؛ فَصَارَ كَأَنَّهُ يُعَرِّضُ بِخِطْبَةِ الْمُعْتَدَّةِ.

وَعَلَىٰ فَهْمِ يُوسُفَ - وَاللهِ - بَكَىٰ يَعْقُوبُ، لَا عَلَىٰ مُجَرَّدِ صُورَتِهِ.

---

(١) الظَّرْفُ فِي اللِّسَانِ: البَلَاغَةُ. وَفِي الوَجْهِ: الحُسْنُ. وَفِي القَلْبِ: الذَّكَاءُ. وَالْمَعْنَىٰ: إذا كان اللِّصُّ بَلِيغًا جَيِّدَ الكَلَامِ عَالِمًا بِشُرُوطِ إِثْبَاتِ حَدِّ السَّرِقَةِ، تَفَادَاهَا، وَاحتَجَّ عَنْ نَفْسِهِ بِمَا يُسْقِطُ عَنْه الحَدَّ؛ فَيَقُولُ إِذَا وُجِدَت مَعَهُ السَّرِقَةُ: قَد التَقَطتهَا أَو كَانَت عِندِي وَدِيعَة فَخُنْتُهَا أَو مَا أَشْبَه هَذَا مِنَ الكَلَام، وَإِنْ كَانَ القَاضِي يَقُوم بِتَعزِيرِهِ. * وَالأَثَرُ رَوَاهُ بَعض أَصْحَاب «الغَرِيبِ» عَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ وَالْحَسَن رضي الله عنهم. وَرَوَاهُ الشَّاشِيّ فِي «مُسْنَدِهِ»(٦٢٣) عَنْ عُبَيْدَةَ السَّلْمَانِيِّ، بِسَنَدٍ مَقطُوعٍ. * وترجمة الحَسَن في الخاطرة:[٥٩-٨٧].

(٢) يَمْتَارُون: امتارَ، جَمَعَ المِيرَةَ؛ أي: الطَّعامَ مِنَ الْحَبِّ وَالقُوت.

*[١٩٨ - ٢٩١][خَاطِرَةٌ]:

[العاقِلُ يخافُ مِنْ ذَنْبِهِ وإنْ تابَ مِنْهُ]

يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ ذُنُوبِهِ، وَإِنْ تَابَ مِنْهَا، وَبَكَىٰ عَلَيْهَا.

وَإِنِّي رَأَيْتُ أَكْثَرَ النَّاسِ قَدْ سَكَنُوا إِلَىٰ قَبُولِ التَّوْبَةِ، وَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا عَلَىٰ ذَلِكَ(١)! وَهَذَا أَمْرٌ غَائِبٌ!! ثُمَّ لَوْ غُفِرَتْ؛ بَقِيَ الْخَجَلُ مِنْ فِعْلِهَا.

وَيُؤَيِّدُ الْخَوْفَ بَعْدَ التَّوْبَةِ أَنَّهُ فِي «الصِّحَاحِ»: «أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَىٰ آدَمَ عليه السلام، فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا! فَيَقُولُ: ذَنْبِي . . . وَإِلَىٰ نُوحٍ عليه السلام، فَيَقُولُ: ذَنْبِي . . . وَإِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . . . وَإِلَىٰ مُوسَىٰ . . . وَإِلَىٰ عِيسَىٰ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ»(٢).

فَهَؤُلَاءِ إِذَا اعْتُبِرَتْ ذُنُوبُهُمْ؛ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرُهَا ذُنُوبًا حَقِيقَةً، ثُمَّ إِنْ كَانَتْ؛ فَقَدْ تَابُوا مِنْهَا، وَاعْتَذَرُوا، وَهُمْ بَعْدُ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْهَا.

ثُمَّ إِنَّ الْخَجَلَ بَعْدَ قَبُولِ التَّوْبَةِ لا يَرْتَفِعُ . . . وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رحمه الله: «وَاسَوْأَتَاهُ مِنْكَ، وَإِنْ عَفَوْتَ»(٣)!

فَأُفٍّ وَاللهِ لِمُخْتَارِ الذُّنُوبِ، وَمُؤْثِرٍ لَذَّةٍ لَحْظَةٍ تَبْقَىٰ حَسْرَةً، لا تَزُولُ عَنْ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، وَإِنْ غُفِرَ لَهُ.

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ كُلِّ مَا يُوجِبُ خَجَلًا.

وَهَذَا أَمْرٌ قَلَّ أَنْ يَنْظُرَ فِيهِ تَائِبٌ أَوْ زَاهِدٌ؛ لِأَنَّهُ يَرَىٰ أَنَّ الْعَفْوَ قَدْ غَمَرَ الذَّنْبَ بِالتَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ(٤)!

---

(١) يعني: كأنهم قد قطعوا بقبول التوبة ومحو الذنوب.

(٢) يُشِيرُ رحمه الله لِحَدِيثِ الشَّفَاعة؛ رواه البخاري، كِ: «أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ» بَ: «قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا ...﴾» (٣٣٤٠). ومسلم، كِ: «الإِيمَانَ» بَ: «أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً فِيهَا» (١٩٤). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «أَنَا سَيِّدُ الْقَوْمِ -النَّاسِ- يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

(٣) يُنظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم. (ج٨/ ص٨٨/ ترجمة الفضيل). وفيه: «وَاسَوْأَتَاهُ وَاللهِ مِنْكَ إِنْ عَفَوْتَ».

(٤) غَمَرَ: علاه وغطَّاه.

وَمَا ذَكَرْتُهُ يُوجِبُ دَوَامَ الْحَذَرِ وَالْخَجَلِ.

*[١٩٩ - ١٣٥] [خَاطِرَةٌ]:

[لا تضجرنْ من طول الجزاء، وعليك بملازمة التوبة]

أَيُّهَا الْمُذْنِبُ! إِذَا أَحْسَسْتَ نَفَحَاتِ الْجَزَاءِ(١)؛ فَلَا تُكْثِرَنَّ الضَّجِيجَ، وَلا تَقُولَنَّ: قَدْ تُبْتُ وَنَدِمْتُ؛ فَهَلَّا زَالَ عَنِّي مِنَ الْجَزَاءِ مَا أَكْرَهُ! فَلَعَلَّ تَوْبَتَكَ مَا تَحَقَّقَتْ.

وَإِنَّ لِلْمُجَازَاةِ زَمَانٌ يَمْتَدُّ امْتِدَادَ الْمَرَضِ الطَّوِيلِ؛ فَلَا تَنْجَعُ فِيهِ الْحِيَلُ، حَتَّىٰ يَنْقَضِي أَوَانُهُ.

وَإِنَّ بَيْنَ زَمَانِ: ﴿وَعَصَىٰٓ﴾[طه: ١٢١] إِلَىٰ إِبَّانِ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾[البقرة: ٣٧] مُدَّةً مَدِيدَةً(٢).

فَاصْبِرْ أَيُّهَا الْخَاطِئُ حَتَّىٰ يَتَخَلَّلَ مَاءُ عَيْنَيْكَ خِلَالَ ثَوْبِ الْقَلْبِ الْمُتَنَجِّسِ؛ فَإِذَا عَصَرَتْهُ كَفُّ الْأَسَىٰ، ثُمَّ تَكَرَّرَتْ دُفَعُ الْغَسَلَاتِ؛ حُكِمَ بِالطَّهَارَةِ(٣).

بَقِيَ آدَمُ يَبْكِي عَلَىٰ زَلَّتِهِ ثَلَاثَ مِئَةِ سَنَةٍ(٤).

وَمَكَثَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بَلَائِهِ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً(٥).

وَأَقَامَ يَعْقُوبُ يَبْكِي عَلَىٰ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَمَانِينَ سَنَةً(٦).

---

(١) المقصود بالنَّفحة هُنا: الْغَمّ وَالْكَرب؛ ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء:١٣٥].

(٢) مُدَّةً مَدِيدَةً؛ أَي: مِقْدَار مِنَ الزَّمَانِ طَوِيل.

(٣) لله در الإمام ابن الجوزي ما أجمل كلماته وما أبلغ تعبيراته؛ فكأن قلب مُرتكب المعصية وقد تنجس بالمعاصي، ودموع الندم والتوبة والإنابة هي ماء الطهور، فإذا ما كرَّر التوبة والإنابة والندم مرة بعد مرة أصبح قلبه طاهرًا.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء»(ح٣٠، ٣١٣، ٣١٤)،«الصبر»(ح١٠٧) عَنْ ابْنِ مُنَبِّهٍ و عَنِ الْحَسَنِ.

(٥) رواه ابن حبان، كِتَابُ «الْجَنَائِزِ» باب «مَا جَاءَ فِي الصَّبرِ وَثَوَابِ الْأَمْرَاضِ وَالْأَعْرَاضِ»(٢٨٩٨). ورواه أبو يعلىٰ في «مسنده»(ج٦/ ص٢٩٩/ ح٣٦١٧) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ. وفيه:«إِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللهِ ﷺ لَبِثَ فِي بَلَائِهِ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً» قال الهيثمي في «المجمع»(ج٨/ ص٢٠٨/ ح١٣٨٠):«رَوَاهُ أَبُو يَعْلَىٰ وَالْبَزَّارُ، وَرِجَالُ الْبَزَّارِ رِجَالُ الصَّحِيحِ».

(٦) أخرجه الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «تَوَارِيخِ الْمُتَقَدِّمِينَ» بَابُ «ذِكْرُ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ»(٤٠٨٥) عَنِ الْحَسَنِ.
=

وَلِلْبَلَايَا أَوْقَاتٌ، ثُمَّ تَنْصَرِمُ. وَرُبَّ عُقُوبَةٍ امْتَدَّتْ إِلَىٰ زَمَانِ الْمَوْتِ.

فَاللَّازِمُ لَكَ أَنْ تُلَازِمَ مِحْرَابَ الْإِنَابَةِ، وَتَجْلِسَ جِلْسَةَ الْمُسْتَجْدِي[١]، وَتَجْعَلَ طَعَامَكَ الْقَلَقَ، وَشَرَابَكَ الْبُكَاءَ؛ فَرُبَّمَا قَدِمَ بَشِيرُ الْقَبُولِ، فَارْتَدَّ يَعْقُوبُ الْحَزِنُ بَصِيرًا[٢].

وَإِنْ مُتَّ فِي سِجْنِ شَجَنِكَ[٣]؛ فَرُبَّمَا نَابَ حُزْنُ الدُّنْيَا عَنْ حُزْنِ الْآخِرَةِ[٤]، وَفِي ذَلِكَ رِبْحٌ عَظِيمٌ.

*[٣٠ - ٣][خَاطِرَةٌ]:

[التَّفَكُّرُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ يُنَجِّي مِنْ شُرُورِهَا]

مَنْ عَايَنَ بِعَيْنِ بَصِيرَتِهِ تَنَاهِيَ الْأُمُورِ فِي بِدَايَاتِهَا؛ نَالَ خَيْرَهَا، وَنَجَا مِنْ شَرِّهَا.

وَمَنْ لَمْ يَرَ الْعَوَاقِبَ؛ غَلَبَ عَلَيْهِ الْحِسُّ، فَعَادَ عَلَيْهِ بِالْأَلَمِ مَا طَلَبَ مِنْهُ السَّلَامَةَ، وَبِالنَّصَبِ مَا رَجَا مِنْهُ الرَّاحَةَ[٥].

= وفيه: «أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُلْقِيَ فِي الْجُبِّ وَهُوَ ابْنُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً وَلَقِيَ أَبَاهُ بَعْدَ الثَّمَانِينَ». واخرجه أحمد في «الزهد»(ص٦٨/ ح٤٢١). قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»(ج١/ ص٤٩٨، ٤٩٩/ [بَابُ ذِكْرِ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، قِصَّةُ يُوسُفَ عليه السلام]): «هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ اجْتِمَاعِ الْمُتَحَابَّيْنِ بَعْدَ الْفُرْقَةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي قِيلَ: إِنَّهَا ثَمَانُونَ سَنَةً. وَقِيلَ: ثَلَاثَةٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً. وَقِيلَ: خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً. وَقِيلَ: ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً. وَأَهْلُ الْكِتَابِ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً. وَظَاهِرُ سِيَاقِ الْقِصَّةِ يُرْشِدُ إِلَىٰ تَحْدِيدِ الْمُدَّةِ تَقْرِيبًا فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَاوَدَتْهُ، وَهُوَ شَابٌّ ابْنُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً؛ فَامْتَنَعَ فَكَانَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ، وَهِيَ سَبْعٌ عِنْدَ عِكْرِمَةَ. ثُمَّ أُخْرِجَ فَكَانَتْ سَنَوَاتُ الْخِصْبِ السَّبْعُ، ثُمَّ لَمَّا أَمْحَلَ النَّاسُ فِي السَّبْعِ الْبَوَاقِي جَاءَ إِخْوَتُهُمْ يَمْتَارُونَ السَّنَةَ الْأُولَىٰ وَحْدَهُمْ، وَفِي الثَّانِيَةِ وَمَعَهُمْ أَخُوهُ بِنْيَامِينُ، وَفِي الثَّالِثَةِ تَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ وَأَمَرَهُمْ بِإِحْضَارِ أَهْلِهِمْ أَجْمَعِينَ فَجَاءُوا كُلُّهُمْ» اهـ. بتصرف.

(١) الْمُسْتَجْدِي؛ أي: الذَّليل الذي يطلب العطاء، وهذا أدعىٰ للإجابة.

(٢) وهذا من التشبيهات البديعة، فشبَّه قبول توبة العاصي بفرج يعقوب عند عودة يوسف عليهما السلام بعد الصبر الطويل.

(٣) شَجَنِكَ؛ أي: حُزْنُكَ وَهَمُّكَ وَغَمُّكَ وَأَلَمُكَ.

(٤) نَابَ حُزْنُ الدُّنْيَا عَنْ حُزْنِ الْآخِرَةِ؛ أي: رَجَعَ وَبَعُدَ عَنْ حُزْنِ الدُّنْيَا وَأَبْدَلَهُ بِحُزنِ الآخِرَةِ؛ فَكَانَت هَمّه؛ فَرَبِحَ.

(٥) يعني: لا تنظر إلىٰ نقص البدايات، ولكن انظر إلىٰ كمال النهايات.

وَبَيَانُ هَذَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ يَتَبَيَّنُ بِذِكْرِ الْمَاضِي: وَهُوَ أَنَّكَ لَا تَخْلُو أَنْ تَكُونَ عَصَيْتَ اللهَ فِي عُمُرِكَ، أَوْ أَطَعْتَهُ، فَأَيْنَ لَذَّةُ مَعْصِيَتِكَ؟! وَأَيْنَ تَعَبُ طَاعَتِكَ؟! هَيْهَاتَ، رَحَلَ كُلٌّ بِمَا فِيهِ.

فَلَيْتَ الذُّنُوبَ إِذَا تَخَلَّتْ خَلَّتِ[١]!

وَأَزِيدُكَ فِي هَذَا بَيَانًا: مَثِّلْ سَاعَةَ الْمَوْتِ، وَانْظُرْ إِلَىٰ مَرَارَةِ الْحَسَرَاتِ عَلَىٰ التَّفْرِيطِ، وَلَا أَقُولُ: كَيْفَ تَغْلِبُ حَلَاوَةَ اللَّذَّاتِ؟! لِأَنَّ حَلَاوَةَ اللَّذَّاتِ اسْتَحَالَتْ حَنْظَلًا[٢]، فَبَقِيَتْ مَرَارَةُ الْأَسَىٰ بِلَا مُقَاوِمٍ، أَتَرَاكَ مَا عَلِمْتَ أَنَّ الْأَمْرَ بِعَوَاقِبِهِ؟!

فَرَاقِبِ الْعَوَاقِبَ تَسْلَمْ، وَلَا تَمِلْ مَعَ هَوَىٰ الْحِسِّ فَتَنْدَمَ.

*[٢٠١ - ١٨][خَاطِرَةٌ]:

[مِيزَانُ الْعَدْلِ لَا يُحَابِي]

مَنْ تَأَمَّلَ أَفْعَالَ الْبَارِئِ سُبْحَانَهُ، رَآهَا عَلَىٰ قَانُونِ الْعَدْلِ، وَشَاهَدَ الْجَزَاءَ مُرْصَدًا لِلْمُجَازِىٰ، وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْتَرَّ مُسَامَحٌ، فَالْجَزَاءُ قَدْ يَتَأَخَّرُ.

وَمِنْ أَقْبَحِ الذُّنُوبِ الَّتِي قَدْ أُعِدَّ لَهَا الْجَزَاءُ الْعَظِيمُ:

الْإِصْرَارُ عَلَىٰ الذَّنْبِ، ثُمَّ يُصَانِعُ صَاحِبُهُ بِاسْتِغْفَارٍ وَصَلَاةٍ وَتَعَبُّدٍ، وَعِنْدَهُ أَنَّ الْمُصَانَعَةَ تَنْفَعُ[٣]!

وَأَعْظَمُ الْخَلْقِ اغْتِرَارًا مَنْ أَتَىٰ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ، وَطَلَبَ مِنْهُ مَا يُحِبُّهُ هُوَ، كَمَا رُوِيَ فِي

(١) أي: فَلَيْتَ الذُّنُوبَ إِذَا مَضَتْ وَانتهَتْ لَذَّاتها، تَرَكَتْ فَاعِلَهَا هَادِئَ النَّفْسِ، بَل يَعقِبها أَلَمٌ فِي القَلْبِ وَنَدَم وَحَسْرَة.

(٢) الحَنْظَل: مفرده حَنظَلَة: نبتٌ مفترشٌ من الفصيلة القرعيّة ثماره في حجم البرتقالة ولونها خضراء مُرَقَّشة أو صفراء وخضراء منقطة بحجم الليمون، فيها لُبٌّ شديدُ المرارة، وهو مُسْهِلٌ شديد.

(٣) صَانَعَ يُصَانِعُ، مُصَانَعةً، فَهُوَ مُصَانِعٌ، أَي: يَعمَل مَا يَعمَله مُدَاهَنة وَمُخَادَعَة. وَالمَقْصُود: أَنْ يَبْقَىٰ العَاصِي عَلَىٰ مَعصِيَته مُصِرًّا عَلَيْهَا مَعَ صَلَاة وَتَعَبُّد، بِدُون تَوْبَة صَادِقَة، ظَانًّا مِنْهُ أَنَّهُ نَاجٍ بِذَلِكَ مِنْ عُقُوبَةِ المَعصِيَةِ.

الْحَدِيثِ: «وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ الْأَمَانِيَ»(١).

وَمِمَّا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَرَصَّدَهُ وُقُوعُ الْجَزَاءِ:

فَإِنَّ ابْنَ سِيرِينَ قَالَ: «عَيَّرْتُ رَجُلًا فَقُلْتُ: يَا مُفْلِسُ! فَأَفْلَسْتُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً»(٢).

وَقَالَ ابْنُ الْجَلَّاءِ: «رَآنِي شَيْخٌ لِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَىٰ أَمْرَدَ! فَقَالَ: مَا هَذَا؟! لَتَجِدَنَّ غِبَّهَا، فَنُسِّيتُ الْقُرْآنَ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً»(٣).

وَبِالضِّدِّ مِنْ هَذَا؛ كُلُّ مَنْ عَمِلَ خَيْرًا، أَوْ صَحَّحَ نِيَّةً؛ فَلْيَنْتَظِرْ جَزَاءَهَا الْحَسَنَ، وَإِنِ امْتَدَّتِ الْمُدَّةُ.

قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يُوسُفُ: ٩٠].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ؛ أَثَابَهُ اللهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ»(٤).

فَلْيَعْلَمِ الْعَاقِلُ أَنَّ مِيزَانَ الْعَدْلِ لَا يُحَابِي.

---

(١) «مسند أحمد»(١٧١٢٣)، و«مستدرك الحاكم»(٧٦٣٩) والترمذي، كِتَابُ «صِفَةِ الْقِيَامَةِ»(٢٤٥٩). بدون: «الْأَمَانِيَ».

(٢) ترجمة ابْنَ سِيرِينَ في: [٢٥-٣٢٢]. وخبره في «تاريخ بغداد وذيوله»(ج٢/ ص٤١٨/ ترجمته). وفيه: «عَيَّرْتُ رَجُلًا بِشَيْءٍ مُذ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَحسَبُنِي عُوقِبْتُ بِهِ، وَكَانُوا يَرَونَ أَنَّهُ عَيَّرَ رَجُلًا بِالفَقْرِ؛ فَابْتُلِيَ بِهِ».

(٣) ابْنُ الْجَلَّاءِ: أَحْمَدُ أَوْ: مُحَمَّد بن يَحْيَىٰ، أَبُو عَبْدِ اللهِ. القُدْوَةُ، العَارِفُ. مَاتَ: (٣٠٦هـ). وخبره في «تاريخ دمشق» لابن عساكر. (٦/ ٨٤/ ترجمته): «فَنَسِيتُ القُرآنَ بَعْدَهُ بِعِشْرِينَ سَنَةً». وَمَعنَىٰ: غِبَّهَا؛ أَي: عَاقِبَةَ الشَّيْءِ وَآخِرَهُ.

(٤) رواه أحمد في «المسند»(٢٢٢٧٨)، البيهقي في «الشعب»(٥٠٤٨). (ضعيف جدًّا): «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إِلَىٰ مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ أَوَّلَ مَرَّةٍ، ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ إِلَّا أَحْدَثَ اللهُ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلَاوَتَهَا». وأبو نعيم في «الحلية»(٢/ ١٨٧). (موضوع). ولفظه: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَكُفُّ بَصَرَهُ عَنْ مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا نَظَرَ إِلَّا أَدْخَلَ اللهُ تَعَالَىٰ قَلْبَهُ...».

*[٢٠٢ - ١٠][خَاطِرَةٌ]:

[مَتَى رَأَيْتَ مُعَاقَبًا فَاعْلَمْ أَنَّهُ لِذُنُوبٍ]

خَطَرَتْ لِي فِكْرَةٌ فِيمَا يَجْرِي عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْعَالَمِ مِنَ الْمَصَائِبِ الشَّدِيدَةِ وَالْبَلَايَا الْعَظِيمَةِ، الَّتِي تَتَنَاهَىٰ إِلَىٰ نِهَايَةِ الصُّعُوبَةِ.

فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! إِنَّ اللهَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، وَالْكَرَمُ يُوجِبُ الْمُسَامَحَةَ، فَمَا وَجْهُ هَذِهِ الْمُعَاقَبَةِ؟!

فَتَفَكَّرْتُ؟! فَرَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فِي وُجُودِهِمْ كَالْعَدَمِ، لا يَتَصَفَّحُونَ أَدِلَّةَ الْوَحْدَانِيَّةِ، وَلا يَنْظُرُونَ فِي أَوَامِرِ اللهِ تَعَالَىٰ وَنَوَاهِيهِ؛ بَلْ يَجْرُونَ - عَلَىٰ عَادَاتِهِمْ - كَالْبَهَائِمِ.

فَإِنْ وَافَقَ الشَّرْعُ مُرَادَهُمْ قَبِلُوْهُ، وَإِلَّا[١]، فَمُعَوَّلُهُمْ عَلَىٰ أَغْرَاضِهِمْ[٢]! وَبَعْدَ حُصُولِ الدِّينَارِ لَا يُبَالُونَ؛ أَمِنْ حَلَالٍ كَانَ أَمْ مِنْ حَرَامٍ؟ وَإِنْ سَهُلَتْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ؛ فَعَلُوهَا، وَإِنْ لَمْ تَسْهُلْ؛ تَرَكُوهَا!

وَفِيهِمْ مَنْ يُبَارِزُ بِالذُّنُوبِ الْعَظِيمَةِ؛ مَعَ نَوْعِ مَعْرِفَةِ الْمَنَاهِي، وَرُبَّمَا قَوِيَتْ مَعْرِفَةُ عَالِمٍ مِنْهُمْ، وَتَفَاقَمَتْ ذُنُوبُهُ!!

فَعَلِمْتُ أَنَّ الْعُقُوبَاتِ - وَإِنْ عَظُمَتْ - دُونَ إِجْرَامِهِمْ.

فَإِذَا وَقَعَتْ عُقُوبَةٌ لِتُمَحِّصَ ذَنْبًا؛ صَاحَ مُسْتَغِيثُهُمْ: تُرَىٰ هَذَا بِأَيِّ ذَنْبٍ؟! وَيَنْسَىٰ مَا قَدْ كَانَ، مِمَّا تَتَزَلْزَلُ الْأَرْضُ لِبَعْضِهِ!

وَقَدْ يُهَانُ الشَّيْخُ فِي كِبَرِهِ حَتَّىٰ تَرْحَمَهُ الْقُلُوبُ، وَلا يَدْرِي أَنَّ ذَلِكَ لِإِهْمَالِهِ حَقَّ اللهِ تَعَالَىٰ فِي شَبَابِهِ!

---

(١) جاء في الأصل: [فَإِنْ وَافَقَ الشَّرْعُ مُرَادَهُمْ، وَإِلَّا]، وفي مخطوط: (ي): [فَإِنْ وَافَقَ الْمَشْرُوعُ مُرَادَهُمْ قَبِلُوهُ، وَإِلَّا].

(٢) يعني: الذي يأخذ من الشرع ما يُوافقه، هو في الحقيقة لا ينظر للشرع؛ بل يدور مع هواه، سواء وافق الشرع أم لا.

فَمَتَىٰ رَأَيْتَ مُعَاقَبًا؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لِذُنُوبٍ[١].

*[٢٠٣ - ٣٥٥][خَاطِرَةٌ][٢]:

[مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ]

اعْلَمْ أَنَّ الْجَزَاءَ بِالْمِرْصَادِ: إِنْ كَانَتْ حَسَنَةً، أَوْ كَانَتْ سَيِّئَةً.

وَمِنَ الِاغْتِرَارِ أَنْ يَظُنَّ الْمُذْنِبُ إِذَا لَمْ يَرَ عُقُوبَةً أَنَّهُ قَدْ سُومِحَ، وَرُبَّمَا جَاءَتِ الْعُقُوبَةُ بَعْدَ مُدَّةٍ.

وَقَلَّ مَنْ فَعَلَ ذَنْبًا إِلَّا وَقُوبِلَ عَلَيْهِ؛ قَالَ ﷻ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[النساء:١٢٣].

هَذَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَكَلَ لُقْمَةً؛ فَقَدْ عَرَفْتُمْ مَاجَرَىٰ عَلَيْهِ[٣].

قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ[٤]: «أَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ[٥]: أَلَمْ أَصْطَنِعْكَ لِنَفْسِي، وَأَحْلَلْتُكَ دَارِي، وَأَسْجَدْتُ لَكَ مَلَائِكَتِي؟! فَعَصَيْتَ أَمْرِي، وَنَسِيتَ عَهْدِي!! وَعِزَّتِي؛ لَوْ مَلَأْتُ

---

(١) ذَكَرَ تَعَالَىٰ فِي القُرآنِ الْكَرِيم أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ أَحَدٍ إِلَّا بِسَبَبِ ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ، يُرَاجع عَلَىٰ سَبِيلِ المِثَال الآيات في سورة:[آل عمران:١٦٥]،[النساء:٧٩]،[الأنفال:٥٣]،[الرعد:١١]،[الشورى:٣٠]. وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحَادِيث كَثِيْرَة جِدًّا، نَذْكُر مِنْهَا: «لا يُصِيبُ ابْنَ آدَمَ خَدْشُ عُودٍ، وَلا عَثْرَةُ قَدَمٍ، وَلا اخْتِلَاجُ عِرْقٍ، إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ» رواه البيهقي في «الشعب»(٩٣٥٧)

(٢) جاء في الأصل:[فصل: ينبغي تأمله].

(٣) يُشير رَحِمَهُ اللهُ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة:٣٥-٣٦]. وقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه:١٢٠، ١٢١]. وقد سبق التعليق على ما ذكره الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ من حال هؤلاء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وما ذُكِرَ في حقهم، في الخاطرة رقم:[٥٢-١١٧]و[٩٤-٢٩٤].

(٤) وَهْبُ بنُ مُنَبِّهِ بنِ كَامِلِ بنِ سِيْجِ بنِ ذِي كِبَارٍ، العَلَّامَةُ، الأَخْبَارِيُّ، القَصَصِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللهِ، مَات سَنَة(١١٠ـ ١١٤هـ).

(٥) أي: إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الأَرْض كُلِّهَا(١) مِثْلَكَ يَعْبُدُونَ، وَيُسَبِّحُونَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، ثُمَّ عَصَوْنِي؛ لأَنْزَلْتُهُمْ مَنَازِلَ الْعَاصِينَ(٢).

فَنَزَعَ جِبْرِيلُ التَّاجَ عَنْ رَأْسِهِ(٣)، وَحَلَّ مِيكَائِيلُ الإِكْلِيلَ عَنْ جَبِينِهِ، وَجَذَبَ بِنَاصِيَتِهِ، فَأُهْبِطَ. فَبَكَىٰ آدَمُ ثَلَاثَ مِائَةِ عَامٍ عَلَىٰ جَبَلِ الْهِنْدِ؛ تَجْرِي دُمُوعُهُ فِي أَوْدِيَةِ جِبَالِهَا؛ فَنَبَتَتْ بِتِلْكَ الْمَدَامِعُ أَشْجَارُ طِيبِكُمْ هَذَا»(٤).

وَكَذَلِكَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ «نَظَرَ نَظْرَةً، فَأَوْجَبَتْ عِتَابَهُ، وَبُكَاءَهُ الدَّائِمَ، حَتَّىٰ نَبَتَ الْعُشْبُ مِنْ دُمُوعِهِ»(٥).

وَأَمَّا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ «فَإِنَّ قَوْمًا اخْتَصَمُوا إِلَيْهِ، فَكَانَ هَوَاهُ مَعَ أَحَدِ الْخَصْمَيْنِ، فَعُوقِبَ، وَتَغَيَّرَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وَكَانَ يَقُولُ: «أَطْعِمُونِي» فَلَا يُطْعَمُ!»(٦).

وَأَمَّا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ «فَإِنَّهُ يُقَالُ: إِنَّهُ ذَبَحَ عِجْلًا بَيْنَ يَدَيْ أُمِّهِ، فَعُوقِبَ بِفِرَاقِ يُوسُفَ»(٧).

وَأَمَّا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ «فَأُخِذَ بِالْهَمِّ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ إِخْوَتِهِ وُلِدَ لَهُ اثْنَا عَشَرَ وَلَدًا، وَنَقَصَ

---

(١) جاء في الأصل: [كلهم] والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به..

(٢) أورده السيوطي في «الدر المنثور»(ج١/ ص١٢٢/ البقرة:٣٦). عَن أبيّ بن كَعْب، وفيه: «فَبِعِزَّتِي لا أُسَاكِن مَنْ عَصَانِي وَلَو خَلَقْتُ مِلْءَ الأَرْض مِثْلَكَ خَلْقًا ثُمَّ عَصَونِي لاسكنتهم دَار العَاصِين».

(٣) أي: عن رأس آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء»(ج٥/ ص١١٣/ ت: عَمْرُو الْمُلَائِيُّ). عَنْ مُجَاهِدٍ وفيه: «أَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ الْمَلَكَيْنِ..».

(٥) مَا ذُكِرَ مِنْ أَنَّ فِتْنَةَ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَتْ النَّظَرَ؛ فَلَا يَشُكُّ مُسْلِم عَاقِل فِي بُطلانِ ذَلِكَ؛ لِنِسْبَةِ مَا لَا يَلِيقُ بِمَقَام الأَنْبِيَاء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. [يُرَاجع: «السلسلة الضعيفة»(ج١/ ص٤٨٣-٤٨٥/ ح٣١٣، ٣١٤)]. وَتُرَاجَع الخاطرة رقم: [٩٤-٢٩٤].

(٦) أورده السيوطي في «الدر المنثور»(ج٧/ ص١٥٥/ سورة ص:٣٤). عَن ابْن عَبَّاس، وفيه: «وَكَانَ لِسُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ امْرَأَة يُقَال لَهَا جَرَادَة وَكَانَ بَين بعض أَهلهَا وَبَين قوم خُصُومَة فَقضىٰ بَينهم بِالْحَقِّ إِلَّا أَنه ودَّ أَن الْحق كَانَ لأَهْلهَا فَأوحىٰ الله تَعَالَىٰ إِلَيْهِ: أَنه سيصيبك بلَاء» * قَالَ الآلُوسِيّ رَحِمَهُ اللهُ: «الْمُرَاد بِالْجَسَدِ ذَلِكَ الشّق الَّذِي وُلِدَ لَهُ، وَمَعنَىٰ إِلْقَائِهِ عَلَىٰ كُرسِيِّهِ: وَضع القَابِلَة لَه عَلَيْهِ؛ لِيَرَاهُ» اهـ. [«روح المعاني»(ج١٢ / ص١٩٠، ١٩١)]. يُرَاجع التَّعلِيق عَلَىٰ الخَاطِرَة رَقم: [٩٤-٢٩٤]؛ فَفِيهِ زِيَادَة فَائِدَة.

(٧) يُنظر: «معالم التنزيل» للبغوي. (ج٢/ ص٤٤٥/ يوسف:٨٦). وهذه من الأخبار الإسرائيلية.

هُوَ وَلَدًا لِتِلْكَ الْهَمَّةِ»[(١)].

وَأَمَّا أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَإِنَّهُ قَصَّرَ فِي الْإِنْكَارِ عَلَىٰ مَلِكٍ ظَالِمٍ لِأَجْلِ خَيْلٍ كَانَتْ فِي نَاحِيَتِهِ، فَابْتُلِيَ»[(٢)].

وَأَمَّا يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَخَرَجَ عَنْ قَوْمِهِ بِغَيْرِ إِذْنٍ؛ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ»[(٣)].

وَأَوْحَىٰ اللهُ ﷻ إِلَىٰ أَرْمِيَا: «إِنَّ قَوْمَكَ تَرَكُوا الْأَمْرَ، الَّذِي أَكْرَمْتُ بِهِ آبَاءَهُمْ، وَعِزَّتِي؛ لَأُهَيِّجَنَّ عَلَيْهِمْ جُنُودًا لَا يَرْحَمُونَ بُكَاءَهُمْ. فَقَالَ: يَا رَبِّ! هُمْ وَلَدُ خَلِيلِكَ إِبْرَاهِيمَ، وَأُمَّةُ صَفِيِّكَ مُوسَىٰ، وَقَوْمُ نَبِيِّكَ دَاوُدَ. فَأَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ: إِنَّمَا أَكْرَمْتُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَدَاوُدَ بِطَاعَتِي، وَلَوْ عَصَوْنِي؛ لَأَنْزَلْتُهُمْ مَنَازِلَ الْعَاصِينَ»[(٤)].

---

(١) يُراجع: «جامع البيان» للطبري. (٦/ ٤٥٧، ٤٥٨/ يوسف: ٢٤). عَنْ عَلِيِّ بْنِ بَذِيمَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. «الدر المنثور» للسيوطي. (٤/ ٤٦٥/ يوسف: ٢٤). عَنْ مُجَاهِدٍ: «لَمْ يُولَدْ لَهُ إِلَّا غُلَامَانِ»، قَالَ الشِّنْقِيطِيُّ فِي «أضواء البيان» (٣/ ٦٦-٨١/ يوسف: ٢٤): «هَذِهِ الْأَقْوَالُ الَّتِي رَأَيْتَ نِسْبَتَهَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ مُنْقَسِمَةٌ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ لَمْ يَثْبُتْ نَقْلُهُ عَمَّنْ نُقِلَ عَنْهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، وَهَذَا لَا إِشْكَالَ فِي سُقُوطِهِ. وَقِسْمٌ ثَبَتَ عَنْ بَعْضِ مَنْ ذُكِرَ، وَمَنْ ثَبَتَ عَنْهُ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ فَالظَّاهِرُ الْغَالِبُ عَلَىٰ الظَّنِّ الْمُزَاحِمُ لِلْيَقِينِ: أَنَّهُ إِنَّمَا تَلَقَّاهُ عَنِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ؛ لِأَنَّهُ لَا مَجَالَ لِلرَّأْيِ فِيهِ، وَلَمْ يُرْفَعْ مِنْهُ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ إِلَيْهِ ﷺ. وَالْحَقِيقَةُ لَا تَتَعَدَّىٰ أَحَدَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ أَصْلًا بِنَاءً عَلَىٰ أَنَّ الْهَمَّ مُعَلَّقٌ بِأَدَاةِ الِامْتِنَاعِ الَّتِي هِيَ لَوْلَا عَلَىٰ انْتِفَاءِ رُؤْيَةِ الْبُرْهَانِ، وَقَدْ رَأَىٰ الْبُرْهَانَ فَانْتَفَىٰ الْمُعَلَّقُ عَلَيْهِ، وَبِانْتِفَائِهِ يَنْتَفِي الْمُعَلَّقُ الَّذِي هُوَ هَمُّهُ بِهَا. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ هَمُّهُ خَاطِرًا قَلْبِيًّا صَرَفَ عَنْهُ وَازِعَ التَّقْوَىٰ، أَوْ هُوَ الشَّهْوَةُ وَالْمَيْلُ الْغَرِيزِيُّ الْمَزْمُومُ بِالتَّقْوَىٰ، وَهَذَا لَا مَعْصِيَةَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ جِبِلِّيٌّ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ التَّكْلِيفُ وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ» اهـ.

(٢) وَلِأَهْلِ الْقَصَصِ مُبَالَغَاتٌ لَا تَلِيقُ بِمَقَامِ النُّبُوَّةِ.

(٣) قصة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وَخُرُوجه بِغَيْرِ إِذْنٍ، مذكورة في سورة: [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، [الصافات: ١٣٩-١٤٨]، [ن: ٤٨-٥٠].

(٤) يُنظر: «تاريخ الطبري» (ج١/ ص٥٤٨/ ذكر خبر لهراسب وابنه)، «عيون الأخبار» لابن قتيبة. (ج٢/ ص٢٨٦/ كتاب الزهد) مِنْ كَلَامِ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، وَفِيهِ: «أَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ أَرْمِيَاءُ حِينَ ظَهَرَتْ فِيهِمُ الْمَعَاصِي». وَأَرْمِيَاءُ بْنُ حَلْقِيَا كان في زمن بُخْتُنَصَّر.

وَنَظَرَ بَعْضُ الْعُبَّادِ[1] شَخْصًا مُسْتَحْسَنًا، فَقَالَ لَهُ شَيْخُهُ: «مَا هَذَا النَّظَرُ؟! سَتَجِدُ غِبَّهُ. فَنَسِيَ الْقُرْآنَ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً».

وَقَالَ آخَرُ: «قَدْ عِبْتُ شَخْصًا قَدْ ذَهَبَ بَعْضُ أَسْنَانِهِ، فَانْتَثَرَتْ أَسْنَانِي! وَنَظَرْتُ إِلَى امْرَأَةٍ لَا تَحِلُّ، فَنَظَرَ إِلَى زَوْجَتِي مَنْ لَا أُرِيدُ»!.

وَكَانَ بَعْضُ الْعَاقِّينَ ضَرَبَ أَبَاهُ، وَسَحَبَهُ إِلَى مَكَانٍ؛ فَقَالَ لَهُ الأَبُ: «حَسْبُكَ! إِلَى هَا هُنَا سَحَبْتُ أَبِي!!».

وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ: «عَيَّرْتُ رَجُلًا بِالإِفْلَاسِ، فَأَفْلَسْتُ»[2]. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ.

وَمِنْ أَعْجَبِ مَا سَمِعْتُ فِيهِ عَنِ الْوَزِيرِ ابْنِ جَهِيرٍ[3] الْمُلَقَّبِ بِـ«النِّظَامِ»: «أَنَّ الْمُقْتَفِي غَضِبَ عَلَيْهِ[4]، وَأَمَرَ بِأَنْ تُؤْخَذَ مِنْهُ عَشَرَةُ آلَافِ دِينَارٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَهْلُهُ مَحْزُونِينَ، وَقَالُوا لَهُ: مِنْ أَيْنَ لَكَ عَشَرَةُ آلَافِ دِينَارٍ؟! فَقَالَ: مَا يُؤْخَذُ مِنِّي عَشَرَةٌ وَلَا خَمْسَةٌ وَلَا أَرْبَعَةٌ. قَالُوا: مِنْ أَيْنَ لَكَ؟ قَالَ: إِنِّي ظَلَمْتُ رَجُلًا، فَأَلْزَمْتُهُ ثَلَاثَةَ آلَافٍ؛ فَمَا يُؤْخَذُ مِنِّي أَكْثَرَ مِنْهَا؛ فَلَمَّا أَدَّى ثَلَاثَةَ آلَافِ دِينَارٍ؛ وَقَّعَ الْخَلِيفَةُ بِإِطْلَاقِهِ وَمُسَامَحَتِهِ فِي الْبَاقِي».

وَأَنَا أَقُولُ عَنْ نَفْسِي: مَا نَزَلَتْ بِي آفَةٌ أَوْ غَمٌّ أَوْ ضِيقُ صَدْرٍ؛ إِلَّا بِزَلَلٍ أَعْرِفُهُ، حَتَّى يُمْكِنَنِي أَنْ أَقُولَ: هَذَا بِالشَّيْءِ الْفُلَانِيِّ. وَرُبَّمَا تَأَوَّلْتُ فِيهِ بَعْدُ، فَأَرَى الْعُقُوبَةَ.

فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَرَقَّبَ جَزَاءَ الذُّنُوبِ؛ فَقَلَّ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهُ.

---

(١) هُوَ ابْنُ الْجَلَّاءِ: وترجمته وخبره في: [٢٠١-١٨]. وَغِبَّهُ؛ أَي: عَاقِبَةَ الشَّيءِ وَآخِرَهُ.

(٢) ترجمة ابْنَ سِيرِينَ في: [٢٥-٣٢٢]. وخبره في الخاطرة: [٢٠١ - ١٨].

(٣) جاء في الأصل: [حصير]، وهو تصحيف، والصواب ما أثبتناه. وَابْنُ جَهِيرٍ أَبُو نَصْرٍ، الْمُلَقَّبِ بِـ«نِظَامِ الدِّينِ» الـ مُظَفَّرُ بنُ عَلِيِّ بنِ مُحَمَّدٍ بنِ مُحَمَّدٍ، الوَزِيرِ الأكملُ، وَزَرَ لِلمُقْتَفِي سَبْعَةَ أَعْوَامٍ، ثُمَّ عُزِلَ، وَمَاتَ سَنَةَ: (٥٤٩هـ).

(٤) الْمُقْتَفِي لأَمْرِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ ابْنِ الذَّخِيرَةِ مُحَمَّد بن عَبْدِ اللهِ العَبَّاسِيّ. وَوَزَرَ لَهُ: عَلِيُّ بنُ طِرَادٍ، ثُمَّ أَبُو نَصْرِ بنُ جَهِيرٍ، ثُمَّ عَلِيُّ بنُ صَدَقَةَ، ثُمَّ ابْنُ هُبَيْرَةَ. وَكَانَ عَاقِلًا لَبِيبًا، عَامِلًا مَهِيبًا، وَغَزَا فِي جُيُوشِهِ، مَاتَ سَنَةَ: (٥٥٥هـ).

وَلْيَجْتَهِدْ فِي التَّوْبَةِ؛ فَقَدْ رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَسْرَعَ لَحَاقًا بِشَيْءٍ مِنْ حَسَنَةٍ حَدِيثَةٍ لِذَنْبٍ قَدِيمٍ»[(١)].

وَمَعَ التَّوْبَةِ يَكُونُ خَائِفًا مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ، مُتَوَقِّعًا لَهَا؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ تَابَ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ ﷺ، وَفِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «يَقُولُ آدَمُ: ذَنْبِي، وَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ: ذَنْبِي»[(٢)].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ خَبَرٌ؛ فَهُوَ يَقْتَضِي أَلَّا يُجَاوِزَ عَنْ مُذْنِبٍ، وَقَدْ عَرَفْنَا قَبُولَ التَّوْبَةِ، وَالصَّفْحَ عَنِ الْخَاطِئِينَ؟

فَالْجَوَابُ: مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُحْمَلَ عَلَىٰ مَنْ مَاتَ مُصِرًّا، وَلَمْ يَتُبْ؛ فَإِنَّ التَّوْبَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا[(٣)].

وَالثَّانِي: أَنَّهُ عَلَىٰ إِطْلَاقِهِ، وَهُوَ الَّذِي أَخْتَارُهُ أَنَا، وَأَسْتَدِلُّ بِالنَّقْلِ وَالْمَعْنَىٰ:

أَمَّا النَّقْلُ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ؛ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَوَ نُجَازَىٰ بِكُلِّ مَا نَعْمَلُ؟ فَقَالَ: «أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَيْسَ يُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟ فَذَلِكَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ»[(٤)].

وَأَمَّا الْمَعْنَىٰ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا تَابَ وَنَدِمَ؛ كَانَ أَسَفُهُ عَلَىٰ ذَنْبِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَقْوَىٰ مِنْ كُلِّ عُقُوبَةٍ.

فَالْوَيْلُ لِمَنْ عَرَفَ مَرَارَةَ الْجَزَاءِ الدَّائِمِ، ثُمَّ آثَرَ لَذَّةَ الْمَعْصِيَةِ لَحْظَةً!

---

(١) رواه ابن أبي شيبة، كِتَابُ «الزهد»(٣٦٢٦٢) والحكيم في «نوادر الأصول» (ج٤/ ص٤٢٣/ الأصل:٢٠٣/ ح١٠٢٦) والطبراني في «الكبير»(١٢٧٩٨) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَمْ أَرَ شَيْئًا أَحْسَنَ طَلَبًا وَلا أَسْرَعَ إِدْرَاكًا مِنْ حَسَنَةٍ حَدِيثَةٍ لِذَنْبٍ قَدِيمٍ». قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية»(ج١/ ح١٣٨١): «لا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ».

(٢) سبق تخريجه في الخاطرة رقم: [١٩٨ - ٢٩١].

(٣) أَي: تَقْطَع وَتَمْحُو الذُّنُوب فَلَا يُؤَاخَذُ بِهَا، يَدُلّ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا رواه ابن ماجة، كتاب «الزُّهْدِ»(٤٢٥٠): «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ». أَمَّا: «التَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا» فلا أصل له؛ «السلسلة الضعيفة». (ج٣/ ص١٤١/ ح١٠٣٩)

(٤) رواه أحمد في «المسند»(٦٨، ٦٩) والحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ»(٤٤٥٠). وابن حبان، كِتَابُ «الْجَنَائِزِ» بَابُ «مَا جَاءَ فِي الصَّبْرِ»(٢٩١٠). اللَّأْوَاءُ؛ أي: الشِّدَّة وَضِيق الْمَعِيشَة.

*[٢٠٤ - ٢٢١][خَاطِرَةٌ]:

[الْبِدَارَ الْبِدَارَ إِلَى التَّوْبَةِ]

قَدْ تَبْغَتُ الْعُقُوبَاتُ، وَقَدْ يُؤَخِّرُهَا الْحِلْمُ[١].

وَالْعَاقِلُ مَنْ إِذَا فَعَلَ خَطِيئَةً؛ بَادَرَهَا بِالتَّوْبَةِ. فَكَمْ مَغْرُورٍ بِإِمْهَالِ الْعُصَاةِ لَمْ يُمْهَلْ!

وَأَسْرَعُ الْمَعَاصِي عُقُوبَةً مَا خَلَا عَنْ لَذَّةٍ تُنْسِي النُّهَى[٢]، فَتَكُونُ تِلْكَ الْخَطِيئَةُ كَالْمُعَانَدَةِ وَالْمُبَارَزَةِ؛ فَإِنْ كَانَتْ تُوجِبُ اعْتِرَاضًا عَلَى الْخَالِقِ، أَوْ مُنَازَعَةً لَهُ فِي عَظَمَتِهِ: فَتِلْكَ الَّتِي لَا تُتَلَافَى[٣]، خُصُوصًا إِنْ وَقَعَتْ مِنْ عَارِفٍ بِاللهِ؛ فَإِنَّهُ يَنْدُرُ إِهْمَالُهُ.

قَالَ عَبْدُ الْمَجِيدِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: «كَانَ عِنْدَنَا بِخُرَاسَانَ رَجُلٌ كَتَبَ مُصْحَفًا فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَلَقِيَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: فِي كَمْ كُتِبَ هَذَا؟ فَأَوْمَأَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَالْإِبْهَامِ، وَقَالَ: فِي ثَلَاثٍ، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق: ٣٨]، فَجَفَّتْ أَصَابِعُهُ الثَّلَاثُ، فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا فِيمَا بَعْدُ»[٤].

وَخَطَرَ لِبَعْضِ الْفُصَحَاءِ أَنَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ الْقُرْآنِ! فَصَعِدَ إِلَى غُرْفَةٍ، فَانْفَرَدَ فِيهَا، وَقَالَ: أَمْهِلُونِي ثَلَاثًا! فَصَعِدُوا إِلَيْهِ بَعْدَ الثَّلَاثِ، وَيَدُهُ قَدْ يَبِسَتْ عَلَى الْقَلَمِ، وَهُوَ مَيِّتٌ.

قَالَ عَبْدُ الْمَجِيدِ: «وَرَأَيْتُ رَجُلًا كَانَ يَأْتِي امْرَأَتَهُ حَائِضًا؛ فَحَاضَ[٥]، فَلَمَّا كَثُرَ الْأَمْرُ بِهِ؛ تَابَ، فَانْقَطَعَ عَنْهُ».

---

(١) قَدْ تَبْغَتُ الْعُقُوبَاتُ؛ أَي: تَأْتِي فَجْأَةً. وَقَدْ يُؤَخِّرُهَا الْحِلْمُ؛ أَي: حِلْمُ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْعَاصِي.

(٢) النُّهَى: الْعُقُول وَالأَلْبَابُ، واحِدَتُها: نُهْيَة - بالضَّم -، سُمِّيَت بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا تَنْهَى صَاحِبَهَا عَنِ الْقَبِيحِ.

(٣) لا تَتَلَافَى؛ أَي: لَا يُمْكِن تَدَارُكهَا؛ لِخَطَرِهَا وَعِظَمِهَا.

(٤) عَبْدُ الْمَجِيدِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي رَوَّادٍ أَبُو عَبْدِ الْمَجِيْدِ، العَالِمُ، الحَافِظُ،، وَكَانَ مِنَ الْمُرْجِئَةِ، وَمَعَ هَذَا فَوَثَّقَهُ: أَحْمَدُ، وَيَحْيَى بنُ مَعِيْنٍ. مَاتَ سَنَةَ:(٢٠٦هـ). والخبر في «الثقات» لابن حبان.(ج٨/ ص١٠/ ١٢٠٤٦-ت: أحمد القواس)، «تاريخ واسط» أسلم الرزاز.(ص٢١٦/ ت: أبو مطر). وفيه: «في سِتَّةِ أَيَّامٍ».

(٥) الحيضُ: الدَّم الَّذي يسيل من رحم المرأة البالغة في أيَّام معلومة من كلِّ شهر، ويُطلق على الرجل مجازًا؛ إذا نزف.

وَيَلْحَقُ هَذَا أَنْ يُعَيِّرَ الْإِنْسَانُ شَخْصًا بِفِعْلٍ، وَأَعْظَمُهُ أَنْ يُعِيِّرَهُ بِمَا لَيْسَ إِلَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا أَعْمَىٰ! وَيَا قَبِيحَ الْخِلْقَةِ!

وَقَدْ قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: «عَيَّرْتُ رَجُلًا بِالْفَقْرِ، فَحُبِسْتُ عَلَىٰ دَيْنٍ»[(١)].

وَقَدْ تَتَأَخَّرُ الْعُقُوبَةُ وَتَأْتِي فِي آخِرِ الْعُمُرِ؛ فَيَا طُولَ التَّعْثِيرِ مَعَ كِبَرِ السِّنِّ لِذُنُوبٍ كَانَتْ فِي الشَّبَابِ!

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ عَوَاقِبِ الْخَطَايَا، وَالْبِدَارَ الْبِدَارَ إِلَىٰ مَحْوِهَا بِالْإِنَابَةِ؛ فَلَهَا تَأْثِيرَاتٌ قَبِيحَةٌ، إِنْ أَسْرَعَتْ، وَإِلَّا؛ اجْتَمَعَتْ وَجَاءَتْ.

* [٢٠٥ - ١٢٩] [خَاطِرَةٌ]:

[التوبة من الذنب قبل فوات الوقت]

اعْلَمُوا - إِخْوَانِي، وَمَنْ يَقْبَلُ نَصِيحَتِي! - أَنَّ لِلذُّنُوبِ تَأْثِيرَاتٍ قَبِيحَةً، مَرَارَتُهَا تَزِيدُ عَلَىٰ حَلَاوَتِهَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَالْمُجَازِي بِالْمِرْصَادِ؛ لا يَسْبِقُهُ شَيْءٌ، وَلا يَفُوتُهُ.

أَوَلَيْسَ يُرْوَىٰ فِي «التَّفْسِيرِ»[(٢)]: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ عليه السلام - وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ - وُلِدَ لَهُ اثْنَا عَشَرَ وَلَدًا؛ إِلَّا يُوسُفَ؛ فَإِنَّهُ وُلِدَ لَهُ أَحَدَ عَشَرَ، وَجُوزِيَ بِتِلْكَ الْهَمَّةِ، فَنَقَصَ وَلَدًا[(٣)].

فَوَا أَسَفًا لِمَضْرُوبٍ بِالسِّيَاطِ مَا يُحِسُّ بِالْأَلَمِ! وَلِمُثْخَنٍ بِالْجِرَاحِ[(٤)]، وَمَا عِنْدَهُ مِنْ نَفْسِهِ خَبَرٌ! وَلِمُتَقَلِّبٍ فِي عُقُوبَاتٍ مَا يَدْرِي بِهَا!

---

(١) ترجمة ابْنَ سِيرِينَ في: [٢٥-٣٢٢]. وخبره في الخاطرة: [٢٠١ - ١٨].

(٢) سبق التعليق على ذلك في الخاطرة: [٢٠٣- ٣٥٥].

(٣) ستأتي أمثلة في غاية الجمال لابن الجوزي رحمه الله في الخاطرة: [٢٩٩ -٢٩] بعنوان: عَجَائِبُ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(٤) الإِثْخَان: الْمُبَالَغَة وَالإِكْثَار. وَمُثْخَنٌ بِالجِرَاحِ؛ أَي: مُثْقَلٌ بِكَثْرَةِ الجِرَاحِ، وَمَا يَشْعُر بِمَا حَصَلَ لَهُ!.

وَلَعَمْرِي إِنَّ أَعْظَمَ الْعُقُوبَةِ أَنْ لا يَدْرِيَ بِالْعُقُوبَةِ.

فَوَا عَجَبًا لِلْمُغَالِطِ نَفْسَهُ! يُرْضِي رَبَّهُ بِطَاعَةٍ، وَيَسْرِقُ مَعصِيةً[١]، وَيَقُولُ: حَسَنَةٌ وَسَيِّئَةٌ!

وَيْكَ[٢]! مِنْ كِيسِكَ تُنْفِقُ، وَمِنْ بِضَاعَتِكَ تَهْدِمُ، وَوَجْهَ جَاهِكَ تَشِينُ!

رُبَّ جِرَاحَةٍ قَتَلَتْ، وَرُبَّ عَثْرَةٍ أَهْلَكَتْ، وَرُبَّ فَارِطٍ لا يُسْتَدْرَكُ[٣].

وَيْحَكَ[٤]! انْتَبِهْ لِنَفْسِكَ، مَا الَّذِي تَنْتَظِرُ بِأَوْبَتِكَ[٥]؟ وَمَاذَا تَتَرَقَّبُ بِتَوْبَتِكَ؟ الْمَشِيبُ؟ فَهَا هُوَ ذَا أَوْهَنَ الْعَظْمَ!

وَهَلْ بَعْدَ رَحِيلِ الأَهْلِ وَالأَوْلادِ وَالأَقَارِبِ إِلَّا اللَّحَاقِ؟!

قَدِّرْ أَنَّ مَا تُؤَمِّلُهُ مِنَ الدُّنْيَا قَدْ حَصَلَ، فَكَانَ مَاذَا؟! إِمَّا هُوَ عَاجِلٌ؛ فَشَغَلَكَ عَاجِلًا، ثُمَّ آخِرُ جُرْعَةِ اللَّذَّةِ شَرْقَةٌ! وَإِمَّا أَنْ تُفَارِقَ مَحْبُوبَكَ أَوْ يُفَارِقَكَ.

فَيَا لَهَا جُرْعَةً مَرِيرَةً تَوَدُّ عِنْدَهَا أَنْ لَوْ لَمْ تَرَهُ!

آهٍ لِمَحْجُوبِ الْعَقْلِ عَنِ التَّأَمُّلِ، وَلِمَصْدُودٍ عَنِ الْوُرُودِ، وَهُوَ يَرَى الْمَنْهَلَ! أَمَا فِي هَذِهِ الْقُبُورِ نَذِيرٌ؟! أَمَا فِي كُرُورِ الزَّمَانِ زَاجِرٌ[٦]؟!

أَيْنَ مَنْ مَلَكَ وَبَلَغَ الْمُنَى فِيمَا أَمَّلَ؟! نَادِهِمْ فِي نَادِيهِمْ! هَيْهَاتَ؛ صَمُّوا عَنْ مُنَادِيهِمْ، فَلَوْ أَنَّ مَا بِهِمُ الْمَوْتَ، إِنَّمَا الْقُبُورُ هُنَيَّةٌ[٧].

---

(١) ما أجمل هذا التعبير. وكأنَّ العاصي حين يعمل المعصية كالسَّارق في اضطرابه وعدم طُمأنينته؛ لِعِلْمِهِ بما يفعل.

(٢) وَيْ: اسم فعل مضارع وهي كلمة: (تَفَجُّع وتَعَجُّب)، وقد تأتي بمعنى: وَيْلَك.

(٣) رُبَّ: حَرف جَرّ شَبِيه بالزَّائِد، وَمَعنَاهُ: التَّقلِيل، وَقَد يُفِيد التَّكثِير أحيَانًا. وَفَرَط يَفرِط فَهُو فارِطٌ: تقَدَّم وسَبَق. وَالمَقصُود بِقَولِهِ: (فَارِطٍ لا يُستَدرَكُ)؛ أَي: رُبَّ مَعصِيَة سَبَق وقُوعهَا مِنَ المُسلِم لَا يَستَطِيع استِدرَاكهَا بِالتَّوبَة.

(٤) وَيْح: كلمة توجُّع وترحُّم وإظهار الشفقة، تُستعمل منوَّنة وغير منوَّنة، وقيل: هي بمعنى وَيْل.

(٥) الأَوْبَة: تَابَ وَرَجَعَ عَنْ مَعصِيتِهِ.

(٦) كُرُور الزَّمَانِ؛ أَي: مُرُور أو رُجُوع الزَّمَان.

(٧) هُنَيَّة؛ أي: قَلِيْلًا مِنَ الزَّمَانِ، وَهُوَ تَصغِير: هَنَةٍ. وَيُقَالُ: هُنَيْهَة. وَالمَعنَى: لَو كَانَ الأَمرُ يَنقَضِي بِالمَوْتِ؛ لَكَانَ الأَمر سَهلًا يَسِيرًا، وَمَا سَيَجِده فِي القَبرِ أَيضًا شَيئًا يَسِيرًا بِالنِّسبَةِ لِمَا أُعِدَّ لَهُ فِي الآخِرَة.

الْعَمَلُ حَصَلَ يَا مَعْدُومًا بِالأَمْسِ! يَا مُتَلَاشِيَ الأَشْلَاءِ فِي الْغَدِ!

بِأَيِّ وَجْهٍ تَلْقَىٰ رَبَّكَ؟! أَيُسَاوِي مَا تَنَالُهُ مِنَ الْهَوَىٰ لَفْظَ عِتَابٍ؟!

بِاللهِ، إِنَّ الرَّحْمَةَ بَعْدَ الْمُعَاتَبَةِ رُبَمَا لَمْ تَسْتَوْفِ قَلْعَ الْبِغْضَةِ مِنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ[1].

فَكَيْفَ إِنْ أَعْقَبَ الْعِتَابَ عِقَابٌ؟!

وَقَدْ أَخْبَرَنَا[2] عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَزَّازُ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ الْخَطِيبُ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنُ الْمُعَدِّلُ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الْفَضْلِ الزُّهْرِيُّ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّعْفَرَانِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ وَاصِلٍ الْمُقْرِئُ؛ قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الصَّيْرَفِيَّ؛ قَالَ: «رَأَىٰ جَارٌ لَنَا يَحْيَىٰ بْنَ أَكْثَمَ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي مَنَامِهِ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ بِكَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: وَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: سَوْءَةً لَكَ يَا شَيْخُ! فَقُلْتُ: يَا رَبِّ! إِنَّ رَسُولَكَ قَالَ: «إِنَّكَ لَتَسْتَحِي مِنْ أَبْنَاءِ الثَّمَانِينَ أَنْ تُعَذِّبَهُمْ»[3]، وَأَنَا ابْنُ ثَمَانِينَ، أَسِيرُ اللهِ فِي الأَرْضِ. فَقَالَ لِي: صَدَقَ رَسُولِي؛ فَقَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ».

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَلْمٍ الْخَوَّاصِ؛ قَالَ: «رَأَيْتُ يَحْيَىٰ بْنَ أَكْثَمَ فِي الْمَنَامِ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ: أَوْقَفَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ لِي: يَا شَيْخَ السَّوْءِ! لَوْلَا

---

(١) قَلْعَ الْبِغْضَةِ - بِالْكَسْرِ -؛ أَي: إِزَالَة شِدَّة الْبُغْضِ مِنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ.

(٢) رِجَال الإِسْنَاد: أَبُو مَنْصُورٍ الْقَزَّازُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الشَّيْبَانِيُّ، رَاوِي (تَارِيخ الْخَطِيبِ) عَنْهُ، سِوَىٰ الْجُزْءِ (٣٦)، غَابَ لِوَفَاةِ أُمِّهِ. مَاتَ: (٥٣٥هـ). وَالْخَطِيبُ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ ثَابِتٍ الْبَغْدَادِيُّ، مُحَدِّثُ الْوَقْتِ. مَاتَ: (٤٦٣هـ). وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ الْمُعَدِّلُ، مَاتَ: (٤٣٨هـ). وَأَبُو الْفَضْلِ الزُّهْرِيُّ عُبَيْدُ اللهِ بْن عَبْد الرَّحْمَنِ بْن مُحَمَّد. مَاتَ: (٣٨١هـ). وَأَبُو الْحَسَن الزَّعْفَرَانِيُّ أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن يزيد، مَاتَ: (٣٢٥هـ). وَأَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ وَاصِلٍ الْمُقْرِئُ، قِيلَ: مُحَمَّد بْن أَحْمَد، وَ: أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن وَاصِل. مَاتَ: (٢٧٣هـ). وَأَبُو جعفر الصَّيْرَفِيُّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَاتَ: (٢٦٥هـ).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٩٩، ٢٠٠/ ت: جَعْفَرُ الصَّادِقُ): «إِنَّ اللهَ ﷻ يُحِبُّ أَبْنَاءَ السَّبْعِينَ، وَيَسْتَحِي مِنْ أَبْنَاءِ الثَّمَانِينَ»، قَالَ أَبُو نُعَيْم: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ جَعْفَرٍ وَأَبَانَ، لَمْ نَكْتُبْهُ إِلَّا بِهَذَا الإِسْنَادِ، وَأَبَانُ بْنُ تَغْلِبَ هُوَ مِنْ تَابِعِي الْكُوفَةِ». يُنظر: «السلسلة الضعيفة» (٣١٢١)، «ضعيف الجامع» (١٦٩٦) للشيخ الألباني.

شَيَّبْتُكَ، لَأَحْرَقْتُكَ بِالنَّارِ»[١].

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا: النَّظَرُ بِعَيْنِ الِاعْتِبَارِ، هَلْ يَفِي هَذَا بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَضْلًا عَنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا؟!

فَنَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يُنَبِّهَنَا مِنْ رَقَدَاتِ الْغَافِلِينَ، وَأَنْ يُرِيَنَا الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ؛ لِنَعْرِفَ عُيُوبَ الذُّنُوبِ. وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

*[٢٠٦ - ٧٦][خَاطِرَةٌ]:

[الشَّقَاءُ فِي الْمَعْصِيَةِ وَالسَّعَادَةُ فِي الطَّاعَةِ]

مَنْ تَأَمَّلَ عَوَاقِبَ الْمَعَاصِي؛ رَآهَا قَبِيحَةً، وَلَقَدْ تَفَكَّرْتُ فِي أَقْوَامٍ أَعْرِفُهُمْ، يُقِرُّونَ بِالزِّنَىٰ وَغَيْرِهِ، فَأَرَىٰ مِنْ تَعَثُّرِهِمْ فِي الدُّنْيَا - مَعَ جَلَادَتِهِمْ - مَا لَا يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ، وَكَأَنَّهُمْ قَدْ أُلْبِسُوا ظُلْمَةً، فَالْقُلُوبُ تَنْفِرُ عَنْهُمْ؛ فَإِنِ اتَّسَعَ لَهُمْ شَيْءٌ؛ فَأَكْثَرُهُ مِنْ مَالِ الْغَيْرِ، وَإِنْ ضَاقَ بِهِمْ أَمْرٌ؛ أَخَذُوا يَتَسَخَّطُونَ عَلَىٰ الْقَدَرِ. هَذَا وَقَدْ شُغِلُوا بِهَذِهِ الْأَوْسَاخِ عَنْ ذِكْرِ الْآخِرَةِ.

ثُمَّ عَكَسْتُ، فَتَفَكَّرْتُ فِي أَقْوَامٍ صَابَرُوا الْهَوَىٰ، وَتَرَكُوا مَا لَا يَحِلُّ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَاتُ الدُّنْيَا؛ مِنْ قُوتٍ مُسْتَلَذٍّ، وَمِهَادٍ مُسْتَطَابٍ[٢]، وَعَيْشٍ لَذِيذٍ، وَجَاهٍ عَرِيضٍ؛ فَإِنْ

(١) أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّد بن سَلْم بْن يَزِيد بْن خَالِد. الشَّيْخُ الصَّالِحُ. مَاتَ:(٣٦٣هـ). وَيَحْيَىٰ بنُ أَكْثَمَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ قَطَنٍ التَّمِيمِيُّ، أَبُو مُحَمَّدٍ، قَاضِي القُضَاةِ، مَاتَ:(٢٤٢هـ). وَالخَبَرُ بِالرِّوَايَتِين فِي «تاريخ بغداد»(١٤/ ٢٠٦)، «تهذيب الكمال» للمزي.(٣١/ ٢٢٢). وَالثَّابِتُ مِنَ الأَحَادِيث الصَّحِيحَة فِي الشَّيْبِ ما رواه البيهقي في «الشعب»(٥٩٧٠) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ ﷺ:«الشَّيْبُ نُورُ الْمُؤْمِنِ لا يَشِيبُ رَجُلٌ شَيْبَةً فِي الإِسْلامِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِكُلِّ شَيْبَةٍ حَسَنَةٌ وَرُفِعَ بِهَا دَرَجَةً». وابن ماجة في «سننه»(٣٧٢١) عَنِ ابْنِ عَمْرٍو، قَالَ:«نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ نَتْفِ الشَّيْبِ، وَقَالَ:«هُوَ نُورُ الْمُؤْمِنِ». وأحمد في «المسند»(٦٦٧٢، ٦٩٣٧) عَنِ ابْنِ عَمْرٍو، قَالَ ﷺ:«لا تَنْتِفُوا الشَّيْبَ، فَإِنَّهُ نُورُ الْمُسْلِمِ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشِيبُ شَيْبَةً فِي الإِسْلامِ إِلَّا كُتِبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةٌ، وَرُفِعَ بِهَا دَرَجَةً، أَوْ حُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ».

(٢) أَيْنَعَتْ؛ أَي: نَضَجَت، وَطَابَت. وَمِهَادٍ مُسْتَطَابٍ؛ أَي: فِراش مُستحسَن.

ضَاقَ بِهِمْ أَمْرٌ؛ وَسَّعَهُ الصَّبْرُ، وَطَيَّبَهُ الرِّضَا، فَفَهِمْتُ بِالْحَالِ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يُوسُفُ: ٩٠] .

*[٢٠٧ - ١٨٣][خَاطِرَةٌ]:

[رضى الله أحقُّ من رضى الخلق]

الْعَاقِلُ مَنْ يَحْفَظُ جَانِبَ اللهِ ﷻ، وَإِنْ غَضِبَ الْخَلْقُ.

وَكُلُّ مَنْ يَحْفَظُ جَانِبَ الْمَخْلُوقِينَ، وَيُضَيِّعُ حَقَّ الْخَالِقِ؛ يُقَلِّبُ اللهُ قَلْبَ الَّذِي قَصَدَ أَنْ يُرْضِيَهُ، فَيُسْخِطُهُ عَلَيْهِ.

قَالَ الْمَأْمُونُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: «لا تَعْصِ اللهَ بِطَاعَتِي؛ فَيُسَلِّطَنِي عَلَيْكَ»[1].

وَلَمَّا بَالَغَ طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ فِيمَا فَعَلَ بِالأَمِينِ، وَفَتَكَ بِهِ، وَصَلَبَ رَأْسَهُ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ إِرَادَةِ الْمَأْمُونِ؛ وَلَكِنْ بَقِيَ أَثَرُ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ، فَكَانَ الْمَأْمُونُ لا يَقْدِرُ أَنْ يَرَاهُ.

وَلَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا، فَبَكَىٰ الْمَأْمُونُ، فَقَالَ لَهُ طَاهِرٌ: لِمَ تَبْكِي - لَا أَبْكَىٰ اللهُ عَيْنَكَ - فَلَقَدْ دَانَتْ لَكَ الْبِلَادُ؟ فَقَالَ: أَبْكِي لِأَمْرٍ ذِكْرُهُ ذُلٌّ، وَسِرُّهُ حُزْنٌ، وَلَنْ يَخْلُوَ أَحَدٌ مِنْ شَجَنٍ.

فَلَمَّا خَرَجَ طَاهِرٌ؛ أَنْفَذَ إِلَىٰ حُسَيْنٍ الْخَادِمِ مِئَتَيْ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَسْأَلَ الْمَأْمُونَ: لِمَ بَكَىٰ؟ فَلَمَّا تَغَدَّىٰ الْمَأْمُونُ؛ قَالَ: يَا حُسَيْنُ! اسْقِنِي. قَالَ: لَا وَاللهِ؛ لَا أَسْقِيكَ حَتَّىٰ تَقُولَ لِمَ بَكَيْتَ حِينَ دَخَلَ عَلَيْكَ طَاهِرٌ؟ قَالَ: يَا حُسَيْنُ! وَكَيْفَ عُنِيتَ بِهَذَا حَتَّىٰ سَأَلْتَ عَنْهُ؟ قَالَ: لِغَمِّي بِذَلِكَ. قَالَ: يَا حُسَيْنُ! أَمْرٌ: إِنْ خَرَجَ مِنْ رَأْسِكَ، قَتَلْتُكَ. قَالَ: يَا سَيِّدِي! وَمَتَىٰ أَخْرَجْتُ لَكَ سِرًّا؟ قَالَ: إِنِّي ذَكَرْتُ أَخِي مُحَمَّدًا، وَمَا نَالَهُ مِنَ الذِّلَّةِ، فَخَنَقَتْنِي الْعَبْرَةُ،

---

(١) ترجمة الْمَأْمُون في:[١٧٣-١٨٤]. وخبره في «سِرَاج الْمُلُوك» لأبي بكر الطرطوشي.(ص٧٢)، «بَدَائِعُ السِّلْكِ» لابن الأزرق.(ج٢/ ص٥٥٥/ الفصل:٢/ الأدب: ١٠) وَفِيهِمَا: «إِيَّاكَ أَنْ تَعْصِيَ اللهَ فِيمَا تَتَقَرَّب بِهِ إِلَيَّ فَيُسَلِّطَنِي عَلَيْكَ». وَصَاحِبُهُ هَذَا: مُحَمَّد بن يزْدَاد، وَهُوَ وَزِيرُهُ أَيضًا. وَلَهُ دِيوَان شِعر.

فَاسْتَرَحْتُ إِلَىٰ إِفَاضَتِهَا، وَلَنْ يَفُوتَ طَاهِرًا مِنِّي مَا يَكْرَهُ.

فَأَخْبَرَ حُسَيْنٌ طَاهِرًا بِذَلِكَ، فَرَكِبَ طَاهِرٌ إِلَىٰ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدِي لَيْسَ بِضَائِعٍ؛ فَغَيِّبْنِي عَنْ عَيْنِهِ، قَالَ: سَأَفْعَلُ. فَدَخَلَ عَلَىٰ الْمَأْمُونِ، فَقَالَ: مَا بِتُّ الْبَارِحَةَ. قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّكَ وَلَّيْتَ غَسَّانَ بْنَ عَبَّادٍ خُرَاسَانَ، وَهُوَ وَمَنْ مَعَهُ أَكَلَةُ رَأْسٍ، فَأَخَافُ أَنْ يَخْرُجَ خَارِجٌ مِنَ التُّرْكِ فَيَصْطَلِمَهُ[1]. قَالَ: فَمَنْ تَرَىٰ؟ قَالَ: طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ، فَعَقَدَ لَهُ، فَمَضَىٰ.

فَبَقِيَ مُدَّةً، ثُمَّ قَطَعَ الدُّعَاءَ لِلْمَأْمُونِ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ الْبَرِيدِ: مَا دَعَوْتَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: سَهْوٌ؛ فَلَا تَكْتُبْ! فَفَعَلَ ذَلِكَ فِي الْجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ، فَقَالَ لَهُ: لَابُدَّ أَنْ أَكْتُبَ؛ لِئَلَّا يَكْتُبَ التُّجَّارُ وَيَسْبِقُونِي، قَالَ: اكْتُبْ، فَكَتَبَ.

فَدَعَا الْمَأْمُونُ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي خَالِدٍ، وَقَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ عَلَيَّ احْتِيَالُكَ فِي أَمْرِ طَاهِرٍ، وَأَنَا أُعْطِي اللهَ عَهْدًا؛ إِنْ لَمْ تَشْخَصْ حَتَّىٰ تُوَافِيَنِي بِهِ كَمَا أَخْرَجْتَهُ مِنْ قَبْضَتِي؛ لَتُذَمَّنَّ عُقْبَاكَ[2]. فَشَخَصَ، وَجَعَلَ يَتَلَوَّمُ فِي الطَّرِيقِ، وَيَعْتَلُّ بِالْمَرَضِ[3]، فَوَصَلَ إِلَىٰ الرَّيِّ وَقَدْ بَلَغَتْهُ وَفَاةُ طَاهِرٍ»[4].

---

(١) الاصْطِلَامُ: الاسْتِئْصَالُ. وَقد اصطُلِم القَوْم: إِذا أبيدوا. فَيَصْطَلِمَهُ؛ أَي: يُهْلِكه وَيَستَأصِله.

(٢) تُذَمّ: ذمَّ ذَمَمْتُ، يَذُمّ. فَهُوَ ذَامّ، وَالمَفعُول مَذمُوم. تَقُولُ: ذَمَّ الشَّخصَ: عَابَهُ، وَهَجَاهُ، وَلَامَهُ، وَانْتَقَصَهُ وَاسْتَحْقَرَهُ، وَعُقْبَاكَ: عَقب: ذرّيّة، الوَلَدُ وَابنُ الوَلدِ. تَقُولُ: لا عَقبَ لَهُ: لَمْ يَبْق لَهُ وَلَدٌ ذَكَر. فَمعنَىٰ: لَتُذَمَّنَّ عُقْبَاكَ؛ تُعَاب وَتُنتَقَص ذُرّيتك مِنْ وَلَدِكَ وَوَلَد وَلَدِك.

(٣) شَخَصَ يَشْخَصُ شُخُوصًا؛ خَرَجَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ. فَتَشْخَصْ: أَي: تَخرُج. وَالتَّلَوُّم: التَّمَكث وَالانتِظَار. وَيَعْتَلُّ بِالْمَرَضِ؛ أَي: اتّخَذَهُ حُجَّة لِيُبَرِّرَ مَوْقِفَهُ.

(٤) يُنظر: «كتاب بغداد» لابن طيفور.(ص٣٣). «الكامل» لابن الأثير.(ج٥/ ص٤٥١، ٤٦٨/ سنة:٢٠٥، ٢٠٧). «الوافي بالوفيات» للصفدي.(ج١٦/ ص٢٢٨/ (غُلَام الْمَأْمُون)). وَخَبَر مَقْتَل الأَمِيْن فِي «التاريخ» للطبري.(ج٨ / ص٤٧٨)و«الكامل» لابن الأثير.(ج٥/ ص٤٠٢/ سنة:١٩٨). قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي «السير»(ت: المَأْمُونُ): «جَرَتْ بينهُمَا - الأَمِيْنُ وَالْمَأْمُونُ - أُمُورٌ، وَخُطُوبٌ، وَبَلَاءٌ، وَحُرُوبٌ تُشَيِّبُ النَّوَاصِي». وترجمة طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ؛ في:[١٥٣-١٥٩]. وَأَمَّا الأَمِيْنُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ ابْنُ الرَّشِيْدِ هَارُوْنَ ابْنِ المَهْدِيِّ مُحَمَّدِ ابْنِ المَنْصُوْرِ العَبَّاسِيُّ. كَانَ مَلِيْحًا، بَدِيْعَ الحُسْنِ، لَكِنَّهُ سَيِّئُ التَّدْبِيْرِ، أَرْعَنَ، لَعَّابًا، مَعَ صِحَّةِ إِسْلَامٍ وَدِيْنٍ. قُتِلَ:(١٩٨هـ). وَأَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ يَزِيد بْن عَبْد الرَّحمَن الكَاتِبُ أَبُو العَبَّاسِ، الأَحْوَلُ، وَزَرَ لِلْمَأْمُوْنِ، وَكَانَ جَوَادًا. مَاتَ:(٢١١هـ). وَغَسَّانَ بْنَ عَبَّادٍ فَهُوَ بْنُ أَبِي الفَرَج: وَالٍ. مِنْ رِجَال المَأْمُون. وَهُوَ ابْن عَم الفَضل بْن سَهْل.

قُلْتُ: «وَلَمَّا خَرَجَ الرَّاشِدُ مِنْ بَغْدَادَ، وَأَرَادُوا تَوْلِيَةَ الْمُقْتَفِي؛ شَهِدَ جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّهُودِ بِأَنَّ الرَّاشِدَ لَا يَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ، فَنَزَعُوهُ، وَوَلَّوُا الْمُقْتَفِيَ، فَبَلَغَنِي أَنَّهُ ذُكِرَ لِلْمُقْتَفِي بَعْضُ الشُّهُودِ، فَذَمَّهُ، وَقَالَ: كَانَ فِيمَنْ أَعَانَ عَلَىٰ أَبِي جَعْفَرٍ»(١).

وَعَلَىٰ ضِدِّ هَذَا كُلُّ مَنْ يُرَاعِي جَانِبَ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ؛ يَرْضَىٰ عَنْهُ مَنْ سَخِطَ عَلَيْهِ.

وَلَقَدْ حَدَّثَنِي الْوَزِيرُ ابْنُ هُبَيْرَةَ: «أَنَّ الْمُسْتَنْجِدَ بِاللهِ كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ وَلِيُّ عَهْدٍ، وَأَرَادَ أَنْ يَسْتُرَهُ مِنْ أَبِيهِ، قَالَ: فَقُلْتُ لِلْوَاصِلِ بِهِ: وَاللهِ؛ مَا يُمْكِنُنِي أَقْرَؤُهُ، وَلَا أُجِيبُ عَنْهُ، فَلَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ؛ دَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَىٰ صِدْقِي وَإِخْلَاصِي أَنِّي مَا حَابَيْتُكَ فِي أَبِيكَ، فَقَالَ: صَدَقْتَ؛ أَنْتَ الْوَزِيرُ»(٢).

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ الْأَصْدِقَاءِ: «أَنَّ قَوْمًا أَلْحَقُوا إِلَى الْمَخْزَنِ بَعْضَ دَيْنٍ لَهُمْ لِيُسْتَخْلَصَ، فَقَالَ الْمُسْتَرْشِدُ لِصَاحِبِ الْمَخْزَنِ: خَلِّصْهُ لَهُمْ، وَخُذْ مَا ضَمِنُوا لَنَا! فَأُحْضِرَ ابْنُ الرُّطَبِيِّ، وَعَرَضَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ: هَذَا أَمْرٌ بِظُلْمٍ، وَمَا أَحْكُمُ فِيهِ. فَقَالَ: إِنَّ السُّلْطَانَ قَدْ تَقَدَّمَ(٣)، قَالَ: مَا أَفْعَلُ؟

فَأَحْضَرَ قَاضِيًا آخَرَ، فَبَتَّ الْحُكْمَ، فَأُخْبِرَ الْخَلِيفَةُ بِالْحَالِ، فَقَالَ: أَمَّا ابْنُ الرُّطَبِيِّ؛ فَيُشْكَرُ عَلَىٰ مَا قَالَ، وَأَمَّا الْآخَرُ؛ فَيُعْزَلُ، وَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ بَانَ لَهُ أَنَّ الْحَقَّ مَا قَالَهُ ابْنُ الرُّطَبِيِّ»(٤).

---

(١) الرَّاشد بِاللهِ أَبُو جَعْفَرٍ مَنْصُور بن الفَضل بنِ أَحْمَدَ. أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، كَانَ حَسَنَ السِّيرَةِ، مُؤثرًا لِلْعدل، قَالَ عَنْهُ البَيْهَقِي: «أَعْطَاهُ الله مَعَ الخِلَافَة صُورَةً يُوسُفِيَّة، وَسِيرَةً عُمرِيَّة». لَمْ تَطُلْ أَيَّامُهُ حَتَّىٰ خَلَعُوهُ، ثُمَّ قَتَلُوهُ فِي: (٢٧/ رَمَضَانَ/ ٥٣٢هـ). وَالمُقتفِي ترجمته في: [٢٠٣- ٣٥٥]. وخبره في «الكامل» (ج٩/ ص٢٩١-٢٩٤/ سنة: ٥٣٠).

(٢) ابْنُ هُبَيْرَةَ: أَبُو الْمُظَفَّرِ يَحْيَىٰ بنُ مُحَمَّدِ بنِ هُبَيْرَةَ الوَزِيرُ الكَامِلُ، الإِمَامُ، صَاحِبُ التَّصَانِيفِ، قُتِلَ سَنَةَ: (٥٦٠هـ). وَالمُسْتَنْجِدُ بِاللهِ أَبُو المُظَفَّرِ يُوسُف ابن المُقْتَفِي لِأَمرِ اللهِ مُحَمَّد ابن المُسْتَظْهِر العَبَّاسِيّ، كَانَ مَوْصُوفًا بِالفَهْم الثَّاقب، وَالرَّأْي الصَّائِب. مَاتَ: (٥٦٦هـ). والخبر في «المنتظم» لابن الجوزي، «السير» للذهبي. (ت: ابْنُ هُبَيْرَةَ).

(٣) أَيْ: سَبَقَ أَمْرُهُ بِذَلِكَ.

(٤) الْمُسْتَرْشِدُ بِاللهِ أَبُو مَنْصُورٍ الفَضْلُ ابنُ المُسْتَظهر بِاللهِ أَحْمَدَ ابنِ الْمُقْتَدِي بِأَمرِ الله، كَانَ خَلِيقًا لِلإِمَامَةِ، قَلِيلَ النَّظَير. قُتِلَ سَنَةَ: (٥٢٩هـ). وَابْنُ الرُّطَبِي أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ بنُ سَلَامَةَ بن عُبَيْدِ اللهِ العَلَّامَةُ، مَاتَ سَنَةَ: (٥٢٧هـ).

وَكَذَلِكَ مَا طَلَبَهُ السُّلْطَانُ مِنْ أَنْ يُلَقَّبَ مَلِكَ الْمُلُوكِ، فَاسْتَفْتَىٰ الْفُقَهَاءَ، فَأَجَازُوا ذَلِكَ، وَامْتَنَعَ مِنْ إِجَازَتِهِ الْمَاوَرْدِيُّ، فَعَظُمَ قَدْرُهُ عِنْدَ السُّلْطَانِ»[1]، وَمِثْلُ هَذَا إِذَا تُتُبِّعَ كَثِيرٌ.

فَيَنْبَغِي أَنْ يُحْسِنَ الْقَصْدَ لِطَاعَةِ الْخَالِقِ، وَإِنْ سَخِطَ الْمَخْلُوقُ؛ فَإِنَّهُ يَعُودُ صَاغِرًا، وَلَا يُسْخِطُ الْخَالِقَ؛ فَإِنَّهُ يُسْخِطُ الْمَخْلُوقَ، فَيَفُوتُ الْحَظَّانِ جَمِيعًا.

---

*[٢٠٨ - ١٣٣][خَاطِرَةٌ]:

[تَجْوِيدُ التَّوْبَةِ، عَسَاهَا تَكُفُّ كَفَّ الْجَزَاءِ]

الْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ الْمَعَاصِي؛ فَإِنَّ عَوَاقِبَهَا سَيِّئَةٌ. وَكَمْ مِنْ مَعْصِيَةٍ لا يَزَالُ صَاحِبُهَا فِي هُبُوطٍ أَبَدًا؛ مَعَ تَعْثِيرِ أَقْدَامِهِ، وَشِدَّةِ فَقْرِهِ، وَحَسَرَاتِهِ عَلَىٰ مَا يَفُوتُهُ مِنَ الدُّنْيَا.

وَاحَسْرَةً لِمَنْ نَالَهَا، فَلَوْ قَارَبَ زَمَانُ جَزَائِهِ عَلَىٰ قَبِيحِهِ الَّذِي ارْتَكَبَهُ؛ كَانَ اعْتِرَاضُهُ عَلَىٰ الْقَدَرِ فِي فَوَاتِ أَغْرَاضِهِ يُعِيدُ الْعَذَابَ جَدِيدًا!

فَوَا أَسَفًا لِمُعَاقَبٍ لا يُحِسُّ بِعُقُوبَتِهِ! وَآهٍ مِنْ عِقَابٍ يَتَأَخَّرُ حَتَّىٰ يُنْسَىٰ سَبَبُهُ. أَوَلَيْسَ ابْنُ سِيرِينَ يَقُولُ: «عَيَّرْتُ رَجُلًا بِالْفَقْرِ، فَافْتَقَرْتُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً»؟! وَابْنُ الْجَلَّاءِ يَقُولُ: «نَظَرْتُ إِلَىٰ شَابٍّ مُسْتَحْسَنٍ، فَنُسِّيتُ الْقُرْآنَ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً»[2].

فَوَا حَسْرَةً لِمُعَاقَبٍ لا يَدْرِي أَنَّ أَعْظَمَ الْعُقُوبَةِ عَدَمُ الإِحْسَاسِ بِهَا!

---

(١) يَعْنِي: السُّلْطَانُ الكَبِيرُ، مَلِكْشَاه جلالُ الدَّوْلَةِ أَبُو الفَتْحِ مَلِكْشَاه ابنُ السُّلْطَان ألب أرسلان مُحَمَّد السَّلْجُوقِي، التُّرْكِي، كَانَ حَسَنَ السِّيرَة، تَمَلَّكَ مَا لَمْ يملكه سُلْطَان. مَاتَ:(٤٨٥هـ). وَالمَاوَرْدِيُّ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ مُحَمَّدِ بنِ حَبِيبٍ، الشَّافِعِيُّ، العَلاَّمَةُ، أَقْضَىٰ القُضَاةِ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ. مَاتَ:(٤٥٠هـ). والخبر في «المنتظم»(١٥/ ٢٦٤/ سنة:٤٢٩هـ)، «الكامل»(٨/ ٢٢٧/ سنة:٤٢٩). وَثَبَتَ النَّهْيُ عَنِ التَّسَمِّي بِمَلِكِ الْمُلُوكِ: «أَخْنَعُ الأَسْمَاءِ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّىٰ بِمَلِكِ الأَمْلاَكِ» رواه البخاري، كِ: «الأَدَبِ»(٦٢٠٦). وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيَظُهُ عَلَيْهِ، رَجُلٍ كَانَ يُسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلاَكِ، لا مَلِكَ إِلَّا اللهُ» رواه مسلم، كِ: «الآدَابِ»(٢١٤٣).

(٢) ترجمة ابْن سِيرِين في الخاطرة:[٢٥-٣٢٢]. وخبره في:[٢٠١ - ١٨]. وترجمة ابْنُ الْجَلَّاءِ وخبره في:[٢٠١-١٨].

فَاللهَ اللهَ فِي تَجْوِيدِ التَّوْبَةِ، عَسَاهَا تَكُفُّ كَفَّ الْجَزَاءِ(١).

وَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ الذُّنُوبِ، خُصُوصًا ذُنُوبَ الْخَلَوَاتِ؛ فَإِنَّ الْمُبَارَزَةَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ تُسْقِطُ الْعَبْدَ مِنْ عَيْنِهِ.

وَأَصْلِحْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فِي السِّرِّ؛ وَقَدْ أَصْلَحَ لَكَ أَحْوَالَ الْعَلَانِيَةِ، وَلا تَغْتَرَّ بِسَتْرِهِ - أَيُّهَا الْعَاصِي -؛ فَرُبَّمَا يَجْذِبُ عَنْ عَوْرَتِكَ، وَلا بِحِلْمِهِ؛ فَرُبَّمَا بَغَتَ الْعِقَابُ(٢).

وَعَلَيْكَ بِالْقَلَقِ وَاللُّجْإِ إِلَيْهِ وَالتَّضَرُّعِ؛ فَإِنْ نَفَعَ شَيْءٌ؛ فَذَلِكَ، وَتَقَوَّتْ بِالْحُزْنِ، وَتَمَزَّزْ كَأْسَ الدَّمْعِ، وَاحْفُرْ بِمِعْوَلِ الْأَسَىٰ قَلِيبَ قَلْبِ الْهَوَىٰ، وَاحْفُرْ بِمِعْوَلِ الْأَسَىٰ قَلِيبَ قَلْبِ الْهَوَىٰ، لَعَلَّكَ تُنْبِطُ مِنَ الْمَاءِ مَا يَغْسِلُ جِرْمَ جُرْمِكَ(٣).

*[٢٠٩ - ١٣٦][خَاطِرَةٌ]:

[بَادِرْ بِالتَّوْبَةِ قَبْلَ وُقُوعِ الْعُقُوبَةِ]

الْوَاجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَحْذَرَ مَغَبَّةَ الْمَعَاصِي(٤)؛ فَإِنَّ نَارَهَا تَحْتَ الرَّمَادِ. وَرُبَّمَا تَأَخَّرَتِ الْعُقُوبَةُ، ثُمَّ فَجَأَتْ، وَرُبَّمَا جَاءَتْ مُسْتَعْجِلَةً.

فَلْيُبَادِرْ بِإِطْفَاءِ مَا أَوْقَدَ مِنْ نِيرَانِ الذُّنُوبِ، وَلا مَاءَ يُطْفِئُ تِلْكَ النَّارَ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَيْنٍ

(١) تَجْوِيدِ التَّوْبَةِ؛ أي: تَحسِينُهَا وَإِتقَانُهَا. وَعَسَاهَا تَكُفُّ؛ أَي: رَجَاء أَنْ تَرُدَّ أَوْ تَصرِف أو تَمْنَع الأَذَىٰ الْمُحتَمَل بِسَبَبِ الْمَعصِيَة. وَعَسَىٰ: لِلتَّرَجِّي فِي الأَمْرِ المَحبُوب، وَلِلإِشْفَاقِ فِي المَكْرُوه، ولِلوُجُوبِ فِي القُرآنِ كُلِّهِ.

(٢) يَجذِبُ عَنْ عَوْرَتِكَ؛ أي: يَكْشِفُ مَعصِيَتك وَيَفْضَحك. تَقُولُ: جَذَبَ الشَّيءَ: حَوَّلَهُ عَنْ مَكَانِهِ. وَلا بِحِلْمِهِ؛ أَي: وَلَا تَغتَرّ بِحِلْمِهِ. وَقَد جَاءَ فِي مَخطُوط:(ي):[يَحمِلُه]، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنَ الأَصل. وَبَغَتَ العِقَابُ؛ أَي: فَاجَأَهُ وَبَهَتَهُ.

(٣) وَتَقَوَّتْ: القُوتُ: مَا يُؤْكَلُ لِيُمْسِكَ الرَّمَقَ. وَتَمَزَّزْ: مَصَّهُ وَلَم يُبْقِ مِنْهُ شَيْئًا. وَبِمِعْوَلِ: المِعْوَلُ: الفَأْسُ. وَالأَسَىٰ: الحُزن. وَالقَلِيب: البِئْرُ. وَتُنْبِطُ المَاء: تُظْهِرُهُ وَتَسْتَخرِجُهُ بِاجْتِهَادٍ وَمُعَانَاةٍ. تَقُولُ: نَبَطَ الشَّيءُ نَبطًا وَنُبُوطًا ظَهَرَ بَعدَ خَفَائِهِ. وَجِرْم: جِسْم كُلِّ شَيءٍ. وَجُرْمِك: ذَنْبك وَإِثْمك وَجِنَايَتك.

(٤) مَغَبَّة: غِبّ؛ عَاقِبَة الشَّيء وَآخِرَه وَتَكُون حَسَنَة أَوْ سَيِّئَة. وَمَغَبَّة المَعَاصِي كُلّهَا شُرُور.

الْعَيْنِ[١]؛ لَعَلَّ خَصْمَ الْجَزَاءِ يَرْضَىٰ قَبْلَ أَنْ يَبُتَّ الْحَاكِمُ فِي حُكْمِهِ[٢].

*[٢١٠ - ١٥٠][خَاطِرَةٌ]:

[الْخَوفُ خَيْرٌ مِنَ الرَّجَاءِ لِمَنْ يَقْصِدُ الْعِصْيَانَ]

تَأَمَّلْتُ وُقُوعَ الْمَعَاصِي مِنَ الْعُصَاةِ، فَوَجَدْتُهُمْ لَا يَقْصِدُونَ الْعِصْيَانَ؛ وَإِنَّمَا يَقْصِدُونَ مُوَافَقَةَ هَوَاهُمْ، فَتَبِعَ الْعِصْيَانُ تَبَعًا.

فَنَظَرْتُ فِي سَبَبِ ذَلِكَ الْإِقْدَامِ مَعَ الْعِلْمِ بِوُقُوعِ الْمُخَالَفَةِ؛ فَإِذَا بِهِ مُلَاحَظَتُهُمْ لِكَرَمِ الْخَالِقِ، وَفَضْلِهِ الزَّاخِرِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ تَأَمَّلُوا عَظَمَتَهُ وَهَيْبَتَهُ؛ مَا انْبَسَطَتْ كَفٌّ بِمُخَالَفَتِهِ.

فَإِنَّهُ يَنْبَغِي - وَاللهِ - أَنْ يَحْذَرَ مِمَّنْ أَقَلُّ فِعْلِهِ تَعْمِيمُ الْخَلْقِ بِالْمَوْتِ، حَتَّىٰ إِلْقَاءِ الْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ لِلذَّبْحِ، وَتَعْذِيبُ الْأَطْفَالِ بِالْمَرَضِ، وَفَقْرِ الْعَالِمِ، وَغِنَىٰ الْجَاهِلِ.

فَلْيَعْرِضِ الْمُقْدِمُ عَلَىٰ الذُّنُوبِ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْحَذَرَ مِمَّنْ هَذِهِ صِفَتُهُ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[آلِ عِمْرَانَ: ٢٨].

وَمُلَاحَظَةُ أَسْبَابِ الْخَوْفِ أَدْنَىٰ إِلَىٰ الْأَمْنِ مِنْ مُلَاحَظَةِ أَسْبَابِ الرَّجَاءِ؛ فَالْخَائِفُ آخِذٌ بِالْحَزْمِ، وَالرَّاجِي مُتَعَلِّقٌ بِحَبْلِ طَمَعٍ، وَقَدْ يُخْلِفُ الظَّنُّ!

*[٢١١ - ٧٩][خَاطِرَةٌ]:

[يَا مَنْ عَثَرَ مِرَارًا! هَلَّا أَبْصَرْتَ مَا الَّذِي عَثَّرَكَ]

رَأَيْتُ كُلَّ مَنْ يَعْثُرُ بِشَيْءٍ، أَوْ يَزْلَقُ فِي مَطَرٍ، يَلْتَفِتُ إِلَىٰ مَا عَثَرَ بِهِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهِ؛ طَبْعًا

(١) عَيْنِ الْعَيْنِ: دَمْع الْعَيْن، وَيُقَالُ لَهَا: بِنْتُ الْعَيْنِ؛ أي: الدمعة.
(٢) بَتَّ الحُكْمَ: أصدَرَهُ بِلَا تَرَدُّدٍ.

مَوْضُوعًا فِي الْخَلْقِ: إِمَّا لِيَحْذَرَ مِنْهُ إِنْ جَازَ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَىٰ مِنْ مِثْلِهِ، أَوْ لِيَنْظُرَ - مَعَ احْتِرَازِهِ وَفَهْمِهِ - كَيْفَ فَاتَهُ التَّحَرُّزُ مِنْ مِثْلِ هَذَا؟!

فَأَخَذْتُ مِنْ ذَلِكَ إِشَارَةً، وَقُلْتُ: يَا مَنْ عَثَرَ مِرَارًا! هَلَّا أَبْصَرْتَ مَا الَّذِي عَثَّرَكَ، فَاحْتَرَزْتَ مِنْ مِثْلِهِ، أَوْ قَبَّحْتَ لِنَفْسِكَ - مَعَ حَزْمِهَا - تِلْكَ الْوَاقِعَةَ؟! فَإِنَّ الْغَالِبَ مِمَّنْ يَلْتَفِتُ أَنَّ مَعْنَىٰ الْتِفَاتِهِ: كَيْفَ عَثَرَ مِثْلِي - مَعَ احْتِرَازِهِ - بِمِثْلِ مَا أَرَىٰ؟![1]

فَالْعَجَبُ لَكَ! عَثَرْتَ بِمِثْلِ الذَّنْبِ الْفُلَانِيِّ وَالذَّنْبِ الْفُلَانِيِّ!

كَيْفَ غَرَّكَ زُخْرُفٌ تَعْلَمُ بِعَقْلِكَ بَاطِنَهُ، وَتَرَىٰ بِعَيْنِ فِكْرِكَ مَآلَهُ؟!

كَيْفَ آثَرْتَ فَانِيًا عَلَىٰ بَاقٍ؟! كَيْفَ بِعْتَ بِوَكْسٍ[2]؟

كَيْفَ اخْتَرْتَ لَذَّةَ رَقْدَةٍ عَلَىٰ انْتِبَاهِ مُعَامَلَةٍ؟!

آهٍ لكَ! لَقَدِ اشْتَرَيْتَ بِمَا بِعْتَ أَحْمَالَ نَدَمٍ، لَا يُقِلُّهَا ظَهْرٌ، وَتَنْكِيسَ رَأْسٍ أَمْسَىٰ بَعِيدَ الرَّفْعِ، وَدُمُوعَ حُزْنٍ عَلَىٰ قُبْحِ فِعْلٍ مَا لِمَدَدِهَا انْقِطَاعٌ[3]. . . وَأَقْبَحُ الْكُلِّ أَنْ يُقَالَ لَكَ: بِمَاذَا؟! وَمِنْ أَجْلِ مَاذَا؟! وَهَذَا عَلَىٰ مَاذَا؟!

يَا مَنْ قَلَبَ الْغُرُورُ عَلَيْهِ الصَّنْجَةَ، وَوُزِنَ لَهُ، وَالْمِيزَانُ رَاكِبٌ[4]!

---

(١) عَثَرَ: زَلَّ وَكَبَا وَسَقَطَ. مَعَ احْتِرَازِهِ: مَعَ تَحَفُّظِهِ وَاحتِرَاسِه.

(٢) بَيْعُ الْوَكْسِ: الْبَيْعُ بِالْخَسَارَة.

(٣) لا يُقِلُّهَا ظَهْرٌ، أَي: لَا يَقْوَىٰ عَلَىٰ حملِهَا، الدَّابَّة الَّتِي تَحمِلُ الأَثْقَالَ فِي السَّفَرِ، فَكَيْفَ بِكَ أَنْتَ أَيُّهَا العَاصِي.
وَتَنْكِيسَ رَأْسٍ: طَأْطَأَ رَأْسَهُ مِنَ الْخِزْيِ، فَصَارَ بَعِيدًا أَنْ يَرفَعهَا. مَا لِمَدَدِهَا انْقِطَاعٌ، أَي: مَا لِزِيَادَتِهَا انْقِطَاع.

(٤) الصَّنْجَة: سِنْجَة، مَا يُوزَنُ بِهِ كَالكِيْلُو. وَصَنْجَة الْمِيزَان: كَفَّتُه. وَالْمِيزَانُ رَاكِبٌ، أَي: مُتَعَطِّلٌ لَا يَتَحَرَّك وَلَا يَزِن.

*[٢١٢ - ٦][خَاطِرَةٌ]:

[أعظمُ المعاقبةِ أن لا يُحِسّ المعاقَبُ بالعقوبةِ]

أَعْظَمُ الْمُعَاقَبَةِ أَنْ لا يُحِسَّ الْمُعَاقَبُ بِالْعُقُوبَةِ.

وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَقَعَ السُّرُورُ بِمَا هُوَ عُقُوبَةٌ؛ كَالْفَرَحِ بِالْمَالِ الْحَرَامِ، وَالتَّمَكُّنِ مِنَ الذُّنُوبِ. وَمَنْ هَذِهِ حَالُهُ لا يَفُوزُ بِطَاعَةٍ.

وَإِنِّي تَدَبَّرْتُ أَحْوَالَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ وَالْمُتَزَهِّدِينَ، فَرَأَيْتُهُمْ فِي عُقُوبَاتٍ لَا يُحِسُّونَ بِهَا، وَمُعْظَمُهَا مِنْ قِبَلِ طَلَبِهِمْ لِلرِّيَاسَةِ، فَالْعَالِمُ مِنْهُمْ يَغْضَبُ إِنْ رُدَّ عَلَيْهِ خَطَؤُهُ، وَالْوَاعِظُ مُتَصَنِّعٌ بِوَعْظِهِ، وَالْمُتَزَهِّدُ مُنَافِقٌ أَوْ مُرَاءٍ[١].

فَأَوَّلُ عُقُوبَاتِهِمْ: إِعْرَاضُهُمْ عَنِ الْحَقِّ شُغُلًا بِالْخَلْقِ.

وَمِنْ خَفِيِّ عُقُوبَاتِهِمْ: سَلْبُ حَلَاوَةِ الْمُنَاجَاةِ، وَلَذَّةِ التَّعَبُّدِ.

إِلَّا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ، وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ، يَحْفَظُ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ؛ بَوَاطِنُهُمْ كَظَوَاهِرِهِمْ؛ بَلْ أَجْلَى[٢]، وَسَرَائِرُهُمْ كَعَلَانِيَتِهِمْ؛ بَلْ أَحْلَى، وَهِمَمُهُمْ عِنْدَ الثُّرَيَّا[٣]؛ بَلْ أَعْلَى، إِنْ عُرِفُوا تَنَكَّرُوا، وَإِنْ رُئِيَتْ لَهُمْ كَرَامَةٌ أَنْكَرُوا؛ فَالنَّاسُ فِي غَفَلَاتِهِمْ، وَهُمْ فِي قَطْعِ فَلَاتِهِمْ[٤]، تُحِبُّهُمْ بِقَاعُ الْأَرْضِ، وَتَفْرَحُ بِهِمْ أَمْلَاكُ السَّمَاءِ[٥].

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ التَّوْفِيقَ لِاتِّبَاعِهِمْ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ.

---

(١) تُراجع الخاطرة رقم:[١٨٢-١٩].

(٢) أَجْلَى: أظهر وأوضح وأكشف.

(٣) الثُّرَيَّا: نَجم أحمر صَغِير مُنِير، مَعرُوفٌ عِنْدَ الْعَرَب بِعُلُوِّه. أمَّا الثَّرَى فَهُو: التُّرَاب النَّدِي.

(٤) فَلَاتِهِمْ: الْفَلَاة: الصَّحَرَاء، وَالْمَعنَى: أَنَّهُم مَشْغُولُونَ فِي سَعيهم لآخِرَتِهِم

(٥) أَمْلَاكُ السَّمَاءِ؛ أَي: مَلَائِكَة السَّمَاء.

*[٢١٣ - ١٠٠][خَاطِرَةٌ]:

[الحَذَرَ الحَذَرَ، فَإِنَّ العُقُوبَةَ بِالمِرْصَادِ]

مَا زِلْتُ أَسْمَعُ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الأَكَابِرِ وَأَرْبَابِ الْمَنَاصِبِ أَنَّهُمْ: يَشْرَبُونَ الْخُمُورَ، وَيَفْسُقُونَ، وَيَظْلِمُونَ، وَيَفْعَلُونَ أَشْيَاءَ تُوجِبُ الْحُدُودَ!

فَبَقِيتُ أَتَفَكَّرُ؛ أَقُولُ: مَتَىٰ يَثْبُتُ عَلَىٰ مِثْلِ هَؤُلَاءِ مَايُوجِبُ حَدًّا؟ فَلَوْ ثَبَتَ؛ فَمَنْ يُقِيمُهُ؟

وَأَسْتَبْعِدُ هَذَا فِي الْعَادَةِ؛ لِأَنَّهُمْ فِي مَقَامِ احْتِرَامٍ لِأَجْلِ مَنَاصِبِهِمْ.

فَبَقِيتُ أَتَفَكَّرُ فِي تَعْطِيلِ الْحَدِّ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ، حَتَّىٰ رَأَيْنَاهُمْ قَدْ نُكِبُوا، وَأُخِذُوا مَرَّاتٍ، وَمَرَّتْ عَلَيْهِمُ الْعَجَائِبُ، فَقُوبِلَ ظُلْمُهُمْ بِأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ، وَأُخِذَتْ مِنْهُمُ الْحُدُودُ مُضَاعَفَةً بَعْدَ الْحَبْسِ الطَّوِيلِ، وَالْقَيْدِ الثَّقِيلِ، وَالذُّلِّ الْعَظِيمِ. وَفِيهِمْ مَنْ قُتِلَ بَعْدَ مُلَاقَاةِ كُلِّ شِدَّةٍ!

فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَا يُهْمَلُ شَيْءٌ! فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ، فَإِنَّ الْعُقُوبَةَ بِالْمِرْصَادِ.

(١٦)

[مَجَالِسُ الْوَعْظِ وَالْوُعَّاظِ]

*[٢١٤ - ١][خَاطِرَةٌ]:

[تفاوت الناس عند سماع المواعظ]

قَدْ يَعْرِضُ عِنْدَ سَمَاعِ الْمَوَاعِظِ لِلسَّامِعِ يَقَظَةٌ؛ فَإِذَا انْفَصَلَ عَنْ مَجْلِسِ الذِّكْرِ؛ عَادَتِ الْقَسْوَةُ وَالْغَفْلَةُ.

فَتَدَبَّرْتُ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ، فَعَرَفْتُهُ. ثُمَّ رَأَيْتُ النَّاسَ يَتَفَاوَتُونَ فِي ذَلِكَ: فَالْحَالَةُ الْعَامَّةُ أَنَّ الْقَلْبَ لَا يَكُونُ عَلَىٰ صِفَتِهِ مِنَ الْيَقَظَةِ عِنْدَ سَمَاعِ الْمَوْعِظَةِ وَبَعْدَهَا؛ لِسَبَبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمَوَاعِظَ كَالسِّيَاطِ، وَالسِّيَاطُ لَا تُؤْلِمُ بَعْدَ انْقِضَائِهَا إِيلَامُهَا وَقْتَ وُقُوعِهَا.

وَالثَّانِي: أَنَّ حَالَةَ سَمَاعِ الْمَوَاعِظِ يَكُونُ الْإِنْسَانُ فِيهَا مُزَاحَ الْعِلَّةِ[1]، قَدْ تَخَلَّىٰ بِجِسْمِهِ وَفِكْرِهِ عَنْ أَسْبَابِ الدُّنْيَا، وَأَنْصَتَ بِحُضُورِ قَلْبِهِ؛ فَإِذَا عَادَ إِلَىٰ الشَّوَاغِلِ؛ اجْتَذَبَتْهُ بِآفَاتِهَا؛ فَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ كَمَا كَانَ؟!

وَهَذِهِ حَالَةٌ تَعُمُّ الْخَلْقَ؛ إِلَّا أَنَّ أَرْبَابَ الْيَقَظَةِ يَتَفَاوَتُونَ فِي بَقَاءِ الْأَثَرِ:

فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْزِمُ بِلَا تَرَدُّدٍ، وَيَمْضِي مِنْ غَيْرِ الْتِفَاتٍ؛ فَلَوْ تَوَقَّفَ بِهِمْ رَكْبُ الطَّبْعِ؛ لَضَجُّوا؛ كَمَا قَالَ حَنْظَلَةُ عَنْ نَفْسِهِ: «نَافَقَ حَنْظَلَةُ»[2].

---

(١) مُزَاحَ الْعِلَّةِ: أَزَاحَ يُزِيحُ، إِزَاحَةً، فَهُوَ مُزِيحٌ، وَالْمَفْعُولُ: مُزَاحٌ. والمعنىٰ: مُبْعَدٌ عَنِ الشَّوَاغِلِ الَّتِي تَمْنَعُهُ عَنِ التَّدَبُّرِ.

(٢) رواه مسلم، كِتَابُ «التَّوْبَةِ» بَابُ «فَضْلِ دَوَامِ الذِّكْرِ» (٢٧٥٠). عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ، قَالَ: - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ - قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَىٰ مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّىٰ دَخَلْنَا =

وَمِنْهُمْ أَقْوَامٌ يَمِيلُ بِهِمُ الطَّبْعُ إِلَىٰ الْغَفْلَةِ أَحْيَانًا، وَيَدْعُوهُمْ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْمَوَاعِظِ إِلَىٰ الْعَمَلِ أَحْيَانًا؛ فَهُمْ كَالسُّنْبُلَةِ تُمِيلُهَا الرِّيَاحُ(١).

وَأَقْوَامٌ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِمْ إِلَّا بِمِقْدَارِ سَمَاعِهِ؛ كَمَاءٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَىٰ صَفْوَانٍ(٢).

= عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَىٰ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَىٰ فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) وَحَنْظَلَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ صَيْفِي التَّمِيمِي. كَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ وَلِذَلِكَ يُعرَفُ بـ«حَنْظَلَةُ الْكَاتِبُ» انتقل إِلَىٰ الْكُوفَةِ وَسَكَنَهَا ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا إِلَىٰ قُرقِيسِياء وَسَكَنَهَا وَقَالَ: لَا أُقِيم بِبَلْدَةٍ يُشْتَم فِيهَا عُثْمَان رضي الله عنه مَاتَ فِي أَيَّامِ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه. وَهُوَ غَيْر: حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرِ بْنِ صَيْفِيّ الرَّاهِبُ الْأَنْصَارِيُّ ثُمَّ الْأَوْسِيُّ غَسِيلُ الْمَلَائِكَةِ.

(١) وَكَأَنَّهُ يُشِير رحمه الله إِلَىٰ ما رواه أحمد في «مسنده» (١٥١٥٤، ١٥٢٤٥) عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ السُّنْبُلَةِ، تَسْتَقِيمُ مَرَّةً، وَتَخِرُّ مَرَّةً، وَمَثَلُ الْكَافِرِ مَثَلُ الْأَرْزَةِ، لَا تَزَالُ مُسْتَقِيمَةً حَتَّىٰ تَخِرَّ، وَلَا تَشْعُرُ» ورواه البيهقي في «الشعب» (٦٦٩٤): «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ السُّنْبُلَةِ، تَمِيلُ أَحْيَانًا، وَتَسْتَقِيمُ أَحْيَانًا، وَفِي ذَلِكَ تَكْبُرُ، فَإِذَا حَصَدَهَا صَاحِبُهَا حَمِدَ أَمْرَهُ كَمَا حَمِدَ صَاحِبُ السُّنْبُلَةِ بِرَّهُ .. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]». والحديث في «السلسلة الصحيحة» حديث (٢٢٨٤).

(٢) صَفْوَان: حجر أملس. وَهَذَا فِيهِ تَشْبِيه تَمْثِيلِي. وَقَدْ رَوَىٰ الشَّيْخَان عَنْ أَبِي مُوسَىٰ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَىٰ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ». رواه البخاري، كِتَابُ «العِلْمِ» (٧٩). ومسلم، كِتَابُ «الْفَضَائِل» (٢٢٨٢). قال النووي رحمه الله: «وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْأَرْض ثَلَاثَة أَنْوَاع، وَكَذَلِكَ النَّاس. فَالنَّوْع الْأَوَّل مِنْ الْأَرْض يَنْتَفِع بِالْمَطَرِ فَيَحْيَىٰ بَعْد أَنْ كَانَ مَيِّتًا، وَيُنْبِتُ الْكَلَأ، فَتَنْتَفِعُ بِهَا النَّاس وَالدَّوَابّ وَالزَّرْع وَغَيْرهَا. وَكَذَا النَّوْع الْأَوَّل مِنْ النَّاس، يَبْلُغُهُ الْهُدَىٰ وَالْعِلْم فَيَحْفَظُهُ فَيَحْيَا قَلْبه، وَيَعْمَل بِهِ، وَيُعَلِّمُهُ غَيْره، فَيَنْتَفِعُ وَيَنْفَعُ. وَالنَّوْع الثَّانِي مِنْ الْأَرْض مَا لَا تَقْبَلُ الِانْتِفَاع فِي نَفْسهَا، لَكِنْ فِيهَا فَائِدَة، وَهِيَ إِمْسَاك الْمَاء لِغَيْرِهَا، فَيَنْتَفِعُ بِهَا النَّاس وَالدَّوَابّ. وَكَذَا النَّوْع الثَّانِي مِنْ النَّاس، لَهُمْ قُلُوب حَافِظَة، لَكِنْ لَيْسَتْ لَهُمْ أَفْهَام ثَاقِبَة، وَلَا رُسُوخَ لَهُمْ فِي الْعَقْل يَسْتَنْبِطُونَ بِهِ الْمَعَانِي وَالْأَحْكَام، وَلَيْسَ عِنْدهمْ اِجْتِهَادٌ فِي الطَّاعَة وَالْعَمَل بِهِ، فَهُمْ يَحْفَظُونَهُ حَتَّىٰ يَأْتِيَ طَالِبٌ مُحْتَاجٌ مُتَعَطِّشٌ لِمَا عِنْدهمْ مِنْ الْعِلْم، أَهْل لِلنَّفْعِ وَالِانْتِفَاع، فَيَأْخُذهُ مِنْهُمْ، =

*[٢١٥ - ٣٣][خَاطِرَةٌ]:

[السَّبَبُ فِي عَدَمِ دَوَامِ الْيَقَظَةِ كَمَا فِي مَجْلِسِ الْوَعْظِ]

خَطَرَ لِي خَاطِرٌ؛ وَالْمَجْلِسُ قَدْ طَابَ، وَالْقُلُوبُ قَدْ حَضَرَتْ، وَالْعُيُونُ جَارِيَةٌ، وَالرُّؤُوسُ مُطْرِقَةٌ، وَالنُّفُوسُ قَدْ نَدِمَتْ عَلَىٰ تَفْرِيطِهَا، وَالْعَزَائِمُ قَدْ نَهَضَتْ لِإِصْلَاحِ شُؤُونِهَا، وَأَلْسِنَةُ اللَّوْمِ تَعْمَلُ فِي الْبَاطِنِ عَلَىٰ تَضْيِيعِ الْحَزْمِ، وَتَرْكِ الْحَذَرِ.

فَقُلْتُ لِنَفْسِي: مَا بَالُ هَذِهِ الْيَقَظَةِ لا تَدُومُ؟! فَإِنِّي أَرَىٰ النَّفْسَ وَالْيَقَظَةَ فِي الْمَجْلِسِ مُتَصَادِقَيْنِ مُتَصَافِيَيْنِ؛ فَإِذَا قُمْنَا عَنْ هَذِهِ التُّرْبَةِ[1]؛ وَقَعَتِ الْغُرْبَةُ.

فَتَأَمَّلْتُ ذَلِكَ، فَرَأَيْتُ أَنَّ النَّفْسَ مَا تَزَالُ مُتَيَقِّظَةً، وَالْقَلْبُ مَا يَزَالُ عَارِفًا؛ غَيْرَ أَنَّ الْقَوَاطِعَ كَثِيرَةٌ، وَالْفِكْرَ الَّذِي يَنْبَغِي اسْتِعْمَالُهُ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَىٰ قَدْ كَلَّ[2] مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِي اجْتِلَابِ الدُّنْيَا، وَتَحْصِيلِ حَوَائِجِ النُّفُوسِ، وَالْقَلْبُ مُنْغَمِسٌ فِي ذَلِكَ، وَالْبَدَنُ أَسِيرٌ مُسْتَخْدَمٌ.

وَبَيْنَا الْفِكْرُ يَجُولُ فِي اجْتِلَابِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْكِسْوَةِ، وَيَنْظُرُ فِي صَدَدِ ذَلِكَ، وَمَا يَدَّخِرُهُ لِغَدِهِ وَسَنَتِهِ، اهْتَمَّ بِخُرُوجِ الْحَدَثِ، وَتَشَاغَلَ بِالطَّهَارَةِ، ثُمَّ اهْتَمَّ بِخُرُوجِ الْفَضَلَاتِ الْمُؤْذِيَةِ - وَمِنْهَا الْمَنِيُّ[3]- فَاحْتَاجَ إِلَىٰ النِّكَاحِ، فَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِاكْتِسَابِ كَسْبِ الدُّنْيَا، فَتَفَكَّرَ فِي ذَلِكَ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهُ، ثُمَّ جَاءَ الْوَلَدُ، فَاهْتَمَّ بِهِ وَلَهُ، وَإِذَا الْفِكْرُ عَامِلٌ فِي أُصُولِ الدُّنْيَا وَفُرُوعِهَا.

= فَيَنْتَفِع بِهِ، فَهَؤُلَاءِ نَفَعُوا بِمَا بَلَغَهُمْ. وَالنَّوْع الثَّالِث مِنَ الأَرْض السِّبَاخ الَّتِي لَا تُنْبِتُ وَنَحْوهَا، فَهِيَ لَا تَنْتَفِعُ بِالْمَاءِ، وَلَا تُمْسِكُهُ لِيَنْتَفِعَ بِهَا غَيْرهَا. وَكَذَا النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنَ النَّاس، لَيْسَتْ لَهُمْ قُلُوب حَافِظَة، وَلَا أَفْهَام وَاعِيَة؛ فَإِذَا سَمِعُوا الْعِلْم لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلَا يَحْفَظُونَهُ لِنَفْعِ غَيْرِهِمْ. وَالله أَعْلَم». [يُنظر: «المنهاج» (ج٧/ ص٣٩٠)]

(١) الْمَقصُودُ بِالتُّرْبَةِ هُنَا: الْمَكَان الَّذِي يَنْعَقِد فِيْهِ مَجْلِس الْوَعظ.

(٢) قَدْ كَلَّ؛ أَي: تَعِبَ وَأَعيَا وَضَعُفَ أَوْ ثَقُلَ.

(٣) وقد ثبت قديمًا وحديثًا أن المَنِيّ إذا احتبس في البدن ولم يخرج يُؤدي إلىٰ أضرار كبيرة، كما أنَّه لو خرج بكثرة وبدون انتظام يُؤدي أيضًا إلىٰ أضرار كبيرة معلومة عند الأطباء.

فَإِذَا حَضَرَ الْإِنْسَانُ الْمَجْلِسَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحْضُرُ جَائِعًا وَلَا حَاقِنًا[١]، بَلْ يَحْضُرُهُ جَامِعًا لِهِمَّتِهِ، نَاسِيًا مَا كَانَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ ذِكْرِهِ، فَيَخْلُو الْوَعْظُ بِالْقَلْبِ، فَيُذَكِّرُهُ بِمَا أَلِفَ، وَيَجْذِبُهُ بِمَا عَرَفَ، فَيَنْهَضُ عُمَّالُ الْقَلْبِ فِي زَوَارِقِ عِرْفَانِهِ، فَيُحْضِرُونَ النَّفْسَ إِلَىٰ بَابِ الْمُطَالَبَةِ بِالتَّفْرِيطِ، وَيُؤَاخِذُونَ الْحِسَّ بِمَا مَضَىٰ مِنَ الْعُيُوبِ، فَتَجْرِي عُيُونُ النَّدَمِ، وَتَنْعَقِدُ عَزَائِمُ الِاسْتِدْرَاكِ.

وَلَوْ أَنَّ هَذِهِ النَّفْسَ خَلَتْ عَنِ الْمَعْهُودَاتِ الَّتِي وَصَفْتُهَا؛ لَتَشَاغَلَتْ بِخِدْمَةِ بَارِئِهَا، وَلَوْ وَقَعَتْ فِي سَوْرَةِ حُبِّهِ، لَاسْتَوْحَشَتْ عَنِ الْكُلِّ شُغُلًا بِقُرْبِهِ[٢].

وَلِهَذَا اعْتَمَدَ[٣] الزُّهَّادُ الْخَلَوَاتِ، وَتَشَاغَلُوا بِقَطْعِ الْمُعَوِّقَاتِ، وَعَلَىٰ قَدْرِ مُجَاهَدَتِهِمْ فِي ذَلِكَ نَالُوا مِنَ الْخِدْمَةِ مُرَادَهُمْ، كَمَا أَنَّ الْحَصَادَ عَلَىٰ مِقْدَارِ الْبَذْرِ.

غَيْرَ أَنِّي تَلَمَّحْتُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ دَقِيقَةً، وَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ لَوْ دَامَتْ لَهَا الْيَقَظَةُ؛ لَوَقَعَتْ فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِنْ فَوْتِ مَا فَاتَهَا، وَهُوَ الْعُجْبُ بِحَالِهَا، وَالِاحْتِقَارُ لِجِنْسِهَا[٤]!

وَرُبَّمَا تَرَقَّتْ بِقُوَّةِ عِلْمِهَا وَعِرْفَانِهَا إِلَىٰ دَعْوَىٰ قَوْلِهَا: «لِي، وَعِنْدِي، وَأَسْتَحِقُّ ...» فَتَرَكَهَا فِي حَوْمَةِ ذُنُوبِهَا تَتَخَبَّطُ[٥]؛ فَإِذَا وَقَفَتْ عَلَىٰ الشَّاطِئِ؛ قَامَتْ بِحَقِّ ذِلَّةِ الْعُبُودِيَّةِ، [وَذَلِكَ[٦]] أَوْلَىٰ لَهَا.

هَذَا حُكْمُ الْغَالِبِ مِنَ الْخَلْقِ، وَلِذَلِكَ شُغِلُوا عَنْ هَذَا الْمَقَامِ، فَمَنْ بَذَرَ، فَصَلَحَ لَهُ؛ فَلَابُدَّ

---

(١) الحَاقِن: هُوَ الحَابِس لِلْبَوْلِ أَوْ الْغَائِط.

(٢) سَوْرَةِ حُبِّهِ: شِدَّتِهِ وَحِدَّتِهِ. * لَاسْتَوْحَشَتْ: لَم يَأْنس بِهِم وَأَحَسَّ بِالْوَحْشَةِ.

(٣) أَيْ: رَكَنُوا إِلَيْهَا وَتَمَسَّكُوا بِهَا.

(٤) وَهَذَا الْمَعْنَىٰ يَظْهَر جَلِيًّا فِي الحَدِيثِ الَّذِي رواه البزار في «مسنده»(٦٩٣٦). والقضاعي في «مسنده»(١٤٤٧). والبيهقي في «الشعب»(٦٨٦٨) عَن أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ الْعُجْبَ الْعُجْبَ». وهو في «صحيح الترغيب والترهيب»(٢٩٢١) و«السلسلة الصحيحة»(٦٥٨) للألباني.

(٥) حَوْمَةِ ذُنُوبِهَا؛ أي: وَسَطِهَا أو مُعظَمِهَا. وَالْحَوْمَة أَشَدّ مَوَاضِع القِتَال. وَتَتَخَبَّطُ؛ أَي: بَقِيَ فِي حَالَةِ اضطِرَاب.

(٦) ليست في الأصل ولا المخطوط، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

لَهُ مِنْ هَفْوَةٍ تُرَاقِبُهَا عَيْنُ الْخَوْفِ مِنْ عِقَابِهَا - رِفْقًا بِهَا - تَصِحُّ لَهُ عُبُودِيَّتُهُ، وَتَسْلَمُ لَهُ عِبَادَتُهُ.

وَإِلَىٰ هَذَا الْمَعْنَىٰ أَشَارَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا؛ لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ، فَيُغْفَرَ لَهُمْ»[١].

*[٢١٦ - ٣٦١][خَاطِرَةٌ][٢]:

[مَوْعِظَةُ نَاصِحٍ مُشْفِقٍ مُحِبٍّ]

يَا قَوْمُ! قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ، وَقَدْ فَهِمْتُمْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزُّمَر:٣]، وَقَدْ سَمِعْتُمْ عَنِ السَّلَفِ أَنَّهُمْ كَانُوا لا يَعْمَلُونَ، وَلا يَقُولُونَ حَتَّىٰ تَتَقَدَّمَ النِّيَّةُ وَتَصِحَّ.

أَيَذْهَبُ زَمَانُكُمْ يَا فُقَهَاءُ فِي الْجَدَلِ وَالصِّيَاحِ، وَتَرْتَفِعُ أَصْوَاتُكُمْ عِنْدَ اجْتِمَاعِ الْعَوَامِّ تَقْصِدُونَ الْمُغَالَبَةَ؟!

أَوَمَا سَمِعْتُمْ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»[٣] ثُمَّ يُقْدِمُ أَحَدُكُمْ عَلَىٰ الْفَتْوَىٰ، وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا؛ وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَتَدَافَعُونَهَا.

وَيَا مَعْشَرَ الْمُتَزَهِّدِينَ! إِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ!

أَتُظْهِرُونَ الْفَقْرَ فِي لِبَاسِكُمْ، وَأَنْتُمْ تَسْتَوْفُونَ شَهَوَاتِ النُّفُوسِ.

وَتُظْهِرُونَ التَّخَاشُعَ وَالْبُكَاءَ فِي الْجَلَوَاتِ دُونَ الْخَلَوَاتِ؟!

---

(١) رواه مسلم، كِتَابُ «التَّوْبَةِ» بَابُ «سُقُوطِ الذُّنُوبِ بِالِاسْتِغْفَارِ تَوْبَةً» حديث (٢٧٤٨ / ٢٧٤٩).

(٢) جاء في الأصل: [فَصلٌ: يَتَضَمَّنُ نَصِيحَةً لِلْعُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ].

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (١٢١): عَنْ مُعَاذٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ فِي الْمَجَالِسِ، لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ». وابن ماجة، كِـ: «الْمُقَدِّمَةِ» (٢٥٣). عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَهُوَ فِي النَّارِ».

كَانَ ابْنُ سِيرِينَ: «يَضْحَكُ وَيُقَهْقِهُ، فَإِذَا خَلَا، بَكَىٰ أَكْثَرَ اللَّيْلِ»[١].

وَقَالَ سُفْيَانُ لِصَاحِبِهِ: «مَا أَوْقَحَكَ! تُصَلِّي وَالنَّاسُ يَرَوْنَكَ؟!»[٢].

أَفْـدِي ظِبَـاءَ فَـلَاةٍ مَـا عَـرَفْنَ بِهَـا ... مَضْغَ الْكَلَامِ، وَلَا صَبْغَ الْحَوَاجِيبِ[٣]

آهٍ لِلْمُرَائِي مِنْ يَوْمِ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[الْعَادِيَاتُ:١٠]، وَهِيَ النِّيَّاتُ!

فَأَفِيقُوا مِنْ سُكْرِكُمْ، وَتُوبُوا مِنْ زَلَلِكُمْ، وَاسْتَقِيمُوا عَلَىٰ الْجَادَّةِ؛ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[الزُّمَرُ: ٥٦].

*[٢١٧ - ٦٠][خَاطِرَةٌ]:

[الْوَاعِظُ مَأْمُورٌ بِأَنْ لَا يَتَعَدَّى الصَّوَابَ]

تَأَمَّلْتُ أَشْيَاءَ تَجْرِي فِي مَجَالِسِ الْوَعْظِ، يَعْتَقِدُهَا الْعَوَامُّ وَجُهَّالُ الْعُلَمَاءِ قُرْبَةً، وَهِيَ مُنْكَرٌ وَبُعْدٌ.

وَذَاكَ أَنَّ الْمُقْرِئَ يُطْرِبُ، وَيُخْرِجُ الْأَلْحَانَ إِلَىٰ الْغِنَاءِ[٤]. وَالْوَاعِظَ يُنْشِدُ بِتَطْرِيبِ أَشْعَارَ الْمَجْنُونِ وَلَيْلَىٰ[٥]، فَيُصَفِّقُ هَذَا! وَيَخْرِقُ ثَوْبَهُ هَذَا! وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ قُرْبَةٌ!!

---

(١) ترجمة ابْنُ سِيرِينَ في:[٢٥-٣٢٢]. وخبره في:[١٨٥-٣٦].

(٢) ترجمة سُفْيَانَ الثَّورِي في:[١٤-١١٨]. وخبره في «الحلية» للأصبهاني.(ج٦/ ص٣٩٠) عَنْ شِهَابٍ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ فِي الْمَسْجِدِ فَقُمْتُ فَصَلَّيْتُ رَكْعَةً فَالْتَفَتُّ إِلَيَّ سُفْيَانَ فَقَالَ: «يَا أَبَا شِهَابٍ مَا أَجْرَأَكَ تُصَلِّي وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ»، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ: وَتَنَام حَيْثُ لَا تُرَىٰ.

(٣) البيت من البحر:[البسيط]، وقائله: الْمُتَنَبِّي. ظِبَاءَ: غَزالٌ. وَالصَّبْغ: مَا تُلَوَّنُ بِهِ. وَالْحَوَاجِيب: الحَوَاجِب؛ فَأَشْبَعَ الكَسْرَةَ؛ لِتحدث «اليَاء» بَعدَهَا. وَ«الهَاء» فِي «بِهَا» لِـ«فَلَاة». يَقُولُ: أَفْدِيْ بِرُوحِي البَدَوِيَّات المَطبُوعَاتِ عَلَىٰ حُسْنِ الكَلَامِ، وَالْحَوَاجِب، فَلَا يَصبِغْنَ حَوَاجِبِهِنَّ، وَلا يَمْضغنَ الكَلَام؛ لِأَنَّ كَلامَهُنَّ فِيهِ غُنَّة فَلا يَحتَجنَ إِلَىٰ تَكَلُّفِهَا. وَقِيلَ: أَرَادَ بِمَضْغِ الكَلَامِ التَّفَاصح.

(٤) وهذا ما يفعله كثير من القارئين في المآتم؛ فإن لله وإنا إليه راجعون.

(٥) الْمَجْنُونِ الْعَامِرِيّ: قَيسِ بْنِ الْمُلَوَّحِ، شَاعِرٌ، وَعَاشِقٌ مَشْهُور، تَيَّمَهُ الحُبُّ فِي لَيْلَىٰ بِنْتِ مَهْدِيٍّ العَامِرِيَّة (ت:٦٨هـ).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الأَلْحَانَ كَالْمُوسِيقَىٰ، تُوجِبُ طَرَبًا لِلنُّفُوسِ؛ فَالتَّعَرُّضُ بِمَا يُوجِبُ الْفَسَادَ غَلَطٌ عَظِيمٌ.

وَيَنْبَغِي الِاحْتِسَابُ عَلَىٰ الْوُعَّاظِ فِي هَذَا[1].

وكَذَٰلِكَ الْمَقَابِرِيُّونَ مِنْهُمْ[2]؛ فَإِنَّهُمْ يُهَيِّجُونَ الأَحْزَانَ؛ لِيَكْثُرَ بُكَاءُ النِّسَاءِ، فَيُعْطَوْنَ عَلَىٰ ذَلِكَ الأُجْرَةَ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَمَرُوا بِالصَّبْرِ؛ لَمْ تُرِدِ النِّسْوَةُ ذَلِكَ! وهَذِهِ أَضْدَادٌ لِلشَّرْعِ.

قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: «حَضَرْنَا عَزَاءَ رَجُلٍ قَدْ مَاتَ لَهُ وَلَدٌ، فَقَرَأَ الْمُقْرِئُ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يُوسُفُ:٨٤]، فَقُلْتُ لَهُ: هَذِهِ نِيَاحَةٌ بِالْقُرْآنِ»[3]!

وَفِي الْوُعَّاظِ مَنْ يَتَكَلَّمُ عَلَىٰ طَرِيقِ الْمَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ، فَتَرَىٰ الْحَائِكَ وَالسُّوقِيَّ[4] الَّذِي لَا يَعْرِفُ فَرَائِضَ تِلْكَ الصَّلَاةِ يُمَزِّقُ أَثْوَابَهُ؛ دَعْوَىٰ لِمَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ!!

وَالصَّافِي حَالًا مِنْهُمْ - وَهُوَ أَصْلَحُهُمْ - يَتَخَايَلُ بِوَهْمِهِ شَخْصًا هُوَ الْخَالِقُ، فَيُبْكِيهِ شَوْقُهُ إِلَيْهِ؛ لِمَا يَسْمَعُ مِنْ عَظَمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَجَمَالِهِ.

وَلَيْسَ مَا يَتَخَايَلُونَهُ الْمَعْبُودَ؛ لِأَنَّ الْمَعْبُودَ لا يَقَعُ فِي خَيَالٍ.

---

(١) الِاحْتِسَابُ، وَالْحِسْبَة، والمُحتَسَب: الأمر بالمعروف والنَّاهي عن المُنكر. والمعنىٰ: ينبغي علىٰ المُحتَسَب أن يُامر هؤلاء الوعاظ وينصحهم، ويأخذهم إذا تجاوزوا الطريق المستقيم. وَرَحِمَ اللهُ زَمَانًا كَانَ فِيهِ مِثْل شُعْبَة بْن الحَجَّاجِ وَشُرطَتِهِ؛ فَقَد أَوْرَدَ الذَّهَبِي في «السير» قَوْلُ الشَّافِعِيِّ: «كَانَ شُعْبَةُ يَجِيءُ إِلَىٰ الرَّجُلِ - يَعْنِي: الَّذِي لَيْسَ أَهْلًا لِلْحَدِيثِ - فَيَقُولُ: لا تُحدِّثْ، وَإِلاَّ استَعْدَيتُ عَلَيْكَ السُّلْطَانَ».(ج٧/ ص٢١٦/ ت: شُعْبَةُ بنُ الحَجَّاجِ)

(٢) الْمَقَابِرِيُّونَ: مَجْمُوعَة مِنَ الْمُرتَزِقَة تَطُوف عَلَىٰ المَقَابِر، يَقْرءُوْنَ القُرآن؛ لِأخذ المَال مِنْ أصاحَبِ الْمَيِّت!!.

(٣) ترجمة ابْنُ عَقِيلٍ في:[٢٠-٣١٩]. وفي «المنتظم» لابن الجوزي(١٧/ ١٤٨): «وَنَقَلْتُ مِنْ خَطِّهِ - ابْنُ عَقِيلٍ - قَالَ: لَمَّا أُصِبْتُ بِوَلَدِي عَقِيل خَرَجْتُ إِلَىٰ المَسْجِد إِكْرَامًا لِمَنْ قَصَدَنِي مِنَ النَّاسِ وَالصُّدُور فَجَعَلَ قَارِئ يَقْرَأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ فَبَكَىٰ النَّاس وَضَجَّ الْمَوضِع بِالْبُكَاءِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا هَذَا إِنْ كَانَ قَصْدُكَ بِهَذَا تَقْبِيح الأحزَان؛ فَهُوَ نِيَاحَةٌ بِالْقُرْآنِ، وَمَا نَزَلَ القُرآن لِلنَّوْحِ، إِنَّمَا نَزَلَ لِيُسَكِّنَ الأَحْزَانِ، فَأَمْسِكْ». وَمَا هَيَّجَ الْمُصِيبَةَ مِنْ وَعْظٍ وَإِنْشَادِ شِعْرٍ فَمِنْ النِّيَاحَةِ، قاله ابن المفلح في «كتاب الفروع».

(٤) الْحَائِكَ: مَنْ يَنْسِج الثِّيَابَ وَنَحوَهَا. وَالسُّوقِيّ: عامَة النَّاس، أوساط النَّاس وقد تطلق علىٰ الواحد: هو سُوقة.

وَبَعْدَ هَذَا؛ فَالتَّحْقِيقُ مَعَ الْعَوَامِّ صَعْبٌ[١]، وَلا يَكَادُونَ يَنْتَفِعُونَ بِمُرِّ الْحَقِّ؛ إِلَّا أَنَّ الْوَاعِظَ مَأْمُورٌ بِأَنْ لَا يَتَعَدَّىٰ الصَّوَابَ، وَلا يَتَعَرَّضَ لِمَا يُفْسِدُهُمْ، بَلْ يَجْذِبُهُمْ إِلَىٰ مَا يَصْلُحُ بِأَلْطَفِ وَجْهٍ، وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ صِنَاعَةٍ.

فَإِنَّ مِنَ الْعَوَامِّ مَنْ يُعْجِبُهُ حُسْنُ اللَّفْظِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْجِبُهُ الإِشَارَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْقَادُ بِبَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ.

وَأَحْوَجُ النَّاسِ إِلَىٰ الْبَلَاغَةِ الْوَاعِظُ[٢]؛ لِيَجْمَعَ مَطَالِبَهُمْ؛ لَكِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ فِي اللَّازِمِ الْجَوَابِ، وَأَنْ يُعْطِيَهُمْ مِنَ الْمُبَاحِ فِي اللَّفْظِ قَدْرَ الْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ، ثُمَّ يَجْتَذِبَهُمْ إِلَىٰ الْعَزَائِمِ، وَيُعَرِّفَهُمُ الطَّرِيقَ الْحَقَّ.

وَقَدْ حَضَرَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، فَسَمِعَ كَلَامَ الْحَارِثِ الْمُحَاسِبِيِّ، فَبَكَىٰ، ثُمَّ قَالَ: «لا يُعْجِبُنِي الْحُضُورُ»[٣]. وَإِنَّمَا بَكَىٰ؛ لِأَنَّ الْحَالَ أَوْجَبَتِ الْبُكَاءَ.

وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَرَوْنَ تَخْلِيطَ الْقُصَّاصِ، فَيَنْهَوْنَ عَنِ الْحُضُورِ عِنْدَهُمْ، وَهَذَا عَلَىٰ الإِطْلَاقِ لَا يَحْسُنُ الْيَوْمَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مُتَشَاغِلِينَ بِالْعِلْمِ، فَرَأَوْا حُضُورَ الْقِصَصِ صَادًّا لَهُمْ.

وَالْيَوْمَ كَثُرَ الإِعْرَاضُ عَنِ الْعِلْمِ، فَأَنْفَعُ مَا لِلْعَامِّيِّ مَجْلِسُ الْوَعْظِ، يَرُدُّهُ عَنْ ذَنْبٍ، وَيُحَرِّكُهُ إِلَىٰ تَوْبَةٍ، وَإِنَّمَا الْخَلَلُ فِي الْقَاصِّ؛ فَلْيَتَّقِ اللهَ ﷻ.

---

(١) الْمَقْصُودُ بِـ«التَّحْقِيقِ» هُنَا: البَحث فِي المَسَائِل وَالتَّدقِيق فِيهَا وَذِكر الخِلَافِ وَالرَّاجِح وَالمَرجُوح، وهَلُمَّ جَرًّا.

(٢) الْمَقْصُودُ بِـ«الْبَلَاغَةِ» هُنَا: حُسْنُ الْبَيَان وَقُوَّة التَّأْثِير وَمُطَابَقَة الكَلَام لِمُقْتَضَىٰ الحَال مَعَ فَصَاحَتِهِ.

(٣) ترجمة ابْنُ حَنْبَلٍ في:[٤٢-١٧٩]. وَالْمُحَاسِبِيّ في:[١٢٨-٣٦٢]. قَالَ الذَّهَبِيّ في «السير»(ت: المُحَاسِبِيُّ): «وَوَرَدَ: أَنَّ الإِمَامَ أَحْمَدَ أَثْنَىٰ عَلَىٰ حَالِ الحَارِثِ مِنْ وَجْهٍ، وَحَذَّرَ مِنْهُ. وَقِيلَ: هَجَرَهُ أَحْمَدُ، فَاخْتَفَىٰ مُدَّةً». قَال السُّبكِيّ في «الطبقات»(ج٢/ ص٢٧٨/ ت: المُحَاسِبِيُّ): «فَالقَوْم أَئِمَّة أَعْلَام وَلِأَقْوَالِهِم مَحَامِل رُبَّمَا لَم يُفْهَم بَعْضُهَا فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا التَّرَضِّيٰ عَنْهُم وَالسُّكُوت عَمَّا جَرَىٰ بَيْنَهُم».

*[٢١٨ - ٣٠٩][خَاطِرَةٌ]:

[ضَرُورَةُ مُرَاعَاةِ الأَحْوَالِ فِي وَعْظِ السُّلْطَانِ]

يَنْبَغِي لِمَنْ وَعَظَ سُلْطَانًا أَنْ يُبَالِغَ فِي التَّلَطُّفِ، وَلا يُوَاجِهَهُ بِمَا يَقْتَضِي أَنَّهُ ظَالِمٌ؛ فَإِنَّ السَّلَاطِينَ حَظُّهُمُ التَّفَرُّدُ بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةُ؛ فَإِذَا جَرَىٰ نَوْعُ تَوْبِيخٍ لَهُمْ؛ كَانَ إِذْلَالًا، وَهُمْ لَا يَحْتَمِلُونَ ذَلِكَ. وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَمْزُجَ وَعْظَهُ بِذِكْرِ شَرَفِ الْوِلَايَةِ، وَحُصُولِ الثَّوَابِ فِي رِعَايَةِ الرَّعَايَا، وَذِكْرِ سِيَرِ الْعَادِلِينَ مِنْ أَسْلَافِهِمْ.

ثُمَّ لِيَنْظُرِ الْوَاعِظُ فِي حَالِ الْمَوْعُوظِ قَبْلَ وَعْظِهِ:

فَإِنْ رَأَىٰ سِيرَتَهُ حَمِيدَةً - كَمَا كَانَ مَنْصُورُ بْنُ عَمَّارٍ وَغَيْرُهُ يَعِظُونَ الرَّشِيدَ وَهُوَ يَبْكِي -[١] وَقَصْدَهُ الْخَيْرَ؛ زَادَ فِي وَعْظِهِ وَوَصِيَّتِهِ.

وَإِنْ رَآهُ ظَالِمًا، لا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ الْخَيْرِ، وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْجَهْلُ؛ اجْتَهَدَ فِي أَلَّا يَرَاهُ وَلا يَعِظُهُ؛ لِأَنَّهُ إِنْ وَعَظَهُ؛ خَاطَرَ بِنَفْسِهِ، وَإِنْ مَدَحَهُ؛ كَانَ مُدَاهِنًا، فَإِنِ اضْطُرَّ إِلَىٰ مَوْعِظَتِهِ؛ كَانَتْ كَالْإِشَارَةِ.

وَقَدْ كَانَ أَقْوَامٌ مِنَ السَّلَاطِينِ يَلِينُونَ عِنْدَ الْمَوْعِظَةِ، وَيَحْتَمِلُونَ الْوَاعِظِينَ، حَتَّىٰ إِنَّهُ قَدْ كَانَ الْمَنْصُورُ[٢] يُوَاجَهُ بِأَنَّكَ ظَالِمٌ فَيَصْبِرُ . . .

وَقَدْ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ، وَفَسَدَ أَكْثَرُ الْوُلَاةِ، وَدَاهَنَهُمُ الْعُلَمَاءُ، وَمَنْ لا يُدَاهِنْ؛ لا يَجِدُ قَبُولًا لِلصَّوَابِ، فَيَسْكُتُ.

وَقَدْ كَانَتِ الْوِلَايَاتُ لا يَسْأَلُهَا إِلَّا مَنْ أَحْكَمَتْهُ الْعُلُومُ، وَثَقَّفَتْهُ التَّجَارِبُ، فَصَارَ أَكْثَرُ

---

(١) ترجمة مَنْصُوْرُ بنُ عَمَّارٍ في:[١٨٩-٨٦]. والرَّشِيد أَبُو جَعْفَرٍ هَارُوْنُ بْنُ المَهْدِيِّ مُحَمَّدِ بنِ المَنْصُوْرِ. كَانَ مِنْ أَنبَلِ الخُلَفَاءِ، وَأَحشَمِ المُلُوْكِ، ذَا حَجٍّ، وَجِهَادٍ، وَغَزْوٍ، وَشَجَاعَةٍ، وَرَأْيٍ. مَاتَ سَنَةَ:(١٩٣هـ).

(٢) المَنْصُوْرُ أَبُو جَعْفَرٍ عَبْدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيٍّ العَبَّاسِيُّ، كَانَ فَحْلَ بَنِي العَبَّاسِ هَيْبَةً، وَشَجَاعَةً، مَاتَ سَنَةَ:(١٥٨هـ).

الْوُلَاةِ يَتَسَاوُونَ فِي الْجَهْلِ، فَتَأْتِي الْوَلَايَةُ عَلَىٰ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا.

وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ يَنْبَغِي الْحَذَرُ مِنْهُمْ، وَالْبُعْدُ عَنْهُمْ؛ فَمَنِ ابْتُلِيَ بِوَعْظِهِمْ؛ فَلْيَكُنْ عَلَىٰ غَايَةِ التَّحَرُّزِ فِيمَا يَقُولُ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْتَرَّ بِقَوْلِهِمْ: عِظْنَا[1]! فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ كَلِمَةً لَا تُوَافِقُ أَغْرَاضَهُمْ؛ ثَارَتْ حَرَارَاتُهُمْ.

وَلْيَحْذَرْ مُذَكِّرُ السُّلْطَانِ أَنْ يُعَرِّضَ لَهُ بِأَرْبَابِ الْوِلَايَاتِ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا بِذَلِكَ؛ صَارَ الْوَاعِظُ مَقْصُودًا لَهُمْ بِالْإِهْلَاكِ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَعْتَبِرَ السُّلْطَانُ أَحْوَالَهُمْ، فَتَفْسُدَ أُمُورُهُمْ.

وَالْبُعْدُ فِي هَذَا الزَّمَانِ عَنْهُمْ أَصْلَحُ، وَالسُّكُوتُ عَنِ الْمَوَاعِظِ لَهُمْ أَسْلَمُ، فَمَنِ اضْطُرَّ، تَلَطَّفَ غَايَةَ التَّلَطُّفِ، وَجَعَلَ وَعْظَهُ لِلْعَوَامِ، وَهُمْ يَسْمَعُونَ، وَلَا يَعْنِيهِمْ مِنْهُ بِشَيْءٍ. وَاللهُ الْمُوَفِّقُ[2].

---

(١) جاء في الأصل: [ظنا]، ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٢) وَهَذَا يَرجِعُ إِلَىٰ قُدرَةِ الْوَاعِظ فَإِنْ كَانَ يَرَىٰ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً عَلَىٰ التَّحَمُّل إِذَا أُوذِيَ تَقَدَّمَ وَوَعَظَ، وَإِلَّا فَالأَسْلَم لَهُ السُّكُوت، وَلَكَ أُسْوَة فِي هَذَا وَذَاكَ، وَالأَمْثِلَة فِي ذَلِكَ كَثِيرَة، تَدُلّ عَلَىٰ أَنَّ الصَدع بِكَلِمَةِ الحَقّ تَرجِعُ إِلَىٰ قُدرَةِ الإِنْسَانِ وَتَحَمُّله. وَعَلَيْهِ تَجِد مَوْقِف اِبْن حَنْبَل وَابْن المَدِينِي فِي فِتْنَةِ خَلْقِ القُرآن. وَقَد قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَيْلٌ لِمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِم، إِذَا لَمْ يَكُنْ كَبِيرَ العَقْلِ، كَثِيرَ الفَهْمِ، كَيْفَ يَكُونُ فِتْنَةً عَلَيْهِم وَعَلَىٰ الأُمَّةِ؟».

(١٧)

[الحَسَدُ والحَاسِدِينَ، وَمَا يَنبَغِي عَلَيْنَا كِتْمَانُهُ]

*[٢١٩ - ٣٢٤][خَاطِرَةٌ]:

[الحَسَدُ طَبِيعَةٌ فِي الإِنسانِ]

رَأَيْتُ النَّاسَ يَذُمُّونَ الْحَاسِدَ، وَيُبَالِغُونَ، وَيَقُولُونَ: لَا يَحْسُدُ إِلَّا شِرِّيرٌ؛ يُعَادِي نِعْمَةَ اللهِ، وَلَا يَرْضَىٰ بِقَضَائِهِ، وَيَبْخَلُ عَلَىٰ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ.

فَنَظَرْتُ فِي هَذَا؛ فَمَا رَأَيْتُهُ كَمَا يَقُولُونَ.

وَذَاكَ أَنَّ الإِنْسَانَ لَا يُحِبُّ أَنْ يَرْتَفِعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؛ فَإِذَا رَأَىٰ صَدِيقَهُ قَدْ عَلَا عَلَيْهِ؛ تَأَثَّرَ هُوَ، وَلَمْ يُحِبَّ أَنْ يَرْتَفِعَ عَلَيْهِ، وَوَدَّ لَوْ لَمْ يَنَلْ صَدِيقُهُ مَا يَنَالُ، أَوْ أَنْ يَنَالَ هُوَ مَا نَالَ ذَاكَ؛ لِئَلَّا يَرْتَفِعَ عَلَيْهِ.

وَهَذَا مَعْجُونٌ فِي الطِّينِ[١]، وَلَا لَوْمَ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ إِنَّمَا اللَّوْمُ أَنْ يَعْمَلَ بِمُقْتَضَاهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.

وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذَا قَدْ وَقَعَ لِي عَنْ سُرَيٍ وَفَحْصِي[٢]؛ فَرَأَيْتُ الْحَدِيثَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ.

- قَالَ[٣] -: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْخَالِقِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ النَّقُّورِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا

---

(١) أَي: فِي الطَّبْعِ الَّذِي هُوَ أصل الخِلْقَة.

(٢) أَي: كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذَا الفَهْم وَقَعَ لِي عَنْ سَهَرِي وَتَدقِيقِي حَتَّىٰ رَأَيْتُ قَوْلَ الْحَسَن البَصرِيِّ هَذَا. سُرَىٰ: سَيْر عامة الليل. فَحَصَ: بَالَغَ فِي فَحْصِهِ وَتَدقِيقِ النَّظَر فِيهِ.

(٣) قَالَ؛ أَيْ: ابْنُ الجَوْزِيِّ؛ لِأَنَّ عَبْدَ الْخَالِقِ مِنْ شُيُوخِهِ. وَرِجَال الإِسْنَاد: عَبْدُ الْخَالِقِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ ابْنُ البَدَنِ، أَبُو المَعَالِي، شَيْخٌ ثِقَةٌ، مَاتَ:(٥٣٨هـ). وَابْنُ النَّقُّورِ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ البَغْدَادِيُّ البَزَّازُ، أَبُو الحُسَيْنِ، الشَّيْخُ الجَلِيلُ، مَاتَ:(٤٧٠هـ). وَالْمُخَلِّصُ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ العَبَّاسِ، المُحَدِّثُ، المُعَمَّرُ، أَبُو طَاهِرٍ. مَاتَ:(٣٩٣هـ). وَالْبَغَوِيُّ عَبْدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ المَرْزُبَانِ، الحُجَّةُ، المُعَمَّرُ، مُسْنِدُ العَصْرِ، أَبُو القَاسِمِ البَغَوِيُّ، =

الْمُخَلِّصُ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْبَغَوِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو رَوْحٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، عَنْ هِشَامٍ، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «لَيْسَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ خُلِقَ مَعَهُ الْحَسَدُ، فَمَنْ لَمْ يُجَاوِزْ ذَلِكَ بِقَوْلٍ وَلا بِفِعْلٍ، لَمْ يَتْبَعْهُ شَيْءٌ»[1].

*[٢٢٠ - ١١][خَاطِرَةٌ]:

[حَقِيقَةُ التَّحَاسُدِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ]

تَأَمَّلْتُ التَّحَاسُدَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، فَرَأَيْتُ مَنْشَأَهُ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا.

فَإِنَّ عُلَمَاءَ الآخِرَةِ يَتَوَادُّونَ، وَلا يَتَحَاسَدُونَ: كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾[الحَشْرُ:٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[الحَشْرُ:١٠].

= صَنَّفَ كِتَابَ (مُعْجَمِ الصَّحَابَةِ) وَجَوَّدَه. مَاتَ:(٣١٧هـ). وَأَبُو رَوْحٍ مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادِ بْنِ فَرْوَةَ الْبَلَدِيُّ، شَيْخُ الْبَغَوِيِّ. مَاتَ:(٢٢٩هـ). وَمَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ أَبُو مُحَمَّدٍ الأَزْدِيُّ، الْبَصْرِيُّ، الإِمَامُ الثِّقَةُ. مَاتَ:(١٩١أو١٩٦هـ). وَهِشَامِ بنُ حَسَّانٍ أَبُو عَبْدِ اللهِ البَصْرِيُّ الإِمَامُ، العَالِمُ، الحَافِظُ، مُحَدِّثُ البَصْرَةِ، مَاتَ:(١٤٨هـ).

(١) ترجمة الْحَسَنِ الْبَصرِيِّ في:[٥٩-٨٧]. والأثر رواه ابن عبد البر في «التمهيد»(٦/ ١٢٤) وَفِيهِ: «لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا وَقَدْ خُلِقَ مَعَهُ الْحَسَدُ فَمَنْ لَمْ يُجَاوِزْ ذَلِكَ إِلَى البَغْيِ وَالظُّلْمِ لَمْ يَتْبَعْهُ مِنْهُ شَيْءٌ» -ثُمَّ قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ- وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِإِسْنَادٍ لَا أَحْفَظُهُ فِي وَقْتِي هَذَا أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا حَسَدْتُمْ فَلَا تَبْغُوا وَإِذَا ظَنَنْتُمْ فَلَا تُحَقِّقُوا وَإِذَا تَطَيَّرْتُمْ فَامْضُوا وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا»، «الصَّحِيحَة»(٧/ ١٦٤٩/ ح٣٩٤٢). -ثُمَّ قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ- وَذَكَرَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ لا يَسْلَمُ مِنْهَا أَحَدٌ الطِّيَرَةُ وَالظَّنُّ وَالْحَسَدُ»، قِيلَ: فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «إِذَا تَطَيَّرْت فَلَا تَرْجِعْ، وَإِذَا ظَنَنْت فَلَا تُحَقِّقْ، وَإِذَا حَسَدْت فَلَا تَبْغِ»، «ضعيف الجامع»(٢٥٢٧). وَمَعْنَى: «إِذَا حَسَدْتُمْ فَلَا تَبْغُوا»؛ أَي: لَا تَعتَدُوا وَتَفْعَلُوا بِمُقْتَضَى التَّمَنِّي، فَمَنْ خَطَرَ لَهُ ذَلِكَ؛ فَلْيُبَادِرْ إِلَى اسْتِكْرَاهِهِ، كَمَا يَكْرَهُ مَا طُبِعَ عَلَيْهِ مِنْ حُبِّ الْمَنْهِيَّاتِ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْخِصَالَ الرَّذَائِلَ مَرْكُوزَةٌ فِي الْجِبِلَّةِ، قَالَ الْمُتَنَبِّي: وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ * فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ؛ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ». «فيض القدير»(١/ ٤٢٤).

وَقَدْ كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ «يَدْعُو كُلَّ لَيْلَةٍ لِجَمَاعَةٍ مِنْ إِخْوَانِهِ»(١).

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ لِوَلَدِ الشَّافِعِيِّ: «أَبُوكَ مِنَ السِّتَّةِ الَّذِينَ أَدْعُو لَهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ وَقْتَ السَّحَرِ»(٢).

وَالأَمْرُ الْفَارِقُ بَيْنَ الْفِئَتَيْنِ:

أَنَّ عُلَمَاءَ الدُّنْيَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الرِّيَاسَةِ فِيهَا، وَيُحِبُّونَ كَثْرَةَ الْجَمْعِ وَالثَّنَاءِ.

وَعُلَمَاءُ الآخِرَةِ، بِمَعْزِلٍ مِنْ إِيثَارِ ذَلِكَ، وَقَدْ كَانُوا يَتَخَوَّفُونَهُ، وَيَرْحَمُونَ مَنْ بُلِيَ بِهِ.

وَكَانَ النَّخَعِيُّ «لا يَسْتَنِدُ إِلَىٰ سَارِيَةٍ»(٣).

وقَالَ عَلْقَمَةُ: «أَكْرَهُ أَنْ يُوطَأَ عَقِبِي، وَيُقَالُ: عَلْقَمَةُ»(٤).

وَكَانَ بَعْضُهُمْ إِذَا جَلَسَ إِلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعَةٍ؛ قَامَ عَنْهُمْ»(٥).

وَكَانُوا يَتَدَافَعُونَ الْفَتْوَىٰ، وَيُحِبُّونَ الْخُمُولَ»(٦).

---

(١) ترجمة أَبُو الدَّرْدَاءِ في: [١٢٣–٢٥]. وقد روى ابن أبي شيبة في «مصنفه» كتاب «الصلاة» باب «في تسمية الرجال في الدعاء» (٨١٨٥). عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ: «إِنِّي لأَدْعُو لِسَبْعِينَ مِنْ إِخْوَانِي وَأَنَا سَاجِدٌ» وَفِي رِوَايَةٍ: «إِنِّي لأَدْعُو لِثَلاثِينَ مِنْ إِخْوَانِي وَأَنَا سَاجِدٌ، أُسَمِّيهِم بِأَسْمَائِهِم، وَأَسْمَاءِ آبَائِهِم» رواه البيهقي في «الشعب» (٨٦٤٢).

(٢) ترجمة أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ في: [٢٤–١٧٩]. وَالشَّافِعِيُّ في: [٤٧–٦١]. وَوَلَدِ الشَّافِعِيِّ: أَبُو عُثْمَانَ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ، وَكَانَ يَتَفَقَّهُ لأَبِيهِ، وَهُوَ ثِقَةٌ، مَاتَ: (٢٤٢هـ). والأثر في «السير» للذهبي. (ت: أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ).

(٣) النَّخَعِيُّ: أَبُو عِمْرَانَ إِبْرَاهِيمُ بنُ يَزِيْدَ بنِ قَيْسٍ، الإِمَامُ، الحَافِظُ، فَقِيْهُ العِرَاقِ، مَاتَ سَنَةَ: (٩٦هـ). وخبره في «السير» للذهبي. (ج٤/ ص٥٢٢/ ت: النَّخَعِيُّ)، «الطبقات الكبرى» لابن سعد. (ج٦/ ص٢٨١/ ت: النَّخَعِيُّ).

(٤) عَلْقَمَةُ بنُ قَيْسِ بنِ عَبْدِ اللهِ أَبُو شِبْلٍ، فَقِيْهُ الكُوْفَةِ، وَعَالِمُهَا، الإِمَامُ، الحَافِظُ. مَاتَ سَنَةَ: (٦١أو٦٢أو٦٥هـ). وخبره في «حلية الأولياء» الأصفاني. (ج٢/ ص٩٩/ ت: عَلْقَمَةُ بنُ قَيْسٍ).

(٥) أَيْ: قَامَ عَنْهُم مَخَافَةَ الشُّهْرَة، وَمِنْهُم: أَبُو العَالِيَةِ رُفَيْعُ بنُ مِهْرَانَ البَصْرِيُّ، «الحلية» للأصبهاني. (ج٢/ ص٢١٧)، «تهذيب الكمال» للمزي. (ج٩/ ص ٢١٧)، «السير» للذهبي. (ج٤/ ص٢٠٣/ ت: رُفَيْعُ)، وَمِنْهُم: أَبُو النَّضْرِ سَالِم بنُ أَبِي أُمَيَّةَ المَدَنِيُّ؛ «تاريخ دمشق» لابن عساكر. (ج٢٠/ ص٣٦/ ت: أَبُو النَّضْرِ).

(٦) يَتَدَافَعُونَ؛ أي: يدفعها كل منهم إلى الآخر ورعًا. وَالْخُمُولَ؛ أي: خمول الذكر بين الناس والبُعد عن الشهرة.

مَثَلُ الْقَوْمِ كَمَثَلِ رَاكِبِ الْبَحْرِ، وَقَدْ خَبَّ[١]؛ فَعِنْدَهُ شُغْلٌ إِلَىٰ أَنْ يُوقِنَ بِالنَّجَاةِ.

وَإِنَّمَا كَانَ بَعْضُهُمْ يَدْعُو لِبَعْضٍ، وَيَسْتَفِيدُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُمْ رَكْبٌ تَصَاحَبُوا فَتَوَادُّوا، فَالأَيَّامُ وَاللَّيَالِي مَرَاحِلُهُمْ إِلَىٰ سَفَرِ الْجَنَّةِ.

*[٢٢١ - ٣٣٦] [خَاطِرَةٌ]:

[أَكْثَرُ الأَصْدِقَاءِ حُسَّادٌ]

رَأَيْتُ نَفْسِي تَأْنَسُ بِخُلَطَاءَ نُسَمِّيهِمْ أَصْدِقَاءَ، فَبَحَثْتُ بِالتَّجَارِبِ عَنْهُمْ؛ فَإِذَا أَكْثَرُهُمْ حُسَّادٌ عَلَىٰ النِّعَمِ، وَأَعْدَاءٌ، لا يَسْتُرُونَ زَلَّةً، وَلا يَعْرِفُونَ لِجَلِيسٍ حَقًّا، وَلا يُوَاسُونَ مِنْ مَالِهِمْ صَدِيقًا.

فَتَأَمَّلْتُ الأَمْرَ؛ فَإِذَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَغَارُ عَلَىٰ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ شَيْئًا يَأْنَسُ بِهِ؛ فَهُوَ يُكَدِّرُ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَأَهْلَهَا؛ لِيَكُونَ أُنْسُهُ بِهِ.

فَيَنْبَغِي أَنْ يَعُدَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ مَعَارِفَ، لَيْسَ فِيهِمْ صَدِيقٌ، بَلْ تَحْسَبُهُمْ أَعْدَاءً، وَلا تُظْهِرُ سِرَّكَ لِمَخْلُوقٍ مِنْهُمْ، وَلا تَعُدَّنَّ مَنْ يَصْلُحُ لِشِدَّةٍ لا وَلَدًا وَلَا أَخًا وَلَا صَدِيقًا.

بَلْ عَامِلْهُمْ بِالظَّاهِرِ، وَلا تُخَالِطْهُمْ إِلَّا حَالَةَ الضَّرُورَةِ بِالتَّوَقِّي لَحْظَةً، ثُمَّ انْفِرْ عَنْهُمْ، وَأَقْبِلْ عَلَىٰ شَأْنِكَ؛ مُتَوَكِّلًا عَلَىٰ خَالِقِكَ؛ فَإِنَّهُ لا يَجْلِبُ الْخَيْرَ سِوَاهُ، وَلا يَصْرِفُ السُّوءَ إِلَّا إِيَّاهُ. فَلْيَكُنْ جَلِيسَكَ وَأَنِيسَكَ، وَمَوْضِعَ تَوَكُّلِكَ وَشَكْوَاكَ.

فَإِنْ ضَعُفَ بَصَرُكَ؛ فَاسْتَغِثْ بِهِ، وَإِنْ قَلَّ يَقِينُكَ؛ فَسَلْهُ الْقُوَّةَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَمِيلَ إِلَىٰ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّهُ غَيُورٌ، وَأَنْ تَشْكُوَ مِنْ أَقْدَارِهِ، فَرُبَّمَا لَمْ يَحْتَمِلْ[٢].

أَوْحَىٰ اللهُ ﷻ إِلَىٰ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ خَلَّصَكَ مِنَ الْجُبِّ؟ مَنْ فَعَلَ؟ مَنْ فَعَلَ؟ قَالَ:

(١) خَبَّ: هَاجَ وَمَاجَ واضطَرَبَ.

(٢) لَمْ يَحْتَمِلْ، أَيْ: لَم يَصْبِر عَلَيْكَ ولَمْ يُمْهِلْكَ حَتَّىٰ تَتُوبَ وَتَعْتَذِر إِلَيْهِ.

أَنْتَ. قَالَ: فَلِمَ ذَكَرْتَ غَيْرِي؟ فَلَأُطِيلَنَّ حَبْسَكَ»! أَوْ كَمَا قَالَ[(١)].

هَذَا، وَإِنَّمَا تَعَرَّضَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَبَبٍ مُبَاحٍ: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[يُوسُفُ: ٤٢][(٢)].

-[(٣)]- ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[التَّوْبَةُ: ٢٥].

وَمَا أَعْرِفُ الْعَيْشَ إِلَّا لِمَنْ يَعْرِفُهُ وَيَعِيشُ مَعَهُ[(٤)]، وَيَتَأَدَّبُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي حَرَكَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ، كَأَنَّهُ يَرَاهُ، وَيَقِفُ عَلَىٰ بَابِ طَرَفِهِ حَارِسًا مِنْ نَظْرَةٍ لَا تَصْلُحُ، وَعَلَىٰ بَابِ لِسَانِهِ حَافِظًا لَهُ مِنْ كَلِمَةٍ لَا تَحْسُنُ، وَعَلَىٰ بَابِ قَلْبِهِ حِمَايَةً لِمَسْكَنِهِ مِنْ دُخُولِ الْأَغْيَارِ، وَيَسْتَوْحِشُ مِنَ الْخَلْقِ شُغْلًا بِهِ[(٥)]، وَهَذَا يَكُونُ عَلَىٰ سِيرَةِ الرَّوْحَانِيِّينَ[(٦)].

فَأَمَّا الْمُخَلِّطُ؛ فَالْكَدَرُ غَالِبٌ عَلَيْهِ[(٧)]. وَالْمُحِقُّ لَا يَطْلُبُ إِلَّا الْأَرْفَعَ.

قَالَ الْقَائِلُ[(٨)]:

أَلَا لَا أُحِبُّ السَّيْرَ إِلَّا مُصَاعِدًا ... وَلَا الْبَرْقَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ يَمَانِيَا

---

(١) رواه ابن المقرئ في «معجمه»(١٦٢): عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «أَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ يُوسُفَ، يَا يُوسُفُ: مَنْ نَجَّاكَ مِنَ الْقَتْلِ؟» والسيوطي في «الدر المنثور»(ج٤/ ص٤٨/ يوسف:٤٢): «عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «أوحىٰ إِلَىٰ يُوسُف: مَن استَنْقَذَكَ».

(٢) تُرَاجِع الخَاطِرَة رَقْم:[٤١-٦٧]، وَفِيهَا قَالَ الإمَام ابْن الجَوْزِي رحمه الله: «وَكَذَلِكَ قَوْلُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلسَّاقِي: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، فَعُوقِبَ بِأَنْ لَبِثَ سَبْعَ سِنِينَ، وَإِنْ كَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا خَلَاصَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ، وَأَنَّ التَّعَرُّضَ بِالأَسْبَابِ مَشْرُوعٌ؛ غَيْرَ أَنَّ الغَيْرَةَ أَثَّرَتْ فِي العُقُوبَةِ».

(٣) وَكَذَلِكَ تَعَرَّضَ الصَّحَابَة رضي الله عنهم بِسَبَبٍ مُبَاحٍ، وَهُوَ قَوْلهم: «لَنْ نُغلَبَ اليَوْمَ مِن قِلَّةٍ».

(٤) «الهاء» فِي قَوْلِهِ: «يَعْرِفُهُ» وَ«مَعَهُ» تَعُودُ إِلَيْهِ جَلَّ شَأْنُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(٥) وَقَد يَدْخُل هَذَا الكَلَام تَحتَ قَوْل النَّبِيِّ ﷺ: «الإِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَىٰ، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَىٰ، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَىٰ، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ».

رواه الترمذي في «جامعه» كِتَابُ «صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ»(٢٤٥٨). عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه.

(٦) الرُّوحَانِيُّون الأَخْيَار هُمُ المَلَائِكَة عليهم السلام؛ لِأَنَّهُم لَا غَرَضَ لَهُم فِي شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا.

(٧) المُخَلِّطُ، أي: الَّذِي يَفْعَل الحَسَنَات وَالسَّيِّئَاتِ، يَمْزُج بَيْنَهُمَا. وَالْكَدَرُ، أي: الهَمّ وَالغَمّ وَالمَتَاعِب.

(٨) البيت من البحر: [الطويل]، وقائله: قَيْسِ بْنِ المُلَوَّحِ.

*[٢٢٢ - ٣٥٧][خَاطِرَةٌ]:

[التَّحَاسُدُ مَصْدَرُ عَدَاوَةِ الأَقَارِبِ]

عَدَاوَةُ الأَقَارِبِ صَعْبَةٌ، وَرُبَّمَا دَامَتْ، كَحَرْبِ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ ابْنَيْ وَائِلَ، وَعَبْسٍ وَذُبْيَانَ ابْنَيْ بَغِيضٍ، وَالأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ابْنَيْ قَيْلَةَ[١].

قَالَ الْجَاحِظُ: «رَكَدَتْ هَذِهِ الْحَرْبُ أَرْبَعِينَ عَامًا»[٢].

وَالسَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الأَقَارِبِ يَكْرَهُ أَنْ يَفُوقَهُ قَرِيبُهُ، فَيَقَعَ التَّحَاسُدُ.

فَيَنْبَغِي لِمَنْ فُضِّلَ عَلَىٰ أَقَارِبِهِ أَنْ يَتَوَاضَعَ لَهُمْ، وَيَرْفَعَهُمْ جَهْدَهُ، وَيَرْفُقَ بِهِمْ؛ لَعَلَّهُ يَسْلَمُ[٣].

قَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: لِي أَقَارِبُ أَصِلُهُمْ فَيَقْطَعُونِي؟ فَقَالَ: «فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، وَلَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ مَا دُمْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ»[٤].

*[٢٢٣ - ٣٤٦][خَاطِرَةٌ]:

[إِنْ أَرَدْتَ الْعَيْشَ؛ فَابْعُدْ عَنِ الْحَسُودِ]

الْعُزْلَةُ عَنِ الْخَلْقِ سَبَبُ طِيبِ الْعَيْشِ، وَلَابُدَّ مِنْ مُخَالَطَةٍ بِمِقْدَارٍ.

---

(١) تُعَدُّ مِنْ أَطْوَلِ الْحُرُوبِ الَّتِي خَاضَهَا الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. [«الكامل» لابن الأثير. (ج١/ ص٣٩١، ٤٤٩، ٥١٦-٥٤١)].

(٢) الْجَاحِظُ أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ الْبَصْرِيُّ، الْمُعْتَزِلِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيفِ. مَاتَ: (٢٥٠ أو ٢٥٥هـ). رَكَدَتْ: دَارَتْ.

(٣) وَلله درّ الْقَائِلِ: وَظُلْمُ ذَوِي الْقُرْبَىٰ أَشَدُّ مَضَاضَةً ** عَلَىٰ النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ.

(٤) رواه مسلم، كِـ: «الْبِرِّ وَالصِّلَةِ» (٢٥٥٨). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ». وَ«تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ»؛ أَيِ: تَرمِي التُّرَاب وَالرَّمَاد المَحمِي فِي وُجُوهِهِم أَوْ تُطْعِمُهُمُ الْجَمْرَ. يَعْنِي: أَنَّ عَطاءَك إِيَّاهُمْ حَرَامٌ عَلَيْهِمْ، وَنارٌ فِي بُطُونِهم.

فَدَارِ الْعَدُوَّ وَاسْتَحِلَّهُ[(١)]؛ فَرُبَّمَا كَادَكَ فَأَهْلَكَكَ!

وَأَحْسِنْ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ! وَاسْتَعِنْ عَلَىٰ أُمُورِكَ بِالْكِتْمَانِ[(٢)]!

وَلْتَكُنِ النَّاسُ عِنْدَكَ مَعَارِفَ، فَأَمَّا أَصْدِقَاءَ؛ فَلَا؛ لِأَنَّ أَعَزَّ الْأَشْيَاءِ وُجُودُ صَدِيقٍ.

ذَاكَ أَنَّ الصَّدِيقَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي مَرْتَبَةٍ مُمَاثِلٍ؛ فَإِنْ صَادَفْتَهُ عَامِّيًّا، لَمْ تَنْتَفِعْ بِهِ؛ لِسُوءِ أَخْلَاقِهِ، وَقِلَّةِ عِلْمِهِ وَأَدَبِهِ، وَإِنْ صَادَفْتَ[(٣)] مُمَاثِلًا أَوْ مُقَارِبًا؛ حَسَدَكَ، وَإِذَا كَانَ لَكَ يَقَظَةٌ؛ تَلَمَّحْتَ مِنْ أَفْعَالِهِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ حَسَدِكَ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[مُحَمَّد:٣٠]، وَإِذَا أَرَدْتَ تَأْكِيدَ ذَلِكَ؛ فَضَعْ عَلَيْهِ مَنْ يَضَعُكَ عِنْدَهُ[(٤)]؛ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِ إِلَّا بِمَا فِي قَلْبِهِ.

فَإِنْ أَرَدْتَ الْعَيْشَ؛ فَابْعُدْ عَنِ الْحَسُودِ؛ لِأَنَّهُ يَرَىٰ نِعْمَتَكَ؛ فَرُبَّمَا أَصَابَهَا بِالْعَيْنِ!

فَإِنِ اضْطُرِرْتَ إِلَىٰ مُخَالَطَتِهِ؛ فَلَا تُفْشِ لَهُ سِرَّكَ، وَلَا تُشَاوِرْهُ، وَلَا يَغُرَّنَّكَ تَمَلُّقُهُ لَكَ[(٥)]، وَلَا مَا يُظْهِرُهُ مِنَ الدِّينِ وَالتَّعَبُّدِ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَغْلِبُ الدِّينَ!

وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّ قَابِيلَ أَخْرَجَهُ الْحَسَدُ إِلَىٰ الْقَتْلِ![(٦)]. وَأَنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ بَاعُوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ!. وَكَانَ أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ الْعُقَلَاءِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ مِنَ الرُّؤَسَاءِ[(٧)]،

---

(١) أَي: سأله أن يُحِلَّه وَيَصفح عَنْهُ.

(٢) كَأَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ يُشِيرُ إِلَىٰ قوله ﷺ: «وَأَحْسِنْ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ»، رواه ابن الأعرابي في «معجمه»(١٥٧). وقوله ﷺ: «اسْتَعِينُوا عَلَىٰ إِنْجَاحِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكِتْمَانِ». رواه الطبراني في «الصغير»(١١٨٦). تُراجع الخاطرة: [١٦-١٨٦].

(٣) صَادَفَ يُصَادِفُ، مُصَادَفَةً؛ أَي: لَاقَاهُ وَوَجَدَهُ مِنْ غَيْرِ مَوْعِدٍ وَلَا قَصدٍ.

(٤) يَضَعُكَ عِنْدَهُ؛ أَي: يَحُطُّ مِنْ قَدرِكَ عِنْدَهُ، وَيُقَلِّلُ مِنْ شَأْنِكَ، وَحَطُّهُ عَكس رَفعَهُ.

(٥) تَمَلُّقُهُ لَكَ؛ أَي: تَوَدُّدِهِ إِلَيْكَ مِنْ لِيِّنِ الْكَلَامِ وَالتَّذَلُّلِ؛ حَيْثُ يُبْدِي لَكَ مِنَ الْوُدِّ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ.

(٦) يُشِيرُ رَحِمَهُ اللهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ...﴾[المائدة:٢٧-٣٠].

(٧) أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ عَمْرو بن صَيفِي الْأَوْسِي، كَانَ يَذْكُر البَعث وَدِيْن الحَنِيفِيَّة، وَلَمَّا ظَهَرَ النَّبِيُّ ﷺ حَسَدَهُ وَعَانَدَهُ. مَاتَ: (٩هـ). وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ الخَزْرَجِيّ، رَأْسُ الْمُنَافِقِيْن، مَشْهُور بِابْنِ سَلُوْل جَدَّته لِأَبِيْهِ. كَانَ سَيِّدُ الخَزْرَج فِي جَاهِلِيَّتِهِم. وَأَظْهَرَ الإِسْلَام بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، تَقِيَّة. مَاتَ سَنَةَ: (٩هـ).

أَخْرَجَهُمَا حَسَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ النِّفَاقِ، وَتَرْكِ الصَّوَابِ.

وَلا يَنْبَغِي أَنْ تَطْلُبَ لِحَاسِدِكَ عُقُوبَةً أَكْثَرَ مِمَّا فِيهِ؛ فَإِنَّهُ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ مُتَّصِلٍ، لا يُرْضِيهِ إِلَّا زَوَالُ نِعْمَتِكَ، وَكُلَّمَا امْتَدَّتْ؛ امْتَدَّ عَذَابُهُ؛ فَلَا عَيْشَ لَهُ!

وَمَا طَابَ عَيْشُ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَّا حِينَ نُزِعَ الْحَسَدُ وَالْغِلُّ مِنْ صُدُورِهِمْ، وَلَوْلا أَنَّهُ نُزِعَ؛ تَحَاسَدُوا، وَتَنَغَّصَ عَيْشُهُمْ[١].

---

*[٣٥٨ - ٢٢٤][خَاطِرَةٌ]:

[الْمُؤمنُ العاقِلُ لا يلتفِتُ إلى حاسِدِهِ]

رَأَيْتُ كِلابَ الصَّيْدِ؛ إِذَا مَرَّتْ بِكِلَابِ الْمَحَلَّةِ[٢]؛ نَبَحَتْهَا هَذِهِ، وَبَالَغَتْ، وَأَسْرَعَتْ خَلْفَهَا، وَكَأَنَّهَا تَرَاهَا مُكَرَّمَةً مُجَلَّلَةً[٣]، فَتَحْسُدُهَا عَلَىٰ ذَلِكَ!

وَرَأَيْتُ كِلابَ الصَّيْدِ حِينَئِذٍ لا تَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، وَلَا تُعِيرُهَا الطَّرْفَ[٤]، وَلا تَعُدُّ نُبَاحَهَا شَيْئًا!

فَرَأَيْتُ أَنَّ كِلابَ الصَّيْدِ كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ تِلْكَ الْكِلَابِ؛ لِأَنَّ تِلْكَ غَلِيظَةُ الْبَدَنِ، كَثِيفَةُ الأَعْضَاءِ، لَا أَمَانَةَ لَهَا.

وَهَذِهِ لَطِيفَةٌ، دَقِيقَةُ الْخِلْقَةِ، وَمَعَهَا آدَابٌ قَدْ نَاسَبَتْ خِلْقَتَهَا اللَّطِيفَةَ، وَأَنَّهَا تَحْبِسُ الصَّيْدَ عَلَىٰ مَالِكِهَا خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، أَوْ مُرَاعَاةً لِشُكْرِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهَا.

---

(١) كَأَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ يُشِيرُ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: ﷺ: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَىٰ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا». رواه البخاري، ك: «الرِّقَاقِ» ب: «الْقِصَاصِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٦٥٣٥).

(٢) الْمَحَلَّةُ: مَنْزِلُ الْقَوْمِ؛ أَيِ: الْمَنَازِلُ الْمَسْكُونَةُ.

(٣) مُجَلَّلَةٌ: مُعَظَّمَةٌ.

(٤) وَلا تُعِيرُهَا الطَّرْفَ؛ أَيْ: لَا تُبَالِي بِهِ، وَالطَّرْفُ: تَحْرِيكُ الْجَفْنِ، وَعَبَّرَ عَنِ النَّظَرِ؛ لِأَنَّ تَحْرِيكَ الْجَفْنِ يُلَازِمُهُ.

فَرَأَيْتُ أَنَّ الأَدَبَ وَحُسْنَ الْعِشْرَةِ يَتْبَعُ لَطَافَةَ الْبَدَنِ، وَصَفَاءَ الرُّوحِ.

وَهَكَذَا الْمُؤْمِنُ الْعَاقِلُ؛ لا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ حَاسِدِهِ، وَلا يَعُدُّهُ شَيْئًا؛ إِذْ هُوَ فِي وَادٍ، وذَاكَ فِي وَادٍ، وَذَاكَ يَحْسُدُهُ عَلَىٰ الدُّنْيَا، وَهَذَا هِمَّتُهُ الآخِرَةُ؛ فَيَا بُعْدَ مَا بَيْنَ الْوَادِيَيْنِ!

*[٢٢٥ - ٢٢٣][خَاطِرَةٌ]:

[التجلُّدُ عندَ المَصائبِ، والحَذرُ منْ إصابةِ العيْنِ]

قَدْ رُكِّبَ فِي الطِّبَاعِ حُبُّ التَّفْضِيلِ عَلَىٰ الْجِنْسِ؛ فَمَا أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أَعْلَىٰ دَرَجَةً مِنْ غَيْرِهِ.

فَإِذَا وَقَعَتْ نَكْبَةٌ أَوْجَبَتْ نُزُولَهُ عَنْ مَرْتَبَةِ سِوَاهُ؛ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَجَلَّدَ بِسَتْرِ تِلْكَ النَّكْبَةِ؛ لِئَلَّا يُرَىٰ بِعَيْنِ نَقْصٍ، وَلْيَتَجَمَّلِ الْمُتَعَفِّفُ حَتَّىٰ لَا يُرَىٰ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ، وَلْيَتَحَامَلِ الْمَرِيضُ لِئَلَّا يَشْمَتَ بِهِ ذُو الْعَافِيَةِ[1].

وَقَدْ قَالَ ﷺ لِأَصْحَابِهِ حِينَ قُدُومِهِ مَكَّةَ؛ وَقَدْ أَخَذَتْهُمُ الْحُمَّىٰ، فَخَافَ أَنْ يَشْمَتَ بِهِمُ الأَعْدَاءُ حِينَ ضَعْفِهِمْ عَنِ السَّعْيِ، فَقَالَ: «رَحِمَ اللهُ مَنْ أَظْهَرَ مِنْ نَفْسِهِ الْجَلَدَ»[2]، فَرَمَلُوا - وَالرَّمَلُ: شِدَّةُ السَّعْيِ -. وَزَالَ ذَلِكَ السَّبَبُ، وَبَقِيَ الْحُكْمُ؛ لِيَتَذَكَّرَ السَّبَبَ، فَيَفْهَمَ مَعْنَاهُ[3].

---

(١) وَلْيَتَجَمَّلِ الْمُتَعَفِّفُ؛ أَيْ: وَلْيَظْهَر بِمَا يَجمُل؛ فَيَصْبِر وَلَا يُظْهِر عَلَىٰ نَفْسِهِ الْمَسْكَنَةَ وَالذُّلَّ. وَلْيَتَحَامَلِ الْمَرِيضُ؛ أَيْ: اِسْتَحمَل وَتَجَلَّدَ وَصَبَرَ وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَشَقَّة.

(٢) لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ بِهَذَا اللَّفْظ فِيمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْمَصَادِرِ، وَقَد ثَبَتَ فِعل النَّبِيِّ ﷺ هَذَا مَعَ صَحَابَتِهِ ﷺ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحَادِيثِ، أَذْكُر مِنْهَا عَلَىٰ سَبِيلِ المِثَالِ مَا رَوَاهُ الشَّيْخَان عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: «قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مَكَّةَ، وَقَدْ وَهَنَتْهُمْ حُمَّىٰ يَثْرِبَ، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ غَدًا قَوْمٌ قَدْ وَهَنَتْهُمُ الْحُمَّىٰ، وَلَقُوا مِنْهَا شِدَّةً، فَجَلَسُوا مِمَّا يَلِي الْحِجْرَ، وَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ، وَيَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، لِيَرَىٰ الْمُشْرِكُونَ جَلَدَهُمْ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الْحُمَّىٰ قَدْ وَهَنَتْهُمْ، هَؤُلَاءِ أَجْلَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا» رواه البخاري، كِ: «المَغَازِي» بَ: «عُمْرَةِ الْقَضَاءِ» (٤٢٥٦). ومسلم، كِ: «الْحَجِّ» بَ: «اسْتِحْبَابِ الرَّمَلِ» (١٢٦٦).

(٣) وَقَد قَالَ عُمَر ﷺ: «فِيمَ الرَّمَلَانُ الْيَوْمَ وَالْكَشْفُ عَنِ الْمَنَاكِبِ وَقَدْ أَطَّأَ اللهُ الإِسْلَامَ - أَثبَتَهُ وَأَحكَمَهُ - وَنَفَي الْكُفْرَ وَأَهْلَهُ =

وَاسْتَأْذَنُوا عَلَىٰ مُعَاوِيَةَ[١]، وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: أَجْلِسُونِي! فَقَعَدَ مُتَمَكِّنًا يُظْهِرُ الْعَافِيَةَ، فَلَمَّا خَرَجَ الْعُوَّادُ، أَنْشَدَ[٢]:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُو	أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا	أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

وَمَا زَالَ الْعُقَلاءُ يُظْهِرُونَ التَّجَلُّدَ عِنْدَ الْمَصَائِبِ وَالْفَقْرِ وَالْبَلاءِ؛ لِئَلَّا يَتَحَمَّلُوا مَعَ النَّوَائِبِ شَمَاتَةَ الْأَعْدَاءِ -وَإِنَّهَا الأَشَدُّ مِنْ كُلِّ نَائِبَةٍ-... وَكَانَ فَقِيرُهُمْ يُظْهِرُ الْغِنَىٰ، وَمَرِيضُهُمْ يُظْهِرُ الْعَافِيَةَ.

بَلَىٰ، ثُمَّ نُكْتَةٌ يَنْبَغِي التَّفَطُّنُ لَهَا: رُبَّمَا أَظْهَرَ الْإِنْسَانُ كَثْرَةَ الْمَالِ، وَسُبُوغَ النِّعَمِ[٣]، فَأَصَابَهُ عَدُوُّهُ بِالْعَيْنِ، فَلَا يَفِي مَا تَبَجَّحَ بِهِ بِمَا يُلاقِي مِنَ انْعِكَاسِ النِّعْمَةِ!

وَالْعَيْنُ لا تُصِيبُ إِلَّا مَا يُسْتَحْسَنُ، وَلا يَكْفِي الاسْتِحْسَانُ فِي إِصَابَةِ الْعَيْنِ حَتَّىٰ يَكُونَ مِنْ حَاسِدٍ، وَلا يَكْفِي ذَلِكَ حَتَّىٰ يَكُونَ مِنْ شِرِّيرِ الطَّبْعِ؛ فَإِذَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ،

= مَعَ ذَلِكَ لا نَدَعُ شَيْئًا كُنَّا نَفْعَلُهُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ». رواه أبو داود، ك:«المناسك»(١٨٨٧). وابن ماجة، ك:«المناسك»(٢٩٥٢). وَالرَّمَلِ: إِسْرَاع المَشْي مَعَ تَقَارُب الخُطَىٰ دُونَ العَدو، عِنْدَ الشافعي. وَعِنْدَ الحَنَفِيَّة: أَنْ يَهُز فِي مَشْيِهِ كَتِفَيهِ كَالمُبَارِز المُتَبَختِر بَيْنَ الصَّفَين. وَالرَّمَل في الأَطوَاف الثَّلاثَة الأُول سُنَّة عِندَ الجُمهُور

(١) مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ صَخرِ بنِ حَرْبِ الأَمَوِيُّ القُرَشِيُّ، أَمِيرُ المُؤمِنِيْنَ، وَخَالُ المُؤمِنِيْنَ. تُوفِيَ سَنَةَ:(٦٠هـ).

(٢) الْبَيْتَان مِنَ الْبَحرِ:[الكَامِلِ]، وَالقَائِل: أَبُو ذُؤَيْب الهُذَلِيّ. وَ«الْعُوَّادُ»: الزَّائِرُوْنَ. وَ«رَيْبُ الدَّهْر»: صُرُوفُه وَنَوَائِبُهُ وَمَصَائِبُهُ. وَ«تَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ»: التَّجَلُّد: التَّصَبُّرُ وَالتَّحَلِّي بِالثَّبَاتِ وَالرِّضَا بِالْقَدَرِ وَلَم أَجْزَعْ. وَ«أَتَضَعْضَعُ»: ضَعُفَ وَخَفَّ جِسْمُه مِنْ مَرَضٍ أَوْ حُزن وَنَحوَهمَا. وَ«الْمَنِيَّةُ»: الْمَوت. وَ«أَنْشَبَتْ»: عَلِقَ بِهِ. وَ«أَلْفَيْتَ»: وَجَدت. وَ«تَمِيمَةٍ»: خَرَزَة وَمَا يُشْبِهها تُعَلَّق فِي العُنُقِ ظَنًّا أَنَّهَا تَدفَعُ الْعَيْنَ، وَفِي الحَدِيْثِ:«مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فَلا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً، فَلا وَدَعَ اللهُ لَهُ».«مُسْتَدرَك الحَاكِم»(٧٥٠١). وَالْخَبَرُ فِي «السِّيَر» لِلذَّهَبِيّ.(ج٣/ ص١٦٠/ ت: معاوية)،«الكَامِل» لِابْن الأَثِير.(ج٣/ ص٣٦٩/ سنة:٦٠هـ) وفيه:«وَلَمَّا اشْتَدَّتْ عِلَّتُهُ وَأُرْجِفَ بِهِ قَالَ لِأَهْلِهِ: احْشُوا عَيْنِي إِثْمِدًا وَادْهُنُوا رَأْسِي. فَفَعَلُوا وَبَرَّقُوا وَجْهَهُ بِالدُّهْنِ ثُمَّ مُهِّدَ لَهُ فَجَلَسَ وَأَذِنَ لِلنَّاسِ، فَسَلَّمُوا قِيَامًا وَلَمْ يَجْلِسْ أَحَدٌ، فَلَمَّا خَرَجُوا عَنْهُ قَالُوا: هُوَ أَصَحُّ النَّاسِ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ...».

(٣) سُبُوغَ النِّعَمِ: تَمَامُهَا وَسَعَتُهَا.

خِيفَ مِنْ إِصَابَةِ الْعَيْنِ[١].

فَلْيَكُنْ الْإِنْسَانُ مُظْهِرًا لِلتَّجَمُّلِ مِقْدَارَ مَا يَأْمَنُ إِصَابَةَ الْعَيْنِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ فِي خَيْرٍ، وَلْيَحْذَرْ الْإِفْرَاطَ فِي إِظْهَارِ النِّعَمِ؛ فَإِنَّ الْعَيْنَ هُنَاكَ مَحْذُورَةٌ.

وَقَدْ قَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ ﷺ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾[يُوسُفُ: ٦٧]، وَإِنَّمَا خَافَ عَلَيْهِمُ الْعَيْنَ.

فَلْيُفْهَمْ هَذَا الْفَصْلُ؛ فَإِنَّهُ يَنْفَعُ مَنْ لَهُ تَدَبُّرٌ.

*[٢٢٦ - ٣٤١][خَاطِرَةٌ]:

[عَلَيْكَ بِكِتْمَانِ سِرِّكَ]

لا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُظْهِرَ سِرًّا حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَنَّهُ إِذَا ظَهَرَ لا يَتَأَذَّىٰ بِظُهُورِهِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّبَبَ فِي بَثِّ السِّرِّ طَلَبُ الِاسْتِرَاحَةِ بِبَثِّهِ، وَذَلِكَ أَلَمٌ قَرِيبٌ؛ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ.

(١) هَذَا كَلَامٌ صَحِيحٌ فِيمَن اِجْتَمَعَت فِيهِ خِصَال الشَّرّ؛ وَلَكِن قَد يَقَع الحَسَد مِنْ إِنْسَانٍ طَبِيعِي رُغْمًا عَنْهُ، بَلْ قَدْ يَقَعُ الحَسَد مِنَ الإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ، وَهُوَ لَا يَشْعُر؛ لِذَلِكَ عَلَّمَنَا رَسُولنَا ﷺ كَيْفِيَّةَ الخُرُوج مِنْ هَذَا الدَّاء، وَكَيْفِيَّةَ العِلَاج إِنْ وَقَعَ ذَلِكَ؛ فَفِي الْحَدِيْث الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَد في «الْمُسْنَد»(١٥٧٠٠)، وَابْن مَاجَةَ فِي «سُنَنِهِ»(٣٥٠٩)، وَابْن حِبَّان،(٦١٠٥). عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: «مَرَّ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ رضي الله عنه بِسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ رضي الله عنه وَهُوَ يَغْتَسِلُ»، «فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، وَلَا جِلْدَ عَذْرَاءَ»، «- وَكَانَ سَهْلٌ رَجُلًا أَبْيَضَ، حَسَنَ الْجِسْمِ وَالْجِلْدِ -»، «قَالَ: فَوُعِكَ سَهْلٌ مَكَانَهُ، وَاشْتَدَّ وَعْكُهُ»، «فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ لَكَ فِي سَهْلٍ؟، وَاللهِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَمَا يُفِيقُ»، «فَأَتَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ»، «فَقَالَ: «هَلْ تَتَّهِمُونَ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ؟»، «فَأَخْبَرَهُ سَهْلٌ بِالَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ عَامِرٍ»، «فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامِرًا، فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ وَقَالَ: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟»، «إِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ، فَلْيَدْعُ بِالْبَرَكَةِ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ»، «ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَاءٍ»، «ثُمَّ قَالَ لِعَامِرٍ: «تَوَضَّأْ لَهُ»، «اغْتَسِلْ لَهُ»، «فَغَسَلَ عَامِرٌ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، وَرُكْبَتَيْهِ وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ -مَوْضِعَ الْإِزَارِ مِنَ الْجَسَدِ- فِي قَدَحٍ، ثُمَّ صُبَّ ذَلِكَ الْمَاءُ عَلَيْهِ، يَصُبُّهُ رَجُلٌ عَلَىٰ رَأْسِهِ وَظَهْرِهِ مِنْ خَلْفِهِ، يُكْفِئُ الْقَدَحَ وَرَاءَهُ»، «فَرَاحَ سَهْلٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ».

فَرُبَّ مُظْهِرٍ سِرٌّ لِزَوْجَتِهِ؛ فَإِذَا طُلِّقَتْ بَثَّتْهُ وَهَلَكَ، أَوْ لِصَدِيقِهِ، فَيُظْهِرُ عَلَيْهِ حَسَدًا لَهُ، إِذَا كَانَ مُمَاثِلًا، وَإِنْ كَانَ عَامِّيًا؛ فَالْعَامِّيُّ أَحْمَقُ.

وَرُبَّ سِرٍّ أُظْهِرَ فَكَانَ سَبَبَ الْهَلَاكِ.

*[٢٢٧ - ٣٠٢] [خَاطِرَةٌ]:

[السَّلَامَةُ كُلُّ السَّلَامَةِ فِي كِتْمَانِ الْأَسْرَارِ]

قَدْ كَرَّرْتُ هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَهُوَ الْأَمْرُ بِحِفْظِ السِّرِّ، وَالْحَذَرُ مِنَ الِانْبِسَاطِ فِيمَا لَا يَصْلُحُ بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ.

فَرُبَّ مُنْبَسِطٍ - بَيْنَ يَدَيْ مَنْ يَظُنُّهُ صَدِيقًا - يَقُولُ فِي صَدِيقٍ، أَوْ فِي سُلْطَانٍ، أَنَّهُ لَا يَهْتَمُّ فِي ذَلِكَ، فَيَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِ ذَاكَ.

فَأُوصِي السَّلِيمَ الصَّدْرِ الَّذِي يَظُنُّ فِي النَّاسِ الْخَيْرَ: بِأَنْ يَحْتَرِزَ مِنَ النَّاسِ، وَأَلَّا يَقُولَ فِي الْخَلْقِ كَلِمَةً لَا تَصْلُحُ لِلْخَلْقِ، وَلَا يَغْتَرَّ بِمَنْ يُظْهِرُ الصَّدَاقَةَ أَوِ التَّدَيُّنَ، فَقَدْ عَمَّ الْخَبَثُ.

*[٢٢٨ - ١٩٧][خَاطِرَةٌ]:

[عَلَيْكَ بِكِتْمَانِ مَذْهَبِكَ وَمَا فِي صَدْرِكَ]

يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَلَّا يَتَكَلَّمَ فِي الْخَلْوَةِ عَنْ أَحَدٍ بِشَيْءٍ، حَتَّىٰ يُمَثِّلَ[١] ذَلِكَ الشَّيْءَ ظَاهِرًا مُعْلَنًا بِهِ، ثُمَّ يَنْظُرَ فِيمَا يَجْنِي!

فَرُبَّ رَجُلٍ وَثِقَ بِصَدِيقٍ، فَتَكَلَّمَ أَمَامَهُ عَنْ سُلْطَانٍ بِأَمْرٍ، فَبَلَغَهُ، فَأَهْلَكَهُ. أَوْ عَنْ صَدِيقٍ، فَبَلَغَهُ، فَوَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ.

---

(١) حَتَّىٰ يُمَثِّلَ؛ أي: حَتَّىٰ يَتَصَوَّرَ مِثَالَهُ.

وَكَذَٰلِكَ يَنْبَغِي كَتْمُ الْمَذَاهِبِ؛ فَإِنَّهُ مَا يَرْبَحُ مُظْهِرُهَا إِلَّا الْمُعَادَاةَ.

وَلَمَّا صَرَّحَ الشَّرِيفُ أَبُو جَعْفَرٍ فِي زَمَانِ الْمُقْتَدِي[1] بِمُخَالَفَةِ الأَشَاعِرَةِ[2]؛ أُخِذَ، وَحُبِسَ حَتَّىٰ مَاتَ.

وَكَانَ الْمَقْصُودُ قَطْعَ الْفِتَنِ، وَإِصْلَاحَ الرَّعِيَّةِ؛ فَإِنَّهُ أَهَمُّ إِلَىٰ السُّلْطَانِ مِنَ التَّعَصُّبِ لِمَذْهَبٍ.

*[٢٢٩ - ٢٥٣][خَاطِرَةٌ]:

[عليك بكتمان بعض حبك واهتمامك]

مَنْ أَرَادَ اصْطِفَاءَ مَحْبُوبٍ؛ فَالْمَحْبُوبُ نَوْعَانِ:

امْرَأَةٌ يُقْصَدُ مِنْهَا حُسْنَ الصُّورَةِ؛ وَصَدِيقٌ يُقْصَدُ مِنْهُ حُسْنَ الْمَعْنَىٰ[3].

فَإِذَا أَعْجَبَتْكَ صُورَةُ امْرَأَةٍ؛ فَتَأَمَّلْ خِلَالَهَا الْبَاطِنَةَ مُدَيْدَةً[4] قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّقَ الْقَلْبُ بِهَا تَعَلُّقًا مُحْكَمًا؛ فَإِنْ رَأَيْتَهَا كَمَا تُحِبُّ - وَأَصْلُ ذَلِكَ كُلِّهِ الدِّينُ؛ كَمَا قَالَ ﷺ:«عَلَيْكَ بِذَاتِ

---

(١) الشَّرِيف أَبُو جَعْفَرٍ عبدُ الخَالِقِ بن أَبِي مُوسَىٰ عِيسَىٰ بنِ أَحْمَدَ، العَبَّاسِيُّ. كَانَ حَسَنَ الكَلَامِ فِي المُنَاظَرَةِ، وَرِعًا زَاهِدًا، مُتْقِنًا، مَاتَ:(٤٧٠هـ). وَالمُقْتَدِي بِأَمْرِ اللهِ عُبَيْدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدٍ العَبَّاسِيُّ، أَبُو القَاسِمِ، كَانَ حَسَنَ السِّيرَةِ، وَافِرَ الحُرْمَةِ. مَاتَ:(٤٨٧هـ). وَالخَبَر فِي «السير» للذهبي.(ت: أَبُو جَعْفَرٍ) وفيه:«وَأُخِذَ أَبُو جَعْفَرٍ فِي فِتْنَة ابْنِ القُشَيْرِيّ - عَبْدُ الرَّحِيمِ - وَقَعَتْ بَيْنَ الحَنَابِلَة وَالأَشْعَرِيَّة -، وَحُبِسَ أَيَّامًا، فَسَرَد الصَّوْمَ، وَمَا أكل لأحدٍ شَيْئًا، وَمَرِضَ، فَلَمَّا ثَقُلَ وَضَجَّ النَّاسُ مِنْ حَبْسِهِ، أُخرج إِلَىٰ الحرِيم، فَمَاتَ هُنَاكَ، وَكَانَتْ جِنَازَتُهُ مَشْهُودَةً».

(٢) تَقَدَّم الكَلَام عَلَىٰ مَذْهَب الأَشَاعِرَة فِي الخَاطِرَة رَقَم:[٥-١٥٩]، وَلَكِنَّنِي ذَكَرتُ لِأَبِي الحَسَن الأَشْعَرِي مَرحَلَتَيْن مِنْ مَرَاحِلِهِ فِي العَقِيْدَة، الأُولَىٰ: مَرحَلَة اعتِنَاقِ الاعتِزَال أَربَعِيْنَ عَامًا. وَالثَّانِيَة: بَيْنَ الاعتِزَال المَحض وَالسُّنَّة المَحض حَيْثُ سَلَكَ فِيهَا طَرِيق اِبْن كِلَاب. أَمَّا المَرحَلَة الثَّالِثَة الَّتِي لَم أَذْكُرهَا هِي: مَرحَلَة اعتِنَاقِهِ مَذْهَب أَهْل السُّنَّةِ وَالحَدِيث، كَمَا قَرَّرَهُ هُوَ فِي كِتَابِهِ:«الإِبَانَة عَنْ أُصُول الدِّيَانَة» وَهُوَ مِنْ آخِر كُتُبِهِ أَوْ آخِرُهَا.

(٣) يَعنِي بِـ«المَعنَىٰ» هُنَا: الأَخلَاق البَاطِنَة الحَسَنَة.

(٤) خِلَالَهَا، أَي: خِصَالَهَا وَصِفَاتَهَا. وَمُدَيْدَةً، أَي: مُدَّة قَصِيرَة.

الدِّينِ»[١]-؛ فَمِلْ إِلَيْهَا، وَاسْتَوْلِدْهَا[٢].

وَكُنْ فِي مَيْلِكَ مُعْتَدِلَ الْمَيْلِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْغَلَطِ أَنْ تُظْهِرَ لِمَحْبُوبِكَ الْمَحَبَّةَ[٣]؛ فَإِنَّهُ يَشْتَطُّ عَلَيْكَ، وَتَلْقَىٰ مِنْهُ الأَذَىٰ مِنَ التَّجَنِّي وَالْهِجْرَانِ، وَالإِدْلَالِ وَطَلَبِ الإِنْفَاقِ الْكَثِيرِ - وَإِنْ كَانَتْ تُحِبُّكَ - لِأَنَّ هَذَا إِنَّمَا يَجْتَلِبُهُ حُبُّ الإِدْلالِ وَالتَّسَلُّطِ عَلَىٰ الْمَقْهُورِ[٤].

وَثَمَّ نُكْتَةٌ عَجِيبَةٌ[٥]، وَهُوَ أَنَّكَ رُبَّمَا عَمِلْتَ بِمُقْتَضَىٰ الْحَالِ الْحَاضِرَةِ، وَهِيَ تَحْكُمُ بِكَمَالِ الْحُبِّ، ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ لَا يَثْبُتُ إِلَيْكَ، فَتَقَعُ، وَتَبْقَىٰ مَقْهُورًا، وَيَصْعُبُ عَلَيْكَ الْخَلَاصُ! وَرُبَّمَا تَمَكَّنَتْ مِنْكَ بِمَعْرِفَةِ سِرِّكَ، أَوْ بِأَخْذِ كَثِيرٍ مِنْ مَالِكَ.

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا بَلَغَنِي فِي هَذَا أَنَّ جَارِيَةً لِبَعْضِ الْخُلَفَاءِ كَانَتْ تُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا، وَلا تُظْهِرُ لَهُ ذَلِكَ، فَسُئِلَتْ عَنْ هَذَا؟ فَقَالَتْ: «لَوْ أَظْهَرْتُ مَا عِنْدِي، فَجَفَانِي، هَلَكْتُ».

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن أبي شيبة في «مصنفه» كِتَابُ «النكاح»(١٧٤٣٦). عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ خِصَالٍ ثَلَاثٍ : تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَىٰ مَالِهَا، عَلَىٰ جَمَالِهَا، تُنْكَحُ عَلَىٰ دِينِهَا، عَلَيْك بِذَاتِ الدِّينِ وَالْخُلُقِ تَرِبَتْ يَمِينُكَ». وَرَوَاهُ الشَّيْخَان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ». البخاري، كِ: «النِّكَاحِ»(٥٠٩٠). ومسلم، كِ: «الرَّضَاعِ»(١٤٦٦).

(٢) اِسْتَوْلَدَ الرَّجُلُ: طَلَبَ الْوَلَدَ. اِسْتَوْلَدَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ: أَحْبَلَهَا.

(٣) يَعْنِي: الْمَحَبَّةَ الْمُفْرِطَةَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا غَلَبَ الْحُبُّ عَلَىٰ الْقَلْبِ وَلَم يَكُنْ لَهُ رَادِعٌ مِنْ عَقْلٍ أَوْ دِينٍ أَصَمَّ عَنِ الْعَدْلِ وَأَعْمَىٰ عَنِ الرُّشْدِ. أَمَّا الْحُبُّ الْمُعْتَدِلُ الَّذِي يَكُونُ فِي اللهِ؛ فَقَدْ ثَبَتَ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ فَلْيَأْتِ فِي مَنْزِلِهِ، فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ فِي اللهِ تَعَالَىٰ» ابن المبارك في «الزهد»(٧١٢)، وللبخاري في «الأدب المفرد»(٤٢٢) عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: لَقِيَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِي مِنْ وَرَائِي. قَالَ: أَمَا إِنِي أحبك. قُلْتُ: أَحَبَّكَ اللهُ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ. فَقَالَ: لَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ أَحَبَّهُ». مَا أَخْبَرْتُكَ.

(٤) «يَشْتَطُّ»: يَظْلِمُكَ وَيَجُوْرُ عَلَيْكَ. وَ«التَّجَنِّي»: الاتِّهَامُ بِالْبَاطِلِ. وَ«الإِدْلَالِ»: أَدْلَلْتُ عَلَيْهِ وَتَدَلَّلْتُ؛ يَعْنِي: اِنْبَسَطْتُ وَتَحَكَّمْتُ. وَ«يَجْتَلِبُهُ»: يَأْتِي بِهِ. وَ«التَّسَلُّطِ»: التَّحَكُّمُ وَالسَّيْطَرَةُ. وَ«الْمَقْهُورِ»: الذَّلِيلُ الْمُضْطَرُّ، الْحَزِينُ الْمُغْتَمُّ.

(٥) «ثَمَّ»: اِسْمُ إِشَارَةٍ لِلْمَكَانِ الْبَعِيدِ بِمَعْنَىٰ «هُنَاكَ». وَ«نُكْتَةٌ»: مَسْأَلَةٌ عِلْمِيَّةٌ دَقِيقَةٌ أُخْرِجَتْ بِدِقَّةِ النَّظَرِ وَإِمْعَانِ الْفِكْرِ.

قَالَ الشَّاعِرُ[١]:

لا تُظْهِرَنَّ مَوَدَّةً لِحَبِيبِ … فَتَرَىٰ بِعَيْنِكَ مِنْهُ كُلَّ عَجِيبِ
أَظْهَرْتُ يَوْمًا لِلْحَبِيبِ مَوَدَّتِي … فَأَخَذْتُ مِنْ هِجْرَانِهِ بِنَصِيبِي

وَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكْتُمَ بَعْضَ حُبِّكَ لِلْوَلَدِ؛ لِأَنَّهُ يَتَسَلَّطُ عَلَيْكَ، وَيُضَيِّعُ مَالَكَ، وَيُبَالِغُ فِي الإِدْلَالِ، وَيَمْتَنِعُ عَنِ التَّعَلُّمِ وَالتَّأَدُّبِ.

وَكَذَلِكَ إِذَا اصْطَفَيْتَ صَدِيقًا وَخَبَرْتَهُ؛ فَلَا تُخْبِرْهُ بِكُلِّ مَا عِنْدَكَ، بَلْ تَعَاهَدْهُ بِالْإِحْسَانِ، كَمَا تَتَعَاهَدُ الشَّجَرَةَ؛ فَإِنَّهَا إِذَا كَانَتْ جَيِّدَةَ الأَصْلِ؛ حَسُنَتْ ثَمَرَتُهَا بِالتَّعَاهُدِ، ثُمَّ كُنْ مِنْهُ عَلَىٰ حَذَرٍ؛ فَقَدْ تَتَغَيَّرُ الأَحْوَالُ، وَقَدْ قِيلَ[٢]:

احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً … وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيـ … ـقُ فَكَانَ أَدْرَىٰ بِالْمَضَرَّهْ

*[٢٣٠ - ٢٥٤][خَاطِرَةٌ]:

[إذَا أَبْغَضتَ أَحدًا فاكْتم، ولا تُظهِر مِنْ أُمُورِكَ شَيْئًا]

وَأَمَّا إِذَا أَبْغَضْتَ شَخْصًا؛ فَلَا تُظْهِرَنَّ ذَلِكَ؛ فَإِنَّكَ تُنَبِّهُهُ عَلَىٰ أَخْذِ الْحَذَرِ مِنْكَ، وَتَدْعُوهُ إِلَىٰ الْمُبَارَزَةِ، فَيُبَالِغُ فِي حَرْبِكَ وَالِاحْتِيَالِ عَلَيْكَ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تُظْهِرَ لَهُ الْجَمِيلَ إِنْ قَدَرْتَ، وَتَبَرَّهُ مَا اسْتَطَعْتَ؛ فَانْكَسَرَتْ مُعَادَاتُهُ جِبِلَّةً بِالْحَيَاءِ مِنْ بُغْضِكَ[٣]؛ فَإِنْ لَمْ تُطِقْ؛ فَهَجْرٌ جَمِيلٌ، لا تُبِينُ فِيهِ مَا يُؤْذِي، وَمَتَىٰ سَمِعْتَ عَنْهُ كَلِمَةً قَذِعَةً[٤]؛ فَاجْعَلْ جَوَابَهَا كَلِمَةً جَمِيلَةً؛ فَهِيَ أَقْوَىٰ فِي كَفِّ لِسَانِهِ.

---

(١) البيتان من البحر: [الكامل]. والقائل: طلحة بن أبي بكر؛ «الزهرة» لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني. (ص/ ٨٥).

(٢) البيتان من البحر: [مجزوء الكامل]، والقائل: منصور بن إسماعيل الفقيه.

(٣) كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِذَا صَنَعْتَ لَهُ مِنْ جَمِيلِ الْخِصَالِ الَّتِي ذَكَرْتُهَا لَكَ؛ انْكَسَرَتْ مُعَادَاتُهُ جِبِلَّةً بِالْحَيَاءِ مِنْ بُغْضِكَ.

(٤) كَلِمَةً قَذِعَةً؛ أَي: فَاحِشَة. وَالقَذَعُ: الفُحْشُ مِنَ الكَلَامِ الَّذِي يَقْبُحُ ذِكْرُهُ.

وَكَذَلِكَ جَمِيعُ مَا يُخَافُ إِظْهَارُهُ؛ فَلَا تَتَكَلَّمَنَّ بِهِ؛ فَرُبَّمَا وَقَعَتْ كَلِمَةٌ أَسْقَطَتْ بِهَا عِزَّ السُّلْطَانِ، فَنُقِلَتْ إِلَيْهِ، فَكَانَتْ سَبَبَ هَلَاكِكَ، أَوْ عَنْ صَدِيقٍ، فَكَانَتْ سَبَبَ عَدَاوَتِهِ، أَوْ صِرْتَ رَهِينًا لِمَنْ سَمِعَهَا، خَائِفًا أَنْ يُظْهِرَهَا.

فَالْحَزْمُ كِتْمَانُ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ[1].

وَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكْتُمَ سِنَّكَ؛ فَإِنْ كُنْتَ كَبِيرًا؛ اسْتَهْرَمُوكَ، وَإِنْ كُنْتَ صَغِيرًا؛ اسْتَحْقَرُوكَ.

وَكَذَلِكَ مِقْدَارُ مَالِكَ؛ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ كَثِيرًا؛ نَسَبُوكَ فِي نَفَقَتِكَ إِلَى الْبُخْلِ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا؛ طَلَبُوا الرَّاحَةَ مِنْكَ.

وَكَذَلِكَ الْمَذْهَبُ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَظْهَرْتَهُ؛ لَمْ تَأْمَنْ أَنْ يَسْمَعَهُ مُخَالِفٌ، فَيَقْطَعَ بِكُفْرِكَ.

وَقَدْ أَنْشَدَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِي الْبَزَّازُ[2]:

احْفَظْ لِسَانَكَ لا تَبُحْ بِثَلاثَةٍ ... سِنٌّ وَمَالٍ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَذْهَبِ

فَعَلَى الثَّلاثَةِ تُبْتَلَى بِثَلاثَةٍ ... بِمُمَوِّهٍ وَمُمَخْرِقٍ وَمُكَذِّبِ

---

(١) وفي الحديث: «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا» ثَبَتَ مَرفُوعًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَمَوْقُوفًا عَنْ عَلِيٍّ ﷺ. «الأدب المفرد» للبخاري.(٩٩٧)، وروىٰ البغوي في «شرح السنة»(١٣/ ٦٥/ ٣٤٨١). عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ لِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «يَا أَسْلَمُ لا يَكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا، وَلا بُغْضُكَ تَلَفًا». قُلْتُ: وَكَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: «إِذَا أَحْبَبْتَ فَلا تَكْلَفْ كَمَا يَكْلَفُ الصَّبِيُّ بِالشَّيْءِ يُحِبُّهُ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ فَلا تُبْغِضْ بُغْضًا تُحِبُّ أَنْ يَتْلَفَ صَاحِبُكَ وَيَهْلِكَ». وَقَالَ الْحَسَنُ: «أَحِبُّوا هَوْنًا، وَأَبْغِضُوا هَوْنًا، فَقَدْ أَفْرَطَ أَقْوَامٌ فِي حُبِّ أَقْوَامٍ، فَهَلَكُوا، وَأَفْرَطَ أَقْوَامٌ فِي بُغْضِ أَقْوَامٍ فَهَلَكُوا».

(٢) مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِي الْبَزَّازُ قَاضِي الْمَرَسْتَانِ، الإِمَامُ، العَالِمُ، مُسْنِدُ العصرِ، أَبُو بَكْرٍ. مَاتَ سَنَةَ:(٥٣٥هـ). والبيتان من البحر:[الكامل] لأَبِي عَلِيّ بن شِبْل. مَاتَ:(٤٧٤هـ). «معجم الأدباء» للحموي.(ج٣/ ص١٣٨٢)، «عيون الأنباء» لابن أبي أصيبعة.(ص٣٣٩).

*[٣١ - ٧٨][خَاطِرَةٌ]:

[عَلَيْكَ بِالْكِتْمانِ؛ وَإِلَّا أُصِبْتَ بِالْعَيْنِ، وَالْحِرمَانِ]

يَنْبَغِي لِمَنْ تَظَاهَرَتْ نِعَمُ اللهِ ﷻ عَلَيْهِ(١)، أَنْ يُظْهِرَ مِنْهَا مَا يَبِينُ أَثَرُهَا(٢)، وَلَا يَكْشِفُ جُمْلَتَهَا، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ لَذَّاتِ الدُّنْيَا، الَّتِي يَأْمُرُ الْحَزْمُ بِتَرْكِهَا؛ فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ(٣).

وَإِنِّي تَفَقَّدْتُ النِّعَمَ، فَرَأَيْتُ إِظْهَارَهَا حُلْوًا عِنْدَ النَّفْسِ؛ إِلَّا أَنَّهَا إِنْ أُظْهِرَتْ لِوَدِيدٍ(٤)، لَمْ يُؤْمَنْ

(١) تَظَاهَرَتْ؛ أي: تَتَابَعَتْ فَصَارَ بَعْضُهَا كَالظَّهْرِ لِبَعض.

(٢) ثَبَتَ هَذَا فِي الحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أحمد في «المسند»(١٩٩٣٤)، والترمذي في «جامعه» كِتَابُ «الأدب»(٢٨١٩). عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ».

(٣) يُشِيرُ ﷺ إِلَى مَا رَوَاهُ الحاكم في «المستدرك»(٧٤٩٧) عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْتَعِيذُوا بِاللهِ تَعَالَى مِنَ الْعَيْنِ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ». ورواه البخاري، ك:«الطِّبِّ» ب:«العَيْنُ حَقٌّ»(٥٧٤٠). ومسلم، ك:«السَّلَامِ» ب:«الطِّبِّ وَالْمَرَضِ»(٢١٨٧). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«العَيْنُ حَقٌّ». زَادَ مُسْلِمٌ، (٢١٨٨)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:«وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ» قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «فتح الباري»(ج١٠/ ص٢٣٠):«-فِيهِ- تَأْكِيدٌ وَتَنْبِيهٌ عَلَى سُرْعَةِ نُفُوذِهَا وَتَأْثِيرِهَا فِي الذَّاتِ، -وَفِيهِ- إِشَارَةٌ إِلَى الرَّدِّ عَلَى مَنْ زَعَمَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ أَنَّ قَوْلَهُ:«العَيْنُ حَقٌّ» يُرِيدُ بِهِ الْقَدَرَ، أَيْ: الْعَيْنَ الَّتِي تَجْرِي مِنْهَا الأَحْكَامُ؛ فَإِنَّ عَيْنَ الشَّيْءِ حَقِيقَتُهُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الَّذِي يُصِيبُ مِنَ الضَّرَرِ بِالْعَادَةِ عِنْدَ نَظَرِ النَّاظِرِ إِنَّمَا هُوَ بِقَدَرِ اللهِ السَّابِقِ لَا بِشَيْءٍ يُحْدِثُهُ النَّاظِرُ فِي الْمَنْظُورِ. وَوَجْهُ الرَّدِّ: أَنَّ الْحَدِيثَ ظَاهِرٌ فِي الْمُغَايَرَةِ بَيْنَ الْقَدَرِ وَبَيْنَ الْعَيْنِ، وَإِنْ كُنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّ الْعَيْنَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَقْدُورِ، لَكِنْ ظَاهِرُهُ إِثْبَاتُ الْعَيْنِ الَّتِي تُصِيبُ؛ إِمَّا بِمَا جَعَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهَا مِنْ ذَلِكَ وَأَوْدَعَهُ فِيهَا، وَإِمَّا بِإِجْرَاءِ الْعَادَةِ بِحُدُوثِ الضَّرَرِ عِنْدَ تَحْدِيدِ النَّظَرِ، وَإِنَّمَا جَرَى الْحَدِيثُ مَجْرَى الْمُبَالَغَةِ فِي إِثْبَاتِ الْعَيْنِ لَا أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَرُدَّ الْقَدَرَ شَيْءٌ، إِذِ الْقَدَرُ عِبَارَةٌ عَنْ سَابِقِ عِلْمِ اللهِ، وَهُوَ لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ. وَحَاصِلُهُ: لَوْ فُرِضَ أَنَّ شَيْئًا لَهُ قُوَّةٌ بِحَيْثُ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَكَانَ الْعَيْنُ. لَكِنَّهَا لَا تُسْبَقُ فَكَيْفَ غَيْرُهَا؟ وَقَدْ أَخْرَجَ الْبَزَّارُ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«أَكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمَّتِي بَعْدَ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ بِالْأَنْفُسِ» قَالَ الرَّاوِي: يَعْنِي: بِالْعَيْنِ. -وَفِيهِ- إِثْبَاتُ الْقَدَرِ وَصِحَّةُ أَمْرِ الْعَيْنِ وَأَنَّهَا قَوِيَّةُ الضَّرَرِ»اهـ.

(٤) أَيْ: لِمُحِبٍّ وَصَاحِبِ مَوَدَّةٍ.

تَشَعُّثُ بَاطِنِهِ بِالْغَيْظِ[١]، وَإِنْ أُظْهِرَتْ لِعَدُوٍّ؛ فَالظَّاهِرُ إِصَابَتُهُ بِالْعَيْنِ، لِمَوْضِعِ الْحَسَدِ!

إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ بَعْدُ [غَيْظَ][٢] الْحَسُودِ كَاللَّازِمِ؛ فَإِنَّهُ فِي حَالِ الْبَلَاءِ يَتَشَفَّى، وَفِي حَالِ النِّعَمِ يُصِيبُ بِالْعَيْنِ.

وَلَعَمْرِي؛ إِنَّ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِ يَشْتَهِي غَيْظَ حَسُودِهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُؤْمَنُ أَنْ يُخَاطِرَ بِنِعْمَتِهِ؛ فَإِنَّ الْغَالِبَ إِصَابَةُ الْحَاسِدِ لَهَا بِالْعَيْنِ؛ فَلَا يُسَاوِي الِالْتِذَاذُ بِإِظْهَارِ مَا غِيظَ بِهِ، مَا أَفْسَدَتْ عَيْنُهُ بِإِصَابَتِهَا.

وَكِتْمَانُ الْأُمُورِ فِي كُلِّ حَالٍ فِعْلُ الْحَازِمِ:

فَإِنَّهُ إِنْ كَشَفَ مِقْدَارَ سِنِّهِ؛ اسْتَهْرَمُوهُ إِنْ كَانَ كَبِيرًا، وَاحْتَقَرُوهُ إِنْ كَانَ صَغِيرًا.

وَإِنْ كَشَفَ مَا يَعْتَقِدُهُ؛ نَاصَبَهُ الْأَضْدَادُ بِالْعَدَاوَةِ[٣].

وَإِنْ كَشَفَ قَدْرَ مَالِهِ؛ اسْتَحْقَرُوهُ إِنْ كَانَ قَلِيلًا، وَحَسَدُوهُ إِنْ كَانَ كَثِيرًا.

وَفِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ يَقُولُ الشَّاعِرُ[٤]:

احْفَظْ لِسَانَكَ لَا تَبُحْ بِثَلَاثَةٍ ... سِنٌّ وَمَالٌ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَذْهَبِ

فَعَلَى الثَّلَاثَةِ تُبْتَلَى بِثَلَاثَةٍ ... بِمُمَوِّهٍ وَمُمَخْرِقٍ وَمُكَذِّبِ

وَقِسْ عَلَى مَا ذَكَرْتُ مَا لَمْ أَذْكُرْهُ، وَلَا تَكُنْ مِنَ الْمَذَايِيعِ الْغُرِّ[٥]، الَّذِينَ لَا يَحْمِلُونَ

---

(١) تَشَعُّثُ بَاطِنِهِ بِالْغَيْظِ؛ أَيْ: تَغَيُّرُه، وَفَسَادَ بَاطِنِه عَلَيْكَ بِالْغَضَبِ وَالسُّخْط.

(٢) لَيْسَت فِي الأصلِ، وَلَا المَخْطُوط، وَأَثْبَتْنَاهَا؛ لِتَمَامِ المَعنَى بِهَا. وَكَلِمَة: «بَعْدُ» ظَرف مُبْهَم لَا يُفْهَم مَعْنَاهُ إِلَّا بالإِضَافَةِ لِمَا بَعْدَهُ، يَدُلّ عَلَى مَا هُوَ لَاحِق وَتَالٍ.

(٣) أَيْ: إِنْ كَشَفَ عَنْ عَقِيدَتِهِ؛ عَادَاه مُخَالِفُوه. ضِدّ: أَضداد بِمَعنَى: مِثْل وَنَظِير.

(٤) البيتان من البحر: [الكامل]، والقائل: أَبُو عَلِيّ الْحُسَيْن بن عبد الله بن شبل - الشِّبْلِ -. مَاتَ سَنَةَ: (٤٧٤هـ).

(٥) الْمَذَايِيع: جَمْعُ مِذْياع، وَهُوَ الَّذِي يُذِيعُ السِّرَّ لَا يَكْتُمُهُ، وَإِذَا سَمِعَ عَنْ أَحَدٍ بِفَاحِشَةٍ أَو رَآهَا مِنْهُ أَفْشَاهَا عَلَيْهِ =

أَسْرَارَهُمْ حَتَّىٰ يُفْشُوهَا إِلَىٰ مَنْ لَا يَصْلُحُ!

وَرُبَّ كَلِمَةٍ جَرَىٰ بِهَا اللِّسَانُ هَلَكَ بِهَا الْإِنْسَانُ[1].

= وَأَذَاعَهَا. وَ«الْغِرُّ»: الَّذِي لَا خِبْرَةَ لَهُ إِذَا خُدِعَ اِنْخَدَعَ.

(١) وَرَبَّ: كَلِمَةُ تَقْلِيلٍ. وَصَدَقَ الْإِمَامُ ﵀؛ فقد روىٰ البخاري، كِـ:«الرِّقَاقِ» بَـ:«حِفْظِ اللِّسَانِ»(٦٤٧٨). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:«...وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ». وروىٰ ابن حبان، كِتَابُ «الْحَظْرِ وَالْإِبَاحَةِ»(٥٧١١) عَنْ جُنْدُبٍ الْبَجَلِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». وَالدِّيْنَوَرِيُّ فِي كتاب «المجالسة»(ج٦/ ص٤٤،٤٣/ الأثر: ٢٣٥٤) عَنِ الْمُفَضَّلِ الضَّبِّيِّ؛ قَالَ:«نَزَلَ الْمُنْذِرُ فِي كَتِيبَةٍ مَوْضِعًا مُرْتَفِعًا، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَبَيْتَ اللَّعْنَ، إِنْ ذُبِحَ رَجُل هَا هُنَا إِلَىٰ أَيِّ مَوْضِعٍ يَبْلُغُ دَمُهُ فِي هَذِهِ الرَّابِيَةِ؟ قَالَ: فَتَطَيَّرَ الْمُنْذِرُ مِنْ كَلامِهِ، فَقَالَ لَهُ الْمُنْذِرُ: الْمَذْبُوحُ وَاللهِ أَنْتَ؛ فَانْظُرْ إِلَىٰ أَيْنَ يَبْلُغُ دَمُكَ. فَأَمَرَ بِذَبْحِهِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: رُبَّ كَلِمَةٍ تَقُولُ دَعْنِي». وَقَالَ الإِمَامُ الذَّهَبِيّ فِي «السير»(ت: ابْنُ السِّكِّيتِ):«وَكَانَ الْمُتَوَكِّلُ قَدْ أَلْزَمَهُ - ابْنُ السِّكِّيتِ - تَأْدِيبَ وَلَدِهِ الْمُعْتَزِّ، فَلَمَّا حَضَرَ، قَالَ لَهُ ابْنُ السِّكِّيتِ: بِمَ تُحِبُّ أَنْ تَبْدَأَ؟ قَالَ: بِالانْصِرَافِ. قَالَ: فَأَقُوْمُ. قَالَ الْمُعْتَزُّ: فَأَنَا أَخَفُّ مِنْكَ، وَبَادَرَ، فَعَثَرَ، فَسَقَطَ وَخَجِلَ. فَقَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ:

يَمُوْتُ الفَتَىٰ مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ ... وَلَيْسَ يَمُوْتُ المَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ

فَعَثْرَتُهُ بِالقَوْلِ تُذْهِبُ رَأْسَهُ ... وَعَثْرَتُهُ بِالرِّجْلِ تَبْرَا عَلَىٰ مَهْلِ»

(١٨)

[أجهل الجهلاء، وأعقل العقلاء، والأبله المغفل]

*[٣٢٣ - ١١٩][خَاطِرَةٌ]:

[مَن أجهل الجهال؟]

أَجْهَلُ الْجُهَّالِ مَنْ آثَرَ عَاجِلًا عَلَىٰ آجِلٍ لا يَأْمَنُ سُوءَ مَغَبَّتِهِ.

فَكَمْ قَدْ سَمِعْنَا عَنْ سُلْطَانٍ، وَأَمِيرٍ، وَصَاحِبِ مَالٍ أَطْلَقَ نَفْسَهُ فِي شَهَوَاتِهَا، وَلَمْ يَنْظُرْ فِي حَلَالٍ وَحَرَامٍ، فَنَزَلَ بِهِ مِنَ النَّدَمِ وَقْتَ الْمَوْتِ أَضْعَافُ مَا الْتَذَّ، وَلَقِيَ مِنْ مَرِيرِ الْحَسَرَاتِ مَا لَا يُقَاوِمُهُ وَلَا ذَرَّةً مِنْهُ[1] كُلُّ لَذَّةٍ. وَلَوْ كَانَ هَذَا فَحَسْبُ؛ لَكَفَىٰ حُزْنًا؛ كَيْفَ؛ وَالْجَزَاءُ الدَّائِمُ بَيْنَ يَدَيْهِ؟!

فَالدُّنْيَا مَحْبُوبَةٌ لِلطَّبْعِ، لَا رَيْبَ فِي ذَلِكَ، وَلا أُنْكِرُ عَلَىٰ طَالِبِهَا وَمُؤْثِرِ شَهَوَاتِهَا، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنْظُرَ فِي كَسْبِهَا، وَيَعْلَمَ وَجْهَ أَخْذِهَا؛ لِيَسْلَمَ لَهُ عَاقِبَةُ لَذَّتِهِ، وَإِلَّا؛ فَلَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ.

وَهَلْ عُدَّ فِي الْعُقَلَاءِ قَطُّ مَنْ قِيلَ لَهُ: اجْلِسْ فِي الْمَمْلَكَةِ سَنَةً، ثُمَّ نَقْتُلُكَ؟!

هَيْهَاتَ! بَلِ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ، وَهُوَ: أَنَّ الْعَاقِلَ مَنْ صَابَرَ مَرَارَةَ الْجَهْدِ سَنَةً، بَلْ سِنِينَ؛ لِيَسْتَرِيحَ فِي عَاقِبَتِهِ.

وَفِي الْجُمْلَةِ: أُفٌّ لِلَذَّةٍ أَعْقَبَتْ عُقُوبَةً!

وَقَدْ أَخْبَرَنَا[2] عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَزَّازُ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ الْخَطِيبُ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا

---

(١) جاء في الأصل:[من]، وما أثبتناه من خطوط:(ي)؛ لتمام المعنىٰ به.

(٢) رِجَال الإِسْنَاد: عَبْدُ الرَّحْمَنِ القَزَّازُ، وأَبُو بَكْرٍ الخَطِيبُ في الخاطرة:[٢٠٥-١٢٩] وَالْحَسَنُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مُحَمَّدِ بنِ
=

الْحَسَنُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ الْقَوَّاسُ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ إِسْمَاعِيلُ إِمْلَاءً؛ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي سَعْدٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الْبَلْخِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْقُوهُسْتَانِيِّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا دُلَفُ بْنُ أَبِي دُلَفٍ؛ قَالَ: «رَأَيْتُ كَأَنَّ آتِيًا أَتَى بَعْدَ مَوْتِ أَبِي، فَقَالَ: أَجِبِ الْأَمِيرَ! فَقُمْتُ مَعَهُ، فَأَدْخَلَنِي دَارَ وَحْشَةٍ، وَعِرَةٍ، سَوْدَاءَ الْحِيطَانِ، مُقَلَّعَةَ السُّقُوفِ وَالْأَبْوَابِ، ثُمَّ أَصْعَدَنِي دَرَجًا فِيهَا، ثُمَّ أَدْخَلَنِي غُرْفَةً؛ فَإِذَا فِي حِيطَانِهَا أَثَرُ النِّيرَانِ، وَإِذَا فِي أَرْضِهَا أَثَرُ الرَّمَادِ، وَإِذَا أَبِي عُرْيَانُ وَاضِعًا رَأْسَهُ بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ لِي كَالْمُسْتَفْهِمِ: دُلَفٌ؟[1] قُلْتُ: نَعَمْ؛ أَصْلَحَ اللهُ الْأَمِيرَ. فَأَنْشَأَ يَقُولُ[2]:

أَبْلِغَـنْ أَهْلَنَـا وَلَا تُخْـفِ عَـنْهُمْ ... مَـا لَقِينَـا فِـي الْبَـرْزَخِ الْخَفَّـاقِ
قَـدْ سُـئِلْنَا عَـنْ كُـلِّ مَـا قَـدْ فَعَلْنَـا ... فَـارْحَمُوا وَحْشَـتِي وَمَـا قَـدْ أُلَاقِـي

أَفَهِمْتَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. فَأَنْشَأَ يَقُولُ[3]:

فَلَـوْ أَنَّـا إِذَا مِتْنَـا تُرِكْنَـا ... لَكَـانَ الْمَـوْتُ رَاحَـةَ كُـلِّ حَـيٍّ
وَلَكِنَّـا إِذَا مُتْنَـا بُعِثْنَـا ... وَنُسْـأَلُ بَعْـدَهُ عَـنْ كُـلِّ شَـيٍّ

= الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ، الخَلَّالُ، الإمَامُ، الحَافِظُ، مَاتَ:(٤٣٩هـ). وَيُوسُفُ بنُ عُمَرَ بنِ مَسْرُورٍ البَغْدَادِيُّ، القَوَّاسُ أَبُو الفَتْحِ الإمَامُ، المُحَدِّثُ، مَاتَ:(٣٨٥هـ). وَالحُسَيْنُ بنُ إِسْمَاعِيلَ بن مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيلَ المَحَامِلِيِّ، أَبُو عَبْدِ اللهِ، مَاتَ:(٣٣٠هـ). وعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي سَعْدٍ عَمْرو بن عَبْد الرَّحمَن، أَبُو مُحَمَّدٍ الْوَرَّاقُ. كَانَ ثِقَةً صَاحِبَ أَخْبَار وَآدَاب، مَاتَ:(٢٧٤هـ). وَمُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ بنِ الوَلِيْدِ أَبُو جَعْفَرِ المُحَدِّث، أَبُو جَعْفَرِ الطَّيَالِسِيّ، مَاتَ:(٢٨٢هـ). وَدُلَفُ بْنُ أَبِي دُلَفٍ القَاسِم بْن عِيسَىٰ بْن إدريس،أَبُو عَدنَان. والخبر في «تاريخ بغداد»(١٢/ ٤١٨/ ت: أَبُو دلف).

(١) أي: أأنت دلف؟.

(٢) البيتان من البحر:[الخفيف]. وَخَفَّاق: صيغة مبالغة من خفَقَ وخفْقَ: كثير الخفق، كثير الاضطراب والتحرّك.

(٣) البيتان من البحر:[الوافر].

*[٣٣٣ - ٢٥٩][خَاطِرَةٌ]:

[أشدُّ النَّاسِ جهلًا]

أَشَدُّ النَّاسِ جَهْلًا مَنْهُومٌ بِاللَّذَّاتِ.

وَاللَّذَّاتُ عَلَىٰ ضَرْبَيْنِ: مُبَاحَةٌ، وَمَحْظُورَةٌ.

فَالْمُبَاحَةُ لَا يَكَادُ يَحْصُلُ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا بِضَيَاعِ مَا هُوَ مُهِمٌّ مِنَ الدِّينِ؛ فَإِذَا حَصَلَتْ مِنْهَا حَبَّةٌ؛ قَارَنَهَا قِنْطَارٌ مِنَ الْهَمِّ.

ثُمَّ لا تَكَادُ تَصْفُو فِي نَفْسِهَا، بَلْ مُكَدِّرَاتُهَا أُلُوفٌ؛ فَإِذَا صَوَّرَ عَدَمَهَا [بَعْدَ انْقِضَائِهَا، وَبَقَاءَ هَذِهِ][(١)] الأُلُوفِ [الْمُكَدِّرَةِ][(٢)]، صَارَ التَّصْوِيرُ مُغَلْصِمًا لِلْهَوَىٰ، مُحْزِنًا لِلنَّفْسِ[(٣)].

فَإِذَا أَنِفَتْ؛ أَنِفَتْ مِنَ الأَسَفِ عَلَىٰ الدَّوَامِ مَا لَا تَحْوِيهِ صِفَةٌ؛ فَهِيَ تَغُرُّ الْغَمْرَ[(٤)]، وَتَهْدِمُ الْعُمُرَ، وَتُدِيمُ الأَسَىٰ.

وَمَعَ هَذَا؛ فَالْمَنْهُومُ كُلَّمَا عَدَّ مِنْ لَذَّةٍ؛ طَلَبَ أُخْتَهَا[(٥)]، وَقَدْ عَرَفَ جِنَايَةَ الأُولَىٰ وَخِيَانَتَهَا.

وَهَذَا مَرَضُ الْعَقْلِ، وَدَاءُ الطَّبْعِ - فَلَا يَزَالُ هَذَا كَذَلِكَ إِلَىٰ أَنْ يُخْتَطَفَ بِالْمَوْتِ، فَيُلْقَىٰ عَلَىٰ بِسَاطِ نَدَمٍ لَا يُسْتَدْرَكُ.

فَالْعَجَبُ مِمَّنْ هِمَّتُهُ هَكَذَا مَعَ قِصَرِ الْعُمُرِ، ثُمَّ لَا يَهْتَمُّ بِآخِرَتِهِ؛ الَّتِي لَذَّتُهَا سَلِيمَةٌ مِنْ شَائِبٍ[(٦)]، مُنَزَّهَةٌ عَنْ مَعَائِبَ، دَائِمَةٌ إِلَىٰ الأَمَدِ، بَاقِيَةٌ بِبَقَاءِ الأَبَدِ!

---

(١) ليست في الأصل.

(٢) ليست في الأصل.

(٣) جاء في الأصل:[مُجْزِنًا لِلنَّفْسِ]. وَالْمُكَدِّرَ؛ أي: الْمُنَغِّصة. وَمُغَلْصِمًا لِلْهَوَىٰ؛ أَيْ: صَارَ غُصَّةً فِي حَلْقِهِ خَانِقًا أَوْ ذَابِحًا لَهُ. وَالغَلْصَمَةُ: رَأس الحُلقوم. وَغَلْصَمَهُ؛ أَيْ: قَطَع غَلْصَمَته. وَيُقَالُ: غَلْصَمْتُ فُلَانًا إِذَا أَخَذتَ بحَلْقِه.

(٤) أَنِفَتْ؛ أَي: اِمْتَنَعَ عَنْهُ. وَتَغُرُّ الْغَمْرَ؛ أَي: تَخدَع السَّاذِج الجَاهِل بِالأُمُورِ، المُغَفَّلُ عَنْ كلِّ عَيْش. وَالْجَمْع: أغْمَار.

(٥) يَعني: كُلَّمَا اِسْتَزَادَ مِنْ لَذَّةٍ طَلَبَ مِثْلِهَا أَوْ مَا يُقَارِبُهَا وَهَلُمَّ جرَا.

(٦) جاء في الأصل:[شَامِتٍ]. وَشَائِبٍ؛ أَي: مَا يُعَكِّر صَفَاءهَا.

وَإِنَّمَا يَحْصُلُ تَقْرِيبُ هَذِهِ بِإِبْعَادِ تِلْكَ، وَعِمْرَانُ هَذِهِ بِتَخْرِيبِ تِلْكَ(١).

فَوَاعَجَبًا لِعَاقِلٍ حَصِيفٍ حَسَنِ التَّدْبِيرِ(٢)؛ فَاتَهُ النَّظَرُ فِي هَذِهِ الأَحْوَالِ، وَغَفَلَ عَنِ تَمْيِيزِ بَيْنَ هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ!

وَإِنْ كَانَتِ اللَّذَّةُ مَعْصِيَةً؛ انْضَمَّ إِلَىٰ مَا ذَكَرْنَاهُ: عَارُ الدُّنْيَا، وَالْفَضِيحَةُ بَيْنَ الْخَلْقِ، وَعُقُوبَةُ الْحُدُودِ، وَعِقَابُ الْآخِرَةِ، وَغَضَبُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ.

بِاللهِ؛ إِنَّ الْمُبَاحَاتِ تَشْغَلُ عَنْ تَحْصِيلِ الْفَضَائِلِ، فَذُمَّ ذَلِكَ لِبَيَانِ الْحَزْمِ؛ فَكَيْفَ بِالْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي هِيَ غَايَةُ الرَّذَائِلِ؟!(٣).

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً تُحَرِّكُنَا إِلَىٰ مَنَافِعِنَا، وَتُزْعِجُنَا عَنْ خَوَادِعِنَا؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ.

*[٣٣٤ - ٢٦٨][خَاطِرَةٌ]:

[مِن صفات الجُهَّال]

أَكْثَرُ الْخَلَائِقِ عَلَىٰ طَبْعٍ رَدِيءٍ، لا تُقَوِّمُهُ الرِّيَاضَةُ؛ لا يَدْرُونَ لِمَ خُلِقُوا؟! وَلا مَا الْمُرَادُ مِنْهُمْ؟! وَغَايَةُ هِمَّتِهِمْ حُصُولُ بُغْيَتِهِمْ مِنْ أَغْرَاضِهِمْ! وَلا يَسْأَلُونَ عِنْدَ نَيْلِهَا مَا اجْتَلَبَتْ لَهُمْ

(١) يَعني: مَنْ جَعَلَ هَمَّه تَحصِيل الدُّنيَا أَضَاع حَظَّه مِنَ الآخِرَةِ وَالجَزَاء مِنْ جِنْس العَمَل.

(٢) جاء في الأصل:[خصيف]. وَمَعنَىٰ: عَاقِلٍ حَصِيفٍ؛ أَيْ: اِسْتَحكَم عَقْلُه وَجَادَ رَأْيُه.

(٣) قَالَ ابْنُ القَيم في «الفوائد»(ص٢١٤):«اللَّذَّةُ مِنْ حَيْثُ هِيَ مَطْلُوبَة لِلإِنسَانِ بَلْ وَلِكُلِّ حَيٍّ فَلَا تُذَمّ مِنْ جِهَة كَوْنهَا لَذَّة، وَإِنَّمَا تُذَمّ وَيَكُون تَركهَا خَيرًا مِنْ نَيْلِهَا وَأَنْفَع إِذَا تَضَمَّنَت فَوَات لَذَّة أَعظَم مِنْهَا وَأَكْمَل، أَو أَعقَبَت أَلَمًا حُصُولُهُ أَعظَم مِنْ أَلَم فَوَاتهَا. فَهَهُنَا يَظْهَر الفَرق بَيْنَ العَاقِل الفَطِن وَالأَحْمَق الجَاهِل، فَمَتَىٰ عَرَفَ العَقْل التَّفَاوُت بَيْنَ اللَّذَّتَيْنِ وَالأَلَمَيْنِ وَأَنَّهُ لَا نِسْبَة لِأَحَدِهِمَا إِلَىٰ الآخر هَانَ عَلَيْهِ تَرك أَدنَىٰ اللَّذَّتَيْنِ لِتَحْصِيلِ أَعْلَاهُمَا، وَاحْتِمَال أَيْسَر الأَلَمَيْنِ لِدَفْعِ أَعْلَاهُمَا. وَإِذَا تَقَرَّرَتْ هَذِه القَاعِدَة - فَلَذَّة الآخِرَة أَعظَم وَأَدْوَم، وَلَذَّة الدُّنْيَا أَصْغَر وَأَقصَر، وَكَذَلِكَ أَلَم الآخِرَة وَأَلَم الدُّنْيَا، وَالْمُعَوَّل فِي ذَلِكَ عَلَىٰ الإِيمَان وَالْيَقِين؛ فَإِذَا قَوِيَ الْيَقِين وَبَاشَرَ الْقَلْب آثَرَ الأَعْلَىٰ عَلَىٰ الأَدْنَىٰ فِي جَانِبِ اللَّذَّةِ وَاحْتَمَلَ الأَلَم الأَسْهَل عَلَىٰ الأَصعَب - وَالله الْمُسْتَعَان»اهـ.

مِنْ ذَمٍّ! يَبْذُلُونَ الْعِرْضَ دُونَ الْغَرَضِ[١]، وَيُؤْثِرُونَ لَذَّةَ سَاعَةٍ، وَإِنِ اجْتَلَبَتْ زَمَانَ مَرَضٍ! يَلْبَسُونَ عِنْدَ التِّجَارَاتِ ثِيَابَ مُخْتَالٍ فِي شِعَارِ مُخْتَالٍ[٢]، وَيُلَبِّسُونَ فِي الْمُعَامَلاتِ وَيَسْتُرُونَ الْحَالَ! إِنْ كَسَبُوا؛ فَشُبْهَةٌ، وَإِنْ أَكَلُوا؛ فَشَهْوَةٌ! يَنَامُونَ اللَّيْلَ، وَإِنْ كَانُوا نِيَامًا بِالنَّهَارِ فِي الْمَعْنَىٰ، وَلَا نَوْمَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ[٣]! فَإِذَا أَصْبَحُوا؛ سَعَوْا فِي تَحْصِيلِ شَهَوَاتِهِمْ؛ بِحِرْصِ خِنْزِيرٍ، وَتَبَصْبُصِ كَلْبٍ، وَافْتِرَاسِ أَسَدٍ، وَغَارَةِ ذِئْبٍ، وَرَوَغَانِ ثَعْلَبٍ[٤]! وَيَتَأَسَّفُونَ عِنْدَ الْمَوْتِ عَلَىٰ فَقْدِ الْهَوَىٰ لَا عَلَىٰ عَدَمِ التَّقْوَىٰ!

﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[النَّجْمُ: ٣٠] !!

كَيْفَ يُفْلِحُ مَنْ يُؤْثِرُ مَا يَرَاهُ بِعَيْنِهِ عَلَىٰ مَا يُبْصِرُهُ بِعَقْلِهِ، وَمَا يُدْرِكُهُ بِبَصَرِهِ أَعَزُّ عِنْدَهُ مِمَّا يَرَاهُ بِبَصِيرَتِهِ؟!

تَاللهِ، لَوْ فَتَحُوا أَسْمَاعَهُمْ؛ لَسَمِعُوا هَاتِفَ الرَّحِيلِ فِي زَمَانِ الْإِقَامَةِ يَصِيحُ فِي عَرَصَاتِ الدُّنْيَا: تَلَمَّحُوا تَقْوِيضَ خِيَامِ الْأَوَائِلِ[٥]! لَكِنْ غَمَرَهُمْ سُكْرُ الْجَهَالَةِ؛ فَلَمْ يُفِيقُوا إِلَّا بِضَرْبِ الْحَدِّ.

---

(١) الْعِرْضَ: مَا يَصُونُه الإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مَنْ يَلْزَمه أَمْره كَالزَّوْجَة وَالبِنْت. وَالْغَرَضِ: الْهَدَفُ وَالْمَقْصِد.

(٢) مُخْتَالٍ: يَطْلُبُ الشَّيء بِالخِدَاعِ وَالإِضْلَال. وَشِعَارِ: قَمِيْص، وَمَا وَلِيَ الجَسَدَ مِنَ الثِّيَاب. وَمُخْتَالٍ: مُتَكَبِّر.

(٣) يَعني: هُمْ كَذَلِكَ نِيَامٌ بِالنَّهَارِ، وَإِنْ كَانَت صُوْرتهم الظَّاهِرَة صُوْرَة المُتَيَقِّظِيْن؛ فَعُقُوْلُهُم وَقُلُوْبُهُم فِي غَفْلَةٍ وَسَكْرَةٍ؛ فَكَأَنَّهُم نِيَام عَلَىٰ الحَقِيْقَة.

(٤) حِرْصِ خِنْزِيرٍ؛ لأَنَّهُ مَطْبُوْع عَلَىٰ حِرصٍ عَظِيْمٍ وَرَغْبَةٍ شَدِيْدَة فِي المُشْتَهيَات. وَتَبَصْبُصِ كَلْبٍ؛ أَي: حَرَّك ذَنَبه؛ وَإِنَّمَا يَفْعل ذَلِكَ مِنْ طَمَعٍ أَو خَوفٍ. غَارَةِ الذِّئْبِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَيِسَ مِنْ وَجْهٍ أَغَارَ مِنْ وَجْهٍ آخَر. وَرَوَغَانِ ثَعْلَبٍ؛ أَي: يَذْهَب يَمْنَةً وَيَسْرةً فِي سُرعَةٍ وَخَفَاء، مَعَ اسْتِعْمَالِ المَكْرِ وَالخَدِيْعَة وَالدَّهَاء. «الإحياء» للغزالي. (٣/ ١٥، ١٤).

(٥) تُقَوَّض؛ أَي: قُلِع وأُزِيلَ. وَالتَّقْوِيضُ: نَقْضٌ مِنْ غَيْرِ هَدْم.

*[٢٣٥ - ٢٨٤][خَاطِرَةٌ]:

[مِنْ صِفَاتِ الْعُقَلَاءِ التَّثَبُّتُ وَالْمُشَاوَرَةُ]

مَا اعْتَمَدَ أَحَدٌ أَمْرًا إِذَا هَمَّ بِشَيْءٍ مِثْلَ التَّثَبُّتِ؛ فَإِنَّهُ مَتَىٰ عَمِلَ بِوَاقِعَةٍ مِنْ غَيْرِ تَأَمُّلٍ لِلْعَوَاقِبِ؛ كَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ النَّدَمَ، وَلِهَذَا أُمِرَ بِالْمُشَاوَرَةِ[1]؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِالتَّثَبُّتِ يَفْتَكِرُ، فَتُعْرَضُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْأَحْوَالُ، وَكَأَنَّهُ شَاوَرَ، وَقَدْ قِيلَ: «خَمِيرُ الرَّأْيِ خَيْرٌ مِنْ فَطِيرِهِ»[2].

وَأَشَدُّ النَّاسِ تَفْرِيطًا مَنْ عَمِلَ مُبَادَرَةً فِي وَاقِعَةٍ[3]، مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ وَلَا اسْتِشَارَةٍ، خُصُوصًا فِيمَا يُوجِبُهُ الْغَضَبُ؛ فَإِنَّهُ طَلَبَ الْهَلَاكَ أَوِ النَّدَمَ الْعَظِيمَ.

وَكَمْ مَنْ غَضِبَ، فَقَتَلَ، وَضَرَبَ، ثُمَّ لَمَّا سَكَنَ غَضَبُهُ؛ بَقِيَ طُولَ دَهْرِهِ فِي الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ وَالنَّدَمِ! وَالْغَالِبُ فِي الْقَاتِلِ أَنَّهُ يُقْتَلُ، فَتَفُوتُهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ.

فَكَذَلِكَ مَنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ، فَاسْتَعْجَلَ لَذَّتَهَا، وَنَسِيَ عَاقِبَتَهَا؛ فَكَمْ مِنْ نَدَمٍ يَتَجَرَّعُهُ فِي بَاقِي عُمُرِهِ، وَعِتَابٍ يَسْتَقْبِلُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ، وَعِقَابٍ لَا يُؤْمَنُ وُقُوعُهُ؛ كُلُّ ذَلِكَ لِلَذَّةٍ لَحْظَةٍ كَانَتْ كَبَرْقٍ.

فَاللهَ اللهَ! التَّثَبُّتَ التَّثَبُّتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ! وَالنَّظَرَ فِي عَوَاقِبِهَا! خُصُوصًا الْغَضَبَ الْمُثِيرَ لِلْخُصُومَةِ وَتَعْجِيلَ الطَّلَاقِ.

---

(١) وَكَأَنَّهُ ﷺ يُشِيرُ لِقَوْلِهِ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] قَالَ الْحَسَنُ: «عَلِمَ اللهُ مَا بِهِ إِلَيْهِمْ مِنْ حَاجَةٍ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَسْتَنَّ بِهِ مَنْ بَعْدَهُ». * وَالْمُشَاوَرَةُ تَكُونُ قَبْلَ الْعَزْمِ وَالتَّبَيُّنِ، وَكَانَتِ الْأَئِمَّةُ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَشِيرُونَ الْأُمَنَاءَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْأُمُورِ الْمُبَاحَةِ؛ لِيَأْخُذُوا بِأَسْهَلِهَا، فَإِذَا وَضَحَ الْكِتَابُ أَوِ السُّنَّةُ لَمْ يَتَعَدَّوْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ.

(٢) نَسَبَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي «عيون الأخبار». (ج١/ ص٨٦) لـ«عَبْد الله بْن وَهْب الرَّاسِبِيّ». وَمَعنَاهُ: أَنَّ الرَّأْيَ الْمُخَمَّرَ الَّذِي لَا يَتَكَلَّمُ بِهِ صَاحِبُهُ إِلَّا بَعدَ أَنْ يُعْمِلَ عَقْلَهُ لِيَتَحَقَّقَ مِنْ صِحَتِهِ وَيَحسَب عَوَاقِبه وَيَغْلُب عَلَىٰ ظَنِّه أَنَّ فِيهِ الْمَصلَحَة، هَذَا خَيْرٌ مِنَ الرَّأْيِ الَّذِي يَرتَجِلُهُ الشَّخص إرتجالًا سَرِيْعًا فِي مَجْلِسٍ؛ فَيَنْطِقُ أَوْ يَفْعَل مَا لَا يُحْمَد عُقبَاهُ.

(٣) يعني: مَنْ يَتَسَرَّع فِي أُمُوْرِهِ كُلِّهَا.

*[٢٣٦ - ٢٩٠][خَاطِرَةٌ]:

[الْعَقْلُ الصَّحِيحُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِنَ الْعُجْبِ]

إِذَا تَمَّ عِلْمُ الإِنْسَانِ؛ لَمْ يَرَ لِنَفْسِهِ عَمَلًا؛ وَإِنَّمَا يَرَىٰ إِنْعَامَ الْمُوَفِّقِ لِذَلِكَ الْعَمَلِ، الَّذِي يَمْنَعُ الْعَاقِلَ أَنْ يَرَىٰ لِنَفْسِهِ عَمَلًا، أَوْ يُعْجَبَ بِهِ، وَذَلِكَ بِأَشْيَاءَ:

مِنْهَا: أَنَّهُ وُفِّقَ لِذَلِكَ الْعَمَلِ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[الْحُجُرَاتُ: ٧].

وَمِنْهَا: أَنَّهُ إِذَا قِيسَ بِالنِّعَمِ؛ لَمْ يَفِ بِمِعْشَارِ عُشْرِهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ إِذَا لُوحِظَتْ عَظَمَةُ الْمَخْدُومِ؛ احْتُقِرَ كُلُّ عَمَلٍ وَتَعَبُّدٍ.

هَذَا إِذَا سَلِمَ مِنْ شَائِبَةٍ، وَخَلُصَ مِنْ غَفْلَةٍ.

فَأَمَّا وَالْغَفَلَاتُ تُحِيطُ بِهِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُغَلِّبَ الْحَذَرَ مِنْ رَدِّهِ، وَيَخَافَ الْعِتَابَ عَلَىٰ التَّقْصِيرِ فِيهِ، فَيَشْتَغِلَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ.

وَتَأَمَّلْ عَلَىٰ الْفُطَنَاءِ أَحْوَالَهُمْ فِي ذَلِكَ:

فَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لَا يَفْتُرُونَ، قَالُوا: «مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»[(١)].

وَالْخَلِيلُ عليه السلام يَقُولُ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى﴾[الشُّعَرَاءُ: ٨٢]، وَمَا أَدَلَّ[(٢)] بِتَصَبُّرِهِ عَلَىٰ النَّارِ، وَتَسْلِيمِهِ الْوَلَدَ إِلَىٰ الذَّبْحِ.

---

(١) قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. وأخرج الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «الأَهْوَالِ»(٨٧٣٩). عَنْ سَلْمَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبُّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ الْمُوسَىٰ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: مَنْ تُجِيزُ عَلَىٰ هَذَا؟ فَيَقُولُ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَيَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ». «السلسلة الصحيحة»(٩٤١).

(٢) وَمَا أَدَلَّ؛ أَي: وَلَم يَفْتَخِر بِصَبْرِهِ عَلَىٰ إِلْقَائِهِ فِي النَّارِ، وَلَا تَسْلِيمِهِ وَلَده لِلذَّبح، وَلَم يَزْدَهِي أَوْ يَمُنَّ بِهِ.

وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْكُمْ مَنْ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»(١).

وَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَقُولُ: «وَهَلْ أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟!»(٢).

وَعُمَرُ رضي الله عنه يَقُولُ: «لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الْأَرْضِ، لَافْتَدَيْتُ بِهَا مِنْ هَوْلِ مَا أَمَامِي قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ مَا الْخَبَرُ»(٣).

وَابْنُ مَسْعُودٍ يَقُولُ: «لَيْتَنِي إِذَا مِتُّ لَا أُبْعَثُ»(٤).

---

(١) رواه أحمد في «المسند»(٨٥٧). ورواه البخاري، كِتَابُ «الرِّقَاقِ»(٦٤٦٣). ومسلم، كِتَابُ «صِفَةِ الْقِيَامَةِ»(٢٨١٦).

(٢) ترجمة أَبُو بَكْرٍ في:[١٦٥-٤٠]. وَالْخَبَرَ رَوَاهُ أحمد في «المسند»(٧٤٣٩). ورواه ابن ماجة، كِ:«الْمُقدمة»(٩٤).

(٣) ترجمة عُمَرُ في:[٦٥-٥٤]. وَالْخَبَرَ رَوَاهُ البخاري، كِ:«أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ»(٣٦٩٢). وَفِيهِ:«وَاللهِ لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ عز وجل، قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ». وَمَعْنَى:«طِلَاعَ الْأَرْضِ»، كَمَا قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ»:«أي: مِلْأَهَا، وَأَصْلُ الطِّلَاعِ: مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ. وَالْمُرَادُ هُنَا: مَا يَطْلُعُ عَلَيْهَا وَيُشْرِفُ فَوْقَهَا مِنَ الْمَالِ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِغَلَبَةِ الْخَوْفِ الَّذِي وَقَعَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ خَشْيَةِ التَّقْصِيرِ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ حُقُوقِ الرَّعِيَّةِ أَوْ مِنَ الْفِتْنَةِ بِمَدْحِهِمْ»اهـ. وَذَلِكَ لَمَّا قَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما:«أَلَيْسَ قَدْ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُعِزَّ اللهُ بِكَ الدِّينَ وَالْمُسْلِمِينَ إِذْ يَخَافُونَ بِمَكَّةَ، فَلَمَّا أَسْلَمْتَ كَانَ إِسْلَامُكَ عِزًّا، وَظَهَرَ بِكَ الْإِسْلَامُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، وَهَاجَرْتَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَكَانَتْ هِجْرَتُكَ فَتْحًا، ثُمَّ لَمْ تَغِبْ عَنْ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ يَوْمِ كَذَا وَيَوْمِ كَذَا، ثُمَّ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، فَوَازَرْتَ الْخَلِيفَةَ بَعْدَهُ عَلَى مِنْهَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَضَرَبْتَ مَنْ أَدْبَرَ بِمَنْ أَقْبَلَ حَتَّى دَخَلَ النَّاسُ فِي الْإِسْلَامِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، ثُمَّ قُبِضَ الْخَلِيفَةُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ وُلِّيتَ بِخَيْرِ مَا وُلِّيَ النَّاسُ، مَصَّرَ اللهُ بِكَ الْأَمْصَارَ، وَجَبَى بِكَ الْأَمْوَالَ، وَنَفَى بِكَ الْعَدُوَّ، وَأَدْخَلَ اللهُ بِكَ عَلَى كُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ تَوَسُّعِهِمْ فِي دِينِهِمْ، وَتَوَسُّعِهِمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ، ثُمَّ خَتَمَ لَكَ بِالشَّهَادَةِ، فَهَنِيئًا لَكَ. فَقَالَ: وَاللهِ إِنَّ الْمغرورَ مَنْ تَغُرُّونَهُ. ثُمَّ قَالَ: أَتَشْهَدُ لِي يَا عَبْدَ اللهِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَلْصِقْ خَدِّي بِالْأَرْضِ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ فَوَضَعْتُهُ مِنْ فَخِذِي عَلَى سَاقِي. فَقَالَ: أَلْصِقْ خَدِّي بِالْأَرْضِ، فَتَرَكَ لِحْيَتَهُ وَخَدَّهُ حَتَّى وَقَعَ بِالْأَرْضِ، فَقَالَ: وَيْلَكَ وَوَيْلَ أُمِّكَ يَا عُمَرُ إِنْ لَمْ يَغْفِرِ اللهُ لَكَ. ثُمَّ قُبِضَ رَحِمَهُ اللهُ» الطبراني في «الأوسط»(٥٧٩).

(٤) ترجمة ابْنُ مَسْعُودٍ في:[١٨١-١٩]. وَالْخَبَرَ بِهَذَا اللَّفْظ رواه أحمد في «الزهد»(ص١٢٩)، ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء»(ج١/ ص١٣٢). وَفِيهِ:«لَكِنْ هُنَاكَ رَجُلٌ وَدَّ لَوْ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ لَمْ يُبْعَثْ «يَعْنِي نَفْسَهُ».

وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تَقُولُ: «لَيْتَنِي كُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا»[١].

وَهَذَا شَأْنُ جَمِيعِ الْعُقَلَاءِ، فَرَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيعِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ قَوْمٍ مِنْ صُلَحَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ قِلَّةِ الْأَفْهَامِ لِمَا شَرَحْتُهُ؛ لِأَنَّهُمْ نَظَرُوا إِلَىٰ أَعْمَالِهِمْ، فَأَدَلُّوا بِهَا[٢].

فَمِنْهُ حَدِيثُ الْعَابِدِ الَّذِي تَعَبَّدَ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ فِي جَزِيرَةٍ، وَأَخْرَجَ لَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً، وَسَأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُمِيتَهُ فِي سُجُودِهِ؛ فَإِذَا حُشِرَ، قِيلَ لَهُ: «ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي»! قَالَ: بَلْ بِعَمَلِي، فَيُوزَنُ جَمِيعُ عَمَلِهِ بِنِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَلَا يَفِي، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! بِرَحْمَتِكَ»[٣].

وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْغَارِ الَّذِينَ انْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ[٤]:

فَإِنَّ أَحَدَهُمْ: تَوَسَّلَ بِعَمَلٍ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْ ذِكْرِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ عَزَمَ عَلَىٰ الزِّنَا، ثُمَّ خَافَ الْعُقُوبَةَ، فَتَرَكَهُ.

فَلَيْتَ شِعْرِي، بِمَاذَا يُدِلُّ مَنْ خَافَ أَنْ يُعَاقَبَ عَلَىٰ شَيْءٍ، فَتَرَكَهُ تَخَوُّفَ الْعُقُوبَةِ[٥]؟! إِنَّمَا لَوْ كَانَ مُبَاحًا فَتَرَكَهُ، كَانَ فِيهِ مَا فِيهِ.

---

(١) عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ بِنْتُ الإِمَامِ الصِّدِّيقِ الأَكْبَرِ، أَبِي بَكْرٍ عَبْدِ اللهِ بنِ أَبِي قُحَافَةَ، القُرَشِيَّةُ، النَّبَوِيَّةُ، زَوجَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَفْقَهُ نِسَاءِ الأُمَّةِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ. تُوُفِّيَتْ سَنَةَ:(٥٧أو٥٨هـ). وَالْخَبَر رواه الطبراني في «مسند الشاميين»(٣٠٢). ورواه البخاري، كِتَابُ «تَفْسِيرِ القُرْآنِ»(٤٧٥٣). وَفِيهِ: «وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا».

(٢) أَدَلُّوا بِهَا؛ أَي: افْتَخَروا، وَمَنُّوا بِهَا.

(٣) رواه البيهقي في «الشعب»(٤٣٠). والحاكم في «المستدرك» كِ: «التَّوْبَةِ وَالإِنَابَةِ»(٧٦٣٧). «الضعيفة»(١١٨٣).

(٤) تقدم تخريجه في الخاطرة رقم:[١٠ - ٧٠]، وَارجُوا مِنَ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ مُرَاجَعَةَ هَذِهِ الخَاطِرَةِ مَعَ تِلْكَ.

(٥) إِذَا تَرَكَهُ تَخَوُّفَ الْعُقُوبَةِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ؛ كَمَا رَوَاهُ الشَّيْخَان عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَىٰ سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً» البخاري، كِ: «الرِّقَاقِ» بَ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ أَوْ بِسَيِّئَةٍ»(٦٤٩١). ومسلم، كِ: «الإِيمَانِ» بَ: «إِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ كُتِبَتْ»(١٣١).

وَلَوْ فَهِمَ؛ لَشَغَلَهُ خَجَلُ الْهِمَّةِ عَنِ الْإِدْلَالِ، كَمَا قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾[يُوسُفُ:٥٣][1]!!

وَالْآخَرُ: تَرْكُ صِبْيَانَهُ يَتَضَاغَوْنَ إِلَى الْفَجْرِ لِيَسْقِيَ أَبَوَيْهِ اللَّبَنَ، وَفِي هَذَا الْبِرِّ أَذًى لِلْأَطْفَالِ[2].

وَلَكِنَّ الْفَهْمَ عَزِيزٌ.

وَكَأَنَّهُمْ لَمَّا أَحْسَنُوا فِيمَا ظَنُّوا، قَالَ لِسَانُ الْحَالِ: أَعْطُوهُمْ مَا طَلَبُوا، فَإِنَّهُمْ يَطْلُبُونَ أُجْرَةَ

---

(١) قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مجموع الفتاوى»(١٠/ ١٧٤، ١٧٥): «وَقَوْلُهُ: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ فَمِنْ كَلَامِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ؛ كَمَا يَدُلُّ الْقُرْآنُ عَلَى ذَلِكَ دِلَالَةً بَيِّنَةً، لَا يَرْتَابُ فِيهَا مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف:٥٠-٥٣] فَهَذَا كُلُّهُ كَلَامُ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، وَيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ ذَاكَ فِي السِّجْنِ، لَمْ يَحْضُرْ بَعْدُ إِلَى الْمَلِكِ، وَلَا سَمِعَ كَلَامَهُ وَلَا رَآهُ؛ وَلَكِنْ لَمَّا ظَهَرَتْ بَرَاءَتُهُ فِي غَيْبَتِهِ - كَمَا قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، أَيْ: لَمْ أَخُنْهُ فِي حَالِ مَغِيبِهِ عَنِّي وَإِنْ كُنْتُ فِي حَالِ شُهُودِهِ رَاوَدْتُهُ - فَحِينَئِذٍ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾، وَقَدْ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ يُوسُفَ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ إِلَّا هَذَا الْقَوْلَ، وَهُوَ قَوْلٌ فِي غَايَةِ الْفَسَادِ، وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ؛ بَلْ الْأَدِلَّةُ تَدُلُّ عَلَى نَقِيضِهِ»اهـ. وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَفْسُ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَتْ مِنْ أَزْكَى الْأَنْفُسِ؛ فَكَيْفَ أَنْ يَقُولَ: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ نَفْسَهُ بَرِيئَةٌ لَيْسَتْ أَمَّارَةً بِالسُّوءِ؛ بَلْ نَفْسٌ زَكِيَّةٌ مِنْ أَعْظَمِ النُّفُوسِ زَكَاءً»اهـ. وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ قَوْلَهَا: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فِيهِ اعْتِرَافٌ بِالذَّنْبِ وَقَوْلُهَا: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ إِشَارَةٌ تُطَابِقُ لِقَوْلِهَا: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾؛ أَيْ: أَنَا مُقِرَّةٌ بِالذَّنْبِ مَا أَنَا مُبَرِّئَةٌ لِنَفْسِي. ثُمَّ بَيَّنَتْ السَّبَبَ فَقَالَتْ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ فَنَفْسِي مِنْ هَذَا الْبَابِ فَلَا يُنْكَرُ صُدُورُ هَذَا مِنِّي»اهـ(ج١٥/ ص٨٢و٨٦).

(٢) يَتَضَاغَوْنَ؛ أَيْ: يَتَبَاكَوْنَ، مِنَ الضُّغَاءِ: وَهُوَ الْبُكَاءُ بِصَوْتٍ. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدِ اسْتُشْكِلَ تَرْكُهُ أَوْلَادَهُ الصِّغَارَ يَبْكُونَ مِنَ الْجُوعِ طُولَ لَيْلَتِهِمَا مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى تَسْكِينِ جُوعِهِمْ، فَقِيلَ: كَانَ فِي شَرْعِهِمْ تَقْدِيمُ نَفَقَةِ الْأَصْلِ عَلَى غَيْرِهِمْ. وَقِيلَ: يَحْتَمِلُ أَنَّ بُكَاءَهُمْ لَيْسَ عَنِ الْجُوعِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَا يَرُدُّهُ. وَقِيلَ: لَعَلَّهُمْ كَانُوا يَطْلُبُونَ زِيَادَةً عَلَى سَدِّ الرَّمَقِ. وَهَذَا أَوْلَى» اهـ[يُنظر: «فتح الباري»(ج٦/ ص٥٧٥) كِتَابُ «أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ»(٣٤٦٥)].

مَا عَمِلُوا(١).

---

(١) قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رحمه الله: «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ اسْتِحْبَابُ الدُّعَاءِ فِي الْكَرْبِ وَالتَّقَرُّبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِذِكْرِ صَالِحِ الْعَمَلِ وَاسْتِنْجَازُ وَعْدِهِ بِسُؤَالِهِ - وَفِيهِ اسْتِشْكَالٌ لِمَا فِيهِ مِنْ رُؤْيَةِ الْعَمَلِ - وَأَجَابَ الْمُحِبُّ الطَّبَرِيُّ: «بِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَشْفِعُوا بِأَعْمَالِهِمْ، وَإِنَّمَا سَأَلُوا اللهَ إِنْ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ خَالِصَةً وَقُبِلَتْ أَنْ يَجْعَلَ جَزَاءَهَا الْفَرَجُ عَنْهُمْ. فَتَضَمَّنَ جَوَابُهُ تَسْلِيمَ السُّؤَالِ لَكِنْ بِهَذَا الْقَيْدِ، وَهُوَ حَسَنٌ». وَقَدْ يُقَالُ: «إِنَّ فِيهِ نَوْعًا مِنْ تَرْكِ الِافْتِقَارِ الْمُطْلَقِ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَثْنَى عَلَيْهِمْ بِفِعْلِهِمْ؛ فَدَلَّ عَلَى تَصْوِيبِ فِعْلِهِمْ». وَقَالَ السُّبْكِيُّ الْكَبِيرُ: «ظَهَرَ لِي أَنَّ الضَّرُورَةَ قَدْ تُلْجِئ إِلَى تَعْجِيلِ جَزَاءِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّ هَذَا مِنْهُ، ثُمَّ ظَهَرَ لِي أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ رُؤْيَةُ عَمَلٍ بِالْكُلِّيَّةِ؛ لِقَوْلِ كُلٍّ مِنْهُمْ: «إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ»؛ فَلَمْ يَعْتَقِدْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي عَمَلِهِ الْإِخْلَاصَ، بَلْ أَحَالَ أَمْرَهُ إِلَى اللهِ، فَإِذَا لَمْ يَجْزِمُوا بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ مَعَ كَوْنِهِ أَحْسَنَ أَعْمَالِهِمْ؛ فَغَيْرُهُ أَوْلَى. فَيُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ الَّذِي يَصْلُحُ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْ يَعْتَقِدَ الشَّخْصُ تَقْصِيرَهُ فِي نَفْسِهِ، وَيُسِيءَ الظَّنَّ بِهَا، وَيَبْحَثَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ عَمَلِهِ يَظُنُّ أَنَّهُ أَخْلَصَ فِيهِ، فَيُفَوِّضَ أَمْرَهُ إِلَى اللهِ، وَيُعَلِّقَ الدُّعَاءَ عَلَى عِلْمِ اللهِ بِهِ؛ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ إِذَا دَعَا رَاجِيًا لِلْإِجَابَةِ خَائِفًا مِنَ الرَّدِّ؛ فَإِنْ لَمْ يَغْلِبْ عَلَى ظَنِّهِ إِخْلَاصُهُ، وَلَوْ فِي عَمَلٍ وَاحِدٍ؛ فَلْيَقِفْ عِنْدَ حَدِّهِ، وَيَسْتَحِي أَنْ يَسْأَلَ بِعَمَلٍ لَيْسَ بِخَالِصٍ. قَالَ: وَإِنَّمَا قَالُوا: «ادْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ» فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، ثُمَّ عِنْدَ الدُّعَاءِ لَمْ يُطْلِقُوا ذَلِكَ، وَلَا قَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: أَدْعُوكَ بِعَمَلِي، وَإِنَّمَا قَالَ: «إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ ثُمَّ ذَكَرَ عَمَلَهُ». «فتح الباري» (٦/ ٥٧٥) لـ: «أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ» (٣٤٦٥)]. وَقَالَ الْوَزِيرُ ابْنُ هُبَيْرَةَ رحمه الله: «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفِقْهِ: أَنَّ الدُّعَاءَ فِي الشِّدَّةِ أَقْمِنُهُ بِالْإِجَابَةِ -جَدِيرٌ- مَا صَدَقَ دَاعِيهِ فِيهِ، وَهُوَ أَنْ يَدْعُوَ اللهَ سبحانه وتعالى جَاعِلًا وَسِيلَتَهُ مَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ يَذْكُرُ مِنْهُ كُلَّمَا لَا يَعلَم الله تَعَالَى خِلَافَه، وَلَيْسَ هَذَا مِمَّا يَخْرُجُ مَخْرَجَ التَّمَنُّنِ بِالْعِبَادَةِ، وَلَكِنَّ هَذَا الدَّاعِي بِذِكْرِهِ هَذَا قَدِ اسْتَشْهَدَ إِيمَانَه الْمَاضِي بِإِخْلَاصِهِ فِيهِ حَيْثُ ظَهَرَ مِنْهُ ذَلِكَ الإِيمَان فِي حَالَةِ الرَّخَاءِ؛ فَكَانَ هُوَ الَّذِي أَنْقَذَهُ الله بِهِ فِي الشِّدَّةِ. وَفِيهِ أَيْضًا: أَنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ كَانُوا أُصُولًا فِي ثَلَاثَةِ أُمُورٍ كُلُّهَا عَظِيمُ الشَّأْنِ فَسَنُّوا سُنَّةَ الْحُسْنَى فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ شُكْرُ النِّعْمَةِ الَّتِي مِنْ أَرْفَعِهَا بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَكَسْرُ الشَّهْوَةِ الَّتِي مِنْ أَشَدِّهَا قَذْعُ النَّفْسِ -رَدْعُهَا- عَنِ الْجِمَاعِ بَعْدَ جُلُوسِ الرَّجُلِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ ذَلِكَ الْمَجْلِسَ، وَالْأُخْرَى أَدَاءُ الْأَمَانَةِ لِمَنْ لَا يُخَافُ وَلَا يُرْجَى. فَكَانَتْ هَذِهِ الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ إِذَا نُظِرَ فِيهَا حَقَّ النَّظَرِ، وُجِدَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى ثُغُورِ الْعِبَادَةِ للهِ تَعَالَى؛ فَلِذَلِكَ لَمَّا اجْتَمَعَتْ مِنَ الثَّلَاثَةِ فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ، وَدَعَوا بِهَا دَعْوَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ رَفَعَ اللهُ بِهَا الصَّخْرَةَ الْهَابِطَةَ مِنَ الْجَبَلِ، خَارِقًا سبحانه وتعالى الْعَادَةَ فِي مِثْلِهَا، وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ حَدِيثًا تَكَلَّمَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَرَوَاهُ عَنْهُ الثِّقَاتُ لِيُعْمَلَ بِهِ لَا لِيُتَّخَذَ سَمَرًا فَقَطْ». «الإفصاح» (٤/ ٤٣، ٤٤)]. وَقَدْ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رحمه الله وَهُوَ يُوصِي وَلَدَهُ فِي رِسَالَةٍ سَمَّاهَا: «لَفْتَةُ الْكَبِدِ إِلَى نَصِيحَةِ الْوَلَدِ» (ص٦٥): «وَاعْلَمْ أَنَّ أَوْفَى الذَّخَائِرِ: غَضُّ الطَّرْفِ عَنْ مُحَرَّمٍ، وَإِمْسَاكُ اللِّسَانِ عَنْ فُضُولِ كَلِمَةٍ، وَمُرَاعَاةُ لِحَدٍّ، وَإِيثَارُ اللهِ سبحانه وتعالى عَلَى هَوَى النَّفْسِ، وَقَدْ عَرَفْتَ حَدِيثَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ دَخَلُوا إِلَى غَارٍ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ...» وَسَاقَ الْحَدِيثَ. وَفِي هَذَا مَدْحٌ لِفِعْلِهِمْ؛ فَقَدْ يَكُونُ الإِمَامُ نَظَرَ فِي فِعلِهِم هُنَا مِنْ وَجْهٍ دُونَ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي هَذِهِ الْخَاطِرَةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَلَوْلا عِزَّةُ الْفَهْمِ؛ مَا تَكَبَّرَ مُتَكَبِّرٌ عَلَىٰ جِنْسِهِ، وَلَكَانَ كُلُّ كَامِلٍ خَائِفًا مُحْتَقِرًا لِعَمَلِهِ، حَذِرًا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي شُكْرِ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ.

وَفَهْمُ هَذَا الْمَشْرُوحِ يُنَكِّسُ رَأْسَ الْكِبْرِ، وَيُوجِبُ مُسَاكَنَةَ الذُّلِّ؛ فَتَأَمَّلْهُ؛ فَإِنَّهُ أَصْلٌ عَظِيمٌ.

*[٢٣٧ - ٣٦٤][خَاطِرَةٌ]:

[سَبَبُ تَفْضِيلِ الْعَقْلِ عَلَى سَائِرِ الْجَوَارِحِ]

إِنَّمَا فُضِّلَ الْعَقْلُ بِتَأَمُّلِ الْعَوَاقِبِ؛ فَأَمَّا قَلِيلُ الْعَقْلِ؛ فَإِنَّهُ يَرَىٰ الْحَالَ الْحَاضِرَةَ، وَلا يَنْظُرُ إِلَىٰ عَاقِبَتِهَا.

فَإِنَّ اللِّصَّ يَرَىٰ أَخْذَ الْمَالِ، وَيَنْسَىٰ قَطْعَ الْيَدِ! وَالْبَطَّالَ يَرَىٰ لَذَّةَ الرَّاحَةِ، وَيَنْسَىٰ مَا تَجْنِي مِنْ فَوَاتِ الْعِلْمِ وَكَسْبِ الْمَالِ؛ فَإِذَا كَبِرَ فَسُئِلَ عَنْ عِلْمٍ؟ لَمْ يَدْرِ، وَإِذَا احْتَاجَ؛ سَأَلَ؛ فَذَلَّ، فَقَدْ أَرْبَىٰ[1] مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ التَّأَسُّفِ عَلَىٰ لَذَّةِ الْبَطَالَةِ، ثُمَّ يَفُوتُهُ ثَوَابُ الْآخِرَةِ بِتَرْكِ الْعَمَلِ فِي الدُّنْيَا. وَكَذَلِكَ شَارِبُ الْخَمْرِ؛ يَلْتَذُّ تِلْكَ السَّاعَةَ، وَيَنْسَىٰ مَا يَجْنِي مِنَ الْآفَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ! وَكَذَلِكَ الزِّنَا؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَرَىٰ قَضَاءَ الشَّهْوَةِ، وَيَنْسَىٰ مَا يَجْنِي مِنْ فَضِيحَةِ الدُّنْيَا وَالْحَدِّ، وَرُبَّمَا كَانَ لِلْمَرْأَةِ زَوْجٌ، فَأَلْحَقَتِ الْحَمْلَ مِنْ هَذَا بِهِ، وَتَسَلْسَلَ الْأَمْرُ.

فَقِسْ عَلَىٰ هَذِهِ النُّبْذَةِ، وَانْتَبِهْ لِلْعَوَاقِبِ، وَلا تُؤْثِرْ لَذَّةً تُفَوِّتُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَصَابِرِ الْمَشَقَّةَ؛ تُحَصِّلْ رِبْحًا وَافِرًا.

---

(١) أَرْبَىٰ: زَادَ.

*[٢٣٨ - ٢٠٦][خَاطِرَةٌ]:

[كَامِلُ الْعَقْلِ مَنْ يَتَلَمَّحُ الْعَوَاقِبَ]

كُلُّ مَنْ لا يَتَلَمَّحُ الْعَوَاقِبَ، وَلا يَسْتَعِدُّ لِمَا يَجُوزُ وُقُوعُهُ؛ فَلَيْسَ بِكَامِلِ الْعَقْلِ!

وَاعْتَبِرْ هَذَا فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ! مِثْلُ أَنْ يَغْتَرَّ بِشَبَابِهِ، وَيَدُومَ عَلَىٰ الْمَعَاصِي، وَيُسَوِّفَ بِالتَّوْبَةِ؛ فَرُبَّمَا أُخِذَ بَغْتَةً، وَلَمْ يَبْلُغْ بَعْضَ مَا أَمَّلَ. وَكَذَلِكَ إِذَا سَوَّفَ بِالْعَمَلِ، أَوْ بِحِفْظِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ الزَّمَانَ يَنْقَضِي بِالتَّسْوِيفِ، وَيُفَوِّتُ الْمَقْصُودَ. وَرُبَّمَا عَزَمَ عَلَىٰ فِعْلِ خَيْرٍ، أَوْ وَقْفِ شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ، فَسَوَّفَ، فَبُغِتَ.

فَالْعَاقِلُ مَنْ أَخَذَ بِالْحَزْمِ فِي تَصْوِيرِ مَا يَجُوزُ وُقُوعُهُ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَىٰ ذَلِكَ؛ فَإِنِ امْتَدَّ الأَجَلُ؛ لَمْ يَضُرَّهُ، وَإِنْ وَقَعَ الْمَخُوفُ؛ كَانَ مُحْتَرِزًا.

وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا: أَنْ يَمِيلَ مَعَ السُّلْطَانِ، وَيُسِيءَ إِلَىٰ بَعْضِ حَوَاشِيهِ؛ ثِقَةً بِقُرْبِهِ مِنْهُ، فَرُبَّمَا تَغَيَّرَ ذَلِكَ السُّلْطَانُ، فَارْتَفَعَ عَدُوُّهُ، فَانْتَقَمَ مِنْهُ. وَقَدْ يُعَادِي بَعْضَ الأَصْدِقَاءِ، وَلَا يُبَالِي بِهِ؛ لِأَنَّهُ دُونَهُ فِي الْحَالَةِ الْحَاضِرَةِ؛ فَرُبَّمَا صَعِدَتْ مَرْتَبَةُ ذَلِكَ، فَاسْتَوْفَىٰ مَا أَسْلَفَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْقَبِيحِ وَزَادَ.

فَالْعَاقِلُ مَنْ نَظَرَ فِيمَا يَجُوزُ وُقُوعُهُ، وَلَمْ يُعَادِ أَحَدًا[١]: فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا مَا يُوجِبُ الْمُعَادَاةَ؛ كَتَمَ ذَلِكَ، فَإِنْ صَحَّ لَهُ أَنْ يَثِبَ عَلَىٰ عَدُوِّهِ، فَيَنْتَقِمَ مِنْهُ انْتِقَامًا يُبِيحُهُ الشَّرْعُ؛ جَازَ؛ عَلَىٰ أَنَّ الْعَفْوَ أَصْلَحُ فِي بَابِ الْعَيْشِ[٢].

---

(١) يَقُولُ ابْنُ حِبَّان رحمه الله: «الْوَاجِبُ عَلَىٰ الْعَاقِلِ أَنْ يُدَارِيَ النَّاسَ مُدَارَاةَ الرَّجُلِ السَّابِحِ فِي الْمَاءِ الْجَارِي وَمَنْ ذَهَبَ إِلَىٰ عِشْرَةِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُوَ كَدَّرَ عَلَىٰ نَفْسِهِ عَيْشَهُ وَلَمْ تَصْفُ لَهُ مَوَدَّتُه لِأَنَّ وِدَادَ النَّاسِ لَا يُسْتَجْلَبُ إِلَّا بِمُسَاعَدَتِهِم عَلَىٰ مَا هُم عَلَيْهِ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَأْثَمًا؛ فَإِذَا كَانَت حَالَة مَعصِيَة فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَة، وَالْبَشَر قَد رُكِّبَ فِيهِم أَهْوَاء مُخْتَلِفَة وَطَبَائِع مُتَبَايِنَة فَكَمَا يَشُقّ عَلَيْكَ تَرك مَا جُبِلْتَ عَلَيْهِ فَكَذَلِكَ يَشُقّ عَلَىٰ غَيْرِكَ مُجَانَبَة مِثْلِهِ فَلَيْسَ إِلَىٰ صَفْوِ وِدَادِهِم سَبِيل إِلَّا بِمُعَاشَرَتِهِم مِنْ حَيْثُ هُم وَالإِغْضَاء عَنْ مُخَالَفَتِهِم فِي الأَوْقَات». «روضة الفضلاء» (ص٧١).

(٢) يَثِبَ عَلَىٰ عَدُوِّهِ؛ أَيْ: يَنْقَضّ عَلَيْهِ. «الْعَفْوُ أَصْلَحُ فِي بَابِ الْعَيْشِ» وَهُوَ كَذَلِكَ عِنْدَ اللهِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا =

وَلِهَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْدَمَ الْبَطَّالَ[1]؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا عَمِلَ، فَعَرَفَ ذَلِكَ لِمَنْ خَدَمَ.

وَقِسْ عَلَىٰ أُنْمُوذَجِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جَمِيعِ الْأَحْوَالِ.

*[٢٣٩ - ١٨٥][خَاطِرَةٌ]:

[علَى العَاقِلِ أن يكُونَ مُستَعدًا لتغيُّرِ الأَحوَالِ]

يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ شُغْلُ الْعَاقِلِ [النَّظَرَ][2] فِي الْعَوَاقِبِ، وَالتَّحَرُّزَ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ.

وَمِنَ الْغَلَطِ النَّظَرُ فِي الْحَالَةِ الْحَاضِرَةِ، الْمُوَافِقَةِ لِمَعَاشِهِ، وَلِصِحَّةِ بَدَنِهِ، وَرُبَّمَا لَا يَجْرِي لَهُ مَصْحُوبُهُ[3]، فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَ عَلَىٰ انْقِطَاعِ ذَلِكَ، فَيَكُونُ مُسْتَعِدًّا لِتَغَيُّرِ الْأَحْوَالِ[4].

وَكَذَلِكَ النَّظَرُ فِي لَذَّةٍ تَفْنَىٰ، وَتَبْقَىٰ تَبِعَتُهَا وَعَارُهَا، وَإِيثَارُ الْكَسَلِ وَالدَّعَةِ[5]؛ لِمَا يَجِيءُ بَعْدَهُمَا مِنْ بَقَاءِ الْجَهْلِ.

وَكَذَلِكَ تَحْصِيلُ الْمُرَادَاتِ الَّتِي لَا تُحَصَّلُ إِلَّا بِالتَّلَطُّفِ فِي الِاحْتِيَالِ، خُصُوصًا إِذَا أُرِيدَ مِنْ ذَكِيٍّ، فَإِنَّهُ يَفْطِنُ بِأَقَلِّ تَلْوِيحٍ[6].

فَمَنْ أَرَادَ غَلَبَةَ الذَّكِيِّ؛ دَقَّقَ النَّظَرَ، وَتَلَطَّفَ فِي الِاحْتِيَالِ.

= أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٣٩-٤٣].

(١) يَعْنِي: يُسَاعِدُ هَذَا الْبَطَّالَ الَّذِي لَا عَمَلَ لَهُ عَلَىٰ أَنْ يَجِدَ عَمَلًا مُنَاسِبًا، أَوْ إِشْغَالُهُ بِأَيِّ عَمَلٍ.

(٢) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٣) يَعْنِي: رُبَّمَا يَنْقَطِع عَنْهُ مَا هُوَ فِيْهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْخَيْرِ الَّذِي يُصَاحِبُهُ فِي الوَقْتِ الْحَاضِرِ.

(٤) يَعْنِي: يَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَ عَلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ قَد يَنْقَطِع عَنْهُ؛ فَيَكُونُ مُسْتَعِدًّا لِتَغَيُّرِ الأَحْوَالِ.

(٥) الدَّعَةَ: الرَّاحَةُ وَلِينُ الْعَيْشِ وَسَعَتِهِ، بِدُوْنِ بَذْلٍ أَوْ جُهْدٍ.

(٦) الْمُرَادَاتِ: الْمَطْلُوبَات وَالأَهْدَاف. وَالِاحْتِيَالِ: الْحَذْق فِي تَدْبِيْرِ الأُمُوْرِ. وَبِأَقَلِّ تَلْوِيحٍ: بِأَقَلِّ شَرحٍ أَوْ تَعلِيْق.

وَقَدْ ذُكِرَ فِي كُتُبِ «الْحِيَلِ» مَا يَشْحَذُ الْخَوَاطِرَ، وَأَتَيْنَا بِجُمْلَةٍ مِنْهُ فِي كِتَابِ «الْأَذْكِيَاءِ»[(١)]

مِثْلُ مَا رُوِيَ: «أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَشْرَافِ كَانَ لَا يَقُومُ لِأَحَدٍ، وَلَا يَخْشَىٰ أَحَدًا؛ فَجَازَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْوُزَرَاءِ [وَحَيَّا][(٢)]، فَلَمْ يَرُدَّ وَلَمْ يَقُمْ[(٣)]. فَقَالَ ذَاكَ الْوَزِيرُ لِرَجُلٍ: أَخْبِرْ فُلَانًا أَنِّي قَدْ كَلَّمْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَقِّهِ، وَقَدْ أَمَرَ لَهُ بِمِئَةِ أَلْفٍ؛ فَلْيَحْضُرْ لِيَقْبِضَهَا. فَأَخْبَرَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَقَالَ الشَّرِيفُ: إِنْ كَانَ أَمَرَ لِي بِشَيْءٍ؛ فَلْيُنْفِذْهُ لِي، وَإِنَّمَا مَقْصُودُهُ أَنْ يَضَعَ مِنِّي بِالتَّرَدُّدِ عَلَيْهِ».

فَمَتَىٰ وَقَعَ الْإِنْسَانُ مَعَ ذَكِيٍّ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَحَرَّزَ مِنْهُ، وَيَسْرِقَ أَغْرَاضَهُ بِصُنُوفِ الِاحْتِيَالِ، وَيَنْظُرَ فِيمَا يَجُوزُ وُقُوعُهُ؛ فَلْيَحْتَرِزْ مِنْهُ؛ كَمَا يَنْظُرُ صَاحِبُ الرُّقْعَةِ التَّنَقُّلَاتِ[(٤)].

وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَىٰ أَغْرَاضِهِمْ مِنْ ذَكِيٍّ، فَأَعْطَوْهُ، وَبَالَغُوا فِي إِكْرَامِهِ لِيَصِيدُوهُ؛ فَإِنْ كَانَ قَلِيلَ الْفِطْنَةِ؛ وَقَعَ فِي الشَّرَكِ، وَإِنْ كَانَ أَقْوَىٰ مِنْهُمْ ذَكَاءً؛ عَلِمَ أَنَّ تَحْتَ هَذِهِ الْجُنَّةِ خَبِيَّةً، فَزَادَهُ ذَلِكَ احْتِرَازًا[(٥)].

---

(١) «الْحِيَلِ»: مَعنَاهَا الحَذق، وَجَوْدَة النَّظَر، وَالقُدرَة عَلَىٰ التَّصَرُّف فِي الأُمُورِ وَالتَّخَلُّص مِنَ المُعضِلَات. وَهِيَ نَوْعَان، الأَوَّل: يُتَوَصَّل بِهِ إِلَىٰ فِعل مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَتَرك مَا نَهَىٰ عَنْهُ، وَالتَّخَلُّص مِنَ الحَرَام، وَتَخلِيص الحَقّ مِنَ الظَّالِم المَانِع لَهُ، وَتَخلِيص المَظْلُوم مِن يَدِ الظَّالِم البَاغِي. وَنَحو ذَلِكَ مِمَّا يُحقِّق مَقَاصِد الشَّارِع. وَالثَّانِي: يَتَضَمَّن إِسقَاط الوَاجِبَات، وَتَحلِيل المُحَرَّمَات، وَقَلْب المَظْلُوم ظَالِمًا، وَالحَقّ بَاطِلًا، وَالعَكس. وَمِنْ أَشْهَر الكُتُب: «بَيَان الدَّلِيل عَلَىٰ بُطلَانِ التَّحلِيل» لِابْن تَيمِيَّة. وَ«كَشْف النِّقَاب عَنْ مَوْقِع الحِيَل مِنَ السُّنَّةِ وَالكِتَاب» لِمُحَمَّد عَبْدَ الوَهَّاب بُحَيْري. وَ«الحِيَل الفِقهِيَّة فِي المُعَامَلَاتِ المَالِيَّة» لِمُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم. وَأَمَّا كِتَاب «الأَذْكِيَاء»: فَهُوَ كِتَابٌ فِي نَوَادِرِ الأَذْكِيَاء وَطَرَائِف أَخْبَارِهم، لِابْن الجَوْزِيّ. وَقَد بَنَىٰ المُؤَلِّف كِتَابَه عَلَىٰ ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثِينَ بَابًا مِنْهَا: فَضْل العَقْل وَمَاهِيَّته وَمَحِلّه، وَالذِّهن وَالفَهْم وَالذَّكَاء، وَعَلَامَات الذَّكَاء... وَغَير ذَلِكَ.

(٢) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنى بها.

(٣) فَجَازَ عَلَيْهِ، أَيْ: مَرَّ عَلَيْهِ. وَحَيَّا: سَلَّمَ عَلِيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ؛ وَهَذَا مُخَالِفٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء:٨٦].

(٤) الرُّقْعَةِ الشِّطْرَنْج: رُقْعَة مُرَبَّعَة: لَوْحَة مُرَبَّعَة بِهَا مُرَبَّعَاتٍ سَوْدَاء وَبَيْضَاء. وَالتَّنَقُّلَاتِ: حَرَكَات أَحْجَار الشِّطْرَنْج.

(٥) الْفِطْنَةِ: الْحِذْقُ وَالْمَهَارَةُ. وَالشَّرَكِ: الْمِصْيَدَة أَوْ الْمَكِيْدَة أَوْ الْمُؤَامَرَة. وَالْجُنَّةِ: ثِيَابٌ مُدَوَّرٌ جُعِلَ فِي طَرَفَيْهِ عَلَمَانِ، كَالشَّال، يَضَعهُ بَعْض العُلَمَاء وَالمَشَايِخ عَلَىٰ الكَتِف. وَخَبِيَّةً: سِرٌّ. وَاحْتِرَازًا: تَحَفُّظًا وَاحْتِرَاسًا.

وَأَقْوَىٰ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الِاحْتِرَازُ مِنْ مَوْتُورٍ[١]؛ فَإِنَّكَ إِذَا آذَيْتَ شَخْصًا؛ فَقَدْ غَرَسْتَ فِي قَلْبِهِ عَدَاوَةً؛ فَلَا تَأْمَنْ تَفْرِيعَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَىٰ مَا يُظْهِرُ مِنْ وُدٍّ، وَإِنْ حَلَفَ؛ فَإِنْ قَارَبْتَهُ؛ فَكُنْ مِنْهُ عَلَىٰ حَذَرٍ.

*[٢٤٠ - ٢٨١] [خَاطِرَةٌ]:

[الِاحْتِرَازُ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ]

يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَحْتَرِزَ غَايَةَ مَا يُمْكِنُهُ؛ فَإِذَا جَرَىٰ الْقَدَرُ مَعَ احْتِرَازِهِ؛ لَمْ يُلَمْ[٢].

وَالِاحْتِرَازُ يَنْبَغِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ وُقُوعُهُ، وَأَخْذُ الْعُدَّةِ لِذَلِكَ، وَهَذَا يَكُونُ فِي كُلِّ حَالٍ.

فَقَدْ قَصَّ رَجُلٌ ظُفُرَهُ؛ فَجَارَ عَلَيْهِ[٣]، فَخَبُثَتْ يَدُهُ فَمَاتَ.

وَمَرَّ شَيْخُنَا أَحْمَدُ الْحَرْبِيُّ[٤]، وَهُوَ رَاكِبٌ بِمَكَانٍ ضَيِّقٍ، فَتَطَأْطَأَ عَلَىٰ السَّرْجِ؛ فَانْعَصَرَ فُؤَادُهُ؛ فَمَرِضَ؛ فَمَاتَ[٥].

وَكَانَ يَحْيَىٰ بْنُ بِزَارٍ شَيْخًا يَحْضُرُ مَجْلِسِي، قَدْ طَرَقَ عَلَيْهِ ثِقَلُ الْأُذُنِ، فَاسْتَدْعَىٰ طُرُقِيًّا، فَمَصَّ أُذُنَهُ، فَجَرَىٰ شَيْءٌ مِنْ مُخِّهِ؛ فَمَاتَ[٦].

---

(١) الْمَوْتُور: مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَلَم يُدرِك بِدَمِهِ؛ أَيْ: لَم يَثْأَر لَهُ.

(٢) كَأَنَّهُ ﷺ يُشِيرُ إِلَىٰ مَا أَخْرَجَهُ الحَاكِمِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: «لا يَنْفَعُ الحَذَرُ مِنَ الْقَدَرِ، وَلَكِنَّ اللهَ يَمْحُو بِالدُّعَاءِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْقَدَرِ». رواه الحَاكِم في «المُستدرك» كِتَابُ «التَّفْسِيرِ» بَابُ «سُورَةِ الرَّعْدِ» حديث (٣٣٣٣).

(٣) فَجَارَ عَلَيْهِ؛ أَيْ: تَعَدَّىٰ عَلَيْهِ وَانْتَهَكَهُ.

(٤) أَحْمَد بْن صَاعِد بْن أَبِي الْغَنَائِمِ الإِسْكَافُ أَبُو الْعَبَّاس ابْن أَبِي المَجْدِ الحَرْبِيُّ، حَافِظًا يَؤُمُّ بِالنَّاسِ مَاتَ سَنَةَ: (٥٥١هـ)

(٥) السَّرْجِ: الرَّحْل الَّذِي يُوْضَع عَلَىٰ ظَهْرِ الْفَرَس فَيُقْعَد عَلَيْهِ. فَانْعَصَرَ فُؤَادُهُ؛ أَي: ضَغَطَ عَلَيْهِ.

(٦) يَحْيَىٰ بْنُ بِزَارٍ بْنُ سَعِيد أَبُو الفَضْل المَنْبِجِي، شَاعِرٌ مُحسِن. مَاتَ سَنَةَ: (٥٥٤هـ). وَقَوْلُهُ: «فَاسْتَدْعَىٰ طُرُقِيًّا»: الطُّرُقِيُّ: جَرَّاح طَبِيب دَجَّال يَبِيع الدَّوَاء فِي الطُّرُق العَامَّة. وَالخَبَر فِي «تاريخ بغداد وذيوله» (ج٢١/ ص١٩٨).

وَانْظُرْ إِلَىٰ احْتِرَازِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ مَرَّ عَلَىٰ حَائِطٍ مَائِلٍ فَأَسْرَعَ[١].

وَيَنْبَغِي أَنْ يَحْتَرِزَ بِالْكَسْبِ فِي زَمَنِ شَبَابِهِ؛ ادِّخَارًا لِزَمَنِ شَيْبِهِ، وَلا يَنْبَغِي أَنْ يَثِقَ بِمُعَامِلٍ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ، وَيُبَادِرَ بِالْوَصِيَّةِ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَطْرُقَهُ الْمَوْتُ[٢]، وَيَحْتَرِزَ مِنْ صَدِيقِهِ فَضْلًا عَنْ عَدُوِّهِ، وَلا يَثِقَ بِمَوَدَّةِ مَنْ قَدْ آذَاهُ هُوَ؛ فَإِنَّ الحِقْدَ فِي الْقُلُوبِ قَلَّمَا يَزُولُ، وَلْيَحْتَرِزْ مِنْ زَوْجَتِهِ؛ فَرُبَّمَا أَطْلَعَهَا عَلَىٰ سِرِّهِ، ثُمَّ طَلَّقَهَا؛ فَيَتَأَذَّىٰ بِمَا تَفْعَلُ بِهِ.

وَقَدْ كَانَ ابْنُ أَفْلَحَ الشَّاعِرُ يُكَاتِبُ رَئِيسًا فِي زَمَنِ الْمُسْتَرْشِدِ، فَعَلِمَ بِذَلِكَ بَوَّابُهُ، وَاتَّفَقَ أَنَّهُ صَرَفَ بَوَّابَهُ، فَنَمَّ عَلَيْهِ، وَنُقِضَتْ دَارُهُ[٣].

فَهَذِهِ الْمُذَكِّرَاتُ[٤] أَمْثِلَةٌ تُنَبِّهُ عَلَىٰ مَا لَمْ يُذْكَرْ.

وَأَهَمُّ الْكُلِّ أَنْ يَحْتَرِزَ بِأَخْذِ الْعُدَّةِ، وَتَحْقِيقِ التَّوْبَةِ، قَبْلَ أَنْ يَهْجُمَ عَلَيْهِ مَا لَا يُؤْمَنُ هُجُومُهُ[٥]، وَلْيَحْذَرْ مِنْ لِصِّ الْكَسَلِ؛ فَإِنَّهُ مُحْتَالٌ عَلَىٰ سَرِقَةِ الزَّمَانِ.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده»(٨٦٥١). والبيهقي في «الشعب»(١٢٩٧). وأبو يعلىٰ في «مسنده»(٦٦١٢). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، بِحَائِطٍ مَائِلٍ فَأَسْرَعَ الْمَشْيَ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّكَ خِفْتَ هَذَا الْحَائِطَ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي أَكْرَهُ مَوْتَ الْفَوَاتِ» وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ جِدًّا. وروىٰ البيهقي في «الشعب»(١٢٩٩). عَنْ يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي كَثِيرٍ، قَالَ: بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا مَرَّ بِهَدَفٍ مَائِلٍ أَوْ صَدَفٍ مَائِلٍ أَسْرَعَ الْمَشْيَ». وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ.

(٢) وَذَلِكَ لِمَا فِي مَوْتِ الْفَجْأَةِ مِنْ خَوْفِ حِرْمَانِ الْوَصِيَّةِ وَتَرْكِ الِاسْتِعْدَادِ لِلْمَعَادِ بِالتَّوْبَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَقد روىٰ بن أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ «الْمَوْتِ»: «الْمَحْرُومُ مَنْ حُرِمَ وَصِيَّتَهُ» وَقَدْ نُقِلَ عَنْ أَحْمَدَ وَبَعْضِ الشَّافِعِيَّةِ كَرَاهَةُ مَوْتِ الْفَجْأَةِ وَنَقَلَ النَّوَوِيُّ عَنْ بَعْضِ الْقُدَمَاءِ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَاتُوا كَذَلِكَ قَالَ النَّوَوِيُّ: وَهُوَ مَحْبُوبٌ لِلْمُرَاقِبِينَ. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَبِذَلِكَ يَجْتَمِعُ الْقَوْلَانِ. [«فتح الباري»الحديث:١٣٨٧، ١٣٨٨].

(٣) ابْنُ أَفْلَحَ عَلِيّ بْنُ أَفْلَحَ العَبْسِيّ جَمَال المُلْك أَبُو القَاسِم الشَّاعِر المَشْهُور، مَاتَ:(٥٣٥هـ). وَالْمُسْتَرْشِدِ فِي:[٥٠٧-٥١٣]. وَقَوْلُهُ: «يُكَاتِبُ رَئِيسًا»: هُوَ: دُبَيْس بْنُ صَدَقَة. صَرَفَ بَوَّابَهُ؛ أَي: عَزَلَهُ عَنْ عَمَلِهِ. فَنَمَّ عَلَيْهِ؛ أَيْ: نَقَلَ شَيْئًا عَنْهُ بِخُبْثٍ. وَنُقِضَتْ دَارُهُ؛ أَي: هُدِمَتْ. وَالخَبَر فِي «المنتظم»(١٧/ ٣٣٥/ سنة:٥٣٣).

(٤) الْمُذَكِّرَات؛ بَيَانٌ مُجْمَلٌ، فَهِيَ مُذَكِّرَات لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَذَكَّر.

(٥) يَعْنِي: الْمَوْتُ؛ لِأَنَّهُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤]؛ فَالْعَجَلَ الْعَجَلَ قَبْلَ هُجُوْمِ الأَجَلِ؛ قَبْلَ أَنْ يَنْدَمَ الْمُفْرِطُ عَلَىٰ مَا فَعَلَ، قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَ الرَّجْعَةَ، فَلاَ يُجَابُ إِلَىٰ مَا سَأَلَ، قَبْلَ أَنْ يَحُوْلَ الْمَوْتُ بَيْنَ الْمُؤَمِّلِ وَبُلُوْغِ الأَمَلِ، قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ الْمَرْءُ مُرْتَهِنًا فِي قَبْرِهِ بِمَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ.

*[٤١٢ - ٣٧٤][خَاطِرَةٌ]:

[الْعَاقِلُ يُدَبِّرُ بِعَقْلِهِ عِيشَتَهُ]

الْعَاقِلُ يُدَبِّرُ بِعَقْلِهِ عِيشَتَهُ فِي الدُّنْيَا:

فَإِنْ كَانَ فَقِيرًا؛ اجْتَهَدَ فِي كَسْبٍ وَصِنَاعَةٍ تَكُفُّهُ عَنِ الذُّلِّ لِلْخَلْقِ، وَقَلَّلَ الْعَلَائِقَ، وَاسْتَعْمَلَ الْقَنَاعَةَ(١)؛ فَعَاشَ سَلِيمًا مِنْ مِنَنِ النَّاسِ عَزِيزًا بَيْنَهُمْ.

وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا؛ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُدَبِّرَ فِي نَفَقَتِهِ؛ خَوْفَ أَنْ يَفْتَقِرَ، فَيَحْتَاجَ إِلَى الذُّلِّ لِلْخَلْقِ.

وَمِنَ الْبَلِيَّةِ أَنْ يُبَذِّرَ فِي النَّفَقَةِ، وَيُبَاهِي بِهَا لِيُكْمِدَ الْأَعْدَاءَ(٢)؛ كَأَنَّهُ يَتَعَرَّضُ بِذَلِكَ - إِنْ أَكْثَرَ - لِإِصَابَتِهِ بِالْعَيْنِ!(٣).

وَيَنْبَغِي التَّوَسُّطُ فِي الْأَحْوَالِ، وَكِتْمَانُ مَا يَصْلُحُ كِتْمَانُهُ.

وَلَقَدْ وَجَدَ بَعْضُ الْغَسَّالِينَ مَالًا(٤)، فَأَكْثَرَ فِي النَّفَقَةِ، فَعُلِمَ بِهِ؛ فَأُخِذَ مِنْهُ الْمَالُ، وَعَادَ إِلَى الْفَقْرِ.

وَإِنَّمَا التَّدْبِيرُ حِفْظُ الْمَالِ، وَالتَّوَسُّطُ فِي الْإِنْفَاقِ، وَكِتْمَانُ مَا لَا يَصْلُحُ إِظْهَارُهُ.

وَمِنَ الْغَلَطِ إِطْلَاعُ الزَّوْجَةِ عَلَى قَدْرِ الْمَالِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ قَلِيلًا؛ هَانَ عِنْدَهَا الزَّوْجُ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا؛ طَلَبَتْ زِيَادَةَ الْكِسْوَةِ وَالْحُلِيِّ! قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾[النساء: ٥]. وَكَذَلِكَ الْوَلَدُ.

وَكَذَلِكَ الْأَسْرَارُ؛ يَنْبَغِي أَنْ تُحْفَظَ، وَأَنْ يُحْذَرَ مِنْهَا وَمِنَ الصَّدِيقِ؛ فَرُبَّمَا انْقَلَبَ؛ فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ(٥):

---

(١) الْعَلَائِقَ: مَا تَعَلَّقَ بِهِ الْإِنْسَانِ مِنْ صِنَاعَةٍ وَغَيرِهَا. وَالْقَنَاعَةَ: الرِّضَا بِالْيَسِيرِ مِنَ الْعَطَاءِ.

(٢) أي: يُحزِنهم حُزْنًا شَدِيدًا، ويُغِيظهم.

(٣) يعني: الْحَسَد؛ فَتَزُول عَنْهُ أَوْ تُسْلَب مِنْهُ.

(٤) الْغَسَّال: الَّذِي يَغْسِلُ الثِّيَاب.

(٥) البيتان من البحر: [مجزوء الكامل]، والقائل: منصور بن إسماعيل الفقيه.

اخْـــــذَرْ عَـــــدُوَّكَ مَـــــرَّةً وَاحْـــذَرْ صَـــدِيقَكَ أَلْـــفَ مَـــرَّةْ
فَلَرُبَّمَـــا انْقَلَـــبَ الصَّدِيـــــقُ فَكَـــانَ أَعْلَـــمَ بِالْمَضَـــرَّةْ

*[٢٤٢ - ٣٣٠][خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ تبعَ العقلَ؛ سلِمَ، ومَنْ أطاعَ الحِسَّ؛ ندمَ]

مَنْ وَقَفَ عَلَىٰ مُوجِبِ الْحِسِّ؛ هَلَكَ، وَمَنْ تَبِعَ الْعَقْلَ؛ سَلِمَ: لِأَنَّ مُجَرَّدَ الْحِسِّ لا يَرَىٰ إِلَّا الْحَاضِرَ، وَهُوَ الدُّنْيَا.

وَأَمَّا الْعَقْلُ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَىٰ الْمَخْلُوقَاتِ، فَيَعْلَمُ وُجُودَ خَالِقٍ قَدْ مَنَح، وَأَبَاحَ(١)، وَأَطْلَقَ، وَحَظَرَ، وَأَخْبَرَ أَنِّي سَائِلُكُمْ وَمُبْتَلِيكُمْ؛ لِيَظْهَرَ دَلِيلُ وُجُودِي عِنْدَكُمْ، بِتَرْكِ مَا تَشْتَهُونَ، طَاعَةً لِي، وَأَنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكُمْ دَارًا غَيْرَ هَذِهِ؛ لِإِثَابَةِ مَنْ يُطِيعُ، وَعُقُوبَةِ مَنْ يُخَالِفُ.

ثُمَّ لَوْ تَرَكَ الْحِسُّ وَمَا يَشْتَهِي مَعَ أَغْرَاضِهِ؛ قَرُبَ الْأَمْرُ!

إِنَّمَا يَزْنِي فَيُجْلَدُ، وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ فَيُعَاقَبُ، وَيَسْرِقُ فَيُقْطَعُ، وَيَفْعَلُ زَلَّةً فَيُفْضَحُ بَيْنَ الْخَلْقِ، وَيُعْرِضُ عَنِ الْعِلْمِ إِلَىٰ الْبَطَالَةِ فَيَقَعُ النَّدَمُ عِنْدَ حُصُولِ الْجَهْلِ.

ثُمَّ إِنَّا نَرَىٰ الْكَثِيرَ مِمَّنْ عَمِلَ بِمُقْتَضَىٰ عَقْلِهِ قَدْ سَلِمَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهُ، وَمُيِّزَ بَيْنَ الْخَلْقِ بِالتَّعْظِيمِ، وَكَانَ عَيْشُهُ فِي لَذَّاتِهِ غَالِبًا خَيْرًا مِنْ عَيْشٍ مُوَافِقٍ لِلْهَوَىٰ.

فَلْيَعْتَبِرْ ذُو الْفَهْمِ بِمَا قُلْتُ، وَلْيَعْمَلْ بِمُقْتَضَىٰ الدَّلِيلِ، وَقَدْ سَلِمَ.

---

(١) هكذا في الأصل، ولعله: [مَنَعَ وَأَبَاحَ].

*[٣٤٣ - ٣٢٩][خَاطِرَةٌ]:

[عَلَى الْعَاقِلِ النَّظَرُ إِلَى عَوَاقِبِ اللَّذَّاتِ]

تَذَكَّرْتُ(١) فِي سَبَبِ دُخُولِ جَهَنَّمَ؛ فَإِذَا هُوَ الْمَعَاصِي.

فَنَظَرْتُ(٢) فِي الْمَعَاصِي؛ فَإِذَا هِيَ حَاصِلَةٌ مِنْ طَلَبِ اللَّذَّاتِ.

فَنَظَرْتُ فِي اللَّذَّاتِ؛ فَرَأَيْتُهَا خِدَعًا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ، وَفِي ضِمْنِهَا مِنَ الأَكْدَارِ مَا يُصَيِّرُهَا نَغْصًا(٣)، فَتَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهَا لَذَّاتٍ.

فَكَيْفَ يَتْبَعُ الْعَاقِلُ نَفْسَهُ، وَيَرْضَىٰ بِجَهَنَّمَ، لِأَجْلِ هَٰذِهِ الأَكْدَارِ؟!(٤).

فَمِنَ اللَّذَّاتِ الزِّنَا؛ فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ إِرَاقَةَ الْمَاءِ؛ فَقَدْ يُرَاقُ فِي حَلَالٍ، وَإِنْ كَانَ فِي مَعْشُوقٍ؛ فَمُرَادُ النَّفْسِ دَوَامُ الْبَقَاءِ مَعَ الْمَعْشُوقِ؛ فَإِذَا هِيَ مَلَكَتْهُ؛ فَالْمَمْلُوكُ مَمْلُولٌ(٥)، وَإِنْ هُوَ قَارَبَهُ سَاعَةً ثُمَّ فَارَقَهُ؛ فَحَسْرَةُ الْفِرَاقِ تَرْبُو عَلَىٰ لَذَّةِ الْقُرْبِ، وَإِنْ كَانَ وُلِدَ لَهُ مِنَ الزِّنَا؛ فَالْفَضِيحَةُ الدَّائِمَةُ، وَالْعُقُوبَةُ التَّامَّةُ، وَتَنْكِيسُ الرَّأْسِ عِنْدَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ . . . وَأَمَّا الْجَاهِلُ؛ فَيَرَىٰ لَذَّتَهُ فِي بُلُوغِ ذَلِكَ الْغَرَضِ، وَيَنْسَىٰ مَا يَجْنِي مِمَّا يُكَدِّرُ عَيْشَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَمِنْ ذَلِكَ شُرْبُ الْخَمْرِ؛ فَإِنَّهُ تَنْجِيسٌ لِلْفَمِ وَالثَّوْبِ، وَإِبْعَادٌ لِلْعَقْلِ، وَتَأْثِيرَاتُهُ مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ؛ فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يُؤْثِرُ لَذَّةَ سَاعَةٍ تَجْنِي عِقَابًا، وَذَهَابَ جَاهٍ! وَرُبَّمَا خَرَجَ بِالْعَرْبَدَةِ إِلَى الْقَتْلِ!!(٦).

وَعَلَىٰ هَذَا فَقِسْ جَمِيعَ الْمَذُوقَاتِ؛ فَإِنَّ لَذَّاتِهَا إِذَا وُزِنَتْ بِمِيزَانِ الْعَقْلِ لَا تَفِي بِمِعْشَارِ

(١) تَذَكَّرْتُ؛ أَيْ: اِسْتَحْضَرْتُ وَتَفَكَّرْتُ.
(٢) فَنَظَرْتُ؛ أَيْ: تَدَبَّرْتُ وَتَأَمَّلْتُ.
(٣) وَفِي ضِمْنِهَا؛ أَيْ: مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهَا وَاحْتَوَاهَا. وَالأَكْدَارُ: الاضْطِرَابُ. وَنَغْصًا: لَمْ تَتِمّ هَنَاءَته فَقَلِق، وَانْزَعَجَ.
(٤) هَٰذِهِ الأَكْدَارِ؛ أَيْ: هَٰذِهِ الأَشْيَاءِ الْحَقِيرَةِ الَّتِي لَا قِيمَةَ لَهَا.
(٥) الْمَمْلُوكُ مَمْلُولٌ: تَعْبِيرٌ عَنْ زُهْدِ النَّفْسِ فِيمَا هُوَ سَهْلٌ قَرِيبُ الْمَنَالِ. كُلّ مَوْجُودٍ مَمْلُولٌ، وَكُلّ مَفْقُودٍ مَطْلُوبٌ.
(٦) عَرْبَدَ السَّكْرَانُ؛ أَيْ: سَاءَ خُلُقه، وَآذَىٰ النَّاسَ فِي سُكْرِه.

عُشَيْرِ عَوَاقِبِهَا الْقِبَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ هِيَ نَفْسُهَا لَيْسَتْ بِكَثِيرِ شَيْءٍ . . . فَكَيْفَ تُبَاعُ الْآخِرَةُ بِمِثْلِ هَذَا؟!

سُبْحَانَ مَنْ أَنْعَمَ عَلَىٰ أَقْوَامٍ، كُلَّمَا لَاحَتْ لَهُمْ لَذَّةٌ؛ نَصَبُوا مِيزَانَ الْعَقْلِ، وَنَظَرُوا فِيمَا يَجْنِي، وَتَلَمَّحُوا مَا يُؤْثِرُ تَرْكُهَا، فَرَجَّحُوا الْأَصْلَحَ(١).

وَطَمَسَ عَلَىٰ قُلُوبٍ؛ فَهِيَ تَرَىٰ صُورَةَ الشَّيْءِ، وَتَنْسَىٰ جِنَايَاتِهِ.

ثُمَّ الْعَجَبُ أَنَّا نَرَىٰ مَنْ يَبْعُدُ عَنْ زَوْجَتِهِ، وَهُوَ شَابٌّ، لِيَغْدُوَ فِي الطَّرِيقِ، فَيُقَالَ: سَاعٍ! فَيَغْلِبُ هَوَاهُ لِطَلَبِ مَا هُوَ أَعْلَىٰ، وَهُوَ الْمَدْحُ؛ كَيْفَ لَا يَتْرُكُ مُحَرَّمًا لِيُمْدَحَ فِي الدُّنْيَا وَالْأُخْرَىٰ؟!

ثُمَّ قَدِّر حُصُولَ مَا طَلَبْتَ مِنَ اللَّذَّاتِ وَذَهَابُهَا، وَأَحْسَبُ أَنَّهَا قَدْ كَانَتْ، وَقَدْ هَانَتْ، وَتَخَلَّصْتَ مِنْ مِحَنِهَا. أَيْنَ أَنْتَ مِنْ غَيْرِكَ؟!

أَيْنَ تَعَبُ عَالِمٍ قَدْ دَرَسَ الْعِلْمَ خَمْسِينَ سَنَةً؟! ذَهَبَ التَّعَبُ، وَحَصَلَ الْعِلْمُ.

وَأَيْنَ لَذَّةُ الْبَطَّالِ؟! ذَهَبَتِ الرَّاحَةُ، وَأَعْقَبَتِ النَّدَمَ.

---

(١) قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ»(الباب:٢٦/ ص٢٨٥و٢٩٠): «هَذَا بَابٌ لَا يَدْخُلُ فِيهِ إِلَّا النُّفُوس الْفَاضِلَة الشَّرِيفَة الأَبِيَّة الَّتِي لَا تَقْنَعُ بِالدُّوْنِ، وَلَا تَبِيْعُ الأَعْلَىٰ بِالأَدْنَىٰ بَيْع الْعَاجِز الْمَغْبُوْن . . . وَذَلِكَ دَلِيْلٌ عَلَىٰ وَضَاعَةِ النَّفْس وَقِلَّةِ قِيْمَتِهَا . . . وَمَلَاكُ الأَمْرِ كُلّه (١) الرَّغْبَة فِي اللهِ وَإِرَادَةِ وَجْهِهِ وَالتَّقَرُّب إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْوَسَائِل، وَالشَّوْق إِلَىٰ الْوُصُوْلِ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ لِقَائِهِ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْعَبْدِ هِمَّةٌ إِلَىٰ ذَلِكَ؛ (٢) فَالرَّغْبَة فِي الجَنَّةِ وَنَعِيمهَا وَمَا أَعَدَّ اللهُ فِيهَا لِأَوْلِيَائِهِ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُن لَهُ هِمَّةٌ عَالِيَة تُطَالِبُهُ بِذَلِكَ؛ (٣) فَخَشْيَة النَّارِ وَمَا أَعَدَّ اللهُ فِيهَا لِمَنْ عَصَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تُطَاوِعْهُ نَفْسُهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ؛ (٤) فَلْيَعْلَم أَنَّهُ خُلِقَ لِلْجَحِيْمِ لَا لِلنَّعِيْمِ، وَلا يَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ بَعْدَ قَدَرِ اللهِ وَتَوْفِيْقِهِ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ هَوَاهُ، فَهَذِهِ فُصُوْلٌ أَرْبَعَةٌ هُنَّ رَبِيْعُ الْمُؤْمِن وَصَيْفُهُ وَخَرِيْفُهُ وَشِتَاؤُهُ، وَهُنَّ مَنَازِلُهُ فِي سَيْرِهِ إِلَىٰ اللهِ عز وجل وَلَيْسَ لَهُ مَنْزِلَةٌ غَيْرهَا. فَأَمَّا مُخَالَفَة الْهَوَىٰ فَلَم يَجْعَل الله لِلْجَنَّة طَرِيْقًا غَيْر مُخَالَفَته، وَلَم يَجْعَل لِلنَّارِ طَرِيْقًا غَيْرَ مُتَابَعَته، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٣٧-٤١]»اهـ. بتصرف.

*[٩٤٤ - ٢١٢][خَاطِرَةٌ]:

[نَسأَلُ اللهَ عَقلًا يُدَبِّرُ دُنيَانَا]

لا يُنْكَرُ أَنَّ الطِّبَاعَ تُحِبُّ الْمَالَ؛ لِأَنَّهُ سَبَبُ بَقَاءِ الأَبْدَانِ؛ لَكِنَّهُ يَزِيدُ حُبُّهُ فِي بَعْضِ الْقُلُوبِ، حَتَّىٰ يَصِيرَ مَحْبُوبًا لِذَاتِهِ، لا لِلتَّوَصُّلِ بِهِ إِلَىٰ الْمَقَاصِدِ!

فَتَرَىٰ الْبَخِيلَ يُحَمِّلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْعَجَائِبَ، وَيَمْنَعُهَا اللَّذَّاتِ، وَتَصِيرُ لَذَّتُهُ فِي جَمْعِ الْمَالِ!

وَهَذِهِ جِبِلَّةٌ فِي خَلْقٍ كَثِيرٍ[1]، وَلَيْسَ الْعَجَبُ أَنْ تَكُونَ فِي الْجُهَّالِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يُؤْثَرَ فِيهَا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ الْمُجَاهَدَةُ لِلطَّبْعِ وَمُخَالَفَتُهُ، خُصُوصًا فِي الأَفْعَالِ اللَّازِمَةِ فِي جَمْعِ الْمَالِ.

فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْعَالِمُ جَامِعًا لِلْمَالِ مِنْ وُجُوهٍ قَبِيحَةٍ، وَمِنْ شُبُهَاتٍ قَوِيَّةٍ، وَبِحِرْصٍ شَدِيدٍ، وَبِذُلٍّ فِي الطَّلَبِ، ثُمَّ يَأْخُذُ مِنَ الزَّكَوَاتِ، وَلَا تَحِلُّ لَهُ مَعَ الْغِنَىٰ، ثُمَّ يَدَّخِرُهُ، وَلَا يَنْفَعُ بِهِ: فَهَذِهِ بَهِيمِيَّةٌ تَخْرُجُ عَنْ صِفَاتِ الْآدَمِيَّةِ، بَلِ الْبَهِيمِيَّةُ أَعْذَرُ؛ لِأَنَّهَا بِالرِّيَاضَةِ تَتَغَيَّرُ طِبَاعُهَا، وَهَؤُلَاءِ مَا غَيَّرَتْهُمُ الرِّيَاضَةُ[2]، وَلَا أَفَادَهُمُ الْعِلْمُ!

وَلَقَدْ كَانَ أَبُو الْحَسَنِ الْبِسْطَامِيُّ مُقِيمًا فِي رِبَاطِ الْبِسْطَامِيِّ الَّذِي عَلَىٰ نَهَرِ عِيسَىٰ، وَكَانَ لَا يَلْبَسُ إِلَّا الصُّوفَ شِتَاءً وَصَيْفًا، وَكَانَ يُحْتَرَمُ وَيُقْصَدُ، فَخَلَّفَ مَالًا يَزِيدُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ آلَافِ دِينَارٍ![3].

---

(١) جِبِلَّةٌ ، أَيْ: خِلقَةٌ وَطَبِيعَةٌ.

(٢) الْمَقصُودُ بِالرِّيَاضَةِ هُنَا: تَهْذِيبُ الأَخلَاقِ النَّفسِيَّةِ بِمُلَازَمَةِ العِبَادَاتِ وَالتَّخَلِّي عَنِ الشَّهَوَاتِ.

(٣) أَبُو الْحَسَنِ الْبِسْطَامِيُّ تُوفِيَ سَنَةَ:(٤٩٣هـ) وَرِبَاطُهُ مَشْهُورٌ بَنَاهُ أَبُو الْغَنَائِمِ بْنُ الْمِخلِبَانِ أَحد رِجَال الدَّوْلَة العَبَّاسِيَّة وَمَوْضِعُهُ بِبَغْدَاد مَدرَسَة الكَرخ الثَّانَوِيَّة الْحَالِيَّة. وَهَذَا الرَّجُل حَالُهُ بِعَكْسِ عَبْد الرَّزَّاقِ الصُّوفِيِّ، الْمُقِيمُ بِرِبَاطِ عَتَّابٍ مَاتَ وَلَهُ نَحْوُ مِائَةِ سَنَةٍ، وَلَمْ يَتْرُكْ كَفَنًا. وَاتِّفَاقِ مَوْتِهِمَا فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ، فَرَحِمَ اللهُ الأَوَّلَ وَسَامَحَ الثَّانِي. وخبره في «المنتظم» لابن الجوزي.(ج١٧/ ص٥٧/ سنة :٤٩٣). «الكامل» لابن الأثير.(ج٩/ ص٢٩/ سنة:٤٩٣).

وَرَأَيْنَا بَعْضَ أَشْيَاخِنَا، وَقَدْ بَلَغَ الثَّمَانِينَ، وَلَيْسَ لَهُ أَهْلٌ وَلَا وَلَدٌ، وَقَدْ مَرِضَ، فَأَلْقَىٰ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ؛ يَتَكَلَّفُ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ مَا يَشْتَهِيهِ وَمَا يَشْفِيهِ، فَمَاتَ، فَخَلَّفَ أَمْوَالًا عَظِيمَةً!

وَرَأَيْنَا صَدَقَةَ بْنَ الْحُسَيْنِ النَّاسِخَ[١]، وَكَانَ عَلَىٰ الدَّوَامِ يَذُمُّ الزَّمَانَ وَأَهْلَهُ، وَيُبَالِغُ فِي الطَّبِّ مِنَ النَّاسِ، وَيَتَجَفَّفُ، وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ، لَيْسَ لَهُ مَنْ يَقُومُ بِأَمْرِهِ، فَمَاتَ، فَخَلَّفَ فِيمَا قِيلَ ثَلَاثَ مِئَةِ دِينَارٍ.

وَكَانَ يَصْحَبُنَا أَبُو طَالِبِ بْنُ الْمُؤَيَّدِ الصُّوفِيُّ[٢]، وَكَانَ يَجْمَعُ الْمَالَ، فَسُرِقَ مِنْهُ نَحْوُ مِئَةِ دِينَارٍ، فَتَلَهَّفَ عَلَيْهَا[٣]، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ هَلَاكِهِ.

وَمِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ أَنَّكَ تَرَىٰ أَقْوَامًا جَلَسُوا عَلَىٰ صِفَةِ الْقَوْمِ، يَطْلُبُونَ الْفُتُوحَ، فَيَأْتِيهِمْ مِنْهَا الْكَثِيرُ، الَّذِي يَصِيرُونَ بِهِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ، وَهُمْ لَا يَمْتَنِعُونَ مِنْ أَخْذِ زَكَاةٍ، وَلَا مِنْ طَلَبٍ!

وَكَذَلِكَ الْقُصَّاصُ؛ يَخْرُجُونَ إِلَىٰ الْبِلَادِ، وَيَطْلُبُونَ، فَيَحْصُلُ لَهُمُ الْمَالُ الْكَثِيرُ، فَلَا يَتْرُكُونَ الطَّلَبَ عَادَةً.

فَيَا سُبْحَانَ اللهِ! أَيُّ شَيْءٍ أَفَادَ الْعِلْمُ؟! بَلِ الْجَهْلُ كَانَ لِهَؤُلَاءِ أَعْذَرُ!

وَمِنْ أَقْبَحِ أَحْوَالِهِمْ لُزُومُهُمُ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَجْلِبُ لَهُمُ الدُّنْيَا؛ مِنَ التَّخَاشُعِ، وَالتَّنَسُّكِ فِي الظَّاهِرِ[٤]، وَمُلَازَمَةِ حَثِّ الْعُزْلَةِ عَنِ الْمُخَالَطَةِ! وَكُلُّ هَؤُلَاءِ بِمَعْزِلٍ عَنِ الشَّرْعِ.

وَلَقَدْ تَأَمَّلْتُ عَلَىٰ بَعْضِهِمْ مِنَ الْقَدْحِ فِي نَظِيرِهِ إِلَىٰ أَنْ يَبْلُغَ إِلَىٰ التَّعَرُّضِ بِهِ لِلْهَلَاكِ.

فَالْوَيْلُ لَهُمْ! مَا أَقَلَّ مَا يَتَمَتَّعُونَ بِظَوَاهِرِ الدُّنْيَا!

وَإِنْ كَانَ مُقَلِّبُ الْقُلُوبِ، قَدْ صَرَفَ الْقُلُوبَ عَنْ مَحَبَّتِهِمْ - لِأَنَّ الْحَقَّ ﷻ لَا يَمِيلُ بِالْقُلُوبِ إِلَّا

---

(١) صَدَقَةُ بْنُ الْحُسَيْنِ أَبُو الفَرَجِ ابْنُ الحَدَّادِ البَغْدَادِيُّ، النَّاسِخُ، الْمُتَكَلِّمُ، المتَّهَمُ فِي دِينِهِ -أَعَاذَنَا الله مِنَ الشَّقَاوَةِ-.

(٢) ابْنُ الْمُؤَيَّدِ: أَبُو الْفَتْحِ مَحْمُود بن عَلِيّ بن الْعَبَّاس الْمَعْرُوف بِبْنُ الْمُؤَيَّدِ الصُّوفِيُّ.

(٣) تَلَهَّفَ عَلَىٰ: حَزِنَ وَتَحَسَّرَ. وَتَلَهَّفَ إِلَىٰ: تَشَوَّقَ وَرَغِبَ فِيهِ.

(٤) التَّخَاشُعِ: التَّكَلُّف وَالْخُضُوع وَالاستِكَانَة. وَالتَّنَسُّكِ: التَّزَهُّد وَالتَّعَبُّد.

إِلَىٰ الْمُخْلَصِينَ -؛ فَقَدْ فَاتَتْهُمُ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَمَا حَصَّلُوا إِلَّا صُورَةَ الْحُطَامِ!(١).

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ عَقْلًا يُدَبِّرُ دُنْيَانَا، وَيُحَصِّلُ لَنَا آخِرَتَنَا، وَالرَّزَّاقُ قَادِرٌ.

*[٢٤٥ - ٢٢٨][خَاطِرَةٌ]:

[مِنَ الْبَلَهِ تَذَلُّلُ الْكَامِلِ لِلنَّاقِصِ]

طَالَ تَعَجُّبِي مِنْ أَقْوَامٍ لَهُمْ أَنَفَةٌ، وَعِنْدَهُمْ كِبْرٌ زَائِدٌ فِي الْحَدِّ!

خُصُوصًا الْعَرَبَ، الَّذِينَ مِنْ كَلِمَةٍ يَنْفِرُونَ، وَيُحَارِبُونَ، وَيَرْضَوْنَ بِالْقَتْلِ! حَتَّىٰ إِنَّ قَوْمًا مِنْهُمْ أَدْرَكُوا الْإِسْلَامَ، فَقَالُوا: كَيْفَ نَرْكَعُ وَنَسْجُدُ فَتَعْلُونَا أَسْتَاهُنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ وَلا سُجُودٌ»(٢).

وَمَعَ هَذِهِ الْأَنَفَةِ؛ يَذِلُّونَ لِمَنْ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُ؛ هَذَا يَعْبُدُ حَجَرًا! وَهَذَا يَعْبُدُ خَشَبَةً! وَقَدْ كَانَ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ الْخَيْلَ وَالْبَقَرَ!

وَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَأَخَسُّ مِنْ إِبْلِيسَ، فَإِنَّ إِبْلِيسَ أَنِفَ - لِادِّعَائِهِ الْكَمَالَ - أَنْ يَسْجُدَ لِنَاقِصٍ، فَقَالَ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[ص:٧٦]! وَفِرْعَوْنُ أَنِفَ أَنْ يَعْبُدَ شَيْئًا أَصْلًا!(٣).

---

(١) صُورَةَ الْحُطَامِ: صُورَةَ مَتَاعُ الدُّنْيَا، وَهُوَ يَفْنَىٰ وَلَا يَبْقَىٰ.

(٢) أَسْتَاهُنَا: الأَسْت مُؤَخَّرُ الشَّخص، حَلَقَة الدُّبُر. وَالْحَدِيث رَوَاه أبو داود، ك: «الْخَرَاج»(٣٠٢٦). عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، أَنَّ وَفْدَ ثَقِيفٍ لَمَّا قَدِمُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنْزَلَهُمُ الْمَسْجِدَ لِيَكُونَ أَرَقَّ لِقُلُوبِهِمْ، فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ لَا يُحْشَرُوا، وَلَا يُعْشَرُوا، وَلَا يُجَبُّوا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَكُمْ أَنْ لا تُحْشَرُوا، وَلا تُعْشَرُوا، وَلا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ». قَالَ الْخَطَّابِيُّ فِي «مَعَالِم السُّنَن»(٣/ ٣٤، ٣٥): «قَوْلُهُ: «لا تُحْشَرُوا» مَعْنَاهُ: الْحَشْر فِي الجِهَادِ وَالنَّفِير لَهُ. وَ«لا تُعْشَرُوا» مَعْنَاهُ: الصَّدَقَة؛ أَيْ: لَا يُؤْخَذُ عُشْرُ أَمْوَالِهِم. وَ«لا يُجَبُّوا» مَعْنَاهُ: لَا يُصَلُّوا، وَأَصْلُ «التَّجْبِيَة»: أَنْ يُكِبَّ الإِنْسَان عَلَىٰ مُقَدَّمِه وَيَرفَع مُؤَخَّره. وَيُشْبِه أَنْ يَكُوْنَ النَّبِيّ ﷺ إِنَّمَا سَمَحَ لَهُم بِالْجِهَادِ وَالصَّدَقَة؛ لِأَنَّهُمَا لَم يَكُوْنَا وَاجِبَيْنِ فِي العَاجِل؛ لِأَنَّ الصَّدَقَة إِنَّمَا تَجِبُ بِحُلُوْلِ الْحَوْلِ، وَالجِهَاد إِنَّمَا يَجِب لِحُضُوْر العَدُو، فَأَمَّا الصَّلاة فَهِي رَاهِنَةٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَة فِي أَوْقَاتِهَا الْمَوْقُوْتَة وَلَم يُجِز أَنْ يَشْتَرِطُوا تَركهَا، وَقَد سُئِلَ جَابر بْن عَبْد اللهِ ﵁ عَنِ اشْتِرَاطِ ثَقِيف أَنْ لا صَدَقَةَ عَلَيْهَا وَلَا جِهَادِ، فَقَالَ: عَلِمَ أَنَّهُم سَيَتَصَدَّقُوْنَ وَيُجَاهِدُوْنَ إِذَا أَسْلَمُوْا»اهـ.

(٣) أَيْ: وَهُم أَخَسّ مِنْ فِرْعَوْنَ أَيضًا؛ لأَنَّهُ لَم يَعْبُد شَيْئًا أَصْلًا.

فَالْعَجَبُ مِنْ ذُلِّ هَؤُلَاءِ الْمُفْتَخِرِينَ الْمُتَعَاظِمِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ لِحَجَرٍ أَوْ خَشَبَةٍ!

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَذِلَّ النَّاقِصُ لِلْكَامِلِينَ!!

وَقَدْ أُشِيرَ إِلَىٰ هَذَا فِي ذَمِّ الْأَصْنَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ﴾[الأعراف:١٩٥]، وَالْمَعْنَىٰ: أَنْتُمْ لَكُمْ هَذِهِ الْآلَاتُ الْمُدْرِكَةُ، وَهُمْ لَيْسَ لَهُمْ؛ فَكَيْفَ يَعْبُدُ الْكَامِلُ النَّاقِصَ؟!

غَيْرَ أَنَّ هَوَىٰ الْقَوْمِ فِي مُتَابَعَةِ الْأَسْلَافِ، وَاسْتِحْلَاءِ مَا اخْتَرَعُوهُ بِآرَائِهِمْ؛ غَطَّىٰ عَلَىٰ الْعُقُولِ، فَلَمْ تَتَأَمَّلْ حَقَائِقَ الْأُمُورِ![١].

ثُمَّ غَطَّىٰ الْحَسَدُ عَلَىٰ أَقْوَامٍ فَتَرَكُوا الْحَقَّ، وَقَدْ عَرَفُوهُ!

فَأُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ يُقِرُّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَقْصِدُهُ لِيُؤْمِنَ بِهِ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَقُولُ: «لا أُومِنُ بِرَسُولٍ لَيْسَ مِنْ ثَقِيفٍ»[٢].

وَأَبُو جَهْلٍ يَقُولُ: «وَاللهِ، مَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ، وَلَكِنْ، إِذَا كَانَتِ السِّدَانَةُ وَالْحِجَابَةُ فِي بَنِي هَاشِمٍ، ثُمَّ النُّبُوَّةُ، فَمَا بَقِيَ لَنَا؟!»[٣].

---

(١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٧٠]. وَقَال: ﴿ بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف:٢١-٢٤].

(٢) أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ عَبْدُ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ أَبُو عُثْمَان الثَّقَفِيِ، كَانَ يَقْرَأُ كُتُبَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَلَهُ شِعْرٌ كَثِيرٌ يَذْكُرُ فِيهِ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَفِي «سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ»(٣٧٥٨) عَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَنْشَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِئَةَ قَافِيَةٍ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ، يَقُولُ بَيْنَ كُلِّ قَافِيَةٍ: «هِيهْ»، وَقَالَ: «كَادَ أَنْ يُسْلِمَ». وخبره في «تاريخ» ابن عساكر.(٩/ ٢٦٠). «البداية والنهاية» لابن كثير.(٣/ ٢٨١) قَالَ: «وَاللهِ مَا كُنْتُ لِأُؤْمِنَ بِرَسُولٍ مِنْ غَيْرِ ثَقِيفٍ أَبَدًا».

(٣) أَبُو جَهْلٍ عَمْرو بنِ هِشَامٍ المَخْزُومِيُّ. والسِّدَانَةُ: هِيَ خِدْمَةُ الْبَيْتِ وَتَعْظِيمُهُ وَالْقِيَامُ بِأَمْرِهِ. وَالْحِجَابَةُ: هِيَ حِجَابَةُ الْكَعْبَةِ وَحِرَاسَةُ مَفَاتِيحِ الكَعْبَةِ. والخبر في «جامع البيان» للطبري.(ج٤/ ص٣١٦٧)،«أسباب النزول» للواحدي. (ص١٣٣) قَالَ السُّدِّيُّ: الْتَقَىٰ الأَخْنَسُ بْنُ شُرَيْقٍ، وَأَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ، فَقَالَ الأَخْنَسُ لِأَبِي جَهْلٍ: يَا أَبَا الْحَكَمِ، =

وَأَبُو طَالِبٍ يَرَىٰ الْمُعْجِزَاتِ، وَيَقُولُ: «إِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ»، «وَلَوْلا أَنْ تُعَيِّرَنِي نِسَاءُ قُرَيْشٍ، لأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ»(١).

فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ظُلْمَةِ حَسَدٍ، وَغَيَابَةِ كِبْرٍ، وَحَمَاقَةِ هَوًىٰ، تُغَطِّي عَلَىٰ نُورِ الْعَقْلِ.

وَنَسْأَلُهُ إِلْهَامَ الرُّشْدِ، وَالْعَمَلَ بِمُقْتَضَىٰ الْحَقِّ(٢).

*[٢٤٦ - ٢١٠][خَاطِرَةٌ]:

[مَن الأَبْلَه؟]

لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَبْلَهُ مِمَّنْ يُرِيدُ مُعَامَلَةَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ بُلُوغِ الأَغْرَاضِ(٣).

= أَخْبِرْنِي عَنْ مُحَمَّدٍ أَصَادِقٌ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ؟ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا أَحَدٌ يَسْمَعُ كَلامَكَ غَيْرِي. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَصَادِقٌ، وَمَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ، وَلَكِنْ إِذَا ذَهَبَ بَنُو قُصَيٍّ بِاللِّوَاءِ وَالسِّقَايَةِ وَالْحِجَابَةِ وَالنَّدْوَةِ وَالنُّبُوَّةِ فَمَاذَا يَكُونُ لِسَائِرِ قُرَيْشٍ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ...﴾ [الأنعام:٣٣].

(١) أَبُو طَالِبٍ عَبْدُ مَنَافِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَالْجُزْءُ الأَوَّلُ مِنَ الْخَبَرِ أَوْرَدَهُ اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٢٧٣٣) وَهُوَ حَدِيثٌ بَاطِلٌ. وَالقَائِلُ: «نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ عَلَىٰ الحَقِّ» هُوَ: الحَارِثُ بنُ عُثْمَانَ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مُنَافٍ، وَفِيهِ نَزَلَتْ: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ...﴾ [القصص:٥٧]. وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنَ الْخَبَرِ بِهَذَا اللَّفْظِ رَوَاه البزار في «مسنده» (١٧/ ١٥٠/ ح٩٧٥٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَمِّهِ: «قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فَقَالَ: لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي نِسَاءُ قُرَيْشٍ، لأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ، يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ الْجَزَعُ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، رواه مسلم بدون كلمة «نِسَاءُ»، كِتَابُ «الإِيمَانِ» بَابُ «أَوَّلُ الإِيمَانِ قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» (٢٥).

(٢) غَيَابَة: قَعْر وَغَوْر. وَحَمَاقَة: قِلَّة عَقْل، وَتَصَرُّف تَصَرُّفَ الطَّائِش. وَإِلْهَام الرُّشْد: إِيقَاع الصَّلاحِ وَإِصَابَةُ الصَّوَابِ فِي القَلْبِ يَطمَئِنُّ لَهُ الصَّدر، يَخُصُّ اللهُ بِهِ بَعضَ أَصفِيَائه. نَسْأَلُ الله أَنْ نَكُونَ مِنْهُم آمِين.

(٣) أَبْلَهُ: أَحمَق لَا تَمْيِيزَ لَهُ، ضَعِيف العَقْل تَغْلِبُ عَلَيْهِ الغَفْلَة. وَ«أَبْلَه»: عَلَىٰ وَزْنِ «أَفْعَل» وَيَجُوزُ صِيَاغَةُ اِسْمِ التَّفْضِيلِ مِنْهَا مُبَاشَرَةً؛ لِأَنَّ الدَّلَالَةَ مَعْنَوِيَّةٌ.[«النحو الوافي» (ج٣/ ص٣٩٩)]. وَالأَغْرَاض: البُغْيَة وَالحَاجَة. وَقَوْلُهُ: «مُعَامَلَةَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ بُلُوغِ الأَغْرَاضِ»؛ أَيْ: أَنَّهُم يُعَامِلُون الله تَعَالَىٰ عَلَىٰ بُلُوغِ غَايَتِهِم وَحَاجَاتِهِم؛ فَإِنْ صَلَحَتْ لَهُم دُنْيَاهُم أَقَامُوا عَلَىٰ العِبَادَةِ، وَإِنْ فَسَدَتْ عَلَيْهِم وَتَغَيَّرَت انْقَلَبُوا، فَلا يُقِيمُوا عَلَىٰ العِبَادَةِ إِلَّا لِمَا صَلَحَ مِنْ دُنْيَاهُم، فَإِنْ أَصَابَتْهُم =

فَأَيْنَ تَكُونُ الْبَلْوَىٰ إِذَنْ؟!

لا وَاللهِ؛ لابُدَّ مِنَ انْعِكَاسِ الْمُرَادَاتِ، وَمِنْ تَوَقُّفِ أَجْوِبَةِ السُّؤَالاتِ، وَمِنْ تَشَفِّي الأَعْدَاءِ فِي أَوْقَاتٍ.

فَأَمَّا مَنْ يُرِيدُ أَنْ تَدُومَ لَهُ السَّلامَةُ، وَالنَّصْرُ عَلَىٰ مَنْ يُعَادِيهِ، وَالْعَافِيَةُ مِنْ غَيْرِ بَلاءٍ؛ فَمَا عَرَفَ التَّكْلِيفَ، وَلا فَهِمَ التَّسْلِيمَ(١).

أَلَيْسَ الرَّسُولُ ﷺ يُنْصَرُ يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا جَرَىٰ يَوْمَ أُحُدٍ؟!

أَلَيْسَ يُصَدُّ عَنِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ؟!

فَلَا بُدَّ مِنْ جَيِّدٍ وَرَدِيءٍ، وَالْجَيِّدُ يُوجِبُ الشُّكْرَ، وَالرَّدِيءُ يُحَرِّكُ إِلَىٰ السُّؤَالِ وَالدُّعَاءِ؛ فَإِنِ امْتَنَعَ الْجَوَابُ(٢)؛ أُرِيدَ نُفُوذُ الْبَلاءِ، وَالتَّسْلِيمُ لِلْقَضَاءِ.

وَهَا هُنَا يَبِينُ الإِيمَانُ، وَيَظْهَرُ فِي التَّسْلِيمِ جَوَاهِرُ الرِّجَالِ.

فَإِنْ تَحَقَّقَ التَّسْلِيمُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا؛ فَذَلِكَ شَأْنُ الْكَامِلِ.

= فِتْنَةٌ أَوْ شِدَّةٌ أَوْ ضِيقٌ تَرَكَ دِينَهُ، وَرَجَعَ إِلَىٰ الكُفْرِ، وَارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ؛ فَلاَ يَحْصُلُ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ شَيْءٍ، وَفِي الآخِرَةِ غَايَةِ الشَّقَاءِ والإِهَانَةِ، وَهَذَا الْمَفْهُومُ دَلَّتْ عَلَيْهِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ...﴾ [الحج:١١].

(١) كَأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:١-٣]. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كَانَ اللهُ تَعَالَىٰ يَبْعَثُ النَّبِيَّ إِلَىٰ أُمَّتِهِ فَيَلْبَثُ فِيهِمْ إِلَىٰ انْقِضَاءِ أَجَلِهِ مِنَ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَقْبِضُهُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ فَتَقُولُ الأُمَّةُ مِنْ بَعْدِهِ - أَوْ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ: إِنَّا عَلَىٰ مِنْهَاجِ النَّبِيِّ وَسَبِيلِهِ، فَيُنْزِلُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِمُ الْبَلاءَ، فَمَنْ ثَبَتَ مِنْهُمْ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ فَهُوَ الصَّادِقُ، وَمَنْ خَالَفَ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ الْكَاذِبُ» [«الحلية» لأبي نعيم.(ج١/ ص٣٢٦)]. وَقَالَ ﷺ: «يُبْتَلَىٰ الْعَبْدُ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا، اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ، حَتَّىٰ يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَىٰ الأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ» [رواه الترمذي.(٢٣٩٨)، وابن ماجة.(٤٠٢٣)].

(٢) أَيْ: إِجَابَةَ الدُّعَاءِ.

وَإِنْ وُجِدَ فِي الْبَاطِنِ انعِصَارٌ مِنَ الْقَضَاءِ لَا مِنَ الْمَقْضِيِّ - فَإِنَّ الطَّبْعَ لَابُدَّ أَنْ يَنْفِرَ مِنَ الْمُؤْذِي -؛ دَلَّ عَلَىٰ ضَعْفِ الْمَعْرِفَةِ.

فَإِنْ خَرَجَ الأَمْرُ إِلَىٰ الاِعْتِرَاضِ بِاللِّسَانِ؛ فَتِلْكَ حَالُ الْجُهَّالِ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْهَا.

*[٢٤٧ - ٢٤٦][خَاطِرَةٌ]:

[أبله النَّاس]

أَبْلَهُ النَّاسِ مَنْ عَمِلَ عَلَىٰ الْحَالِ الْحَاضِرَةِ، وَلَمْ يَتَصَوَّرْ تَغَيُّرَهَا، وَلا وُقُوعَ مَا يَجُوزُ وُقُوعُهُ[١].

مِثَالُهُ: أَنْ يَغْتَرَّ بِدَوْلَةٍ، فَيَعْمَلَ بِمُقْتَضَىٰ مُلْكِهِ؛ فَإِذَا تَغَيَّرَتْ؛ هَلَكَ!

وَرُبَّمَا عَادَىٰ خَلْقًا؛ اغْتِرَارًا بِأَنَّهُ مُتَسَلِّطٌ، أَوْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُلْطَانٍ؛ فَإِذَا تَغَيَّرَتْ حَالُهُ؛ أَكَلَ كَفَّهُ نَدَمًا عِنْدَ فَوَاتِ التَّدَارُكِ!

وَكَذَلِكَ مَنْ لَهُ مَالٌ يُبَذِّرُهُ؛ سُكُونًا إِلَىٰ وُجُودِ الْمَالِ، وَيَنْسَىٰ حَالَهُ عِنْدَ الْعَدَمِ!

وَمَنْ يَتَنَاوَلُ الشَّهَوَاتِ، وَيُكْثِرُ مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالنِّكَاحِ؛ ثِقَةً بِعَافِيَتِهِ، وَيَنْسَىٰ مَا يَعْقُبُ ذَلِكَ مِنَ الأَمْرَاضِ وَالآفَاتِ!

وَمِنْ أَظْرَفِ الأَحْوَالِ أَنْ يُحِبَّ جَارِيَتَهُ، فَيُعْتِقَهَا، وَيَهَبَ لَهَا، أَوِ امْرَأَةً فَيَسْكُنَ إِلَيْهَا وَيَهَبَ لَهَا، فَتَتَمَكَّنَ، وَلا تَمْضِي الأَيَّامُ حَتَّىٰ يَسْلُوَهَا[٢]، أَوْ يَطْلُبَ غَيْرَهَا، وَلا يَجِدُ طَرِيقًا لِلْخَلاصِ؛ فَإِنْ تَخَلَّصَ مِنْهَا؛ أَخَذَتْ مَا غَنِمَتْ مِنْهُ، فَلَقِيَ مِنَ الْغَيْظِ أَضْعَافَ مَا يَلْتَذُّ بِهِ.

فَلا يَنْبَغِي أَنْ يُوثَقَ بِامْرَأَةٍ، وَلا بِمَحَبَّةِ إِنْسَانٍ! فَإِنَّهُ قَدْ يُحِبُّ امْرَأَةً، وَيَظُنُّ أَنَّهُ لا يَسْلُوهَا

---

(١) تُرَاجع الخَاطِرَة رَقْم:[٢٣٩-١٨٥] وَهِيَ بِعُنْوَانِ:[عَلَىٰ العَاقِلِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِتَغَيُّرِ الأَحْوَالِ].

(٢) يَسْلُوَهَا: سَلاه/ سَلَا عَنْهُ: نَسِيَه، وَطَابَت نَفْسُه بعد فِرَاقِه.

أَبَدًا، فَيَسْتَرْسِلُ إِلَيْهَا، وَالسُّلُوُّ يَحْدُثُ[١]، وَرُبَّمَا أَحَبَّ غَيْرَهَا، فَيَنْسَى الْأُولَى، فَيَصْعُبُ عَلَيْهِ الْخَلَاصُ مِنَ الْأُولَى!

فَالْعَاقِلُ لا يَدْخُلُ فِي شَيْءٍ حَتَّى يُهَيِّئَ الْخُرُوجَ مِنْهُ؛ فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ لا تَثْبُتُ، وَالْمَحَبَّةَ لا تَدُومُ، وَالتَّغَيُّرُ مَقْرُونٌ بِكُلِّ حَالٍ.

وَكَذَلِكَ يُعْطِي مَالَهُ وَلَدَهُ، ثُمَّ يَبْقَى كَلًّا عَلَيْهِ، فَيَتَمَنَّى الْوَلَدُ هَلَاكَهُ، وَرُبَّمَا عَلَّ بِهِ فِي النَّفَقَةِ[٢].

وَكَذَلِكَ قَدْ يَثِقُ بِالصَّدِيقِ، فَيَبُثُّ أَسْرَارَهُ إِلَيْهِ، فَرُبَّمَا أَظْهَرَ ذَلِكَ، فَكَانَ مِنْهَا مَا يُوجِبُ هَلَاكَهُ.

وَكَذَلِكَ يَغْتَرُّ الْإِنْسَانُ بِالسَّلَامَةِ، وَيَنْسَى طُرُوقَ الْمَوْتِ، فَيَأْتِيهِ بَغْتَةً، فَيَبْهَتَهُ، وَقَدْ فَاتَ الِاسْتِدْرَاكُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا النَّدَمُ[٣].

فَالْعَاقِلُ مَنْ كَانَتْ عَيْنُهُ مُرَاقِبَةً لِلْعَوَاقِبِ، مُحْتَرِزَةً مِمَّا يَجُوزُ وُقُوعُهُ، عَامِلَةً بِالِاحْتِيَاطِ فِي كُلِّ حَالٍ، حَافِظَةً لِلْمَالِ وَالسِّرِّ، غَيْرَ وَاثِقَةٍ بِزَوْجَةٍ وَلا وَلَدٍ وَلا صَدِيقٍ، مُتَأَهِّبَةً لِلرَّحِيلِ، مُتَهَيِّئَةً لِلنُّقْلَةِ[٤].

هَذِهِ صِفَةُ أَهْلِ الْحَزْمِ، وَالتَّفْرِيطُ الْمَدَاسِعُ لِلْبَذْرِ[٥].

---

(١) فَيَسْتَرْسِلُ إِلَيْهَا؛ أَيْ: فَيَنْبَسِطُ إِلَيْهَا، وَيَسْتَأْنِسُ بِهَا، وَيَطْمَأَنُّ إِلَيْهَا وَيَثِقُ بِهَا. وَالسُّلُوُّ: طِيبُ نَفْسِ الْإِلْفِ عَنْ إِلْفِهِ.

(٢) كَلًّا عَلَيْهِ؛ أَيْ: يَصبح الأَبَ ثَقِيلًا عَلَى وَلَدِهِ مُحتَاجًا إِلَيْهِ. وَ«الْكَلُّ»: الثِّقَل مِنْ كُلِّ مَا يُكلَّف. وَ«عَلَّ» الْعَيْنُ وَاللَّامُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ صَحِيحَةٌ: أَحَدُهَا- تَكَرُّرٌ أَوْ تِكْرِيرٌ، وَالآخَرُ- عَائِقٌ يَعُوقُ، وَالثَّالِثُ- ضَعْفٌ فِي الشَّيْءِ. وَمَعْنَى «عَلَّ بِهِ»؛ أي: ضَعُفَتْ نَفَقَتُه عَلَيْهِ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى التَّقْتِير -الضِيق وَالْبُخل-. وَقَد تَكُون الكَلِمَة هَكَذَا: «غَلَّ بِهِ»؛ أَيْ: أَمْسَكَ عَلِيْهِ فِي النَّفَقَة وَخَانَهُ.

(٣) طُرُوق الْمَوْت؛ أَيْ: الْمَجِيء عَلَى غَفْلَةٍ. وَالْبَغْتَةُ: الْمُفَاجَأَةُ، وَهِيَ حُدُوثُ شَيْءٍ غَيْرِ مُتَرَقَّبٍ. فَيَبْهَتَهُ: الْبَهْتُ: الْغَلَبُ الْمُفَاجِئُ الْمُعْجِزُ عَنِ الْمُدَافَعَةِ، يُقَالُ: بهَته الشَّيءُ: أَدْهَشَهُ وَحَيَّرَهُ، وَجَعَلَهُ يَنْظُر مَفْتُوْح الفَمِ وَهُوَ يَتَأَمَّله. وَالِاسْتِدْرَاكُ: مُحَاوَلَة إِدْرَاك مَا فَاتَ وَالوُصُوْل إِلَيْهِ.

(٤) مُتَأَهِّبَةً لِلرَّحِيلِ؛ أَيْ: اِسْتَعَدَّتْ لَهُ، وَأَعَدَّتْ لَهُ عُدَّته. مُتَهَيِّئَةً: مُجهَّزَة، وَالْهَيْئَة: الْحَالَة الْجَمِيْلَة.

(٥) مَدسَع: جَمْع مَدَاسِع؛ أَيْ: مَضِيق أَوْ مَمَرّ. فَقَوْلُهُ: «هَذِهِ صِفَةُ أَهْلِ الْحَزْمِ، وَالتَّفْرِيطِ الْمَدَاسِع لِلْبَذْرِ». وَكَأَنَّهُ يَقُوْلُ: «إِنَّ مَا =

*[٢٤٨ - ١٨٩][خَاطِرَةٌ]:

[أَشَدُّ النَّاسِ بَلَهًا وَتَغْفِيلًا]

مَا أَبْلَهَ مَنْ لا يَعْلَمُ مَتَىٰ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ، وَهُوَ لا يَسْتَعِدُّ لِلِقَائِهِ!

وَأَشَدُّ النَّاسِ بَلَهًا وَتَغْفِيلًا مَنْ قَدْ عَبَرَ السِّتِّينَ، وَقَارَبَ السَّبْعِينَ - فَإِنَّ مَا بَيْنَهُمَا هُوَ مُعْتَرَكُ الْمَنَايَا، وَمَنْ نَازَلَ الْمُعْتَرَكَ، اسْتَعَدَّ[١] - وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَافِلٌ عَنِ الِاسْتِعْدَادِ.

قَالَ الشَّبَابُ: لَعَلَّنَا فِي شَيْبِنَا ... نَدَعُ الذُّنُوبَ، فَمَا يَقُولُ الأَشْيَبُ[٢]؟!

وَاللهِ، إِنَّ الضَّحِكَ مِنَ الشَّيْخِ مَا لَهُ مَعْنًى، وَإِنَّ الْمُزَاحَ مِنْهُ بَارِدُ الْمَعْنَىٰ، وَإِنَّ تَعَرُّضَهُ بِالدُّنْيَا - وَقَدْ دَفَعَتْهُ عَنْهَا - يُضْعِفُ الْقُوَىٰ، وَيُضْعِفُ الرَّأْيَ.

وَهَلْ بَقِيَ لِابْنِ سِتِّينَ مَنْزِلٌ؟!

فَإِنْ طَمِعَ فِي السَّبْعِينَ؛ فَإِنَّمَا يَرْتَقِي إِلَيْهَا بِعَنَاءٍ شَدِيدٍ: إِنْ قَامَ؛ دَفَعَ الْأَرْضَ، وَإِنْ مَشَىٰ؛ لَهَثَ، وَإِنْ قَعَدَ؛ تَنَفَّسَ . . . وَيَرَىٰ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا، وَلا يَقْدِرُ عَلَىٰ تَنَاوُلِهَا؛ فَإِنْ أَكَلَ؛ كَدَّ الْمَعِدَةَ، وَصَعُبَ الْهَضْمُ، وَإِنْ وَطِيءَ؛ آذَىٰ الْمَرْأَةَ، وَوَقَعَ دَنِفًا[٣]، لا يَقْدِرُ عَلَىٰ رَدِّ مَا ذَهَبَ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَىٰ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ؛ فَهُوَ يَعِيشُ عَيْشَ الأَسِيرِ.

= ذَكَرْتُهُ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ هِيَ صِفَاتُ أَهْلِ الإِتْقَانِ وَالضَّبْطِ، أَهْلِ الحَذَرِ وَالعَزْمِ وَالقُوَّةِ، أَهْلِ التَّأَهُّبِ لِلأَمْرِ. وَأَنَّ التَّفْرِيطَ - التَّقْصِيرُ فِي الشَّيْءِ، حَتَّىٰ يَضِيعَ وَيَفُوتَ - هُوَ العَائِقُ وَالمَمَرُّ لِمَنْ أَرَادَ البَذْرَ - أَوَّلُ مَا يَخْرُجُ مِنَ الزَّرْعِ - أَوِ البَذْرَ - الزَّرْعَ -؛ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَزْرَعَ أَوْ يَحصُدَ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَمُرَّ مِنْ دَاءِ التَّفْرِيطِ؛ وَهَذَا هُوَ الحَزْمُ.

(١) الْمُعْتَرَكُ: مَوْضِعُ العِرَاكِ. وَالْمَنَايَا: الْمَوْتُ. وَنَازَلَ الْمُعْتَرَكَ؛ أَيْ: حَارَبَ فِي مَوْضِعِ القِتَالِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «مُعْتَرَكُ الْمَنَايَا مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَىٰ السَّبْعِينَ» أَخْرَجَهُ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ فِي «نوادر الأصول» (ج/١ ح/١١٨ الأصل: ٢٠).

(٢) البيت من البحر: [الكامل].

(٣) لَهَثَ: أَصَابَهُ تَعَبٌ أَوْ إِعْيَاءٌ. وَكَدَّ الْمَعِدَةَ: أَرْهَقَهَا وَأَتْعَبَهَا. وَالْهَضْمُ: إِحَالَةُ الطَّعَامِ إِلَىٰ مَوَادَّ قَابِلَةٍ لِأَنْ يَمْتَصَّهَا الْجِسْمُ. وَطِيءَ: جَامَعَ. وَوَقَعَ دَنِفًا: لَازَمَهُ الْمَرَضُ.

فَإِنْ طَمِعَ فِي الثَّمَانِينَ؛ فَهُوَ يَزْحَفُ إِلَيْهَا زَحْفَ الصَّغِيرِ:

وَعَشْرُ الثَّمَانِينَ مَنْ خَاضَهَا ... فَإِنَّ الْمُلِمَّاتِ فِيهَا فُنُونُ[(١)]

فَالْعَاقِلُ مَنْ فَهِمَ مَقَادِيرَ الزَّمَانِ؛ فَإِنَّهُ فِيمَا قِيلَ:

قَبْلَ الْبُلُوغِ صَبِيٌّ، لَيْسَ عَلَىٰ عُمُرِهِ عِيَارٌ؛ إِلَّا أَنْ يُرْزَقَ فِطْنَةً[(٢)]؛ فَفِي بَعْضِ الصِّبْيَانِ فِطْنَةٌ تَحُثُّهُمْ مِنَ الصِّغَرِ عَلَىٰ اكْتِسَابِ الْمَكَارِمِ وَالْعُلُومِ.

فَإِذَا بَلَغَ؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ زَمَانُ الْمُجَاهَدَةِ لِلْهَوَىٰ، وَتَعَلُّمِ الْعِلْمِ.

فَإِذَا رُزِقَ الْأَوْلَادَ؛ فَهُوَ زَمَانُ الْكَسْبِ لِلْمُعَامَلَةِ.

فَإِذَا بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ؛ انْتَهَىٰ تَمَامُهُ، وَقَضَىٰ مَنَاسِكَ الْأَجَلِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الِانْحِدَارُ إِلَى الْوَطَنِ.

كَأَنَّ الْفَتَىٰ يَرْقَىٰ مِنَ الْعُمْرِ سُلَّمًا ... إِلَىٰ أَنْ يَجُوزَ الْأَرْبَعِينَ وَيَنْحَطُّ[(٣)]

فَيَنْبَغِي لَهُ عِنْدَ تَمَامِ الْأَرْبَعِينَ أَنْ يَجْعَلَ جُلَّ هِمَّتِهِ التَّزَوُّدَ لِلْآخِرَةِ، وَيَكُونَ كُلُّ تَلَمُّحِهِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيَأْخُذَ فِي الِاسْتِعْدَادِ لِلرَّحِيلِ . . . وَإِنْ كَانَ الْخِطَابُ بِهَذَا لِابْنِ عِشْرِينَ؛ إِلَّا أَنَّ رَجَاءَ التَّدَارُكِ فِي حَقِّ الصَّغِيرِ لَا فِي حَقِّ الْكَبِيرِ.

فَإِذَا بَلَغَ السِّتِّينَ؛ فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ فِي الْأَجَلِ، وَجَازَ مِنَ الزَّمَنِ[(٤)]؛ فَلْيُقْبِلْ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَىٰ جَمْعِ زَادِهِ، وَيُهَيِّئْ آلَاتِ السَّفَرِ، وَلْيَعْتَقِدْ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَحْيَا فِيهِ لَغَنِيمَةٌ مَا هِيَ فِي الْحِسَابِ؛

---

(١) البيت من: [المتقارب]. الْمُلِمَّاتِ: مُصِيبَةٌ شَدِيدَةٌ مِنْ شَدَائِدِ الدُّنْيَا. وَفُنُونُ: أَنْوَاعُ.

(٢) عِيَارٌ: كُلُّ مَا يُتَّخَذ أَسَاسًا لِتَقْدِيرِ كَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ، وَمَعنَاهُ هُنَا: لَيْسَ عَلَىٰ هَذَا الصَّبِيِّ فِي ذَاكَ الْعُمُرِ مُحَاسَبَةٌ أَوْ مُؤَاخذَة؛ لِأَنَّهُ فِي زَمَانِ الطُّفُولَة. وَفِطْنَةٌ: حِكْمَةٌ وَتَبَصُّر وَمَهَارَة.

(٣) البيت من البحر: [الطويل].

(٤) وَجَازَ مِنَ الزَّمَنِ؛ أَيْ: مَضَىٰ أَوْ قَطَعَ مِنَ الْعُمُرِ أَكْثَرَهُ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَعْذَرَ اللهُ إِلَىٰ امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ، حَتَّىٰ بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً» (أَعْذَرَ) أَزَالَ عُذْرَهُ وَلَم تَبْقَ لَهُ حُجَّة فِي التَّقْصِير. (أَخَّرَ أَجَلَهُ) أَطَالَ حَيَاته. رواه البخاري، كِتَابُ «الرِّقَاقِ» بَابُ «مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً، فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ» حديث (٦٤١٩).

خُصُوصًا إِذَا قَوِيَ عَلَيْهِ الضَّعْفُ وَزَادَ؛ فَإِنَّهُ لا مُحَرِّكَ كَهُوَ[١].

وَكُلَّمَا عَلَتْ سِنُّهُ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَزِيدَ اجْتِهَادُهُ.

فَإِذَا دَخَلَ فِي عَشْرِ الثَّمَانِينَ؛ لَيْسَ إِلَّا الْوَدَاعُ، وَمَا بَقِيَ مِنَ الْعُمُرِ إِلَّا أَسَفٌ عَلَىٰ تَفْرِيطٍ، أَوْ تَعَبُّدٌ عَلَىٰ ضَعْفٍ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً تَامَّةً، تَصْرِفُ عَنَّا رُقَادَ الْغَفَلَاتِ، وَعَمَلًا صَالِحًا نَأْمَنُ مَعَهُ مِنَ النَّدَمِ يَوْمَ الِانْتِقَالِ. وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

*[٢٤٩ - ٢٤٩][خَاطِرَةٌ]:

[مِنَ الْبَلَهِ أَنْ تُبَادِرَ عَدُوًّا بِالْمُخَاصَمَةِ]

مِنَ الْبَلَهِ أَنْ تُبَادِرَ عَدُوًّا أَوْ حَسُودًا بِالْمُخَاصَمَةِ.

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي إِنْ عَرَفْتَ حَالَهُ أَنْ تُظْهِرَ لَهُ مَا يُوجِبُ السَّلَامَةَ بَيْنَكُمَا؛ إِنِ اعْتَذَرَ قَبِلْتَ، وَإِنْ أَخَذَ فِي الْخُصُومَةِ صَفَحْتَ، وَأَرَيْتَهُ أَنَّ الأَمْرَ قَرِيبٌ، ثُمَّ تُبْطِنُ الْحَذَرَ مِنْهُ؛ فَلَا تَثِقُ بِهِ فِي حَالٍ، وَتَتَجَافَاهُ بَاطِنًا، مَعَ إِظْهَارِ الْمُخَالَطَةِ فِي الظَّاهِرِ.

فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُؤْذِيَهُ؛ فَأَوَّلُ مَا تُؤْذِيهِ بِهِ إِصْلَاحُكَ وَاجْتِهَادُكَ فِيمَا يَرْفَعُكَ[٢].

وَمِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَةِ لَهُ الْعَفْوُ عَنْ زَلَلِهِ. وَإِنْ بَالَغَ فِي السَّبِّ؛ فَبَالِغْ فِي الصَّفْحِ؛ تُنِبْ عَنْكَ الْعَوَامَّ فِي شَتْمِهِ، وَيَحْمَدُكَ الْعُلَمَاءُ عَلَىٰ حِلْمِكَ![٣]. وَمَا تُؤْذِيهِ بِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَغَيْرُهُ فِي الْبَاطِنِ أَضْعَافٌ، وَمَا تُؤْذِيهِ بِهِ مِنْ كَلِمَةٍ إِذَا قُلْتَهَا لَهُ سَمِعْتَ أَضْعَافَهَا.

ثُمَّ بِالْخُصُومَةِ تُعْلِمُهُ أَنَّكَ عَدُوُّهُ؛ فَيَأْخُذُ الْحَذَرَ، وَيَبْسُطُ اللِّسَانَ، وَبِالصَّفْحِ يَجْهَلُ مَا فِي

(١) أَيْ: لَا مُحَرِّكَ لِلْمَرْءِ فِي هَذَا السِّنِّ كَالضَّعْفِ.

(٢) جاء في الأصل:[يعرفك]، ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٣) وَهَذَا هُوَ الْجَزَاءِ الْعَاجِلِ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِوَجْهِ اللهِ، فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ.

بَاطِنِكَ، فَيُمْكِنُكَ حِينَئِذٍ أَنْ تَشْتَفِيَ مِنْهُ.

[أَمَّا أَنْ تَلْقَاهُ[١]] بِمَا يُؤْذِي دِينَكَ، فَيَكُونُ هُوَ الَّذِي قَدِ اشْتَفَىٰ مِنْكَ!

وَمَا ظَفِرَ قَطُّ مَنْ ظَفِرَ بِهِ الإِثْمُ، بَلِ الصَّفْحُ الْجَمِيلُ[٢].

وَإِنَّمَا يَقَعُ هَذَا[٣] مِمَّنْ يَرَىٰ أَنَّ تَسْلِيطَهُ عَلَيْهِ: إِمَّا عُقُوبَةٌ لِذَنْبٍ، أَوْ لِرَفْعِ دَرَجَةٍ، أَوْ لِلابْتِلَاءِ، فَهُوَ لا يَرَىٰ الْخَصْمَ، وَإِنَّمَا يَرَىٰ الْقُدْرَةَ.

*[٢٥٠ - ١٥٧] [خَاطِرَةٌ]:

[مِنَ الْبَلَهِ أَنْ تُظْهِرَ الْعَدَاوَةَ لِأَحَدٍ]

مِمَّا أَفَادَتْنِي تَجَارِبُ الزَّمَانِ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُظَاهِرَ بِالْعَدَاوَةِ أَحَدًا مَهْمَا اسْتَطَاعَ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ[٤].

وَإِنَّ الإِنْسَانَ رُبَّمَا لا يَظُنُّ الْحَاجَةَ إِلَىٰ مِثْلِهِ يَوْمًا مَا، كَمَا لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ عُوَيْدٍ مَنْبُوذٍ[٥]، لا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ، لَكِنْ كَمْ مِنْ مُحْتَقَرٍ احْتِيجَ إِلَيْهِ! فَإِذَا لَمْ تَقَعِ الْحَاجَةُ إِلَىٰ ذَلِكَ الشَّخْصِ فِي جَلْبِ نَفْعٍ، وَقَعَتِ الْحَاجَةُ فِي دَفْعِ ضُرٍّ.

---

(١) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ به.

(٢) الصَّفْحُ الْجَمِيلُ هُوَ الَّذِي لَا عِتَابَ مَعَهُ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فِي قَوْلِ اللهِ عز وجل: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، قَالَ: «الرِّضَا بِغَيْرِ عِتَابٍ» [«شُعَب الإِيمَان» (٧٩٨٦)]. وَهُوَ مَحْمُودٌ إِذَا كَانَ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي يَجِبُ. بِأَنْ لا يَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ إِخْلالٌ بِالدِّينِ، وَأَمَّا الصَّفْحُ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ فَلا يَصْفَحُ حَيْثُ اقْتَضَىٰ الْمَقَامُ الْعُقُوبَةَ، وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ الصَّفْحُ عَلَىٰ مَنْ يَعْتَدِي عَلَىٰ الدِّينِ أَوْ الْعِرْضِ أَوْ الْمَالِ فَهَذَا غَايَةُ الْجُبْنِ وَمُنْتَهَىٰ الذَّمِّ» [«مَوَارِدِ الظَّمْآن لِدُرُوسِ الزَّمَان» عَبْد الْعَزِيز بْن مُحَمَّد السَّلْمَان. (ج٤/ ص٢٠٤)] بِتَصَرُّفٍ وَزِيَادَةٍ.

(٣) أَيْ: يَقَعُ هَذَا التَّصَرُّف الْحَسَن.

(٤) يَعني: فَرُبَّمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، مَهْمَا كَانَتْ مَنْزِلَتُهُ.

(٥) «عُوَيْدٍ»: تَصْغِيرُ «عُود»: وَهُوَ الْعُود الصَّغِيرُ. وَ«مَنْبُوذ»، أَيْ: مُهْمَلٌ مَتْرُوكٌ.

وَلَقَدِ احْتَجْتُ فِي عُمُرِي إِلَىٰ مُلَاطَفَةِ أَقْوَامٍ مَا خَطَرَ لِي قَطُّ وُقُوعُ الْحَاجَةِ إِلَىٰ التَّلَطُّفِ بِهِمْ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُظَاهَرَةَ بِالْعَدَاوَةِ قَدْ تَجْلِبُ أَذًىٰ مِنْ حَيْثُ لَا يُعْلَمُ؛ لِأَنَّ الْمُظَاهِرَ بِالْعَدَاوَةِ كَشَاهِرِ السَّيْفِ يَنْتَظِرُ مَضْرِبًا، وَقَدْ يَلُوحُ مِنْهُ مَضْرِبٌ خَفِيٌّ، وَإِنِ اجْتَهَدَ الْمُتَدَرِّعُ فِي سَتْرِ نَفْسِهِ، فَيَغْتَنِمُهُ ذَلِكَ الْعَدُوُّ(١).

فَيَنْبَغِي لِمَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَجْتَهِدَ فِي أَلَّا يُظَاهِرَ بِالْعَدَاوَةِ أَحَدًا؛ لِمَا بَيَّنْتُ مِنْ وُقُوعِ احْتِيَاجِ الْخَلْقِ بَعْضِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، وَإِقْدَارِ بَعْضِهِمْ عَلَىٰ ضَرَرِ بَعْضٍ.

وَهَذَا فَصْلٌ مُفِيدٌ، تَبِينُ فَائِدَتُهُ لِلْإِنْسَانِ مَعَ تَقَلُّبِ الزَّمَانِ(٢).

*[٢٥١ - ٢٠٥][خَاطِرَةٌ]:

[مِنَ الْبَلَهِ أَنْ تَظُنَّ أَنَّ الصُّلْحَ يَمْحِي الْعَدَاوَةَ]

لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَبْلَهُ مِمَّنْ يُسِيءُ إِلَىٰ شَخْصٍ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ إِلَىٰ قَلْبِهِ بِالْأَذَىٰ، ثُمَّ يَصْطَلِحَانِ فِي الظَّاهِرِ، فَيَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ الْأَثَرَ مُحِيَ بِالصُّلْحِ!(٣).

وَخُصُوصًا الْمُلُوكَ؛ فَإِنَّ لَذَّتَهُمُ الْكُبْرَىٰ أَنْ لَا يَرْتَفِعَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ، وَلَا يَنْكَسِرَ لَهُمْ غَرَضٌ؛ فَإِذَا جَرَىٰ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ لَمْ يَنْجَبِرْ.

وَاعْتَبِرْ هَذَا بِأَبِي مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيِّ؛ فَإِنَّهُ غَضَّ مِنْ قَدْرِ الْمَنْصُورِ قَبْلَ وِلَايَتِهِ، فَحَمَلَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ؛ فَقَتَلَهُ(٤).

(١) يَلُوحُ: يظهر. مَضْرِبُ السَّيفِ: حَدُّه. الْمُتَدَرِّعُ: لَابِس الدِّرْع، قَمِيص مِنْ حَدِيْدٍ يَقِي الْجِسْمَ مِنْ طَعَنَاتِ الْحُرُوبِ.

(٢) هَكَذَا فِي مَخْطُوط:(ي) وَمَعْنَاهَا: تَحَوّل مِنْ حَالَةٍ إِلَىٰ أُخْرَىٰ، وَفِي الأصل:[تَغَلُّبِ] وَمَعْنَاهَا: إِسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِ.

(٣) أَيْ: فَيَظُنّ أَنَّ مَا أَلْحَقَهُ بِهِ مِنْ أَذىً أَوْ ضَرَرٍ أَوْ إِهَانَةٍ، يَذْهَبُ أَثَرُهُ بِالصُّلْحِ؛ فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ.

(٤) ترجمة أَبُو مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيُّ في:[١١٥-١٧٠]، وَأَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ في:[٢١٨-٣٠٩]. وَخَبَرُ مَقْتَلِهِ مَذْكُورٌ فِي تَرْجَمَتِهِ وَتَرْجَمَةِ الْمَنْصُوْر. وَغَضَّ مِنْ؛ أَيْ: نَقَصَه وَحَطَّ مِنْ قَدْرِه.

وَمَنْ نَظَرَ فِي التَّوَارِيخِ؛ رَأَىٰ جَمَاعَةً قَدْ جَرَىٰ لَهُمْ مِثْلُ هَذَا.

وَلا يَنْبَغِي لِمَنْ أَسَاءَ إِلَىٰ ذِي سُلْطَانٍ أَنْ يَقَعَ فِي يَدِهِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا رَامَ التَّخَلُّصَ(١)؛ لَمْ يَقْدِرْ، فَيَبْقَىٰ نَدَمُهُ عَلَىٰ تَرْكِ احْتِرَازِهِ، وَحَسْرَتُهُ عَلَىٰ مُسَاكَنَةِ الضَّمَانِ لِلسَّلَامَةِ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَا يَلْقَىٰ بِهِ مِنَ الْهَوَانِ وَالأَذَىٰ.

وَمِنْ هَذَا الْجِنْسِ الأَصْدِقَاءُ الْمُتَمَاثِلُونَ؛ فَإِنَّكَ مَتَىٰ آذَيْتَ شَخْصًا، وَبَلَغَ إِلَىٰ قَلْبِهِ أَذَاكَ؛ فَلا تَثِقْ بِمَوَدَّتِهِ؛ فَإِنْ أَذَاكَ نُصْبَ عَيْنِهِ؛ فَإِنْ لَمْ يَحْتَلْ عَلَيْكَ؛ لَمْ يَصْفُ لَكَ.

وَلا تُخَالِطْ إِلَّا مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ فَحَسْبُ؛ فَهُوَ لَمْ يَرَ مِنْكَ إِلَّا خَيْرًا، فَيَكُونُ فِي نَفْسِهِ.

وَكَذَلِكَ الْوَلَدُ وَالزَّوْجَةُ وَالْمُعَامَلُونَ.

وَيَلْحَقُ بِهَذَا أَنْ أَقُولَ: لَا يَنْبَغِي أَنْ تُعَادِيَ أَحَدًا وَلا تَتَكَلَّمَ فِي حَقِّهِ؛ فَرُبَّمَا صَارَتْ لَهُ دَوْلَةٌ فَاشْتَفَىٰ(٢)، وَرُبَّمَا احْتِيجَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ.

فَالْعَاقِلُ يُصَوِّرُ فِي نَفْسِهِ كُلَّ مُمْكِنٍ، وَيَسْتُرُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْبُغْضِ وَالْوُدِّ، وَيُدَارِي مَعَ الْغَيْظِ وَالْحِقْدِ.

هَذِهِ مُشَاوَرَةُ الْعَقْلِ إِنْ قُبِلَتْ(٣).

---

(١) رَامَ التَّخَلُّصَ؛ أَيْ: طَلَبَ وَرَغِبَ النَّجَاةَ.

(٢) صَارَتْ لَهُ دَوْلَةٌ: صَاحِب نُفُوذ مُؤَثِّر. [مَثَلٌ] يُضْرَبُ فِي تَحَوُّلِ الأَيَّامِ وَالحُكُومَاتِ. وَفَاشْتَفَىٰ؛ أي: بَلَغَ مَا يُذْهِبُ غَيْظَه مِنْهُ، انْتَقَمَ مِنْهُ.

(٣) مُشَاوَرَةُ الْعَقْلِ؛ أَيْ: اِسْتَرْشَدَ بِهِ وَاتَّخَذَهُ هَادِيًا لَهُ وَمُوَجِّهًا.

*[٢٥٢ - ٢٣٢][خَاطِرَةٌ]:

[إيَّاكَ أن تَكُونَ مُغفَّلًا]

مِنَ التَّغَفُّلِ(١) أَنْ تُعَاقِبَ شَخْصًا، أَوْ تُسِيءَ إِلَيْهِ إِسَاءَةً عَظِيمَةً، وَتَعْلَمَ أَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ يُجَدِّدُ الْحِقْدَ، فَتَرَاهُ ذَلِيلًا لَكَ طَائِعًا تَائِبًا مُقْلِعًا عَمَّا فَعَلَ، فَتَعُودَ، فَتَسْتَطِيبَهُ(٢)، وَتَنْسَىٰ مَا فَعَلْتَ، وَتَظُنَّ أَنَّهُ قَدِ انْمَحَىٰ مِنْ قَلْبِهِ مَا أَسْلَفْتَ؛ فَرُبَّمَا عَمِلَ لَكَ الْمِحَنَ، وَنَصَبَ لَكَ الْمَكَايِدَ؛ كَمَا جَرَىٰ لِقَصِيرٍ مَعَ الزَّبَّاءِ، وَأَخْبَارُهُ مَعْرُوفَةٌ(٣).

فَإِيَّاكَ أَنْ تُسَاكِنَ مَنْ آذَيْتَهُ(٤)، بَلْ إِنْ كَانَ وَلَابُدَّ؛ فَمِنْ خَارِجٍ؛ فَمَا تُؤْمَنُ الْأَحْقَادُ.

وَمَتَىٰ رَأَيْتَ عَدُوَّكَ فِيهِ غَفْلَةٌ، لَا يَثْنِيهِ مِثْلُ هَذَا؛ فَأَحْسِنْ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يَنْسَىٰ عَدَاوَتَكَ، وَلَا يَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ أَضْمَرْتَ لَهُ جَزَاءً عَلَىٰ قُبْحِ فِعْلِهِ؛ فَحِينَئِذٍ تَقْدِرُ عَلَىٰ بُلُوغِ كُلِّ غَرَضٍ مِنْهُ.

وَمِنَ الْخَوَرِ إِظْهَارُ الْعَدَاوَةِ لِلْعَدُوِّ(٥).

وَمِنْ أَحْسَنِ التَّدْبِيرِ التَّلَطُّفُ بِالْأَعْدَاءِ إِلَىٰ أَنْ يُمْكِنَ كَسْرُ شَوْكَتِهِمْ، وَلَوْ لَمْ يُمْكِنْ ذَاكَ؛ كَانَ اللُّطْفُ سَبَبًا فِي كَفِّ أَكُفِّهِمْ عَنِ الْأَذَىٰ، وَفِيهِمْ مَنْ يَسْتَحْيِي لِحُسْنِ فِعْلِكَ، فَيَتَغَيَّرُ قَلْبُهُ لَكَ.

---

(١) التَّغَفُّلِ: قِلَّة التَّحَفُّظ وَالتَّيَقُّظ، فَهُوَ مُغفَّل لَا فِطنَةَ لَهُ. وَقِيْلَ: التَّغَفُّلِ: الْغَلَط فِي الوَسِيْلَةِ وَالطَّرِيْق إِلَىٰ المَطْلُوْب مَعَ صِحَّةِ القَصد فَالمُغَفَّل مَقْصِده صَحِيْح وَلَكِن سُلُوْكه الطَّرِيْق فَاسِد وَرَمْيَه فِي الوُصُوْلِ إِلَىٰ الغَرَضِ غَير صَحِيْحَة. وَقِيْلَ: التَّغَفُّلِ: تَحْرِيْف الشَّيء عَنْ مَوَاضِعِهِ مَعَ تَيَقُّن أَنَّ ذَلِكَ صَوَاب. «غرر الخصائص» للوطواط.«بُ: الثَّامِن».

(٢) فَتَسْتَطِيبَهُ؛ أَي: فَتَسْتَحْسِن فِعْلَهُ.

(٣) قَصِيرِ بْنُ سَعْد بْنُ عَمْرِو اللَّخْمِيّ: أَحَد رِجَال القِصَّة المَشْهُوْرَة، فِي اِنْتِقَامِ «عَمْرُو بْن عَدِيّ» مِنَ «الزَّبَّاء» فِي الجَاهِلِيَّةِ. وَكَانَ أَدِيْبًا حَازِمًا نَاصِحًا لِجُذَيْمَة، مُقَرَّبًا إِلَيْهِ. وَأَمَّا الزَّبَّاءِ؛ اِسْمُهَا: نَائِلَة أَوْ مَيْسُوْن، وَلَقَبُهَا الزَّبَّاءِ، بِنْتُ عَمْرِو بْنُ الظَّرب، الْمَلِكَة المَشْهُوْرَة فِي العَصرِ الجَاهِلِيّ، كَانَت غَزِيْرَة المَعَارِف، بَدِيْعَة الجَمَال، قَتَلَتْ نَفْسَهَا بِالسَّمِّ سَنَةَ:(٣٥٨ ق هـ). وَالْقِصَّةِ فِي «الكامل» لابن الأثير.(ج/١ ص٢٦٥-٢٦٩ «ذِكْر جُذَيْمَة الأَبْرَش»)].

(٤) تُسَاكِنُ؛ أَيْ: أَنْ تَكُوْنَ أَنْتَ وَهُوَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ.

(٥) الْخَوَرِ: الضَّعف وَالانْكِسَار وَالخَوْف.

وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ إِذَا بَلَغَهُمْ أَنَّ رَجُلًا قَدْ شَتَمَهُمْ؛ أَهْدَوْا إِلَيْهِ وَأَعْطَوْهُ[1]؛ فَهُمْ بِالْعَاجِلِ يَكُفُّوْنَ شَرَّهُ، وَيَحْتَالُونَ فِي تَقْلِيبِ قَلْبِهِ، وَيَقَعُ بِذَلِكَ لَهُمْ مُهْلَةٌ لِتَدْبِيرِ الْحِيَلِ عَلَيْهِ إِنْ أَرَادُوا.

وَكَفَىٰ بِالذِّهْنِ النَّاظِرِ إِلَىٰ الْعَوَاقِبِ وَالتَّأَمُّلِ لِكُلِّ مُمْكِنٍ مُؤَدِّبًا.

---

(١) أَوْرَدَ ابْنُ خَلِّكَانَ فِي «وفيات الأعيان»(٢/ ٧١/ ت: الْحَسَن) وَفِيهِ: «وَقِيلَ لِلْحَسَنِ: إِنَّ فُلَانًا اغْتَابَكَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ طَبَقَ حَلْوَىٰ وَقَالَ: بَلَغَنِي أَنَّكَ أَهْدَيْتَ إِلَيَّ حَسَنَاتِكَ فَكَافَأْتُكَ». وَابْنُ عَسَاكِرٍ فِي «تاريخه»(٢٩/ ٢١٣/ ت: عَبْدُ اللهِ بنُ صَفْوَانَ) وَفِيهِ: «أَقْبَلَ أَبُو حُمَيْدِ بْن دَاوُد الْمَخْزُومِيّ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ بنِ صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ يَشْتُمُهُ، وَيَقَعُ فِيهِ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، وَحَوْلَهُ بَنُوهُ، وَأَهْلُهُ، فَقَالَ: عَزَمْتُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ أَنْ يُجِيبَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَقَالُوا: لَمْ نَرَ مِثْلَ تَرْكِكَ هَذَا يَشْتُمُكَ، فَأَمَرَ لَهُ بِصِلَةٍ مَكَانَهُ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ: أَشْتِمُكَ وَتَصِلُنِي؟ قَالَ: تُرِيدُ أَنْ تُزِيلَ الْجِبَالَ -الْجِبَال-؟». وَأَوْرَدَ الذَّهَبِيّ فِي «السير»(ج٦/ ص٣٨٩/ ت: عُمَرُ الْهَمْدَانِيُّ)، وَفِيهِ: قَالَ سُفْيَان: «كَانَ ابْنُ عَيَّاشٍ الْمَنْتُوفَ يَقَعُ فِي عُمَرَ بنِ ذَرٍّ، وَيَشْتُمُهُ، فَلَقِيَهُ عُمَرُ، فَقَالَ: «يَا هَذَا! لَا تُفْرِطْ فِي شَتْمِنَا، وَأَبْقِ لِلصُّلْحِ مَوْضِعًا، فَإِنَّا لَا نُكَافِئُ مَنْ عَصَىٰ اللهَ فِينَا بِأَكْثَرَ مِنْ أَنْ نُطِيعَ اللهَ فِيهِ». وَكَانُوا يَفْعَلُوْنَ ذَلِكَ تَدَيُّنًا.

(١٩)

[النَّاس وأحوالهم، والأصدقاء ونُدرتهم]

*[٢٥٣ - ٢٥١][خَاطِرَةٌ]:

[أقسامُ النَّاس بَيْنَ عالمٍ وجاهلٍ]

نَظَرْتُ إِلَىٰ النَّاسِ؛ فَرَأَيْتُهُمْ يَنْقَسِمُوْنَ بَيْنَ عَالِمٍ وَجَاهِلٍ:

*** فَأَمَّا الْجُهَّالُ؛ فَانْقَسَمُوْا:**

فَمِنْهُمْ سُلْطَانٌ قَدْ رُبِّيَ فِي الْجَهْلِ، وَلُبْسِ الْحَرِيرِ، وَشُرْبِ الْخُمُوْرِ، وَظُلْمِ النَّاسِ، وَلَهُ عُمَّالٌ عَلَىٰ مِثْلِ حَالِهِ؛ **فَهَؤُلاءِ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْخَيْرِ بِالْجُمْلَةِ.**

وَمِنْهُمْ تُجَّارٌ؛ هِمَّتُهُمُ الِاكْتِسَابُ، وَجَمْعُ الْأَمْوَالِ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يُؤَدِّي الزَّكَاةَ، وَلا يَتَحَاشَىٰ مِنَ الرِّبَا؛ **فَهَؤُلاءِ فِي صُوَرِ النَّاسِ.**

وَمِنْهُمْ أَرْبَابُ مَعَاشٍ؛ يُطَفِّفُوْنَ الْمِكْيَالَ، وَيُخْسِرُوْنَ الْمِيزَانَ، وَيَبْخَسُوْنَ النَّاسَ[١]، وَيَتَعَامَلُونَ بِالرِّبَا، وَهُمْ فِي الْأَسْوَاقِ طُوْلَ النَّهَارِ، لا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَّا مَا هُمْ فِيهِ؛ فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ؛ وَقَعُوْا نِيَامًا كَالسُّكَارَىٰ؛ فَهِمَّةُ أَحَدِهِمْ مَا يَأْكُلُ، وَيَلْتَذُّ بِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ خَبَرٌ؛ فَإِنْ صَلَّىٰ أَحَدُهُمْ، نَقَرَهَا، أَوْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا؛ **فَهَؤُلاءِ فِي عِدَادِ الْبَهَائِمِ.**

وَمِنَ النَّاسِ ذَوُو رَذَالَةٍ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ؛ فَهَذَا كَنَّاسٌ، وَهَذَا زَبَّالٌ، وَهَذَا نَخَّالٌ، وَهَذَا يَكْسَحُ الْحُشَّ؛ **فَهَؤُلاءِ أَرْذَلُ الْقَوْمِ**[٢].

---

(١) يُطَفِّفُوْنَ وَيُخْسِرُوْنَ الْمِكْيَالَ الْمِيزَانَ: نَقْصِهِمَا وَبَخْسِهِمَا وَلَمْ يُوَفِّهِمَا. وَيَبْخَسُوْنَ: يَظْلِمُوْن وَلَا يُوَفُّوْنَ الْحُقُوْق.

(٢) يَكْسَحُ: يُنَقِّي وَيُزِيل. وَالْحُشَّ: الْكَنِيفُ؛ فَقَوْلُهُمْ: بَيْتُ الْحُشِّ مَجَازٌ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَقْضُونَ حَوَائِجَهُمْ فِي الْبَسَاتِينِ؛ فَلَمَّا اتَّخَذُوا الْكُنُفَ وَجَعَلُوهَا خَلَفًا عَنْهَا أَطْلَقُوا عَلَيْهَا ذَلِكَ الِاسْمَ. وَالرَّذِيلُ: الْمُحْتَقَرُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ اللَّذَّاتِ، وَلَا يُسَاعِدُهُ الْمَعَاشُ، فَيَخْرُجُ إِلَىٰ قَطْعِ الطَّرِيقِ! وَهَؤُلَاءِ أَحْمَقُ الْجَمَاعَةِ؛ إِذْ لَا عَيْشَ لَهُمْ؛ فَإِنِ الْتَذُّوا لَحْظَةً بِأَكْلٍ أَوْ شُرْبٍ، فَحَرَّكَتِ الرِّيحُ قَصَبَةً؛ هَرَبُوا خَوْفًا مِنَ السُّلْطَانِ، وَمَا أَقَلَّ بَقَاءَهُمْ! ثُمَّ الْقَتْلُ وَالصَّلْبُ، مَعَ إِثْمِ الْآخِرَةِ.

وَمِنْهُمْ أَرْبَابُ قُرًى، قَدْ عَمَّهُمُ الْجَهْلُ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَتَحَاشَىٰ مِنْ نَجَاسَةٍ؛ فَهُمْ فِي زُمْرَةِ الْبَقَرِ.

وَرَأَيْتُ النِّسَاءَ يَنْقَسِمْنَ أَيْضًا:

فَمِنْهُنَّ الْمُسْتَحْسَنَةُ الَّتِي تَبْغِي[1]، وَمِنْهُنَّ الْخَائِنَةُ لِزَوْجِهَا فِي مَالِهِ، وَمِنْهُنَّ مَنْ لَا تُصَلِّي، وَلَا تَعْرِفُ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ؛ فَهَؤُلَاءِ حَشْوُ النَّارِ؛ فَإِذَا سَمِعْنَ مَوْعِظَةً؛ فَإِنَّهَا كَمَا مَرَّتْ عَلَىٰ حَجَرٍ! وَإِذَا قُرِئَ عِنْدَهُنَّ الْقُرْآنُ؛ فَكَأَنَّهُنَّ يَسْمَعْنَ السَّمَرَ!!

* وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ:

فَالْمُبْتَدِئُونَ مِنْهُمْ يَنْقَسِمُونَ إِلَىٰ ذِي نِيَّةٍ خَبِيثَةٍ؛ يَقْصِدُ بِالْعِلْمِ الْمُبَاهَاةَ لَا الْعَمَلَ، وَيَمِيلُ إِلَىٰ الْفِسْقِ؛ ظَنًّا أَنَّ الْعِلْمَ يَدْفَعُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا الْمُتَوَسِّطُونَ وَالْمَشْهُورُونَ؛ فَأَكْثَرُهُمْ يَغْشَىٰ السَّلَاطِينَ، وَيَسْكُتُ عَنْ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ.

وَقَلِيلٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ تَسْلَمُ لَهُ نِيَّتُهُ، وَيَحْسُنُ قَصْدُهُ.

فَمَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا؛ رَزَقَهُ حُسْنَ الْقَصْدِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ؛ فَهُوَ يُحَصِّلُهُ لِيَنْتَفِعَ بِهِ وَيَنْفَعَ، وَلَا يُبَالِي بِعَمَلٍ مِمَّا يَدُلُّهُ عَلَيْهِ الْعِلْمُ؛ فَتَرَاهُ يَتَجَافَىٰ أَرْبَابَ الدُّنْيَا، وَيَحْذَرُ مُخَالَطَةَ الْعَوَامِّ، وَيَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ؛ خَوْفًا مِنَ الْمُخَاطَرَةِ فِي الدُّنْيَا فِي تَحْصِيلِ الْكَثِيرِ، وَيُؤْثِرُ الْعُزْلَةَ؛ فَلَيْسَ مُذَكِّرًا لِلْآخِرَةِ مِثْلُهَا.

وَلَيْسَ عَلَىٰ الْعَالِمِ أَضَرُّ مِنَ الدُّخُولِ عَلَىٰ السَّلَاطِينِ؛ فَإِنَّهُ يُحَسِّنُ لِلْعَالِمِ الدُّنْيَا، وَيُهَوِّنُ

---

(١) تَبْغِي: تَفْجُر وَتَتَكَسَّب بِفَرجِهَا.

عَلَيْهِ الْمُنْكَرَ، وَرُبَّمَا أَرَادَ أَنْ يُنْكِرَ فَلَا يَصِحُّ لَهُ! فَإِنْ عَدِمَ الْقَنَاعَةَ، وَغَلَبَتْهُ نَفْسُهُ فِي طَلَبِ فُضُولِ الدُّنْيَا؛ سُلِّمَ عَلَيْهِ[1]؛ لِأَنَّهُ يَتَعَرَّضُ بِأَرْبَابِهَا.

وَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَمْشِي فِي السُّوقِ سَاعَةً، فَيَنْسَىٰ بِمَا يَرَىٰ مَا يَعْلَمُ؛ فَكَيْفَ إِذَا انْضَمَّ إِلَىٰ ذَلِكَ التَّرَدُّدُ إِلَىٰ الْأَغْنِيَاءِ، وَالطَّمَعُ فِي أَمْوَالِهِمْ؟!

فَأَمَّا الْوَحْدَةُ؛ فَإِنَّهَا سَبَبُ رُجُوعِ الْقَلْبِ، وَجَمْعِ الْهَمِّ، وَالنَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ، وَالتَّهَيُّؤِ لِلرَّحِيلِ، وَتَحْصِيلِ الزَّادِ؛ فَإِذَا انْضَمَّتْ إِلَيْهَا الْقَنَاعَةُ؛ جَلَبَتِ الْأَحْوَالَ الْمُسْتَحْسَنَةَ.

وَلَا تَحْسُنُ الْيَوْمَ الْمُجَالَسَةُ إِلَّا لِكِتَابٍ يُحَدِّثُكَ عَنْ أَسْرَارِ السَّلَفِ؛ فَأَمَّا مُجَالَسَةُ الْعُلَمَاءِ؛ فَمُخَاطَرَةٌ؛ إِذْ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَىٰ ذِكْرِ الْآخِرَةِ فِي الْأَغْلَبِ، وَمُجَالَسَةُ الْعَوَامِّ فِتْنَةٌ لِلدِّينِ؛ إِلَّا أَنْ يَحْتَرِزَ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَيَمْنَعَهُمْ مِنَ الْقَوْلِ، فَيَقُولَ هُوَ، وَيُكَلِّفُهُمُ السَّمَاعَ، ثُمَّ يَسْتَوْفِزَ لِلْبُعْدِ عَنْهُمْ[2].

وَلَا يُمْكِنُ الِانْقِطَاعُ الْكُلِّيُّ إِلَّا بِقَطْعِ الطَّمَعِ، وَلَا يَنْقَطِعُ الطَّمَعُ إِلَّا بِالْقَنَاعَةِ بِالْيَسِيرِ، أَوْ يَتَّجِرُ بِتِجَارَةٍ، أَوْ أَنْ يَكُونَ لَهُ عَقَارٌ يَسْتَغِلُّهُ؛ فَإِنَّهُ مَتَىٰ احْتَاجَ تَشَتَّتَ الْهَمُّ، وَمَتَىٰ انْقَطَعَ الْعَالِمُ عَنِ الْخَلْقِ، وَقَطَعَ طَمَعَهُ فِيهِمْ وَتَوَفَّرَ عَلَىٰ ذِكْرِ الْآخِرَةِ؛ فَذَاكَ الَّذِي يَنْفَعُ وَيُنْتَفَعُ بِهِ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

*[٢٥٤ - ٢٨٧][خَاطِرَةٌ]:

[أَحْوَالُ النَّاسِ فِي الْعُقُولِ وَالْفُهُومِ]

سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الْخَلْقَ بَيْنَ طَرَفَيِّ نَقِيضٍ، وَالْمُتَوَسِّطُ مِنْهُمْ يَنْدُرُ!

مِنْهُمْ: مَنْ يَغْضَبُ، فَيَقْتُلُ وَيَضْرِبُ.

وَمِنْهُمْ: مَنْ هُوَ أَبْلَهُ بِقُوَّةِ الْحِلْمِ، لَا يُؤَثِّرُ عِنْدَهُ السَّبُّ!

(١) سُلِّمَ عَلَيْهِ: لِلتَّوْدِيعِ وَالْيَأْسِ مِنْ صَلَاحِهِ؛ فَانْتَهَىٰ اسْتِعْمَالُهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَسَقَطَتْ هَيْبَتُهُ وَأَمْرُهُ.

(٢) يَسْتَوْفِزَ: يَجْلِسُ عَلَىٰ هَيْئَةٍ كَأَنَّهُ يُرِيدُ الْقِيَامَ. وَاسْتَوْفَزَ فِي قِعْدَتِهِ إِذَا قَعَدَ قُعُودًا مُنْتَصِبًا غَيْرَ مُطْمَئِنٍّ.

وَمِنْهُمْ: شَرِهٌ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا يَشْتَهِي.

وَمِنْهُمْ: مُتَزَهِّدٌ يَتَجَفَّفُ، فَيَمْنَعُ النَّفْسَ حَقَّهَا!

وَكَذَلِكَ سَائِرُ الأَشْيَاءِ؛ الْمَحْمُوْدُ مِنْهَا الْمُتَوَسِّطُ:

فَالْمُنْفِقُ كُلَّ مَا يَجِدُ مُبَذِّرٌ، وَالْبَخِيْلُ يُخَبِّئُ الْمَالَ، وَيَمْنَعُ نَفْسَهُ حَظَّهَا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَالَ لا يُرَادُ لِنَفْسِهِ، بَلْ لِلْمَصَالِحِ.

فَإِذَا بَذَّرَ الإِنْسَانُ فِيهِ؛ احْتَاجَ إِلَىٰ بَذْلِ وَجْهِهِ وَدِيْنِهِ وَمِنَّةِ الْبُخَلَاءِ عَلَيْهِ، وَهَذَا لَا يَصْلُحُ، وَلأَنْ يُخَلِّفَ الإِنْسَانُ لِعَدُوِّهِ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَىٰ صَدِيْقِهِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْخَلُ، ثُمَّ يَتَفَاوَتُوْنَ فِي الْبُخْلِ، حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ بِالْبُخَلَاءِ الأَمْرُ إِلَىٰ عِشْقِ عَيْنِ الْمَالِ؛ فَرُبَّمَا مَاتَ أَحَدُهُمْ هُزَالًا، وَهُوَ لَا يُنْفِقُهُ، فَيَأْخُذُهُ الْغَيْرُ، وَيَنْدَمُ الْمُخَلِّفُ!!

وَلَقَدْ بَلَغَنِي فِي هَذَا مَا لَيْسَ فَوْقَهُ مَزِيْدٌ، ذَكَرْتُهُ لِتَعْتَبِرَ بِهِ:

فَحَدَّثَنِي شَيْخُنَا أَبُو الْفَضْلِ بْنُ نَاصِرٍ، عَنْ شَيْخِهِ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الصُّورِيِّ[1]؛ قَالَ: «كَانَ بِصُوْرٍ تَاجِرٌ فِي غُرْفَةٍ لَهُ، يَأْخُذُ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنَ الْبَقَّالِ رَغِيْفَيْنِ وَجَوْزَةً، فَيَدْخُلُ إِلَىٰ غُرْفَتِهِ وَقْتَ الْمَغْرِبِ، فَيُضْرِمُ النَّارَ فِي الْجَوْزَةِ، فَتُضِيءُ بِمِقْدَارِ مَا يَنْزِعُ ثَوْبَهُ، وَفِي زَمَانِ إِحْرَاقِ الْقِشْرِ تَكُوْنُ قَدِ اسْتَوَتْ، فَيَمْسَحُ بِهَا الرَّغِيفَيْنِ وَيَأْكُلُهُمَا. . . فَبَقِيَ عَلَىٰ هَذَا مُدَّةً، فَمَاتَ، فَأَخَذَ مِنْهُ مَلِكُ صُوْرٍ ثَلَاثِينَ أَلْفًا!!».

وَرَأَيْتُ أَنَا رَجُلًا مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ قَدْ مَرِضَ، فَاسْتَلْقَىٰ عِنْدَ بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ، لَيْسَ لَهُ مَنْ يَخْدُمُهُ، وَلَا يُرَافِقُهُ، وَهُوَ مُضِرٌّ[2]، فَلَمَّا مَاتَ؛ وَجَدُوْا بَيْنَ كُتُبِهِ خَمْسَ مِئَةِ دِينَارٍ!!

---

(١) أَبُو الْفَضْلِ ابْنُ نَاصِرٍ ترجمته في:[١٥١-٣٣٩]. وَعِبْدَ الْمُحْسِنِ الصُّورِيُّ اِبْنُ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيٍّ الإِمَامُ، المُحَدِّثُ، الجَوَّال، الصَّدُوْقُ. مَاتَ:(٤٨٩هـ). وَالصُّورِيُّ نِسْبَةً إِلَىٰ مَدِيْنَةِ صُوْرٍ وَهِيَ مَدِيْنَة بَحَرِيَّة لُبْنَانِيَّة، تَقَعُ عَلَىٰ شَاطِيءِ الْبَحْرِ الأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّط، وَهِيَ عَلَىٰ بُعْد ٨٥ كُلمِ جَنُوب بَيْرُوت.

(٢) مُضِرٌّ: مَرِيْضٌ.

وَحَدَّثَنِي أَبُو الْحَسَنِ الْبِرَانِدِسِيُّ[١]، قَالَ: «مَرِضَ رَجُلٌ عِنْدَنَا، فَبَعَثَ إِلَيَّ، فَحَضَرْتُ، فَقَالَ: قَدْ خَتَمَ الْقَاضِي عَلَىٰ مَالِي، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ قُمْتُ وَفَتَحْتُ الْخَتْمَ، وَأَعْطَيْتُكَ الثُّلُثَ تُفَرِّقُهُ، وَتَعْمَلُ بِهِ مَا تَشَاءُ، فَقَالَ: لَا وَاللهِ؛ مَا أُرِيدُ أَنْ أُفَرِّقَهُ، بَلْ أُرِيدُ مَالِي يَكُونُ عِنْدِي، فَقُلْتُ: مَا يُعْطُونَكَ، بَلَىٰ أَنَا آخِذٌ لَكَ الثُّلُثَ، فَقَالَ: لَا أُرِيدُ، فَمَاتَ، وَأُخِذَ مَالَهُ!!».

قَالَ: «وَجَاءَ رَجُلٌ، فَحَدَّثَنِي بِعَجِيبَةٍ؛ قَالَ: مَرِضَتْ حَمَاتِي، فَقَالَتْ لِي: أُرِيدُ أَنْ تَشْتَرِيَ لِي خَبِيصًا، فَاشْتَرَيْتُ لَهَا، وَكَانَتْ مُلْقَاةً فِي صُفَّةٍ[٢]، وَنَحْنُ فِي صُفَّةٍ أُخْرَىٰ، فَجَاءَنِي وَلَدِي الصَّغِيرُ، وَقَالَ: يَا سَيِّدِي! إِنَّهَا تَبْلَعُ الذَّهَبَ!! فَقُمْتُ، وَإِذَا بِهَا تَجْعَلُ الدِّينَارَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْخَبِيصِ فَتَبْلَعُهُ! فَأَمْسَكْتُ يَدَهَا، وَزَجَرْتُهَا عَنْ هَذَا، فَقَالَتْ: أَنَا أَخَافُ أَنْ تَتَزَوَّجَ عَلَىٰ ابْنَتِي، فَقُلْتُ: مَا أَفْعَلُ، فَقَالَتْ: احْلِفْ لِي! فَحَلَفْتُ، فَأَعْطَتْنِي بَاقِي الذَّهَبِ، ثُمَّ مَاتَتْ، فَدَفَنْتُهَا، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَشْهُرٍ؛ مَاتَ لَنَا طِفْلٌ، فَحَمَلْنَاهُ إِلَيْهَا، وَأَخَذْتُ مَعِي خِرْقَةَ خَام، وَقُلْتُ لِلْحَفَّارِ: اجْمَعْ لِي عِظَامَ تِلْكَ الْعَجُوزِ فِي الْخِرْقَةِ، فَجِئْتُ بِهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ، وَتَرَكْتُهَا فِي إِجَّانَةٍ[٣]، وَصَبَبْتُ عَلَيْهَا الْمَاءَ، وَحَرَّكْتُهَا، فَأَخْرَجْتُ ثَمَانِينَ دِينَارًا أَوْ نَحْوَهَا، كَانَتْ قَدِ ابْتَلَعَتْهَا!!».

وَحَكَىٰ لِي صَدِيقٌ لَنَا: «أَنَّ رَجُلًا مَاتَ، وَدُفِنَ فِي الدَّارِ، ثُمَّ نُبِشَ بَعْدَ مُدَّةٍ لِيُخْرَجَ، فَوُجِدَ تَحْتَ رَأْسِهِ لَبِنَةٌ مُقَيَّرَةٌ[٤]، فَسُئِلَ أَهْلُهُ عَنْهَا؟ فَقَالُوا: هُوَ قَيَّرَ هَذِهِ اللَّبِنَةَ، وَأَوْصَىٰ أَنْ تُتْرَكَ تَحْتَ رَأْسِهِ فِي قَبْرِهِ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّبِنَ يَبْلَىٰ سَرِيعًا، وَهَذِهِ لِمَوْضِعِ الْقَارِ لَا تَبْلَىٰ، فَأَخَذُوهَا، فَوَجَدُوهَا

---

(١) جَاءَ فِي الأَصْلِ: [الرَّانِدِسِيُّ] وَمَا أَثْبَتَّاهُ مِنْ كِتَابِ: «الْمُنْتَظِم» (ج١٨/ ص١٥٣، ١٤٥، ٧٩، ٦٩) [يَقُولُ: وَحَدَّثَنِي أَبُو الْحَسَن الْبَرَانِدِسِيُّ]. وَالبِرَانِدِسِيُّ هُوَ: عَلِيّ بْنُ مُحَمَّد بْنُ عَلِيّ أَبُو الْحَسَن الْمُقرِئ الْبَرَانِدِسِيُّ نِسْبَةً إِلَي «بِرَانِدِس» قَرْيَة مِنْ قُرَىٰ بَغْدَاد عِنْدَ نَهر عِيسَىٰ. وَكَانَ البِرَانِدِسِيُّ حَنْبَلِيًّا شَيْخًا عَابِدًا ثِقَةً فَاضِلًا. مَاتَ سَنَةَ: (٥٨٦هـ).

(٢) الْخَبِيص: صِنف مِنَ التِّين أَوْ نَوع مَعمُوْل مِنَ التَّمرِ وَالسَّمن. وَصُفَّة: جَمع صُفَّات وَصُفَف: ظُلَّة، سُقَيْفَة، مَوْضِعٌ مُظَلَّل. صُفَّة البَيْت/ صُفَّة المَسْجِد: مَقْعَد بِالقُرب مِنْهُ مُظَلَّل.

(٣) إِجَّانَة: جَمع أَجَاجِيْنُ: إِسْمٌ لِلقَصْعَةِ الكَبِيْرَة الَّتِي تُغسَل فِيهَا الثِّيَاب.

(٤) لَبِنَة: قَوَالِبٌ مُرَبَّعَة أَو مُسْتَطِيلَة مَضرُوْبَة مِنَ الطِّيْنِ تُستَعمَل في البِنَاءِ. وَمُقَيَّرَةٌ: مَطلِيَّة بِالقَارِ، الزِّفتُ والزُّفتُ: شَيْءٌ يَخرجُ مِنَ الأَرضِ يَقَعُ في الأَدوِيَةِ التُّرَابِيَّة، وَلِيْسَ هُوَ ذَلِكَ الزِّفتَ المَعرُوف.

رَزِينَةٌ[١]، فَكَسَرُوهَا، فَوَجَدُوا فِيهَا تِسْعَ مِئَةِ دِينَارٍ، فَتَوَلَّاهَا أَصْحَابُ التَّرِكَاتِ!!».

وَبَلَغَنِي: «أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَكْنُسُ الْمَسَاجِدَ، وَيَجْمَعُ تُرَابَهَا، ثُمَّ ضَرَبَهُ لَبِنًا[٢]، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا لِأَيِّ شَيْءٍ؟ فَقَالَ: هَذَا تُرَابٌ مُبَارَكٌ، وَأُرِيدُ أَنْ يَجْعَلُوهُ عَلَىٰ لَحْدِي؛ فَلَمَّا مَاتَ؛ جُعِلَ عَلَىٰ لَحْدِهِ، فَفَضَلَ مِنْهُ لَبِنَاتٌ، فَرَمَوْهَا فِي الْبَيْتِ، فَجَاءَ الْمَطَرُ، فَتَفَسَّخَتِ اللَّبِنَاتُ؛ فَإِذَا فِيهَا دَنَانِيرُ، فَمَضَوْا، وَكَشَفُوا اللَّبِنَ عَنْ لَحْدِهِ، وَكُلُّهُ مَمْلُوءٌ دَنَانِيرَ!!».

وَلَقَدْ مَاتَ بَعْضُ أَصْدِقَائِنَا، وَكُنْتُ أَعْلَمُ لَهُ مَالًا كَثِيرًا، وَطَالَ مَرَضُهُ، فَمَا أَطْلَعَ أَهْلَهُ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَلَا أَكَادُ أَشُكُّ أَنَّهُ مِنْ شُحِّهِ وَحِرْصِهِ عَلَىٰ الْحَيَاةِ وَرَجَائِهِ أَنْ يَبْقَىٰ لَمْ يُعْلِمْهُمْ بِمَدْفُونِهِ؛ خَوْفًا أَنْ يُؤْخَذَ، فَيَحْيَا هُوَ، وَقَدْ أُخِذَ الْمَالُ، وَمَا يَكُونُ بَعْدَ هَذَا الْخِزْيِ شَيْءٌ!!».

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ حَالَةٍ شَاهَدَهَا مِنْ هَذَا الْفَنِّ؛ قَالَ: «كَانَ فُلَانٌ لَهُ وَلَدَانِ ذَكَرَانِ وَبِنْتٌ، وَلَهُ أَلْفُ دِينَارٍ مَدْفُونَةٌ، فَمَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا، فَاحْتَوَشَتْهُ أَهْلُهُ[٣]، فَقَالَ لِأَحَدِ ابْنَيْهِ: لَا تَبْرَحْ مِنْ عِنْدِي! فَلَمَّا خَلَا بِهِ؛ قَالَ لَهُ: إِنَّ أَخَاكَ مَشْغُولٌ بِاللَّعِبِ بِالطُّيُورِ، وَإِنَّ أُخْتَكَ لَهَا زَوْجٌ تُرْكِيٌّ، وَمَتَىٰ وَصَلَ مِنْ مَالِي إِلَيْهِمَا شَيْءٌ؛ أَنْفَقُوهُ فِي اللَّعِبِ، وَأَنْتَ عَلَىٰ سِيرَتِي وَأَخْلَاقِي، وَلِي فِي الْمَوْضِعِ الْفُلَانِيِّ أَلْفُ دِينَارٍ؛ فَإِذَا أَنَا مِتُّ؛ فَخُذْهَا وَحْدَكَ، فَاشْتَدَّ بِالرَّجُلِ الْمَرَضُ، فَمَضَىٰ الْوَلَدُ، فَأَخَذَ الْمَالَ، فَعُوفِيَ الْأَبُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ الْوَلَدَ أَنْ يَرُدَّ الْمَالَ إِلَيْهِ، فَلَا يَفْعَلُ، فَمَرِضَ الْوَلَدُ وَأَشْفَىٰ[٤]، فَجَعَلَ الْأَبُ يَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: وَيْحَكَ! خَصَصْتُكَ بِالْمَالِ دُونَهُمْ، فَتَمُوتُ، فَيَذْهَبُ الْمَالُ! وَيْحَكَ! لَا تَفْعَلْ! فَمَا زَالَ بِهِ حَتَّىٰ أَخْبَرَهُ بِمَكَانِهِ، فَأَخَذَهُ، ثُمَّ عُوفِيَ الْوَلَدُ، وَمَضَتْ مُدَّةٌ، فَمَرِضَ الْأَبُ، فَاجْتَهَدَ الْوَلَدُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِمَكَانِ الْمَالِ وَبَالَغَ، فَلَمْ يُخْبِرْهُ، وَمَاتَ، وَضَاعَ الْمَالُ».

---

(١) رَزِينَةٌ: الرَّزِينُ الثَّقِيلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَالثَّابِتُ السَّاكِنُ.

(٢) ضَرَبَهُ لَبِنًا؛ أَيْ: جَعَلَهُ قَوَالِبَ طُوبٍ.

(٣) فَاحْتَوَشَتْهُ: احْتَوَشَ: أَحَاطُوا بِهِ، وَجَعَلُوهُ وَسَطَهُم.

(٤) أَشْفَىٰ: أَشْفَىٰ المَرِيضُ عَلَىٰ المَوْتِ: اِقْتَرَبَ مِنْهُ.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَعْدَمَ هَؤُلَاءِ الْعُقُوْلَ وَالْفُهُوْمَ! ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفُرقان: ٤٤] .

*[٢٥٥ - ٢٠٨][خاطِرَةٌ]:

[أَكْثَرُ النَّاسِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ]

مَنْ عَرَفَ الشَّرْعَ كَمَا يَنْبَغِي، وَعَلِمَ حَالَةَ الرَّسُولِ ﷺ وَأَحْوَالَ الصَّحَابَةِ وَأَكَابِرِ الْعُلَمَاءِ؛ عَلِمَ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَلَىٰ غَيْرِ الْجَادَّةِ، وَإِنَّمَا يَمْشُوْنَ مَعَ الْعَادَةِ.

يَتَزَاوَرُوْنَ؛ فَيَغْتَابُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَوْرَةَ أَخِيهِ، وَيَحْسُدُهُ إِنْ كَانَتْ نِعْمَةٌ، وَيَشْمَتُ بِهِ إِنْ كَانَتْ مُصِيبَةٌ، وَيَتَكَبَّرُ عَلَيْهِ إِنْ نَصَحَ لَهُ، وَيُخَادِعُهُ لِتَحْصِيلِ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَيَأْخُذُ عَلَيْهِ الْعَثَرَاتِ إِنْ أَمْكَنَ . . . هَذَا كُلُّهُ يَجْرِي بَيْنَ الْمُنْتَمِيْنَ إِلَىٰ الزُّهْدِ لا الرَّعَاعِ.

فَالأَوْلَىٰ بِمَنْ عَرَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ؛ وَعَرَفَ الشَّرْعَ؛ وَسِيَرَ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ: الِانْقِطَاعُ عَنِ الْكُلِّ.

فَإِنِ اضْطُرَّ إِلَىٰ لِقَاءِ مُنْتَسِبٍ إِلَىٰ الْعِلْمِ وَالْخَيْرِ؛ تَلَقَّاهُ، وَقَدْ لَبِسَ دِرْعَ الْحَذَرِ، وَلَمْ يُطِلْ مَعَهُ الْكَلَامَ، ثُمَّ عَجَّلَ الْهَرَبَ مِنْهُ إِلَىٰ مُخَالَطَةِ الْكُتُبِ الَّتِي تَحْوِي تَفْسِيْرًا لِنِطَاقِ الْكَمَالِ.

*[٢٥٦ - ٢٩٦][خاطِرَةٌ]:

[جُمْهُورُ النَّاسِ خَرَجَ مِنْ رِبْقَةِ الْعُبُودِيَّةِ]

تَأَمَّلْتُ أَحْوَالَ النَّاسِ، فَرَأَيْتُ جُمْهُوْرَهُمْ مُنْسَلًّا مِنْ رِبْقَةِ الْعُبُوْدِيَّةِ(١)؛ فَإِنْ تَعَبَّدُوْا؛ فَعَادَةٌ؛ أَوْ فِيْمَا لَا يُنَافِي أَغْرَاضَهُمْ مُنَافَاةً تُؤْذِي الْقُلُوبَ:

(١) مُنْسَلّ: خَرَجَ فِي خِفْيَةٍ دُوْنَ أَنْ يَعْلَم. رِبْقَة: الرِّبْقَة فِي الأَصْل: عُرْوَةٌ فِي حَبْلٍ تُجْعَل فِي عُنُق الْبَهِيمَة أَوْ يَدِهَا تُمْسِكُهَا؛ فَاسْتَعَارَهَا لِلْعُبُودِيَّةِ يَعْنِي مَا يَشُدّ الْمُسْلِم بِهِ نَفْسه مِنْ أَوَامِر الإِسْلَام وَنَوَاهِيهِ وَأَحْكَامِهِ وَحُدُوْدِهِ.

* فَأَكْثَرُ السَّلَاطِيْنِ يُحَصِّلُوْنَ الأَمْوَالَ مِنْ وُجُوْهٍ رَدِيَّةٍ[١]، وَيُنْفِقُوْنَهَا فِي وُجُوْهٍ لَا تَصْلُحُ، وَكَأَنَّهُمْ قَدْ تَمَلَّكُوْهَا، وَلَيْسَتْ مَالَ اللهِ! الَّذِي إِذَا غَزَا أَحَدُهُمْ[٢]، فَغَنِمَ الأَمْوَالَ؛ اصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ، وَأَعْطَاهَا أَصْحَابَهُ، كَيْفَ اشْتَهَىٰ!!

* وَالْعُلَمَاءُ لِقُوَّةِ فَقْرِهِمْ، وَشِدَّةِ شَرَهِهِمْ، يُوَافِقُوْنَ الأُمَرَاءَ، وَيَنْخَرِطُوْنَ فِي سِلْكِهِمْ.

* وَالتُّجَّارُ عَلَىٰ الْعُقُوْدِ الْفَاسِدَةِ.

* وَالْعَوَامُّ فِي الْمَعَاصِي، وَالإِهْمَالِ لِجَانِبِ الشَّرِيْعَةِ؛ فَإِنْ فَاتَ بَعْضُ أَغْرَاضِهِمْ؛ فَرُبَّمَا قَالُوا: مَا نُرِيْدُ نُصَلِّي! لَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِمْ. . . وَقَدْ مَنَعُوْا الزَّكَاةَ، وَتَرَكُوْا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَغُرُّهُ تَأْخِيْرُ الْعُقُوْبَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَقْطَعُ بِالْعَفْوِ، وَأَكْثَرُهُمْ مُتَزَلْزِلُ الإِيمَانِ.

فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُمِيْتَنَا مُسْلِمِيْنَ.

*[٢٥٧ - ٣٠٣][خَاطِرَةٌ]:

[أَكْثَرُ النَّاسِ عِبَادَاتُهُمْ عَادَاتٌ]

تَأَمَّلْتُ عَلَىٰ أَكْثَرِ النَّاسِ عِبَادَاتِهِمْ؛ فَإِذَا هِيَ عَادَاتٌ، فَأَمَّا أَرْبَابُ الْيَقَظَةِ؛ فَعَادَاتُهُمْ عِبَادَةٌ حَقِيْقِيَّةٌ.

فَإِنَّ الْغَافِلَ يَقُوْلُ: سُبْحَانَ اللهِ عَادَةً.

وَالْمُتَيَقِّظُ لا يَزَالُ فِكْرُهُ فِي عَجَائِبِ الْمَخْلُوْقَاتِ أَوْ فِي عَظَمَةِ الْخَالِقِ، فَيُحَرِّكُهُ الْفِكْرُ فِي ذَلِكَ، فَيَقُوْلُ: سُبْحَانَ اللهِ.

(١) رَدِيَّة: مُهْلِكَة، الرَّدىٰ: الهَلَاكُ.

(٢) يَعْنِي: غَزَا أَحَدُهُمْ بِاسْمِهِ سُبْحَانَهُ جَلَّ شَأْنُهُ.

وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَفَكَّرَ فِي رُمَّانَةٍ، فَنَظَرَ فِي تَصْفِيفِ حَبِّهَا، وَحِفْظِهِ بِالْأَغْشِيَةِ لِئَلَّا يَتَضَاءَلَ، وَإِقَامَةِ الْمَاءِ عَلَىٰ عَظْمِ الْعَجَمِ[١]، وَجَعْلِ الْغِشَاءِ عَلَيْهِ يَحْفَظُهُ، وَتَصْوِيرِ الْفَرْخِ فِي بَطْنِ الْبَيْضَةِ، وَالْآدَمِيِّ فِي حَشَا الْأُمِّ . . . إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ[٢]؛ أَزْعَجَهُ هَذَا الْفِكْرُ إِلَىٰ تَعْظِيمِ الْخَالِقِ[٣]، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! وَكَانَ هَذَا التَّسْبِيحُ ثَمَرَةَ الْفِكْرِ.

فَهَذَا تَسْبِيحُ الْمُتَيَقِّظِينَ. . . وَمَا تَزَالُ أَفْكَارُهُمْ تَجُولُ، فَتَقَعُ عِبَادَاتُهُمْ بِالتَّسْبِيحَاتِ مُحَقَّقَةً.

وَكَذَلِكَ يَتَفَكَّرُونَ فِي قَبَائِحِ ذُنُوبٍ قَدْ تَقَدَّمَتْ، فَيُوجِبُ ذَلِكَ الْفِكْرُ حَرَكَةَ الْبَاطِنِ، وَقَلَقَ الْقَلْبِ، وَنَدَمَ النَّفْسِ، فَيُثْمِرُ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ قَائِلُهُمْ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ.

فَهَذَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالِاسْتِغْفَارُ.

فَأَمَّا الْغَافِلُونَ؛ فَيَقُولُونَ ذَلِكَ عَادَةً.

وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ.

---

*[٢٥٨ - ٢٠٩][خَاطِرَةٌ]:

[أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْذُرُ عِنْدَ الْغَضَبِ]

مَتَىٰ رَأَيْتَ صَاحِبَكَ قَدْ غَضِبَ، وَأَخَذَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَصْلُحُ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَعْقِدَ عَلَىٰ مَا يَقُولُهُ خِنْصَرًا[٤]، وَلَا أَنْ تُؤَاخِذَهُ بِهِ؛ فَإِنَّ حَالَهُ حَالُ السَّكْرَانِ، لَا يَدْرِي مَا يَجْرِي. بَلِ اصْبِرْ لِفَوْرَتِهِ، وَلَا تُعَوِّلْ عَلَيْهَا[٥]؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ غَلَبَهُ، وَالطَّبْعَ قَدْ هَاجَ، وَالْعَقْلَ قَدِ اسْتَتَرَ.

---

(١) الْعَجَمُ: النَّوَىٰ وَكُلُّ مَا كَانَ فِي جَوْفِ مَأْكُولٍ.

(٢) الْفَرْخ: وَلَدُ الطَّائِرِ. وَالْفَرْخُ مِنْ كُلِّ بَائِضٍ كَالْوَلَدِ مِنَ الْإِنْسَانِ. وَحَشَا الْأُمِّ: مَوْضِع نُمُوِّ الْجَنِينِ فِي جِسْمِ الْأُمِّ.

(٣) أَزْعَجَهُ: أَقْلَقَهُ وَهَيَّجَهُ وَأَثَّرَ هَذَا الْفِكْرُ إِلَىٰ تَعْظِيمِ الْخَالِقِ.

(٤) الخِنْصر: الإِصْبَع الصُّغْرَىٰ. وَيَعْنِي: أَنَّ كَلَامَهُ فِي الْغَضَبِ لَا يُعْتَدُّ بِهِ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الالتِفَات إِلَيْهِ أَوْ الاهتِمَام بِهِ.

(٥) لِفَوْرَتِهِ: فَوْرَة اِسْم مَرَّة مِن فارَ: الْحِدَّة وَالشِّدَّة. وَتُعَوِّلْ عَلَيْهَا: تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فِي أَخْذِ حَقِّكَ.

وَمَتَىٰ أَخَذْتَ فِي نَفْسِكَ عَلَيْهِ، أَوْ أَجَبْتَهُ بِمُقْتَضَىٰ فِعْلِهِ؛ كُنْتَ كَعَاقِلٍ وَاجَهَ مَجْنُونًا، أَوْ كَمُفِيقٍ عَاتَبَ مُغْمًىٰ عَلَيْهِ؛ فَالذَّنْبُ لَكَ.

بَلِ انْظُرْ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ، وَتَلَمَّحْ تَصْرِيفَ الْقَدَرِ لَهُ، وَتَفَرَّجْ فِي لَعِبِ الطَّبْعِ بِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا انْتَبَهَ؛ نَدِمَ عَلَىٰ مَا جَرَىٰ، وَعَرَفَ لَكَ فَضْلَ الصَّبْرِ.

وَأَقَلُّ الأَقْسَامِ أَنْ تُسْلِمَهُ فِيمَا يَفْعَلُ فِي غَضَبِهِ إِلَىٰ مَا يَسْتَرِيحُ بِهِ.

وَهَذِهِ الحَالَةُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَلَمَّحَهَا الْوَلَدُ عِنْدَ غَضَبِ الْوَالِدِ، وَالزَّوْجَةُ عِنْدَ غَضَبِ الزَّوْجِ؛ فَتَتْرُكَهُ يَشْتَفِي بِمَا يَقُولُ، وَلَا تُعَوِّلَ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ فَسَيَعُودُ نَادِمًا مُعْتَذِرًا.

وَمَتَىٰ قُوبِلَ عَلَىٰ حَالَتِهِ وَمَقَالَتِهِ؛ صَارَتِ الْعَدَاوَةُ مُتَمَكِّنَةً، وَجَازَىٰ فِي الإِفَاقَةِ عَلَىٰ مَا فُعِلَ فِي حَقِّهِ وَقْتَ السُّكْرِ.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ عَلَىٰ غَيْرِ هَذِهِ الطَّرِيقِ: مَتَىٰ رَأَوْا غَضْبَانَ؛ قَابَلُوهُ بِمَا يَقُولُ وَيَعْمَلُ، وَهَذَا عَلَىٰ غَيْرِ مُقْتَضَىٰ الحِكْمَةِ، بَلِ الحِكْمَةُ مَا ذَكَرْتُهُ،﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[العَنْكَبُوتُ:٤٣].

*[٢٥٩-١١٢][خَاطِرَةٌ]:

[أعظمُ الغلطِ: الثِّقةُ بالنَّاس]

مِنْ أَعْظَمِ الْغَلَطِ: الثِّقَةُ بِالنَّاسِ، وَالِاسْتِرْسَالُ إِلَىٰ الأَصْدِقَاءِ[١]؛ فَإِنَّ أَشَدَّ الأَعْدَاءِ وَأَكْثَرَهُمْ أَذًىٰ الصَّدِيقُ الْمُنْقَلِبُ عَدُوًّا؛ لِأَنَّهُ قَدِ اطَّلَعَ عَلَىٰ خَفِيِّ السِّرِّ.

قَالَ الشَّاعِرُ[٢]:

احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ... وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّةْ

(١) الِاسْتِرْسَالُ: الِاسْتِئْنَاسُ، وَالِاتِّسَاعُ، وَالِانْبِسَاطُ، وَالِاطْمِئْنَانُ إِلَىٰ الإِنْسَانِ وَالثِّقَةُ بِهِ.

(٢) البيتان من البحر:[مجزوء الكامل]، منصور بن إسماعيل الفقيه.

فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ فَكَانَ أَعْلَمَ بِالْمَضَرَّةْ

وَاعْلَمْ أَنَّ مِنَ الأَمْرِ الْمَوْضُوعِ فِي النُّفُوسِ الْحَسَدَ عَلَىٰ النِّعَمِ، أَوْ الْغِبْطَةَ، وَحُبَّ الرِّفْعَةِ(١).

فَإِذَا رَآكَ مَنْ يَعْتَقِدُكَ مِثْلا لَهُ؛ وَقَدِ ارْتَقَيْتَ عَلَيْهِ؛ فَلا بُدَّ أَنْ يَتَأَثَّرَ، وَرُبَّمَا حَسَدَ؛ فَإِنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ ﷺ؛ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ، جَرَىٰ لَهُمْ مَا شَانَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَبْقَىٰ الإِنْسَانُ بِلا صَدِيقٍ؟!

قُلْتُ لَكَ: أَتُرَاكَ مَا تَعْلَمُ أَنَّ الْمُجَانِسَ يَحْسُدُ، وَأَنَّ أَكْثَرَ الْعَوَامِّ يَعْتَقِدُونَ فِي الْعَالِمِ أَنَّهُ لا يَتَبَسَّمُ، وَلا يَتَنَاوَلُ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا شَيْئًا؛ فَإِذَا رَأَوْا بَعْضَ انْبِسَاطِهِ فِي الْمُبَاحِ؛ هَبَطَ مِنْ أَعْيُنِهِمْ؟! فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالَةَ الْعَوَامِّ، وَتِلْكَ حَالَةُ الْخَوَاصِّ؛ فَمَعَ مَنْ تَكُونُ الْمُعَاشَرَةُ؟!

لا؛ بَلْ وَاللهِ مَا تَصِحُّ الْمُعَاشَرَةُ مَعَ النَّفْسِ؛ لأَنَّهَا مُتَلَوِّنَةٌ.

وَلَيْسَ إِلَّا الْمُدَارَاةَ لِلْخَلْقِ، وَالاحْتِرَازَ مِنْهُمْ، وَاتِّخَاذَ الْمَعَارِفِ؛ مِنْ غَيْرِ طَمَعٍ فِي صَدِيقٍ صَادِقٍ، فَإِنْ نَدَرَ؛ فَلْيَكُنْ غَيْرَ مُمَاثِلٍ؛ لأَنَّ الْحَسَدَ إِلَيْهِ أَسْبَقُ، وَلْيَكُنْ مُرْتَفِعًا عَنْ رُتْبَةِ الْعَوَامِّ، غَيْرَ طَامِعٍ فِي نَيْلِ مَقَامِكَ.

وَإِنْ كَانَتْ مُعَاشَرَةُ هَذَا لا تَشْفِي؛ لأَنَّ الْمُعَاشَرَةَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ لِلْمُجَانِسِ؛ لِرَمَهُمْ مِنَ الإِشَارَاتِ فِي الْمُخَالَطَةِ مَا تَطِيبُ بِهِ الْمُجَالَسَةُ، وَلَكِنْ لا سَبِيلَ إِلَىٰ الْوِصَالِ.

وَمِثْلُ هَذِهِ الْحَالِ أَنَّكَ إِنِ اسْتَخْدَمْتَ الأَذْكِيَاءَ؛ عَرَفُوا بَاطِنَكَ، وَإِنِ اسْتَخْدَمْتَ الْبُلْهَ؛ انْعَكَسَتْ مَقَاصِدُكَ.

فَاجْعَلِ الأَذْكِيَاءَ لِحَوَائِجِكَ الْخَارِجَةِ.

وَالْبُلْهَ لِحَوَائِجِكَ فِي مَنْزِلِكَ؛ لِئَلَّا يَعْلَمُوا أَسْرَارَكَ.

---

(١) الْحَسَدُ: تَمَنِّي زَوَالِ نِعْمَةٍ عَنْ مُسْتَحِقٍّ لَهَا. وَالْغِبْطَةُ: تَمَنِّي حُصُولِ النِّعْمَةِ لَكَ كَمَا كَانَتْ حَاصِلَةً لِغَيْرِكَ مِنْ غَيْرِ تَمَنِّي زَوَالِهَا عَنْهُ. وَالرِّفْعَةُ: الْحُظْوَةُ الْعُلُوُّ فِي الْمَكَانَةِ الْعَلِيَّةِ.

وَاقْنَعْ مِنَ الأَصْدِقَاءِ بِمَنْ وَصَفْتُهُ لَكَ، ثُمَّ لا تَلْقَهُ إِلَّا مُتَدَرِّعًا دِرْعَ الْحَذَرِ، وَلا تُطْلِعْهُ عَلَىٰ بَاطِنٍ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَرَ عَنْهُ، وَكُنْ كَمَا يُقَالُ عَنِ الذِّئْبِ[١]:

يَنَامُ بِإِحْدَىٰ مُقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي ... بِأُخْرَىٰ الأَعَادِيَ، فَهْوَ يَقْظَانُ هَاجِعُ

*[٢٦٠-٢٨٨][خَاطِرَةٌ]:

[إذا أردت أن تصادق أحدا فاختبره]

كَانَ لَنَا أَصْدِقَاءُ وَإِخْوَانٌ أَعْتَدُّ بِهِمْ[٢]، فَرَأَيْتُ مِنْهُمْ مِنَ الْجَفَاءِ وَتَرْكِ شُرُوطِ الصَّدَاقَةِ وَالأُخُوَّةِ عَجَائِبَ، فَأَخَذْتُ أَعْتِبُ، ثُمَّ انْتَبَهْتُ لِنَفْسِي، فَقُلْتُ:

وَمَا يَنْفَعُ الْعِتَابُ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ صَلَحُوا؛ فَلِلْعِتَابِ لا لِلصَّفَاءِ؟! فَهَمَمْتُ بِمُقَاطَعَتِهِمْ!

ثُمَّ تَفَكَّرْتُ، فَرَأَيْتُ النَّاسَ بَيْنَ مَعَارِفَ وَأَصْدِقَاءَ فِي الظَّاهِرِ، وَإِخْوَةٍ مُبَاطِنِيْنَ.

فَقُلْتُ: لا تَصْلُحُ مُقَاطَعَتُهُمْ؛ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَنْقُلَهُمْ مِنْ دِيوَانِ الأُخُوَّةِ إِلَىٰ دِيوَانِ الصَّدَاقَةِ الظَّاهِرَةِ.

فَإِنْ لَمْ يَصْلُحُوا لَهَا؛ نَقَلْتَهُمْ إِلَىٰ جُمْلَةِ الْمَعَارِفِ، وَعَامَلْتَهُمْ مُعَامَلَةَ الْمَعَارِفِ، وَمِنَ الْغَلَطِ أَنْ تُعَاتِبَهُمْ.

فَقَدْ قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ مُعَاذٍ[٣]: «بِئْسَ الأَخُ أَخٌ تَحْتَاجُ أَنْ تَقُولَ لَهُ: «اذْكُرْنِي فِي دُعَائِكَ»».

وَجُمْهُوْرُ النَّاسِ الْيَوْمَ مَعَارِفُ، وَيَنْدُرُ فِيهِمْ صَدِيْقٌ فِي الظَّاهِرِ؛ فَأَمَّا الأُخُوَّةُ وَالْمُصَافَاةُ؛ فَذَاكَ شَيْءٌ نُسِخَ؛ فَلا يُطْمَعُ فِيهِ.

---

(١) البيت من البحر: [الطويل]، حيدر الحلي.

(٢) أَعْتَدُّ: أَهْتَمُّ وَأَعْتَزُّ وَأَثِقُ بِهِم وَأَعْتَمِدُ عَلَيْهِم.

(٣) يَحْيَىٰ بْنُ مُعَاذٍ أَبُو زَكَرِيَّا الرَّازِيُّ، مِنْ كِبَارِ الْمَشَايِخِ، لَهُ كَلامٌ جَيِّدٌ، وَمَوَاعِظُ مَشْهُورَةٌ مَاتَ سَنَةَ: (٢٥٨).

وَمَا أَرَىٰ الْإِنْسَانَ تَصْفُوْ لَهُ أُخُوَّةٌ مِنَ النَّسَبِ وَلا وَلَدُهُ وَلا زَوْجَتُهُ؛ فَدَعِ الطَّمَعَ فِي الصَّفَا، وَخُذْ عَنِ الْكُلِّ جَانِبًا، وَعَامِلْهُمْ مُعَامَلَةَ الْغُرَبَاءِ!

وَإِيَّاكَ أَنْ تَنْخَدِعَ بِمَنْ يُظْهِرُ لَكَ الْوُدَّ؛ فَإِنَّهُ مَعَ الزَّمَانِ يَبِيْنُ لَكَ الْحَالُ فِيمَا أَظْهَرَهُ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَ لَكَ ذَلِكَ لِسَبَبٍ يَنَالُهُ مِنْكَ!!

وَقَدْ قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ[١]: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُصَادِقَ صَدِيقًا؛ فَأَغْضِبْهُ؛ فَإِنْ رَأَيْتَهُ كَمَا يَنْبَغِي؛ فَصَادِقْهُ».

وَهَذَا الْيَوْمَ مُخَاطَرَةٌ[٢]؛ لِأَنَّكَ إِذَا أَغْضَبْتَ أَحَدًا؛ صَارَ عَدُوًّا فِي الْحَالِ.

وَالسَّبَبُ فِي نَسْخِ حُكْمِ الصَّفَا: أَنَّ السَّلَفَ كَانَتْ هِمَّتُهُمُ الْآخِرَةُ وَحْدَهَا، فَصَفَتْ نِيَّاتُهُمْ فِي الْأُخُوَّةِ وَالْمُخَالَطَةِ، فَكَانَتْ دِينًا لا دُنْيَا.

وَالْآنَ؛ فَقَدِ اسْتَوْلَىٰ حُبُّ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْقُلُوْبِ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ مُتَمَلِّقًا فِي بَابِ الدِّينِ؛ فَأَخْبُرْهُ تَقْلِهِ[٣].

* [٢٦١ - ١٦٤][خَاطِرَةٌ]:

[إِيَّاكَ إِيَّاكَ وَصُحْبَةَ الْبَطَّالِينَ]

أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ صُحْبَةِ الْبَطَّالِيْنَ!

لَقَدْ رَأَيْتُ خَلْقًا كَثِيرًا يَجْرُوْنَ مَعِي فِيمَا قَدِ اعْتَادَهُ النَّاسُ مِنْ كَثْرَةِ الزِّيَارَةِ، وَيُسَمُّوْنَ ذَلِكَ التَّرَدُّدَ خِدْمَةً، وَيَطْلُبُوْنَ الْجُلُوْسَ، وَيُجْرُوْنَ فِيهِ أَحَادِيثَ النَّاسِ، وَمَا لَا يَعْنِي، وَمَا يَتَخَلَّلُهُ غِيبَةٌ!

---

(١) ترجمة الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ في: [١٣٢-١٢].

(٢) أَيْ: أَنَّ هَذَا الإغْضَاب الْيَوْم مُخَاطَرَةٌ؛ أيْ: عَمَلٌ لَا تَرَوِّيَ فِيهِ؛ قَدْ يَنْجُم عَنْهُ مَكْرُوْهٍ أَوْ ضَرَرٍ.

(٣) مُتَمَلِّقًا: الزِّيَادَةُ فِي التَّوَدُّدِ وَالتَّضَرُّعِ. فَأَخْبُرْهُ؛ أَيْ: اِخْتَبِرْهُ لِتَعْرِفَ حَقِيقَتَهُ. وَتَقْلِهِ: قَلَى: أَبْغَضَهُ وَكَرِهَهُ لَهُ فَهَجَرَهُ.

وَهَذَا شَيْءٌ يَفْعَلُهُ فِي زَمَانِنَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَرُبَّمَا طَلَبَهُ الْمَزُوْرُ، وَتَشَوَّقَ إِلَيْهِ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الْوَحْدَةِ، وَخُصُوْصًا فِي أَيَّامِ التَّهَانِي وَالْأَعْيَادِ، فَتَرَاهُمْ يَمْشِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، وَلا يَقْتَصِرُوْنَ عَلَىٰ الْهَنَاءِ وَالسَّلَامِ، بَلْ يَمْزُجُوْنَ ذَلِكَ بِمَا ذَكَرْتُهُ مِنْ تَضْيِيعِ الزَّمَانِ.

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّ الزَّمَانَ أَشْرَفُ شَيْءٍ، وَالْوَاجِبُ انْتِهَابُهُ بِفِعْلِ الْخَيْرِ؛ كَرِهْتُ ذَلِكَ، وَبَقِيْتُ مَعَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

إِنْ أَنْكَرْتُ عَلَيْهِمْ؛ وَقَعَتْ وَحْشَةٌ؛ لِمَوْضِعِ قَطْعِ الْمَأْلُوْفِ!

وَإِنْ تَقَبَّلْتُهُ مِنْهُمْ؛ ضَاعَ الزَّمَانُ!

فَصِرْتُ أُدَافِعُ اللِّقَاءَ جَهْدِي: فَإِذَا غُلِبْتُ؛ قَصَّرْتُ فِي الْكَلَامِ؛ لِأَتَعَجَّلَ الْفِرَاقَ.

ثُمَّ أَعْدَدْتُ أَعْمَالًا تَمْنَعُ مِنَ الْمُحَادَثَةِ لِأَوْقَاتِ لِقَائِهِمْ؛ لِئَلَّا يَمْضِيَ الزَّمَانُ فَارِغًا.

فَجَعَلْتُ مِنَ الْمُسْتَعَدِّ لِلِقَائِهِمْ: قَطْعَ الْكَاغِدِ[(١)]، وَبَرْيَ الْأَقْلَامِ، وَحَزْمَ الدَّفَاتِرِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لَابُدَّ مِنْهَا، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ فِكْرٍ، وَحُضُوْرِ قَلْبٍ، فَأَرْصَدْتُهَا لِأَوْقَاتِ زِيَارَتِهِمْ؛ لِئَلَّا يَضِيعَ شَيْءٌ مِنْ وَقْتِي.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يُعَرِّفَنَا شَرَفَ أَوْقَاتِ الْعُمُرِ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لِاغْتِنَامِهِ.

وَلَقَدْ شَاهَدْتُ خَلْقًا كَثِيرًا لا يَعْرِفُوْنَ مَعْنَىٰ الْحَيَاةِ:

فَمِنْهُمْ مَنْ أَغْنَاهُ اللهُ عَنِ التَّكَسُّبِ بِكَثْرَةِ مَالِهِ؛ فَهُوَ يَقْعُدُ فِي السُّوْقِ أَكْثَرَ النَّهَارِ، يَنْظُرُ إِلَىٰ النَّاسِ، وَكَمْ تَمُرُّ بِهِ مِنْ آفَةٍ وَمُنْكَرٍ!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْلُوْ بِلَعِبِ الشَّطْرَنْجِ!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُ الزَّمَانَ بِكَثْرَةِ الْحَوَادِثِ مِنَ السَّلَاطِينِ، وَالْغَلَاءِ وَالرُّخْصِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

فَعَلِمْتُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمْ يُطْلِعْ عَلَىٰ شَرَفِ الْعُمُرِ وَمَعْرِفَةِ قَدْرِ أَوْقَاتِ الْعَافِيَةِ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ وَأَلْهَمَهُ اغْتِنَامَ ذَلِكَ. ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[فُصِّلَتْ: ٣٥].

---

(١) الْكَاغَدُ: القِرْطَاسُ (رُزْمَةُ الوَرَقِ). وَرُبَّمَا قِيلَ بِـ«الذَّالِ» وَ بِـ«الظَّاءِ» وَهُوَ فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ.

(٢٠)

[الحُكَّام ومُصاحَبتِهِم وأحوالِهِم، والتَّكلُّم في حقِّ المَعزُولِ]

*[٢٩٦ - ٣٢٠][خَاطِرَةٌ][١]:

[فَسادُ أكثرِ الحُكَّامِ]

أَكْثَرُهُمْ لا يَعْرِفُ [الدِّينَ][٢]، وَلا يَتَأَدَّبُ بِآدَابِهِ بِمَرَّةٍ...

تَتَّفِقُ لَهُ قِلَّةُ الْعَقْلِ فِي أَصْلِ الْوَضْعِ، ثُمَّ ذَلِكَ الْقَلِيلُ لا يُعَاوَنُ، بَلْ يُعَانُ عَلَيْهِ.

وَذَاكَ أَنَّ الْجَارِحَةَ إِذَا دَامَ تَعَطُّلُهَا عَنْ عَمَلِهَا الَّذِي هُيِّئَتْ لَهُ؛ تَعَطَّلَتْ وَخَمَدَتْ، وَلِهَذَا تَنْقُصُ أَبْصَارُ النُّسَّاخِ وَالرَّافِيِنَ[٣]، وَتَحْتَدُّ أَبْصَارُ أَهْلِ الْبَوَادِي؛ لِأَنَّهُ لا صَادَّ لِأَبْصَارِهِمْ[٤].

وَشُغْلُ الْعَقْلِ التَّفَكُّرُ وَالنَّظَرُ فِي عَوَاقِبِ الأَحْوَالِ، وَالِاسْتِدْلالُ بِالشَّاهِدِ عَلَىٰ الْغَائِبِ.

وَهَؤُلاءِ يَمْتَلِئُونَ مِنَ الطَّعَامِ دَائِمًا، وَذَلِكَ يُؤْذِي الْعَقْلَ، ثُمَّ يُطِيلُونَ النَّوْمَ؛ فَإِذَا انْتَبَهُوا؛ شَرِبُوا الْمُسْكِرَ، فَاتَّفَقَ لِلْعَقْلِ تَعْطِيلٌ وَتَغْطِيَةٌ؛ فَسَاءَ التَّدْبِيرُ.

---

(١) جاء في الأصل: [فصل - في سبب تبذير الولاة].

(٢) ليست في الأصل؛ وأثبتها؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٣) النُّسَّاخ: مَنْ يَحترِفُونَ نَسْخَ الْكُتُبِ وَالْمُكَاتَبَاتِ. وَالرَّافِيْنَ: رفَأَ يرفَأ: أَصْلَحَ مَا بِالثِّيَابِ مِنْ ثُقُوبٍ وَخُرُوقٍ.

(٤) إعْلَم أَنَّ العَيْنَ هُيِّئَتْ لِلتَّحَرُّك الدَّائِم فَعِنْدَمَا تَتَوَقَّف عَنِ التَّحَرُّك وَتَتَعَطَّل عَنْ عَمَلِهَا؛ بِأَنْ يُطِيل الوَاحِد مِنَّا النَّظَر فِي الأَشْيَاء لِفَتْرَةٍ طَوِيْلَة؛ فَإِنَّهُ يُضْعِفهَا؛ مِمَّا يُحدِثُ جَفَافًا لِلْعَيْنِ غَالِبًا، حَيْثُ تَقِل عَدَد مَرَّات الرَّمْش الَّتِي تُسَاعِد فِي تَرطِيبِ الْعَيْن؛ وَثَبَتَ فِي الطِّبِّ الحَدِيث أيضًا أَنَّ عَدَدَ مَرَّات الرَّمْش تَقِل بِصُورَةٍ مَلْحُوظَةٍ عِنْدَ التَّرْكِيز الشَّدِيد مِثْل عَمَل النُّسَّاخ وَالرَّافِيْنَ لِتَصِلَ إِلَىٰ (٣) ثَلاث مَرَّاتٍ فِي الدَّقِيْقَة فَقَط؛ مِمَّا يَتَسَبَّب بِحُدُوثِ إِجْهَاد لِلعَيْن وَالَّتِي تُضْعِف النَّظَر مَعَ مُرُور الوَقْت؛ خُصُوْصًا إِذَا رَافَقَهَا سُوء تَغْذِيَة أَوْ إِضَاءَة خَافِتَة فِي الغُرْفَة.

*[٢٦٣ - ٣٥٠][خَاطِرَةٌ]:

[الهَلَكَةُ في مُخالَطَةِ الحُكَّامِ[1]]

الْعَجَبُ مِمَّنْ لَهُ مُسْكَةٌ مِنْ عَقْلٍ[2]، أَوْ عِنْدَهُ قَلِيلٌ مِنْ دِينٍ، كَيْفَ يُؤْثِرُ مُخَالَطَتَهُمْ؟!.

فَإِنَّهُ بِالْمُخَالَطَةِ لَهُمْ، أَوِ الْعَمَلِ مَعَهُمْ، يَكُونُ قَطْعًا خَائِفًا مِنْ عَزْلٍ، أَوْ قَتْلٍ، أَوْ سُمٍّ، وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَعْمَلَ إِلَّا بِمُقْتَضَىٰ أَوَامِرِهِمْ؛ فَإِنْ أَمَرُوا بِمَا لَا يَجُوزُ؛ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُرَاجِعَ؛ فَقَدْ بَاعَ دِينَهُ قَطْعًا بِدُنْيَاهُ، فَمَنَعُهُ بِالْخَوْفِ[3]، وَلَمْ يَبْقَ بِيَدِهِ إِلَّا عَاجِلُ التَّعْظِيمِ، وَأَنْ يُقَالَ بَيْنَ يَدَيْهِ: «بِسْمِ اللهِ»! وَأَنْ يُنَفِّذَ أَوَامِرَهُ!

وَذَلِكَ بَعِيدٌ مِنَ السَّلَامَةِ فِي بَابِ الدِّينِ، وَمَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا مَمْزُوجٌ بِخَوْفِ الْعَزْلِ أَوِ الْقَتْلِ.

*[٢٦٤ - ٤٦][خَاطِرَةٌ]:

[الاقْتِرابُ مِنَ السُّلْطانِ يُفقِدُ حَلاوَةَ المُناجاةِ]

كُنْتُ فِي بِدَايَةِ الصَّبْوَةِ[4] قَدْ أُلْهِمْتُ سُلُوكَ طَرِيقِ الزُّهَادِ، بِإِدَامَةِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، وَحُبِّبَتْ إِلَيَّ الْخَلْوَةُ، فَكُنْتُ أَجِدُ قَلْبًا طَيِّبًا، وَكَانَتْ عَيْنُ بَصِيرَتِي قَوِيَّةَ الْحِدَّةِ، تَتَأَسَّفُ عَلَىٰ لَحْظَةٍ تَمْضِي فِي غَيْرِ طَاعَةٍ، وَتُبَادِرُ الْوَقْتَ فِي اغْتِنَامِ الطَّاعَاتِ، وَلِي نَوْعُ أُنْسٍ، وَحَلَاوَةُ مُنَاجَاةٍ.

فَانْتَهَىٰ الْأَمْرُ إِلَىٰ أَنْ صَارَ بَعْضُ وُلَاةِ الْأُمُورِ يَسْتَحْسِنُ كَلَامِي، فَأَمَالَنِي إِلَيْهِ، فَمَالَ الطَّبْعُ، فَفَقَدْتُ تِلْكَ الْحَلَاوَةَ.

---

(١) جاء في الأصل:[فَصْلٌ - فِي مُخَالَطَةِ الأُمَرَاءِ]

(٢) أَصْل الْمُسْكَةِ: البَقِيَّةُ. وَالْمَعْنَىٰ: الْعَجَبُ مِمَّنْ لَهُ بَقِيَّةٌ مِنْ عَقْلٍ وَيَقَظَةٍ وَرَأْيٍ يَرجِعُ إِلَيْهِ.

(٣) يَعْنِي: الَّذِي يَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يُرَاجِع وَيَرْفُض الأَوَامِر هُوَ الْخَوْفُ مِنَ الْبَطْشِ أَوِ الْعَزْلِ، وَحِينَئِذٍ لَا يَسْتَطِيعُ القِيَام بِأَمْرِ اللهِ؛ فَتَضِيع عَلَيْهِ آخِرَتُهُ.

(٤) الصَّبْوَة وَالصِّبْيَة: جَمْعُ صَبِيٍّ. وَالصَّبْوَةُ: مَصْدَر صَبَا وَصَبْوَة، إِذَا مَالَ إِلَىٰ الْهَوَىٰ، وَالْفُتُوَّةِ وَاللَّهْوِ مِنَ الْغَزَل.

ثُمَّ اسْتَمَالَنِي آخَرُ، فَكُنْتُ أَتَّقِي مُخَالَطَتَهُ وَمَطَاعِمَهُ لِخَوْفِ الشُّبُهَاتِ، وَكَانَتْ حَالَتِي قَرِيبَةً، ثُمَّ جَاءَ التَّأْوِيلُ، فَانْبَسَطْتُ فِيمَا يُبَاحُ، فَعُدِمَ مَا كُنْتُ أَجِدُ[١].

وَصَارَتِ الْمُخَالَطَةُ تُوجِبُ ظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ، إِلَىٰ أَنْ عَدِمَ النُّورُ كُلُّهُ.

فَكَانَ حَنِينِي إِلَىٰ مَا ضَاعَ مِنِّي يُوجِبُ انْزِعَاجَ أَهْلِ الْمَجْلِسِ، فَيَتُوبُونَ وَيَصْلُحُونَ، وَأَخْرُجُ مُفْلِسًا فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ حَالِي!

وَكَثُرَ ضَجِيجِي مِنْ مَرَضِي، وَعَجَزْتُ عَنْ طَلَبِ نَفْسِي، فَلَجَأْتُ إِلَىٰ قُبُورِ الصَّالِحِينَ[٢]، وَتَوَسَّلْتُ فِي صَلَاحِي، فَاجْتَذَبَنِي لُطْفُ مَوْلَايَ بِي إِلَىٰ الْخَلْوَةِ عَلَىٰ كَرَاهَةٍ مِنِّي، وَرَدَّ قَلْبِي عَلَيَّ بَعْدَ نُفُورٍ مِنِّي، وَأَرَانِي عَيْبَ مَا كُنْتُ أُوثِرُهُ، فَأَفَقْتُ مِنْ مَرَضِ غَفْلَتِي، وَقُلْتُ فِي مُنَاجَاةِ خَلْوَتِي:

سَيِّدِي! كَيْفَ أَقْدِرُ عَلَىٰ شُكْرِكَ؟ وَبِأَيِّ لِسَانٍ أَنْطِقُ بِمَدْحِكَ، إِذْ لَمْ تُؤَاخِذْنِي عَلَىٰ غَفْلَتِي، وَنَبَّهْتَنِي مِنْ رَقْدَتِي، وَأَصْلَحْتَ حَالِي عَلَىٰ كُرْهٍ مِنْ طَبْعِي؟!

فَمَا أَرْبَحَنِي فِيمَا سُلِبَ مِنِّي إِذَا كَانَتْ ثَمَرَتُهُ اللَّجَأَ إِلَيْكَ! وَمَا أَوْفَرَ جَمْعِي إِذْ ثَمَرَتُهُ إِقْبَالِي[٣] عَلَىٰ الْخَلْوَةِ بِكَ! وَمَا أَغْنَانِي إِذْ أَفْقَرْتَنِي إِلَيْكَ! وَمَا آنَسَنِي إِذْ أَوْحَشْتَنِي بِالتَّجَارِبِ لِخَلْقِكَ[٤]!

آهٍ عَلَىٰ زَمَانٍ ضَاعَ فِي غَيْرِ خِدْمَتِكَ! أَسَفًا لِوَقْتٍ مَضَىٰ فِي غَيْرِ طَاعَتِكَ[٥].

---

(١) يَعْنِي: فَقَدَ وَلَمْ يَجِدْ مَا كَانَ يَجِدُهُ مِنْ أُنْسٍ، وَحَلَاوَةِ مُنَاجَاةٍ، وَاسْتِنَارَةٍ، وَسَكِينَةٍ.

(٢) الظَّاهِرُ مِنْ كَلَامِ الإِمَامِ رحمه الله بِزِيَارَةِ قُبُورِ الصَّالِحِينَ هُوَ اسْتِذْكَارُ أَحْوَالِهِم وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ زُهْدٍ وَتَقْوَى؛ وَذَلِكَ لِيَحُثَّ نَفْسَه عَلَىٰ الاسْتِمْرَارِ فِي العَمَلِ وَسَعْيًا لِلْحَاقِ بِهِم، وَهَذَا الفَهْمِ مَأْخُوذ مِنْ كَلَامِ الإِمَامِ ابْنِ الجَوْزِي رحمه الله فِي الخَاطِرَةِ: [٢٧٧-٤٨]؛ فَقَدْ قَالَ رحمه الله: «رَأَيْتُ نَفْسِي كُلَّمَا ... أَوْ زَارَتْ قُبُورَ الصَّالِحِينَ، تَحَرَّكَ هِمَّتُهَا».

(٣) جاء في الأصل: [إقبالك] وجاء في حاشية الأصل: [كذا في الأصول، ولعلها: إقبالي]؛ لتمام المعنىٰ بها.

(٤) كَأَنَّهُ رحمه الله يَقُولُ: رِبْحِي كُلُّه فِي اللَّجْإِ إِلَيْكَ، وَإِنْ سُلِبَ وَنُزِعَ مِنِّي مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا مَا سُلِب، وَجَمْع هَمِّي كُلُّه فِي الإِقْبَالِ عَلَىٰ الخَلْوَةِ بِكَ، وَغِنَايَ كُلُّه فِي الافْتِقَارِ إِلَيْكَ، وَأُنْسِي كُلُّه بِكَ؛ إِذْ جَعَلْتَنِي أَشْعُرُ بِوَحْشَةِ المَشَاعِرِ تِجَاه خَلْقِكَ؛ فَكَانَت مَشَاعِرِي وَأَفْكَارِي الَّتِي تَجُولُ فِي نَفْسِي تِجَاهكَ أَنْتَ وَحْدَكَ؛ فَأَنِسْتُ بِكَ.

(٥) «آهٍ»: اِسْم فِعْل مُضَارِع بِمَعْنَىٰ: أَتَأَلَّم أَوْ أَتَوَجَّع. وَأَسَفًا لِوَقْتٍ؛ أَيْ: عَلَىٰ وَقْتٍ. «اللَّام» بِمَعْنَىٰ «عَلَىٰ» تَقُولُ: فَخَرَّ صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ ولِلْفَمِ؛ أي: عَلَىٰ اليدين وعَلَىٰ الفَم.

قَدْ كُنْتُ إِذَا انْتَبَهْتُ وَقْتَ الْفَجْرِ لَا يُؤْلِمُنِي نَوْمِي طُولَ اللَّيْلِ، وَإِذَا انْسَلَخَ عَنِّي النَّهَارُ لَا يُوجِعُنِي ضَيَاعُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَمَا عَلِمْتُ أَنَّ عَدَمَ الإِحْسَاسِ لِقُوَّةِ الْمَرَضِ.

فَالآنَ قَدْ هَبَّتْ نَسَائِمُ الْعَافِيَةِ[١]، فَأَحْسَسْتُ بِالأَلَمِ، فَاسْتَدْلَلْتُ عَلَىٰ الصِّحَّةِ . . . فَيَا عَظِيمَ الإِنْعَامِ! تَمِّمْ لِيَ الْعَافِيَةَ.

آهٍ مِنْ سُكْرٍ لَمْ يُعْلَمْ قَدْرُ عَرْبَدَتِهِ إِلَّا فِي وَقْتِ الإِفَاقَةِ! لَقَدْ فَتَقْتُ مَا يَصْعُبُ رَتْقُهُ[٢].

فَوَا أَسَفَا عَلَىٰ بِضَاعَةٍ ضَاعَتْ، وَعَلَىٰ مَلَّاحٍ تَعِبَ فِي مَوْجِ الشَّمَالِ مُصَاعِدًا مُدَّةً[٣]، ثُمَّ غَلَبَهُ النَّوْمُ، فَرُدَّ إِلَىٰ مَكَانِهِ الأَوَّلِ.

يَا مَنْ يَقْرَأُ تَحْذِيرِي مِنَ التَّخْلِيطِ[٤]! فَإِنِّي - وَإِنْ كُنْتُ خُنْتُ نَفْسِي بِالْفِعْلِ - نَصِيحٌ لإِخْوَانِي بِالْقَوْلِ:

احْذَرُوا - إِخْوَانِي - مِنَ التَّرَخُّصِ فِيمَا لَا يُؤْمَنُ فَسَادُهُ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُزَيِّنُ الْمُبَاحَ فِي أَوَّلِ مَرْتَبَةٍ، ثُمَّ يَجُرُّ إِلَىٰ الْجُنَاحِ؛ فَتَلَمَّحُوا الْمَآلَ، وَافْهَمُوا الْحَالَ! وَرُبَّمَا أَرَاكُمُ الْغَايَةَ الصَّالِحَةَ، وَكَانَ فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهَا نَوْعُ مُخَالَفَةٍ![٥].

فَيَكْفِي الِاعْتِبَارُ فِي تِلْكَ الْحَالِ بِأَبِيكُمْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠]، إِنَّمَا تَأَمَّلَ آدَمُ الْغَايَةَ - وَهِيَ الْخُلْدُ - وَلَكِنَّهُ غَلِطَ فِي الطَّرِيقِ.

---

(١) النَّسَائِمُ: جَمْع قِيَاسِي لِكَلِمَة «النَّسِيم» بِمَعْنَىٰ: نَفَسُ الرِّيحِ اللَّيِّنَة الطَّيِّبَة.

(٢) سُكْرٍ: غَيْبُوبَة العَقْل وَاخْتِلاطه. وَعَرْبَدَ السَّكْرَانُ: سَاءَ خُلُقُهُ، وَآذَىٰ النَّاسَ فِي سُكْرِهِ. وَفَتَقَ: شَقَّ. وَرَتَقَ: أَصْلَحَ. وَالرَّتْقُ: ضِدُّ الفَتْق. وَالْمَعْنَىٰ: شَقَقْتُ مَا يَصْعُبُ إِصْلَاحُهُ.

(٣) مَلَّاحٍ: مَنْ يَعْمَل فِي السَّفِينَةِ أَوْ يُوَجِّهُهَا. وَمُصَاعِدًا مُدَّةً؛ أَيْ: مَضَىٰ فِيهِ مُدَّة عَلَىٰ مَشَقَّةٍ.

(٤) التَّخْلِيطُ: الإِفْسَادُ. أَوْ: الخَلْط أَوْ: الِاخْتِلاطِ. وَالْمَعْنَىٰ: يَا مَنْ يَقْرَأُ تَحْذِيرِي مِنْ إِفْسَادِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ بِالسَّيِّءِ أَوْ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْعَمَلِ السَّيِّءِ. أَوْ مِنَ الِاخْتِلَاط بِالأُمَرَاءِ؛ فَيُفْسِدُونَ عَلَيْكَ قَلْبَكَ وَعَمَلَكَ.

(٥) التَّرَخُّصِ: التَّسَاهُل وَالأَخذ بِالرُّخصَةِ. وَالْجُنَاحِ: الإِثْم وَالْجُرْم. وَقَوْلُهُ: «وَرُبَّمَا أَرَاكُمُ الْغَايَةَ الصَّالِحَةَ، وَكَانَ فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهَا نَوْعُ مُخَالَفَةٍ!» يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ أَبُو نُعَيم فِي «الحِلْيَة»(ج٧/ ص٣٣١) عَنِ الحَسَنِ الهَمْدَانِي، قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَفْتَحُ لِلْعَبْدِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ بَابًا مِنَ الْخَيْرِ، يُرِيدُ بِهِ بَابًا مِنَ السُّوءِ -الشَّرِّ-»، «السِّيَر» لِلذَّهَبِي.

وَهَذَا أَعْجَبُ مَصَايِدِ إِبْلِيسَ الَّتِي يَصِيدُ بِهَا الْعُلَمَاءَ؛ يَتَأَوَّلُونَ لِعَوَاقِبِ الْمَصَالِحِ، فَيَسْتَعْجِلُونَ ضَرَرَ الْمَفَاسِدِ!!

مِثَالُهُ: أَنْ يَقُولَ لِلْعَالِمِ: ادْخُلْ عَلَىٰ هَذَا الظَّالِمِ؛ فَاشْفَعْ فِي مَظْلُومٍ! فَيَسْتَعْجِلُ الدَّاخِلُ رُؤْيَةَ الْمُنْكَرَاتِ، وَيَتَزَلْزَلُ دِينُهُ، وَرُبَّمَا وَقَعَ فِي شَرَكٍ صَارَ بِهِ أَظْلَمَ مِنْ ذَلِكَ الظَّالِمِ(١).

فَمَنْ لَمْ يَثِقْ بِدِينِهِ؛ فَلْيَحْذَرْ مِنَ الْمَصَايِدِ؛ فَإِنَّهَا خَفِيَّةٌ.

وَأَسْلَمُ مَا لِلْجَبَانِ الْعُزْلَةُ، خُصُوصًا فِي زَمَانٍ قَدْ مَاتَ فِيهِ الْمَعْرُوفُ، وَعَاشَ الْمُنْكَرُ، وَلَمْ يَبْقَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَقْعٌ عِنْدَ الْوُلَاةِ؛ فَمَنْ دَاخَلَهُمْ؛ دَخَلَ مَعَهُمْ فِيمَا لَا يَجُوزُ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ جَذْبِهِمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ(٢).

ثُمَّ مَنْ تَأَمَّلَ حَالَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ لَهُمْ فِي الْوِلَايَاتِ؛ يَرَاهُمْ مُنْسَلِخِينَ مِنْ نَفْعِ الْعِلْمِ، قَدْ صَارُوا كَالشُّرَطِ(٣).

فَلَيْسَ إِلَّا الْعُزْلَةُ عَنِ الْخَلْقِ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْ كُلِّ تَأْوِيلٍ فَاسِدٍ فِي الْمُخَالَطَةِ؛ وَلَأَنْ أَنْفَعَ نَفْسِي وَحْدِي خَيْرٌ لِي مِنْ أَنْ أَنْفَعَ غَيْرِي وَأَتَضَرَّرَ.

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ خَوَادِعِ التَّأْوِيلَاتِ، وَفَوَاسِدِ الْفَتَاوَىٰ!

وَالصَّبْرَ الصَّبْرَ عَلَىٰ مَا تُوجِبُهُ الْعُزْلَةُ! فَإِنَّهُ إِنِ انْفَرَدْتَ بِمَوْلَاكَ؛ فَتَحَ لَكَ بَابَ مَعْرِفَتِهِ، فَهَانَ كُلُّ صَعْبٍ، وَطَابَ كُلُّ مُرٍّ، وَتَيَسَّرَ كُلُّ عُسْرٍ، وَحَصَّلْتَ كُلَّ مَطْلُوبٍ.

وَاللهُ الْمُوَفِّقُ بِفَضْلِهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ.

---

(١) يَتَزَلْزَلُ: يَضْطَرِبُ وَيَهْتَزُّ بِعُنْفٍ. وَشَرَكٌ: مِصْيَدَة، مَا يُنْصَب لِلصَّيدِ، وَتُطْلَقُ عَلَىٰ: الْمَكِيدَةِ أَوِ الْمُؤَامَرَة.

(٢) وَقْعٌ: تَأْثِيرٌ وَصَدًى. وَدَاخَلَهُمْ: شَارَكَهُمْ وَصَارَ مِنْ حَاشِيَتِهِم. وَجَذْبِهِمْ: شَدُّهُم إِلَيْهِ، وَحَوَّلَهُم عَنْ مَكَانِهِم.

(٣) مُنْسَلِخِينَ: الِانسِلَاخُ: خُرُوجُ جَسَدِ الْحَيَوَانِ مِنْ جِلْدِهِ، وَهُنَا انْفِصَالٌ مَعْنَوِيٌّ؛ أَيْ: تَرْكُ التَّلَبُّسِ بِالشَّيْءِ أَوْ عَدَمِ الْعَمَلِ بِهِ، وَمَعْنَىٰ الِانْسِلَاخُ مِنْ نَفْعِ الْعِلْمِ: الْإِقْلَاعُ عَنِ الْعَمَلِ بِمَا يَقْتَضِيهِ. وَكَالشُّرَطِ؛ أَيْ: رِجَال الشُّرطَة.

*[٢٦٥ - ٣٤٢][خَاطِرَةٌ]:

[الْوَاجِبُ عَلَى مَنْ صَحِبَ سُلْطَانًا أَوْ ذُو جَاهٍ]

يَنْبَغِي لِمَنْ صَحِبَ سُلْطَانًا أَوْ مُحْتَشَمًا أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ مَعَهُ، وَبَاطِنُهُ سَوَاءً؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَدُسُّ إِلَيْهِ مَنْ يَخْبُرُهُ[١]، فَرُبَّمَا افْتُضِحَ فِي الِابْتِلَاءِ.

وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُلُوكِ يَقْصِدُونَ تَقْرِيبَ الْمُنَادِمِ[٢]، وَيَجْعَلُونَ لَهُ حُجْرَةً فِي دُورِهِمْ؛ فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَخْتَصُّوهُ؛ اخْتَبَرُوهُ بَاطِنًا، وَذَاكَ لَا يَدْرِي، فَيَظْهَرُ مِنْهُ مَا لَا يَصْلُحُ فَيُطْرَدُ!

وَلَقَدِ امْتَحَنَ أَبْرُوِيزُ[٣] رَجُلًا مِنْ خَاصَّتِهِ، فَدَسَّ إِلَيْهِ جَارِيَةً، مَعَهَا أَلْطَافٌ[٤]، وَأَمَرَهَا أَنْ لَا تَقْعُدَ عِنْدَهُ، فَحَمَلَتْهَا.

ثُمَّ أَنْفَذَهَا مَرَّةً أُخْرَى، وَأَمَرَهَا أَنْ تَقْعُدَ بَعْدَ التَّسْلِيمِ هُنَيْهَةً، فَفَعَلَتْ، فَلَاحَظَهَا الرَّجُلُ[٥].

ثُمَّ بَعَثَهَا مَرَّةً ثَالِثَةً، وَأَمَرَهَا أَنْ تُطِيلَ الْقُعُودَ عِنْدَهُ، وَتُحَدِّثَهُ، فَأَطَالَتِ الْحَدِيثَ مَعَهُ، فَأَبْدَى لَهَا شَيْئًا مِنَ الْمَيْلِ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: «أَخَافُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْنَا، وَلَكِنْ؛ دَعْنِي أُدَبِّرْ فِي هَذَا».

فَذَهَبَتْ، فَأَخْبَرَتِ الْمَلِكَ بِذَلِكَ! فَوَجَّهَ غَيْرَهَا مِنْ خَوَاصِّ جَوَارِيهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ؛ فَلَمَّا جَاءَتْهُ؛ قَالَ: «مَا فَعَلَتْ فُلَانَةُ؟» قَالَتْ: «مَرِيضَةٌ»، فَارْبَدَّ لَوْنُهُ[٦].

ثُمَّ فَعَلَتِ الْجَارِيَةُ الثَّانِيَةُ مِثْلَ مَا فَعَلَتِ الْأُولَى، فَقَالَتْ لَهُ: «إِنَّ الْمَلِكَ يَمْضِي إِلَى بُسْتَانِهِ، فَيُقِيمُ هُنَاكَ؛ فَإِنْ أَرَادَكَ عَلَى أَنْ تَمْضِيَ مَعَهُ؛ فَأَظْهِرْ أَنَّكَ عَلِيلٌ؛ فَإِنْ خَيَّرَكَ بَيْنَ الِانْصِرَافِ

---

(١) مُحْتَشَمًا: مُحْتَرَم أَوْ جَلِيل، وَهُوَ لَقَبٌ يُطْلَقُ عِنْدَ الإِسْمَاعِيلِيَّة عَلَى وِلَاةِ الأَقَالِيم وَبِخَاصَّة إِقْلِيم كُوهِسْتَان شَمَال بَاكِسْتَان.
وَيَخْبُرُهُ؛ أَيْ: قَدْ يُرسِلُ إِلَيْهِ مَنْ يَتَجَسَّس لَهُ وَيُعْلِمهُ بِحَالِ الرَّجُل. يُقَالُ: خَبَرَ الرَّجُلَ: اِخْتَبَرَهُ، اِمْتَحَنَهُ.

(٢) الْمُنَادِم: الْمُصَاحِبُ أَوِ الرَّفِيق. يُقَالُ: نَادَمَ الرَّجُلَ مُنَادَمَةً وَنِدَامًا: جَالَسَهُ عَلَى الشَّرَاب.

(٣) أَبْرُوِيزُ هُوَ: بنُ هُرْمُز بنُ كِسْرَى أَنُوشَرْوَان مَلِك الفُرس وَمَعْنَى أَبْرُوِيز: الْمُظَفَّر، وَهُوَ الَّذِي كَانَ غَلَبَ الرُّوم.

(٤) أَلْطَافٌ: اللَّطَفَةُ -بِالْهَاءِ- بِمَعْنَى: الْهَدِيَّة، وَالْجَمْعُ: أَلْطَافٌ، وَحِينَ تَأْتِي الكَلِمَة بِصِيغَةِ الْجَمْعِ؛ فَهِيَ: حَلَوِيَّات.

(٥) هُنَيْهَة: وَقْت قَصِير جِدًّا. . فَلَاحَظَهَا الرَّجُلُ؛ أَيْ: نَظَرَ إِلَيْهَا بِمُؤْخِرِ عَيْنِهِ مِنْ أَحَدِ جَانِبَيْهِ، وَهُوَ أَشَدّ مِنَ الشَّزْر.

(٦) فَارْبَدَّ لَوْنُهُ؛ أَيْ: اِخْتَلَطَ لَوْنُهُ بِكُدْرَة وَتَغَيَّر؛ فَصَارَ كَلَوْن الرَّمَاد. وَالرُّبْدَةُ: لَوْنٌ بَيْنَ السَّوَاد وَالْغُبْرَة.

إِلَىٰ دُورِ نِسَائِكَ أَوِ الْمُقَامِ هَاهُنَا؛ فَاخْتَرِ الْمُقَامَ هَاهُنَا، وَأَخْبِرْهُ أَنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَىٰ الْحَرَكَةِ؛ فَإِنْ أَجَابَكَ إِلَىٰ ذَلِكَ؛ جِئْتُ إِلَيْكَ كُلَّ لَيْلَةٍ مَا دَامَ الْمَلِكُ غَائِبًا!» فَسَكَنَ إِلَىٰ قَوْلِهَا[١].

ثُمَّ مَضَتْ، وَأَخْبَرَتِ الْمَلِكَ بِذَلِكَ . . . فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثٍ؛ اسْتَدْعَاهُ الْمَلِكُ، فَقَالَ: «إِنِّي مَرِيضٌ»، فَعَادَ الرَّسُولُ، فَأَخْبَرَهُ، فَتَبَسَّمَ، وَقَالَ: «هَذَا أَوَّلُ الشَّرِّ»، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ مَحَفَّةً حُمِلَ فِيهَا إِلَيْهِ[٢]، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ أَبْرَوِيزُ؛ قَالَ: «وَالْمَحَفَّةُ الشَّرُّ الثَّانِي». فَرَأَىٰ الْعِصَابَةَ عَلَىٰ رَأْسِهِ؛ قَالَ: «وَالْعِصَابَةُ الشَّرُّ الثَّالِثُ»[٣].

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: «أَيُّهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ: الِانْصِرَافُ إِلَىٰ نِسَائِكَ لِيُمَرِّضْنَكَ، أَوِ الْمُقَامُ هَا هُنَا إِلَىٰ وَقْتِ رُجُوعِي»؟ قَالَ: «الْمُقَامُ هَا هُنَا أَرْفَقُ لِي؛ لِقِلَّةِ الْحَرَكَةِ». فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: «حَرَكَتُكَ هَاهُنَا إِنْ تُرِكْتَ أَكْثَرُ مِنْ حَرَكَتِكَ إِلَىٰ مَنْزِلِكَ»!

ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَصَا الزُّنَاةِ، الَّتِي كَانَ يُوسَمُ بِهَا مَنْ زَنَا[٤]، فَأَيْقَنَ الرَّجُلُ بِالْأَمْرِ! وَأَمَرَ[٥] أَنْ يُكْتَبَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ حَرْفًا حَرْفًا، فَيُقْرَأَ عَلَىٰ النَّاسِ حَرْفًا حَرْفًا إِذَا حَضَرُوا، وَأَنْ يُنْفَىٰ إِلَىٰ أَقْصَىٰ الْمَمْلَكَةِ، وَتُجْعَلَ الْعَصَا عَلَىٰ رَأْسِ رُمْحٍ، يَكُونُ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ؛ لِيَحْذَرَ مِنْهُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ، فَلَمَّا نُفِيَ؛ أَخَذَ مِنْ بَعْضِ الْمُوَكَّلِينَ مُدْيَةً، فَجَبَّ بِهَا ذَكَرَهُ[٦]، وَقَالَ: «مَنْ أَطَاعَ عُضْوًا صَغِيرًا أَفْسَدَ عَلَيْهِ جَمِيعَ أَعْضَائِهِ». وَمَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ»[٧].

---

(١) فَسَكَنَ إِلَىٰ قَوْلِهَا؛ أَيْ: اِسْتَأْنَسَ بِهِ وَاسْتَرَاحَ إِلَيْهِ وَاطْمَأَنَّ.

(٢) الْمَحَفَّةُ: سَرِيرٌ لَهُ ذِرَاعَانِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ؛ لِيَسْهُلَ حَمْلُهُ، يَسْتَلْقِي فَوْقَهُ الْمَرِيضُ الْعَاجِزُ عَنِ الْمَشْيِ.

(٣) الْعِصَابَةُ: الشَّيْءُ يُعْصَبُ بِهِ الرَّأْسُ مِنْ صُدَاعٍ. وَمَا شَدَدْتَ بِهِ غَيْرَ الرَّأْسِ فَهُوَ عِصَابٌ بِغَيْرِ هَاءٍ، فَرَّقُوا بَيْنَهُمَا لِيُعْرَفَا.

(٤) يُوسَمُ بِهَا: الْمِيسَمُ: الْمِكْوَاةُ أَوِ الشَّيْءُ الَّذِي يُوسَمُ بِهِ الدَّوَابُّ، وَالْجَمْعُ مَيَاسِمُ، وَهِيَ مُعَاقَبَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْوُونَ الزُّنَاةَ بِالنَّارِ عَلَىٰ فُجُورِهِم بِعَلَامَةٍ مَعْرُوفَةٍ فِي مَكَانٍ ظَاهِرٍ مِنَ الْجَسَدِ؛ لِيُعْرَفُوا أَيْنَمَا ذَهَبُوا فَيُفْتَضَحُوا.

(٥) يَعْنِي: أَبْرَوِيزَ.

(٦) الْمُوَكَّلِينَ: الْمُكَلَّفِينَ بِحِرَاسَتِهِ. وَمُدْيَةً: سِكِّين، شَفْرَة كَبِيرَة. فَجَبَّ بِهَا ذَكَرَهُ؛ أَيْ: قَطَعَهُ.

(٧) يُنظر: «التَّاج فِي أَخْلَاقِ الْمُلُوكِ» (ص٩٤، ٩٥)، «الْمَحَاسِن وَالْأَضْدَادِ» (ص٢٥١، ٢٥٢) كِلَاهُمَا لِلْجَاحِظِ.

قُلْتُ: وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ يَتَنَكَّرُونَ، وَيَسْأَلُونَ الْعَوَامَّ عَنْ سِيرَتِهِمْ، فَيَتَكَلَّمُ الْعَامِيُّ بِمَا لَا يَصْلُحُ؛ فَيَضْبِطُونَهُ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا بَعَثُوا دَسِيسًا[١].

وَرُبَّ كَلِمَاتٍ قَالَهَا مُسْتَرْسِلٌ؛ فَبَلَّغَهَا فُضُولِيٌّ[٢]؛ [فَأَهْلَكَتْ صَاحِبَهَا[٣]].

وَرَأَىٰ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَجُلًا مِنَ الْعُمَّالِ كَثِيرَ الصَّلَاةِ، فَدَسَّ عَلَيْهِ مَنْ قَالَ لَهُ: إِنْ أَخَذْتُ لَكَ الْوِلَايَةَ الْفُلَانِيَّةَ، فَمَا تُعْطِينِي؟ قَالَ: أُعْطِيكَ كَذَا وَكَذَا! قَالَ لَهُ عُمَرُ: «غَرَرْتَنَا بِصَلَاتِكَ»[٤].

وَقَدْ بَلَغَتْ أَنَّ رَجُلًا كَلَّمَ امْرَأَةً، فَأَجَابَتْهُ، فَاسْتَدْعَتْهُ إِلَىٰ دَارِهَا، فَلَمَّا دَخَلَ؛ أَقَامَتْ عَلَىٰ قَتْلِهِ.

فَقَدْ يَنْحَلُّ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ[٥] أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْكَنَ إِلَىٰ قَوْلِ امْرَأَةٍ أَوْ بَعْلٍ، يَجُوزُ أَنَّهُ يَكُونَ جَاسُوسًا وَمُخْتَبِرًا، وَكَذَلِكَ لَا يُظْهِرُ مَا يَنْبَغِي إِخْفَاؤُهُ مِنْ مَالٍ أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ سَبِّ رَجُلٍ؛ فَرُبَّمَا كَانَ لَهُ فِي الْحَاضِرِينَ قَرِيبٌ. . . وَلَا يُوثَقُ بِمَوَدَّةٍ لَا أَصْلَ لَهَا؛ فَرُبَّمَا كَانَتْ تَحْتَهَا آفَةٌ تَقْصُدُهُ.

وَلْيَحْذَرْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يُحْتَمَلُ. . . وَرُبَّ كَلِمَةٍ نَقَلَهَا صَدِيقٌ إِلَىٰ صَدِيقٍ، فَتَحَدَّثَ بِهَا مَنْ لَا يَقْصُدُ أَذَىٰ لِلْقَائِلِ، فَبُلِّغَتْ، فَتَأَذَّىٰ. وَرُبَّ مُظْهِرٍ لِلْمَحَبَّةِ مُبَالِغٍ حَتَّىٰ يَسْتَمْكِنَ مِنْ مُرَادِهِ.

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ إِلَىٰ أَحَدٍ، خُصُوصًا مِنْ عَدُوٍّ آذَيْتَهُ، أَوْ قَتَلْتَ لَهُ قَرِيبًا؛ فَرُبَّمَا أَظْهَرَ الْجَمِيلَ شَبَكَةً لِاصْطِيَادِكَ؛ كَحَدِيثِ الزَّبَّاءِ[٦].

---

(١) فَيَضْبِطُونَهُ عَلَيْهِ؛ أَيْ: يَحْفَظُونَهُ. وَبَعَثُوا دَسِيسًا؛ أَيْ: بَعَثُوا جَاسُوسًا عَلَيْهِ؛ لِيَأْتِيَ بِأَخْبَارِهِ.

(٢) رُبَّ: حرف جَرٍّ شَبِيه بِالزَّائِدِ، وَمَعْنَاهُ: التَّقْلِيل وَقَد يُفِيدُ التَّكْثِيرَ أَحيَانًا. وَمُسْتَرْسِلٌ: أَطْنَبَ فِيهِ وَاتَّسَعَ وَانْبَسَطَ وَاسْتَمَرَّ. وَفُضُولِيٌّ: مُتطَفِّل وَهُوَ مَنْ يَتَدَخَّل فِيمَا لَا يَعْنِيهِ.

(٣) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنى بها.

(٤) ترجمة عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ في الخاطرة: [١٤٨-٣٣٨]. وَغَرَرْتَنَا؛ أَيْ: خَدَعْتَنَا.

(٥) يَنْحَلُّ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ؛ أَيْ: يُسْتَخْلَصُ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ. تَقُولُ: انحَلَّ يَنْحَلُّ.

(٦) تَقَدَّم حَدِيثِ الزَّبَّاءِ بِنْتُ عَمْرٍو والتعليق عليه في الخاطرة رقم: [٢٥٢-٢٣٢].

*[٢٦٦ – ٢٠٧][خَاطِرَةٌ]:

[مِنَ الْغَبَاءِ أَنْ تَطْلُبَ الرَّاحَةَ مَعَ السُّلْطَانِ]

بِقَدْرِ صُعُودِ الإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا تَنْزِلُ مَرْتَبَتُهُ فِي الآخِرَةِ.

وَقَدْ صَرَّحَ بِهَذَا ابْنُ عُمَرَ ﷺ، فَقَالَ: «وَاللهِ؛ لا يَنَالُ أَحَدٌ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا؛ إِلَّا نَقَصَ مِنْ دَرَجَاتِهِ عِنْدَ اللهِ؛ وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ كَرِيمًا»[1].

فَالسَّعِيدُ مَنِ اقْتَنَعَ بِالْبُلْغَةِ[2]؛ فَإِنَّ الزَّمَانَ أَشْرَفُ مِنْ أَنْ يَضِيعَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا. . . اللَّهُمَّ إِلَّا[3] أَنْ يَكُونَ مُتَوَرِّعًا فِي كَسْبِهِ، مُعِينًا لِنَفْسِهِ عَنِ الطَّمَعِ، قَاصِدًا إِعَانَةَ أَهْلِ الْخَيْرِ، وَالصَّدَقَةَ عَلَى الْمُحْتَاجِينَ؛ فَكَسْبُ هَذَا أَصْلَحُ مِنْ بَطَالَتِهِ.

فَأَمَّا الصُّعُودُ الَّذِي سَبَبُهُ مُخَالَطَةُ السَّلَاطِينِ؛ فَبَعِيدٌ أَنْ يَسْلَمَ مَعَهُ الدِّينُ؛ فَإِنْ وَقَعَتْ سَلَامَتُهُ ظَاهِرًا؛ فَالْعَاقِبَةُ خَطِرَةٌ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ التَّمِيمِيُّ: «مَا غَبِطْتُ أَحَدًا، إِلَّا الشَّرِيفَ أَبَا جَعْفَرٍ يَوْمَ مَاتَ الْقَائِمُ بِأَمْرِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ غَسَّلَهُ، وَخَرَجَ يَنْفُضُ أَكْمَامَهُ، فَقَعَدَ فِي مَسْجِدِهِ لَا يُبَالِي بِأَحَدٍ، وَنَحْنُ مُنْزَعِجُونَ لَا نَدْرِي مَا يَجْرِي عَلَيْنَا»[4].

وَذَاكَ أَنَّ التَّمِيمِيَّ كَانَ مُتَعَلِّقًا عَلَى السُّلْطَانِ، يَمْضِي لَهُ فِي الرَّسَائِلِ، فَخَافَ مَغَبَّةَ الْقُرْبِ.

---

(١) عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ بنِ نُفَيْلٍ، الإِمَامُ، القُدْوَةُ، شَيْخُ الإِسْلَامِ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ. مَاتَ سَنَةَ:(٧٣هـ).
وَالْخَبَرُ رَوَاهُ ابن أبي شيبة، كتاب «الزهد»(٣٥٧٧١). وابن أبي الدنيا في «الزهد»(٢٩٧).«لا يُصِيبُ - أَحَدٌ - عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا - شَيْئًا - إِلَّا نَقَصَ مِنْ دَرَجَاتِهِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ كَرِيمًا».

(٢) الْبُلْغَةُ: مَا يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنَ الْعَيْشِ وَلَا يَفْضُلُ.

(٣) اللَّهُمَّ إِلَّا: صِيغَةُ اسْتِثْنَاء تُفِيدُ إِثْبَات مَا فِيهِ شَكٌ. تَقُوْلُ: سَيُسَافِرُ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ قَدْ غَيَّرَ رَأْيَهُ.

(٤) غَبِطْتُ: أَغْبِطُه غَبْطًا إِذَا اشْتَهَيْتَ أَنْ يَكُوْنَ لَكَ مِثْلُ مَا لَهُ وَأَنْ يَدُوْمَ عَلَيْهِ مَا هُوَ فِيهِ. وَأَبُو مُحَمَّدٍ التَّمِيمِيُّ ترجمته فِي:[٢٠٥-١٢٩]. وَالشَّرِيف أَبُو جَعْفَرٍ عَبْدُ الخَالِقِ فِي:[٢٢٨-١٩٧]. وَالقَائِمُ بِأَمْرِ اللهِ، أَبُو جَعْفَرٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ العَبَّاسِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِيْنَ. مَاتَ سَنَةَ:(٤٦٧هـ). وَالْخَبَرُ فِي «طَبَقَاتِ الحنابلَة».(٢/ ٢٤٠).

وَقَدْ رَأَيْنَا جَمَاعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ خَالَطُوا السُّلْطَانَ، فَكَانَتْ مَغَبَّتُهُمْ سَيِّئَةً(١).

وَلَعَمْرِي؛ إِنَّهُمْ طَلَبُوا الرَّاحَةَ، فَأَخْطَئُوا طَرِيقَهَا؛ لِأَنَّ غُمُومَ الْقَلْبِ لَا تُوَازِيهَا لَذَّةُ مَالٍ، وَلَا لَذَّةُ مَطْعَمٍ، هَذَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ.

وَمَنْ أَشْرَفُ وَأَطْيَبُ عَيْشًا مِنْ مُنْفَرِدٍ فِي زَاوِيَةٍ؛ لَا يُخَالِطُ السَّلَاطِينَ، وَلَا يُبَالِي أَطَابَ مَطْعَمُهُ أَمْ لَمْ يَطِبْ؟! فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ كِسْرَةٍ وَقَعْبِ مَاءٍ(٢)، ثُمَّ هُوَ سَلِيمٌ مِنْ أَنْ تُقَالَ لَهُ كَلِمَةٌ تُؤْذِيهِ، أَوْ يَعِيبَهُ الشَّرْعُ حِينَ دُخُولِهِ عَلَيْهِمْ أَوِ الْخَلْقُ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ حَالَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي انْقِطَاعِهِ، وَحَالَ ابْنِ أَبِي دُؤَادٍ وَيَحْيَىٰ بْنِ أَكْثَمَ(٣)؛ عَرَفَ الْفَرْقَ فِي طِيبِ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا، وَالسَّلَامَةِ فِي الْآخِرَةِ.

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ ابْنُ أَدْهَمَ: «لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ، مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ؛ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ»(٤).

وَلَقَدْ صَدَقَ ابْنُ أَدْهَمَ؛ فَإِنَّ السُّلْطَانَ إِنْ أَكَلَ شَيْئًا؛ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ طُرِحَ لَهُ فِيهِ سُمٌّ، وَإِنْ نَامَ؛ خَافَ أَنْ يُغْتَالَ، وَهُوَ وَرَاءَ الْمَغَالِيقِ، لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَخْرُجَ لِفُرْجَةٍ(٥)؛ فَإِنْ خَرَجَ؛ كَانَ مُنْزَعِجًا مِنْ أَقْرَبِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَاللَّذَّةُ الَّتِي يَنَالُهَا تَبْرُدُ عِنْدَهُ، وَلَا تَبْقَىٰ لَهُ لَذَّةُ مَطْعَمٍ وَلَا

---

(١) الْمَغَبَّةُ: غِبٌ؛ عَاقِبَةُ الشَّيْءِ وَآخِرُهُ وَتَكُونُ حَسَنَةً أَوْ سِيِّئَةً.

(٢) كِسْرَة: قِطعَة صَغِيرَة مِنَ الْخُبْز وَقَعْبِ مَاءٍ: الْقَعْبُ: الْقَدَح الضَّخْمُ؛ أَوْ: قَدَح مِنْ خَشَب مُقَعَّر، وَهُوَ يُرْوِي الرجلَ.

(٣) ترجمة أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ في: [٢٤-١٧٩]. وَيَحْيَىٰ بْنِ أَكْثَمَ في: [٢٠٥-١٢٩]. وَابْنُ أَبِي دُؤَاد: أَبُو عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ بنُ فَرَجِ الجَهْمِيُّ. مَاتَ: (٢٤٠هـ) قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي «السِّيَر»: «صَادَرَهُ الْمُتَوَكِّلُ، وَأَخَذَ مِنْهُ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَافْتَقَرَ، وَوَلَّىٰ الْقَضَاءَ يَحْيَىٰ بنَ أَكْثَم، ثُمَّ عَزَلَهُ بَعْدَ عَامَيْنِ وَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَرْبَعَةَ آلَافِ جَرِيبٍ فَالدُّنْيَا مِحَنٌ».

(٤) ترجمة إِبْرَاهِيم بْنُ أَدْهَمَ في: [١٢٨-٣٦٢]. وَالْخَبَر فِي «الحلية» لأبي نعيم. (ج٧ / ص٣٧٠). وَفِيهِ: «لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ، مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ السُّرُورِ وَالنَّعِيمِ إِذًا لَجَالَدُونَا عَلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ بِأَسْيَافِهِمْ...».

(٥) الْمَغَالِيق: مَا يُغْلَق بِهِ الْبَاب وَيُفْتَح بِالْمِفْتَاح. فُرْجَة: مُشَاهَدَة مَا يُتَسَلَّىٰ بِهِ؛ لِيَسْتَرِيحَ وَيُفَرِّج كَرْبَهُ؛ فَيُعَاد إِلَيْهِ نَشَاطُهُ.

مَنْكَحٍ، وَكُلَّمَا اسْتَظْرَفَ الْمَطَاعِمَ؛ أَكْثَرَ مِنْهَا؛ فَفَسَدَتْ مَعِدَتُهُ، وَكُلَّمَا اسْتَجَدَّ الْجَوَارِيَ؛ أَكْثَرَ مِنْهُنَّ[(١)]؛ فَذَهَبَتْ قُوَّتُهُ، وَلا يَكَادُ يُبْعِدُ مَا بَيْنَ الْوَطْءِ وَالْوَطْءِ؛ فَلا يَجِدُ فِي الْوَطْءِ كَبِيرَ لَذَّةٍ؛ لِأَنَّ لَذَّةَ الْوَطْءِ بِقَدْرِ بُعْدِ مَا بَيْنَ الزَّمَانَيْنِ، وَكَذَلِكَ لَذَّةُ الْأَكْلِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَكَلَ عَلَىٰ شِبَعٍ، وَوَطِئَ مِنْ غَيْرِ صِدْقِ شَهْوَةٍ وَقَلَقٍ؛ لَمْ يَجِدِ اللَّذَّةَ التَّامَّةَ الَّتِي يَجِدُهَا الْفَقِيرُ إِذَا جَاعَ، وَالْعَزَبُ إِذَا وَجَدَ امْرَأَةً. . . ثُمَّ إِنَّ الْفَقِيرَ يَرْمِي نَفْسَهُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ فِي اللَّيْلِ فَيَنَامُ، وَلَذَّةُ الْأَمْنِ قَدْ حُرِمَهَا الْأُمَرَاءُ؛ فَلَذَّتُهُمْ نَاقِصَةٌ، وَحِسَابُهُمْ زَائِدٌ.

وَاللهِ؛ مَا أَعْرِفُ مَنْ عَاشَ رَفِيعَ الْقَدْرِ بَالِغًا مِنَ اللَّذَّاتِ مَا لَمْ يَبْلُغْ غَيْرُهُ؛ إِلَّا الْعُلَمَاءَ الْمُخْلِصِينَ؛ كَالْحَسَنِ وَسُفْيَانَ وَأَحْمَدَ، وَالْعُبَّادَ الْمُحَقِّقِينَ، كَمَعْرُوفٍ[(٢)].

فَإِنَّ لَذَّةَ الْعِلْمِ تَزِيدُ عَلَىٰ كُلِّ لَذَّةٍ، وَأَمَّا ضُرُّهُمْ إِذَا جَاعُوا، أَوِ ابْتُلُوا بِأَذًىٰ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي رِفْعَتِهِمْ، وَكَذَلِكَ لَذَّةُ الْخَلْوَةِ وَالتَّعَبُّدِ.

فَهَذَا مَعْرُوفٌ، كَانَ مُنْفَرِدًا بِرَبِّهِ، طَيِّبَ الْعَيْشِ مَعَهُ، لَذِيذَ الْخَلْوَةِ بِهِ، ثُمَّ قَدْ مَاتَ مُنْذُ نَحْوِ أَرْبَعِ مِئَةِ سَنَةٍ؛ فَمَا يَخْلُو أَنْ يُهْدَىٰ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ مَا تَقْدِيرُ مَجْمُوعِهِ أَجْزَاءٌ مِنَ الْقُرْآنِ! وَأَقَلُّهُ مَنْ يَقِفُ عَلَىٰ قَبْرِهِ فَيَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[الإخلاص:١] وَيُهْدِيهَا لَهُ، وَالسَّلَاطِينُ تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْ قَبْرِهِ ذَلِيلَةً، هَذَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيَوْمَ الْحَشْرِ تُنْشَرُ الْكَرَامَاتُ الَّتِي لا تُوصَفُ! وَكَذَلِكَ قُبُورُ الْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ.

وَلَمَّا بُلِيَتْ أَقْوَامٌ بِمُخَالَطَةِ الْأُمَرَاءِ؛ أَثَّرَ ذَلِكَ التَّكْدِيرَ فِي أَحْوَالِهِمْ كُلِّهَا:

فَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: «مُنْذُ أَخَذْتُ مِنْ مَالِ فُلَانٍ الْأَمِيرِ؛ مُنِعْتُ مَا كَانَ وُهِبَ لِي مِنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ»[(٣)].

---

(١) اسْتَظْرَفَ: عَدَّهُ ظَرِيفًا مُمْتِعًا مُثِيرًا. وَاسْتَجَدَّ: طَلَبَ الْجَدِيدَ مِنَ الْجَوَارِي.

(٢) ترجمة الْحَسَنِ الْبَصريِّ في:[٥٩-٨٧]، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيُّ في:[١٤-١٧٨]، وَابْنِ حَنْبَلٍ وَمَعْرُوفِ الكَرْخِيُّ في:[٢٤-١٧٩].

(٣) ترجمة سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ في:[١٦١-١١٤].

وَهَذَا أَبُو يُوسُفَ الْقَاضِي[(١)] لا يَزُورُ قَبْرَهُ اثْنَانِ[(٢)].

فَالصَّبْرُ عَنْ مُخَالَطَةِ الْأُمَرَاءِ - وَإِنْ أَوْجَبَ ضِيقَ الْعَيْشِ مِنْ وَجْهٍ - يُحَصِّلُ طِيبَ الْعَيْشِ مِنْ جِهَاتٍ، وَمَعَ التَّخْلِيطِ لَا يَحْصُلُ مَقْصُودٌ؛ فَمَنْ عَزَمَ جَزَمَ[(٣)].

كَانَ أَبُو الْحَسَنِ الْقَزْوِينِيُّ لَا يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا وَقْتَ الصَّلَاةِ؛ فَرُبَّمَا جَاءَ السُّلْطَانُ، فَيَقْعُدُ لِانْتِظَارِهِ لِيُسَلِّمَ عَلَيْهِ[(٤)].

وَمَدُّ النَّفَسِ فِي هَذَا رُبَّمَا أَضْجَرَ السَّامِعَ، وَمَنْ ذَاقَ عَرَفَ[(٥)].

*[٢٦٧ - ٢٥٥][خَاطِرَةٌ]:

[خَادِمُ السُّلْطَانِ يُخْشَى عَلَى دِينِهِ وَدُنْيَاهُ]

طَالَ تَعَجُّبِي مِنْ مُؤْمِنٍ بِاللهِ ﷻ، مُؤْمِنٍ بِجَزَائِهِ، يُؤْثِرُ خِدْمَةَ السُّلْطَانِ، مَعَ مَا يَرَى مِنْهُ مِنَ الْجَوْرِ الظَّاهِرِ[(٦)].

فَوَا عَجَبًا! مَا الَّذِي يُعْجِبُهُ؟!

---

(١) أَبُو يُوسُفَ القَاضِي يَعْقُوبُ بنُ إِبْرَاهِيمَ بنِ حَبِيبٍ، العَلَّامَةُ، المُحَدِّثُ، قَاضِي القُضَاةِ، مَاتَ سَنَةَ:(١٨٢هـ).

(٢) رَضِيَ اللهُ عَنِ الْإِمَامِ ابْنِ الجَوْزِيِّ وَغَفَرَ لَهُ؛ فَزِيَارَةُ القُبُورِ لَيْسَت دَلِيلًا عَلَى الفَلَاحِ أَوِ الصَّلَاحِ. نَعم زِيَارَةُ القُبُورِ مَشْرُوعَةٌ بِالضَّوَابِطِ الشَّرعِيَّةِ، وَلَيْسَ فِي زِيَادَةِ عَدَدِ الزَّائِرِينَ لِهَذِهِ القُبُورِ أَيّ دَلَالَةٍ عَلَى حَالِ أَصْحَابِهَا.

(٣) يَعْنِي: فَمَنْ قَصَدَ وَنَوَى وَصَبَرَ وَثَبَتَ وَجَدَّ وَلَزِمَ؛ مَضَى فِي تَنْفِيذِ هَذِهِ الوَصَايَا بِالْهِمَّةِ وَقَطَعَ بِهَا قَطعًا لَا عَوْدَةَ فِيهِ.

(٤) أَبُو الْحَسَنِ الْقَزْوِينِيُّ هُوَ: عَلِيُّ بنُ عُمَرَ بنِ مُحَمَّدٍ، الشَّافِعِيُّ. الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْقَزْوِينِيِّ، جُمِعَتْ لَهُ القُلُوبُ. مَاتَ سَنَةَ:(٤٤٢هـ). وَالْمَقْصُودُ بِالسُّلْطَانِ: جَلَالُ الدَّوْلَةِ فَيْرُوزَجِرْدُ بنُ بَهَاءِ الدَّوْلَةِ الدَّيْلَمِيُّ، مَاتَ:(٤٣٥هـ). وَكَذَلِكَ أَبُو كَالَيْجَارَ مَرْزُبَانُ بنُ سُلْطَانِ الدَّوْلَةِ ابْنِ بُوَيْه، مَاتَ:(٤٤٠هـ). وَالْخَبَرُ فِي «السير»(ت: الْقَزْوِينِيُّ) عَنْ عَلِيِّ بنِ مُحَمَّدٍ الأَمِينُ، قَالَ: «رَأَيْتُ المَلِكَ أَبَا كَالَيْجَارَ قَائِمًا، يُشِيرُ إِلَيْهِ أَبُو الحَسَنِ بِالجُلُوسِ، فَلَا يَفْعَلُ». وَعَنْ عَلِيٍّ الطَّرَّاحِ، قَالَ: «رَأَيْتُ المَلِكَ أَبَا طَاهِرِ بنَ بُوَيْه قَائِمًا بَيْنَ يَدَي الشَّيْخِ يُومِئُ بِالجُلُوسِ، فَيَأْبَى».

(٥) يَعْنِي: إِطَالَةُ الْكَلَامِ وَبَسْطه فِي هَذَا رُبَّمَا أَزْعَجَ وَأَمَلَّ السَّامِعِ وَجَعَلَهُ يَتَبَرَّم وَيَتَضَايَق مِنْهُ، لَكِن مَنِ اخْتَبَرَ عَرَفَ.

(٦) الْجَوْرِ: التَّعَدِّي وَالظُّلْم.

إِنْ كَانَ الَّذِي يُعْجِبُهُ دُنْيَوِيًّا؛ فَلَيْسَ ثَمَّ إِلَّا(١) أَنْ يُصَاحَ بَيْنَ يَدَيْهِ: «بِسْمِ اللهِ»، وَأَنْ يَتَصَدَّرَ فِي الْمَجَالِسِ، وَيَلْوِيَ عُنُقَهُ كِبْرًا عَلَىٰ النُّظَرَاءِ، وَيَأْخُذَ الأَسْحَاتَ، وَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ حَصَلَ، وَرُبَّمَا انْبَسَطَ فِي الْبَرَاطِيلِ(٢).

ثُمَّ يُقَابَلُ هَذَا أَنْ يُصَادَرَ، وَيُعْزَلَ(٣)، فَتَسْتَخْرِجَ مِنْهُ تِلْكَ الْمَرَارَةُ كُلَّ حَلَاوَةٍ كَانَتْ فِي الْوِلَايَةِ. . . وَرُبَّمَا كَانَ قَرِيبَ الْحَالِ(٤)، فَافْتَقَرَ بِالْمُصَادَرَةِ جِدًّا، ثُمَّ تَنْطَلِقُ الأَلْسُنُ الْمَادِحَةُ بِالذَّمِّ. ثُمَّ لَوْ سَلِمَ مِنْ هَذَا؛ فَإِنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنَ الرَّقِيبِ لَهُ، وَالْحَذَرِ مِنْهُ؛ فَهُوَ كَرَاكِبِ الْبَحْرِ، إِنْ سَلِمَ بَدَنُهُ مِنَ الْغَرَقِ؛ لَمْ يَسْلَمْ قَلْبُهُ مِنَ الْخَوْفِ.

وَإِنْ كَانَ دِينًا(٥)؛ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يُمَكِّنُونَهُ فِي الْغَالِبِ مِنَ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَىٰ الدِّينِ؛ فَإِنَّهُمْ يَأْمُرُونَهُ بِتَرْكِ مَا يَجِبُ، وَفِعْلِ مَا لَا يَجُوزُ، فَيَذْهَبُ دِينُهُ عَلَىٰ الْبَارِدِ! وَلَعِقَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ.

*[٢٦٨ - ٣٢٣][خَاطِرَةٌ]:

[هَؤُلَاءِ مِنْ أَعْوَانِ الظَّلَمَةِ]

رَأَيْتُ خَلْقًا يُفَرِّطُونَ فِي أَدْيَانِهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ: احْمِلُونَا إِذَا مِتْنَا إِلَىٰ مَقْبَرَةِ أَحْمَدَ(٦).

أَتَرَاهُمْ مَا سَمِعُوا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ امْتَنَعَ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَىٰ مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ(٧)، وَعَلَىٰ الْغَالِّ(٨).

---

(١) يَعْنِي: فَلَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا هَذِهِ الأَشْيَاءِ الْمَذْمُومَة شَرعًا وَطَبعًا.

(٢) النُّظَرَاء: نَظِير: مُنَاظِر وَمُسَاوٍ فِي الأَهَمِّيَّة أَوْ الدَّرَجَة. وَالأَسْحَات: السُّحْت: مُبَالَغَة فِي صفة الْحَرَام. أَوْ: يُفِيدُ أَنَّهُ حَرَامٌ ظَاهِرٌ، وَيَجُوزُ أَنَّ السُّحت: الْحَرَام الَّذِي يَسْتَأْصِل الطَّاعَات، وَيَسْتَأْصِل صَاحِبه. وَالْبَرَاطِيل: الرِّشْوَةُ.

(٣) يُصَادَرَ؛ أَيْ: يُسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ أَمْوَالِهِ مِنْ جِهَةِ الْحَاكِمِ عُقُوبَة لَهُ.

(٤) يَعْنِي: قَلِيل الْمَال، مُتَوَسِّط الْمَعِيْشَة.

(٥) يَعْنِي: وَإِنْ كَانَ الَّذِي يُعْجِبُهُ مِنْ هَذَا السُّلْطَان هُوَ الدِّين.

(٦) تقدمت ترجمة أَحْمَد بْن حَنْبَل رحمه الله في الخاطرة: [٢٤-١٧٩].

(٧) رَوَاهُ الْبُخَارِيّ، كِتَابُ «الحَوَالَاتِ» (٢٢٨٩). عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رضي الله عنه وفيه فَقَالَ ﷺ: «صَلُّوا عَلَىٰ صَاحِبِكُمْ».

(٨) رَوَىٰ النَّسَائِي فِي «الْمُجْتَبَىٰ» كِتَابُ «الْجَنَائِز» (١٩٥٩): «صَلُّوا عَلَىٰ صَاحِبِكُمْ، إِنَّهُ غَلَّ فِي سَبِيلِ اللهِ». ضَعِيفٌ.

وَقَالَ: «مَا يَنْفَعُهُ صَلَاتِي عَلَيْهِ»[(١)]؟!

وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا مِنَ الْعُلَمَاءِ حَمَلَهُمْ حُبُّ الصِّيْتِ عَلَىٰ أَنِ اسْتَخْرَجُوْا إِذْنًا مِنَ السُّلْطَانِ، فَدُفِنُوْا فِي دَكَّةِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ[(٢)]، وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ أَنَّ هُنَاكَ خَلْقًا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَمَا فِيهِمْ إِلَّا مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَا يَسْتَحِقُّ الْقُرْبَ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ!

فَأَيْنَ احْتِقَارُ النُّفُوسِ؟!

أَمَا سَمِعُوْا أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، قِيلَ لَهُ: «تُدْفَنُ فِي الْحُجْرَةِ؟!» فَقَالَ: «لَأَنْ أَلْقَىٰ اللهَ بِكُلِّ ذَنْبٍ - مَا خَلَا الشِّرْكَ - أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَرَىٰ نَفْسِي أَهْلًا لِذَلِكَ؟!»[(٣)].

لَكِنَّ الْعَادَاتِ وَحُبَّ الرِّئَاسَةِ غَلَبَتْ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ، فَبَقِيَ الْعِلْمُ يَجْرِي عَلَىٰ الْأَلْسُنِ عَادَةً، لَا لِلْعَمَلِ بِهِ.

ثُمَّ آلَ الْأَمْرُ إِلَىٰ جَمَاعَةٍ خَالَطُوْا السَّلَاطِيْنَ، وَبَاشَرُوْا الظُّلْمَ، يُزَاحِمُوْنَ عَلَىٰ الدَّفْنِ بِمَقْبَرَةِ أَحْمَدَ، وَيُوْصُوْنَ بِذَلِكَ!!

فَلَيْتَهُمْ أَوْصَوْا بِالدَّفْنِ فِي مَوْضِعٍ فَارِغٍ؛ إِنَّمَا يُدْفَنُوْنَ عَلَىٰ مَوْتَىٰ، وَيُخْرَجُ عِظَامُ أُولَئِكَ، فَيُحْشَرُوْنَ عَلَىٰ مَا أَلِفُوْا مِنَ الظُّلْمِ، حَتَّىٰ فِي مَوْتِهِمْ، وَيَنْسَوْنَ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَعْوَانِ الظَّلَمَةِ.

أَتَرَىٰ مَا عَلِمُوْا أَنَّ مُسَاعِدَ الظُّلْمِ ظَالِمٌ؟!

---

(١) لَم أَقِف عَلَيْهِ بِهَذَا اللَّفْظ فِيمَا بَيْنَ يَدِيَّ مِنَ الْمَصَادِرِ. وَقَدْ يَكُون هُنَاكَ تَصْحِيف لِكَلِمَة «يَنْفَعُنِي» فَتَكُوْن «يَنْفَعُكُم»، فَقَدْ رَوَىٰ الغِطْرِيفِيُّ فِي «جُزْءٍ لَهُ»(ح٢٧) عَنْ أَنَسٍ يَرفَعُهُ: «مَا تَنْفَعُكُمْ صَلَاتِي عَلَيْهِ، وَهُوَ مُرْتَهَنٌ فِي قَبْرِه؛ فَإِنْ ضَمِنَ رَجُلٌ دَيْنَهُ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ صَلَاتِي تَنْفَعُهُ».

(٢) الدَّكَّة - بِالْفَتْحِ: مَا اسْتَوَىٰ مِنَ الرَّمْلِ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الْحَانُوتِ وَعَلَىٰ الْمَقْبَرَةِ.

(٣) فِي الْحُجْرَةِ؛ أَيْ: حُجْرَة أُمِّ الْمُؤْمِنِيْن عَائِشَة رضي الله عنها. وَتَرجمة عُمَر بْن عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي:[١٤٨-٣٣٨]. وَخَبَرُهُ هَذَا؛ رَوَاهُ ابن سعد في «الطبقات»(ج٥/ ص١٠٣)، وأبو نعيم في «الحلية»(ج٥/ ص٣٣٥). وَفِيْهِمَا: «لَأَنْ يُعَذِّبَنِي اللهُ بِكُلِّ عَذَابٍ إِلَّا النَّارَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَعْلَمَ - اللهُ - أَنِّي أَرَىٰ لِذَلِكَ أَهْلًا».

وَفِي الْحَدِيثِ: «كَفَىٰ بِالْمَرْءِ خِيَانَةً أَنْ يَكُونَ أَمِينًا لِلْخَوَنَةِ»(١).

قَالَ السَّجَّانُ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: هَلْ أَنَا مِنْ أَعْوَانِ الظَّلَمَةِ؟ فَقَالَ: «لَا، أَنْتَ مِنَ الظَّلَمَةِ؛ إِنَّمَا أَعْوَانُ الظَّلَمَةِ مَنْ أَعَانَكَ فِي أَمْرٍ»(٢).

*[٢٦٩ - ٢٩٥][خَاطِرَةٌ]:

[عَاقِبَةُ أَخْذِ أَمْوَالِ السَّلَاطِينِ]

رَأَيْتُ خَلْقًا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْقُصَّاصِ تَضِيقُ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، فَيَفْزَعُونَ إِلَىٰ مُخَالَطَةِ السَّلَاطِينِ؛ لِيَنَالُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ السَّلَاطِينَ لَا يَكَادُونَ يَأْخُذُونَ الدُّنْيَا مِنْ وَجْهِهَا وَلَا يُخْرِجُونَهَا فِي حَقِّهَا. فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ: إِذَا حَصَلَ لَهُ خَرَاجٌ يَنْبَغِي أَنْ يُصْرَفَ إِلَىٰ الْمَصَالِحِ؛ وَهَبَهُ لِشَاعِرٍ(٣)! وَرُبَّمَا كَانَ مَعَهُ جُنْدِيٌّ يَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ مُشَاهَرَتُهُ عَشَرَةَ دَنَانِيرَ(٤)؛ فَأَعْطَاهُ عَشَرَةَ آلَافٍ! وَرُبَّمَا غَزَا؛ فَأَخَذَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْسَمَ عَلَىٰ الْجَيْشِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ! هَذَا غَيْرُ مَا يَجْرِي مِنَ الظُّلْمِ فِي الْمُعَامَلَاتِ.

وَأَوَّلُ مَا يَجْرِي عَلَىٰ ذَاكَ الْعَالِمِ أَنَّهُ قَدْ حُرِمَ النَّفْعَ بِعِلْمِهِ. وَقَدْ رَأَىٰ بَعْضُ الصَّالِحِينَ رَجُلًا عَالِمًا يَخْرُجُ مِنْ دَارِ يَحْيَىٰ بْنِ خَالِدٍ الْبَرْمَكِيِّ(٥)، فَقَالَ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»(٦).

---

(١) وَقَصَدَ الإِمَامُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: «وَفِي الْحَدِيثِ..» الْمَعْنَىٰ اللُّغَوِيَّ لَا الاصطِلَاحِيَّ؛ وَهُوَ مِنْ كَلَامِ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللهُ. رواه أبو نعيم في «الحلية»(ج٢/ ص٣٧٣) والبيهقي في «الشعب»(ج١٢/ ص٤١).

(٢) ذَكَرَهُ إِسْمَاعِيلُ الطَّلْحِيُّ فِي «سِيَرِ السَّلَفِ»(فَصْلٌ: فِي كَلَامِ أَحْمَدَ). وَفِيهِ: «أَعْوَانُ الظَّلَمَةِ مَنْ يَأْخُذُ شَعْرَكَ وَيَغْسِلُ ثَوْبَكَ وَيُصْلِحُ طَعَامَكَ وَيَبِيعُ وَيَشْتَرِي مِنْكَ، فَأَمَّا أَنْتَ فَمِنْ أَنْفُسِهِمْ».

(٣) الْخَرَاجُ: اِسْمٌ لِمَا يُخْرَجُ مِنْ غَلَّةِ الأَرْضِ، وَهِيَ ضَرِيبَةُ الأَرْضِ أَوْ الْجِزْيَةُ الَّتِي كَانَتْ تُفْرَضُ عَلَىٰ أَهْلِ الذِّمَّةِ.

(٤) مُشَاهَرَتُهُ: شَاهَرَ يُشَاهِرُ، شِهَارًا وَمُشَاهَرَةً، أَيْ: مُرَتَّبٌ أَوْ رَاتِبٌ يُدْفَعُ فِي كُلِّ شَهْرٍ.

(٥) يَحْيَىٰ بْنُ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ، مِنْ رِجَالِ الدَّهْرِ حَزْمًا، وَرَأْيًا، وَسِيَاسَةً، مَاتَ سَنَةَ: (١٩٠هـ).

(٦) وَهَذَا تَنْفِيذًا لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «سَلُوا اللهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ» رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» كِتَابُ « جَامِعِ الدُّعَاءِ»(٢٩٧٣٢).

أَلَمْ تَرَ الْمُنْكَرَاتِ وَلا تُنْكِرُ؟! وَتَتَنَاوَلُ مِنْ طَعَامِهِمُ الَّذِي لَا يَكَادُ يَحْصُلُ إِلَّا بِظُلْمٍ، فَيَنْطَمِسُ قَلْبُكَ، وَتُحْرَمُ لَذَّةُ الْمُعَامَلَةِ لِلْحَقِّ سُبْحَانَهُ، وَلا يُقَدَّرُ لَكَ أَنْ يَهْتَدِيَ بِكَ أَحَدٌ[١]؟ بَلْ رُبَّمَا كَانَ فِعْلُ هَذَا سَبَبًا لِإِضْلَالِ النَّاسِ وَصَرْفِهِمْ عَنِ الاقْتِدَاءِ بِهِ!

فَهُوَ يُؤْذِي نَفْسَهُ، وَيُؤْذِي أَمِيرَهُ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: لَوْلا أَنِّي عَلَىٰ صَوَابٍ؛ مَا صَحِبَنِي، وَلَأَنْكَرَ عَلَيَّ[٢].

وَيُؤْذِي الْعَوَامَّ؛ تَارَةً بِأَنْ يَرَوْا أَنَّ مَا فِيهِ الْأَمِيرُ صَوَابٌ، [وَتَارَةً[٣]] بِأَنَّ الدُّخُولَ عَلَيْهِ وَالسُّكُوتَ عَنِ الْإِنْكَارِ جَائِزٌ، وَيُحَبِّبُ إِلَيْهِمُ الدُّنْيَا[٤].

وَلا خَيْرَ - وَاللهِ - فِي سَعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا ضَيَّقَتْ طَرِيقَ الْآخِرَةِ.

وَأَنَا أَفْدِي أَقْوَامًا صَابَرُوا عَطَشَ الدُّنْيَا فِي هَجِيرِ الشَّهَوَاتِ زَمَانَ الْعُمُرِ حَتَّىٰ رُوُوْا يَوْمَ الْمَوْتِ مِنْ شُرْبِ الرِّضَا، وَبَقِيَتْ أَذْكَارُهُمْ تُرْوَىٰ، فَتَرْوِي صَدَىٰ الْقُلُوبِ، وَتَجْلُو صَدَأَهَا[٥].

هَذَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ؛ يَحْتَاجُ، فَيَخْرُجُ إِلَىٰ اللِّقَاطِ، وَلا يَقْبَلُ مَالَ سُلْطَانٍ[٦].

هَذَا إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ؛ يَتَغَذَّىٰ بِالْبَقْلِ، وَيَرُدُّ عَلَىٰ الْمُعْتَضِدِ أَلْفَ دِينَارٍ[٧].

---

(١) هُنَا يَتَحَدَّثُ ابْنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ بِصِيغَةِ الْمُخَاطِبِ؛ وَكَأَنَّهُ يُخَاطِبُ ذَاكَ العَالِمَ الَّذِي يَأْخُذ أَمْوَال السَّلَاطِينِ.

(٢) وَهَذَا ثَانِي المَصَائِبِ الَّتِي تَجْرِي عَلَىٰ ذَاكَ الْعَالِمِ.

(٣) ليست في الأصل، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها. وفي الأصل:[وَأَنَّ الدُّخُولَ عَلَيْهِ].

(٤) وَهَذِهِ ثَالِثَةُ الأَثَافِيِّ مِنَ الْمَصَائِبِ الَّتِي تَجْرِي عَلَىٰ ذَاكَ الْعَالِمِ.

(٥) هَجِيرِ الشَّهَوَاتِ؛ أَيْ: تَرْكُهَا وَهَجْرُهَا. وَرُوُوْا؛ أَيْ: شَرِبُوا وَشَبِعُوْا حَتَّىٰ ذَهَبَ عَطَشُهُم. وَالرِّضَا: قُبُوْل الشَّيْء عَنْ طِيْب نَفْس. وَصَدَىٰ الْقُلُوبِ: الصَّدَىٰ: الْعَطَش الشَّدِيْد. وَتَجْلُو: تُذْهِبُ وَتُزِيْل. وَصَدَأَهَا: الْصَدَأُ: سَوَادٌ وَكُدْرَة تَعْلُو وَجْهَ الشَّيْء، وَصَدِيَ الْقَلْبُ: غَطَّت عَلِيْهِ الذُّنُوْبُ.

(٦) اللِّقَاطِ: أَخْذُ الشَّيْء مِنَ الأَرض. وَيُقَال لِلَّذِي يَلْقُط السَّنابِلَ إِذا حُصِدَ الزرعُ ووُخِزَ الرُّطَب مِنَ الْعِذْق لاقِطٌ ولَقَاطٌ ولَقَّاطةٌ. وَهُوَ الْمَعْنِيّ بِقَوْلِ الإِمَامُ: «فَيَخْرُجُ إِلَىٰ اللِّقَاطِ»؛ أَيْ: يَجْمَع السَّنابِلَ إِذا حُصِدَ وَقْت الحَصَاد بِالأُجْرَة.

(٧) جَاءَ فِي الأَصل:[وَيَرُدُّ عَلَىٰ الْمُعْتَصِم]، وَالْصَّوَاب مَا أَثْبَتْنَاهُ مِن «تاريخ بغداد»(ج٦/ ص٣١)و«سير أعلام النبلاء»(ت: إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ). وَفِيهِمَا: «إِنَّ الْمُعْتَضِد لَمَّا نَفَّذَ إِلَىٰ الحَرْبِيِّ بِالعَشَرَة آلاَف رَدَّهَا، فَقِيْلَ لَهُ: فَفَرِّقْهَا، فَأَبَىٰ، ثُمَّ لمَا مَرِضَ، سَيَّرَ إِلَيْهِ المعتضدُ أَلْفَ دِيْنَارٍ، فَلَمْ يقبلْهَا، فَخَاصَمَتْه بِنْتُه، فَقَالَ: أتخشين إِذَا مِتُّ الفَقْر؟ قَالَتْ: نعم. قَالَ: فِي =

هَذَا بِشْرٌ الْحَافِيُّ[١]؛ يَشْكُو الْجُوعَ، فَيُقَالُ لَهُ: يُصْنَعُ لَكَ حِسَاءٌ مِنْ دَقِيقٍ؟ فَيَقُولُ: «أَخَافُ أَنْ يَقُولَ اللهُ لِي: هَذَا الدَّقِيقُ مِنْ أَيْنَ لَكَ؟!».

بَقِيَتْ وَاللهِ أَذْكَارُ الْقَوْمِ، وَمَا كَانَ الصَّبْرُ إِلَّا غَفْوَةَ نَوْمٍ، وَمَضَتْ لِذَاتُ الْمُتَرَخِّصِينَ، وَبَلِيَتِ الْأَبْدَانُ، وَوَهِنَ الدِّينُ.

فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ يَا مَنْ وُفِّقَ! وَلا تَغْبِطَنَّ مَنِ اتَّسَعَ لَهُ أَمْرُ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ تِلْكَ السَّعَةَ؛ رَأَيْتَهَا ضِيقًا فِي بَابِ الدِّينِ! وَلا تُرَخِّصْ لِنَفْسِكَ فِي تَأْوِيلٍ؛ فَعُمُرُكَ فِي الدُّنْيَا قَلِيلٌ!

وَسَوَاءٌ إِذَا انْقَضَى يَوْمُ كِسْرَى ... فِي سُرُورٍ وَيَوْمِ صَابِرِ كِسْرَهْ[٢]

وَمَتَى ضَجَّتِ النَّفْسُ لِقِلَّةِ صَبْرٍ؛ فَاتْلُ عَلَيْهَا أَخْبَارَ الزُّهَّادِ؛ فَإِنَّهَا تَرْعَوِي، وَتَسْتَحِي، وَتَنْكَسِرُ[٣]، إِنْ كَانَتْ لَهَا هِمَّةٌ، أَوْ فِيهَا يَقَظَةٌ، وَمَثِّلْ لَهَا بَيْنَ تَرَخُّصِ عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ، وَقَبُولِهِ مَالَ ابْنِ أَبِي دُؤَادَ، وَصَبْرِ أَحْمَدَ، وَكَمْ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، وَالذِّكْرَيْنِ، وَانْظُرْ مَا يُرْوَى عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَمَا يُذْكَرَانِ بِهِ ... وَسَيَنْدَمُ ابْنُ الْمَدِينِيِّ إِذَا قَالَ أَحْمَدُ: «سَلِمَ دِينِي»[٤].

= تِلْكَ الزَّاوِيَةِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ جُزْءٍ حديثيّةٍ وَلُغَوِيَّةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ كتبها بخطّي، فَيَبِيعُ مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ جُزْءًا بِدِرْهَمٍ وَأَنْفَقِهِ». وَتَرجَمَة إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ في:[١٨١-١٩]. وَالْمُعْتَضِد في:[١٥٣-١٩]. وَالْبَقْلِ: كُلّ نَبَاتٍ عُشْبِيّ يَتَغَذّي الإِنْسَان بِهِ كَالخَسّ، وَيَكْثُر إِطلَاقه الآنَ عَلَى الحُبُوبِ الجَافَّة لِبَعْضِ الخُضْرَوَات كَالفَاصُولِيَا.

(١) تقدمت ترجمة بِشْرٌ الْحَافِيُّ رحمه الله في الخاطرة:[٢٤-١٧٩].

(٢) كِسْرَهْ؛ أَيْ: كِسْرَة خُبْزٍ. والبيت من البحر:[الخفيف].

(٣) ارْعَوَى يَرْعَوِي؛ أَي: كفَّ عَنِ الأُمُورِ. وَالرَّعْوَى وَالرَّعْيَا: النُّزُوعُ عَنِ الْجَهْلِ وَحُسْنُ الرُّجُوعِ عَنْهُ.

(٤) ترجمة ابْنِ أَبِي دُؤَادَ في الخاطرة:[٢٥٦-٢٠٧] وَأَحمد بْن حَنْبَل في:[٢٤-١٧٩] وَابْن الْمَدِينِيِّ في:[١١١-٢٢٢]. وَسَبَب هَذِهِ الغِلْظَة مِنْ ابْنِ الجَوْزِيّ رحمه الله أَنَّ ابْنَ الْمَدِينِيّ رحمه الله أَجَابَ فِي مِحْنَةِ خَلْقِ القُرآن. وَمَعَ ذَلِكَ فَهَذِهِ الْمَقُولَة مِنَ ابْنِ الجَوْزِيّ رحمه الله لَا يُأْخَذ بِهَا؛ لِمَا ذَكَرَهُ أَهْل العِلْم مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى ابْن الْمَدِينِيّ.

*[٢٧٠ - ٢٦٩][خَاطِرَةٌ]:

[الكَسْبُ مِنْ أَمْوَالِ السَّلَاطِينِ وَالأُمَرَاءِ]

رَأَيْتُ بَعْضَ الْمُتَقَدِّمِيْنَ سُئِلَ عَمَّنْ يَكْتَسِبُ حَلالًا وَحَرَامًا مِنَ السَّلَاطِيْنِ وَالأُمَرَاءِ، ثُمَّ يَبْنِي الْمَسَاجِدَ وَالأَرْبِطَةَ: هَلْ لَهُ فِيْهَا ثَوَابٌ؟

فَأَفْتَىٰ بِمَا يُوْجِبُ طِيْبَ قَلْبِ الْمُنْفِقِ، وَأَنَّ لَهُ فِي إِنْفَاقِ مَا لَا يَمْلِكُهُ نَوْعَ سَمْسَرَةٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَعْيَانَ الْمَغْصُوْبِيْنَ فَيَرُدُّهَا عَلَيْهِمْ!

فَقُلْتُ: وَا عَجَبًا مِنَ الْمُتَصَدِّيْنَ لِلْفَتْوَىٰ الَّذِيْنَ لا يَعْرِفُوْنَ أُصُوْلَ الشَّرِيعَةِ!!

يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِي حَالِ هَذَا الْمُنْفِقِ أَوَّلًا:

فَإِنْ كَانَ سُلْطَانًا؛ فَمَا يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ قَدْ عُرِفَتْ وُجُوْهُ مَصَارِفِهِ؛ فَكَيْفَ يَمْنَعُ مُسْتَحِقَّهُ، وَيُشْغِلُهُ بِمَا لا يُفِيْدُ مِنْ بِنَاءِ مَدْرَسَةٍ وَرِبَاطٍ؟!

وَإِنْ كَانَ الْمُنْفِقُ مِنَ الأُمَرَاءِ وَنُوَّابِ السَّلَاطِيْنِ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَرُدَّ مَا يَجِبُ رَدُّهُ إِلَىٰ بَيْتِ الْمَالِ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ إِلَّا مَا فُرِضَ مِنْ إِيجَابٍ يَلِيْقُ بِهِ.

فَإِنْ تَصَرَّفَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ، كَانَ مَصْرُوْفًا فِيْمَا لَيْسَ لَهُ، وَلَوْ أُذِنَ لَهُ؛ مَا كَانَ الإِذْنُ جَائِزًا.

وَإِنْ كَانَ قَدْ أُقْطِعَ مَا لا يُقَاوِمُ عَمَلَهُ[1]؛ كَانَ مَا يَأْخُذُهُ فَاضِلًا مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِيْنَ، لا حَقَّ لَهُ فِيْهِ، وَعَلَىٰ مَنْ أَطْلَقَهُ فِي ذَلِكَ إِثْمٌ أَيْضًا، هَذَا إِذَا سَلِمَ الْمَالُ، وَكَانَ مِنْ حِلِّهِ.

فَأَمَّا إِذَا كَانَ حَرَامًا أَوْ غَصْبًا؛ فَكُلُّ تَصَرُّفٍ فِيْهِ حَرَامٌ، وَالْوَاجِبُ رَدُّهُ عَلَىٰ مَنْ أُخِذَ مِنْهُ، أَوْ عَلَىٰ وَرَثَتِهِمْ؛ فَإِنْ لَمْ يَعْرِفْ طَرِيْقَ الرَّدِّ؛ كَانَ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ؛ يُصْرَفُ فِي مَصَالِحِهِمْ، أَوْ يُصْرَفُ فِي الصَّدَقَةِ، وَلَمْ يَحْظَ آخِذُهُ بِغَيْرِ الإِثْمِ[2].

---

(١) أُقْطِعَ: الإِقْطَاع: نِظَام يَمْنَحُ فِيْهِ السَّادَة قَطَائِع مِنَ الأَرْضِ لِنُوَّابِهِم وَلِأَوْلَادِهِم. وَالإِقْطَاعُ إِذَا أُطْلِقَ مُجَرَّدًا فَإِنَّهُ يُحْمَلُ عَلَى التَّمْلِيكِ. * مَا لا يُقَاوِمُ عَمَلَهُ: مَا لَا يُوَاجِه عَمَلَهُ وَيَسْتَحِقّ عَلَيْهِ هَذَا الإِقْطَاع.

(٢) كَأَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ يُشِيْرُ إِلَىٰ مَا رواه البخاري، كِتَابُ «المَظَالِمِ» بَابُ «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ عِنْدَ الرَّجُلِ»(٢٤٤٩). عَنْ أَبِي =

أَنْبَأَنَا[1] أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ الْبَنَّا، قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الزَّجَّاجِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَسَدِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَوْفٍ الطَّائِيُّ[2]، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَةِ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي مُوسَىٰ بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ الْقَاسِمَ بْنَ مُخَيْمِرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اكْتَسَبَ مَالًا مِنْ مَأْثَمٍ، فَوَصَلَ رَحِمًا، أَوْ تَصَدَّقَ بِهِ، أَوْ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، جُمِعَ ذَلِكَ جَمِيعًا، فَقُذِفَ بِهِ فِي جَهَنَّمَ»[3].

= هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لا يَكُونَ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ». وَقَدْ ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا تَعَلَّقَ بِهَا حَقٌّ مَالِيٌّ، كَمَنْعِ الزَّكَاةِ، وَالْغَصْبِ، وَالْجِنَايَاتِ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ، وَجَبَ مَعَ ذَلِكَ تَبْرِئَةُ الذِّمَّةِ عَنْهُ بِأَنْ يُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ، وَيَرُدَّ أَمْوَالَ النَّاسِ إِنْ بَقِيَتْ، وَيَغْرَمَ بَدَلَهَا إِنْ لَمْ تَبْقَ، أَوْ يَسْتَحِلَّ الْمُسْتَحِقَّ فَيُبْرِئَهُ، وَيَجِبُ أَنْ يُعْلِمَ الْمُسْتَحِقَّ بِالْحَقِّ إِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِالْحَقِّ، وَأَنْ يُوَصِّلَهُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ غَائِبًا إِنْ كَانَ غَصَبَهُ هُنَاكَ، فَإِنْ مَاتَ سَلَّمَهُ إِلَىٰ وَارِثِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَارِثٌ، وَانْقَطَعَ خَبَرُهُ رَفَعَهُ إِلَىٰ قَاضٍ تُرْضَىٰ سِيرَتُهُ وَدِيَانَتُهُ، فَإِنْ تَعَذَّرَ تَصَدَّقَ بِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ بِنِيَّةِ الضَّمَانِ لَهُ إِنْ وَجَدَهُ، وَإِنْ كَانَ مُعْسِرًا نَوَى الضَّمَانَ إِذَا قَدَرَ، فَإِنْ مَاتَ قَبْلَ الْقُدْرَةِ فَالْمَرْجُوُّ مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى الْمَغْفِرَةُ، وَإِنْ كَانَ حَقًّا لِلْعِبَادِ وَلَيْسَ بِمَالِيٍّ كَالْقِصَاصِ وَحَدِّ الْقَذْفِ فَيَأْتِي الْمُسْتَحِقَّ وَيُمَكِّنُهُ مِنَ الاسْتِيفَاءِ فَإِنْ شَاءَ اقْتَصَّ وَإِنْ شَاءَ عَفَا» قَالَهُ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي «رَوْضَةِ الطَّالِبِينَ» (ج١١/ ص٢٤٦).

(١) رِجَالُ الإِسْنَادِ: أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ أَبُو غَالِبِ بْنُ الْبَنَّاءِ، مُسْنِدُ بَغْدَادَ، شَيْخُ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ. مَاتَ: (٥٢٧هـ). وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ - بْنُ الْحَسَنِ - الزَّجَّاجِيُّ [الدَّجَاجِيُّ أَبُو الْغَنَائِمِ الشَّيْخُ الْمُعَمَّرُ، مَاتَ: (٤٦٣هـ). وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَكْفَانِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ، قَاضِي الْقُضَاةِ بِبَغْدَادَ، مَاتَ: (٤٠٥هـ). وَعَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بِنِ الْعَبْدِ الْأَنْصَارِيُّ -أَحَدُ رُوَاةِ (سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ)- أَبُو الْحَسَنِ الْوَرَّاقُ، مَاتَ: (٣٢٨هـ). وَأَبُو دَاوُدَ سُلَيْمَانُ بْنُ الْأَشْعَثِ، شَيْخُ السُّنَّةِ. مَاتَ: (٢٧٥هـ). وَمُحَمَّدُ بْنُ عَوْفِ بْنِ سُفْيَانَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّائِيُّ، الإِمَامُ، مُحَدِّثُ حِمْصَ. مَاتَ: (٢٧٣هـ). وَأَبُو الْمُغِيرَةِ عَبْدُ الْقُدُّوسِ بْنُ الْحَجَّاجِ الْخَوْلَانِيُّ، الْمُحَدِّثُ، الصَّادِقُ، مَاتَ: (٢١٢هـ). وَالْأَوْزَاعِيُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرِو بْنِ يُحْمَدَ، أَبُو عَمْرٍو، شَيْخُ الإِسْلَامِ. مَاتَ: (١٥٧هـ). وَمُوسَىٰ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَىٰ، أَبُو عَمْرٍو الدِّمَشْقِيُّ، ذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثِّقَاتِ. وَالْقَاسِمُ بْنُ مُخَيْمِرَةَ، الإِمَامُ أَبُو عُرْوَةَ الْهَمْدَانِيُّ. ثِقَةٌ. مَاتَ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، بِدِمَشْقَ.

(٢) جاء في الأصل: [عون]، وهو تصحيف، وما أثبتناه من كتب التراجم ومراسيل أبي داود.

(٣) رواه أبو داود في «المراسيل» (ح١٣١). «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ» (ح١٧٢١)

فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْبَانِي تَاجِرًا مُكْتَسِبًا لِلْحَلَالِ، فَبَنَىٰ مَسْجِدًا، أَوْ وَقَفَ وَقْفًا لِلْمُتَفَقِّهَةِ؛ فَهَذَا مِمَّا يُثَابُ عَلَيْهِ.

وَيَبْعُدُ مَنْ يَكْتَسِبُ الْحَلَالَ حَتَّىٰ يَفْضُلَ عَنْهُ هَذَا الْمِقْدَارُ، أَوْ يُخْرِجُ الزَّكَاةَ مُسْتَقْصَاةً، ثُمَّ يَطِيبُ قَلْبُهُ بِمِثْلِ هَذَا الْبِنَاءِ وَالنَّفَقَةِ؛ إِذْ مِثْلُ هَذَا الْبُنْيَانِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ زَكَاةٍ.

وَأَيْنَ سَلَامَةُ النِّيَّةِ، وَخُلُوصُ الْمَقْصِدِ؟!

ثُمَّ إِنَّ بِنَاءَ الْمَدَارِسِ الْيَوْمَ مُخَاطَرَةٌ؛ إِذْ قَدِ انْعَكَفَ أَكْثَرُ الْمُتَفَقِّهَةِ إِلَىٰ عِلْمِ الْجَدَلِ، وَأَعْرَضُوا عَنْ عُلُومِ الشَّرِيعَةِ، وَتَرَكُوا التَّرَدُّدَ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ، وَقَنَعُوا بِالْمَدَارِسِ وَالْأَلْقَابِ[1].

وَأَمَّا بِنَاءُ الْأَرْبِطَةِ[2]؛ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ أَصْلًا؛ لِأَنَّ جُمْهُورَ الْمُتَصَوِّفَةِ جُلُوسٌ عَلَىٰ بِسَاطِ الْجَهْلِ وَالْكَسَلِ، ثُمَّ يَدَّعِي مُدَّعِيهِمُ الْمَحَبَّةَ وَالْقُرْبَ، وَيَكْرَهُ التَّشَاغُلَ بِالْعِلْمِ، وَقَدْ تَرَكُوا سِيرَةَ «سَرِيٍّ»، وَعَادَاتِ «الْجُنَيْدِ»[3]، وَاقْتَنَعُوا بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَرَضُوا بِالْمُرَقَّعَاتِ، فَلَا تَحْسُنُ إِعَانَتُهُمْ عَلَىٰ بَطَالَتِهِمْ وَرَاحَتِهِمْ، وَلَا ثَوَابَ فِي ذَٰلِكَ.

---

*[٢٧١ - ٣٥١][خَاطِرَةٌ]:

[عَاقِبَةُ التَّكَلُّمِ فِي حَقِّ مَعْزُولٍ]

مِنَ الْغَلَطِ الْعَظِيمِ أَنْ يُتَكَلَّمَ فِي حَقِّ مَعْزُولٍ بِمَا لَا يَصْلُحُ؛ فَإِنَّهُ لَا يُؤْمَنُ أَنْ يَلِيَ فَيَنْتَقِمَ.

وَفِي الْجُمْلَةِ؛ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُظْهِرَ الْعَدَاوَةَ لِأَحَدٍ أَصْلًا؛ فَقَدْ يَرْتَفِعُ الْمُحْتَقَرُ، وَقَدْ يَتَمَكَّنُ

---

(١) وَكَأَنَّ الإِمَامَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَرَىٰ أَنَّ بِنَاء المَدَارِس بِغَرِض تَدرِيس عِلْم الجَدَل مُخَاطَرَة عَظِيمَة؛ لِأَنَّهُ يَكْثُر فِيهِ المُكَابَرَة وَالصِّرَاع بَيْنَ الخَصْمَيْن؛ فَكُلّ وَاحِدٍ يَقْصِد إِسْقَاط كَلَام الآخَر بِغَلَبَتِهِ وَقُوَّتِهِ، وَقِيَام كُلّ فِرْقَة بِطُرُقٍ شَرعِيَّة وَغير شَرعِيَّة بِبَيَان صِحَّة مَذهَبِهَا وَبُطْلَان المَذَاهِب المُخَالِفَة لَهَا، وَعِلْمُ الجَدَل يَخْتَلِفُ مِنْ مُجْتَمَعٍ إِلَىٰ مُجْتَمَع.

(٢) الأَرْبِطَة: مَبْنَىٰ مُجَهَّز مَوْقُوفٌ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ مِنَ الصُّوفِيَّة وَغَيرِهم، وَتَكْثُرُ الرِّبَاطَات في المَغرِب العَرَبِيّ.

(٣) ترجمة السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ في:[١٢٩-٣٦٢] وَالْجُنَيْدُ النَّهَاوَنْدِيُّ في:[١٧٨-٣٦٤].

مَنْ لا يُعَدُّ[(١)].

بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَكْتُمَ مَا فِي النُّفُوسِ مِنْ ضَغَنٍ عَلَىٰ الأَعْدَاءِ؛ فَإِنْ أَمْكَنَ الانْتِقَامُ مِنْهُمْ؛ كَانَ الْعَفْوُ انْتِقَامًا؛ لِأَنَّهُ يُذِلُّهُمْ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يُحْسِنَ إِلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ، خُصُوصًا مَنْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وِلَايَةٌ، وَأَنْ يُخْدَمَ الْمَعْزُولَ؛ فَرُبَّمَا نَفَعَ فِي وِلَايَتِهِ.

وَقَدْ رُوِّينَا أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَىٰ قَاضِي الْقُضَاةِ ابْنِ أَبِي دُاوُدٍ[(٢)] وَقَالَ: «قُولُوا لَهُ: أَبُو جَعْفَرٍ بِالْبَابِ! فَلَمَّا سَمِعَ؛ دَهِشَ لِذَلِكَ[(٣)]، وَقَالَ: «ائْذَنُوا لَهُ»! فَدَخَلَ، فَقَامَ، وَتَلَقَّاهُ، وَأَكْرَمَهُ، وَأَعْطَاهُ خَمْسَةَ آلَافٍ، وَوَدَّعَهُ، فَقِيلَ لَهُ: «رَجُلٌ مِنَ الْعَوَامِّ فَعَلْتَ بِهِ هَذَا»؟! قَالَ: «إِنِّي كُنْتُ فَقِيرًا، وَكَانَ هَذَا صَدِيقًا، فَجِئْتُهُ يَوْمًا، فَقُلْتُ لَهُ: «أَنَا جَائِعٌ». فَقَالَ: «اجْلِسْ»! وَخَرَجَ، فَجَاءَ بِشِوَاءٍ وَحَلْوَىٰ وَخُبْزٍ؛ فَقَالَ: «كُلْ». فَقُلْتُ: «كُلْ مَعِي». قَالَ: «لَا. قُلْتُ: «وَاللهِ، لَا آكُلُ حَتَّىٰ تَأْكُلَ مَعِي». فَأَكَلَ، فَجَعَلَ الدَّمُ يَجْرِي مِنْ فَمِهِ. فَقُلْتُ: «مَا هَذَا»؟! فَقَالَ: «مَرَضٌ». فَقُلْتُ: «وَاللهِ، لَا بُدَّ أَنْ تُخْبِرَنِي». فَقَالَ: «إِنَّكَ لَمَّا جِئْتَنِي؛ لَمْ أَكُنْ أَمْلِكُ شَيْئًا، وَكَانَتْ أَسْنَانِي مُضَبَّبَةٌ بِشَرِيطٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَنَزَعْتُهُ، وَاشْتَرَيْتُ بِهِ»! فَهَلَّا أُكَافِئُ مِثْلَ هَذَا؟!».

وَعَلَىٰ عَكْسِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ كَانَ ابْنُ الزَّيَّاتِ وَزِيرُ الْوَاثِقِ، وَكَانَ يَضَعُ مِنَ الْمُتَوَكِّلِ؛ فَلَمَّا وَلِيَ؛ عَذَّبَهُ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ[(٤)].

---

(١) يَعْنِي: مَنْ لَا يُحْسَبُ لَهُ حِسَابٌ، وَلَا يُعَدُّ مِنْ أَهْلِ الوِلَايَةِ وَالسُّلْطَةِ وَلَا يُتَوَقَّعُ أَنْ يَنَالَهَا.

(٢) تقدمت ترجمة ابْنِ أَبِي دُؤَادَ في الخاطرة: [٢٥٦-٢٠٧].

(٣) أَيْ: تَحَيَّرَ وَذَهَبَ عَقْلُهُ مِنْ وَلَهٍ أَوْ حَيَاءٍ، فُوجِئَ بِأَمْرٍ غَيْرِ مُتَوَقَّعٍ. وَقَدْ تَكُونُ الكَلِمَةُ: [هَشَّ]؛ أَيْ: تَبَسَّمَ وَارْتَاحَ.

(٤) ابْنُ الزَّيَّاتِ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ، كَانَ مُعَادِيًا لِابْنِ أَبِي دُؤَادَ، فَأَغْرَىٰ ابْنُ أَبِي دُؤَادَ المُتَوَكِّلَ، حَتَّىٰ صَادَرَ ابْنَ الزَّيَّاتِ، وَعَذَّبَهُ. مَاتَ: (٢٣٣هـ). وَالْوَاثِقُ بِاللهِ هَارُونُ ابْنُ المُعْتَصِمِ بِاللهِ أَبِي إِسْحَاقَ ابْنِ الرَّشِيدِ، كَانَ وَافِرَ الأَدَبِ، مَاتَ: (٢٣٢هـ). وَالْمُتَوَكِّلُ عَلَىٰ اللهِ، أَبُو الفَضْلِ جَعْفَرُ ابْنُ المُعْتَصِمِ بِاللهِ أَبِي إِسْحَاقَ مُحَمَّدِ الرَّشِيدِ، أَظْهَرَ السُّنَّةَ، وَكَتَبَ إِلَىٰ الآفَاقِ بِرَفْعِ المِحْنَةِ، وَبَسْطِ السُّنَّةِ، مَاتَ: (٢٤٧هـ).

وَكَذَلِكَ ابْنُ الجَزَرِيِّ[١]، كَانَ لا يُوَقِّرُ الْمُسْتَرْشِدَ قَبْلَ الْوِلايَةِ؛ فَجَرَتْ عَلَيْهِ الآفَاتُ لَمَّا وَلِيَ.

فَالْعَاقِلُ مَنْ تَأَمَّلَ الْعَوَاقِبَ وَرَعَاهَا، وَصَوَّرَ كُلَّ مَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ، فَعَمِلَ بِمُقْتَضَى الْحَزْمِ.

وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا تَصْوِيرُ وُجُودِ الْمَوْتِ عَاجِلًا؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَأْتِيَ بَغْتَةً مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ؛ فَالْحَازِمُ مَنِ اسْتَعَدَّ لَهُ، وَعَمِلَ عَمَلَ مَنْ لَا يَنْدَمُ إِذَا جَاءَهُ، وَحَذِرَ مِنَ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهَا كَعَدُوٍّ مُرَاصِدٍ بِالْجَزَاءِ، وَادَّخَرَ لِنَفْسِهِ صَالِحَ الأَعْمَالِ؛ فَإِنَّهَا كَصَدِيقٍ صِدِّيقٍ، يَنْفَعُ وَقْتَ الشِّدَّةِ.

وَأَبْلَغُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يَعْلَمَ الْمُؤْمِنُ أَنَّهُ كُلَّمَا زَادَ عَمَلُهُ فِي الْفَضَائِلِ؛ عَلَتْ مَرْتَبَتُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ نَقَصَ نَقُصَتْ؛ فَهُوَ، وَإِنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ فِي نَقْصٍ بِالْإِضَافَةِ إِلَى كَمَالِ غَيْرِهِ؛ غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ بِهِ، وَلَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ.

فَرَحِمَ اللهُ مَنْ تَلَمَّحَ الْعَوَاقِبَ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَى التَّلَمُّحِ، وَاللهُ تَعَالَى الْمُوَفِّقُ.

---

(١) فِي ضَبْطِ اِسْمِهِ اِخْتِلاف أَهُوَ الْجَزَرِيُّ أَمْ الْخَرَزِيُّ أَمْ الْخَرَزِيُّ أَمْ الْحُزِّيُّ؟ أَبُو طَاهِرٍ يُوسُفُ بْنُ أَحْمَدَ صَاحِبُ الْمَخْزَنِ فِي أَيَّامِ الْمُسْتَظْهِرِ، مَاتَ سَنَةَ:(٥١٢هـ). وَخَبَرُهُ فِي «المنتظم».(ج١٧/ ص١٦٨) و«البداية والنهاية». (ج١٦/ ص٢٣٩)و«الكامل»(ج٩/ ص١٧٤).وترجمة المُسْترشد في:[٢٠٧-١٨٣].

(٢١)

[عاقِبَةُ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَمُخَالَفَتِهِ، وَالْغَفْلَةِ وَالِاقْتِرَابِ مِنَ الشُّبُهَاتِ]

*[٢٧٢ - ١٢٦][خَاطِرَةٌ]:

[ذَمُّ الْهَوَى[١]]

مَنْ نَازَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَىٰ لَذَّةٍ مُحَرَّمَةٍ، فَشَغَلَهُ نَظَرُهُ إِلَيْهَا عَنْ تَأَمُّلِ عَوَاقِبِهَا وَعِقَابِهَا، وَسَمِعَ هُتَافَ الْعَقْلِ يُنَادِيهِ: وَيْحَكَ! لَا تَفْعَلْ! فَإِنَّكَ تَقِفُ عَنِ الصُّعُودِ، وَتَأْخُذُ فِي الْهُبُوطِ، وَيُقَالُ لَكَ: ابْقَ بِمَا اخْتَرْتَ! فَإِنْ شَغَلَهُ هَوَاهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَىٰ مَا قِيلَ لَهُ؛ لَمْ يَزَلْ فِي نُزُولٍ.

وَكَانَ مَثَلُهُ فِي سُوءِ اخْتِيَارِهِ كَالْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ: أَنَّ الْكَلْبَ قَالَ لِلأَسَدِ: يَا سَيِّدَ السِّبَاعِ! غَيِّرِ اسْمِي؛ فَإِنَّهُ قَبِيحٌ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ خَائِنٌ، لَا يَصْلُحُ لَكَ غَيْرُ هَذَا الِاسْمِ، قَالَ: فَجَرِّبْنِي، فَأَعْطَاهُ شِقَّةَ لَحْمٍ، وَقَالَ: احْفَظْ لِي هَذِهِ إِلَىٰ غَدٍ؛ وَأَنَا أُغَيِّرُ اسْمَكَ. فَجَاعَ، وَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى اللَّحْمِ، وَيَصْبِرُ، فَلَمَّا غَلَبَتْهُ نَفْسُهُ؛ قَالَ: وَأَيُّ شَيْءٍ بِاسْمِي؟! وَمَا كَلْبٌ إِلَّا اسْمٌ حَسَنٌ. فَأَكَلَ!

وَهَكَذَا الْخَسِيسُ الْهِمَّةِ، الْقَنُوعُ بِأَقَلِّ الْمَنَازِلِ، الْمُخْتَارُ عَاجِلَ الْهَوَىٰ عَلَىٰ آجِلِ الْفَضَائِلِ.

فَاللهَ اللهَ فِي حَرِيقِ الْهَوَىٰ إِذَا ثَارَ! وَانْظُرْ كَيْفَ تُطْفِئُهُ؟

---

(١) قَالَ الإِمَامُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «الْهَوَىٰ مَيْلُ الطَّبْعِ إِلَىٰ مَا يُلَائِمُهُ، وَهَذَا الْمَيْلُ قَدْ خُلِقَ فِي الإِنْسَانِ لِضَرُورَةِ بَقَائِهِ؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا مَيْلُهُ إِلَى الْمَطْعَمِ مَا أَكَلَ وَإِلَى الْمَشْرَبِ مَا شَرِبَ وَإِلَى الْمَنْكَحِ مَا نَكَحَ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا يشتهيه فَالْهَوَىٰ مُسْتَجْلِبٌ لَهُ مَا يُفِيدُ؛ كَمَا أَنَّ الْغَضَبَ دَافِعٌ عَنْهُ مَا يُؤْذِي، فَلَا يَصْلُحُ ذَمُّ الْهَوَىٰ عَلَى الإِطْلَاقِ، وَإِنَّمَا يُذَمُّ الْمُفْرِطُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ جَلْبِ الْمَصَالِحِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ. وَلَمَّا كَانَ الْغَالِبُ مِنْ مُوَافِقِ الْهَوَىٰ أَنَّهُ لَا يَقِفُ مِنْهُ عَلَىٰ حَدِّ الْمُنْتَفِعِ أُطْلِقَ ذَمُّ الْهَوَىٰ وَالشَّهَوَاتِ؛ لِعُمُومِ غَلَبَةِ الضَّرَرِ؛ لأَنَّهُ يَبْعُدُ أَنْ يُفْهَمَ الْمَقْصُودُ مِنْ وَضْعِ الْهَوَىٰ فِي النَّفْسِ وَإِذَا فُهِمَ تَعَذَّرَ وُجُودُ الْعَمَلِ بِهِ وَنَدَرَ... فَإِنْ وُجِدَ ذَلِكَ انْغَمَرَ ذِكْرُ الْهَوَىٰ فِي حَقِّ هَذَا الشَّخْصِ وَصَارَ مُسْتَعْمَلًا لِلْمَصَالِحِ. وَأَمَّا الأَغْلَبُ مِنَ النَّاسِ فَإِنَّهُمْ يُوَافِقُونَ الْهَوَىٰ فَإِنْ حَصَلَتْ مَصْلَحَةٌ حَصَلَتْ ضِمْنًا وَتَبَعًا» اهـ. [يُرَاجَع كِتَاب: «ذَمّ الْهَوَىٰ» «الْبَابُ الثَّانِي فِي ذَمِّ الْهَوَىٰ وَالشَّهَوَاتِ»].

فَرُبَّ زَلَّةٍ أَوْقَعَتْ فِي بِئْرِ بَوَارٍ، وَرُبَّ أَثَرٍ لَمْ يَنْقَلِعْ، وَالْفَائِتُ لَا يُسْتَدْرَكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ[١].

فَابْعُدْ عَنْ أَسْبَابِ الْفِتْنَةِ؛ فَإِنَّ الْمُقَارَبَةَ مِحْنَةٌ لَا يَكَادُ صَاحِبُهَا يَسْلَمُ، وَالسَّلَامُ.

*[٢٧٣ - ١٢٧][خَاطِرَةٌ]:

[الشَّيَاطِينُ نَبْلُهُمُ الْهَوَى، وَأَسْيَافُهُمُ اللَّذَّةُ]

رَأَيْتُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ فِي صَفِّ مُحَارِبَةٍ، وَالشَّيَاطِينُ يَرْمُونَهُمْ بِنَبْلِ الْهَوَى، وَيَضْرِبُونَهُمْ بِأَسْيَافِ اللَّذَّةِ.

فَأَمَّا الْمُخَلِّطُونَ؛ فَصَرْعَى مِنْ أَوَّلِ وَقْتِ اللِّقَاءِ.

وَأَمَّا الْمُتَّقُونَ؛ فَفِي جُهْدٍ جَهِيدٍ مِنَ الْمُجَاهَدَةِ!

فَلَابُدَّ مَعَ طُولِ الْوُقُوفِ فِي الْمُحَارَبَةِ مِنْ جِرَاحٍ؛ فَهُمْ يُجْرَحُونَ وَيُدَاوُونَ؛ إِلَّا أَنَّ الْقَتْلَ مَحْفُوظٌ[٢]. بَلَى؛ إِنَّ الْجِرَاحَةَ فِي الْوَجْهِ شَيْنٌ بَاقٍ؛ فَلْيَحْذَرْ ذَلِكَ[٣].

*[٢٧٤ - ١١١][خَاطِرَةٌ]:

[عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَحْذَرَ شَيَاطِينَ الْهَوَى]

رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَتَحَرَّزُونَ مِنْ رَشَاشِ نَجَاسَةٍ، وَلَا يَتَحَاشَوْنَ مِنْ غِيبَةٍ! وَيُكْثِرُونَ

---

(١) رُبَّ زَلَّةٍ أَوْقَعَتْ فِي بِئْرِ بَوَارٍ؛ أَيْ: رُبَّ خَطَإٍ وَانْحِرَافٍ عَنِ الصَّوَابِ أَسْقَطَ فِي الْهَلَاكِ وَالْخُسْرَانِ. وَأَثَرٍ لَمْ يَنْقَلِعْ؛ أَيْ: عَلَامَة لَمْ تُنْتَزَع مِنْ مَكَانِهَا. وَالْفَائِتُ لَا يُسْتَدْرَكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ؛ أَيْ: أَنَّ الزَّمَان لَا يَعُود وَيَسْتَحِيل إِرْجَاعه.

(٢) هَكَذَا فِي الأَصلِ وَالمَخطُوط، وَلَعَلَّ مَعْنَاهَا: إِلَّا أَنَّ صَاحِبَ التَّقْوَىٰ مَحْفُوظٌ مِنَ الْقَتْلِ.

(٣) أَيْ: فَلْيَحْذَرْ ذَلِكَ الْمُجَاهِدُونَ. وَشَيْنٌ بَاقٍ؛ أَيْ: عَيْبٌ بَاقٍ فِي الوَجْهِ، وَهُوَ كِنَايَة عَنِ الذُّنُوب الَّتِي يَقَع فِيهَا الْعَبْد؛ فَإِنَّ أَثَرهَا بَاقٍ وَإِنْ تَابَ مِنْهَا.

مِنَ الصَّدَقَةِ، وَلا يُبَالُونَ بِمُعَامَلاتِ الرِّبَا! وَيَتَهَجَّدُونَ بِاللَّيْلِ، وَيُؤَخِّرُونَ الْفَرِيضَةَ عَنِ الْوَقْتِ. . . فِي أَشْيَاءَ يَطُولُ عَدَدُهَا؛ مِنْ حِفْظِ فُرُوعٍ، وَتَضْيِيعِ أُصُولٍ.

فَبَحَثْتُ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ؟ فَوَجَدْتُهُ مِنْ شَيْئَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الْعَادَةُ. وَالثَّانِي: غَلَبَةُ الْهَوَىٰ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَغْلِبُ؛ فَلَا يَتْرُكُ سَمْعًا وَلا بَصَرًا.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ: أَنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ قَالُوا - حِينَ سَمِعُوا صَوْتَ الْمُنَادِي: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾ -: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣﴾ [يُوسُفُ: ٧٠ و ٧٣].

فَجَاءَ فِي التَّفْسِيرِ: أَنَّهُمْ لَمَّا دَخَلُوا مِصْرَ؛ كَمُّوا أَفْوَاهَ إِبِلِهِمْ[١]؛ لِئَلَّا تَتَنَاوَلَ مَا لَيْسَ لَهُمْ، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: قَدْ رَأَيْتُمْ مَا صَنَعْنَا بِإِبِلِنَا؛ فَكَيْفَ نَسْرِقُ؟!

وَنَسُوا هُمْ تَفَاوُتَ مَا بَيْنَ الْوَرَعِ وَاخْتِطَافِ أَكْلَةٍ لَا يَمْلِكُونَهَا، وَبَيْنَ إِلْقَاءِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجُبِّ وَبَيْعِهِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ!![٢].

وَفِي النَّاسِ مَنْ يُطِيعُ فِي صِغَارِ الْأُمُورِ، دُونَ كِبَارِهَا، وَفِيمَا كُلْفَتُهُ عَلَيْهِ خَفِيفَةٌ أَوْ مُعْتَادَةٌ، وَفِيمَا لَا يُنْقِصُ شَيْئًا مِنْ عَادَتِهِ فِي مَطْعَمٍ وَمَلْبَسٍ.

نَرَىٰ أَقْوَامًا يَأْخُذُونَ الرِّبَا، وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: كَيْفَ يَرَانِي عَدُوِّي بَعْدَ أَنْ بِعْتُ دَارِي، أَوْ تَغَيَّرَ مَلْبُوسِي وَمَرْكُوبِي؟!

وَنَرَىٰ أَقْوَامًا يُوَسْوِسُونَ فِي الطَّهَارَةِ، وَيَسْتَعْمِلُونَ الْكَثِيرَ[٣]، وَلا يَتَحَاشَوْنَ مِنْ غِيبَةٍ!

وَأَقْوَامًا يَسْتَعْمِلُونَ التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةَ فِي تَحْصِيلِ أَغْرَاضِهِمْ؛ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهَا لَا تَجُوزُ!

---

(١) كَمُّوا أَفْوَاهَ إِبِلِهِمْ: الكَمُّ: قَمْعُ الشَّيْءِ وَسَتْرُهُ، وَكَأَنَّهُم سَتَرُوا وَشَدُّوا أَفْوَاهَ إِبِلِهِمْ بالكِمَامَةِ، وَهِيَ مَا يُشَدُّ بِهِ فَمُ الحَيَوَانِ؛ لِئَلَّا يَعَض أَوْ يَأْكُل.

(٢) الْجُبُّ: بِئْر أَوْ حُفْرَة وَاسِعَة عَمِيقَة، كَثِيرَة المَاء. وَبِثَمَنٍ بَخْسٍ؛ أَيْ: زَهِيد، نَاقِص القِيمَة.

(٣) يَعْنِي: الْكَثِيرَ مِنَ الْمَاءِ.

حَتَّىٰ إِنِّي رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالتَّعَبُّدِ، أَعْطَاهُ رَجُلٌ مَالًا لِيَبْنِيَ بِهِ مَسْجِدًا، فَأَخَذَهُ لِنَفْسِهِ، وَأَنْفَقَ عِوَضَ الصَّحِيحِ قُرَاضَةً(١)، فَلَمَّا احْتُضِرَ؛ قَالَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ: اجْعَلْنِي فِي حِلٍّ؛ فَإِنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا!!

وَنَرَىٰ أَقْوَامًا يَتْرُكُونَ الذُّنُوبَ لِبُعْدِهِمْ عَنْهَا؛ فَقَدْ أَلِفُوا التَّرْكَ، وَإِذَا قَرُبُوا مِنْهَا؛ لَمْ يَتَمَالَكُوا.

وَفِي النَّاسِ مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ عَجَائِبُ يَطُولُ ذِكْرُهَا.

وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ خَلْقًا مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ كَانُوا يَحْمِلُونَ ثِقَلَ التَّعَبُّدِ فِي دِينِهِمْ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، وَعَرَفُوا صِحَّتَهُ؛ لَمْ يُطِيقُوا مُقَاوَمَةَ أَهْوَائِهِمْ فِي مَحْوِ رِئَاسَتِهِمْ(٢).

وَكَذَلِكَ قَيْصَرُ؛ فَإِنَّهُ عَرَفَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالدَّلِيلِ، ثُمَّ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ مُقَاوَمَةِ هَوَاهُ وَتَرْكِ مُلْكِهِ(٣).

فَاللهَ اللهَ فِي تَضْيِيعِ الْأُصُولِ، وَمِنْ إِهْمَالِ سَرْحِ الْهَوَىٰ؛ فَإِنَّهُ إِنْ أُهْمِلَتْ مَاشِيَتُهُ نَفَشَتْ فِي زُرُوعِ التُّقَىٰ(٤).

---

(١) الْقُرَاضَة: مَا سَقَطَ بِالْقَطْعِ، وَمِنْهُ قُرَاضَة الذَّهَب وَالفِضَّة؛ أَيْ: مَا قُطِعَ مِنْهُمَا. وَتُطلَقُ هَذِهِ الْكَلِمَة فِي العِرَاقِ عَلَىٰ القَطْع الصَّغِيرَة مِنَ الدِّينَارِ أَوْ مِنَ الدِّرهَم الَّتِي تُقْطَع بِالمَقَارِيض وَالَّتِي يُتَعَامَلُ بِهَا فِي التِّجَارَة.

(٢) كَأَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ يُشِيرُ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩]؛ أَيْ: لَمَّا جَاءَ الْكِتَابُ الَّذِي عَرَفُوهُ كَفَرُوا بِهِ، وَقَدْ عُدِلَ عَنْ أَنْ يُقَالَ: فَلَمَّا جَاءَهُمُ الكِتَابُ لِيَكُونَ اللَّفْظُ أَشْمَلَ فَيَشْمَلَ الْكِتَابَ وَالرَّسُولَ الَّذِي جَاءَ بِهِ فَإِنَّهُ لَا يَجِيءُ كِتَابٌ إِلَّا مَعَ رَسُولٍ. وَالْمُرَادُ بِمَا عَرَفُوا الْقُرْآنَ؛ أَيْ: أَنَّهُمْ عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ الْمُتَحَقِّقَةِ فِي الْخَارِجِ وَإِنْ جَهِلُوا انْطِبَاقَهَا عَلَىٰ الْقُرْآنِ لِضَلَالِهِمْ؛ لِأَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرُهُمْ يَعْتَقِدُ صِدْقَ الْقُرْآنِ وَصِدْقَ الرَّسُولِ وَبَعْضُهُمْ كَانَ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ وَلَكِنَّهُ يَتَنَاسَىٰ وَيَتَغَافَلُ حَسَدًا.[«التحرير والتنوير» لابن عاشور].

(٣) كَأَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ يُشِيرُ إِلَىٰ كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ هِرَقْلَ يَدْعُوهُ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وقد رواه البخاري، كِتَابُ «بَدْءِ الوَحْيِ» بَابُ «كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟»(٧). ومسلم، كِتَابُ «الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ» بَابُ «كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ هِرَقْلَ يَدْعُوهُ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ»(١٧٧٣) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

(٤) جاء في الأصل:[مَاشِيَة] والصواب ما أثبتناه من مخطوط:(ي)؛ لتمام المعنىٰ به. وَإِهْمَالِ سَرْحِ الْهَوَىٰ؛ أَيْ: يَفْعَل مَا يَشَاء دُونَ أَنْ يَتَعَرَّض لَهُ. وَنَفَشَتْ؛ أَيْ: انْتَشَرَتْ وَرَعَت لَيْلًا بِلَا رَاعٍ. فَالْهَوَىٰ كَالْمَاشِيَةِ إِنْ أُهْمِلَتْ فِي الزُّرُوعِ أَفْسَدَتْهُ، وَكَذَلِكَ الْهَوَىٰ إِنْ تُرِكَ لَهُ اللِّجَام يَفْعَل مَا يَشَاء أَفْسَدَ التَّقْوَىٰ عِنْدَ الْمُتَّقِي.

وَمَا مَثَلُ الْهَوَىٰ إِلَّا كَسَبُعٍ فِي عُنُقِهِ سِلْسِلَةٌ؛ فَإِنِ اسْتَوْثَقَ مِنْهُ ضَابِطُهُ؛ كَفَّهُ، وَرُبَّمَا لَاحَتْ لَهُ شَهَوَاتُهُ الْغَالِبَةُ عَلَيْهِ، فَلَمْ تُقَاوِمْهَا السِّلْسِلَةُ، فَأَفْلَتَ.

عَلَىٰ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُفُّ هَوَاهُ بِسِلْسِلَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُفُّهُ بِخَيْطٍ!

فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَحْذَرَ شَيَاطِينَ الْهَوَىٰ، وَأَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِمَا يَقْوَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَبِمَنْ يَقْوَىٰ عَلَيْهِ.

*[٢٧٥ - ١٤٤][خَاطِرَةٌ]:

[دَوْرُ الْهَوَىٰ فِي قَضَاءِ الشَّهْوَةِ]

لَوْلا غَيْبَةُ الْعَاصِي فِي وَقْتِ الْمَعَاصِي؛ كَانَ كَالْمُعَانِدِ؛ غَيْرَ أَنَّ الْهَوَىٰ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَهْمِ لِلْحَالِ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا قَضَاءَ شَهْوَتِهِ، وَإِلَّا؛ فَلَوْ لَاحَتْ لَهُ الْمُخَالَفَةُ؛ خَرَجَ مِنَ الدِّينِ بِالْخِلَافِ[1]؛ فَإِنَّمَا يَقْصِدُ هَوَاهُ، فَيَقَعُ الْخِلَافُ ضِمْنًا وَتَبَعًا.

وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ هَذَا فِي مُقَارَبَةِ الْفِتْنَةِ، وَقَلَّ مَنْ يَسْلَمُ عِنْدَ الْمُقَارَبَةِ؛ لِأَنَّهُ كَتَقْدِيمِ نَارٍ إِلَىٰ حَلْفَاءٍ[2].

ثُمَّ لَوْ مَيَّزَ الْعَاقِلُ بَيْنَ قَضَاءِ وَطَرِهِ لَحْظَةً، وَانْقِضَاءِ بَاقِي الْعُمُرِ بِالْحَسْرَةِ عَلَىٰ قَضَاءِ ذَلِكَ الْوَطَرِ؛ لَمَا قَرُبَ مِنْهُ، وَلَوْ أُعْطِيَ الدُّنْيَا؛ غَيْرَ أَنَّ سَكْرَةَ الْهَوَىٰ تَحُولُ بَيْنَ الْفِكْرِ وَذَلِكَ.

آهٍ؛ كَمْ مَعْصِيَةٍ مَضَتْ فِي سَاعَتِهَا كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ، ثُمَّ بَقِيَتْ آثَارُهَا، وَأَقَلُّهَا مَا لَا يَبْرَحُ مِنَ الْمَرَارَةِ فِي النَّدَمِ!

(١) يَعْنِي: لَوْ أَنَّ العَاصِي يَعْمَلُ المَعصِيَةَ عَلَىٰ سَبِيلِ المُعَانَدةِ مَعَ اللهِ، وَاسْتِحْلَالِهَا؛ فَلَا شَكَّ أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الدِّينِ بِذَلِكَ.

(٢) حَلْفَاءٍ أَوْ حَلْفَةٍ أَوْ حَلِفَاءَةٍ؛ نَبَات عُشْبِي، مُعَمَّر مِنَ الفَصِيلَةِ النَّجِيلِيَّة، أَوْرَاقُهُ مُسْتَطِيلَة خَيْطِيَّة أَوْ أَسَلِيَّةُ النَّصل، يَلْتَفُّ بَعضُهَا عَلَىٰ بَعضٍ وَتُصنَع مِنْهَا أَنْوَاع مِنَ الحُصُرُ وَالقُفَفُ وَالحِبَالُ.

وَالطَّرِيقُ الأَعْظَمُ فِي الْحَذَرِ أَنْ لا يَتَعَرَّضَ لِسَبَبِ فِتْنَةٍ، وَلا يُقَارِبَهُ.

فَمَنْ فَهِمَ هَذَا وَبَالَغَ فِي الِاحْتِرَازِ؛ كَانَ إِلَى السَّلَامَةِ أَقْرَبَ.

*[٢٧٦ - ١٢٥][خَاطِرَةٌ]:

[مُخالفةُ الهوى والشيطانِ]

تَرَاعَنَتْ عَلَيَّ نَفْسِي(١) فِي طَلَبِهَا شَيْئًا مِنْ أَغْرَاضِهَا بِتَأْوِيلٍ فَاسِدٍ. فَقُلْتُ لَهَا: بِاللهِ عَلَيْكِ تَصَبَّرِي؛ فَإِنَّ فِي الْمَعْبَرِ شُغُلًا بِحَذَرِ الْغَرَقِ مِنْ كَثْرَةِ الْمَوْجِ عَنِ التَّنَزُّهِ فِي عَجَائِبِ الْبَحْرِ!

إِذَا هَمَمْتِ بِفِعْلٍ؛ فَقَدِّرِي حُصُولَهُ، ثُمَّ تَلَمَّحِي عَوَاقِبَهُ، وَمَا تَجْتَنِينَ مِنْ ثَمَرَاتِهِ؛ فَأَقَلُّ ذَلِكَ النَّدَمُ عَلَى مَا فَعَلْتِ، وَلا يُؤْمِنُ أَنْ يُثْمِرَ غَضَبَ الْحَقِّ ﷻ، وَإِعْرَاضَهُ عَنْكِ؛ فَأُفٍّ لِلْقَاطِعِ عَنْهُ وَلَوْ كَانَ الْجَنَّةَ!(٢).

ثُمَّ اعْلَمِي - أَيَّتُهَا النَّفْسُ - أَنَّهُ مَا يَمْضِي شَيْءٌ جُزَافًا، وَأَنَّ مِيزَانَ الْعَدْلِ تَبِينُ فِيهِ الذَّرَّةُ.

فَتَلَمَّحِي الأَمْوَاتَ وَالأَحْيَاءَ، وَانْظُرِي إِلَى مَنْ نُشِرَ ذِكْرُهُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَزِيَادَةِ ذَلِكَ وَنُقْصَانِهِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ دَلِيلَ الْخَلَوَاتِ عَلَى أَرْبَابِهَا، حَتَّى إِنَّ حَبَّاتِ الْقُلُوبِ تَتَعَلَّقُ بِأَهْلِ الْخَيْرِ، وَتَنْفُرُ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ؛ مِنْ غَيْرِ مُطَالَعَةٍ لِشَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِ الْكُلِّ.

قَالَ إِبْلِيسُ: أَوَتَتْرُكُ مُرَادَكَ لِأَجْلِ الْخَلْقِ؟! قُلْتُ: لا؛ إِنَّمَا هَذَا بَعْضُ الثَّمَرَاتِ الْحَاصِلَةِ مِنْ طَرِيقِ الْغَرَضِ(٣).

---

(١) تَرَاعَنَتْ: تَحَامَقَتْ. الرُّعُونة: الحُمْقُ والاسْتِرخاء. وَعِنْدَ الصُّوفِيَّةِ: الْوُقُوف مَعَ حُظُوظ النَّفْس وَمُقْتَضَى طِبَاعِهَا.

(٢) أُفٌّ: لَفظَة تُقَالُ عِنْدَ اسْتِقْذَار شَيءٍ وَالتَّضَجُّر وَالتَّقَزُّز مِنْهُ. لِلْقَاطِعِ: لِأَي مَانِع عَنِ اللهِ تَعَالَى. وَلَوْ كَانَ الْجَنَّةَ!: «لَوْ» حَرف شَرط غَير جَازِم يُفِيد التَّعلِيق فِي المَاضِي أَوْ المُسْتَقبَل، يُسْتَعْمَل فِي الامتِنَاع أَوْ فِي غَيْر الإِمْكَان، أَيْ: امْتِنَاع الجَوَاب لِامتِنَاع الشَّرط. فَلَا يُمْكِنُ لِلْجَنَّةِ أَنْ تَقْطَعَ عَنِ اللهِ تَعَالَى!

(٣) إِنَّمَا هَذَا..؛ أَيْ: هَذَا الَّذِي نُشِرَ ذِكْرُهُ بِالْخَيْرِ، وَحَبَّاتِ الْقُلُوبِ تَتَعَلَّقُ بِهِ؛ فَهَذِه بَعْضُ الثَّمَرَاتِ الْحَاصِلَةَ لَهُ عَنْ طَرِيقِ قَصْدِهِ =

وَنَحْنُ نَرَىٰ مَنْ يَمْشِي ثَلَاثِينَ فَرْسَخًا لِيُقَالَ: سَاعٍ؛ فَالْمُتَّقِي قَدْ نَالَ شَرَفَ الذِّكْرِ - وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ نَيْلَ ذَلِكَ - مُتَرَجِّحًا لَهُ فِي وَزْنِ الْجَزَاءِ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾[مَرْيَمَ: ٩٦][(١)].

قَالَتِ النَّفْسُ: لَقَدْ أَمَرْتَنِي بِالصَّبْرِ عَلَىٰ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّ تَرْكَ الْأَغْرَاضِ عَذَابٌ.

قُلْتُ: لَكِ عَنِ الْغَرَضِ عِوَضٌ، وَمِنْ كُلِّ مَتْرُوكٍ بَدَلٌ، وَأَنْتِ فِي مَقَامِ مُسْتَعْبَدٍ، وَلَا يَصِحُّ لِلْأَجِيرِ أَنْ يَلْبَسَ ثِيَابَ الرَّاحَةِ فِي زَمَانِ الِاسْتِئْجَارِ، وَكُلُّ زَمَانِ الْمُتَّقِي نَهَارُ صَوْمٍ[(٢)].

وَمَنْ خَافَ الْعِقَابَ؛ تَرَكَ الْمُشْتَهَىٰ، وَمَنْ رَامَ الْقُرْبَ؛ اسْتَعْمَلَ الْوَرَعَ، وَلِلصَّبْرِ حَلَاوَةٌ تَبِينُ فِي الْعَوَاقِبِ.

* [٢٧٧ - ١٦٦][خَاطِرَةٌ]:

[مُصِيبَةُ الْهَوَىٰ تَغْلِيبُ الْعَادَاتِ عَلَىٰ الْآيَاتِ]

رَأَيْتُ عَادَاتِ النَّاسِ قَدْ غَلَبَتْ عَلَىٰ عَمَلِهِمْ بِالشَّرْعِ؛ فَهُمْ يَسْتَوْحِشُونَ مِنْ فِعْلِ الشَّيْءِ؛ لِعَدَمِ جَرَيَانِ الْعَادَةِ لَا لِنَهْيِ الشَّرْعِ!

= وَبَيْتِهِ؛ لِأَنَّهُ رَاقَبَ اللهَ فِي حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، وَبَيْنَ النَّاسِ وَفِي خَلَوَاتِهِ. [«مِنْ» حرف جرٍ بمعنىٰ «عَنْ»].

(١) قَالَ ابْنُ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيِّ ﵀ مُعَلِّقًا عَلَىٰ هَذِهِ الْآيَةِ: «وَمَنِ اشْتَغَلَ بِتَرْبِيَةِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللهِ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْعِلْمِ الْبَاطِنِ وَصَلَ إِلَىٰ اللهِ، فَاشْتَغَلَ بِهِ عَمَّا سِوَاهُ، وَكَانَ لَهُ فِي ذَلِكَ شُغُلٌ عَنْ طَلَبِ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ الْخَلْقِ، وَمَعَ هَذَا، فَإِنَّ اللهَ يُعطِيهِ الْمَنْزِلَةَ فِي قُلُوبِ الخَلْقِ وَالشَّرَفَ عِنْدَهُم، وَإِنْ كَانَ لَا يُرِيدُ ذَلِكَ وَلَا يَقِفُ مَعَهُ؛ بَل يَهْرَبُ مِنْهُ أَشَدَّ الْهَرَبِ وَيَفِرُّ أَشَدَّ الفِرَارِ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَقطَعَهُ الخَلْقُ عَنِ الْحَقِّ ﷻ... وَبِكُلِّ حَالٍ؛ فَطَلَبُ شَرَفِ الآخِرَةِ يَحصُلُ مَعَهُ شَرَفُ الدُّنْيَا، وَإِنْ لَم يُرِدْهُ صَاحِبُهُ وَلَم يَطْلُبْهُ، وَطَلَبُ شَرَفِ الدُّنْيَا يَمْنَعُ شَرَفَ الآخِرَةِ وَلَا يَجْتَمِعُ مَعَهُ، وَالسَّعِيدُ مَنْ آثَرَ البَاقِيَ عَلَىٰ الفَانِي» اهـ («شرح حَدِيث: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ»» = «مجموع رسائل ابن رجب» ج١/ ص٩٥).

(٢) يَعْنِي: كُلُّ زَمَانِ الْمُتَّقِي كَصَوْمِ نَهَارِ يَوْمٍ سُرعَانَ مَا يَنْقَضِي الْيَوْمُ وَيَبْقَىٰ الأَجْرُ وَتَبْقَىٰ فَرحَةُ الصَّائِمِ؛ فَكَمَا أَنَّ نَهَارَ الصَّوْمِ قَصِيرٌ جِدًّا؛ فَهَكَذَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا سُرعَانَ مَا تَنْقَضِي بِمَا فِيهَا مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْآلَامِ، وَيَبْقَىٰ الجَزَاءُ.

فَكَمْ مِنْ رَجُلٍ يُوصَفُ بِالْخَيْرِ، يَبِيعُ وَيَشْتَرِي، فَإِذَا حَصَلَتْ لَهُ الْقُرَاضَةُ[1]، بَاعَهَا بِالصَّحِيحِ مِنْ غَيْرِ تَقْلِيدٍ لِإِمَامٍ، أَوْ عَمَلٍ بِرُخْصَةٍ، عَادَةً مِنَ الْقَوْمِ، وَاسْتِثْقَالًا لِلِاسْتِفْتَاءِ!

وَنَرَىٰ خَلْقًا يُحَافِظُونَ عَلَىٰ صَلَاةِ الرَّغَائِبِ، وَيَتَوَانَوْنَ عَنِ الْفَرَائِضِ[2].

وَكَثِيرًا مِنَ الْمُتَصَوِّفِينَ لَا يَسْتَوْحِشُونَ مِنْ ظُلْمِ النَّاسِ، ثُمَّ يَتَصَدَّقُونَ عَلَىٰ الْفُقَرَاءِ، وَرُبَّمَا تَوَانَوْا عَنْ إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ، وَتَكَاسَلُوا بِاسْتِعْمَالِ التَّأْوِيلَاتِ فِيهَا، ثُمَّ إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمْ مَجْلِسَ وَعْظٍ، بَكَىٰ، كَأَنَّهُ يُصَانِعُ بِتِلْكَ الْحَالِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرِجُ بَعْضَ الزَّكَاةِ مُصَانَعَةً عَمَّا لَمْ يُخْرِجْهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أَصْلَ مَالِهِ حَرَامٌ، وَيَصْعُبُ عَلَيْهِ فِرَاقُهُ لِلْعَادَةِ.

وَفِيهِمْ مَنْ يَحْلِفُ بِالطَّلَاقِ، وَيَحْنَثُ، وَيَرَىٰ الْفِرَاقَ صَعْبًا، فَرُبَّمَا تَأَوَّلَ، وَرُبَّمَا تَكَاسَلَ عَنِ التَّأْوِيلِ، اتِّكَالًا عَلَىٰ عَفْوِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَوَعْدًا مِنَ النَّفْسِ بِالتَّوْبَةِ!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَىٰ أَنَّ اسْتِعْمَالَ الشَّرْعِ رُبَّمَا كَانَ سَبَبًا فِي تَضْيِيقِ مَعَاشِهِ، وَقَدْ أَلِفَ التَّفَسُّحَ[3]، فَلَا يَسْهُلُ عَلَيْهِ فِرَاقُ مَا قَدْ أَلِفَ!

وَالْعَادَاتُ فِي الْجُمْلَةِ هِيَ الْمُهْلِكَةُ.

---

(١) الْقُرَاضَةُ: مَا سَقَطَ بِالْقَطْعِ، وَمِنْهُ قُرَاضَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ؛ أَيْ: مَا قُطِعَ مِنْهُمَا. وَتُطْلَقُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي الْعِرَاقِ عَلَىٰ الْقِطَعِ الصَّغِيرَةِ مِنَ الدِّينَارِ أَوْ مِنَ الدِّرْهَمِ الَّتِي تُقْطَعُ بِالْمَقَارِيضِ وَالَّتِي يُتَعَامَلُ بِهَا فِي التِّجَارَةِ.

(٢) قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَىٰ»(ج٢٣/ ص١٣٢-١٣٤): «صَلَاةُ الرَّغَائِبِ بِدْعَةٌ بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الدِّينِ لَمْ يَسُنَّهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَا أَحَدٌ مِنْ خُلَفَائِهِ وَلَا اسْتَحَبَّهَا أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ: كَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَأَبِي حَنِيفَةَ وَاللَّيْثِ وَغَيْرِهِمْ. وَالْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ فِيهَا كَذِبٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِالْحَدِيثِ وَكَذَلِكَ الصَّلَاةُ الَّتِي تُذْكَرُ أَوَّلَ لَيْلَةِ جُمُعَةٍ مِنْ رَجَبٍ وَفِي لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ وَأَلْفِيَّةِ نِصْفِ شَعْبَانَ وَالصَّلَاةِ يَوْمَ الْأَحَدِ وَالِاثْنَيْنِ وَغَيْرِ هَذَا مِنْ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ وَإِنْ كَانَ قَدْ ذَكَرَهَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُصَنِّفِينَ فِي الرَّقَائِقِ فَلَا نِزَاعَ بَيْنَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِالْحَدِيثِ أَنَّ أَحَادِيثَهُ كُلَّهَا مَوْضُوعَةٌ وَلَمْ يَسْتَحِبَّهَا أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ. وَلِهَذَا قَالَ الْمُحَقِّقُونَ: أَنَّهَا مَكْرُوهَةٌ غَيْرُ مُسْتَحَبَّةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ» اهـ.

(٣) التَّفَسُّحُ: طَلَبُ الْفُسْحَةِ وَالرَّفَاهِيَةِ وَالدَّعَةِ.

وَلَقَدْ حَضَرَ عِنْدِي رَجُلٌ شَيْخٌ ابْنُ ثَمَانِينَ سَنَةً، فَاشْتَرَيْتُ مِنْهُ دُكَّانًا، وَعَقَدْتُ مَعَهُ الْعَقْدَ، فَلَمَّا افْتَرَقْنَا؛ غَدَرَ بَعْدَ أَيَّامٍ، فَطَلَبْتُ مِنْهُ الْحُضُورَ عِنْدَ الْحَاكِمِ، فَأَبَىٰ، فَأَحْضَرْتُهُ، فَحَلَفَ الْيَمِينَ الْغَمُوسَ(١): أَنْ مَا بِعْتُهُ! فَقُلْتُ: مَا تَدُورُ عَلَيْهِ السَّنَةُ! وَأَخَذَ يُبَرْطِلُ لِمَنْ يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ الظَّلَمَةِ(٢).

فَرَأَيْتُ مِنَ الْعَوَامِّ مَنْ قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْعَادَاتُ؛ فَلَا يَلْتَفِتُ مَعَهَا إِلَىٰ قَوْلِ فَقِيهٍ.

يَقُولُ: هَذَا مَا قَبَضَ الثَّمَنَ؛ فَكَيْفَ يَصِحُّ الْبَيْعُ؟!

وَآخَرُ يَقُولُ: كَيْفَ يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ دُكَّانًا بِغَيْرِ رِضَاهُ؟!

وَآخَرُ يَقُولُ: يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُقِيلَهُ الْبَيْعَ(٣)!

فَلَمَّا لَمْ أُقِلْهُ؛ أَخَذَ هُوَ وَأَقَارِبُهُ يَأْخُذُونَ عِرْضِي، وَرَأَىٰ أَنَّهُ يُحَامِي عَنْ مِلْكِهِ.

ثُمَّ سَعَىٰ بِي إِلَىٰ السُّلْطَانِ سِعَايَةً يُحَرِّضُ فِيهَا مِنَ الْكَذِبِ مَا أَدْهَشَنِي، وَيُبَرْطِلُ مَالًا لِخَلْقٍ مِنَ الظَّلَمَةِ، فَبَالَغُوا، وَسَعَوْا؛ إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَجَّانِي مِنْ شَرِّهِمْ.

ثُمَّ إِنِّي أَقَمْتُ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةَ عِنْدَ الْحَاكِمِ، فَقَالَ بَعْضُ أَرْبَابِ الدُّنْيَا لِلْحَاكِمِ: لَا تَحْكُمْ لَهُ! فَوَقَفَ عَنِ الْحُكْمِ بَعْدَ ثُبُوتِ الْبَيِّنَةِ عِنْدَهُ!!

فَرَأَيْتُ مِنْ هَذَا الْحَاكِمِ وَمِنْ حَاكِمٍ آخَرَ أَعْلَىٰ مِنْهُ مِنْ تَرْكِ إِنْفَاذِ الْحَقِّ حِفْظًا لِرِئَاسَتِهِمْ مَا هَوَّنَ عِنْدِي مَا فَعَلَهُ ذَلِكَ الشَّيْخُ حِفْظًا لِمَالِهِ؛ لِجَهْلِهِ وَعِلْمِ هَؤُلَاءِ.

فَتَجَلَّىٰ لِي مِنَ الْأَمْرِ أَنَّ الْعَادَاتِ غَلَبَتْ عَلَىٰ النَّاسِ، وَأَنَّ الشَّرْعَ أُعْرِضَ عَنْهُ، وَإِنْ وَقَعَتْ

---

(١) الْيَمِينُ الْغَمُوسُ: هِيَ الْكَاذِبَةُ عَمْدًا فِي الْمَاضِي أَوِ الْحَالِ أَوِ الِاسْتِقْبَالِ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ عَلَىٰ النَّفْيِ أَمْ عَلَىٰ الْإِثْبَاتِ كَأَنْ يَقُولَ: وَاللهِ مَا فَعَلْتُ كَذَا، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ فَعَلَهُ، أَوْ وَاللهِ لَقَدْ فَعَلْتُ كَذَا، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْهُ.

(٢) يَعْنِي: لَنْ تَمُرَّ السَّنَةُ إِلَّا وَسَيَرَىٰ الْعُقُوبَةَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، بِالْجَدْبِ وَالْقَحْطِ وَالْمَوْتِ؛ وَذَلِكَ بِسَبَبِ الْيَمِينِ الْغَمُوسِ. وَهَذَا الْمَعْنَىٰ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ فِي آخِرِ الْقِصَّةِ: وَدَارَتِ السَّنَةُ؛ فَمَاتَ الشَّيْخُ عَلِي قُلْ. وَيُبَرْطِلُ: الْبَرَاطِيلُ: الرِّشْوَةُ.

(٣) أَقَالَ يُقِيلُ: فَسَخَهُ.

مُوَافَقَةٌ لِلشَّرْعِ؛ فَكَمَا اتَّفَقَ، أَوْ لِأَجْلِ الْعَادَةِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ ضُرِبَ بِالسِّيَاطِ مَا أَفْطَرَ فِي رَمَضَانَ؛ عَادَةٌ قَدِ اسْتَمَرَّتْ، وَيَأْخُذُ أَعْرَاضَ النَّاسِ وَأَمْوَالَهُمْ؛ عَادَةٌ غَالِبَةٌ!

فَكَمْ قَدْ رَأَيْتُ هَذَا الشَّيْخَ يُصَلِّي، وَيُحَافِظُ عَلَىٰ الصَّلَاةِ، ثُمَّ لَمَّا خَافَ فَوْتَ غَرَضِهِ؛ تَرَكَ الشَّرْعَ جَانِبًا!

وَكَمْ قَدْ رَأَيْتُ أُولَئِكَ الْحُكَّامَ يَتَعَبَّدُوْنَ، وَيَطْلُبُوْنَ الْعِلْمَ؛ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمَّا خَافُوْا عَلَىٰ رِئَاسَتِهِمْ أَنْ تَزُوْلَ؛ تَرَكُوْا جَانِبَ الدِّينِ!

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَصَرَنِي عَلَيْهِ، وَتَقَدَّمَ إِلَىٰ الْحَاكِمِ بِإِنْفَاذِ مَا ثَبَتَ عِنْدَهُ، وَدَارَتِ السَّنَةُ، فَمَاتَ الشَّيْخُ عَلَىٰ قُلٍّ(١).

فَنَسْأَلُهُ ﷻ التَّوْفِيْقَ لِلانْقِيَادِ لِشَرْعِهِ وَمُخَالَفَةِ أَهْوَائِنَا.

*[٢٧٨ – ٩٩][خَاطِرَةٌ]:

[الْهَوَىٰ يُوجِبُ ظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ]

أَمْكَنَنِي تَحْصِيلُ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الرُّخَصِ، فَكُنْتُ كُلَّمَا حَصَلَ شَيْءٌ مِنْهُ؛ فَاتَنِي مِنْ قَلْبِي شَيْءٌ، وَكُلَّمَا اسْتَنَارَتْ لِي طَرِيْقُ التَّحْصِيلِ؛ تَجَدَّدَ فِي قَلْبِي ظُلْمَةٌ.

فَقُلْتُ: يَا نَفْسَ السَّوْءِ! «الْإِثْمُ حَوَازُّ الْقُلُوْبِ»(٢)، وَقَدْ قَالَ: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ»(٣).

---

(١) قَلَّ يَقِلُّ قِلَّةً فَهُوَ قَلِيلٌ. يَعْنِي: مَاتَ عَلَىٰ قِلَّةٍ وَفَقْرٍ وَحَاجَةٍ.

(٢) جاء في الأصل:[حَزَّاز]، وما أثبتناه من مخطوط:(ي) وَكِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ عَنْ اِبْنِ مَسْعُوْدٍ ﵁ قَالَ: «إِنَّ الْإِثْمَ حَوَازُّ الْقُلُوبِ، فَمَا حَزَّ فِي قَلْبِ أَحَدِكُمْ شَيْءٌ فَلْيَدَعْهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَا كَانَ مِنْ نَظْرَةٍ فَلِلشَّيْطَانِ فِيهَا مَطْمَعٌ، وَالْإِثْمُ حَوَازُّ الْقُلُوبِ».[رواه الطبراني في «المعجم الكبير»(٨٧٤٨،٨٧٤٩) وأبو داود في «الزهد»(١٢٥)]. وَحَوَّازُ الْقُلُوبِ؛ أَي: يَحُوز القلبَ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَرْكَبَ مَا لَا يُحب. وَقَال اِبْنُ الأَثِيْر في «النِّهَايَة» وَيُرْوَىٰ: «الْإِثْمُ حَزَّازُ الْقُلُوبِ» بِزَايَيْنِ الأُولَىٰ مُشَدَّدَةٌ، وَهِيَ فَعَّال مِنَ الحَزِّ؛ أي مَا حَزَّ فِي الْقَلْبِ وحَكَّ فِيهِ.

(٣) رواه أحمد في «المسند»(١٨٠٠٦). عَنْ وَابِصَةَ الأَسَدِيِّ قَالَ ﷺ: «يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ» ثَلَاثَ =

فَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا كُلِّهَا إِذَا كَانَ فِي الْقَلْبِ مِنْ تَحْصِيْلِهَا شَيْءٌ أَوْجَبَ نَوْعَ كَدَرٍ، وَإِنَّ الْجَنَّةَ لَوْ حُصِّلَتْ بِسَبَبٍ يَقْدَحُ فِي الدِّينِ أَوْ فِي الْمُعَامَلَةِ؛ مَا لَذَّتْ! وَالنَّوْمُ عَلَىٰ الْمَزَابِلِ مَعَ سَلَامَةِ الْقَلْبِ مِنَ الْكَدَرِ أَلَذُّ مِنْ تُكَأَةِ الْمُلُوكِ[1].

وَمَا زِلْتُ أَغْلِبُ نَفْسِي تَارَةً، وَتَغْلِبُنِي أُخْرَىٰ، ثُمَّ تَدَّعِي الْحَاجَةَ إِلَىٰ تَحْصِيلِ مَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْهُ، وَتَقُوْلُ: فَمَا أَتَعَدَّىٰ فِي الْكَسْبِ الْمُبَاحِ فِي الظَّاهِرِ! فَقُلْتُ لَهَا: أَوَلَيْسَ الْوَرَعُ يَمْنَعُ مِنْ هَذَا؟ قَالَتْ: بَلَىٰ، قُلْتُ: أَلَيْسَتِ الْقَسْوَةُ فِي الْقَلْبِ تَحْصُلُ بِهِ؟ قَالَتْ: بَلَىٰ. قُلْتُ: فَلَا خَيْرَ لَكِ فِي شَيْءٍ هَذَا ثَمَرَتُهُ!

فَخَلَوْتُ يَوْمًا بِنَفْسِي، فَقُلْتُ لَهَا:

وَيْحَكِ! اسْمَعِي أُحَدِّثُكِ! إِنْ جَمَعْتِ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا مِنْ وَجْهٍ فِيْهِ شُبْهَةٌ؛ أَفَأَنْتِ عَلَىٰ يَقِيْنٍ مِنْ إِنْفَاقِهِ؟ قَالَتْ: لَا. قُلْتُ: فَالْمِحْنَةُ أَنْ يَحْظَىٰ بِهِ الْغَيْرُ، وَلَا تَنَالِيْنَ إِلَّا الْكَدَرَ الْعَاجِلَ، وَالْوِزْرَ الَّذِي لَا يُؤْمَنُ.

وَيْحَكِ! اتْرُكِي هَذَا الَّذِي يَمْنَعُ مِنْهُ الْوَرَعُ لِأَجْلِ اللهِ، فَعَامِلِيْهِ بِتَرْكِهِ. . . وَكَأَنَّكِ لَا تُرِيْدِيْنَ أَنْ لَا تَتْرُكِي إِلَّا مَا هُوَ مُحَرَّمٌ فَقَطْ، أَوْ مَا لَا يَصِحُّ وَجْهُهُ؟!

أَوَمَا سَمِعْتِ أَنَّ: «مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ؛ عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ»[2]؟!

أَمَا لَكِ عِبْرَةٌ فِي أَقْوَامٍ جَمَعُوْا، فَحَازَهُ سِوَاهُمْ، وَأَمَّلُوْا فَمَا بَلَغُوْا مُنَاهُمْ؟!

= مَرَّاتٍ، «الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ».

(١) التُّكَأَةُ: مَا يُتكأ عَلَيْهِ. تَقُوْلُ: رَجُلٌ تُكَأَةٌ: كَثِيرُ الاتِّكَاءِ.

(٢) رواه أحمد في «المسند»(٢٠٧٤٦)، والبيهقي في «الشعب»(٥٣٦٤) عَنْ أَبِي قَتَادَةَ وَأَبِي الدَّهْمَاءِ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، قَالَ: أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي، مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، فَكَانَ فِيمَا حَفِظْتُ عَنْهُ أَنْ قَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا، اتِّقَاءَ لِلَّهِ، إِلَّا آتَاكَ - أَعْطَاكَ - اللهُ خَيْرًا مِنْهُ». وَرُوِيَ مَوْقُوْفًا عَلَىٰ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: «مَا تَرَكَ عَبْدٌ شَيْئًا لا يَتْرُكُهُ إِلَّا لِلَّهِ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ، وَلا تَهَاوَنَ بِهِ فَأَخَذَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَصْلُحُ إِلَّا آتَاهُ اللهُ بِمَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ». «تَرْتِيب الأَمَالِي الخُمَيْسِيَّة لِلشَّجَرِيِّ» مُحْيي الدِّيْن الْعَبْشَمِيُّ.(ج٢/ ص٢٨٦/ ح ٢٤٦٨).

كَمْ مِنْ عَالِمٍ جَمَعَ كُتُبًا كَثِيرَةً مَا انْتَفَعَ بِهَا! وَكَمْ مِنْ مُنْتَفِعٍ مَا عِنْدَهُ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ!

وَكَمْ مِنْ طَيِّبِ الْعَيْشِ لَا يَمْلِكُ دِينَارَيْنِ! وَكَمْ مِنْ ذِي قَنَاطِيرَ مُنَغَّصٍ!

أَمَا لَكِ فِطْنَةٌ تَتَلَمَّحُ أَحْوَالَ مَنْ يَتَرَخَّصُ مِنْ وَجْهٍ، فَيُسْلَبُ مِنْهُ مِنْ أَوْجُهٍ؟!

رُبَّمَا نَزَلَ الْمَرَضُ بِصَاحِبِ الدَّارِ، أَوْ بِبَعْضِ مَنْ فِيهَا، فَأَنْفَقَ فِي سَنَتِهِ أَضْعَافَ مَا تَرَخَّصَ فِي كَسْبِهِ، وَالْمُتَّقِي مُعَافًى.

فَضَجَّتِ النَّفْسُ مِنْ لَوْمِي، وَقَالَتْ: إِذَا لَمْ أَتَعَدَّ وَاجِبَ الشَّرْعِ؛ فَمَا الَّذِي تُرِيدُ مِنِّي؟!

فَقُلْتُ لَهَا: أَضِنُّ بِكِ عَنِ الْغَبْنِ، وَأَنْتِ أَعْرَفُ بِبَاطِنِ أَمْرِكِ.

قَالَتْ: فَقُلْ لِي؛ مَا أَصْنَعُ؟

قُلْتُ: عَلَيْكِ بِالْمُرَاقَبَةِ لِمَنْ يَرَاكِ، وَمَثِّلِي نَفْسَكِ بِحَضْرَةِ مُعَظَّمٍ مِنَ الْخَلْقِ؛ فَإِنَّكِ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ، يَرَى مِنْ بَاطِنِكِ مَا لَا يَرَاهُ الْمُعَظَّمُونَ مِنْ ظَاهِرِكِ؛ فَخُذِي بِالْأَحْوَطِ، وَاحْذَرِي مِنَ التَّرَخُّصِ فِي بَيْعِ الْيَقِينِ وَالتَّقْوَى بِعَاجِلِ الْهَوَى؛ فَإِنْ ضَاقَ الطَّبْعُ مِمَّا تَلْقَيْنَ؛ فَقُولِي لَهُ: مَهْلًا؛ فَمَا انْقَضَتْ مُدَّةُ الْإِشَارَةِ!

وَاللهُ مُرْشِدُكِ إِلَى التَّحْقِيقِ، وَمُعِينُكِ بِالتَّوْفِيقِ.

---

*[٢٧٩ - ١٥٦][خَاطِرَةٌ]:

[اعزم على ترك الهوى؛ تسلم]

تَرَخَّصْتُ فِي شَيْءٍ يَجُوزُ فِي بَعْضِ الْمَذَاهِبِ، فَوَجَدْتُ فِي قَلْبِي قَسْوَةً عَظِيمَةً، وَتَخَايَلَ لِي نَوْعُ طَرْدٍ عَنِ الْبَابِ، وَبُعْدٌ وَظُلْمَةٌ تَكَاثَفَتْ.

فَقَالَتْ نَفْسِي: مَا هَذَا؟! أَلَيْسَ مَا خَرَجْتَ عَنْ إِجْمَاعِ الْفُقَهَاءِ؟!

فَقُلْتُ لَهَا: يَا نَفْسَ السُّوءِ! جَوَابُكِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّكِ تَأَوَّلْتِ مَا لا تَعْتَقِدِينَ؛ فَلَوِ اسْتُفْتِيتِي؛ لَمْ تُفْتِ بِمَا فَعَلْتِ. قَالَتْ: لَوْ لَمْ أَعْتَقِدْ جَوَازَ ذَلِكَ؛ مَا فَعَلْتُهُ. قُلْتُ: إِلَّا أَنَّ اعْتِقَادَكِ مَا تَرْضِيْنَهُ لِغَيْرِكِ فِي الْفَتْوَىٰ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ يَنْبَغِي لَكِ الْفَرَحُ بِمَا وَجَدْتِ مِنَ الظُّلْمَةِ عَقِيْبَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا نُورٌ فِي قَلْبِكِ؛ مَا أَثَّرَ مِثْلُ هَذَا عِنْدَكِ.

قَالَتْ: فَلَقَدِ اسْتَوْحَشْتُ بِهَذِهِ الظُّلْمَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ فِي الْقَلْبِ.

قُلْتُ: فَاعْزِمِي عَلَىٰ التَّرْكِ، وَقَدِّرِي مَا تَرَكْتِ جَائِزًا بِالإِجْمَاعِ، وَعُدِّي هَجْرَهُ وَرَعًا، وَقَدْ سَلِمْتِ.

*[٢٨٠ - ١٥٤][خَاطِرَةٌ]:

[منزلة من خالف هواه]

قَرَأْتُ سُورَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَعَجَّبْتُ مِنْ مَدْحِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ صَبْرِهِ، وَشَرْحِ قِصَّتِهِ لِلنَّاسِ، وَرَفْعِ قَدْرِهِ بِتَرْكِ مَا تَرَكَ.

فَتَأَمَّلْتُ خَبِيئَةَ الأَمْرِ؛ فَإِذَا هِيَ مُخَالَفَةٌ لِلْهَوَىٰ الْمَكْرُوهِ.

فَقُلْتُ: وَاعَجَبًا! لَوْ وَافَقَ هَوَاهُ؛ مَنْ كَانَ يَكُونُ؟!

وَلَمَّا قَدْ خَالَفَهُ؛ لَقَدْ صَارَ أَمْرًا عَظِيمًا، يُضْرَبُ الأَمْثَالُ بِصَبْرِهِ، وَيُفْتَخَرُ عَلَىٰ الْخَلْقِ بِاجْتِهَادِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَدْ كَانَ بِصَبْرِ سَاعَةٍ، فَيَا لَهُ عِزًّا وَفَخْرًا، يُقَاوِمُ كُلَّ لَحْظَةٍ مِنْ ذِكْرِهِ أَمْثَالَ سَاعَةِ الصَّبْرِ عَنِ الْمَحْبُوبِ(١)!

وَبِالْعَكْسِ مِنْهُ حَالَةُ آدَمَ فِي مُوَافَقَتِهِ هَوَاهُ، لَقَدْ عَادَتْ نَقِيصَةً فِي حَقِّهِ أَبَدًا، لَوْلَا التَّدَارُكُ: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[الْبَقَرَةُ: ٣٧] !

(١) فِي بَعْضِ النُّسَخِ الْمَطْبُوعَةِ:[فَيَا لَهُ عِزًّا وَفَخْرًا أَنْ تَمْلِكَ نَفْسَكَ سَاعَةَ الصَّبْرِ عَنِ الْمَحْبُوبِ وَهُوَ قَرِيبٌ].

فَتَلَمَّحُوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - عَاقِبَةَ الصَّبْرِ وَنِهَايَةَ الْهَوَىٰ!

فَالْعَاقِلُ مَنْ مَيَّزَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؛ الْحُلْوَيْنِ وَالْمُرَّيْنِ؛ فَإِنَّ مَنْ عَدَلَ مِيزَانُهُ، وَلَمْ تَمِلْ بِهِ كِفَّةُ الْهَوَىٰ؛ رَأَىٰ كُلَّ الْأَرْبَاحِ فِي الصَّبْرِ، وَكُلَّ الْخُسْرَانِ فِي مُوَافَقَةِ النَّفْسِ(١).

وَكَفَىٰ بِهَذَا مَوْعِظَةً فِي مُخَالَفَةِ الْهَوَىٰ لِأَهْلِ النُّهَىٰ. وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

---

*[٢٨١ - ٣٠٥][خَاطِرَةٌ]:

[دَوَامُ صَفَاءِ الْقَلْبِ بِدَوَامِ التَّقْوَىٰ وَمُخَالَفَةِ الْهَوَىٰ]

مَنْ رُزِقَ قَلْبًا طَيِّبًا، وَلَذَّةَ مُنَاجَاةٍ، فَلْيُرَاعِ حَالَهُ، وَلْيَحْتَرِزْ مِنَ التَّغْيِيرِ؛ وَإِنَّمَا تَدُومُ لَهُ حَالُهُ بِدَوَامِ التَّقْوَىٰ.

وَكُنْتُ قَدْ رُزِقْتُ قَلْبًا طَيِّبًا، وَمُنَاجَاةَ خَلْوَةٍ، فَأَحْضَرَنِي بَعْضُ أَرْبَابِ الْمَنَاصِبِ إِلَىٰ طَعَامِهِ، فَمَا أَمْكَنَ خِلَافُهُ(٢)، فَتَنَاوَلْتُ، وَأَكَلْتُ مِنْهُ؛ فَلَقِيتُ الشَّدَائِدَ، وَرَأَيْتُ الْعُقُوبَةَ فِي الْحَالِ، وَاسْتَمَرَّتْ مُدَّةً، وَغَضِبْتُ عَلَىٰ قَلْبِي، وَفَقَدْتُ كُلَّ مَا كُنْتُ أَجِدُهُ.

فَقُلْتُ: وَاعَجَبًا! كُنْتُ فِي هَذَا كَالْمُكْرَهِ!

فَتَفَكَّرْتُ؛ وَإِذَا بِهِ قَدْ يُمْكِنُ مُدَارَاةُ الْأَمْرِ بِلُقَيْمَاتٍ يَسِيرَةٍ؛ وَإِنَّمَا التَّأْوِيلُ تَنَاوَلَ بِشَهْوَةٍ أَكْثَرَ مِمَّا يُدْفَعُ بِالْمُدَارَاةِ(٣).

---

(١) قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رحمه الله: «وَلَمَّا امْتُحِنَ الْمُكَلَّفُ بِالْهَوَىٰ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْبَهَائِمِ وَكَانَ كُلَّ وَقْتٍ تَحْدُثُ عَلَيْهِ حَوَادِثُ جَعَلَ فِيهِ حَاكِمَانِ حَاكِمُ الْعَقْلِ وَحَاكِمُ الدِّينِ وَأُمِرَ أَنْ يَرْفَعَ حَوَادِثَ الْهَوَىٰ دَائِمًا إِلَىٰ هَذَيْنِ الْحَاكِمَيْنِ وَأَنْ يَنْقَادَ لِحُكْمِهِمَا» اهـ [يُرَاجَع: «رَوْضَة الْمُحِبِّينَ» البَاب «التَّاسِع وَالعِشْرُون: فِي ذَمِّ الهَوَىٰ»].

(٢) يَعْنِي: لَم يَسْتَطِع رَدَّه.

(٣) يَعْنِي: أَنَّ التَّأْوِيلَ كَانَ سَبَبًا فِي جَعْلِ تَنَاوُلِ هَذَا الطَّعَامِ بِشَهْوَةٍ أَكْثَرَ مِمَّا يُدْفَعُ بِالْمُدَارَاةِ.

فَقَالَتِ النَّفْسُ: وَمِنْ أَيْنَ لِي أَنَّ عَيْنَ هَذَا حَرَامٌ؟!(١).

فَقَالَتِ الْيَقَظَةُ: وَأَيْنَ الْوَرَعُ عَنِ الشُّبُهَاتِ؟!

فَلَمَّا تَنَاوَلْتُ بِالتَّأْوِيلِ لُقْمَةً، وَاسْتَحْلَيْتُهَا بِالطَّبْعِ؛ لَقِيتُ الأَمَرَّيْنِ بِفَقْدِ الْقَلْبِ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝﴾ [الحشر: ٢].

---

*[٢٨٢ - ٨٩][خَاطِرَةٌ]:

[العِزُّ فِي تَرْكِ الْهَوَى]

بِاللهِ عَلَيْكَ يَا مَرْفُوعَ الْقَدْرِ بِالتَّقْوَى؛ لا تَبِعْ عِزَّهَا بِذُلِّ الْمَعَاصِي!

وَصَابِرْ عَطَشَ الْهَوَى فِي هَجِيرِ الْمُشْتَهَى، وَإِنْ أَمَضَّ وَأَرْمَضَ(٢)، فَإِذَا بَلَغْتَ النِّهَايَةَ مِنَ الصَّبْرِ؛ فَاحْتَكِمْ وَقُلْ؛ فَهُوَ مَقَامُ: «مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ»(٣).

تَاللهِ لَوْلا صَبْرُ عُمَرَ؛ مَا انْبَسَطَتْ يَدُهُ بِضَرْبِ الأَرْضِ بِالدِّرَّةِ(٤).

وَلَوْلا جِدُّ أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ فِي تَرْكِ هَوَاهُ، وَقَدْ سَمِعْتَ مِنْ آثَارِ عَزْمَتِهِ: «لَئِنْ أَشْهَدَنِي اللهُ مَشْهَدًا؛ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ»، فَأَقْبَلَ يَوْمَ أُحُدٍ يُقَاتِلُ حَتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يُعْرَفْ إِلَّا بِبَنَانِهِ؛ فَلَوْلا هَذَا الْعَزْمُ؛ مَا كَانَ انْبِسَاطُ - يَوْمَ: «وَاللهِ؛ لا تُكْسَرُ سِنُّ الرُّبَيِّعِ» وَجْهِ(٥).

---

(١) يَعْنِي: وَمِنْ أَيْنَ لِي أَنَّ نَفْسَ هَذَا الطَّعَامِ حَرَامٌ؟!

(٢) هَجِير: شِدَّةُ الحَرِّ. وَالْمُشْتَهَى: شِدَّةُ الرَّغْبَةِ وَالْحِرْصِ. وَأَمَضَّ: آلَمَ وَأَوْجَعَ. وَأَرْمَضَ: أَحْرَقَ بِشِدَّةٍ.

(٣) رواه ابن حبان، كِتَابُ «التَّارِيخِ» بَابُ «الْمُعْجِزَاتِ»(٦٤٩٠). عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ». وَعَنْهُ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ ذِي طِمْرَيْنِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّ قَسَمَهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ ...» رواه الحاكم، كِتَابُ «مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ»(٥٢٧٤).

(٤) الدِّرَّةُ: الْجَمْعُ: دِرَّات ودِرَر: سَوْطٌ يُضْرَبُ بِهِ. ترجمة عُمَر في الخاطرة:[٦٥-٥٤].

(٥) هَكَذَا فِي الأَصلِ وَالمَخطُوط، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: «مَا كَانَ انْبِسَاطُ وَجْهِ أَنَسٍ - سُرَّ - يَوْمَ حَلَفَ: «وَاللهِ؛ لا تُكْسَرُ سِنُّ الرُّبَيِّعِ». وَترجمة أَنَسٍ وَ الرُّبَيِّعِ فِي:[٨٩-٢٢٩]. وَحَدِيث: «لَئِنْ أَشْهَدَنِي اللهُ مَشْهَدًا...» رواه البخاري، كِ: «الجِهَادِ =

بِاللهِ عَلَيْكَ؛ تَذَوَّقْ حَلاوَةَ كَفِّ الْكَفِّ عَنِ الْمَنْهِيِّ؛ فَإِنَّهَا شَجَرَةٌ تُثْمِرُ عِزَّ الدُّنْيَا وَشَرَفَ الآخِرَةِ.

وَمَتَىٰ اشْتَدَّ عَطَشُكَ إِلَىٰ مَا تَهْوَىٰ؛ فَابْسُطْ أَنَامِلَ الرَّجَاءِ إِلَىٰ مَنْ عِنْدَهُ الرِّيُّ الْكَامِلُ، وَقُلْ: «قَدْ عِيلَ صَبْرُ الطَّبْعِ فِي سِنِيهِ الْعِجَافِ؛ فَعَجِّلْ لِي الْعَامَ الَّذِي فِيهِ أُغَاثُ وَأُعْصِرُ»[1].

بِاللهِ عَلَيْكَ؛ تَفَكَّرْ فِيمَنْ قَطَعَ أَكْثَرَ الْعُمُرِ فِي التَّقْوَىٰ وَالطَّاعَةِ، ثُمَّ عَرَضَتْ لَهُ فِتْنَةٌ فِي الْوَقْتِ الأَخِيرِ، كَيْفَ نَطَحَ مَرْكَبُهُ الْجُرُفَ؛ فَغَرِقَ وَقْتَ الصُّعُودِ![2].

أُفٍّ وَاللهِ لِلدُّنْيَا - لَا بَلْ لِلْجَنَّةِ - إِنْ أَوْجَبَ نَيْلُهَا إِعْرَاضَ الْحَبِيبِ![3].

إِنَّمَا نَسَبُ الْعَامِّيِّ بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ؛ فَأَمَّا ذَوُو الأَقْدَارِ؛ فَالأَلْقَابُ قَبْلَ الأَنْسَابِ.

= وَالسِّيَرِ»(٢٨٠٥). ومسلم، كِـ:«الإِمَارَةِ»(١٩٠٣). وَحَدِيث: «لا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا» (ثَنِيَّة) مُفْرَد ثَنَايَا وَثَنِيَّات، إِحْدَىٰ الأَسْنَان الأَربَع في مُقَدَّم الفَم. رواه البخاري، كِـ:«الصُّلْح»(٢٧٠٣). ومسلم، كِـ:«القَسَامَةِ وَالْمُحَارِبِينَ»(١٦٧٥).

(١) عِيلَ: نَفِدَ وَغُلِبَ. وَالطَّبْع: خُلُق وسجيَّة جُبِلَ عَلَيْهَا الإِنْسَان. وَسِنِيهِ الْعِجَاف: سُنُون هُزَال مُقْحِطَة لَا خَيْرَ فِيهَا. وَأُغَاثُ: أُعَان وَأُنْصَر. وَأَعْصِرُ: أَسْتَخرِج، وَأَعْصِرُ الْعِنَبَ: أَسْتَخْرِجُ بِهِ الْخَمْرَ. وَأَعْصِر السَّحَاب: دَنَا أَنْ يُمْطِر.

(٢) نَطَحَ مَرْكَبُهُ الْجُرُفَ؛ أَي: أَصَابَ مَرْكَبُهُ شَاطِئ صَخْرِيّ أَوْ صَخْرَة مُنْحَدِرَة؛ فَاصطَدَم فَغَرِقَ وَقْتَ الْعُلُوِّ وَالارتِفَاع.

(٣) إِنْ كَانَ الْمَقْصُود بِـ«الْحَبِيب» هُنَا «الرَّبّ ﷻ» فَقَوْله: «- لا بَلْ لِلْجَنَّةِ -»؛ فَالْمَعْنَىٰ غَيْر مُسْتَقِيم؛ لِأَنَّ نَيْل الجَنَّة لَا يَكُوْن إِلَّا بِرِضَىٰ الله تَعَالَىٰ وَرِضْوَانه؛ رَوَىٰ الشَّيْخَان عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لا نَرْضَىٰ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» البخاري، كِـ:«الرِّقَاق»(٦٥٤٩). ومسلم، كِـ:«الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا»(٢٨٢٩). وَإِنْ كَانَ الْمَقْصُود بِـ«الْحَبِيب» هُنَا «الإِنْسَان الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حُبٌ وَوُدّ» فَقَوْله: «- لا بَلْ لِلْجَنَّةِ -» غَيْر مُسْتَقِيم أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ لا إِعْرَاضَ فِي الجَنَّةِ؛ بَل الصَّفْح وَالمَغْفِرَة، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُوْلُ فِي وَصْفِ أَهْل الجَنَّة: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧، ٤٨]. وَمُتَقَابِلِينَ؛ أَيْ: يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ وَجْهِ بَعْضٍ، كُلُّهُمْ يُقَابِلُ الآخَرَ بِوَجْهِهِ، لا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ قَفَا بَعْضٍ تَوَاصُلًا وَتَحَابُبًا. وَرَوَىٰ الشَّيْخَان فِي صِفَةِ أَهْلِ الجَنَّةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ وَفِيهِ: «لا اخْتِلافَ بَيْنَهُمْ وَلا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا» البُخَارِي، كِـ:«بَدْءِ الخَلْقِ» (٣٢٤٥). وَمُسْلِم، كِـ:«الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا»(٢٨٣٤). وَالْجُمْلَة فِي غَايَةِ البَلاغَةِ بِدُوْن قَوْله: «- لا بَلْ لِلْجَنَّةِ -» فَتَكُوْن: «أُفٍّ وَاللهِ لِلدُّنْيَا إِنْ أَوْجَبَ نَيْلُهَا إِعْرَاضَ الْحَبِيبِ!» سَوَاء فُسِّرَ الحَبِيب بِـ«الرَّبّ» أَوْ بِـ«الإِنْسَان».

قُلْ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ وَمَاعَمَلُكَ؟ وَإِلَىٰ أَيِّ مَقَامٍ ارْتَفَعَ قَدْرُكَ؟ يَا مَنْ لَا يَصْبِرُ لَحْظَةً عَمَّا يَشْتَهِي!

بِاللهِ عَلَيْكَ؛ أَتَدْرِي مَنِ الرَّجُلُ؟! الرَّجُلُ - وَاللهِ - مَنْ إِذَا خلَا بِمَا يُحِبُّ مِنَ الْمُحَرَّمِ، وَقَدَرَ عَلَيْهِ، وَتَقَلْقَلَ عَطَشًا إِلَيْهِ؛ نَظَرَ إِلَىٰ نَظَرِ الْحَقِّ إِلَيْهِ، فَاسْتَحَىٰ مِنْ إِجَالَةِ هَمِّهِ فِيمَا يَكْرَهُهُ، فَذَهَبَ الْعَطَشُ[١].

كَأَنَّكَ لَا تَتْرُكُ لَنَا إِلَّا مَا لَا تَشْتَهِي، أَوْ مَا لَا تَصْدُقُ الشَّهْوَةَ فِيهِ، أَوْ مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ!!

كَذَا وَاللهِ عَادَتُكَ! إِذَا تَصَدَّقْتَ؛ أَعْطَيْتَ كِسْرَةً لَا تَصْلُحُ لَكَ، أَوْ فِي جَمَاعَةٍ يَمْدَحُونَكَ.

هَيْهَاتَ! وَاللهِ؛ لَا نِلْتَ وِلَايَتَنَا حَتَّىٰ تَكُونَ مُعَامَلَتُكَ لَنَا خَالِصَةً، تَبْذُلُ أَطَايِبَكَ، وَتَتْرُكُ مُشْتَهَيَاتِكَ، وَتَصْبِرُ عَلَىٰ مَكْرُوهَاتِكَ.

عِلْمًا مِنْكَ - إِنْ كُنْتَ مُعَامِلًا - بِأَنَّكَ أَجِيرٌ، وَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ[٢].

فَإِنْ كُنْتَ مُحِبًّا؛ رَأَيْتَ ذَلِكَ قَلِيلًا فِي جَنْبِ رِضَا حَبِيبِكَ عَنْكَ.

وَمَا كَلَامُنَا مَعَ الثَّالِثِ[٣].

*[٢٨٣ - ١٣٨][خاطِرَةٌ]:

[مَوْقِفٌ إِيمَانِيٌّ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ آثَرَ اللهَ عَلَى هَوَاهُ]

قَدَرْتُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ عَلَىٰ شَهْوَةٍ لِلنَّفْسِ هِيَ عِنْدَهَا أَحْلَىٰ مِنَ الْمَاءِ الزُّلَالِ فِي فَمِ الصَّادِي[٤]. وَقَالَ التَّأْوِيلُ: مَا هَا هُنَا مَانِعٌ وَلَا مُعَوِّقٌ إِلَّا نَوْعُ وَرَعٍ! وَكَانَ ظَاهِرُ الْأَمْرِ امْتِنَاعَ

---

(١) تَقَلْقَلَ: تَحَرَّكَ وَاضطَرَبَ. إِجَالَةِ هَمِّهِ: جَعَلَهُ يَجُولُ، أَدَارَهُ هُنَا وَهُنَاكَ.

(٢) أَيْ: وَمَا انتَهَىٰ يَوْم عَمَلِك؛ لِتَستَحِقَ الأُجْرَةَ؛ فَإِنْ كُنْتَ أَجِيرًا، فَأَتمِم عَمَلَكَ تَأْخُذْ أُجْرَتَكَ.

(٣) الثَّالِث: الَّذِي لَا يَعمَل أَسَاسًا؛ بَل هُوَ عَاصٍ، وَالأَوَّل هُوَ: الْمُحِبّ. وَالثَّانِي هُوَ: الأَجِير.

(٤) الْمَاءِ الزُّلَالِ: الْعَذْب الْبَارِد الصَّافِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَالصَّادِي: شَدِيْد الْعَطَش. صدِيَ يَصدَىٰ، اصْدَ، صَدًى.

الْجَوَازِ، فَتَرَدَّدْتُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فَمَنَعْتُ النَّفْسَ عَنْ ذَلِكَ، فَبَقِيَتْ حِيرَتِي لِمَنْعِ مَا هُوَ الْغَايَةُ فِي غَرَضِهَا مِنْ غَيْرِ صَادٍّ عَنْهُ بِحَالٍ؛ إِلَّا حَذَرَ الْمَنْعِ الشَّرْعِيِّ.

فَقُلْتُ لَهَا: يَا نَفْسُ! وَاللهِ؛ مَا مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ مَا تَوَدِّينَ وَلَا مَا دُونَهُ! فَتَقَلْقَلَتْ، فَصِحْتُ بِهَا: كَمْ وَافَقْتُكِ فِي مُرَادٍ ذَهَبَتْ لَذَّتُهُ، وَبَقِيَ التَّأَسُّفُ عَلَىٰ فِعْلِهِ! فَقَدِّرِي بُلُوغَ الْغَرَضِ مِنْ هَذَا الْمُرَادِ، أَلَيْسَ النَّدَمُ يَبْقَىٰ فِي مَجَالِ اللَّذَّةِ أَضْعَافَ زَمَانِهَا؟!

فَقَالَتْ: كَيْفَ أَصْنَعُ؟ فَقُلْتُ[1]:

صَبَرْتُ وَلَا وَاللهِ مَا بِي جَلَادَةٌ ... عَلَى الْحُبِّ، لَكِنِّي صَبَرْتُ عَلَى الرَّغْمِ

وَهَا أَنَا ذَا أَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ ﷻ حُسْنَ الْجَزَاءِ عَلَىٰ هَذَا الْفِعْلِ.

وَقَدْ تَرَكْتُ بَاقِيَ هَذِهِ الْوُجْهَةِ الْبَيْضَاءِ[2]؛ أَرْجُو أَنْ أَرَىٰ حُسْنَ الْجَزَاءِ عَلَىٰ الصَّبْرِ، فَأُسَطِّرُهُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يُعَجِّلُ جَزَاءَ الصَّبْرِ، وَقَدْ يُؤَخِّرُهُ:

فَإِنْ عُجِّلَ؛ سَطَّرْتُهُ، وَإِنْ أُخِّرَ؛ فَمَا أَشُكُّ فِي حُسْنِ الْجَزَاءِ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ؛ عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ[3].

وَاللهِ؛ إِنِّي مَا تَرَكْتُهُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَيَكْفِينِي تَرْكُهُ ذَخِيرَةً، حَتَّىٰ لَوْ قِيلَ لِي: أَتَذْكُرُ يَوْمًا آثَرْتَ اللهَ عَلَىٰ هَوَاكَ؟ قُلْتُ: يَوْمَ كَذَا وَكَذَا.

فَافْتَخِرِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ بِتَوْفِيقِكِ، وَاحْمَدِي مَنْ وَفَّقَكِ؛ فَكَمْ قَدْ خَذَلَ سِوَاكِ! وَاحْذَرِي أَنْ تُخْذَلِي فِي مِثْلِهَا! وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

وَكَانَ هَذَا فِي سَنَةِ إِحْدَىٰ وَسِتِّينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ، فَلَمَّا دَخَلَتْ سَنَةُ خَمْسٍ وَسِتِّينَ[4]؛

---

(١) البيت من البحر: [الطويل] وقائله: أبو العتاهية.

(٢) أي: أَنَّهُ تَرَكَ بَاقِي هَذِهِ الصَّفْحَة، وَلَم يَكْتُبْ فِيهَا شَيْئًا، حَتَّىٰ سَجَّل فِيهَا مَا رَآهُ مِن فَضْلِ اللهِ وَجَزَائِهِ الجَمِيل.

(٣) ثَبَتَ هَذَا فِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ مَرْفُوعٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، سَبَقَ تَخْرِيجه فِي الخَاطِرَة رَقَم: [٢٧٨- ٩٩].

(٤) أَيْ: سَنَة: (٥٦٥هـ).

عُوِّضْتُ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ بِمَا لا يُقَارِبُ مِمَّا لا يَمْنَعُ مِنْهُ وَرَعٌ وَلا غَيْرُهُ.

فَقُلْتُ: هَذَا جَزَاءُ التَّرْكِ لِأَجْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي الدُّنْيَا: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾[يوسف:٥٧]، وَالْحَمْدُ للهِ.

---

*[٢٨٤-٤٧][خَاطِرَةٌ]:

[مَوْقِفٌ آخَرُ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ خَالَفَ فِيهِ هَوَاهُ وَنَفْسَهُ]

تَأَمَّلْتُ فِي نَفْسِي تَأْوِيلًا فِي مُبَاحٍ أَنَالُ بِهِ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا؛ إِلَّا أَنَّهُ فِي بَابِ الْوَرَعِ كَدَرٌ؛ فَرَأَيْتُهُ أَوَّلًا قَدِ احْتَلَبَ دَرَّ الدِّينِ، فَذَهَبَتْ حَلَاوَةُ الْمُعَامَلَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ عَادَ فَقَلَصَ ضَرْعُ حَلْبِي لَهُ، فَوَقَعَ الْفَقْدُ لِلْحَالَيْنِ(١).

فَقُلْتُ لِنَفْسِي: مَا مَثَلُكِ إِلَّا كَمَثَلِ وَالٍ ظَالِمٍ، جَمَعَ [مَالًا(٢)] مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، فَصُودِرَ، فَأُخِذَ مِنْهُ الَّذِي جَمَعَ، وَاجْتَرَّ مَا لَمْ يَجْمَعْ(٣).

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ فَسَادِ التَّأْوِيلِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لا يُخَادَعُ، وَلا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ.

---

*[٢٨٥ - ٣٢٦][خَاطِرَةٌ]:

[الْعَاقِلُ الْمَغْلُوبُ بِالْهَوَى تُرْجَى هِدَايَتُهُ]

إِذَا رَأَيْتَ قَلِيلَ الْعَقْلِ فِي أَصْلِ الْوَضْعِ؛ فَلَا تَرْجُ خَيْرَهُ!

---

(١) الْوَرَعُ: لُغَةً: الْكَفُّ، الْأَوْرَعُ: التَّارِكُ لِبَعْضِ الْمُبَاحَاتِ خَوْفَ الْوُقُوعِ فِي الشُّبُهَاتِ. وَكَدَرٌ: عَكِرٌ أَوْ هُوَ مِنْ بَابِ صَعُبَ صُعُوبَةً. وَاحْتَلَبَ دَرَّ الدِّينِ: اسْتَخْرَجَ أَكْثَرَ الدِّينِ. فَقَلَصَ ضَرْعُ: انْضَمَّ وانزَوَى وَتَوَقَّفَ حَلْبُهُ. فَوَقَعَ الْفَقْدُ لِلْحَالَيْنِ؛ أَيْ: ضَاعَ مِنْهُ وَغَابَ عَنْهُ حَلَاوَةُ الْمُعَامَلَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَكَذَلِكَ مَا أَرَادَ أَنْ يَنَالَه مِنَ الدُّنْيَا.

(٢) ليست في الأصل ولا المخطوط، وأثبتناها؛ لتمام المعنى به.

(٣) اجْتَرَّ: أَعَادَ. وفي المطبوع:[وَأُلْزِمَ].

فَأَمَّا إِنْ كَانَ وَافِرَ الْعَقْلِ، لَكِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْهَوَى؛ فَارْجُهُ!

وَعَلَامَةُ ذَلِكَ: أَنَّهُ يُدَبِّرُ أَمْرَهُ فِي جَهْلِهِ؛ فَيَسْتَتِرُ مِنَ النَّاسِ إِذَا أَتَى فَاحِشَةً، وَيُرَاقِبُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، وَيَبْكِي عِنْدَ الْمَوْعِظَةِ، وَيَحْتَرِمُ أَهْلَ الدِّينِ؛ فَهَذَا عَاقِلٌ مَغْلُوبٌ بِالْهَوَى؛ فَإِذَا انْتَبَهَ بِالنَّدَمِ؛ خَنَسَ شَيْطَانُ الْهَوَى(١)، وَجَاءَ مَلَكُ الْعَقْلِ.

فَأَمَّا إِذَا كَانَ قَلِيلُ الْعَقْلِ فِي الْوَضْعِ.

وَعَلَامَتُهُ: أَلَّا يَنْظُرَ فِي عَاقِبَةِ عَاجِلَةٍ وَلَا آجِلَةٍ، وَلَا يَسْتَحِيَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَرَوْهُ عَلَى فَاحِشَةٍ، وَلَا يُدَبِّرَ أَمْرَ دُنْيَاهُ: فَذَاكَ بَعِيدُ الرَّجَاءِ، وَقَدْ يَنْدُرُ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُفْلِحُ.

وَيَكُونُ السَّبَبَ فِيهِ:(٢) خَمِيرَةٌ مِنَ الْعَقْلِ غَطَّى عَلَيْهَا الْهَوَى، ثُمَّ تَكَشَّفَ قَلِيلًا لِيَعُودَ؛ فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ مَصْرُوعٍ أَفَاقَ.

*[٢٨٦ - ٦٨][خَاطِرَةٌ]:

[الصِّرَاعُ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْهَوَى وَالْغَفْلَةِ]

الْمُؤْمِنُ لَا يُبَالِغُ فِي الذُّنُوبِ، وَإِنَّمَا يَقْوَى الْهَوَى، وَتَتَوَقَّدُ نِيرَانُ الشَّهْوَةِ، فَيَتَحَدَّرُ؛ وَلَهُ مُرَادٌ لَا يَعْزِمُ الْمُؤْمِنُ عَلَى مُوَاقَعَتِهِ، وَلَا عَلَى الْعَوْدِ بَعْدَ فَرَاغِهِ، وَلَا يَسْتَقْصِي فِي الِانْتِقَامِ إِنْ غَضِبَ، وَيَنْوِي التَّوْبَةَ قَبْلَ الزَّلَلِ(٣).

وَتَأَمَّلْ إِخْوَةَ يُوسُفَ ﷺ؛ فَإِنَّهُمْ عَزَمُوا عَلَى التَّوْبَةِ قَبْلَ إِبْعَادِ يُوسُفَ، فَقَالُوا: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾، ثُمَّ زَادَ ذَلِكَ تَعْظِيمًا فَقَالُوا: ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، ثُمَّ عَزَمُوا عَلَى الْإِنَابَةِ، فَقَالُوا: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾[يُوسُفُ:٩]، فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ إِلَى الصَّحْرَاءِ هَمُّوا

---

(١) خَنَسَ: تَأَخَّرَ وَتَخَلَّفَ وَتَوَارَى.

(٢) يَعْنِي: السَّبَبُ فِي عَدَمِ الْفَلَاحِ هُوَ أَنَّ نَوَاةً مِنَ الْعَقْلِ غَطَّى عَلَيْهَا الْهَوَى.

(٣) تَتَوَقَّدُ: تَشْتَعِلُ. فَيَتَحَدَّرُ: فَيَنْزِلُ وَيَتَسَاقَطُ. وَلَهُ مُرَادٌ: هَدَفٌ وَغَايَةٌ. يَسْتَقْصِي: يُبَالِغ. الزَّلَلِ: الْخَطَأ وَالانْحِرَاف.

بِقَتْلِهِ بِمُقْتَضَىٰ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْحَسَدِ، فَقَالَ كَبِيرُهُمْ: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾[يُوسُفُ: ٩، ١٠]، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَمُوتَ، بَلْ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ، فَأَجَابُوا إِلَىٰ ذَٰلِكَ.

وَالسَّبَبُ فِي هَٰذِهِ الْأَحْوَالِ أَنَّ الْإِيمَانَ عَلَىٰ حَسَبِ قُوَّتِهِ؛ فَتَارَةً يَرُدُّهَا عِنْدَ الْهَمِّ، وَتَارَةً يَضْعُفُ فَيَرُدُّهَا عِنْدَ الْعَزْمِ، وَتَارَةً عَنْ بَعْضِ الْفِعْلِ[١]، فَإِذَا غَلَبَتِ الْغَفْلَةُ، وَوَاقَعَ الذَّنْبَ؛ فَتَرَ الطَّبْعُ، فَنَهَضَ الْإِيمَانُ لِلْعَمَلِ؛ فَيُنَغِّصُ بِالنَّدَمِ أَضْعَافَ مَا الْتَذَّ.

*[٢٨٧ - ٥][خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ قَارَبَ الْفِتْنَةَ؛ بَعُدَتْ عَنْهُ السَّلَامَةُ]

مَنْ قَارَبَ الْفِتْنَةَ؛ بَعُدَتْ عَنْهُ السَّلَامَةُ، وَمَنِ ادَّعَىٰ الصَّبْرَ؛ وُكِّلَ إِلَىٰ نَفْسِهِ.

وَرُبَّ نَظْرَةٍ لَمْ تُنَاظِرْ[٢]، وَأَحَقُّ الْأَشْيَاءِ بِالضَّبْطِ وَالْقَهْرِ: اللِّسَانُ وَالْعَيْنُ.

فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِعَزْمِكَ عَلَىٰ تَرْكِ الْهَوَىٰ، مَعَ مُقَارَبَةِ الْفِتْنَةِ، فَإِنَّ الْهَوَىٰ مُكَايِدٌ[٣]! وَكَمْ مِنْ شُجَاعٍ فِي صَفِّ الْحَرْبِ اغْتِيلَ، فَأَتَاهُ مَا لَمْ يَحْتَسِبْ مِمَّنْ يَأْنَفُ النَّظَرَ إِلَيْهِ[٤].

وَاذْكُرْ حَمْزَةَ مَعَ وَحْشِيٍّ[٥].

(١) يَعْنِي: أَنَّ الْإِيمَانَ إِنَّمَا يَقْمَعُ النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ، وَذَلِكَ عَلَىٰ حَسَبِ قُوَّتِهِ؛ فَتَارَةً يَرُدُّهَا إِذَا هَمَّتْ بِالذَّنْبِ، وَتَارَةً يَرُدُّهَا إِذَا عَزَمَتْ عَلَىٰ الْفِعْلِ. - الْعَزْمُ: عَقْدُ الْقَلْبِ عَلَىٰ إِمْضَاءِ الْأَمْرِ - وَتَارَةً يَرُدُّهَا عَنْ بَعْضِ الْفِعْلِ. فَتَرَ: سَكَنَ.

(٢) يَعْنِي: وَرُبَّ نَظْرَةٍ مُحَرَّمَةٍ مِنَ الرَّجُلِ تُصِيبُهُ بِسَهْمٍ مَسْمُومٍ لَا تُنَاظِرُهُ؛ أَيْ: لَا تُمْهِلُهُ؛ فَتُوقِعُهُ فِي الْفِتْنَةِ.

(٣) أَيْ: خَدَّاعٌ وَمَاكِرٌ، لَا يَدْرِي الْإِنْسَانُ مِنْ أَيِّ بَابٍ يَدْخُلُ عَلَيْهِ.

(٤) يَأْنَفُ: تَرَفَّعَ عَنْهُ وَاسْتَنْكَفَ وَاسْتَكْبَرَ.

(٥) أَيْ: أَنَّ حَمْزَةَ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ أَبَدًا أَنَّ قَتْلَهُ سَيَكُونُ عَلَىٰ يَدِ عَبْدٍ حَبَشِيٍّ لَيْسَ لَهُ فِي الْقِتَالِ. وَحَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بنِ هَاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ الْقُرَشِيُّ، أَسَدُ اللهِ، أَبُو عُمَارَةَ، وَأَبُو يَعْلَىٰ الشَّهِيدُ. وَحشِيُّ بْنُ حَرْبٍ الْحَبَشِيُّ، كَانَ عَبْدًا لِابْنَةِ الْحَارِثِ بْنِ عَامِرٍ. وَيُقَالُ: لِجُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ. أَسْلَمَ وَصَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ، وَشَرَكَ فِي قَتْلِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، مَاتَ بِحِمْصَ. وَحَدِيثُ مَقْتَلِ حَمْزَةَ ﷺ؛ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، كِتَابُ «الْمَغَازِي»(٤٠٧٢).

فَتَبَصَّــــرْ وَلا تَشِــــمْ كُـــلَّ بَـــرْقٍ   رُبَّ بَـــرْقٍ فِيـــهِ صَـــوَاعِقُ حَـــيْنِ
وَاغْضُـضِ الطَّـرْفَ تَسْـتَرِحْ مِـنْ غَـرَامٍ   تَكْتَسِـــي فِيـــهِ ثَـــوْبَ ذُلٍّ وَشَـــيْنِ
فَـــبَلَاءُ الْفَتَـــىٰ مُوَافَقَـــةُ النَّفْـــ   ــسِ، وَبَـدْءُ الْهَـوَىٰ طُمُـوحُ الْعَـيْنِ[١]

---

(١) الأبيات من البحر:[الخفيف]، وقائلها: ابن الحريري. وَتَبَصَّر: تَأَمَّل وَتَبَيَّن. وَلا تَشِمْ كُلَّ بَرْقٍ؛ أيْ: لَا تَنْخَدِع بِلَمَعَانِ السَّحَابِ. وَالصَّوَاعِقُ: جِسْم نَارِيّ مُشْتَعِل يَسْقُط مِنَ السَّمَاء فِي رَعْدٍ شَدِيْدٍ. وَالْحَيْنِ: الْهَلَاك وَاغْضُضِ: اخْفِض وَكُفَّ. وَالطَّرْفَ: تَحرِيْك الجِفْن، وَعَبَّر عَنِ النَّظَر، لِأَنَّ تَحرِيْك الجِفْن يُلَازِمُهُ. وَتَكْتَسِي: تَلْبَسُ. وَذُلٌّ وَشَيْنِ: هَوَان وَعَيْب. وَالْمَعْنَىٰ: تَأَمَّل وَتَبَيَّن مَا يَأْتِيْكَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَلَا تَركَن إِلَىٰ ظَوَاهِرِ الْأُمُوْرِ؛ فَرُبَّمَا كَانَ فِي ذَلِكَ هَلَاكك وَأَنْتَ لَا تَدرِي.

(٢٢)

[أَصْعَبُ الأَمْرَاضِ سُوءُ الفَهْمِ، وَاللَّبِيبُ تَكْفِيهِ الإِشَارَةُ]

*[٢٨٨ - ١٦٠][خَاطِرَةٌ]:

[الأَحْمَقُ يَتَقَاوَى عَلَى اللهِ]

رُوِيَ عَنِ الْحَلَّاجِ الصُّوفِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقْعُدُ فِي الشَّمْسِ فِي الْحَرِّ الشَّدِيدِ، وَعَرَقُهُ يَسِيلُ؛ فَجَازَ بِهِ بَعْضُ الْعُقَلَاءِ، فَقَالَ لَهُ: «يَا أَحْمَقُ! هَذَا تَقَاوٍ عَلَى اللهِ تَعَالَى»(١).

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ هَذَا! فَإِنَّهُ مَا وُضِعَ التَّكْلِيفُ إِلَّا عَلَى خِلَافِ الأَغْرَاضِ، وَقَدْ يُخْرِجُ صَاحِبَهُ إِلَى أَنْ يَعْجَزَ عَنِ الصَّبْرِ.

فَالْجَاهِلُ الأَحْمَقُ مَنْ تَقَاوَى، أَوْ مَنْ يَسْأَلُ الْبَلَاءَ؛ كَمَا قَالَ ذَلِكَ الأَبْلَهُ: «فَكَيْفَمَا شِئْتَ؛ فَاخْتَبِرْنِي!!»(٢).

---

*[٢٨٩ - ٢٢٠][خَاطِرَةٌ]:

[سَاءَ فَهْمُهُ فَسَاءَ قَوْلُهُ وَعَمَلُهُ]

بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ فُسَّاقِ الْقُدَمَاءِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ(٣):

---

(١) ترجمة الْحَلَّاجِ في:[١٤٩-٣٣٨]. حَلاَّج: مَنْ صَنْعَتُهُ تَخْلِيص القُطن منْ بِذْرِه. وَكَانَ الْحَلاَّج يَتَكَلَّم عَلَىٰ مَا فِي قُلُوْبِ النَّاس. وَتَقَاوٍ: مُغَالَبَة وَتَطَاوُل. وَالْخَبَر فِي «السِير»(ت: الْحَلَّاج) وَفِيْهِ: «قَعَدَ بِحمقِهِ يتصبَّر مَعَ الله».

(٢) قَائِلُ هَذِهِ العِبَارَة هُوَ: سَمْنُوْنَ المُحِبّ بْن حَمْزَة، وَيُقَال: بْن عَبْدِ الله، أَبُو القَاسِم، كَانَ مِنْ كِبَارِ مَشَايِخ العِرَاق، سَمَّىٰ نَفْسَهُ سَمْنُوْنَ الْكَذَّاب بِسَبَبِ هَذَا الْبَيْت: فَلَيْسَ لِيَ فِي سِوَاكَ حَظٌّ * فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَاخْتَبِرْنِي. فَحُصِرَ بَوْلُهُ مِنْ سَاعَتِهِ. «تَارِيْخ بَغْدَاد»(ج٩/ ص٢٣٣، ٢٣٤) قَالَ أَبُو العَبَّاس المُرسِيُّ مُعَلِّقًا: «الأَوْلَىٰ أَنْ يَقُوْلَ: فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَاعفُ عَنِّي؛ إِذْ طَلَبُ الْعَفْو أَوْلَىٰ مِنْ طَلَبِ الاختِيَارِ»اهـ. «التَّاج الْمُكَلَّل». مُحَمَّد صِدِّيْق خَان.(ص٣١٣).

(٣) الْبَيْت مِنَ الْبَحر:[الخَفِيف]. أَوْرَدَهُ اِبْن عَسَاكِر فِي «تَارِيْخ دِمِشْق»(ج٣٣/ ص٤١٩، ٤٢٠) فَعَنْ عَامِرِ بْنِ صَالِحٍ قَالَ:
=

مَـا أَرَىٰ الْعَـيْشَ غَيْـرَ أَنْ تَتْبَـعَ النَّفْـ ـسُ هَوَاهَـا؛ فَمُخْطِئًـا أَوْ مُصِـيبَا

فَتَدَبَّرْتُ حَالَ هَذَا، وَإِذَا بِهِ مَيِّتُ النَّفْسِ، لَيْسَ لَهُ أَنَفَةٌ عَلَىٰ عِرْضِهِ، وَلا خَوْفُ عَارٍ! وَمِثْلُ هَذَا لَيْسَ فِي مِسْلَاخِ الآدَمِيِّينَ![1].

فَإِنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يُقْدِمُ عَلَىٰ الْقَتْلِ لِئَلَّا يُقَالَ: جَبَانٌ. وَيَحْمِلُ الأَثْقَالَ لِيُقَالَ: مَا قَصَّرَ. وَيَخَافُ الْعَارَ، فَيَصْبِرُ عَلَىٰ كُلِّ آفَةٍ مِنَ الْفَقْرِ، وَهُوَ يَسْتُرُ ذَلِكَ؛ حَتَّىٰ لا يُرَىٰ بِعَيْنٍ نَاقِصَةٍ.

حَتَّىٰ إِنَّ الْجَاهِلَ إِذَا قِيلَ لَهُ: يَا جَاهِلُ! غَضِبَ. وَاللُّصُوصُ الْمُتَهَيِّئُونَ لِلْحَرَامِ إِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ لِلآخَرِ: لَا تَتَكَلَّمْ؛ فَإِنَّ أُخْتَكَ تَفْعَلُ وَتَصْنَعُ! أَخَذَتْهُ الْحَمِيَّةُ، فَقَتَلَ الأُخْتَ.

وَمَنْ لَهُ نَفْسٌ؛ لا يَقِفُ فِي مَقَامِ تُهْمَةٍ؛ لِئَلَّا يُظَنَّ بِهِ[2].

فَأَمَّا مَنْ لا يُبَالِي أَنْ يُرَىٰ سَكْرَانَ، وَلا يُهِمُّهُ إِنْ شُهِّرَ بَيْنَ النَّاسِ[3]، وَلا يُؤْلِمُهُ ذِكْرُ النَّاسِ لَهُ بِالسُّوءِ؛ فَذَاكَ فِي عِدَادِ الْبَهَائِمِ.

وَهَذَا الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُتْبِعَ النَّفْسَ هَوَاهَا؛ لا يَلْتَذُّ بِهِ؛ إِلَّا أَنْ لَا يَخَافَ عَنَتًا وَلا لَوْمًا[4]، وَلا يَكُونُ لَهُ عِرْضٌ يَحْذَرُ عَلَيْهِ؛ فَهُوَ بَهِيمَةٌ فِي مِسْلَاخِ إِنْسَانٍ.

وَإِلَّا؛ فَأَيُّ عَيْشٍ لِمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ، وَأُخِذَ عَقِيبَ ذَلِكَ، وَضُرِبَ، وَشَاعَ فِي النَّاسِ مَا قَدْ

= دَخَلَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ بَعْضَ كَنَائِسِ الشَّامِ فَكَتَبَ فِي حِيطَانِهَا بِفَحْمَةٍ هَذَا الْبَيْتَ - . . . - قَالَ: فَرَأَىٰ ذَلِكَ الْبَيْتَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَىٰ فَكَتَبَ تَحْتَهُ:

إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ حِينَ تُصْبِحُ آمِنًا أَنَّ الْمَنَايَا إِنْ أَقَمْتَ تُقِيمُ

فَالْزَمْ هَـوَاكَ لِمَـا أَرَدْتَ فَإِنَّـهُ لا مِثْلَ ذَلِكَ فِي النَّعِيمِ نَعِيمُ

(١) الْمِسْلَاخُ: جِلْدُ الْحَيَّةِ الَّذِي تَنْسَلِخُ عَنْهُ، وَمِنَ الْمَجَازِ: فُلانٌ حِمَارٌ فِي مِسْلَاخِ إِنْسَانٍ.

(٢) يَعْنِي: وَمَنْ لَهُ نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ كَرِيمَةٌ. أَخْرَجَ الْخَرَائِطِيُّ فِي «مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ»(ج٣/ ص٩٩/ ح٥٩٥) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ: «مَنْ أَقَامَ نَفْسَهُ مَقَامَ التُّهَمَةِ؛ فَلا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ».

(٣) شُهِّرَ: فُضِحَ.

(٤) إِلَّا أَنْ لا يَخَافَ عَنَتًا؛ أَيْ: إِلَّا أَنْ لَا يَخَافَ الْوُقُوعَ فِي الشِّدَّةِ أَوْ الإِثْمِ أَوْ الأَمْرِ الشَّاقِّ أَوْ الْعِتَابِ وَالتَّوْبِيخِ.

فُعِلَ بِهِ؟! أَمَا يَفِي ذَلِكَ بِاللَّذَّةِ؟! لا؛ بَلْ يَرْبُو عَلَيْهَا أَضْعَافًا.

وَأَيُّ عَيْشٍ لِمَنْ سَاكَنَ الْكَسَلَ: إِذَا رَأَىٰ أَقْرَانَهُ قَدْ بَرَّزُوا فِي الْعِلْمِ وَهُوَ جَاهِلٌ، أَوِ اسْتَغْنَوْا بِالتِّجَارَةِ وَهُوَ فَقِيرٌ؟![1] فَهَلْ يَبْقَىٰ لِلالْتِذَاذِ بِالْكَسَلِ وَالرَّاحَةِ مَعْنًىٰ؟!

وَلَوْ تَفَكَّرَ الزَّانِي فِي الأُحْدُوثَةِ عَنْهُ[2]، أَوْ تَصَوَّرَ أَخْذَ الْحَدِّ مِنْهُ؛ لَكَفَّ الْكَفَّ، غَيْرَ أَنَّهُ يَرَىٰ لَذَّةً حَاضِرَةً كَأَنَّهَا لَمْعُ بَرْقٍ، وَيَا شُؤْمَ مَا أَعْقَبَتْ مِنْ طُولِ الأَسَىٰ!

هَذَا كُلُّهُ فِي الْعَاجِلِ، فَأَمَّا الآجِلُ؛ فَمَنْغَصَةُ الْعَذَابِ دَائِمَةٌ، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشُّورَىٰ: ١٨].

نَسْأَلُ اللهَ أَنَفَةً مِنَ الرَّذَائِلِ، وَهِمَّةً فِي طَلَبِ الْفَضَائِلِ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

*[٢٩٠ - ٢٩٢][خَاطِرَةٌ]:

[نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُوءِ الْفَهْمِ]

نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُوءِ الْفَهْمِ، وَخُصُوصًا مِنَ الْمُتَسَمِّينَ بِالْعِلْمِ.

رَوَىٰ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»: أَنَّهُ تَنَازَعَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي وَحِبَّانُ بْنُ عَطِيَّةَ[3]، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ لِحِبَّانَ: قَدْ عَلِمْتَ مَا الَّذِي حَدَا صَاحِبَكَ[4] - يَعْنِي: عَلِيًّا - قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ إِلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[5]

---

(١) بَرَّزُوا: بَرَّزَ: فَاقَ. وَبَرَزَ: تَفَوَّقَ وَاشْتُهِرَ فِيهِ. وَاسْتَغْنَوْا: اسْتَغْنَىٰ: وَفُرَ مَالُهُ وَكَثُرَ وَصَارَ ثَرِيًّا وَتَرَفَّعَ عَنْ طَلَبِ الْعَوْنِ.

(٢) الأُحْدُوثَةِ: جَمْعهَا: أَحَادِيث. مَا يَكْثُرُ التَّحَدُّث بِهِ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَيَصِيرُ حِكَايَةً قَصِيرَة.

(٣) جَاءَ فِي الأَصْلِ: [وَحَيَّان بن عَبْدِ الله]، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنْ «مُسْنَدِ أَحْمَد» وَ«صَحِيح البُخَارِيّ». وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي عَبْدُ اللهِ بنُ حَبِيبِ الكُوفِيُّ. الإِمَامُ، مَاتَ: (٨٠هـ). وَحِبَّانُ بْنُ عَطِيَّةَ صَاحِب عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَكَىٰ عَنْهُ سَعْد بْن عُبَيْدَة، قَالَ الذَّهَبِيّ فِي «تَذْهِيبِه» (ج٢/ ص١٩٨): «وَبَعْضُهُم قَيَّدَهُ: حِيَّان بْن عَطِيَّة، بِـاليَاءِ».

(٤) حَدَا صَاحِبَكَ؛ أَيْ: دَفَعَهُ وَسَاقَهُ. وَجَاءَ عِنْدَ أَحْمَد وَالبُخَارِيّ: «جَرَّأَ صَاحِبَكَ»؛ أَيْ: شَجَّعَهُ.

(٥) أحمد في «المسند ٨٢٧». البخاري، كِ: «اسْتِتَابَةِ المُرْتَدِّينَ» (٦٩٣٩): «لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ أَوْجَبْتُ =

وهَذَا سُوءُ فَهْمٍ مِنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حِينَ ظَنَّ أَنَّ عَلِيًّا قَاتَلَ وَقُتِلَ اعْتِمَادًا عَلَىٰ أَنَّهُ قَدْ غُفِرَ لَهُ!!

وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَعْنَىٰ الْحَدِيثِ: لِتَكُنْ أَعْمَالُكُمُ الْمُتَقَدِّمَةُ مَا كَانَتْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ. فَأَمَّا غُفْرَانُ مَا سَيَأْتِي؛ فَلَا يَتَضَمَّنُهُ ذَلِكَ(١).

أَتَرَاهُ لَوْ وَقَعَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ - وَحَاشَاهُمْ - الشِّرْكُ - إِذْ لَيْسُوا بِمَعْصُومِينَ-؛ أَمَا كَانُوا يُؤَاخَذُونَ بِهِ؟! فَكَذَلِكَ الْمَعَاصِي.

ثُمَّ لَوْ قُلْنَا: إِنَّهُ يَتَضَمَّنُ غُفْرَانَ مَا سَيَأْتِي؛ فَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ مَآلَكُمْ إِلَىٰ الْغُفْرَانِ.

ثُمَّ دَعْنَا مِنْ مَعْنَىٰ الْحَدِيثِ؛ كَيْفَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَظُنَّ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ فَعَلَ مَا لَا يَجُوزُ اعْتِمَادًا عَلَىٰ أَنَّهُ سَيُغْفَرُ لَهُ؟! حُوشِيَ مِنْ هَذَا(٢)، وَإِنَّمَا قَاتَلَ بِالدَّلِيلِ الْمُضْطَرِّ لَهُ إِلَىٰ الْقِتَالِ، فَكَانَ عَلَىٰ الْحَقِّ.

وَلَا يَخْتَلِفُ الْعُلَمَاءُ أَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه لَمْ يُقَاتِلْ أَحَدًا إِلَّا وَالْحَقُّ مَعَ عَلِيٍّ؛ كَيْفَ؛ وَقَدْ قَالَ

= لَكُمُ الْجَنَّةَ» وَكِ: «التَّفْسِيرِ» (٤٨٩٠): «لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ».

(١) قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي كِتَابِ «الفوائد» (ص١٨): «لَكِنَّهُ ضَعِيفٌ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ لَفْظَ «اعْمَلُوا» يَأْبَاهُ؛ فَإِنَّهُ لِلاسْتِقْبَالِ دُونَ الْمَاضِي، وَقَوْلُهُ: «قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»: لَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ «اعْمَلُوا» مِثْلَهُ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: «قَدْ غَفَرْتُ»: تَحْقِيقٌ لِوُقُوعِ الْمَغْفِرَةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ؛ كَقَوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]. وَنَظَائِرُهُ. ثَانِيهِمَا: أَنَّ الْحَدِيثَ نَفْسَهُ يَرُدُّهُ؛ فَإِنَّ سَبَبَهُ قِصَّةُ حَاطِبٍ وَتَجَسُّسُهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَذَلِكَ ذَنْبٌ وَاقِعٌ بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ لَا قَبْلَهَا، وَهُوَ سَبَبُ الْحَدِيثِ؛ فَهُوَ مُرَادٌ مِنْهُ قَطْعًا. فَالَّذِي نَظُنُّ فِي ذَلِكَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّ هَذَا خِطَابٌ لِقَوْمٍ قَدْ عَلِمَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُم لَا يُفَارِقُونَ دِينَهُم، بَل يَمُوتُونَ عَلَىٰ الإِسْلَامِ، وَأَنَّهُم قَد يُقَارِفُونَ بَعضَ مَا يُقَارِفُهُ غَيرُهُم مِنَ الذُّنُوبِ، وَلَكِنْ لَا يَتْرُكُهُم سُبْحَانَهُ مُصِرِّينَ عَلَيْهَا، بَل يُوَفِّقُهُم لِتَوبَةٍ نَصُوحٍ وَاستِغْفَارٍ وَحَسَنَاتٍ تَمْحُو أَثَرَ ذَلِكَ، وَيَكُونُ تَخْصِيصُهُم بِهَذَا دُونَ غَيرِهِم؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ فِيهِم وَأَنَّهُم مَغْفُورٌ لَهُم، وَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ كَوْنَ الْمَغْفِرَةِ حَصَلَتْ بِأَسْبَابٍ تَقُومُ بِهِم؛ كَمَا لَا يَقْتَضِي ذَلِكَ أَنْ يُعَطِّلُوا الفَرَائِضَ وُثُوقًا بِالْمَغْفِرَةِ؛ فَلَو كَانَت قَد حَصَلَتْ بِدُونِ الاسْتِمْرَارِ عَلَىٰ القِيَامِ بِالأَوَامِرِ؛ لَمَا احتَاجُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَا حَجٍّ وَلَا زَكَاةٍ وَلَا جِهَادٍ! وَهَذَا مُحَالٌ! وَمِنْ أَوْجَبِ الْوَاجِبَاتِ التَّوْبَةُ بَعْدَ الذَّنْبِ؛ فَضَمَانُ الْمَغْفِرَةِ لَا يُوجِبُ تَعطِيلَ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ» اهـ.

(٢) أَيْ: حَاشَاهُ مِنْ فِعْلِ ذَلِكَ. وَقَدْ تَكُونُ مِنَ الْحُوشِ؛ أَيْ: النِّفَار، ويكون المعنىٰ: يَنْفِرُ مِنْ فِعْلِ هَذَا.

رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ! أَدِرْ مَعَهُ الْحَقَّ كَيْفَمَا دَارَ»؟!(١).

فَقَدْ غَلِطَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ غَلَطًا قَبِيحًا، حَمَلَهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ عُثْمَانِيًّا(٢).

* [٢٩١ - ٩٨] [خَاطِرَةٌ]:

[اللَّبِيبُ يَنْتَفِعُ بِالإِشَارَةِ]

رُبَّمَا أَخَذَ الْمُتَيَقِّظُ بَيْتَ شِعْرٍ، فَأَخَذَ مِنْهُ إِشَارَةً، فَانْتَفَعَ بِهَا.

قَالَ الْجُنَيْدُ: نَاوَلَنِي سَرِيٌّ رُقْعَةً، مَكْتُوبٌ فِيهَا: سَمِعْتُ حَادِيًا فِي طَرِيقِ مَكَّةَ شَرَّفَهَا اللهُ تَعَالَى يَقُولُ(٣):

أَبْكِي وَمَا يُدْرِيكِ مَا يُبْكِينِي ... أَبْكِي حِذَارًا أَنْ تُفَارِقِينِي

وَتَقْطَعِي حَبْلِي وَتَهْجُرِينِي

---

(١) رواه الترمذي، كِتَابُ «الْمَنَاقِبِ» (٣٧١٤): «اللَّهُمَّ أَدِرِ الحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ». يُنْظر: «السِّلْسِلَة الضَّعِيفَة» (٢٠٩٤).

(٢) عُثْمَانِيًّا، أَيْ: يُفَضِّل عُثْمَانَ عَلَى عَلِيٍّ رضي الله عنه، وَكَانَ حِبَّانُ بْنُ عَطِيَّةَ عَلَوِيًّا، أَيْ: يُفَضِّل عَلِيًّا عَلَى عُثْمَان رضي الله عنه.

* وَعَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه وَأَصْحَابَهُ أَوْلَى بِالْحَقِّ وَأَقْرَبُ إِلَى الْحَقِّ مِنْ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه وَأَصْحَابِهِ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ» [مُسْلِمٌ/ ٢٦٤]. وَفِي رِوَايَةٍ: «أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ» [مُسْلِمٌ/ ٢٦٤، وَابْنُ حِبَّان/ ٦٧٤٠]. فَهَذَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ الْمُقْتَتِلَتَيْنِ - عَلِيٌّ رضي الله عنه وَأَصْحَابُهُ وَمُعَاوِيَةُ رضي الله عنه وَأَصْحَابُهُ - عَلَى حَقٍّ، وَأَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه وَأَصْحَابَهُ كَانُوا أَقْرَبَ إِلَى الْحَقِّ مِنْ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه وَأَصْحَابِهِ. فَإِنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه هُوَ الَّذِي قَاتَلَ الْمَارِقِينَ وَهُمُ «الْخَوَارِجُ الْحَرُورِيَّةُ» الَّذِينَ كَانُوا مِنْ شِيعَةِ عَلِيٍّ رضي الله عنه ثُمَّ خَرَجُوا عَلَيْهِ وَكَفَّرُوهُ وَكَفَّرُوا مَنْ وَالَاهُ وَنَصَبُوا لَهُ الْعَدَاوَةَ وَقَاتَلُوهُ وَمَنْ مَعَهُ. فَكِلَا الطَّائِفَتَيْنِ لَمْ تَكُنْ عَلَى الحَقِّ كُلِّهِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ»، بَلْ ذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ الَّذِينَ اعْتَزَلُوا الْفِتْنَةَ وَقَعَدُوا عَنِ الْقِتَالِ هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى الْحَقِّ كُلِّهِ، وَهُمْ جُمْلَةُ أَعْيَانِ الصَّحَابَةِ: كَسَعْدٍ وَزَيْدٍ وَابْنِ عُمَرَ وَأُسَامَةَ وَمُحَمَّدِ بْنِ مسلمة وَأَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنهم وَهُمْ يَرْوُونَ النُّصُوصَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْقُعُودِ عَنِ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ. فَالْمُصِيبُ بِأَجْرَيْنِ وَالْمُخْطِئُ بِأَجْرٍ، وَقَدْ شَهِدَ اللهُ وَرَسُولُهُ لَهُمْ بِالْعَدَالَةِ.

(٣) ترجمة السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ في: [١٢٩-٣٦٢] وَالْجُنَيْدُ النَّهَاوَنْدِيُّ في: [١٧٨-٣١٤]. وَالحَادِي: الَّذِي يُغَنِّي لِلإِبِلِ؛ لِيَحُثَّهَا عَلَى السَّيْرِ. وَالأَبْيَات مِنَ البَحْر: [الرَّجز]. جميل بثينة.

فَانْظُرْ - رَحِمَكَ اللهُ وَوَفَّقَكَ - إِلَىٰ تَأْثِيرِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ عِنْدَ سَرِيٍّ، حَتَّىٰ أَحَبَّ أَنْ يَطَّلِعَ مِنْهَا الْجُنَيْدُ عَلَىٰ مَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَصْلُحْ لِلاطِّلَاعِ عَلَىٰ مِثْلِهَا إِلَّا الْجُنَيْدُ.

فَإِنَّ أَقْوَامًا فِيْهِمْ كَثَافَةُ طَبْعٍ وَخُشُوْنَةُ فَهْمٍ.

قَالَ بَعْضُهُمْ لَمَّا سَمِعَ مِثْلَ هَذِهِ: إِلَامَ يُشَارُ بِهَذِهِ؟ إِنْ كَانَ إِلَىٰ الْحَقِّ؛ فَالْحَقُّ ﷻ لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِلَفْظِ تَأْنِيثٍ، وَإِنْ كَانَ إِلَىٰ امْرَأَةٍ؛ فَأَيْنَ الزُّهْدُ؟!

وَلَعَمْرِي إِنَّ هَذَا حُدَاءُ أَهْلِ الْغَفْلَةِ إِذَا سَمِعُوْا مِثْلَ هَذَا.

وَلِذَلِكَ يُنْهَىٰ عَنْ سَمَاعِ الْقَصَائِدِ وَأَقْوَالِ أَهْلِ الْغِنَاءِ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ حَمْلُ تِلْكَ الْأَبْيَاتِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ النَّفْسِ وَغَلَبَاتِ الْهَوَىٰ.

وَمِنْ أَيْنَ لَنَا مِثْلُ الْجُنَيْدِ وَسَرِيٍّ؟! وَإِذَا وَجَدْنَا مِثْلَهُمَا؛ فَهُمَا خَبِيْرَانِ بِمَا يَسْمَعَانِ.

وَأَمَّا اعْتِرَاضُ هَذَا الْكَثِيفِ الطَّبْعِ؛ فَالْجَوَابُ: أَنَّ سَرِيًّا لَمْ يَأْخُذِ الْإِشَارَةَ مِنَ اللَّفْظِ، وَلَمْ يَقِسْ ذَلِكَ عَلَىٰ مَطْلُوْبِهِ، فَيُصَيِّرُهُ تَأْنِيثًا أَوْ تَذْكِيرًا.

وَإِنَّمَا أَخَذَ الْإِشَارَةَ مِنَ الْمَعْنَىٰ؛ فَكَأَنَّهُ يُخَاطِبُ حَبِيبَهُ بِمَعْنَىٰ الْأَبْيَاتِ، فَيَقُوْلُ: أَبْكِي حِذَارًا مِنْ إِعْرَاضِكَ وَإِبْعَادِكَ!

فَهَذَا الْحَاصِلُ لَهُ، وَمَا الْتَفَتَ قَطُّ إِلَىٰ تَذْكِيرٍ وَلَا إِلَىٰ تَأْنِيثٍ؛ فَافْهَمْ هَذَا!

وَمَا زَالَ الْمُتَيَقِّظُوْنَ يَأْخُذُوْنَ الْإِشَارَةَ مِنْ مِثْلِ هَذَا، حَتَّىٰ كَانُوْا يَأْخُذُوْنَهَا مِنْ هَذَا الَّذِي تَقُوْلُهُ الْعَامَّةُ وَيُلَقِّبُوْنَهُ بِـ«كَانَ وَكَانَ»(١).

فَرَأَيْتُ بِخَطِّ ابْنِ عَقِيْلٍ، عَنْ بَعْضِ مَشَايِخِهِ الْكِبَارِ: أَنَّهُ سَمِعَ امْرَأَةً تُنْشِدُ(٢):

---

(١) الـ«كَان كَان»: نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الزَّجَل يُقَال أَنَّ مَنْ اِخْتَرَعَهُ هُم البَغْدَادِيُّوْن، فَقَائِلُهُ يَحْكِي مَا كَانَ، وَنَظَمُوا فِيهِ المَوَاعِظ، وَلَهُ نَظْم وَاحِد وَقَافِيَة وَاحِدَة، وَلَكِن الشَّطر الأَوَّل مِنَ البَيْتِ أَطْوَل مِنَ الثَّانِي وَلَا تَكُوْن قَافِيَته مَرْدُوْفَة.

(٢) تَرجَمَة اِبْنُ عَقِيْلٍ في:[٢٠-٣١٩]. وَالبَيْتَان مِن:[المَوَاليَا]. مِنْ بُحُوْر الشِّعْر البَسِيْط، وَلَا يُلْتَزَم في مُرَاعَاة قَوَانِيْن اللُّغَة =

غَسَلْتُ لَهُ طُولَ اللَّيْلِ فَرَكْتُ لَهُ طُولَ النَّهَارِ
خَرَجَ يُعَايِنُ غَيْرِي زَلِقٌ وَقَعَ فِي الطِّينِ

فَأَخَذَ مِنْ ذَلِكَ إِشَارَةً مَعْنَاهَا: يَا عَبْدِي! إِنِّي حَسَّنْتُ خَلْقَكَ، وَأَصْلَحْتُ شَأْنَكَ، وَقَوَّمْتُ بِنْيَتَكَ، فَأَقْبَلْتَ عَلَىٰ غَيْرِي؛ فَانْظُرْ عَوَاقِبَ خِلَافِكَ لِي!

وَقَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: وَسَمِعْتُ امْرَأَةً تَقُولُ مِنْ هَذَا «الْكَانَ وَكَانَ»، كَلِمَةٌ بَقِيَتْ فِي قَلَقِهَا مُدَّةً[١]:

كَمْ كُنْتُ بِاللهِ أَقُولُ لَكْ لِذَا التَّوَانِي غَائِلَهْ
وَلِلْقَبِيحِ خَمِيرَهْ تَبِينُ بَعْدَ قَلِيلِ

قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: «فَمَا أَوْقَعَهُ مِنْ تَخْجِيلٍ عَلَىٰ إِهْمَالِنَا لِأُمُورٍ غَدًا تَبِينُ خَمَائِرُهَا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَىٰ!»[٢].

= العَرَبِيَّةِ مِنْ إِعْرَابِ أَوَاخِرِ الكَلِمَاتِ، وَيَجُوزُ فِيهِ اسْتِعْمَالُ الأَلْفَاظِ الجَارِيَةِ فِي تَخَاطُبِ الْعَوَامِّ مِنَ النَّاسِ.

(١) البيت الأول من: [مجزوء الرجز]، والثاني من: [المجتث]. وَقَلِق: مُضْطَرِبٌ وَمُنْزَعِجٌ.

(٢) يَعْنِي: فَمَا أَشَدَّه مِنْ خَجَلٍ مُؤْلِم سَيُصِيبُنَا بِسَبَبِ إِهمَالِنَا لِأُمُورٍ مُخَبَّأَةٍ يُخْرِجهَا وَيُظْهِرهَا اللهُ تَعَالَىٰ يَوْم القِيَامَة.

(٢٣)

[صَلَاحُ الْبَدَنِ وَالْوَلَدِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ]

*[٢٩٢ - ٤٨][خَاطِرَةٌ]:

[إِصْلَاحُ الْبَدَنِ سَبَبٌ لِصَلَاحِ الدِّينِ]

رَأَيْتُ نَفْسِي كُلَّمَا صَفَا فِكْرُهَا، أَوِ اتَّعَظَتْ بِدَارِجٍ[١]، أَوْ زَارَتْ قُبُورَ الصَّالِحِينَ؛ تَتَحَرَّكُ هِمَّتُهَا فِي طَلَبِ الْعُزْلَةِ، وَالإِقْبَالِ عَلَىٰ مُعَامَلَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

فَقُلْتُ لَهَا يَوْمًا وَقَدْ كَلَّمَتْنِي فِي ذَٰلِكَ: حَدِّثِينِي؛ مَا مَقْصُودُكِ؟! وَمَا نِهَايَةُ مَطْلُوبِكِ؟!

أَتُرَاكِ تُرِيدِينَ مِنِّي أَنْ أَسْكُنَ قَفْرًا لَا أَنِيسَ بِهِ؛ فَتَفُوتُنِي صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ، وَيَضِيعُ مِنِّي مَا قَدْ عَلِمْتُهُ لِفَقْدِ مَنْ أُعَلِّمُهُ، وَأَنْ آكُلَ الْجَشِبَ الَّذِي لَمْ أَتَعَوَّدْهُ؛ فَيَقَعَ نِضْوِي طَلْحًا فِي يَوْمَيْنِ، وَأَنْ أَلْبَسَ الْخَشِنَ الَّذِي لَا أُطِيقُهُ؛ فَلَا أَدْرِي مِنْ كَرْبِ مَحْمُولِي مَنْ أَنَا، وَأَنْ أَتَشَاغَلَ عَنْ طَلَبِ ذُرِّيَّةٍ تَتَعَبَّدُ بَعْدِي؛ مَعَ بَقَاءِ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ الطَّلَبِ؟![٢].

بِاللهِ؛ مَا نَفَعَنِي الْعِلْمُ الَّذِي بَذَلْتُ فِيهِ عُمُرِي إِنْ وَافَقْتُكِ!

وَأَنَا أُعَرِّفُكِ غَلَطَ مَا وَقَعَ لَكِ بِالْعِلْمِ:

اعْلَمِي أَنَّ الْبَدَنَ مَطِيَّةٌ، وَالْمَطِيَّةُ إِذَا لَمْ يُرْفَقْ بِهَا؛ لَمْ تَصِلْ بِرَاكِبِهَا إِلَىٰ الْمَنْزِلِ[٣].

---

(١) دَارِج: مَاتَ وَمَا تَرَكَ نَسْلًا.

(٢) قَفْرًا: مَكَان خَالٍ مِنَ الْمَاء وَالعُشْب وَالْكَلَأ وَالنَّاس. وَأَنِيس: طَيِّبُ النَّفْس يُحَبّ قُرْبُه وَحَدِيثُه. وَالْجَشِب: الْغَلِيظُ الخَشِنُ مِنَ الطَّعَام. وَنِضْوِي: الْمَهْزُولُ مِنَ الإِبِل، وَيُسْتَعْمَل لِلإِنْسَانِ. وَالطَّلْح: الإِعْيَاء وَالسُّقُوط. فَيَكُون «نِضْوِي طَلْحًا»، أَيْ: فَيَسْقُط جِسْمِي الْمَهْزُوْل مَرِيضًا. وَالْخَشِن، أَيْ: السَّمِيكُ الغَلِيظُ الرَّدِيء النَّسْج.

(٣) الْمَطِيَّة: مَا يُرْكَب وَيُمْتَطَىٰ كَالْبَعِيرِ وَالنَّاقَة. وَتَقُوْلُ: اتَّخَذَهُ مَطِيَّةً لِبُلُوْغِ مَآرِبه: جَعَلَهُ وَسِيلَة.

وَلَيْسَ مُرَادِي بِالرِّفْقِ الْإِكْثَارَ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَإِنَّمَا أَعْنِي أَخْذَ الْبُلْغَةِ الصَّالِحَةِ لِلْبَدَنِ(١)؛ فَحِينَئِذٍ يَصْفُو الْفِكْرُ، وَيَصِحُّ الْعَقْلُ، وَيَقْوَىٰ الذِّهْنُ.

أَلَا تَرَىٰ(٢) إِلَىٰ تَأْثِيرِ الْمُعَوِّقَاتِ عَنْ صَفَاءِ الذِّهْنِ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يَقْضِي الْقَاضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ»(٣)، وَقَاسَ الْعُلَمَاءُ عَلَىٰ ذَلِكَ الْجُوعَ، وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنْ كَوْنِهِ حَاقِنًا أَوْ حَاقِبًا(٤)؟! وَهَلِ الطَّبْعُ إِلَّا كَكَلْبٍ يَشْغَلُ الْآكِلَ؛ فَإِذَا رَمَىٰ لَهُ مَا يَتَشَاغَلُ بِهِ؛ طَابَ لَهُ الْأَكْلُ؟!

فَأَمَّا الِانْفِرَادُ وَالْعُزْلَةُ؛ فَعَنِ الشَّرِّ لَا عَنِ الْخَيْرِ، وَلَوْ كَانَ فِيهَا لَكِ وَقْعُ خَيْرٍ؛ لَنُقِلَ ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَنْ أَصْحَابِهِ ﷺ(٥).

هَيْهَاتَ! لَقَدْ عَرَفْتِ أَنَّ أَقْوَامًا دَامَ بِهِمُ التَّقَلُّلُ وَالْيُبْسُ إِلَىٰ أَنْ تَغَيَّرَ فِكْرُهُمْ، وَقَوِيَ الْخَلْطُ السَّوْدَاوِيُّ عَلَيْهِمْ(٦)، فَاسْتَوْحَشُوا مِنَ النَّاسِ!

وَمِنْهُمْ مَنِ اجْتَمَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَآكِلِ الرَّدِيَّةِ أَخْلَاطٌ مَجَّةٌ(٧)، فَبَقِيَ الْيَوْمَ وَالْيَوْمَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ لَا يَأْكُلُ، وَهُوَ يَظُنُّ ذَلِكَ مِنْ أَمْدَادِ اللُّطْفِ، وَإِذَا بِهِ مِنْ سُوءِ الْهَضْمِ!

وَفِيهِمْ مَنْ تَرَقَّىٰ بِهِ الْخَلْطُ إِلَىٰ رُؤْيَةِ الْأَشْبَاحِ، فَيَظُنُّهَا الْمَلَائِكَةَ!!

فَاللهَ اللهَ فِي الْعِلْمِ! وَاللهَ اللهَ فِي الْعَقْلِ!

---

(١) الْبُلْغَةِ: مَا يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنَ الْعَيْشِ.

(٢) هَكَذَا فِي الأَصل وَالمَخْطُوط؛ وَلَعَلَّ الأَوْلَى: [أَلَا تَرِينَ]؛ لِأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ مَعَ نَفْسِهِ فِيمَا سَبَقَ وَفِيمَا يَلِي مِنَ الْكَلَامِ.

(٣) رواه ابن ماجة في «سننه» كِتَابُ «الْأَحْكَام» بَابُ «لَا يَحْكُمُ الْحَاكِمُ وَهُوَ غَضْبَانُ» حديث (٢٣١٦).

(٤) الحَاقِن: مَنْ يُدَافِع الْبَوْل. وَالْحَاقِب: مَنْ يُدَافِع الْغَائِط. وَالْحَازِق: الَّذِي ضَاقَ عَلَيْهِ الْخُف فَحَزَقَ قَدَمَهُ وَضَغَطَهَا.

(٥) تُرَاجَع الخَاطِرَة رَقَم: [١٧٠-٨٢]وَ[١٧١-٢٤].

(٦) السَّوْدَاوِيُّ: الْوِسْوَاس أَوْ الْهُجَاس السَّوْدَاوِيُّ: حَالَةٌ مَرَضِيَّةٌ تَتَّصِفُ بِالْمُبَالَغَةِ فِي القَلَقِ وَالتَّشَاؤُم، قَايِلٌ فِي أَكْثَرِهِ.

(٧) أَخْلَاطٌ: مُفْرَد: خِلْط: وَهُوَ مَا تَرَكَّبَ مِنْ عِدَّةِ أَشْيَاء، وَأَخْلَاطُ الْبَدَن، أَمْزِجَتُه الأَرْبَعَةُ الَّتِي عَلَيْهَا بُنْيَتُه: الصَّفْرَاءُ وَالْبَلْغَمُ وَالدَّمُ وَالسَّوْدَاءُ (الأَمْشَاج؛ أَي: الأَوْسَاخ الَّتِي تَتَجَمَّع فِي البَطنِ. وَمَجَّةٌ: لَا تَقْبَلُهَا النَّفْس وَتَرْفُضهَا.

فَإِنَّ نُورَ الْعَقْلِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَعَرَّضَ لِإِطْفَائِهِ، وَالْعِلْمُ لَا يَجُوزُ الْمَيْلُ إِلَىٰ تَنْقِيصِهِ؛ فَإِذَا حُفِظَا؛ حَفِظَا وَظَائِفَ الزَّمَانِ، وَدَفَعَا مَا يُؤْذِي، وَجَلَبَا مَا يُصْلِحُ، وَصَارَتِ الْقَوَانِينُ مُسْتَقِيمَةً فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمُخَالَطَةِ.

فَقَالَتْ لِيَ النَّفْسُ: فَوَظِّفْ لِي وَظِيفَةً، وَاحْسِبْنِي مَرِيضًا قَدْ كَتَبْتُ لَهُ شُرْبَةً.

فَقُلْتُ لَهَا: قَدْ دَلَلْتُكِ عَلَىٰ الْعِلْمِ، وَهُوَ طَبِيبٌ مُلَازِمٌ، يَصِفُ كُلَّ لَحْظَةٍ لِكُلِّ دَاءٍ يَعْرِضُ دَوَاءً يُلَائِمُ.

وَفِي الْجُمْلَةِ: يَنْبَغِي لَكِ مُلَازَمَةُ تَقْوَىٰ اللهِ ﷻ فِي الْمَنْطِقِ وَالنَّظَرِ وَجَمِيعِ الْجَوَارِحِ، وَتَحَقُّقُ الْحَلَالِ فِي الْمَطْعَمِ، وَإِيدَاعُ كُلِّ لَحْظَةٍ مَا يَصْلُحُ لَهَا مِنَ الْخَيْرِ، وَمُنَاهَبَةُ الزَّمَانِ فِي الْأَفْضَلِ[1]، وَمُجَانَبَةُ مَا يُؤَدِّي إِلَىٰ مَا يُؤْذِي مِنْ نَقْصِ رِبْحٍ، أَوْ وُقُوعِ خُسْرَانٍ! وَلَا تَعْمَلِي عَمَلًا إِلَّا بَعْدَ تَقْدِيمِ النِّيَّةِ.

وَتَأَهَّبِي لِمُزْعِجِ الْمَوْتِ؛ فَكَأَنْ قَدْ[2]، وَمَا عِنْدَكِ مِنْ مَجِيئَةٍ فِي أَيِّ وَقْتٍ يَكُونُ!

وَلَا تَتَعَرَّضِي لِمَصَالِحِ الْبَدَنِ، بَلْ وَفِّرِيهَا عَلَيْهِ وَنَاوِلِيهِ إِيَّاهَا عَلَىٰ قَانُونِ الصَّوَابِ، لَا عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ الْهَوَىٰ؛ فَإِنَّ إِصْلَاحَ الْبَدَنِ سَبَبٌ لِإِصْلَاحِ الدِّينِ!

وَدَعِي الرُّعُونَةَ الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْهَا الْجَهْلُ لَا الْعِلْمُ؛ مِنْ قَوْلِ النَّفْسِ: فُلَانٌ يَأْكُلُ الْخَلَّ وَالْبَقْلَ! وَفُلَانٌ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ!

فَاحْمِلِي مَا تُطِيقِينَ وَمَا قَدْ عَلِمْتِ قُوَّةَ الْبَدَنِ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْبَهِيمَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ إِلَىٰ نَهَرٍ أَوْ سَاقِيَةٍ، فَضُرِبَتْ لِتَقْفِزَ؛ لَمْ تَفْعَلْ حَتَّىٰ تَزِنَ نَفْسَهَا؛ فَإِنْ عَلِمَتْ فِيهَا قُوَّةَ الطَّفْرِ؛ طَفَرَتْ[3]، وَإِنْ عَلِمَتْ أَنَّهَا لَا تُطِيقُ؛ لَمْ تَفْعَلْ، وَلَوْ قُتِلَتْ.

---

(١) وَمُنَاهَبَةُ الزَّمَانِ؛ أَيْ: اغْتِنَام الوَقْت وَاستِغْلَال كُلّ لَحظَة وَفُرصَة فِيهِ لِفعْلِ أَفضَل مَا يُمْكِن عَمَله مِنْ أَعمَالِ البِرّ.

(٢) فَكَأَنْ قَدْ، أَيْ: فَكَأَنْ قَدْ جَاءَ الْمَوْتُ؛ فَيَحْذِفُ الفِعْل بَعْدَ: «فَكَأَنْ قَدْ» وَكَأَنَّهُ مَذْكُورٌ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ مَا يَدُلّ عَلَيْهِ.

(٣) الطَّفْرِ: الْوُثُوبُ فِي ارْتِفَاعٍ. والطَّفْرَةُ: الوَثْبَةُ؛ قَفْزَة.

وَلَيْسَ كُلُّ الأَبْدَانِ تَتَسَاوَىٰ فِي الإِطَاقَةِ، وَلَقَدْ حَمَلَ أَقْوَامٌ مِنَ الْمُجَاهَدَاتِ فِي بِدَايَاتِهِمْ أَشْيَاءَ أَوْجَبَتْ أَمْرَاضًا قَطَعَتْهُمْ عَنْ خَيْرٍ، وَتَسَخَّطَتْ قُلُوبُهُمْ بِوُقُوعِهَا.

فَعَلَيْكَ بِالْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

*[٢٩٣ - ٣٤٣][خَاطِرَةٌ]:

[الْعَاقِلُ يُعْطِي بَدَنَهُ مِنَ الْغِذَاءِ مَا يُوَافِقُهُ]

لا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَحْمِلَ عَلَىٰ بَدَنِهِ مَا لَا يُطِيقُ؛ فَإِنَّ الْبَدَنَ كَالرَّاحِلَةِ؛ إِنْ لَمْ يُرْفَقْ بِهَا؛ لَمْ تَصِلْ بِالرَّاكِبِ.

فَتَرَىٰ فِي النَّاسِ مِنْ يَتَزَهَّدُ، وَقَدْ رَبَّىٰ جَسَدَهُ عَلَىٰ التَّرَفِ، فَيُعْرِضُ عَمَّا أَلِفَهُ، فَتَتَجَدَّدُ لَهُ الأَمْرَاضُ، فَتَقْطَعُهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَقَدْ قِيلَ: «عَوِّدُوا كُلَّ بَدَنٍ مَا اعْتَادَ»[1].

وَقَدْ قُرِّبَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ ضَبٌّ، فَقَالَ: «أَجِدُنِي أَعَافُهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِأَرْضِ قَوْمِي»[2].

وَفِي حَدِيثِ الْهِجْرَةِ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ طَلَبَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ الظِّلَّ، وَفَرَشَ لَهُ فَرْوَةً، وَصَبَّ عَلَىٰ الْقَدَحِ الَّذِي فِيهِ اللَّبَنُ مَاءً حَتَّىٰ بَرَدَ[3].

---

(١) قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ ﷺ: «الْحَدِيثُ الدَّائِرُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ: «الْحِمْيَةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ، وَالْمَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ، وَعَوِّدُوا كُلَّ جِسْمٍ مَا اعْتَادَ» مِنْ كَلَامِ الحَارِثِ بنِ كَلَدَةَ طَبِيبِ الْعَرَبِ، وَلَا يَصِحُّ رَفْعُهُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ ... وَأَمَّا الْعَادَةُ فَلِأَنَّهَا كَالطَّبِيعَةِ لِلإِنْسَانِ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ: الْعَادَةُ طَبْعٌ ثَانٍ، وَهِيَ قُوَّةٌ عَظِيمَةٌ فِي الْبَدَنِ فَالْعَادَةُ رُكْنٌ عَظِيمٌ فِي حِفْظِ الصِّحَّةِ، وَمُعَالَجَةِ الأَمْرَاضِ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ الْعِلَاجُ النَّبَوِيُّ بِإِجْرَاءِ كُلِّ بَدَنٍ عَلَىٰ عَادَتِهِ فِي اسْتِعْمَالِ الأَغْذِيَةِ وَالأَدْوِيَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ» اهـ [يُرَاجَع: «زاد المعاد(ج٤/ هَدْيِهِ ﷺ فِي الْحِمْيَةِ/ ص١٧٣/ وَهَدْيِهِ ﷺ فِي عِلَاجِ الأَبْدَانِ/ ص١٨١].

(٢) رواه البخاري، كِ: «الأَطْعِمَةِ»(٥٣٩١). وَكِ: «الذَّبَائِحِ وَالصَّيْدِ»(٥٥٣٧). ومسلم، كِ: «الصَّيْدِ وَالذَّبَائِحِ»(١٩٤٥، ١٩٤٦). وَلَفْظُ الْحَدِيثِ: «لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي، فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ».

(٣) رواه البخاري، كِتَابُ «مَنَاقِبِ الأَنْصَارِ»(٣٩١٧). وَسَبَقَ إِيرَادُ الْقِصَّةِ بِالْكَامِلِ فِي هَامِشِ الْخَاطِرَةِ: [١٤٨-١٥٢].

وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ قَوْمٍ، فَقَالَ: «إِنْ كَانَ عِنْدَكُمْ مَاءٌ بَاتَ فِي شَنٍّ؛ وَإِلَّا؛ كَرَعْنَا»[1].

وَكَانَ ﷺ يَأْكُلُ لَحْمَ الدَّجَاجِ[2].

وَفِي «الصَّحِيحِ»: أَنَّهُ كَانَ يُحِبُّ الْحَلْوَىٰ وَالْعَسَلَ[3].

وَكَانَ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ؛ أَكَلَ مَا حَضَرَ[4].

وَلَعَمْرِي؛ إِنَّ فِي الْعَرَبِ وَأَهْلِ السَّوَادِ[5] مَنْ لَا يُؤَثِّرُ عِنْدَهُ التَّخَشُّنُ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَلْبَسِ، وَذَاكَ إِذَا جَرَىٰ بَعْدَ تَرْبِيَتِهِ عَلَىٰ عَادَتِهِ؛ لَمْ يَسْتَضِرَّ.

فَأَمَّا مَنْ قَدْ أَلِفَ اللُّطْفَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا غَيَّرَ حَالَتَهُ؛ تَغَيَّرَ بَدَنُهُ، وَقَلَّتْ عِبَادَتُهُ.

وَقَدْ كَانَ الْحَسَنُ يُدِيمُ أَكْلَ اللَّحْمِ، وَيَقُولُ: «لَا رَغِيفَي مَالِكٍ، وَلَا صَحْنَي فَرْقَدٍ»[6].

وَكَانَ ابْنُ سِيرِينَ لَا يُخْلِي مَنْزِلَهُ مِنْ حَلْوَىٰ[7].

وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يُسَافِرُ، وَفِي سُفْرَتِهِ الْحَمَلُ الْمَشْوِيُّ وَالْفَالُوذَجُ[8].

---

(١) رواه البخاري، كِتَابُ «الأَشْرِبَةِ» بَابُ «الكَرْعِ فِي الحَوْضِ» (٥٦٢١). وَسَبَقَ التَّعْلِيقُ عَلَيْهِ فِي الخَاطِرَة: [٢٤٨-١٥٢].

(٢) رواه البخاري، كِتَابُ «الذَّبَائِحِ وَالصَّيْدِ» بَابُ «لَحْمِ الدَّجَاجِ» حديث (٥٥١٧). تُرَاجَع الخَاطِرَة رَقَم: [١٨٢-١٩].

(٣) رواه البخاري، كِتَابُ «الأَطْعِمَةِ» بَابُ «الحَلْوَاءِ وَالعَسَلِ» حديث (٥٤٣١). تُرَاجَع الخَاطِرَة رَقَم: [١٨٢-١٩].

(٤) رَوَىٰ البَيْهَقِي فِي «الشُّعَب» (٥٥٤٢) عَنْ جَابِرٍ قَالَ: أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِي، فَأَتَىٰ بَعْضَ بُيُوتِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: «هَلْ عِنْدَكُمْ غَدَاءٌ؟» فَقَالُوا: لَا، إِلَّا فِلَقٌ فَقَالَ: «هَاتُوهُ» ثُمَّ قَالَ: «هَلْ مِنْ أُدُمٍ؟» قَالُوا: لَا، إِلَّا خَلٌّ، فَقَالَ لَهُمْ: «هَاتُوهُ، فَنِعْمَ الإِدَامُ الْخَلُّ» [يُنْظر: «زَادَ المَعَاد» «هَدْيُهُ ﷺ فِي الطَّعَامِ، «إِحْيَاء عُلُوم الدِّين»» آدَاب المَعِيشَة وَأَخْلَاق النُّبُوَّة].

(٥) أَهْلُ السَّوَادِ: سُكَّان القُرَىٰ وَأَرَاضِي الزِّرَاعَة؛ سُمُّوا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ العَرَبَ تُسَمِّي الأَخْضَر أَسْوَد؛ لِأَنَّهُ يُرَىٰ كَذَلِكَ مِنْ بُعْدٍ، وَمِنْهُ: سَوَاد العِرَاق. وَأَرْضُ السَّوَادِ: اِسْمٌ أُطْلِقَ عَلَىٰ الأَرض الرُّسُوبِيَّة عَلَىٰ ضِفَافِ نَهْرِي دِجْلَة وَالفُرَات.

(٦) الحَسَن في: [٥٩-٨٧]، وَابْن دِينَارٍ في: [١٣٣-٢٥]. وَفَرْقَدًا السَّبْخِيّ في: [١٨٢-١٩]. وَكَأَنَّ الْحَسَن لَا يَتَقَشَّف مثلهما. وَالْخَبَر: «الطبقات» (ج٧/ ص١٢٥٨ ت: الْحَسَن)، «التاريخ الكبير» للبخاري. (ج٧/ ص٢٢٨/ ت: كُلْثُوم بْن مُحَمد).

(٧) تقدمت ترجمة ابْنُ سِيرِينَ رحمه الله في الخاطرة: [٢٥-٣٢٢].

(٨) سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ في: [١٤-١١٨]، وَالْحَمَلُ: الصَّغِيرُ مِنْ أَوْلَادِ الضَّأْنِ. وَالْفَالُوذَجُ: حَلْوَاء مِنَ الدَّقِيقِ وَالعَسَلِ وَالْمَاء.

وَقَالَتْ رَابِعَةُ: «مَا أَرَىٰ لِبَدَنٍ يُرَادُ بِهِ الْعَمَلُ للهِ إِذَا أَكَلَ الْفَالُوْذَجَ عَيْبًا»[(١)].

فَمَنْ أَلِفَ التَّرَفَ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَلَطَّفَ بِنَفْسِهِ إِذَا أَمْكَنَهُ.

وَقَدْ عَرَفْتُ هَذَا مِنْ نَفْسِي؛ فَإِنِّي رُبِّيْتُ فِي تَرَفٍ، فَلَمَّا ابْتَدَأْتُ فِي التَّقَلُّلِ وَهَجْرِ الْمُشْتَهَىٰ؛ أَثَّرَ مَعِي مَرَضًا، قَطَعَنِي عَنْ كَثِيرٍ مِنَ التَّعَبُّدِ، حَتَّىٰ إِنِّي قَرَأْتُ فِي أَيَّامٍ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَةَ أَجْزَاءٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَتَنَاوَلْتُ يَوْمًا مَا لَا يَصْلُحُ، فَلَمْ أَقْدِرْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَىٰ قِرَاءَتِهَا، فَقُلْتُ: إِنَّ لُقْمَةً تُؤَثِّرُ قِرَاءَةَ خَمْسَةِ أَجْزَاءٍ، بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ؛ إِنَّ تَنَاوُلَهَا لَطَاعَةٌ عَظِيمَةٌ! وَإِنَّ مَطْعَمًا يُؤْذِي الْبَدَنَ، فَيَفُوتُهُ فِعْلُ خَيْرٍ يَنْبَغِي أَنْ يُهْجَرَ!

وَقَدْ رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ حَضَرَ عِنْدَهُ، وَقَدْ تَغَيَّرَ مِنَ التَّقَشُّفِ، فَقَالَ لَهُ: «مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا؟!»[(٢)].

فَالْعَاقِلُ يُعْطِي بَدَنَهُ مِنَ الْغِذَاءِ مَا يُوَافِقُهُ، كَمَا يُنَقِّي الْغَازِي شَعِيرَ الدَّابَّةِ.

وَلَا تَظُنَّنَّ أَنِّي آمُرُ بِأَكْلِ الشَّهَوَاتِ، وَلَا بِالْإِكْثَارِ مِنَ الْمَلْذُوذِ؛ إِنَّمَا آمُرُ بِتَنَاوُلِ مَا يَحْفَظُ النَّفْسَ، وَأَنْهَىٰ عَمَّا يُؤْذِي الْبَدَنَ؛ فَأَمَّا التَّوَسُّعُ فِي الْمَطَاعِمِ؛ فَإِنَّهُ سَبَبُ النَّوْمِ، وَالشَّبَعُ يُعْمِي الْقَلْبَ، وَيَهْزُلُ الْبَدَنَ وَيُضْعِفُهُ[(٣)].

فَافْهَمْ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ؛ فَالطَّرِيْقُ هِيَ الْوُسْطَىٰ[(٤)].

---

(١) تقدمت ترجمة رَابِعَةُ العَدَوِيَّةُ في الخاطرة: [٦٦-٥٥].

(٢) أَخرَجَهُ البُخَارِيّ في «التَّارِيخ الكَبِير» (ج٧/ ص٢٣٨). وَالطَّيَالِسِيّ في «مُسْنَدِهِ» (ح/ ٣٢). «الصَّحِيْحَة» (٢٦٢٣). عَنْ كَهْمَس الهِلالِيّ، قَالَ: أَسْلَمْتُ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخبَرتُهُ بِإِسْلَامِي، فَمَكَثْتُ حَوْلًا، وَقَدْ ضَمِرْتُ وَنَحَلَ جِسْمِي، فَخَفَّضَ فِيَّ البَصَرَ ثُمَّ رَفَعَهُ، قُلْتُ: أَمَا تعرفُنِي؟ قَالَ: «وَمَنْ أَنْتَ؟» قُلْتُ: أَنَا كَهْمَسٌ الهِلالِيُّ، قَالَ: «فَمَا بَلَغَ بِكَ مَا أَرَىٰ؟» قُلْتُ: مَا أفطَرتُ بَعدَكَ نَهَارًا، وَلَا نِمتُ لَيْلًا، فَقَالَ: «وَمَنْ أَمَرَكَ أَنْ تُعَذِّبَ نَفْسَكَ؟.... الحَدِيث».

(٣) وَيَهْزُلُ الْبَدَنَ: صَارَ ضَعِيفَ الْجِسْمِ نَحِيْلًا. وفي المطبوع: [وَيُرَهِّلُ]؛ أَيْ: يُصِيبُ الْجِسْمَ بِالاضطِرَابِ وَالاسْتِرخَاء.

(٤) تُرَاجَع الخَاطِرَة رَقْم: [١٠٨-١٧١]. [مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرَىٰ التَّلَطُّف بِالنَّفْسِ؛ فَلْيَنْظُر فِي سِيَرِ الرَّسُوْلِ ﷺ].

*[٢٩٤-٣٠٠][خَاطِرَةٌ]:

[الاعْتِدَالُ فِي العَمَلِ مَصْلَحَةٌ لِلْبَدَنِ وَالقَلْبِ مَعًا]

حَضَرْنَا يَوْمًا جِنَازَةَ شَابٍّ مَاتَ أَحْسَنَ مَا كَانَتِ الدُّنْيَا لَهُ(١)؛ فَرَأَيْتُ مِنْ ذَمِّ النَّاسِ لِلدُّنْيَا، وَعَيْبِ مَنْ سَكَنَ إِلَيْهَا، وَالتَّقْبِيحِ لِلْغَافِلِينَ عَنِ الاسْتِعْدَادِ لِهَذَا الْمَصْرَعِ أَمْرًا كَبِيرًا مِنَ الْحَاضِرِينَ.

فَقُلْتُ: نِعْمَ مَا قُلْتُمْ، وَلَكِنِ اسْمَعُوا مِنِّي مَا لَمْ تَسْمَعُوهُ:

أَعْجَبُ الأَشْيَاءِ أَنَّ الْعَاقِلَ إِذَا عَلِمَ قُرْبَ هَذَا الْمَصْرَعِ مِنْهُ؛ أَوْجَبَ عَلَيْهِ عَقْلُهُ الْبِدَارَ بِالْعَمَلِ، وَالْقَلَقَ مِنَ الْخَوْفِ(٢).

وَقَدِ اشْتَدَّ ذَلِكَ بِأَقْوَامٍ، فَهَامُوا فِي الْبَرَارِي، وَطَوَوُا الأَيَّامَ بِالْمَجَاعَةِ، وَدَامُوا عَلَىٰ سَهَرِ اللَّيْلِ، وَلازَمُوا الْمَقَابِرَ، فَهَلَكُوا سَرِيعًا(٣).

وَلَعَمْرِي؛ إِنَّ مَا خَافُوهُ يَسْتَحِقُّ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ.

وَلَكِنْ نَرَىٰ الْعَقْلَ الَّذِي أَوْجَبَ هَذَا الْقَلَقَ، قَدْ أَمَرَ بِمَا يُوجِبُ السُّكُونَ، فَقَالَ: إِنَّمَا خُلِقَ هَذَا الْبَدَنُ لِيَحْمِلَ النَّفْسَ، كَمَا تَحْمِلُ النَّاقَةُ الرَّاكِبَ، وَلا بُدَّ مِنَ التَّلَطُّفِ بِالنَّاقَةِ، لِيَحْصُلَ الْمَقْصُودُ مِنَ السَّيْرِ.

وَلا يَحْسُنُ فِي الْعَقْلِ دَوَامُ السَّهَرِ، وَطُولُ الْقَلَقِ؛ لِأَنَّهُ يُؤَثِّرُ فِي الْبَدَنِ، فَيَفُوتُ أَكْثَرُ الْمَقْصُودِ.

كَيْفَ وَقَدْ خُلِقَ بَدَنُ الآدَمِيِّ خَلْقًا لَطِيفًا؛ فَإِذَا هَجَرَ الدَّسَمَ؛ نَشِفَ الدِّمَاغُ، فَإِذَا دَامَ عَلَىٰ السَّهَرِ؛ قَوِيَ الْيُبْسُ، فَإِذَا لازَمَ الْحُزْنَ، مَرِضَ الْقَلْبُ؟!

---

(١) أَيْ: مَاتَ فِي كَامِلِ صِحَّتِهِ وَعَافِيَتِهِ، وَالدُّنْيَا مُنْفَتِحَةٌ عَلَيْهِ.

(٢) الْبِدَارُ بِالْعَمَلِ؛ أَيْ: الإِسْرَاعُ وَالتَّعْجِيلُ بِالْعَمَلِ. وَالْقَلَقَ مِنَ الْخَوْفِ؛ أَيْ: شِدَّةُ الاِضْطِرَابِ وَالاِنْزِعَاجِ.

(٣) يَعْنِي: اشْتَدَّ الْخَوْفُ وَالاِضْطِرَابُ وَالاِنْزِعَاجُ بِأَقْوَامٍ؛ فَذَهَبُوا فِي الصَّحْرَاءِ بَيْنَ الْحَيْرَةِ وَالتَّرَدُّدِ؛ وَقَطَعُوا الأَيَّامَ وَقَدْ بَلَغَ بِهِمُ الْجُوعُ مَبْلَغَه، وَوَاظَبُوا عَلَىٰ سَهَرِ اللَّيْلِ، وَأَقَامُوا عِنْدَ الْمَقَابِرِ وَلَمْ يُفَارِقُوهَا؛ فَهَلَكُوا سَرِيعًا.

فَلَا بُدَّ مِنَ التَّلَطُّفِ بِالْبَدَنِ؛ بِتَنَاوُلِ مَا يُصْلِحُهُ، وَبِالْقَلْبِ؛ بِمَا يَدْفَعُ الْحُزْنَ الْمُؤْذِيَ لَهُ، وَإِلَّا؛ فَمَتَىٰ دَامَ الْمُؤْذِي؛ عَجِلَ التَّلَفُ.

ثُمَّ يَأْتِي الشَّرْعُ بِمَا قَدْ قَالَهُ الْعَقْلُ: فَيَقُولُ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا؛ فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ»[1]. وَيَقُولُ: «كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»[2]. وَيَحُثُّ عَلَىٰ النِّكَاحِ[3].

وَدَوَامُ الْقَلَقِ وَالْيُبْسِ[4] يَتْرُكُ الزَّوْجَةَ كَالْأَرْمَلَةِ، وَالْوَلَدَ كَالْيَتِيمِ؛ وَلَا وَجْهَ لِلتَّشَاغُلِ بِالْعِلْمِ مَعَ هَذَا الْقَلَقِ.

وَمَنْ أَرَادَ مِصْدَاقَ مَا قُلْتُهُ؛ فَلْيَتَأَمَّلْ حَالَةَ الرَّسُولِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يُعَدِّلُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَوْفِ فَيُمَازِحُ، وَيُسَابِقُ عَائِشَةَ، وَيُكْثِرُ مِنَ التَّزَوُّجِ، وَكَانَ يَتَلَطَّفُ بِبَدَنِهِ؛ فَيَخْتَارُ الْمَاءَ الْبَائِتَ، وَيُحِبُّ الْحَلْوَىٰ وَاللَّحْمَ[5].

وَلَوْلَا مُسَاكَنَةُ نَوْعِ غَفْلَةٍ[6]؛ لَمَا صَنَّفَ الْعُلَمَاءُ، وَلَا حُفِظَ الْعِلْمُ، وَلَا كُتِبَ الْحَدِيثُ؛ لِأَنَّ مَنْ يَقُولُ: رُبَّمَا مُتُّ الْيَوْمَ، كَيْفَ يَكْتُبُ؟! وَكَيْفَ يَسْمَعُ وَيُصَنِّفُ؟!

فَلَا يَهُولَنَّكُمْ مَا تَرَوْنَ مِنْ غَفْلَةِ النَّاسِ عَنِ الْمَوْتِ، وَعَدَمِ ذِكْرِهِ حَقَّ ذِكْرِهِ؛ فَإِنَّهَا نَعْمَةٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ، بِهَا تَقُومُ الدُّنْيَا وَيَصْلُحُ الدِّينُ.

---

(١) رواه البخاري، كِتَابُ «التَّهَجُّدِ»(١١٥٣). عَنْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو، قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ؟» قُلْتُ: إِنِّي أَفْعَلُ ذَلِكَ، قَالَ: «فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَتْ عَيْنُكَ -؛ أَيْ: ضَعُفَ بَصَرُهَا -، وَنَفِهَتْ نَفْسُكَ - أَيْ: أَعيتْ -، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ». وَفِي رِوَايَةٍ: «فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا». كِتَابُ «الصَّوْمِ»(١٩٧٥).

(٢) رواه أحمد في «المسند»(٦٤٩٥). وأبو داود في «سننه» كِتَابُ «الزكاة» بَابُ «في صلة الرحم»(١٦٩٢).

(٣) أَيْ: الشَّرْعَ يَحُثُّ عَلَىٰ النِّكَاحِ كَمَا حَثَّ عَلَيْهِ العَقْل، وَالنُّصُوصُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ فِي ذَلِكَ مُتَضَافِرَةٌ ثَابِتَةٌ.

(٤) الْيُبْسِ: الْجَفَاف، وَهُوَ نَقِيضُ الرُّطُوبَةِ وَاللِّين. فَكَأَنَّهُ جَافٌ فِي الْمُعَامَلَةِ مَعَ زَوْجِهِ وَوَلَدِه.

(٥) تَقَدَّمَ التَّعْلِيقُ عَلَىٰ هَذَا كُلِّه فِي الخَوَاطِر: [٣٧-٩٦] و[٢٨-١٧١] و[١٢٩-٣٦٢] و[١٨٢-١٩] و[١٨٥-٣٦] و[٢٧٧-٣٤٣].

(٦) يَعْنِي: وَلَوْلَا نَوْع سَهْو عَنْ بَال الإِنْسَان؛ لِأَهْوَالِ الْمَوْت وَمَا يَعقُبُه؛ لَمَا سَعَىٰ الإِنْسَان فِي دُنْيَاه.

وَإِنَّمَا تُذَمُّ قُوَّةُ الْغَفْلَةِ الْمُوجِبَةِ لِلتَّفْرِيطِ، وَإِهْمَالِ الْمُحَاسَبَةِ لِلنَّفْسِ، وَتَضْيِيعِ الزَّمَانِ فِي غَيْرِ التَّزَوُّدِ، وَرُبَّمَا قَوِيَتْ فَحَمَلَتْ عَلَىٰ الْمَعَاصِي.

فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ بِقَدْرٍ؛ كَانَتْ كَالْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ، لَابُدَّ مِنْهُ؛ فَإِنْ كَثُرَ؛ صَارَ الطَّعَامُ زُعَاقًا[1].

فَالْغَفْلَةُ تُمْدَحُ إِذَا كَانَتْ بِقَدْرٍ كَمَا بَيَّنَّا، وَمَتَىٰ زَادَتْ؛ وَقَعَ الذَّمُّ.

فَافْهَمْ مَا قُلْتُهُ، وَلاتَقُلْ: فُلانٌ شَدِيدُ الْيَقَظَةِ مَا يَنَالُ اللَّيْلَ، وَفُلانٌ غَافِلٌ يَنَامُ أَكْثَرَ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ غَفْلَةً تُوجِبُ مَصْلَحَةَ الْبَدَنِ وَالْقَلْبِ لا تُذَمُّ، وَالسَّلامُ.

---

*[٢٩٥-١٦٢][خَاطِرَةٌ]:

[طَرِيقُ الْمُصْطَفَىٰ ﷺ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ، وَالتَّلَطُّفُ بِالْبَدَنِ]

الْجَادَّةُ السَّلِيمَةُ، وَالطَّرِيقُ الْقَوِيمَةُ[2]: الِاقْتِدَاءُ بِصَاحِبِ الشَّرْعِ، وَالْبِدَارُ إِلَىٰ الِاسْتِنَانِ بِهِ؛ فَهُوَ الْكَامِلُ الَّذِي لا نَقْصَ فِيهِ.

فَإِنَّ خَلْقًا كَثِيرًا انْحَرَفُوا إِلَىٰ جَادَّةِ الزُّهْدِ، وَحَمَّلُوا أَنْفُسَهُمْ فَوْقَ الْجُهْدِ، فَأَفَاقُوا فِي أَوَاخِرِ الْعُمُرِ؛ وَالْبَدَنُ قَدْ نَهِكَ، وَفَاتَتْ أُمُورٌ مُهِمَّةٌ مِنَ الْعِلْمِ وَغَيْرِهِ.

وَإِنَّ أَقْوَامًا انْحَرَفُوا إِلَىٰ صُورَةِ الْعِلْمِ؛ فَبَالَغُوا فِي طَلَبِهِ، فَأَفَاقُوا فِي أَوَاخِرِ قَدَمٍ؛ وَقَدْ فَاتَهُمُ الْعَمَلُ بِهِ[3].

فَطَرِيقُ الْمُصْطَفَىٰ ﷺ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ، وَالتَّلَطُّفُ بِالْبَدَنِ؛ كَمَا أَوْصَىٰ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، وَقَالَ لَهُ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[4].

---

(١) زُعَاقًا: قَاتِلًا. وَفِي الْمَطْبُوعِ: [زُعَاقًا]؛ أَيْ: مُرًّا لَا يُطَاقُ أَكْلُهُ. وَهُوَ أَقْرَبُ لِمَعْنَىٰ الْكَلَامِ، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ لَهُ مَعْنًىٰ أَيْضًا.

(٢) أَيْ: الطَّرِيقُ الأَعْظَمُ الَّذِي يَجْمَعُ الطُّرُقَ، وَالخَالِي مِنَ الغِشِّ وَالخِدَاعِ، المُعْتَدِل الغَيْر مِعْوَجٍ؛ هُوَ طَرِيقُ المُصْطَفَىٰ.

(٣) أَوَاخِرِ قَدَمٍ: قَدَم؛ سَبَقَ؛ أَيْ: السَّابِقَة مِنَ العُمُر. وَهِيَ مَرْحَلَةُ الشَّيْخُوخَة. وَالْمَعْنَىٰ: فَأَفَاقُوا وَقَد مَضَىٰ العُمُر.

(٤) تقدم تخريجه في الخاطرة رقم: [٢٧٨-٢٠].

فَهَذِهِ هِيَ الطَّرِيقُ الْوُسْطَىٰ وَالْقَوْلُ الْفَصْلُ؛ فَأَمَّا الْيُبْسُ الْمُجَرَّدُ؛ فَكَمْ فَوَّتَ مِنْ عِلْمٍ، لَوْ حَصَلَ؛ نِيلَ بِهِ أَكْثَرُ مِمَّا نِيلَ بِالْعَمَلِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ الْعَالِمِ كَرَجُلٍ يَعْرِفُ الطَّرِيقَ، وَالْعَابِدُ جَاهِلٌ بِهَا، فَيَمْشِي الْعَابِدُ مِنَ الْفَجْرِ إِلَىٰ الْعَصْرِ، وَيَقُومُ الْعَالِمُ قُبَيْلَ الْعَصْرِ، فَيَلْتَقِيَانِ؛ وَقَدْ سَبَقَ الْعَالِمُ فَضْلَ شَوْطِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بَيِّنْ لِي هَذَا؟!

قُلْتُ: صُورَةُ التَّعَبُّدِ خِدْمَةٌ للهِ تَعَالَىٰ، وَذُلٌّ لَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يَطَّلِعِ الْعَابِدُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ تِلْكَ الصُّورَةِ؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا ظَنَّ أَنَّهُ أَهْلٌ لِوُجُودِ الْكَرَامَةِ عَلَىٰ يَدِهِ، وَأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ تَقْبِيلَ يَدِهِ، أَوْ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ لِقِلَّةِ الْعِلْمِ.

وَأَعْنِي بِالْعِلْمِ: فَهْمَ أُصُولِ الْعِلْمِ، لا كَثْرَةُ الرِّوَايَةِ، وَمُطَالَعَةِ مَسَائِلِ الْخِلَافِ.

فَإِذَا طَالَعَ الْعَالِمُ الْأُصُولِيُّ؛ سَبَقَ هَذَا الْعَابِدَ بِحُسْنِ خُلُقٍ، وَمُدَارَاةِ النَّاسِ، وَتَوَاضُعِهِ فِي نَفْسِهِ، وَإِرْشَادِهِ الْخَلْقَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، فَيَعْسُرُ هَذَا عَلَىٰ الْعَابِدِ، وَهُوَ فِي لَيْلِ جَهْلِهِ بِالْحَالِ رَاقِدٌ.

رُبَّمَا تَزَوَّجَ الْعَابِدُ، ثُمَّ حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَىٰ التَّجَفُّفِ، فَحَبَسَ زَوْجَتَهُ عَنْ مَطْلُوبِهَا، وَلَمْ يُطَلِّقْهَا، وَصَارَ كَالَّتِي حَبَسَتِ الْهِرَّةَ؛ فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ[1].

وَمَنْ تَأَمَّلَ حَالَةَ الرَّسُولِ ﷺ؛ رَأَىٰ كَامِلًا مِنَ الْخَلْقِ، يُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ:

فَتَارَةً يَمْزَحُ، وَتَارَةً يَضْحَكُ، وَيُدَاعِبُ الْأَطْفَالَ، وَيَسْمَعُ الشِّعْرَ، وَيَتَكَلَّمُ بِالْمَعَارِيضِ، وَيُحْسِنُ مُعَاشَرَةَ النِّسَاءِ، وَيَأْكُلُ مَاقَدِرَ عَلَيْهِ، وَفُتِحَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ لَذِيذًا كَالْعَسَلِ، وَيُسْتَعْذَبُ لَهُ الْمَاءَ، وَيَفْرِشُ لَهُ فِي الظِّلِّ... وَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ، وَلَمْ يُسْمَعْ عَنْهُ بِمِثْلِ مَاحَدَثَ بَعْدَهُ مِنْ جُهَّالِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَزَهِّدِينَ مِنْ مَنْعِ النَّفْسِ شَهَوَاتِهَا عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ؛ فَقَدْ كَانَ يَأْكُلُ الْبَطِّيخَ

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ، كِتَابُ «التَّوْبَةِ» (٢٦١٩). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ ﷺ: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ، حَتَّىٰ مَاتَتْ هَزْلًا». وَخَشَاشٍ؛ أَيْ: حَشَرَاتِ الأرض وَهَوَامِّهَا.

بِالرُّطَبِ، وَيُقَبِّلُ وَيَمُصُّ اللِّسَانَ، وَيَطْلُبُ الْمُسْتَحْسَنَاتِ(١).

فَأَمَّا أَكْلُ خُبْزِ الشَّعِيرِ، وَوَزْنُ الْمَأْكُولِ، وَتَجْفِيفُ الْبَدَنِ، وَهَجْرُ كُلِّ مُشْتَهًى؛ فَإِنَّهُ تَعْذِيبٌ لِلنَّفْسِ، وَهَدْمٌ لِلْبَدَنِ، لا يَقْتَضِيهِ عَقْلٌ، وَلا يَمْدَحُهُ شَرْعٌ!

وَإِنَّمَا اقْتَنَعَ أَقْوَامٌ بِالْقَلِيلِ لِأَسْبَابٍ؛ مِثْلَ أَنْ حَدَثَتْ شُبْهَةٌ فَتَقَلَّلُوا، أَوِ اخْتَلَطَ طَعَامٌ بِطَعَامٍ فَتَوَرَّعُوا.

ثُمَّ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوَفِّي الْعِبَادَةَ حَقَّهَا بِقِيَامِ اللَّيْلِ، وَالِاجْتِهَادِ فِي الذِّكْرِ.

(١) قَوْلُهُ: «وَيُدَاعِبُ الْأَطْفَالَ»؛ روى أحمد في «المسند»(١٦٨٤٨) عَنْ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَمُصُّ لِسَانَهُ - أَوْ قَالَ: شَفَتَهُ، يَعْنِي الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رضي الله عنه - وَإِنَّهُ لَنْ يُعَذَّبَ لِسَانٌ أَوْ شَفَتَانِ مَصَّهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ». وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيُخَالِطُنَا، حَتَّى يَقُولَ لِأَخٍ لِي صَغِيرٍ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ» رواه البخاري، ك: «الأدب»(٦١٢٩). ومسلم، ك: «الآداب»(٢١٥٠). وَفِي «صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ» ك: «الحَظْرِ وَالإِبَاحَةِ»(٥٥٩٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُدْلِعُ لِسَانَهُ لِلْحُسَيْنِ، فَيَرَى الصَّبِيُّ حُمْرَةَ لِسَانِهِ، فَيَهَشُّ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ بَدْرٍ: أَلَا أَرَى تَصْنَعُ هَذَا بِهَذَا، وَاللهِ لَيَكُونُ لِيَ الِابْنُ قَدْ خَرَجَ وَجْهُهُ وَمَا قَبَّلْتُهُ قَطُّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ». وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَيَسْمَعُ الشِّعْرَ»؛ فقد روى مسلم، ك: «الشعر»(٢٢٥٥). عَنْ الشَّرِيدِ قَالَ: رَدِفْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٌ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «هِيهْ» فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فَقَالَ: «هِيهْ» ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فَقَالَ: «هِيهْ» حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَيَتَكَلَّمُ بِالْمَعَارِيضِ»؛ فقد روى البخاري، ك: «الأدب»(٦٢٠٩-٦٢١٢). عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَسِيرٍ لَهُ، فَحَدَا الحَادِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْفُقْ يَا أَنْجَشَةُ، وَيْحَكَ بِالقَوَارِيرِ» يَعْنِي: ضَعَفَةَ النِّسَاءِ. وَعَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَزَعٌ، فَرَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرَسًا لِأَبِي طَلْحَةَ، فَقَالَ: «مَا رَأَيْنَا مِنْ شَيْءٍ، وَإِنْ وَجَدْنَاهُ لَبَحْرًا»؛ أَيْ: لِسُرْعَةِ جَرْيِهِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَيُحْسِنُ مُعَاشَرَةَ النِّسَاءِ»؛ فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ ماجة، ك: «النِّكَاحِ»(١٩٧٧) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي». وَأَخْرَجَ النَّسَائِيُّ أَحَادِيثَ كَثِيرَةً فِي عِشْرَةِ النِّسَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي «الكُبْرَى» قَالَ الكَلَابَاذِيُّ رحمه الله فِي «مَعَانِي الأَخْيَارِ»(ص٢٧): «عِشْرَةُ النِّسَاءِ وَمُعَامَلَتُهُنَّ أَصْعَبُ وَأَعْسَرُ، لِأَنَّهُنَّ أَضْعَفُ تَرْكِيبًا، وَأَقَلُّ عَقْلًا، وَأَرَقُّ دِينًا، وَأَغْلَبُ عَلَى أَلْبَابِ الرِّجَالِ فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ حُبِّبْنَ إِلَيْهِ، فَحُبِّبَ إِلَيْهِ مُعَامَلَتُهُنَّ وَعِشْرَتُهُنَّ مَعَ ضِيقِ أَخْلَاقِهِنَّ، فَعَامَلَهُنَّ أَحْسَنَ مُعَامَلَةٍ، حَتَّى جَمَعَ بَيْنَ الضَّرَائِرِ، وَهُوَ سَبَبُ الْمُشَاقَّةِ وَالتَّشَاحِّ وَتَغَيُّرِ الأَخْلَاقِ، حَتَّى بَلَغَ مِنْ حُسْنِ مُعَامَلَتِهِ إِيَّاهُنَّ أَنْ تَحَابَيْنَ وَتَوَاصَلْنَ، وَبَلَغَ مِنْ رِفْقِهِ بِهِنَّ أَنْ عَاتَبَهُ اللهُ تَعَالَى: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم: ١]، فَمَنْ كَانَتْ مُعَامَلَتُهُ النِّسَاءَ هَذِهِ الْمُعَامَلَةَ، فَمَا ظَنُّكَ فِي مُعَامَلَتِهِ الرِّجَالَ؟»اهـ. وَيَأْتِي مَا ذَكَرَهُ الإِمَامُ رحمه الله هُنَا، تَقَدَّمَ فِي: [٣٧-٩٦] و[٣٨-١٧١] و[١٢٩-٣٦٢] و[١٣٩-٢٧٨] و[١٤٨-١٥٢] و[١٧٠-٨٢] و[١٨٢-١٩] و[١٨٥-٣٦] و[٢٧٧-٣٤٣].

فَعَلَيْكَ بِطَرِيقَتِهِ، الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ الطُّرُقِ، وَبِشِرْعَتِهِ الَّتِي لَا شَوْبَ فِيهَا، وَدَعْ حَدِيثَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ مِنَ الزُّهَّادِ، وَاحْمِلْ أَمْرَهُمْ عَلَىٰ أَحْسَنِ مَحْمَلٍ، وَأَقِمْ لَهُمُ الأَعْذَارَ مَهْمَا قَدَرْتَ؛ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ عُذْرًا؛ فَهُمْ مَحْجُوجُونَ بِفِعْلِهِ[1]؛ إِذْ هُوَ قُدْوَةُ الْخَلْقِ، وَسَيِّدُ الْعُقَلَاءِ؛ وَهَلْ فَسَدَ النَّاسُ إِلَّا بِالِانْحِرَافِ عَنِ الشَّرِيعَةِ؟!

وَلَقَدْ حَدَثَتْ آفَاتٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَزَهِّدِينَ، خَرَقُوا بِهَا شَبَكَةَ الشَّرِيعَةِ، وَعَبَرُوا:

فَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي الْمَحَبَّةَ وَالشَّوْقَ، وَلَا يَعْرِفُ الْمَحْبُوبَ؛ فَتَرَاهُ يَصِيحُ، وَيَسْتَغِيثُ، وَيُمَزِّقُ ثِيَابَهُ، وَيَخْرُجُ عَنْ حَدِّ الشَّرْعِ بِدَعْوَاهُ وَمَضْمُونِهَا!!

وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالْجُوعِ وَالصَّوْمِ الدَّائِمِ؛ وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو: «صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا» فَقَالَ: أُرِيدُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. فَقَالَ: «لَا أَفْضَلُ»[2].

وَفِيهِمْ مَنْ خَرَجَ إِلَىٰ السِّيَاحَةِ؛ فَأَفَاتَ نَفْسَهُ الْجَمَاعَةَ[3].

وَفِيهِمْ مَنْ دَفَنَ كُتُبَ الْعِلْمِ[4]، وَقَعَدَ يُصَلِّي وَيَصُومُ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ دَفْنَهَا خَطَأٌ قَبِيحٌ؛ لِأَنَّ

---

(١) مَحْجُوجُونَ؛ أَيْ: مَغْلُوبُونَ بِإِظْهَارِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِم. أَحُجُّ؛ أَي: أَغْلِبُه بالحُجَّة. حَجَّه يَحُجُّه حَجًّا، فَهُوَ مَحْجوجٌ.

(٢) رواه البخاري، كِـ: «الصَّوْمِ» (١٩٧٦). ومسلم، كِـ: «الصِّيَامِ» (١١٥٩). قَالَ عَبْدُ اللهِ: «لأَنْ أَكُونَ قَبِلْتُ الثَّلَاثَةَ الأَيَّامَ الَّتِي قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي».

(٣) السِّيَاحَةُ حَقِيقَتُهَا السَّيْرُ فِي الأَرْضِ. وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا: التَّفَرُّدُ فِي شَوَاهِقِ الْجِبَالِ وَالْكُهُوفِ وَالْبَرَارِي وَالْبَوَادِي عَلَىٰ وَجْهِ الْعِبَادَةِ وَالْعُزْلَة، وَتَرْكُ الْمُبَاحَات وَالْمَأْلُوفَات قَهْرًا لِلنَّفْس؛ وَهَذَا مَنْهِي عَنْهُ؛ كَمَا فِي «الْمُسْتَدْرَك» (٢٣٨٢) وَغَيْرِه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَرَّ بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبٍ، فَأَعْجَبَهُ طِيبُهُ وَحُسْنُهُ، فَقَالَ: لَوِ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ، وَأَقَمْتُ فِي هَذَا الشِّعْبِ، ثُمَّ قَالَ: لَا أَفْعَلُ حَتَّىٰ أَسْتَأْمِرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ مَقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي أَهْلِهِ سِتِّينَ عَامًا، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ، وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ، اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فُوَاقَ نَاقَةٍ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»؛ فَسُكْنَىٰ الْبَوَادِي عَلَىٰ وَالْوَجْهِ الْمَذْكُور فِي الْخَاطِرَة فَمَنْهِي عَنْهُ؛ إِلَّا فِي أَيَّامِ الْفِتَنِ؛ فَإِنَّهُ يَسْتَغْفِر الله تَعَالَىٰ وَيَعمَل بِحُكْم الضَّرُورَة. وَأَمَّا السِّيَاحَةُ الْمَحْمُودُ شَرْعًا؛ فَهِيَ السَّفَرُ الَّذِي فِيهِ قُرْبَةٌ لِلَّهِ وَامْتِثَالٌ لِأَمْرِهِ، مِثْلُ سَفَرِ الْهِجْرَةِ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ أَوِ السَّفَرِ لِلْحَجِّ أَوِ السَّفَرِ لِلْجِهَادِ؛ كَمَا أَخْرَجَ ابْن مَاجَة، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَةِ - سُكْنَىٰ الْبَرَارِي - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ سِيَاحَةَ - التَّجَوُّل فِي الأَرْضِ - أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَىٰ».

(٤) تُرَاجع الْخَوَاطِر: [١٤-١١٨] و[١٢٠-٥٨] و[١٢٨-١٦٣] و[١٨٢ - ١٩].

النَّفْسَ تَغْفَلُ، وَتَحْتَاجُ إِلَىٰ التَّذْكِيرِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَنِعْمَ الْمُذَكِّرُ كُتُبُ الْعِلْمِ.

وَإِنَّمَا دَخَلَ إِبْلِيسُ عَلَىٰ كُلِّ قَوْمٍ مِنْهُمْ مِنْ حَيْثُ قَدَرَ، وَكَانَ مَقْصُودُهُ بِدَفْنِ الْكُتُبِ إِطْفَاءَ الْمِصْبَاحِ؛ لِيَسِيرَ الْعَابِدُ فِي الظُّلْمَةِ.

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ لِرَجُلٍ سَأَلَهُ فَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَمْضِيَ إِلَىٰ جَبَلِ اللُّكَّامِ[1]؟ فَقَالَ: «هَذِهِ هَوْكَلَةٌ» وَهِيَ كَلِمَةٌ عَامِّيَّةٌ مَعْنَاهَا: حُبُّ الْبَطَالَةِ.

وَعَلَىٰ الْحَقِيقَةِ: الزُّهَّادُ فِي مَقَامِ الْخَفَافِيشِ[2]، قَدْ دَفَنُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْعُزْلَةِ عَنْ نَفْعِ النَّاسِ، وَهِيَ حَالَةٌ حَسَنَةٌ إِذَا لَمْ تَمْنَعْ مِنْ خَيْرٍ؛ مِنْ جَمَاعَةٍ، وَاتِّبَاعِ جَنَازَةٍ، وَعِيَادَةِ مَرِيضٍ. . . إِلَّا أَنَّهَا حَالَةُ الْجُبَنَاءِ، فَأَمَّا الشُّجْعَانُ؛ فَهُمْ يَتَعَلَّمُونَ وَيُعَلِّمُونَ، وَهَذِهِ مَقَامَاتُ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ.

أَتَرَىٰ كَمْ بَيْنَ الْعَابِدِ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ حَادِثَةٌ وَبَيْنَ الْفَقِيهِ؟

بِاللهِ، لَوْ مَالَ الْخَلْقُ إِلَىٰ التَّعَبُّدِ، لَضَاعَتِ الشَّرِيعَةُ.

عَلَىٰ أَنَّهُ لَوْ فَهِمَ مَعْنَىٰ التَّعَبُّدِ؛ لَمْ يَقْتَصِرْ بِهِ عَلَىٰ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ! فَرُبَّ مَاشٍ فِي حَاجَةِ مُسْلِمٍ فُضِّلَ تَعَبُّدُهُ ذَلِكَ عَلَىٰ صَوْمِ سَنَةٍ.

وَالْعَمَلُ بِالْبَدَنِ سَعْيُ الْآلَاتِ الظَّاهِرَةِ، وَالْعِلْمُ سَعْيُ الْآلَاتِ الْبَاطِنَةِ مِنَ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ وَالْفَهْمِ؛ فَلِذَلِكَ كَانَ أَشْرَفَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَذُمُّ الْمُعْتَزِلِينَ لِلشَّرِّ إِلَىٰ التَّعَبُّدِ؟!

قُلْتُ: مَا أَذُمُّهُمْ، بَلْ حَدَثَتْ مِنْهُمْ حَوَادِثُ اقْتَضَاهَا الْجَهْلُ، مِنَ الدَّعَاوَىٰ وَالْآفَاتِ الَّتِي

---

(١) جاء في الأصل: [الأكام]، وما أثبتاه من مخطوط: (ي). وَجَبَلِ اللُّكَّامِ: وَيُطلق عَلَيْهَا الأَمَانُوس، وَهِيَ جِبَالٌ قَادِمَةٌ مِنْ دَاخِلِ تُرْكِيَا مُتَّجِهَةً نَحْوَ الْجَنُوبِ الغَربِي، لِتَعْبُرَ الْحُدُودَ السُّورِيَّةَ ـ التُّرْكِيَّةَ عِنْدَ جَبَلِ النُّورِ، وَهِيَ جِبَالٌ ضَيِّقَةٌ عَالِيَةٌ شَدِيدَةُ الوعورة. وَأَمَّا لأكَامِ جَمْعِ الأَكَمَة، مَا ارتَفَعَ مِنَ الأَرضِ، وَقِيلَ: الْجِبَالُ الصِّغَار.

(٢) الْخَفَافِيشِ: حَيَوَانٌ ثَدِيِيٌّ مُجَنَّحُ الأَيْدِي يَكْرَهُ الضَّوْءَ وَقَادِرٌ عَلَىٰ الطَّيَرَانِ لَيْلًا. وَالْمَقْصُودُ الزُّهَّادُ الجَهَلَةُ.

سَبَبُهَا قِلَّةُ الْعِلْمِ، وَحَمَلُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمُ - الَّتِي لَيْسَتْ لَهُمْ، وَعَنْ غَيْرِ إِذْنِ الْآمِرِ - مَا لَمْ يَجُزْ!

حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهُمْ يَرَىٰ أَنَّ فِعْلَ مَا يُؤْذِي النَّفْسَ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ فَضِيلَةٌ!!

وَحَتَّىٰ قَالَ بَعْضُ الْحَمْقَىٰ: دَخَلْتُ الْحَمَّامَ فَوَجَدْتُ غَفْلَةً، فَآلَيْتُ أَلَّا أَخْرُجَ حَتَّىٰ أُسَبِّحَ كَذَا وَكَذَا تَسْبِيحَةً، فَطَالَ الْأَمْرُ، فَمَرِضْتُ!! وَهَذَا رَجُلٌ خَاطَرَ بِنَفْسِهِ فِي فِعْلٍ مَا لَيْسَ لَهُ.

وَمِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالزُّهَّادِ مَنْ قَنِعَ بِصُورَةِ اللِّبَاسِ، وَرَكِبَ مِنَ الْجَهْلِ فِي الْبَاطِنِ مَا لَا يَسَعُهُ كِتَابٌ!!

طَهَّرَ اللهُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ، وَأَعَانَ الْعُلَمَاءَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَمْقَىٰ مَعَهُمْ؛ فَلَوْ أَنْكَرَ عَالِمٌ عَلَىٰ أَحَدِهِمْ؛ مَالَ الْعَوَامُّ عَلَىٰ الْعَالِمِ بِقُوَّةِ الْجَهْلِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ - وَهُوَ فِي مَقَامِ الْعَجَائِزِ - يُسَبِّحُ تَسْبِيحَاتٍ لَا يَجُوزُ النُّطْقُ بِهَا، وَيَفْعَلُ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ تَرِدْ بِهِ السُّنَّةُ!

وَلَقَدْ دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَىٰ بَعْضِ مَنْ كَانَ يَتَعَبَّدُ؛ وَقَدْ أَقَامَ إِمَامًا، وَهُوَ خَلْفَهُ فِي جَمَاعَةٍ يُصَلِّي بِهِمْ صَلَاةَ الضُّحَىٰ، وَيَجْهَرُ![1].

فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «صَلَاةُ النَّهَارِ عَجْمَاءُ»[2]! فَغَضِبَ ذَلِكَ الزَّاهِدُ، وَقَالَ: كَمْ

---

(١) الَّذِي أَنْكَرَهُ الإِمَامُ هُنَا - وَاللهُ أَعلَم - هُوَ التَهوِيشُ (التَّشْوِيشِ) عَلَىٰ النَّاس فِي المَسْجِدِ؛ فَمِنْ قَارِئٍ لِلْقُرآن، وَنَائِم، وَمُصَلِّي فَرضًا لَم يُدرِكه؛ فَقَدْ رَوَىٰ اِبْن خُزَيْمَة، كِتَابُ «الصَّلَاةِ» بَابُ «الزَّجْرِ عَنِ الْجَهْرِ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ إِذَا تَأَذَّىٰ بِالْجَهْرِ بَعْضُ الْمُصَلِّينَ غَيْرَ الْجَاهِرِ بِهَا» عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ: اعْتَكَفَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ فَسَمِعَهُمْ يَجْهَرُونَ بِالْقِرَاءَةِ -زَادَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ لَهُ- وَقَالَا: فَكَشَفَ السُّتُورَ وَقَالَ: «أَلَا إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ، فَلَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَرْفَعَنَّ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ». قَالَ مُحَمَّدٌ: «أَوْ فِي الصَّلَاةِ». وَأَمَّا حُكم صَلَاة التَّطوع جَمَاعة؛ فقد ذَهَبَ جُمْهُور الْفُقَهَاء إِلَىٰ أَنَّهُ يَجُوزُ التَّطَوُّعُ جَمَاعَةً وَفُرَادَىٰ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَعَلَ الأَمْرَيْنِ كِلَيْهِمَا، وَكَانَ أَكْثَرُ تَطَوُّعِهِ مُنْفَرِدًا، وَصَلَّىٰ بِحُذَيْفَةَ مَرَّةً [م]، وَبِأَنَسٍ وَأُمِّهِ وَالْيَتِيمِ مَرَّةً [خ،م]، وَأَمَّ أَصْحَابَهُ فِي بَيْتِ عِتْبَانَ مَرَّةً كَذَلِكَ [خ،م]. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ أَمَّهُ النَّبِيُّ ﷺ [خ]. وَيَرَىٰ الْحَنَفِيَّةُ أَنَّ الْجَمَاعَةَ فِي النَّفْلِ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ مَكْرُوهَةٌ، لا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّدَاعِي. وَالْمَالِكِيَّةُ قَيَّدُوا الْجَوَازَ بِمَا إِذَا كَانَتِ الْجَمَاعَةُ قَلِيلَةً، وَكَانَ الْمَكَانُ غَيْرَ مُشْتَهِرٍ، فَإِنْ كَثُرَ الْعَدَدُ كُرِهَتِ الْجَمَاعَةُ، وَكَذَلِكَ تُكْرَهُ لَوْ كَانَتِ الْجَمَاعَةُ قَلِيلَةً وَالْمَكَانُ مُشْتَهِرًا» [يُنظر: «الموسوعة الفقهية الكويتية» (ج٢٧/ ص١٦٨، ١٦٩).

(٢) (ضَعِيفٌ) رواه ابن أبي شيبة، ك: «الصَّلاة» (٣٦٨٤، ٣٦٨٥) مَوْقُوفًا عَلَىٰ الْحَسَنِ وَأَبِي عُبَيْدَةَ بن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ. وَرَوَاهُ عَبْد الرَّزَّاق فِي «مصنفه» (٤٢٠) عَنْ مُجَاهِدٍ. وَقَالَ النَّوَوِيّ: «بَاطِلٌ لا أَصلَ لَهُ» [«خلاصة الأحكام» (ج١/ ص ٣٩٤ / ح ١٢٤٣)]
=

يُنْكِرُ هَذَا عَلَيْنَا! وَقَدْ دَخَلَ فُلَانٌ وَأَنْكَرَ، وَفُلَانٌ وَأَنْكَرَ، نَحْنُ نَرْفَعُ أَصْوَاتَنَا حَتَّىٰ لا نَنَامَ.

فَقُلْتُ: وَاعَجَبًا! وَمَنْ قَالَ لَكُمْ: لَا تَنَامُوا؟! أَلَيْسَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «قُمْ وَنَمْ»[١]؟! وَقَدْ كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَنَامُ، وَلَعَلَّهُ مَا مَضَتْ عَلَيْهِ لَيْلَةٌ إِلَّا وَنَامَ فِيهَا!!

وَلَقَدْ شَاهَدْتُ رَجُلًا كَانَ يُقَالُ لَهُ حُسَيْنٌ الْقَزْوِينِيُّ بِجَامِعِ الْمَنْصُورِ، وَهُوَ يَمْشِي فِي الْجَامِعِ مَشْيًا كَثِيرًا دَائِمًا، فَسَأَلْتُ: مَا السَّبَبُ فِي هَذَا الْمَشْيِ؟! فَقِيلَ لِي: حَتَّىٰ لَا يَنَامَ!.

وَهَذِهِ كُلُّهَا حَمَاقَاتٌ أَوْجَبَتْهَا قِلَّةُ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ تَأْخُذِ النَّفْسُ حَظَّهَا مِنَ النَّوْمِ، اخْتَلَطَ الْعَقْلُ، وَفَاتَ الْمُرَادُ مِنَ التَّعَبُّدِ؛ لِبُعْدِ الْفَهْمِ.

وَلَقَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُ الصَّالِحِينَ الْمُجَاوِرِينَ بِجَامِعِ الْمَنْصُورِ: أَنَّ رَجُلًا اسْمُهُ كَثِيرٌ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْجَامِعَ، فَقَالَ: إِنِّي عَاهَدْتُ اللهَ عَلَىٰ أَمْرٍ وَنَقَضْتُهُ، وَقَدْ جَعَلْتُ عُقُوبَتِي لِنَفْسِي أَلَّا آكُلَ شَيْئًا أَرْبَعِينَ يَوْمًا! قَالَ: فَمَكَثَ مِنْهَا عَشَرَةَ أَيَّامٍ قَرِيبَ الْحَالِ، يُصَلِّي فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ فِي الْعَشْرِ الثَّانِي بَانَ ضَعْفُهُ، وَكَانَ يُدَارِي الْأَمْرَ، ثُمَّ صَارَ فِي الْعَشْرِ الثَّالِثِ يُصَلِّي قَاعِدًا، ثُمَّ اسْتَطْرَحَ فِي الْعَشْرِ الرَّابِعِ، فَلَمَّا تَمَّتِ الْأَرْبَعُونَ، جِيءَ بِنَقُوعٍ، فَشَرِبَهُ، فَسَمِعْنَا صَوْتَهُ فِي حَلْقِهِ مِثْلَمَا يَقَعُ الْمَاءُ عَلَىٰ الْمِقْلَاةِ، ثُمَّ مَاتَ بَعْدَ أَيَّامٍ[٢].

فَقُلْتُ: يَا لِلَّهِ! الْعَجَبُ! انْظُرُوا مَا فَعَلَ الْجَهْلُ بِأَهْلِهِ، ظَاهِرُ هَذَا أَنَّهُ فِي النَّارِ؛ إِلَّا أَنْ يُعْفَىٰ عَنْهُ، وَلَوْ فَهِمَ الْعِلْمَ وَسَأَلَ الْعُلَمَاءَ؛ لَعَرَّفُوهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ، وَأَنَّ مَا فَعَلَهُ بِنَفْسِهِ حَرَامٌ، وَلَكِنْ؛ مِنْ أَعْظَمِ الْجَهْلِ اسْتِبْدَادُ الْإِنْسَانِ بِعِلْمِهِ!

= وَقَدْ بَوَّبَ ابْنُ خُزَيْمَةَ، كِتَابُ «الصَّلَاةِ» بَابُ «الْجَهْرِ بِالْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ الِاسْتِسْقَاءِ، وَالدَّلِيلِ عَلَىٰ ضِدِّ قَوْلِ مَنْ زَعَمَ مِنَ التَّابِعِينَ أَنَّ صَلَاةَ النَّهَارِ عَجْمَاءُ، يُرِيدُ أَنَّهُ لَا يَجْهَرُ بِالْقِرَاءَةِ فِي شَيْءٍ مِنْ صَلَوَاتِ النَّهَارِ».

(١) تقدم تخريجه في ذات الخاطرة.

(٢) بَانَ ضَعْفُهُ: ظَهَرَ وَاتَّضَحَ. وَيُدَارِي الْأَمْرَ: يُغَطِّيهِ وَيَسْتُرُهُ. وَثُمَّ اسْتَطْرَحَ: اسْتَلْقَىٰ وَارْتَمَىٰ عَلَىٰ الْأَرْضِ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ الْحَرَكَةِ. وَجِيءَ بِنَقُوعٍ: بِشَرَابٍ يُتَّخَذُ مِنْ زَبِيبٍ وَنَحْوِهِ يُنْقَعُ فِي الْمَاءِ، نَقُوعٌ وَنَقِيعٌ. وَالْمِقْلَاةِ: وِعَاءٌ يُقْلَىٰ فِيهِ الطَّعَامُ وَنَحْوُهُ. وَيُسَمَّىٰ صَوْتُ الْمَاءِ وَغَيْرِهِ إِذَا غَلَىٰ وَفَرْقَعَ وَتَلَأْلَأَ: نَشِيشٌ.

وَكُلُّ هَذِهِ الْحَوَادِثِ نَشَأَتْ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّىٰ تَمَكَّنَتْ، فَأَمَّا الشَّرْبُ الأَوَّلُ[1]؛ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنْ هَذَا شَيْءٌ، وَمَا كَانَتِ الصَّحَابَةُ تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ، وَقَدْ كَانُوا يُؤْثِرُونَ، وَيَأْكُلُونَ دُونَ الشَّبَعِ، وَيَصْبِرُونَ إِذَا لَمْ يَجِدُوا.

فَمَنْ أَرَادَ الاقْتِدَاءَ؛ فَعَلَيْهِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ فَفِي ذَلِكَ الشِّفَاءُ وَالْمَطْلُوبُ.

وَلا يَنْبَغِي أَنْ يَخْلُدَ الْعَاقِلُ إِلَىٰ تَقْلِيدِ مُعَظَّمٍ شَاعَ اسْمُهُ، فَيَقُولُ: قَالَ أَبُو يَزِيدَ، وَقَالَ الثَّوْرِيُّ[2]؛ فَإِنَّ الْمُقَلِّدَ أَعْمَىٰ[3]. وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا أَعْمَىٰ يَأْنَفُ مِنْ حَمْلِ عَصًا!

فَمَنْ فَهِمَ هَذَا الْمُشَارَ إِلَيْهِ؛ طَلَبَ الأَفْضَلَ وَالأَعْلَىٰ. وَاللهُ الْمُوَفِّقُ[4].

*[٢٩٦ - ٥٣][خَاطِرَةٌ]:

[خَلَقَ اللهُ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ لِمَصَالِحِ الْبَدَنِ]

تَأَمَّلْتُ مُبَالَغَةَ أَرْبَابِ الدُّنْيَا فِي اتِّقَاءِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، فَرَأَيْتُهَا تَعْكِسُ الْمَقْصُودَ فِي بَابِ الْحِكْمَةِ، وَإِنَّمَا تُحَصِّلُ مُجَرَّدَ لَذَّةٍ، وَلا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ تَعْقُبُ أَلَمًا.

فَأَمَّا الْحَرُّ؛ فَإِنَّهُمْ يَشْرَبُونَ الْمَاءَ الْمَثْلُوجَ، وَذَلِكَ عَلَىٰ غَايَةٍ فِي الضَّرَرِ، وَأَهْلُ الطِّبِّ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يُحْدِثُ أَمْرَاضًا صَعْبَةً، يَظْهَرُ أَثَرُهَا فِي وَقْتِ الشَّيْخُوخَةِ، وَيَضَعُونَ الْخُيُوشَ الْمُضَاعَفَةَ. وَفِي الْبَرْدِ يَصْنَعُونَ اللُّبُودَ الْمَانِعَةَ لِلْبَرْدِ[5].

(١) الشَّرب: الرَّعِيل الأَوَّل أَوْ الجِيل مِنَ النَّاس. وَالمَقْصُود: مَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَة الكِرَام وَمَنْ تَبِعَهُم بِإِحْسَانٍ.

(٢) ترجمة أَبُو يَزِيدَ البِسْطَامِيُّ في الخاطرة:[٨٤-٣٨]. وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ في الخاطرة:[١٤-١١٨].

(٣) تُرَاجع الْخَاطِرَة رَقَم:[٣٦٨-١٠٨] وَالتَّعلِيق عَلَيْهَا عِنْدَ قَوْلِهِ: «فَإِنَّ الْمُقَلِّدَ أَعْمَىٰ، يَقُودُ مُقَلِّدَهُ».

(٤) تُرَاجع الْخَاطِرَة رَقَم:[١٧٠-٨٢]:[سُوءُ الْفَهم عَنِ الْعُزْلَةِ].

(٥) الْخُيُوشَ الْمُضَاعَفَةَ: مَرَاوِح تُتَّخَذ مِنَ الْخَيْش (الْجُنْفَاص، نَسِيج مِنَ الْحَرِير الغَلِيظ) تُعَلَّق في وَسَطِ الغُرفَة، وَقَد يَغْمِسُونَهَا أَحيَانًا بِمَاءِ الوَردِ فَتَطِيب رَائِحَته في نَفْس الوَقْت الَّذِي تُبَرِّده فِيهِ. وَهِيَ عَادَة قَدِيمَة في العِرَاق. وَأَمَّا اللُّبُود: صُوفٌ يُنْدَفُ، ثُمَّ يُبَلُّ وَيُوطَأُ بِالرِّجلِ حَتَّىٰ يَتَلَبَّدَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ وَيَشْتَدَّ. يُلْبَسُ لِلْوِقَايَةِ مِنَ الْبَردِ وَالمَطَر.

وَهَذَا مِنْ حَيْثُ الْحِكْمَةُ يُضَادُّ مَا وَضَعَهُ اللهُ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّهُ جَعَلَ الْحَرَّ لِتَحَلُّلِ الْأَخْرَاطِ، وَالْبَرْدَ لِجُمُودِهَا، فَيَجْعَلُونَ هُمْ جَمِيعَ السَّنَةِ رَبِيعًا، فَتَنْعَكِسُ الْحِكْمَةُ الَّتِي وُضِعَ الْحَرُّ وَالْبَرْدُ لَهَا، وَيَرْجِعُ الْأَذَىٰ عَلَىٰ الْأَبْدَانِ.

وَلا يَظُنَّنَّ سَامِعُ هَذَا أَنِّي آمِرُهُ بِمُلاقَاةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ.

وَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ: لَا يُفَرِّطْ فِي التَّوَقِّي، بَلْ يَتَعَرَّضُ فِي الْحَرِّ لَمَّا يُحَلِّلُ بَعْضَ الْأَخْلَاطِ إِلَىٰ حَدٍّ لَا يُؤَثِّرُ فِي الْقُوَّةِ، وَفِي الْبَرْدِ بِأَنْ يُصِيبَكَ مِنْهُ الْأَمْرُ الْقَرِيبُ لَا الْمُؤْذِي؛ فَإِنَّ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ لِمَصَالِحِ الْبَدَنِ.

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْأُمَرَاءِ يَصُونُ نَفْسَهُ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ أَصْلًا، فَزَادَ جَوْفُهُ فَمَاتَ عَاجِلًا(١)، وَقَدْ ذَكَرْتُ قِصَّتَهُ فِي كِتَابِ: «لَقْطُ الْمَنَافِعِ فِي عِلْمِ الطِّبِّ»(٢).

*[٢٩٧ – ١٧٢][خَاطِرَةٌ]:

[الطَّرِيقَةُ الْمُثْلَى لِتَرْبِيَةِ النَّفْسِ وَالْوَلَدِ(٣)]

قِوَامُ الْآدَمِيِّ بِشَيْئَيْنِ: الْحَرَارَةِ، وَالرُّطُوبَةِ.
وَمِنْ شَأْنِ الْحَرَارَةِ أَنْ تُحَلِّلَ الرُّطُوبَةَ وَتُفْنِيَهَا؛ فَالْآدَمِيُّ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ تَحْصِيلِ خَلَفٍ لِلْمُتَحَلِّلِ.

---

(١) جَاءَ فِي كِتَابِ: «لَقْطُ الْمَنَافِعِ»(ج١/ ص٦٣٨): [فَثَقُلَ جَوْفُكَ]؛ أَيْ: عَفِنَ وَفَسَدَ. وَجَاءَ فِي حَاشِيَةِ الأَصْلِ: [كَذَا فِي الأَحْمَدِيَّةِ وَالهِنْدِيَّةِ، وَفِي المَصرِيَّةِ: [فَبَرِدِ الْحَرّ]. وَفِي المَطبُوع: [فَتَغَيَّرَتْ حَالَتُهُ]. وَقَوْلُهُ هُنَا: [وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْأُمَرَاءِ] صَرَّحَ بِهِ فِي كِتَابِهِ «لَقْطُ الْمَنَافِعِ»(ج١/ ص٦٣٧) فَقَالَ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ السَّنَدَ إِلَىٰ الهَيْثَم عَنْ أَبِيهِ عَدِيِّ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الطَّائِيُّ قَالَ: [قَالَ لِي تَيَاذُوق طَبِيب الحَجَّاج - وَكَانَ قَدْ أَدْرَكَ كِسْرَىٰ بْن هُرمُز وَأَدْرَكَ الحَجَّاج أَتت عَلَيْهِ مِئَة وَثَلاثُونَ سَنَة - قَالَ: قَالَ لِي أَمِير مِنْ أُمَرَاء العِرَاق - وَلَم يُسَمه - قَالَ الهَيْثَم: فَطَلَبْنَاهُ؛ يَعْنِي: بِشْرِ بْن مَرْوَان].

(٢) وَهُوَ مِنْ أَهَمِّ الْكُتُب فِي عِلْمِ الطِّبِّ؛ فَقَد جَمَعَ فِيهِ اِبْن الجَوْزِي ﵀ أُصُول عِلْم الطِّبّ وَعُلُومه، وَمَا نُقِلَ عَنْ سَيِّدِنَا مُحَمَّد ﷺ وَأَصحَابه ﷺ وَمَنْ بَعدِهم مِنْ عُلَمَاء المُسْلِمِين وَغَيرهم، وَقَدْ طُبِعَ فِي دَارِ الكُتُب بِالْقَاهِرَةِ.

(٣) جَاءَ فِي الأَصل: [فَصلٌ - فِي تَعلِيم التَّدبِير].

فَأَبْدَانُ النَّشْوِ[(١)] تَغْتَذِي بِأَكْثَرَ مِمَّا يَتَحَلَّلُ مِنْهَا، وَالأَبْدَانُ الْمُتَنَاهِيَةُ تَغْتَذِي بِمِقْدَارِ مَا يَتَحَلَّلُ مِنْهَا، وَالأَبْدَانُ الَّتِي قَدْ أَخَذَتْ فِي الْهَرَمِ يَتَحَلَّلُ مِنْهَا أَكْثَرُ مِمَّا تَغْتَذِي بِهِ[(٢)].

فَيَنْبَغِي لِلنَّشْوِ الْبَالِغِ أَنْ يَتَحَفَّظَ فِي النِّكَاحِ؛ لِأَنَّهُ يُرَبِّي قَاعِدَةَ قُوَّةٍ يَجِدُ أَثَرَهَا فِي الْكِبَرِ.

وَأَمَّا الْمُتَوَسِّطُ وَالْوَاقِفُ السِّنِّ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَحْذَرَ فُضُولَ الْجِمَاعِ؛ فَإِنْ حَصَلَ لَهُ مِثْلُ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ؛ فَأَسْرَفَ؛ فَاللَّازِمُ أُخِذَ مِنَ الْحَاصِلِ، وَيُوشِكُ أَنْ يُسْرِعَ النَّفَادُ.

وَأَمَّا الشَّيْخُ؛ فَتَرْكُ النِّكَاحِ كَاللَّازِمِ لَهُ، خُصُوصًا إِذَا زَادَ عُلُوُّ السِّنِّ؛ لِأَنَّهُ يُنْفِقُ مِنَ الْجَوْهَرِ الَّذِي لا يُحَصِّلُ مِثْلَهُ أَبَدًا.

ثُمَّ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ الْعَاقِلُ فِي مَالِهِ، فَيَكْتَسِبَ أَكْثَرَ مِمَّا يُنْفِقُ؛ لِيَكُونَ الْفَاضِلُ مُدَّخَرًا لِوَقْتِ الْعَجْزِ، وَلْيَحْذَرَ السَّرَفَ؛ فَإِنَّ الْعَدْلَ هُوَ الأَصْلَحُ.

ثُمَّ يَنْظُرُ فِي الزَّوْجَةِ، وَالْمَطْلُوبُ مِنْهَا شَيْئَانِ:وُجُودُ الْوَلَدِ، وَتَدْبِيرُ الْمَنْزِلِ.

فَإِذَا كَانَتْ مُبَذِّرَةً؛ فَعَيْبٌ لا يُحْتَمَلُ؛ فَإِنِ انْضَمَّتْ صِفَةُ الْعُقْرِ، فَلا وَجْهَ لِلإِمْسَاكِ؛ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مُسْتَحْسَنَةَ الصُّورَةِ؛ فَإِنْ ضُمَّ إِلَيْهَا عَقْلٌ وَعَفَافٌ؛ حَسُنَ الإِمْسَاكُ، وَإِنْ كَانَتْ مِمَّا يَحْتَاجُ أَنْ تُحْفَظَ؛ فَتَرْكُهَا لازِمٌ[(٣)].

فَأَمَّا الْخَدَمُ؛ فَلْيَجْتَهِدْ فِي تَحْصِيلِ خَادِمٍ لا تَسْتَعْبِدُهُ الشَّهْوَةُ؛ فَإِنَّ عَبْدَ الشَّهْوَةِ لَهُ مَوْلَىٰ غَيْرُ سَيِّدِهِ، وَلْيَنْظُرِ الْمَالِكُ فِي طَبْعِ الْمَمْلُوكِ:

فَمِنْهُمْ: مَنْ لَا يَأْتِي إِلَّا عَلَىٰ الإِكْرَامِ، فَلْيُكْرِمْهُ؛ فَإِنَّهُ يَرْبَحُ مَحَبَّتَهُ.

وَمِنْهُمْ: مَنْ لَا يَأْتِي إِلَّا عَلَىٰ الإِهَانَةِ، فَلْيُدَارِهِ، وَلْيُعْرِضْ عَنِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؛ عَاتَبَ بِلُطْفٍ، وَلْيَحْذَرِ الْعُقُوبَةَ مَا أَمْكَنَ. وَلْيَجْعَلْ لِلْمَمَالِيكِ زَمَنَ رَاحَةٍ.

---

(١) هَكَذَا فِي الأَصلِ. تَقُولُ العَامَّةُ لِلصِغَار:[نَشو]، بِالوَاوِ. وَالصَّوَاب:[نَشْءٌ] بِالْهَمز. «تَقْوِيم اللِّسَان» لِابْنِ الجَوْزِيِّ.

(٢) جَاءَت زِيَادَة فِي بَعضِ النُّسَخِ المَطبُوعة وَهِيَ:[وَلا تَتَشَبَّع مِمَّا تَغْتَذِي بِهِ].

(٣) يَعْنِي: إِنْ كَانَ يُخَاف مِنْهَا فِعل الفَاحِشَة أَوْ فِي سُلُوكهَا مَوْضِع رِيبَة؛ فَتحتَاج إِلَىٰ حَافِظ وَرَقِيب؛ فَمُفَارَقتُهَا لَازِمَة.

وَالْعَجَبُ مِمَّنْ يُعْنَىٰ بِدَابَّتِهِ، وَيَنْسَىٰ مُدَارَاةَ جَارِيَتِهِ! وَأَجْوَدُ الْمَمَالِيكِ الصِّغَارُ، وَكَذَلِكَ الزَّوْجَاتُ؛ لِأَنَّهُمْ مُتَعَوِّدُونَ خُلُقَ الْمُشْتَرِي.

وَلْيَحْفَظْ نَفْسَهُ بِالْهَيْبَةِ مِنَ الِانْحِرَافِ مَعَ الزَّوْجَةِ، وَلَا يُطْلِعْهَا عَلَىٰ مَالِهِ؛ فَإِنَّهَا سَفِيهَةٌ، تَطْلُبُ كَثْرَةَ الْإِنْفَاقِ.

وَأَمَّا تَدْبِيرُ الْأَوْلَادِ؛ فَحِفْظُهُمْ مِنْ مُخَالَطَةٍ تُفْسِدُ. وَمَتَىٰ كَانَ الصَّبِيُّ ذَا أَنَفَةٍ، حَيِيًّا؛ رُجِيَ خَيْرُهُ.

وَلْيُحْمَلْ عَلَىٰ صُحْبَةِ الْأَشْرَافِ وَالْعُلَمَاءِ، وَلْيُحَذَّرْ مِنْ مُصَاحَبَتِهِ الْجُهَّالَ وَالسُّفَهَاءَ؛ فَإِنَّ الطَّبْعَ لِصٌّ. وَلْيُحَذَّرِ الصَّبِيَّ مِنَ الْكَذِبِ غَايَةَ التَّحْذِيرِ، وَمِنَ الْمُخَالَطَةِ لِلصِّبْيَانِ، وَلْيُوصِهِ بِزِيَادَةِ الْبِرِّ لِلْوَالِدَيْنِ، وَلْيُحْفَظْ مِنْ مُخَالَطَةِ النِّسَاءِ. فَإِذَا بَلَغَ؛ فَلْيُزَوِّجْ بِصَبِيَّةٍ، فَيَسْتَعِفَّانِ.

هَذِهِ الْإِشَارَةُ إِلَىٰ تَدْبِيرِ أُمُورِ الدُّنْيَا.

فَأَمَّا تَدْبِيرُ الْعِلْمِ(١)؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ الصَّبِيُّ مِنْ حِينِ يَبْلُغُ خَمْسَ سِنِينَ عَلَىٰ التَّشَاغُلِ بِالْقُرْآنِ وَالْفِقْهِ وَسَمَاعِ الْحَدِيثِ، وَلْيُحَصَّلْ لَهُ الْمَحْفُوظَاتِ أَكْثَرَ مِنَ الْمَسْمُوعَاتِ؛ لِأَنَّ زَمَانَ الْحِفْظِ إِلَىٰ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً؛ فَإِذَا بَلَغَ؛ تَشَتَّتَتْ هِمَّتُهُ، فَلْيُضْرَبْ تَارَةً، وَيُرْشَىٰ أُخْرَىٰ(٢)؛ لِيَبْلُغَ وَقَدْ حَصَّلَ مَحْفُوظَاتٍ سَنِيَّةً.

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُكَلَّفَ حِفْظُ الْقُرْآنِ مُتْقَنًا؛ فَإِنَّهُ يَثْبُتُ، وَيَخْتَلِطُ بِاللَّحْمِ وَالدَّمِ، ثُمَّ مُقَدِّمَةٌ مِنَ النَّحْوِ، يَعْرِفُ بِهَا اللَّحْنَ، ثُمَّ الْفِقْهُ مَذْهَبًا وَخِلَافًا، وَمَا أَمْكَنَ بَعْدَ هَذَا مِنَ الْعُلُومِ؛ فَحِفْظُهُ حَسَنٌ.

وَلْيُحَذَّرْ مِنْ عَادَاتِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ؛ فَإِنَّهُمْ يُفْنُونَ الزَّمَانَ فِي سَمَاعِ الْأَجْزَاءِ، الَّتِي تَتَكَرَّرُ فِيهَا الْأَحَادِيثُ، فَيَذْهَبُ الْعُمُرُ، وَمَا حَصَّلُوا فَهْمَ شَيْءٍ! فَإِذَا بَلَغُوا سِنًّا؛ طَلَبُوا جَوَازَ فَتْوَىٰ أَوْ قِرَاءَةَ جُزْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَعَادُوا الْقَهْقَرَىٰ؛ يَحْفَظُونَ بَعْدَ كِبَرِ السِّنِّ، فَلَا يَحْصُلُ مَقْصُودُهُمْ.

فَالْحِفْظُ فِي الصِّبَا لِلْمُهِمِّ مِنَ الْعِلْمِ أَصْلٌ عَظِيمٌ.

---

(١) تُرَاجَع الخَوَاطِر: [١٥٠- ١٦٥] وَ [١٦٢-١١٤] وَ [٢٤٨-١٨٩].

(٢) يُرْشَىٰ: يُقَدَّمُ لَهُ رِشْوَةٌ؛ مَا يُعطَىٰ بِدُوْن حَقٍّ لِقَضَاءِ مَصلَحَةٍ - وَهُوَ الْمَقْصُوْد هُنَا - أَوْ إِحقَاق بَاطِل أَوْ إِبْطَال حَقّ.

وَقَدْ رَأَيْنَا كَثِيرًا مِمَّنْ تَشَاغَلَ بِالْمَسْمُوعَاتِ، وَكِتَابَةِ الْأَجْزَاءِ، وَرَأَى الْحِفْظَ صَعْبًا، فَمَالَ إِلَى الْأَسْهَلِ، فَمَضَى عُمُرُهُ فِي ذَلِكَ؛ فَلَمَّا احْتَاجَ إِلَى نَفْسِهِ؛ قَعَدَ يَتَحَفَّظُ عَلَى كِبَرٍ، فَلَمْ يُحَصِّلْ مَقْصُودَهُ.

فَالْيَقَظَةُ لِفَهْمِ مَا ذَكَرْتُ، وَانْظُرْ فِي الْإِخْلَاصِ؛ فَمَا يَنْفَعُ شَيْءٌ دُونَهُ.

*[٢٩٨-١٨٠] [خَاطِرَةٌ]:

[لَا يَنْفَعُ تَأْدِيبُ الْوَالِدِ إِذَا لَمْ يَسْبِقِ اخْتِيَارُ الْخَالِقِ]

وَاللهِ؛ مَا يَنْفَعُ تَأْدِيبُ الْوَالِدِ إِذَا لَمْ يَسْبِقِ اخْتِيَارُ الْخَالِقِ لِذَلِكَ الْوَلَدِ![1].

فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ شَخْصًا؛ رَبَّاهُ مِنْ طُفُولَتِهِ، وَهَدَاهُ إِلَى الصَّوَابِ، وَدَلَّهُ عَلَى الرَّشَادِ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ مَا يُصْلِحُ، وَصَحَّبَهُ مَنْ يَصْلُحُ، وَبَغَّضَ إِلَيْهِ ضِدَّ ذَلِكَ، وَقَبَّحَ عِنْدَهُ سَفْسَافَ الْأُمُورِ، وَعَصَمَهُ مِنَ الْقَبَائِحِ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ كُلَّمَا عَثَرَ.

وَإِذَا أَبْغَضَ شَخْصًا؛ تَرَكَهُ دَائِمَ التَّعْثِيرِ، مُتَخَبِّطًا فِي كُلِّ حَالٍ، وَلَمْ يَخْلُقْ لَهُ هِمَّةً لِطَلَبِ الْمَعَالِي، وَشَغَلَهُ بِالرَّذَائِلِ عَنِ الْفَضَائِلِ، وَإِنْ قَالَ: لِمَ خُصِصْتُ بِهَذَا؟! قَالَ الْخِطَابُ الَّذِي لَا يُجَابُ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[الشُّورَى:٣٠].

*[٢٩٩ - ٣٣٤][خَاطِرَةٌ]:

[سَلَامَةُ الْعَقْلِ وَالْجِسْمِ طَرِيقٌ لِمَعْرِفَةِ الْخَالِقِ]

مَعْرِفَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا لِكَامِلِ الْعَقْلِ، صَحِيحِ الْمِزَاجِ، وَالتَّرَقِّي إِلَى مَحَبَّتِهِ بِذَلِكَ يَكُونُ.

---

(١) لَيْسَ فِي كَلَامِ الْإِمَامِ رَحِمَهُ اللهُ مَا يُفْهَم مِنْهُ تَرك التَّرْبِيَة؛ بل عَلَيْنَا التَّأْدِيب وَتَرك نَتِيجَة التَّأْدِيب عَلَى اللهِ تَعَالَى؛ بل إِنَّ الإِمَامَ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ: «الطِّبّ الرّوحَانِي»(ص٦٠، ٦١) قَالَ: «أَقوَم التَّقْوِيم مَا كَانَ فِي الصِّغَر، فَأَمَّا إِذَا تُرِكَ الْوَلَدُ وَطَبْعه فَنَشَأَ عَلَيْهِ وَمَرِنَ كَانَ رَدّه صعْبًا. وَقَال: وَلْيَعْلَم الوَالِد أَنَّ الوَلَد أَمَانَة عِنْدَه؛ فَلْيجنبه قُرَنَاء السُّوء مِنَ الصِّغَر».

وَإِنَّ أَقْوَامًا قَلَّتْ عُقُولُهُمْ، وَفَسَدَتْ أَمْزِجَتُهُمْ، فَسَاءَتْ مَطَاعِمُهُمْ وَقَلَّتْ، فَتَخَايَلَتْ لَهُمُ الْخَيَالَاتُ الْفَاسِدَةُ، فَادَّعَوْا مَعْرِفَةَ الْحَقِّ وَمَحَبَّتَهُ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَصُدُّهُمْ عَمَّا ادَّعَوْا؛ فَهَلَكُوا.

وَلْيُعْلَمْ أَنَّ فِي الْمَأْكُولَاتِ مَا يُسَبِّبُ إِفْسَادَ الْعَقْلِ، وَفِيهَا مَا يَزِيدُ فِي السَّوْدَاءِ؛ فَيُوجِبُ الْمَالَيْخُولِيَا[1]، فَتَرَىٰ صَاحِبَهَا يُحِبُّ الْخَلْوَةَ، وَيَهْرُبُ مِنَ النَّاسِ، وَقَدْ يُقَلِّلُ الْمَطْعَمَ، فَيَقْوَىٰ مَرَضُهُ، فَيَتَخَايَلُ خَيَالَاتٍ يَظُنُّهَا حَقًّا:

فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنِّي رَأَيْتُ الْمَلَائِكَةَ! وَفِيهِمْ مَنْ يُخْرِجُهُ الْأَمْرُ إِلَىٰ دَعْوَىٰ مَحَبَّةِ الْحَقِّ، وَالْوَلَهِ فِيهِ[2]، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ عَنْ أَصْلٍ مُعْتَمَدٍ عَلَيْهِ.

وَإِنَّمَا الْعَاقِلُ الْعَالِمُ يَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ بَيْنَ الرَّفِيقَيْنِ: الْعِلْمُ وَالْعَقْلُ.

فَإِنْ تَقَلَّلَ مِنَ الطَّعَامِ؛ فَبِعَقْلٍ، وَحَدُّ التَّقَلُّلِ: تَرْكُ فُضُولِ الْمَطْعَمِ، وَمَا يُخَافُ شَرُّهُ مِنْ شُبْهَةٍ، أَوْ شَهْوَةٍ يُحْذَرُ تَعَوُّدُهَا.

وَأَمَّا زِيَادَةُ التَّقَلُّلِ مَعَ الْقُدْرَةِ؛ فَلَيْسَ لِعَقْلٍ وَلَا شَرْعٍ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْفَقْرُ عَمَّ، فَيَتَقَلَّلُ ضَرُورَةً.

وَمَنْ تَأَمَّلَ حَالَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ وَجَدَهُمْ يَأْخُذُونَ بِمِقْدَارٍ، وَلَا يَتْرُكُونَ حُظُوظَ النَّفْسِ الَّتِي تُصْلِحُهَا[3].

وَأَحْسَنُ الْأَمْرِ وَأَعْدَلُهُ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «ثُلُثٌ طَعَامٌ، وَثُلُثٌ شَرَابٌ، وَثُلُثٌ نَفَسٌ»[4].

وَقَدْ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، وَهُوَ مَرِيضٌ: «أَصِبْ مِنْ هَذَا الطَّعَامِ؛ فَهُوَ أَوْفَقُ لَكَ

---

(١) السَّوْدَاءُ: الأمشاجُ؛ أي: الأوساخ الَّتِي تَتجمَّع في البطن. وَالمَالَيْخُولِيَا: فَسَادُ الفِكْرِ.

(٢) الوَلَهُ: التَّحَيُّرُ مِنْ شِدَّةِ الوَجْدِ حَتَّىٰ يَكَادَ يَذْهَبُ بِعَقْلِهِ.

(٣) تُرَاجَع الخَاطِرَة رَقْم: [٤٣-٥١].

(٤) رواه الترمذي في «جامعه» كِتَابُ «الزُّهْدِ» بَابُ «مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ كَثْرَةِ الأَكْلِ» حديث (٢٣٨٠).

مِنْ هَذَا»[1].

وَكَانَ ﷺ يُشَاوِرُ الأَطِبَّاءَ، وَيَحْتَجِمُ[2].

وَيَحُثُّ عَلَىٰ التَّدَاوِي، وَيَقُولُ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً؛ فَتَدَاوَوْا»[3].

فَجَاءَ أَقْوَامٌ جَهِلُوا الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ فِي بُنْيَانِ الأَبْدَانِ؛ فَمِنْهُمْ: مَنْ أَقَامَ فِي الْجِبَالِ يَأْكُلُ الْبَلُّوطَ؛ فَأَصَابَهُ الْقَوْلَنْجُ. وَمِنْهُمْ: مِنْ كَانَ لَا يَتَقَوَّتُ إِلَّا الْبَاقِلَّاءَ وَالشَّعِيرَ. . . فَأَوْجَبَتْ هَذِهِ الأَفْعَالُ أَمْرَاضًا فِي الْبَدَنِ، وَتَرَقَّتْ إِلَىٰ إِفْسَادِ الْعَقْلِ[4].

وَاتَّفَقَ لَهُمْ قِلَّةُ الْعِلْمِ؛ إِذْ لَوْ عَمِلُوا؛ لَفَهِمُوا أَنَّ الْحِكْمَةَ تَنْهَىٰ عَنْ مِثْلِ هَذَا؛ فَإِنَّ الْبَدَنَ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ أَخْلَاطٍ، إِذَا اعْتَدَلَتْ؛ وَافَقَتِ السَّلَامَةَ، وَإِذَا زَادَ بَعْضُهَا؛ وَقَعَ الْمَرَضُ.

وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ مَرِضُوا، وَتَعَجَّلَ لَهُمُ الْمَوْتُ، وَفِيهِمْ مَنْ خَرَجَ إِلَىٰ التَّسَوْدُنِ[5]، وَفِيهِمْ مَنْ لَاحَتْ لَهُ لَوَائِحُ؛ فَادَّعَىٰ رُؤْيَةَ الْمَلَائِكَةِ... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» كِتَابُ «الطِّبِّ» حديث (٧٤٥٢). ولفظه: «يَا عَلِيُّ كُلْ مِنْ هَذَا فَهُوَ أَوْفَقُ لَكَ».

(٢) رَوَىٰ الشَّيْخَانِ عَنْ أَنَسٍ: احْتَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَجَمَهُ أَبُو طَيْبَةَ، وَأَعْطَاهُ صَاعَيْنِ مِنْ طَعَامٍ، وَكَلَّمَ مَوَالِيَهُ فَخَفَّفُوا عَنْهُ. البخاري، ك: «الطِّبِّ» (٥٦٩٦). ومسلم، ك: «الْمُسَاقَاةِ» (١٥٧٧). وَأَمَّا مُشَاوَرَتُهُ لِلطَّبِيبِ؛ فَإِنْ كَانَ لِنَفْسِهِ؛ فَلَمْ يَثْبُتْ لِي ذَلِكَ فِيمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْمَرَاجِعِ؛ وَلَكِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ شَاوَرَ لِغَيْرِهِ؛ كَمَا رواه مسلم، ك: «السَّلَامِ» (٢٢٠٧). عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ طَبِيبًا، فَقَطَعَ مِنْهُ عِرْقًا، ثُمَّ كَوَاهُ عَلَيْهِ»؛ بَلْ رُبَّمَا كَانَ الطَّبِيبُ هُوَ الَّذِي يُشَاوِرُ النَّبِيَّ ﷺ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ، كَمَا رواه النسائي في «المجتبىٰ» ك: «الصَّيْدِ، وَالذَّبَائِحِ» (٤٣٥٧) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ، «أَنَّ طَبِيبًا ذَكَرَ ضِفْدَعًا فِي دَوَاءٍ، عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَنَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قَتْلِهِ».

(٣) رواه أبو داود في «سننه» كِتَابُ «الطب» بَابُ «في الأدوية المكروهة» حديث (٣٨٦٦) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً فَتَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ».

(٤) الْبَلُّوطُ: ثَمَرُ شَجَرٍ يُؤْكَلُ وَيُدْبَغُ بِقِشْرِهِ. وَالْقَوْلَنْجُ: مَرَضٌ مِعَوِيٌّ يَصْعُبُ مَعَهُ خُرُوجُ البرازِ وَالرِّيحِ، وَسَبَبُهُ الْتِهَابُ الْقُولُونِ. وَلَا يَتَقَوَّتُ: لَا يَأْكُلُ. وَالْبَاقِلَّاءَ: لَفْظٌ مُعَرَّبٌ، وَهُوَ الْفُولُ الأَخْضَرُ. وَالشَّعِيرَ: دُونَ الْقَمْحِ فِي الْغِذَاءِ.

(٥) التَّسَوْدُنُ؛ أَيْ: يُصْبِحُ سَوْدَاوِيًّا: صَاحِبُ وِسْوَاسٍ وَهُجَاسٍ وَقَلَقٍ وَتَشَاؤُمٍ.

فَأَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ؛ فَهَرَبُهُمْ مِنَ الْخَلْقِ لِخَوْفِ الْمَعَاصِي، وَرُؤْيَةِ الْمُنْكَرِ، وَفِيهِمْ مَنْ قَوِيَتْ مَعْرِفَتُهُ؛ فَشَغَلَتْهُ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ وَمَحَبَّتُهُ عَنْ مُلَاقَاةِ الْخَلْقِ.

فَهَذِهِ هِيَ الْخَلَوَاتُ الصَّافِيَةُ، لِأَنَّهَا تَصْدُرُ عَنْ عِلْمٍ وَعَقْلٍ، فَتَحْفَظُ الْبَدَنَ، لِأَنَّهُ نَاقَةُ تَوْصِيلٍ.

وَلا يَنْبَغِي أَنْ يَتَهَاوَنَ بِالْمَأْكُولاتِ، خُصُوصًا مَنْ لَمْ يَعْتَدِ التَّقَشُّفَ، وَلا يَلْبَسَ الصُّوفَ عَلَى الْبَدَنِ مَنْ لَمْ يَعْتَدْهُ.

وَلْيَنْظُرْ فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَحَابَتِهِ؛ فَإِنَّهُمُ الْقُدْوَةُ، وَلا يَلْتَفِتْ إِلَى بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ[١]؛ فَيُقَالُ: فُلَانٌ الزَّاهِدُ قَدْ أَكَلَ الطِّينَ! وَفُلَانٌ كَانَ يَمْشِي حَافِيًا! وَفُلَانٌ بَقِيَ شَهْرًا مَا أَكَلَ! فَإِنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُخْلِصِينَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى غَيْرِ الْجَادَّةِ؛ لِأَنَّ الْجَادَّةَ اتِّبَاعُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.

هَذَا؛ وَلَعَمْرِي[٢]؛ إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَقْنَعُ بِالْمَذْقَةِ مِنَ اللَّبَنِ[٣]، وَيَصْبِرُ الْأَيَّامَ عَنِ الطَّعَامِ؛ وَلَكِنْ إِمَّا لِضَرُورَةٍ، أَوْ لِأَنَّهُ مُعْتَادٌ لِذَلِكَ؛ كَمَا يَعْتَادُ الْبَدْوِيُّ شُرْبَ اللَّبَنِ وَحْدَهُ، وَلا يُؤْذِيهِ ذَلِكَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «عَوِّدُوا كُلَّ بَدَنٍ مَا اعْتَادَ»[٤].

وَفِي الْمُتَزَهِّدِينَ مَنْ أَخْرَجَ مَالَهُ كُلَّهُ عَنْ يَدِهِ زُهْدًا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَاجَاتِ لَا تَنْقَضِي؛ فَلَمَّا

---

(١) بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ: هِيَ الطُّرُقُ الصِّغَارِ تَتَشَعَّب مِنَ الْجَادَّةِ، وَهِيَ التُّرَّهَاتُ. ثُمَّ أُطْلِقَتْ عَلَى الأَبَاطِيلِ وَمَا لَا أَصْلَ لَهُ.

(٢) لَعَمْرِي أَوْ لَعَمْرُك: مِنْ أَلْفَاظِ التَّأْكِيد، وَإِنْ كَانَت أَصلُهَا يَمِينًا، إِلَّا أَنَّهَا صَارَت مِنَ الْكَلِمَات الجَارِيَة عَلَى اللِّسَان العَرَبِي، وَلَا يُرَادُ بِهَا حَقِيْقَة القَسَم، وَهَذَا مَشْهُور فِي لُغَةِ الْعَرَب.

(٣) مَذْقَة: بَعض اللَّبَن المَمْزُوج بِالْمَاءِ.

(٤) وَقَصَدَ الإِمَام ابْنُ الجَوْزِيّ رحمه الله بِقَوْلِهِ: «وَفِي الحَدِيث..» المَعْنَى اللُّغَوِيّ لَا الاصطِلَاحِيّ؛ وَالدَّلِيل قَوْلُهُ فِي الخَاطِرَة رَقَم: [٢٧٧-٣٦٣]: [وَقَدْ قِيلَ: «عَوِّدُوا كُلَّ بَدَنٍ مَا اعْتَادَ!»] وَهُوَ مِنْ كَلَامِ الحَارِثِ بنِ كَلَدَةَ طَبِيبِ الْعَرَبِ، وَلَا يَصِحُّ رَفْعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ. وَسَبَقَ التَّعْلِيْق عَلَيْهِ فِي الخَاطِرَة: [٢٧٧-٣٦٣].

احْتَاجَ؛ تَعَرَّضَ لِلطَّلَبِ، وَافْتَقَرَ إِلَىٰ أَخْذِ مَالٍ مِنْ يَدِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ، وَبَذَلَ وَجْهَهُ(١)!

وَقَدْ كَانَتِ الصَّحَابَةُ تَتَّجِرُ وَتَحْفَظُ الْمَالَ، وَجُهَّالُ الْمُتَزَهِّدِينَ يَرَوْنَ جَمْعَ الْمَالِ يُنَافِي الزُّهْدَ!!

فَمَمْخَضَةُ هَذَا الْفَصْلِ أَنْ أَقُولَ(٢): يَنْبَغِي لِمَنْ رُزِقَ فَهْمًا أَنْ يَسْعَىٰ فِي صَلَاحِ بَدَنِهِ، وَلَا يَحْمِلَ عَلَيْهِ مَا يُؤْذِيهِ، وَلَا يُنَاوِلَهُ مِنَ الْقُوتِ مَا لَا يُوَافِقُهُ، وَلَا يُضَيِّعَ مَالَهُ، وَلْيَجْتَهِدْ فِي اسْتِثْمَارِهِ لِئَلَّا يَحْتَاجَ؛ فَإِنَّهُ مَا نَافَقَ زَاهِدٌ إِلَّا لِأَجْلِ الدُّنْيَا.

وَلْيَنْظُرْ فِي سِيَرِ الْكَامِلِينَ مِنَ السَّلَفِ، وَلْيَتَشَاغَلْ بِالْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ؛ فَحِينَئِذٍ يَحْمِلُهُ الْأَمْرُ عَلَىٰ الْخَلْوَةِ بِرَبِّهِ، وَالِاشْتِغَالِ بِحُبِّهِ، فَيَكُونُ مَا ظَهَرَ مِنْهُ ثَمَرَةً نَضِجَةً لَا فَجَّةً(٣)، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

*[٣٠٠ - ٣٠٩][خَاطِرَةٌ]:

[أَوَّلُ أَسْبَابِ الْكَمَالِ: حُسْنُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ]

الْكَمَالُ عَزِيزٌ، وَالْكَامِلُ قَلِيلُ الْوُجُودِ.

فَأَوَّلُ أَسْبَابِ الْكَمَالِ: تَنَاسُبُ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ، وَحُسْنُ صُورَةِ الْبَاطِنِ.

فَصُورَةُ الْبَدَنِ تُسَمَّىٰ خَلْقًا، وَصُورَةُ الْبَاطِنِ تُسَمَّىٰ خُلُقًا.

وَدَلِيلُ كَمَالِ صُورَةِ الْبَدَنِ: حُسْنُ السَّمْتِ، وَاسْتِعْمَالُ الْأَدَبِ.

وَدَلِيلُ صُورَةِ الْبَاطِنِ: حُسْنُ الطَّبَائِعِ وَالْأَخْلَاقِ:

فَالطَّبَائِعُ: الْعِفَّةُ، وَالنَّزَاهَةُ، وَالْأَنَفَةُ مِنَ الْجَهْلِ، وَمُبَاعَدَةُ الشَّرَهِ.

وَالْأَخْلَاقُ: الْكَرَمُ، وَالْإِيثَارُ، وَسَتْرُ الْعُيُوبِ، وَابْتِدَاءُ الْمَعْرُوفِ، وَالْحِلْمُ عَنِ الْجَاهِلِ.

(١) أَيْ: بَذَلَ مَاءَ وَجْهِهِ؛ بِمَعْنَىٰ: خَلَعَ الْحَيَاءَ.

(٢) فَمَمْخَضَةُ: مَخَّض: اِنْتَهَىٰ إِلَيْهِ أَو نَتَجَ عَنْهُ. مخض الرَّأْيَ: قَلَّبَه وَتَدَبَّر عَوَاقِبَه حَتَّىٰ ظَهَر لَهُ الصَّوابُ.

(٣) نَضِجَةً: طَابَتْ وَبَلَغَتْ مَا يُرَادُ مِنْهَا مِنْ اكْتِمَالِ الطَّرَاوَة وَالرَّائِحَة وَالطَّعم وَاللَّوْن. فَجَّةً: لَم تَنْضج.

فَمَنْ رُزِقَ هَذِهِ الأَشْيَاءَ؛ رَقَّتْهُ إِلَىٰ الْكَمَالِ، وَظَهَرَ عَنْهُ أَشْرَفُ الْخِلَالِ، وَإِنْ نَقَصَتْ خَلَّةٌ؛ أَوْجَبَتِ النَّقْصَ.

* [٣٠١ - ٥٢][خَاطِرَةٌ]:

[عَدَمُ النَّظَافَةِ خَلَلٌ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا]

تَلَمَّحْتُ عَلَىٰ خَلْقٍ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ إِهْمَالَ أَبْدَانِهِمْ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ لا يُنَظِّفُ فَمَهُ بِالْخِلَالِ بَعْدَ الأَكْلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُنَقِّي يَدَيْهِ فِي غَسْلِهِمَا مِنَ الزَّهَمِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لا يَكَادُ يَسْتَاكُ، وَفِيهِمْ مَنْ لا يَكْتَحِلُ، وَفِيهِمْ مَنْ لا يُرَاعِي الإِبْطَ ... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، فَيَعُودُ هَذَا الإِهْمَالُ بِالْخَلَلِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

أَمَّا الدِّينُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَ الْمُؤْمِنَ بِالتَّنَظُّفِ، وَالاِغْتِسَالِ لِلْجُمُعَةِ؛ لأَجْلِ اجْتِمَاعِهِ بِالنَّاسِ، وَنَهَىٰ عَنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ إِذَا أَكَلَ الثُّومَ، وَأَمَرَ الشَّرْعُ بِتَنْقِيَةِ الْبَرَاجِمِ، وَقَصِّ الأَظْفَارِ، وَالسِّوَاكِ، وَالاِسْتِحْدَادِ ... وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآدَابِ[1].

فَإِذَا أَهْمَلَ ذَلِكَ؛ تَرَكَ مَسْنُونَ الشَّرْعِ، وَرُبَّمَا تَعَدَّىٰ بَعْضُ ذَلِكَ إِلَىٰ فَسَادِ الْعِبَادَةِ؛ مِثْلَ أَنْ يُهْمِلَ أَظْفَارَهُ، فَيَجْمَعَ تَحْتَهُ الْوَسَخَ الْمَانِعَ لِلْمَاءِ فِي الْوُضُوءِ أَنْ يَصِلَ.

---

(١) الْخِلَالِ: عُودٌ يُتَخَلَّل بِهِ وَيُنَقَّي مَا بَيْنَ أَسْنَانِه. وَالزَّهَمِ: صَارَت فِيهَا رائحةُ الشَّحْم. (الزُّهْمَةُ) الرِّيحُ الْمُنْتِنَةُ. وَ(الزَّهَم) مِنَ الطَّيْرِ وَالدَّجَاج وَالْبَط. وَ(الدَّسَم) مِنْ دهن السِّمْسِم وَالجُوْز وَاللَّوْز وَالزَّيْتُون. وَ(الوَدَك) مِنَ الإِبِل وَالبَقَر وَالغَنَم. وَالعَامَّة لَا تُفَرِّق. وَلا يُرَاعِي الإِبْطَ؛ أَيْ: لَا يُرَاعِيْه بِالنَّظَافَة. وَالْبَرَاجِمِ: عُقَدِ الأَصَابع وَمَفَاصِلها كُلّهَا. وَالاِسْتِحْدَادِ: حَلْق شَعْر العَانَة. روىٰ الشَّيخَان عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْجُمُعَةَ، فَلْيَغْتَسِلْ». البخاري، ك: «الجُمُعَةِ»(٨٧٧). ومسلم، ك: «الْجُمُعَةِ»(٨٤٤). وروىٰ الشَّيخَان عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - يَعْنِي الثُّومَ - فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا». البخاري، ك: «الأَذَانِ»(٨٥٣). ومسلم، ك: «الْمَسَاجِدِ»(٥٦٤). وَزَادَ مِنْ حَدِيْثِ جَابِرٍ: «فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّىٰ مِمَّا يَتَأَذَّىٰ مِنْهُ بَنُو آدَمَ»(٥٦١). ومسلم، ك: «الطَّهَارَةِ»(٢٦١). عَنْ عَائِشَةَ، قَالَ ﷺ: «عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ، وَالسِّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ، وَنَتْفُ الإِبِطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ». يَعْنِي: الاِسْتِنْجَاءَ.

وَأَمَّا الدُّنْيَا؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ الْمُهْمِلِينَ أَنْفُسَهُمْ يَتَقَدَّمُونَ إِلَىٰ السِّرَارِ(١)، وَالْغَفْلَةُ الَّتِي أَوْجَبَتْ إِهْمَالَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أَوْجَبَتْ جَهْلَهُمْ بِالأَذَىٰ الْحَادِثِ عَنْهُمْ؛ فَإِذَا أَخَذُوا فِي مُنَاجَاةِ السِّرِّ؛ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ أَصْدِفَ عَنْهُمْ(٢)؛ لِأَنَّهُمْ يَقْصِدُونَ السِّرَّ، فَأَلْقَىٰ الشَّدَائِدَ مِنْ رِيحِ أَفْوَاهِهِمْ، وَلَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْ وَقْتِ انْتِبَاهِهِمْ مَا أَمَرَّ إِصْبَعَهُ عَلَىٰ أَسْنَانِهِ!!

ثُمَّ يُوجِبُ مِثْلُ هَذَا نُفُورَ الْمَرْأَةِ، وَقَدْ لا تَسْتَحْسِنُ ذِكْرَ ذَلِكَ لِلرَّجُلِ، فَيُثْمِرُ ذَلِكَ الْتِفَاتَهَا عَنْهُ. وَقَدْ كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه يَقُولُ: «إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ كَمَا أُحِبُّ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِي»(٣)

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: هَذَا تَصَنُّعٌ! وَلَيْسَ بِشَيْءٍ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ زَيَّنَنَا لَمَّا خَلَقَنَا؛ لِأَنَّ لِلْعَيْنِ حَظًّا فِي النَّظَرِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ أَهْدَابَ الْعَيْنِ وَالْحَاجِبَيْنِ وَحُسْنَ تَرْتِيبِ الْخِلْقَةِ، عَلِمَ أَنَّ اللهَ زَيَّنَ الآدَمِيَّ(٤).

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْظَفَ النَّاسِ، وَأَطْيَبَ النَّاسِ(٥).

---

(١) السِّرَارُ: سَارَّ صَاحِبَهُ: نَاجَاهُ وَأَعْلَمَهُ بِسِرِّهِ.

(٢) يَعْنِي: لَمْ يُمْكِن أَنْ يُعْرِضَ عَنْهُم أَو يَنْصَرِف.

(٣) ترجمة ابْنُ عَبَّاسٍ في: [١٦٤ - ٣٥٤]. وَالخَبَر رَوَاهُ ابن أبي شيبة، ك: «الطلاق» (١٩٦٠٨) عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ ، كَمَا أُحِبُّ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِي الْمَرْأَةُ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَسْتَنْطِفَ حَقِّي عَلَيْهَا؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾».

(٤) أَهْدَابُ: شَعْرٌ نَابِتٌ عَلَىٰ أَطْرَافِ جُفُوْنِ الْعَيْنِ، رمُوش. وَمِمَّا يَدُلُّ لِهَذَا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وَهَذَا شَامِلٌ لِخَلْقِ الْإِنْسَانِ حِسًّا وَمَعْنًى، وَقَوْلُهُ: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [الغافر: ٦٤- التغابن: ٣] وَقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠]. وَمِنْ تَكْرِيمِهِ لِبَنِي آدَمَ خَلْقُهُ لَهُمْ عَلَىٰ أَكْمَلِ الْهَيْئَاتِ وَأَحْسَنِهَا.

(٥) رَوَىٰ الشَّيْخَانِ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَزْهَرَ اللَّوْنِ، كَأَنَّ عَرَقَهُ اللُّؤْلُؤُ، إِذَا مَشَىٰ تَكَفَّأَ، وَلا مَسِسْتُ دِيبَاجَةً، وَلا حَرِيرَةً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلا شَمِمْتُ مِسْكَةً وَلا عَنْبَرَةً أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ» البخاري، ك: «الصَّوْمِ» ب: «مَا يُذْكَرُ مِنْ صَوْمِ النَّبِيِّ ﷺ» (١٩٧٣). ومسلم، ك: «الْفَضَائِلِ» ب: «طِيبِ رَائِحَةِ النَّبِيِّ ﷺ» (٢٣٣٠).

وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ: يَرْفَعُ يَدَيْهِ حَتَّىٰ تَبِينَ عُفْرَةُ إِبْطَيْهِ(١).

وَكَانَ سَاقُهُ رُبَّمَا انْكَشَفَتْ، فَكَأَنَّهَا جُمَّارَةٌ(٢).

وَكَانَ لا يُفَارِقُهُ السِّوَاكُ(٣).

وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُشَمَّ مِنْهُ رِيحٌ لَيْسَتْ طَيِّبَةً(٤).

وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ الصَّحِيحِ: «مَا شَانَهُ اللهُ بِبَيْضَاءَ»(٥).

وَقَدْ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ: «مَنْ نَظَّفَ ثَوْبَهُ؛ قَلَّ هَمُّهُ، وَمَنْ طَابَ رِيحُهُ؛ زَادَ عَقْلُهُ»(٦).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لِأَصْحَابِهِ: «مَا لَكُمْ تَدْخُلُونَ عَلَيَّ قُلْحًا؟! اسْتَاكُوا»(٧).

---

(١) يَعْني: بَيَاضَ إِبْطَيْهِ. رَوَىٰ الشَّيْخَان عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَرْفَعُ يَدَيْهِ فِي الدُّعَاءِ، حَتَّىٰ يُرَىٰ بَيَاضُ إِبْطَيْهِ» البخاري، كِ: «الاسْتِسْقَاءِ» (١٠٣٠). ومسلم، كِ: «صَلَاةِ الاسْتِسْقَاءِ» (٨٩٥). وَرَفْعُ الْيَدَيْنِ مَدًّا نَحْوَ السَّمَاء حَتَّىٰ تُرَىٰ عُفْرَةُ إِبْطَيْهِ صِفَةٌ خَاصَّةٌ فِي حَالِ الشِّدَّةِ وَالرَّهْبَة، وَالنَّازِلَة بِتَسَلُّط العَدُو، وَنَحْو ذَلِكَ.

(٢) جُمَّارَةٌ: قَلْبُ النَّخْلَة، وَكَأَنَّهُ يُشِير بِذَلِكَ إِلَىٰ بَيَاضِ سَاقَيْهِ ﷺ وَنَظَافَتِهمَا. وَالْحَدِيث رَوَاهُ الطَّبَرَانِي فِي «المعجم الكبير» (٦٦٠٢، ٦٦٠٣)، وَابْن أَبِي عَاصِم فِي «الآحاد والمثاني» (١٠٢٩) مِنْ حَدِيث سُرَاقَةَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه. وَفِيهِ: «حَتَّىٰ دَنَوْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَىٰ نَاقَةٍ أَنظُرُ إِلَىٰ سَاقِهِ فِي غَرْزِهِ كَأَنَّهَا جُمَّارَةٌ...».

(٣) وَلَيْسَ أَدَلّ عَلَىٰ ذَلِكَ مِمَّا رَوَاه البُخَارِي، أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ، وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَرَأَيْتُهُ يَنظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: «أَنْ نَعَمْ» فَتَنَاوَلْتُهُ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: «أَنْ نَعَمْ» فَلَيَّنْتُهُ، فَأَمَرَّهُ»، كِتَاب: «المَغَازِي» (٤٤٤٩).

(٤) وَلَيْسَ أَدَلّ عَلَىٰ ذَلِكَ مِمَّا رَوَاه الشَّيْخَان عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: أُتِيَ بِبَدْرٍ، - طَبَقًا -، فِيهِ خَضِرَاتٌ مِنْ بُقُولٍ، فَوَجَدَ لَهَا رِيحًا، فَسَأَلَ عَنْهَا فَأُخْبِرَ بِمَا فِيهَا مِنَ البُقُولِ، فَقَالَ: «قَرِّبُوهَا»، فَقَرَّبُوهَا إِلَىٰ بَعْضِ أَصْحَابِهِ كَانَ مَعَهُ، فَلَمَّا رَآهُ كَرِهَ أَكْلَهَا قَالَ: «كُلْ فَإِنِّي أُنَاجِي مَنْ لا تُنَاجِي» البخاري، كِ: «الِاعْتِصَامِ» (٧٣٥٩). ومسلم، كِ: «الْمَسَاجِدِ» (٥٦٤).

(٥) رواه مسلم، كِتَابُ «الْفَضَائِلِ» بَابُ «شَيْبِهِ» حديث (٢٣٤١).

(٦) قِيلَ هُوَ: مَكْحُولٌ الدِّمَشْقِيُّ؛ «التمثيل والمحاضرة» للثعالبي. (ص٣٥) و«الطب النبوي» لأبي نعيم. (ج١/ ص٣١). وَقِيلَ: الشَّافِعِيّ؛ «الإحياء» للغزالي. (ج١/ ص٢٤٠/ آداب الجمعة). و«صفة الصفوة» لابن الجوزي. (ج٢/ ص١٤٧).

(٧) قُلْحًا: صُفْرَة أَوْ خُضْرَة تَعْلُو الأَسْنَانَ. وَالْحَدِيث رَوَاهُ الطبراني في «الكبير» (١٣٠٢، ١٣٠٣). وأحمد في «المسند» (١٨٣٥) بِلَفْظ: «مَا لِي أَراكُمْ تأتوني قُلْحًا؟!». «ضعيف الجامع» (٧٩٩) و«الضعيفة» (١٤٧٢).

وَقَدْ فُضِّلَتِ الصَّلَاةُ بِالسِّوَاكِ عَلَىٰ الصَّلَاةِ بِغَيْرِ سِوَاكٍ[1].

فَالْمُتَنَظِّفُ يُنَعِّمُ نَفْسَهُ، وَيَرْفَعُ مِنْهَا عِنْدَهَا[2]. وَقَدْ قَالَ الْحُكَمَاءُ: «مَنْ طَالَ ظُفُرُهُ؛ قَصُرَتْ يَدُهُ». ثُمَّ إِنَّهُ يَقْرُبُ مِنْ قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَتُحِبُّهُ النُّفُوسُ؛ لِنَظَافَتِهِ وَطِيبِهِ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ الطِّيبَ[3].

ثُمَّ إِنَّهُ يُؤْنِسُ الزَّوْجَةَ بِتِلْكَ الْحَالِ؛ فَإِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ[4]، فَكَمَا أَنَّهُ يَكْرَهُ الشَّيْءَ مِنْهَا؛ فَكَذَلِكَ هِيَ تَكْرَهُهُ، وَرُبَّمَا صَبَرَ هُوَ عَلَىٰ مَا يَكْرَهُ، وَهِيَ لَا تَصْبِرُ.

وَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ زُهَّادٌ، وَهُمْ مِنْ أَقْذَرِ النَّاسِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ مَا قَوَّمَهُمُ الْعِلْمُ.

وَأَمَّا مَا يُحْكَىٰ عَنْ دَاوُدَ الطَّائِيِّ[5]: أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: لَوْ سَرَّحْتَ لِحْيَتَكَ؟ فَقَالَ: «إِنِّي عَنْهَا مَشْغُولٌ»؛ فَهَذَا قَوْلُ مُعْتَذِرٍ عَنِ الْعَمَلِ بِالسُّنَّةِ، وَالإِخْبَارُ عَنْ غَيْبَتِهِ عَنْ نَفْسِهِ بِشِدَّةِ خَوْفِهِ مِنَ الْآخِرَةِ، وَلَوْ كَانَ مُفِيقًا لِذَلِكَ؛ لَمْ يَتْرُكْهُ؛ فَلَا يُحْتَجُّ بِحَالِ الْمَغْلُوبِينَ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ خَصَائِصَ الرَّسُولِ ﷺ؛ رَأَىٰ كَامِلًا فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ فَبِهِ يَكُونُ الِاقْتِدَاءُ[6]، وَهُوَ الْحُجَّةُ عَلَىٰ الْخَلْقِ.

---

(١) كَأَنَّهُ يُشِيرُ رَحِمَهُ اللهُ إِلَىٰ مَا رَواه أحمد في «المسند»(٢٦٣٤٠). «ضعيف الجامع»(٣٩٦٥) وَإِسْنَادُه ضَعِيف.

(٢) هَكَذَا فِي مَخْطُوط:(ي) وجَاءَ فِي الأَصْلِ:[عَتَّدَهَا]. وفي هامش الأصل:[في المصرية:[عَبْدَهَا] كذا مهملة، وفي الأحمدية:[عِنْدَهَا]، وفي الهندية:[عدَّتهَا]، وليُحرر]. قُلْتُ: وَ[عَتَّدَهَا] بِمَعْنَىٰ أَعْتَدَهَا: إِذَا هَيَّأَهَا.

(٣) رواه النسائي فِي «المُجتبىٰ» كتاب «عشرة النساء»(٣٩٣٩). وَلَفْظُه: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا: النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» قَالَ الكَلَابَاذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَعَانِي الأَخْيَارِ»(ص٢٥): «الطِّيبُ مِنْ حَظِّ الرُّوحَانِيِّينَ مِنْ خَلْقِ اللهِ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَلَيْسَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا غَيْرِ الطِّيبِ حَظٌّ؛ فَأَحَبَّ ﷺ الطِّيبَ إِيفَاءً لِحُقُوقِهِمْ، وَحُسْنَ مُعَامَلَةٍ لَهُمْ مَعَ غِنَاهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ ﷺ كَانَ أَطْيَبَ رِيحًا مِنْ كُلِّ طِيبٍ فِي الدُّنْيَا» اهـ.

(٤) شَقَائِقُ: شَقِيق: نَظِير وَمَثِيل. قَالَ فِي «النهاية»[شَقَقَ]: «نَظَائِرُهُم وَأَمْثَالُهُمْ فِي الأَخْلَاقِ وَالطِّبَاعِ؛ كَأَنَّهُنَّ شُقِقْنَ مِنْهُمْ؛ وَلِأَنَّ حَوَّاءَ خُلِقَت مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ» اهـ. وَقَد رَوَىٰ الترمذي، كِ: «الطَّهَارَةِ»(١١٣): «إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ».

(٥) ترجمة دَاوُد الطَّائِيّ في الخاطرة:[١٢٩-٣٦٢]. وَالْخَبَرِ فِي «حلية الأولياء» لأبي نعيم.(ج٧/ ص٣٣٩).

(٦) في مخطوط:(ي):[فِيهِ يَكُونُ الِاقْتِدَاءُ].

*[٣٠٢ - ٢٧٨][خَاطِرَةٌ]:

[ذَخَائِرُ النَّفْسِ فِي الْبَدَنِ]

لِلنَّفْسِ ذَخَائِرُ فِي الْبَدَنِ:

مِنْهَا الدَّمُ وَالْمَنِيُّ، وَأَشْيَاءُ تَتَقَوَّىٰ بِهَا؛ فَإِذَا فُقِدَتِ الذَّخَائِرُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ؛ ذَهَبَتْ.

وَمِنْ ذَخَائِرِهَا التَّقَوِّي بِالْمَالِ وَالْجَاهِ، وَمَا يُوجِبُ الْفَرَحَ؛ فَإِذَا فَقَدَتْ ذَلِكَ، وَكَانَتْ عَزِيزَةً ذَاتَ أَنَفَةٍ؛ حَرِجَتْ.

وَقَدْ يَهْجُمُ عَلَيْهَا الْخَوْفُ؛ فَلَا تَجِدُ ذَخِيرَةً مِنَ الرَّجَاءِ يُقَاوِمُهُ؛ فَتَذْهَبُ.

وَيَغْلِبُ عَلَيْهَا الْفَرَحُ؛ فَلَا تَجِدُ مِنَ الْحُزْنِ مَا يُقَاوِمُهُ؛ فَتَذْهَبُ.

فَاجْتَهِدْ فِي حِفْظِ ذَخَائِرِهَا[(١)]، وَخُصُوصًا الشَّيْخَ؛ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أَلَّا يَفْرَحَ بِإِخْرَاجِ الدَّمِ، وَلَا بِإِخْرَاجِ الْمَنِيِّ، وَإِنْ وَجَدَ شَبَقًا؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الشَّبَقُ زَائِدًا فِي الْحَدِّ[(٢)]، فَيُخْرِجُ الْمُؤْذِيَ فِي كُلِّ حِينٍ، وَعَلَامَةُ أَنْ يَكُونَ مُؤْذِيًا: وُجُودُ الرَّاحَةِ عِنْدَ خُرُوجِهِ؛ فَمَتَىٰ وَجَدَ ضَعْفًا؛ فَقَدْ آذَىٰ خُرُوجُهُ.

وَلْيَحْفَظْ ذُو الْأَنَفَةِ عَلَىٰ نَفْسِهِ حِشْمَتَهُ؛ بِأَنْ لَا يَقِفَ فِي مَوْقِفٍ يُعَابُ بِهِ؛ فَإِنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِذَخِيرَةِ الْعِزِّ وَالْأَنَفَةِ، وَيُضَادُّ النَّفْسَ وُجُودُ ضِدِّ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعِدَّ لِآخِرِ عُمُرِهِ بِالْمَالِ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَحْتَاجَ فَيَذِلَّ أَوْ يَسْعَىٰ، وَقَدْ كَلَّتِ الْآلَةُ؛ وَلَأَنْ يُخَلِّفَ لِعَدُوِّهِ أَوْلَىٰ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَىٰ صَدِيقِهِ[(٣)].

وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ مَنْ يَذُمُّ الْمَالَ؛ فَإِنَّهُمُ الْحَمْقَىٰ الْجُهَّالُ الَّذِينَ اتَّكَلُوا عَلَىٰ خُبْزِ الرَّاحَةِ،

---

(١) ذَخَائِرُ: ذَخِيرَة: مَا أَعْدَدْتَهُ لِوَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ.

(٢) الشَّبَق: شِدَّة هَيَجَان الشَّهْوَة الجِنْسِيَّة.

(٣) كَلَّتْ: ضَعُفَتْ. وَقَوْلُهُ: «وَلَأَنْ يُخَلِّفَ لِعَدُوِّهِ...»، يَعْنِي: يُخَلِّف مَالًا لِمَنْ يَكْرَهُهُ مِمَّنْ يَرِثُهُ.

فَاسْتَطَابُوا الْكَسَلَ وَالدَّعَةَ، وَلَمْ يَأْنَفُوا مِنْ تَنَاوُلِ الصَّدَقَةِ، وَلا التَّعَرُّضِ لِلسُّؤَالِ؛ وَقَدْ كَانَ لِكُلِّ نَبِيٍّ مَعَاشٌ، وَلِجَمِيعِ الصَّحَابَةِ، وَخَلَّفُوا أَمْوَالًا كَثِيرَةً.

فَافْهَمْ هَذَا الأَصْلَ، وَلا تَلْتَفِتْ إِلَىٰ كَلَامِ الْجُهَّالِ.

---

*[٣٠٣ - ٢٦٤][خَاطِرَةٌ]:

[أنت بالروح لا بالجسم إنسان]

عَجِبْتُ لِمَنْ يُعْجَبُ بِصُورَتِهِ، وَيَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ، وَيَنْسَىٰ مَبْدَأَ أَمْرِهِ!

إِنَّمَا أَوَّلُهُ لُقْمَةٌ ضُمَّتْ إِلَيْهَا جُرْعَةُ مَاءٍ. فَإِنْ شِئْتَ؛ فَقُلْ: كُسَيْرَةُ خُبْزٍ، مَعَهَا تَمَرَاتٌ، وَقِطْعَةٌ مِنْ لَحْمٍ، وَمَذْقَةٌ مِنْ لَبَنٍ، وَجُرْعَةٌ مِنْ مَاءٍ . . . وَنَحْوُ ذَلِكَ، طَبَخَتْهُ الْكَبِدُ، فَأَخْرَجَتْ مِنْهُ قَطَرَاتِ مَنِيٍّ، فَاسْتَقَرَّ فِي الأُنْثَيَيْنِ، فَحَرَّكَتْهَا الشَّهْوَةُ، فَصُبَّتْ، فَبَقِيَتْ فِي بَطْنِ الأُمِّ مُدَّةً حَتَّىٰ تَكَامَلَتْ صُورَتُهَا، فَخَرَجَتْ طِفْلًا، يَتَقَلَّبُ فِي خِرَقِ الْبَوْلِ[١].

وَأَمَّا آخِرُهُ؛ فَإِنَّهُ يُلْقَىٰ فِي التُّرَابِ، فَيَأْكُلُهُ الدُّودُ، وَيَصِيرُ رُفَاتًا تَسْفِيهِ السَّوَافِي[٢]، وَكَمْ يَخْرُجُ تُرَابُ بَدَنِهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ آخَرَ، وَيُقَلَّبُ فِي أَحْوَالٍ، إِلَىٰ أَنْ يَعُودَ فَيُجْمَعَ!

هَذَا خَبَرُ الْبَدَنِ..

إِنَّمَا الرُّوحُ عَلَيْهَا الْعَمَلُ: فَإِنْ تَجَوْهَرَتْ بِالأَدَبِ، وَتَقَوَّمَتْ بِالْعِلْمِ، وَعَرَفَتِ الصَّانِعَ،

---

(١) مَذْقَة: بعض اللَّبَن المَمْزُوج بِالْمَاءِ. وَالأُنْثَيَيْنِ: الْخُصْيَتَيْنِ. وَ(الْخُصْيَتَانِ) الْبَيْضَتَانِ وَ(الْخُصْيَانِ) الْجِلْدَتَانِ اللَّتَانِ فِيهِمَا الْبَيْضَتَانِ. وَخِرَقِ الْبَوْلِ ظَاهِرٌ، وَخِرَق النُّطْفَة بَاطِنٌ، - وَكِلاهُمَا فِي المَرْأَةِ - وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا فِي القَدْرِ إِلَّا قِيَاس عَرض الإِبْهَام.[يُراجع:«رجوع الشيخ إلىٰ صباه» أحمد بن كمال باشا.(ص٦٨)]

(٢) الرُّفات: الْحُطَام، وَهُوَ مَا أُرْفِتَّ مِنَ العِظَام. السَّافِيَات وَالسَّوافي: تُرابٌ يَذهَبُ مَعَ الرِّيح.

وَقَامَتْ بِحَقِّهِ؛ فَمَا يَضُرُّهَا نَقْصُ الْمَرْكَبِ. وَإِنْ هِيَ بَقِيَتْ عَلَىٰ صِفَتِهَا مِنَ الْجَهَالَةِ؛ شَابَهَتِ الطِّينَ، بَلْ صَارَتْ إِلَىٰ أَخَسِّ حَالَةٍ مِنْهُ[(١)].

---

(١) تَجَوْهَرَتْ: تَزَيَّنَتْ. وَتَقَوَّمَتْ: اِعْتَدَلَتْ وَزَالَ عِوَجهَا. قَالَ الإِمَامُ اِبْنُ الجَوْزِيِّ رحمه الله فِي «الطِّبُّ الرُّوحَانِي»(ص ٥٧): «وَاعلَم أَنَّ فِي الإِنْسَانِ قُوَىٰ ثَلاثَة: قُوَّة نَاطِقَة، وَقُوَّة شَهْوَانِيَّة، وَقُوَّة غَضَبِيَّة؛ فَيَنْبَغِي لِمَنْ شَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِحُبِّ الْعِلْم أَنْ يَعْتَنِي بِتَكْمِيلِ النَّفْس النَّاطِقَة الَّتِي فَضَّلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا عَلَىٰ سَائِرِ الحَيَوَانَاتِ وَشَارَكَ بِهَا الْمَلَائِكَة؛ فَيَجْعَلُهَا هِيَ الْمُسَلَّطَة عَلَىٰ القُوَّتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ؛ أَعْنِي الشَّهْوَانِيَّةَ وَالغَضَبِيَّةَ؛ لِتَكُوْنَ مَنْزِلَتُهَا فِي البَدَنِ بِمَنْزِلَةِ الرَّاكِب لِلْفَرَسِ؛ فَإِنَّ الفَارِسَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ هُوَ الْمُسَلَّط عَلَىٰ الفَرَسِ لِاسْتِعْلَائِهِ فَيَمْضِي بِهَا أَيْنَ شَاءَ وَيَعُقُّهَا إِذَا شَاءَ؛ فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُوْنَ الْقُوَّة النَّاطِقَة هِيَ الْمُسْتَعْلِيَة عَلَىٰ بَاقِي القُوَىٰ، تَسْتَعْمِلُهَا كَمَا تُحِبّ، وَتَكُفُّهَا حِيْنَ تُحِبّ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ اِسْتَحَقَّ أَنْ يُسَمَّىٰ إِنْسَانًا حَقِيْقَة»اهـ.

(٢٤)

[الزَّوَاجُ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالنِّسَاءِ وَالعِشْقِ]

*[٣٠٤ - ٧٥][خَاطِرَةٌ]:

[فَهْمُ حَقَائِقِ الزَّوَاجِ]

لَمَّا كَانَ بَدَنُ الآدَمِيِّ لا يَقُومُ[1] إِلَّا بِاجْتِلَابِ الْمَصَالِحِ، وَدَفْعِ الْمُؤْذِي؛ رُكِّبَ فِيهِ الْهَوَىٰ؛ لِيَكُونَ سَبَبًا لِجَلْبِ النَّافِعِ، وَالْغَضَبُ؛ لِيَكُونَ سَبَبًا لِدَفْعِ الْمُؤْذِي[2].

وَلَوْلَا الْهَوَىٰ فِي الْمَطْعَمِ؛ مَا تَنَاوَلَ الطَّعَامَ، فَلَمْ يَقُمْ بَدَنُهُ، فَجُعِلَ لَهُ إِلَيْهِ مَيْلٌ وَتَوْقٌ[3]؛ فَإِذَا حَصَلَ لَهُ قَدْرُ مَا يُقِيمُ بَدَنَهُ؛ زَالَ التَّوْقُ. وَكَذَلِكَ فِي الْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَنْكَحِ.

وَفَائِدَةُ الْمَنْكَحِ مِنْ وَجْهَيْنِ[4]:

أَحَدُهُمَا: إِبْقَاءُ الْجِنْسِ، وَهُوَ مُعْظَمُ الْمَقْصُودِينَ.

وَالثَّانِي: دَفْعُ الْفَضْلَةِ الْمُحْتَقَنَةِ الْمُؤْذِي احْتِقَانُهَا.

وَلَوْلَا تَرْكِيبُ الْهَوَىٰ الْمَائِلِ بِصَاحِبِهِ إِلَىٰ النِّكَاحِ؛ مَا طَلَبَهُ أَحَدٌ، فَفَاتَ النَّسْلُ وَآذَىٰ الْمُحْتَقِنَ.

---

(١) قَامَ يَقُومُ قِيَامًا فَهُوَ قَوَّامٌ وَقَائِمٌ؛ أَيْ: عِمَادُهُ الَّذِي يَقُومُ بِهِ وَيَنْتَظِمُ.

(٢) أَيْ: وَرُكِّبَ فِيهِ الْغَضَبُ. [يُرَاجَع لِلأَهَمِّيَّةِ «الطِّبُّ الرُّوحَانِي» لابْنِ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.(ص٨و١٠و ٢٧)].

(٣) الْمَيْلُ: حُبُّ الشَّيْءِ وَالرَّغْبَةُ فِيهِ. وَالتَّوْقُ: الاشْتِيَاقُ إِلَىٰ الشَّيْءِ والنُّزوعُ إِلَيْهِ.

(٤) قَالَ الإِمَامُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مِنْهَاجِ القَاصِدِينَ»(ج١/ ص٣٣٨-٣٤٥): «لا يَخْتَلِفُ الْعُلَمَاءُ فِي أَنَّ النِّكَاحَ مُسْتَحَبٌّ وَمَنْدُوبٌ إِلَيْهِ كَثِيرُ الفَضَائِلِ. . . فَوَائِدُ النِّكَاحِ وَهِيَ خَمْسَةٌ: الأُولَىٰ: الْوَلَدُ. الثَّانِيَةُ: التَّحَصُّنُ مِنَ الشَّيْطَانِ بِدَفْعِ غَوَائِلِ الشَّهْوَةِ. الثَّالِثَةُ: تَرْوِيحُ النَّفْسِ وَإِينَاسِهَا بِمُخَالَطَةِ الزَّوْجَةِ. الرَّابِعَةُ: تَفْرِيغُ الْقَلْبِ عَنْ تَدْبِيرِ الْمَنْزِلِ. الخَامِسَةُ: مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ وَرِيَاضَتِهَا بِالرِّعَايَةِ وَالوِلَايَةِ، وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِ الأَهْلِ... »اهـ بتصرف واختصار.

فَأَمَّا الْعَارِفُونَ؛ فَإِنَّهُمْ فَهِمُوا الْمَقْصُودَ.

وَأَمَّا الْجَاهِلُونَ؛ فَإِنَّهُمْ مَالُوا مَعَ الشَّهْوَةِ وَالْهَوَىٰ، وَلَمْ يَفْهَمُوا مَقْصُودَ وَضْعِهَا، فَضَاعَ زَمَانُهُمْ فِيمَا لَا طَائِلَ فِيهِ، وَفَاتَهُمْ مَا خُلِقُوا لِأَجْلِهِ، وَأَخْرَجَهُمْ هَوَاهُمْ إِلَىٰ فَسَادِ الْمَالِ، وَذَهَابِ الْعِرْضِ وَالدِّينِ، ثُمَّ أَدَّاهُمْ إِلَىٰ التَّلَفِ.

وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ مُتَنَعِّمٍ يُبَالِغُ فِي شِرَاءِ الْجَوَارِي، لِيُحَرِّكَ طَبْعَهُ بِالْمُسْتَجِدِّ؛ فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ وَهَنَتْ قُوَاهُ الْأَصْلِيَّةُ، فَتَعَجَّلَ تَلَفَهُ.

وَكَذَلِكَ رَأَيْنَا مَنْ زَادَ غَضَبُهُ، فَخَرَجَ عَنِ الْحَدِّ، فَفَتَكَ بِنَفْسِهِ، وَبِمَنْ يُحِبُّهُ.

فَمَنْ عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا خُلِقَتْ إِعَانَةً لِلْبَدَنِ عَلَىٰ قَطْعِ مَرَاحِلِ الدُّنْيَا، وَلَمْ يُخْلَقْ لِنَفْسِ الِالْتِذَاذِ؛ وَإِنَّمَا جُعِلَتِ اللَّذَّةُ فِيهَا كَالْحِيلَةِ فِي إِيصَالِ النَّفْعِ بِهَا؛ إِذْ لَوْ كَانَ الْمَقْصُودُ التَّنَعُّمَ بِهَا؛ لَمَا جُعِلَتِ الْحَيَوَانَاتُ الْبَهِيمِيَّةُ أَوْفَىٰ حَظًّا مِنَ الْآدَمِيِّ مِنْهَا.

فَطُوبَىٰ لِمَنْ فَهِمَ حَقَائِقَ الْوَضْعِ، وَلَمْ يَمِلْ بِهِ الْهَوَىٰ عَنْ فَهْمِ حِكَمِ الْمَخْلُوقَاتِ.

*[٣٠٥ - ٢٨][خَاطِرَةٌ]:

[فَوَائِدُ النِّكَاحِ وَمَعَانِيهِ وَمَوْضُوعِهِ]

تَأَمَّلْتُ فِي فَوَائِدِ النِّكَاحِ وَمَعَانِيهِ وَمَوْضُوعِهِ؛ فَرَأَيْتُ أَنَّ الْأَصْلَ الْأَكْبَرَ فِي وَضْعِهِ وُجُودُ النَّسْلِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْحَيَوَانَ لَا يَزَالُ يَتَحَلَّلُ، ثُمَّ يَخْلُفُ الْمُتَحَلِّلَ الْغِذَاءُ، ثُمَّ يَتَحَلَّلُ مِنَ الْأَجْزَاءِ الْأَصْلِيَّةِ مَا لَا يَخْلُفُهُ شَيْءٌ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ فَنَائِهِ، وَكَانَ الْمُرَادُ امْتِدَادَ أَزْمَانِ الدُّنْيَا؛ جُعِلَ النَّسْلُ خَلَفًا عَنِ الْأَصْلِ.

وَلَمَّا كَانَتْ صُورَةُ النِّكَاحِ تَأْبَاهَا النُّفُوسُ الشَّرِيفَةُ؛ مِنْ كَشْفِ الْعَوْرَةِ، وَمُلَاقَاةِ مَا لَا يُسْتَحْسَنُ لِنَفْسِهِ؛ جُعِلَتِ الشَّهْوَةُ تَحُثُّ عَلَيْهِ؛ لِيَحْصُلَ الْمَقْصُودُ.

ثُمَّ رَأَيْتُ هَذَا الْمَقْصُودَ الْأَصْلِيَّ يَتْبَعُهُ شَيْءٌ آخَرُ، وَهُوَ اسْتِفْرَاغُ هَذَا الْمَاءِ، الَّذِي يُؤْذِي دَوَامُ احْتِقَانِهِ؛ فَإِنَّ الْمَنِيَّ يَنْفَصِلُ مِنَ الْهَضْمِ الرَّابِعِ؛ فَهُوَ مِنْ أَصْفَىٰ جَوْهَرِ الْغِذَاءِ وَأَجْوَدِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ؛ فَهُوَ أَحَدُ الذَّخَائِرِ لِلنَّفْسِ؛ فَإِنَّهَا تَدَّخِرُ - لِبَقَائِهَا وَقُوَّتِهَا - الدَّمَ، ثُمَّ الْمَنِيَّ، ثُمَّ تَدَّخِرُ التُّفْلَ، الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْمِدَةِ الْبَدَنِ[١]؛ كَأَنَّهُ لِخَوْفِ عَدَمِ غَيْرِهِ.

فَإِذَا زَادَ اجْتِمَاعُ الْمَنِيِّ؛ أَقْلَقَ عَلَىٰ نَحْوِ إِقْلَاقِ الْبَوْلِ لِلْحَاقِنِ[٢]، إِلَّا أَنَّ إِقْلَاقَهُ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَىٰ أَكْثَرُ مِنْ إِقْلَاقِ الْبَوْلِ مِنْ حَيْثُ الصُّورَةِ، فَتُوجِبُ كَثْرَةُ اجْتِمَاعِهِ، وَطُولُ احْتِبَاسِهِ أَمْرَاضًا صَعْبَةً؛ لِأَنَّهُ يَتَرَقَّىٰ مِنْ بُخَارِهِ إِلَىٰ الدِّمَاغِ فَيُؤْذِي، وَرُبَّمَا أَحْدَثَ سُمِّيَّةً[٣] . . . وَمَتَىٰ كَانَ الْمِزَاجُ سَلِيمًا؛ فَالطَّبْعُ يَطْلُبُ بُرُوزَ الْمَنِيِّ إِذَا اجْتَمَعَ، كَمَا يَطْلُبُ بُرُوزَ الْبَوْلِ.

وَقَدْ يَنْحَرِفُ بَعْضُ الْأَمْزِجَةِ، فَيَقِلُّ اجْتِمَاعُهُ عِنْدَهُ، فَيَنْدُرُ طَلَبُهُ لِإِخْرَاجِهِ، وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ عَنِ الْمِزَاجِ الصَّحِيحِ، فَأَقُولُ: قَدْ بَيَّنْتُ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ بِهِ احْتِبَاسُهُ؛ أَوْجَبَ أَمْرَاضًا، وَجَدَّدَ أَفْكَارًا رَدِيئَةً، وَجَلَبَ الْعِشْقَ وَالْوَسْوَسَةَ . . . إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآفَاتِ.

وَقَدْ نَجِدُ صَحِيحَ الْمِزَاجِ يُخْرِجُ ذَلِكَ إِذَا اجْتَمَعَ، وَهُوَ بَعْدُ مُتَقَلْقِلٌ، فَكَأَنَّهُ الْآكِلُ الَّذِي لَا يَشْبَعُ! فَبَحَثْتُ عَنْ ذَلِكَ، فَرَأَيْتُهُ وُقُوعَ الْخَلَلِ فِي الْمَنْكُوحِ: إِمَّا لِدَمَامَتِهِ وَقُبْحِ مَنْظَرِهِ، أَوْ لِآفَةٍ فِيهِ، أَوْ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَطْلُوبٍ لِلنَّفْسِ؛ فَحِينَئِذٍ يَخْرُجُ مِنْهُ، وَيَبْقَىٰ بَعْضُهُ.

فَإِذَا أَرَدْتَ مَعْرِفَةَ مَا يَدُلُّكَ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ فَقِسْ مِقْدَارَ خُرُوجِ الْمَنِيِّ فِي الْمَحَلِّ الْمُشْتَهَىٰ، وَفِي الْمَحَلِّ الَّذِي هُوَ دُونَهُ؛ كَالْوَطْءِ بَيْنَ الْفَخِذَيْنِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ الْوَطْءِ فِي مَحَلِّ النِّكَاحِ،

---

(١) **التُّفْل وَالتُّفَال**: الْبُصَاقُ الثَّخِينِ الْمُنْعَقِدِ، وَيَكُونُ مِنْ أَدْنَىٰ الْفَم. وَالتَّفْل بِالْفَمِ لَا يَكُونُ إِلَّا وَمَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الرِّيقِ؛ فَإِذَا كَانَ نَفْخًا بِلَا رِيقٍ فَهُوَ النَّفْث. وَمِنْ أَعْمِدَةِ الْبَدَنِ الَّتِي عَلَيْهَا بُنْيَتُه: الصَّفْرَاءُ وَالْبَلْغَمُ وَالدَّمُ وَالسَّوْدَاءُ.

(٢) **الحَاقِن**: مَنْ يُدَافِع الْبَوْل. **وَالْحَاقِب**: مَنْ يُدَافِع الْغَائِط. **وَالْحَازِق**: الَّذِي ضَاقَ عَلَيْهِ الْخُفّ فَحَزَقَ قَدَمَهُ وَضَغَطَهَا.

(٣) **سُمِّيَّةٌ**: مَصْدَر صِنَاعِيّ مِنْ سُمّ: صِفَة التَّسَمُّم، صِفَة مَا هُوَ سَامّ. وَقَد ثَبَتَ فِي الطِّبِّ الْحَدِيثِ أَنَّ حَبْسَ الْمَنِيِّ أَوْ السَّائِل الْمَنَوِيّ يُسَبِّبُ ضَرَرًا كَبِيرًا؛ كَالاحتِقَان الشَّدِيد فِي البُرُوستَاتَا وَالخِصيَتَيْن، وَبِالتَّالِي يُسَبِّب أَلَمًا فِي مَنْطِقَةِ الحَوْض، وَقَد يُمَهِّد لِحُدُوثِ التِهَابَاتٍ فِي البُرُوستَاتَا مَعَ تِكْرَار ذَلِكَ الأَمْر. **وَالفِطْرَة السَّلِيمَة هِي صَرف هَذِهِ الطَّاقَة فِي زَوجَاتِنَا. وَمَنْ خَلَقَنَا هُوَ أَعْلَمُ بِنَفْسِيَاتِنَا وَصَلاحِهَا.**

وَكَوَطْءِ الْبِكْرِ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ وَطْءِ الثَّيِّبِ.

فَعُلِمَ حِينَئِذٍ أَنَّ تَخَيُّرَ الْمَنْكُوحِ يَسْتَقْصِي فُضُولَ الْمَنِيِّ، فَيَحْصُلُ لِلنَّفْسِ كَمَالُ اللَّذَّةِ؛ لِمَوْضِعِ كَمَالِ بُرُوزِ الْفُضُولِ.

ثُمَّ قَدْ يُؤَثِّرُ هَذَا فِي الْوَلَدِ أَيْضًا؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ أَيْضًا[1] مِنْ شَابَّيْنِ قَدْ حَبَسَا أَنْفُسَهُمَا عَنِ النِّكَاحِ [مُدَّةً[2]] مَدِيدَةً، كَانَ الْوَلَدُ أَقْوَىٰ مِنْهُ مِنْ غَيْرِهِمَا أَوْ مِنَ الْمُدْمِنِ عَلَىٰ النِّكَاحِ فِي الْأَغْلَبِ.

وَلِهَذَا كُرِهَ نِكَاحَ الْأَقَارِبِ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا يَقْبِضُ النَّفْسَ عَنِ انْبِسَاطِهَا، فَيَتَخَيَّلُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ يَنْكِحُ بَعْضَهُ، وَمَدَحَ نِكَاحَ الْغَرَائِبِ لِهَذَا الْمَعْنَىٰ[3].

وَمِنْ هَذَا الْفَنِّ يَحْصُلُ كَثِيرٌ مِنَ الْمَقْصُودِ مِنْ دَفْعِ هَذِهِ الْفُضُولِ الْمُؤْذِيَةِ بِمَنْكُوحٍ مُسْتَجَدٍّ، وَإِنْ كَانَ مُسْتَقْبَحَ الصُّورَةِ، مَا لَا يَحْصُلُ بِهِ فِي الْعَادَةِ.

وَمِثَالُ هَذَا: أَنَّ الطَّاعِمَ إِذَا امْتَلَأَ خُبْزًا وَلَحْمًا حَيْثُ لَمْ يَبْقَ فِيهِ فَضْلٌ لِتَنَاوُلِ لُقْمَةٍ، قُدِّمَتْ إِلَيْهِ الْحَلْوَىٰ؛ فَيَتَنَاوَلُ، فَلَوْ قُدِّمَ أَعْجَبُ مِنْهَا؛ لَتَنَاوَلَ؛ لِأَنَّ الْجِدَّةَ لَهَا مَعْنًىٰ عَجِيبٌ[4].

وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ لَا تَمِيلُ إِلَىٰ مَا أَلِفَتْ، وَتَطْلُبُ غَيْرَ مَا عَرَفَتْ، وَيَتَخَايَلُ لَهَا فِي الْجَدِيدِ نَوْعُ مُرَادٍ؛ فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مُرَادَهَا؛ صَدَفَتْ إِلَىٰ جَدِيدٍ آخَرَ[5]، فَكَأَنَّهَا قَدْ عَلِمَتْ وُجُودَ عَرَضٍ تَامٍّ بِلَا كَدَرٍ، وَهِيَ تَتَخَايَلُهُ فِيمَا تَرَاهُ[6].

---

(١) كلمة: [أَيْضًا] ليست في الأصل، وأثبتناها من مخطوط: (ي).

(٢) ليست في الأصل ولا المخطوط، وأثبتناها؛ لتمام المعنىٰ بها. من كتاب: «غِذَاءُ الْأَلْبَابِ» لِلسَّفَارِينِيِّ.

(٣) زَوَاج الْأَقَارِب مُبَاح مِنْ غَيْرِ كَرَاهَةٍ؛ لَكِن إِنْ ثَبَتَ أَنَّ كِلَا القَرِيبَيْنِ مُصَابَانِ بِالصِّفَةِ الْمَرَضِيَّةِ نَفْسِهَا، وَأَنَّهُمَا إِنْ تَزَوَجَا فَقَد يُؤَدِّي هَذَا إِلَىٰ اِحْتِمَال إِنْجَاب أَطْفَال مُصَابِيْن بِأَمْرَاضٍ وِرَاثِيَّة، فَالأَوْلَىٰ لَهُمَا هُوَ العُدُوْل عَنْ هَذَا الزَّوَاج، وَيُكْرَه لَهُمَا الإِقْدَام عَلِيْهِ. وَلَيْسَ هُنَاكَ حَدِيْث يُعْتَدّ بِهِ فِي النَّهْي عَنْ زَوَاجِ الأَقَارِب.

(٤) الْجِدَّةَ: بِكَسْرِ الْجِيمِ: صَارَ جَدِيدًا، وَهُوَ نَقِيضُ الْخَلَقِ.

(٥) صَدَفَتْ إِلَىٰ: مَالَتْ إِلَيْهِ.

(٦) كَمَا حَدَثَ مَعَ عُمَر بْن عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَات» (ت: عُمَر)، وَالذَّهَبِي فِي «السِّيَر» (ت: عُمَر) =

وَفِي هَذَا الْمَعْنَىٰ دَلِيلٌ مَدْفُونٌ عَلَىٰ الْبَعْثِ؛ لِأَنَّ خَلْقَ هِمَّتُهُ مُتَعَلِّقَةٌ بِلَا مُتَعَلَّقٍ نَوْعُ عَبَثٍ؛ فَافْهَمْ هَذَا!(١).

فَإِذَا رَأَتِ النَّفْسُ عُيُوبَ مَا خَالَطَتْ فِي الدُّنْيَا؛ عَادَتْ تَطْلُبُ جَدِيدًا.

وَلِذَلِكَ قَالَ الْحُكَمَاءُ: «الْعِشْقُ: الْعَمَىٰ عَنْ عُيُوبِ الْمَحْبُوبِ»؛ فَمَنْ تَأَمَّلَ عُيُوبَهُ؛ سَلَا(٢).

وَلِذَلِكَ يُسْتَحَبُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ لَا تَبْعُدَ عَنْ زَوْجِهَا بُعْدًا يُنْسِيهِ إِيَّاهَا، وَلَا تَقْرُبَ مِنْهُ قُرْبًا يَمَلُّهَا مَعَهُ. وَكَذَلِكَ يُسْتَحَبُّ لَهُ؛ لِئَلَّا يَمَلَّهَا، أَوْ تَظْهَرَ لَدَيْهِ مَكْنُونَاتُ عُيُوبِهَا.

وَيَنْبَغِي لَهُ أَلَّا يَطَّلِعَ مِنْهَا عَلَىٰ عَوْرَةٍ، وَيَجْتَهِدَ فِي أَلَّا يَشَمَّ مِنْهَا إِلَّا طِيبَ رِيحٍ(٣)... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْخِصَالِ الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا النِّسَاءُ الْحَكِيمَاتُ؛ فَإِنَّهُنَّ يَعْلَمْنَ ذَلِكَ بِفِطَرِهِنَّ، مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَىٰ تَعْلِيمٍ، فَأَمَّا الْجَاهِلَاتُ؛ فَإِنَّهُنَّ لَا يَنْظُرْنَ فِي هَذَا، فَيَتَعَجَّلُ الْتِفَاتَ الْأَزْوَاجِ عَنْهُنَّ.

فَمَنْ أَرَادَ نَجَابَةَ الْوَلَدِ، وَقَضَاءَ الْوَطَرِ؛ فَيَتَخَيَّرِ الْمَنْكُوحَ:

إِنْ كَانَ زَوْجَةً؛ فَلْيَنْظُرْ إِلَيْهَا؛ فَإِذَا وَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ؛ فَلْيَتَزَوَّجْهَا، وَلْيَنْظُرْ فِي كَيْفِيَّةِ وُقُوعِهَا فِي نَفْسِهِ؛ فَإِنَّ عَلَامَةَ تَعَلُّقِ حُبِّهَا بِالْقَلْبِ أَنَّهُ لَا يَكَادُ يَصْرِفُ الطَّرْفَ عَنْهَا؛ فَإِذَا انْصَرَفَ الطَّرْفُ؛ قَلِقَ الْقَلْبُ بِتَقَاضِي النَّظْرَةِ(٤)؛ فَهَذَا الْغَايَةُ، وَدُونَهُ مَرَاتِبُ عَلَىٰ مَقَادِيرِهَا يَكُونُ بُلُوغُ الْأَغْرَاضِ.

= عَنْ جُوَيْرِيَةَ بْنِ أَسْمَاءٍ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: «إِنَّ نَفْسِي تَوَّاقَةٌ، وَإِنَّهَا لَمْ تُعْطَ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا إِلَّا تَاقَتْ إِلَىٰ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ، فَلَمَّا أُعْطِيَتْ مَا لَا أَفْضَلَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا، تَاقَتْ إِلَىٰ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ -يَعْنِي: الْجَنَّةَ-». وَفِي «وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ» لِابْنِ خَلِّكَانَ.(ج٣/ ص٣٧١): «إِنَّ لِي نَفْسًا تَوَّاقَةً تَاقَتْ إِلَىٰ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَتَزَوَّجْتُهَا، وَتَاقَتْ إِلَىٰ الْإِمَارَةِ فَوُلِّيتُهَا، وَتَاقَتْ إِلَىٰ الْخِلَافَةِ فَأَدْرَكْتُهَا، وَقَدْ تَاقَتْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ فَأَرْجُو أَنْ أُدْرِكَهَا إِنْ شَاءَ اللهُ ﷻ»

(١) يَعْنِي: إِنْ كَانَتْ هِمَّةُ الْإِنْسَانِ مُتَعَلِّقَةً بِلَا مُتَعَلَّقٍ؛ فَهَذَا نَوْعُ عَبَثٍ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَطْلُبُ الْمَزِيدَ دَائِمًا، وَلَا نِهَايَةَ لِذَلِكَ؛ فَجَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ الْبَعْثَ وَالنُّشُورَ، وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، حَتَّىٰ تَصِلَ النَّفْسُ إِلَىٰ مُرَادِهَا الْأَعْظَمِ الَّذِي لَا زِيَادَةَ بَعْدَهُ.

(٢) سَلَا: نَسِيَهُ، وَطَابَتْ نَفْسُهُ بَعْدَ فِرَاقِهِ.

(٣) طِيبُ: عِطْرٍ، مَا يُتَطَيَّبُ بِهِ، كُلُّ ذِي رَائِحَةٍ عَطِرَةٍ.

(٤) قَلِقَ الْقَلْبُ بِتَقَاضِي النَّظْرَةِ؛ أَيْ: اضْطَرَبَ الْقَلْبُ وَلَمْ يَسْتَقِرَّ؛ فَانْشَغَلَ بِطَلَبِ نَظْرَةٍ أُخْرَىٰ إِلَىٰ الْمَحْبُوبِ.

وَإِنْ كَانَ جَارِيَةً تُشْتَرَىٰ؛ فَلْيَنْظُرْ إِلَيْهَا أَبْلَغَ مِنْ ذَلِكَ النَّظَرِ.

وَمَنْ قَدِرَ عَلَىٰ مُنَاطَقَةِ الْمَرْأَةِ أَوْ مُكَالَمَتِهَا بِمَا يُوجِبُ التَّنْبِيهَ، ثُمَّ لِيَرَىٰ ذَلِكَ مِنْهَا؛ فَإِنَّ الْحُسْنَ فِي الْفَمِ وَالْعَيْنَيْنِ.

وَقَدْ نَصَّ أَحْمَدُ عَلَىٰ جَوَازِ أَنْ يُبْصِرَ الرَّجُلُ مِنَ الْمَرْأَةِ الَّتِي يُرِيدُ نِكَاحَهَا مَا هُوَ عَوْرَةٌ؛ يُشِيرُ إِلَىٰ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ الْوَجْهِ(١).

وَمَنْ أَمْكَنَهُ أَنْ يُؤَخِّرَ الْعَقْدَ أَوْ شِرَاءَ الْجَارِيَةِ لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَوَقَانُ قَلْبِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ الْعَاقِلِ تَوَقَانُ النَّفْسِ لِأَجْلِ الْمُسْتَجَدِّ، وَتَوَقَانُهَا لِأَجْلِ الْحُبِّ؛ فَإِذَا رَأَىٰ قَلَقَ الْحُبِّ؛ أَقْدَمَ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَخْبَرَنَا(٢) مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِي؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا حَمْدُ بْنُ أَحْمَدَ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو نُعَيْمٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ أَبِي عَامِرٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي؛ قَالَ: حَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ سَلَّامٍ ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ؛ قَالَ: «مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ: كُلُّ تَزْوِيجٍ عَلَىٰ غَيْرِ هَوًىٰ؛ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٣).

---

(١) قَصَرَ جُمْهُور الْفُقَهَاء النَّظَر عَلَىٰ الوَجْهِ وَالْكَفَّيْن لِتَحقق الغَرَض الَّذِي شُرِعَ النَّظَر لِأَجْلِهِ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يُسْتَدَلّ بِالْوَجْهِ عَلَىٰ الجَمَالِ وَبِالْكَفَّيْن عَلَىٰ خِصْب البَدَن فَلَا حَاجَة إِلَىٰ مَا وَرَاء ذَلِكَ؛ وَلِأَنَّهُمَا مَوَاضِع مَا يَظْهَر مِنَ الزِّينَة المُشَار إِلَيْهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١] وَهُوَ كَذَلِكَ قِيَاس عَلَىٰ جَوَاز كَشْفِهِمَا فِي الحَجّ. وَقَد تَوَسَّع الحَنَابِلَة فِي المَوَاضِع الَّتِي شُرِعَ النَّظَر إِلَيْهَا مِنَ المَرْأَةِ الْمُرَاد خِطْبَتِهَا حَيْثُ أَبَاحُوا النَّظَر إِلَىٰ كُلّ مَا يَظْهَر مِنَ الْمَرْأَةِ غَالِبًا (رَقَبَة وَوَجه وَيَد وَقَدَم) وَهُنَاكَ ثَلَاث رِوَايَات عَنِ الإِمَام أَحْمَد فِيمَا يَجُوز النَّظَر إِلَيْهِ.[يُرَاجع: «الإتحاف بحقوق وأحكام الخاطب والعاقد قبل الزفاف» عبد المنعم إبراهيم].

(٢) رِجَال الإِسْنَاد: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِي، ترجمته في:[٢٣٠-٢٥٤]. وَحَمْدُ بْنُ أَحْمَدَ بنِ الحَسَنِ الحَدَّادُ، أَبُو الفَضْلِ الأَصْبَهَانِيُّ، العَالِم، الثِّقَة. مَاتَ:(٤٨٦أو٤٨٨هـ). وَأَبُو نُعَيْمٍ الأَصْبَهَانِيُّ أَحْمَدُ بنُ عَبْدِ اللهِ، شَيْخُ الإِسْلَامِ، الحَافِظُ، صَاحِبُ (الحِلْيَةِ) مَاتَ:(٤٣٠هـ). وَسُلَيْمَانُ بنُ أَحْمَدَ بنِ أَيُّوبَ أَبُو القَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ، مُحَدِّثُ الإِسلَامِ، صَاحِبُ المَعَاجِمُ الثَّلَاثَة، مَاتَ:(٣٦٠هـ). وَعَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ أَبِي عَامِرٍ السَّحلِينِي - قَرْيَة مِنْ كُورَة عَسْقَلَان -، (مَجْهُول الحَال). وَخَالِدُ بْنُ سَلَّامٍ أَبُو سَلَّام الْخَثْعَمِيُّ، خَادِم عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ. وَعَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ عَطَاءُ بنُ أَبِي مُسْلِمٍ، البَلْخِي، وَاسْم أَبِي مُسْلِم: عَبْدُ اللهِ، وَيُقَال: مَيْسَرَة. المُحَدِّثُ، الوَاعِظُ، مَاتَ:(١٣٥هـ).

(٣) «الحلية» لأبي نعيم.(ج٥/ ص١٩٧)، بِلَفْظ: «عَلَىٰ غَيْرِ هُدًىٰ»، «تهذيب الكمال» للمِزِّيّ.(ج٢٠/ ص ١١٤). وَالْمَقْصُود بِالْهَوَىٰ هُنَا لَيْسَ هُوَ الْعِشْق وَالهُيَام؛ وَإِنَّمَا هُوَ الاسْتِحْسَان الَّذِي يَجِده الرَّجُل تِجَاه المَرأَة الَّتِي يَتَقَدَّم لِخِطبَتِهَا.

ثُمَّ يَنْبَغِي لِلْمُتَخَيِّرِ أَنْ يَتَفَرَّسَ الأَخْلَاقَ؛ فَإِنَّهَا مِنَ الْخَفِيِّ، وَإِنَّ الصُّورَةَ إِذَا خَلَتْ مِنَ الْمَعْنَىٰ، كَانَتْ كَخَضْرَاءِ الدِّمَنِ[1]، وَنَجَابَةُ الْوَلَدِ مَقْصُودَةٌ.

وَفَرَاغُ النَّفْسِ مِنَ الاهْتِمَامِ بِوُدٍّ مَحْبُوسٍ أَصْلٌ عَظِيمٌ، يُوجِبُ إِقْبَالَ الْقَلْبِ عَلَىٰ الْمُهِمَّاتِ، وَمَنْ فَرَغَ مِنَ الْمُهِمَّاتِ الْعَارِضَةِ؛ أَقْبَلَ عَلَىٰ الْمُهِمَّاتِ الأَصْلِيَّةِ.

وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لا يَقْضِي الْقَاضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ»[2]، وَ: «إِذَا وُضِعَ الْعَشَاءُ، وَحَضَرَتِ الْعِشَاءُ؛ فَابْدَؤُوا بِالْعَشَاءِ»[3].

فَمَنْ قَدَرَ عَلَىٰ امْرَأَةٍ صَالِحَةٍ فِي الصُّورَةِ وَالْمَعْنَىٰ؛ فَلْيُغْمِضْ عَنْ عَوْرَاتِهَا، وَلْتَجْتَهِدْ هِيَ مَرَاضِيهِ؛ مِنْ غَيْرِ قُرْبٍ يُمِلُّ، وَلا بُعْدٍ يُنْسِي، وَلْتُقْدِمْ عَلَىٰ التَّصَنُّعِ لَهُ؛ يَحْصُلِ الْغَرَضَانِ مِنْهَا: الْوَلَدُ، وَقَضَاءُ الْوَطَرِ، مَعَ الاحْتِرَازِ الَّذِي أَوْصَيْتُ بِهِ؛ تَدُومُ الصُّحْبَةُ، وَيَحْصُلُ الْغَنَاءُ بِهَا عَنْ غَيْرِهَا[4].

فَإِنْ قَدَرَ عَلَىٰ الاسْتِكْثَارِ، فَأَضَافَ إِلَيْهَا سِوَاهَا، عَالِمًا أَنَّهُ يَبْلُغُ الْغَرَضَ الَّذِي يُفْرِغُ قَلْبَهُ زِيَادَةَ تَفْرِيغٍ؛ كَانَ أَفْضَلَ لِحَالِهِ.

فَإِنْ خَافَ مِنْ وُجُودِ الْغَيْرَةِ مَا يَشْغَلُ الْقَلْبَ الَّذِي قَدِ اهْتَمَمْنَا بِجَمْعِ هِمَّتِهِ، أَوْ خَافَ وُجُودَ مُسْتَحْسَنَةٍ، تَشْغَلُ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِ الآخِرَةِ، أَوْ يُطْلَبُ مِنْهُ مَا يُوجِبُ خُرُوجَهُ عَنِ الْوَرَعِ، وَيَدْخُلُ فِيمَا أَوْصَيْتُ بِهِ أَنَّهُ يَبْعُدُ فِي الْمُسْتَحْسَنَاتِ الْعَفَافُ؛ فَلْيُبَالِغِ الْوَاجِدُ لَهُنَّ فِي حِفْظِهِنَّ

---

(١) خَضْرَاءُ الدِّمَنِ: حَسَنَةُ المَظْهَرِ سَيِّئَةُ البَاطِنِ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ فِي مَنْبِتِ السُّوءِ؛ شُبِّهَتْ بِذَلِكَ؛ لِفَقْدِ صَلَاحِهَا وَخَوْفِ فَسَادِهَا؛ لِأَنَّ مَا يَنْبُتُ فِي الدِّمَنِ وَإِنْ كَانَ نَاضِرًا لَا يَكُونُ ثَامِرًا وَهُوَ سَرِيعُ الْفَسَادِ. وَالدِّمَنُ وَالدِّمْنُ: البَعَرُ.

(٢) رواه ابن ماجة في «سننه» كِتَابُ «الأَحْكَامِ» بَابُ «لَا يَحْكُمُ الْحَاكِمُ وَهُوَ غَضْبَانُ» حديث (٢٣١٦).

(٣) رواه البخاري، كِ: «الأَطْعِمَةِ» ب: «إِذَا حَضَرَ العَشَاءُ» (٥٤٦٣). عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا وُضِعَ العَشَاءُ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَابْدَءُوا بِالعَشَاءِ» ومسلم، كِ: «الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ» ب: «كَرَاهَةِ الصَّلَاةِ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ» (٥٥٩). عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا وُضِعَ عَشَاءُ أَحَدِكُمْ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَابْدَءُوا بِالْعَشَاءِ، وَلَا يَعْجَلَنَّ حَتَّىٰ يَفْرُغَ مِنْهُ» وابن أبي شيبة في «مصنفه» كِ: «صَلَاةِ التَّطَوُّعِ وَالإِمَامَةِ» ب: «الصَّلَاةُ وَالْعَشَاءُ يَحْضُرَانِ بِأَيِّهِمَا يُبْدَأُ» (٧٩٩٥) عَنْ عَائِشَةَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ وَوُضِعَ الْعَشَاءُ فَابْدَؤُوا بِالْعَشَاءِ».

(٤) عَوْرَاتِهَا: عُيُوبَهَا. وَمَرَاضِيهِ: مَا يُرْضِيهِ. وَالتَّصَنُّعُ: حُسْنُ السَّمْتِ. وَالاحْتِرَازُ: التَّحَفُّظُ. وَالْغَنَاءُ: الْكِفَايَةُ وَالنَّفْعُ.

وَسَتْرِهِنَّ؛ فَإِنْ وَجَدَ مَا لَا يُرْضِيهِ، عَجَّلَ الِاسْتِبْدَالَ؛ فَإِنَّهُ سَبَبُ السُّلُوِّ[١].

وَإِنْ قَدَرَ عَلَىٰ الِاقْتِصَارِ، فَإِنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَىٰ الْوَاحِدَةِ أَوْلَىٰ؛ فَإِنْ كَانَتْ عَلَىٰ الْغَرَضِ، قَنَعَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ، اسْتَبْدَلَ.

وَنِكَاحُ الْمَرْأَةِ الْمَحْبُوبَةِ يَسْتَفْرِغُ الْمَاءَ الْمُجْتَمِعَ، فَيُوجِبُ نَجَابَةَ الْوَلَدِ وَتَمَامَهُ، وَقَضَاءَ الْوَطَرِ بِكَمَالِهِ.

وَمَنْ خَافَ وُجُودَ الْغَيْرَةِ، فَعَلَيْهِ بِالسَّرَارِي؛ فَإِنَّهُنَّ أَقَلُّ غَيْرَةً، وَالِاسْتِطْرَافُ لَهُنَّ أَمْكَنُ مِنَ اسْتِطْرَافِ الزَّوْجَاتِ.

وَقَدْ كَانَتْ جَمَاعَةٌ يُمْكِنُهُمُ الْجَمْعُ، وَكَانَ النِّسَاءُ يَصْبِرْنَ:

فَكَانَ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِئَةُ امْرَأَةٍ.

وَلِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَلْفُ امْرَأَةٍ.

وَقَدْ عُلِمَ حَالُ نَبِيِّنَا ﷺ وَأَصْحَابِهِ.

وَكَانَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَرْبَعُ حَرَائِرَ، وَسَبْعَ عَشْرَةَ سُرِّيَّةً.

وَتَزَوَّجَ ابْنُهُ الْحَسَنُ رضي الله عنه بِنَحْوٍ مِنْ أَرْبَعِ مِئَةٍ[٢]... وَإِلَىٰ غَيْرِ هَذَا مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ.

فَافْهَمْ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ؛ تَفُزْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ.

---

(١) السُّلُوُّ: النِّعْمَةُ وَالرَّفَاهِيَةُ وَالرَّغَدُ يُسْلِي عَنِ الْهَمِّ.

(٢) سَبَقَ التَّعْلِيقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا ذَكَرَهُ الإِمَامُ مِنْ أَوَّلِ قَوْلِهِ: «فَكَانَ لِدَاوُدَ ...» إِلَىٰ قَوْلِهِ: «وَتَزَوَّجَ ابْنُهُ الْحَسَنُ ...» فِي التَّعْلِيقِ عَلَىٰ الخَاطِرَةِ رَقَم: [١٧٠-٨٢] عِنْدَ قَوْلِهِ: «فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ عَائِشَةَ ...» حَتَّىٰ قَوْلِهِ: «فَمَنِ ادَّعَىٰ خَلَلًا ...».

*[٣٠٦ - ٣٧٠][خَاطِرَةٌ]:

[نَصَائِحُ غَالِيَةٌ لِلرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ]

يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَخَيَّرَ امْرَأَةً صَالِحَةً، مِنْ بَيْتٍ صَالِحٍ، يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْفَقْرُ؛ لِتَرَىٰ مَا يَأْتِيهَا بِهِ كَثِيرًا!

وَلْيَتَزَوَّجْ مَنْ يُقَارِبُهُ فِي السِّنِّ؛ فَأَمَّا الشَّيْخُ؛ فَإِنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَ صَبِيَّةً؛ آذَاهَا، وَرُبَّمَا فَجَرَتْ، أَوْ قَتَلَتْهُ، أَوْ طَلَبَتِ الطَّلَاقَ، وَهُوَ يُحِبُّهَا؛ فَيَتَأَذَّىٰ، وَلْيُتَمِّمْ نَقْصَهُ بِحُسْنِ الْأَخْلَاقِ، وَكَثْرَةِ النَّفَقَةِ.

وَلَا يَنْبَغِي لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَقْرُبَ مِنْ زَوْجِهَا كَثِيرًا؛ فَتُمَلُّ، وَلَا تَبْعُدَ عَنْهُ؛ فَيَنْسَاهَا، وَلْتَكُنْ وَقْتَ قُرْبِهَا إِلَيْهِ كَامِلَةَ النَّظَافَةِ مُتَحَسِّنَةً.

وَلْتَحْذَرْ أَنْ يَرَىٰ فَرْجَهَا أَوْ جِسْمَهَا كُلَّهُ؛ فَإِنَّ جِسْمَ الْإِنْسَانِ لَيْسَ بِمُسْتَحْسَنٍ! وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يُرِيَهَا جِسْمَهُ؛ وَإِنَّمَا الْجِمَاعُ فِي الْفِرَاشِ.

وَرَأَىٰ كِسْرَىٰ يَوْمًا كَيْفَ يُسْلَخُ الْحَيَوَانُ وَيُطْبَخُ، فَتَقَلَّبَتْ نَفْسُهُ، وَنَفَىٰ اللَّحْمَ[١]، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِوَزِيرِهِ، فَقَالَ: «أَيُّهَا الْمَلِكُ! الطَّبِيخُ عَلَىٰ الْمَائِدَةِ، وَالْمَرْأَةُ فِي الْفِرَاشِ». وَمَعْنَاهُ: لَا تُفَتِّشْ عَنْ ذَلِكَ.

قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «مَا رَأَيْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا رَآهُ مِنِّي»[٢]، «قَامَ لَيْلَةً عُرْيَانًا؛ فَمَا رَأَيْتُ جِسْمَهُ قَبْلَهَا»[٣].

---

(١) نَفَىٰ اللَّحْمَ: نَحَّاهُ وَتَجَنَّبَهُ.

(٢) مَوْضُوعٌ: رواه أبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ وآدابه»(٧٤٠) «الضعيفة»(١١٣٥). وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ؛ بِلَفْظ: «مَا نَظَرْتُ، أَوْ مَا رَأَيْتُ فَرْجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَطُّ» كِ: «الطَّهَارَةِ»(٦٦٢). وَعَلَىٰ فَرْض ثُبُوتِهِ؛ فَقَد قَالَ السُّيُوطِيّ فِي «مِصْبَاحِ الزُّجَاجَة»(ﷺ/ ٢٣٦): «لَيْسَ هَذَا مُطَّرِدًا فِي سَائِرِ أَزْوَاجِهِ، وَلَا كَانَ ذَلِكَ مَمْنُوعًا عَلَيْهِنَّ». وَيُعَارِضُ هَذَا مَا ثَبَتَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ وَنَحْنُ جُنُبَانِ». البخاري، كِ: «الغُسْلِ»(٢٥٠). ومسلم، كِ: «الْحَيْضِ»(٣٢١). قَالَ الْحَافِظ فِي «الْفَتْح»(١/ ٤٣١ ـ ٤٣٢): «وَاسْتَدَلَّ بِهِ الدَّاوُدِيُّ عَلَىٰ جَوَازِ نَظَرِ الرَّجُلِ إِلَىٰ عَوْرَةِ امْرَأَتِهِ وَعَكْسِهِ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ بن حِبَّانَ(ح/ ٥٥٧٧) أَنَّ عَائِشَةَ سُئِلَتْ، فَذَكَرَتْ الْحَدِيثَ بِمَعْنَاهُ -«كُنْتُ اغْتَسِلُ أَنَا وَحِبِّي ﷺ مِنَ الْإِنَاءِ الْوَاحِدِ تَخْتَلِفُ فِيهِ أَكُفُّنَا» - وَهُوَ نَصٌّ فِي الْمَسْأَلَةِ».

(٣) ضَعِيفٌ رواه الترمذي، كِ: «الِاسْتِئْذَانِ»(٢٧٣٢). عَنْ عَائِشَةَ: «قَدِمَ زَيْدُ الْمَدِينَةَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِي فَأَتَاهُ فَقَرَعَ الْبَابَ فَقَامَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُرْيَانًا يَجُرُّ ثَوْبَهُ وَاللهِ مَا رَأَيْتُهُ عُرْيَانًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ فَاعْتَنَقَهُ وَقَبَّلَهُ» «المشكاة»(٤٦٨٢).

وَهَذَا الْحَزْمُ، وَبِذَلِكَ لا يَعِيبُ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرَ عُيُوبَهَا.

وَلْيَكُنْ لِلْمَرْأَةِ فِرَاشٌ، وَلَهُ فِرَاشٌ؛ فَلا يَجْتَمِعَانِ إِلَّا فِي حَالِ الْكَمَالِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْتَهِينُ بِهَذِهِ الأَشْيَاءِ؛ فَيَرَىٰ الْمَرْأَةَ مُتَبَذِّلَةً؛ تَقُولُ: هَذَا أَبُو أَوْلَادِي! وَيَتَبَذَّلُ هُوَ[1]! فَيَرَىٰ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ الآخَرِ مَا لَا يَشْتَهِي؛ فَيَنْفِرُ الْقَلْبُ، وَتَبْقَىٰ الْمُعَاشَرَةُ بِغَيْرِ مَحَبَّةٍ.

وَهَذَا فَصْلٌ يَنْبَغِي تَأَمُّلُهُ، وَالْعَمَلُ بِهِ؛ فَإِنَّهُ أَصْلٌ عَظِيمٌ.

* [٣٠٧ - ٢٩٧][خَاطِرَةٌ]:

[كَيْفِيَّةُ مُوَاجَهَةِ ضِيقِ الْعَيْشِ]

مِنَ الْعَجِيبِ سَلَامَةُ دِينِ ذِي الْعِيَالِ؛ إِذَا ضَاقَ بِهِ الْكَسْبُ.

فَمَا مَثَلُهُ إِلَّا كَمَثَلِ الْمَاءِ؛ إِذَا ضُرِبَ فِي وَجْهِهِ سِكْرٌ[2]؛ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ بَاطِنًا، وَيُبَالِغُ حَتَّىٰ يَفْتَحَ فَتْحَةً؛ فَكَذَلِكَ صَاحِبُ الْعِيَالِ؛ إِذَا ضَاقَ بِهِ الأَمْرُ؛ لَا يَزَالُ يَحْتَالُ؛ فَإِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ الْحَلَالِ؛ تَرَخَّصَ فِي تَنَاوُلِ الشُّبُهَاتِ؛ فَإِنْ ضَعُفَ دِينُهُ؛ مَدَّ يَدَهُ إِلَىٰ الْحَرَامِ.

فَالْمُؤْمِنُ إِذَا عَلِمَ ضَعْفَهُ عَنِ الْكَسْبِ؛ اجْتَهَدَ فِي التَّعَفُّفِ عَنِ النِّكَاحِ، وَتَقْلِيلِ النَّفَقَةِ إِذَا حَصَلَ الأَوْلَادُ، وَالْقَنَاعَةِ بِالْيَسِيرِ.

فَأَمَّا مَنْ لَيْسَ لَهُ كَسْبٌ - كَالْعُلَمَاءِ وَالْمُتَزَهِّدِينَ -؛ فَسَلَامَتُهُمْ ظَرِيفَةٌ[3]؛ إِذْ قَدِ انْقَطَعَتْ مَوَارِدُ السَّلَاطِينِ وَمُرَاعَاةُ الْعَوَامِّ؛ فَإِذَا كَثُرَتْ عَائِلَتُهُمْ؛ لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهِمْ شَرُّ مَا يَجْرِي عَلَىٰ الْجُهَّالِ.

فَمَنْ قَدَرَ مِنْهُمْ عَلَىٰ كَسْبٍ بِالنَّسْخِ وَغَيْرِهِ؛ فَلْيَجْتَهِدْ فِيهِ، مَعَ تَقْلِيلِ النَّفَقَةِ، وَالْقَنَاعَةِ

(١) التَّبَذُّل: تَرْكُ التَّزَيُّن وَالتَّهَيُّؤ بالْهَيئَةِ الْحَسَنَةِ الْجَمِيلَةِ، وَالتَّعَطُّرِ الَّذِي يَدْعُو إِلَىٰ الْمُبَاشَرَةِ.

(٢) السِّكْرُ: مَا سُدَّ بِهِ. اسْمُ ذَلِكَ السِّدادِ الَّذِي يُجْعَلُ سَدًّا لِلشَّق.

(٣) ظَرِيفَةٌ: نَادِرَة. ظَرُفَ: بَارِع حَاذِق.

بِالْيَسِيْرِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ تَرَخَّصَ مِنْهُمُ الْيَوْمَ؛ أَكَلَ الْحَرَامَ؛ لِأَنَّهُ يَأْخُذُ مِنَ الظَّلَمَةِ، خُصُوْصًا بِحُجَّةِ التَّنَمُّسِ(١) وَالتَّزَهُّدِ.

وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْهُمْ مَالٌ؛ فَلْيَجْتَهِدْ فِي تَنْمِيَتِهِ وَحِفْظِهِ؛ فَمَا بَقِيَ مَنْ يُؤْثِرُ، وَلَا مَنْ يُقْرِضُ، وَقَدْ صَارَ الْجُمْهُوْرُ - بَلِ الْكُلُّ - كَأَنَّهُمْ يَعْبُدُوْنَ الْمَالَ؛ فَمَنْ حَفِظَهُ؛ حَفِظَ دِينَهُ(٢).

وَلا يُلْتَفَتُ إِلَىٰ قَوْلِ الْجَهَلَةِ الَّذِينَ يَأْمُرُوْنَ بِإِخْرَاجِ الْمَالِ؛ فَمَا هَذَا وَقْتُهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَجْتَمِعِ الْهَمُّ؛ لَمْ يَحْصُلِ الْعِلْمُ، وَلا الْعَمَلُ، وَلا التَّشَاغُلُ بِالْفِكْرِ فِي عَظَمَةِ اللهِ.

وَقَدْ كَانَ هَمُّ الْقُدَمَاءِ يَجْتَمِعُ بِأَشْيَاءَ؛ جُمْهُوْرُهَا أَنَّهُ كَانَ لَهُمْ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ نَصِيبٌ فِي كُلِّ عَامٍ، وَكَانَ يَصِلُهُمْ، فَيَفْضُلُ عَنْهُمْ.

وَفِيهِمْ(٣) مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ يَتَّجِرُ بِهِ؛ كَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَسُفْيَانَ، وَابْنِ الْمُبَارَكِ، وَكَانَ هَمُّهُ مُجْتَمِعًا.

وَقَدْ قَالَ سُفْيَانُ فِي مَالِهِ: «لَوْلاكَ لَتَمَنْدَلُوْا بِي!».

وَفُقِدَتْ بِضَاعَةٌ لِابْنِ الْمُبَارَكِ؛ فَبَكَىٰ، وَقَالَ: «هُوَ قِوَامُ دِيْنِي!».

وَكَانَ جَمَاعَةٌ يَسْكُنُوْنَ إِلَىٰ عَطَاءِ الإِخْوَانِ الَّذِينَ لا يَمُنُّوْنَ.

---

(١) التَّنَمُّسُ: الِاحْتِيَالُ وَالْمَكْرُ وَالْخِدَاعُ؛ بِأَن تُسْتَعْمَلَ آلَةُ الدِّينِ - الْعِلْمُ - فِي طَلَبِ الدُّنْيَا.

(٢) تُرَاجَعِ الخَوَاطِرِ: [[١٥٣-١٠٩]، [١٥٦-١٥١]، [١٥٧-١٤٩]، [١٥٨-١١٣]، [١٥٩-٥٦]، [١٦٠-٢٨٠] لِلأَهَمِّيَّةِ].

(٣) الأَعْلام الَّذِيْن سَيَذْكُرُهُم الإِمَامُ ابْنُ الجَوْزِيِّ هُنَا عَلَىٰ التَّرْتِيْب: سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَخَبَرُهُ تقدم في: [١٥٣-١٠٩]، وَسُفْيَان الثَّوْرِيّ في: [١٤-١١٨]. وَخَبَرُهُ في: [١٥٧-١٤٩]. وَلَتَمَنْدَل؛ أي: جَعَلُونِي كَالْمَنْدِيل. وَابْنِ الْمُبَارَكِ فِي: [١٥٣-١٠٩] وَخَبَر إِنْفَاقِهِ عَلَىٰ الفُضَيْل في «السِّيَرِ» (ت: ابْن المُبَارَك) وَفِيهَا: «لَوْلاكَ وَأَصْحَابَكَ مَا اتَّجَرْتُ». وَاللَّيْثُ في: [١٨٢-١٩]. وَأَخْبَارُهُ في أَنَّهُ يَتَفَقَّدُ الأَكَابِرَ في «الحِلْيَة»، «تَارِيْخ بَغْدَاد»، «السِّيَرِ» (ت: اللَّيْث) وَالْفُضَيْلِ بْنُ عِيَاض في: [١٠١-١٢]. وَمَالِكِ بنُ أَنَسٍ في: [١٢٤-٢٥]. وَابْنِ لَهِيعَةَ: عَبْدُ اللهِ بنُ لَهِيْعَةَ بنِ عُقْبَةَ، مُحَدِّثُ دِيَارِ مِصْرَ مَعَ اللَّيْثِ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ. مَاتَ: (١٧٤هـ). وَمَنْصُورَ بْنَ عَمَّارٍ في: [١٨٩-٨٦]. وَبِشْر الْحَافِي، وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَل في: [٢٤-١٧٩].

وَكَانَ ابْنُ الْمُبَارَكِ يَبْعَثُ إِلَىٰ الْفُضَيْلِ وَغَيْرِهِ.

وَكَانَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ يَتَفَقَّدُ الأَكَابِرَ؛ فَبَعَثَ إِلَىٰ مَالِكٍ أَلْفَ دِينَارٍ، وَإِلَىٰ ابْنِ لَهِيعَةَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَأَعْطَىٰ مَنْصُورَ بْنَ عَمَّارٍ أَلْفَ دِينَارٍ وَجَارِيَةً بِثَلَاثِ مِئَةِ دِينَارٍ[1].

وَمَا زَالَ الزَّمَانُ عَلَىٰ هَذَا إِلَىٰ أَنْ آلَ الأَمْرُ إِلَىٰ انْمِحَاقِ ذَلِكَ؛ فَقَلَّتْ عَطَايَا السَّلَاطِينِ، وَقَلَّ مَنْ يُؤْثِرُ مِنَ الإِخْوَانِ؛ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ الْقَلِيلِ مَا يَدْفَعُ الزَّمَانَ.

فَأَمَّا زَمَانُنَا هَذَا؛ فَقَدِ انْقَبَضَتِ الأَيْدِي كُلُّهَا، حَتَّىٰ قَلَّ مَنْ يُخْرِجُ الزَّكَاةَ الْوَاجِبَةَ!

فَكَيْفَ يَجْتَمِعُ هَمُّ مَنْ يُرِيدُ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ أَنْ يُعْمِلَ هَمَّهُ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي وُجُوهِ الْكَسْبِ، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ، وَلا يَهْتَدِي لَهُ؟!

فَقَدْ رَأَيْنَا الأَمْرَ أَحْوَجَ إِلَىٰ التَّعَرُّضِ لِلسَّلَاطِينِ، وَالتَّرَخُّصِ فِي أَخْذِ مَا لا يَصْلُحُ، وَأَخْرَجَ الْمُتَزَهِّدِينَ إِلَىٰ التَّصَنُّعِ لِتَحْصِيلِ الدُّنْيَا.

فَاللهَ اللهَ يَا مَنْ يُرِيدُ حِفْظَ دِينِهِ!

قَدْ كَرَّرْتُ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ بِتَقْلِيلِ جُهْدِكَ، وَخَفِّفِ الْعَلَائِقَ مَهْمَا أَمْكَنَكَ[2]، وَاحْتَفِظْ بِدِرْهَمٍ يَكُونُ مَعَكَ؛ فَإِنَّهُ دِينُكَ! وَافْهَمْ مَا قَدْ شَرَحْتُهُ!

فَإِنْ ضَجَّتِ النَّفْسُ لِمُرَادَاتِهَا؛ فَقُلْ لَهَا:

إِنْ كَانَ عِنْدَكِ إِيمَانٌ؛ فَاصْبِرِي.

وَإِنْ أَرَدْتِ التَّحْصِيلَ لِمَا يَفْنَىٰ بِبَذْلِ الدِّينِ؛ فَمَا يَنْفَعُكِ.

فَتَفَكَّرِي فِي الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ جَمَعُوا الْمَالَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ، وَفِي الْمُتَمَسِّينَ؛ ذَهَبَ دِينُهُمْ، وَزَالَتْ دُنْيَاهُمْ!

---

(١) يَعْنِي: وَجَارِيَةً تَسْوَى ثَلَاثَ مِئَةِ دِينَارٍ.
(٢) الْعَلَائِقُ: الْبَضَائِعُ أَوْ مَا يُقَدَّمُ مِنْ طَعَامٍ.

وَتَفَكَّرِي فِي الْعُلَمَاءِ الصَّادِقِينَ؛ كَأَحْمَدَ وَبِشْرٍ؛ انْدَفَعَتِ الأَيَّامُ، وَبَقِيَ لَهُمْ حُسْنُ الذِّكْرِ.

وَفِي الْجُمْلَةِ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[الطَّلاق:٢-٣] ... وَرِزْقُ اللهِ تَارَةً بِإِبْعَادِ الصَّبْرِ عَلَىٰ الْبَلاءِ، وَالأَيَّامُ تَنْدَفِعُ، وَعَاقِبَةُ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَمِيلَةٌ.

*[٣٠٨-٢٩٨] [خَاطِرَةٌ]:

[كَيفِيَّةُ الْمُعَامَلَةِ مَعَ الزَّوْجَةِ أَحْبَبْتَها أم أَبْغَضْتَهَا]

شَكَا رَجُلٌ مِنْ بُغْضِهِ لِزَوْجَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَقْدِرُ عَلَىٰ فِرَاقِهَا؛ لِأُمُورٍ:

مِنْهَا: كَثْرَةُ دَيْنِهَا عَلَيَّ، وَصَبْرِي قَلِيلٌ، وَلَا أَكَادُ أَسْلَمُ مِنْ فَلَتَاتِ لِسَانِي فِي الشَّكْوَىٰ، وَفِي كَلِمَاتٍ تَعْلَمُ بُغْضِي لَهَا.

فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا لا يَنْفَعُ، وَإِنَّمَا تُؤْتَىٰ الْبُيُوتُ مِنْ أَبْوَابِهَا!

فَيَنْبَغِي أَنْ تَخْلُوَ بِنَفْسِكَ، فَتَعْلَمَ أَنَّهَا إِنَّمَا سُلِّطَتْ عَلَيْكَ بِذُنُوبِكَ، فَتُبَالِغَ فِي الِاعْتِذَارِ وَالتَّوْبَةِ.

فَأَمَّا التَّضَجُّرُ وَالأَذَىٰ لَهَا؛ فَمَا يَنْفَعُ؛ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ عَنِ الْحَجَّاجِ[١]: «عُقُوبَةٌ مِنَ اللهِ لَكُمْ؛ فَلَا تُقَابِلُوا عُقُوبَتَهُ بِالسَّيْفِ، وَقَابِلُوهَا بِالِاسْتِغْفَارِ»[٢].

---

(١) في الأصل: [الحسن بن الحجاج]، والصواب ما أثبتناه. وترجمة الْحَسَنِ في: [٥٩-٨٧]، وَالحَجَّاج في: [٣٩-٤٩].

(٢) أَوْرَدَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ»(ج٧/ ص١٢٠) وَالذَّهَبِيّ فِي «تَارِيخ الإِسْلَام»(ج٣/ ص٢٩) عَنْ سُلَيْمَان بْن عَلِيٍّ الرَّبَعِيِّ قَالَ: «لَمَّا كَانَتْ فِتْنَةُ ابْنِ الأَشْعَثِ، إِذْ قَاتَلَ الْحَجَّاجَ، انطلَقَ عُقْبَةُ بْنُ عَبْدِ الْغَافِرِ، وَأَبُو الْجَوْزَاءِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ غَالِبٍ فِي طائفةٍ فَدَخَلُوا عَلَىٰ الْحَسَنِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا سَعِيدٍ مَا تَقُولُ فِي قِتَالِ هَذَا الطَّاغِيَةِ الَّذِي سَفَكَ الدَّمَ الْحَرَامَ، وَأَخَذَ الْمَالَ الْحَرَامَ، وَتَرَكَ الصَّلاةَ وَفَعَلَ وَفَعَلَ؟ قَالَ: «أَرَىٰ أَنْ لا تُقَاتِلُوهُ، فَإِنَّهَا إِنْ تَكُنْ عُقُوبَةً مِنَ اللهِ، فَمَا أَنْتُمْ بِرَادِّي عُقُوبَةَ اللهِ بِأَسْيَافِكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بَلاءً فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ»، فَخَرَجُوا وَهُمْ يَقُولُونَ: نُطِيعُ هَذَا الْعِلْجَ! قَالَ: وَهُمْ قومٌ عَرَبٌ، وَخَرَجُوا مَعَ ابْنِ الأَشْعَثِ؛ فَقُتِلُوا جَمِيعًا».

وَاعْلَمْ أَنَّكَ فِي مَقَامِ مُبْتَلَىٰ وَلَكَ أَجْرٌ بِالصَّبْرِ، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البَقَرَة:٢١٦]! فَعَامِلِ اللهَ سُبْحَانَهُ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ مَا قَضَىٰ، وَاسْأَلْهُ الْفَرَجَ؛ فَإِذَا جَمَعْتَ بَيْنَ الِاسْتِغْفَارِ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالصَّبْرِ عَلَىٰ الْقَضَاءِ وَسُؤَالِ الْفَرَجِ؛ حَصَّلْتَ ثَلَاثَةَ فُنُونٍ مِنَ الْعِبَادَةِ تُثَابُ عَلَىٰ كُلٍّ مِنْهَا.

وَلا تُضَيِّعِ الزَّمَانَ بِشَيْءٍ لَا يَنْفَعُ، وَلا تَحْتَلْ ظَانًّا مِنْكَ أَنَّكَ تَدْفَعُ مَا قُدِّرَ، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[الأَنْعَام:١٧].

وَقَدْ رُوِّينَا أَنَّ جُنْدِيًّا نَزَلَ يَوْمًا فِي دَارِ أَبِي يَزِيدَ، فَجَاءَ أَبُو يَزِيدَ، فَرَآهُ، فَوَقَفَ وَقَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: ادْخُلْ إِلَىٰ الْمَكَانِ الْفُلَانِيِّ، فَاقْلَعِ الطِّينَ الطَّرِيَّ؛ فَإِنَّهُ مِنْ وَجْهٍ فِيهِ شُبْهَةٌ. فَقَلَعَهُ، فَخَرَجَ الْجُنْدِيُّ.

وَأَمَّا أَذَاكَ لِلْمَرْأَةِ؛ فَلَا وَجْهَ لَهُ؛ لِأَنَّهَا مُسَلَّطَةٌ؛ فَلْيَكُنْ شُغْلُكَ بِغَيْرِ هَذَا.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّ رَجُلًا شَتَمَهُ، فَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي الذَّنْبَ الَّذِي سَلَّطْتَ هَذَا بِهِ عَلَيَّ»(١).

قَالَ الرَّجُلُ: وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ تُحِبُّنِي زَائِدًا فِي الْحَدِّ، وَتُبَالِغُ فِي خِدْمَتِي، غَيْرَ أَنَّ الْبُغْضَ لَهَا مَرْكُوزٌ فِي طَبْعِي.

قُلْتُ لَهُ: فَعَامِلِ اللهَ سُبْحَانَهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّكَ تُثَابُ.

وَقَدْ قِيلَ لِأَبِي عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيِّ(٢): مَا أَرْجَىٰ عَمَلِكَ عِنْدَكَ؟ قَالَ: كُنْتُ فِي صَبْوَتِي يَجْتَهِدُ أَهْلِي أَنْ أَتَزَوَّجَ، فَآبَىٰ؛ فَجَاءَتْنِي امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عُثْمَانَ! إِنِّي قَدْ هَوِيتُكَ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ بِاللهِ أَنْ تَتَزَوَّجَنِي، فَأَحْضَرْتُ أَبَاهَا - وَكَانَ فَقِيرًا - فَزَوَّجَنِي، وَفَرِحَ بِذَلِكَ، فَلَمَّا دَخَلَتْ إِلَيَّ؛ رَأَيْتُهَا

---

(١) يُنظر: «تاريخ بغداد»(ج١٣/ ص٤٧٧)، «تاريخ دمشق»(ج٦٣/ ص٨١). وَفِيهِمَا: «أَغْلَظَ رَجُل لِوَكِيعِ بْن الجَرَّاح؛ فَدَخَلَ وَكِيع بَيْتًا، فَعَفَرَ وَجْهه بِالتُّرَاب، ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ الرَّجُل، فَقَالَ: زِدْ وَكِيعًا بِذَنْبِهِ؛ فَلَوْلَاهُ مَا سُلِّطت عَلَيْهِ».

(٢) سبق ترجمته: [٢٦٥-٢٦٩]. وَالْخَبَر فِي «تاريخ بغداد»(ج٩/ ص٣٣) و«البداية والنهاية»(ج١٤/ ص٧٧/ سنة:٢٩٨هـ).

عَوْرَاءَ عَرْجَاءَ مُشَوَّهَةً، وَكَانَتْ لِمَحَبَّتِهَا لِي تَمْنَعُنِي مِنَ الْخُرُوجِ، فَأَقْعُدُ حِفْظًا لِقَلْبِهَا، وَلا أُظْهِرُ لَهَا مِنَ الْبُغْضِ شَيْئًا، وَكَأَنِّي عَلَىٰ جَمْرِ الْغَضَا مِنْ بُغْضِهَا[١]، فَبَقِيتُ هَكَذَا خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً حَتَّىٰ مَاتَتْ؛ فَمَا مِنْ عَمَلِي شَيْءٌ هُوَ أَرْجَىٰ عِنْدِي مِنْ حِفْظِي قَلْبَهَا.

قُلْتُ لَهُ: فَهَذَا عَمَلُ الرِّجَالِ!

وَأَيُّ شَيْءٍ يَنْفَعُ ضَجِيجَ الْمُبْتَلَىٰ بِالتَّضَجُّرِ بِإِظْهَارِ الْبُغْضِ؟!

وَإِنَّمَا طَرِيقُهُ مَا ذَكَرْتُهُ لَكَ؛ مِنَ التَّوْبَةِ، وَالصَّبْرِ، وَسُؤَالِ الْفَرَجِ.

وَتَذَكَّرْ ذُنُوبًا كَانَتْ هَذِهِ عُقُوبَتَهَا؛ فَإِنْ وَقَعَ فَرَجٌ فِي الْحِسَابِ؛ وَإِلَّا؛ فَاسْتِعْمَالُ الصَّبْرِ عَلَىٰ الْقَضَاءِ عِبَادَةٌ.

وَتَكَلَّفْ إِظْهَارَ الْمَوَدَّةِ لَهَا، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي قَلْبِكَ تَثْبُتُ عَلَىٰ هَذَا.

وَلَيْسَ لِلْقَيْدِ ذَنْبٌ فَيُلَامَ، إِنَّمَا يَنْبَغِي التَّشَاغُلُ مَعَ مَنْ قَيَّدَهُ، وَالسَّلَامُ.

---

*[٣٠٩ - ٢٥٧][خَاطِرَةٌ][٢]:

[الْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ كَثْرَةِ الْجِمَاعِ[٣]]

يَنْبَغِي لِلصَّبِيِّ إِذَا بَلَغَ أَنْ يَحْذَرَ كَثْرَةَ الْجِمَاعِ؛ لِيَبْقَىٰ جَوْهَرُهُ، فَيُفِيدَهُ ذَلِكَ فِي الْكِبَرِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْجَائِزِ كِبَرُهُ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْجَائِزِ حَزْمٌ؛ فَكَيْفَ لِلْغَالِبِ؟! كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعِدَّ لِلشِّتَاءِ قَبْلَ هُجُومِهِ، وَمَتَىٰ أَنْفَقَ الْحَاصِلَ وَقْتَ الْقُدْرَةِ؛ تَأَذَّىٰ بِالْفَقْرِ إِلَيْهِ وَقْتَ الْفَاقَةِ.

وَلْيَعْلَمْ ذُو الدِّينِ وَالْفَهْمِ أَنَّ الْمُتْعَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْقُرْبِ مِنَ الْحَبِيبِ، وَالْقُرْبُ يَحْصُلُ

---

(١) الْغَضَا: نَوْعٌ مِنَ الشَّجَرِ يُوقَدُ بِهِ، يُقَالُ: نَارُ الْغَضَىٰ؛ أَيْ: نَارٌ مُضِيئَةٌ لَا تَنْطَفِي؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَصْلَبِ الْخَشَبِ.

(٢) جاء في الأصل:[فَصْلٌ: يَتَضَمَّنُ وَصِيَّةً لِلشَّبَابِ]

(٣) تَكَلَّمَ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللهُ فِي هَذَا الأَمْرِ بِاسْتِفَاضَةٍ فِي: «لَقْطُ الْمَنَافِعِ»(ج١/ ص٥٤٣، ٥٤٩، ٦٧٣/ ج٢/ ص٢٤١-٢٤٦).

بِالتَّقْبِيلِ وَالضَّمِّ، وَذَلِكَ يُقَوِّي الْمَحَبَّةَ، وَالْمَحَبَّةُ يَلَذُّ وُجُودُهَا، وَالْوَطْءُ يُنْقِصُ الْمَحَبَّةَ، وَيُعْدِمُ تِلْكَ اللَّذَّةَ!!(١).

وَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ يَعْشَقُونَ، وَلا يَرَوْنَ وَطْءَ الْمَعْشُوقِ! قَالَ قَائِلُهُم(٢):

إِنْ نُكِـــحَ الْحُـــبُّ فَسَـــدْ

---

(١) رَضِيَ اللهُ عَنِ الإِمَامِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ ﵀ وَغَفَرَ لَنَا وَلَهُ؛ فَقَد رَوَى ابن أبي شيبة في «مصنفه» كِتَابُ «النِّكَاحِ»(١٦١٦٣). وابن ماجة في «سننه» كِتَابُ «النِّكَاحِ»(١٨٤٧). عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمْ نَرَ - يُرَ - - تَرَ - لِلْمُتَحَابَّيْنِ مِثْلُ النِّكَاحِ». قَالَ الطِّيبِيّ: «أَيْ: لَمْ تَرَ أَيُّهَا السَّامِعُ مَا تَزِيدُ بِهِ الْمَحَبَّةُ لِلْمُتَحَابَّيْنَ (مِثْلَ النِّكَاحِ)، وَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: إِذَا جَرَى بَيْنَ الْمُتَحَابَّيْنَ وَصْلَةٌ خَارِجِيَّةٌ بَعْدَ التَّحَابِّ تَزِيدُ الوَصْلَةُ الظَّاهِرَةُ فِي البَاطِنَةِ. وَثَانِيهِمَا: إِذَا نَظَرَ الرَّجُلُ إِلَى الْمَرْأَةِ الأَجْنَبِيَّةِ وَأَخَذَتْ بِمَجَامِعِ قَلْبِهِ؛ فَنِكَاحُهَا يُورِثُ مَزِيدَ الْمَحَبَّةِ، وَسِفَاحُهَا الْبُغْضَ وَالشَّنَآنَ»[«الكَاشِف عَنْ حَقَائِقِ السُّنَنِ»(٦/ ٢٤٧/ ح٣٠٩٣)]. وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ ﵀: «فَنِكَاحُ الْمَعْشُوقَةِ هُوَ دَوَاءُ الْعِشْقِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ دَوَاءً شَرْعًا»[«الجواب الكافي»(ص١٨٣)]. وَقَالَ أَيْضًا ﵀: «قَدْ جَعَلَ اللهُ ﷻ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، وَيَسَّرَ الوِصَالَ إِلَى ذَلِكَ الدَّوَاءِ شَرعًا وَقَدَرًا؛ فَمَنْ أَرَادَ التَّدَاوِي بِمَا شَرَعَهُ الله لَهُ، وَاسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِالْقَدَرِ وَأَتَى الأَمْرَ مِنْ بَابِهِ صَادَفَ الشِّفَاء، وَمَنْ طَلَبَ الدَّوَاء بِمَا مَنَعَهُ مِنْهُ شَرعًا وَإِنْ امْتَحَنَهُ بِهِ قَدَرًا فَقَد أَخْطَأَ طَرِيقَ الْمُدَاوَاة، وَكَانَ كَالْمُتَدَاوِي مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ أَعْظَمَ مِنْهُ . . . وَقَدْ اتَّفَقَ رَأْيُ الْعُقَلَاء مِنَ الأَطِبَّاءِ وَغَيْرِهِم فِي مَوَاضِعِ الأَدْوِيَةِ: أَنَّ شِفَاءَ هَذَا الدَّاء فِي الْتِقَاءِ الرُّوحَيْنِ وَالْتِصَاقِ الْبَدَنَيْنِ»[«روضة المحبين»(ص١٦١/ ب:١٨)]. وَقَالَ الرَّازِيّ ﵀: «أَمَّا حُصُولُ هَذَا الْعَمَلِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ؛ فَإِنَّهُ يُوجِبُ اسْتِحْكَامَ الأُلْفَةِ وَالْمَوَدَّةِ وَحُصُولِ الْمَصَالِحِ الْكَبِيرَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم :٢١]... وَاللهُ تَعَالَى أَوْدَعَ فِي الرَّحِمِ قُوَّةً شَدِيدَةَ الْجَذْبِ لِلْمَنِيِّ؛ فَإِذَا وَاقَعَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ قَوِيَ الْجَذْبُ فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِنَ الْمَنِيِّ فِي الْمَجَارِي إِلَّا وَيَنْفَصِلُ»[«التفسير الكبير»(١٤/ ١٤٩، ١٥٠/ الأعراف:٨١)]. وَقَالَ أَيْضًا ﵀: «وَإِنَّمَا قَدَّمَهُنَّ - النِّسَاءُ - عَلَى الْكُلِّ؛ لِأَنَّ الِالْتِذَاذَ بِهِنَّ أَكْثَرُ وَالِاسْتِئْنَاسَ بِهِنَّ أَتَمُّ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وَمِمَّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ أَنَّ الْعِشْقَ الشَّدِيدَ الْمُفْلِقَ -الْعَجِيبَ- الْمُهْلِكَ لَا يَتَّفِقُ إِلَّا فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ الشَّهْوَةِ»[«التفسير الكبير»(٧/ ١٩١/ آل عمران:١٤)]. وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ ﵀: «فَأَوَّلُ ارْتِفَاقِ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ سُكُونُهُ إِلَيْهَا مِمَّا فِيهِ مِنْ غَلَيَانِ الْقُوَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْفَرْجَ إِذَا تَحَمَّلَ فِيهِ هَيَّجَ مَاءَ الصُّلْبِ إِلَيْهِ، فَإِلَيْهَا يَسْكُنُ وَبِهَا يَتَخَلَّصُ مِنَ الْهِيَاجِ»[«الجامع لأحكام القرآن»(ج١٤/ ص١٤/ الروم:٢٠)].

(٢) عَجِز بَيْتٍ أَوَّله: [إِنَّمَا الْعِشْقُ هَكَذَا ...] مِنَ البَحْر [الرجز]، وقد سبق في الخاطرة: [٢٢-٢٣٦].

فَأَمَّا الِالْتِذَاذُ بِنَفْسِ الْوَطْءِ؛ فَشَأْنُ الْبَهَائِمِ[(١)].

وَلَقَدْ تَأَمَّلْتُ الْمُرَادَ مِنَ الْوَطْءِ، فَوَجَدْتُ فِيهِ مَعْنًى عَجِيبًا يَخْفَى عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَهُوَ:

أَنَّ النَّفْسَ إِذَا عَشِقَتْ شَخْصًا؛ أَحَبَّتِ الْقُرْبَ مِنْهُ؛ فَهِيَ تُؤْثِرُ الضَّمَّ وَالْمُعَانَقَةَ؛ لِأَنَّهُمَا غَايَةٌ فِي الْقُرْبِ.

ثُمَّ تُرِيدُ قُرْبًا يَزِيدُ عَلَى هَذَا؛ فَيُقَبِّلُ الْخَدَّ.

ثُمَّ تَطْلُبُ الْقُرْبَ مِنَ الرُّوحِ، فَيُقَبِّلُ الْفَمَ؛ لِأَنَّهُ مَنْفَذٌ إِلَى الرُّوحِ.

ثُمَّ تَطْلُبُ الزِّيَادَةَ؛ فَيَمُصُّ لِسَانَ الْمَحْبُوبِ.

وَقَدْ كَانَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَوَشَّحُ عَائِشَةَ، وَيُقَبِّلُهَا، وَيَمُصُّ لِسَانَهَا[(٢)].

---

(١) رَضِيَ اللهُ عَنِ الإِمَامِ اِبْنِ الجَوْزِيِّ رحمه الله وَصَدَقَ؛ فَقَدْ قَالَ الإِمَامُ الرَّازِيّ رحمه الله فِي «تفسيره»(١٤/ ١٤٩/ الأعراف:٨١): «الِاشْتِغَالُ بِمَحْضِ الشَّهْوَةِ تَشَبُّهٌ بِالْبَهِيمَةِ، وَإِذَا كَانَ الِاشْتِغَالُ بِالشَّهْوَةِ يُفِيدُ فَائِدَةً أُخْرَى سِوَى قَضَاءِ الشَّهْوَةِ، فَلْيَكُنْ قَضَاءُ الشَّهْوَةِ مِنَ الْمَرْأَةِ يُفِيدُ فَائِدَةً أُخْرَى سِوَى قَضَاءِ الشَّهْوَةِ، وَهُوَ حُصُولُ الْوَلَدِ وَإِبْقَاءُ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ الْأَنْوَاعِ؛ فَأَمَّا قَضَاءُ الشَّهْوَةِ لِمُجَرَّدِ قَضَاءِ الشَّهْوَةِ فَذَلِكَ تَشَبُّهًا بِالْبَهَائِمِ، وَخُرُوجًا عَنِ الْغَرِيزَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَكَانَ فِي غَايَةِ الْقُبْحِ». وَقَالَ رحمه الله تَعْلِيقًا عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿...أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...﴾: «يُقَالُ: سَكَنَ إِلَيْهِ؛ لِلسُّكُونِ الْقَلْبِيِّ، وَيُقَالُ: سَكَنَ عِنْدَهُ؛ لِلسُّكُونِ الْجُسْمَانِيِّ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ «عِنْدَ» جَاءَتْ لِظَرْفِ الْمَكَانِ وَذَلِكَ لِلْأَجْسَامِ وَ«إِلَى» لِلْغَايَةِ وَهِيَ لِلْقُلُوبِ»(٢٥/ ٩٧/ الروم:٢١). وَقَدْ قَالُوا بِأَنَّ الْمَوَدَّةَ تَكُونُ فِي أَيَّامِ الشَّبَابِ، وَالرَّحْمَةَ فِي مَرحَلَةِ الكِبَرِ، وَلَو أَنَّ هَذِهِ العِلَاقَة كَانَت قَائِمَة عَلَى مُجَرَّدِ اِسْتِمْتَاعِ كُلّ مِنهُمَا بِالآخَرِ، وَحَاجَة كُلّ مِنْهُمَا لِقَضَاء وَطَرِهِ؛ لَمَا بَقِيَ بَيْت قَائِم، وَإِلَّا فَمَاذَا يَكُون عَلَيْهِ حَال زَوْجَيْن كَبُرَ سِنّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، أَوْ أُصِيبَ أَحَدُهُمَا بِمَا يَجْعَلُهُ غَيْر قَادِرٍ عَلَى إِعْطَاءِ الآخَر مَا يَطْلُبه مِنْ مُتْعَةِ الْفِرَاشِ، وَكَثِيرًا مَا يَحْدُث فُتُور فِي هَذَا الأَمْر؛ فَتَبْقَى الْمَوَدَّة الَّتِي جَمَعَت بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ فِي سَنَوَاتِ الشَّبَابِ نِبْرَاسًا يُضِيء جَوَانِب الرَّحْمَة، وَيَدْعُو إِلَيْهَا وَفَاءً لِأَيَّامِ وَسَنَوَاتِ عُمْرٍ خَلَت، فَمَا أَجْمَل هَذَا الْمَنْهَج الرَّبَّانِي، وَمَا أَعْظَمَهُ.[«مناهج جامعة المدينة العالمية»(ص١٤٥)].

(٢) يَتَوَشَّحُ: يُعَانِقُ وَيُقَبِّلُ. وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيُّ فِي «مسنده»(١٦٢٠)، وأحمد في «مسنده»(٢٥٥٤٢)، والدَّارِمِيّ فِي «سننه» كِتَابُ «الطَّهَارَةِ» بَابُ «مُبَاشَرَةِ الْحَائِضِ»(١٠٥٢). مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَتَوَشَّحُنِي وَيَنَالُ مِنْ رَأْسِي وَأَنَا حَائِضٌ وَعَلَيَّ الإِزَارُ». وَأَمَّا مَصّ اللِّسَان؛ فَقَد سَبَقَ تَخرِيجه في رقم:[١٠٨-١٧١] عِنْدَ قَوْلِه: «وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرَى التَّلَطُّفَ بِالنَّفْسِ....». وَلَم أَذْكُر هُنَاكَ أَنَّ الْحَدِيثَ ضَعِيفٌ.

فَإِذَا طَلَبَتِ النَّفْسُ زِيَادَةً فِي الْقُرْبِ إِلَىٰ النَّفْسِ؛ اسْتَعْمَلَتِ الْوَطْءَ.

فَهَذَا سِرُّهُ الْمَعْنَوِيُّ، وَيَحْصُلُ مِنْهُ الِالْتِذَاذُ الْحِسِّيُّ.

*[٣١٠ - ٣٥][خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ أَكْثَرَ الْجِمَاعَ؛ عَجَّلَ بِتَلَفِهِ]

تَأَمَّلْتُ فِي شَهَوَاتِ الدُّنْيَا، فَرَأَيْتُهَا مَصَائِدَ هَلَاكٍ، وَفُخُوخَ تَلَفٍ؛ فَمَنْ قَوِيَ عَقْلُهُ عَلَىٰ طَبْعِهِ وَحَكَمَ عَلَيْهِ؛ يَسْلَمُ، وَمَنْ غَلَبَ طَبْعُهُ؛ فَيَا سُرْعَةَ هَلَكَتِهِ!

وَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا كَانَ يَتُوقُ إِلَىٰ التَّسَرِّي، ثُمَّ يَسْتَعْمِلُ الْحَرَارَاتِ الْمُهَيِّجَةِ لِلْبَاهِ[1]؛ فَمَا لَبِثَ أَنِ انْحَلَّتْ حَرَارَتُهُ الْغَرِيزِيَّةُ وَتَلِفَ.

وَلَمْ أَرَ فِي شَهَوَاتِ النَّفْسِ أَسْرَعَ هَلَاكًا مِنْ هَذِهِ الشَّهْوَةِ.

فَإِنَّهُ كُلَّمَا مَالَ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ شَخْصٍ مُسْتَحْسَنٍ؛ أَوْجَبَ ذَلِكَ حَرَكَةَ الْبَاهِ زَائِدًا عَنِ الْعَادَةِ، وَإِذَا رَأَىٰ أَحْسَنَ مِنْهُ؛ زَادَتِ الْحَرَكَةُ، وَكَثُرَ خُرُوجُ الْمَنِيِّ زَائِدًا عَنِ الْأَوَّلِ، فَيَفْنَىٰ جَوْهَرُ الْحَيَاةِ أَسْرَعَ شَيْءٍ.

وَبِالضِّدِّ مِنْ هَذَا أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ مُسْتَقْبَحَةً، فَلَا يُوجِبُ نِكَاحُهَا خُرُوجَ الْفَضْلَةِ الْمُؤْذِيَةَ كَمَا يَنْبَغِي، فَيَقَعُ التَّأَذِّي بِالِاحْتِبَاسِ، وَقُوَّةِ التَّوْقِ إِلَىٰ مَنْكُوحٍ.

وَكَذَلِكَ الْمُفْرِطُ فِي الْأَكْلِ؛ فَإِنَّهُ يَجْنِي عَلَىٰ نَفْسِهِ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَايَاتِ، وَالْمُقَصِّرُ فِي مِقْدَارِ الْقُوتِ كَذَلِكَ.

فَعَلِمْتُ أَنَّ أَفْضَلَ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا.

(١) يَعْنِي: الأَطْعِمَة وَالأَعْشَاب وَالأَدْوِيَة المُقَوِّيَة لِلْجِمَاعِ. وَالبَاءَةُ، وَالبَاه، وَالبَاهَة هُوَ: النِّكَاح وَيُسَمَّىٰ بِهِ الجِمَاع.

وَالدُّنْيَا مَفَازَةٌ[(١)]؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ السَّابِقُ فِيهَا الْعَقْلَ؛ فَمَنْ سَلَّمَ زِمَامَ رَاحِلَتِهِ إِلَىٰ طَبْعِهِ وَهَوَاهُ؛ فَيَا عَجَلَةَ تَلَفِهِ!

هَذَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْبَدَنِ وَالدُّنْيَا؛ فَقِسْ عَلَيْهِ أَمْرَ الآخِرَةِ؛ فَافْهَمْ.

*[٣١١ - ٣٢٥][خَاطِرَةٌ]:

[أَعْظَمُ الضَّرَرِ كَثْرَةُ النِّسَاءِ]

مِنْ أَعْظَمِ الضَّرَرِ الدَّاخِلِ عَلَىٰ الإِنْسَانِ كَثْرَةُ النِّسَاءِ.

إِنَّهُ أَوَّلًا يَتَشَتَّتُ هَمُّهُ فِي مَحَبَّتِهِنَّ، وَمُدَارَاتِهِنَّ، وَغَيْرَتِهِنَّ، وَالإِنْفَاقِ عَلَيْهِنَّ، وَلَا يَأْمَنُ إِحْدَاهُنَّ أَنْ تَكْرَهَهُ، وَتُرِيدَ غَيْرَهُ؛ فَلَا تَتَخَلَّصَ إِلَّا بِقَتْلِهِ!

وَلَوْ سَلِمَ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ؛ لَمْ يَسْلَمْ فِي الْكَسْبِ لَهُنَّ.

فَإِنْ سَلِمَ؛ لَمْ يَنْجُ مِنَ السَّآمَةِ لَهُنَّ، أَوْ لِبَعْضِهِنَّ، ثُمَّ يَطْلُبُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِهِنَّ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَوْ قَدَرَ عَلَىٰ نِسَاءِ بَغْدَادَ كُلِّهِنَّ، فَقَدِمَتِ امْرَأَةٌ مُسْتَتِرَةٌ مِنْ غَيْرِ الْبَلَدِ؛ ظَنَّ أَنَّهُ يَجِدُ عِنْدَهَا مَا لَيْسَ عِنْدَهُنَّ!

وَلَعَمْرِي؛ إِنَّ فِي الْجِدَّةِ لَذَّةً، وَلَكِنْ؛ رُبَّ مَسْتُورٍ إِذَا انْكَشَفَ افْتُضِحَ.

وَلَوْ أَنَّهُ سَلِمَ مِنْ كُلِّ أَذَىٰ يَتَعَلَّقُ بِهِنَّ؛ أَنْهَكَ بَدَنَهُ فِي الْجِمَاعِ، فَيَكُونُ طَلَبُهُ لِلالْتِذَاذِ مَانِعًا مِنْ دَوَامِ الالْتِذَاذِ، وَرُبَّ لُقْمَةٍ مَنَعَتْ لُقُمَاتٍ! وَرُبَّ لَذَّةٍ كَانَتْ سَبَبًا فِي انْقِطَاعِ لَذَّاتٍ!!

وَالْعَاقِلُ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَىٰ الْوَاحِدَةِ؛ إِذَا وَافَقَتْ غَرَضَهُ، وَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا شَيْءٌ لَا يُوَافِقُ؛ إِنَّمَا الْعَمَلُ عَلَىٰ الْغَالِبِ، فَتُوهَبُ الْخَلَّةُ الرَّدِيَّةُ لِلْمَجِيدَةِ[(٢)].

---

(١) مَفَازَةٌ: صَحَرَاء، أَرْض مُقْفِرَة.

(٢) لِلْمَجِيدَةِ؛ أَيْ: لِلرَّفِيعَة العَالِيَة الكَرِيمَة. وَكَأَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ يُشِيرُ إِلَىٰ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ، كِتَابُ «الرَّضَاعِ» بَابُ «الْوَصِيَّةِ بِالنِّسَاءِ»(١٤٦٩). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ ﷺ: «لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ -غَيْرَهُ-».

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ إِلَىٰ بَابِ الدِّينِ قَبْلَ النَّظَرِ إِلَىٰ الْحُسْنِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا قَلَّ الدِّينُ؛ لَمْ يَنْتَفِعْ ذُو مُرُوءَةٍ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ.

وَمِمَّا يُهْلِكُ الشَّيْخَ سَرِيعًا الْجِمَاعُ؛ فَلَا يَغْتَرَّ بِمَا يَرَىٰ مِنَ انْبِسَاطِ الْآلَةِ، وَحُصُولِ الشَّهْوَةِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مُسْتَخْرَجٌ مِنْ قُوَّتِهِ، مَا لا يَعُودُ مِثْلُهُ.

فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْتَرَّ بِحَرَكَةٍ وَشَهْوَةٍ، وَلا يَقْرَبَ مِنَ النِّسَاءِ؛ إِنْ كَانَ لَهُ رَأْيٌ فِي الْبَقَاءِ.

*[٣١٢ - ٢٨٩][خَاطِرَةٌ]:

[النساءُ كُلُّهنَّ سواءٌ؛ فأرِحْ نفسكَ]

رَأَيْتُ الْمُعَافَىٰ لَا يَعْرِفُ قَدْرَ الْعَافِيَةِ إِلَّا فِي الْمَرَضِ، كَمَا لا يَعْرِفُ شُكْرَ الْإِطْلَاقِ إِلَّا فِي الْحَبْسِ.

وَتَأَمَّلْتُ عَلَىٰ الْآدَمِيِّ حَالَةً عَجِيبَةً، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ مَعَهُ امْرَأَةٌ لَا بَأْسَ بِهَا؛ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِمَحَبَّتِهَا تَعَلُّقًا يَلْتَذُّ بِهِ.

وَلِذَلِكَ سَبَبَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ غَيْرَ غَايَةٍ فِي الْحُسْنِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ كُلَّ مَمْلُوكٍ مَكْرُوهٌ، وَالنَّفْسُ تَطْلُبُ مَا لا تَقْدِرُ عَلَيْهِ.

فَتَرَاهُ يَضِجُّ وَيَشْتَهِي شَيْئًا يُحِبُّهُ، أَوِ امْرَأَةً يَعْشَقُهَا، وَلا يَدْرِي أَنَّهُ إِنَّمَا يَطْلُبُ قَيْدًا وَثِيقًا؛ يَمْنَعُ الْقَلْبَ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ، أَوْ فِي أَيِّ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ، وَيَخْبِطُهُ فِي تَصْرِيفِ الدُّنْيَا، فَيَبْقَىٰ ذَلِكَ الْعَاشِقُ أَسِيرَ الْمَعْشُوقِ، هَمُّهُ كُلُّهُ مَعَهُ.

فَالْعَجَبُ لِمُطْلَقٍ يُؤْثِرُ الْقَيْدَ، وَمُسْتَرِيحٍ يُؤْثِرُ التَّعَبَ!!

فَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ تَحْتَاجُ أَنْ تُحْفَظَ[1]؛ فَالْوَيْلُ لَهُ، لا قَرَارَ لَهُ، وَلا سُكُونَ.

---

(١) يَعْنِي: هَذِهِ الْمَرْأَةُ الَّتِي يَهْوَاهَا وَيُرِيدُ زَوَاجَهَا إِنْ كَانَتْ مِمَّنْ يُخَافُ مِنْهَا الْفَسَادُ؛ فَالْوَيْلُ لَهُ.

وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْمُتَبَرِّجَاتِ اللَّوَاتِي لا يُؤَمَنُ فَسَادُهُنَّ؛ فَذَاكَ هَلاكُهُ بِمَرَّةٍ؛ فَلا هُوَ إِنْ نَامَ يَلْتَذُّ بِنَوْمِهِ، وَلا إِنْ خَرَجَ مِنَ الدَّارِ يَأْمَنُ مِن مِحْنَةٍ.

وَإِنْ كَانَتْ تُرِيدُ نَفَقَةً وَاسِعَةً وَلَيْسَ لَهُ؛ فَكَمْ يَدْخُلُ مُدْخَلَ سَوْءٍ لأَجْلِهَا.

وَإِنْ كَانَتْ تُؤْثِرُ الْجِمَاعَ، وَقَدْ عَلَتْ سِنُّهُ؛ فَذَاكَ الْهَلاكُ الْعَظِيمُ.

وَإِنْ كَانَتْ تُبْغِضُهُ؛ فَمَا بَقِيَتْ مِنْ أَسْبَابِ تَلَفِهِ بَقِيَّةٌ، فَيَكُونُ هَذَا سَاعِيًا فِي تَلَفِ نَفْسِهِ؛ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ[1]:

نُحِبُّ الْقُدُودَ وَنَهْوَىٰ الْخُدُودَ ... وَنَعْلَمُ أَنَّا نُحِبُّ الْمَنُونَا

وَهَذَا عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ كَعَابِدِ صَنَمٍ.

فَلْيَتَّقِ اللهَ مَنْ عِنْدَهُ امْرَأَةٌ لا بَأْسَ بِهَا، وَلْيُعْرِضْ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَمُنَاهَا؛ فَمَا لَهُ مُنْتَهَىٰ.

وَلَوْ حَصَلَ لَهُ غَرَضُهُ كَمَا يُرِيدُ؛ وَقَعَ الْمَلَلُ، وَطَلَبَ ثَالِثَةً، ثُمَّ يَقَعُ الْمَلَلُ، وَيَطْلُبُ رَابِعَةً، وَمَا لِهَذَا آخِرٌ.

إِنَّمَا يُفِيدُهُ بِالْعَاجِلِ، تَعَلُّقَ قَلْبِهِ، وَأَسْرُ لُبِّهِ، فَيَبْقَىٰ كَالْمَبْهُوتِ[2]، فِكْرُهُ كُلُّهُ فِي تَحْصِيلِ مَا يُرِيدُ مَحْبُوبُهُ؛ فَإِنْ جَرَتْ فُرْقَةٌ أَوْ آفَةٌ؛ فَتِلْكَ الْحَسَرَاتُ الدَّائِمَةُ إِنْ بَقِيَ، أَوِ التَّلَفُ عَاجِلًا.

وَأَيْنَ الْمُسْتَحْسَنُ الْمَصُونُ الدِّينِ، الْقَنُوعُ لِمَنْ يُحِبُّهُ؟! هَذَا أَقَلُّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الأَحْمَرِ.

فَلْيَنْظُرْ فِي تَحْصِيلِ مَا يَجْمَعُ مُعْظَمَ الْهَمِّ، وَلا يَلْتَفِتْ إِلَىٰ سَوَادِ الْهَوَىٰ وَغَايَةِ الْمُنَىٰ؛ يَسْلَمْ.

---

(١) البَيْت مِنَ الْبَحر: [الْمُتَقَارب]. صُرْدُرَّبَعْرُ عَلِيُّ بنُ الحَسَنِ. [نَوَدُّ النُّحُورَ وَنَهْوَىٰ الثُّغُورَ] الْقُدُوْدَ: قَوَام المَرْأَة.

(٢) الْمَبْهُوت: الْمَذهُوْش الْمُتَحَيِّر.

*[٣١٣ - ٢١٦][خَاطِرَةٌ]:

[أَكْثَرُ شَهَوَاتِ الْحِسِّ النِّسَاءُ]

أَكْثَرُ شَهَوَاتِ الْحِسِّ النِّسَاءُ.

وَقَدْ يَرَىٰ الْإِنْسَانُ امْرَأَةً فِي ثِيَابِهَا، فَيَتَخَايَلُ لَهُ أَنَّهَا أَحْسَنُ مِنْ زَوْجَتِهِ، أَوْ يَتَصَوَّرُ بِفِكْرِهِ الْمُسْتَحْسَنَاتِ، وَفِكْرُهُ لَا يَنْظُرُ إِلَّا إِلَىٰ الْحَسَنِ مِنَ الْمَرْأَةِ، فَيَسْعَىٰ فِي التَّزَوُّجِ وَالتَّسَرِّي؛ فَإِذَا حَصَلَ لَهُ مُرَادُهُ؛ لَمْ يَزَلْ يَنْظُرُ فِي عُيُوبِ الْحَاصِلِ، الَّتِي مَا كَانَ يَتَفَكَّرُ فِيهَا، فَيَمَلُّ، وَيَطْلُبُ شَيْئًا آخَرَ.

وَلا يَدْرِي أَنَّ حُصُولَ أَغْرَاضِهِ فِي الظَّاهِرِ رُبَّمَا اشْتَمَلَ عَلَىٰ مِحَنٍ، مِنْهَا أَنْ تَكُونَ الثَّانِيَةُ لَا دِينَ لَهَا، أَوْ لَا عَقْلَ، أَوْ لَا مَحَبَّةَ لَهَا، أَوْ لَا تَدْبِيرَ، فَيَفُوتُ أَكْثَرَ مِمَّا حَصَّلَ!

وَهَذَا الْمَعْنَىٰ هُوَ الَّذِي أَوْقَعَ الزُّنَاةَ فِي الْفَوَاحِشِ؛ لِأَنَّهُمْ يُجَالِسُونَ الْمَرْأَةَ حَالَ اسْتِتَارِ عُيُوبِهَا عَنْهُمْ، وَظُهُورِ مَحَاسِنِهَا، فَتَلَذُّهُمْ تِلْكَ السَّاعَةَ، ثُمَّ يَنْتَقِلُونَ إِلَىٰ أُخْرَىٰ![1].

فَلْيَعْلَمِ الْعَاقِلُ أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ حُصُولِ مُرَادٍ تَامٍّ، كَمَا يُرِيدُ، ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾[الْبَقَرَةُ:٢٦٧].

وَمَا عِيبَ نِسَاءُ الدُّنْيَا بِأَحْسَنَ مِنْ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[الْبَقَرَةُ:٢٥].

وَذُو الْأَنَفَةِ يَأْنَفُ مِنَ الْوَسَخِ صُورَةً، وَعَيْبُ الْخُلُقِ مَعْنًىٰ؛ فَلْيَقْنَعْ بِمَا بَاطِنُهُ الدِّينُ، وَظَاهِرُهُ السَّتْرُ وَالْقَنَاعَةُ؛ فَإِنَّهُ يَعِيشُ مُرَفَّهَ السِّرِّ، طَيِّبَ الْقَلْبِ.

وَمَتَىٰ اسْتَكْثَرَ؛ فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ شُغْلِ قَلْبِهِ، وَرِقَّةِ دِينِهِ.

---

(١) قَالَ الإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «مُدْمِنِي الشَّهَوَاتِ يَصِيرُونَ إِلَىٰ حَالَةٍ لَا يَلْتَذُّونَ بِهَا. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُونَ تَرْكَهَا؛ لِأَنَّهَا قَدْ صَارَتْ عِنْدَهُم بِمَنْزِلَةِ الْعَيْشِ الَّذِي لَابُدَّ لَهُم مِنْهُ، وَلِهَذَا تَرَىٰ مُدْمِنَ الخَمْرِ وَالجِمَاعِ لَا يَلْتَذُّ بِهِ عُشْرِ مِعْشَارِ التِذَاذِ مَنْ يَفْعَلُهُ نَادِرًا فِي الأَحْيَانِ، غَيْرَ أَنَّ العَادَةَ مُقْتَضِيَةٌ ذَلِكَ؛ فَيُلْقِي نَفْسَهُ فِي المَهَالِكِ؛ لِنَيْلِ مَا تُطَالِبُهُ بِهِ العَادَةُ، وَلَوْ زَالَ عَنْهُ رَيْنُ الهَوَىٰ لَعَلِمَ أَنَّهُ قَدْ شَقِيَ مِنْ حَيْثُ قَدَّرَ السَّعَادَةَ، وَاغْتَمَّ مِنْ حَيْثُ ظَنَّ الفَرَحَ، وَأَلِمَ مِنْ حَيْثُ أَرَادَ اللَّذَّةَ»[«روضة المحبين»(ص٣٣٧/ الباب:٢٩)].

*[٣١٤ - ٣٣١][خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ غَلَبَتْ عَلَيهِ شَهْوَتُهُ يَرْحَلُ سَرِيعًا]

الْعَجَبُ لِمُؤْثِرِ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا! أَلَا يَتَدَبَّرُ أَمْرَهَا بِالْعَقْلِ، قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ إِلَىٰ مَنْقُولَاتِ الشَّرْعِ؟!

إِنَّ أَعْظَمَ لَذَّاتِ الْحِسِّ الْوَطْءُ، فَالْمَرْأَةُ الْمُسْتَحْسِنَةُ إِنَّمَا يَكُونُ حَالُ كَمَالِهَا مِنْ وَقْتِ بُلُوغِهَا إِلَىٰ الثَّلَاثِينَ؛ فَإِذَا بَلَغَتْهَا؛ أَثَّرَ فِيهَا، وَرُبَّمَا ابْيَضَّتْ شَعَرَاتٌ مِنْ رَأْسِهَا، فَيَنْفِرُ الْإِنْسَانُ مِنْهَا، وَقَدْ يَقَعُ الْمَلَلُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَطُولُ الصُّحْبَةِ يَكْشِفُ الْعُيُوبَ...

وَمَا عِيبَ نِسَاءُ الدُّنْيَا بِأَبْلَغَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[البَقَرَةُ:٢٥]؛ فَلَوْ تَفَكَّرَ الْإِنْسَانُ فِي جَسَدٍ مَمْلُوءٍ بِالنَّجَاسَةِ؛ مَا طَابَ لَهُ ضَمُّهُ؛ غَيْرَ أَنَّ الشَّهْوَةَ تُغَطِّي عَيْنَ الْفِكْرِ.

فَالْعَاقِلُ مَنْ حَفِظَ دِينَهُ وَمُرُوءَتَهُ بِتَرْكِ الْحَرَامِ، وَحَفِظَ قُوَّتَهُ فِي الْحَلَالِ، فَأَنْفَقَهَا فِي طَلَبِ الْفَضَائِلِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ، وَلَمْ يَسْعَ فِي إِفْنَاءِ عُمُرِهِ، وَتَشْتِيتِ قَلْبِهِ فِي شَيْءٍ لَا تَحْسُنُ عَاقِبَتُهُ.

مَا فِي هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِي عِوَضٌ ... إِنْ مِتُّ شَوْقًا وَلَا فِيهَا لَهَا ثَمَنُ[1]

وَعُمُومُ مَنْ رَأَيْنَا مِنَ الْكِبَارِ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ شَهْوَةُ الْوَطْءِ، فَانْهَدَمَتْ أَعْمَارُهُمْ، وَرَحَلُوا سَرِيعًا.

وَقَدْ رَأَيْنَا مِنَ الْعُقَلَاءِ مَنْ زَجَرَ نَفْسَهُ عَنْ هَذِهِ الْمِحْنَةِ، وَلَمْ يَسْتَعْمِلْهَا إِلَّا وَقْتَ الْحَاجَةِ، فَبَقِيَ لَهُمْ سَوَادُ شُعُورِهِمْ وَقُوَّتُهُمْ، حَتَّىٰ تَمَتَّعُوا بِهَا فِي الْحَيَاةِ، وَحَصَّلُوا الْمَنَاقِبَ، وَعَرَفَتْ مِنْهُمُ النُّفُوسُ قُوَّةَ الْعَزِيمَةِ؛ فَلَمْ تُطَالِبْهُمْ بِمَا يُؤْذِي.

---

(١) البيتان من البحر: [البسيط]. وقائله: المتنبي.

*[٣١٥ – ٢٤٥][خَاطِرَةٌ]:

[إِذَا عَلَتْ سِنُّكَ فَأَوْقِفْ هَوَى الشَّهْوَةِ]

شَكَا لِي بَعْضُ الأَشْيَاخِ، فَقَالَ: قَدْ عَلَتْ سِنِّي، وَضَعُفَتْ قُوَّتِي، وَنَفْسِي تَطْلُبُ مِنِّي شِرَاءَ الْجَوَارِي الصِّغَارِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُنَّ يُرِدْنَ النِّكَاحَ، وَلَيْسَ فِيَّ، وَلا تَقْنَعُ مِنِّي النَّفْسَ بِرَبَّةِ الْبَيْتِ؛ إِذْ قَدْ كَبِرَتْ.

فَقُلْتُ لَهُ: عِنْدِي جَوَابَانِ:

أَحَدُهُمَا: الْجَوَابُ الْعَامِّيُّ، وَهُوَ أَنْ أَقُولَ: يَنْبَغِي أَنْ تَشْتَغِلَ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَمَا قَدْ تَوَجَّهْتَ إِلَيْهِ، وَتَحْذَرَ مِنَ اشْتِرَاءِ جَارِيَةٍ؛ لا تَقْدِرُ عَلَىٰ إِيفَاءِ حَقِّهَا؛ فَإِنَّهَا تُبْغِضُكَ؛ فَإِنْ أَجْهَدْتَ؛ اسْتَعْجَلْتَ التَّلَفَ، وَإِنْ اسْتَبْقَيْتَ قُوَّتَكَ؛ غَضِبَتْ هِيَ، عَلَىٰ أَنَّهَا لَا تُرِيدُ شَيْخًا كَيْفَ كَانَ.

وَقَدْ أَنْشَدَنَا عَلِيُّ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ؛ قَالَ: أَنْشَدَنَا مُحَمَّدٌ التَّمِيمِيُّ(١):

أَفِقْ يَا فُؤَادِي مِنْ غَرَامِكَ وَاسْتَمِعْ ... مَقَالَةَ مَحْزُونٍ عَلَيْكَ شَفِيقِ
عَلِقْتَ فَتَاةً قَلْبُهَا مُتَعَلِّقٌ ... بِغَيْرِكَ، فَاسْتَوْثَقْتَ غَيْرَ وَثِيقِ
وَأَصْبَحْتَ مَوْثُوقًا، وَرَاحَتْ طَلِيقَةً ... فَكَمْ بَيْنَ مَوْثُوقٍ وَبَيْنَ طَلِيقِ

فَاعْلَمْ أَنَّهَا تَعُدُّ عَلَيْكَ الأَيَّامَ، وَتَطْلُبُ مِنْكَ فَضْلَ الْمَالِ؛ لِتَسْتَعِدَّ لِغَيْرِكَ، وَرُبَّمَا قَصَدَتْ حَتْفَكَ؛ فَاحْذَرْ! وَالسَّلَامَةُ فِي التَّرْكِ، وَالاقْتِنَاعِ بِمَا يَدْفَعُ الزَّمَانَ.

وَالْجَوَابُ الثَّانِي: فَإِنِّي أَقُولُ: لَا يَخْلُو أَنْ تَكُونَ قَادِرًا عَلَىٰ الْوَطْءِ فِي وَقْتٍ، أَوْ لَا تَكُونُ.

فَإِنْ كُنْتَ لا تَقْدِرُ؛ فَالأَوْلَىٰ مُصَابَرَةُ التَّرْكِ لِلْكُلِّ، وَإِنْ كَانَ يُمْكِنُ لِلْحَازِمِ أَنْ يُدَارِيَ الْمَرْأَةَ بِالنَّفَقَةِ، وَطِيبِ الْخُلُقِ؛ إِلَا أَنَّهُ يُخَاطِرُ.

---

(١) هَكَذَا فِي الأَصْلِ، وَالصَّوَابُ: أَبُو مُحَمَّدٍ ؛ كَمَا فِي «تَارِيخِ بَغْدَادَ»(ج٦/ ص٨٥، ٨٦)، «الْمُنْتَظِمِ»(ج١٧/ ص٢٠، ٢١). وَأَبُو مُحَمَّدٍ التَّمِيمِيُّ رِزْقُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ، شَيْخُ الْعِرَاقِ وَالْحَنَابِلَةِ، وَاعِظًا، مَلِيحَ الْعِبَارَةِ. مَاتَ:(٤٨٨هـ). وَعَلِيُّ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ الزَّاغُونِيُّ أَبُو الْحَسَنِ، مِنْ شُيُوخِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ. مَاتَ:(٥٢٧هـ). وَالأَبْيَاتُ مِنَ الْبَحْرِ:[الطَّوِيلِ].

وَإِنْ كُنْتَ تَقْدِرُ فِي أَوْقَاتٍ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَرَأَيْتَ مِنْ نَفْسِكَ تَوْقًا شَدِيدًا؛ فَعَلَيْكَ بِالْمُرَاهِقَاتِ؛ فَإِنَّهُنَّ مَا عَرَفْنَ النِّكَاحَ، وَمَا طَلَبْنَ الْوَطْءَ، وَاغْمُرْهُنَّ بِالْإِنْفَاقِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ، مَعَ الِاحْتِيَاطِ عَلَيْهِنَّ، وَالْمَنْعِ مِنْ مُخَالَطَةِ النِّسْوَةِ، وَإِذَا اتَّفَقَ وَطْءٌ؛ فَتَصَبَّرْ عَنِ الْإِنْزَالِ، رَيْثَمَا تَقْضِي الْمَرْأَةُ حَاجَتَهَا!

وَاعْتَمِدْ وَعْظَهَا وَتَذْكِيرَهَا بِالْآخِرَةِ! وَاذْكُرْ لَهَا حِكَايَاتِ الْعُشَّاقِ مِنْ غَيْرِ نِكَاحٍ، وَقُبْحَ صُورَةِ الْفِعْلِ! وَالْفِتْ قَلْبَهَا إِلَىٰ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ! وَلَا تُخْلِ نَفْسَكَ مِنَ الطِّيبِ وَالتَّزَيُّنِ، وَالْكِيَاسَةِ، وَالْمُدَارَاةِ، وَالْإِنْفَاقِ الْوَاسِعِ! فَهَذَا رُبَّمَا حَرَّكَ النَّاقَةَ لِلْمَسِيرِ، مَعَ خَطَرِ السَّلَامَةِ.

*[٣١٦ - ٦٣][خَاطِرَةٌ]:

[لا يَتَمَكَّنُ الْعِشْقُ إِلَّا مَعَ وَاقِفٍ جَامِدٍ]

نَظَرْتُ فِيمَا تَكَلَّمَ بِهِ الْحُكَمَاءُ فِي الْعِشْقِ وَأَسْبَابِهِ وَأَدْوِيَتِهِ، وَصَنَّفْتُ فِي ذَلِكَ كِتَابًا سَمَّيْتُهُ بِـ«ذَمِّ الْهَوَىٰ»[1]، وَذَكَرْتُ فِيهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ أَنَّهُمْ قَالُوا: سَبَبُ الْعِشْقِ حَرَكَةُ نَفْسٍ فَارِغَةٍ، وَأَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا: فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: لَا يَعْرِضُ الْعِشْقُ إِلَّا لِظِرَافِ النَّاسِ[2]، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ لِأَهْلِ الْغَفْلَةِ مِنْهُمْ عَنْ تَأَمُّلِ الْحَقَائِقِ[3].

إِلَّا أَنَّهُ خَطَرَ لِي بَعْدَ ذَلِكَ مَعْنًىٰ عَجِيبٌ، أَشْرَحُهُ هَا هُنَا: وَهُوَ أَنَّهُ لا يَتَمَكَّنُ الْعِشْقُ إِلَّا مَعَ

(١) هُوَ كِتَابٌ تَحَدَّثَ فِيهِ عَنْ مَضَارِ الهَوَىٰ وَالعِشْقِ الَّذِي أَفْسَدَ القُلُوبَ وَالأَبْدَانَ، وَحَمَلَ مَعَاوِلَ الهَدْمِ، مُتَسَلِّحًا بِأَحَادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ﷺ. وَهُوَ مَطْبُوعٌ أَكْثَرَ مِنْ طَبْعَةٍ.

(٢) ظِرَافِ النَّاسِ: الظَّرْفُ: البَرَاعَةُ وَذَكَاءُ القَلْبِ يُوصَفُ بِهِ الفِتْيَانُ الأَزْوَالُ وَالفَتَيَاتُ الزَّوْلَاتُ، وَلَا يُوصَفُ بِهِ الشَّيْخُ وَلَا السَّيِّدُ. وَالزَّوْلُ: الظَّرِيفُ الخَفِيفُ الخَرَّاجُ الوَلَّاجُ.

(٣) يُرَاجِع: «ذَمَّ الهَوَىٰ» (ص٢٨٩/ ب:٣٥، ص٣١١، ٣٠٦/ ب:٣٧). وَفِيهِ: «قَالَ أَفلاطُونُ العِشْقُ حَرَكَةُ النَّفْسِ الفَارِغَةِ بِغَيْرِ فِكْرَةٍ». وَفِيهِ: «وَمَا عَشِقَ قَطُّ إِلا فَارِغٌ فَهُوَ مِنْ عِلَلِ البَطَّالِينَ وَأَمْرَاضِ الفَارِغِينَ مِنَ النَّظَرِ فِي دَلائِلِ العِبَرِ وَطَلَبِ الحَقَائِقِ المُسْتَدَلِّ بِهَا عَلَىٰ عِظَمِ الخَالِقِ وَلِهَذَا قَلَّ مَا تَرَاهُ إِلَّا فِي الرُّعْنِ البَطْرَىٰ وَأَرْبَابِ الخَلَاعَةِ النَّوْكَىٰ وَمَا عَشِقَ حَكِيمٌ قَطُّ».

وَاقِفٍ جَامِدٍ[(١)]؛ فَأَمَّا أَرْبَابُ صُعُودِ الْهِمَمِ؛ فَإِنَّهَا كُلَّمَا تَخَايَلَتْ مَا تُوجِبُهُ الْمَحَبَّةُ، فَلَاحَتْ عُيُوبُهُ لَهَا - إِمَّا بِالْفِكْرِ فِيهِ، أَوْ بِالْمُخَالَطَةِ لَهُ-؛ تَسَلَّتْ، وَتَعَلَّقَتْ بِمَطْلُوبٍ آخَرَ[(٢)].

فَلَا يَقِفُ عَلَىٰ دَرَجَةِ الْعِشْقِ، الْمُوجِبِ لِلتَّمَسُّكِ بِتِلْكَ الصُّورَةِ، الْعَامِي عَنْ عُيُوبِهَا[(٣)]؛ إِلَّا جَامِدٌ وَاقِفٌ.

وَأَمَّا أَرْبَابُ الْأَنَفَةِ مِنَ النَّقَائِصِ؛ فَإِنَّهُمْ أَبَدًا فِي التَّرَقِّي، لَا يَصُدُّهُمْ صَادٌّ؛ فَإِذَا عَلِقَتِ الطِّبَاعُ مَحَبَّةَ شَخْصٍ؛ لَمْ يَبْلُغُوا مَرْتَبَةَ الْعِشْقِ الْمُسْتَأْثِرِ.

بَلْ رُبَّمَا مَالُوا مَيْلًا شَدِيدًا؛ إِمَّا فِي الْبِدَايَةِ لِقِلَّةِ التَّفْكِيرِ، أَوْ لِقِلَّةِ الْمُخَالَطَةِ وَالِاطِّلَاعِ عَلَىٰ الْعُيُوبِ، وَإِمَّا لِتَشَبُّثِ بَعْضِ الْخِلَالِ الْمَمْدُوحَةِ بِالنُّفُوسِ مِنْ جِهَةِ مُنَاسِبَةٍ وَقَعَتْ بَيْنَ الشَّخْصَيْنِ؛ كَالظَّرِيفِ مَعَ الظَّرِيفِ، وَالْفَطِنِ مَعَ الْفَطِنِ، فَيُوجِبُ ذَلِكَ الْمَحَبَّةَ[(٤)].

فَأَمَّا الْعِشْقُ؛ فَلَا؛ فَهُمْ أَبَدًا فِي السَّيْرِ، فَلَا تَوَقُّفَ[(٥)]، وَإِبِلُ الطَّبْعِ تَتْبَعُ حَادِيَ الْفَهْمِ؛ فَإِنَّ لِلطَّبْعِ مُتَعَلَّقًا لَا تَجِدُهُ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ يَرُومُ مَا لَا يَصِحُّ وُجُودُهُ مِنَ الْكَمَالِ فِي الْأَشْخَاصِ؛ فَإِذَا تَلَمَّحَ عُيُوبَهَا نَفَرَ.

---

(١) يُراجع: «ذَمّ الْهَوَىٰ»(ص٣٠٦/ الباب:٣٧). وَفِيهِ: «وَالْعَاشِقُ وَاقِفٌ مَعَ صُورَةٍ جَامِدَةٍ عَنِ التَّحَرُّكِ وَالْعَارِفُ بِاللهِ سُبْحَانَهُ فِي السَّيْرِ لَا يَفْتُرُ وَلا يُنْكِرُ أَنْ يَقْوَىٰ طَبْعُهُ عَلَيْهِ فِي حَالٍ وَتَمِيلُ بِهِ الْمَحَبَّةُ لِلصُّوَرِ أَحْيَانًا غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَصِيرُ أَسِيرًا إِنَّمَا يَمِيلُ يَسِيرًا».

(٢) أَيْ: تَسَلَّتْ أَنْفُسُهُمْ وَطَابَت وَذَهَبَ مَا بِهَا مِنْ تَعَبٍ أَوْ هَمٍّ، وَتَعَلَّقَتْ بِمَطْلُوبٍ آخَرَ.

(٣) أَيْ: الأَعْمَىٰ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾.

(٤) يُراجع: «ذَمّ الْهَوَىٰ»(ص٢٩٧/ الباب:٣٦). وَفِيهِ: «وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ أَنَّهُ لَا يَقَعُ الْعِشْقُ إِلَّا لِمُجَانِسٍ، وَأَنَّهُ يَضْعَفُ وَيَقْوَىٰ عَلَىٰ قَدْرِ التَّشَاكُلِ؛ وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ». قَالَ: وَقَدْ كَانَتِ الأَرْوَاحُ مَوْجُودَةٌ قَبْلَ الأَجْسَامِ؛ فَمَالَ الْجِنْسُ إِلَىٰ الْجِنْسِ؛ فَلَمَّا افْتَرَقَتْ فِي الأَجْسَادِ بَقِيَ فِي كُلِّ نَفْسٍ حُبُّ مَا كَانَ مُقَارِبًا لَهَا؛ فَإِذَا شَاهَدَتِ النَّفْسُ مِنْ نَفْسٍ نَوْعَ مُوَافَقَةٍ مَالَتْ إِلَيْهَا ظَانَّةً أَنَّهَا هِيَ الَّتِي كَانَتْ قَرِينَتَهَا؛ فَإِنْ كَانَ التَّشَاكُلُ فِي الْمَعَانِي كَانَتْ صَدَاقَةً وَمَوَدَّةً، وَإِنْ كَانَ فِي مَعْنَىٰ يَتَعَلَّقُ بِالصُّورَةِ كَانَ عِشْقًا، وَإِنَّمَا يُوجَدُ الْمَلَلُ وَالإِعْرَاضُ فِي بَعْضِ النَّاسِ؛ لأَنَّ التَّجْرِبَةَ أَبَانَتِ ارْتِفَاعَ الْمُجَانَسَةِ وَالْمُنَاسَبَةِ»اهـ.

(٥) هكذا في مخطوط: (ي)، وجاء في اللاأصل: [فَلَا يُوْقَفُ].

وَأَمَّا مُتَعَلِّقُ الْقُلُوبِ مِنْ مَحَبَّةِ الْخَالِقِ الْبَارِئِ؛ فَهُوَ مَانِعٌ لَهَا مِنَ الْوُقُوفِ مَعَ سِوَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مَحَبَّتُهُ لَا تُجَانِسُ مَحَبَّةَ الْمَخْلُوقِينَ؛ غَيْرَ أَنَّ أَرْبَابَ الْمَعْرِفَةِ وَلْهَىٰ[1]، قَدْ شَغَلَهُمْ حُبُّهُ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ، وَصَارَتِ الطِّبَاعُ مُسْتَغْرِقَةً لِقُوَّةِ مَعْرِفَةِ الْقُلُوبِ وَمَحَبَّتِهَا؛ كَمَا قَالَتْ رَابِعَةُ[2]:

أُحِبُّ حَبِيبًا لا أُعَابُ بِحُبِّهِ ... وَأَحْبَبْتُمُ مَنْ فِي هَوَاهُ عُيُوبُ

وَلَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ فُقَرَاءِ الزُّهَّادِ: أَنَّهُ مَرَّ بِامْرَأَةٍ؛ فَأَعْجَبَتْهُ؛ فَخَطَبَهَا إِلَىٰ أَبِيهَا؛ فَزَوَّجَهُ؛ وَجَاءَ بِهِ إِلَىٰ الْمَنْزِلِ، وَأَلْبَسَهُ غَيْرَ خُلْقَانِهِ، فَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ؛ صَاحَ الْفَقِيرُ: ثِيَابِي! ثِيَابِي! فَقَدْتُ مَا كُنْتُ أَجِدُهُ!

فَهَذِهِ عَثْرَةٌ فِي طَرِيقِ هَذَا الْفَقِيرِ دَلَّتْهُ عَلَىٰ أَنَّهُ مُنْحَرِفٌ عَنِ الْجَادَّةِ.

وَإِنَّمَا تَعْتَرِي هَذِهِ الْحَالاتُ أَرْبَابَ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ ﷻ، وَأَهْلَ الأَنَفَةِ مِنَ الرَّذَائِلِ.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «إِذَا أَعْجَبَتْ أَحَدَكُمُ امْرَأَةٌ؛ فَيَتَذَكَّرْ مَثَانَتَهَا»[3].

وَمِثَالُ هَذِهِ الْحَالِ أَنَّ الْعَقْلَ يَغِيبُ عِنْدَ اسْتِحْلَاءِ تَنَاوُلِ الْمُشْتَهَىٰ مِنَ الطَّعَامِ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي تَقَلُّبِهِ فِي الْفَمِ، وَبَلْعِهِ، وَيَذْهَلُ عِنْدَ الْجِمَاعِ عَنْ مُلَاقَاةِ الْقَاذُورَاتِ؛ لِقُوَّةِ غَلَبَةِ الشَّهْوَةِ، وَيَنْسَىٰ عِنْدَ بَلْعِ الرُّضَابِ اسْتِحَالَتَهُ عَنِ الْغِذَاءِ[4]. وَفِي تَغْطِيَةِ تِلْكَ الأَحْوَالِ مَصَالِحُ.

إِلَّا أَنَّ أَرْبَابَ الْيَقَظَةِ يَعْتَرِيهِمْ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ لَهَا فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ؛ فَيُنَغِّصُ عَلَيْهِمْ لَذِيذَ الْعَيْشِ، وَيُوجِبُ الأَنَفَةَ مِنْ رَذَالَةِ الْهَوَىٰ.

---

(١) الوَلَهُ: الحُزْنُ، وَقِيلَ: هُوَ ذِهَابُ العَقْلِ وَالتَّحَيُّرِ مِنْ شِدَّةِ الوَجْدِ أَو الحُزْنِ أَو الخَوْفِ. وَالوَلَهُ: ذِهَابُ العَقْلِ لِفِقْدَانِ الحَبِيبِ. وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الهَيَمَانِ فِي الوَجْدِ.

(٢) البيت من البحر: [الطويل]. وفي الأصل: [وَأَحْبَبْتُهُمْ]؛ وهو تصحيف. وترجمة رَابِعَةُ العَدَوِيَّةُ رَحِمَهَا اللهُ في: [٦٦-٥٥].

(٣) هَكَذَا جَاءَ فِي الأَصْلِ. وَ«مَثَانَتَهَا»: كِيسٌ فِي الحَوْضِ، يَتَجَمَّعُ فِيهِ البَوْل. وَقَد نَقَلَهَا ابْنُ مُفْلِحٍ عَنْ اِبْنِ الجَوْزِيِّ هَكَذَا فِي كِتَابِ: «الفُرُوع = الفُرُوع وَمَعَهُ تَصْحِيحِ الفُرُوعِ» (ج٨/ ص١٨١). وَقَدْ رَوَاهُ اِبْن أَبِي شَيْبَة فِي «مصنفه» كِتَابُ «النِّكَاح» (١٧٤٩٠). عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ فِي الرَّجُلِ يَرَىٰ الْمَرْأَةَ فَتُعْجِبُهُ، قَالَ: «يَذْكُرُ مَنَاتِنَهَا». وَفِي كِتَابِ «الآثَار» لِأَبِي يُوسُف. (٨٩٤). «إِذَا رَأَيْتَ الْمَرْأَةَ فَأَعْجَبَتْكَ فَاذْكُرْ مَنَاتِنَهَا». مَتْن جَمْع مَنَاتِنَ: اِسْم مَكَان مِنْ نَتَنَ.

(٤) الرُّضَابُ: بِالضَّمِّ الرِّيقُ. وَقِيلَ: الرِّيقُ الْمَمْصُوص. وَقِيلَ: وَيُطلق علىٰ قِطَعِ الرِّيق فِي الفَمِ، وَكَثْرَةُ مَاءِ الأَسْنَانِ.

وَعَلَىٰ قَدْرِ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ يَخِفُّ الْعِشْقُ عَنْ قَلْبِ الْعَاشِقِ، وَعَلَىٰ قَدْرِ جُمُوْدِ الذِّهْنِ يَقْوَىٰ الْقَلَقُ.

قَالَ الْمُتَنَبِّي[1]:

لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مُنْتَهَىٰ ... حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ

وَمَجْمُوعُ مَا أَرَدْتُ شَرْحَهُ: أَنَّ طِبَاعَ الْمُتَيَقِّظِينَ تَتَرَقَّىٰ، فَلَا تَقِفُ مَعَ شَخْصٍ مُسْتَحْسَنٍ، وَسَبَبُ تَرَقِّيهَا التَّفْكِيرُ فِي نَقْصِ ذَلِكَ الشَّخْصِ وَعُيُوبِهِ، أَوْ فِي طَلَبِ مَا هُوَ أَهَمُّ مِنْهُ.

وَقُلُوبُ الْعَارِفِينَ تَتَرَقَّىٰ إِلَىٰ مَعْرُوْفِهَا فَتَعْتَبِرُ فِي مَعْبَرِ الاِعْتِبَارِ[2].

فَأَمَّا أَهْلُ الْغَفْلَةِ؛ فَجُمُودُهُمْ فِي الْحَالَتَيْنِ، وَغَفْلَتُهُمْ عَنِ الْمَقَامَيْنِ؛ يُوجِبُ أَسْرَهُمْ، وَقَسْرَهُمْ، وَحِيرَتَهُمْ.

* [٣١٧ – ١٦٩][خَاطِرَةٌ]:

[أَصْلَحُ الْمَقَامَاتِ التَّوَسُّطُ]

مِنَ الْأُمُوْرِ الَّتِي تَخْفَىٰ عَلَىٰ الْعَاقِلِ: أَنْ يَرَىٰ أَنَّهُ مَتَىٰ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ امْرَأَةٌ أَوْ جَارِيَةٌ يَهْوَاهَا هَوَىٰ شَدِيدًا؛ أَنَّهُ لَا يَلْتَذُّ بِالدُّنْيَا؛ فَإِذَا صَوَّرَ مَحْبُوْبًا مَمْلُوْكًا؛ تَخَايَلَ لَذَّةً عَظِيمَةً، وَإِذَا كَانَ عِنْدَهُ مَنْ لَا يَمِيْلُ إِلَيْهِ؛ اعْتَقَدَ نَفْسَهُ مَحْرُوْمًا.

وَهَذَا أَمْرٌ شَدِيْدُ الْخَفَاءِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُوَضَّحَ:

(١) البيت من البحر: [السريع]. وترجمة الْمُتَنَبِّي رحمه الله في الخاطرة: [١١٥-١٧٠].

(٢) قَالَ الإِمَامُ ابْنُ الجَوْزِيِّ رحمه الله فِي: «ذَمِّ الْهَوَىٰ» (ص٣١١/ الباب:٣٧). وَفِيْهِ: «وَمَنْ كَانَ طَالِبًا لمعْرِفَة الله لَا تُقِفْهُ صُورَةٌ عَنِ الطَّلَبِ؛ لأَنَّهَا تَحْجِبُهُ عَنِ الْمُصَوِّرِ، وَحُوشِيَتْ قُلُوبُ الْحُكَمَاءِ الطَّالِبِينَ فَضْلًا عَنِ الْوَاصِلِينَ الْعَارِفِينَ مِنْ أَنْ تَحْبِسَهُمُ الصُّوَرُ أَوْ تَفْتِنَهُمُ الأَشْكَالُ عَنِ التَّرَقِّي فِي مَعَارِجِ مَقَاصِدِهِمْ أَوْ تَحُطَّهُمْ عَنْ مَرَاكِزِهِمْ إِلَىٰ مَحَلِّ الأَثْقَالِ الرَّاسِيَةِ بَلْ هُمْ أَبَدًا فِي التَّرَقِّي هَاتِكُونَ لِلْحُجُبِ وَالأَسْتَارِ بِقُوَّةِ النَّظَرِ».

وَهُوَ أَنَّ الْمَمْلُوْكَ مَمْلُوْلٌ، وَمَتَىٰ قَدَرَ الإِنْسَانُ عَلَىٰ مَا يَشْتَهِيْهِ؛ مَلَّهُ وَمَالَ إِلَىٰ غَيْرِهِ:

تَارَةً لِبَيَانِ عُيُوْبِهِ الَّتِي تَكْشِفُهَا الْمُخَالَطَةُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ الْحُكَمَاءُ: «الْعِشْقُ يُعْمِي مِنْ عُيُوْبِ الْمَحْبُوْبِ».

وَتَارَةً لِمَكَانِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ؛ وَالنَّفْسُ لا تَزَالُ تَتَطَلَّعُ إِلَىٰ مَا لا تَقْدِرُ عَلَيْهِ.

ثُمَّ لَوْ قَدَّرْنَا دَوَامَ الْمَحَبَّةِ مَعَ الْقُدْرَةِ؛ فَإِنَّهَا قَدْ تَكُوْنُ، وَلَكِنْ نَاقِصَةً بِمِقْدَارٍ، وَإِنَّمَا يُقَوِّيْهَا تَجَنِّي الْمَحْبُوْبِ، فَيَكُوْنُ تَجَنِّيْهِ كَالِامْتِنَاعِ، أَوْ امْتِنَاعُهُ مِنَ الْمُوَافَقَةِ.

فَإِذَا صَفَا؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَكْدَارٍ: مِنْهَا: الْحَذَرُ عَلَيْهِ، وَمِنْهَا: قِلَّةُ مَيْلِهِ إِلَىٰ هَذَا الْعَاشِقِ، وَرُبَّمَا يَتَكَلَّفُ الْقُرْبَ مِنْهُ، وَيَعْلَمُ الإِنْسَانُ بِقِلَّةِ مَيْلِ مَحْبُوْبِهِ إِلَيْهِ، يُنَغِّصُ، بَلْ يُبَغِّضُ[1].

فَإِنْ خَافَ مِنْهُ خِيَانَةً؛ احْتَاجَ إِلَىٰ حِرَاسَةٍ، فَقَوِيَتِ النُّغَصُ.

وَأَصْلَحُ الْمَقَامَاتِ التَّوَسُّطُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ مَا تَمِيلُ النَّفْسُ إِلَيْهِ، وَلَا يَرْتَقِي إِلَىٰ مَقَامِ الْعِشْقِ، فَإِنَّ الْعَاشِقَ فِي عَذَابٍ، وَإِنَّمَا يَتَخَايَلُ[2] الْفَارِغُ مِنَ الْعِشْقِ الْتِذَاذَ الْعَاشِقِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ كَمَا قِيْلَ[3]:

وَمَا فِي الأَرْضِ أَشْقَىٰ مِنْ مُحِبٍّ ... وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَىٰ عَذْبَ الْمَذَاقِ

تَرَاهُ بَاكِيًا فِي كُلِّ وَقْتٍ ... مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لِاشْتِيَاقِ

فَيَبْكِي إِنْ نَأَوْا شَوْقًا إِلَيْهِمْ ... وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ الْفِرَاقِ

فَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّدَانِي ... وَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الْفِرَاقِ

---

(١) أَيْ: يُنَغِّصُ عَلَيْهِ مَعِيْشَتَه، بِقَطْعِ مَا كَانَ يُحِبُّ الاسْتِكْثَارَ مِنْهُ، بَلْ يُبَغِّضُ إِلَيْهِ هَذَا الْمَحْبُوْب.

(٢) يَتَخَايَلُ: يَتَصَوَّر أو يَتَشَبَّهُ لَهُ فِي خَيَالِهِ.

(٣) الأبيات من البحر: [الوافر]. نصيب بن رباح.

(٢٥)

[أَمْرُ الدُّنيا والآخِرةِ وأَهْليهِما]

*[٣١٨ - ١٤١][خَاطِرَةٌ]:

[الدُّنيا في الجُملةِ مَعْبَرٌ]

الدُّنْيَا فِي الْجُمْلَةِ مَعْبَرٌ؛ فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ لا يُنَافِسَ بِلَذَّاتِهَا، وَأَنْ يَعْبُرَ الأَيَّامَ بِهَا.

فَإِنَّهُ لَوْ تَفَكَّرَ فِي كَيْفِيَّةِ الذَّبَائِحِ، وَوَسَخِ مَنْ يُبَاشِرُهَا، وَعَمَلِ الْكَامِخِ[١]. وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَأْكُولَاتِ؛ مَا طَابَتْ لَهُ.

وَلَوْ تَفَكَّرَ فِي جَوَلَانِ اللُّقْمَةِ مُخْتَلِطَةً بِالرِّيقِ؛ مَا قَدِرَ عَلَىٰ إِسَاغَتِهَا.

وَالْمَرْءُ لا يَخْلُو مِنْ حَالَيْنِ: إِمَّا أَنْ يُرِيدَ التَّنَعُّمَ بِاللَّذَّاتِ الْمُبَاحَاتِ، أَوْ يُرِيدَ دَفْعَ الْوَقْتِ بِالضَّرُورَاتِ، وَأَيُّهُمَا طَلَبَ؛ فَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَبْحَثَ فِيمَا يَنَالُهُ عَنْ بَاطِنِهِ؛ فَإِنَّهُ لَوْ نَظَرَ إِلَىٰ عَوْرَةِ الزَّوْجَةِ نَبَا عَنْهَا[٢]، وَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «مَا رَأَيْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلا رَآهُ مِنِّي»[٣].

فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَقْتٌ مَعْلُومٌ يَأْمُرُ زَوْجَتَهُ بِالتَّصَنُّعِ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُغْمِضُ عَنِ التَّفْتِيشِ؛ لِيَطِيبَ لَهُ عَيْشُهُ، وَيَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَتَفَقَّدَ مِنْ نَفْسِهَا هَذَا؛ فَلَا تَحْضُرُهُ إِلَّا عَلَىٰ أَحْسَنِ حَالٍ. وَبِمِثْلِ هَذَا يَدُومُ الْعَيْشُ.

فَأَمَّا إِذَا حَصَلَتِ الْبِذْلَةُ[٤]؛ بَانَتْ بِهَا الْعُيُوبُ، فَنَبَتِ النَّفْسُ، وَطَلَبَتِ الاسْتِبْدَالَ، ثُمَّ يَقَعُ فِي الثَّانِيَةِ مِثْلُ مَا يَقَعُ فِي الأُولَىٰ.

---

(١) الْكَامِخُ: الَّذِي يُؤْتَدَمُ بِهِ أَوِ المخَلَّلَات الْمُشَهِّيَة. مُعَرَّبٌ، يُقَالُ لَهُ: الْمُرِّيُّ. وَيُقَالُ: هُوَ الرَّدِيءُ مِنْهُ. وَالْجَمْعُ: كَوَامِخُ.

(٢) نَبَا عَنْهَا؛ أَيْ: بَعُدَ عَنْهَا وَنَفَرَ مِنْهَا وَجَفَاهَا. وَالنُّبُوَّةُ مِنَ النَّبْوِ الجَفْوَةُ وَالتَّبَاعُدُ.

(٣) سَبَقَ تَخْرِيجه وَالتَّعْلِيق عَلَيْهِ فِي الخَاطِرَةِ رَقْم: [٣٠٦ - ٣٧٠].

(٤) الْبِذْلَةُ: وَالْمِبْذَلَةُ: مَا يُمْتَهَنُ مِنَ الثِّيَابِ فِي الخِدْمَةِ وَلَا يُصَان. وَالتَّبَذُّلُ: تَرْكُ التَّصَاوُنِ.

وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَصَنَّعَ لَهَا كَتَصَنُّعِهَا لَهُ؛ لِيَدُومَ الْوُدُّ بِحُسْنِ الِائْتِلَافِ(١).

وَمَتَىٰ لَمْ يَجْرِ الْأَمْرُ عَلَىٰ هَذَا فِي حَقِّ مَنْ لَهُ أَنَفَةٌ مِنْ شَيْءٍ تَنْبُو عَنْهُ النَّفْسُ؛ وَقَعَ فِي أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا الْإِعْرَاضُ عَنْهَا، وَإِمَّا الِاسْتِبْدَالُ بِهَا.

وَيَحْتَاجُ فِي حَالَةِ الْإِعْرَاضِ إِلَىٰ صَبْرٍ عَنْ أَغْرَاضِهِ، وَفِي حَالَةِ الِاسْتِبْدَالِ إِلَىٰ فَضْلِ مُؤْنَةٍ، وَكِلَاهُمَا يُؤْذِي.

وَمَتَىٰ لَمْ يَسْتَعْمِلْ مَا وَصَفْنَا؛ لَمْ يَطِبْ لَهُ عَيْشٌ فِي مُتْعَةٍ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ دَفْعِ الزَّمَانِ كَمَا يَنْبَغِي.

*[٣١٩ - ٣٧٣][خَاطِرَةٌ]:

[الدُّنْيَا لَا تَدُومُ عَلَىٰ حَالٍ]

مَنْ تَلَمَّحَ أَحْوَالَ الدُّنْيَا(٢)؛ عَلِمَ أَنَّ مُرَادَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ اجْتِنَابُهَا.
فَمَنْ مَالَ إِلَىٰ مُبَاحِهَا لِيَلْتَذَّ؛ وَجَدَ مَعَ كُلِّ فَرْحَةٍ تَرْحَةً(٣)، وَإِلَىٰ جَانِبِ كُلِّ رَاحَةٍ تَعَبًا،

---

(١) رَوَىٰ ابن أبي شيبة، كِتَاب «الطلاق»(١٩٦٠٨) عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ قَالَ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ، كَمَا أُحِبُّ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِي الْمَرْأَةُ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَسْتَنْطِفَ حَقِّي عَلَيْهَا؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾». وَرَوَىٰ ابْن حَبِيب فِي «أَدَب النِّسَاء»(ص١٦٧/ الأثر:٤٨) عَنْ أَبِي رَافِعٍ مَوْلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَنَّ اِمْرَأَةً أَتَتْ عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه بِزَوجٍ لَهَا أَشْعَثُ أَغْبَر أَصْفَر، فَقَالَتْ لَهُ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ! لَا أَنَا وَلَا هَذَا خَلِّصْنِي مِنْهُ!». فَنَظَرَ عُمَر إِلَيْهِ فَعَرَفَ مَا كَرِهَتْ مِنْهُ فَأَشَارَ إِلَىٰ رَجُلٍ وَقَالَ: «اِذْهَب بِهِ إِلَىٰ الحَمَّام فَجَمِّمْهُ وَخُذْ مِنْ شَعْرِهِ وَقَلِّم أَظْفَارِه وَأَلْبِسْهُ حُلَّةً مَعَافِرِيَّةً ثُمَّ ائتِنِي بِهِ!». فَذَهَبَ بِهِ الرَّجُل فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِ ثُمَّ أَتَىٰ بِهِ. فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ عُمَر بِيَدِهِ أَنْ خُذْ بِيَدِهَا! فَأَخَذَ بِيَدِهَا فَإِذَا هِيَ لَا تَعْرِفُهُ فَقَالَتْ: «يَا عَبْدَ اللهِ! سُبْحَانَ اللهِ! أَبَيْن يَدَي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْن تَفْعَل مِثْل هَذَا؟». فَلَمَّا عَرَفَتْهُ مَضَت مَعَهُ فَقَالَ عُمَر: «هَكَذَا فَاصْنَعُوْا بِهِنَّ! فَوَاللهِ إِنَّهُنَّ لَيُحِبْنَ أَنْ تَتَزَيَّنُوا لَهُنَّ كَمَا تُحِبُّوْنَ أَنْ يَتَزَيَّنَّ لَكُمْ». وَأَوْرَدَ الإِمَام القُرْطُبِيّ رحمه الله فِي «تفسيره»(٥/ ٥٧/ النِّسَاء:١٩) «عَنْ يَحْيَىٰ بْن عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَنْظَلِيُّ قَالَ: أَتَيْتُ مُحَمَّدَ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ فَخَرَجَ إِلَيَّ فِي مِلْحَفَةٍ حَمْرَاءَ وَلِحْيَتُهُ تَقْطُرُ مِنَ الْغَالِيَةِ -نَوْعٌ مِنَ الطِّيبِ مُرَكَّبٌ مِن مِسْكٍ وَعَنْبَرٍ وَعُودٍ وَدُهْنٍ-، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْمِلْحَفَةَ أَلْقَتْهَا عَلَيَّ امْرَأَتِي وَدَهَنَتْنِي بِالطِّيبِ، وَإِنَّهُنَّ يَشْتَهِيْنَ مِنَّا مَا نَشْتَهِيهِ مِنْهُنَّ».

(٢) تَلَمَّحَ: نَظَرَ مَلِيًّا وَتَفَحَّص. تَقُوْل: «رَحِمَ اللهُ مَنْ تَصَفَّحَ وَتَلَمَّحَ فَتَسَمَّحَ». أَوْ بِمَعْنَىٰ: فَتَّش.

(٣) تَرْحَةٌ: حُزْن أَوْ هَمّ.

وَآخِرَ كُلِّ لَذَّةٍ نَغصًا يَزِيدُ عَلَيْهَا، وَمَا رُفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا؛ إِلَّا وُضِعَ(١).

أَحَبَّ الرَّسُولُ ﷺ عَائِشَةَ ؓ؛ فَجَاءَ حَدِيثُ الإِفْكِ، وَمَالَ إِلَىٰ زَيْنَبَ؛ فَجَاءَ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب:٣٧](٢).

ثُمَّ يَكْفِي أَنَّهُ إِذَا حَصَّلَ مَحْبُوبَهُ؛ فَعَيْنُ الْعَقْلِ تَرَىٰ فِرَاقَهُ، فَيَتَنَغَّصُ عِنْدَهُ وُجُودُهُ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ(٣):

أَشَدُّ الْحُزْنِ عِنْدِي فِي سُرُورٍ ... تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالا

فَيَعْلَمُ الْعَاقِلُ أَنَّ مُرَادَ الْحَقِّ بِهَذَا التَّكْدِيرِ التَّنْفِيرُ عَنِ الدُّنْيَا، فَيَبْقَىٰ أَخْذُ الْبُلْغَةِ مِنْهَا ضَرُورَةً، وَتَرْكُ الشَّوَاغِلِ، فَيَجْتَمِعُ الْهَمُّ فِي خِدْمَةِ الْحَقِّ، وَمَنْ عَدَلَ عَنْ ذَلِكَ؛ نَدِمَ عَلَىٰ الْفَوَاتِ(٤).

---

(١) كَأَنَّهُ ؒ يُشِيرُ إِلَىٰ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِي، كِتَابُ «الجِهَادِ وَالسِّيَرِ» بَابُ «نَاقَةِ النَّبِيِّ ﷺ»(٢٨٧٢). عَنْ أَنَسٍ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «حَقٌّ عَلَىٰ اللهِ أَنْ لا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ»؛ أَيْ: حَطَّهُ وَطَرَحَهُ.

(٢) سَبَقَ تَخْرِيج حَدِيث الإفك في: [٦٣-٢١٥]. وَسَبَقَ في الخاطرة: [١٧٠-٨٢] وَالتَّعْلِيق عَلَىٰ أَنَّهُ لَم يَثْبُتْ مُطلَقًا أَنَّهُ ﷺ رَأَى زَيْنَب بِنْت جَحْش ؓ فَنْتَحسنهَا، فَأَحَبَّهَا فَتَزَوَّجَهَا! إِلَّا فِي حَدِيثٍ مُنْكَر جِدًّا. وَذَكَرنَا قَوْل ابْن القَيِّم ؒ: «وَأَمَّا مَا زَعَمَهُ بَعْضُ مَنْ لَمْ يُقَدِّرْ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَقَّ قَدْرِهِ أَنَّهُ ابْتُلِيَ بِهِ فِي شَأْنِ زَيْنَب بِنْت جَحْش، وَأَنَّهُ رَآهَا؛ وَأَخَذَتْ بِقَلْبِهِ، وَجَعَلَ يَقُولُ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ: أَمْسِكْهَا حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، وَهَذَا مِنْ جَهْلِ هَذَا الْقَائِلِ بِالْقُرْآنِ وَبِالرُّسُلِ، وَتَحْمِيلِهِ كَلَامَ اللهِ مَا لا يَحْتَمِلُهُ، وَنِسْبَتِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَىٰ مَا بَرَّأَهُ اللهُ مِنْهُ».

(٣) البيت من البحر: [الوافر]. وقائله: المُتَنَبِّي في ديوانه، وفيه: أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدِي.

(٤) التَّكْدِيرِ: التَّعْكِير. بِالْهُمُومِ وَالْمَتَاعِب. وَالْبُلْغَةِ: كَفَافٌ مِنَ الْعَيْشِ أَوْ مَا يُتَبَلَّغ بِهِ. وَالشَّوَاغِلِ: مَا يَمْلَأُ الْفِكْرَ وَالْعَقْلَ وَالْقَلْب بِمَا لَا يَنْفَع. وَعَدَلَ: مَالَ وَرَجَعَ وَتَرَكَ. وَالْفَوَاتِ: بُعْدُ الشَّيْء عَنِ الإِنْسَانِ بِحَيْثُ يَتَعَذَّر إِدْرَاكه.

*[٣٢٠ - ٢٩][خَاطِرَةٌ]:

[عَجَائِبُ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]

كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الدُّنْيَا؛ فَهُوَ أُنْمُوذَجٌ فِي الْآخِرَةِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي فِيهَا أُنْمُوذَجُ مَا يَجْرِي فِي الْآخِرَةِ[1].

فَأَمَّا الْمَخْلُوقُ مِنْهَا؛ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْأَسْمَاءَ»[2].

وَهَذَا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ شَوَّقَ بِنَعِيمٍ إِلَىٰ نَعِيمٍ، وَخَوَّفَ بِعَذَابٍ مِنْ عَذَابٍ.

فَأَمَّا مَا يَجْرِي فِي الدُّنْيَا؛ فَكُلُّ ظَالِمٍ مُعَاقَبٌ فِي الْعَاجِلِ عَلَىٰ ظُلْمِهِ قَبْلَ الْآجِلِ، وَكُلُّ مُذْنِبٍ ذَنْبًا، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[النساء:١٢٣].

وَرُبَّمَا رَأَىٰ الْعَاصِي سَلَامَةَ بَدَنِهِ وَمَالِهِ، فَظَنَّ أَنْ لَا عُقُوبَةَ، وَغَفْلَتُهُ عَمَّا عُوقِبَ بِهِ عُقُوبَةٌ.

وَقَدْ قَالَ الْحُكَمَاءُ: «الْمَعْصِيَةُ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ عِقَابُ الْمَعْصِيَةِ، وَالْحَسَنَةُ بَعْدَ الْحَسَنَةِ ثَوَابُ الْحَسَنَةِ»[3].

وَرُبَّمَا كَانَ الْعِقَابُ الْعَاجِلُ مَعْنَوِيًّا؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ أَحْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: «يَا رَبِّ! كَمْ أَعْصِيكَ وَلَا

---

(١) أُنْمُوذَجُ: مَا يُتَّخَذ مِثَالًا يُحتَذَىٰ بِهِ، أَوْ: وَصْف أَوْ قِيَاس يُسْتَعَانُ بِهِ فِي إِيْضَاحِ مَا لَا يُمْكِن مُشَاهَدَته مُبَاشَرَة.

(٢) رواه أبو نعيم في «صفة الجنة»(١/ ١٤٧/ ح١٢٤) واللفظ له. وهَنَّاد بن السَّرِي في «الزهد»(ج١/ ص٤٩،٥١/ ح٣،٨) والبيهقي في «البعث والنشور»(١/ ٢٢/ ح٣٣٢). قَالَ الإِمَامُ الْمُنَاوِيّ رحمه الله: «وَأَمَّا الْمُسَمَّيَات فَبَيْنَهَا مِنَ التَّفَاوُتِ مَا لَا يَعْلَمُهُ الْبَشَر؛ فَمَطَاعِم الْجَنَّة وَمَنَاكِحهَا وَسَائِر أَحْوَالِهَا إِنَّمَا يُشَارِك نَظَائِرهَا الدُّنْيَوِيَّة فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ وَالاعتِبَارَاتِ، وَتُسَمَّىٰ بِأَسْمَائِهَا عَلَىٰ مَنْهَجِ الاسْتِعَارَةِ وَالتَّمْثِيل، وَلا يُشَارِكُهَا فِي تَمَامِ حَقِيقَتِهَا، لا يُقَالُ هَذَا يُنَاقِضُهُ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة:٢٥]؛ لِأَنَّا نَقُولُ: التَّشَابُه بَيْنَهُمَا حَاصِلٌ فِي الصُّورَةِ الَّتِي هِيَ مَنَاط الاسْمِ دُونَ الْقَدْرِ وَالطَّعْم»اهـ [يُنظر: «فَيْض الْقَدِير»(ج٥ص ٤٨٥/ ح ٧٦٣٣)].

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان»(٩/ ٣٨٤/ ح٦٨٢٩) عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ الْمُزَيِّنْ رحمه الله قَالَ: «الذَّنْبُ بَعْدَ الذَّنْبِ عُقُوبَةُ الذَّنْبِ، وَالْحَسَنَةُ بَعْدَ الْحَسَنَةِ ثَوَابُ الْحَسَنَةِ». [يُنظر: «الرِّسَالَةُ الْقُشَيرِيَّة» لِأَبِي الْقَاسِم.(ج١/ ص١٢٥)].

تُعَاقِبُنِي! فَقِيلَ لَهُ: «كَمْ أُعَاقِبُكَ وَأَنْتَ لا تَدْرِي! أَلَيْسَ قَدْ حَرَمْتُكَ حَلاوَةَ مُنَاجَاتِي؟»»[1].

فَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الْجِنْسَ مِنَ الْمُعَاقَبَةِ؛ وَجَدَهُ بِالْمِرْصَادِ، حَتَّىٰ قَالَ وُهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ؛ وَقَدْ سُئِلَ: أَيَجِدُ لَذَّةَ الطَّاعَةِ مَنْ يَعْصِي؟ قَالَ: «وَلا مَنْ هَمَّ»[2].

فَرُبَّ شَخْصٍ أَطْلَقَ بَصَرَهُ، فَحُرِمَ اعْتِبَارَ بَصِيرَتِهِ، أَوْ لِسَانَهُ، فَحُرِمَ صَفَاءَ قَلْبِهِ، أَوْ آثَرَ شُبْهَةً فِي مَطْعَمِهِ، فَأَظْلَمَ سِرُّهُ، وَحُرِمَ قِيَامَ اللَّيْلِ، وَحَلاوَةَ الْمُنَاجَاةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَهَذَا أَمْرٌ يَعْرِفُهُ أَهْلُ مُحَاسَبَةِ النُّفُوسِ.

وَعَلَىٰ ضِدِّهِ يَجِدُ مَنْ يَتَّقِي اللهَ تَعَالَىٰ مِنْ حُسْنِ الْجَزَاءِ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ عَاجِلًا؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: النَّظْرَةُ إِلَىٰ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ الشَّيْطَانِ، مَنْ تَرَكَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي؛ آتَيْتُهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ»[3].

فَهَذِهِ نُبْذَةٌ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ تُنَبِّهُ عَلَىٰ مُغْفِلِهَا.

فَأَمَّا الْمُقَابَلَةُ الصَّرِيحَةُ فِي الظَّاهِرِ؛ فَقَلَّ أَنْ تُحْتَبَسَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «الصُّبْحَةُ

---

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْم فِي «حِلْيَةِ الأَوْلِيَاء»(١٠/ ١٦٨/ ت: عَبْدُ اللهِ بْنُ خُبَيْقٍ)، وَأَبُو العَبَّاسِ المُسْتَغْفِرِيُّ فِي «فَضَائِلِ القُرْآن»(١/ ٣٩٦/ ح ٤٨٤). وَفِيهِمَا: «فَأَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قُلْ لَهُ: كَمْ أُعَاقِبُكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي؟ أَلَمْ أَسْلُبْكَ حَلَاوَةَ مُنَاجَاتِي؟».

(٢) جَاءَ فِي الأَصْلِ وَالمَخْطُوط: [وَهْب بْن الوَرْد]؛ وَلَعَلَّهُ تَصْحِيف، وَالصَّوَاب مَا أَثْبَتْنَاهُ مِن «مُعْجَمِ اِبْنِ الأَعْرَابِيِّ» وَ«الحِلْيَة». وَوُهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ بن أَبِي الوَرْد مَوْلَىٰ بَنِي مَخْزُوم: اسْمُهُ: عَبْدُ الوَهَّابِ؛ فَصُغِّرَ، العَابِدُ. مَاتَ: (١٥٣هـ). وَخَبَرُهُ فِي «مُعْجَمِ اِبْنُ الأَعْرَابِيِّ.(١/ ٣٦٦/ ح٧٠٧)، «الشُّعَب» للبَيْهَقِي.(٩/ ٣٨٥/ ح٦٨٣٣)، «الحِلْيَة» لِأَبِي نُعَيْم.(ج٨/ ص١٤٤/ ت: وُهَيْبُ): أَيَجِدُ طَعْمَ الْعِبَادَةِ مَنْ يَعْصِي اللهَ؟ قَالَ: «لا، وَلا مَنْ هَمَّ بِمَعْصِيَةٍ».

(٣) رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي «الْمُعْجَمْ الْكَبِير»(١٠٣٦٢) عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ. وَرَوَاهُ الْخَرَائِطِيُّ فِي «اعتِلَال الْقُلُوبِ» بَابُ «غَضِّ الْبَصَرِ عَنِ الْمَحَارِمِ»(٢٧٣) عَنْ حُذَيْفَةَ، وَرَوَاهُ الْقُضَاعِيُّ فِي «مُسْنَدِ الشِّهَاب»(١/ ١٩٥،١٩٦/ ح٢٩٣،٢٩٢) عَنْ حُذَيْفَةَ وَابْنِ عُمَرَ، وَرَوَاهُ الحَاكِم فِي «المُسْتَدرَك» كِتَاب «الرِّقَاق»(٧٨٧٥) عَنْ حُذَيْفَةَ. وَقَالَ الحَاكِمُ: صَحِيح الإِسْنَاد، وَرَدَّهُ الذَّهَبِيّ بِقَوْلِهِ: إِسْحَاقُ وَاهٍ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ هُوَ الوَاسِطِيّ ضَعَّفُوهُ. [«السِّلْسِلَة الضَّعِيفَة»(١٠٦٥)].

تَمْنَعُ الرِّزْقَ»[1]، وَ«إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»[2].

وَقَدْ رَوَىٰ الْمُفَسِّرُونَ: أَنَّ كُلَّ شَخْصٍ مِنَ الأَسْبَاطِ جَاءَ بِاثْنَيْ عَشَرَ وَلَدًا، وَجَاءَ يُوسُفُ بِأَحَدَ عَشَرَ بِالْهَمَّةِ[3].

وَمِثْلُ هَذَا إِذَا تَأَمَّلَهُ ذُو بَصِيرَةٍ؛ رَأَىٰ الْجَزَاءَ، وَفَهِمَ؛ كَمَا قَالَ الْفُضَيْلُ: «إِنِّي لأَعْصِي اللهَ ﷻ فَأَعْرِفُ ذَلِكَ فِي خُلُقِ دَابَّتِي وَجَارِيَتِي»[4].

وَعَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيِّ[5]: أَنَّهُ انْقَطَعَ شِسْعُ نَعْلِهِ فِي مُضِيِّهِ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ، فَتَعَوَّقَ لإِصْلَاحِهِ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا انْقَطَعَ؛ لأَنِّي مَا اغْتَسَلْتُ غُسْلَ الْجُمُعَةِ»[6].

وَمِنْ عَجَائِبِ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ:

لَمَّا امْتَدَّتْ أَيْدِي الظُّلْمِ مِنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾[يُوسُفُ:٢٠]؛ امْتَدَّتْ أَكُفُّهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالطَّلَبِ يَقُولُونَ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾[يُوسُفُ:٨٨].

وَلَمَّا صَبَرَ هُوَ يَوْمَ الْهَمَّةِ؛ مَلَكَ الْمَرْأَةَ حَلَالًا[7].

---

(١) الصُّبْحَةُ: النَّوْمُ عِنْدَ الصَّبَاحِ. وَالْحَدِيثُ فِي «مُسْنَد أَحْمَد»(٥٣٠،٥٣٣) إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ جِدًّا.«ضَعِيف الجَامِع»(٣٥٣١)

(٢) رواه أحمد في «المسند»(٢٢٤١٣،٢٢٤٣٨). وابن حبان، كتاب «الرقاق»(٨٧٢) عَنْ ثَوْبَانَ: «إِنَّ الرَّجُلَ».

(٣) سَبَقَ التَّعْلِيقُ عَلَىٰ هَذَا فِي الخَاطِرَةِ رَقَم:[٢٠٣- ٣٥٥].

(٤) ترجمة الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ وَخَبَرُهُ هَذَا في الخاطرة رقم:[١٠٢-١٢].

(٥) جاء في الأصل:[وَعَنْ عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيِّ] وفي هامش الأصل:[في الأحمدية: أَبِي عُثْمَانَ]. وَهُوَ الصَّوَاب. وَتَرجَمَة أَبِي عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيِّ (تُ:٢٩٨هـ) في رقم:[١٧٩-٢٦٥]

(٦) شِسْعُ نَعْلِهِ: سَيْرٌ مِنْ جِلْدٍ يُمْسِكُهَا بِأَصَابِعِ القَدَمِ. وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ القِصَّةَ الإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ فِي «الرِّسَالَةُ القُشَيْرِيَّة». (ج١/ ص١١٠) وَالْعَلَّامَةُ ابْنُ القَيِّمِ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِين»(٢/ ١٧٨/ المنزلة:٥٩ العلم) وَلَكِن عَنْ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّد بْن مُوسَىٰ الْوَاسِطِيِّ الصُّوفِيِّ صَاحِبِ الأَحْوَالِ مِنْ كِبَارِ أَتْبَاعِ (الْجُنَيْد) (تُ:٣٢٠هـ) ﷺ.

(٧) كَأَنَّهُ ﷺ يُشِيرُ إِلَىٰ مَا أَخْرَجَهُ أَبُو الشَّيْخِ الأَصْبَهَانِيّ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: «أَنَّ يُوسُفَ تَزَوَّجَ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ؛ فَوَجَدَهَا بِكْرًا، وَكَانَ زَوْجُهَا عِنِّينًا»«الدُّر المَنْثُور» للسُّيُوطِي.(ج٤/ ص٤٩٣/ يوسف:٥٦)،«فَتْح القَدِير» للشَّوْكَانِي.(ج٣/ ص٥٠/ يوسف:٥٦).«تَفْسِيرِ القُرْطُبِيّ»(ج٩/ يوسف:٥٥) عَنْ وَهْبِ بْن مُنَبِّهٍ. وَاللهُ أَعْلَم بِذَلِكَ.

وَلَمَّا بَغَتْ عَلَيْهِ بِدَعْوَاهَا: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾[يُوسُفُ:٢٥]؛ أَنْطَقَهَا الْحَقُّ بِقَوْلِهَا: ﴿أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ﴾[يُوسُفُ:٥١].

وَلَوْ أَنَّ شَخْصًا تَرَكَ مَعْصِيَةً لِأَجْلِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ لَرَأَىٰ ثَمَرَةَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ إِذَا فَعَلَ طَاعَةً، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِذَا أَمْلَقْتُمْ؛ فَتَاجِرُوا اللهَ بِالصَّدَقَةِ»[1]؛ أَيْ: عَامِلُوهُ لِزِيَادَةِ الْأَرْبَاحِ الْعَاجِلَةِ.

وَلَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ بِمَا يَمْنَعُ مِنْهُ الشَّرْعُ طَلَبًا لِلرَّاحَةِ الْعَاجِلَةِ، فَانْقَلَبَتْ أَحْوَالُهُ إِلَىٰ التَّنَغُّصِ الْعَاجِلِ، وَعُكِسَتْ عَلَيْهِ الْمَقَاصِدُ.

حَكَىٰ بَعْضُ الْمَشَايِخِ أَنَّهُ اشْتَرَىٰ فِي زَمَنِ شَبَابِهِ جَارِيَةً، قَالَ: «فَلَمَّا مَلَكْتُهَا؛ تَاقَتْ نَفْسِي إِلَيْهَا[2]، فَمَا زِلْتُ أَسْأَلُ الْفُقَهَاءَ لَعَلَّ مَخْلُوقًا يُرَخِّصُ لِي»، فَكُلُّهُمْ قَالَ: «لَا يَجُوزُ النَّظَرُ إِلَيْهَا بِشَهْوَةٍ، وَلَا لَمْسُهَا، وَلَا جِمَاعُهَا إِلَّا بَعْدَ حَيْضِهَا». قَالَ: «فَسَأَلْتُهَا؟ فَأَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا اشْتُرِيَتْ وَهِيَ حَائِضٌ»، فَقُلْتُ: «قَرُبَ الْأَمْرُ»، فَسَأَلْتُ الْفُقَهَاءَ؟ فَقَالُوا: «لَا يُعْتَدُّ بِهَذِهِ الْحَيْضَةِ حَتَّىٰ تَحِيضَ فِي مِلْكِهِ»[3]، قَالَ: «فَقُلْتُ لِنَفْسِي وَهِيَ شَدِيدَةُ التَّوَقَانِ لِقُوَّةِ الشَّهْوَةِ، وَتَمَكُّنِ الْقُدْرَةِ، وَقُرْبِ

---

(١) نَسَبَهُ أَبُو مَنْصُورٍ الثَّعَالِبِيّ فِي: «الإِعْجَاز وَالإِيجَاز» «البَاب الثَّالِث» (ص٣٩)؛ لِلصَّحَابِيّ الجَلِيل عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ. وَفِيهِ: «إِذَا أَمْلَقْتُمْ فَتَجِرُوا...». وَالزَّمَخْشَرِيُّ فِي: «رَبِيع الأَبْرَار» (٥/ ٩٠/ ب:٧٨) وَأَمْلَقْتُمْ؛ أَيْ: اِفْتَقَرْتُم.

(٢) تَاقَتْ نَفْسِي إِلَيْهَا؛ أَيْ: اِشْتَاقَت إِلَيْهَا وَنَزَعَت وَطَمِحَت.

(٣) ثبت في «مسند أحمد» (١١٢٢٨)، «سنن أبي داود» (٢١٥٧)، «مستدرك الحاكم» (٢٧٩٠) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي سَبَايَا أَوْطَاسٍ: «لا تُوطَأُ حَامِلٌ حَتَّىٰ تَضَعَ، وَلا غَيْرُ ذَاتِ حَمْلٍ، حَتَّىٰ تَحِيضَ حَيْضَةً» «صحيح الجامع» (٧٤٧٩) قَالَ الصَّنْعَانِيُّ ﷺ: «وَالْحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ السَّابِي اسْتِبْرَاءُ الْمَسْبِيَّةِ إِذَا أَرَادَ وَطْأَهَا بِحَيْضَةٍ إِنْ كَانَتْ غَيْرَ حَامِلٍ لِيَتَحَقَّقَ بَرَاءَةَ رَحِمِهَا، وَبِوَضْعِ الْحَمْلِ إِنْ كَانَتْ حَامِلًا، وَقِيسَ عَلَىٰ غَيْرِ الْمَسْبِيَّةِ الْمُشْتَرَاةُ وَالْمُتَمَلَّكَةُ بِأَيِّ وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ التَّمَلُّكِ بِجَامِعِ ابْتِدَاءِ التَّمَلُّكِ... وَظَاهِرُهُ عُمُومُ الْبِكْرِ وَالثَّيِّبِ، فَالثَّيِّبُ لِمَا ذَكَرَ، وَالْبِكْرُ أَخْذًا بِالْعُمُومِ، وَقِيَاسًا عَلَىٰ الْعِدَّةِ؛ فَإِنَّهَا تَجِبُ عَلَىٰ الصَّغِيرَةِ مَعَ الْعِلْمِ بِبَرَاءَةِ الرَّحِمِ، وَإِلَىٰ هَذَا ذَهَبَ الْأَكْثَرُونَ. وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَىٰ أَنَّ الِاسْتِبْرَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يُعْلَمْ بَرَاءَةُ رَحِمِهَا. وَأَمَّا مَنْ عُلِمَ بَرَاءَةُ رَحِمِهَا، فَلَا اسْتِبْرَاءَ عَلَيْهَا... وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ مَفْهُومُ مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ رُوَيْفِعٍ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَنْكِحْ ثَيِّبًا مِنَ السَّبَايَا حَتَّىٰ تَحِيضَ». قَالَ الْمَازِرِيُّ: الْقَوْلُ الْجَامِعُ فِي ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ أَمَةٍ أُمِنَ عَلَيْهَا الْحَمْلُ فَلَا يَلْزَمُ فِيهَا الِاسْتِبْرَاءُ، وَكُلُّ مَنْ غَلَبَ عَلَىٰ الظَّنِّ كَوْنُهَا حَامِلًا، أَوْ شُكَّ فِي حَمْلِهَا، أَوْ تُرُدِّدَ فِيهِ فَالِاسْتِبْرَاءُ لَازِمٌ فِيهَا وَكُلُّ مَنْ غَلَبَ عَلَىٰ الظَّنِّ بَرَاءَةُ رَحِمِهَا
=

الْمُصَاقَبَةِ[1]: «مَا تَقُولِينَ؟» فَقَالَتْ: «الْإِيمَانُ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ الْجَمْرِ شِئْتَ أَوْ أَبَيْتَ»، فَصَبَرْتُ إِلَىٰ أَنْ حَانَ ذَلِكَ، فَأَثَابَنِي اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ الصَّبْرِ بِنَيْلِ مَا هُوَ أَعْلَىٰ مِنْهَا وَأَرْفَعُ».

*[٣٢١ - ٣٦٧][خَاطِرَةٌ]:

[لَيْسَ فِي الدُّنْيَا لَذَّةٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ]

مَنْ تَأَمَّلَ الدُّنْيَا؛ عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا لَذَّةٌ أَصْلًا؛ فَإِنْ وُجِدَتْ لَذَّةٌ؛ شِيبَتْ بِالنُّغَصِ الَّتِي تَزِيدُ عَلَىٰ اللَّذَّةِ أَضْعَافًا.

فَمِنَ اللَّذَّاتِ النِّسَاءُ: فَرُبَّمَا لَمْ تَثْبُتِ الْمُسْتَحْسَنَةُ، وَرُبَّمَا لَمْ تُحِبَّ الزَّوْجَ؛ فَمَتَىٰ عَلِمَ ذَلِكَ؛ يَعْزِلُ عَنْهَا، وَرُبَّمَا خَانَتْ، وَذَلِكَ الْهَلَاكُ؛ فَإِنْ تَمَّتِ الْمُرَادَاتُ؛ فَذِكْرُ الْفِرَاقِ زَائِدٌ فِي التَّأَلُّمِ عَلَىٰ الِالْتِذَاذِ.

وَمِنَ اللَّذَّاتِ الْوَلَدُ: وَمُقَاسَاةُ الْبِنْتِ إِلَىٰ أَنْ تَتَزَوَّجَ؛ وَمَا تَلْقَىٰ مِنْ زَوْجِهَا، وَخَوْفُ عَارِهَا: مِحَنٌ قَبِيحَةٌ. وَالِابْنُ إِنْ مَرِضَ؛ ذَابَ الْفُؤَادُ، وَإِنْ خَرَجَ عَنْ حَدِّ الصَّلَاحِ؛ زَادَ الْأَسَفُ، وَإِنْ كَانَ عَدُوًّا؛ فَمُرَادُهُ هَلَاكُ الْأَبِ، ثُمَّ إِنْ تَمَّ الْمُرَادُ؛ فَذِكْرُ فِرَاقِهِ يُذِيبُ الْقُلُوبَ.

وَلَوْ أَنَّ فَاسِقًا أَحَبَّ بَعْضَ الْمُرْدَانِ: انْهَتَكَ عِرْضُهُ فِي الدُّنْيَا، وَذَهَبَ دِينُهُ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ تَتَغَيَّرَ حِلْيَتُهُ، فَيَصِيرَ مَبْغُوضًا، مَعَ مَا سَبَقَ مِنَ الْهُتْكَةِ وَالْإِثْمِ. وَكَمْ قَدْ غَلَبَتْ شَهْوَةُ رَجُلٍ وَطِئَ الْجَوَارِيَ السُّودَ، فَجَاءَ الْوَلَدُ أَسْوَدَ؛ فَبَقِيَ عَارًا عَلَيْهِ.

وَمِنْ هَذَا الْجِنْسِ الِالْتِذَاذُ بِالْمَالِ، وَفِي تَحْصِيلِهِ آثَامٌ، وَفِرَاقُهُ حَسْرَةٌ، وَذَهَابُ الْعُمُرِ فِيهِ غَبْنٌ.

وَهَذَا أُنْمُوذَجٌ لِمَا لَمْ يُذْكَرْ!

= لَكِنَّهُ يَجُوزُ حُصُولُهُ.. وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَدِيثَ دَلَّ بِمَفْهُومِهِ عَلَىٰ جَوَازِ الِاسْتِمْتَاعِ قَبْلَ الِاسْتِبْرَاءِ بِدُونِ الْجِمَاعِ» اهـ [يُراجع: «سُبُل السَّلَام» (ك: الرَّجْعَةِ/ ح: ١٠٤٠/ ص: ٤٩٠)].

(١) الْمُصَاقَبَةِ: الْمُوَاجَهَة وَالْمُقَارَبَة. تَقُولُ: صَاقَبَ يُصَاقِب، مُصَاقَبَةً وَصِقَابًا؛ فَهُوَ مُصَاقِب، وَالْمَفْعُول مُصَاقَب.

فَيَنْبَغِي لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ: أَنْ يَأْخُذَ الضَّرُورِيَّ الَّذِي يَمِيلُ إِلَىٰ سَلَامَةِ الدِّينِ وَالْبَدَنِ وَالْعَافِيَةِ، وَيَهْجُرَ الْهَوَىٰ الَّذِي نُغَصُهُ تَتَضَاعَفُ عَلَىٰ لَذَّتِهِ.

وَمَنْ صَبَرَ عَلَىٰ مَا يَكْرَهُ قَصْدَ النَّفْعِ فِي الْعَاقِبَةِ؛ الْتَذَّ أَضْعَافًا؛ كَطَالِبِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُ يَتْعَبُ يَسِيرًا، وَيَنَالُ خَيْرَ الدَّارَيْنِ، مَعَ سَلَامَةِ الْعَاقِبَةِ.

وَلَذَّةُ الْبَطَالَةِ تَعْقُبُ عَدَمَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَيَزِيدُ الْأَسَىٰ عَلَىٰ اللَّذَّةِ أَضْعَافًا.

فَاللهَ اللهَ أَنْ يَغْلِبَكَ هَوَاكَ الْعَاجِلُ، وَمَتَىٰ هَمَّ الْهَوَىٰ بِالتَّوَثُّبِ[1]؛ فَامْنَعْهُ، وَزِنْ عَاجِلَهُ بِآجِلِهِ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩].

---

*[٣٢٢ - ٣٦٥][خَاطِرَةٌ]:

[لا عَيْشَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِعَالِمٍ أَوْ زَاهِدٍ]

لَيْسَ فِي الدُّنْيَا عَيْشٌ إِلَّا لِعَالِمٍ أَوْ زَاهِدٍ.

بَلَىٰ؛ قَدْ يَقَعُ فِي صَفَاءِ حَالِهِمَا كَدَرٌ، وَهُوَ أَنَّ الْعَالِمَ يَشْتَغِلُ بِالْعِلْمِ، أَوْ بِالِانْقِطَاعِ عَنِ الْكَسْبِ، وَقَدْ تَكُونُ لَهُ عَائِلَةٌ؛ فَرُبَّمَا تَعَرَّضَ بِالسُّلْطَانِ؛ فَفَسَدَ حَالُهُ، وَكَذَلِكَ الزَّاهِدُ.

فَيَنْبَغِي لِلْعَالِمِ وَالْعَابِدِ أَنْ يُحَرِّكَا فِي مَعَاشٍ؛ كَنَسْخٍ بِأُجْرَةٍ، أَوْ عَمَلِ الْخُوصِ[2]، أَوْ إِنْ فُتِحَ لَهُ بِشَيْءٍ؛ وَاقْتَنَعَ بِالْيَسِيرِ؛ فَلَا يَسْتَعْبِدُهُ أَحَدٌ؛ كَمَا كَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ لَهُ أُجْرَةٌ لَعَلَّهَا لَا تَبْلُغُ دِينَارًا يَتَقَوَّتُ بِهَا، وَمَتَىٰ لَمْ يَقْنَعْ؛ أَفْسَدَتْ مُخَالَطَةُ السَّلَاطِينِ وَالْعَوَامِّ دِينَهُ.

وَفِي النَّاسِ مَنْ يُرِيدُ التَّوَسُّعَ فِي الْمَطَاعِمِ، وَمِنْهُمْ: مَنْ لَا يُوَافِقُهُ خَشِنُ الْعَيْشِ، وَهَيْهَاتَ أَنْ يَصِحَّ الدِّينُ مَعَ تَحْصِيلِ اللَّذَّاتِ!

---

(١) التَّوَثُّبُ: الْقَفْزُ وَالاسْتِيلَاءُ.

(٢) الْخُوصِ: وَرَقِ النَّخْلِ وَمَا شَابَهَهُ.

وَإِذَا قَنِعَ الْعَالِمُ وَالزَّاهِدُ بِمَا يَكْفِي؛ لَمْ يَتَبَذَّلْ لِلسُّلْطَانِ، وَلَمْ يُسْتَخْدَمْ بِالتَّرَدُّدِ إِلَىٰ بَابِهِ، وَلَمْ يَحْتَجِ الزَّاهِدُ إِلَىٰ تَصَنُّعٍ.

وَالْعَيْشُ اللَّذِيذُ لِلْمُنْقَطِعِ الَّذِي لا يُبَذِّلُ بِهِ، وَلا يُحَمِّلُ مِنَّةً.

*[٣٢٣ - ١٢٨][خَاطِرَةٌ]:

[احذرْ مِنْ فخِّ الدُّنيا]

الدُّنْيَا فَخٌّ، وَالْجَاهِلُ بِأَوَّلِ نَظْرَةٍ يَقَعُ.

فَأَمَّا الْعَاقِلُ الْمُتَّقِي؛ فَهُوَ يُصَابِرُ الْمَجَاعَةَ، وَيَدُورُ حَوْلَ الْحَبِّ[١]، وَالسَّلامَةُ بَعِيدَةٌ؛ فَكَمْ مِنْ صَابِرٍ اجْتَهَدَ سِنِينَ، ثُمَّ فِي آخِرِ الأَمْرِ وَقَعَ!

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ؛ فَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ كَانَ عَلَىٰ سَنَنِ الصَّوَابِ، ثُمَّ زَلَّ عَلَىٰ شَفِيرِ الْقَبْرِ[٢].

*[٣٢٤ - ٣٥٢][خَاطِرَةٌ]:

[عَواقِبُ تَلاعُبِ الدُّنيا بالنَّاسِ]

لَمَّا جَمَعْتُ كِتَابِي الْمُسَمَّىٰ بِـ«الْمُنْتَظِمِ فِي تَارِيخِ الْمُلُوكِ وَالأُمَمِ»[٣]؛ اطَّلَعْتُ عَلَىٰ سِيَرِ الْخَلْقِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالأُدَبَاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَالزُّهَّادِ وَغَيْرِهِمْ؛ فَرَأَيْتُ

---

(١) حَبَّةٌ: الْحَبّ: الَّذِي يُزْرَع. وَكَأَنَّ الإمام رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا قَالَ فِي أَوَّل الكَلَامِ: الدُّنْيَا فَخٌّ...؛ جَعَلَ صَاحِبَ التَّقْوَىٰ عَلَىٰ حَذَرٍ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا؛ كَالَّذِي يَدُوْرُ حَوْلَ الْحَبِّ الَّذِي فِي هَذَا الفخ؛ فَهُوَ يَجْتَهِدُ أَنْ يَنَالَ مَا اِسْتَطَاعَ مِنْ هَذَا الحَبّ دُوْنَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، وَيَسْقُط سُقُوط الطَّائِرِ فِي الْمِصْيَدَةِ؛ فَهُوَ دَائِمُ الْحَذَرِ حَتَّىٰ يَصِل إِلَىٰ دَارِ الأمَان -الْجَنَّة.

(٢) سَنَنِ الصَّوَابِ: طُرق الصَّوَاب. وَشَفِيرِ الْقَبْرِ: حَافَّتِهِ؛ أي: اِقْتِرَاب أَجَلَهُ أَوْ آخِر أَيَّامِ عُمُرِه.

(٣) كِتَاب تَارِيخِي مُهِمّ جِدًّا حَيْثُ اشْتَمَل عَلَىٰ أَزْيَد مِن:(٣٣٧٠) تَرجَمَة، جَمَعَ بَيْنَ الحَوَادِث وَالتَّرَاجِم، بِدَايَة مِنْ بَدْءِ الْخَلِيقَة، اِنْتِهَاءً بِأَحْدَاثِ القَرن السَّادِس الهِجْرِي سَنَة:(٥٧٤هـ). طُبِعَ فِي دَارِ الكُتُب العِلْمِيَّة بَيْرُوت.

الدُّنْيَا قَدْ تَلَاعَبَتْ بِالْأَكْثَرِينَ تَلَاعُبًا أَذْهَبَ أَدْيَانَهُمْ، حَتَّىٰ كَانُوا لا يُؤْمِنُونَ بِالْعِقَابِ.

فَمِنَ الْأُمَرَاءِ مَنْ يَقْتُلُ وَيُصَادِرُ، وَيَقْطَعُ وَيَحْبِسُ بِغَيْرِ حَقٍّ، ثُمَّ يَنْخَرِطُ فِي سِلْكِ الْمَعَاصِي، كَأَنَّ الْأَمْرَ إِلَيْهِ، أَوْ قَدْ جَاءَهُ الْأَمْنُ مِنَ الْعِقَابِ؛ فَرُبَّمَا تَخَايَلَ أَنَّ حِفْظِي الرَّعَايَا يَرُدُّ عَنِّي، وَيَنْسَىٰ أَنَّهُ قَدْ قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾[الأنعام:١٥].

وَقَدِ انْخَرَطَ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ يَتَّسِمُ بِالْعِلْمِ فِي سِلْكِ الْمَعَاصِي لِتَحْصِيلِ أَغْرَاضِهِمُ الْعَاجِلَةِ؛ فَمَا نَفَعَهُمُ الْعِلْمُ؟!، وَرَأَيْنَا خَلْقًا مِنَ الْمُتَزَهِّدِينَ لِنَيْلِ أَغْرَاضِهِمْ![1].

وَهَذَا؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا فَخٌّ، وَالنَّاسُ كَعَصَافِيرَ، وَالْعُصْفُورُ يُرِيدُ الْحَبَّةَ، وَيَنْسَىٰ الْخَنْقَ.

قَدْ نَسِيَ أَكْثَرُ الْخَلْقِ مَآلَهُمْ، مَيْلًا إِلَىٰ عَاجِلِ لَذَّاتِهِمْ، فَأَقْبَلُوا يُسَامِرُونَ الْهَوَىٰ، وَلا يَلْتَفِتُونَ إِلَىٰ مُشَاوَرَةِ الْعَقْلِ. . . فَلَقَدْ بَاعُوا بِلَذَّةٍ يَسِيرَةٍ خَيْرًا كَثِيرًا، وَاسْتَبْدَلُوا بِشَهَوَاتٍ مَرْذُولَةٍ عَذَابًا عَظِيمًا. . . فَإِذَا نَزَلَ بِأَحَدِهِمُ الْمَوْتُ؛ قَالَ: لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ! لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا! فَيُقَالُ لَهُ: آلْآنَ؟!.

فَوَا أَسَفًا؛ لِفَائِتٍ لَا يُمْكِنُ اسْتِدْرَاكُهُ، وَلِمُرْتَهَنٍ لَا يَصِحُّ فِكَاكُهُ، وَلِنَدَمٍ لَا يَنْقَطِعُ زَمَانُهُ، وَلِمُعَذَّبٍ عَزَّ عَلَيْهِ إِيمَانُهُ.

بِاللهِ؛ مَا نَفَعَتِ الْعُقُولُ إِلَّا لِمَنْ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، وَيُعَوِّلُ عَلَيْهَا، وَلا يُمْكِنُ قَبُولَ مُشَاوِرِهَا إِلَّا بِعَزِيمَةِ الصَّبْرِ عَمَّا يَشْتَهِي.

فَتَأَمَّلْ فِي الْأُمَرَاءِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، وَابْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رضي الله عنهما.

وَفِي الْعُلَمَاءِ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ. وَفِي الزُّهَّادِ أُوَيْسًا الْقَرَنِيَّ[2].

---

(١) يَعْنِي: وَرَأَيْنَا خَلْقًا مِنَ الْمُتَزَهِّدِينَ انْخَرَطُوا فِي سِلْكِ الْمَعَاصِي وَخَالَفُوا؛ لِنَيْلِ أَغْرَاضِهِمْ أَيْضًا.

(٢) ترجمة عُمَر بْن الْخَطَّابِ في:[٦٥-٥١]، وَعُمَر بْن عَبْد الْعَزِيزِ في:[١١٨-٣٣٨]. وَأَحْمَد بْن حَنْبَلٍ في:[٢٤-١٧٩]. وَأَمَّا أُوَيْسًا الْقَرَنِيّ: أُوَيْسُ بنُ عَامِرِ بنِ جَزْءِ بنِ مَالِكٍ الْقَرَنِيُّ، أَبُو عَمْرٍو، سَيِّدُ التَّابِعِينَ فِي زَمَانِهِ. قُتِلَ سَنَةَ:(٣٧هـ).

لَقَدْ أَعْطَوُا الْجِدَّ حَقَّهُ، وَفَهِمُوا مَقْصُودَ الْوُجُودِ.

وَمَا هَلَكَ الْهَالِكُونَ إِلَّا لِقِلَّةِ الصَّبْرِ عَنِ الْمُشْتَهَىٰ، وَرُبَّمَا كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ وَالْعِقَابِ.

وَلَيْسَ الْعَجَبُ مِنْ ذَاكَ؛ إِنَّمَا الْعَجَبُ مِنْ مُؤْمِنٍ يُوقِنُ، وَلا يَنْفَعُهُ يَقِينُهُ! وَيَعْقِلُ الْعَوَاقِبَ، وَلا يَنْفَعُهُ عَقْلُهُ!

*[٣٢٥ - ٢][خَاطِرَةٌ]:

[جَوَاذِبُ الطَّبْعِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]

جَوَاذِبُ الطَّبْعِ إِلَىٰ الدُّنْيَا كَثِيرَةٌ، ثُمَّ هِيَ مِنْ دَاخِلٍ، وَذِكْرُ الْآخِرَةِ أَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ الطَّبْعِ، ثُمَّ هِيَ مِنْ خَارِجٍ[١].

وَرُبَّمَا ظَنَّ مَنْ لا عِلْمَ لَهُ أَنَّ جَوَاذِبَ الْآخِرَةِ أَقْوَىٰ؛ لِمَا يَسْمَعُ مِنَ الْوَعِيدِ فِي الْقُرْآنِ.

وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ مَثَلَ الطَّبْعِ فِي مَيْلِهِ إِلَىٰ الدُّنْيَا كَالْمَاءِ الْجَارِي؛ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ الْهُبُوطَ؛ وَإِنَّمَا رَفْعُهُ إِلَىٰ فَوْقَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ التَّكَلُّفِ.

وَلِهَذَا أَجَابَ مُعَاوِنُ الشَّرْعِ: بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ يَقْوَىٰ جُنْدُ الْعَقْلِ.

فَأَمَّا الطَّبْعُ؛ فَجَوَاذِبُهُ كَثِيرَةٌ، وَلَيْسَ الْعَجَبُ أَنْ يَغْلِبَ، إِنَّمَا الْعَجَبُ أَنْ يُغْلَبَ.

*[٣٢٦ - ٤][خَاطِرَةٌ]:

[مَتَاعُ الدُّنْيَا غُرُورٌ]

مَنْ تَفَكَّرَ فِي عَوَاقِبِ الدُّنْيَا؛ أَخَذَ الْحَذَرَ.

وَمَنْ أَيْقَنَ بِطُولِ الطَّرِيقِ؛ تَأَهَّبَ لِلسَّفَرِ.

(١) جاء في هامش الأصل: [كذا في النسختين ولعله: ثم هو].

مَا أَعْجَبَ أَمْرَكَ يَا مَنْ يُوقِنُ بِأَمْرٍ ثُمَّ يَنْسَاهُ، وَيَتَحَقَّقُ ضَرَرَ حَالٍ ثُمَّ يَغْشَاهُ، وَتَخْشَىٰ النَّاسَ، وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ!

تَغْلِبُكَ نَفْسُكَ عَلَىٰ مَا تَظُنُّ، وَلا تَغْلِبُهَا عَلَىٰ مَا تَسْتَيْقِنُ!

أَعْجَبُ الْعَجَائِبِ: سُرُورُكَ بِغُرُورِكَ، وَسَهْوُكَ فِي لَهْوِكَ عَمَّا قَدْ خُبِّئَ لَكَ! تَغْتَرُّ بِصِحَّتِكَ، وَتَنْسَىٰ دُنُوَّ السَّقَمِ، وَتَفْرَحُ بِعَافِيَتِكَ غَافِلًا عَنْ قُرْبِ الأَلَمِ! لَقَدْ أَرَاكَ مَصْرَعُ غَيْرِكَ، مَصْرَعَكَ، وَأَبْدَىٰ مَضْجَعُ سِوَاكَ قَبْلَ الْمَمَاتِ مَضْجَعَكَ، وَقَدْ شَغَلَكَ نَيْلُ لَذَّاتِكَ عَنْ ذِكْرِ خَرَابِ ذَاتِكَ.

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِأَخْبَارِ مَنْ مَضَىٰ وَلَمْ تَرَ فِي الْبَاقِينَ مَا يَصْنَعُ الدَّهْرُ
فَإِنْ كُنْتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ دِيَارُهُمْ مَحَاهَا مَجَالُ الرِّيحِ بَعْدَكَ والْقَبْرُ[(١)]

كَمْ رَأَيْتُ صَاحِبَ مَنْزِلٍ مَا نَزَلَ لَحْدَهُ، حَتَّىٰ نَزَلَ[(٢)]! وَكَمْ شَاهَدْتُ وَالِيَ قَصْرٍ، وَلِيَهُ عَدُوُّهُ لَمَّا عُزِلَ!

فَيَا مَنْ كُلَّ لَحْظَةٍ إِلَىٰ هَذَا يَسْرِي، وَفِعْلُهُ فِعْلُ مَنْ لَا يَفْهَمُ وَلَا يَدْرِي!

وَكَيْفَ تَنَامُ الْعَيْنُ وَهْيَ قَرِيرَةٌ وَلَمْ تَدْرِ مِنْ أَيِّ الْمَحَلَّيْنِ تَنْزِلُ[(٣)]؟!

*[٣٢٧ - ٣٤٧][خَاطِرَةٌ]:

[كَيفَ تَتَمَتَّعُ فِي الدُّنْيَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً؟]

مَنْ سَار مَعَ الْعَقْلِ، وَخَالَفَ طَرِيقَ الْهَوَىٰ، وَنَظَرَ إِلَىٰ الْعَوَاقِبِ؛ أَمْكَنَهُ أَنْ يَتَمَتَّعَ مِنَ الدُّنْيَا أَضْعَافَ مَا تَمَتَّعَ مَنِ اسْتَعْمَلَ الشَّهَوَاتِ.

(١) البيتان من البحر: [الطويل]
(٢) اللَّحْدُ: الشَّقُّ فِي جَانِبِ الْقَبْرِ. وَالْمَعْنَىٰ: نَزَلَ فِي قَبْرِهِ حَتَّىٰ تَرَكَ أَهْلَهُ وَأَصْحَابَهُ وَمَالَهُ وَكُلَّ مَا يَمْلُك.
(٣) البيت من البحر: [الطويل]

فَأَمَّا الْمُسْتَعْجِلُ فَيُفَوِّتُ نَفْسَهُ حَظَّ الدُّنْيَا وَالذِّكْرِ الْجَمِيلِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِفَوَاتِ مُرَادِهِ مِنَ اللَّذَّاتِ.

وَبَيَانُ هَذَا مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: إِنْ مَالَ إِلَىٰ شَهَوَاتِ النِّكَاحِ وَأَكْثَرَ مِنْهَا؛ قَلَّ الْتِذَاذُهُ، وَفَنِيَتْ حَرَارَتُهُ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي عَدَمِ مَطْلُوبِهِ مِنْهَا! وَمَنِ اسْتَعْمَلَ ذَلِكَ بِمِقْدَارِ مَا يُجِيزُهُ الْعَقْلُ وَيَحْتَمِلُهُ؛ كَانَ الْتِذَاذُهُ أَكْثَرَ؛ لِبُعْدِ مَا بَيْنَ الْجِمَاعَيْنِ، وَأَمْكَنَهُ التَّرَدُّدُ لِبَقَاءِ الْحَرَارَةِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ غَشَّ فِي مُعَامَلَتِهِ أَوْ خَانَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُعَامَلُ، فَيَفُوتُهُ رِبْحُ الْمُعَامَلَةِ الدَّائِمَةِ لِخِيَانَتِهِ مَرَّةً، وَلَوْ عُرِفَ بِالثِّقَةِ؛ دَامَتْ مُعَامَلَةُ النَّاسِ لَهُ، فَزَادَ رِبْحُهُ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ مَنِ اتَّقَىٰ اللهَ، وَتَشَاغَلَ بِالْعِلْمِ أَوْ تَحْقِيقِ الزُّهْدِ؛ فُتِحَ لَهُ مِنَ الْمُبَاحَاتِ مَا يَلْتَذُّ بِهِ كَثِيرًا، وَمَنْ تَقَاعَدَ بِهِ الْكَسَلُ عَنِ الْعِلْمِ أَوِ الْهَوَىٰ عَنْ تَحْقِيقِ الزُّهْدِ؛ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ إِلَّا الْيَسِيرُ مِنْ مُرَادِهِ؛ قَالَ ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦].

---

*[٣٢٨ - ٢٧٤][خَاطِرَةٌ]:

[مَتَى تَكَامَلَ الْعَقْلُ فُقِدَتْ لَذَّةُ الدُّنْيَا]

مَتَىٰ تَكَامَلَ الْعَقْلُ؛ فُقِدَتْ لَذَّةُ الدُّنْيَا، فَتَضَاءَلَ الْجِسْمُ، وَقَوِيَ السُّقْمُ، وَاشْتَدَّ الْحُزْنُ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ كُلَّمَا تَلَمَّحَ الْعَوَاقِبَ؛ أَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا، وَالْتَفَتَ إِلَىٰ مَا تَلَمَّحَ، وَلَا لَذَّةَ عِنْدَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَاجِلِ.

وَإِنَّمَا يَلْتَذُّ أَهْلُ الْغَفْلَةِ عَنِ الْآخِرَةِ، وَلَا غَفْلَةَ لِكَامِلِ الْعَقْلِ؛ وَلِهَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ مُخَالَطَةِ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّهُمْ كَأَنَّهُمْ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ(١):

---

(١) البيت من البحر:[البسيط]. وَقَائِله: عُمَر السَّهْرُورِدِي. سَبَقَ في الخاطرة:[١٦٩-٢٦٢]. وَفِيهَا:«مَا فِي الصِّحَابِ» بَدَل قَوْله:«مَا فِي الدِّيَارِ» وَ«وَلَا صَبٌّ نُجَارِيهِ» بَدَل قَوْله:«وَلَا خِلٌّ نُجَارِيهِ» وَجْد: الْحُبّ الشَّدِيد. نُطَارِحُهُ: نُبَادِله. صَبٌّ: عَاشِقٌ. خِلٌّ: صَدِيقٌ وَفِيٌّ أَوْ مُفَضَّل. نُجَارِيهِ: نُوَافِقه وَنَتَّفِق مَعَهُ.

مَـا فِـي الـدِّيَارِ أَخُـوْ وَجْـدٍ نُطَارِحُـهُ   حَـدِيثَ نَجْـدٍ وَلا خِـلٌّ نُجَارِيـهِ

----

*[٣٢٩ - ٣٣٥][خَاطِرَةٌ]:

[صَلاحُ الدُّنيا بِصَلاحِ الظَّاهِرِ والباطِنِ]

مَا رَأَيْتُ أَظْرَفَ مِنْ لَعِبِ الدُّنْيَا بِالْعُقُولِ.

وَقَدْ سَمِعْنَا وَرَأَيْنَا جَمَاعَةً مِنَ الْفُطَنَاءِ الْكَامِلِي الْعَقْلِ، لَعِبَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا، حَتَّىٰ صَارُوْا كَالْمَجَانِينَ، فَوَلُّوا الْوَلَايَاتِ، فَخَرَجُوْا إِلَىٰ الْقَتْلِ وَالضَّرْبِ، وَالْحَبْسِ وَالشَّتْمِ، وَذَهَابِ الدِّينِ، وَالْمُبَاشَرَةِ لِلظُّلْمِ، كُلُّهُ؛ لِأَجْلِ دُنْيَا تَذْهَبُ سَرِيعًا، وَهِيَ فِي مُدَّةِ إِقَامَتِهَا مَعْجُونَةٌ بِالنُّغَصِ.

فَيَا أَيُّهَا الْمَرْزُوْقُ عَقْلًا! لَا تَبْخَسْهُ حَقَّهُ، وَلا تُطْفِئْ نُوْرَهُ، وَاسْمَعْ مَا نُشِيرُ بِهِ، وَلا تَلْتَفِتْ إِلَىٰ بُكَاءِ طِفْلِ الطَّبْعِ لِفَوَاتِ غَرَضِهِ؛ فَإِنَّكَ إِنْ رَحِمْتَ بُكَاءَهُ؛ لَمْ تَقْدِرْ عَلَىٰ فِطَامِهِ، وَلَمْ يُمْكِنْكَ تَأْدِيبُهُ، فَيَبْلُغَ جَاهِلًا فَقِيرًا:

لا تَنْسَـهُ عَـنْ أَدَبِ الصَّغِيـ   ـرِ وَلَـوْ شَـكَا أَلَـمَ التَّعَـبْ

وَدَعِ الْكَبِيـرَ لِشَـأْنِهِ   كَبُـرَ الْكَبِيـرُ عَـنِ الأَدَبْ[١]

وَاعْلَمْ أَنَّ زَمَانَ الِابْتِلاءِ ضَيْفٌ، قِرَاهُ الصَّبْرُ[٢].

كَمَا قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ:«إِنَّمَا هُوَ طَعَامٌ دُونَ طَعَامٍ، وَلِبَاسٌ دُونَ لِبَاسٍ، وَإِنَّمَا أَيَّامٌ قَلَائِلُ»[٣].

فَلَا تَنْظُرْ إِلَىٰ لَذَّةِ الْمُتْرَفِينَ، وَتَلَمَّحْ عَوَاقِبَهُمْ.

---

(١) البيتان من البحر:[مجزوء الكامل].

(٢) القِرَىٰ: مَا يُقَدَّمُ إِلَىٰ الضَّيْفِ مِنْ طَعَامٍ.

(٣) ترجمة أَحْمَد بْن حَنْبَلٍ في:[٢٤-١٧٩]. وَخَبَرُهُ هَذَا فِي «سير أعلام النبلاء»(ت: أَحْمَد بْن حَنْبَلٍ).

وَلا تَضِقْ صَدْرًا بِضِيقِ الْمَعَاشِ، وَعَلِّلِ النَّاقَةَ بِالْحَدْوِ تَسِرْ[١].

طَاوِلْ بِهَا اللَّيْلَ مَالَ النَّجْمُ أَمْ جَنَحَا ... وَمَاطِلِ النَّوْمَ ضَنَّ الْجَفْنُ أَمْ سَمَحَا

فَإِنْ تَشَكَّتْ فَعَلِّلْهَا الْمَجَرَّةَ مِنْ ... ضَوْءِ الصَّبَاحِ، وَعِدْهَا بِالرَّوَاحِ ضُحَىٰ

وَقَدْ كَانَ أُهْدِيَ إِلَىٰ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ هَدِيَّةٌ فَرَدَّهَا. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ سَنَةٍ لِأَوْلَادِهِ: «لَوْ كُنَّا قَبِلْنَاهَا؛ كَانَتْ قَدْ ذَهَبَتْ»[٢].

وَمَرَّ بِشْرٌ عَلَىٰ بِئْرٍ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: أَنَا عَطْشَانُ. فَقَالَ: الْبِئْرُ الْأُخْرَىٰ؛ فَمَرَّ عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ: الْأُخْرَىٰ، ثُمَّ قَالَ: «كَذَا تُقْطَعُ الدُّنْيَا»[٣].

وَدَخَلُوا إِلَىٰ بِشْرٍ الْحَافِي، وَلَيْسَ فِي دَارِهِ حَصِيرٌ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَا بِذَا تُؤْذَىٰ؟ فَقَالَ: «هَذَا أَمْرٌ يَنْقَضِي».

وَكَانَ لِدَاوُدَ الطَّائِيِّ دَارٌ يَأْوِي إِلَيْهَا، فَوَقَعَ سَقْفٌ، فَانْتَقَلَ إِلَىٰ سَقْفٍ، إِلَىٰ أَنْ مَاتَ فِي الدِّهْلِيزِ[٤].

فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَظَرُوا فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ.

وَبَعْدَ هَذَا؛ فَلَا أُطَالِبُكَ بِهَذِهِ الرُّتْبَةِ، بَلْ أَقُولُ لَكَ:

إِنْ حَصَلَ لَكَ شَيْءٌ مِنَ الْمُبَاحِ، لَا مَنٌّ فِيهِ وَلَا أَذًىٰ، وَلَا نِلْتَهُ بِسُؤَالٍ، وَلَا مِنْ يَدِ ظَالِمٍ، تَعْلَمُ أَنَّ مَالَهُ حَرَامٌ، أَوْ فِيهِ شُبْهَةٌ؛ فَافْسَحْ لِنَفْسِكَ فِي مُبَاحَاتِهَا بِمِقْدَارِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَكُنْ مُقَدِّرًا لِلنَّفَقَةِ غَيْرَ مُبَذِّرٍ؛ فَإِنَّ الْحَلَالَ لَا يَحْتَمِلُ السَّرَفَ، وَمَتَىٰ أَسْرَفْتَ؛ احْتَجْتَ إِلَىٰ التَّعَرُّضِ لِلْخَلْقِ، وَالتَّنَاوُلِ مِنَ الْأَكْدَارِ.

---

(١) عَلِّلِ النَّاقَةَ بِالْحَدْوِ: أَلْهِهَا وَصَبِّرْهَا وَاشْغَلْهَا بِالْغِنَاءِ لِيَحُثَّهَا عَلَىٰ السَّيْرِ. والبيتان من البحر: [البسيط]. وَمَاطِلِ النَّوْمَ: أَجِّلْ مَوْعِدَهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَىٰ. وَضَنَّ الْجَفْنُ: بَخِلَ. وَفَعَلِّلْهَا الْمَجَرَّةَ: أَلْهِهَا وَاشْغَلْهَا بِضَوْءِ النُّجُومِ، كَأَنَّهُ الصَّبَاحُ حَتَّىٰ تَنْشَطَ فِي سَعْيِهَا.

(٢) يُرَاجَع: «السير» لِلذَّهَبِي. (ت: أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ) فَفِيهَا أَخْبَار كَثِيرَة مِثْل الَّذِي ذَكَرَه الإِمَام ابْن الجَوْزِيّ.

(٣) تقدم الخبر في الخاطرة رقم: [١٠٦-٥٩].

(٤) الدِّهْلِيز: مَدْخَل أَوْ مَمَرّ بَيْنَ البَابِ وَالدَّار. وَتَرْجَمَة بِشْرٍ الْحَافِي في: [٢٤-١٧٩]. وَدَاوُد الطَّائِيّ في: [١٢٩-٣٦٢].

وَإِنْ ضَاقَ بِكَ أَمْرٌ؛ فَاصْبِرْ؛ فَإِنْ ضَعُفَ الصَّبْرُ؛ فَسَلْ فَاتِحَ الْأَبْوَابِ؛ فَهُوَ الْكَرِيمُ، وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَبْذُلَ دِينَكَ بِتَصَنُّعٍ لِلْخَلْقِ، أَوْ بِتَقَرُّبٍ إِلَىٰ الْأُمَرَاءِ، وَتَسْتَعْطِي أَمْوَالَهُمْ، وَاذْكُرْ طَرِيقَ السَّلَفِ.

كَانَ ابْنُ سَمْعُونَ[1] لَهُ ثِيَابٌ يَجْلِسُ فِيهَا لِلنَّاسِ، ثُمَّ يَطْوِيهَا إِلَىٰ الْمَجْلِسِ الْآخَرِ، وَرِثَهَا عَنْ أَبِيهِ، وَبَقِيَتْ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

وَكَانَتْ مَيْمُونَةُ بِنْتُ شَاقُولَةَ[2] تَعِظُ النَّاسَ، وَلَهَا ثِيَابٌ قَدْ بَقِيَتْ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

وَمَنْ صَفَا نَظَرُهُ، وَتَهَذَّبَ لَفْظُهُ؛ نَفَعَ وَعْظُهُ، وَمَنْ كَدَّرَ؛ كُدِّرَ عَلَيْهِ.

وَالْحَالَةُ الْعَالِيَةُ فِي هَذَا: إِقْبَالُ الْقَلْبِ عَلَىٰ اللهِ ﷻ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهِ، وَالْتِفَاتُ الْقَلْبِ عَنِ الْخَلْقِ؛ فَإِنِ احْتَجْتَ؛ فَاسْأَلْهُ، وَإِنْ ضَعُفْتَ؛ فَارْغَبْ إِلَيْهِ.

وَمَتَىٰ سَاكَنْتَ الْأَسْبَابَ؛ انْقَطَعْتَ عَنْهُ، وَمَتَىٰ اسْتَقَامَ بَاطِنُكَ؛ اسْتَقَامَتْ لَكَ الْأُمُورُ.

*[٣٣٠ - ١٦][خَاطِرَةٌ]:

[حظوظ الفضلاء من الدنيا]

تَأَمَّلْتُ أَحْوَالَ الْفُضَلَاءِ، فَوَجَدْتُهُمْ فِي الْأَغْلَبِ قَدْ بُخِسُوا مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ الدُّنْيَا غَالِبًا فِي أَيْدِي أَهْلِ النَّقَائِصِ.

فَنَظَرْتُ فِي الْفُضَلَاءِ؛ فَإِذَا هُمْ يَتَأَسَّفُونَ عَلَىٰ مَا فَاتَهُمْ مِمَّا نَالَهُ أُولُو النَّقْصِ، وَرُبَّمَا تَقَطَّعَ بَعْضُهُمْ أَسَفًا عَلَىٰ ذَلِكَ.

(١) ترجمة ابْنُ سَمْعُونَ في:[١٨٩ - ٨٦]. وجاء في حاشية الأصل:[وفي نسخة: ابن مسعود].

(٢) مَيْمُونَةُ بِنْتُ شَاقُولَةَ الْبَغْدَادِيَّةُ الْوَاعِظَةُ الَّتِي هِيَ لِلْقُرْآنِ حَافِظَةٌ، وَخَبَرُهَا فِي «البداية والنهاية» لابن كثير. (سنة:٣٩٣هـ) وَفِيهِ: «ذَكَرَتْ يَوْمًا فِي وَعْظِهَا أَنَّ ثَوْبَهَا الَّذِي عَلَيْهَا - وَأَشَارَتْ إِلَيْهِ - لَهُ فِي صُحْبَتِهَا تَلْبَسُهُ مُنْذُ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَمَا تَغَيَّرَ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ غَزْلِ أُمِّهَا، قَالَتْ: وَالثَّوْبُ إِذَا لَمْ يُعْصَ اللهُ فِيهِ، لَا يَتَخَرَّقُ سَرِيعًا»اهـ.

فَخَاطَبْتُ بَعْضَ الْمُتَأَسِّفِينَ، فَقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ! تَدَبَّرْ أَمْرَكَ؛ فَإِنَّكَ غَالِطٌ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ إِنْ كَانَتْ لَكَ هِمَّةٌ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا؛ فَاجْتَهِدْ فِي طَلَبِهَا، تَرْبَحِ التَّأَسُّفَ عَلَىٰ فَوْتِهَا؛ فَإِنَّ قُعُودَكَ مُتَأَسِّفًا عَلَىٰ مَا نَالَهُ غَيْرُكَ - مَعَ قُصُورِ اجْتِهَادِكَ - غَايَةُ الْعَجْزِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الدُّنْيَا إِنَّمَا تُرَادُ لِتُعْبَرَ لا لِتُعْمَرَ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَدُلُّكَ عَلَيْهِ عِلْمُكَ، وَيَبْلُغُهُ فَهْمُكَ، وَمَا يَنَالُهُ أَهْلُ النَّقْصِ مِنْ فُضُولِهَا يُؤْذِي أَبْدَانَهُمْ وَأَدْيَانَهُمْ. فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَأَسَّفْتَ عَلَىٰ فَقْدِ مَا فَقْدُهُ أَصْلَحُ لَكَ؛ كَانَ تَأَسُّفُكَ عُقُوبَةً لِتَأَسُّفِكَ عَلَىٰ مَا تَعْلَمُ الْمَصْلَحَةَ فِي بُعْدِهِ؛ فَاقْنَعْ بِذَلِكَ عَذَابًا عَاجِلًا إِنْ سَلِمْتَ مِنَ الْعَذَابِ الْآجِلِ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ بَخْسَ حَظِّ الآدَمِيِّ فِي الْجُمْلَةِ مِنْ مَطَاعِمِ الدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا، بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ الْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ؛ لِأَنَّهُ[1] يَنَالُ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِقْدَارًا مَعَ أَمْنٍ، وَأَنْتَ تَنَالُهُ مَعَ خَوْفٍ، وَقِلَّةِ مِقْدَارٍ؛ فَإِذَا ضُوعِفَ حَظُّكَ مِنْ ذَلِكَ لِجِنْسِكَ؛ كَانَ ذَلِكَ لَاحِقًا بِالْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ؛ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ يَشْغَلُهُ ذَلِكَ عَنْ تَحْصِيلِ الْفَضَائِلِ، وَتَخْفِيفُ الْمُؤَنِ يَحُثُّ صَاحِبَهُ عَلَىٰ نَيْلِ الْمَرَاتِبِ.

فَإِذَا آثَرْتَ مَعَ قِلَّةِ الْفُضُولِ الْفُضُولَ، عُدْتَ عَلَىٰ مَا عَلِمْتَ بِالإِزْرَاءِ، فَشِنْتَ عِلْمَكَ، وَدَلَّلْتَ عَلَىٰ اخْتِلاطِ رَأْيِكَ[2].

*[٣٣١ - ٢١٧][خَاطِرَةٌ]:

[حَتَّى يَنْتَظِمَ أَمْرُ الدُّنْيَا وَأَمْرُ الآخِرَةِ]

سُبْحَانَ مَنْ شَغَلَ كُلَّ شَخْصٍ بِفَنٍّ لِتَنَامَ الْعُيُونُ فِي الدُّنْيَا.

فَأَمَّا فِي الْعُلُومِ؛ فَحُبِّبَ إِلَىٰ هَذَا الْقُرْآنُ، وَإِلَىٰ هَذَا الْحَدِيثُ، وَإِلَىٰ هَذَا النَّحْوُ . . . إِذْ لَوْلَا

(١) جاء في حاشية الأصل:[في الأحمدية: لأنه لا ينال ... إلخ].

(٢) يَعْنِي: فَإِذَا فَضَّلْتَ وَاخْتَرْتَ طَلَبَ الاسْتِزَادَةِ فِي الْمَكَاسِبِ وَحُظُوظِ الدُّنْيَا، مَعَ عِلْمِكَ أَنَّ هَذِهِ الزِّيَادَةَ لَا فَائِدَةَ فِيهَا، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا حَقِيرَةٌ؛ فَقَد شَوَّهْتَ عِلْمَكَ - شَانَ يَشِينُ، شِنْ - وَأَقَمْتَ وَأَثْبَتَّ بِالدَّلِيلِ عَلَىٰ فَسَادِ رَأْيِكَ.

ذَلِكَ؛ مَا حُفِظَتِ الْعُلُومُ.

وَأُلْهِمَ هَذَا الْمُتَعَيِّشُ أَنْ يَكُونَ خَبَّازًا، وَهَذَا أَنْ يَكُونَ هَرَّاسًا، وَهَذَا أَنْ يَنْقُلَ الشَّوْكَ مِنَ الصَّحْرَاءِ، وَهَذَا أَنْ يُنَقِّيَ الْبِثَارَ . . . لِيَلْتَئِمَ أَمْرُ الْخَلْقِ(١).

وَلَوْ أُلْهِمَ أَكْثَرُ النَّاسِ أَنْ يَكُونُوا خَبَّازِينَ مَثَلًا؛ بَاتَ الْخُبْزُ وَهَلَكَ! أَوْ هَرَّاسِينَ؛ جَفَّتِ الْهَرَايِسُ! بَلْ يُلْهَمُ هَذَا وَذَاكَ بِقَدَرٍ؛ لِيَنْتَظِمَ أَمْرُ الدُّنْيَا وَأَمْرُ الآخِرَةِ.

وَيَنْدُرُ مِنَ الْخَلْقِ مَنْ يُلْهِمُهُ الْكَمَالَ، وَطَلَبَ الأَفْضَلِ، وَالْجَمْعَ بَيْنَ الْعُلُومِ وَالأَعْمَالِ، وَمُعَامَلاتِ الْقُلُوبِ. . . وَتَتَفَاوَتُ أَرْبَابُ هَذِهِ الْحَالِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ.

نَسْأَلُهُ الْعَفْوَ إِنْ لَمْ يَقَعِ الرِّضَا، وَالسَّلَامَةَ إِنْ لَمْ نَصْلُحْ لِلْمُعَامَلَةِ.

*[٣٣٢ - ١٣٩][خَاطِرَةٌ]:

[لِيَنظُرِ السَّالِكُ أَيْنَ يَضَعُ قَدَمَهُ]

لا أُنْكِرُ عَلَىٰ مَنْ طَلَبَ لَذَّةَ الدُّنْيَا مِنْ طَرِيقِ الْمُبَاحِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَقْوَىٰ عَلَىٰ التَّرْكِ.

إِنَّمَا الْمِحْنَةُ عَلَىٰ مَنْ طَلَبَهَا، فَلَمْ يَجِدْهَا أَوْ أَكْثَرَ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْحَرَامِ؛ فَاجْتَهَدَ فِي تَحْصِيلِهَا، وَلَمْ يُبَالِ كَيْفَ حَصَلَتْ.

فَهَذِهِ الْمِحْنَةُ الَّتِي بُخِسَ الْعَقْلُ فِيهَا حَقَّهُ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ صَاحِبُهُ بِوُجُودِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ وَزَنَ مَا أُوثِرَ وَعِقَابَهُ؛ طَاشَتْ كِفَّةُ اللَّذَّةِ الَّتِي فَنِيَتْ عِنْدَ أَوَّلِ ذَرَّةٍ مِنْ أَجْزَائِهَا.

وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِمَّنْ آثَرَ شَهْوَتَهُ، فَسَلَبَتْ دِينَهُ!

---

(١) هَرَّاس: صِيغَةُ مُبَالَغَة مِنْ هَرَسَ. صَانِع الهَرِيسَة أَوْ بَائِعهَا. الْبِثَار: بِثْر: حُبَيْبَات أَوْ قُرُوح بِهَا صَدِيد أَوْ مَاء.

فَلْيَعْجَبِ الْعَاقِلُ حِينَ التَّصَفُّحِ لِأَحْوَالِهِمْ؛ كَيْفَ آثَرُوْا شَيْئًا مَا أَقَامُوْا مَعَهُ، وَصَارُوْا إِلَىٰ عِقَابٍ لَا يُفَارِقُهُمْ؟!

فَاللهَ اللهَ فِي بَخْسِ الْعُقُوْلِ حَقَّهَا!

وَلْيَنْظُرِ السَّالِكُ أَيْنَ يَضَعُ الْقَدَمَ؛ فَرُبَّ مُسْتَعْجِلٍ وَقَعَ فِي بِئْرٍ بَوَارٍ.

وَلْتَكُنْ عَيْنُ التَّيَقُّظِ مَفْتُوحَةً؛ فَإِنَّكُمْ فِي صَفِّ حَرْبٍ؛ لا يُدْرَىٰ فِيهِ مِنْ أَيْنَ يَتَلَقَّىٰ النَّبْلُ.

فَأَعِينُوْا أَنْفُسَكُمْ، وَلا تُعِينُوْا عَلَيْهَا.

*[٣٣٣ - ٢٢٤][خَاطِرَةٌ]:

[أَحْوَالُ الصِّبْيَانِ فِي الكُتَّابِ تُشْبِهُ أَحْوَالَ النَّاسِ فِي الآخِرَةِ]

إِنَّمَا خُلِقْنَا لِنَحْيَا مَعَ الْخَالِقِ فِي مَعْرِفَتِهِ وَمُحَادَثَتِهِ وَرُؤْيَتِهِ فِي الْبَقَاءِ الدَّائِمِ.

وَإِنَّمَا ابْتُدِئَ كَوْنُنَا فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهَا فِي مِثَالِ مَكْتَبٍ؛ نَتَعَلَّمُ فِيهِ الْخَطَّ وَالأَدَبَ؛ لِيَصْلُحَ الصَّبِيُّ عِنْدَ بُلُوغِهِ لِلرُّتَبِ.

فَمِنَ الصِّبْيَانِ بَعِيدِ الذِّهْنِ، يَطُوْلُ مُكْثُهُ فِي الْمَكْتَبِ، وَيَخْرُجُ وَمَا فَهِمَ شَيْئًا.

وَهَذَا مِثَالُ مَنْ لا يَعْلَمُ وُجُوْدَهُ، وَلا نَالَ الْمُرَادَ مِنْ كَوْنِهِ.

وَمِنَ الصِّبْيَانِ مِنْ يَجْمَعُ مَعَ بُعْدِ ذِهْنِهِ، وَقِلَّةِ فَهْمِهِ، وَعَدَمِ تَعَلُّمِهِ: أَذَىٰ الصِّبْيَانِ؛ فَهُوَ يُؤْذِيهِمْ، وَيَسْرِقُ مَطَاعِمَهُمْ، وَيَسْتَغِيثُونَ مِنْ يَدِهِ؛ فَلَا هُوَ صَلُحَ، وَلا فَهِمَ، وَلا كَفَّ عَنِ الشَّرِّ.

وَهَذَا مَثَلُ أَهْلِ الشَّرِّ وَالْمُؤْذِيْنَ.

وَمِنَ الصِّبْيَانِ مَنْ عَلِقَ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَطِّ؛ لَكِنَّهُ ضَعِيفُ الاسْتِخْرَاجِ، رَدِيءُ الْكِتَابَةِ، فَخَرَجَ، وَلَمْ يَعْلَقْ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَعْلَقُ بِهِ حِسَابُ مُعَامَلَتِهِ.

وَهَذَا مَثَلُ مَنْ فَهِمَ بَعْضَ الشَّيْءِ، وَفَاتَتْهُ الْفَضَائِلُ التَّامَّةُ.

وَمِنْهُمْ: مَنْ جَوَّدَ الْخَطَّ، وَلَمْ يَتَعَلَّمِ الْحِسَابَ، وَأَتْقَنَ الْآدَابَ حِفْظًا، غَيْرَ أَنَّهُ قَاصِرٌ فِي أَدَبِ النَّفْسِ.

فَهَذَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا لِلسُّلْطَانِ عَلَىٰ مُخَاطَرَةٍ؛ لِسُوءِ مَا فِي بَاطِنِهِ مِنَ الشَّرَهِ[1]، وَقِلَّةِ التَّأَدُّبِ.

وَمِنْهُمْ: مَنْ سَمَتْ هِمَّتُهُ إِلَىٰ الْمَعَالِي الْكَامِلَةِ؛ فَهُوَ مُقَدَّمُ الصِّبْيَانِ فِي الْمَكْتَبِ، وَنَائِبٌ عَنْ مُعَلِّمِهِمْ، ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَنْهُمْ بِعِزَّةِ نَفْسِهِ، وَأَدَبِ بَاطِنِهِ، وَكَمَالِ صِنَاعَةِ الْآدَابِ الظَّاهِرَةِ، وَلَا يَزَالُ حَاثٌّ مِنْ بَاطِنِهِ يَحُثُّهُ عَلَىٰ تَعْجِيلِ التَّعَلُّمِ، وَتَحْصِيلِ كُلِّ فَضِيلَةٍ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ الْمَكْتَبَ لَا يُرَادُ لِنَفْسِهِ، بَلْ لِأَخْذِ الْأَدَبِ مِنْهُ، وَالرِّحْلَةِ إِلَىٰ حَالَةِ الرُّجُولِيَّةِ وَالتَّصَرُّفِ؛ فَهُوَ يُبَادِرُ الزَّمَانَ فِي نَيْلِ كُلِّ فَضِيلَةٍ.

فَهَذَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الْكَامِلِ؛ يَسْبِقُ الْأَقْرَانَ يَوْمَ التَّجَارِيرِ[2]، وَيَعْرِضُ لَوْحَ عَمَلِهِ جَيِّدُ الْخَطِّ، فَيَقُولُ بِلِسَانِ حَالِهِ: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩﴾ [الحَاقَّةُ: ١٩].

وَكَذَلِكَ الدُّنْيَا وَأَهْلُهَا:

مِنَ النَّاسِ هَالِكٌ بَعِيدٌ عَنِ الْحَقِّ، وَهُمُ الْكُفَّارُ.

وَمِنْهُمْ خَاطِئٌ مَعَ قَلِيلٍ مِنَ الْإِيمَانِ؛ فَهُوَ مُعَاقَبٌ، وَالْمَصِيرُ إِلَىٰ خَيْرٍ.

وَمِنْهُمْ سَلِيمٌ؛ لَكِنَّهُ قَاصِرٌ.

وَمِنْهُمْ تَامٌّ، لَكِنَّهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ مَنْ دُونَهُ، وَهُوَ نَاقِصٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ مَنْ فَوْقَهُ.

فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ يَا أَرْبَابَ الْفُهُومِ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَعْبَرٌ إِلَىٰ دَارِ إِقَامَةٍ، وَسَفَرٌ إِلَىٰ الْقُرْبِ مِنَ السُّلْطَانِ وَمُجَاوَرَتِهِ؛ فَتَهَيَّئُوا لِلْمُجَالَسَةِ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمُخَاطَبَةِ، وَبَالِغُوا فِي اسْتِعْمَالِ الْأَدَبِ؛ لِتَصْلُحُوا

---

(١) الشَّرَهِ: الحِرْصِ وَالطَّمَعِ.

(٢) هَكَذَا فِي الأَصْلِ؛ وَلَعَلَّ مَعْنَاهَا: يَوْم المُنَاظَرَات. يُقَالُ: تَجَارَىٰ القَوْمُ: تَنَاظَرُوا فِيهِ. وَقَدْ تَكُونَ الكَلِمَة هَكَذَا: [التَّجَارِيب]؛ فَيَكُون هُنَاكَ تَصْحِيف. وَيَكُون المَعْنَىٰ: يَوْم الاخْتِبَارَات.

لِلْقُرْبِ مِنَ الْحَضْرَةِ، وَلا يَشْغَلَنَّكُمْ عَنْ تَضْمِيرِ الْخَيْلِ تَكَاسُلٌ[١]، وَلْيَحْمِلْكُمْ عَلَىٰ الْجِدِّ فِي ذَلِكَ تَذَكُّرُكُمْ يَوْمَ السِّبَاقِ؛ فَإِنَّ قُرْبَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْخَالِقِ عَلَىٰ قَدْرِ حَذَرِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَمَنَازِلُهُمْ عَلَىٰ قَدْرِهِمْ؛ فَمَا مَنْزِلُ النَّفَّاطِ كَمَنْزِلِ الْحَاجِبِ[٢]، وَلا مَنْزِلُ الْحَاجِبِ، كَمَكَانِ الْوَزِيرِ.

«جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»[٣]، وَالْفِرْدَوْسُ الأَعْلَىٰ لِآخَرِينَ.

وَالَّذِينَ فِي أَرْضِ الْجَنَّةِ يَنْظُرُونَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ، كَمَا يَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ[٤].

فَلْيَتَذَكَّرِ السَّاهِي حَلَاوَةَ التَّسْلِيمِ إِلَىٰ الأَمِينِ، وَلْيَتَذَكَّرْ فِي لَذَاذَةِ الْمَدْحِ يَوْمَ السِّبَاقِ، وَلْيَحْذَرِ الْمُسَابِقُ مِنْ تَقْصِيرٍ لا يُمْكِنُ اسْتِدْرَاكُهُ، وَلْيَخَفْ مِنْ عَيْبٍ يَبْقَىٰ قُبْحُ ذِكْرِهِ: «هَؤُلاءِ الْجَهَنَّمِيُّونَ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ»[٥]، وَلْيُصَبِّرِ الْهَوَىٰ عَنِ الْمُشْتَهَىٰ؛ فَالأَيَّامُ قَلَائِلُ. . . «يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ بِخَمْسِ مِئَةِ عَامٍ»[٦].

فَالْجِدَّ الْجِدَّ، يَا أَقْدَامَ الْمُبَادَرَةِ؛ فَقَدْ لاحَ الْعِلْمُ، خُصُوصًا لِمَنْ بَانَتْ لَهُ بَانَةُ الْوَادِي[٧]:

---

(١) تَضْمِيرُ الْخَيْلِ: أَنْ يَعْلِفَهُ حَتَّىٰ يَسْمَنَ ثُمَّ يَرُدَّهُ إِلَىٰ الْقُوتِ، وَأَرْكَضَهُ فِي الْمَيْدَانِ حَتَّىٰ يَقِلَّ لَحْمُهُ، وَيَصْلُحَ لِلسِّبَاقِ.

(٢) النَّفَّاطُ: مُسْتَخرِجُ النِّفْطِ أَوْ بَائِعُهُ. وَالْحَاجِبُ: مَنْ يَقُومُ عَلَىٰ بَابِ الْعَظِيمِ لِيَمْنَعَ الدُّخُولَ عَلَيْهِ. وَهُوَ الْيَوْمَ: سِكِرتِير.

(٣) رواه البخاري، كِ: «تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»، (٤٨٧٨). ومسلم، كِ: «الإِيمَانِ»، (١٨٠). عَنْ أَبِي مُوسَىٰ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِ - الْكِبْرِيَاءِ -، عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ».

(٤) روىٰ البخاري، كِ: «بَدْءِ الخَلْقِ» (٣٢٥٦). ومسلم، كِ: «الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا» (٢٨٣١). عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «بَلَىٰ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ».

(٥) أَخْرَجَهُ ابنُ رَاهُوَيْه في «مسنده» (١٠). وَرَوَىٰ البخاري، كِ: «التَّوْحِيدِ» (٧٤٥٠). عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيُصِيبَنَّ أَقْوَامًا سَفْعٌ مِنَ النَّارِ، بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا عُقُوبَةً، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ اللهُ الجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، يُقَالُ لَهُمُ الجَهَنَّمِيُّونَ».

(٦) رواه أحمد في «مسنده» (٧٩٣٣، ٩٨٢٣). وابن ماجة، كِتَابُ «الزُّهْدِ» بَابُ «مَنْزِلَةِ الْفُقَرَاءِ» (٤١٢٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٧) بَانَتْ لَهُ بَانَةُ الْوَادِي؛ أَيْ: ظَهَرَت لَهُ شَجَرَة الوَادِي، وَهِيَ الْبَانَةُ؛ شَجرة مِنَ الْفَصِيلَةِ البَانِيَة طَوِيلَة الأَغْصَان.

إِمَّا بِالْعِلْمِ الدَّالِّ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، وَإِمَّا بِالشَّيْبِ الَّذِي هُوَ عَلَمُ الرَّحِيلِ، وَهُوَ مَا يَأْمَلُهُ أَهْلُ الْجِدِّ.

وَكَانَ الْجُنَيْدُ يَقْرَأُ وَقْتَ خُرُوجِ رُوحِهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فِي هَذَا الْوَقْتِ؟! فَيَقُولُ: «أُبَادِرُ طَيَّ صَحِيفَتِي»(١).

وَبَعْدَ هَذَا؛ فَالْمُرَادُ مُوَفَّقٌ، وَالْمَطْلُوبُ مُعَانٌ، وَإِذَا أَرَادَكَ لِأَمْرٍ؛ هَيَّأَكَ لَهُ.

* [٣٣٤ - ٣٦٠] [خَاطِرَةٌ]:

[أحوال الناس في العيد تشبه أحوالهم يوم القيامة]

رَأَيْتُ النَّاسَ يَوْمَ الْعِيدِ، فَشَبَّهْتُ الْحَالَ بِالْقِيَامَةِ:

فَإِنَّهُمْ لَمَّا انْتَبَهُوا مِنْ نَوْمِهِمْ؛ خَرَجُوا إِلَىٰ عِيدِهِمْ كَخُرُوجِ الْمَوْتَىٰ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَىٰ حَشْرِهِمْ.

فَمِنْهُمْ مَنْ زِينَتُهُ الْغَايَةُ، وَمَرْكَبُهُ النِّهَايَةُ، وَمِنْهُمُ الْمُتَوَسِّطُ، وَمِنْهُمُ الْمَرْذُولُ(٢).

وَعَلَىٰ هَذَا أَحْوَالُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾؛ أَيْ: رُكْبَانًا. ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مَرْيَمَ: ٨٥-٨٦]؛ أَيْ: عِطَاشًا.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يُحْشَرُونَ رُكْبَانًا، وَمُشَاةً، وَعَلَىٰ وُجُوهِهِمْ»(٣).

---

(١) ترجمة الْجُنَيْدُ في: [١٧٨-٣١٤]. وأورد أبو نعيم في «الحلية» (ج١٠/ ص٢٦٤) عَنْ أَبِي بَكْرٍ الْعَطَوِيِّ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ الْجُنَيْدِ حِينَ مَاتَ فَخَتَمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ ابْتَدَأَ مِنَ الْبَقَرَةِ فَقَرَأَ سَبْعِينَ آيَةً ثُمَّ مَاتَ رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) يَعْنِي: مِنْهُم مَنْ هُوَ فِي غَايَةِ الزِّينَةِ مِنَ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ، وَمَرْكَبُهُ كَذَلِكَ فِي غَايَةِ النَّشَاطِ وَالْخِفَّةِ، وَمِنْهُم الْمُتَوَسِّطُ فِيمَا ذُكِرَ، وَمِنْهُم الْمَرْذُولُ؛ أَيْ: الْمَتْرُوكُ؛ لِرَدَاءَتِهِ فِي الْمَلْبَسِ وَالْمَرْكَبِ.

(٣) رواه أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيُّ في «مسنده» (٢٦٨٩)، أحمد في «مسنده» (٢٠٠١١)، البيهقي في «الشعب» (٣٥٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: رُكْبَانًا، وَمُشَاةً، وَعَلَىٰ وُجُوهِهِمْ» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَيَمْشُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ؟، قَالَ: «الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ».

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُدَاسُ فِي زَحْمَةِ الْعِيدِ.

وَكَذَلِكَ الظَّلَمَةُ، يَطَؤُهُمُ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ فِي الْقِيَامَةِ.

وَمِنَ النَّاسِ يَوْمَ الْعِيدِ الْغَنِيُّ الْمُتَصَدِّقُ.

كَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الآخِرَةِ»[(١)].

وَمِنْهُمُ الْفَقِيرُ السَّائِلُ، الَّذِي يَطْلُبُ أَنْ يُعْطَى.

كَذَلِكَ يَوْمَ الْجَزَاءِ: «أَعْدَدْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ»[(٢)].

وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُعْطَفُ عَلَيْهِ؛ ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشُّعَرَاءُ].

وَالأَعْلَامُ مَنْشُورَةٌ فِي الْعِيدِ.

كَذَلِكَ أَعْلَامُ الْمُتَّقِينَ فِي الْقِيَامَةِ، وَالْبُوقُ يُضْرَبُ.

كَذَلِكَ يُخْبِرُ بِحَالِ الْعَبْدِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْمَوْقِفِ! إِنَّ فُلَانًا قَدْ سَعِدَ سَعَادَةً لا شَقَاوَةَ بَعْدَهَا، وَإِنَّ فُلَانًا قَدْ شَقِيَ شَقَاوَةً لا سَعَادَةَ بَعْدَهَا.

ثُمَّ يَرْجِعُونَ مِنَ الْعِيدِ بِالْخَوَاصِّ إِلَى بَابِ الْحُجْرَةِ يُخْبِرُونَ بِامْتِثَالِ الأَوَامِرِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الوَاقِعَةُ: ١١]، فَيَخْرُجُ التَّوْقِيعُ إِلَيْهِمْ: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإِنْسَانُ: ٢٢].

وَمَنْ هُوَ دُونَهُمْ يَخْتَلِفُ حَالُهُ:

فَمِنْهُمْ مَنْ يَرْجِعُ إِلَى بَيْتٍ عَامِرٍ؛ ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحَاقَّةُ: ٢٤].

وَمِنْهُمْ مُتَوَسِّطٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُودُ إِلَى بَيْتٍ قَفْرٍ. فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَلْبَابِ.

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد»(٢٢١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه»(٢٥٩٣٨)، والبزار في «مسنده»(٥٩٧٩).

(٢) رواه أبو داود، كِ: «السُّنَّةِ»(٤٧٣٩). وأحمد في «المسند»(١٣٢٢٢) وابن حبان في «صحيحه»(٦٤٦٧، ٦٤٦٨)، والحاكم في «المستدرك»(٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٣٤٤٢) عَنْ أَنَسٍ وَجَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي».

*[٣٣٥ - ٤٢١][خَاطِرَةٌ]:

[عقوبة الإقبال على الدنيا والإعراض عن الله تعالى]

رَأَيْتُ سَبَبَ الْهُمُوْمِ وَالْغُمُوْمِ: الإِعْرَاضَ عَنِ اللهِ ﷻ، وَالإِقْبَالَ عَلَىٰ الدُّنْيَا.

وَكُلَّمَا فَاتَ مِنْهَا شَيْءٌ؛ وَقَعَ الْغَمُّ لِفَوَاتِهِ.

فَأَمَّا مَنْ رُزِقَ مَعْرِفَةَ اللهِ تَعَالَىٰ؛ اسْتَرَاحَ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَغْنِي بِالرِّضَا بِالْقَضَاءِ، فَمَهْمَا قُدِّرَ لَهُ؛ رَضِيَ، وَإِنْ دَعَا فَلَمْ يَرَ أَثَرَ الإِجَابَةِ؛ لَمْ يَخْتَلِجْ فِي قَلْبِهِ اعْتِرَاضٌ؛ لِأَنَّهُ مَمْلُوْكٌ مُدَبَّرٌ، فَتَكُونُ هِمَّتُهُ فِي خِدْمَةِ الْخَالِقِ.

وَمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ؛ لا يُؤْثِرُ جَمْعَ مَالٍ، وَلا مُخَالَطَةَ الْخَلْقِ، وَلا الِالْتِذَاذَ بِالشَّهَوَاتِ:

لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُقَصِّرًا فِي الْمَعْرِفَةِ؛ فَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَىٰ التَّعَبُّدِ الْمَحْضِ، يَزْهَدُ فِي الْفَانِي لِيَنَالَ الْبَاقِيَ.

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ ذَوْقٌ فِي الْمَعْرِفَةِ؛ فَإِنَّهُ مَشْغُوْلٌ عَنِ الْكُلِّ بِصَاحِبِ الْكُلِّ، فَتَرَاهُ مُتَأَدِّبًا فِي الْخَلْوَةِ بِهِ، مُسْتَأْنِسًا بِمُنَاجَاتِهِ، مُسْتَوْحِشًا مِنْ مُخَالَطَةِ خَلْقِهِ، رَاضِيًا بِمَا يُقَدِّرُ لَهُ، فَعَيْشُهُ مَعَهُ كَعَيْشِ مُحِبٍّ قَدْ خَلَا بِحَبِيبِهِ؛ لا يُرِيْدُ سِوَاهُ، وَلا يَهْتَمُّ بِغَيْرِهِ.

فَأَمَّا مَنْ لَمْ يُرْزَقْ هَذِهِ الأَشْيَاءَ؛ فَإِنَّهُ لا يَزَالُ فِي تَنْغِيصٍ، مُتَكَدِّرَ الْعَيْشِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَطْلُبُهُ مِنَ الدُّنْيَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَيَبْقَىٰ أَبَدًا فِي الْحَسَرَاتِ، مَعَ مَا يَفُوتُهُ مِنَ الآخِرَةِ بِسُوءِ الْمُعَامَلَةِ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يَسْتَصْلِحَنَا لَهُ؛ فَإِنَّهُ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ.

*[٣٣٦-١٥][خَاطِرَةٌ]:

[شَرفُ الغِنَى، وَمَسَاوِئُ الفَقْرِ فِي الدُّنْيَا]

رَأَيْتُ مِنْ أَعْظَمِ حِيَلِ الشَّيْطَانِ وَمَكْرِهِ أَنْ يَخْبَطَ أَرْبَابَ الأَمْوَالِ بِالآمَالِ(١)، وَالتَّشَاغُلُ بِاللَّذَّاتِ الْقَاطِعَةِ عَنِ الآخِرَةِ وَأَعْمَالِهَا!

فَإِذَا أَهِلَهُمْ بِالْمَالِ(٢) تَحْرِيضًا عَلَىٰ جَمْعِهِ، وَحَثًّا عَلَىٰ تَحْصِيلِهِ؛ أَمَرَهُمْ بِحِرَاسَتِهِ بُخْلًا بِهِ؛ فَذَلِكَ مِنْ مَتِيْنِ حِيَلِهِ، وَقَوِيِّ مَكْرِهِ.

ثُمَّ دَفَنَ فِي هَذَا الأَمْرِ مِنْ دَقَائِقِ الْحِيَلِ الْخَفِيَّةِ(٣) أَنْ خَوَّفَ مِنْ جَمْعِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَنَفَّرَ طَالِبَ الآخِرَةِ مِنْهُ، وَبَادَرَ التَّائِبُ يُخْرِجُ مَا فِي يَدِهِ.

وَلا يَزَالُ الشَّيْطَانُ يُحَرِّضُهُ عَلَىٰ الزُّهْدِ، وَيَأْمُرُهُ بِالتَّرْكِ، وَيُخَوِّفُهُ مِنْ طُرُقَاتِ الْكَسْبِ؛ إِظْهَارًا لِنُصْحِهِ، وَحِفْظِ دِينِهِ، وَفِي خَفَايَا ذَلِكَ عَجَائِبُ مِنْ مَكْرِهِ!

وَرُبَّمَا تَكَلَّمَ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ لِسَانِ بَعْضِ الْمَشَايِخِ الَّذِينَ يَقْتَدِي بِهِمُ التَّائِبُ، فَيَقُولُ لَهُ: اخْرُجْ مِنْ مَالِكَ! وَادْخُلْ فِي زُمْرَةِ الزُّهَّادِ! وَمَتَىٰ كَانَ لَكَ غَدَاءٌ أَوْ عَشَاءٌ؛ فَلَسْتَ مِنْ أَهْلِ الزُّهْدِ، وَلا تَنَالُ مَرَاتِبَ الْعَزْمِ، وَرُبَّمَا كَرَّرَ عَلَيْهِ الأَحَادِيثَ الْبَعِيدَةَ عَنِ الصِّحَّةِ، وَالْوَارِدَةَ عَلَىٰ سَبَبٍ وَلِمَعْنًى.

فَإِذَا أَخْرَجَ مَا فِي يَدِهِ، وَتَعَطَّلَ عَنْ مَكَاسِبِهِ؛ عَادَ يُعَلِّقُ طَمَعَهُ بِصِلَةِ الإِخْوَانِ، أَوْ يُحَسِّنُ عِنْدَهُ صُحْبَةُ السُّلْطَانِ؛ لِأَنَّهُ لا يَقْوَىٰ عَلَىٰ طَرِيقِ الزُّهْدِ وَالتَّرْكِ إِلَّا أَيَّامًا.

ثُمَّ يَعُودُ الطَّبْعُ، فَيَتَقَاضَىٰ مَطْلُوبَاتِهِ، فَيَقَعُ فِي أَقْبَحِ مِمَّا فَرَّ مِنْهُ، وَيَبْذُلُ أَوَّلَ السَّلَعِ فِي التَّحْصِيلِ دِينَهُ وَعِرْضَهُ، وَيَصِيرُ مُتَمَنْدَلًا بِهِ، وَيَقِفُ فِي مَقَامِ الْيَدِ السُّفْلَىٰ(٤).

---

(١) يَخْبَطَ: أَصَابَهُم بِأَذَىً فَخَبَلَهُم؛ فَهُم يَتَحَيَّرُونَ وَلَا يَهْتَدُونَ؛ إِذْ يُشَاهِدُونَ خَيبَةَ آمَالِهِمْ؛ لِأَنَّهَا كَثِيرَة جِدًّا وَلَا يَقْدِرُوْن.

(٢) هَكَذَا جَاءَ فِي الأَصْلِ. وَ[أَهِلَهُمْ]: أَهِلَ؛ أَيْ: أَنِسَ؛ وَالْمَعْنَىٰ: فَإِذَا آنَسَهُمْ بِالْمَالِ، وَسَكَنُوا بِهِ وَإِلَيْهِ، حَرَّضَهُمْ عَلَىٰ جَمْعِهِ، وَحَثَّهُم عَلَىٰ تَحْصِيلِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِحِرَاسَتِهِ بُخْلًا بِهِ. وفي مخطوط:(ي):[أَهْلَكَهُم].

(٣) دَفَنَ: سَتَرَ وَكَتَمَ. وَالْحِيَلِ: اسْتِعْمَال الْمَكْر وَالخِدَاع لِبُلُوْغِ هَدَفٍ مَا.

(٤) يَعْنِي: إِذَا أَخْرَجَ - هَذَا الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَكُوْنَ مِنَ الزُّهَّادِ عَلَىٰ زَعْمِهِ - مَا فِي يَدِهِ، وَتَعَطَّلَ عَنِ الْكَسْبِ، وَهُوَ لَا يَقْدِر؛ لِأَنَّ
=

وَلَوْ أَنَّهُ نَظَرَ فِي سِيَرِ الرِّجَالِ وَنُبَلَائِهِمْ، وَتَأَمَّلَ صِحَاحَ الْأَحَادِيثِ عَنْ رُؤَسَائِهِمْ؛ لَعَلِمَ أَنَّ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ كَثِيرَ الْمَالِ حَتَّىٰ ضَاقَتْ بَلْدَتُهُ بِمَوَاشِيهِ، وَكَذَلِكَ لُوطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْجَمُّ الْغَفِيرُ مِنَ الصَّحَابَةِ(١).

وَإِنَّمَا صَبَرُوا عِنْدَ الْعُدْمِ، وَلَمْ يَمْتَنِعُوا عَنْ كَسْبِ مَا يُصْلِحُهُمْ، وَلا مِنْ تَنَاوُلِ الْمُبَاحِ عِنْدَ الْوُجُودِ.

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﵁ يَخْرُجُ لِلتِّجَارَةِ وَالرَّسُولُ ﷺ حَيٌّ، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ يُخْرِجُ فَاضِلَ مَا يَأْخُذُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، وَيَسْلَمُ مِنْ ذُلِّ الْحَاجَةِ إِلَىٰ الْإِخْوَانِ(٢).

وَقَدْ كَانَ ابْنُ عُمَرَ لا يَرُدُّ شَيْئًا، وَلا يَسْأَلُ(٣).

وَإِنِّي تَأَمَّلْتُ عَلَىٰ أَكْثَرِ أَهْلِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ هَذِهِ الْحَالَ، فَوَجَدْتُ الْعِلْمَ شَغَلَهُمْ عَنِ

= طَبْعَهُ يُطَالِبُهُ بِمَا لَهُ؛ فَيَقَع فِي أَقْبَحِ مِمَّا فَرَّ مِنْهُ؛ بِسُؤَالِ النَّاسِ أَو بِمُصَاحَبَةِ سُلْطَان، فَيَضطر أَنْ يُجِيبه فِيمَا يُرِيد وَلُو كَان يُخَالِفُ الشَّرع؛ فَيَهُون عَلَيْهِ دِينه وَعِرضه حَتَّىٰ يَصِير كَالوَسَخ أَوْ كَالمَنْدِيل الَّذِي يُتَمَسَّحُ بِهِ، وَيَكُون كَذَلِكَ فِي الْمَوْقِفِ الأَدْنَىٰ، قَالَ ﷺ: «الْيَدُ الْعُلْيَا -الْمُنْفِقَةُ- خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَىٰ -السَّائِلَةُ» [خ ١٤٢٧/ م١٠٣٣].

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ ﵀ فِي «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» (ج١/ ص٣٥٢/ [ذِكْرُ هِجْرَةِ الْخَلِيلِ]): «ثُمَّ إِنَّ الْخَلِيلَ ﵇ رَجَعَ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ إِلَىٰ أَرْضِ التَّيَمُّنِ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا، وَمَعَهُ أَنْعَامٌ وَعَبِيدٌ وَمَالٌ جَزِيلٌ... ثُمَّ إِنَّ لُوطًا ﵇ نَزَحَ بِمَا لَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ الْجَزِيلَةِ بِأَمْرِ الْخَلِيلِ لَهُ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ أَرْضِ الْغَوْرِ ... وَأَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ يَأْمُرُهُ أَنْ يَمُدَّ بَصَرَهُ، وَيَنْظُرَ شَمَالًا وَجَنُوبًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا، وَبَشَّرَهُ بِأَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ كُلَّهَا سَأَجْعَلُهَا لَكَ، وَلِخَلَفِكَ إِلَىٰ آخِرِ الدَّهْرِ، وَسَأُكْثِرُ ذُرِّيَّتَكَ حَتَّىٰ يَصِيرُوا بِعَدَدِ تُرَابِ الْأَرْضِ، وَهَذِهِ الْبِشَارَةُ اتَّصَلَتْ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ، بَلْ مَا كَمَلَتْ وَلَا كَانَتْ أَعْظَمَ مِنْهَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ» اهـ. وَأَمَّا الصَّحَابَةُ فَيَكْفِي أَنْ تَقْرَأَ سِيرَةَ أَبِي بَكْرٍ، وَعُثْمَان، وَعَبْدِ الرَّحْمَن بن عَوف، أَبَانُ بنُ سَعِيدٍ، وَحَاطِبُ بنُ أَبِي بَلْتَعَةَ، وَحَكِيمُ بنُ حِزَام بنِ خُوَيْلِدٍ ﵃.

(٢) تُرَاجَع الخَاطِرَة: [١٨٣-١٠١] [فَضِيلَةُ الْمَالِ، وَسُوءُ فَهْمِ بَعْضِ الصُّوفِيَّةِ].

(٣) رواه مسلم، كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ «إِبَاحَةِ الأَخْذِ لِمَنْ أُعْطِيَ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ» (١٠٤٥). عَنْ عَبْدِ اللهِ بن عُمَر أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُعْطِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﵁ الْعَطَاءَ، فَيَقُولُ لَهُ عُمَرُ: أَعْطِهِ، يَا رَسُولَ اللهِ، أَفْقَرَ إِلَيْهِ مِنِّي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ -اجْعَلْهُ لَكَ مَالًا- أَوْ تَصَدَّقْ بِهِ، وَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلا سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَمَا لا، فَلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ» قَالَ سَالِمٌ: «فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ ابْنُ عُمَرَ لا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا وَلا يَرُدُّ شَيْئًا أُعْطِيَهُ».

الْمَكَاسِبِ فِي بِدَايَاتِهِمْ، فَلَمَّا احْتَاجُوا إِلَىٰ قِوَامِ نُفُوسِهِمْ؛ ذَلُّوا، وَهُمْ أَحَقُّ بِالْعِزِّ[1].

وَقَدْ كَانُوا قَدِيمًا يَكْفِيهِمْ بَيْتُ الْمَالِ فَضَلَاتِ الْإِخْوَانِ، فَلَمَّا عُدِمَتْ فِي هَذَا الْأَوَانِ؛ لَمْ يَقْدِرْ مُتَدَيِّنٌ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا بِبَذْلِ شَيْءٍ مِنْ دِينِهِ، وَلَيْتَهُ قَدَرَ، فَرُبَّمَا تَلِفَ الدِّينُ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ شَيْءٌ.

فَالْوَاجِبُ عَلَىٰ الْعَاقِلِ أَنْ يَحْفَظَ مَا مَعَهُ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي الْكَسْبِ لِيَرْبَحَ مُدَارَاةَ ظَالِمٍ أَوْ مُدَاهَنَةَ جَاهِلٍ[2]، وَلَا يَلْتَفِتَ إِلَىٰ تُرَّهَاتِ الْمُتَصَوِّفَةِ[3]، الَّذِينَ يَدَّعُونَ فِي الْفَقْرِ مَا يَدَّعُونَ.

فَمَا الْفَقْرُ إِلَّا مَرَضُ الْعَجَزَةِ، وَلِلصَّابِرِ عَلَىٰ الْفَقْرِ ثَوَابُ الصَّابِرِ عَلَىٰ الْمَرَضِ، اللَّهُمَّ! إِلَّا أَنْ يَكُونَ جَبَانًا عَنِ التَّصَرُّفِ، مُقْتَنِعًا بِالْكَفَافِ؛ فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ مَرَاتِبِ الْأَبْطَالِ، بَلْ هُوَ مِنْ مَقَامَاتِ الْجُبَنَاءِ الزُّهَّادِ[4].

وَأَمَّا الْمَكَاسِبُ[5] لِيَكُونَ الْمُعْطِيَ لَا الْمُعْطَىٰ، وَالْمُتَصَدِّقَ لَا الْمُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ؛ فَهِيَ مِنْ مَرَاتِبِ الشُّجْعَانِ الْفُضَلَاءِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا؛ عَلِمَ شَرَفَ الْغِنَىٰ، وَمُخَاطَرَةَ الْفَقْرِ.

---

(١) تُرَاجَع الخَوَاطِر الآتِيَة لِلأَهَمِّيَّة:[١٥٣-١٠٩][مَن جَمَعَ بَيْنَ العِلْمِ وَالْمَال فَقَدْ حِيزَ لَهُ الْكَمَال]،[١٥٧-١٤٩][الْعَالِمُ الَّذِي يَتَكَسَّب يَصُونُ عِرْضِهِ وَدِينِهِ]،[١٥٨-١١٣][مِنَ الْخَطَأِ طَلَبُكَ لِلْعِلْمِ وَإِهْمَالُكَ طَلَبُ الْمَعَاشِ]،[١٥٩-٥٦][عَاقِبَةُ انْشِغَال طَالِب العِلْم عَنْ أُمُورِ مَعَاشِهِ]،[١٦٠-٢٨٠][عَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْم أَنْ يَصُونَ نَفْسَهُ].

(٢) يَعْنِي: يَجِبُ عَلَىٰ العَاقِلِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي الكَسْبِ؛ لِكَي يَرْبَح عِزَّةَ نَفْسِهِ وَكَرَامَتِهِ مِنْ أَنْ يُدَارِي ظَالِم أَوْ يُدَاهِن جَاهِل.

(٣) التُّرَّهَاتِ: الأَقْوَال أَوْ الأَعْمَال التَّافِهَةِ الْمُزَخْرَفَة الخَالِيَة مِنَ النَّفْع.

(٤) روىٰ أحمد في «المسند»(٨٦٢٨،٨٢٩٤،٨٠٣٩) وأبو داود في «سننه» كِتَابُ «تَفْرِيعِ أَبْوَابِ الْوِتْرِ» بَابُ «فِي الِاسْتِعَاذَةِ» (١٥٤٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَالْقِلَّةِ، وَالذِّلَّةِ»؛ يَعْنِي: الْفَقْرِ الَّذِي يُفْضِي بِصَاحِبِهِ إِلَىٰ كُفْرَانِ النِّعْمَةِ فِي الْمَالِ وَنِسْيَانِ ذِكْرِ الْمُنْعِمِ الْمُتَعَالِ، أَوْ يَدْعُوهُ إِلَىٰ سَدِّ الْخَلَّةِ بِمَا يَتَدَنَّسُ بِهِ عِرْضُهُ وَيَنْثَلِمُ بِهِ دِينُهُ، وَقِلَّةُ الْمَالِ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ لَهُ كَفَافٌ مِنَ الْقُوتِ فَيَعْجِزُ عَنْ وَظَائِفِ الْعِبَادَةِ، وَالذِّلَّةِ الْحَاصِلَةَ مِنَ التَّذْلِيلِ لِلأَغْنِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِ الْمَسْكَنَةِ، وَالْمُرَادُ بِهَذِهِ الأَدْعِيَةِ تَعْلِيمُ الأُمَّةِ وَكَشْفُ الْغُمَّةِ.

(٥) الْمَكَاسِبُ، أَيْ: مَا كَسَبَهُ مِنَ المالِ وجَمَعَهُ؛ لِيَكُونَ الْمُعْطِيَ لَا الْمُعْطَىٰ، وَالْمُتَصَدِّقُ لَا الْمُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ.

*[٣٣٧ - ٢٣١][خَاطِرَةٌ]:

[أطيبُ عيشٍ في الدُّنيا]

سَبَبُ تَنْغِيصِ الْعَيْشِ فَوَاتُ الْحُظُوْظِ الْعَاجِلَةِ.

وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا طِيْبُ عَيْشٍ عَلَىٰ الدَّوَامِ؛ إِلَّا لِلْعَارِفِ الَّذِي شَغَلَهُ رِضَا حَبِيبِهِ، وَالتَّزَوُّدُ لِلرَّحِيلِ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ وَجَدَ رَاحَةً فِي الدُّنْيَا؛ اسْتَعَانَ بِهَا عَلَىٰ طَلَبِ الْآخِرَةِ، وَإِنْ وَجَدَ شِدَّةً؛ اغْتَنَمَ الصَّبْرَ عَلَيْهَا لِثَوَابِ الْآخِرَةِ؛ فَهُوَ رَاضٍ بِكُلِّ مَا يَجْرِي عَلَيْهِ، يَرَىٰ ذَلِكَ مِنْ قَضَاءِ الْخَالِقِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ مُرَادُهُ، كَمَا قَالَ قَائِلُهُمْ[(١)]:

إِنْ كَانَ رِضَاكُمْ فِي سَهَرِي فَسَلَامُ اللهِ عَلَىٰ وَسَنِي

فَأَمَّا مَنْ طَلَبَ حَظَّهُ؛ فَإِنَّهُ يَقْلَقُ لِفَوْتِ مُرَادِهِ، وَيَتَنَغَّصُ لِبُعْدِ مَا يَشْتَهِي؛ فَلَوِ افْتَقَرَ؛ تَغَيَّرَ قَلْبُهُ، وَلَوْ ذَلَّ؛ تَغَيَّرَ، وَهَذَا؛ لِأَنَّهُ قَائِمٌ مَعَ غَرَضِهِ وَهَوَاهُ.

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْحُصْرِيِّ[(٢)]: إِيش عَلَيَّ مِنِّي؟! وَإِيش لِي فِيَّ؟!

وَهَذَا كَلَامُ عَارِفٍ؛ لِأَنَّهُ إِنْ يَنْظُرْ إِلَىٰ حَقِيقَةِ الْمِلْكِ[(٣)]، فَعَبْدٌ يَتَصَرَّفُ فِيهِ مَوْلَاهُ، فَاعْتِرَاضُهُ لَا وَجْهَ لَهُ، وَإِرَادَتُهُ أَنْ يَقَعَ غَيْرَ مَا يَجِبُ فُضُولٌ فِي الْبَيِّنِ[(٤)].

وَإِنْ نَظَرَ أَنَّ النَّفْسَ كَالْمِلْكِ لَهُ؛ فَقَدْ خَرَجَتْ عَنْ يَدِهِ مِنْ يَوْمِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ﴾[التَّوْبَةُ:١١١]؛ أَفَيَحْسُنُ لِمَنْ بَاعَ شَاةً أَنْ يَغْضَبَ عَلَىٰ الْمُشْتَرِي إِذَا ذَبَحَهَا، أَوْ يَتَغَيَّرَ قَلْبُهُ؟!

---

(١) البيت من البحر: [الخفيف]. وَسَنِي: النَّوْم الخَفِيف. وَسِنَ فُلان؛ أَيْ: أَخَذَته سِنَةُ النُّعاس.

(٢) الحُصريُّ أَبُو الحَسَنِ عَلِيّ بن إِبْرَاهِيم، المَوْصُوْف بِالعِبَادَةِ وَشِدَّةِ المُجَاهَدَةِ، مَاتَ: (٣٧١هـ). وَكَلِمَة: «إيش» أَصْلُهَا: «أَيُّ شَيْءٍ» فَحُذِفَتْ «اليَاء» الثَّانِيَة مِنْ «أَيّ» الاسْتِفْهَامِيَّة وَ«الهَمْزَة» مِنْ «شَيْء» بَعْدَ نَقْل حَرَكَتِهَا إِلَىٰ السَّاكِن قَبْلَهَا ثُمَّ أُعِلّ إِعْلَال قَاضٍ.

(٣) المِلْكِ: اسْتِحْقَاقُ التَّصَرُّفِ فِي الشَّيْءِ بِكُلِّ أَمْرٍ جَائِزٍ فِعْلًا أَوْ حُكْمًا لَا بِنِيَابَةٍ.

(٤) يَعْنِي: إِنْ كَانَتْ إِرَادَتُهُ - ذَلِكَ العَبْد - أَنْ يَقَعَ غَيْرَ مَا أَوْجَبَهُ اللهُ تَعَالَىٰ؛ فَذَلِكَ تَطَفُّل لَا فَائِدَةَ فِيهِ فِي الظَّاهِرِ الوَاضِح.

وَاللهِ؛ لَوْ قَالَ الْمَالِكُ سُبْحَانَهُ: إِنَّمَا خَلَقْتُكُمْ لِيُسْتَدَلَّ عَلَىٰ وُجُودِي، ثُمَّ أَنَا أُفْنِيكُمْ، وَلا إِعَادَةَ! لَكَانَ يَجِبُ عَلَىٰ النُّفُوسِ الْعَارِفَةِ بِهِ أَنْ تَقُولَ: سَمْعًا لِمَا قُلْتُ وَطَاعَةً.

وَأَيُّ شَيْءٍ لَنَا فِينَا حَتَّىٰ نَتَكَلَّمَ؟!

فَكَيْفَ وَقَدْ وُعَدَ بِالأَجْرِ الْجَزِيلِ، وَالْخُلُودِ فِي النَّعِيمِ الَّذِي لا يَنْفَدُ؟!

لَكِنَّ طَرِيقَ الْوُصُولِ تَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ عَلَىٰ الْمَشَقَّةِ.

وَمَا يَبْقَىٰ لِتَعَبِ رَمْلِ زَرُوْد أَثَرٌ إِذَا لاحَ الْحَرَمُ[1].

فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ يَا أَقْدَامَ الْمُبْتَدِئِينَ! لاحَ الْمَنْزِلُ.

وَالسُّرُورَ السُّرُورَ يَا مُتَوَسِّطِينَ! ضُرِبَتِ الْخِيَمُ.

وَالْفَرَحَ الْكَامِلَ يَا عَارِفِينَ! قَدْ تُلُقِّيتُمْ بِالْبَشَائِرِ ...

زَالَتْ وَاللهِ أَثْقَالُ الْمُعَامَلاتِ عَنْكُمْ، فَكَانَتْ مَعْرِفَتُكُمْ بِالْمُبْتَلِي حَلاوَةً أَعْقَبَتْ شَرْبَةَ الْمُجَاهَدَةِ، فَلَمْ يَبْقَ فِي الْفَمِ لِلْمُرِّ أَثَرٌ.

تَخَايَلُوا قُرْبَ الْمُنَاجَاةِ وَلَذَّةَ الْحُضُورِ، وَدَوَّارَ كُؤُوسِ الرِّضَا عَنْكُمْ؛ فَقَدْ أَخَذَتْ شَمْسُ الدُّنْيَا فِي الأُفُولِ[2]:

مَــــا بَيْنَنَــــــا إِلَّا تَصَــــــرُّ ... مُ هَــــذِهِ السَّـــــبْعِ الْبَـــــوَاقِي

حَتَّــــــىٰ يَطُـــــولَ حَـــــدِيثُنَا ... بِصُـــــنُوفِ مَـــــا كُنَّـــا نُلَاقِـــي

---

(١) زَرُوْد: اِسْم مَوْضِع كَثِير الرِّمَال في طَرِيْق الحَاجّ مِنَ الْكُوْفَةِ إِلَىٰ مَكَّةَ. وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ الْمُشْتَاقَ إِلَىٰ الكَعْبَةِ يَهُوْنُ عَلَيْهِ الطَّرِيْق وَالتَّعَب إِذَا ظَهَرَ لَهُ الحَرَم عَنْ بُعْدٍ. وَيُرَاجَع فِي هَذَا المَعْنَىٰ الخَاطِرَة رَقَ:[١١٩-٣٠٦].

(٢) جاء في الأصل:[مَا بَيْنَنَا لَهُ]، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنْ «تَارِيْخ دِمِشْق» لِابْن عَسَاكِر.(ج٦٠/ ص٤٥٥/ ت: مُوْسَىٰ الكَاتِب) وَالبَيْتَان مِنَ الْبَحْرِ:[مَجْزُوْء الكَامِل]. وَالقَائِل: العَبَّاس بْن الأَحْنَف.وَالأُفُولِ: الضَّعْف. تَصَرُّمُ: انْقِضَاء

*[٣٣٨ - ١٩١][خَاطِرَةٌ]:

[أشرف لذة في الدنيا]

لَقَدْ غَفَلَ طُلَّابُ الدُّنْيَا عَنِ اللَّذَّةِ فِيهَا.

وَاللَّذَّةُ فِيهَا شَرَفُ الْعِلْمِ، وَزَهْرَةُ الْعِفَّةِ، وَأَنَفَةُ الْحَمِيَّةِ، وَعِزُّ الْقَنَاعَةِ، وَحَلَاوَةُ الْإِفْضَالِ عَلَىٰ الْخَلْقِ.

فَأَمَّا الِالْتِذَاذُ بِالْمَطْعَمِ وَالْمَنْكَحِ؛ فَشُغْلُ جَاهِلٍ بِاللَّذَّةِ؛ لِأَنَّ ذَاكَ لَا يُرَادُ لِنَفْسِهِ، بَلْ لِإِقَامَةِ الْعِوَضِ فِي الْبَدَنِ وَالْوَلَدِ.

وَأَيُّ لَذَّةٍ فِي النِّكَاحِ؛ وَهِيَ قَبْلَ الْمُبَاشَرَةِ لَا تَحْصُلُ، وَفِي حَالِ الْمُبَاشَرَةِ قَلَقٌ لَا يَثْبُتُ، وَعِنْدَ انْقِضَائِهَا كَأَنْ لَمْ تَكُنْ، ثُمَّ تُثْمِرُ الضَّعْفَ فِي الْبَدَنِ؟!

وَأَيُّ لَذَّةٍ فِي جَمْعِ الْمَالِ فَضْلًا عَنِ الْحَاجَةِ؛ فَإِنَّهُ مُسْتَعْبِدٌ لِلْخَازِنِ؛ يَبِيتُ حَذِرًا عَلَيْهِ، وَيَدْعُوهُ قَلِيلُهُ إِلَىٰ كَثِيرِهِ!

وَأَيُّ لَذَّةٍ فِي الْمَطْعَمِ؛ وَعِنْدَ الْجُوعِ يَسْتَوِي خَشِنُهُ وَحَسَنُهُ؛ فَإِذَا ازْدَادَ الْأَكْلُ؛ خَاطَرَ بِنَفْسِهِ؟!

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: «بُنِيَتِ الْفِتْنَةُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ: النِّسَاءُ؛ وَهُنَّ فَخُّ إِبْلِيسَ الْمَنْصُوبُ، وَالشَّرَابُ؛ وَهُوَ سَيْفُهُ الْمُرْهَفُ، وَالدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ؛ وَهُمَا سَهْمَاهُ الْمَسْمُومَانِ. فَمَنْ مَالَ إِلَىٰ النِّسَاءِ؛ لَمْ يَصْفُ لَهُ عَيْشٌ. وَمَنْ أَحَبَّ الشَّرَابَ؛ لَمْ يُمَتَّعْ بِعَقْلِهِ. وَمَنْ أَحَبَّ الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ؛ كَانَ عَبْدًا لَهُمَا مَا عَاشَ»[1].

---

(١) يُنْظَر: «بِحَار الأَنْوَار» ب: «حُبّ المَال وَجَمع الدِّينَار وَالدِّرهَم وَكَنْزهمَا» (ص١٤٠). وَفِيهِ: «الفِتَن ثَلَاث: حُبّ النِّسَاء، وَهُوَ سَيْف الشَّيْطَان، وَشُرب الخَمْر، وَهُوَ فَخّ الشَّيْطَان، وَحُبّ الدِّينَار وَالدِّرْهَم، وَهُوَ سَهم الشَّيْطَان، فَمَنْ أَحَبّ النِّسَاء لَم يَنْتَفِع بِعَيْشِهِ، وَمَنْ أَحَبّ الأَشْرِبَة حُرِّمَت عَلَيْهِ الجَنَّة، وَمَنْ أَحَبَّ الدِّينَار وَالدِّرْهَم فَهُوَ عَبْد الدُّنْيَا».

*[٣٣٩ - ٢٨٢][خَاطِرَةٌ]:

[أصلُ الخُصوماتِ في الدُّنيا]

تَأَمَّلْتُ خُصُومَاتِ الْمُلُوكِ، وَحِرْصَ التُّجَّارِ، وَنِفَاقَ الْمُتَزَهِّدِينَ:

فَوَجَدْتُ جُمْهُورَ ذَلِكَ عَلَىٰ لَذَّاتِ الْحِسِّ.

وَإِذَا تَفَكَّرَ الْعَاقِلُ فِي ذَلِكَ؛ عَلِمَ أَنَّ أَمْرَ الْحِسِّيَّاتِ قَرِيبٌ، يَنْدَفِعُ بِأَقَلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ الْغَايَةَ مِنْهُ لَا يُمْكِنُ نَيْلُهَا، وَإِنْ بَالَغَ؛ عَادَ بِالأَذَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَضْعَافَ مَا نَالَهُ مِنَ اللَّذَّةِ؛ كَمَنْ يَأْكُلُ كَثِيرًا أَوْ يَنْكِحُ كَثِيرًا.

فَالسَّعِيدُ مَنِ اهْتَمَّ لِحِفْظِ دِينِهِ، وَأَخَذَ مِنْ ذَلِكَ بِمِقْدَارِ الْحَاجَةِ.

وَاعَجَبًا! هَذَا الْمَلْبُوسُ: إِذَا كَانَ وَسَطًا؛ خَدَمَ، وَإِذَا كَانَ مُرْتَفِعًا؛ خُدِمَ؛ فَإِنْ نَظَرَ اللَّابِسُ إِلَيْهِ مُعْجَبًا بِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ حِينَئِذٍ[1]، وَفِي «الصَّحِيحِ»: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَيْهِ؛ خُسِفَ بِهِ»[2].

وَالْمَشْرُوبُ: إِنْ كَانَ حَرَامًا؛ فَعِقَابُهُ أَضْعَافُ لَذَّتِهِ، وَهَتْكُهُ الْعِرْضَ بَيْنَ النَّاسِ عِقَابٌ آخَرُ، وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا؛ فَالشَّرَهُ فِيهِ يُؤْذِي الْبَدَنَ.

وَأَمَّا الْمَنْكُوحُ؛ فَمُدَارَاةُ الْمُسْتَحْسَنِ يُؤْذِي فَوْقَ كُلِّ أَذًى، وَمُقَاسَاةُ الْمُسْتَقْبَحِ أَشَدُّ أَذًى؛ فَعَلَيْكَ بِالتَّوَسُّطِ.

وَتَفَكَّرْ فِي أَحْوَالِ السَّلَاطِينِ؛ كَمْ قَتَلُوا ظُلْمًا؟ وَكَمِ ارْتَكَبُوا حَرَامًا؟ وَمَا نَالُوا إِلَّا يَسِيرًا مِنْ لَذَّاتِ الْحِسِّ، فَانْقَشَعَ غَيْمُ الْعُمُرِ عَنْ حَسَرَاتِ الْفَضَائِلِ وَحُصُولِ الْعِقَابِ.

فَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَطْيَبَ عَيْشًا مِنْ مُنْفَرِدٍ عَنِ الْعَالَمِ بِالْعِلْمِ؛ فَهُوَ أَنِيسُهُ وَجَلِيسُهُ، قَدْ قَنَعَ بِمَا

---

(١) كَأَنَّهُ رحمه الله يُشِيرُ إِلَىٰ مَا رَوَاهُ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَىٰ مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ». البخاري،(٥٧٨٣). ومسلم،(٢٠٨٥).

(٢) رواه مسلم، ك: «اللِّبَاسِ وَالزِّينَةِ»(٢٠٨٨): «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ، يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

سَلِمَ بِهِ دِينُهُ مِنَ الْمُبَاحَاتِ الْحَاصِلَةِ، لا عَنْ تَكَلُّفٍ، وَلا تَضْيِيعِ دِينٍ، وَارْتَدَىٰ بِالْعِزِّ عَنِ الذُّلِّ لِلدُّنْيَا وَأَهْلِهَا، وَالْتَحَفَ بِالْقَنَاعَةِ بِالْيَسِيرِ، إِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ الْكَثِيرِ، فَوَجَدْتُهُ يَسْلَمُ دِينُهُ وَدُنْيَاهُ.

وَاشْتِغَالُهُ بِالْعِلْمِ يَدُلُّهُ عَلَىٰ الْفَضَائِلِ، وَيُفَرِّجُهُ فِي الْبَسَاتِينِ؛ فَهُوَ يَسْلَمُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالسُّلْطَانِ وَالْعَوَامِّ بِالْعُزْلَةِ.

وَلَكِنْ؛ لا يَصْلُحُ هَذَا إِلَّا لِلْعَالِمِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا اعْتَزَلَ الْجَاهِلُ؛ فَاتَهُ الْعِلْمُ، فَتَخَبَّطَ[1].

*[٣٤٠ - ٣٧١][خَاطِرَةٌ]:

[أَقْبَحُ النَّاسِ حَالًا فِي الدُّنْيَا]

لا عَيْشَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِلْقَنُوعِ بِالْيَسِيرِ؛ فَإِنَّهُ كُلَّمَا زَادَ الْحِرْصُ عَلَىٰ فُضُولِ الْعَيْشِ؛ زَادَ الْهَمُّ، وَتَشَتَّتَ الْقَلْبُ، وَاسْتُعْبِدَ الْعَبْدُ.

وَأَمَّا الْقَنُوعُ؛ فَلا يَحْتَاجُ إِلَىٰ مُخَالَطَةِ مَنْ فَوْقَهُ، وَلا يُبَالِي بِمَنْ هُوَ مِثْلُهُ؛ إِذْ عِنْدَهُ مَا عِنْدَهُ.

وَإِنَّ أَقْوَامًا لَمْ يَقْنَعُوا، وَطَلَبُوا لَذِيذَ الْعَيْشِ، فَأَزْرَوْا بِدِينِهِمْ، وَذَلُّوا لِغَيْرِهِمْ[2].

وَخُصُوصًا أَرْبَابَ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُمْ تَرَدَّدُوا إِلَىٰ الْأُمَرَاءِ فَاسْتَعْبَدُوهُمْ، وَرَأَوْا الْمُنْكَرَاتِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَىٰ إِنْكَارِهَا، وَرُبَّمَا مَدَحُوا الظَّالِمَ اتِّقَاءً لِشَرِّهِ.

فَالَّذِي نَالَهُمْ مِنَ الذُّلِّ وَقِلَّةِ الدِّينِ أَضْعَافُ مَا نَالُوا مِنَ الدُّنْيَا.

وَمِنْ أَقْبَحِ النَّاسِ حَالًا مَنْ تَعَرَّضَ لِلْقَضَاءِ وَالشَّهَادَةِ.

وَلَقَدْ كَانَتَا مَرْتَبَتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ:

وَكَانَ عَبْدُ الْحَمِيدِ الْقَاضِي لَا يُحَابِي، فَبَعَثَ إِلَىٰ الْمُعْتَضِدِ، وَقَالَ لَهُ: «قَدِ اسْتَأْجَرْتَ

(١) تُرَاجِع الخَاطِرَة رَقَم: [١٦٧-١٨٨][الْعُزْلَةُ لِلْعَالِمِ وَالزَّاهِدِ].

(٢) فَأَزْرَوْا بِدِينِهِمْ: الإِزْرَاءُ: التَّهَاوُنُ بِالشَّيْءِ.

وُقُوفًا: فَأَدِّ أُجْرَتَهَا! فَفَعَلَ»، وَقَالَ لَهُ الْمُعْتَضِدُ: «قَدْ مَاتَ فُلَانٌ، وَلَنَا عَلَيْهِ مَالٌ. فَقَالَ: أَنْتَ تَذْكُرُ لَمَّا وَلَّيْتَنِي، قُلْتَ لِي: قَدْ أَخْرَجْتُ هَذَا الأَمْرَ مِنْ عُنُقِي وَوَضَعْتُهُ فِي عُنُقِكَ. وَلَا أَقْبَلُ هَذَا الَّذِي تَقُولُ إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ»(١).

وَكَذَلِكَ كَانَ الشُّهُودُ:

دَخَلَ جَمَاعَةٌ عَلَىٰ بَعْضِ الْخُلَفَاءِ؛ فَقَالَ الْخَادِمُ: «اشْهَدُوْا عَلَىٰ مَوْلَانَا بِكَذَا! فَشَهِدُوْا، فَتَقَدَّمَ الْمَجْذُوْعِيُّ إِلَىٰ السِّتْرِ(٢)، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! أَشْهَدُ عَلَيْكَ بِمَا فِي هَذَا الْكِتَابِ؟ فَقَالَ: اشْهَدْ! قَالَ: إِنَّهُ لَا يَكْفِي فِي ذَلِكَ، لَا أَشْهَدُ حَتَّىٰ تَقُوْلَ: نَعَمْ. قَالَ: نَعَمْ»(٣).

فَأَمَّا فِي زَمَانِنَا؛ فَتَغَيَّرَتْ تِلْكَ الْقَوَاعِدُ مِنَ الْكُلِّ، خُصُوْصًا مَنْ يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِالْمَالِ لِيُسْتَشْهَدَ، فَتَرَاهُ يُسْحَبُ لِيَشْهَدَ عَلَىٰ مَا لَا يَرَىٰ!

قَالَ لِي أَبُو الْمَعَالِي بْنُ شَافِعٍ(٤): «كُنْتُ أُحْمَلُ إِلَىٰ بَعْضِ أَهْلِ السَّوَادِ وَهُوَ مَحْبُوسٌ(٥)، وَأَشْهَدُ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّهُ مُكْرَهٌ؛ لَجَاءَ إِلَيَّ بِقَدَمَيْهِ، وَأَنَا أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ ذَلِكَ».

وَلَيْسَ لِلشُّهُوْدِ جِرَايَةٌ فَيَحْمِلُوْنَ ذَلِكَ لِأَجْلِهَا؛ وَإِنَّمَا الَّذِي يَحْصُلُ جَرُّ الطَّيْلَسَانِ(٦)،

---

(١) عَبْدُ الحَمِيْدِ القَاضِي أَبُو خَازِمٍ اِبْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ السَّكُوْنِيّ ، كَانَ ثِقَةً، دينًا، وَرِعًا، عَالِمًا، مَاتَ سَنَةَ:(٢٩٢هـ). وأخباره في «تاريخ بغداد»(ج١١ / ص٦٤). وَأَمَّا الْمُعْتَضِدُ بِاللهِ؛ فَتَقَدَّمَتْ تَرجَمَتُه في الخاطرة:[١٥٣ - ١٠٩].

(٢) جَاءَ فِي«تَارِيْخ بَغْدَاد» للخَطِيْب: «فَشَهِدَ الْقَوْم حَتَّىٰ بَلَغَ الْكِتَاب إِلَىٰ الجُذُوْعِيّ القَاضِي، وَتَقَدَّمَ إِلَىٰ السَّرِيْر». وَقَوْلُهُ: «بَعْضِ الْخُلَفَاءِ»؛ هُوَ: المُعْتَمِدُ عَلَىٰ اللهِ أَبُو العَبَّاسِ، أَحْمَدُ جَعْفَر بن المُعْتَصِم.(ت:٢٧٩هـ). وَالْمَجْذُوْعِيُّ: القَاضِي أَبُو عَبْد اللهِ مُحَمَّد بن مُحَمَّدِ الجُذُوْعِيُّ. وَكَان مَوْصُوْفًا بِالْوَرَعِ فِي أَحْكَامِهِ.(ت:٢٩١هـ).

(٣) يُراجع: «تاريخ بغداد»(ج٣/ ص٤٢٤/ ت: الجُذوعِي).

(٤) أَبُو الْمَعَالِي بْنُ شَافِعٍ هُوَ: صَالِح بْنُ شَافِع بْنُ الجِيْلِيّ، عَالِمٌ، فَاضِلٌ، كَانَ أَحَد الفُضَلَاء الشُّهُود، ثُمَّ عُثِرَ عَلَىٰ شَهَادَةَ زُوْرٍ تَعَمَّدَهَا فَعُوقِبَ بِسَبَبِهَا وَسَقَطَتْ شَهَادَتُه، وَمَاتَ سَنَةَ:(٥٤٣).

(٥) أَهْلُ السَّوَادِ: سُكَّان القُرَىٰ وَأَرَاضِي الزِّرَاعَة؛ سُمُّوا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ العَرَبَ تُسَمِّي الأَخْضَر أَسْوَد؛ لِأَنَّهُ يُرَىٰ كَذَلِكَ مِنْ بُعْدٍ، وَمِنْهُ: سَوَاد العِرَاق. وَأَرْضُ السَّوَادِ: اِسْمٌ أُطْلِقَ عَلَىٰ الأَرض الرُّسُوبِيَّة عَلَىٰ ضِفَافِ نَهْرِي دِجْلَةَ وَالْفُرَات.

(٦) الجِرَايَةُ: حِصَّةٌ مِنَ الْمَالِ أَوِ الطَّعَامِ تُعْطَىٰ يَوْمِيًا أَوْ شَهْرِيًا لِمُسْتَحِقِّه، وَهِيَ: الرَّوَاتِب. وَالطَّيْلَسَانِ: جَمْع: طَيَالِس وطيالِسة: شَالٌ أَوْ وِشَاح أَوْ كِسَاءٌ أَخضَر يَضَعهُ بَعْض العُلَمَاء وَالمَشَايِخ عَلَىٰ الكَتِفِ.

وَطَرْقُ الْبَابِ، وَقَوْلُ الْمُعَرِّفِ: حَرَسَ اللهُ نِعْمَتَكَ، شَهَادَةً!

وَلَمَّا قِيلَ لِإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ(١): تَكُونُ قَاضِيًا! لَبِسَ قَمِيصًا أَحْمَرَ، وَجَلَسَ فِي السُّوقِ، فَقَالُوا: هَذَا لَا يَصْلُحُ!

وَدَخَلَ بَعْضُ الْكِبَارِ عَلَىٰ الرَّشِيدِ(٢)، وَقَدْ أَحْضَرَهُ لِيُوَلِّيَهُ الْقَضَاءَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُ: كَيْفَ أَنْتَ، وَكَيْفَ الصِّبْيَانُ؟ فَقِيلَ: هَذَا مَجْنُونٌ!

فَيَا للهِ! جُنُونٌ هُوَ الْعَقْلُ.

وَمَا أَظُنُّ الْإِيمَانَ بِالْآخِرَةِ إِلَّا مُتَزَلْزِلًا فِي أَكْثَرِ الْقُلُوبِ.

نَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ سَلَامَةً لِلدِّينِ؛ فَإِنَّهُ قَادِرٌ.

*[٣٤١ - ٣١][خَاطِرَةٌ]:

[أحْوالُ النَّاسِ في الدُّنيا]

تَأَمَّلْتُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا بِعَيْنِ فِكْرِي؛ فَرَأَيْتُ خَرَابَهَا أَكْثَرَ مِنْ عُمْرَانِهَا.

ثُمَّ نَظَرْتُ فِي الْمَعْمُورِ مِنْهَا؛ فَوَجَدْتُ الْكُفَّارَ مُسْتَوْلِينَ عَلَىٰ أَكْثَرِهِ، وَوَجَدْتُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ فِي الْأَرْضِ قَلِيلًا بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ الْكُفَّارِ.

ثُمَّ تَأَمَّلْتُ الْمُسْلِمِينَ؛ فَرَأَيْتُ الْأَكْسَابَ(٣) قَدْ شَغَلَتْ جُمْهُورَهُمْ عَنِ الرَّازِقِ، وَأَعْرَضَتْ بِهِمْ عَنِ الْعِلْمِ الدَّالِّ عَلَيْهِ.

---

(١) ترجمة إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ في الخاطرة:[٢٢٠-١١].

(٢) ترجمة الرَّشِيد أَبُو جَعْفَرٍ هَارُوْنُ في الخاطرة:[٢١٨-٣٠٩].

(٣) الْكَسْب: جَمْعُهَا: أَكْسَاب: مُمْتَلَكَات أَوْ الطَّلَب وَالمَسْعَىٰ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ وَالْمَعِيْشَة. وفي مخوط:(ي): [الِاكْتِسَابِ] وَهُوَ: مُحَاوَلَة أَسْبَاب حُصُوْل المَطْلُوْب. وَقِيْلَ أَنَّ هُنَاكَ الفَرق بَيْنَ الْكَسْبِ وَالاكْتِسَاب؛ فَالأَوَّل أَخصّ؛ لِأَنَّ الْكَسْب لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ، وَالاكْتِسَاب مَا يَكْتَسِبُهُ لِنَفْسِهِ خَاصَّة.

فَالسُّلْطَانُ مَشْغُوْلٌ بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَاللَّذَّاتِ الْمَعَارِضَةُ لَهُ[١]، وَمِيَاهُ أَغْرَاضِهِ جَارِيَةٌ لَا سِكْرَ لَهَا[٢]، وَلَا يَتَلَقَّاهُ أَحَدٌ بِمَوْعِظَةٍ، بَلْ بِالْمِدْحَةِ الَّتِي تُقَوِّي هَوَىٰ النَّفْسِ!!

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُقَاوَمَ الأَمْرَاضُ بِأَضْدَادِهَا؛ كَمَا قَالَ عَمْرُو بْنُ الْمُهَاجِرِ: «قَالَ لِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: إِذَا رَأَيْتَنِي قَدْ حِدْتُ عَنِ الْحَقِّ؛ فَخُذْ بِثِيَابِي، وَهُزَّنِي، وَقُلْ: مَا لَكَ يَا عُمَرُ؟!»[٣].

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهْدَىٰ إِلَيْنَا عُيُوْبَنَا»[٤].

فَأَحْوَجُ الْخَلْقِ إِلَىٰ النَّصَائِحِ وَالْمَوَاعِظِ السُّلْطَانُ.

وَأَمَّا جُنُودُهُ؛ فَجُمْهُوْرُهُمْ فِي سُكْرِ الْهَوَىٰ، وَزِينَةِ الدُّنْيَا، وَقَدِ انْضَافَ إِلَىٰ ذَلِكَ الْجَهْلُ، وَعَدَمُ الْعِلْمِ؛ فَلَا يُؤْلِمُهُمْ ذَنْبٌ، وَلَا يَنْزَعِجُوْنَ مِنْ لُبْسِ حَرِيرٍ، أَوْ شُرْبِ خَمْرٍ، حَتَّىٰ رُبَّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إِيش يَعْمَلُ الْجُنْدِيُّ؟! أَيَلْبَسُ الْقُطْنَ؟ ثُمَّ أَخْذِهِمْ لِلأَشْيَاءِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهَا؛ فَالظُّلْمُ مَعَهُمْ كَالطَّبْعِ!

وَأَرْبَابُ الْبَوَادِي قَدْ غَمَرَهُمُ الْجَهْلُ، وَأَهْلُ الْقُرَىٰ فَكَذَلِكَ؛ تَقَلُّبُهُمْ فِي الأَنْجَاسِ، وَتَهْوِينُهُمْ لِأَمْرِ الصَّلَوَاتِ!! وَرُبَّمَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ قَاعِدَةً!

ثُمَّ نَظَرْتُ فِي التُّجَّارِ؛ فَرَأَيْتُهُمْ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِمُ الْحِرْصُ، حَتَّىٰ لَا يَرَوْنَ سِوَىٰ وُجُوهِ الْكَسْبِ، كَيْفَ كَانَتْ، وَصَارَ الرِّبَا فِي مُعَامَلَاتِهِمْ فَاشِيًا، فَلَا يُبَالِي أَحَدُهُمْ مِنْ أَيْنَ تَحْصُلُ لَهُ الدُّنْيَا! وَهُمْ فِي بَابِ الزَّكَاةِ مُفَرِّطُوْنَ، وَلَا يَسْتَوْحِشُوْنَ مِنْ تَرْكِهَا؛ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ.

---

(١) هَكَذَا فِي الأَصْلِ وَالمَخطُوْط، وَلَعَلَّ مَعْنَاهَا: الْمُقَابِلَةِ لَهُ أَوِ الظَّاهِرَة لَهُ. وَفِي المَطْبُوْع: [الْعَارِضَةِ لَهُ]: مَا يَبْدُو لَهُ.

(٢) السِّكْرُ: مَا سُدَّ بِهِ. و«السِّكْرُ» سَدُّ الشَّق وَمُنْفَجِرِ المَاء. و«السِّكْرُ» إِسْمُ ذَلِكَ السِّدادِ الَّذِي يُجْعَلُ سَدًّا لِلشَّق.

(٣) جَاءَ فِي الأَصْلِ وَالمَخطُوْط: [عُمَرُ بْنُ الْمُهَاجر]؛ وَهُوَ تَصْحِيف. وَالصَّوَاب مَا أَثْبَتْنَاهُ مِنَ «الحِلْيَة» (ج٥ / ص٢٩٢) «تَارِيخ بَغْدَاد» (ج٥/ ص٣٠٤) وَفِيهِ: «عَنْ عَمْرِو بن مُهَاجِر قَالَ: قَالَ لِي عُمَر بن عَبْد العَزِيز: يَا عَمْرُو إِذَا رَأَيْتَنِي قَدْ مِلْتُ عَنِ الْحَقِّ، فَضَع يَدَكَ فِي - تَلْبَابِي - تَلَابِيبِي ثُمَّ هُزَّنِي ثُمَّ قَلْ لِي: - يَا عُمَرُ مَا - مَاذَا تَصْنَع؟!» وَعَمْرُو بْنُ الْمُهَاجر أَبُو مُحَمَّد أَو أَبُو عُبَيْدِ اِبْن أَبِي مُسْلِم دِينَار الأَنْصَارِيّ مَوْلَىٰ أَسْمَاء بِنْت يَزِيْد بْنِ السَّكَنِ، كَانَ صَاحِبَ حَرَسِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَكَانَ ابْنُ الْمُهَاجِرِ ثِقَةً، وَمَاتَ: (١٣٩هـ). وَتَرْجَمَة عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي: [١٤٨-٣٣٨].

(٤) رواه الدارمي في «سننه» «رِسَالَةُ عَبَّادِ بْنِ عَبَّادِ الْخَوَّاصِ» (٦٧٥). وَتَرْجَمَة عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب فِي: [٦٥-٥٤].

ثُمَّ نَظَرْتُ فِي أَرْبَابِ الْمَعَاشِ؛ فَوَجَدْتُ الْغِشَّ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ عَامًّا، وَالتَّطْفِيفَ، وَالْبَخْسَ، وَهُمْ مَعَ هَذَا مَغْمُوْرُونَ بِالْجَهْلِ!

وَرَأَيْتُ عَامَّةَ مَنْ لَهُ وَلَدٌ يَشْغَلُهُ بِبَعْضِ هَذِهِ الأَشْغَالِ طَلَبًا لِلْكَسْبِ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَمَا يَتَأَدَّبُ بِهِ.

ثُمَّ نَظَرْتُ فِي النِّسَاءِ؛ فَرَأَيْتُهُنَّ قَلِيلَاتِ الدِّيْنِ، عَظِيمَاتِ الْجَهْلِ، مَا عِنْدَهُنَّ مِنَ الآخِرَةِ خَبَرٌ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ.

فَقُلْتُ: وَاعَجَبًا! فَمَنْ بَقِيَ لِخِدْمَةِ اللهِ ﷻ وَمَعْرِفَتِهِ؟!

فَنَظَرْتُ؛ فَإِذَا الْعُلَمَاءُ، وَالْمُتَعَلِّمُوْنَ، وَالْعُبَّادُ، وَالْمُتَزَهِّدُوْنَ:

فَتَأَمَّلْتُ الْعُبَّادَ وَالْمُتَزَهِّدِينَ؛ فَرَأَيْتُ جُمْهُوْرَهُمْ يَتَعَبَّدُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَيَأْنَسُ إِلَىٰ تَعْظِيمِهِ، وَتَقْبِيلِ يَدِهِ، وَكَثْرَةِ أَتْبَاعِهِ، حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَوِ اضْطُرَّ أَنْ يَشْتَرِيَ حَاجَةً مِنَ السُّوقِ؛ لَمْ يَفْعَلْ؛ لِئَلَّا يَنْكَسِرَ جَاهُهُ! ثُمَّ تَتَرَقَّىٰ بِهِمْ رُتْبَةُ النَّامُوْسِ إِلَىٰ أَنْ لَا يَعُوْدُوْا مَرِيضًا، وَلَا يَشْهَدُوْا جَنَازَةً؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَظِيمَ الْقَدْرِ عِنْدَهُمْ. وَلَا يَتَزَاوَرُوْنَ، بَلْ رُبَّمَا ظَنَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ[1]؛ فَقَدْ صَارَتِ النَّوَامِيْسُ كَالأَوْثَانِ، يَعْبُدُوْنَهَا وَلَا يَعْلَمُوْنَ![2] وَفِيْهِمْ مَنْ يُقْدِمُ عَلَىٰ الْفَتْوَىٰ بِجَهْلٍ؛ لِئَلَّا يُخِلَّ بِنَامُوْسِ التَّصَدُّرِ! ثُمَّ يَعِيبُوْنَ الْعُلَمَاءَ لِحِرْصِهِمْ عَلَىٰ الدُّنْيَا[3]، وَلَا يَعْلَمُوْنَ أَنَّ الْمَذْمُوْمَ مِنَ الدُّنْيَا مَا هُمْ فِيهِ لَا تَنَاوُلُ الْمُبَاحَاتِ!

ثُمَّ تَأَمَّلْتُ الْعُلَمَاءَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ؛ فَرَأَيْتُ الْقَلِيلَ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ عَلَيْهِ أَمَارَةُ النَّجَابَةِ؛ لِأَنَّ أَمَارَةَ النَّجَابَةِ طَلَبُ الْعِلْمِ لِلْعَمَلِ بِهِ، وَجُمْهُوْرُهُمْ يَطْلُبُ مِنْهُ مَا يُصَيِّرُهُ شَبَكَةً لِلْكَسْبِ: إِمَّا لِيَأْخُذَ قَضَاءَ مَكَانٍ، أَوْ لِيَصِيرَ قَاضِيَ بَلَدٍ، أَوْ قَدْرَ مَا يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ، ثُمَّ يَكْتَفِي.

---

(١) ظَنَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ؛ أَيْ: تَوَهَّم وَتَخَيَّل بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضِ الأَوْهَام، وَجَعَلَهُ مَوْضِعَ ظَنِّه.

(٢) النَّامُوْس هُوَ: القَانُوْن أَوِ الشَّرِيْعَة؛ فَكَأَنَّهُم جَعَلُوْا لِأَنْفُسِهِم شَرِيْعَة خَاصَّة، وَقَانُوْن خَاص يَسِيْرُوْن عَلِيْه.

(٣) هكذا في المخطوط، وجاء في الأصل: [يعيبوا].

ثُمَّ تَأَمَّلْتُ الْعُلَمَاءَ؛ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَهُمْ يَتَلَاعَبُ بِهِ الْهَوَىٰ، وَيَسْتَخْدِمُهُ؛ فَهُوَ يُؤْثِرُ مَا يَصُدُّهُ الْعِلْمُ عَنْهُ، وَيُقْبِلُ عَلَىٰ مَا يَنْهَاهُ، وَلَا يَكَادُ يَجِدُ ذَوْقَ مُعَامَلَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ؛ وَإِنَّمَا هِمَّتُهُ أَنْ يَقُولَ(١).

إِلَّا أَنَّ اللهَ لا يُخْلِي الأَرْضَ مِنْ قَائِمٍ لَهُ بِالْحُجَّةِ، جَامِعٍ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، عَارِفٍ بِحُقُوقِ اللهِ تَعَالَىٰ، خَائِفٍ مِنْهُ؛ فَذَلِكَ قُطْبُ الدُّنْيَا، وَمَتَىٰ مَاتَ؛ أَخْلَفَ اللهُ عِوَضَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يَمُتْ حَتَّىٰ يَرَىٰ مَنْ يَصْلُحُ لِلنِّيَابَةِ عَنْهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ، وَمِثْلُ هَذَا لا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْهُ؛ فَهُوَ بِمَقَامِ النَّبِيِّ فِي الأُمَّةِ(٢).

وَهَذَا الَّذِي أَصِفُهُ يَكُونُ قَائِمًا بِالأُصُولِ، حَافِظًا لِلْحُدُودِ، وَرُبَّمَا قَلَّ عِلْمُهُ، أَوْ قَلَّتْ مُعَامَلَتُهُ؛ فَأَمَّا الْكَامِلُونَ فِي جَمِيعِ الأَدَوَاتِ؛ فَيَنْدُرُ وُجُودُهُمْ، فَيَكُونُ فِي الزَّمَانِ الْبَعِيدِ مِنْهُمْ وَاحِدٌ.

وَلَقَدْ سَبَرْتُ السَّلَفَ كُلَّهُمْ(٣)؛ فَأَرَدْتُ أَنْ أَسْتَخْرِجَ مِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْعِلْمِ حَتَّىٰ صَارَ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ، وَبَيْنَ الْعَمَلِ حَتَّىٰ صَارَ قُدْوَةً لِلْعَابِدِينَ، فَلَمْ أَرَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةٍ(٤):

أَوَّلُهُمْ: الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَثَانِيهِمْ: سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَثَالِثُهُمْ: أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ.

وَقَدْ أَفْرَدْتُ لِأَخْبَارِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كِتَابًا، وَمَا أُنْكِرَ عَلَىٰ مَنْ رَبَّعَهُمْ بِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ.

وَإِنْ كَانَ فِي السَّلَفِ سَادَاتٌ، إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَهُمْ غَلَبَ عَلَيْهِ فَنٌّ، فَنَقَصَ مِنَ الآخَرِ:

فَمِنْهُمْ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْعِلْمُ.

---

(١) يَعْنِي: أَنَّ هِمَّتَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ يَقُولَ وَحَسْب، لا أَنْ يَقُولَ وَيَعْمَل.

(٢) وَمَعْنَىٰ هَذَا أَنَّهُ لَا تَزَال طَائِفَة مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ قَائِمِيْنَ بِوَظِيْفَةِ العِلْم عَلَىٰ مَا يُرضِي الله، وَفِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ عِلْمًا كَانَ أَوْ عَمَلًا أَوْ حَالًا لَا تَزَال طَائِفَة مِنَ الْمُؤْمِنِيْن قَائِمِيْن بِذَلِكَ الشَّأْن لَا يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهُم حَتَّىٰ يَأْتِي أَمْرُ اللهِ، وَفِي هَذَا بِشَارَة عَظِيْمَة لِمَنْ أَرَادَ الخَيْر وَصَدَقَ فِيْه؛ لِأَنَّهُ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ طَائِفَة مِنَ الأُمَّةِ لَا تَزَال عَلَىٰ خَيْرٍ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، يَخْلُفُوْنَ جِيْلًا جِيْلًا.[يُنْظَر: «الدُّرَر البَهِيَّة فِي شَرحِ الأَربَعِيْن الطَّائِيَّة»(الْحَدِيثُ:٢٩)].

(٣) سَبَرْتُ: سَبَرَ الشَّيء: قَاسَ غَوْرَهُ فَخَبَرَهُ وَتَحَرَّاهُ وَتَقَصَّاهُ؛ لِيَتَعَرَّف عُمْقَهُ وَمِقْدَارَهُ

(٤) الأَرْبَعَة الَّذِيْن ذَكَرَهُم الإِمَام اِبْن الجَوْزِي رحمه الله أُنْمُوْذَج لِجَمٍّ غَفِيْرٍ فِي هَذِهِ الأُمَّة، وَهُم قُدْوَة لِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُم؛ بَلِ اِقْرَأْ مَرَّةً أُخْرَىٰ هَذِهِ الْعِبَارَة بِتَأَنِّي وَالَّتِي خَتَمَ بِهَا الإِمَام اِبْن الجَوْزِيّ كَلَامه عَنْ هَؤُلَاءِ السَّادَة؛ فَيَقُوْلُ: «وَكُلُّ هَؤُلاءِ كَانَ لَهُ الْحَظُّ الْوَافِرُ مِنَ الْعِلْمِ، وَالنَّصِيبُ الأَوْفَىٰ مِنَ الْمُعَامَلَةِ وَالْمَعْرِفَةِ». وَتَرجَمَة الْحَسَنُ فِي:[٥٩-٨٧]، وَالثَّوْرِيُّ فِي:[١٤-١١٨]، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي:[٢٤-١٧٩]، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ فِي:[١٥٣-١٠٩].

وَمِنْهُمْ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ.

وَكُلُّ هَؤُلاءِ كَانَ لَهُ الْحَظُّ الْوَافِرُ مِنَ الْعِلْمِ، وَالنَّصِيبُ الأَوْفَى مِنَ الْمُعَامَلَةِ وَالْمَعْرِفَةِ.

وَلا يُؤَيِّسُ[(١)] مِنْ وُجُودِ مَنْ يَحْذُو حَذْوَهُمْ، وَإِنْ كَانَ الْفَضْلُ بِالسَّبْقِ لَهُمْ.

فَقَدْ أَطْلَعَ اللهُ ﷻ الْخَضِرَ عَلَى مَا خَفِيَ عَنْ مُوسَى ﷺ[(٢)].

فَخَزَائِنُ اللهِ مَمْلُوءَةٌ، وَعَطَاؤُهُ لا يَقِفُ عَلَى شَخْصٍ.

وَلَقَدْ حُكِيَ لِي عَنِ ابْنِ عَقِيلٍ: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ: «أَنَا عَمِلْتُ فِي قَارِبٍ ثُمَّ كُسِرَ»[(٣)].

وَهَذَا غَلَطٌ؛ فَمِنْ أَيْنَ لَهُ؟!

فَكَمْ مِنْ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ كُشِفَ لَهُ مِنْ غَيْرِهِ مَا عَادَ يَحْقِرُ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ!!

وَكَمْ مِنْ مُتَأَخِّرٍ سَبَقَ مُتَقَدِّمًا!! وَقَدْ قِيلَ[(٤)]:

إِنَّ اللَّيَالِيَ وَالأَيَّامَ حَامِلَةٌ ... وَلَيْسَ يَعْلَمُ غَيْرُ اللهِ مَا تَلِدُ

*[٣٤٢ - ١٧٧][خَاطِرَةٌ][(٥)]:

[سَبَبُ صَلاحِ الأَخْيَارِ، وَفَسَادُ الأَشْرَارِ فِي الدُّنْيَا]

تَدَبَّرْتُ أَحْوَالَ الأَخْيَارِ وَالأَشْرَارِ؛ فَرَأَيْتُ سَبَبَ صَلاحِ الأَخْيَارِ النَّظَرَ، وَسَبَبَ فَسَادِ الأَشْرَارِ إِهْمَالَ النَّظَرِ.

---

(١) وَلا يُؤَيِّسُ: لَا يَيْئَس وَلَا يَقْنَط وَلَا يَنْقَطِع رَجَاؤُه.

(٢) جَاءَ فِي الأَصلِ:[مِنْ مُوسَىٰ] وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنْ مَخْطُوط (ي). وَقِصَّةُ مُوسَىٰ وَالْخَضِرِ فِي سُورَةِ الكَهْفِ الآيَاتِ:[٦٠-٨٢]، وَهِيَ كَذَلِكَ فِي «الصَّحِيحَيْن» البُخَارِي، كِتَابُ «أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ»(٣٤٠١). ومسلم، كِتَابُ «الفَضَائِلِ»(٢٣٨٠).

(٣) القَارِبُ هُنَا إِمَّا التَّصْنِيف أَوِ العِلْم، وَكُسِرَ؛ أَيْ: لَنْ يُبْلُغ أَحَد مَا بَلَغْتُ. وَتَرجَمَة ابْنُ عَقِيلٍ في:[٢٠-٣١٩].

(٤) البيت من البحر:[البسيط].

(٥) جاء في الأصل:[فصل - مُفِيد].

وَذَاكَ أَنَّ الْعَاقِلَ يَنْظُرُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَابُدَّ لَهُ مِن صَانِعٍ، وَأَنَّ طَاعَتَهُ لَازِمَةٌ، وَيَتَأَمَّلُ مُعْجِزَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيُسَلِّمُ قِيَادَهُ إِلَىٰ الشَّرْعِ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِيمَا يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ، وَيُزْلِفُهُ لَدَيْهِ؛ فَإِذَا شَقَّ عَلَيْهِ إِعَادَةُ الْعِلْمِ؛ تَأَمَّلَ ثَمَرَتَهُ، فَسَهُلَ ذَلِكَ، وَإِذَا صَعُبَ عَلَيْهِ قِيَامُ اللَّيْلِ؛ فَكَذَلِكَ، وَإِذَا رَأَىٰ مُشْتَهَىٰ؛ تَأَمَّلَ عَاقِبَتَهُ، فَعَلِمَ أَنَّ اللَّذَّةَ تَفْنَىٰ، وَالْعَارَ وَالْإِثْمَ يَبْقَيَانِ؛ فَيَسْهُلُ عَلَيْهِ التَّرْكُ، وَإِذَا اشْتَهَىٰ الِانْتِقَامَ مِمَّنْ يُؤْذِيهِ؛ ذَكَرَ ثَوَابَ الصَّبْرِ، وَنَدَمَ الْغَضْبَانِ عَلَىٰ أَفْعَالِهِ فِي حَالِ الْغَضَبِ. . . ثُمَّ لا يَزَالُ يَتَأَمَّلُ سُرْعَةَ مَمَرِّ الْعُمُرِ، فَيَغْتَنِمُهُ بِتَحْصِيلِ أَفْضَلِ الْفَضَائِلِ، فَيَنَالُ مُنَاهُ.

وَأَمَّا الْغَافِلُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَرَىٰ إِلَّا الشَّيْءَ الْحَاضِرَ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَتَأَمَّلْ فِي مَعْنَىٰ الْمَصْنُوعِ وَإِثْبَاتِ الصَّانِعِ، فَجَحَدُوا، وَتَرَكُوا النَّظَرَ، وَجَحَدُوا الرُّسُلَ، وَمَا جَاءُوا بِهِ، وَنَظَرُوا إِلَىٰ الْعَاجِلِ، وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي مَبْدَئِهِ وَمُنْتَهَاهُ؛ فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مِن عِرْفَانِ الْمَطْعَمِ إِلَّا الْأَكْلُ، وَلَوْ تَأَمَّلُوا كَيْفَ أُنْشِئَ؟ وَلِمَاذَا جُعِلَ حَافِظًا لِلْأَبْدَانِ؟؛ لَعَرَفُوا حَقَائِقَ الْأُمُورِ! وَكَذَلِكَ كُلُّ شَهْوَةٍ تَعْرِضُ لَهُمْ؛ لا يَنْظُرُونَ فِي عَاقِبَتِهَا، بَلْ فِي عَاجِلِ لَذَّتِهَا. وَكَمْ قَدْ جَنَتْ عَلَيْهِمْ؛ مِنْ وُقُوعِ حَدٍّ، وَقَطْعِ يَدٍ، وَفَضِيحَةٍ! فَتَعْجِيلُ اللَّذَّةِ يُفَوِّتُ الْفَضَائِلَ، وَيُحَصِّلُ الرَّذَائِلَ، وَسَبَبُهُ عَدَمُ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ، وَهَذَا شُغْلُ الْعَقْلِ، وَذَاكَ الْمَذْمُومُ شُغْلُ الْهَوَىٰ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً تُرِينَا الْعَوَاقِبَ، وَتَكْشِفُ لَنَا الْفَضَائِلَ وَالْمَعَائِبَ، إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ ذَلِكَ.

*[٣٤٣ - ٤٤][خَاطِرَةٌ]:

[إِنَّمَا تَصْلُحُ الدُّنْيَا بِالتَّفَاوُتِ بَيْنَ الْعِبَادِ]

رَأَيْتُ أَكْثَرَ الْخَلْقِ فِي وُجُودِهِمْ كَالْمَعْدُومِينَ: فَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْخَالِقَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُثْبِتُهُ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ حِسِّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَفْهَمُ الْمَقْصُودَ مِنَ التَّكْلِيفِ.

فَتَرَىٰ الْمُتَرَسِّمِينَ بِالزُّهْدِ يَدْأَبُونَ فِي الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ[1]، وَيَتْرُكُونَ الشَّهَوَاتِ، وَيَنْسَوْنَ مَا

(١) الْمُتَرَسِّمِينَ بِالزُّهْدِ؛ أَيْ: الْمُتَّصِفِينَ بِالزُّهْدِ. (ترسَّم، يترسَّم، ترسُّمًا، فَهُوَ: مُترسِّم). وَيَدْأَبُونَ: يَجْتَهِدُونَ وَيَتْعَبُونَ.

قَدْ أَنِسُوا بِهِ مِنْ شَهْوَةِ الشُّهْرَةِ، وَتَقْبِيلِ الأَيَادِي!! وَلَوْ كُلِّمَ أَحَدُهُمْ؛ قَالَ: أَلِمِثْلِي يُقَالُ هَذَا؟! وَمَنْ فُلَانٌ الفَاسِقُ؟! فَهَؤُلاءِ لا يَفْهَمُونَ الْمَقْصُودَ.

وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي احْتِقَارِهِمْ غَيْرَهُمْ، وَالتَّكَبُّرِ فِي نُفُوسِهِمْ.

فَتَعَجَّبْتُ؛ كَيْفَ يَصْلُحُ هَؤُلاءِ لِمُجَاوَرَةِ الْحَقِّ، وَسُكْنَى الْجَنَّةِ؟!

فَرَأَيْتُ أَنَّ الْفَائِدَةَ فِي وُجُودِهِمْ فِي الدُّنْيَا تُجَانِسُ الْفَائِدَةَ فِي دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ.

فَإِنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا بَيْنَ مُعْتَبَرٍ بِهِ؛ يُعَرِّفُ عَارِفَ اللهِ سُبْحَانَهُ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ، بِمَا كُشِفَ لَهُ مِمَّا غَطَّى عَنْ ذَاكَ، وَيَتِمُّ النِّظَامُ بِالاقْتِدَاءِ بِصُوَرِ أُولَئِكَ[1].

فَإِنَّ الْعَارِفَ لا يَتَّسِعُ وَقْتُهُ لِمُخَالَطَةِ مَنْ يَقِفُ مَعَ الصُّورَةِ؛ فَالزَّاهِدُ كَرَاعِي الْبَهْمِ[2]، وَالْعَالِمُ كَمُؤَدِّبِ الصِّبْيَانِ، وَالْعَارِفُ كَمُلَقِّنِ الْحِكْمَةِ. وَلَوْلا نَفَّاطُ الْمَلِكِ وَحَارِسُهُ وَوَقَّادُ أَتُونِهِ؛ مَا تَمَّ عَيْشُهُ[3].

فَمِنْ تَمَامِ عَيْشِ الْعَارِفِ اسْتِعْمَالُ أُولَئِكَ بِحَسَبِهِمْ؛ فَإِذَا وَصَلُوا إِلَيْهِ؛ حَرَّرَ مَا مَعَهُمْ[4]، وَفِيهِمْ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ وُجُودُ أُولَئِكَ كَزِيَادَةِ - لا - فِي الْكَلَامِ، هِيَ حَشْوٌ، وَهِيَ مُؤَكِّدَةٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَهَبْ هَذَا يَصِحُّ فِي الدُّنْيَا، فَكَيْفَ فِي الْجَنَّةِ؟!

وَالْجَوَابُ: أَنَّ الأُنْسَ بِالْجِيرَانِ مَطْلُوبٌ، وَرُؤْيَةَ الْقَاصِرِ مِنْ تَمَامِ لَذَّةِ الْكَامِلِ[5]، وَلِكُلٍّ شِرْبٌ.

---

(١) هكذا في مخطوط:(ي)، وَفِي الأَصلِ:[تصور]. ثُمَّ هُنَا زِيَادَة في المَطْبُوع؛ وَهِيَ:[أَوْ تَابع يَتِمُّ بِهِ الْعِمْرَانُ، وَتَقُومُ بِهِ الْمَعَايِشُ، وَإِنَّمَا تَصْلُحُ الْحَيَاةُ بِهَذَا التَّفَاوُتِ الْبَعِيدِ. ثُمَّ بَيْنَ الْخَاصَّةِ فُرُوقٌ]

(٢) الْبَهْم: أَوْلَادِ الضَّأْنِ وَالْمَعْزِ إِذَا اجْتَمَعَتْ تَغْلِيبًا، فَإِذَا انْفَرَدَتْ قِيلَ لِأَوْلَادِ الضَّأْنِ بِهَامٌ وَلِأَوْلَادِ الْمَعْزِ سِخَالٌ.

(٣) النَّفَّاطُ: مُستخرِجُ النِّفط أَوْ بَائِعُهُ. وَجَاءَ فِي حَاشِيَةِ الأَصْلِ:[فِي الأَحْمَدِيَّةِ: نَغَّاص بِالْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَالظَّاءِ الْمُشَالَةِ]. وَقَّادُ: صِيغَة مُبَالَغَة مِنْ وَقَدَ: مَنْ يُوقِدُ النَّارَ أَوْ مَنْ يُشْعِل الْمَصَابِيح. وَأَتُونِ: مُوْقِد كَبِير، مَوْقِد نَارِ الْحَمَّام. أَوْ مَا يُقَام مِنَ الْحِجَارَةِ تَتَوَقَّد فِيْهِ النَّار.

(٤) هكذا في مخطوط:(ي). وفي الأصل:[مانعهم]، وفي حاشية الأصل:[في الهندية: ما معهم].

(٥) جاء في حاشية الأصل:[في المصرية والأحمدية: لذة الكلام].

وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ؛ كَفَاهُ رَمْزُ لَفْظِي عَنْ تَطْوِيلِ الشَّرْحِ.

*[٣٤٤ - ٨٨][خَاطِرَةٌ]:

[أَعْظَمُ نِعْمَةٍ في الدُّنْيَا]

لَيْسَ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ أَطْيَبُ عَيْشًا مِنَ الْعَارِفِينَ بِاللهِ ﷻ.

فَإِنَّ الْعَارِفَ بِهِ مُسْتَأْنِسٌ بِهِ فِي خَلْوَتِهِ؛ فَإِنْ عَمَّتْ نِعْمَةٌ؛ عَلِمَ مَنْ أَهْدَاهَا، وَإِنْ مَرَّ مُرٌّ؛ حَلَا مَذَاقُهُ فِي فِيهِ؛ لِمَعْرِفَتِهِ بِالْمُبْتَلِي، وَإِنْ سَأَلَ فَتَعَوَّقَ مَقْصُودُهُ؛ صَارَ مُرَادُهُ مَا جَرَىٰ بِهِ الْقَدَرُ؛ عِلْمًا مِنْهُ بِالْمَصْلَحَةِ، بَعْدَ يَقِينِهِ بِالْحِكْمَةِ، وَثِقَتِهِ بِحُسْنِ التَّدْبِيرِ.

وَصِفَةُ الْعَارِفِ: أَنَّ قَلْبَهُ مُرَاقِبٌ لِمَعْرُوفِهِ[١]، قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، نَاظِرٌ بِعَيْنِ الْيَقِينِ إِلَيْهِ؛ فَقَدْ سَرَىٰ مِنْ بَرَكَةِ مَعْرِفَتِهِ إِلَىٰ الْجَوَارِحِ مَا هَذَّبَهَا.

فَإِنْ نَطَقْتُ فَلَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِكُمُ   وَإِنْ سَكَتُّ فَأَنْتُمْ عَقْدُ إِضْمَارِي[٢]

إِذَا تَسَلَّطَ عَلَىٰ الْعَارِفِ أَذًى؛ أَعْرَضَ نَظَرُهُ عَنِ السَّبَبِ، وَلَمْ يَرَ سِوَىٰ الْمُسَبِّبِ.

فَهُوَ فِي أَطْيَبِ عَيْشٍ مَعَهُ: إِنْ سَكَتَ؛ تَفَكَّرَ فِي إِقَامَةِ حَقِّهِ، وَإِنْ نَطَقَ؛ تَكَلَّمَ بِمَا يُرْضِيهِ، لا يَسْكُنُ قَلْبُهُ إِلَىٰ زَوْجَةٍ وَلا إِلَىٰ وَلَدٍ، وَلا يَتَشَبَّثُ بِذَيْلِ مَحَبَّةِ أَحَدٍ؛ وَإِنَّمَا يُعَاشِرُ الْخَلْقَ بِبَدَنِهِ، وَرُوحُهُ عِنْدَ مَالِكِ رُوحِهِ.

فَهَذَا الَّذِي لا هَمَّ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَلا غَمَّ عِنْدَهُ وَقْتَ الرَّحِيلِ عَنْهَا، وَلا وَحْشَةَ لَهُ فِي الْقَبْرِ، وَلا خَوْفَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْمَحْشَرِ.

فَأَمَّا مَنْ عَدِمَ الْمَعْرِفَةَ؛ فَإِنَّهُ مُعَثَّرٌ[٣]:

(١) أَيْ: مُرَاقِبٌ لِلرَّبِّ سُبْحَانَهُ جَلَّ وَعَلَا.

(٢) البيت من البحر: [الكامل]. وَالإِضْمَار: تَكْوِين فِكْرَة في الذِّهْن تَكُوْن مُتَضَمَّنَة وَغَيْر مُعَبَّر عَنْهَا صَرَاحَةً.

(٣) مُعَثَّرٌ: تَعَثَّرَ يَتَعَثَّرُ، تَعَثُّرًا، فَهُوَ مُتَعَثِّرٌ: زَلَّ، كَبَا، تَعَرقَلَ فِي شَيْءٍ.

لا يَزَالُ يَضِجُّ مِنَ الْبِلا؛ لِأَنَّهُ لا يَعْرِفُ الْمُبْتَلِي.

وَيَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِ غَرَضِهِ؛ لِأَنَّهُ لا يَعْرِفُ الْمَصْلَحَةَ.

وَيَسْتَأْنِسُ بِجِنْسِهِ؛ لِأَنَّهُ لا مَعْرِفَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ.

وَيَخَافُ مِنَ الرَّحِيلِ؛ لِأَنَّهُ لا زَادَ لَهُ، وَلا مَعْرِفَةَ بِالطَّرِيقِ.

وَكَمْ مِنْ عَالِمٍ وَزَاهِدٍ لَمْ يُرْزَقَا مِنَ الْمَعْرِفَةِ إِلَّا مَا رُزِقَهُ الْعَامِيُّ الْبَطَّالُ! وَرُبَّمَا زَادَ عَلَيْهِمَا!

وَكَمْ مِنْ عَامِّيٍّ رُزِقَ مِنْهَا مَا لَمْ يُرْزَقَاهُ مَعَ اجْتِهَادِهِمَا!

وَإِنَّمَا هِيَ مَوَاهِبُ وَأَقْسَامٌ[1]: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾[الْمَائِدَة: ٥٤].

---

(١) الْمَوَاهِبُ: اِسْتِعْدَادٌ فِطْرِيٌّ لَدَى الْمَرْءِ لِلْبَرَاعَةِ فِي فَنٍّ أَوْ نَحْوِهِ. وَأَقْسَامٌ: مُفْرَدُهَا: قِسْم، حِصَّة أَوْ نَصِيب مِنْ خَيْرٍ.

(٢٦)

[الحَيَاةُ وَالمَوْتُ وَمَا يَجِبُ نَحْوَهُمَا]

*[٣٤٥ - ١٤][خَاطِرَةٌ]:

[لا تُضَيِّعْ لَحْظَةً مِنْ حَيَاتِكَ فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ]

يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ شَرَفَ زَمَانِهِ، وَقَدْرَ وَقْتِهِ؛ فَلَا يُضَيِّعَ مِنْهُ لَحْظَةً فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ، وَيُقَدِّمَ الأَفْضَلَ فَالأَفْضَلَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

وَلْتَكُنْ نِيَّتُهُ فِي الْخَيْرِ قَائِمَةً مِنْ غَيْرِ فُتُورٍ بِمَا لَا يَعْجَزُ عَنْهُ الْبَدَنُ مِنَ الْعَمَلِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»[(١)].

وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يُبَادِرُوْنَ اللَّحَظَاتِ[(٢)].

فَنُقِلَ عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: «كَلِّمْنِي»! فَقَالَ لَهُ: «أَمْسِكِ الشَّمْسَ!»[(٣)]

وَقَالَ ابْنُ ثَابِتٍ الْبُنَانِيُّ: ذَهَبْتُ أُلَقِّنُ أَبِي، فَقَالَ: «يَا بُنَيَّ! دَعْنِي؛ فَإِنِّي فِي وِرْدِي السَّادِسِ»[(٤)].

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير»(٥٩٤٢) والقُضَاعِيُّ في «مسند الشِّهَاب»(١٤٨) والبيهقي في «الشعب»(٦٤٤٥). بِلَفْظ: «أَبْلَغُ». وَالْحَدِيْث ضَعِيفٌ. «ضعيف الجامع»(٥٩٧٦). قَالَ ابْنُ الأَعْرَابِيِّ: «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ؛ لِأَنَّ النِّيَّةَ لَا يَدْخُلُهَا الْفَسَادُ، وَالْعَمَلَ يَدْخُلُهُ الْفَسَادُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِالْفَسَادِ بِالرِّيَاءِ، وَقَدْ قِيلَ: النِّيَّةُ دُونَ الْعَمَلِ قَدْ تَكُونُ طَاعَةً، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً»، قَالُوا: وَالْعَمَلُ دُونَ النِّيَّةِ لَا يَكُونُ طَاعَةً». «الشعب»(٦٤٤٧).

(٢) يُبَادِرُوْنَ: يُسَارِعُونَ. اللَّحَظَاتِ: وَقْتٌ قَصِيرٌ بِمِقْدَارِ لَحْظِ الْعَيْنِ، جُزْءٌ مِنْ ثَانِيَةٍ.

(٣) عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ التَّمِيمِيُّ العَنْبَرِيُّ أَبُو عَبْدِ اللهِ أَوْ أَبُو عَمْرٍو، الزَّاهِدُ، مِنْ عُبَّادِ التَّابِعِينَ، تُوُفِّيَ فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ.

(٤) مُحَمَّد بنُ ثَابت الْبُنَانِيِّ تُوفِّيَ: (١٧١-١٨٠هـ) صَدُوْق فِي نَفْسِهِ وَلَكِنَّهُ ضَعِيفُ الحَدِيْث. وَثَابِتُ بنُ أَسْلَمَ أَبُو مُحَمَّدٍ البُنَانِيُّ الإِمَامُ، القُدْوَةُ، شَيْخُ الإِسْلَامِ، مِنَ الثِّقَاتِ المَأْمُوْنِيْنَ، صَحِيْحَ الحَدِيْثِ. مَاتَ: (٢٣-١٢٧هـ) وَالْخَبَر فِي «الْحِلْيَة» لِأَبِي نُعَيم(ج٢/ ص٣٢٢)، «سِيَر السَّلَف» لِإِسْمَاعِيْل الأَصْبَهَانِي. (ص٧١٩).

وَدَخَلُوا عَلَىٰ بَعْضِ السَّلَفِ عِنْدَ مَوْتِهِ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقِيلَ لَهُ؟ فَقَالَ: «الْآنَ تُطْوَىٰ صَحِيفَتِي»(١).

فَإِذَا عَلِمَ الإِنْسَانُ - وَإِنْ بَالَغَ فِي الْجِدِّ - بِأَنَّ الْمَوْتَ يَقْطَعُهُ عَنِ الْعَمَلِ؛ عَمِلَ فِي حَيَاتِهِ مَا يَدُومُ لَهُ أَجْرُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ:

فَإِنْ كَانَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا؛ وَقَفَ وَقْفًا، وَغَرَسَ غَرْسًا، وَأَجْرَىٰ نَهَرًا، وَيَسْعَىٰ فِي تَحْصِيلِ ذُرِّيَّةٍ تَذْكُرُ اللهَ بَعْدَهُ، فَيَكُونُ الأَجْرُ لَهُ، أَوْ أَنْ يُصَنِّفَ كِتَابًا فِي الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ تَصْنِيفَ الْعَالِمِ وَلَدُهُ الْمُخَلَّدُ، وَأَنْ يَكُونَ عَامِلًا بِالْخَيْرِ، عَالِمًا فِيهِ؛ فَيُنْقَلَ مِنْ فِعْلِهِ مَا يَقْتَدِي الْغَيْرُ بِهِ؛ فَذَلِكَ الَّذِي لَمْ يَمُتْ(٢).

قَدْ مَاتَ قَوْمٌ، وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ(٣)

*[٣٤٦ - ٩٢][خَاطِرَةٌ]:

[الْبِدَارَ الْبِدَارَ قَبْلَ الْفَوَاتِ]

رَأَيْتُ عُمُومَ الْخَلَائِقِ يَدْفَعُونَ الزَّمَانَ دَفْعًا عَجِيبًا:

إِنْ طَالَ اللَّيْلُ؛ فَبِحَدِيثٍ لا يَنْفَعُ، أَوْ بِقِرَاءَةِ كِتَابٍ فِيهِ غَزَاةٌ وَسَمَرٌ!

وَإِنْ طَالَ النَّهَارُ؛ فَبِالنَّوْمِ! وَهُمْ فِي أَطْرَافِ النَّهَارِ عَلَىٰ دِجْلَةَ أَوْ فِي الأَسْوَاقِ!

فَشَبَّهْتُهُمْ بِالْمُتَحَدِّثِينَ فِي سَفِينَةٍ، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ، وَمَا عِنْدَهُمْ خَبَرٌ!

---

(١) وَهُوَ الْجُنَيْدُ ترجمته في: [١٧٨-٣٦٤]. وَخَبَرُهُ فِي «حلية الأولياء» لِأَبِي نُعَيْم. (ج١٠/ ص٢٦٤).

(٢) كَأَنَّهُ رحمه الله يُشِيرُ إِلَىٰ مَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي «شُعَبِ الإِيمَان» (٣١٧٥) وَالْبَزَّار فِي «مُسْنَدِهِ» (٧٢٨٩) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَبْعَةٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ كَرَىٰ نَهَرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَىٰ مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ» «صَحِيح الجَامِع» (٣٦٠٢).

(٣) عَجز بَيْتٍ أَوَّله: [مَوْتُ التَّقِيِّ حَيَاةٌ لَا انْقِطَاعَ لَهَا] وَقَائِله: سَابِق بْن البَرْبَرِيّ. وَالْبَيْت مِنَ الْبَحْر: [الْبَسِيط].

وَرَأَيْتُ النَّادِرِيْنَ قَدْ فَهِمُوْا مَعْنَىٰ الْوُجُوْدِ؛ فَهُمْ فِي تَعْبِئَةِ الزَّادِ، وَالتَّأَهُّبِ لِلرَّحِيلِ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ يَتَفَاوَتُوْنَ، وَسَبَبُ تَفَاوُتِهِمْ قِلَّةُ الْعِلْمِ وَكَثْرَتُهُ، بِمَا يَنْفُقُ فِي بَلَدِ الإِقَامَةِ(١).

فَالْمُتَيَقِّظُوْنَ مِنْهُمْ يَتَطَلَّعُوْنَ إِلَىٰ الأَخْبَارِ بِالنَّافِقِ هُنَاكَ، فَيَسْتَكْثِرُوْنَ مِنْهُ، فَيَزِيدُ رِبْحُهُمْ(٢).

وَالْغَافِلُوْنَ مِنْهُمْ يَحْمِلُوْنَ مَا اتَّفَقَ، وَرُبَّمَا خَرَجُوْا لا مَعَ خَفِيرٍ(٣)؛ فَكَمْ مِمَّنْ قَدْ قُطِعَتْ عَلَيْهِ الطَّرِيْقُ فَبَقِيَ مُفْلِسًا!

فَاللهَ اللهَ فِي مَوَاسِمِ الْعُمْرِ! وَالْبِدَارَ الْبِدَارَ قَبْلَ الْفَوَاتِ!

وَاسْتَشْهِدُوْا الْعِلْمَ، وَاسْتَدِلُّوْا الْحِكْمَةَ، وَنَافِسُوْا الزَّمَانَ، وَنَاقِشُوْا النُّفُوسَ، وَاسْتَظْهِرُوْا بِالزَّادِ؛ فَكَأَنْ قَدْ حَدَا الْحَادِي، فَلَمْ يُفْهَمْ صَوْتُهُ مِنْ وَقْعِ دَمْعِ النَّدَمِ(٤).

*[٣٤٧ - ٣٦٣][خَاطِرَةٌ]:

[مِنْ أَدِلَّةِ الْبَعْثِ: أَحْوَالُ الآدَمِيِّ فِي الدُّنْيَا]

إِنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ لِأَحْوَالِ الآدَمِيِّ أَمْثِلَةً لِيَعْتَبِرَ بِهَا:

فَمِنْ أَمْثِلَةِ أَحْوَالِهِ الْقَمَرُ، الَّذِي يَبْتَدِئُ صَغِيرًا، ثُمَّ يَتَكَامَلُ بَدْرًا، ثُمَّ يَتَنَاقَصُ بِانْمِحَاقٍ، وَقَدْ يَطْرَأُ عَلَيْهِ مَا يُفْسِدُهُ كَالْكُسُوْفِ.

---

(١) قِلَّةُ الْعِلْمِ وَكَثْرَتُهُ؛ يَعْنِي: الْعِلْم الشَّرعِيّ وَالعَمَل بِهِ لِوَجْهِ الله تَعَالَىٰ. وَبَلَدِ الإِقَامَةِ؛ يَعْنِي: الدَّار الآخِرَة.

(٢) يَتَطَلَّعُوْنَ إِلَىٰ الأَخْبَارِ: أَخْبَار النَّبِيّ ﷺ وَأَصْحَابه وَالسَّلَف الصَّالِح، وَأَخْبَار الجَنَّةِ وَنَعِيمهَا. وَالنَّافِقِ: بِكَسْرِ «الفَاءِ» اِسْم فَاعِل مِنْ نَفَقَ الشَّيْء: نَفَدَ أَوْ فَنِيَ أَوْ قَلَّ.

(٣) خَفِير: حَافِظ أَوْ مَنْ يَحرُس القَوَافِل وَالمُسَافِرِيْن وَيَحْمِيهَا أَثْنَاء الطَّرِيْق. وَالْمَقْصُوْدُ بِالْحَارِسِ هُنَا: الْكِتَاب وَالسُّنَّة.

(٤) وَاسْتَشْهِدُوْا الْعِلْمَ: اطْلُبُوْا الْعِلْمَ. وَاسْتَدِلُّوْا الْحِكْمَةَ: اتَّخِذُوْهَا دَلِيْلًا. وَنَافِسُوْا الزَّمَانَ: بَادِرُوْهُ وَسَابِقُوْهُ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تَشْتَغِلُوْا. وَنَاقِشُوْا النُّفُوسَ: حَاسِبُوْا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا. وَاسْتَظْهِرُوْا بِالزَّادِ: اسْتَعِينُوْا وَتَزَوَّدُوْا مِنَ الدُّنْيَا لِلآخِرَةِ. وَحَدَا الْحَادِي: رَفَعَ صَوْتَهُ بِالحُدَاء، إِشَارَة إِلَىٰ مُنَادِي المَوْت.

فَكَذَلِكَ الآدَمِيُّ[١] أَوَّلُهُ نُطْفَةٌ، ثُمَّ يَتَرَقَّىٰ مِنَ الْفَسَادِ إِلَىٰ الصَّلَاحِ؛ فَإِذَا تَمَّ؛ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْبَدْرِ الْكَامِلِ، ثُمَّ تَتَنَاقَصُ أَحْوَالُهُ بِالضَّعْفِ، فَرُبَّمَا هَجَمَ الْمَوْتُ قَبْلَ ذَلِكَ هُجُومَ الْكُسُوفِ عَلَىٰ الْقَمَرِ.

قَالَ الشَّاعِرُ[٢]:

وَالْمَـــرْءُ مِثْـــلُ هِـــلَالٍ عِنْـــدَ طَلْعَتِـــهِ ... يَبْـــدُو ضَـــئِيلًا لَطِيفًـــا ثُـــمَّ يَتَّسِـــقُ

يَـــزْدَادُ، حَتَّـــىٰ إِذَا مَـــا تَـــمَّ أَعْقَبَـــهُ ... كَـــرُّ الْجَدِيـــدَيْنِ نَقْصًـــا، ثُـــمَّ يَنْمَحِـــقُ

وَمِنْ أَمْثِلَةِ حَالِهِ دُودُ الْقَزِّ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ حَيًّا[٣] إِلَىٰ أَنْ يَبْتَدِئَ نَبَاتُ قُوَّتِهِ، وَهُوَ وَرَقُ الْفِرْصَادِ[٤]؛ فَإِذَا اِخْضَرَّ الْوَرَقُ؛ دَبَّتِ الرُّوحُ فِيهِ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ كَانْتِقَالِ الطِّفْلِ، ثُمَّ يَرْقُدُ كَغَفْلَةِ الآدَمِيِّ عَنِ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ، ثُمَّ يَتَنَبَّهُ، فَيَحْرِصُ عَلَىٰ الأَكْلِ كَحِرْصِ الشَّرِهِ عَلَىٰ تَحْصِيلِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يُسْدِي عَلَىٰ نَفْسِهِ كَمَا يَحْطِبُ الآدَمِيُّ الأَوْزَارَ عَلَىٰ دِينِهِ؛ فَيُرْتَهَنُ فِي ذَلِكَ الْحَبْسِ؛ كَمَا يُرْتَهَنُ الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ يَقْرِضُ، فَيَخْرُجُ خَلْقًا آخَرَ؛ كَمَا تُنْشَرُ الْمَوْتَىٰ غُرْلًا بُهْمًا[٥].

---

(١) قَالَ الرَّازِيّ رحمه الله فِي «تَفْسِيرِهِ»(ج١١/ ص٢٧): «يُولَدُ الإِنْسَانُ وَيَبْقَىٰ فِي النَّشْوِ وَالنَّمَاءِ إِلَىٰ مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ، وَهَذِهِ الْمُدَّةُ تُسَمَّىٰ سِنَّ النَّشْوِ وَالنَّمَاءِ. ثُمَّ مُدَّةُ الْوُقُوفِ، وَهُوَ أَنْ يَبْقَىٰ ذَلِكَ الشَّيْءُ عَلَىٰ صِفَةِ كَمَالِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ، وَهَذِهِ الْمُدَّةُ تُسَمَّىٰ سِنَّ الشَّبَابِ. ثُمَّ مُدَّةُ الْكُهُولَةِ، وَهُوَ أَنْ يَظْهَرَ فِي الإِنْسَانِ نُقْصَانٌ خَفِيٌّ، وَهَذِهِ الْمُدَّةُ تُسَمَّىٰ سِنَّ الْكُهُولَةِ. ثُمَّ مُدَّةُ الشَّيْخُوخَةِ، وَهُوَ أَنْ يَظْهَرَ فِي الإِنْسَانِ نُقْصَانَاتٌ ظَاهِرَةٌ جَلِيلَةٌ إِلَىٰ أَنْ يَمُوتَ وَيَهْلِكَ، وَتُسَمَّىٰ هَذِهِ الْمُدَّةُ سِنَّ الشَّيْخُوخَةِ. ثُمَّ تَبْقَىٰ آثَارُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ مُدَّةً، ثُمَّ بِالآخِرَةِ تَنْمَحِي تِلْكَ الآثَارُ وَتَبْطُلُ وَتَزُولُ، وَلَا يَبْقَىٰ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا خَبَرٌ وَلَا أَثَرٌ» اهـ

(٢) الْبَيْتَانِ مِنَ الْبَحْرِ: [الْبَسِيط]، وَقَائِلُه: أَبُو الْعَتَاهِيَة. وَكَرُّ الْجَدِيدَيْنِ: كَرُّ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ أَيْ: عَوْدُهُمَا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَىٰ، وَيُسَمَّىٰ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ الْجَدِيدَيْنِ وَالأَجَدَّيْنِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِذَا جَاءَ فَهُوَ جَدِيدٌ. وَيَنْمَحِقُ: يَذْهَبُ.

(٣) هَكَذَا فِي الأَصْلِ؛ وَلَعَلَّ مَعْنَاهُ: يَكُونُ حَيًّا فِي بَيْضِهِ. وَفِي المطبوع: [حَبًّا]؛ أَيْ: بَيْضًا؛ لِأَنَّهُ يُشْبِهُ الْحَبَّ فِي شَكْلِهِ.

(٤) الْفِرْصَادُ: بِالْكَسْرِ؛ التُّوتُ الأَحْمَرُ خَاصَّةً.

(٥) الشَّرَهُ: أَسْوَأُ الْحِرْصِ. يُسْدِي: يُحْكِمُ وَيُبْرِمُ وَيَغْزِلُ الْخُيُوطَ وَيَلُفُّهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ كَالسَّدَي، وَأَسْدَي نَسَجَ. وَيَحْطِبُ: يَحْمِلُ. وَالأَوْزَارُ: الإِثْمُ وَالْخَطِيئَةُ. وَيُرْتَهَنُ: يُقَيَّدُ. وَثُمَّ يَقْرِضُ: قَرَضَ فُلَانٌ؛ أَيْ: مَاتَ. وَانْقَرَضَ الْقَوْمُ دَرَجُوا وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ. وَغُرْلًا: الَّذِي لَمْ يُخْتَنْ. وَبُهْمًا: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ. وَكَأَنَّهُ رحمه الله يُشِيرُ إِلَىٰ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الأَدَبِ الْمُفْرَدِ»(٩٧٠) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ رضي الله عنه يَرْفَعُهُ: «يَحْشُرُ اللهُ الْعِبَادَ - أَوِ النَّاسَ - عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا».

وَقَدْ دَلَّهُ عَلَىٰ الْبَعْثِ تَكَوُّنُ النُّطْفَةِ كَمَيِّتٍ، ثُمَّ تَصِيرُ آدَمِيًّا، وَإِلْقَاءُ الْحَبِّ تَحْتَ الأَرْضِ فَيَفْسُدُ، ثُمَّ يَهْتَزُّ خَضِرًا.

إِذَا الْمَـرْءُ كَانَـتْ لَـهُ فِكْـرَه   فَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ عِبْـرَه[١]

---

*[٣٤٨ - ٣١١][خَاطِرَةٌ]:

[السَّعِيدُ فِي الْحَيَاةِ مَنِ انْتَبَهَ لِنَفْسِهِ]

وَا عَجَبًا مِنْ مَوْجُودٍ لا يَفْهَمُ مَعْنَىٰ الْوُجُودِ؛ فَإِنْ فَهِمَ؛ لَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَىٰ فَهْمِهِ!!

يَعْلَمُ أَنَّ الْعُمُرَ قَصِيرٌ، وَهُوَ يُضِيِّعُهُ بِالنَّوْمِ وَالْبَطَالَةِ وَالْحَدِيثِ الْفَارِغِ وَطَلَبِ اللَّذَّاتِ، وَإِنَّمَا أَيَّامُهُ أَيَّامُ عَمَلٍ لا زَمَانُ فَرَاغٍ.

وَقَدْ كُلِّفَ بَذْلَ الْمَالِ بِمُخَالَفَةِ الطَّبْعِ مِنَ الشَّرْعِ، فَبَخِلَ بِهِ، إِلَىٰ أَنْ تَضَايَقَ الْخِنَاقُ، فَيَقُولُ حِينَئِذٍ: فَرِّقُوا عَنِّي بَعْدَ مَوْتِي! وَافْعَلُوا كَذَا! فَأَيْنَ يَقَعُ هَذَا لَوْ فَعَلَ؟! وَبَعِيدٌ أَنْ يَفْعَلَ.

وَإِنَّمَا يُرَادُ بِإِنْفَاقِكَ فِي صِحَّتِكَ مُخَالَفَةُ الطَّبْعِ فِي تَكَلُّفِ مَشَاقِّ الإِخْرَاجِ فِي زَمَنِ السَّلامَةِ[٢].

فَافْرُقْ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ إِنْ كَانَ لَكَ فَهْمٌ.

فَالسَّعِيدُ مَنِ انْتَبَهَ لِنَفْسِهِ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَىٰ عَقْلِهِ، وَاغْتَنَمَ زَمَنًا نِهَايَتُهُ الزَّمْنُ، وَانْتَهَبَ عُمُرًا، يَا قُرْبَ انْقِطَاعِهِ[٣]!

---

(١) البيت من البحر: [المتقارب].

(٢) كَأَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ يُشِيرُ إِلَىٰ مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَىٰ الفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الغِنَىٰ، وَلا تُمْهِلُ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا، وَلِفُلاَنٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ». البخاري، كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ «فَضْلِ صَدَقَةِ الشَّحِيحِ الصَّحِيحِ» (١٤١٩). ومسلم، كِتَابُ «الزَّكَاةِ» بَابُ «بَيَانِ أَنَّ أَفْضَلَ الصَّدَقَةِ صَدَقَةُ الصَّحِيحِ الشَّحِيحِ» (١٠٣٢).

(٣) الزَّمْنُ: الْمَرَضُ الَّذِي لَا يُرْجَىٰ بُرْؤُهُ. وَانْتَهَبَ: نَهَبَهُ؛ أَخَذَهُ قَهْرًا.

وَيْحَكَ! مَا تَصْنَعُ بِادِّخَارِ مَالٍ لا يُؤْثِرُ حَسَنَةً فِي صَحِيفَةٍ، وَلا مَكْرُمَةً فِي تَارِيخٍ؟!

أَمَا سَمِعْتَ بِإِنْفَاقِ أَبِي بَكْرٍ، وَبُخْلِ ثَعْلَبَةَ(١)؟!

أَمَا رَأَيْتَ تَأْثِيرَ مَدْحِ حَاتِمٍ، وَبُخْلَ الْحُبَاحِبِ(٢)؟!

وَيْحَكَ! لَوِ ابْتَلاكَ فِي مَالِكَ فَقَلَّ؛ لاسْتَغَثْتَ، أَوْ فِي بَدَنِكَ لَيْلَةً بِمَرَضٍ؛ لَشَكَوْتَ، فَأَنْتَ تَسْتَوْفِي مَطْلُوبَاتِكَ مِنْهُ، وَلا تَسْتَوْفِي حَقَّهُ عَلَيْكَ، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾[الْمُطَفِّفِينَ: ١]!

وَلْتَعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْقَدْرَ الْمُفَرَّطَ فِيهِ، يُحِلُّ الْخُلُوْدَ الدَّائِمَ فِي ثَوَابِ الْعَمَلِ فِيهِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ مَنَّ عَلَىٰ أَقْوَامٍ فَهِمُوْا الْمُرَادَ؛ فَأَتْعَبُوْا الأَجْسَادَ، وَغَطَّىٰ عَلَىٰ قُلُوبِ آخَرِينَ، فَوُجُوْدُهُمْ كَالْعَدَمِ.

وَكَيْفَ لا يُتْعِبُ الْعَاقِلُ بَدَنَهُ إِتْعَابَ الْبُدْنِ وَالْمَقْصُودُ مِنًى(٣)؟!

أَتَرَىٰ مَا بَالُ الْحَقِّ مُتَجَلِّيًا فِي إِيجَادِكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ؟!

بَلَىٰ وَاللهِ؛ إِنَّ وُجُوْدَكَ دَلِيلُ وُجُوْدِهِ، وَإِنَّ نِعَمَهُ عَلَيْكَ دَلِيلُ جُوْدِهِ.

---

(١) تَرجَمَة أَبُوْ بَكْرٍ فِي:[١٦٦-٤٠]. وَأَمَّا ثَعْلَبَة بن حَاطِب الأَنصَارِيّ شَهِدَ بَدْرًا، وَأُحُدًا، وَقُتِلَ بِهَا عَلَىٰ الأَرْجح. وَالَّذِي اِنْتَشَرَ فِي حَقِّهِ قِصَّة مُنْكَرَة مِنْ نَاحِيَة إِسْنَادِهَا بِجَمِيع طُرقهَا، وَمُنْكَرَة مِنْ نَاحِيَة مَتْنِهَا. قَالَ الْقُرطُبِيّ فِي «تَفْسِيرِهِ»: «وَثَعْلَبَةُ بن حَاطِبِ الأَنْصَارِيُّ بَدْرِيٌّ، مِمَّن شَهِدَ الله لَهُ وَرَسُوْله بِالإِيْمَان؛ فَمَا رُوِيَ غَير صَحِيح . . . وَقَالَ اِبْنِ عَبْدِ الْبَرِّ: وَلَعَلَّ قَوْل مَنْ قَالَ فِي ثَعْلَبَة: أَنَّهُ مَانِع الزَّكَاة الَّذِي نَزَلَت فِيهِ الآيَة غَيْرُ صَحِيح». وَقَالَ اِبْنُ حَزم فِي «الْمُحَلَّىٰ»: «عَلَىٰ أَنَّهُ قَدْ رُوِّينَا أَثَرًا لَا يَصِحُّ، وَفِيهِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ - وَهَذَا بَاطِلٌ، لِأَنَّ ثَعْلَبَةَ بَدْرِيٌّ مَعْرُوفٌ».[«ثَعْلَبَةُ بن حَاطِبٍ الصَّحَابِيّ الْمُفْتَرَىٰ عَلِيْه» عَذَّاب الحُمُش، «الشِّهَاب الثَّاقِب فِي الذَّبِّ عَنِ الصَّحَابِيّ ثَعْلَبَة بن حَاطِبٍ» سَلِيم الهِلَالِي، «الْمُقَدِّمَات الأَسَاسِيَّة» عَبْد الله الجَدِيع، «دِفَاع عَنِ السُّنَّة» عَلِي حَشِيْش].

(٢) حَاتِمِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعْدِ الطَّائِيُّ، أَبُو الصَّحَابِيِّ الْجَلِيْل عَدِيُّ بنُ حَاتِمٍ، كَانَ أَحد أَجْوَاد العَرَب فِي الجَاهِلِيَّةِ الَّذِيْن يُضْرَبُ بِهِمُ الْمَثَل فِي الجُوْدِ، مَاتَ:(٤٦ قَبْلَ الْهِجْرَةِ). وَالْحُبَاحِبِ: أَبُو حُبَاحِبٍ، كَانَ رَجُلًا مِن مُحارِبِ خَصَفَةَ، وَكَانَ بَخِيلًا، ضُرِبَ بِنَارِهِ الْمَثَلُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يُوقِدُ إِلَّا نَارًا ضَعِيفَةً، مَخَافَةَ الضِّيْفَانِ، فَقَالُوا: نَارُ الحُبَاحِبِ.

(٣) الْبُدْنِ: الإِبِل، وَالْبَقَرَة تَقُوْم مَقَامهَا. وَالْمَقْصُودُ مِنًى: بَلَد قُرب مَكَّة يَنْزِلَه الحُجَّاج أَيَّام التَّشْرِيق وَتُنْحَر فِيهِ الذَّبَائِح.

فَكَمَا قَدَّمَكَ عَلَىٰ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ؛ فَقَدِّمْهُ فِي قَلْبِكَ عَلَىٰ كُلِّ الْمَطْلُوبَاتِ.

وَا خَيْبَةَ مَنْ جَهِلَهُ! وَا فَقْرَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ! وَا ذُلَّ مَنِ اعْتَزَّ بِغَيْرِهِ! وَا حَسْرَةَ مَنِ اشْتَغَلَ بِغَيْرِ خِدْمَتِهِ!

*[٣٤٩ - ٣٠١][خَاطِرَةٌ]:

[عَلَى قدرِ عملكَ في الحَياة يكُونُ أجرُكَ بعدَ المَمات]

مِنْ عَجَائِبِ مَا أَرَىٰ مِنْ نَفْسِي وَمِنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ: الْمَيْلُ إِلَىٰ الْغَفْلَةِ عَمَّا فِي أَيْدِينَا؛ مَعَ الْعِلْمِ بِقِصَرِ الْعُمُرِ، وَأَنَّ زِيَادَةَ الثَّوَابِ هُنَاكَ، بِقَدْرِ الْعَمَلِ هَا هُنَا.

فَيَا قَصِيرَ الْعُمُرِ! اغْتَنِمْ يَوْمَيْ مِنًى! وَانْتَظِرْ سَاعَةَ النَّفْرِ! وَإِيَّاكَ أَنْ تَشْغَلَ قَلْبَكَ بِغَيْرِ مَا خُلِقَ لَهُ! وَاحْمِلْ نَفْسَكَ عَلَىٰ الْمُرِّ! وَاقْمَعْهَا إِذَا أَبَتْ، وَلَا تُسَرِّحْ لَهَا فِي الطِّوَلِ؛ فَمَا أَنْتَ إِلَّا فِي مَرْعًى[١].

وَقَبِيحٌ بِمَنْ كَانَ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ أَنْ يَتَشَاغَلَ بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ[٢].

*[٣٥٠ - ٢٧٣][خَاطِرَةٌ]:

[اعتَبِرْ بمَا فيكَ عَنْ غيرِكَ]

الْعَجَبُ مِمَّنْ يَقُولُ: أَخْرُجُ إِلَىٰ الْمَقَابِرِ فَاعْتَبِرُ بِأَهْلِ الْبِلَىٰ[٣]!!

وَلَوْ فَطِنَ؛ عَلِمَ أَنَّهُ مَقْبَرَةٌ؛ يُغْنِيهِ الِاعْتِبَارُ بِمَا فِيهَا عَنْ غَيْرِهَا!

---

(١) يَوْمَيْ مِنًى: أَيَّامُ مِنًى هِيَ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ الثَّلَاثَةُ:(١١، ١٢، ١٣) مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَتُسَمَّىٰ أَيَّام مِنًى أَوِ التَّشْرِيقِ أَوْ أَيَّام رَمْيِ الْجِمَار أَوْ الأَيَّام الْمَعْدُودَات. وَسَاعَةَ النَّفْرِ: الْأَوَّل:(١٢) من ذي الحجة، وَالثَّانِي:(١٣) من ذي الحجة، وَهُوَ يَوْم الرُّجُوع مِنْ مِنًى. وَتُسَرِّحْ لَهَا: تُطلِق لَهَا. وَالطِّوَلُ: الحَبْل الطَّوِيل يُشَدُّ أَحَد طَرَفَيْهِ فِي وَتَد أَوْ غَيْره وَالطَّرَف الآخَر فِي يَدِ الفَرَس لِيَدُورَ فِيهِ وَيَرْعَىٰ وَلَا يَذْهَب لِوَجْهِه.

(٢) الصَّفَّيْنِ: الْمُتحارِبَيْنِ؛ فَإِذَا الْتَحَمَ الْقِتَالِ، فَلَا يَحِقّ لَهُ أَنْ يَتَشَاغَل بِغَيْرِ الْقِتَالِ.

(٣) الْبِلَىٰ: الْفَنَاء، بَلِيَ الْمَيِّتُ أَفْنَتْهُ الأَرْضُ.

خُصُوْصًا مَنْ قَدْ أَوْغَلَ فِي السِّنِّ؛ فَإِنَّ شَهْوَتَهُ ضَعُفَتْ، وَقُوَاهُ قَلَّتْ، وَالْحَوَاسُّ كَلَّتْ، وَالنَّشَاطُ فَتَرَ، وَالشَّعْرُ ابْيَضَّ. . .

فَلْيَعْتَبِرْ بِمَا فَقَدَ، وَلْيَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ مَنْ فَقَدَ؛ فَقَدِ اسْتَغْنَىٰ بِمَا عِنْدَهُ عَنِ التَّطَلُّعِ إِلَىٰ غَيْرِهِ.

*[٣٥١ - ٩][خَاطِرَةٌ]:

[عَلَيْكَ بِدَوَامِ الانْتِبَاهِ]

الْوَاجِبُ عَلَىٰ الْعَاقِلِ أَخْذُ الْعُدَّةِ لِرَحِيلِهِ.

فَإِنَّهُ لا يَعْلَمُ مَتَىٰ يَفْجَؤُهُ أَمْرُ رَبِّهِ؟ وَلا يَدْرِي مَتَىٰ يُسْتَدْعَىٰ؟

وَإِنِّي رَأَيْتُ خَلْقًا كَثِيرًا غَرَّهُمُ الشَّبَابُ، وَنَسُوْا فَقْدَ الأَقْرَانِ، وَأَلْهَاهُمْ طُوْلُ الأَمَلِ.

وَرُبَّمَا قَالَ الْعَالِمُ الْمَحْضُ لِنَفْسِهِ[1]: أَشْتَغِلُ بِالْعِلْمِ الْيَوْمَ، ثُمَّ أَعْمَلُ بِهِ غَدًا! فَيَتَسَاهَلُ فِي الزُّهْدِ[2]، بِحُجَّةِ الرَّاحَةِ، وَيُؤَخِّرُ الرَّجَاءَ لِتَحْقِيقِ التَّوْبَةِ، وَلا يَتَحَاشَىٰ مِنْ غِيْبَةٍ أَوْ سَمَاعِهَا، وَمِنْ كَسْبِ شُبْهَةٍ يَأْمَلُ أَنْ يَمْحُوَهَا بِالْوَرَعِ، وَيَنْسَىٰ أَنَّ الْمَوْتَ قَدْ يَبْغَتُ.

فَالْعَاقِلُ مَنْ أَعْطَىٰ كُلَّ لَحْظَةٍ حَقَّهَا مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ؛ فَإِنْ بَغَتَهُ الْمَوْتُ؛ رُئِيَ مُسْتَعِدًّا، وَإِنْ نَالَ الأَمَلَ؛ ازْدَادَ خَيْرًا.

---

(١) هَكَذَا جَاءَ فِي الأَصْلِ:[الْمَحْضُ]. وَالْمَحْضُ: جَمع مِحاض، وَهُوَ كُلّ شَيْءٍ خَالِص لَا يَشُوْبُهُ مَا يُخَالِطُهُ؛ فَكَأَنَّ عِلْمُهُ لَا يُخَالِطُهُ عَمَل بِمَا يَعْلِم. وَجَاءَ فِي مَخْطُوْط: (ي):[الْمِحْقَن]؛ أَي: الْحَابِسُ لِنَفْسِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَقَط، دُوْنَ الْعَمَل بِهِ؛ فَكَأَنَّهُ بِمَثَابَةِ الْمِحْقَنِ الَّذِي يُحْقَنُ فِيهِ اللَّبَن، ثُمَّ لَا يَكُوْن لَهُ فَائِدَة بَعْدَ ذَلِكَ. وَكِلَاهُمَا صَحِيْح.

(٢) هَكَذَا جَاءَ فِي الأَصْلِ، وَفِي حَاشِيَةِ الأَصْلِ:[فِي الأَحْمَدِيَّةِ: فِي الزَّلَلِ]، وَكَذَلِكَ فِي مَخْطُوْطِ:(ي). وَالأَقْرَبُ مَا أَثْبَتْنَاهُ؛ لِأَنَّ الزَّلَل جَمع زَلَّة: الْخَطِيْئَة وَالسَّقْطَة؛ فَكَيْفَ لَهُ أَنْ يَتَسَاهَل فِي الزَّلَلِ مِنْ أَجْلِ الرَّاحَة؛ إِنَّمَا يَتَسَاهَل فِي الزُّهْدِ؛ يُكْثِر فِي اِسْتِخْدَامِهِ عَلَىٰ غَيْرِ وَجْهِهِ الْحَقِيْقِي بِحُجَّةِ الرَّاحَةِ. - وَالزُّهْدُ: عُزُوْفُ النَّفْسِ عَنِ الدُّنْيَا بِلَا تَكَلُّفٍ.

*[٣٥٢ – ٢٤٤][خَاطِرَةٌ]:

[إِيَّاكَ وَالْحِرْصَ وَطُولَ الْأَمَلِ]

رَأَيْتُ النَّفْسَ بَعْدَ عُلُوِّ السِّنِّ يَقْوَىٰ أَمَلُهَا، وَيَزْدَادُ حِرْصُهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَشِيبُ ابْنُ آدَمَ، وَتَشِبُّ مِنْهُ خَصْلَتَانِ: الْحِرْصُ وَالْأَمَلُ»[1].

وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَسْبَابِ ذَلِكَ فَرَاغَ الْيَدِ مِنَ الدُّنْيَا، وَكَثْرَةَ الْعَائِلَةِ، وَقُوَّةَ الْحَاجَةِ، فَيَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ التَّعَرُّضِ بِمَا يَشِينُ الْعِرْضَ، لِيَحْصُلَ الْغَرَضُ!

فَقُلْتُ: إِلَهِي! أَبَعْدَ رُؤْيَةِ جِبَالِ عَرَفَةَ أَضِلُّ؟! أَبَعْدَ مُشَارَفَةِ الْحَرَمِ تَأْخُذُنِي أَعْرَابُ الْبَادِيَةِ؟!

وَا أَسَفًا! أَيَطْلُعُ فَجْرُ النَّحْرِ وَمَا وَصَلْتُ إِلَىٰ عَرَفَاتٍ؟! وَيَا ضَيَاعَ سَفَرِ الْعُمُرِ وَمَا حَصَلَ الْمَقْصُودُ!

قَــدْ كُنْـــتُ أَرْجُـــوكَ لِنَيْـــلِ الْمُنَـــىٰ وَالْيَــــوْمَ لا أَطْلُــــبُ إِلَّا الرِّضَــــا[2]

ثُمَّ قُلْتُ: يَا نَفْسُ! مَا لَكِ مَلْجَأٌ إِلَّا اللَّجَأُ، وَاسْتِغَاثَةُ الْغَرِيقِ؛ فَإِنْ رُحِمْتِ، وَإِلَّا؛ فَكَمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَحْتَ التُّرَابِ!

---

(١) الْحَدِيثُ بِهَذَا اللَّفْظ ذَكَرَهُ جَلَالُ الدِّينِ الْقَزْوِينِيِّ فِي «تَلْخِيص المِفْتَاح = عَرُوس الأَفْرَاح»(١/ ٦٠٦). وَالسَّخَاوِيّ فِي «المَقَاصِد الحَسَنَة»(١/ ٧٤٤/ح ١٣٥٢). وَذَكَرَهُ الذَّهَبِيّ فِي «مِيزَانِ الاعتِدَال»(٤/ ١٥٦) وَابن حَجَرِ الْعَسْقَلَانِيّ فِي «لِسَانِ الْمِيزَانِ»(٨/ ١١٨/ ت: مَعْمَر – أو مُعمر – بْن بُرَيْكٍ) بِلَفْظ: «يَشِيبُ الْمَرءُ. . .» وَقَالَ الذَّهَبِيّ: رَأَيْتُ وَرَقَةً فِيهَا أَحَادِيث سُئِلْتُ عَنْ صِحَّتِهَا فَأَجَبْتُ بِبُطلَانِهَا وَأَنَّهَا كَذِبٌ وَاضِحٌ، – وَذَكَر الْحَدِيث بِلَفْظ: «يَشِيبُ الْمَرءُ» –. وَالْحَدِيث ثَابت بِلَفْظ مُقَارب فِي «مُسْنَدِ» أَحْمَد.(١٢١٤٢، ١٢٢٠٢، ١٢٧٢١، ١٣٩١٧)، وَالْبَيْهَقِيّ فِي «الشُّعَبِ»(٩٧٧٩) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَبْقَىٰ – وَيَبْقَىٰ – مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ، وَالْأَمَلُ». وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» كِ: «الزَّكَاةِ»(١٠٤٧). عَنْ أَنَسٍ: قَالَ ﷺ: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ، وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَىٰ الْمَالِ، وَالْحِرْصُ عَلَىٰ الْعُمُرِ». وَيَشِيبُ: اِبْيَضَّ شَعره وَانْتَشَرَ. وَتَشِبُّ تُوقَد وَتَشْتَعِل وَتَنْمُو. وَيَهْرَمُ: يَبْلُغُ مُنْتَهَىٰ الكِبَر وَالضَّعْف.

(٢) البيت من البحر: [السريع]. وقائله: الشريف الرضي.

*[٣٥٣ - ١٥٨][خَاطِرَةٌ]:

[عِنْدَ قُرْبِ الأجل يَجْتَمِعُ لَكَ كُلّ مَا تُحِبّ]

رَأَيْتُ النَّفْسَ تَنْظُرُ إِلَىٰ لَذَّاتِ أَرْبَابِ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةِ، وَتَنْسَىٰ كَيْفَ حُصِّلَتْ، وَمَا يَتَضَمَّنُهَا مِنَ الآفَاتِ.

وَبَيَانُ هَذَا: أَنَّكَ إِنْ رَأَيْتَ صَاحِبَ إِمَارَةٍ وَسَلْطَنَةٍ، فَتَأَمَّلْتَ نِعْمَتَهُ؛ وَجَدْتَهَا مَشُوْبَةً بِالظُّلْمِ: فَإِنْ لَمْ يَقْصُدْهُ هُوَ؛ حَصَلَ مِنْ عُمَّالِهِ. ثُمَّ هُوَ خَائِفٌ، مُنْزَعِجٌ فِي كُلِّ أُمُوْرِهِ، حَذِرٌ مِنْ عَدُوٍّ أَنْ يَسُمَّهُ، قَلِقٌ مِمَّنْ هُوَ فَوْقَهُ أَنْ يَعْزِلَهُ، وَمِنْ نَظِيرِهِ أَنْ يَكِيدَهُ. ثُمَّ أَكْثَرُ زَمَانِهِ يَمْضِي فِي خِدْمَةِ مَنْ يَخَافُهُ مِنَ السَّلَاطِينِ، وَفِي حِسَابِ أَمْوَالِهِمْ، وَتَنْفِيذِ أَوَامِرِهِم، الَّتِي لَا تَخْلُوْ مِنْ أَشْيَاءَ مُنْكَرَةٍ. وَإِنْ عُزِلَ؛ أَرْبَىٰ ذَلِكَ عَلَىٰ جَمِيعِ مَا نَالَ مِنْ لَذَّةٍ(١). ثُمَّ تِلْكَ اللَّذَّةُ تَكُوْنُ مَغْمُوْرَةً بِالْحَذَرِ فِيهَا وَمِنْهَا وَعَلَيْهَا.

وَإِنْ رَأَيْتَ صَاحِبَ تِجَارَةٍ؛ رَأَيْتَهُ قَدْ تَقَطَّعَ فِي الْبِلَادِ، فَلَمْ يَنَلْ مَا نَالَ إِلَّا بَعْدَ عُلُوِّ السِّنِّ، وَذَهَابِ زَمَانِ اللَّذَّةِ؛ كَمَا حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الرُّؤَسَاءِ كَانَ حَالَ شَبِيْبَتِهِ فَقِيرًا، فَلَمَّا كَبِرَ؛ اسْتَغْنَىٰ، وَمَلَكَ أَمْوَالًا، وَاشْتَرَىٰ عَبِيْدًا مِنَ التُّرْكِ وَغَيْرِهِمْ، وَجَوَارٍ مِنَ الرُّومِ، فَقَالَ هَذِهِ الأَبْيَاتَ فِي شَرْحِ حَالِهِ(٢):

مَا كُنْتُ أَرْجُوْهُ إِذْ كُنْتُ ابْنَ عِشْرِينَا ... مَلَكْتُهُ بَعْدَ أَنْ جَاوَزْتُ سَبْعِينَا

---

(١) أَرْبَىٰ ذَلِكَ عَلَىٰ: زَادَ عَلَيْهَا؛ أَيْ: أَنَّ حَسْرَةَ الْعَزْلِ تَزِيْد عَلَىٰ جَمِيْعِ لَذَّاتِ الْمَنْصِب.

(٢) الأَبْيَات مِنَ الْبَحْرِ:[البَسِيط]. وَأَغْزِلَةٌ: غَزالٌ؛ شَبَّهَ الفَتَيَاتِ بِالغَزَالَةِ؛ لِأَنَّهَا رَشِيْقَة القَوَام، نَحِيفَة القَوَائِم طَوِيْلهَا، عَيْنَاهَا كَبِيْرَتَانِ. وَكُثْبَانٍ: تَل أَوْ مُرتَفَع مِنَ الرِّمَالِ كَوَّمَتْهُ الرِّيَاحُ في الصَّحَارِي أَوْ عَلَىٰ شَوَاطِئِ المُحِيْطَات وَالبُحَيْرَات. وَيَبْرِينَا: وَاحَة يَبْرِيْن وَاحَة زِرَاعِيَّة تَقَع ضِمْن مُحَافَظَات الأَحْسَاء بِالمَمْلَكَةِ العَرَبِيَّة السُّعُوْدِيَّة، وَتَبْعُدُ عَنْ مَدِيْنَةِ حَرض حَوَالِي ٩٠ ك.م. جَنُوْبًا، تَكْثُرُ فِيْهَا أَشْجَار النَّخِيْل وَتَتَمَيَّزُ أَرْضهَا بِقُرْبِ الْمِيَاه وَخُصُوْبَتِهَا، وَهِيَ إِحْدَىٰ مَوَاطِنِ آل مُرَّة. وَخُرَّدٌ: خَرَائِدُ وَخُرُدٌ. مُفْرَدهَا: خَرِيْدَةٌ: فَتَاة عَذْرَاء لَم تُمَس. وَالْعِيْنَا: الْعِيْن: وَاسِعَاتِ الْعِيْنِ مَعَ شِدَّةِ بَيَاضٍ لَبَيَاضِهَا وَسَوَادٍ لِسَوَادِهَا. بِأَسَارِيعَ: الواحِدُ أُسْرُوعٌ وَالأَسَارِيعُ: دُودٌ حُمْرُ الرُّؤُوس بِيْضُ الأَجْسَاد تَكُوْنُ فِي الرَّمْلِ تُشَبَّه بِهَا أَصَابع النِّسَاءِ، وَالسَّرْعَرَعةُ مِنَ النِّسَاءِ: اللَّيِّنَةِ النَّاعِمَةُ.

تَطُـوْفُ بِـي مِـنَ الأَتْـرَاكِ أَغْزِلَـةٌ ... مِثْـلُ الْغُصُـوْنِ عَلَـى كُثْبَـانِ يَبْرِيْنَـا
وَخُـرَّدٌ مِـنْ بَنَـاتِ الـرُّومِ رَائِعَـةٌ ... يَحْكِيْنَ بِالْحُسْـنِ حُـوْرَ الْجَنَّـةِ الْعِيْنَـا
يَغْمِزْنَنِـي بِأَسَـارِيعَ مُنَعَّمَـةٍ ... تَكَـادُ تُعْقَـدُ مِـنْ أَطْرَافِهَـا لِيْنَـا
يُـرِدْنَ إِحْيَـاءَ مَيْـتٍ لا حَـرَاكَ بِـهِ ... وَكَيْـفَ يُحْيِـيْنَ مَيْتًـا صَـارَ مَـدْفُوْنَا؟!
قَـالُوْا: أَنِيْنُـكَ طُـوْلَ اللَّيْـلِ يُسْـهِرُنَا ... فَمَـا الَّـذِي تَشْـتَكِي؟ قُلْـتُ: الثَّمَانِيْنَـا

وَهَذِهِ الْحَالَةُ هِيَ الْغَالِبَةُ؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ لا يَكَادُ يَجْتَمِعُ لَهُ كُلُّ مَا يُحِبُّهُ إِلَّا عِنْدَ قُرْبِ رَحِيْلِهِ؛ فَإِنْ بَدَرَ مَا يُحِبُّ فِي بِدَايَةِ شَبَابِهِ؛ فَالْصَّبْوَةُ مَانِعَةٌ مِنْ فَهْمِ التَّدْبِيرِ أَوْ حُسْنِ الالْتِذَاذِ[١].

وَالإِنْسَانُ فِي حَالَةِ الصَّبْوَةِ لا يَدْرِي أَيْنَ هُوَ؛ إِلَّا أَنْ يَبْلُغَ: فَإِذَا بَلَغَ؛ كَانَتْ هِمَّتُهُ فِي المَنْكُوحِ كَيْفَمَا اتَّفَقَ. وَإِنْ تَزَوَّجَ؛ جَاءَ الأَوْلَادُ، فَمَنَعُوْهُ اللَّذَّةَ، وَانْكَسَرَ فِي نَفْسِهِ، وَافْتَقَرَ إِلَىٰ الكَسْبِ عَلَيْهِم. فَبَيْنَمَا هُوَ قَدْ دَعَكَ فِي تِلْكَ الْمُدَيْدَةِ الْقَرِيْبَةِ الثَّلَاثِيْنَ؛ وَخَطَّهُ الشَّيْبُ، فَانفرقَ مِنْ نَفْسِهِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ النِّسَاءَ يَنفرقْنَ مِنْهُ[٢]؛ كَمَا قَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ بِاللهِ[٣]:

لَقَـدْ أَتْعَبْـتُ نَفْسِـي فِـي مَشِـيْبِي ... فَكَيْـفَ تُحِبُّنِـي الخُـرْدُ الْكِعَـابُ

فَإِذَا فِيهِمُ الْمُتَمَتِّعُ بِالْمُسْتَحْسَنَاتِ، وَخَرَجَ عَنْ طَلَبِ صُوْرَةِ النِّكَاحِ؛ لَمْ يَجِدْ مَالًا يَبْلُغُ بِهِ الْمُرَادَ؛ فَإِنْ كَسَبَ ضَاعَ زَمَنُ تَمَتُّعِهِ، وَإِذَا تَمَّ الْمَطْلُوْبُ؛ فَالشَّيْبُ أَقْبَحُ قَذًى[٤]، وَأَعْظَمُ مُبْغِضٍ.

(١) الصَّبْوَةُ: صِغَرُ سِنٍّ وَحَدَاثَةٌ.

(٢) دَعَكَ: الدَّعْكُ: الدَّلْكُ؛ يُقَالُ: تَدَاعَكَ الرَّجُلَانِ فِي الْحَرْبِ، إِذَا تَمَرَّسَا. * الْمُدَيْدَةِ: الْمُدَّةُ الْقَصِيرَةُ. وَخَطَّهُ الشَّيْبُ: تَرَكَ آثَارًا بَيْضَاءَ فِي شَعْرِهِ أَوْ خَالَطَ سَوَادَ شَعْرِهِ أَوْ فَشَا فِي شَعْرِ رَأْسِهِ أَوْ اسْتَوَى سَوَادُهُ وَبَيَاضُهُ. فَانفرقَ/ يَنفرقْنَ مِنْهُ: فَرِقَ؛ أَيْ: فَزِعَ وَجَزِعَ وَاشْتَدَّ خَوْفُهُ.

(٣) ابْنُ الْمُعْتَزِّ بِاللهِ: عَبْدُ اللهِ ابْنُ الْمُعْتَزِّ بِاللهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُتَوَكِّلِ جَعْفَرِ ابنِ الْمُعْتَصِمِ مُحَمَّدِ ابنِ الرَّشِيْدِ، الأَمِيْرُ أَبُو العَبَّاسِ، الأَدِيْبُ، صَاحِبُ الشِّعرِ البَدِيْعِ. والبيت من البحر: [الوافر]. وَالْكِعَابُ: الْجَارِيَةُ النَّاهِدَةُ الثَّدْيَيْنِ.

(٤) قَذًى: وَسَخٌ أَبْيَضُ جَامِدٌ يَجْتَمِعُ فِي زَوَايَا الأَجْفَانِ.

ثُمَّ إِنَّ صَاحِبَ الْمَالِ خَائِفٌ عَلَىٰ مَالِهِ، مُحَاسِبٌ لِمُعَامِلِيْهِ، مَذْمُوْمٌ إِنْ أَسْرَفَ وَإِنْ قَتَّرَ، وَلَدُهُ يَرْصُدُ مَوْتَهُ، وَجَارِيَتُهُ قَدْ لَا تَرْضَىٰ بِشَخْصِهِ، وَهُوَ مَشْغُوْلٌ بِحِفْظِ حَوَاشِيْهِ؛ فَقَدْ مَضَىٰ زَمَانُهُ فِي مِحَنٍ؛ وَاللَّذَّاتُ فِيْهَا خِلَسٌ مُعْتَادَةٌ، لا لَذَّةَ فِيْهَا[1].

ثُمَّ فِي القِيَامَةِ يُحْشَرُ الأَمِيْرُ وَالتَّاجِرُ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ[2].

فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ صُوْرَةِ نَعِيْمِهِم؛ فَإِنَّكَ تَسْتَطِيْبُهُ لِبُعْدِهِ عَنْكَ، وَلَوْ نِلْتَهُ بَرَدَ عِنْدَكَ، ثُمَّ فِي ضِمْنِهِ مِنْ مِحَنِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا لا يُوْصَفُ.

فَعَلَيْكَ بِالْقَنَاعَةِ مَهْمَا أَمْكَنَ؛ فَفِيْهَا سَلَامَةُ الدُّنْيَا وَالدِّيْنِ.

وَقَدْ قِيْلَ لِبَعْضِ الزُّهَّادِ، وَعِنْدَهُ خُبْزٌ يَابِسٌ: كَيْفَ تَشْتَهِي هَذَا؟ فَقَالَ: أَتْرُكُهُ حَتَّىٰ أَشْتَهِيْهِ.

---

(١) قَتَّرَ: ضَيَّقَ فِي النَّفَقَةِ. وَيَرْصُدُ مَوْتَهُ: يُرَاقِبُ وَيَرتَقِب. وَحَوَاشِيْهِ: حَاشِيَة: أَعْوَانُهُ الْمُقَرَّبُوْن، وَفِي النَّسَبِ: غَيْرُ الأُصُوْلِ وَالفُرُوْعِ مِنَ الأَقَارِبِ. وَخِلَسٌ: فُرصَةٌ تُنتَهز؛ أَي: اللَّذَّاتَ وَقتُهَا قَصِير تُنتَهز فَتُختَلَس مِنَ الأَيَّامِ الشَّدَائِدِ.

(٢) يَعْنِي: الأَمِيْرُ وَالتَّاجِرُ اللَّذَيْن لَا يَتَّقِيَان الله تَعَالَىٰ يُحْشَرَان يَوْم القِيَامَة خَزَايَا أَوْ فُجَّارًا، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ مَا رَوَاهُ الدَّارِمِيّ، كِ: «الْبُيُوعِ» (٢٥٣٨). «التُّجَّارُ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّارًا، إِلَّا مَنِ اتَّقَىٰ اللهَ وَبَرَّ وَصَدَقَ». وَرَوَىٰ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «كِتَابِ الأَهْوَالِ» (ح٢٤٠) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَىٰ بِالْحُكَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَنْ قَصَّرَ، وَبِمَنْ تَعَدَّىٰ، فَيَقُولُ اللهُ: أَنْتُمْ خُزَّانُ أَرْضِي، وَرُعَاةُ غَنَمِي، وَفِيكُمْ بُغْيَتِي، فَيُقَالُ لِلَّذِي تَعَدَّىٰ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ تَعَدِّيكَ؟ فَيَقُولُ: غَضِبْتُ لَكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ اللهُ: أَنْتَ أَشَدُّ غَضَبًا مِنِّي؟ وَيُقَالُ لِلَّذِي قَصَّرَ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ؟ فَيَقُولُ: رَفَقْتُ بِعِبَادِكَ، فَيَقُولُ اللهُ: أَنْتَ أَرْفَقُ بِهِمْ مِنِّي؟ انْطَلِقُوا بِهِمْ فَسُدُّوا بِهِمْ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ جَهَنَّمَ» وَقَدْ أَوْرَدَ الْمُعَافَىٰ الْمَوْصِلِيُّ وَأَحْمَد كِلاهُمَا فِي «الزُّهْدِ» (٤٠/ ١٦٤٨): «أَنَّ الأُمَرَاءَ وَالأَغْنِيَاءَ يُحْشَرُوْنَ جَاثُونَ عَلَىٰ رُكَبِهِمْ؛ فَيُقَالُ لَهُمْ: قِبَلَكُمْ طِلْبَتِي، إِنَّكُمْ كُنْتُمْ مُلُوكَ النَّاسِ وَحُكَّامَهُمْ وَأَهْلَ الْغِنَىٰ، فَأَرُونِي مَا صَنَعْتُمْ فِيمَا». وَقَوْلُ ابْنِ الجَوْزِيّ: «إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ»، إِشَارَةٌ إِلَىٰ مَا رَوَاهُ ابْن مَاجَة، كِ: «التِّجَارَاتِ» (٢١٣٩). «التَّاجِرُ الأَمِينُ الصَّدُوقُ الْمُسْلِمُ، مَعَ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وَمِنَ السَّبْعَةِ الَّذِيْنَ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: «الإِمَامُ العَادِلُ» رَوَاهُ البُخَارِيّ، كِ: «الأَذَانِ» (٦٦٠). وَمُسْلِمٌ، كِ: «الزَّكَاةِ» (١٠٣١).

*[٣٥٤ - ٣١٢][خَاطِرَةٌ]:

[مَا يُسَلِّي عَنِ الدُّنْيَا، وَيُهَوِّنُ فِرَاقَهَا]

إِنِّي أَعْجَبُ مِنْ عَاقِلٍ يَرَىٰ اسْتِيلَاءَ الْمَوْتِ عَلَىٰ أَقْرَانِهِ وَجِيرَانِهِ؛ كَيْفَ يَطِيبُ عَيْشُهُ؟! خُصُوْصًا إِذَا عَلَتْ سِنُّهُ!

وَا عَجَبًا لِمَنْ يَرَىٰ الْأَفَاعِيَ تَدِبُّ إِلَيْهِ، وَهُوَ لَا يَنْزَعِجُ!!

أَمَا يَرَىٰ الشَّيْخُ دَبِيبَ الْمَوْتِ فِي أَعْضَائِهِ، قَدْ أَخْرَجَ سِكِّيْنَ الْقُوَىٰ، وَأَنْزَلَ مُتَغَشْرِمَ الضَّعْفِ، وَقَلَبَ السَّوَادَ بَيَاضًا، ثُمَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَزِيْدُ النَّاقِصُ[1].

فَفِي نَظَرِ الْعَاقِلِ إِلَىٰ نَفْسِهِ مَا يَشْغَلُهُ عَنِ النَّظَرِ إِلَىٰ خَرَابِ الدُّنْيَا، وَفِرَاقِ الْإِخْوَانِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُزْعِجًا، وَلَكِنَّ شُغْلَ مَنِ احْتَرَقَ بَيْتُهُ بِنَقْلِ مَتَاعِهِ، يُلْهِيْهِ عَنْ ذِكْرِ بُيُوتِ الْجِيرَانِ.

وَإِنَّهُ لَمِمَّا يُسَلِّي عَنِ الدُّنْيَا[2]، وَيُهَوِّنُ فِرَاقَهَا اسْتِبْدَالُ الْمَعَارِفِ بِمَنْ تُنْكِرُهُ. . . فَقَدْ رَأَيْنَا أَغْنِيَاءَ كَانُوا يُؤْثِرُوْنَ، وَفُقَرَاءَ كَانُوا يَصْبِرُوْنَ، وَمُحَاسِبِيْنَ لِأَنْفُسِهِمْ يَتَوَرَّعُوْنَ؛ فَاسْتُبْدِلَ السُّفَهَاءُ عَنِ الْعُقَلَاءِ، وَالْبُخَلَاءُ عَنِ الْكُرَمَاءِ.

فَيَا سُهُوْلَةَ الرَّحِيلِ! لَعَلَّ النَّفْسَ تَلْقَىٰ مَنْ فَقَدَتْ، فَتَلْحَقُ بِمَنْ أَحَبَّتْ.

*[٣٥٥ - ١٣٢][خَاطِرَةٌ]:

[عَلَى الْعَاقِلِ الِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ]

يَجِبُ عَلَىٰ مَنْ لَا يَدْرِي مَتَىٰ يَبْغَتُهُ الْمَوْتُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًّا، وَلَا يَغْتَرَّ بِالشَّبَابِ وَالصِّحَّةِ؛

(١) يَعْنِي: أَمَا يَرَىٰ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ أَنَّ الْمَوْتَ سَرَىٰ فِي أَعْضَائِهِ وَانْتَشَرَ بِعَلَامَاتِهِ؛ فَيَرَىٰ جِسْمًا بِلَا حَقِيْقَةٍ، بِيَدَيْنِ لَا تَبْطِشَانِ، وَبِرِجْلَيْنِ لَا يَتَحَرَّكَانِ، وَبِأُذُنَيْنِ لَا يَسْمَعَانِ؛ فَيَرَىٰ نَفْسَهُ وَقَدْ أُخْرِجَتْ مِنْهَا قِوَاهَا، وَأَقْبَلَ الضَّعْفُ وَرَكِبَهُ بِشِدَّةٍ، وَقَهَرَهُ، وَقَلَبَ السَّوَادَ بَيَاضًا. وَمُتَغَشْرِمٌ: يَأْخُذُ الشَّيْءَ بِقُوَّةٍ. وَالْغَشْمَرُ: الإِقْبَالُ أَوِ الرُّكُوبُ أَوِ الشِّدَّةُ وَالْقَهْرُ.

(٢) يُسَلِّي عَنِ الدُّنْيَا: يُنْسِيهِ وَتَطِيبُ نَفْسُهُ.

فَإِنَّ أَقَلَّ مَنْ يَمُوْتُ الأَشْيَاخُ، وَأَكْثَرَ مَنْ يَمُوْتُ الشُّبَّانُ، وَلِهَذَا يَنْدُرُ مَنْ يَكْبَرُ.

وَقَدْ أَنْشَدُوْا[١]:

يُعَمَّرُ وَاحِدٌ فَيَغُرُّ قَوْمًا ... وَيُنْسَى مَنْ يَمُوْتُ مِنَ الشَّبَابِ

وَمِنَ الاغْتِرَارِ طُوْلُ الأَمَلِ، وَمَا مِنْ آفَةٍ أَعْظَمُ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا طُوْلُ الأَمَلِ؛ مَا وَقَعَ إِهْمَالٌ أَصْلًا، وَإِنَّمَا يُقَدِّمُ الْمَعَاصِي، وَيُؤَخِّرُ التَّوْبَةَ؛ لِطُولِ الأَمَلِ، وَتُبَادِرُ الشَّهَوَاتُ، وَتُنْسَى الإِنَابَةُ؛ لِطُوْلِ الأَمَلِ.

وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ قِصَرَ الأَمَلِ؛ فَاعْمَلْ عَمَلَ قَصِيْرِ الأَمَلِ.

وَلا تَمْسِ حَتَّى تَنْظُرَ فِيمَا مَضَى مِنْ يَوْمِكَ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ زَلَّةً؛ فَامْحُهَا بِتَوْبَةٍ، أَوْ خَرْقًا؛ فَارْقَعْهُ بِاسْتِغْفَارٍ.

وَإِذَا أَصْبَحْتَ؛ فَتَأَمَّلْ مَا مَضَى فِي لَيْلِكَ. وَإِيَّاكَ وَالتَّسْوِيْفَ؛ فَإِنَّهُ أَكْبَرُ جُنُودِ إِبْلِيسَ.

وَخُذْ لَكَ مِنْكَ عَلَى مُهْلَةٍ ... وَمُقْبِلُ عَيْشِكَ لَمْ يُدْبِرِ

وَخَفْ هَجْمَةً لا تُقِيْلُ الْعِثَا ... رَ وَتَطْوِي الْوُرُوْدَ عَلَى الْمَصْدَرِ

وَمَثِّلْ لِنَفْسِكَ أَيُّ الرَّعِيلِ ... يَضُمُّكَ فِي حَلْبَةِ الْمَحْشَرِ[٢]

ثُمَّ صَوِّرْ لِنَفْسِكَ قِصَرَ الْعُمُرِ، وَكَثْرَةَ الأَشْغَالِ، وَقُوَّةَ النَّدَمِ عَلَى التَّفْرِيْطِ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَطُوْلَ الْحَسْرَةِ عَلَى الْبِدَارِ بَعْدَ الْفَوَاتِ.

وَصَوِّرْ ثَوَابَ الْكَامِلِيْنَ وَأَنْتَ نَاقِصٌ، وَالْمُجْتَهِدِيْنَ وَأَنْتَ مُتَكَاسِلٌ.

وَلا تُخْلِ نَفْسَكَ مِنْ مَوْعِظَةٍ تَسْمَعُهَا، وَفِكْرَةٍ تُحَادِثُهَا بِهَا.

فَإِنَّ النَّفْسَ كَالْفَرَسِ الْمُتَشَيْطِنِ[٣]: إِنْ أَهْمَلْتَ لِجَامَهُ؛ لَمْ تَأْمَنْ أَنْ يَرْمِيَ بِكَ.

---

(١) البيت من البحر: [الوافر].

(٢) الأبيات من البحر: [المُتقارب].

(٣) الْمُتَشَيْطِنِ: تَشَيْطَنَ: صَارَ كَالشَّيْطَانِ أَوْ فَعَلَ فِعْلَهُ. وَكُلُّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالدَّوَابِّ شَيْطَانٌ.

وَقَدْ وَاللهِ دَنَّسَتْكَ أَهْوَاؤُكَ، وَضَيَّعْتَ عُمُرَكَ.

فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ فِي الصِّيَانَةِ قَبْلَ تَلَفِ الْبَاقِي بِالصَّبَابَةِ؛ فَكَمْ تَعَرْقَلَ فِي فَخِّ الْهَوَىٰ جَنَاحُ حَازِمٍ! وَكَمْ وَقَعَ فِي بِئْرِ بَوَارٍ مَخْمُوْرٌ(١)!

وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

---

*[٣٥٦ - ٢١٤][خَاطِرَةٌ]:

[الْبِدَارَ الْبِدَارَ فَقَدْ قَرُبَ الرَّحِيلُ]

مَنْ عَلِمَ قُرْبَ الرَّحِيلِ عَنْ مَكَّةَ؛ اسْتَكْثَرَ مِنَ الطَّوَافِ، خُصُوصًا إِنْ كَانَ لا يُؤَمِّلُ الْعَوْدَ؛ لِكِبَرِ سِنِّهِ، وَضَعْفِ قُوَّتِهِ.

فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لِمَنْ قَارَبَهُ سَاحِلُ الأَجَلِ بِعُلُوِّ سِنِّهِ أَنْ يُبَادِرَ اللَّحَظَاتِ، وَيَنْتَظِرَ الْهَاجِمَ بِمَا يَصْلُحُ لَهُ(٢)؛ فَقَدْ كَانَ فِي قَوْسِ الأَجَلِ مِنْزَعٌ زَمَانَ الشَّبَابِ، وَاسْتَرْخَىٰ الْوَتَرُ فِي الْمَشِيْبِ عَنْ سِيَةِ الْقَوْسِ؛ فَانْحَدَرَ إِلَىٰ الْقَابِ، وَضَعُفَتِ الْقُوَىٰ، وَمَا بَقِيَ إِلَّا الاِسْتِسْلَامُ لِمُحَارِبِ التَّلَفِ(٣).

فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ إِلَىٰ التَّنْظِيفِ؛ لِيَكُوْنَ الْقُدُوْمُ عَلَىٰ طَهَارَةٍ.

وَأَيُّ عَيْشٍ فِي الدُّنْيَا يَطِيبُ لِمَنْ أَيَّامُهُ السَّلِيمَةُ تُقَرِّبُهُ إِلَىٰ الْهَلَاكِ، وَصُعُوْدُ عُمُرِهِ نُزُوْلٌ عَنِ

---

(١) يَعْنِي: أَسْرِع وَبَادِر أَيُّهَا العَاقِلُ إِلَىٰ صِيَانَةِ وَحِفظِ مَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِكَ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَانَةِ؛ قَبْلَ أَنْ يَضِيعَ بِسَبَبِ رِقَّةِ الشَّوْقِ وَحَرَارَتِه؛ فَكَمْ تَعَسَّرَ وَوَاجَهَ صِعَابًا وَعَقَبَاتٍ فِي طَرِيقِهِ الرَّجُلِ الْحَازِمِ؛ وَذَلِكَ بِسَبَبِ الْهَوَىٰ! وَكَمْ وَقَعَ فِي بِئْرِ خَرَابٍ غَائِبَ العَقْلِ مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ فِي الْخُسْرَانِ الْمُبِيْنِ.

(٢) الْهَاجِم: الْمَوْت؛ لِأَنَّهُ يَهْجُم وَيَأْتِي بَغْتَة.

(٣) الْمِنْزَع: السَّهْمُ الْبَعِيدُ الْمَرْمَىٰ. وَاسْتَرْخَىٰ الْوَتَرُ: لَانَ مُعَلَّق القَوْس. وَسِيَةُ الْقَوْسِ: ما عُطِفَ مِنْ طَرَفَيْهَا، وَالْجَمْع: سِيَات. فَانْحَدَرَ إِلَىٰ الْقَابِ: سَقَطَ القَاب وَهُوَ: مَا وَرَاء مَعْقِد الْوتر إِلَىٰ طَرفِهَا، وَلِكُلِّ قَوْسٍ قَابَانِ. وَالْمُحَارِب: مَنْ حَمَلَ السِّلَاح. وَالتَّلَف: الْهَلَاك وَالْفَنَاء. وَهَذَا تَشْبِيهٌ فِي غَايَةِ الجَمَالِ؛ فَقَدْ شَبَّهَ الْعُمُر وَهُوَ فِي آخِرِ مَرَاحِلِهِ بِالْقَوْسِ الَّتِي طَالَ اسْتِعْمَالهَا حَتَّىٰ لَانَت وَضَعُفَت؛ فَهَلَكَ صَاحِبُهَا.

الْحَيَاةِ، وَطُوْلُ بَقَائِهِ نَقْصُ مَدَىٰ الْمُدَّةِ؟!

فَلْيَتَفَكَّرْ فِيمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ أَهَمُّ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ.

أَلَيْسَ فِي «الصَّحِيحِ»: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَيُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ مِنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللهُ»[(١)]؟!

فَوَا أَسَفًا لِمُهَدَّدٍ كَمْ يُقْتَلُ قَبْلَ الْقَتْلِ! وَيَا طِيْبَ عَيْشٍ لِمَوْعُوْدٍ بِأَزْيَدِ الْمُنَىٰ!

وَلْيَعْلَمْ مَنْ شَارَفَ السَّبْعِينَ أَنَّ النَّفَسَ أَنِيْنٌ[(٢)]!

أَعَانَ اللهُ مَنْ قَطَعَ عَقَبَةَ الْعُمُرِ عَلَىٰ رَمْلِ زَرُوْدِ الْمَوْتِ[(٣)].

*[٣٥٧-١٧٣][خَاطِرَةٌ]:

[المُبَادَرَةُ إِلَى الزَّرْعِ قَبْلَ حُلُوْلِ مَوْسِمِ الحَصَادِ]

اشْتَدَّ الْغَلَاءُ بِبَغْدَادَ فِي أَوَّلِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ[(٤)]، وَكُلَّمَا جَاءَ الشَّعِيرُ؛ زَادَ السِّعْرُ، فَتَوَاقَعَ النَّاسُ عَلَىٰ اشْتِرَاءِ الطَّعَامِ[(٥)].

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَد فِي «المُسْنَدِ»(٤٦٥٨) بِلَفْظٍ مُقَارِبٍ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ، وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ تُبْعَثَ إِلَيْهِ» وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللهُ -إِلَيْهِ- يَوْمَ القِيَامَةِ» البخاري، كِ: «الجَنَائِزِ»(١٣٧٩). ومسلم، كِ: «الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا»(٢٨٦٦).

(٢) أَنِيْنٌ: تَأَوُّه، إِخْرَاجِ النَّفَسِ بِصَوْتٍ فِيهِ تَوَجُّعٍ وَتَحَزُّن.

(٣) زَرُودُ: مَوْضِعٌ، شَرق مَنْطِقَة حَائِل بِطَرِيْق الحَاجّ مِنَ الكُوْفَةِ إِلَىٰ مَكَّة. وَسُمِّيَت زَرُوْدُ لابْتِلَاعِهَا المِيَاه الَّتِي تُمْطِرُهَا السَّحَائِب؛ لِأَنَّهَا أَرض وَكُثْبَان رَمْلِيَّة. وَالْمَعْنَىٰ: أَعَانَ اللهُ مَنْ قَطَعَ الصُّعُوْبَات الَّتِي يَتَعَرَّضُ لَهَا أَثْنَاءَ عُمُرِه، وَأَصْعَب مَا يُلَاقِيْهِ هُوَ مَوْتُ الفَجْأَة الخَانِق. وَاللهُ أَعْلَم.

(٤) يعني: سنة: (٥٧٥هـ).

(٥) تَوَاقَعَ النَّاسُ: تَقَاتَلُوا. وَاشْتِرَاءِ: مَصْدَر اشْتَرَىٰ.

فَاغْتَبَطَ مَنْ يَسْتَعِدُّ كُلَّ سَنَةٍ بِزَرْعٍ مَا يَقُوتُهُ[١].

وَفَرِحَ مَنْ بَادَرَ فِي أَوَّلِ النِّسْيَانِ إِلَىٰ اشْتِرَاءِ الطَّعَامِ قَبْلَ أَنْ يُضَاعَفَ ثَمَنُهُ.

وَأَخْرَجَ الْفُقَرَاءُ مَا فِي بُيُوتِهِمْ، فَرَمَوْهُ فِي سُوقِ الْهَوَانِ؛ وَبَانَ ذُلُّ نُفُوسٍ كَانَتْ عَزِيزَةً.

فَقُلْتُ: يَا نَفْسُ! خُذِي مِنْ هَذِهِ الْحَالِ إِشَارَةً:

لَيَغْبِطَنَّ مَنْ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ وَقْتَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ.

وَلَيَفْرَحَنَّ مَنْ لَهُ جَوَابٌ عِنْدَ إِقْبَالِ الْمَسْأَلَةِ.

وَكُلُّ الْوَيْلِ عَلَىٰ الْمُفَرِّطِ الَّذِي لا يَنْظُرُ فِي عَاقِبَتِهِ!

فَتَنَبَّهِي؛ فَقَدْ نَبَّهَتِ نَاسًا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ أَمْرِ الآخِرَةِ!

وَبَادِرِي مَوْسِمَ الزَّرْعِ مَا دَامَتِ الرُّوحُ فِي الْبَدَنِ.

فَالزَّمَانُ كُلُّهُ تِشْرِينُ[٢]، قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ نِيسَانُ الْحَصَادِ وَمَا لَكِ زَرْعٌ، وَحَاجَةُ الْمُفْتَقِرِينَ إِلَىٰ أَمْوَالِهِمْ تَمْنَعُهُمْ مِنَ الإِيثَارِ.

---

*[٣٥٨ - ٢٣٧][خَاطِرَةٌ]:

[لا تَغْتَرَّ بِالسَّلامَةِ فَهَذَا شَأْنُ الْحَمْقَى]

أَعْجَبُ الأَشْيَاءِ اغْتِرَارُ الإِنْسَانِ بِالسَّلامَةِ، وَتَأْمِيلُهُ الإِصْلاحَ فِيمَا بَعْدُ!

وَلَيْسَ لِهَذَا الأَمَلِ مُنْتَهَىٰ، وَلا لِلاغْتِرَارِ.

فَكُلَّمَا أَصْبَحَ وَأَمْسَىٰ مُعَافًى؛ زَادَ الاغْتِرَارُ، وَطَالَ الأَمَلُ.

---

(١) اغْتَبَطَ: سُرَّ وَحَسُنَتْ حَالُهُ. وَالاغْتِبَاطُ: شُكْرُ اللهِ عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ وَأَفْضَلَ وَأَعْطَىٰ. وَيَقُوتُهُ: مَا يَأْكُلُهُ وَيَعِيشُ بِهِ.

(٢) تِشْرِينَ: تِشْرِينَ الأَوَّلَ: شهر من شهور السنة الشمسيَّة، يقابله شهر أكتوبر، وَتِشْرِينَ الثَّانِي: يقابله شهر نوفمبر.

وَأَيُّ مَوْعِظَةٍ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ تَرَىٰ دِيَارَ الْأَقْرَانِ، وَأَحْوَالَ الْإِخْوَانِ، وَقُبُورَ الْمَحْبُوبِينَ، فَتَعْلَمَ أَنَّكَ بَعْدَ أَيَّامٍ مِثْلَهُمْ، ثُمَّ لَا يَقَعُ انْتِبَاهٌ حَتَّىٰ يَتَنَبَّهَ الْغَيْرُ بِكَ؟!

وَهَذَا وَاللهِ شَأْنُ الْحَمْقَىٰ! حُوشِيَ مَنْ لَهُ عَقْلٌ أَنْ يَسْلُكَ هَذَا الْمَسْلَكَ.

بَلَىٰ وَاللهِ؛ إِنَّ الْعَاقِلَ لَيُبَادِرُ السَّلَامَةَ، فَيَدَّخِرُ مِنْ زَمَنِهَا لِلزَّمَنِ، وَيَتَزَوَّدُ عِنْدَ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ الزَّادِ لِوَقْتِ الْعُسْرَةِ، خُصُوصًا لِمَنْ قَدْ عَلِمَ أَنَّ مَرَاتِبَ الْآخِرَةِ إِنَّمَا تَعْلُو بِمِقْدَارِ عُلُوِّ الْعَمَلِ لَهَا، وَأَنَّ التَّدَارُكَ بَعْدَ الْفَوْتِ لَا يُمْكِنُ.

وَقَدِّرْ أَنَّ الْعَاصِيَ عُفِيَ عَنْهُ؛ أَيَنَالُ مَرَاتِبَ الْعُمَّالِ؟!

وَمَنْ أَجَالَ عَلَىٰ خَاطِرِهِ ذِكْرَ الْجَنَّةِ[1]، الَّتِي لَا مَوْتَ فِيهَا وَلَا مَرَضَ، وَلَا نَوْمَ وَلَا غَمَّ، بَلْ لَذَّاتُهَا مُتَّصِلَةٌ مِنْ غَيْرِ انْقِطَاعٍ، وَزِيَادَتُهَا عَلَىٰ قَدْرِ زِيَادَةِ الْجِدِّ هَا هُنَا، انْتَهَبَ هَذَا الزَّمَانَ[2]؛ فَلَمْ يَنَمْ إِلَّا ضَرُورَةً، وَلَمْ يَغْفُلْ عَنْ عِمَارَةِ لَحْظَةٍ.

وَمَنْ رَأَىٰ أَنَّ ذَنْبًا قَدْ مَضَتْ لَذَّتُهُ، وَبَقِيَتْ آفَاتُهُ دَائِمَةً؛ كَفَاهُ ذَلِكَ زَاجِرًا عَنْ مِثْلِهِ؛ خُصُوصًا الذُّنُوبَ الَّتِي تَتَّصِلُ آثَارُهَا؛ مِثْلَ أَنْ يَزْنِيَ بِذَاتِ زَوْجٍ، فَتَحْمِلَ مِنْهُ، فَتُلْحِقَ بِالزَّوْجِ، فَيَمْنَعَ الْمِيرَاثَ أَهْلَهُ، وَيَأْخُذَهُ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، وَتَتَغَيَّرَ الْأَنْسَابُ وَالْفُرُشُ، وَيَتَّصِلَ ذَلِكَ أَبَدًا، وَكُلُّهُ شُؤْمُ لَحْظَةٍ.

فَنَسْأَلُ اللهَ ﷻ تَوْفِيقًا يُلْهِمُ الرَّشَادَ، وَيَمْنَعُ الْفَسَادَ؛ إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

* [٣٥٩ - ٩٧][خَاطِرَةٌ]:

[الْعَاقِلُ مَنْ مَثَّلَ سَاعَةَ مَوْتِهِ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَى ذَلِكَ]

أَظْرَفُ الْأَشْيَاءِ[3] إِفَاقَةُ الْمُحْتَضَرِ عِنْدَ مَوْتِهِ؛ فَإِنَّهُ يَتَنَبَّهُ انْتِبَاهًا لَا يُوصَفُ، وَيَقْلَقُ قَلَقًا لَا

---

(١) أَجَالَ: فَكَّرَ فِيهَا أَوْ جَعَلَ خَاطِرَهُ يَطُوفُ فِيهَا.

(٢) انْتَهَبَ: أَخَذَهُ قَهْرًا.

(٣) أَظْرَفُ الْأَشْيَاءِ: أَبْرَعُهَا وَأَبْلَغُهَا وَأَعْجَبُهَا وَأَغْرَبُهَا.

يُحَدُّ، وَيَتَلَهَّفُ عَلَىٰ زَمَانِهِ الْمَاضِي، وَيَوَدُّ لَوْ تُرِكَ وَالتَّدَارُكِ[١]، وَتَصْدُقُ تَوْبَتُهُ[٢] عَلَىٰ مِقْدَارِ يَقِينِهِ بِالْمَوْتِ، وَيَكَادُ يَقْتُلُ نَفْسَهُ قَبْلَ مَوْتِهَا بِالْأَسَفِ.

وَلَوْ وُجِدَتْ ذَرَّةٌ مِنْ تِلْكَ الْأَحْوَالِ فِي أَوَانِ الْعَافِيَةِ؛ حَصَلَ كُلُّ مَقْصُودٍ مِنَ الْعَمَلِ بِالتَّقْوَىٰ.

فَالْعَاقِلُ مَنْ مَثَّلَ تِلْكَ السَّاعَةَ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَىٰ ذَلِكَ.

فَإِنْ لَمْ يَتَهَيَّأْ تَصْوِيرُ ذَلِكَ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ؛ تَخَايَلَهُ عَلَىٰ قَدْرِ يَقَظَتِهِ؛ فَإِنَّهُ يَكُفُّ كَفَّ الْهَوَىٰ، وَيَبْعَثُ عَلَىٰ الْجِدِّ.

فَأَمَّا مَنْ كَانَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ؛ كَانَ كَالْأَسِيرِ لَهَا.

كَمَا رُوِيَ عَنْ حَبِيبٍ الْعَجَمِيِّ[٣]: أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَصْبَحَ؛ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ: «إِذَا مُتُّ الْيَوْمَ؛ فَفُلَانٌ يُغَسِّلُنِي، وَفُلَانٌ يَحْمِلُنِي».

وَقَالَ مَعْرُوفٌ لِرَجُلٍ: «صَلِّ بِنَا الظُّهْرَ! فَقَالَ: إِنْ صَلَّيْتُ بِكُمُ الظُّهْرَ؛ لَمْ أُصَلِّ بِكُمُ الْعَصْرَ: فَقَالَ: وَكَأَنَّكَ تُؤَمِّلُ أَنْ تَعِيشَ إِلَىٰ الْعَصْرِ؟! نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ طُولِ الْأَمَلِ».

وَذَكَرَ رَجُلٌ رَجُلًا بَيْنَ يَدَيْهِ بِغِيبَةٍ، فَجَعَلَ مَعْرُوفٌ يَقُولُ لَهُ: «اذْكُرِ الْقُطْنَ إِذَا وَضَعُوهُ عَلَىٰ عَيْنَيْكَ»![٤].

---

(١) يَعْنِي: تَمَنَّىٰ وَأَحَبَّ أَنْ لَوْ تُرِكَ وَالرُّجُوعِ لِلدُّنْيَا؛ لِيَتَدَارَكَ مَا فَاتَ. وَالتَّدَارُكُ: الرُّجُوعِ وَالِاسْتِدْرَاكُ.

(٢) هكذا في مخطوط: (ي)، وفي الأصل: [يصدق].

(٣) حَبِيبُ بْنُ مُحَمَّدٍ العَجَمِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ، زَاهِدُ أَهْلِ البَصْرَةِ. [ت: ١٣١-١٤٠هـ]. وَخَبَرُهُ في «تهذيب الكمال» (٥/ ٣٩٥).

(٤) ترجمة مَعْرُوفٌ الكَرْخِيُّ في: [٢٤-١٧٩]. وَالْخَبَرُ فِي «الحلية» (٨/ ٣٦١ و٣٦٤): «فَقَالَ مَعْرُوفٌ الْكَرْخِيُّ لِأَبِي تَوْبَةَ: صَلِّ بِنَا فَقَالَ: «إِنْ صَلَّيْتُ بِكُمْ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا أُصَلِّي بِكُمُ الثَّانِيَةَ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ طُولِ الْأَمَلِ فَإِنَّهُ يَمْنَعُ خَيْرَ الْعَمَلِ».

*[٣٦٠ - ١٩٦][خَاطِرَةٌ]:

[الأَجْسَادُ إِلَى البِلَى وَالأَرْوَاحُ إِلَى رَاحَةٍ]

مَا زِلْتُ عَلَىٰ عَادَةِ الْخَلْقِ فِي الْحُزْنِ عَلَىٰ مَنْ يَمُوتُ مِنَ الأَهْلِ وَالأَوْلَادِ، وَلَا أَتَخَايَلُ إِلَّا بِلَىٰ الأَبْدَانِ فِي الْقُبُورِ(١)؛ فَأَحْزَنُ لِذَلِكَ.

فَمَرَّتْ بِي أَحَادِيثُ قَدْ كَانَتْ تَمُرُّ بِي، وَلَا أَتَفَكَّرُ فِيهَا، مِنْهَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّمَا نَفْسُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ يَرُدَّهُ اللهُ ﷻ إِلَىٰ جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»(٢).

فَرَأَيْتُ أَنَّ الرَّحِيلَ إِلَىٰ الرَّاحَةِ، وَأَنَّ هَذَا الْبَدَنَ لَيْسَ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّهُ مَرْكَبٌ تَفَكَّكَ وَفَسَدَ، وَسَيُبْنَىٰ جَدِيدًا يَوْمَ الْبَعْثِ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَفَكَّرَ فِي بِلَاهُ، وَلْتَسْكُنِ النَّفْسُ إِلَىٰ أَنَّ الأَرْوَاحَ انْتَقَلَتْ إِلَىٰ رَاحَةٍ، فَلَا يَبْقَىٰ كَبِيرُ حُزْنٍ، وَأَنَّ اللِّقَاءَ لِلْأَحْبَابِ عَنْ قُرْبٍ.

وَإِنَّمَا يَبْقَىٰ الأَسَفُ لِتَعَلُّقِ الْخَلْقِ بِالصُّوَرِ، فَلَا يَرَىٰ الإِنْسَانُ إِلَّا جَسَدًا مُسْتَحْسَنًا قَدْ نُقِضَ، فَيَحْزَنُ لِنَقْضِهِ.

وَالْجَسَدُ لَيْسَ هُوَ الآدَمِيَّ؛ وَإِنَّمَا هُوَ مَرْكَبُهُ؛ فَالأَرْوَاحُ لَا يَنَالُهَا الْبِلَىٰ، وَالأَبْدَانُ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ.

وَاعْتَبِرْ هَذَا بِمَا إِذَا قَلَعْتَ ضِرْسَكَ، وَرَمَيْتَهُ فِي حُفْرَةٍ؛ فَهَلْ عِنْدَكَ خَبَرٌ مِمَّا يَلْقَىٰ فِي مُدَّةِ حَيَاتِكَ؟! فَحُكْمُ الأَبْدَانِ حُكْمُ ذَلِكَ الضِّرْسِ؛ لَا تَدْرِي النَّفْسُ مَا يَلْقَىٰ.

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَغْتَمَّ بِتَمْزِيقِ جَسَدِ الْمَحْبُوبِ وَبِلَاهُ.

وَاذْكُرْ تَنَعُّمَ الأَرْوَاحِ وَقُرْبَ التَّجْدِيدِ، وَعَاجِلَ اللِّقَاءِ؛ فَإِنَّ الْفِكْرَ فِي تَحْقِيقِ هَذَا يُهَوِّنُ الْحُزْنَ، وَيُسَهِّلُ الأَمْرَ.

---

(١) بِلَىٰ الأَبْدَانِ فِي الْقُبُورِ: أَشْلَاءُ بَدَنِ الإِنْسَانِ وَفَسَادُه.

(٢) رواه مالك في «الموطأ/ برواية: أَبِي مُصْعَبٍ الزُّهْرِيِّ» كِتَابُ «الْجَنَائِزِ» بَابُ «جَامِعِ الْجَنَائِزِ»(٩٩٢) وَفِيهِ: «حَتَّىٰ يَرْجِعَهُ - يَبْعَثُهُ اللهُ» ورواه ابن حبان، كِتَابُ «السِّيَرِ»(٤٦٥٧). عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ. وَفِيهِ: «نَسَمَةُ - يَعْلُقُ - يَرُدَّهَا - الْقِيَامَةِ». نَسَمَةٌ: كُلّ كَائِنٍ حَيٍّ فِيهِ رُوح.

(٢٧)

[الكَلامُ عنِ الجَنّةِ وصفةِ نعيمِها وأهلِها]

*[٣٦١-٢٤٢][خَاطِرَةٌ]:

[ما العَيْشُ إلّا في الجَنّةِ]

تَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي، فَرَأَيْتُنِي مُفْلِسًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؟!

إِنِ اعْتَمَدْتُ عَلَىٰ الزَّوْجَةِ؛ لَمْ تَكُنْ كَمَا أُرِيْدُ: إِنْ حَسُنَتْ صُوْرَتُهَا؛ لَمْ تَكْمُلْ أَخْلاقُهَا، وَإِنْ تَمَّتْ أَخْلاقُهَا؛ كَانَتْ مُرِيْدَةً لِغَرَضِهَا لا لِي، وَلَعَلَّهَا تَنْتَظِرُ رَحِيْلِي!

وَإِنِ اعْتَمَدْتُ عَلَىٰ الْوَلَدِ؛ فَكَذَلِكَ!

وَالْخَادِمُ وَالْمُرِيْدُ لِي كَذَلِكَ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مِنِّي فَائِدَةٌ؛ لَمْ يُرِيْدَانِي!

وَأَمَّا الصَّدِيقُ؛ فَلَيْسَ ثَمَّ!

وَأَخٌ فِي اللهِ كَعَنْقَاءِ مُغْرِبٍ[١]!

وَمَعَارِفُ يَفْتَقِدُوْنَ أَهْلَ الْخَيْرِ، وَيَعْتَقِدُوْنَ فِيهِمْ قَدْ عُدِمُوْا!

وَبَقِيْتُ وَحْدِي... وَعُدْتُ إِلَىٰ نَفْسِي... وَهِيَ لا تَصْفُوْ إِلَيَّ أَيْضًا، وَلا تُقِيْمُ عَلَىٰ حَالَةٍ سَلِيْمَةٍ!

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ.

فَرَأَيْتُ أَنِّي: إِنِ اعْتَمَدْتُ عَلَىٰ إِنْعَامِهِ؛ فَمَا آمَنُ ذَلِكَ الْبَلاءَ.

وَإِنْ رَجَوْتُ عَفْوَهُ؛ فَمَا آمَنُ عُقُوْبَتَهُ!

(١) عَنْقَاءِ مُغْرِبٍ: العَنْقَاءِ طَائِرٌ عَظِيْمٌ مَعْرُوْف الاسْمِ مَجْهُوْل الْجِسْمِ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَل فِي طَلَبِ الْمُحَال الَّذِي لَا يُنَال.

فَوَا أَسَفًا! لا طُمَأْنِينَةَ وَلا قَرَارَ! وَا قَلَقِي مِنْ قَلَقِي! وَا حَرْقِي مِنْ حَرْقِي!

بِاللهِ؛ مَا الْعَيْشُ إِلَّا فِي الْجَنَّةِ، حَيْثُ يَقَعُ الْيَقِينُ بِالرِّضَىٰ، وَالْمُعَاشَرَةُ لِمَنْ لا يَخُونُ وَلا يُؤْذِي؛ فَأَمَّا الدُّنْيَا؛ فَمَا هِيَ دَارُ ذَاكَ.

*[٣٦٢ - ٢٤٠][خَاطِرَةٌ]:

[مَنَازِلُ الْجَنَّةِ عَلَىٰ قَدْرِ الاجْتِهَادِ فِي الْعَمَلِ]

وَاللهِ؛ إِنِّي لأَتَخَايَلُ دُخُولَ الْجَنَّةِ، وَدَوَامَ الإِقَامَةِ فِيهَا؛ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ، وَلا بُصَاقٍ، وَلا نَوْمٍ، وَلا آفَةٍ تَطْرَأُ! بَلْ صِحَّةٌ دَائِمَةٌ، وَأَغْرَاضٌ مُتَّصِلَةٌ، لا يَعْتَوِرُهَا مُنَغِّصٌ[1]، فِي نَعِيمٍ مُتَجَدِّدٍ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، إِلَىٰ زِيَادَةٍ لا تَتَنَاهَىٰ . . .[2].

فَأَطِيشُ، وَيَكَادُ الطَّبْعُ يَضِيقُ عَنْ تَصْدِيقِ ذَلِكَ، لَوْلا أَنَّ الشَّرْعَ قَدْ ضَمِنَهُ!

وَمَعْلُومٌ أَنَّ تِلْكَ الْمَنَازِلَ إِنَّمَا تَكُونُ عَلَىٰ قَدْرِ الاجْتِهَادِ هَا هُنَا.

---

(١) يَعْتَوِرُهَا: اعْتَوَرَ يَعْتَوِرُ؛ أَيْ: لَا يُصِيبُهَا. وَمُنَغِّصٌ: مَا يُكَدِّرُ وَيُعَكِّرُ صَفَاءَ الشَّيْءِ.

(٢) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٣-٣٥]. وَثَبَتَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» لِـ: «بَدْءِ الْخَلْقِ» (٣٢٤٦). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ عَلَىٰ إِثْرِهِمْ كَأَشَدِّ كَوْكَبٍ إِضَاءَةً، قُلُوبُهُمْ عَلَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلا تَبَاغُضَ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَىٰ مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الْحُسْنِ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا، لا يَسْقَمُونَ، وَلا يَمْتَخِطُونَ، وَلا يَبْصُقُونَ، آنِيَتُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الأَلُوَّةُ - الْعُودَ -، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ». وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» لِـ: «الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا» (٢٨٣٥). عَنْ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلا يَتْفُلُونَ وَلا يَبُولُونَ وَلا يَتَغَوَّطُونَ وَلا يَمْتَخِطُونَ» قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: «جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ». وَفِي «الأَوْسَطِ» للطبراني. (٩١٩) عَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: سُئِلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَنَامُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لا يَنَامُونَ».

فَوَا عَجَبًا مِنْ مُضَيِّعٍ لَحْظَةٍ فِيْهَا! فَتَسْبِيحَةٌ تَغْرِسُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نَخْلَةً، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا[1].

فَيَا أَيُّهَا الْخَائِفُ مِنْ فَوْتِ ذَلِكَ! شَجِّعْ قَلْبَكَ بِالرَّجَاءِ.

وَيَا أَيُّهَا الْمُنْزَعِجُ لِذِكْرِ الْمَوْتِ! تَلَمَّحْ مَا بَعْدَ مَرَارَةِ الشَّرْبَةِ مِنَ الْعَافِيَةِ[2]؛ فَإِنَّهُ مِنْ سَاعَةِ خُرُوْجِ الرُّوحِ، لا بَلْ قَبْلَ خُرُوْجِهَا، تَنْكَشِفُ الْمَنَازِلُ لِأَصْحَابِهَا، فَيَهُوْنُ سَيْرُ الْمَجْذُوبِ[3] لِلَذَّةِ الْمُنْتَقَلِ إِلَيْهِ . . . ثُمَّ الْأَرْوَاحُ: «فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ، تَعْلُقُ فِي أَشْجَارِ الْجَنَّةِ»[4].

فَكُلُّ الْآفَاتِ وَالْمُخَافَاتِ فِي نَهَارِ الْأَجَلِ، وَقَدِ اصْفَرَّتْ شَمْسُ الْعُمُرِ.

فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ قَبْلَ الْغُرُوبِ!

وَلا مُعِينَ يُرَافِقُ عَلَىٰ تِلْكَ الطَّرِيقِ إِلَّا الْفِكْرُ إِذَا جَلَسَ مَعَ الْعَقْلِ، فَتَذَاكَرَا الْعَوَاقِبَ؛ فَإِذَا فَرَغَ ذَلِكَ الْمَجْلِسُ؛ فَالنَّظَرُ فِي سِيَرِ الْمُجِدِّينَ؛ فَإِنَّهُ يَعُودُ مُسْتَجْلِبًا لِلْفِكْرِ مِنْهَا شَتَّىٰ الْفَضَائِلِ، وَالتَّوْفِيْقُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ، وَمَتَىٰ أَرَادَكَ لِشَيْءٍ؛ هَيَّأَكَ لَهُ.

فَأَمَّا مُخَالَطَةُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ خَبَرٌ؛ إِلَّا مِنَ الْعَاجِلَةِ، فَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ مَرَضِ الْفَهْمِ، وَعِلَلِ الْعَقْلِ، وَالْعُزْلَةُ عَنِ الشَّرِّ حِمْيَةٌ، وَالْحِمْيَةُ سَبَبُ الْعَافِيَةِ[5].

---

(١) الترمذي، كِ: «الدَّعَوَاتِ» (٣٤٦٤، ٣٤٦٥). قَالَ ﷺ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ».

(٢) أَيْ: مَرَارَةِ الشَّرْبَةِ مِنَ الدَّوَاءِ.

(٣) الْمَجْذُوبِ: الْمَجْنُون. وَعِنْدَ الصُّوفِيَّةِ: مَنْ جَذَبَهُ الْحَقّ إِلَىٰ حَضْرَتِهِ وَأَوْلَاهُ مَا شَاءَ مِنَ الْمَوَاهِب بِلَا كُلْفَة.

(٤) أَخْرَجَهُ بِلَفْظٍ مُقَارِب ابْنُ الأَثِيْر فِي «جامع الأصول» (٧٣٧٣): «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْر، تَعْلُقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ، أَوْ شَجَرِ الْجَنَّةِ». وَتَعْلُقُ؛ أَيْ: أَكَلَتْ. وَالأَرْوَاح الْبَشَرِيَّة مُتَفَاوِتَة فِي مُسْتَقَرِّهَا فِي الْبَرْزَخِ أَعْظَم تَفَاوُت: فَأَرْوَاح الأَنْبِيَاء فِي أَعْلَىٰ عِلِّيِّين، وَهُم مُتَفَاوِتُون فِي مَنَازِلِهِم. وَمِنْهَا أَرْوَاح فِي حَوَاصِل طَيْر خُضْر تَسْرَح فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَت، وَتَأْوِي إِلَىٰ قَنَادِيل مُعَلَّقَة فِي الْعَرْشِ، وَهِيَ أَرْوَاح بَعْض الشُّهَدَاء. وَمِنْهُم مَنْ أَرْوَاحُهم نَسَمَة طَائِر يُعَلَّق فِي أَشْجَارِ الْجَنَّةِ. وَمِنْهُم مَنْ يَكُوْن مَحْبُوْسًا عَلَىٰ بَابِ الْجَنَّةِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْن مَحْبُوْسًا فِي قَبْرِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْن مَحْبُوْسًا فِي الأَرْضِ؛ لِأَنَّ رُوحَهُ سُفْلِيَّةٌ أَرْضِيَّة. وَمِنْهَا أَرْوَاح تَكُوْن فِي تَنُّورِ الزُّنَاة وَالزَّوَانِي. وَمِنْهَا أَرْوَاح تَسْبَح فِي نَهْرِ الدَّم. فَمَقَرّ الأَرْوَاح مُخْتَلِف .. أَرْوَاح فِي أَعْلَىٰ عِلِّيِّين .. وَأَرْوَاح فِي أَسْفَلِ سَافِلِين .. كُلٌّ بِحَسَبِ عَمَلِهِ. [يُنظر: «موسوعة فقه القلوب» محمد التويجري. (ج١/ ص٦١٣، ٦١٤)].

(٥) الْحِمْيَةُ: الْوِقَايَة، وَمَا حُمِيَ مِنْ شَيْءٍ. يُرَاجَع الخَاطِرَة رقم: [١٧١-٢٤] [الْعُزْلَةُ عَنِ الشَّرِّ لا عَنِ الْخَيْرِ].

*[٣٦٣-٢٢٥][خَاطِرَةٌ]:

[مَنَازِلُ المُؤمِنِينَ فِي الجَنَّةِ عَلَى قَدْرِ هِمَمِهِمْ]

تَأَمَّلْتُ حَالَةً عَجِيبَةً، وَهُوَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ السَّاكِنِينَ فِي أَرْضِهَا فِي نَقْصٍ عَظِيمٍ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ مَنْ فَوْقَهُمْ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ فَضْلَ أُولَئِكَ؛ فَلَوْ تَفَكَّرُوا فِيهَا فَاتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ؛ وَقَعَتِ الْحَسَرَاتُ؛ غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَقَعُ لَهُمْ؛ لِطِيبِ مَنَازِلِهِمْ، وَلَا يَقَعُ فِي الْجَنَّةِ غَمٌّ.

وَيَرْضَىٰ كُلٌّ بِمَا أُعْطِيَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَا يَظُنُّ أَنْ يَكُونَ نَعِيمٌ فَوْقَ مَا هُوَ فِيهِ، وَإِنْ عَلَتْ مَنْزِلَةُ غَيْرِهِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ يُحَبَّبُ إِلَيْهِ، كَمَا يُحَبَّبُ إِلَيْهِ وَلَدُهُ الْمُسْتَوْحِشُ الْخِلْقَةِ؛ فَإِنَّهُ يُؤْثِرُهُ عَلَىٰ الْأَجْنَبِيِّ الْمُسْتَحْسَنِ.

إِلَّا أَنَّ تَحْتَ هَذَا مَعْنَىً لَطِيفًا، وَهُوَ أَنَّ الْقَوْمَ خُلِقَتْ لَهُمْ هِمَمٌ قَاصِرَةٌ فِي الدُّنْيَا عَنْ طَلَبِ الْفَضَائِلِ، وَيَتَفَاوَتُ قُصُورُهَا:

فَمِنْهُمْ مَنْ يَحْفَظُ بَعْضَ الْقُرْآنِ، وَلَا يَتُوقُ إِلَىٰ التَّمَامِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ يَسِيرًا مِنَ الْحَدِيثِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُ قَلِيلًا مِنَ الْفِقْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ رَضِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِيَسِيرِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِرٌ عَلَىٰ الْفَرَائِضِ، وَمِنْهُمْ قَنُوعٌ بِصَلَاةِ رَكْعَتَيْنِ فِي اللَّيْلِ . . .

وَلَوْ عَلَتْ بِهِمُ الْهِمَمُ؛ لَجَدَّتْ فِي تَحْصِيلِ كُلِّ الْفَضَائِلِ، وَنَبَتْ عَنِ النَّقْصِ[1]؛ فَاسْتَخْدَمَتِ الْبَدَنَ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ[2]:

وَلِكُلِّ جِسْمٍ فِي النُّحُولِ بَلِيَّةٌ ... وَبَلَاءُ جِسْمِي مِنْ تَفَاوُتِ هِمَّتِي

وَيَدُلُّ عَلَىٰ تَفَاوُتِ الْهِمَمِ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ يَسْهَرُ فِي سَمَاعِ سَمَرٍ، وَلَا يَسْهُلُ عَلَيْهِ السَّهَرُ فِي سَمَاعِ الْقُرْآنِ!

(١) نَبَتْ عَنِ: تجافَتْ وَابْتَعَدَتْ.

(٢) البيت من البحر: [الكامل]، وقائله: أبو الحسن مهيار الديلمي.

وَالإِنْسَانُ يُحْشَرُ، وَمَعَهُ تِلْكَ الْهِمَّةُ، فَيُعْطَىٰ عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا حَصَّلَتْ فِي الدُّنْيَا؛ فَكَمَا لَمْ تَتُقْ إِلَىٰ الْكَمَالِ، وَقَنِعَتْ بِالدُّوْنِ[1]؛ قَنِعَتْ فِي الآخِرَةِ بِمِثْلِ ذَلِكَ.

ثُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ يَتَفَكَّرُوْنَ بِعُقُوْلِهِمْ، فَيَعْلَمُوْنَ أَنَّ الْجَزَاءَ عَلَىٰ قَدْرِ الْعَمَلِ، وَلا يَطْمَعُ مَنْ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ فِي ثَوَابِ مَنْ صَلَّىٰ أَلْفًا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ لَهَا أَلَّا تَرُوْمَ[2] مَا نَالَهُ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا!!

قُلْتُ: إِنْ لَمْ يُتَصَوَّرْ نَيْلُهُ؛ يُتَصَوَّرُ الْحُزْنُ عَلَىٰ فَوْتِهِ؟![3]

وَهَلْ رَأَيْتَ عَامِّيًّا يَحْزَنُ عَلَىٰ فَوَاتِ الْفِقْهِ حُزْنًا يُقْلِقُهُ؟!

هَيْهَاتَ! لَوْ كَانَ ذَلِكَ الْحُزْنُ عِنْدَهُ؛ لَحَرَّكَهُ إِلَىٰ التَّشَاغُلِ! فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ هِمَّةٌ تُوْجِبُ الأَسَفَ؛ مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ رَضُوْا بِمَا هُمْ فِيهِ.

فَافْهَمْ مَا قُلْتُهُ، وَبَادِرْ؛ فَهَذَا مَيْدَانُ السِّبَاقِ.

*[٣٦٤ - ٢٥٩][خَاطِرَةٌ]:

[مَنْ تَأَمَّلَ دَوَامَ الْبَقَاءِ فِي الْجَنَّةِ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ]

مَنْ تَأَمَّلَ بِعَيْنِ الْفِكْرِ دَوَامَ الْبَقَاءِ فِي الْجَنَّةِ؛ فِي صَفَاءٍ بِلَا كَدَرٍ، وَلَذَّاتٍ بِلَا انْقِطَاعٍ، وَبُلُوْغِ كُلِّ مَطْلُوْبٍ لِلنَّفْسِ، وَالزِّيَادَةِ مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ؛ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ وَلَا زَوَالٍ[4]؛ إِذْ لا يُقَالُ: أَلْفُ أَلْفِ سَنَةٍ، وَلَا مِئَةُ أَلْفِ أَلْفٍ، بَلْ وَلَوْ أَنَّ الإِنْسَانَ

(١) لَمْ تَتُقْ: لَمْ تَشْتَاقْ إِلَىٰ الْكَمَالِ وَلَمْ تَطْمَح إِلَيْهِ. وَقَنِعَتْ: رَضِيَتْ. وَالدُّونِ: الْخَسِيس الْحَقِيْر أَو الأَقَلّ.

(٢) تَرُوْمَ: رَامَ يَرُوْم: طَلَبَهُ، رَغِبَ فِيْهِ، أَرَادَهُ وَرَجَاهُ.

(٣) يَعْنِي: فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ الْحُزْنُ عَلَىٰ فَوْتِهِ؟!.

(٤) كَأَنَّهُ ﷺ يُشِيْر إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]، وَقَالَ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص:٥٤]، وَقَالَ: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣]. دَلالَةً عَلَىٰ أَنَّ نَعِيمَ =

عَدَّ الأُلُوفَ أُلُوفَ السِّنِينَ لَانْقَضَىٰ عَدَدُهُ، وَكَانَ لَهُ نِهَايَةٌ، وَبَقَاءُ الْآخِرَةِ لَا نَفَادَ لَهُ.

إِلَّا أَنَّهُ لا يَحْصُلُ ذَلِكَ إِلَّا بِنَقْدِ هَذَا الْعُمُرِ.

وَمَا مِقْدَارُ عُمُرٍ غَايَتُهُ مِئَةُ سَنَةٍ، مِنْهَا خَمْسَةَ عَشَرَ صَبْوَةٌ وَجَهْلٌ، وَثَلَاثُونَ بَعْدَ السَّبْعِينَ - إِنْ حَصَلَتْ - ضَعْفٌ وَعَجْزٌ.

وَالتَّوَسُّطُ[(١)] نِصْفُهُ نَوْمٌ، وَبَعْضُهُ زَمَانُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَكَسْبٍ، وَالْمُتَحَلُ مِنْهُ[(٢)] لِلْعِبَادَاتِ يَسِيرٌ؟!

أَفَلَا يُشْتَرَىٰ ذَلِكَ الدَّائِمُ بِهَذَا الْقَلِيلِ؟!

إِنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ الشُّرُوعِ فِي هَذَا الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ لَغَبْنٌ فَاحِشٌ فِي الْعَقْلِ، وَخَلَلٌ دَاخِلٌ فِي الإِيمَانِ بِالْوَعْدِ.

فَإِنَّ مَنْ يَدْرِي كَيْفَ يُعْقَدُ الْبَيْعُ بِالْعِلْمِ؛ هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، وَيُعَرِّفُ مَا يَصْلُحُ لَهَا، وَيُحَذِّرُ مِنْ فَظَاعَتِهَا[(٣)].

وَلَقَدْ دَخَلَ إِبْلِيسُ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُتَزَهِّدِينَ بِآفَاتٍ، أَعْظَمُهَا أَنَّهُ صَرَفَهُمْ عَنِ الْعِلْمِ، فَكَأَنَّهُ شَرَعَ فِي إِطْفَاءِ الْمِصْبَاحِ لِيَسْرِقَ فِي الظُّلْمَةِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ أَخَذَ قَوْمًا مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ، فَسَلَكَ بِهِمْ مِنْ ذَلِكَ مَا يَنْهَىٰ عَنْهُ الْعِلْمُ.

= الْجَنَّةِ، لَا نَفَادَ لَهُ، وَلَا انْقِطَاعَ لَهُ، وَلَا زَوَالَ؛ فَمَنْ قَالَ: إِنَّهَا تَنْفَدُ أَوْ لَا تَدُومُ أَوْ أَنَّهَا تَنْقَطِعُ فَقَدْ كَفَرَ. وَفِي كَلَامِ الإِمَامِ ابْنِ الجَوزِيِّ أَيْضًا إِشَارَة إِلَىٰ مَا رَوَاهُ مسلم، ك: «الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا» (٢٨٣٦). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ، لا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ وَلا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ». وَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِي، ك: «بَدْءِ الخَلْقِ» (٣٢٤٤). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ اللهُ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾».

(١) أَيْ: أَوْسَطِ الْعُمُرِ، مَا بَيْنَ خَمْسَةَ عَشَرَ وَسَبْعِينَ، هَذَا فِي الْمُدَّةِ الَّتِي قَدْرُهَا مِئَةُ سَنَةٍ.

(٢) الْمُتَحَلُ: الْمَأْخُوذُ أَوْ الْمُلْتَمَس.

(٣) فَظَاعَتِهَا: أَحْدَاثهَا شَدِيدَة الشَّنَاعَة.

فَرَأَيْتُ أَبَا حَامِدٍ الطُّوسِيَّ يَحْكِي عَنْ نَفْسِهِ فِي بَعْضِ مُصَنَّفَاتِهِ؛ قَالَ: «شَاوَرْتُ مَتْبُوعًا مُقَدَّمًا مِنَ الصُّوفِيَّةِ فِي الْمُوَاظَبَةِ عَلَىٰ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ؟ فَمَنَعَنِي مِنْهُ! وَقَالَ: السَّبِيلُ أَنْ تَقْطَعَ عَلَائِقَكَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْكُلِّيَّةِ؛ بِحَيْثُ لَا يَلْتَفِتُ قَلْبُكَ إِلَىٰ أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَمَالٍ وَعِلْمٍ، بَلْ تَصِيرُ إِلَىٰ حَالَةٍ يَسْتَوِي عِنْدَكَ وُجُودُ ذَلِكَ وَعَدَمُهُ، ثُمَّ تَخْلُو بِنَفْسِكَ فِي زَاوِيَةٍ، فَتَقْتَصِرُ مِنَ الْعِبَادَةِ عَلَىٰ الْفَرَائِضِ وَالرَّوَاتِبِ، وَتَجْلِسُ فَارِغَ الْقَلْبِ، وَلا تَزَالُ تَقُولُ: اللهُ، اللهُ . . . إِلَىٰ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ حَالَةٍ؛ لَوْ تُرِكَ تَحْرِيكُ اللِّسَانِ، رَأَيْتَ كَأَنَّ الْكَلِمَةَ جَارِيَةٌ عَلَىٰ لِسَانِكَ، ثُمَّ تَنْظُرُ مَا يُفْتَحُ عَلَيْكَ مِمَّا فُتِحَ مِثْلُهُ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ!!»[1].

قُلْتُ: وَهَذَا أَمْرٌ لا أَتَعَجَّبُ أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُوصِي بِهِ؛ وَإِنَّمَا أَتَعَجَّبُ مِنَ الَّذِي قَبِلَهُ مَعَ مَعْرِفَتِهِ وَفَهْمِهِ!!

وَهَلْ يُقْطَعُ الطَّرِيقُ بِالإِعْرَاضِ عَنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ؟!

وَهَلْ فُتِحَ لِلأَنْبِيَاءِ مَا فُتِحَ بِمُجَاهَدَتِهِمْ وَرِيَاضَتِهِمْ؟!

وَهَلْ يُوثَقُ بِمَا يَظْهَرُ مِنْ هَذِهِ الْمَسَالِكِ؟!

ثُمَّ مَا الَّذِي يُفْتَحُ؟! أَثَمَّ اطِّلَاعٌ عَلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ؟ أَمْ هُوَ وَحْيٌ؟!

فَهَذَا كُلُّهُ مِنْ تَلَاعُبِ إِبْلِيسَ بِالْقَوْمِ، وَرُبَّمَا كَانَ مَا يَتَخَايَلُ لَهُمْ مِنْ أَثَرِ الْمَالِيخُولْيَا أَوْ مِنْ إِبْلِيسَ.

فَعَلَيْكَ بِالْعِلْمِ، وَانْظُرْ فِي سِيَرِ السَّلَفِ.

هَلْ فَعَلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَوْ أَمَرَ بِهِ؟! وَإِنَّمَا تَشَاغَلُوا بِالْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ، فَدَلَّهُمْ عَلَىٰ إِصْلَاحِ الْبَوَاطِنِ وَتَصْفِيَتِهَا.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ عِلْمًا نَافِعًا، وَدَفْعًا لِلْعَدُوِّ مَانِعًا؛ إِنَّهُ قَادِرٌ.

---

(١) ترجمة أَبُو حَامِدٍ الْغَزَّالِيِّ الطُّوسِيِّ في الخَاطِرَة: [١٢٩-٣٦٢]. وَكَلَامُهُ هَذَا في كِتَابِهِ: «مِيزَانُ الْعَمَلِ» (ص٤١).

(٢٨)

[مُتفرّقاتٌ منْ دُررِ الخَواطِرِ]

*[٣٦٥-٤٥][خَاطِرَةٌ]:

[التّفكُّرُ في خلقِ اللهِ وحكْمته]

لَمَّا تَلَمَّحْتُ تَدْبِيرَ الصَّانِعِ فِي سُوْقِ رِزْقِي؛ بِتَسْخِيْرِ السَّحَابِ، وَإِنْزَالِ الْمَطَرِ بِرِفْقٍ، وَالْبِذْرُ تَحْتَ الأَرْضِ؛ كَالْمَوْتَىٰ، قَدْ عَفِنَ، يَنْتَظِرُ نَفْخَةً مِنْ صُوْرِ الْحَيَاةِ؛ فَإِذَا بِهِ اهْتَزَّ خَضِرًا.

وَإِذَا انْقَطَعَ عَنْهُ[١] الْمَاءُ؛ مَدَّ يَدَ الطَّلَبِ يَسْتَعْطِي، وَأَمَالَ رَأْسَهُ خَاضِعًا، وَلَبِسَ حُلَلَ التَّغَيُّرِ؛ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ مَا أَنَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ، وَبُرُوْدَةِ الْمَاءِ، وَلُطْفِ النَّسِيمِ، وَتَرْبِيَةِ الأَرْضِ!

فَسُبْحَانَ مَنْ أَرَانِي - فِيْمَا يُرَبِّيْنِي بِهِ - كَيْفَ تَرْبِيَتِي فِي الأَصْلِ.

فَيَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الَّتِي قَدْ اطَّلَعَتْ عَلَىٰ بَعْضِ حِكَمِهِ! قَبِيحٌ بِكِ - وَاللهِ - الإِقْبَالُ عَلَىٰ غَيْرِهِ.

ثُمَّ الْعَجَبُ! كَيْفَ تُقْبِلِيْنَ عَلَىٰ فَقِيرٍ مِثْلِكِ، يُنَادِي، لِسَانُ حَالِهِ:

بِــي مِثْــلُ مَــا بِــكَ يَــا حَمَــامُ[٢]

فَارْجِعِي إِلَىٰ الأَصْلِ الأَوَّلِ، وَاطْلُبِي مِنَ الْمُسَبِّبِ.

وَيَا طُوبَىٰ لَكِ إِنْ عَرَفْتِيْهِ! فَإِنَّ عِرْفَانَهُ مُلْكُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

---

(١) جاء في الأصل والمخطوط: [وانقطع عنه] وما أثبتناه؛ لتمام المعنىٰ به.

(٢) صَدْر بَيْتٍ مِنْ أَبْيَاتٍ قَالَهَا: كَبِيْرُ الشُّعَرَاءِ: أَبُو يَعْلَىٰ بنُ الْهَبَّارِيَّةِ، وَفِيْهَا يَقُوْل مِنَ [الْكَامِلِ]:

بِــي مِثْــلُ مَــا بِــكَ يَــا حَمَــامُ البَــانِ ... أَنَــا بِالْقُــدُوْدِ وَأَنْــتَ بِالأَغْصَــانِ

*[٣٦٦ - ١٠٢][خَاطِرَةٌ]:

[التَّفَكُّرُ فِي مَلَكُوتِ اللهِ يُرَقِّقُ القَلْبَ]

عَرَضَ لِي فِي طَرِيْقِ الْحَجِّ خَوْفٌ مِنَ الْعَرَبِ، فَسِرْنَا عَلَىٰ طَرِيْقِ خَيْبَرَ[١].

فَرَأَيْتُ مِنَ الْجِبَالِ الْهَائِلَةِ؛ وَالطُّرُقِ الْعَجِيْبَةِ مَا أَذْهَلَنِي، وَزَادَتْ عَظَمَةُ الْخَالِقِ ﷻ فِي صَدْرِي، فَصَارَ يَعْرِضُ لِي عِنْدَ ذِكْرِ تِلْكَ الطُّرُقِ نَوْعُ تَعْظِيْمٍ لا أَجِدُهُ عِنْدَ ذِكْرِ غَيْرِهَا.

فَصِحْتُ بِالنَّفْسِ: وَيْحَكِ! اعْبُرِي إِلَىٰ الْبَحْرِ، وَانْظُرِي إِلَيْهِ، وَإِلَىٰ عَجَائِبِهِ بِعَيْنِ الْفِكْرِ؛ تُشَاهِدِي أَهْوَالًا هِيَ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ.

ثُمَّ اخْرُجِي إِلَىٰ الْكَوْنِ، وَالْتَفِتِي إِلَيْهِ؛ فَإِنَّكِ[٢] تَرَيْنَهُ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالأَفْلاكِ كَذَرَّةٍ فِي فَلَاةٍ.

ثُمَّ جُوْلِي فِي الأَفْلاكِ، وَطُوْفِي حَوْلَ الْعَرْشِ، وَتَلَمَّحِي مَا فِي الْجِنَانِ وَالنِّيْرَانِ.

ثُمَّ اخْرُجِي عَنِ الْكُلِّ، وَالْتَفِتِي إِلَيْهِ؛ فَإِنَّكِ تُشَاهِدِيْنَهُ فِي قَبْضَةِ الْقَادِرِ الَّذِي لا تَقِفُ قُدْرَتُهُ عِنْدَ حَدٍّ.

ثُمَّ الْتَفِتِي إِلَيْكِ، فَتَلَمَّحِي بِدَايَتَكِ وَنِهَايَتَكِ، وَتَفَكَّرِي فِيْمَا قَبْلَ الْبِدَايَةِ، وَلَيْسَ إِلَّا الْعَدَمُ، وَفِيْمَا بَعْدَ الْبِلَىٰ، وَلَيْسَ إِلَّا التُّرَابُ.

فَكَيْفَ يَأْنَسُ بِهَذَا الْوُجُوْدِ مَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ فِكْرِهِ الْمَبْدَأَ وَالْمُنْتَهَىٰ؟!

وَكَيْفَ يَغْفَلُ فِعْلُ الْقُلُوْبِ عَنْ ذِكْرِ هَذَا الإِلَهِ الْعَظِيْمِ؟!

وَبِاللهِ؛ لَوْ صَحَّتِ النُّفُوْسُ مِنْ سُكْرِ هَوَاهَا؛ لَذَابَتْ مِنْ خَوْفِهِ، أَوْ لَغَابَتْ فِي حُبِّهِ؛ غَيْرَ أَنَّ

---

(١) تَقَعُ خَيْبَر فِي الشَّمَالِ الشَّرْقِي لِلْمَدِيْنَة الْمُنَوَّرَة وَعَلَىٰ بُعْد ١٦٨ ك، وَتَتَكَوَّن مِنْ حَرَّة تَكْسُوْهَا الحِجَارَة السَّوْدَاء وَتُغَطِّي أَكْثَر مَوَاضِعهَا بِحَيْثُ يَصْعُب السَّيْر فِيْهَا إِلَّا مِنْ طُرُقٍ مَخْصُوْصَة. وَالْعَرَبِ: الأَعْرَاب قَاطِعِي الطَّرِيْق.

(٢) جاء في الأصل: [فإنه] وما أثبتناه من مخطوط: (ي).

الْحِسَّ غَلَبَ، فَعَظُمَتْ قُدْرَةُ الْخَالِقِ عِنْدَ رُؤْيَةِ جَبَلٍ.

وَإِنَّ الْفِطْنَةَ لَوْ تَلَمَّحَتِ الْمَعَانِيَ؛ لَدَلَّتِ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ أَوْفَىٰ مِنْ دَلِيلِ الْجَبَلِ.

سُبْحَانَ مَنْ شَغَلَ أَكْثَرَ الْخَلْقِ بِمَا هُمْ فِيهِ عَمَّا خُلِقُوا لَهُ! سُبْحَانَهُ!

*[٣٦٧ - ٤٢][خَاطِرَةٌ]:

[فُضِّلْتَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ؛ فَكُنْ عَلَى قَدْرِ هَذَا التَّفْضِيلِ]

مَا أَزَالُ أَتَعَجَّبُ مِمَّنْ يَرَىٰ تَفْضِيلَ الْمَلَائِكَةِ عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ!

* فَإِنْ كَانَ التَّفْضِيلُ بِالصُّوَرِ؛ فَصُورَةُ الْآدَمِيِّ أَعْجَبُ مِنْ ذَوِي أَجْنِحَةٍ.

وَإِنْ تُرِكَتْ صُورَةُ الْآدَمِيِّ لِأَجْلِ أَوْسَاخِهَا الْمَنُوطَةِ بِهَا؛ فَالصُّورَةُ لَيْسَتِ الْآدَمِيَّ، إِنَّمَا هِيَ قَالَبٌ! ثُمَّ قَدِ اسْتُحْسِنَ مِنْهَا مَا يُسْتَقْبَحُ فِي الْعَادَةِ؛ مِثْلُ: خُلُوفِ فَمِ الصَّائِمِ، وَدَمِ الشُّهَدَاءِ، وَالنَّوْمِ فِي الصَّلَاةِ(١)؛ فَبَقِيَتْ صُورَةٌ مَعْمُورَةٌ، وَصَارَ الْحُكْمُ لِلْمَعْنَىٰ.

(١) كَأَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ يُشِيرُ إِلَىٰ مَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ -تَعَالَىٰ-، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، -مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ». البخاري، كِ: «الصَّوْمِ» (١٨٩٤). ومسلم، كِ: «الصِّيَامِ» (١١٥١). وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ». البخاري، كِ: «الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ» (٢٨٠٣). ومسلم، كِ: «الْإِمَارَةِ» (١٨٧٦). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد، كِ: «قِيَامِ اللَّيْلِ» (١٣١٤). عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنَ امْرِئٍ تَكُونُ لَهُ صَلَاةٌ بِلَيْلٍ، يَغْلِبُهُ عَلَيْهَا نَوْمٌ، إِلَّا كُتِبَ لَهُ أَجْرُ صَلَاتِهِ، وَكَانَ نَوْمُهُ عَلَيْهِ صَدَقَةً». وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ لَيَضْحَكُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ نَفَرٍ، رَجُلٌ قَامَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ فَأَحْسَنَ الطُّهُورَ وَصَلَّىٰ، وَرَجُلٌ نَامَ وَهُوَ سَاجِدٌ، وَرَجُلٌ أَحْسِبُهُ كَانَ فِي كَتِيبَةٍ؛ فَانْهَزَمَتْ وَهُوَ عَلَىٰ فَرَسٍ جَوَادٍ لَوْ شَاءَ أَنْ يَذْهَبَ لَذَهَبَ» [«كَشْفِ الْأَسْتَارِ» لِلْهَيْثَمِيِّ. (١/ ٣٤٤/ ح٧١٥) مُرْسَلٌ]. وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: «أُنْبِئْتُ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا نَامَ وَهُوَ سَاجِدٌ أَنَّ اللهَ يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَىٰ عَبْدِي رُوحُهُ عِنْدِي، وَجَسَدُهُ فِي طَاعَتِي». [«الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ» لِابْنِ الْمُبَارَكِ. (١٢١٣) مُرْسَلٌ].

أَلَهُمْ مَرْتَبَةُ «يُحِبُّهُمْ»، أَوْ فَضِيلَةُ «يُبَاهِي بِهِمْ»[(١)]؟!

وَكَيْفَ دَارَ الأَمْرُ؛ فَقَدْ سَجَدُوْا لَنَا، وَهُوَ صَرِيْحٌ فِي تَفْضِيْلِنَا عَلَيْهِمْ.

* فَإِنْ كَانَتِ[(٢)] الْفَضِيْلَةُ بِالْعِلْمِ؛ فَقَدْ عَلِمْتَ الْقِصَّةَ يَوْمَ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾[الْبَقَرَةُ:٣٢] ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم﴾[الْبَقَرَةُ:٣٣] .

* وَإِنْ فُضِّلَتِ الْمَلَائِكَةُ بِجَوْهَرِيَّةِ ذَوَاتِهِمْ؛ فَجَوْهَرِيَّةُ أَرْوَاحِنَا مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ، وَعَلَيْنَا أَثْقَالُ أَعْبَاءِ الْجِسْمِ.

بِاللهِ؛ لَوْلَا احْتِيَاجُ الرَّاكِبِ إِلَى النَّاقَةِ؛ فَهُوَ يَتَوَقَّفُ لِطَلَبِ عَلَفِهَا، وَيَرْفُقُ فِي السَّيْرِ بِهَا؛ لَطَرَقَ أَرْضَ مِنًى قَبْلَ الْعَشْرِ[(٣)].

وَا عَجَبًا! أَتَفَضَّلُ الْمَلَائِكَةُ بِكَثْرَةِ التَّعَبُّدِ؟! فَمَا ثَمَّ صَادٌّ[(٤)].

أَوَيُتَعَجَّبُ مِنَ الْمَاءِ إِذَا جَرَى، أَوْ مِنْ مُنْحَدِرٍ يُسْرِعُ؟! إِنَّمَا الْعَجَبُ مِنْ مُصَاعِدٍ[(٥)].

بَلَى؛ قَدْ يُتَصَوَّرُ مِنْهُمُ الْخِلَافُ، وَدَعْوَى الإِلَهِيَّةِ؛ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَى دَكِّ الصُّخُوْرِ وَشَقِّ الأَرْضِ؛ لِذَلِكَ تُوُعِّدُوْا: ﴿۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾[الأَنْبِيَاءُ:٢٩]، لَكِنَّهُمْ يَعْلَمُوْنَ عُقُوْبَةَ الْحَقِّ فَيَحْذَرُوْنَهُ.

فَأَمَّا بُعْدُنَا عَنِ الْمَعْرِفَةِ الْحَقِيْقِيَّةِ، وَضَعْفُ يَقِيْنِنَا بِالنَّاهِي، وَغَلَبَةُ شَهْوَتِنَا مَعَ الْغَفْلَةِ؛

---

(١) مَرْتَبَةُ «يُحِبُّهُمْ»: إِشَارَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]. وَفَضِيلَةُ «يُبَاهِي بِهِمْ»: إِشَارَةٌ إِلَى مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ، كِ: «الْحَجِّ»(١٣٤٨). وَالبَيْهَقِيُّ فِي «الشُّعَبِ»(٣٧٧٤) وَاللَّفْظُ لَهُ؛ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ عَرَفَةَ فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي...» الحديث.

(٢) جاء في الأصل: [كان] وما أثبتناه من مخطوط: (ي).

(٣) الْعَشْر، أَيْ: عَشْر ذِي الْحِجَّة.

(٤) هَكَذَا جَاءَ فِي مَخْطُوْط(ي): وَجَاءَ فِي الأَصْلِ: [صُعَادٌ]، وَفِي حَاشِيَةِ الأَصْلِ: [فِي الأَحْمَدِيَّةِ: فَمَا ثَمَّ صَادٌّ]. وَصَادٌّ؛ أَيْ: مَانِعٌ. فَمَا ثَمَّ؛ أَيْ: هُنَاكَ. وَصُعَادٌ: صَعِدَ صُعُودًا: الارْتِفَاع. وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ لِسِيَاقِ الكَلَام.

(٥) هُنَاكَ زِيَادَة فِي المَطْبُوع: [يَشُقُّ الطَّرِيْقَ، وَيُغَالِبُ الْعَقَبَاتِ!]. وَمُصَاعِد: مَضَى فِيْهِ عَلَى مَشَقَّة، تَكَلَّفَ صُعُوْدَهُ.

فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ جِهَادٍ أَعْظَمَ مِنْ جِهَادِهِمْ.

تَاللهِ، لَوِ ابْتُلِيَ أَحَدُ الْمُقَرَّبِينَ بِمَا ابْتُلِينَا بِهِ، لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ التَّمَاسُكِ.

يُصْبِحُ أَحَدُنَا، وَخِطَابُ الشَّرْعِ يَقُولُ لَهُ: اكْسِبْ لِعَائِلَتِكَ، وَاحْذَرْ فِي كَسْبِكَ! وَقَدْ تَمَكَّنَ مِنْهُ مَا لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِ؛ كَحُبِّ الْأَهْلِ، وَعُلُوقِ الْوَلَدِ بِنِيَاطِ الْقَلْبِ[(١)]، وَاحْتِيَاجِ بَدَنِهِ إِلَىٰ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ.

فَتَارَةً يُقَالُ لِلْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اذْبَحْ وَلَدَكَ بِيَدِكَ! وَاقْطَعْ ثَمَرَةَ فُؤَادِكَ بِكَفِّكَ! ثُمَّ قُمْ إِلَىٰ الْمَنْجَنِيقِ لِتُرْمَىٰ فِي النَّارِ![(٢)].

وَتَارَةً يُقَالُ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: صُمْ شَهْرًا، لَيْلًا وَنَهَارًا[(٣)].

ثُمَّ يُقَالُ لِلْغَضْبَانِ: اكْظِمْ! وَلِلْبَصِيرِ: اغْضُضْ! وَلِذِي الْمِقْوَلِ: اصْمُتْ! وَلِمُسْتَلِذِّ النَّوْمِ: تَهَجَّدْ! وَلِمَنْ مَاتَ حَبِيبُهُ: اصْبِرْ! وَلِمَنْ أُصِيبَ فِي بَدَنِهِ: اشْكُرْ! وَلِلْوَاقِفِ فِي الْجِهَادِ بَيْنَ اثْنَيْنِ: لَا يَحِلُّ أَنْ تَفِرَّ![(٤)].

---

(١) نِيَاطُ: عِرْقٌ غَلِيظٌ مُمْتَدٌّ مِنَ الرِّئَتَيْنِ وَمُتَّصِلٌ بِالْقَلْبِ، فَإِذَا قُطِعَ مَاتَ صَاحِبُهُ.

(٢) يُشِيرُ رَحِمَهُ اللهُ إِلَىٰ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصَّافَات: ١٠٢-١٠٥]. وَيُشِيرُ رَحِمَهُ اللهُ كَذَلِكَ إِلَىٰ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ قَوْمِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٧]، وقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [العنكبوت:٢٤] وَقَالَ: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٩٧]. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ»(٦/ ٢٨٧/ العنكبوت:٢٤): «وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حَشَدُوا فِي جَمْعِ أَحْطَابٍ عَظِيمَةٍ مُدَّةً طَوِيلَةً، وحَوَّطوا حَوْلَهَا، ثُمَّ أَضْرَمُوا فِيهَا النَّارَ، فَارْتَفَعَ لَهَا لَهَبٌ إِلَىٰ عَنَانِ السَّمَاءِ: وَلَمْ تُوقَدْ نَارٌ قَطُّ أَعْظَمُ مِنْهَا، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ فَكَتَّفُوهُ وَأَلْقَوْهُ فِي كِفَّةِ الْمَنْجَنِيقِ، ثُمَّ قَذَفُوا بِهِ فِيهَا، فَجَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَخَرَجَ مِنْهَا سَالِمًا بَعْدَ مَا مَكَثَ فِيهَا أَيَّامًا».

(٣) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى»(١١٢٦٣/ طه:٤٠/ حَدِيثُ الْفُتُونِ) وأبو يعلىٰ في «مسنده»(٢٦١٨/ طه:٤٠). وذكره السيوطي مُخْتَصَرًا في «الدر المنثور»(ج٣/ ص٤٨٤/ الأعراف:١٤٢) وَقَالَ: «وَأَخْرَجَ الدَّيْلَمِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. . .، فَلَمَّا أَتَىٰ رَبَّهُ أَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَهُ فِي ثَلَاثِينَ يَوْمًا، وَقَدْ صَامَهُنَّ لَيْلَهُنَّ وَنَهَارَهُنَّ. . .».

(٤) كُلُّ مَا ذَكَرَهُ الإِمَامُ هُنَا لَهُ دَلِيلٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، سَأَذْكُرُ مِنْهَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْمِثَالِ: أَمَّا لِلْغَضْبَانِ، فَمَا رَوَاهُ أحمد في =

= «المسند»(٢٢٠٨٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه»(٢٥٨٩٢/ ٣٠١٩٨). عَنْ مُعَاذٍ ﷺ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا حَتَّى أَنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ أَنْفَهُ لَيَتَمَزَّعُ - يتقطع، ويتشقق غضبًا - مِنَ الْغَضَبِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ يَقُولُهَا هَذَا الْغَضْبَانُ لَذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». وَرَوَى أَبُو دَاوُد، كِ: «الأَدَبِ»(٤٧٧٧) عَنْ مُعَاذٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ ﷻ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرُهُ اللهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ». وَأَمَّا لِلْبَصِيرِ، فَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ...﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ...﴾ [النور:٣٠، ٣١] وَمَا رَوَاهُ مسلم، كِ: «الآدَابِ»(٢١٥٩). عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي» وَفِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ(١٩١٩٧): «اصْرِفْ بَصَرَكَ». وَأَمَّا ذِي الْمِقْوَلِ - اللِّسَان -؛ فَمَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ». البخاري، كِ: «الأَدَبِ»(٦٠١٨). ومسلم، كِ: «الإِيمَانِ»(٤٧). وَأَمَّا مُسْتَلِذُّ النَّوْمِ، فَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات:١٧] وَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ [الفرقان:٦٤]. وَمَا رَوَاهُ ابن خزيمة، كِ: «الصَّلَاةِ»(١١٣٥). عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمُكَفِّرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ». وَرَوَى ابْن ماجة، كِ: «إِقَامَةِ الصَّلَاةِ»(١٣٣٦). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ، فَإِنْ أَبَتْ رَشَّ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى؛ فَإِنْ أَبَى رَشَّتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ» وَأَمَّا مَنْ مَاتَ حَبِيبُهُ؛ فَمَا رَوَاهُ البخاري، كِ: «الرِّقَاقِ»(٦٤٢٤). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ، إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إِلَّا الجَنَّةُ». وَأَمَّا مَنْ أُصِيبَ فِي بَدَنِهِ؛ فَمَا رَوَاهُ البخاري، كِ: «المَرْضَى»(٥٦٥٣). عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ - عينيه - فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ». وَرُوِيَ فِي «مسند الشهاب»(١٤٦٢). عَنْ أَنَسٍ ﷺ يَرْفَعُهُ: «عَنِ اللهِ ﷻ قَالَ: إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا». وَأَمَّا قَوْلُهُ: لا يَحِلُّ أَنْ تَفِرَّ!؛ فَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال:١٥، ١٦]. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: «إِنْ فَرَّ رَجُلٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ فَلَمْ يَفِرَّ، وَإِنْ فَرَّ مِنَ اثْنَيْنِ فَقَدْ فَرَّ»[«سُنَن سَعِيد بْن مَنْصُور»(٢٥٣٨)] وَمَا رَوَاهُ البخاري، كِ: «الجِهَادِ وَالسِّيَرِ»(٢٨٣٣) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا» وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلَاتِ». كِ: «الحُدُودِ»(٦٨٥٧).

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْمَوْتَ يَأْتِي بِأَصْعَبِ الْمَرَارَاتِ؛ فَيَنْزِعُ الرُّوحَ عَنِ الْبَدَنِ؛ فَإِذَا نَزَلَ؛ فَاثْبُتْ![1].

وَاعْلَمْ أَنَّكَ مُمَزَّقٌ فِي الْقَبْرِ؛ فَلَا تَتَسَخَّطْ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا يَجْرِي بِهِ الْقَدَرُ![2].

وَإِنْ وَقَعَ بِكَ مَرَضٌ؛ فَلَا تَشْكُ إِلَى الْخَلْقِ![3].

فَهَلْ لِلْمَلَائِكَةِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ شَيْءٌ؟!

وَهَلْ ثَمَّ إِلَّا عِبَادَةٌ سَاذَجَةٌ[4]: لَيْسَ فِيهَا مُقَاوَمَةُ طَبْعٍ، وَلَا رَدُّ هَوًى؟!

وَهَلْ هِيَ إِلَّا عِبَادَةٌ صُورِيَّةٌ بَيْنَ رُكُوعٍ وَسُجُودٍ وَتَسْبِيحٍ؟!

فَأَيْنَ عِبَادَتُهُمُ الْمَعْنَوِيَّةُ مِنْ عِبَادَتِنَا؟!

ثُمَّ أَكْثَرُهُمْ فِي خِدْمَتِنَا؛ بَيْنَ كَتَبَةٍ عَلَيْنَا، وَدَافِعِينَ عَنَّا، وَمُسَخَّرِينَ لِإِرْسَالِ الرِّيحِ وَالْمَطَرِ، وَأَكْثَرُ وَظَائِفِهِمُ الِاسْتِغْفَارُ لَنَا[5].

---

(١) أَخْرَجَ الحَكِيم التِّرمِذِيّ في «نَوَادِرِ الأُصُول»(ج٣/ ص٦، ٧/ ح٥٤٠، ٥٤١/ الأصل:٨٦) عَنْ سَلْمَان رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ يَقُولُ: «ارْقُبُوا الْمَيِّتَ عِنْدَ مَوْتِهِ ثَلَاثًا: إِنْ رَشِحَتْ جَبِينُهُ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، وَانْتَشَرَ مَنْخِرَاهُ، فَهِيَ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ قَدْ نَزَلَتْ بِهِ، وَإِنْ غَطَّ غَطِيطَ الْبَكْرِ الْمَخْنُوقِ، وَخَمَدَ لَوْنُهُ، وَأَزْبَدَ شِدْقَاهُ، فَهُوَ عَذَابٌ مِنَ اللهِ قَدْ حَلَّ بِهِ». وَعَنْ اِبْن مَسْعُود رضي الله عنه قَالَ: «مَوْتُ الْمُؤْمِنِ بِعَرَقِ الْجَبِينِ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَبْقَى عَلَيْهِ خَطَايَا مِنْ خَطَايَاهُ، فَيُجَارِف بهَا عِنْدَ الْمَوْت -؛ أَيْ: يُجَازَى -، فَيَعْرَقُ لِذَلِكَ جَبِينُهُ».

(٢) رَوَى الطَّبَرَانِي في «الْمُعْجَمِ الكَبِير»(٣٨٢٧) عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ دُفِنَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى قَبْرِهِ، قَالَ: «لَوْ نَجَا أَحَدٌ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ لَنَجَا سَعْدُ بن مُعَاذ، وَلَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ رُخِّيَ عَنْهُ». وَعَنْ أَبِي أَيُّوب رضي الله عنه أَنَّ صَبِيًّا دُفِنَ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَوْ أَفْلَتَ أَحَدٌ مِنْ ضَمَّةِ الْقَبْرِ لَأَفْلَتَ هَذَا الصَّبِيُّ»[«الْمُعْجَم الكَبِير»(٣٨٥٨)].

(٣) الْعَبْدُ مَأْمُورٌ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ دُونَ خَلْقِهِ؛ فَإِنْ شَكَا ذَلِكَ إِلَى طَبِيبٍ يَعْرِفُ الطِّبَّ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْبَارِ وَالْحِكَايَةِ؛ لِيُعَالِجَهُ، لَا عَلَى سَبِيلِ التَّضَجُّرِ وَالتَّبَرُّمِ وَالتَّسَخُّطِ وَالتَّأَلُّمِ؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُسْتَفْتِي وَهَذَا حَسَنٌ؛ إِلَّا إِذَا اقْتَرَنَ بِهِ مَا يُحَرِّمُ كَالْمُصَابِ الَّذِي يَتَسَخَّطُ. قِيلَ لِلْإِمَامِ أَحْمَد فِي مَرَضِ مَوْتِهِ إِنَّ الأَنِينَ شَكْوَى. فَمَا أَنَّ حَتَّى مَاتَ.

(٤) سَاذِجَةٌ وَسَاذَجَةٌ: غَيْرُ بَالِغَةٍ؛ وَلَيْسَ بِبُرْهَانٍ قَاطِعٍ. إِذًا الْمَعْنَى: أَنَّهَا عِبَادَة بَسِيطَة؛ بِالنِّسْبَةِ لِمَا كُلِّفْنَا بِهِ.

(٥) كَأَنَّهُ رحمه الله يُشِيرُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرَّعد:١١]، وَقَوْله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ
=

فَكَيْفَ يُفَضَّلُوْنَ عَلَيْنَا بِلا عِلَّةٍ ظَاهِرَةٍ؟!

أَوَمَا حُكْتُ(١) عَلَىٰ مَحَكِّ التَّجَارِبِ مِنْهُمْ: هَارُوْتَ وَمَارُوْتَ ؛ فَخَرَجُوْا أَقْبَحَ مِنْ بَهْرَجٍ(٢).

وَلا تَظُنَّنَّ أَنِّي أَعْتَقِدُ فِي تَعَبُّدِ الْمَلائِكَةِ نَوْعَ تَقْصِيْرٍ؛ لِأَنَّهُمْ شَدِيْدُوْ الْإِشْفَاقِ وَالْخَوْفِ؛ لِعِلْمِهِمْ بِعَظَمَةِ الْخَالِقِ، لَكِنْ طَمَأْنِيْنَةُ مَنْ لَمْ يُخْطِئْ تُقَوِّي نَفْسَهُ، وَانْزِعَاجُ الْغَائِصِ فِي الزَّلَلِ يُرَقِّي رُوْحَهُ إِلَىٰ التَّرَاقِي(٣).

= ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥]، وَقَوْله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر:٧]. رَوَىٰ الْبَيْهَقِيّ فِي «الشُّعَب»(١٥٦). عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ قَالَ: «يُدَبِّرُ أَمْرَ الدُّنْيَا أَرْبَعَةٌ: جِبْرِيلُ، وَمِيكَائِيلُ، وَمَلَكُ الْمَوْتِ، وَإِسْرَافِيلُ. فَأَمَّا جِبْرِيلُ: فَوُكِّلَ بِالرِّيَاحِ وَالْجُنُودِ، وَأَمَّا مِيكَائِيلُ: فَوُكِّلَ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ، وَأَمَّا مَلَكُ الْمَوْتِ: فَوُكِّلَ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ، وَأَمَّا إِسْرَافِيلُ: فَهُوَ يَنْزِلُ بِالْأَمْرِ عَلَيْهِمْ».

(١) جَاءَ فِي الأَصْلِ:[وَأَمَّا]، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنْ مَخْطُوْطِ:(ي). وَمَحَكُّ التَّجَارِبِ: وُضِعُوا فِي الاخْتِبَارِ وَالتَّجْرِبَةِ.

(٢) الْبَهْرَجِ: التَّعْوِيجُ مِنَ الاسْتِوَاءِ إِلَىٰ غَيْرِ الِاسْتِوَاءِ، وَكُلُّ مَرْدُوْدٍ عِنْدَ الْعَرَبِ بَهْرَجٌ. وَالبَهْرَجُ: الْبَاطِلُ وَالرَّدِيءُ مِنَ الشَّيْءِ. وَقَوْلُهُ: «هَارُوتَ وَمَارُوتَ...»: الْقِصَّةُ رَوَاهَا ابْنُ حِبَّان،(٦١٨٦) وَأَحْمَد،(٦١٧٨) قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْقَوْلُ الْمُسَدَّد»(ص٣٨/ ح٨): «وَلَهُ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ جَمَعْتُهَا فِي جُزْءٍ مُفْرَدٍ يَكَادُ الْوَاقِفُ عَلَيْهِ أَنْ يَقْطَعَ وُقُوعِ هَذِهِ الْقِصَّةِ لِكَثْرَةِ الطُّرُقِ الْوَارِدَةِ فِيهَا وَقُوَّة مخارج أَكْثَرهَا». قَالَ الشَّيْخ أَحْمَد شَاكِر فِي «الْمُسْنَد»(٥/ ٤١٦/ ح٦١٧٨): «هَذَا الَّذِي جَزَمَ بِهِ الحَافِظ، بِصِحَّةِ وُقُوعِ هَذِهِ القِصَّة، صِحَّة قَرِيبَة مِنَ القَطْعِ، لِكَثْرَةِ طُرُقهَا وَقُوَّة مَخَارِج أَكْثَرها: فَلَا؛ فَإِنَّهَا كُلّهَا طُرُق مَعْلُوْلَة أَوْ وَاهِيَة، إِلَىٰ مُخَالَفَتِهَا الوَاضِحَة لِلْعَقْلِ، لَا مِنْ جِهَةِ عِصْمَةِ المَلَائِكَة القَطْعِيَّة فَقَط، بَل مِنْ نَاحِيَةِ أَنَّ الكَوْكَب الَّذِي نَرَاهُ صَغِيْرًا فِي عَيْنِ النَّاظِرِ قَدْ يَكُوْن حَجْمُهُ أَضْعَاف حَجْم الكُرَة الأَرْضِيَّة بِالآلَافِ الْمَؤُلَّفَة مِنَ الأَضْعَافِ فَأَنَّىٰ يَكُوْن جِسْم الْمَرْأَة الصَّغِيْر إِلَىٰ هَذِهِ الأَجْرَام الفَلَكِيَّة الهَائِلَة!!». وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيّ فِي «زَادِ الْمَسِيْر»(١/ ١٠٨)«هَذِهِ الأَشْيَاء بَعِيْدَة عَنِ الصِّحَّةِ». وَقَالَ ابْنُ كَثِيْرٍ فِي «تفسيره»(١/ ٣٧٠/ البقرة:١٠٢): «وَقَدْ رُوِيَتْ قِصَّة هَارُوت وَمَارُوت عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِيْنِ كَمُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيّ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيّ وَقَتَادَةَ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالزُّهْرِيّ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ وَغَيْرِهِمْ، وَقَصَّهَا خَلْقٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ، وَحَاصِلُهَا رَاجِعٌ فِي تَفْصِيلِهَا إِلَىٰ أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيل إِذْ لَيْسَ فِيهَا حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ صَحِيحٌ مُتَّصِلُ الْإِسْنَادِ إِلَىٰ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ الْمَعْصُومِ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، وَظَاهِرُ سِيَاقِ الْقُرْآنِ إِجْمَالُ الْقِصَّةِ مِنْ غَيْرِ بَسْطٍ وَلَا إِطْنَابٍ فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ عَلَىٰ مَا أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ».

(٣) التَّرَاقِي: التَّرْقُوَةُ: الْعَظْمُ الَّذِي بَيْنَ ثُغْرَةِ النَّحْرِ وَالْعَاتِقِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ. وَفِي هَذَا كِنَايَة عَنِ الْمُشَارَفَةِ عَلَىٰ الْمَوْتِ.

فَاعْرِفُوا - إِخْوَانِي - شَرَفَ أَقْدَارِكُمْ، وَصُونُوا جَوَاهِرَكُمْ عَنْ تَدْنِيْسِهَا بِلُؤْمِ الذُّنُوْبِ، فَأَنْتُمْ مَعْرِضُ الْفَضْلِ عَلَىٰ الْمَلائِكَةِ؛ فَاحْذَرُوْا أَنْ تَحُطَّكُمُ الذُّنُوْبُ إِلَىٰ حَضِيضِ الْبَهَائِمِ!

وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

*[٣٦٨ - ١٠٨][خَاطِرَةٌ]:

[ينبغي لمنْ فضُل أنْ يتطلَّع للأفضل]

مَنْ أَعْمَلَ فِكْرَهُ الصَّافِيَ؛ دَلَّهُ عَلَىٰ طَلَبِ أَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ، وَنَهَاهُ عَنِ الرِّضَا بِالنَّقْصِ فِي كُلِّ حَالٍ.

وَقَدْ قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي[1]:

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوْبِ النَّاسِ عَيْبًا ... كَنَقْصِ الْقَادِرِيْنَ عَلَىٰ التَّمَامِ

فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَىٰ غَايَةِ مَا يُمْكِنُهُ:

فَلَوْ كَانَ يُتَصَوَّرُ لِلآدَمِيِّ صُعُوْدُ السَّمَاوَاتِ؛ لَرَأَيْتُ مِنْ أَقْبَحِ النَّقَائِصِ رِضَاهُ بِالأَرْضِ.

وَلَوْ كَانَتِ النُّبُوَّةُ تَحْصُلُ بِالِاجْتِهَادِ؛ رَأَيْتُ الْمُقَصِّرَ فِي تَحْصِيْلِهَا فِي حَضِيْضٍ.

غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُمْكِنْ ذَلِكَ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَطْلُبَ الْمُمْكِنَ.

وَالسِّيْرَةُ الْجَمِيْلَةُ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ: خُرُوْجُ النَّفْسِ إِلَىٰ غَايَةِ كَمَالِهَا الْمُمْكِنِ لَهَا فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

وَأَنَا أَشْرَحُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَدُلُّ مَذْكُوْرُهُ عَلَىٰ مُغْفَلِهِ[2]:

---

(١) البيت من البحر: [الوافر]، وتقدمت ترجمة أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي في الخاطرة: [١١٥-١٧٠].

(٢) مُغْفَلِهِ: أَغْفَلَ يُغْفِلُ، إِغْفَالًا، فَهُوَ مُغْفِلٌ، وَالْمَفْعُوْلُ: مُغْفَلٌ: أَهْمَلَ وَتَرَكَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ.

* أَمَّا فِي الْبَدَنِ؛ فَلَيْسَتِ الصُّوْرَةُ دَاخِلَةً تَحْتَ كَسْبِ الآدَمِيِّ، بَلْ يَدْخُلُ تَحْتَ كَسْبِهِ تَحْسِيْنُهَا وَتَزْيِيْنُهَا.

فَقَبِيْحٌ بِالْعَاقِلِ إِهْمَالُ نَفْسِهِ.

وَقَدْ نَبَّهَ الشَّرْعُ عَلَىٰ الْكُلِّ بِالْبَعْضِ؛ فَأَمَرَ بِقَصِّ الأَظْفَارِ، وَنَتْفِ الإِبْطِ، وَحَلْقِ الْعَانَةِ، وَنَهَىٰ عَنْ أَكْلِ الثُّومِ وَالْبَصَلِ النَّيِّءِ؛ لِأَجْلِ الرَّائِحَةِ[1].

* وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَقِيْسَ عَلَىٰ ذَلِكَ وَيَطْلُبَ غَايَةَ النَّظَافَةِ وَنِهَايَةَ الزِّيْنَةِ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْرَفُ مَجِيئُهُ بِرِيْحِ الطِّيبِ[2]، فَكَانَ الْغَايَةَ فِي النَّظَافَةِ وَالنَّزَاهَةِ.

وَلَسْتُ آمُرُ بِزِيَادَةِ التَّقَشُّفِ[3]، الَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ الْمُوَسْوِسُ، وَلَكِنَّ التَّوَسُّطَ هُوَ الْمَحْمُوْدُ.

* ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَرْفُقَ بِبَدَنِهِ الَّذِي هُوَ رَاحِلَتُهُ، وَلا يَنْقُصُ مِنْ قُوَّتِهَا، فَتَنْقُصَ قُوَّتَهَا.

وَلَسْتُ آمُرُ بِالشِّبَعِ الَّذِي يُوجِبُ الْجُشَاءَ[4]؛ إِنَّمَا آمُرُ بِالتَّوَسُّطِ؛ فَإِنَّ قُوَىٰ الآدَمِيِّ كَعَيْنٍ جَارِيَةٍ؛ كَمْ فِيْهَا مِنْ مَنْفَعَةٍ لِصَاحِبِهَا وَلِغَيْرِهِ، وَيُعِيْنُ صَانِعًا.

وَلا يُلْتَفَتُ إِلَىٰ قَوْلِ الْمُوَسْوِسِيْنَ مِنَ الْمُتَزَهِّدِيْنَ الَّذِينَ جَدُّوا فِي التَّقَلُّلِ، فَضَعُفُوْا عَنِ الْفَرَائِضِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الشَّرْعِ، وَلَا نُقِلَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَلَا أَصْحَابِهِ.

إِنَّمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ إِذَا لَمْ يَجِدُوْا؛ جَاعُوا، وَرُبَّمَا آثَرُوْا فَصَبَرُوا ضَرُوْرَةً.

* وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ لِهَذِهِ الرَّاحِلَةِ فِي عَلَفِهَا؛ - فَرُبَّ لُقْمَةٍ مَنَعَتْ لُقُمَاتٍ؛ - فَلَا

---

(١) سَبَقَ تَخْرِيْجِ هَذِهِ الآدَابِ فِي الخَاطِرَةِ رَقَم:[٣٠١-٥٢].

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦٨٥٨) والدارمي في «سننه» (٦٦) عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَزِيْدَ النَّخَعِيِّ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْرَفُ - بِاللَّيْلِ - بِرِيحِ الطِّيْبِ - إِذَا أَقْبَلَ -». ورواه ابن سعد في «الطبقات الكبرىٰ»(ج١/ ص٣٩٥) عَنْ يَزِيْدَ الرَّقَاشِيِّ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «كُنَّا نَعْرِفُ خُرُوجَ النَّبِيِّ ﷺ بِرِيحِ الطِّيْبِ»[«صحيح الجامع»(٤٩٨٨)]

(٣) هَكَذَا فِي الأَصْلِ وَالمَخْطُوْط. وَالتَّقَشُّفُ: لُبْسُ الثِّيَابِ الْمُرَقَّعَةِ الْوَسِخَةِ، وَالْقَشَفُ: شِدَّةُ الْعَيْشِ. وَلَعَلَّهَا: التَّظَفُّفِ.

(٤) الْجُشَاءُ: صَوْتٌ مَعَ رِيحٍ يَحْصُلُ مِنَ الْفَمِ عِنْدَ حُصُولِ الشِّبَعِ.

يُعْطِيهَا مَا يُؤْذِيهَا، بَلْ يَنْظُرُ لَهَا فِي الأَصْلَحِ، وَلَا يَلْتَفِتُ[(١)] إِلَىٰ مُتَزَهِّدٍ يَقُولُ: «لَا أُبَلِّغُهَا الشَّهَوَاتِ»؛ فَإِنَّ النَّظَرَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ فِي حِلِّ الْمَطْعَمِ، وَأَخْذِ مَا يَصْلُحُ بِمِقْدَارٍ.

وَلَمْ يُنْقَلْ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَلَا أَصْحَابِهِ ﷺ مَا أَحْدَثَهُ الْمُوَسْوِسُوْنَ فِي تَرْكِ الْمُشْتَهَيَاتِ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، إِنَّمَا نُقِلَ عَنْهُمْ تَرْكُهَا لِسَبَبٍ: إِمَّا لِلنَّظَرِ فِي حِلِّهَا، أَوْ لِلْخَوْفِ مِنْ مُطَالَبَةِ النَّفْسِ بِهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ. . . وَيَجُوزُ ذَلِكَ.

* وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي التِّجَارَةِ وَالْكَسْبِ؛ لِيَفْضُلَ عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَلَا يَفْضُلَ غَيْرُهُ عَلَيْهِ، وَلِيَبْلُغَ مِنْ ذَلِكَ غَايَةً لَا تَمْنَعُهُ عَنِ الْعِلْمِ.

* ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْلُبَ الْغَايَةَ فِي الْعِلْمِ، وَمِنْ أَقْبَحِ النَّقْصِ التَّقْلِيْدُ؛ فَإِنْ قَوِيَتْ هِمَّتُهُ؛ رَقَّتْهُ إِلَىٰ أَنْ يَخْتَارَ لِنَفْسِهِ مَذْهَبًا، وَلَا يَتَمَذْهَبُ لِأَحَدٍ؛ فَإِنَّ الْمُقَلِّدَ أَعْمَىٰ، يَقُوْدُهُ مُقَلَّدُهُ[(٢)].

---

(١) هكذا في المخطوط، وفي الأصل: [يَتَلَفَّت]، وهي بمعنى: يَلْتَفِتُ. تلفَّتَ إلىٰ يتلفَّت: الْتَفَتَ إِلَيْهِ نَاظِرًا إِلَيْهِ.

(٢) التَّقْلِيدُ مَعْنَاهُ فِي الشَّرْعِ الرُّجُوعُ إِلَىٰ قَوْلٍ لَا حُجَّةَ لِقَائِلِهِ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ مَمْنُوعٌ مِنْهُ فِي الشَّرِيعَةِ، وَالِاتِّبَاعُ مَا ثَبَتَ عَلَيْهِ حُجَّةٌ. وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَئِمَّةِ الأَمْصَارِ فِي فَسَادِ التَّقْلِيدِ ذَكَرَ أَبُو عُمَرَ بِإِسْنَادِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَيْلٌ لِلأَتْبَاعِ مِنْ عَثَرَاتِ الْعَالِمِ»، قِيلَ: كَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «يَقُولُ الْعَالِمُ شَيْئًا بِرَأْيِهِ ثُمَّ يَجِدُ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْهُ فَيَتْرُكُ قَوْلَهُ ذَلِكَ ثُمَّ تَمْضِي الأَتْبَاعُ». وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ لِكُمَيْلِ بْنِ زِيَادٍ النَّخَعِيِّ: «يَا كُمَيْلُ إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا لِلْخَيْرِ، وَالنَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَىٰ سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رِعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَىٰ رُكْنٍ وَثِيقٍ. . . أُفٌّ لِحَامِلِ حَقٍّ لَا بَصِيرَةَ لَهُ، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، لَا يَدْرِي أَيْنَ الْحَقُّ، إِنْ قَالَ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ لَمْ يَدْرِ، مَشْغُوفٌ بِمَا لَا يَدْرِي حَقِيقَتَهُ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتُتِنَ بِهِ، وَإِنَّ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ مَنْ عَرَّفَهُ اللهُ دِينَهُ، وَكَفَىٰ بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ لَا يَعْرِفَ دِينَهُ». وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُقَلِّدَ غَيْرَهُ تَقْلِيدًا أَعْمَىٰ يَدْخُلُ فِيمَا ذَكَرَهُ عَلِيٌّ ﷺ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي عَنْ دِينِ اللهِ شَيْئًا إِلَّا أَنَّ الإِمَامَ الْفُلَانِيَّ عَمِلَ بِهَذَا. فَعِلْمُهُ مَحْصُورٌ فِي أَنَّ مَنْ يُقَلِّدُهُ مِنَ الأَئِمَّةِ ذَهَبَ إِلَىٰ كَذَا وَلَا يَدْرِي أَمُصِيبٌ هُوَ فِيهِ أَمْ مُخْطِئٌ. وَمِثْلُ هَذَا: «لَمْ يَسْتَضِئْ بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَأْ إِلَىٰ رُكْنٍ وَثِيقٍ» لِجَوَازِ الْخَطَأِ عَلَىٰ مَتْبُوعِهِ، وَعَدَمِ مَيْزِهِ هُوَ بَيْنَ الْخَطَأِ وَالصَّوَابِ. وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا لَا يُقَلِّدَنَّ أَحَدُكُمْ دِينَهُ رَجُلًا إِنْ آمَنَ آمَنَ وَإِنْ كَفَرَ كَفَرَ، فَإِنَّهُ لَا أُسْوَةَ فِي الشَّرِّ». وَقَالَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ الْمُعْتَمِرِ ﷺ: «لَا فَرْقَ بَيْنَ بَهِيمَةٍ تُقَادُ وَإِنْسَانٍ يُقَلِّدُ».

* وَهَذَا كُلُّهُ لِغَيْرِ الْعَامَّةِ؛ فَإِنَّ الْعَامَّةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ تَقْلِيدِ عُلَمَائِهَا عِنْدَ النَّازِلَةِ تَنْزِلُ بِهَا؛ لِأَنَّهَا لَا تَتَبَيَّنُ مَوْقِعَ الْحُجَّةِ، وَلَا تَصِلُ لِعَدَمِ الْفَهْمِ إِلَىٰ عِلْمِ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْعِلْمَ دَرَجَاتٌ لَا سَبِيلَ مِنْهَا إِلَىٰ أَعْلَاهَا إِلَّا بِنَيْلِ أَسْفَلِهَا، وَهَذَا هُوَ الْحَائِلُ بَيْنَ =

*** ثُمَّ يَنْبَغِي أَنْ يَطْلُبَ الْغَايَةَ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَمُعَامَلَتِهِ.**

وَفِي الْجُمْلَةِ؛ لا يَتْرُكُ فَضِيلَةً يُمْكِنُ تَحْصِيلُهَا إِلَّا حَصَّلَهَا؛ فَإِنَّ الْقُنُوعَ حَالُ الأَرْذَالِ.

فَكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ فِي الثَّرَىٰ ... وَهَامَةُ هِمَّتِهِ فِي الثُّرَيَّا(١)

= الْعَامَّةِ وَبَيْنَ طَلَبِ الْحُجَّةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ. وَلَمْ تَخْتَلِفِ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْعَامَّةَ عَلَيْهَا تَقْلِيدُ عُلَمَائِهَا، وَأَنَّهُمُ الْمُرَادُونَ بِقَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣،الأنبياء:٧]. وَأَجْمَعُوا عَلَىٰ أَنَّ الأَعْمَىٰ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَقْلِيدِ غَيْرِهِ مِمَّنْ يَثِقُ بِمَيْزِهِ فِي الْقِبْلَةِ إِذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ. فَكَذَلِكَ مَنْ لا عِلْمَ لَهُ وَلَا بَصَرَ بِمَعْنَىٰ مَا يَدِينُ بِهِ لَا بُدَّ مِنْ تَقْلِيدِ عَالِمِهِ، وَكَذَلِكَ لَمْ يَخْتَلِفِ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْعَامَّةَ لَا يَجُوزُ لَهَا الْفُتْيَا. وَذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ لِجَهْلِهَا بِالْمَعَانِي الَّتِي مِنْهَا يَجُوزُ التَّحْرِيمُ وَالتَّحْلِيلُ، وَالْقَوْلُ فِي الْعِلْمِ. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَقَوَّلَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنِ اسْتَشَارَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ رُشْدٍ، فَقَدْ خَانَهُ، وَمَنْ أَفْتَىٰ بِفُتْيَا غَيْرِ ثَبْتٍ، فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَىٰ مَنْ أَفْتَاهُ» [رَوَاهُ أَحْمَد فِي «الْمُسْنَد» (٨٢٤٩، ٨٧٦١)]. وَلا شَكَّ أَنَّ الْمُقَلِّدَ أَعْمَىٰ عَمَّا يُفْتَىٰ بِهِ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُ بِهِ مَحْصُورٌ فِي أَنَّ فُلَانًا قَالَهُ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ فُلَانًا لَيْسَ بِمَعْصُومٍ مِنَ الْخَطَإِ وَالزَّلَلِ. وَأَحْسَنُ مَا يُقَالُ لِمَنْ حَكَمَ بِالتَّقْلِيدِ، قَوْلُ الْمُزَنِيِّ ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ حُجَّةٍ فِيمَا حَكَمْتَ بِهِ؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، أَبْطَلَ التَّقْلِيدَ؛ لِأَنَّ الْحُجَّةَ أَوْجَبَتْ ذَلِكَ عِنْدَهُ لا التَّقْلِيدَ. وَإِنْ قَالَ: حَكَمْتُ بِهِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ. قِيلَ لَهُ: فَلِمَ أَرَقْتَ الدِّمَاءَ، وَأَبَحْتَ الْفُرُوجَ وَأَتْلَفْتَ الأَمْوَالَ، وَقَدْ حَرَّمَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِحُجَّةٍ؟ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨]؛ أَيْ: مِنْ حُجَّةٍ بِهَذَا؟ فَإِنْ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ أَنِّي قَدْ أَصَبْتُ وَإِنْ لَمْ أَعْرِفِ الْحُجَّةَ، لِأَنِّي قَلَّدْتُ كَبِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَهُوَ لَا يَقُولُ إِلَّا بِحُجَّةٍ خَفِيَتْ عَلَيَّ. قِيلَ لَهُ: إِذَا جَازَ تَقْلِيدُ مُعَلِّمِكَ لِأَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا بِحُجَّةٍ خَفِيَتْ عَلَيْكَ، فَتَقْلِيدُ مُعَلِّمِ مُعَلِّمِكَ أَوْلَىٰ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا بِحُجَّةٍ خَفِيَتْ عَلَىٰ مُعَلِّمِكَ: كَمَا لَمْ يَقُلْ مُعَلِّمُكَ إِلَّا بِحُجَّةٍ خَفِيَتْ عَلَيْكَ. فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، تَرَكَ تَقْلِيدَ مُعَلِّمِهِ إِلَىٰ تَقْلِيدِ مُعَلِّمِ مُعَلِّمِهِ. وَكَذَلِكَ مَنْ هُوَ أَعْلَىٰ حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ الأَمْرُ إِلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنْ أَبَىٰ ذَلِكَ نَقَضَ قَوْلَهُ. وَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ تُجَوِّزُ تَقْلِيدَ مَنْ هُوَ أَصْغَرُ، وَأَقَلُّ عِلْمًا؟ وَلا تُجَوِّزُ تَقْلِيدَ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ وَأَكْثَرُ عِلْمًا، وَهَذَا تَنَاقُضٌ؟ فَإِنْ قَالَ: لِأَنَّ مُعَلِّمِي وَإِنْ كَانَ أَصْغَرَ فَقَدْ جَمَعَ عِلْمَ مَنْ هُوَ فَوْقَهُ إِلَىٰ عِلْمِهِ، فَهُوَ أَبْصَرُ بِمَا أَخَذَ وَأَعْلَمُ بِمَا تَرَكَ. قِيلَ لَهُ: كَذَلِكَ مَنْ تَعَلَّمَ مِنْ مُعَلِّمِكَ، فَقَدْ جَمَعَ عِلْمَ مُعَلِّمِكَ وَعِلْمَ مَنْ فَوْقَهُ إِلَىٰ عِلْمِهِ فَيَلْزَمُكَ تَقْلِيدُهُ وَتَرْكُ تَقْلِيدِ مُعَلِّمِكَ، وَكَذَلِكَ أَنْتَ أَوْلَىٰ أَنْ تُقَلِّدَ نَفْسَكَ مِنْ مُعَلِّمِكَ. لِأَنَّكَ جَمَعْتَ عِلْمَ مُعَلِّمِكَ وَعِلْمَ مَنْ هُوَ فَوْقَهُ إِلَىٰ عِلْمِكَ. فَإِنْ قَلَّدَ قَوْلَهُ جَعَلَ الأَصْغَرَ وَمَنْ يُحْدِثُ مِنْ صِغَارِ الْعُلَمَاءِ، أَوْلَىٰ بِالتَّقْلِيدِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَكَذَلِكَ الصَّاحِبُ عِنْدَهُ يَلْزَمُهُ تَقْلِيدُ التَّابِعِ، وَالتَّابِعُ مِنْ دُونِهِ فِي قِيَاسِ قَوْلِهِ، وَالأَعْلَىٰ لِلأَدْنَىٰ أَبَدًا. وَكَفَىٰ بِقَوْلٍ يَؤُولُ إِلَىٰ هَذَا قُبْحًا وَفَسَادًا» اهـ [يُرَاجَع: «جَامِع بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ» لابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ. (ج٢/ ص٩٧٥-٩٩٧/ بَابُ: فَسَادِ التَّقْلِيدِ وَنَفْيِهِ وَالْفَرْقِ بَيْنَ التَّقْلِيدِ وَالاتِّبَاعِ)] بِتَصَرُّفٍ وَاخْتِصَارٍ.

(١) [الْمُتَقَارِب]. الثَّرَىٰ: التُّرَابُ. وَالْهَامَةُ: الرَّأْسُ. وَالثُّرَيَّا: مَجْمُوعَةٌ مِنَ النُّجُومِ، تَعْبِيرٌ لِبَيَانِ الْفَرْقِ الْكَبِيرِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ.

وَلَوْ أَمْكَنَكَ عُبُوْرُ كُلِّ أَحَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ؛ فَافْعَلْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوْا رِجَالًا وَأَنْتَ رَجُلٌ، وَمَا قَعَدَ مَنْ قَعَدَ إِلَّا لِدَنَاءَةِ الْهِمَّةِ وَخَسَاسَتِهَا.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ فِي مَيْدَانِ سِبَاقٍ، وَالْأَوْقَاتُ تُنْتَهَبُ.

وَلَا تَخْلُدْ إِلَىٰ كَسَلٍ؛ فَمَا فَاتَ مَنْ فَاتَ إِلَّا بِالْكَسَلِ، وَلَا نَالَ مَنْ نَالَ إِلَّا بِالْجِدِّ وَالْعَزْمِ، وَإِنَّ الْهِمَّةَ لَتَغْلِي فِي الْقُلُوْبِ غَلَيَانَ مَا فِي الْقُدُورِ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ مَنْ سَلَفَ[1]:

لَيْسَ لِي مَالٌ سِوَىٰ كُرَىٰ ... فَبِهِ أَمْنِي مِنَ الْعَدَمِ
قَنَعَتْ نَفْسِي بِمَا رُزِقَتْ ... وَتَمَطَّتْ فِي الْعُلَا هِمَمِي

---

*[٣٦٩ - ١٣٧][خَاطِرَةٌ]:

[يا نَفسُ: بِاللهِ عَلَيْكِ لا تُشْمِتِي بِكِ الأَعْداءَ]

وَا عَجَبًا مِنْ عَارِفٍ بِاللهِ ﷻ يُخَالِفُهُ، وَلَوْ فِي تَلَفِ نَفْسِهِ!

هَلِ الْعَيْشُ إِلَّا مَعَهُ؟! هَلِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ إِلَّا لَهُ؟!

أُفٌّ لِمُتَرَخِّصٍ فِي فِعْلِ مَا يَكْرَهُ لِنَيْلِ مَا يُحِبُّ[2]! تَاللهِ؛ لَقَدْ فَاتَهُ أَضْعَافُ مَا حَصَّلَ.

أَقْبِلْ عَلَىٰ مَا أَقُوْلُهُ يَا ذَا الذَّوْقِ!

هَلْ وَقَعَ لَكَ تَعْثِيْرٌ فِي عَيْشٍ، وَتَخْبِيْطٌ فِي حَالٍ إِلَّا حَالَ مُخَالَفَتِهِ؟!

وَلَا انْثَنَىٰ عَزْمِي عَنْ بَابِكُمْ ... إِلَّا تَعَثَّرْتُ بِأَذْيَالِي[3]

---

(١) [المَديد]. أَبُو العِبَرِ الْهَاشِمِي. وَكُرَىٰ: قَبْر؛ وَمِنْهُ الْحَدِيْث: «لَعَلَّكَ بَلَغْتَ مَعَهُمُ الْكُرَىٰ» جَمْعُ كُرِيَّةٍ أَوْ كِرْوَةٍ مِنْ كَرَيْتَ الْأَرْضَ وَكَرَوْتَهَا إِذَا حَفَرْتَهَا. وَفِي «الوَافِي»: [سِوَىٰ كَرَمِي] وَتَمَطَّتْ: امْتَدَّتْ وَطَالَت إِلَىٰ مَعَالِي الْأُمُوْرِ.

(٢) أَيْ: يَفْعَلُ الإِنْسَان مَا يَكْرَهُه اللهُ تَعَالَىٰ، لِنَيْلِ مَا يُحِبُّ مِنْ أَغْرَاض.

(٣) البيت من البحر: [السَّرِيْع]. المُرْتَضَىٰ الشَّهْرُزُوْرِيُّ. وَانْثَنَىٰ: اِنْصَرَفَ أَوْ اِبْتَعَدَ. وَتَعَثَّرْتُ: زَلَّ وَكَبَا وَتَعَرْقَلَ.

أَمَا سَمِعْتَ تِلْكَ الْحِكَايَةَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ عَلَىٰ سُوْرِ بَيْرُوْتَ شَابًّا يَذْكُرُ اللهَ تَعَالَىٰ، فَقُلْتُ لَهُ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ: إِذَا وَقَعَتْ لِي حَاجَةٌ؛ سَأَلْتُهُ إِيَّاهَا بِقَلْبِي فَقَضَاهَا.

يَا أَرْبَابَ الْمُعَامَلَةِ! بِاللهِ عَلَيْكُمْ؛ لَا تُكَدِّرُوْا الْمَشْرَبَ! قِفُوا عَلَىٰ بَابِ الْمُرَاقَبَةِ وُقُوْفَ الْحُرَّاسِ! وَادْفَعُوْا مَا لَا يَصْلُحُ أَنْ يَلِجَ فَيُفْسِدَ! وَاهْجُرُوْا أَغْرَاضَكُمْ لِتَحْصِيْلِ مَحْبُوْبِ الْحَبِيْبِ؛ فَإِنَّ أَغْرَاضَكُمْ تَحْصُلُ.

عَلَىٰ أَنَّنِي أَقُوْلُ: أُفٌّ لِمَنْ تَرَكَ بِقَصْدِ الْجَزَاءِ![1].

أَهَذَا شَرْطُ الْعُبُوْدِيَّةِ؟! كَلَّا، إِنَّمَا يَنْبَغِي لِي إِذَا كُنْتُ مَمْلُوْكًا أَنْ أَفْعَلَ لِيَرْضَىٰ لَا لِأُعْطَىٰ؛ فَإِنْ كُنْتُ مُحِبًّا؛ رَأَيْتُ قَطْعَ الْآرَابِ فِي رِضَاهُ وَصْلًا[2].

اِقْبَلْ نُصْحِي يَا مَخْدُوْعًا بِغَرَضِهِ!

إِنْ ضَعُفْتَ عَنْ حَمْلِ بَلَائِهِ[3]؛ فَاسْتَغِثْ بِهِ، وَإِنْ آلَمَكَ كَرْبُ اخْتِيَارِهِ؛ فَإِنَّكَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلا تَيْأَسْ مِنْ رُوْحِهِ، وَإِنْ ضَاقَ خِنَاقُ الْبَلَاءِ.

بِاللهِ؛ إِنَّ مَوْتَ الْخَادِمِ فِي الْخِدْمَةِ حَسَنٌ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ.

إِخْوَانِي! لِنَفْسِي أَقُوْلُ؛ فَمَنْ لَهُ شِرْبٌ مَعِي؛ فَلْيَرِدْ[4]:

أَيَّتُهَا النَّفْسُ! لَقَدْ أَعْطَاكِ مَا لَمْ تُؤَمِّلِي، وَبَلَّغَكِ مَا لَمْ تَطْلُبِي، وَسَتَرَ عَلَيْكِ مِنْ قَبِيْحِكِ مَا لَوْ فَاحَ؛ ضَجَّتِ الْمَشَامُّ[5]!

فَمَا هَذَا الضَّجِيْجُ مِنْ فَوَاتِ كَمَالِ الْأَغْرَاضِ؟!

---

(١) أَيْ: أُفٌّ لِمَنْ تَرَكَ مَا نُهِيَ عَنْهُ بِقَصْدِ الْجَزَاءِ مُقَابَلَةً لِمَا تَرَكَ.

(٢) الْآرَابِ: أَرَب: بُغْيَة وَحَاجَة مُلِحَّة.

(٣) جاء في الأصل: [بلاونه]، ولعله تصحيف، وما أثبتناه من مخطوط: (ي).

(٤) شِرْبٌ: نَصِيبٌ مِنَ الْمَاءِ. فَلْيَرِدْ: فَلْيُقْبِلْ.

(٥) الْمَشَامُّ: الأُنُوف. وَالشَّمُّ: حِسُّ الأَنْفِ.

أَمَمْلُوكَةٌ أَنْتِ أَمْ حُرَّةٌ؟! أَمَا عَلِمْتِ أَنَّكِ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ؟!

وَهَذَا الْخِطَابُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِلْجُهَّالِ، فَأَيْنَ دَعْوَاكِ الْمَعْرِفَةَ؟!

أَتَرَاهُ لَوْ هَبَّتْ نَفْحَةٌ فَأَخَذَتِ الْبَصَرَ، كَيْفَ كَانَتْ تَطِيبُ لَكِ الدُّنْيَا؟!

وَا أَسَفًا عَلَيْكِ! لَقَدْ عَشِيَتِ الْبَصِيرَةُ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ[١].

وَمَا عَلِمْتِ كَمْ أَقُولُ: عَسَىٰ وَلَعَلَّ؟ وَأَنْتِ فِي الْخَطَإِ إِلَىٰ قُدَّام.

قَرُبَتْ سَفِينَةُ الْعُمُرِ مِنْ سَاحِلِ الْقَبْرِ، وَمَا لَكِ فِي الْمَرْكَبِ بِضَاعَةٌ تُرْبِحُ. . . تَلاعَبَتْ فِي بَحْرِ الْعُمُرِ رِيحُ الضَّعْفِ، فَفَرَّقَتْ تَلْفِيقَ الْقُوَىٰ، وَكَأَنْ قَدْ فَصَلَتِ الْمَرْكَبُ[٢].

بَلَغْتِ نِهَايَةَ الأَجَلِ؛ وَعَيْنُ هَوَاكِ تَتَلَفَّتُ إِلَىٰ الصِّبَا.

بِاللهِ عَلَيْكِ؛ لا تُشْمِتِي بِكِ الأَعْدَاءَ!

هَذَا أَقَلُّ الأَقْسَامِ، وَأَوْفَىٰ مِنْهَا أَنْ أَقُولَ: بِاللهِ عَلَيْكِ؛ لا يَفُوتَنَّكِ قَدَمٌ سَابِقٌ مَعَ قُدْرَتِكِ عَلَىٰ قَطْعِ الْمِضْمَارِ[٣].

الْخَلْوَةَ الْخَلْوَةَ! وَاسْتَحْضِرِي قَرِينَ الْعَقْلِ، وَجُولِي فِي حَيْرَةِ الْفِكْرِ، وَاسْتَدْرِكِي صُبَابَةَ الأَجَلِ، قَبْلَ أَنْ تَمِيلَ بِكِ الصَّبَابَةُ عَنِ الصَّوَابِ[٤].

وَا عَجَبًا! كُلَّمَا صَعِدَ الْعُمُرُ نَزَلْتِ! وَكُلَّمَا جَدَّ الْمَوْتُ هَزَلْتِ!

أَتَرَاكِ مِمَّنْ خُتِمَ لَهُ بِفِتْنَةٍ، وَقَضِيَتْ عَلَيْهِ عِنْدَ آخِرِ عُمُرِهِ الْمِحْنَةُ؟!

كَانَ أَوَّلُ عُمُرِكِ خَيْرًا مِنَ الأَخِيرِ. . . كُنْتِ فِي زَمَنِ الشَّبَابِ أَصْلَحَ مِنْكِ فِي زَمَنِ أَيَّامِ الْمَشِيبِ. . .

---

(١) عَشِيَتِ الْبَصِيرَةُ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ، أَيْ: ضَعُفَتْ الْبَصِيرَةُ - العَقَل وَالإِدْرَاك وَالفِطْنَة - الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ مِنَ الْبَصَرِ.

(٢) يَعْنِي: أَنَّكِ وَصَلْتِ إِلَىٰ سِنِّ الضَّعْفِ، وَمَا لَكِ بِضَاعَةٌ تُرْبِحُ، فَلا يَنْبَغِي لَكِ التَّلاعُب، فَقَد اقْتَرَبَ بَل انْقَضَىٰ العُمُر.

(٣) الْمِضْمَارِ: فُسْحَة وَاسِعَة لِسِبَاقِ الخَيْلِ وَتَرويضهَا أَوْ مَوْضِع تُرْبَط فِيهِ الخَيْلُ وَيُعْتَنَىٰ بِهَا.

(٤) الصُّبَابَةُ: بِالضَّمِّ بَقِيَّة قَلِيلَةٌ. وَصُبَابَةَ الأَجَلِ، أَيْ: البَقِيَّة القَلِيلَة مِنَ العُمُر. وَالصَّبَابَةُ: بِالْفَتْحِ رِقَّةُ الشَّوْقِ وَحَرَارَتُهُ.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[العَنكَبُوتُ:٤٣].

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ مَا لا يَحْصُلُ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ تَوْفِيقُهُ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

*[٣٧٠ - ٢٥٦][خَاطِرَةٌ]:

[الحُرُّ لا يُشترى]

الْعَجَبُ مِنَ الَّذِي أَنِفَ الذُّلَّ! كَيْفَ لا يَصْبِرُ عَلَىٰ جَافِّ الْخُبْزِ، وَلا يَتَعَرَّضُ لِمِنَنِ الأَنْذَالِ؟!(١).

أَتَرَاهُ مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ مَا بَقِيَ صَاحِبُ مُرُوءَةٍ؟! وَأَنَّهُ إِنْ سَأَلَ؛ سَأَلَ بَخِيلًا لا يُعْطِي؛ فَإِنْ أَعْطَىٰ نَزْرًا؛ فَإِنَّهُ يَسْتَعْبِدُ الْمُعْطَىٰ بِذَلِكَ الْعُمُرَ؟!(٢).

ثُمَّ ذَاكَ الْقَدْرُ النَّزْرُ يَذْهَبُ عَاجِلًا، وَتَبْقَىٰ الْمِنَنُ وَالْخَجَلُ وَرُؤْيَةُ النَّفْسِ بِعَيْنِ الِاحْتِقَارِ؛ إِذْ صَارَتْ سَائِلَةً، وَرُؤْيَةُ الْمُعْطِي بِعَيْنِ التَّعْظِيمِ أَبَدًا.

ثُمَّ يُوجِبُ ذَلِكَ السُّكُوتَ عَنْ مَعَايِبِ الْمُعْطِي، وَالْبِدَارَ إِلَىٰ قَضَاءِ حُقُوقِهِ، وَخِدْمَتِهِ فِيمَا يَفِي.

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَعْبِدَ الأَحْرَارَ بِقَلِيلِ الْعَطَاءِ الْفَانِي وَلا يَفْعَلُ؛ فَإِنَّ الْحُرَّ لا يُشْتَرَىٰ إِلَّا بِالإِحْسَانِ.

قَالَ الشَّاعِرُ(٣):

تَفَضَّلْ عَلَىٰ مَنْ شِئْتَ وَاعْنَ بِأَمْرِهِ ... فَأَنْتَ، وَلَوْ كَانَ الأَمِيرَ، أَمِيرُهُ

وَكُنْ ذَا غِنًىٰ عَمَّنْ تَشَاءُ مِنَ الْوَرَىٰ ... وَلَوْ كَانَ سُلْطَانًا فَأَنْتَ نَظِيرُهُ

---

(١) مِنَنٌ: الْمِنَّةُ: الإِحْسَانُ وَالإِنْعَامُ وَالْفَخْرُ بِهِ حَتَّىٰ يُفْسِدُهُ. وَالأَنْذَالُ: النَّذْلُ: الْخَسِيسُ الْمُحْتَقَرُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ.

(٢) يَعْنِي: بِسَبَبِ ذَلِكَ الْيَسِيرِ مِنَ الْمَالِ، يَسْتَعْبِدُ الْمُعْطِي الْمُعْطَىٰ لَهُ طُوَالَ عُمُرِهِ.

(٣) الأبيات من البحر: [الطَّوِيل].

وَمَــنْ كُنْــتَ مُحْتَاجًــا إِلَيْــهِ وَوَاقِفًــا عَلَــىٰ طَمَــعٍ مِنْــهُ فَأَنْــتَ أَسِــيْرُهُ

*[٣٧١ - ٣١٠][خَاطِرَةٌ]:

[ذِكْرُ مَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ وحَقِيقَةُ وضعِهِمْ]

الْحَقُّ لا يَشْتَبِهُ بِبَاطِلٍ؛ إِنَّمَا يُمَوَّهُ الْبَاطِلُ عِنْدَ مَنْ لا فَهْمَ لَهُ.

وَهَذَا فِي حَقِّ مَنْ يَدَّعِي النُّبُوَّاتِ، وَفِي حَقِّ مَنْ يَدَّعِي الْكَرَامَاتِ:

* أَمَّا النُّبُوَّاتُ: فَإِنَّهُ قَدْ ادَّعَاهَا خَلْقٌ كَثِيْرٌ؛ ظَهَرَتْ قَبَائِحُهُمْ، وَبَانَتْ فَضَائِحُهُمْ، وَمِنْهَا مَا يُوجِبُهُ خِسَّةُ الْهِمَّةِ، وَالتَّهَتُّكُ فِي الشَّهَوَاتِ، وَالتَّهَافُتُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، حَتَّىٰ افْتُضِحُوا.

● فَمِنْهُمُ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ: ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ، وَلَقَّبَ نَفْسَهُ «ذَا الْخِمَارِ»؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «يَأْتِينِي ذُو الْخِمَارِ[(١)]»، وَكَانَ أَوَّلَ أَمْرِهِ كَاهِنًا يُشَعْوِذُ، فَيُظْهِرُ الْأَعَاجِيبَ، فَخَرَجَ فِي أَوَاخِرِ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَاتَبَتْهُ مَذْحِجٌ وَوَاعَدَ وَنَجْرَانُ[(٢)]، وَأَخْرَجُوا عَمْرَو بْنَ حَزْمٍ، وَخَالِدَ بْنَ سَعِيدٍ[(٣)] صَاحِبَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَصَفَا لَهُ الْيَمَنُ، وَقَاتَلَ شَهْرَ بْنَ بَاذَامَ، فَقَتَلَهُ، وَتَزَوَّجَ زَوْجَتَهُ[(٤)]،

---

(١) جَاءَ فِي الأَصْلِ:[ذَا الحَمَارَة. . . ذُو الحَمَار]، وَهُوَ تَصْحِيف، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنَ: «الْمُنْتَظِم» لابن الجوزي.(٤/ ١٨)، وَفِيْهِ:«يُقَالُ لَهُ:«ذَوُ الخِمَار»، لُقِّبَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَقُوْلُ: يَأْتِيْنِي ذُو خِمَار». وَ«الكَامِل» لابن الأثير.(٢/ ١٩٦) وَفِيْهِ:«الأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ: وَاسْمُهُ عَبْهَلَةُ بْنُ كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ الْعَنْسِيُّ، وَعَنْسٌ بَطْنٌ مِنْ مَذْحِجٍ، وَكَانَ يُلَقَّبُ ذَا الْخِمَارِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُعْتَمًّا مُتَخَمِّرًا أَبَدًا».

(٢) مَذْحِجٌ: قَبِيلَةٌ سَبَئِيَّةٌ يَمَنِيَّةٌ كَبِيرَةٌ قَدِيمَةٌ، وَيَعُودُ أَقْدَم ذِكْرٍ لَهَا فِي القَرْنِ الرَّابع ق.م. وَنَجْرَانُ: تَقَعُ فِي جَنُوبِ غَرب المِمْلَكَةِ العَرَبِيَّة السُّعُوْدِيَّة عَلَىٰ الحُدُوْدِ مَعَ اليَمَن.

(٣) عَمْرو بْنَ حَزْمِ بنِ زَيْدِ بنِ لَوْذَانَ الأَنْصَارِيُّ، أَبُو الضَّحَّاك، شَهِدَ الْخَنْدَق، مَاتَ سَنَةَ:(٥٣هـ). وَخَالِدُ بْنُ سَعِيْدِ بنِ العَاصِ بنِ أُمَيَّةَ، السَّيِّدُ الكَبِيْرُ، أَحَدُ السَّابِقِيْنَ الأَوَّلِيْنَ، اسْتَعْمَلَهُ ﷺ عَلَىٰ صَنْعَاءَ، قُتِلَ يَوْمَ أَجْنَادِيْنَ (١٤هـ).

(٤) جَاءَ فِي الأَصل:[بِنْتَهُ]، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنَ:«الْمُنْتَظِم» لابن الجوزي.(٤/ ١٩)، وَ«الكَامِل» لابن الأثير.(٢ / ١٩٧). وَاسْمُهَا آزَاد، وَهِيَ بِنْت عَم فَيْرُوز الدَّيْلَمِي، وَقَد سَقَتْهُ - الأَسْوَدُ - الْخَمْرَ صِرْفًا حَتَّىٰ سَكِرَ وَكَانَ عَلَىٰ بَابِهِ أَلْفُ حَارِسٍ فَنَقَبَ فَيْرُوزُ وَمَنْ مَعَهُ الْجِدَارَ حَتَّىٰ دَخَلُوا فَقَتَلَهُ فَيْرُوزُ وَاحْتَزَّ رَأْسَهُ وَأَخْرَجُوا الْمَرْأَةَ.

فَأَعَانَتْ عَلَىٰ قَتْلِهِ، فَهَلَكَ فِي حَيَاةِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وَبَانَ لِلْعُقَلَاءِ أَنَّهُ كَانَ يُشَعْبِذُ.

• وَمِنْهُمْ مُسَيْلَمَةُ: ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ، وَتَسَمَّىٰ رَحْمَانَ الْيَمَامَةِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَقُوْلُ: الَّذِي يَأْتِينِي رَحْمَانٌ! فَآمَنَ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وَادَّعَىٰ أَنَّهُ قَدْ أُشْرِكَ مَعَهُ! فَالْعَجَبُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِرَسُوْلٍ، وَيَقُوْلُ: إِنَّهُ كَذَّابٌ! ثُمَّ جَاءَ بِقُرْآنٍ يُضْحِكُ النَّاسَ، مِثْلَ قَوْلِهِ: «يَا ضُفْدَعُ بِنْتَ ضُفْدَعَيْنِ! تُنَقِّي مَا تُنَقِّيْنَ، أَعْلَاكِ فِي الْمَاءِ، وَأَسْفَلُكِ فِي الطِّيْنِ»!!. وَمِنَ الْعَجَائِبِ: «شَاةٌ سَوْدَاءُ، تَحْلِبُ لَبَنًا أَبْيَضَ»!! فَانْهَتَكَ سِتْرُهُ فِي هَذِهِ الْفَصَاحَةِ، ثُمَّ مَسَحَ بِيَدِهِ عَلَىٰ رَأْسِ صَبِيٍّ، فَذَهَبَ شَعْرُهُ! وَبَصَقَ فِي بِئْرٍ، فَيَبِسَتْ. وَتَزَوَّجَ سَجَاحَ الَّتِي ادَّعَتِ النُّبُوَّةَ، فَقَالُوا: لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَهْرٍ. فَقَالَ: «مَهْرُهَا أَنِّي قَدْ أَسْقَطْتُ عَنْكُمْ صَلَاتَي الْفَجْرِ وَالْعَتَمَةِ!».

• وَكَانَتْ سَجَاحُ هَذِهِ قَدِ ادَّعَتِ النُّبُوَّةَ[1] بَعْدَ مَوْتِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَجَابَ لَهَا جَمَاعَةٌ، فَقَالَتْ: «أَعِدُّوا الرِّكَابَ، وَاسْتَعِدُّوْا لِلنِّهَابِ، ثُمَّ اعْبُرُوا عَلَىٰ الرِّبَابِ؛ فَلَيْسَ دُونَهُمْ حِجَابٌ؛ فَقَاتِلُوهُمْ!»[2]. ثُمَّ قَصَدَتِ الْيَمَامَةَ[3]، فَهَابَهَا مُسَيْلَمَةُ، فَرَاسَلَهَا، وَأَهْدَىٰ لَهَا، فَحَضَرَتْ عِنْدَهُ، فَقَالَتْ: «اقْرَأْ عَلَيَّ مَا يَأْتِيْكَ بِهِ جِبْرِيْلُ! فَقَالَ: «إِنَّكُنَّ مَعْشَرَ النِّسَاءِ خُلِقْتُنَّ أَفْوَاجًا، وَجُعِلْتُنَّ لَنَا أَزْوَاجًا، نُولِجُهُ فِيكُنَّ إِيلَاجًا». فَقَالَتْ: «صَدَقْتَ؛ أَنْتَ نَبِيٌّ». فَقَالَ لَهَا: «قُومِي إِلَىٰ الْمَخْدَعِ؛ فَقَدْ هُيِّئَ لَكِ الْمَضْجَعُ؛ فَإِنْ شِئْتِ مُسْتَلْقَاةً، وَإِنْ شِئْتِ عَلَىٰ أَرْبَعٍ، وَإِنْ شِئْتِ بِثُلُثَيْهِ، وَإِنْ شِئْتِ بِهِ أَجْمَعْ» فَقَالَتْ: «بَلْ بِهِ أَجْمَعَ؛ فَهُوَ لِلشَّمْلِ أَجْمَعْ!». فَافْتُضِحَتْ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَصْحَابِهَا، فَقَالَ مِنْهُمْ عُطَارِدُ بْنُ حَاجِبٍ[4]:

---

(١) سَجَاح بِنْتُ الحَارِث بْنُ سُوَيْد التَّمِيْمِيَّة، كَانَت شَاعِرَة، تَنَبَّأَتْ فِي بَنِي تَمِيْم وَتَزَوَجَة مُسَيْلَمَة الكَذَّاب، ثُمَّ أَسْلَمَت وَتُوفِّيَتْ بِالبَصْرَة. وَخَبَر حِوَارِهَا مَعَ مُسَيْلَمة، حِيْنَ اِجْتِمَاعِهِمَا، فَمِنْ كَلَام القَصَّاصِيْن، لِلتَّشْنِيْع عَلَيْهَا.

(٢) الرِّبَابُ: قَبِيْلَةٌ مِنْ قَبَائِلِ العَرَبِ. إِخْوَة تَمِيْم وَمُزَيْنَة وَضَبَّة، وَهِيَ قَبِيْلَة خَنْدَفِيَّة مُضَرِيَّة عَدْنَانِيَّة.

(٣) اليَمَامَة: اِسْم لِإِقْلِيْمٍ مِنَ الْجَزِيْرَة العَرَبِيَّة إِلَىٰ الجَنُوْبِ مِنْ نَجْدٍ إِلَّا أَنَّ اِسْم نَجْدِ الإِقْلِيْم المُجَاوِر لِلْيَمَامَة طَغَىٰ عَلَىٰ اِسْم اليَمَامَةِ وَأَصْبَحَت اليَمَامَة مَحْصُوْرَة فِي بَلْدَةٍ صَغِيْرَة تُعْرَف بِاسْم اليَمَامَة وَتَقَع فِي مُحَافَظَةِ الخَرج فِي نَجْدٍ.

(٤) عُطَارِدُ بْنُ حَاجِبِ بْن زُرَارَة، كَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ وَزَعِيمهم وَخَطِيبهمْ، وَلَمَّا اِدَّعَتْ سَجَاح النُّبُوَّة، تَبِعَهَا، ثُمَّ أَسْلَم وَحَسُنَ إِسْلَامهُ، مَاتَ سَنَةَ: (٢٠هـ). والأبيات من البحر: [البسيط].

أَضْحَتْ نَبِيَّتُنَا أُنْثَىٰ يُطَافُ بِهَا … وَأَصْبَحَتْ أَنْبِيَاءُ النَّاسِ ذُكْرَانَا
فَلَعْنَةُ اللهِ رَبِّ النَّاسِ كُلِّهِمُ … عَلَىٰ سَجَاحِ وَمَنْ بِالإِفْكِ أَغْوَانَا
أَعْنِي مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ لا سُقِيَتْ … أَصْدَاؤُهُ مِنْ رَعِيثٍ حَيْثُمَا كَانَا

ثُمَّ إِنَّهَا رَجَعَتْ عَنْ غِيِّهَا، وَأَسْلَمَتْ، وَمَا زَالَتْ تُبَيِّنُ فَضَائِحَ مُسَيْلِمَةَ حَتَّىٰ قُتِلَ.

• وَمِنْهُمْ طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ[١]؛ خَرَجَ بَعْدَ دَعْوَىٰ مُسَيْلِمَةَ النُّبُوَّةَ، وَتَبِعَهُ عَوَامٌّ، وَنَزَلَ سَمِيرَاءَ[٢]، فَتَسَمَّىٰ بِذِي النُّوْنِ؛ يَقُولُ:«إِنَّ الَّذِي يَأْتِيهِ، يُقَالُ لَهُ: ذُو النُّوْنِ». وَكَانَ مِنْ كَلَامِهِ:«إِنَّ اللهَ لَا يَصْنَعُ بِتَعْفِيرِ وُجُوْهِكُمْ، وَلَا قُبْحِ أَدْبَارِكُمْ شَيْئًا؛ فَاذْكُرُوا اللهَ أَعِفَّةً قِيَامًا!» وَمِنْ قُرْآنِهِ:«وَالْحَمَامُ وَالْيَمَامُ، وَالصُّرَدِ الصَّوَّامِ[٣]، لَيَبْلُغَنَّ مُلْكُنَا الْعِرَاقَ وَالشَّامَ». وَتَبِعَهُ عُيَيْنَةُ بْنُ حُصَيْنٍ[٤]، فَقَاتَلَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ[٥]، فَجَاءَ عُيَيْنَةُ إِلَىٰ طُلَيْحَةَ، فَقَالَ:«وَيْحَكَ! أَجَاءَكَ الْمَلَكُ؟» قَالَ:«لَا، فَارْجِعْ فَقَاتِلْ»، فَقَاتَلَ، ثُمَّ عَادَ، فَقَالَ:«أَجَاءَكَ؟» فَقَالَ:«لَا»؛ فَعَادَ فَقَاتَلَ، فَقَالَ:«أَجَاءَكَ؟» قَالَ:«نَعَمْ»، قَالَ:«مَا قَالَ لَكَ؟» قَالَ:«قَالَ: إِنَّ لَكَ جَيْشًا لَا تَنْسَاهُ». فَصَاحَ عُيَيْنَةُ:«الرَّجُلُ وَاللهِ كَذَّابٌ». فَانْصَرَفَ النَّاسُ مُنْهَزِمِيْنَ، وَهَرَبَ طُلَيْحَةُ إِلَىٰ الشَّامِ، ثُمَّ أَسْلَمَ، وَصَحَّ إِسْلَامُهُ، وَقُتِلَ بِنَهَاوَنْدَ.

---

(١) طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدِ بْنِ نَوْفَلٍ الأَسَدِيُّ، كَانَ يُعَدُّ بِأَلْفِ فَارِسٍ لِشِدَّتِهِ وَشَجَاعَتِهِ، ثُمَّ ارْتَدَّ، وَظَلَمَ نَفْسَهُ، وَتَنَبَّأَ بِنَجْدٍ، وَتَمَّتْ لَهُ حُرُوْبٌ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ انْهَزَمَ وَخُذِلَ، ثُمَّ ارْعَوَىٰ وَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، اسْتُشْهِدَ بِنَهَاوَنْدَ:(٢١هـ).

(٢) سَمِيْرَاءُ: تَبْعُدُ عَنْ مَدِيْنَةِ حَائِلٍ حَوَالِي ١٢٠ كِلُم، وَسُكَّانُهَا قَدِيمًا قَبِيْلَةُ بَنِي أَسَدٍ، وَسُمِّيَتْ بِهَذَا الاسْمِ لِسُمْرَةِ الْجَبَلِ الْوَاقِعِ إِلَىٰ الْجَنُوْبِ الْغَرْبِي مِنْهَا، وَأَصْبَحَتْ سَمِيْرَاءُ مَحَطَّةً مَشْهُوْرَةً فِي طَرِيْقِ الْحَجِّ الْمَكِّيِّ الْكُوْفِيِّ.

(٣) الصُّرَدُ: طَائِرٌ أَكْبَرُ مِنَ الْعُصْفُوْرِ ضَخْمُ الرَّأْسِ وَالْمِنْقَارِ، أَبْيَضُ الْبَطْنِ أَخْضَرُ الظَّهْرِ، كَانُوْا يَتَشَاءَمُوْنَ مِنْهُ

(٤) عُيَيْنَةُ بْنُ حُصَيْنٍ وَقِيْلَ: حِصْنُ بْنُ حُذَيْفَةَ الْفَزَارِي، أَسْلَمَ بَعْدَ الْفَتْحِ، أَوْ قَبْلَهُ، شَهِدَ حُنَيْنًا وَالطَّائِفَ، كَانَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ وَالأَعْرَابِ الْجُفَاتِ، ارْتَدَ وَتَبِعَ طُلَيْحَةَ الأَسَدِي، وَقَاتَلَ مَعَهُ؛ فَأُسِرَ وَحُمِلَ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه؛ فَأَسْلَمَ؛ فَأَطْلَقَهُ.

(٥) خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُوْمِيُّ. شَهِدَ غَزْوَةَ مُؤْتَةَ وَالْفَتْحَ وَحُنَيْنًا، وَحَارَبَ أَهْلَ الرِّدَّةِ، وَمُسَيْلِمَةَ، وَغَزَا الْعِرَاقَ، وَلَمْ يَبْقَ فِي جَسَدِهِ قِيْدُ شِبْرٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ طَابَعُ الشُّهَدَاءِ. وَمَنَاقِبُهُ غَزِيرَةٌ. تُوُفِّيَ بِحِمْصَ، سَنَةَ:(٢١هـ).

• وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ[١]: أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي يَرْبُوْعَ يُقَالُ لَهُ: جُنْدُبُ بْنُ كَلْثُوْمٍ، كَانَ يُلَقَّبُ كُرْدَانًا، ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّ دَلِيْلَهُ عَلَىٰ نُبُوَّتِهِ أَنْ يُسَرِّجَ مَسَامِيْرَ الْحَدِيْدِ وَالطِّيْنِ!! وَهَذَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُطْلِي ذَلِكَ بِدُهْنِ الْبَيْلَسَانِ، فَتَعْمَلُ فِيهِ النَّارُ[٢].

• وَقَدْ تَنَبَّأَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كَهْمَسٌ الْكِلَابِيُّ، وَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَوْحَىٰ إِلَيْهِ: «يَا أَيُّهَا الْجَائِعُ! اشْرَبْ لَبَنًا تَشْبَعْ، وَلَا تَضْرِبِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَقْنَعٍ!!» وَزَعَمَ أَنَّ دَلِيْلَهُ عَلَىٰ نُبُوَّتِهِ أَنَّهُ يُطْرَحُ بَيْنَ السِّبَاعِ الضَّارِيَةِ فَلَا تَأْكُلُهُ، وَحِيْلَتُهُ فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ يَأْخُذُ دُهْنَ الْغَارِ وَحَجَرَ الْبُرْسَانِ، وَقُنْفُذًا مُحَرَّقًا، وَزُبْدَ الْبَحْرِ، وَصَدَفًا مُحَرَّقًا مَسْحُوْقًا، وَشَيْئًا مِنَ الصَّبِرِ وَالْخَبَطِ، فَيَطْلِي بِهِ جِسْمَهُ؛ فَإِذَا قَرُبَتْ مِنْهُ السِّبَاعُ، فَشَمَّتْ تِلْكَ الْأَرْيَاحَ وَذُفُوْرَتَهَا؛ نَفَرَتْ[٣].

• وَتَنَبَّأَ بِالطَّائِفِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو جَعْوَانَةَ الْعَامِرِيُّ[٤]، وَزَعَمَ أَنَّ دَلِيْلَهُ أَنَّهُ يَطْرَحُ النَّارَ فِي الْقُطْنِ فَلَا يَحْتَرِقُ! وَهَذَا؛ لِأَنَّهُ يَدْهَنُهُ بِدُهْنٍ مَعْرُوْفٍ.

• وَمِنْهُمْ هُذَيْلُ بْنُ يَعْفُوْرٍ، مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ زُهَيْرٍ، حَكَىٰ عَنْهُ الْأَصْمَعِيُّ أَنَّهُ عَارَضَ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ، فَقَالَ: «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدْ، إِلَهٌ كَالْأَسَدْ، جَالِسٌ عَلَىٰ الرَّصَدْ، لَا يَفُوتُهُ أَحَدْ»[٥].

---

(١) الوَاقِدِيُّ مُحَمَّدُ بنُ عُمَرَ بنِ وَاقِدٍ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ، أَبُو عَبْدِ اللهِ، أَحَدُ أَوْعِيَةِ العِلْمِ عَلَىٰ ضَعفِهِ. مَاتَ سَنَةَ: (٢٠٧هـ).

(٢) جُنْدُبُ بْنُ كَلْثُوْمٍ (لَم أَقِف عَلَىٰ تَرجَمَةٍ لَهُ، فِيْمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْمَصَادِرِ) وَيُسَرِّجَ: أَسْرَجَ: أَوْقَدَ وَأَشْعَلَ. وَالْبَيْلَسَانُ: بَلَسَان: شَجَر مِنْ فَصِيلَةِ البَخُورِيَّات، لَهُ زَهر أَبيَض صَغِيْر كَالعَنَاقِيْد، يُسْتَخرَج العِطر مِنْ بَعضِ أَنْوَاعِهِ.

(٣) كَهْمَسٌ الْكِلَابِيُّ (لَم أَقِف عَلَىٰ تَرجَمَةٍ لَهُ، فِيْمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْمَصَادِرِ). وَالْغَارُ: شَجَرٌ دَائِمُ الْخُضْرَةِ يَنْمُو فِي حُوضِ البَحرِ الْمُتَوَسِّطِ، أَزْهَارُهُ صَغِيْرَةٌ وَثِمَارُهُ زَيْتُوْنِيَّةُ الشَّكْلِ وَالحَجْمِ، زَرْقَاءُ اللَّوْنِ يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا زَيْت فَاخِر الصِّنْف يَدْخُل فِي صِنَاعَةِ الطُّيُوبِ. وَزُبْدُ الْبَحْرِ: رَغْوَتِهِ. وَقُنْفُذ: حَيَوَانٌ لَبُون مِنْ آكِلَاتِ الحَشَرَات، يَسْرَحُ بِاللَّيْلِ وَيَنَام بِالنَّهَارِ. وَالصَّبِرُ: أَو الصَّاب: شَجَرٌ مُرٌّ بِهِ عُصَارَة بَيْضَاءُ إِذَا أَصَابَت العَيْنَ أَتْلَفَتْهَا. وَالْخَبَطُ: وَرَقٌ يُجَفَّفُ وَيُطْحَنُ وَيُخْلَطُ بِدَقِيقٍ أَو غيرِه، ويُوخَفُ بالماءِ وَيَكُوْن عَلَفًا لِلإِبِلِ. وَالأَرْيَاحَ وَذُفُوْرَتَهَا: الرَّوَائِح وَرَائِحتَهَا.

(٤) أَبُو جَعْوَانَةَ الْعَامِرِيُّ: (لَم أَقِف عَلَىٰ تَرجَمَةٍ لَهُ، فِيْمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْمَصَادِرِ).

(٥) هُذَيْلُ بْنُ يَعْفُورٍ: (لَم أَقِف عَلَىٰ تَرجَمَةٍ لَهُ، فِيْمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْمَصَادِرِ) * أَمَّا الأَصْمَعِيُّ أَبُو سَعِيْدٍ عَبْدُ المَلِكِ بنُ قُرَيْبٍ، الإِمَامُ، العَلَّامَةُ، الحَافِظُ، حُجَّةُ الأَدَبِ، مَاتَ سَنَةَ: (٢١٦هـ).

• وَمِنْهُمْ هُذَيْلُ بْنُ وَاسِعٍ، كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنْ وَلَدِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ، عَارَضَ سُورَةَ الْكَوْثَرِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا قُلْتَ؟ فَقَالَ: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْجَوَاهِرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَجَاهِرْ، فَمَا يُؤْذِيكَ إِلَّا كُلُّ فَاجِرٍ»؛ فَظَهَرَ عَلَيْهِ الْقَسْرِيُّ[١]، فَقَتَلَهُ، وَصَلَبَهُ عَلَىٰ الْعَمُوْدِ، فَعَبَرَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ، فَقَالَ: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْعَمُوْدَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ مِنْ قُعُودٍ، بِلَا رُكُوعٍ وَلَا سُجُوْدٍ، فَمَا أَرَاكَ تَعُوْدُ»[٢].

• وَمِمَّنْ ظَهَرَ فَادَّعَىٰ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ، وَكَانَ مُتَخَبِّطًا فِي دَعْوَاهُ، وَقَتَلَ خَلْقًا كَثِيْرًا، وَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَنْصُرُ الْحُسَيْنَ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ قُتِلَ[٣].

• وَمِنْهُمْ حَنْظَلَةُ بْنُ يَزِيْدَ الْكُوفِيُّ[٤]، كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ دَلِيْلَهُ أَنَّهُ يُدْخِلُ الْبَيْضَةَ فِي الْقِنِّينَةِ، وَيُخْرِجُهَا مِنْهَا صَحِيْحَةً! وَذَاكَ أَنَّهُ كَانَ يَنْقَعُ الْبَيْضَةَ فِي الْخَلِّ الْحَامِضِ، فَيَلِيْنُ قِشْرُهَا، ثُمَّ يَصُبُّ مَاءً فِي قِنِّيْنَةٍ[٥]، ثُمَّ يَدُسُّ الْبَيْضَةَ فِيهَا؛ فَإِذَا لَقِيَتِ الْمَاءَ؛ صَلُبَتْ.

• وَقَدْ تَنَبَّأَ أَقْوَامٌ قَبْلَ نَبِيِّنَا ﷺ كَزَرَادَشْتَ وَمَانِي[٦] وَافْتُضِحُوا.

وَمَا مِنَ الْمُدَّعِيْنَ إِلَّا مَنْ خُذِلَ.

وَقَدْ جَاءَتِ الْقَرَامِطَةُ بِحِيَلٍ عَجِيْبَةٍ[٧]، وَقَدْ ذَكَرْتُ جُمْهُوْرَ هَؤُلَاءِ وَحِيَلَهُمْ فِي كِتَابِي

---

(١) جَاءَ فِي الأَصْلِ: [السَّنُورِيُّ]. وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنْ كِتَابِ «تَهْذِيب الكَمَال» لِلْمِزِّيِّ (٨/ ١١٣)، «أَخْبَارِ الظِّرَاف» لابن الجوزي (ص٣٦). وَالْقَسْرِيُّ أَبُو الْهَيْثَمِ خَالِدُ بنُ عَبْدِ اللهِ، أَمِيْرُ العِرَاقَيْنِ. كَانَ جَوَادًا، مُمَدَّحًا. مَاتَ سَنَةَ: (١٢٦هـ).

(٢) هُذَيْلُ بْنُ وَاسِعٍ: (لَم أَقِف عَلَىٰ تَرجَمَةٍ لَهُ، فِيْمَا بَيْنَ يَدِيَّ مِنَ الْمَصَادِرِ) وَالنَّابِغَةُ الذُّبْيَانِي زِيَاد بْن مُعَاوِيَة بْن ضِبَاب، أَبُو أُمَامَة أَحَد شُعَرَاء الجَاهِلِيَّة المَشْهُوْرِيْن. مَاتَ سَنَةَ: (١٨ق.هـ).

(٣) الْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ الثَّقَفِيُّ الكَذَّابُ. ادَّعَىٰ أَنَّ الوَحْيَ يَأْتِيهِ، مَاتَ سَنَةَ: (٦٧هـ). وَتَرْجَمَةُ الْحُسَيْنَ فِي: [٦٣-٢٦٥].

(٤) حَنْظَلَةُ بْنُ يَزِيدَ الْكُوفِيُّ: (لَم أَقِف عَلَىٰ تَرجَمَةٍ لَهُ، فِيْمَا بَيْنَ يَدِيَّ مِنَ الْمَصَادِرِ).

(٥) الْقِنِّينَة: إِنَاءٌ زُجَاجِيٌّ ذُو رَقَبَة يُسْتَعَان بِهَا لِمَلْئِهِ وَسَدِّهِ، يُسْتَخْدَم لِحِفْظِ الْمَوَادِّ الكِيْمِيَائِيَّة السَّائِلَة فِي الْمُخْتَبَرَاتِ.

(٦) زَرَادَشْتَ: الفَارِسِيّ تَدَّعِي الْمَجُوْس أَنَّهُ نَبِيّهم وَجَاءَ بِكُتُبٍ، وَإِلَيْهِ تُنْسَب زَرَادَشْتِيَّة وَهِيَ دِيَانَة فَارِسِيَّة قَدِيْمَة. [٦٢٨-٥٥١ ق.م]. وَمَانِي: مَانِي بْن فَاتِك وُلِدَ بِجَنُوْبِي بَابِل نَحْوَ سَنَةَ: (٢١٦) مِيْلَادِيَّة، وَادَّعَىٰ النُّبُوَّة، وَإِلَيْهِ تُنْسَب فِرْقَة المَانَوِيَّة وَهِيَ فِرْقَة غُنُوصِيَّة مَسِيْحِيَّة، تَخْتَلِط فِيهَا التَّعَالِيْمُ المَسِيْحِيَّة بِاليَهُوْدِيَّة وَالبُوْذِيَّة وَالزَّرَادَشْتِيَّة.

(٧) الْقَرَامِطَةُ: حَرَكَةٌ بَاطِنِيَّةٌ هَدَّامَة تُنْسَب حِمْدَان بْن الأَشْعَث، وَيُلَقَّبُ بِقِرْمِط؛ لِقِصَرِ قَامَتِهِ وَسَاقَيْهِ، اِعْتَمَدَت الحَرَكَة التَّنْظِيْم السِّرِّي العَسْكَرِي، وَكَانَ ظَاهِرُهَا التَّشَيُّع لِآل البَيْت، وَحَقِيْقَتهَا الإِلْحَاد، وَالقَضَاء عَلَىٰ الإِسْلَام.

التَّارِيخِ الْمُسَمَّىٰ بِـ«الْمُنْتَظِمِ»[(١)]، وَمَا فِيهِمْ مَنْ يَتِمُّ لَهُ أَمْرٌ؛ إِلَّا وَيُفْتَضَحُ.

وَدَلِيلُ صِحَّةِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ أَجْلَىٰ مِنَ الشَّمْسِ:

فَإِنَّهُ ظَهَرَ فَقِيرًا، وَالْخَلْقُ أَعْدَاؤُهُ؛ فَوُعِدَ بِالْمُلْكِ فَمَلَكَ، وَأَخْبَرَ بِمَا سَيَكُونُ فَكَانَ، وَصِينَ مِنْ زَمَنِ النُّبُوَّةِ عَنِ الشَّرَهِ، وَخَسَاسَةِ الْهِمَّةِ، وَالْكَذِبِ وَالْكِبْرِ، وَأُيِّدَ بِالثِّقَةِ وَالْأَمَانَةِ وَالنَّزَاهَةِ وَالْعِفَّةِ، وَظَهَرَتْ مُعْجِزَاتُهُ لِلْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ.

وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ، الَّذِي حَارَتْ فِيهِ عُقُولُ الْفُصَحَاءِ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَىٰ الْإِتْيَانِ بِآيَةٍ تُشْبِهُهُ، فَضْلًا عَنْ سُورَةٍ، وَقَدْ قَالَ قَائِلُهُمْ وَافْتُضِحَ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لا يُعَارَضُ فِيهِ، فَكَانَ كَمَا قَالَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾[البَقَرَة:٢٣، ٢٤]، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾... ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾[البَقَرَة:٩٤، ٩٥]؛ فَمَا تَمَنَّاهُ أَحَدٌ؛ إِذْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قَدْ تَمَنَّيْتُهُ؛ لَبَطَلَتْ دَعْوَاهُ.

وَكَانَ يَقُولُ لَيْلَةَ غَزَاةِ بَدْرٍ: «غَدًا مَصْرَعُ فُلَانٍ هَا هُنَا»؛ فَلَا يَتَعَدَّاهُ[(٢)].

وَقَالَ: «إِذَا هَلَكَ كِسْرَىٰ؛ فَلَا كِسْرَىٰ بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ؛ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ»[(٣)]؛ فَمَا مَلَكَ بَعْدَهُمَا مَنْ لَهُ كَبِيرُ قَدْرٍ، وَلا مَنِ اسْتَتَبَّ لَهُ حَالٌ.

وَمِنْ أَعْظَمِ دَلِيلٍ عَلَىٰ صِدْقِهِ أَنَّهُ لَمْ يُرِدِ الدُّنْيَا؛ فَكَانَ يَبِيتُ جَائِعًا، وَيُؤْثِرُ إِذَا وَجَدَ، وَيَلْبَسُ الصُّوفَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ[(٤)].

---

(١) كِتَاب: «الْمُنْتَظِمِ فِي تَارِيخِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَمِ» سَبَقَ الكَلَام عَنْهُ فِي الخَاطِرَة رَقَم: [٣٢٤-٣٥٢].

(٢) رواه مسلم، كِتَابُ «الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ» بَابُ «غَزْوَةِ بَدْرٍ» حديث (١٧٧٩). وَلَفْظُهُ: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ»، قَالَ: وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ «هَاهُنَا، هَاهُنَا»، فَمَا مَاطَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

(٣) رواه البخاري، كِتَابُ «فَرْضِ الخُمُسِ» بَابُ «قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أُحِلَّتْ لَكُمُ الغَنَائِمُ»» (٣١٢٠). ومسلم، كِتَابُ «الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ» بَابُ «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ، فَيَتَمَنَّىٰ أَنْ يَكُونَ مَكَانَ الْمَيِّتِ» (٢٩١٨، ٢٩١٩).

(٤) كُلُّ مَا ذَكَرَهُ الإِمَامُ هُنَا لَهُ دَلِيلٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مِنْهَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْمِثَالِ: وَأَمَّا أَنَّهُ يَبِيتُ جَائِعًا؛ فَقَدْ رَوَىٰ مسلم، كِ: «الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ» (٢٩٧٨). عن عُمَر قال: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي، مَا يَجِدُ دَقَلًا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنَهُ».
=

وَإِنَّمَا تُطَلَّبُ النَّوَامِيْسُ لِاجْتِلَابِ الشَّهَوَاتِ، فَلَمَّا لَمْ يُرِدْهَا؛ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ الآخِرَةِ الَّتِي هِيَ حَقٌّ(١).

ثُمَّ لَمْ يَزَلْ دِيْنُهُ يَعْلُوْ حَتَّىٰ عَمَّ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ الْكُفْرُ فِي زَوَايَا الأَرْضِ؛ إِلَّا أَنَّهُ مَخْذُوْلٌ.

وَصَارَ فِي تَابِعِيْهِ مِنْ أُمَّتِهِ الْفُقَهَاءُ الَّذِينَ لَوْ سَمِعَ كَلَامَهُمُ الأَنْبِيَاءُ الْقُدَمَاءُ؛ تَحَيَّرُوْا فِي حُسْنِ اسْتِخْرَاجِهِمْ، وَالزُّهَّادُ الَّذِينَ لَوْ رَآهُمُ الرُّهْبَانُ؛ تَحَيَّرُوا فِي صِدْقِ زُهْدِهِمْ، وَالْفُطَنَاءُ الَّذِينَ لَا نَظِيْرَ لَهُمْ فِي الْقُدَمَاءِ(٢).

أَوَلَيْسَ قَوْمُ مُوسَىٰ يَعْبُدُوْنَ بَقَرَةً، وَيَتَوَقَّفُوْنَ فِي ذَبْحِ بَقَرَةٍ، وَيَعْبُرُوْنَ الْبَحْرَ، ثُمَّ يَقُوْلُوْنَ: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا؟!(٣).

وَقَوْمُ عِيسَىٰ يَدَّخِرُوْنَ مِنَ الْمَائِدَةِ، وَقَدْ نُهُوْا؟! وَالْمُعْتَدُوْنَ فِي السَّبْتِ يَعْصُوْنَ اللهَ لِأَجْلِ الْحِيْتَانِ؟!(٤).

= وَرَوَىٰ أَحْمَد فِي «الْمُسْنَد»(٢٣٠٣، ٣٥٤٥). عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَبِيْتُ اللَّيَالِي الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا، وَأَهْلُهُ لَا يَجِدُوْنَ عَشَاءً». وَأَمَّا أَنَّهُ يَلْبَسُ الصُّوفَ؛ فَرَوَىٰ الشَّيْخَان عَنْ الْمُغِيرَة قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَسِيرٍ . . . - ثُمَّ قَالَ الْمُغِيرَة -: «وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ» البخاري، كِ: «اللِّبَاسِ»(٥٧٩٩). ومسلم، كِ: «الطَّهَارَةِ»(٢٧٤). وَرَوَىٰ ابْنُ عَدِي فِي «الكامل»(٦/ ٥٥/ ت: عُمَر بن يَزِيد) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَلْبَسُ الصُّوفَ وَيَجْلِسُ عَلَىٰ الأَرْضِ وَيَأْكُلُ عَلَيْهَا...». وَأَمَّا أَنَّهُ يَقُومُ اللَّيْلَ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩]. وَقَالَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ [المزمل:١-٤]. وَقَالَ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الإنسان:٢٣-٢٦]. وَرَوَىٰ البخاري، كِ: «تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»(٤٨٣٦، ٤٨٣٧). ومسلم، كِ: «صِفَةِ الْقِيَامَةِ»(٢٨١٩، ٢٨٢٠). عَنْ عَائِشَةَ: «أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّىٰ تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ -رِجْلَاهُ-». وَعَنِ الْمُغِيرَةِ: «حَتَّىٰ تَوَرَّمَتْ - انْتَفَخَتْ - قَدَمَاهُ».

(١) النَّوَامِيسُ: النَّامُوسُ: صَاحِبُ السِّرِّ الَّذِي يُطْلِعُهُ بِمَا يَسْتُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَكُلّ شَيْءٍ سَتَرْتَ فِيهِ شَيْئًا فَهُوَ نَامُوسٌ لَهُ. وَكَأَنَّ الْمَعْنَىٰ: إِنَّمَا تُسْتَدْعَىٰ الأَسْرَار لِمَجِيءِ الشَّهَوَات؛ فَلَم يُرِد الشَّهَوَات فِي السِّرِّ؛ فَعُلِمَ أَنَّهُ يُرِيْدُ الآخِرَة.

(٢) تَحَيَّرُوْا: حَيِّر: أَثَارَ دَهْشَتَهُ. وَالرُّهْبَانُ: رَاهِبٌ: مُتَعَبِّدٌ زَاهِدٌ فِي صُوْمَعَةٍ، وَالْفُطَنَاءُ: قَوِيُّ الْعَقْلِ حَاذِقٌ مَاهِرٌ.

(٣) يُشِيْر ﷺ إِلَىٰ قِصَّةِ الْبَقَرَةِ: [الْبَقَرَة:٦٧-٧١]. وَكَذَلِكَ إِلَىٰ قِصَّتِهِم مَعَ فِرْعَوْن وَنَجَاتِهِم: [الأَعْرَاف:١٣٤-١٤٠].

(٤) يُشِيْر ﷺ إِلَىٰ قِصَّتِهِم مَعَ عِيسَىٰ عليه السلام: [الْمَائِدَة:١١٢-١١٥]. وَرَوَىٰ الترمذي في «جامعه»(٣٠٦١) وأبو يعلىٰ في =

وَأُمَّتُنَا بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَىٰ سَلِيْمَةٌ مِنْ هَٰذِهِ الأَشْيَاءِ.

وَإِنَّمَا فِي بَعْضِهَا مَيْلٌ إِلَىٰ الشَّهَوَاتِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا، وَذَلِكَ مِنَ الْفُرُوْعِ لا مِنَ الأُصُوْلِ، فَإِذَا ذُكِّرُوْا، بَكَوْا وَنَدِمُوْا عَلَىٰ تَفْرِيْطِهِمْ.

فَنَحْمَدُ اللهَ عَلَىٰ هَذَا الدِّيْنِ، وَعَلَىٰ أَنَّنَا مِنْ أُمَّةِ هَذَا الرَّسُوْلِ ﷺ.

وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَصَنِّعِيْنَ بِالزُّهْدِ مَالُوْا إِلَىٰ طَلَبِ الدُّنْيَا وَالرِّئَاسَةِ، فَاسْتَغْوَاهُمُ الْهَوَىٰ، فَخَرَّقُوْا بِإِظْهَارِ مَا يُشْبِهُ الْكَرَامَاتِ[(١)]، كَالْحَلَّاجِ وَابْنِ الشَّبَّاسِ[(٢)] وَغَيْرِهِمَا مِمَّنْ ذَكَرْتُ حَالَ تَلْبِيْسِهِ فِي كِتَابِ «تَلْبِيسِ إِبْلِيسَ»، وَإِنَّمَا فَعَلُوْا ذَلِكَ لِاخْتِلَافِ أَغْرَاضِهِمْ.

وَلَمْ يَزَلِ اللهُ يُنْشِئُ فِي هَذَا الدِّيْنِ مِنَ الْفُقَهَاءِ مَنْ يُظْهِرُ مَا أَخْفَاهُ الْقَاصِرُوْنَ؛ كَمَا يُنْشِئُ مِنْ عُلَمَاءِ الْحَدِيْثِ مَنْ يَهْتِكُ مَا أَشَاعَهُ الْوَاضِعُوْنَ؛ حِفْظًا لِهَذَا الدِّيْنِ، وَدَفْعًا لِلشُّبُهَاتِ عَنْهُ؛ فَلَا يَزَالُ الْفَقِيْهُ وَالْمُحَدِّثُ يُظْهِرَانِ عَوَارَ كُلِّ مُلَبِّسٍ بَوَضْعِ حَدِيْثٍ، أَوْ بِإِظْهَارِ دَعْوَىٰ تَزَهُّدٍ وَتَنْمِيْسٍ[(٣)]، فَلَا يُؤَثِّرُ مَا ادَّعَيَاهُ؛ إِلَّا عِنْدَ جَاهِلٍ بَعِيْدٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾[الأنفال:٨].

= «مسنده»(١٦٥١) واللَّفظ لَهُ: عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُنْزِلَتِ الْمَائِدَةُ مِنَ السَّمَاءِ خُبْزًا وَلَحْمًا، فَأُمِرُوا أَنْ لا يَخُونُوا، وَلا يَدَّخِرُوا لِغَدٍ، فَخَانُوا، وَادَّخَرُوا، وَرَفَعُوا، فَمُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ». * وَكَذَلِكَ إِلَىٰ قِصَّةِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ:[الأعراف:١٦٣-١٦٦].

(١) التَّخْرِيْقُ: الْمُبَالَغَةُ فِي الخَرْقِ، أي: كَثْرَةُ الكَذِبِ تَوَصُّلًا إِلَىٰ حِيْلَةٍ.

(٢) ترجمة الحَلَّاجِ في:[١٤٩-٣٣٨]. وَجَاءَ في الأصل:[ابْنُ الشَّاش]، وَهُوَ تَصْحِيفٌ، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتْنَاهُ؛ لِأَنَّ الإِمَامَ ابْنَ الجَوْزِيِّ ذَكَرَ فِي «تَلْبِيسِ إِبْلِيسَ» البَابَ:(١١): مَخَارِيْقُ الحَلَّاجِ وَابْنِ الشَّبَّاسِ، وَهُوَ: عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ البَغْدَادِيُّ، مَاتَ سَنَةَ:(٤٤٤هـ). وَسَبَقَ الكَلَامُ عَنْ كِتَابِ: «تَلْبِيسِ إِبْلِيسَ» في الخَاطِرَةِ:[١٧٦-٢٤٨].

(٣) التَّنْمِيسُ: التَّلْبِيسُ.

*[٣٧٢ - ١٢٢][خَاطِرَةٌ]:

[لازموا حصن التقوى؛ فالعقوبة مُرَّةٌ]

مَنْ أَرَادَ دَوَامَ الْعَافِيَةِ وَالسَّلَامَةِ؛ فَلْيَتَّقِ اللهَ ﷻ؛ فَإِنَّهُ مَا مِنْ عَبْدٍ أَطْلَقَ نَفْسَهُ فِي شَيْءٍ يُنَافِي التَّقْوَىٰ، وَإِنْ قَلَّ؛ إِلَّا وَجَدَ عُقُوبَتَهُ عَاجِلَةً أَوْ آجِلَةً.

وَمِنَ الِاغْتِرَارِ أَنْ تُسِيءَ، فَتَرَىٰ إِحْسَانًا، فَتَظُنَّ أَنَّكَ قَدْ سُومِحْتَ، وَتَنْسَىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[النِّسَاءُ:١٢٣][(١)].

وَرُبَّمَا قَالَتِ النَّفْسُ: إِنَّهُ يَغْفِرُ، فَتَسَامَحْتُ! وَلا شَكَّ أَنَّهُ يَغْفِرُ، وَلَكِنْ لِمَنْ يَشَاءُ.

وَأَنَا أَشْرَحُ لَكَ حَالًا؛ فَتَأَمَّلْهُ بِفِكْرِكَ؛ تَعْرِفْ مَعْنَىٰ الْمَغْفِرَةِ.

وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ هَفَا هَفْوَةً؛ لَمْ يَقْصِدْهَا، وَلَمْ يَعْزِمْ عَلَيْهَا قَبْلَ الْفِعْلِ، وَلا عَزَمَ عَلَىٰ الْعَوْدِ بَعْدَ الْفِعْلِ، ثُمَّ انْتَبَهَ لِمَا فَعَلَ، فَاسْتَغْفَرَ اللهَ؛ كَانَ فِعْلُهُ - وَإِنْ دَخَلَهُ عَمْدًا - فِي مَقَامِ خَطَإٍ.

مِثْلُ أَنْ يَعْرِضَ لَهُ مُسْتَحْسَنٌ، فَيَغْلِبَهُ الطَّبْعُ، فَيُطْلِقَ النَّظَرَ، وَتَشَاغَلَ فِي حَالِ نَظَرِهِ بِالْتِذَاذِ الطَّبْعِ عَنْ تَلَمُّحِ مَعْنَىٰ النَّهْيِ، فَيَكُونُ كَالْغَائِبِ أَوْ كَالسَّكْرَانِ؛ فَإِذَا انْتَبَهَ لِنَفْسِهِ؛ نَدِمَ عَلَىٰ فِعْلِهِ، فَقَامَ النَّدَمُ بِغَسْلِ تِلْكَ الْأَوْسَاخِ، الَّتِي كَانَتْ كَأَنَّهَا غَلْطَةٌ لَمْ تُقْصَدْ؛ فَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ٢٠١﴾[الأعراف:٢٠١].

فَأَمَّا الْمُدَاوِمُ عَلَىٰ تِلْكَ النَّظْرَةِ؛ الْمُرَدِّدُ لَهَا، الْمُصِرُّ عَلَيْهَا؛ فَكَأَنَّهُ فِي مَقَامِ مُتَعَمِّدٍ لِلنَّهْيِ، مُبَارِزٍ بِالْخِلَافِ؛ فَالْعَفْوُ يَبْعُدُ عَنْهُ بِمِقْدَارِ إِصْرَارِهِ، وَمِنَ الْبُعْدِ أَلَّا يَرَىٰ الْجَزَاءَ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ الْجَلَّاءِ: «رَآنِي شَيْخِي وَأَنَا قَائِمٌ أَتَأَمَّلُ حَدَثًا نَصْرَانِيًّا، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟! لَتَرَيَنَّ غِبَّهَا وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»؛ فَنُسِّيتُ الْقُرْآنَ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً»[(٢)].

وَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْمِحَنِ الِاغْتِرَارُ بِالسَّلَامَةِ بَعْدَ الذَّنْبِ؛ فَإِنَّ الْعُقُوبَةَ تَتَأَخَّرُ.

---

(١) تُرَاجَع الْخَاطِرَة رقم: [٢٠٣-٣٥٥] و[٢٠١-١٨]؛ لِلأَهَمِّيَّة.

(٢) ترجمة ابْنُ الْجَلَّاءِ، وَخَبَرُهُ هَذَا في الخاطرة: [٢٠١-١٨].

وَمِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوْبَةِ أَلَّا يُحِسَّ الإِنْسَانُ بِهَا، وَأَنْ تَكُوْنَ فِي سَلْبِ الدِّينِ، وَطَمْسِ الْقُلُوبِ، وَسُوءِ الِاخْتِيَارِ لِلنَّفْسِ؛ فَيَكُوْنُ مِنْ آثَارِهَا سَلامَةُ الْبَدَنِ، وَبُلُوْغُ الأَغْرَاضِ.

قَالَ بَعْضُ الْمُعْتَبِرِيْنَ: أَطْلَقْتُ نَظَرِي فِيْمَا لَا يَحِلُّ لِي، ثُمَّ كُنْتُ أَنْتَظِرُ الْعُقُوْبَةَ، فَأُلْجِئْتُ إِلَىٰ سَفَرٍ طَوِيْلٍ، لَا نِيَّةَ لِي فِيْهِ، فَلَقِيْتُ الْمَشَاقَّ، ثُمَّ أَعْقَبَ ذَلِكَ مَوْتُ أَعَزِّ الْخَلْقِ عِنْدِي، وَذَهَابُ أَشْيَاءَ كَانَ لَهَا وَقْعٌ عَظِيْمٌ عِنْدِي، ثُمَّ تَلَافَيْتُ أَمْرِي بِالتَّوْبَةِ، فَصَلَحَ حَالِي، ثُمَّ عَادَ الْهَوَىٰ، فَحَمَلَنِي عَلَىٰ إِطْلَاقِ بَصَرِي مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَطُمِسَ قَلْبِي، وَعُدِمْتُ رِقَّتَهُ، وَاسْتُلِبَ مِنِّي مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ فَقْدِ الأَوَّلِ، وَوَقَعَ لِي تَعْوِيْضٌ عَنِ الْمَفْقُوْدِ بِمَا كَانَ فَقْدُهُ أَصْلَحَ؛ فَلَمَّا تَأَمَّلْتُ مَا عُوِّضْتُ وَمَا سُلِبَ مِنِّي؛ صِحْتُ مِنْ أَلَمِ تِلْكَ السِّيَاطِ؛ فَهَا أَنَا أُنَادِي مَنْ عَلَىٰ السَّاحِلِ:

إِخْوَانِي! احْذَرُوْا لُجَّةَ هَذَا الْبَحْرِ، وَلَا تَغْتَرُّوْا بِسُكُوْنِهِ، وَعَلَيْكُمْ بِالسَّاحِلِ، وَلازِمُوْا حِصْنَ التَّقْوَىٰ؛ فَالْعُقُوْبَةُ مُرَّةٌ.

وَاعْلَمُوْا أَنَّ فِي مُلَازَمَةِ التَّقْوَىٰ مَرَارَاتٍ مِنْ فَقْدِ الأَغْرَاضِ وَالْمُشْتَهَيَاتِ؛ غَيْرَ أَنَّهَا فِي ضَرْبِ الْمَثَلِ كَالْحِمْيَةِ تُعْقِبُ صِحَّةً، وَالتَّخْلِيْطُ رُبَّمَا جَلَبَ مَوْتَ الْفَجْأَةِ.

وَبِاللهِ؛ لَوْ نِمْتُمْ عَلَىٰ الْمَزَابِلِ مَعَ الْكِلَابِ فِي طَلَبِ رِضَا الْمُبْتَلِي؛ كَانَ قَلِيْلًا فِي نَيْلِ رِضَاهُ، وَلَوْ بَلَغْتُمْ نِهَايَةَ الأَمَانِي مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا؛ مَعَ إِعْرَاضِهِ عَنْكُمْ؛ كَانَتْ سَلَامَتُكُمْ هَلَاكًا، وَعَافِيَتُكُمْ مَرَضًا، وَصِحَّتُكُمْ سَقَمًا، وَالأَمْرُ بِآخِرِهِ، وَالْعَاقِلُ مَنْ تَلَمَّحَ الْعَوَاقِبَ.

وَصَابِرُوْا رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ هَجِيْرَ الْبَلَاءِ؛ فَمَا أَسْرَعَ زَوَالَهُ!

وَاللهُ الْمُوَفِّقُ؛ إِذْ لا حَوْلَ إِلَّا بِهِ، وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِفَضْلِهِ.

* [٣٧٣-٣١٥][خَاطِرَةٌ]:

[الاعتراف بالنعمة شكر]

كُلَّمَا نَظَرْتُ فِي تَوَاصُلِ النِّعَمِ عَلَيَّ؛ تَحَيَّرْتُ فِي شُكْرِهَا!

وَأَعْلَمُ أَنَّ الشُّكْرَ مِنَ النِّعَمِ؛ فَكَيْفَ أَشْكُرُ؟! لَكِنِّي مُعْتَرِفٌ بِالتَّقْصِيرِ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُوْنَ اعْتِرَافِي قَائِمًا بِبَعْضِ الْحُقُوْقِ(١).

وَعِنْدِي خَلَّةٌ(٢) أَرْجُو بِهَا كُلَّ خَيْرٍ، وَهِيَ أَنَّ مَنْ يَصُوْمُ أَوْ يُصَلِّي يَرَىٰ أَنَّهُ تَعَبَّدَ، وَيَخْدُمُ كَأَنَّهُ يَقْضِي حَقَّ الْمَخْدُوْمِ، وَأَنَا أَرَىٰ أَنِّي إِذَا صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ؛ فَإِنَّمَا قُمْتُ أُكَدِّي(٣)؛ فَلِنَفْسِي أَعْمَلُ؛ إِذِ الْمَخْدُوْمُ غَنِيٌّ عَنْ طَاعَتِي.

وَكَانَ بَعْضُ الْمَشَايِخِ يَقُولُ: «جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ»(٤)، وَأَنَا أَقُولُ: الْعِبَادَةُ دُعَاءٌ»(٥).

فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَقِفُ لِلْخِدْمَةِ يَسْأَلُ حَظَّ نَفْسِهِ؛ كَيْفَ يَرَىٰ أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ شَيْئًا؟!

إِنَّمَا أَنْتَ فِي حَاجَتِكَ، وَمِنَّةٌ مَنْ أَيْقَظَكَ، لا تُقَاوِمُهَا خِدْمَتُكَ؛ فَأَنَا أَقُولُ كَمَا قَالَ الأَوَّلُ(٦):

يَا مُنْتَهَىٰ الآمَالِ أَنْـ ... ـتَ كَفَلْتَنِي وَحَفِظْتَنِي
وَعَدَا الزَّمَانُ عَلَيَّ كَيْ ... يَجْتَاحَنِي فَمَنَعْتَنِي
فَانْقَادَ لِي مُتَخَشِّعًا ... لَمَّا رَآكَ نَصَرْتَنِي
وَكَسَوْتَنِي ثَوْبَ الْغِنَىٰ ... وَمِنَ الْمُغَالِبِ صُنْتَنِي

---

(١) عَنْ أَبِي الْخُلْدِ قَالَ: «قَرَأْتُ فِي مَسْأَلَةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ قَالَ: أَيْ رَبِّ كَيْفَ لِي أَنْ أَشْكُرَكَ وَأَنَا لا أَصِلُ إِلَىٰ شُكْرِكَ إِلَّا بِنِعْمَتِكَ، قَالَ: فَأَتَاهُ الْوَحْيُ أَنْ يَا دَاوُدُ أَلَيْسَ تَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي بِكَ مِنَ النِّعَمِ مِنِّي؟ قَالَ: بَلَىٰ يَا رَبِّ، قَالَ: فَإِنِّي أَرْضَىٰ بِذَلِكَ مِنْكَ شُكْرًا» وَ«قَرَأْتُ فِي مَسْأَلَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ قَالَ: كَيْفَ لِي أَنْ أَشْكُرَكَ، وَأَصْغَرُ نِعْمَةٍ وَضَعْتَهَا عِنْدِي مِنْ نِعَمِكَ لا يُجَازَىٰ بِهَا عَمَلِي كُلُّهُ، قَالَ: فَأَتَاهُ الْوَحْيُ أَنْ يَا مُوسَىٰ: الآنَ شَكَرْتَنِي» [«الشُّعَب» (٤٦١)].

(٢) الْخَلَّةُ: الْخَصْلَةُ.

(٣) أُكَدِّي: أَسْتَجْدِي وَأَطْلُبُ الإِحْسَانَ. قَدْ كُنْتُ أَرْجُو وَرَجَائِي لَمْ يَخِبْ ... أَنْ لا يَضِيعَ الْيَوْمَ كَدِّي وَالطَّلَبُ

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٩٧٧٧). والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٤) وأبو داود، كِتَابُ «فضائل القرآن» (ح / ١٤٧٩). وابن ماجة، كِتَابُ «الدُّعَاءِ» (ح / ٣٨٢٨). عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ».

(٥) قَدْ تَكُوْنُ الْعِبَادَةُ دُعَاءً مَحْضًا يَدْعُو الإِنْسَانُ رَبَّهُ بِدُعَاءٍ؛ فَيَكُوْنُ عَابِدًا لَهُ، وَإِنْ كَانَ مُجَرَّدَ دُعَاءٍ؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ يَعْنِي افْتِقَارَ الْعَبْدِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَإِحْسَانَ ظَنِّهِ بِهِ، وَرَجَاءَهُ، وَالْخَوْفَ مِنْ عِقَابِهِ.

(٦) الأبيات من البحر: [مجزوء الكامل].

فَــــإِذَا سَــــكَتُّ بَـــدَأْتَنِي وَإِذَا سَــــأَلْتُ أَجَبْتَنِــــي
فَــــإِذَا شَــــكَرْتُكَ زِدْتَنِــــي فَمَنَحْتَنِــــي وَبَهَرْتَنِــــي
أَوْ إِنْ أَجُـــدْ بِالْمَـــالِ فَالْـــ ـــأَمْوَالُ أَنْـــتَ أَفَـــدْتَنِي

*[٣٧٤ - ١٦٨][خَاطِرَةٌ]:

[التَّحَدُّثُ بِنِعَمِ اللهِ تَعَالَى]

تَأَمَّلْتُ أَحْوَالَ النَّاسِ فِي حَالَةِ عُلُوِّ شَأْنِهِمْ، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ الْخَلْقِ تَبِيْنُ خَسَارَتُهُمْ حِينَئِذٍ:

فَمِنْهُمْ مَنْ بَالَغَ فِي الْمَعَاصِي مِنَ الشَّبَابِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّطَ فِي اكْتِسَابِ الْعِلْمِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الاسْتِمْتَاعِ بِاللَّذَّاتِ. . .

فَكُلُّهُمْ نَادِمٌ فِي حَالَةِ الْكِبَرِ، حِينَ فَوَاتِ الاسْتِدْرَاكِ لِذُنُوْبٍ سَلَفَتْ، أَوْ قُوَّىٰ ضَعُفَتْ، أَوْ فَضِيْلَةٍ فَاتَتْ، فَيَمْضِي زَمَانُ الْكِبَرِ فِي حَسَرَاتٍ؛ فَإِنْ كَانَتْ لِلشَّيْخِ إِفَاقَةٌ مِنْ ذُنُوْبٍ قَدْ سَلَفَتْ؛ قَالَ: وَا أَسَفَا عَلَىٰ مَا جَنَيْتُ! وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِفَاقَةٌ؛ صَارَ مُتَأَسِّفًا عَلَىٰ فَوَاتِ مَا كَانَ يَلْتَذُّ بِهِ.

فَأَمَّا مَنْ أَنْفَقَ عَصْرَ الشَّبَابِ فِي الْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُ فِي زَمَنِ الشَّيْخُوْخَةِ يَحْمَدُ جَنْيَ مَا غَرَسَ، وَيَلْتَذُّ بِتَصْنِيْفِ مَا جَمَعَ، وَلا يَرَىٰ مَا يَفْقِدُ مِنْ لَذَّاتِ الْبَدَنِ شَيْئًا بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ مَا يَنَالُهُ مِنْ لَذَّاتِ العِلْمِ، هَذَا مَعَ وُجُوْدِ لَذَّاتِهِ فِي الطَّلَبِ الَّذِي كَانَ تَأَمَّلَ بِهِ إِدْرَاكَ الْمَطْلُوْبِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ تِلْكَ الْأَعْمَالُ أَطْيَبَ مِمَّا نِيْلَ مِنْهَا؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ(١):

أَهْتَــزُّ عِنْــدَ تَمَنِّــي وَصْــلِهَا طَرَبًــا وَرُبَّ أُمْنِيَــةٍ أَحْلَــىٰ مِــنَ الظَّفَــرِ

(١) البيت من البحر: [البسيط]، التهامي الديلمي.

وَلَقَدْ تَأَمَّلْتُ نَفْسِي بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ عَشِيْرَتِي الَّذِيْنَ أَنْفَقُوْا أَعْمَارَهُمْ فِي اكْتِسَابِ الدُّنْيَا، وَأَنْفَقْتُ زَمَنَ الصَّبْوَةِ وَالشَّبَابِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فَرَأَيْتُنِي لَمْ يَفُتْنِي مِمَّا نَالُوْهُ؛ إِلَّا مَا لَوْ حَصَلَ لِي؛ نَدِمْتُ عَلَيْهِ.

ثُمَّ تَأَمَّلْتُ حَالِي؛ فَإِذَا عَيْشِي فِي الدُّنْيَا أَجْوَدُ مِنْ عَيْشِهِمْ، وَجَاهِي بَيْنَ النَّاسِ أَعْلَىٰ مِنْ جَاهِهِمْ، وَمَا نِلْتُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْعِلْمِ لَا يُقَاوَمُ.

فَقَالَ لِي إِبْلِيسُ: وَنَسِيْتَ تَعَبَكَ وَسَهَرَكَ؟!

فَقُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا الْجَاهِلُ! تَقْطِيْعُ الْأَيْدِي لَا وَقْعَ لَهُ عِنْدَ رُؤْيَةِ يُوسُفَ، وَمَا طَالَتْ طَرِيقٌ أَدَّتْ إِلَىٰ صَدِيقٍ.

جَزَىٰ اللهُ الْمَسِيْرَ إِلَيْهِ خَيْرًا ... وَإِنْ تَرَكَ الْمَطَايَا كَالْمَزَادِ[1]

وَلَقَدْ كُنْتُ فِي حَلَاوَةِ طَلَبِي الْعِلْمَ أَلْقَىٰ مِنَ الشَّدَائِدِ مَا هُوَ عِنْدِي أَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ، لِأَجْلِ مَا أَطْلُبُ وَأَرْجُوْ، كُنْتُ فِي زَمَانِ الصِّبَا آخُذُ مَعِي أَرْغِفَةً يَابِسَةً، فَأَخْرُجُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ، وَأَقْعُدُ عَلَىٰ نَهَرِ عِيسَىٰ[2]، فَلَا أَقْدِرُ عَلَىٰ أَكْلِهَا إِلَّا عِنْدَ الْمَاءِ؛ فَكُلَّمَا أَكَلْتُ لُقْمَةً؛ شَرِبْتُ عَلَيْهَا، وَعَيْنُ هِمَّتِي لَا تَرَىٰ إِلَّا لَذَّةَ تَحْصِيْلِ الْعِلْمِ.

فَأَثْمَرَ ذَلِكَ عِنْدِي أَنِّي عُرِفْتُ بِكَثْرَةِ سَمَاعِي لِحَدِيثِ سِيَرِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَحْوَالِهِ وَآدَابِهِ وَأَحْوَالِ أَصْحَابِهِ وَتَابِعِيْهِمْ، فَصِرْتُ فِي مَعْرِفَةِ طَرِيقِهِ كَابْنِ أَجْوَدَ[3].

وَأَثْمَرَ ذَلِكَ عِنْدِي مِنَ الْمُعَامَلَةِ مَا لَا يُدْرَكُ بِالْعِلْمِ، حَتَّىٰ إِنَّنِي أَذْكُرُ فِي زَمَانِ الصَّبْوَةِ وَوَقْتَ الْغُلْمَةِ وَالْعُزْبَةِ[4] قُدْرَتِي عَلَىٰ أَشْيَاءَ كَانَتِ النَّفْسُ تَتُوْقُ إِلَيْهَا تَوَقَانَ الْعَطْشَانِ إِلَىٰ

---

(١) البيت من البحر: [الوافر] لِلْمُتَنَبِّي. الْمَطَايَا: الْوَسِيْلَةُ إِلَىٰ الشَّيْءِ. الْمَزَادُ: الْمَزَادَةُ: الْقِرَبُ الْبَالِيَةُ أَوِ الْخَالِيَةُ مِنَ الزَّادِ.

(٢) نَهَر عِيسَىٰ بنُ عَلِيِّ بن عَبْدِ الله بن العَبَّاس، وَهُوَ نَهَرٌ يَرْبُط بَيْنَ دِجْلَة وَالفُرَات.

(٣) أَجْوَد؛ أَي: أَكْثَر جُودًا وَسَخاءً. فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: أَصْبَحْتُ لِمَا ذَكَرْتُ كَابْنِ الرَّجُل الجَوَاد أَدَلّ النَّاس عَلَيْهِ فَأَنَا كَالدَّلِيْلِ.

(٤) الْغُلْمَةِ: هَيَجَان شَهْوَةِ النِّكَاحِ مِنَ المرأة وَالرَّجُلِ. وَالْعُزْبَةِ: عَزَبَ يَعْزُبُ عُزُوبةً، فَهُوَ عازِبٌ، وَجَمْعُهُ عُزَّابٌ.

الْمَاءِ الزُّلَالِ، وَلَمْ يَمْنَعْنِي عَنْهَا إِلَّا مَا أَثْمَرَ عِنْدِي الْعِلْمُ مِنْ خَوْفِ اللهِ ﷻ، وَلَوْلَا خَطَايَا لَا يَخْلُوْ مِنْهَا الْبَشَرُ؛ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُ عَلَىٰ نَفْسِي مِنَ الْعُجْبِ.

غَيْرَ أَنَّهُ ﷻ صَانَنِي وَعَلَّمَنِي وَأَطْلَعَنِي مِنْ أَسْرَارِ الْعِلْمِ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ، وَإِيْثَارِ الْخَلْوَةِ بِهِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَوْ حَضَرَ مَعِي مَعْرُوْفٌ وَبِشْرٌ؛ لَرَأَيْتُهُمَا زَحْمَةً[١].

ثُمَّ عَادَ، فَغَمَسَنِي فِي التَّقْصِيْرِ وَالتَّفْرِيْطِ، حَتَّىٰ رَأَيْتُ أَقَلَّ النَّاسِ خَيْرًا مِنِّي.

وَتَارَةً يُوقِظُنِي لِقِيَامِ اللَّيْلِ وَلَذَّةِ مُنَاجَاتِهِ، وَتَارَةً يَحْرِمُنِي ذَلِكَ مَعَ سَلَامَةِ بَدَنِي.

وَلَوْلَا بِشَارَةُ الْعِلْمِ بِأَنَّ هَذَا نَوْعُ تَهْذِيْبٍ وَتَأْدِيْبٍ؛ لَخَرَجْتُ إِمَّا إِلَىٰ الْعُجْبِ عِنْدَ الْعَمَلِ، وَإِمَّا إِلَىٰ الْيَأْسِ عِنْدَ الْبَطَالَةِ.

لَكِنَّ رَجَائِي فِي فَضْلِهِ قَدْ عَادَلَ خَوْفِي مِنْهُ.

وَقَدْ يَغْلِبُ الرَّجَاءُ بِقُوَّةِ أَسْبَابِهِ؛ لِأَنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ قَدْ رَبَّانِي مُنْذُ كُنْتُ طِفْلًا؛ فَإِنَّ أَبِي مَاتَ وَأَنَا لَا أَعْقِلُ وَالْأُمُّ لَمْ تَلْتَفِتْ إِلَيَّ، فَرَكَزَ فِي طَبْعِي حُبَّ الْعِلْمِ، وَمَا زَالَ يُوْقِعُنِي عَلَىٰ الْمُهِمِّ فَالْمُهِمِّ، وَيَحْمِلُنِي إِلَىٰ مَنْ يَحْمِلُنِي عَلَىٰ الْأَصْوَبِ، حَتَّىٰ قَوَّمَ أَمْرِي.

وَكَمْ قَدْ قَصَدَنِي عَدُوٌّ فَصَدَّهُ عَنِّي، وَإِذْ رَأَيْتُهُ قَدْ نَصَرَنِي وَبَصَّرَنِي، وَدَافَعَ عَنِّي، وَوَهَبَ لِي؛ قَوِيَ رَجَائِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِمَا قَدْ رَأَيْتُ فِي الْمَاضِي.

وَلَقَدْ تَابَ عَلَىٰ يَدِيَّ فِي مَجَالِسِ الذِّكْرِ أَكْثَرُ مِنْ مِئَتَيْ أَلْفٍ، وَأَسْلَمَ عَلَىٰ يَدَيَّ أَكْثَرُ مِنْ مِئَتَيْ نَفْسٍ، وَكَمْ سَالَتْ عَيْنُ مُتَجَبِّرٍ بِوَعْظِي لَمْ تَكُنْ تَسِيْلُ، وَيَحِقُّ لِمَنْ تَلَمَّحَ هَذَا الْإِنْعَامَ أَنْ يَرْجُوَ التَّمَامَ.

وَرُبَّمَا لَاحَتْ أَسْبَابُ الْخَوْفِ بِنَظَرِي إِلَىٰ تَقْصِيْرِي وَزَلَلِي.

وَلَقَدْ جَلَسْتُ يَوْمًا، فَرَأَيْتُ حَوْلِي أَكْثَرَ مِنْ عَشَرَةِ آلَافٍ، مَا فِيْهِمْ إِلَّا مَنْ قَدْ رَقَّ قَلْبُهُ، أَوْ دَمِعَتْ عَيْنُهُ.

---

(١) ترجمة مَعْرُوْفٌ الكَرْخِيُّ وبِشْرٌ الحَافِي في الخاطرة رقم:[٢٤-١٧٩]. وزَحْمَةً؛ أي: ازْدَحَمَا عِنْدَهُ.

فَقُلْتُ لِنَفْسِي: كَيْفَ بِكِ إِنْ نَجَوْا وَهَلَكْتِ؟! فَصِحْتُ بِلِسَانِ وَجْدِي:

إِلَهِي وَسَيِّدِي! إِنْ قَضَيْتَ عَلَيَّ بِالْعَذَابِ غَدًا؛ فَلَا تُعْلِمْهُمْ بِعَذَابِي؛ صِيَانَةً لِكَرَمِكَ، لَا لِأَجْلِي؛ لِئَلَّا يَقُولُوا: عَذَّبَ مَنْ دَلَّ عَلَيْهِ.

إِلَهِي! قَدْ قِيلَ لِنَبِيِّكَ ﷺ: اقْتُلِ ابْنَ أُبَيٍّ الْمُنَافِقَ! فَقَالَ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[1].

إِلَهِي! فَاحْفَظْ حُسْنَ عَقَائِدِهِمْ فِيَّ بِكَرَمِكَ أَنْ تُعْلِمَهُمْ بِعَذَابِ الدَّلِيلِ عَلَيْكَ.

حَاشَاكَ وَاللهِ يَا رَبِّ مِنْ تَكْدِيرِ الصَّافِي.

لَا تَبْــرِ عُــوْدًا أَنْــتَ رَيَّشْــتَهُ حَاشَــا لِبَــانِي الْجُــوْدِ أَنْ يَنْقُضَــا

لَا تُعْطِــشِ الــزَّرْعَ الَّــذِي نَبْتُــهُ بِصَــوْبِ إِنْعَامِــكَ قَــدْ رَوَّضَــا[2]

---

(١) رواه البخاري، كِ: «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (٤٩٠٥). ومسلم، كِ: «الْبِرِّ وَالصِّلَةِ» (٢٥٨٤).

(٢) البيتان من البحر: [السريع]. الشريف الرضي. وَرَيَّشْتَهُ: جَعَلْتَ لَهُ رِيشًا. وَرَوَّضَا: كَثُرَت خُضْرَتُه وَمَاؤُه.

خاتِمةُ الإمامِ ابنِ الجوزيّ لـ«صيدِ الخاطرِ»

بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَىٰ قَدْ نَجَزَ مَا تَوَخَّاهُ الْفِكْرُ الْفَاتِرُ مِنْ تَقْيِيْدِ مَا جَمَعَهُ الْقَلَمُ، مِنْ «صَيْدِ الْخَاطِرِ»، مُقْتَصِرًا فِيْهِ عَلَىٰ مَا بِهِ «التَّخَلِّي مِنَ الأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ، وَالتَّحَلِّي بِالآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالأَخْلَاقِ الْمَرْضِيَّةِ»، جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ خَيْرَ هَادٍ عَلَىٰ مِنْبَرِ الْوَعْظِ وَالإِرْشَادِ، وَأَنْفَعَ كِتَابٍ تَجَلَّىٰ فِي مَرَايَا الظُّهُوْرِ لِهِدَايَةِ الْعِبَادِ.

وَالْحَمْدُ للهِ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم.

(وَجَاءَ فِي خَاتِمَةِ الأَصْلِ)

[خَاتِمَةُ الْكِتَاب]

حَمْدًا لِمَنْ أَبْدَعَ صُنْعَ الإِنْسَانِ، وَأَنَارَ عَقْلَهُ بِنُوْرِ العِلْمِ وَالْعِرْفَانِ، وَتَوَّجَهُ بِتَاجِ الشَّرِيْعَةِ الغَرَّاءِ وَحَلَّاهُ بِحِلْيَةِ الإِسْلَامِ وَالإِيْمَانِ.

وَصَلَاةً وَسَلَامًا عَلَىٰ أَشْرَفِ هَادٍ إِلَىٰ أَقْوَمِ دِيْنٍ بِسَوَاطِعِ الأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِيْن، وَأَعْظَم مَاحٍ لِظُلُمَاتِ الشُّكُوْكِ وَالأَوْهَامِ بِنُوْرِ الْحَقِّ وَالْيَقِيْنِ. وَعَلَىٰ آلِهِ الْمُتَخَلِّقِيْنَ بِأَخْلَاقِهِ، الْمُهْتَدِيْن بِهُدَاه. وَأَصْحَابه مَصَابِيْح الظَّلَام وَسُفُن النَّجَاة.

وَبَعْدُ: فَمِمَّا بَرَزَ فِي مَرَايَا الظُّهُوْرِ مِنْ خَزَائِنِ الأَسْرَارِ، وَأَشْرَقَ فِي سَمَاءِ الْوُجُوْدِ مِنْ شُمُوْسِ عَرَائِسِ الأَفْكَارِ؛ الْكِتَاب الْمُوْسُوْم بِـ«صَيْدِ الْخَاطِرِ» الَّذِي جَلَّ فِي بَابِهِ عَنْ شَبِيْهٍ أَوْ مُنَاظِرٍ، لِمُؤَلِّفِهِ العَلَّامَة الْمُحَقِّق أَبُو الفَرَج عَبْد الرَّحْمَن بْن عَلِيّ بْن مُحَمَّد بْن الجَوْزِيّ، طَابَ ثَرَاهُ، وَأَفَاضَ الْكَرِيْم عَلَيْهِ سَوَابِغ جُوْدِهِ وَرُحْمَاهُ.

وَمُنْذُ إِشْرَأَبَّتْ أَعْنَاقُ الطَّالِبِيْنَ لِاجْتِلَاءِ مَحَاسِنِهِ البَاهِرَة، وَتَاقَتْ نُفُوْس الْمُتَعَطِّشِيْنَ لِارْتِشَافِ رَحِيْقِ فَوَائِدِهِ الزَّاهِرَة؛ هَبَّتْ نَسَمَات التَّوْفِيْق؛ لِإِبْرَازِ مَحَاسِن عَرَائِسِهِ عَلَىٰ الطَفِ طِرَازٍ، وَأَحْسَنِ وَضْعٍ؛ فَبَرَزَ بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَىٰ رَافِلًا فِي حُلَلِ الْبَهَاءِ وَالفَخَار، مُتَوَّجًا بِتَاجِ القَبُوْلِ وَالاعتِبَار، مُتَمَثِّلًا طَبْعه بِعِنَايَةِ إِدَارَةِ الهُمَام المِفْضَال، السَّيْد/ أَمِيْن أَفَنْدِي الخَانِجِي عَلَىٰ ذِمَّةِ أَوْلَادِهِ الْمُحْتَرَمِيْن أَصْحَاب الْمَكْتَبَةِ الخَانِجِيَّة، وَذَلِكَ بِمَطْبَعَةِ الشَّرْق الوَاقِعَةِ بِحَارَةِ المَدْرَسَةِ نِمْرَة (٦) بِجِوَارِ الجَامِعِ الأَزْهَر الشَّرِيْف بِمِصْر، بِإِدَارَةِ صَاحِبِهَا السَّيْد/ عَبْدِ الرَّحْمَن مَحْمُوْد قَايِد. وَذَلِكَ فِي السَّنَةِ الخَامِسَةِ وَالأَرْبَعِيْنَ بَعْدَ الثَّلَاثِ مِئَة وَالأَلْف مِنْ هَجْرَةِ مَنْ هُوَ عَلَىٰ أَكْمَلِ وَصْفٍ ﷺ.

(وَجَاءَ فِي آخِرِ المُخْطُوط)

تَمَّ الْكِتَاب بِحَمْدِ اللهِ وَعَوْنِهِ، وَمَنِّهِ وَفَضْلِهِ، وَالْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَكَانَ الفَرَاغ مِنْهُ فِي يَوْمِ الاثْنَيْن لَعَلَّهُ رَابع عَشَر شَهْر مُحَرَّم الْحَرَامِ سَنَةَ ١٢٢٢

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ سَيِدِنَا مُحَمَّد وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم .

وَأَتَمَّ تَرتِيْبَهُ وَتَحْقِيْقَهُ وَالتَّعْلِيْقَ عَلَيْهِ وَفَهْرَسَتهُ الْعَبْدُ الْفَقِيْرُ الذَّلِيْلُ إِلَىٰ رَبِّهِ الْقَدِيْرِ حُسَيْنُ بْنُ مَحْمُوْدٍ الصَّادِقِ بْنِ سَالِمِ بْنِ عَفِيْفِي بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَزْهَرِيُّ الْحَنَفِيُّ.

فَحَمْدًا ثُمَّ حَمْدًا لَهُ تَعَالَىٰ فِي الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ وَصَلاةً وَسَلامًا عَلَىٰ أَفْضَلِ مَنْ فِي الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ وَعَلَىٰ سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَعَلَىٰ آلِ كُلٍّ أَجْمَعِينَ فِي الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَبِيْعٍ الآخِرِ عَامَ أَلْفٍ وَأَربَعِمِائَةٍ وَثَمَانٍ وَثَلاثِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ هِجْرَةِ مَنْ لَهُ الْعِزُّ وَالشَّرَفُ الأَعْظَمُ وَعَلَىٰ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَالصَّحَابَةِ، وَالآلِ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. خُتِمَتْ بِخَيْرٍ آمِينَ.

يَأْتِي اللَّيْلُ فَأَعِيشُ بَيْنَ تَأْنِيبِ الضَّمِيرْ
بَيْنَ الْحَقِّ الَّذِي أَعْرِفُهُ وَالْبَاطِلِ الَّذِي عَلَيْهِ أَسِيرْ
أَعِظُ النَّاسَ وَبَعْدَهَا أَشْعُرُ أَنِّي حَقِيرْ
أَأَنَا الَّذِي كُنْتُ فِي الْمَاضِي أَمْ كَانَ غَيْرِي يَسِيرْ؟
يَا لَيْتَنِي ظَلَلْتُ طِفْلًا صَغِيرْ
فَعَفْوَكَ يَا رَبِّي بِعَبْدِكَ الْفَقِيرْ

الْفَقِيرُ إِلَىٰ عَفْوِ رَبِّهِ

أَبُو إِبْرَاهِيمَ/ حُسَيْنُ بْنُ مَحْمُودٍ الصَّادِقُ

الإِجَازَةُ الْعَالِيَةُ فِي الشَّرِيعَةِ الإِسْلامِيَّةِ

جَامِعَةُ الأَزْهَرِ الشَّرِيفِ

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

الفهارس الفنية

(فهرس الآيات القرانية الكريمة)

م	رقم الخاطرة	طرف أو جزء من الآية	اسم السورة	رقم الآية
١	[١-٧٩]	﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ...﴾	آل عمران	(١٤٠)
٢	[٢ - ٢٩]	﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ...﴾	المائدة	(٥٤)
٣	[٢ - ٢٩]	﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾	البقرة	(٦٠)
٤	[٣ - ٦٢]	﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾	الأنعام	(٤٦)
٥	[٤-٦٥]	﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾	الأعراف	(١٤٦)
٦	[٥-١٥٩]	﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾	البقرة	(١٠٢)
٧	[٥-١٥٩]	﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾	التوبة	(٥١)
٨	[٦ - ١٤٢]	﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾	يوسف	(٢٣)
٩	[٦ - ١٤٢]	﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾	إبراهيم	(٣٤)
١٠	[٧ - ٨٠]	﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾	طه	(١٢٣)
١١	[٧ - ٨٠]	﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾	الطلاق	(٢)
١٢	[٨ - ٣١٣]	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ ...﴾	الحج	(١٨)
١٣	[٩ - ٥٠]	﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾	البقرة	(١٨٣)
١٤	[٩ - ٥٠]	﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾	الأنعام	(٥٤)
١٥	[١٠ - ٧٠]	﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾	الحجرات	(١٧)
١٦	[١١ - ١٣٠]	﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾	الطلاق	(٣)
١٧	[١٣-٣٣٢]	﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾	الرعد	(١٧)
١٨	[١٥-٦٦]	﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾	طه	(١١٤)
١٩	[١٨-٣١٧]	﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾	الإسراء	(٣٢)

م	رقم الخاطرة	طرف أو جزء من الآية	اسم السورة	رقم الآية
٢٠	[٢١-٢٣٦]	﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾	البقرة	(٢٢٨)
٢١	[٢٨-٢٤٧]	﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾	الحج	(١٥)
٢٢	[٣١-٢٧٥]	﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾	الصافات	(٥١)
٢٣	[٣٢-٤٣]	﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾	الإسراء	(٨٥)
٢٤	[٣٦-٢٣٨]	﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾	فصلت	(١٥)
٢٥	[٣٦-٢٣٨]	﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾	التوبة	(١٤)
٢٦	[٣٦-٢٣٨]	﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾	المجادلة	(١٨)
٢٧	[٣٦-٢٣٨]	﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾	الأنعام	(٢٨)
٢٨	[٣٧-١٩٢]	﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾	الأعراف	(١٢)
٢٩	[٣٧-١٩٢]	﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾	آل عمران	(٨)
٣٠	[٣٧-١٩٢]	﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾	التوبة	(٦)
٣١	[٣٩-٤٩]	﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾	الشورى	(١١)
٣٢	[٤١-٦٧]	﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ...﴾	التوبة	(٢٥)
٣٣	[٤١-٦٧]	﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾	يوسف	(١٣،١٧،٤٢،٩٤)
٣٤	[٤١-٦٧]	﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾	آل عمران	(٣٧)
٣٥	[٤١-٦٧]	﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾	هود	(١١٣)
٣٦	[٤٣-٥١]	﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾	النساء	(١٠٢)
٣٧	[٤٣-٥١]	﴿فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾	يوسف	(٤٧)
٣٨	[٤٣-٥١]	﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾	البقرة	(١٩٧)

م	رقم الخاطرة	طرف أو جزء من الآية	اسم السورة	رقم الآية
٣٩	[١٤٣-٤٦]	﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾	النمل	(٦١)
٤٠	[١٤٣-٤٦]	﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾	الذاريات	(٢١)
٤١	[١٤٣-٤٦]	﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾	الأنعام	(٩٢)
٤٢	[١٤٣-٤٦]	﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾	الإسراء	(٨٢)
٤٣	[١٤٣-٤٦]	﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾	الفتح	(١٥)
٤٤	[١٤٣-٤٦]	﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾	التوبة	(٦)
٤٥	[١٤٣-٤٦]	﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾	البروج	(٢٢)
٤٦	[١٤٣-٤٦]	﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ...﴾	العنكبوت	(٤٩)
٤٧	[١٤٣-٤٦]	﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ...﴾	العنكبوت	(٤٨)
٤٨	[١٤٣-٤٦]	﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾	السجدة	(٣)
٤٩	[١٤٣-٤٦]	﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾	الحاقة	(٤٤،٤٦)
٥٠	[١٤٣-٤٦]	﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾	المدثر	(٢٥، ٢٦)
٥١	[١٤٣-٤٦]	﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ﴾	القلم	(٤٤)
٥٢	[١٤٣-٤٦]	﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾	المدثر	(١١)
٥٣	[٦١-٤٧]	﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾	الرحمن	(٢٧)
٥٤	[٦١-٤٧]	﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾	المائدة	(٦٤)
٥٥	[٦١-٤٧]	﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾	الفتح	(٦)
٥٦	[٦١-٤٧]	﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾	البينة	(٨)
٥٧	[٦١-٤٧]	﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ﴾	البقرة	(٢٦٠)
٥٨	[١٩٥-٥٠]	﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾	آل عمران	(١٣٠)
٥٩	[١٩٥-٥٠]	﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ﴾	الإسراء	(٣٢)

م	رقم الخاطرة	طرف أو جزء من الآية	اسم السورة	رقم الآية
٦٠	[٥٨-٧٣]	﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾	يوسف	(٨٨)
٦١	[٦٠-١٩٤]	﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾	يوسف	(٨٣)
٦٢	[٦٠-١٩٤]	﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾	البينة	(٨)
٦٣	[٦١-٣٢٨]	﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم ...﴾	البقرة	(٢١٤)
٦٤	[٦٣-٢١٥]	﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾	المنافقون	(٧)
٦٥	[٦٣-٢١٥]	﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾	نوح	(٢٦)
٦٦	[٦٣-٢١٥]	﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾	الأعراف	(١٥٥)
٦٧	[٦٣-٢١٥]	﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾	ص	(٣٥)
٦٨	[٦٥-٥٤]	﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾	آل عمران	(١٧٨)
٦٩	[٦٥-٥٤]	﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا﴾	الزخرف	(٣٣)
٧٠	[٦٥-٥٤]	﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾	الإسراء	(١٦)
٧١	[٦٥-٥٤]	﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ...﴾	آل عمران	(١٤٢)
٧٢	[٦٥-٥٤]	﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ...﴾	التوبة	(١٦)
٧٣	[٦٨-٣٧٢]	﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾	ص	(٧٦)
٧٤	[٧١-٢٣٤]	﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ﴾	يس	(٤٧)
٧٥	[٧٧-٣٠٨]	﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾	ص	(٢٧)
٧٦	[٧٨-١٩٨]	﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾	الطور	(٣٩)
٧٧	[٧٨-١٩٨]	﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩﴾	الفجر	(٢٨، ٢٩)
٧٨	[٧٨-١٩٨]	﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾	الطور	(٢٦)
٧٩	[٨١-٢٨٦]	﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾	إبراهيم	(٣٤)
٨٠	[٨٣-٧٤]	﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾	مريم	(٤)

م	رقم الخاطرة	طرف أو جزء من الآية	اسم السورة	رقم الآية
٨١	[٨٥-١٤٨]	﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾	البقرة	(٢١٦)
٨٢	[٩١-٢٦٣]	﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾	الكهف	(١٤)
٨٣	[٩٤-٢٩٤]	﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾	آل عمران	(١٢٨)
٨٤	[١٠٢-١٢]	﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾	الجن	(١٩)
٨٥	[١٠٢-١٢]	﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾	الرعد	(١١)
٨٦	[١٢٠-٥٨]	﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾	سبأ	(٢٠)
٨٧	[١٢٣-١٠٦]	﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ ...﴾	سبأ	(٢٣)
٨٨	[١٢٤-٢٥]	﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾	الزمر	(٩)
٨٩	[١٣٠-٣١٦]	﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾	الأحزاب	(٤)
٩٠	[١٣١-٣٣٧]	﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾	الجن	(١٦)
٩١	[١٣١-٣٣٧]	﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا...﴾	الروم	(٧)
٩٢	[١٣٤-١٧]	﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾	يوسف	(٩)
٩٣	[١٤٢ - ١٩١]	﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾	البقرة	(٢٨٢)
٩٤	[١٤٤-١٩٣]	﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾	يوسف	(٤٦)
٩٥	[١٤٦ - ٣٤٢]	﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾	الأحزاب	(١١)
٩٦	[١٥٢ - ٦٩]	﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾	يوسف	(٨٠)
٩٧	[١٥٥ - ٢٧٧]	﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ ...﴾	الغاشية	(٢-٤)
٩٨	[١٨٢ - ١٩]	﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾	آل عمران	(١٨٥)
٩٩	[١٨٢ - ١٩]	﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ﴾	الحديد	(٢٠)
١٠٠	[١٨٢ - ١٩]	﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾	النِّسَاءُ	(٢٩)
١٠١	[١٨٣ - ١٠١]	﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾	النِّسَاءُ	(٥)

م	رقم الخاطرة	طرف أو جزء من الآية	اسم السورة	رقم الآية
١٠٢	[١٨٣ - ١٠١]	﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾	الإِسْرَاءُ	(٢٦)
١٠٣	[١٨٣ - ١٠١]	﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾	الإِسْرَاءُ	(٢٩)
١٠٤	[١٨٣ - ١٠١]	﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾	الفُرْقَانُ	(٦٧)
١٠٥	[١٨٣ - ١٠١]	﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾	البَقَرَةُ	(٢٤٥)
١٠٦	[١٨٣ - ١٠١]	﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾	البَقَرَةُ	(١٩٥)
١٠٧	[١٨٣ - ١٠١]	﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾	البَقَرَةُ	(٢٦١)
١٠٨	[١٨٣ - ١٠١]	﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾	الحَدِيدُ	(١٠)
١٠٩	[١٨٣ - ١٠١]	﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾	التَّوْبَةُ	(١٠٣)
١١٠	[١٨٣ - ١٠١]	﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾	القَصَصُ	(٢٧)
١١١	[١٨٣ - ١٠١]	﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾	يُوسُفُ	(٦٤)
١١٢	[١٨٣ - ١٠١]	﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾	يُوسُفُ	(٦٥)
١١٣	[١٨٥ - ٣٦]	﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾	المَائِدَةُ	(٨٧)
١١٤	[١٨٥ - ٣٦]	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾	الأَنْعَامُ	(٩٠)
١١٥	[١٩١ - ٧١]	﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾	الأَنْعَامُ	(٣٨)
١١٦	[١٩١ - ٧١]	﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾	النَّحْلُ	(٤٤)
١١٧	[١٩١ - ٧١]	﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾	الأَعْرَافُ	(٥٤)
١١٨	[١٩١ - ٧١]	﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾	طَهَ	(٣٩)
١١٩	[١٩١ - ٧١]	﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾	القَدْرُ	(١)
١٢٠	[١٩١ - ٧١]	﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾	الشُّعَرَاءُ	(١٩٣)
١٢١	[١٩١ - ٧١]	﴿إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ﴾	البَقَرَةُ	(٢١٠)
١٢٢	[١٩١ - ٧١]	﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾	آل عمران	(١٨)

م	رقم الخاطرة	طرف أو جزء من الآية	اسم السورة	رقم الآية
١٢٣	[١٩٧ - ٣٤٤]	﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾	يُوسُفُ	(١٠)
١٢٤	[١٩٧ - ٣٤٤]	﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم﴾	يُوسُفُ	(٥٩)
١٢٥	[١٩٧ - ٣٤٤]	﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ﴾	يُوسُفُ	(٨٧)
١٢٦	[٢٠١ - ١٨]	﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ...﴾	يُوسُفُ	(٩٠)
١٢٧	[٢٠٣ - ٣٥٥]	﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾	النِّسَاءُ	(١٢٣)
١٢٨	[٢٠٤ - ٢٢١]	﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾	ق	(٣٨)
١٢٩	[٢١٠ - ١٥٠]	﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾	آلُ عِمْرَانَ	(٢٨)
١٣٠	[٢١٦ - ٣٦١]	﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾	الزُّمَرُ	(٣)
١٣١	[٢١٦ - ٣٦١]	﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾	الْعَادِيَاتُ	(١٠)
١٣٢	[٢١٦ - ٣٦١]	﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾	الزُّمَرُ	(٥٦)
١٣٣	[٢١٧ - ٦٠]	﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾	يُوسُفُ	(٨٤)
١٣٤	[٢٢٠ - ١١]	﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً...﴾	الْحَشْرُ	(٩، ١٠)
١٣٥	[٢٢١ - ٣٣٦]	﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾	يُوسُفُ	(٤٢)
١٣٦	[٢٢٣-٣٤٦]	﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾	مُحَمَّدٌ	(٣٠)
١٣٧	[٢٢٥ - ٢٢٣]	﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾	يُوسُفُ	(٦٧)
١٣٨	[٢٣٤ - ٢٦٨]	﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾	النَّجْمُ	(٣٠)
١٣٩	[٢٣٦ - ٢٩٠]	﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾	الْحُجُرَاتُ	(٧)
١٤٠	[٢٣٦ - ٢٩٠]	﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى﴾	الشُّعَرَاءُ	(٨٢)
١٤١	[٢٣٦ - ٢٩٠]	﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾	يُوسُفُ	(٥٣)
١٤٢	[٢٤٥ - ٢٢٨]	﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ...﴾	الأَعْرَافُ	(١٩٥)
١٤٣	[٢٥٤-٢٨٧]	﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾	الْفُرْقَانُ	(٤٤)

م	رقم الخاطرة	طرف أو جزء من الآية	اسم السورة	رقم الآية
١٤٤	[٢٥٨ - ٢٠٤]	﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾	الْعَنْكَبُوتُ	(٤٣)
١٤٥	[٢٦١ - ١٦٤]	﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾	فُصِّلَتْ	(٣٥)
١٤٦	[٢٦٤ - ٤٦]	﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾	طَهَ	(١٢٠)
١٤٧	[٢٦٦ - ٢٠٧]	﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾	الإِخْلاص	(١)
١٤٨	[٢٧٤ - ١١١]	﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾: ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ ...﴾	يُوسُفُ	(٧٠ و ٧٣)
١٤٩	[٢٧٦ - ١٢٥]	﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾	مَرْيَمْ	(٩٦)
١٥٠	[٢٨٠ - ١٥٤]	﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾	الْبَقَرَةُ	(٣٧)
١٥١	[٢٨١ - ٣٠٥]	﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾	الْحَشْرُ	(٢)
١٥٢	[٢٨٣ - ١٣٨]	﴿وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ﴾	يُوسُفُ	(٥٧)
١٥٣	[٢٩٨-١٨٠]	﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾	الشُّورَى	(٣٠)
١٥٤	[٣٠٨-٢٩٨]	﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾	الأَنْعَامُ	(١٧)
١٥٥	[٣١٣ - ٢١٦]	﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾	الْبَقَرَةُ	(٢٦٧)
١٥٦	[٣١٣ - ٢١٦]	﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾	الْبَقَرَةُ	(٢٥)
١٥٧	[٣١٩-٣٧٣]	﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾	الأَحْزَابُ	(٣٧)
١٥٨	[٣٢٠-٢٩]	﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾	النِّسَاءُ	(١٢٣)
١٥٩	[٣٢٠-٢٩]	﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾	يُوسُفُ	(٢٠)
١٦٠	[٣٢٠-٢٩]	﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾	يُوسُفُ	(٢٥)
١٦١	[٣٢٠-٢٩]	﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾	يُوسُفُ	(٥١)
١٦٢	[٣٢١ - ٣٦٧]	﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾	البقرة	(٢٦٩)
١٦٣	[٣٢٤ - ٣٥٢]	﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾	الأَنْعَامُ	(١٥)
١٦٤	[٣٣٣-٢٢٤]	﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾	الْحَاقَّةُ	(١٩)

م	رقم الخاطرة	طرف أو جزء من الآية	اسم السورة	رقم الآية
١٦٥	[٣٣٤-٣٦٠]	﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ...﴾	مَرْيَمُ	(٨٥-٨٦)
١٦٦	[٣٣٤-٣٦٠]	﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ...﴾	الشُّعَرَاءُ	(١٠٠ - ١٠١)
١٦٧	[٣٣٤-٣٦٠]	﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾	الْوَاقِعَةُ	(١١)
١٦٨	[٣٣٤-٣٦٠]	﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾	الإِنْسَانُ	(٢٢)
١٦٩	[٣٣٤-٣٦٠]	﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾	الْحَاقَّةُ	(٢٤)
١٧٠	[٣٣٧-٤٣١]	﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾	التَّوْبَةُ	(١١١)
١٧١	[٣٦٧ - ٤٢]	﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم﴾	الْبَقَرَةُ	(٣٢، ٣٣)
١٧٢	[٣٦٧ - ٤٢]	﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ....﴾	الأَنْبِيَاءُ	(٢٩)
١٧٣	[٣٧١ - ٣١٠]	﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾... ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾	الْبَقَرَةُ	(٢٣، ٢٤)
١٧٤	[٣٧١ - ٣١٠]	﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ ...﴾ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾	الْبَقَرَةُ	(٩٤، ٩٥)
١٧٥	[٣٧٢ - ١٢٢]	﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ ...﴾	الأَعْرَافُ	(٢٠١)

(فهرس الأحاديث والآثار)

م	رَقْم الخَاطِرَة	طَرَف الْحَدِيْث أَوِ الأَثَر	الرَّاوِي أَو الْقَائِل
١	مقدمة المؤلف	«قَيِّدُوا العِلْمَ بِالْكِتَابَةِ»	عُمَرَ وَأَنَسٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو
٢	[١٢-٢٦١]	«شَغَلَنِي وَنَظْرَةٌ إِلَيكُمْ وَنَظْرَةٌ إِلَيْهِ...»	عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ
٣	[١٢-٢٦١]	«هَذَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّتِهِ...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
٤	[١٢-٢٦١]	«إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْكَ فِي حَالَتِكَ هَذِهِ...»	أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيْق
٥	[١٢-٢٦١]	«أَلْهَتْنِي هَذِهِ عَنْ صَلَاتِي...»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ
٦	[١٢-٢٦١]	«يَا نَافِعُ! أَخْلِهِ فِي البُدنِ...»	عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ
٧	[١٣-٣٣٢]	«مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ، فَقَد رَآنِي...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
٨	[١٤-١١٨]	«عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا تُطِيقُوْنَ...»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ
٩	[١٥-٦٦]	« لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا ...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
١٠	[١٥-٦٦]	«إِنَّ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ يَطُوْلَ عُمُرُ الْعَبْدِ...»	جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ
١١	[١٦-١٨٦]	«اِسْتَعِيْنُوا عَلَى قَضَاءِ أُمُوْرِكُمْ -الْحَوَائِجِ-...»	مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ
١٢	[١٧-٣٠٠]	« لَا تَسُبُّوْا الدَّهْرَ ...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
١٣	[١٨-٣١٧]	«اللَّهُمَّ! أَرِنَا الأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ...»	لم أقف عليه
١٤	[١٨-٣١٧]	«مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ...»	الْهَيْثَمِ بْنِ مَالِكٍ الطَّائِيّ
١٥	[١٩-٢٣٥]	«مَا أَعْرِفُ شَيْئًا مِمَّا كُنَّا عَلَيْهِ الْيَوْمَ إِلَّا الْقِبْلَةَ!..»	أَبُو الدَّرْدَاءِ
١٦	[٢٠-٢٣٣]	«اللَّهُمَّ! اِجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوْتًا...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
١٧	[٢٣ -٣٤٨]	«مَنْ أَرضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ...»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ

م	رَقَم الخَاطِرَة	طَرَف الْحَدِيْث أَوِ الأَثَر	الرَّاوِي أَو الْقَائِل
١٨	[٢٦ -٢٠١]	«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ...»	عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو
١٩	[٢٧-٢٧٠]	«لَوْ أَنَّ أَحَدَكُم يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ...»	أَبُو سَعِيْدٍ الْخُدْرِيِّ
٢٠	[٣٠-٢٧٢]	«مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟...»	جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ
٢١	[٣١-٢٧٥]	«كُنْتُ كَنْزًا لَا أُعْرَفُ...»	لَا أَصْلَ لَهُ اتِّفَاقًا
٢٢	[٣٦-٢٣٨]	«يَنْزِل إِلَى السَّمَاءِ...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
٢٣	[٣٩-٤٩]	«يُذْبَحُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ...»	عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَر
٢٤	[٣٩-٤٩]	«تَأْتِي البَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ...»	أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ
٢٥	[٤١-٦٧]	«أَبَى اللهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ...»	عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
٢٦	[٤١-٦٧]	«لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِئَةِ امْرَأَةٍ...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
٢٧	[٤٣-٥١]	«أَدْخُلُ فِي جُوارك...»	زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ
٢٨	[٤٣-٥١]	«مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً، إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً...»	أَبُو الدَّرْدَاءِ
٢٩	[٤٣-٥١]	«تَعَلَّمْتُ الطِبَّ مِنْ كَثْرَةٍ...»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ
٣٠	[٤٣-٥١]	«كُلْ مِنْ هَذَا؛ فَإِنَّهُ أَوْفَقُ لَكَ...»	عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
٣١	[٤٣-٥١]	«يَدخُلُ الجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِلَا حِسَابٍ...»	عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ
٣٢	[٤٣-٥١]	«اِعْقِلْهَا وتوكَّلْ...»	عَمْرُو بنُ أُمَيَّةَ
٣٣	[٤٤-٤١]	«يَا أَبَا عُمَيْرٍ! مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟...»	أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ
٣٤	[٤٤-٤١]	«مَا زَالَتْ أُكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
٣٥	[٤٤-٤١]	«مَا نَفَعَنِي مَالٌ كَمَالِ أَبِي بَكْرٍ...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
٣٦	[٤٤-٤١]	«لأَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ لَكَ...»	سَعْد بن أَبِي وَقَّاصٍ

م	رَقْم الخَاطِرَة	طَرَف الحَدِيْث أَوِ الأثَر	الرَّاوِي أَو القَائِل
٣٧	[٤٥-١٤٠]	«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي...»	الأَغَرُّ الْمُزَنِيُّ
٣٨	[٤٦-١٢٣]	«أَيْنَ اللهُ؟...»	مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ
٣٩	[٤٦-١٢٣]	«أَوَيَضْحَكُ الرَّبُّ ﷻ؟ قَالَ: «نَعَمْ»»	أَبُو رَزِينٍ مَسْعُودُ بنُ مَالِكٍ
٤٠	[٤٧-٦١]	«قُلُوبُ العِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ
٤١	[٤٧-٦١]	«كَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ...»	زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ
٤٢	[٤٧-٦١]	«كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
٤٣	[٤٧-٦١]	«لَا تُسَافِرُوا بِالقُرآنِ إِلَى أَرْضِ العَدُوِّ...»	عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ
٤٤	[٤٧-٦١]	«مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِيْنُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟...»	الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ
٤٥	[٥٢-١١٧]	«وَارَأْسَاهُ...»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ
٤٦	[٦١-٣٢٨]	«لَا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ...»	أَنَسِ بْنُ مَالِك
٤٧	[٦٣-٢١٥]	«إِنِّي عَبْدُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي...»	سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ
٤٨	[٦٣-٢١٥]	«مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟!...»	عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ
٤٩	[٦٣-٢١٥]	«اللَّهُمَّ! اِهْدِ قَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ...»	عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ
٥٠	[٦٣-٢١٥]	«اللَّهُمَّ! اِجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوْتًا...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
٥١	[٦٥-٥٤]	«أَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا عُمَرُ؟!...»	عَبْدُ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ
٥٢	[٦٥-٥٤]	«لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تُسَاوِيْ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوْضَةٍ...»	سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ
٥٣	[٦٦-٥٥]	«لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ ...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
٥٤	[٧١-٢٣٤]	«كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيْدَ بِهَا بَاطِلٌ...»	عَلِيّ بْن أَبِي طَالِبٍ
٥٥	[٨٧-٨٥]	«مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي...»	عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

م	رَقَم الخَاطِرَة	طَرَف الْحَدِيْث أَوِ الأَثَر	الرَّاوِي أَو الْقَائِل
٥٦	[٨٩-٢٢٩]	«إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ...»	أَنَسِ بْنُ مَالِك
٥٧	[٩٠-١٠٥]	«مَا مِنْ مُسْلِمٍ دَعَا اللهَ تَعَالَى إِلَّا أَجَابَهُ...»	أَبُو سَعِيدِ الْخُدرِيِّ
٥٨	[٩٠-١٠٥]	«فَإِذَا رَأَى يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّ مَا أُجِيْبَ...»	جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ
٥٩	[٩٦-٢١]	«لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ ...»	عَلِيّ بْن أَبِي طَالِبٍ
٦٠	[٩٦-٢١]	«كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا، أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوْتُ...»	عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو
٦١	[٩٨-٢٠]	«...تَعْلَقُ مِنْ شَجَرِ الجَنَّةِ...»	كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ
٦٢	[١٠٢-١٢]	«لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُوْنِي، لَسَقَيْتُهُمُ الْمَطَرَ ...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
٦٣	[١٠٢-١٢]	«الْبِرُّ لَا يَبْلَى، وَالإِثْمُ لَا يُنْسَى...»	أَبُو قِلَابَةَ الجَرْمِيُّ
٦٤	[١٠٨-١٧١]	«إِنَّ هَذَا الدِّيْنَ مَتِيْنٌ؛ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ...»	جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ
٦٥	[١١٥-١٧٠]	«نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ أَبْلَغُ مِنْ عَمَلِهِ»	أَنَسِ بْنُ مَالِك
٦٦	[١١٨-١٢٠]	«أَنَّهُ كَانَ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَفْرَشٌ فِي الحِجْرِ»	الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَعْبَدٍ
٦٧	[١٢١-٢٣٠]	«وَدِدْتُ أَنْ أَنْجُوَ كَفَافًا لَا لِي وَلَا عَلَيَّ!»	عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
٦٨	[١٢٢-١٨٢]	«بَلِّغُوْا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»	عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو
٦٩	[١٢٤-٢٥]	«فَلِمَ تَسْتَكْثِرُ مِنْ حُجَّةِ اللهِ عَلَيْكَ؟!»	أُمُّ الدَّرْدَاءِ
٧٠	[١٢٤-٢٥]	«وَيْلٌ لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ وَلَمْ يَعْمَلْ مَرَّةً»	أَبُو الدَّرْدَاءِ
٧١	[١٢٧-٣٦٦]	«لَا يَبُوْلَنَّ أَحَدُكُمْ فِي المَاءِ الدَّائِمِ...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
٧٢	[١٣٧-٣٣٣]	«كُنْتُ أُرَجِّلُ رَأْسَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَأَنَا حَائِضٌ»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ
٧٣	[١٣٩ - ٢١٨]	«أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ اشْتَهَى شَهْوَةً»	عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ
٧٤	[١٣٩ - ٢١٨]	«أُدْمَانِ فِي قَدَحٍ؟!...»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ

م	رَقْم الخَاطِرَة	طَرَف الْحَدِيْث أَوِ الأَثَر	الرَّاوِي أَو الْقَائِل
٧٥	[١٣٩ – ٢١٨]	«أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ أَكَلَ الْبِطِّيْخَ بِالرُّطَبِ»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَة
٧٦	[١٤٤–١٩٣]	«يُقَالُ لِلرَّجُلِ: اقْرَأْ وَارْقَ»	عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو
٧٨	[١٤٥ – ١٤٦]	«مَنْ أَتَى الجُمُعَةَ؛ فَلْيَغْتَسِلْ»	عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ
٧٩	[١٤٨ – ١٥٢]	«إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَة
٨٠	[١٤٨ – ١٥٢]	«أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه لَمَّا حَلَبَ لَهُ الرَّاعِي»	الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ
٨١	[١٤٨ – ١٥٢]	«إِنْ كَانَ عِنْدَكُمْ مَاءٌ بَاتَ فِي شَنٍّ، وَإِلَّا؛ كَرَعْنَا»	جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ
٨٢	[١٦١ – ٣٦٩]	«مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيْمِ وَبِحَمْدِهِ؛ غُرِسَتْ»	جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ
٨٣	[١٦٢–١١٤]	«أَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ»	أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيّ
٨٤	[١٦٢–١١٤]	«مَنْهُوْمَانِ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عَلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا»	عَبْدُ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ
٨٥	[١٦٦ – ٤٠]	«يَا دُنْيَا غُرِّي غَيْرِيْ؟!»	عَلِيّ بْن أَبِي طَالِبٍ
٨٦	[١٦٨ – ١٦٧]	«لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ فِي الكُفْرِ؛ لَنَقَضْتُ...»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَة
٨٧	[١٦٨ – ١٦٧]	«إِنَّ اللهَ أَعَزَّكُمْ بِالإِسْلَامِ؛ فَمَهْمَا طَلَبْتُمْ ...»	عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ
٨٨	[١٧٠ – ٨٢]	«نَهَى أَنْ يَبِيْتَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ»	عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ
٨٩	[١٧٠ – ٨٢]	«نَهَى عَنِ التَّبَتُّلِ»	سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ
٩٠	[١٧٠ – ٨٢]	«نَهَى عَنِ الرَّهْبَانِيَّةِ»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَة
٩١	[١٧١ – ٢٤]	«نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»	عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ
٩٢	[١٧٢ – ٣٠٤]	«زَاوَلْتُ العِبَادَةَ وَالتِّجَارَةَ؛ فَلَمْ يَجْتَمِعَا...»	أَبُو الدَّرْدَاءِ
٩٣	[١٧٢ – ٣٠٤]	«الأَسْوَاقُ تُلْهِي وَتُلْغِي»	أَبُو الدَّرْدَاءِ
٩٤	[١٧٣ – ١١٥]	«إِنَّ العَبْدَ لَيَخْلُوْ بِمَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى...»	أَبُو الدَّرْدَاءِ

م	رَقَم الخَاطِرَة	طَرَف الْحَدِيث أَوِ الأَثَر	الرَّاوِي أَو الْقَائِل
٩٥	[١٧٦ – ٢٤٨]	«فَإِنَّ اللهَ ﷻ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً؛ أَحَبَّ...»	مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ
٩٦	[١٧٨ – ٣١٤]	«شَغَلَتْنِي أَعْلَامُهُ»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ
٩٧	[١٧٩ – ٣٦٨]	«إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ...»	جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ
٩٨	[١٨٢ – ١٩]	«لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ شَاةٍ مَيِّتَةٍ عَلَى أَهْلِهَا»	جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ
٩٩	[١٨٢ – ١٩]	«خِيَارُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً»	عَبْدُ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ
١٠٠	[١٨٢ – ١٩]	«نَوْرِزُونَا كُلَّ يَوْمٍ»	عَلِيّ بْن أَبِي طَالِبٍ
١٠١	[١٨٢ – ١٩]	«إِنَّ الْحَقَّ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ، اعْرِفِ الْحَقَّ...»	عَلِيّ بْن أَبِي طَالِبٍ
١٠٢	[١٨٢ – ١٩]	«لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ أَنْ تُسَافِرَ يَوْمًا وَلَيْلَةً إِلَّا بِمَحْرَمٍ»	أَبُو هُرَيْرَةَ
١٠٣	[١٨٢ – ١٩]	«إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ»	عَبْدُ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ
١٠٤	[١٨٢ – ١٩]	«مَا أَبْقَى خَفْقُ النِّعَالِ وَرَاءَ الْحَمْقَى مِنْ عُقُولِهِمْ»	عَلِيّ بْن أَبِي طَالِبٍ
١٠٥	[١٨٢ – ١٩]	«فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى إِبْلِيسَ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ»	عَبْدُ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ
١٠٦	[١٨٣ – ١٠١]	«لَأَنْ أَمُوتَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ جَبَلٍ، أَطْلُبُ كَفَافَ..»	عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ
١٠٧	[١٨٣ – ١٠١]	«وَالْيَدُ الْعُلْيَا ...»	عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ
١٠٨	[١٨٤ – ٣٤]	«أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ»	كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ
١٠٩	[١٨٤ – ٣٤]	«إِنَّ النَّفْسَ إِذَا أَحْرَزَتْ قُوتَهَا، اطْمَأَنَّتْ»	سَلْمَانُ الْفَارِسِيّ
١١٠	[١٨٥ – ٣٦]	«إِنَّهَا أَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ»	عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ
١١١	[١٨٥ – ٣٦]	«كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ
١١٢	[١٨٦ – ٢٩٣]	«اجْعَلُوا هَذِهِ فِي الْبُيُوتِ»	عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ
١١٣	[١٩٠ – ١٤٣]	«وَمَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»	النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ

م	رَقَم الخَاطِرَة	طَرَف الْحَدِيْث أَوِ الأَثَر	الرَّاوِي أَو الْقَائِل
١١٤	[١٩١ – ٧١]	«فُرِضَ عَلَى النَّصَارَى صَوْمُ شَهْرٍ، فَزَادُوا...»	دَغْفَل بْنِ حَنْظَلَةَ
١١٥	[١٩١ – ٧١]	«تَرَكْتُكُمْ عَلَى بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ»	جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ
١١٦	[١٩١ – ٧١]	«يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»	أَبُو هُرَيْرَةَ
١١٧	[١٩١ – ٧١]	«وَيَبْسِطُ يَدَهُ لِمُسِيءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»	أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيِّ
١١٨	[١٩١ – ٧١]	«خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»	أَبُو هُرَيْرَةَ
١١٩	[١٩١ – ٧١]	«وَإِنَّ آخِرَ وَطْأَةٍ وَطِئَهَا اللهُ بِوَجٍّ»	خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ
١٢٠	[١٩١ – ٧١]	«اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ»	أَبُو هُرَيْرَةَ
١٢١	[١٩١ – ٧١]	«إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»	أُمّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ
١٢٢	[١٩١ – ٧١]	«الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، تَتَعَلَّقُ...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
١٢٣	[١٩١ – ٧١]	«خَلَقَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ مِنْ نُورِ الذِّرَاعَيْنِ وَالصَّدْرِ»	عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو
١٢٤	[١٩٢ – ٢٠٢]	«أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»	عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ
١٢٥	[١٩٢ – ٢٠٢]	«لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ...»	الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ
١٢٦	[١٩٢ – ٢٠٢]	«إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الشَّيْخَ الزَّانِيَ»	أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ
١٢٧	[١٩٣ – ٢٦٠]	«صَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ»	عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ
١٢٨	[١٩٨ – ٢٩١]	«أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُونَ:...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
١٢٩	[٢٠١ – ١٨]	«وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا...»	شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ
١٣٠	[٢٠١ – ١٨]	«مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ...»	أَبُو أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ
١٣١	[٢٠٣ – ٣٥٥]	«مَا مِنْ شَيْءٍ أَسْرَعَ لَحَاقًا بِشَيْءٍ مِنْ حَسَنَةٍ...»	عَبْدُ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ
١٣٢	[٢٠٣ – ٣٥٥]	«أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟...»	أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ

م	رَقَم الخَاطِرَة	طَرَف الحَدِيث أَوِ الأَثَر	الرَّاوِي أَو القَائِل
١٣٣	[٢١٤ - ١]	«نَافَقَ حَنْظَلَةُ...»	حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيّ
١٣٤	[٢١٥ - ٣٣]	«لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا؛ لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِقَوْمٍ...»	أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيّ
١٣٥	[٢١٦ - ٣٦١]	«مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ...»	مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ و ابْنِ عُمَرَ
١٣٦	[٢٢١ - ٣٣٦]	«...فَلِمَ ذَكَرْتَ غَيْرِي؟ فَلَأُطِيلَنَّ حَبْسَكَ»	أَنَس بْنُ مَالِك
١٣٧	[٢٢٢ - ٣٥٧]	«فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، وَلَنْ يَزَالَ مَعَكَ...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
١٣٨	[٢٢٩ - ٢٥٣]	«عَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّينِ»	أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ
١٣٩	[٢٣٦ - ٢٩٠]	«مَا مِنْكُمْ مَنْ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ»	أَبُو هُرَيْرَةَ
١٤٠	[٢٣٦ - ٢٩٠]	«وَهَلْ أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟!»	أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق
١٤١	[٢٣٦ - ٢٩٠]	«لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الْأَرْضِ، لَافْتَدَيْتُ بِهَا ...»	عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ
١٤٢	[٢٣٦ - ٢٩٠]	«لَيْتَنِي إِذَا مِتُّ لَا أُبْعَثُ»	عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ
١٤٣	[٢٣٦ - ٢٩٠]	«لَيْتَنِي كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا»	أُمّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ
١٤٤	[٢٣٦ - ٢٩٠]	«ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي»	جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ
١٤٥	[٢٤٥ - ٢٢٨]	«لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ وَلَا سُجُودٌ»	عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ
١٤٦	[٢٦٦ - ٢٠٧]	«وَاللهِ؛ لَا يَنَالُ أَحَدٌ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا؛ إِلَّا نَقَصَ...»	عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ
١٤٧	[٢٦٨ - ٣٢٣]	«مَا يَنْفَعُهُ صَلَاتِي عَلَيْهِ»	أَنَس بْنُ مَالِكٍ
١٤٨	[٢٧٠ - ٢٦٩]	«مَنِ اكْتَسَبَ مَالًا مِنْ مَأْثَمٍ، فَوَصَلَ رَحِمًا...»	الْقَاسِمَ بْنَ مُخَيْمِرَةَ
١٤٩	[٢٧٨ - ٩٩]	«الْإِثْمُ حَوَازُّ الْقُلُوبِ»	عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ
١٥٠	[٢٧٨ - ٩٩]	«اسْتَفْتِ قَلْبَكَ»	وَابِصَةَ الْأَسَدِيّ
١٥١	[٢٧٨ - ٩٩]	«مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ؛ عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ»	رَجُلٍ مِنَ الْبَادِيَةِ وَ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ

م	رَقَم الخَاطِرَة	طَرَف الحَدِيث أَوِ الأثَر	الرَّاوِي أَو القَائِل
١٥٢	[٢٨٢ - ٨٩]	«لَئِنْ أَشْهَدَنِي اللهُ مَشْهَدًا، لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ»	أَنس بْنُ مَالِكٍ
١٥٣	[٢٩٠ - ٢٩٢]	«لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ:...»	عَلِيّ بن أَبِي طَالِبٍ
١٥٤	[٢٩٠ - ٢٩٢]	«اللَّهُمَّ! أَدِرْ مَعَهُ الْحَقَّ كَيْفَمَا دَارَ»	عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
١٥٥	[٢٩٢ - ٤٨]	«لَا يَقْضِي الْقَاضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ»	أَبُو بَكْرَةَ
١٥٦	[٢٩٣-٣٤٣]	«أَجِدُنِي أَعَافُهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِأَرْضِ قَوْمِي»	خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ
١٥٧	[٢٩٣-٣٤٣]	«مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا؟!»	كَهْمَس الْهِلَالِيّ
١٥٨	[٢٩٥-١٦٢]	«صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا»	عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو
١٥٩	[٢٩٩ - ٣٣٤]	«ثُلُثٌ طَعَامٌ، وَثُلُثٌ شَرَابٌ، وَثُلُثٌ نَفَسٌ»	الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ
١٦٠	[٢٩٩ - ٣٣٤]	«أَصِبْ مِنْ هَذَا الطَّعَامِ؛ فَهُوَ أَوْفَقُ لَكَ مِنْ هَذَا»	عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
١٦١	[٣٠١-٥٢]	«إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ كَمَا أُحِبُّ أَنْ...»	عَبْدِ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ
١٦٢	[٣٠١-٥٢]	«يَرْفَعُ يَدَيْهِ حَتَّى تَبِينَ عُفْرَةُ إِبْطَيْهِ»	أَنس بْنُ مَالِكٍ
١٦٣	[٣٠١-٥٢]	«مَا شَانَهُ اللهُ بِبَيْضَاءَ»	أَنس بْنُ مَالِكٍ
١٦٤	[٣٠١-٥٢]	«مَا لَكُمْ تَدْخُلُونَ عَلَيَّ قُلْحًا؟! اسْتَاكُوا»	العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ
١٦٥	[٣٠٥ - ٢٨]	«إِذَا وُضِعَ الْعَشَاءُ، وَحَضَرَتِ الْعِشَاءُ؛ فَابْدَؤُوا..»	عَائِشَةَ وَ ابنِ عُمَرَ وَ أَنس
١٦٦	[٣٠٦ - ٣٧٠]	«مَا رَأَيْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا رَآهُ مِنِّي»	أُمّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ
١٦٧	[٣٠٦ - ٣٧٠]	«قَامَ لَيْلَةً عُرْيَانًا؛ فَمَا رَأَيْتُ جِسْمَهُ قَبْلَهَا»	أُمّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ
١٦٨	[٣١٦ - ٦٣]	«إِذَا أَعْجَبَتْ أَحَدَكُمُ امْرَأَةٌ؛ فَيَتَذَكَّرْ مَثَانَتَهَا»	عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ
١٦٩	[٣٢٠-٢٩]	«لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا..»	عَبْدِ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ
١٧٠	[٣٢٠-٢٩]	«يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: النَّظْرَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ...»	أَبُو أُمَامَةَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَحُذَيْفَةَ وَابْنِ عُمَ

م	رَقَم الخَاطِرَة	طَرَف الحَدِيث أَوِ الأَثَر	الرَّاوِي أَو القَائِل
١٧١	[٣٢٠-٢٩]	«الصُّبْحَةُ تَمْنَعُ الرِّزْقَ»	عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ
١٧٢	[٣٢٠-٢٩]	«إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»	ثَوْبَانُ النَّبَوِيُّ
١٧٣	[٣٢٠-٢٩]	«إِذَا أَمْلَقْتُمْ؛ فَتَاجِرُوا اللهَ بِالصَّدَقَةِ»	عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِبٍ
١٧٤	[٣٣٣-٢٢٤]	«جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا...»	أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيّ
١٧٥	[٣٣٣-٢٢٤]	«هَؤُلَاءِ الْجَهَنَّمِيُّونَ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ»	أَبُو هُرَيْرَةَ وَ أَنَس بْن مَالِكٍ
١٧٦	[٣٣٣-٢٢٤]	«يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ.»	أَبُو هُرَيْرَةَ
١٧٧	[٣٣٤ - ٣٦٠]	«يُحْشَرُونَ رُكْبَانًا، وَمُشَاةً، وَعَلَى وُجُوهِهِمْ»	أَبُو هُرَيْرَةَ
١٧٨	[٣٣٤ - ٣٦٠]	«أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ..»	قَبِيصَةَ بْنَ بُرْمَةَ الأَسَدِيَّ
١٧٩	[٣٣٤ - ٣٦٠]	«أَعْدَدْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ»	أَنَسٍ وَ جَابِرٍ
١٨٠	[٣٣٨ - ١٩١]	«بُنِيَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى ثَلَاثٍ: النِّسَاءُ... »	عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
١٨١	[٣٤١ - ٣١]	«رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهْدَى إِلَيْنَا عُيُوبَنَا»	عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
١٨٢	[٣٥٢ - ٢٤٤]	«يَشِيبُ ابْنُ آدَمَ، وَتَشِبُّ مِنْهُ خَصْلَتَانِ...»	أَنَس بْن مَالِكٍ
١٨٣	[٣٥٦ - ٢١٤]	«مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَيُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ»	عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ
١٨٤	[٣٧١ - ٣١٠]	«غَدًا مَصْرَعُ فُلَانٍ هَا هُنَا»	أَنَس بْن مَالِكٍ
١٨٥	[٣٧١ - ٣١٠]	«إِذَا هَلَكَ كِسْرَى؛ فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ...»	أَبُو هُرَيْرَةَ
١٨٦	[٣٧٣-٣١٥]	«الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ»	النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ
١٨٧	[٣٧٤-١٦٨]	«لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»	جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ

(فهرس الأقوال المأثورة)

م	رقم الخاطرة	طرف القول المأثور	القائل
١	[٢٠-٢٣٣]	«يَا سُفْيَانُ عُدَّ مَنْعَ اللهِ إِيَّاكَ عَطَاءً...»	شَيْبَانَ الرَّاعِي
٢	[٢١-٢٣٦]	«وَاللهِ، لَقَد بَكَيْتُ البَارِحَةَ مِنْ يَدِ نَفْسِي»	عَلِيُّ بنُ الحُسَيْنِ الغَزْنَوِيُّ
٣	[٢٢-٣١٩]	«وَاشَوْقَاهُ إِلَى مَنْ يَرَانِي...»	أَبُو عُبَيْدَةَ الخَوَّاصُ
٤	[٢٢-٣١٩]	«قَدْ طَالَ شَوْقِي إِلَيْكَ...»	فَتْحُ بنُ شَخْرَف
٥	[٢٢-٣١٩]	«إِنَّ التَّبَذُّلَ فِيهِ سُبْحَانَهُ أَحْسَنُ...»	أَبُو الوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ
٦	[٥٩-٨٧]	«كَانُوا يَتَسَاوَوْنَ فِي وَقْتِ النِّعَمِ...»	الحَسَنُ البَصرِيُّ
٧	[٨٧-٨٥]	«وَمَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ اطَّلَعَ...»	الحَسَنُ البَصرِيُّ
٨	[٨٩-٢٢٩]	«مَا هَذَا الَّذِي لَا نَعْرِفُهُ مِنْكَ؟!...»	بُرْخٌ العَابِدُ
٩	[٩٨-٢٠]	«أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ...»	أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل
١٠	[١٠٣-١٢]	«مَنْ صَفَّى؛ صُفِيَ لَهُ، وَمَنْ كَدَّرَ؛ كُدِّرَ عَلَيْهِ»	أَبُو سُلَيْمَانُ الدَّارَانِي
١١	[١٠٣-١٢]	«إِنِّي لَأَعْصِي اللهَ، فَأَعْرِفُ ذَلِكَ فِي خُلُقِ»	الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ
١٢	[١٠٣-١٢]	«مِنَ الاغْتِرَارِ أَنْ تُسِيءَ، فَيُحْسِنَ إِلَيْكَ»	أَبُو عَلِيٍّ أَحْمَدُ الرُّوذبَارِيُّ
١٣	[١٠٦-٥٩]	«هَكَذَا تَنقَطِعُ الدُّنْيَا»	بِشْرُ بنُ الحَارِثِ الحَافِي
١٤	[١٠٦-٥٩]	«مَا زِلْتُ أَسُوق نَفْسِي إِلَى اللهِ تَعَالَى...»	أَبُو يَزِيْدَ البِسْطَامِيُّ
١٥	[١١٠-٣٤٥]	«يَا بُنَيَّ! قَدْ عُزِمَ لِي أَلَّا أَقْبَلَهُ»	أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل
١٦	[١٢٠-٥٨]	«لَوْ تَرَكَتْنِي الصُّوفِيَّةُ؛ جِئْتُكُمْ بِإِسْنَادِ الدُّنْيَا»	أَبُو مُحَمَّدٍ جَعْفَرُ الخُلْدِيّ
١٧	[١٢١-٢٣٠]	«يَا رَبِّ! أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ، وَمِثْلِي...»	أَبُو الصَّهْبَاءِ صِلَةُ بنُ أَشْيَمَ

م	رقم الخاطرة	طرف القول المأثور	القائل
١٨	[١٢١-٢٣٠]	«أَتَرْجُوْ لِمِثْلِي أَنْ يَنْجُوَ مِنَ النَّارِ»	سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ
١٩	[١٢١-٢٣٠]	«لَا؛ بَعْدُ»	أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل
٢٠	[١٢٤-٢٥]	«وَهَلْ يُرَادُ بِالعِلْمِ إِلَّا مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مَعْرُوْفٌ؟!»	أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل
٢١	[١٢٤-٢٥]	«وَدِدْتُ أَنَّ يَدِيْ قُطِعَتْ وَلَمْ أَكْتُبِ الْحَدِيْثَ»	سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ
٢٢	[١٢٤-٢٥]	«يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعُوْنَ ذَنْبًا قَبْلَ أَنْ...»	الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ
٢٣	[١٢٩-٣٦٢]	«وَقَعْنَا فِي بُنَيَّاتِ الطَّرِيْقِ»	أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل
٢٤	[١٢٩-٣٦٢]	«كَانَ مِنَ السَّلَفِ مَنْ يَزِنُ قُوْتَهُ بِكَرَبَةٍ»	أَبُوْ طَالِبٍ الْمَكِّيُّ
٢٥	[١٢٩-٣٦٢]	«إِذَا كُنْتَ تَشْرَبُ الْمَاءَ البَارِدَ»	دَاوُدُ الطَّائِيُّ
٢٦	[١٣٦ - ١٧٦]	«وَاللُّغَةُ هِيَ أَصْوَاتٌ يُعَبِّرُ بِهَا كُلُّ قَوْمٍ...»	عُثْمَانُ بْنُ جِنِّيٍّ
٢٧	[١٤٠ - ١٧٥]	«صَحَّ مِنَ الْحَدِيْثِ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ...»	أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل
٢٨	[١٤٠ - ١٧٥]	«أَحْفَظُ لِأَهْلِ الْبَيْتِ ثَلَاثَ مِئَةِ أَلْفِ حَدِيْثٍ»	أَبُو العَبَّاسِ ابْنُ عُقْدَةَ
٢٩	[١٤٠ - ١٧٥]	«جَمَعْتُ كِتَابَ «السُّنَنِ» مِنْ سِتِّ مِئَةِ أَلْفٍ...»	أَبُو دَاوُدَ
٣٠	[١٥٠ - ١٦٥]	«مَنْ بَلَغَ سِنَّ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ فَلْيَتَّخِذْ...»	سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ
٣١	[١٥٢ - ٦٩]	«إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْلَمُ جُمَلَ الأَشْيَاءِ ...»	أَبِي المَعَالِي الجُوَيْنِيِّ
٣٢	[١٥٢ - ٦٩]	«النُّزُوْلُ التَّنَقُّلُ، وَالاسْتِوَاءُ مُمَاسَّةٌ»	أَبُو حَامِدٍ مُحَمَّد الْغَزَالِيّ
٣٣	[١٥٧-١٤٩]	«لَوْلَاكَ لَتَمَنْدَلُوا بِي»	سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ
٣٤	[١٦١ - ٣٦٩]	«أَعْرِفُ مَنْ يَعُدُّ كَلَامَهُ مِنَ الْجُمُعَةِ...»	الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ
٣٥	[١٦١ - ٣٦٩]	«إِنَّ مَلَكَ الشَّمْسِ لَا يَفْتُرُ فِي سَوْقِهَا»	مَعْرُوْفٌ الكَرْخِيُّ
٣٦	[١٦١ - ٣٦٩]	«بَيْنَ سَفِّ الْفَتِيْتِ وَأَكْلِ الْخُبْزِ قِرَاءَةُ...»	دَاوُدُ الطَّائِي

م	رقم الخاطرة	طرف القول المأثور	القائل
٣٧	[١٦١ – ٣٦٩]	«إِنِّي وَقْتَ الإِفْطَارِ أُحِسُّ بِرُوْحِي كَأَنَّهَا...»	عُثْمَانُ البَاقِلَّاوِيُّ
٣٨	[١٦٤ – ٣٥٤]	«وَاللهِ؛ مَا أَرْجُو الخَيْرَ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ»	الحَجَّاجُ بنُ يُوْسُفَ الثَّقَفِيُّ
٣٩	[١٦٤ – ٣٥٤]	«وُجِدَ فِي سِجْنِ الْحَجَّاجِ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُوْنَ...»	قَحْذَم بن النَّضر بن مَعْبَد
٤٠	[١٦٥–٥٧]	«رَوِّحُوا القُلُوْبَ تَعِي الذِّكْرَ»	أَبُو الْمِنْهَالِ قَسَامَةَ بْنِ زُهَيْرٍ
٤١	[١٦٦ – ٤٠]	«إِنَّ أَبَاكِ يَخَافُ عَذَابَ البَيَاتِ؟!»	الرَّبِيْعِ بْنِ خُثَيْمٍ
٤٢	[١٦٦ – ٤٠]	«وَا لَهَفَاهُ! سَبَقَنِي العَابِدُوْنَ، وَقُطِعَ بِي؟!»	يَزِيْدُ الرَّقَاشِيُّ
٤٣	[١٦٨ – ١٦٧]	«كُنَّا نَمْزَحُ وَنَضْحَكُ؛ فَإِذَا صِرْنَا...»	الأَوْزَاعِيُّ
٤٤	[١٦٨ – ١٦٧]	«تَعَلَّمُوْا هَذَا العِلْمَ، وَاكْظِمُوْا عَلَيْهِ...»	سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ
٤٥	[١٦٨ – ١٦٧]	«رَأَيْتُ النَّاسَ يَكْرَهُوْنَهُمَا فَتَرَكْتُهُمَا»	أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ
٤٦	[١٦٨ – ١٦٧]	«أَنَا أَذْهَبُ فَأُجَالِسُ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِيْنَ»	عَبدُ الله بْنِ الْمُبَارَكِ
٤٧	[١٧٩ – ٣٦٨]	«هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ...»	الشَّافِعِيُّ مُحَمَّدُ بنُ إِدْرِيْسَ
٤٨	[١٨٢ – ١٩]	«نَفِّرُوا النَّاسَ عَنْهُ»	سَرِيّ السَّقَطِيّ
٤٩	[١٨٢ – ١٩]	«تَرَاعَنَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، فَحَلَفْتُ لَا أَشْرَبُ...»	أَبُو يَزِيْد البِسْطَامِيّ
٥٠	[١٨٢ – ١٩]	«لَا رَغِيفَيْ مَالِكٍ، وَلَا صَحْنَيْ فَرْقَدٍ»	الحَسَن البَصرِيّ
٥١	[١٨٢ – ١٩]	«يَا فَرْقَدُ! إِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ أَصْحَابُ الأَكْسِيَةِ»	الحَسَن البَصرِيّ
٥٢	[١٨٢ – ١٩]	«لَا يَصِحُّ أَنَّ أَحَدًا مَشَى عَلَى الْمَاءِ قَطُّ»	إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ
٥٣	[١٨٢ – ١٩]	«أَكْرَهُ التَّقَلُّلَ مِنَ الطَّعَامِ، فَإِنَّ أَقْوَامًا...»	أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ
٥٤	[١٨٢ – ١٩]	«حَمَلَنِي شَهْوَةُ الْحَدِيثِ»	سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ
٥٥	[١٨٢ – ١٩]	«أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ الْهَمُّ هَمًّا وَاحِدًا»	يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ

م	رقم الخاطرة	طرف القول المأثور	القائل
٥٦	[١٨٣ – ١٠١]	«مَنْ قَالَ: إِنِّي لَا أُحِبُّ الدُّنْيَا، فَهُوَ كَذَّابٌ»	أَبُو الوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ
٥٧	[١٨٣ – ١٠١]	«وَهَلْ كَانَتْ فِتْنَةُ دَاوُدَ إِلَّا مِنَ النَّظَرِ»	سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ
٥٦	[١٨٤ – ٣٤]	«إِذَا حَصَّلْتَ قُوتَ شَهْرٍ، فَتَعَبَّدْ»	سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ
٥٧	[١٨٥ – ٣٦]	«إِنَّ الدَّابَّةَ إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا، عَمِلَتْ»	سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ
٥٨	[١٨٥ – ٣٦]	«إِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ»	إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ
٥٩	[١٨٦ – ٢٩٣]	«وَقُوْلَا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ صَادِقًا: لَا يَتَعَنَّى»	مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ
٦٠	[١٨٨ – ٢٠٣]	«مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ غَيْرِهِ، فَقَدْ تَكَبَّرَهُ»	أَبُو حَازِمٍ سَلَمَةَ بن دِينَارٍ
٦١	[١٨٨ – ٢٠٣]	«لَأَنْ أَلْقَى اللهَ بِكُلِّ ذَنْبٍ غَيْرَ الشِّرْكِ ...»	عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ
٦٢	[١٩١ – ٧١]	«مِنْ ضِيقِ عِلْمِ الرَّجُلِ أَنْ يُقَلِّدَ فِي دِينِهِ الرِّجَالَ»	أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ
٦٣	[١٩٥ – ٨٤]	«تَسَامَحْتُ بِلُقْمَةٍ، فَتَنَاوَلْتُهَا؛ فَأَنَا الْيَوْمَ ...»	أَبُو طَالِبِ الصُّوفِيّ
٦٤	[١٩٧ – ٣٤٤]	«إِذَا كَانَ اللِّصُّ ظَرِيفًا؛ لَمْ يُقْطَعْ»	الحَسَنِ البَصرِيّ
٦٥	[١٩٨ – ٢٩١]	«وَاسَوْأَتَاهُ مِنْكَ، وَإِنْ عَفَوْتَ»	الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ
٦٦	[٢٠١ – ١٨]	«عَيَّرْتُ رَجُلًا فَقُلْتُ: يَا مُفْلِسُ! فَأَفْلَسْتُ...»	مُحَمَّد بْنُ سِيرِين
٦٧	[٢٠١ – ١٨]	«رَآنِي شَيْخٌ لِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى أَمْرَدَ!...»	أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ الْجَلَّاءِ
٦٨	[٢٠٣ – ٣٥٥]	«أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَلَمْ أَصْطَنِعْكَ...»	وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ
٦٩	[٢٠٧ – ١٨٣]	«لَا تَعْصِ اللهَ بِطَاعَتِي؛ فَيُسَلِّطَنِي عَلَيْكَ»	المَأْمُونُ
٧٠	[٢١٦ – ٣٦١]	«مَا أَوْقَحَكَ! تُصَلِّي وَالنَّاسُ يَرَوْنَكَ؟!»	سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ
٧١	[٢١٧ – ٦٠]	«هَذِهِ نِيَاحَةٌ بِالْقُرْآنِ»	أَبُو الوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ
٧٢	[٢١٩ – ٣٢٤]	«لَيْسَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ خُلِقَ مَعَهُ...»	الْحَسَنُ الْبَصرِيُّ

م	رقم الخاطرة	طرف القول المأثور	القائل
٧٣	[٢٢٠ - ١١]	«أَبُوكَ مِنَ السِّتَّةِ الَّذِينَ أَدْعُو لَهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ...»	أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ
٧٤	[٢٢٠ - ١١]	«أَكْرَهُ أَنْ يُوطَأَ عَقِبِي، وَيُقَالُ: عَلْقَمَةُ»	أَبُو شِبْلٍ
٧٥	[٢٢٢ - ٣٥٧]	«رَكَدَتْ هَذِهِ الْحَرْبُ أَرْبَعِينَ عَامًا»	الجَاحِظُ
٧٦	[٢٣٥ - ٢٨٤]	«خَمِيرُ الرَّأْيِ خَيْرٌ مِنْ فَطِيرِهِ»	عَبْد الله بْن وَهْب الرَّاسِبِيُّ
٧٧	[٢٤٥ - ٢٢٨]	«لَا أُومِنُ بِرَسُولٍ لَيْسَ مِنْ ثَقِيفٍ»	أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ
٧٨	[٢٤٥ - ٢٢٨]	«وَاللهِ، مَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ، وَلَكِنْ... »	أَبُو جَهْلٍ عَمْرو بنِ هِشَامٍ
٧٩	[٢٤٥ - ٢٢٨]	«إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ عَلَى الْحَقِّ»	الحَارِثُ بنُ عُثْمَانَ بْنِ نَوْفَلٍ
٨٠	[٢٤٥ - ٢٢٨]	«وَلَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي نِسَاءُ قُرَيْشٍ، لَأَقْرَرْتُ...»	أَبُو طَالِبٍ
٨١	[٢٦٠-٢٨٨]	«بِئْسَ الْأَخُ أَخٌ تَحْتَاجُ أَنْ تَقُولَ لَهُ:... »	يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ
٨٢	[٢٦٠-٢٨٨]	«إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُصَادِقَ صَدِيقًا، فَأَغْضِبْهُ...»	الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ
٨٣	[٢٦٥ - ٢٤٣]	«مَنْ أَطَاعَ عُضْوًا صَغِيرًا أَفْسَدَ عَلَيْهِ ...»	صَاحِب أَبْرُوِيزَ
٨٤	[٢٦٥ - ٢٤٣]	«غَرَرْتَنَا بِصَلَاتِكَ»	عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
٨٥	[٢٦٦ - ٢٠٧]	«لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ...»	إِبْرَاهِيم بْنُ أَدْهَمَ
٨٦	[٢٦٦ - ٢٠٧]	«مُنْذُ أَخَذْتُ مِنْ مَالِ فُلَانٍ الْأَمِيرِ؛ مُنِعْتُ...»	سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ
٨٧	[٢٦٨ - ٣٢٣]	«كَفَى بِالْمَرْءِ خِيَانَةً أَنْ يَكُونَ أَمِينًا لِلْخَوَنَةِ»	مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ
٨٨	[٢٦٨ - ٣٢٣]	«إِنَّمَا أَعْوَانُ الظَّلَمَةِ مَنْ أَعَانَكَ فِي أَمْرٍ»	أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ
٨٩	[٢٦٩ - ٢٩٥]	«أَخَافُ أَنْ يَقُولَ اللهُ لِي: هَذَا الدَّقِيقُ مِنْ ...»	بِشْرٌ الْحَافِيُّ
٩٠	[٢٨٨ - ١٦٠]	«فَكَيْفَمَا شِئْتَ، فَاخْتَبِرْنِي!!»	سَمْنُونَ الْمُحِبّ
٩١	[٢٩١ - ٩٨]	«فَمَا أَوْقَعَهُ مِنْ تَخْجِيلٍ عَلَى إِهْمَالِنَا...»	أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ

م	رقم الخاطرة	طرف القول المأثور	القائل
٩٢	[٢٩٣-٣٤٣]	«عَوِّدُوا كُلَّ بَدَنٍ مَا اعْتَادَ!»	الحَارِثِ بنِ كَلَدَةَ
٩٣	[٢٩٣-٣٤٣]	«مَا أَرَى لِبَدَنٍ يُرَادُ بِهِ الْعَمَلُ للهِ إِذَا أَكَلَ...»	أُمُّ عَمْرٍو رَابِعَةُ العَدَوِيَّةُ
٩٤	[٢٩٥-١٦٢]	«صَلَاةُ النَّهَارِ عَجْمَاءُ»	الْحَسَنِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ ومُجَاهِدٍ
٩٥	[٣٠١-٥٢]	«مَنْ نَظَّفَ ثَوْبَهُ؛ قَلَّ هَمُّهُ، وَمَنْ طَابَ رِيحُهُ...»	مَكْحُولٌ والشَّافِعِيّ
٩٦	[٣٠١-٥٢]	«إِنِّي عَنْهَا مَشْغُولٌ»	دَاوُدَ الطَّائِيّ
٩٧	[٣٠٥ - ٢٨]	«مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ: كُلُّ تَزْوِيجٍ عَلَى...»	عَطَاءُ بنُ أَبِي مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيُّ
٩٨	[٣٠٨-٢٩٨]	«عُقُوبَةٌ مِنَ اللهِ لَكُمْ؛ فَلَا تُقَابِلُوا عُقُوبَتَهُ...»	الْحَسَنِ الْبَصرِيّ
٩٩	[٣٠٨-٢٩٨]	«اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي الذَّنْبَ الَّذِي سَلَّطْتَ...»	وَكِيع بْن الجَرَّاح
١٠٠	[٣٢٠-٢٩]	«الْمَعْصِيَةُ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ عِقَابُ الْمَعْصِيَةِ...»	أَبُو الْحَسَنِ عَلِيّ الْمُزَيِّنُ
١٠١	[٣٢٠-٢٩]	«كَمْ أُعَاقِبُكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي! أَلَيْسَ قَدْ...»	عَبْدُ اللهِ بْنُ خُبَيْقٍ
١٠٢	[٣٢٠-٢٩]	«وَلَا مَنْ هَمَّ»	وُهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ
١٠٣	[٣٢٠-٢٩]	«إِنَّمَا انْقَطَعَ؛ لِأَنِّي مَا اغْتَسَلْتُ غُسْلَ الْجُمُعَةِ»	أَبُو عُثْمَانَ وَمُحَمَّد الْوَاسِطِيّ
١٠٤	[٣٢٩-٣٣٥]	«إِنَّمَا هُوَ طَعَامٌ دُونَ طَعَامٍ، وَلِبَاسٌ دُونَ...»	أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ
١٠٥	[٣٢٩-٣٣٥]	«لَوْ كُنَّا قَبِلْنَاهَا؛ كَانَتْ قَدْ ذَهَبَتْ»	أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ
١٠٦	[٣٢٩-٣٣٥]	«هَذَا أَمْرٌ يَنْقَضِي»	بِشْرٌ الْحَافِي
١٠٧	[٣٣٣-٢٢٤]	«أُبَادِرُ طَيَّ صَحِيفَتِي»	الجُنَيْدُ النَّهَاوَنْدِيُّ
١٠٨	[٣٤١ - ٣١]	«قَالَ لِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: إِذَا رَأَيْتَنِي...»	عَمْرُو بْنُ الْمُهَاجِرِ
١٠٩	[٣٤١ - ٣١]	«أَنَا عَمِلْتُ فِي قَارِبٍ ثُمَّ كُسِرَ»	أَبُو الوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ
١١٠	[٣٤٥- ١٤]	«أَمْسِكِ الشَّمْسَ!»	عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ

م	رقم الخاطرة	طرف القول المأثور	القائل
١١١	[٣٤٥– ١٤]	«يَا بُنَيَّ! دَعْنِي؛ فَإِنِّي فِي وِرْدِي السَّادِسِ»	مُحَمَّد بنُ ثَابت الْبُنَانِيّ
١١٢	[٣٥٩ – ٩٧]	«إِذَا مُتُّ الْيَوْمَ؛ فَفُلَانٌ يُغَسِّلُنِي، وَفُلَانٌ...»	أَبُو مُحَمَّدٍ العَجَمِيُّ
١١٣	[٣٥٩ – ٩٧]	«وَكَأَنَّكَ تُؤَمِّلُ أَنْ تَعِيشَ إِلَى الْعَصْرِ؟!»	مَعْرُوفٌ الكَرْخِيُّ
١١٤	[٣٥٩ – ٩٧]	«اذْكُرِ الْقُطْنَ إِذَا وَضَعُوْهُ عَلَى عَيْنَيْكَ»	مَعْرُوفٌ الكَرْخِيُّ

(فهرس الأشعار والقوافي)

م	رقم الخاطرة	صدر البيت	كلمة القافية	البحر	عدد الأبيات
١	[٣ - ٦٢]	النَّاسُ فِي غَفْلَةٍ وَالْمَوْتُ يُوْقِظُهُمْ	قُبِرُوْا	البسيط	(٣)
٢	[٨ - ٣١٣]	مَا جَحَدَ الصَّامِتُ مَنْ أَنْشَأَهُ	الجُحُودُ	الرجز	(١)
٣	[١٦-١٨٦]	احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً	مَرَّةْ	مجزوء الكامل	(٢)
٤	[١٧-٣٠٠]	وَلَمَّا تَعَامَى الدَّهْرُ، وَهُوَ أَبُوْ الرَّدَى	ومَقَاصِدِهْ	الطويل	(٢)
٥	[٢١-٢٣٦]	وَالْمَرْءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا	الخَطَرِ	البسيط	(٢)
٦	[٢١-٢٣٦]	وَلَوْلَا أَنْ يُقَالَ صَبَا نُصَيبٌ لَقُلْتُ	الصِّغَارُ	الوافر	(١)
٧	[٢١-٢٣٦]	إِنَّمَا الحُبُّ قُبْلَةٌ	وَعَضُدْ	مضطرب الوزن	(٢)
٨	[٢٦ -٢٠١]	أَفْدي ظِبَاءَ فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا	الْحَوَاجِيْبِ	البسيط	(١)
٩	[٣٧-١٩٢]	فَلَا ذَنْبَ يَا رَبَّ السَّمَاء عَلَى امْرِئٍ	فَتَزَنْدَقَا	الطويل	(١)
١٠	[٣٩-٤٩]	إِذَا هَبَطَ الحَجَّاجُ أرضًا مريضَةً	فَشَفَاهَا	الطويل	(٢)
١١	[٤٠-١٣٤]	وَمَنْ كَانَ فِي سُخْطِهِ مُحْسِنًا	رَضِي	المتقارب	(١)
١٢	[٤٧-٦١]	[وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ]	العَالَمِيْنَا	الوافر	(١)
١٣	[٥٤-٢١١]	[إِنْ كَانَ سَرَّكُمُ مَا قَالَ حَاسِدُنَا]	الَمُ	البسيط	(١)
١٤	[٦٢-١٦١]	وَكَمْ مَنْ يَعْشَقُ الْدُّنْيَا قَدِيْمًا	الوِصَالِ	الوافر	(١)
١٥	[٦٥-٥٤]	إِنْ كَانَ رِضَاكُمْ فِي سَهَرِي	وَسَنِي	الخفيف	(١)
١٦	[٦٦-٥٥]	عَذَابُهُ فِيْكَ عَذْبُ	قُرْبُ	المجتث	(٣)
١٧	[٦٦-٥٥]	وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الفِعْلُ عِنْدِي	ذَاكَا	الوافر	(١)

م	رقم الخاطرة	صدر البيت	كلمة القافية	البحر	عدد الأبيات
١٨	[٦٩-٣٥٩]	أَيَا رَبِّ تَخْلُقُ أَقْمَارَ لَيْلٍ	رَمْلِ	المتقارب	(٢)
١٩	[٧١-٢٣٤]	[مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الْهَوَانُ عَلَيْهِ]	إِيْــلَامُ	الخفيف	(١)
٢٠	[٨٠-٧٧]	أَمُسْتَوْحِشٌ أَنْتَ مِمَّا جَنَيْتَ	وَاسْتَأْنِسِ	المتقارب	(١)
٢١	[٩٤-٢٩٤]	طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيْدُهَا	وَالأَكْدَارِ	الكامل	(٢)
٢٢	[٩٦-٢١]	أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ	بِالْمَاءِ	البسيط	(١)
٢٣	[٩٦-٢١]	وَاحَسْرَتِي كَمْ أُدَارِيْ فِيكَ تَعْثِيرِي	سَيْرِ	البسيط	(٢)
٢٤	[١٠٣-٢٣]	[وَزَادَنِي كَلَفًا فِي الحُبِّ أَنْ مُنِعَتْ]	مُنِعَا	البسيط	(١)
٢٥	[١٠٦-٥٩]	فَإِنْ تَشَكَّتْ فَعَلِّلْهَا الْمَجَرَّةَ مِنْ	ضُحَى	البسيط	(١)
٢٦	[١٠٨-١٧١]	فَأَكْذِبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثْتَهَا	بِالأَمَلْ	الرمل	(١)
٢٧	[١٠٨-١٧١]	أَفِدْ طَبْعَكَ الْمَكْدُوْدَ بِالهَمِّ رَاحَةً	الْمَزْحِ	الطويل	(٢)
٢٨	[١٠٨-١٧١]	وَإِذَا هَمَمْتَ فَنَاجِ نَفْسَكَ بِالْمُنَى	عِدَاتُ	الكامل	(٦)
٢٩	[١٠٨-١٧١]	بِحِفْظِ الْجِسْمِ تَبْقَى النَّفْسُ فِيْهِ	بِالوِعَاءِ	الوافر	(٤)
٣٠	[١٠٩-٢٦٥]	مَاتُوا وَغُيِّبَ فِي التُّرَابِ شُخُوْصُهُم	رَمِيْمُ	الكامل	(١)
٣١	[١١١-٢٢٢]	حَسْبِي مِنَ الْدَّهْرِ مَا كَفَانِي	الْهَوَانِ	مخلع البسيط	(٢)
٣٢	[١١١-٢٢٢]	وَمَنْ يُنْفِقُ الأَيَّامَ فِي حِفْظِ مَالِهِ	الْفَقْرُ	الطويل	(١)
٣٣	[١١٣-٧]	وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوْبِ النَّاسِ عَيْبًا	التَّمَامِ	الوافر	(١)
٣٤	[١١٤-٣٥٣]	وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوْسُ كِبَارًا	الأَجْسَامُ	الخفيف	(١)
٣٥	[١١٤-٣٥٣]	وَلِكُلِّ جِسْمٍ فِي النُّحُوْلِ بَلِيَّةٌ	هِمَّتِي	الكامل	(١)
٣٦	[١١٥-١٧٠]	وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُوْرِ عَيْشِهِ	جِلْدُهُ	الطويل	(٣)

م	رقم الخاطرة	صدر البيت	كلمة القافية	البحر	عدد الأبيات
٣٧	[١٢٠-٥٨]	إِذَا طَالَبُوْنِي بِعِلْمِ الْوَرَقْ	الْخِرَقْ	المتقارب	(١)
٣٨	[١٢٧-٣٦٦]	لَنَا الجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى	دَمَا	البسيط	(١)
٣٩	[١٢٧-٣٦٦]	هَمُّهَا العِطْرُ وَالفِرَاشُ، وَيَعْلُوْ	مَنْظُوْمُ	الخفيف	(١)
٤٠	[١٢٧-٣٦٦]	أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا	تَطَيَّبِ	الطويل	(١)
٤١	[١٢٧-٣٦٦]	أَدْعُوْا إِلَى هَجْرِهَا قَلْبِي فَيَتْبَعُنِي	نَزَعَا	البسيط	(١)
٤٢	[١٢٧-٣٦٦]	يَقُوْلُوْنَ: لَوْ عَاتَبْتَ قَلْبَكَ لَارْعَوَى	قُلُوْبُ	الطويل	(١)
٤٣	[١٤٤-١٩٣]	لَوْلَا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ	قَتَّالُ	البسيط	(١)
٤٤	[١٤٦ - ٣٤٢]	لَا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ	الْصَّبِرَا	البسيط	(١)
٤٥	[١٤٦ - ٣٤٢]	يَا نَفْسُ مَا هُوَ إِلَّا صَبْرُ أَيَّامِ	أَحْلَامِ	البسيط	(٢)
٤٦	[١٤٦ - ٣٤٢]	إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ	جَانِبَا	الطويل	(٢)
٤٧	[١٤٦ - ٣٤٢]	رُبَّ قَوْمٍ فِي خَلَائِقِهِمْ	غُرَرَا	المديد	(٢)
٤٨	[١٥١ - ٣٣٩]	فَاتَنِي أَنْ أَرَى الدِّيَارَ بِطَرْفِي	بِسَمْعِي	الخفيف	(١)
٤٩	[١٦٢-١١٤]	كَدُودَةِ القَزِّ ما تَبْنِيهِ يَهْدِمُهَا	يَنْتَفِعُ	البسيط	(١)
٥٠	[١٦٢-١١٤]	زَوَامِلُ لِلْأَخْبَارِ لَا عِلْمَ عِنْدَهَا	الأَبَاعِرِ	الطويل	(٢)
٥١	[١٦٦ - ٤٠]	وَخُذْ لَكَ مِنْكَ عَلَى مُهْلَةٍ	يُدْبِرِ	المتقارب	(٣)
٥٢	[١٦٩ - ٣٦٢]	مَا فِي الصِّحَابِ أَخُوْ وَجْدٍ نُطَارِحُهُ	نُجَارِيْهِ	البسيط	(١)
٥٣	[١٩١ - ٧١]	جَلَبَتْ مِنِّي هُذَيْلٌ بِخَرْقٍ	يَمَلُّوْا	المديد	(١)
٥٤	[٢٢١ - ٣٣٦]	أَلَا لَا أُحِبُّ السَّيْرَ إِلَّا مُصَاعِدًا	يَمَانِيَا	الطويل	(١)
٥٥	[٢٢٥ - ٢٢٣]	وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُو	أَتَضَعْضَعُ	الكامل	(٢)

م	رقم الخاطرة	صدر البيت	كلمة القافية	البحر	عدد الأبيات
٥٦	[٢٢٩ – ٢٥٣]	لَا تُظْهِرَنَّ مَوَدَّةً لِحَبِيبٍ	عَجِيبِ	الكامل	(٢)
٥٧	[٢٣٠ – ٢٥٤]	احْفَظْ لِسَانَكَ لَا تَبُحْ بِثَلَاثَةٍ	وَمَذْهَبِ	الكامل	(٢)
٥٨	[٢٣٢ – ١١٩]	أَبْلِغَنْ أَهْلَنَا وَلَا تُخْفِ عَنْهُمْ	الْخَفَّاقِ	الخفيف	(٢)
٥٩	[٢٣٢ – ١١٩]	فَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا تُرِكْنَا	حَيِّ	الوافر	(٢)
٦٠	[٢٤٨ – ١٨٩]	قَالَ الشَّبَابُ: لَعَلَّنَا فِي شَيْبِنَا	الْأَشْيَبُ	الكامل	(١)
٦١	[٢٤٨ – ١٨٩]	وَعَشْرُ الثَّمَانِينَ مَنْ خَاضَهَا	فُنُونُ	المتقارب	(١)
٦٢	[٢٤٨ – ١٨٩]	كَأَنَّ الْفَتَى يَرْقَى مِنَ الْعُمْرِ سُلَّمًا	وَيَنْحَطُّ	الطويل	(١)
٦٣	[٢٥٩–١١٢]	يَنَامُ بِإِحْدَى مُقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي	هَاجِعُ	الطويل	(١)
٦٤	[٢٦٩ – ٢٩٥]	وَسَوَاءٌ إِذَا انْقَضَى يَوْمُ كِسْرَى	كِسْرَهْ	الخفيف	(١)
٦٥	[٢٨٣ – ١٣٨]	صَبَرْتُ وَلَا وَاللهِ مَا بِي جَلَادَةٌ	الرَّغْمِ	الطويل	(١)
٦٦	[٢٨٧ – ٥]	فَتَبَصَّرْ وَلَا تَشِمْ كُلَّ بَرْقٍ	حَيْنِ	الخفيف	(٣)
٦٧	[٢٨٩ – ٢٢٠]	مَا أَرَى الْعَيْشَ غَيْرَ أَنْ تَتْبَعَ النَّفْـ	مُصِيبًا	الخَفِيْف	(١)
٦٨	[٢٩١ – ٩٨]	أَبْكِي وَمَا يُدْرِيكِ مَا يُبْكِينِي	تُفَارِقِينِي	الرَّجز	(٢)
٦٩	[٢٩١ – ٩٨]	غَسَلْتُ لَهُ طُولَ اللَّيْلِ	النَّهَارِ–الطِّينِ	المَوَاليَا	(٢)
٧٠	[٢٩١ – ٩٨]	كَمْ كُنْتُ بِاللهِ أَقُولُ لَكْ	غَائِلَهْ	مجزوء الرجز	(١)
٧١	[٢٩١ – ٩٨]	وَلِلْقَبِيحِ خَمِيرُهْ	قَلِيْل	المجتث	(١)
٧٢	[٣١٢ – ٢٨٩]	نُحِبُّ الْقُدُودَ وَنَهْوَى الْخُدُودَ	الْمَنُونَا	المُتَقَارب	(١)
٧٣	[٣١٤ – ٣٣١]	مَا فِي هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِي عِوَضٌ	ثَمَنُ	البسيط	(١)
٧٤	[٣١٥ – ٢٤٥]	أَفِقْ يَا فُؤَادِي مِنْ غَرَامِكَ وَاسْتَمِعْ	شَفِيْقِ	الطويل	(٣)

م	رقم الخاطرة	صدر البيت	كلمة القافية	البحر	عدد الأبيات
٧٥	[٣١٦ - ٦٣]	أُحِبُّ حَبِيبًا لَا أُعَابُ بِحُبِّهِ	عُيُوبُ	الطويل	(١)
٧٦	[٣١٦ - ٦٣]	لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مُنْتَهَى	يَسْبِهِ	السريع	(١)
٧٧	[٣١٧ - ١٦٩]	وَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍّ	الْمَذَاقِ	الوافر	(٤)
٧٨	[٣١٩ - ٣٧٣]	أَتَمُّ الْحُزْنِ عِنْدِي فِي سُرُورٍ	انْتِقَالَا	الوافر	(١)
٧٩	[٣٢٦ - ٤]	كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِأَخْبَارِ مَنْ مَضَى	الدَّهْرُ	الطويل	(٢)
٨٠	[٣٢٦ - ٤]	وَكَيْفَ تَنَامُ الْعَيْنُ وَهْيَ قَرِيرَةٌ	تَنْزِلُ	الطويل	(١)
٨١	[٣٢٩ - ٣٣٥]	لَا تَسْهُ عَنْ أَدَبِ الصَّغِيـ	التَّعَبْ	مجزوء الكامل	(٢)
٨٢	[٣٢٩ - ٣٣٥]	طَاوِلْ بِهَا اللَّيْلَ مَالَ النَّجْمُ أَمْ جَنَحَا	سَمَحَا	البسيط	(٢)
٨٣	[٣٣٧ - ٢٣١]	مَا بَيْنَنَا إِلَّا تَصَرُّ	الْبَوَاقِي	مَجْزُوء الكَامِل	(٢)
٨٤	[٣٤١ - ٣١]	إِنَّ اللَّيَالِيَ وَالْأَيَّامَ حَامِلَةٌ	تَلِدُ	البسيط	(١)
٨٥	[٣٤٤ - ٨٨]	فَإِنْ نَطَقْتُ فَلَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِكُمُ	إِضْمَارِي	الكامل	(١)
٨٦	[٣٤٥ - ١٤]	[مَوْتُ التَّقِيِّ حَيَاةٌ لَا انْقِطَاعَ لَهَا]	أَحْيَاءُ	البَسِيط	(١)
٨٧	[٣٤٧ - ٣٦٣]	وَالْمَرْءُ مِثْلُ هِلَالٍ عِنْدَ طَلْعَتِهِ	يَتَّسِقُ	البَسِيط	(٢)
٨٨	[٣٤٧ - ٣٦٣]	إِذَا الْمَرْءُ كَانَتْ لَهُ فِكْرَه	عِبْرَه	الْمُتَقَارِب	(١)
٨٩	[٣٥٢ - ٢٤٤]	قَدْ كُنْتُ أَرْجُوكَ لِنَيْلِ الْمُنَى	الرِّضَا	السَّرِيع	(١)
٩٠	[٣٥٣ - ١٥٨]	مَا كُنْتُ أَرْجُوهُ إِذْ كُنْتُ ابْنَ عِشْرِينَا	سَبْعِينَا	البَسِيط	(٦)
٩١	[٣٥٣ - ١٥٨]	لَقَدْ أَتْعَبْتُ نَفْسِي فِي مَشِيبِي	الْكِعَابُ	الْوَافِر	(١)
٩٢	[٣٥٥ - ١٣٢]	يُعَمَّرُ وَاحِدٌ فَيَغُرُّ قَوْمًا	الشَّبَابِ	الْوَافِر	(١)
٩٣	[٣٥٥ - ١٣٢]	وَخُذْ لَكَ مِنْكَ عَلَى مُهْلَةٍ	يُدْبِرِ	الْمُتَقَارِب	(٣)

م	رقم الخاطرة	صدر البيت	كلمة القافية	البحر	عدد الأبيات
٩٤	[٣٦٥-٤٥]	بِي مِثْلُ مَا بِكَ يَا حَمَامُ [البَان]	بِالأَغْصَانِ	الْكَامِل	(١)
٩٥	[٣٦٨ - ١٠٨]	فَكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ فِي الثَّرَى	الثُّرَيَّا	الْمُتَقَارِب	(١)
٩٦	[٣٦٨ - ١٠٨]	لَيْسَ لِي مَالٌ سِوَى كُرَى	الْعَدَمِ	المَدِيد	(٢)
٩٧	[٣٦٩ - ١٣٧]	وَلَا انْثَنَى عَزْمِي عَنْ بَابِكُمْ	بِأَذْيَالِي	السَّرِيع	(١)
٩٨	[٣٧٠ - ٢٥٦]	تَفَضَّلْ عَلَى مَنْ شِئْتَ وَاعْنَ بِأَمْرِهِ	أَمِيرُهُ	الطَّوِيل	(٣)
٩٩	[٣٧١ - ٣١٠]	أَضْحَتْ نَبِيَّتُنَا أُنْثَى يُطَافُ بِهَا	ذُكْرَانَا	البَسِيط	(٣)
١٠٠	[٣٧٣-٣١٥]	يَا مُنْتَهَى الْآمَالِ أَنْـ	وَحَفِظْتَنِي	مَجْزُوء الكَامِل	(٧)
١٠١	[٣٧٤ - ١٦٨]	أَهْتَزُّ عِنْدَ تَمَنِّي وَصْلِهَا طَرَبًا	الظَّفَرِ	البَسِيط	(١)
١٠٢	[٣٧٤ - ١٦٨]	جَزَى اللهُ الْمَسِيرَ إِلَيْهِ خَيْرًا	كَالْمَزَادِ	الْوَافِر	(١)
١٠٣	[٣٧٤ - ١٦٨]	لَا تَبْرِ عُودًا أَنْتَ رَيَّشْتَهُ	يَنْقُضَا	السَّرِيع	(٢)

(فهرس التراجم والأعلام)

م	رَقَم الخَاطِرَة	اِسْم المُتَرجَم لَهُ	م	رَقَم الخَاطِرَة	اِسْم المُتَرجَم لَهُ
١	[٢ - ٢٦]	أَبُو الْحَسَن الأَشْعَرِيّ	٢	[٧ - ٨٠]	أَبُو بَكْرٍ الشِّبْلِيُّ
٣	[١٤-١١٨]	سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ	٤	[١٤-١١٨]	أَحْمَدُ بنُ أَبِي الحَوَارِيِّ
٥	[١٤-١١٨]	يُوْسُفُ بنُ أَسْبَاطٍ	٦	[١٧-٣٠٠]	أَبُو مُحَمَّدٍ الحَرِيْرِيُّ
٧	[٢٠-٢٣٣]	شَيبَان الرَّاعِي	٨	[٢١-٢٣٦]	عَلِيُّ بنُ الحُسَيْنِ الغَزْنَوِيُّ
٩	[٢٢-٣١٩]	أَبُوْ عُبَيْدَةَ الخَوَّاصُ	١٠	[٢٢-٣١٩]	فَتْحُ بْنُ شَخْرَف
١١	[٢٢-٣١٩]	قَيْسُ بْنُ الرَّبِيْعِ	١٢	[٢٢-٣١٩]	أَبُو الوَفَاءِ ابْنُ عَقِيْلٍ
١٣	[٢٤ -١٧٩]	أَيُّوْبُ السَّخْتِيَانِيُّ	١٤	[٢٤ -١٧٩]	أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ
١٥	[٢٤ -١٧٩]	بِشْرُ بنُ الحَارِثِ الحَافِي	١٦	[٢٤ -١٧٩]	مَعْرُوْفٌ الكَرْخِيُّ
١٧	[٢٥ -٣٢٢]	مُحَمَّدُ بنُ سِيرِيْنَ	١٨	[٢٦ -٢٠١]	عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
١٩	[٢٦ -٢٠١]	طَلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفٍ	٢٠	[٢٦ -٢٠١]	سُلَيْمَانُ بنُ مِهْرَانَ
٢١	[٣٧-١٩٢]	أَبُو العَلَاءِ الْمَعَرِّيُّ	٢٢	[٣٩-٤٩]	الحَجَّاجُ بنُ يُوْسُفَ
٢٣	[٣٩-٤٩]	لَيْلَى الأَخْيَلِيَّة	٢٤	[٣٩-٤٩]	أَبُو عُمَرَ اِبْنُ عَبْدِ البَرّ
٢٥	[٤٣-٥١]	أَسْعَد بْنَ زُرَارَةَ	٢٦	[٤٤-٤١]	سَعْد بن أَبِي وَقَّاصٍ
٢٧	[٤٧-٦١]	الشَّافِعِيُّ	٢٨	[٤٧-٦١]	عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَة
٢٩	[٦٣-٢١٥]	الْحَسَن بْنُ عَلِيّ	٣٠	[٥٩-٨٧]	الْحَسَنُ البَصرِيُّ
٣١	[٦٥-٥٤]	عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ	٣٢	[٦٣-٢١٥]	الْحُسَيْن بْنَ عَلِيّ

م	رَقَم الخَاطِرَة	اِسْم المُتَرجَم لَهُ	م	رَقَم الخَاطِرَة	اِسْم المُتَرجَم لَهُ
٣٣	[٦٦–٥٥]	أُمُّ عَمْرٍو رَابِعَةُ العَدَوِيَّةُ	٣٤	[٦٥–٥٤]	عَبْدُ الرَّحْمَن بْن مُلْجِم
٣٥	[٦٩–٣٥٩]	أحمد اِبْنِ الرَّاوَنْدِيِّ	٣٦	[٦٨–٣٧٢]	عبد الرَّحْمَن وَضَّاحِ اليَمَنِ
٣٧	[٧٧–٣٠٨]	الحُسَيْنُ ابْنُ الحَجَّاجِ	٣٨	[٧٧–٣٠٨]	البَصرِي العَلَوِي الْخَبِيث
٣٩	[٨٠–٧٧]	قُتَيبَةُ بنُ مُسْلِم	٤٠	[٧٨–١٩٨]	جَالِينُوسَ
٤١	[٨٤–٣٨]	أَبُو يَزِيْدَ البِسطَامِيُّ	٤٢	[٨٠–٧٧]	مُحَمَّدُ بنُ وَاسِعٍ
٤٣	[٨٤–٣٨]	يَحيَى البَكَّاءُ	٤٤	[٨٤–٣٨]	إِبْرَاهِيمُ الْخَوَّاصُ
٤٥	[٨٩–٢٢٩]	الرُّبَيِّع بِنْت النَّضْر	٤٦	[٨٩–٢٢٩]	أَنَسُ بْنُ النَّضرِ
٤٧	[١٠٢–١٢]	الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ	٤٨	[١٠٢–١٢]	أَبُوْ سُلَيْمَانُ الدَّارَانِي
٤٩	[١٠٨–١٧١]	لُبَيْد بْنُ رَبِيْعَة	٥٠	[١٠٢–١٢]	أَبُو عَلِيٍّ الرُّوْذبَارِيُّ
٥١	[١٠٨–١٧١]	أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بْنُ الشِّبْلِ	٥٢	[١٠٨–١٧١]	أَبُو الفَتْحِ عَلِيٌّ البُسْتِيُّ
٥٣	[١٠٩–٢٦٥]	أَبُو عُثْمَانَ سَعِيْدُ الْحَيرِيَّ	٥٤	[١٠٩–٢٦٥]	أَبُو عَمْرِو بْنِ نُجَيْد
٥٥	[١١١–٢٢٢]	عَلِيُّ ابْنُ الْمَدِيْنِيِّ	٥٦	[١١٠–٣٤٥]	أَحْمَدُ بْنُ هَارُون السَّبْتِيُّ
٥٧	[١١٥–١٧٠]	مُحَمَّدُ بنُ الحُسَيْنِ الرَّضِيُّ	٥٨	[١١٤–٣٥٣]	أَبُو الحَسَنِ مِهْيَارُ الدَّيْلَمِيُّ
٥٩	[١١٥–١٧٠]	أَبُو الطَّيِّبِ أَحْمَدُ الْمُتَنَبِّي	٦٠	[١١٥–١٧٠]	أَبُوْ مُسْلِمِ الْخُرَاسَانِي
٦١	[١٢٠–٥٨]	أَبُو الفَضلِ عَبَّاسُ الدُّوْرِيُّ	٦٢	[١٢٠–٥٨]	أَبُو مُحَمَّدٍ جَعفَرُ الخُلْدِيَ
٦٣	[١٢١–٢٣٠]	أَبُو سَلَمَةَ حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ	٦٤	[١٢١–٢٣٠]	أَبُو الصَّهْبَاءِ صِلَةُ بنُ أَشْيَمَ
٦٥	[١٢٢–١٨٢]	إِسْحَاق بْن الضَّيف	٦٦	[١٢٢–١٨٢]	العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ العَظِيمِ
٦٧	[١٢٤–٢٥]	مَالِكُ بنُ أَنَسٍ بنِ مَالِكٍ	٦٨	[١٢٤–٢٥]	أَبُو حَنِيْفَةَ
٦٩	[١٢٤–٢٥]	أُمُّ الدَّرْدَاء الصُّغْرَى	٧٠	[١٢٤–٢٥]	مَالِكَ بْنَ دِيْنَارٍ

م	رَقَم الخَاطِرَة	اِسْم المُتَرجَم لَهُ	م	رَقَم الخَاطِرَة	اِسْم المُتَرجَم لَهُ
٧١	[١٢٥-١٤٧]	أَبُو حَمْزَةَ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ	٧٢	[١٢٤-٢٥]	أَبُو الدَّرْدَاء
٧٣	[١٢٦-٩٤]	أَبُو مَنْصُورٍ ابْنُ الجَوَالِيقِيّ	٧٤	[١٢٦-٩٤]	عَبْدَ الْوَهَّابَ الأَنْمَاطِيّ
٧٥	[١٢٩-٣٦٢]	الحَارِثُ المُحَاسِبِيُّ	٧٦	[١٢٧-٣٦٦]	دَاوُدُ بنُ عَلِيٍّ الظَّاهِرِيُّ
٧٧	[١٢٩-٣٦٢]	أَبُو طَالِبِ الحَارِثِيُّ	٧٨	[١٢٩-٣٦٢]	الحَكِيم التِّرْمِذِيّ
٧٩	[١٢٩-٣٦٢]	أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ المَرُّوذِيُّ	٨٠	[١٢٩-٣٦٢]	الْغَزَّالِيّ
٨١	[١٢٩-٣٦٢]	السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ	٨٢	[١٢٩-٣٦٢]	إِبْرَاهِيمُ بنُ أَدْهَمَ
٨٣	[١٣٥ - ٢٢٧]	ابْنُ الخَشَّابِ	٨٤	[١٢٩-٣٦٢]	أَبُو سُلَيْمَانَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ
٨٥	[١٣٦ - ١٧٦]	مُحَمَّدَ بْنَ العَسَّافِ الْعُقَيْلِيّ	٨٦	[١٣٦- ١٧٦]	أَبُو الفَتْحِ عُثْمَانُ بنُ جِنِّي
٨٧	[١٣٧-٣٣٣]	أَبُو ثَوْرٍ	٨٨	[١٣٧-٣٣٣]	أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ
٨٩	[١٤٠ - ١٧٥]	الحَاكِمُ النَّيْسَابُورِيُّ	٩٠	[١٣٧-٣٣٣]	يَحْيَى بنُ مَعِينٍ
٩١	[١٤٠ - ١٧٥]	أَبُو العَبَّاسِ بْنُ عُقْدَةَ	٩٢	[١٤٠ - ١٧٥]	إِسْحَاقُ بنُ رَاهَوَيْه
٩٣	[١٤٠ - ١٧٥]	حَنْبَلُ بنُ إِسْحَاقَ	٩٤	[١٤٠ - ١٧٥]	أَبُو كُرَيْبٍ
٩٥	[١٤٠ - ١٧٥]	عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ	٩٦	[١٤٠ - ١٧٥]	صَالِحُ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ
٩٧	[١٤٠ - ١٧٥]	أَبُو بَكْرٍ الإِسمَاعِيلِيُّ	٩٨	[١٤٠ - ١٧٥]	أَبُو دَاوُدَ
٩٩	[١٤٠ - ١٧٥]	البُخَارِيُّ	١٠٠	[١٤٠ - ١٧٥]	الدَّارَقُطْنِيُّ
١٠١	[١٤١ - ٢١٩]	أَبُو العَلَاءِ الهَمْذَانِيُّ	١٠٢	[١٤٠ - ١٧٥]	مُسْلِمٌ بنُ الحَجَّاجِ
١٠٣	[١٤١ - ٢١٩]	أَبُو يَعْلَى	١٠٤	[١٤١ - ٢١٩]	أَبُو بَكْرٍ الْخَلَّالُ
١٠٥	[١٤٢ - ١٢١]	أَبُو بَكْرٍ بْنُ الأَنْبَارِيِّ	١٠٦	[١٤١ - ٢١٩]	ابنُ أَبِي رَوَّادٍ الأَزْدِيُّ
١٠٧	[١٤٢ - ١٢١]	مَكْحُولٌ الدِّمَشْقِيُّ	١٠٨	[١٤٢ - ١٢١]	الزُّهْرِيّ

م	رَقْم الخَاطِرَة	إِسْم المُتَرجَم لَهُ	م	رَقْم الخَاطِرَة	إِسْم المُتَرجَم لَهُ
١٠٩	[١٤٦ - ٣٤٢]	أَبُو الحَسَن الزَّغْوَانِيّ	١١٠	[١٤٤-١٩٣]	مَاعِزٌ الأَسْلَمِيُّ
١١١	[١٤٩ - ٣٣٨]	شَرِيكٌ القَاضِي	١١٢	[١٤٦ - ٣٤٢]	مُحَمَّد بْن علِيّ العَلَوِيُّ
١١٣	[١٤٩ - ٣٣٨]	سُلَيْمَانُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ	١١٤	[١٤٩ - ٣٣٨]	المُسْتَظهِرِ بِاللهِ
١١٥	[١٤٩ - ٣٣٨]	عَبْدُ العَزِيْزِ بنُ مَرْوَانَ	١١٦	[١٤٩ - ٣٣٨]	سَلَمَةُ بنُ دِيْنَارٍ
١١٧	[١٤٩ - ٣٣٨]	أَبُو المَعَالِي الجُوَيْنِيُّ	١١٨	[١٤٩ - ٣٣٨]	عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ
١١٩	[١٤٩ - ٣٣٨]	الْحَلَّاجُ	١٢٠	[١٤٩ - ٣٣٨]	ابْنُ المُقَنَّعُ
١٢١	[١٤٩ - ٣٣٨]	عَبْدُ اللهِ بنُ المُقَفَّعِ	١٢٢	[١٤٩ - ٣٣٨]	الْجَنَّابِيُّ
١٢٣	[١٥١-٣٣٩]	الْحُمِيْدِيُّ	١٢٤	[١٥١-٣٣٩]	الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ
١٢٥	[١٥٢ - ٦٩]	ابْنُ مِقْسَمٍ	١٢٦	[١٥١-٣٣٩]	مُحَمَّدُ بنُ نَاصِرِ السَّلَامِيُّ
١٢٧	[١٥٣ - ١٠٩]	أَبُو عُبَيْدٍ القَاسِمُ بنُ سَلَّامٍ	١٢٨	[١٥٣ - ١٠٩]	عَبْدُ المَلِكِ بنُ مَرْوَانَ
١٢٩	[١٥٣ - ١٠٩]	ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا	١٣٠	[١٥٣ - ١٠٩]	طَاهِرُ بنُ الحُسَيْنِ بنِ رُزَيْقٍ
١٣١	[١٥٣ - ١٠٩]	ابْنُ قُتَيْبَةَ	١٣٢	[١٥٣ - ١٠٩]	المُعْتَضِدُ بِاللهِ
١٣٣	[١٥٣ - ١٠٩]	سَعِيْدُ بنُ المُسَيِّبِ	١٣٤	[١٥٣ - ١٠٩]	ابْنُ خَاقَانَ
١٣٥	[١٥٥ - ٢٧٧]	أَبُو عُقْبَةَ مُسْلِمُ	١٣٦	[١٥٣ - ١٠٩]	عَبْدُ اللهِ بنُ المُبَارَكِ
١٣٧	[١٦١ - ٣٦٩]	عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ	١٣٨	[١٦١ - ٣٦٩]	كُرْزُ بْن وَبَرَة الحَارِثِيُّ
١٣٩	[١٦٢-١١٤]	الحَسَنُ بنُ عَرَفَةَ العَبْدِيُّ	١٤٠	[١٦١ - ٣٦٩]	عُثْمَانُ بن عِيسَى البَاقِلَّاوِيُّ
١٤١	[١٦٢-١١٤]	الْحُطَيْئَةُ	١٤٢	[١٦٢-١١٤]	مَرْوَانُ بنُ سُلَيْمَانَ
١٤٣	[١٦٤ - ٣٥٤]	عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ البَحْرُ	١٤٤	[١٦٢-١١٤]	سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ
١٤٥	[١٦٦ - ٤٠]	أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ	١٤٦	[١٦٤ - ٣٥٤]	سَعِيْدُ بْنُ جُبَيْرٍ

م	رَقَم الخَاطِرَة	اِسْم المُتَرجَم لَهُ	م	رَقَم الخَاطِرَة	اِسْم المُتَرجَم لَهُ
١٤٧	[١٦٦ – ٤٠]	الأَسْوَدُ بْنُ يَزِيْدَ بنِ قَيْسٍ	١٤٨	[١٦٦ – ٤٠]	عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ
١٤٩	[١٦٦ – ٤٠]	أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ	١٥٠	[١٦٦ – ٤٠]	أَبُو يَزِيْد الرَّبِيْع بْنِ خُثَيْمٍ
١٥١	[١٦٦ – ٤٠]	مَنْصُوْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ	١٥٢	[١٦٦ – ٤٠]	يَزِيدُ بْنُ أَبَانَ الرَّقَاشِيُّ
١٥٣	[١٧٤ – ١٨٤]	أَبُو بَكْرٍ الصُّوْلِيُّ	١٥٤	[١٦٨ – ١٦٧]	أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ
١٥٥	[١٧٤ – ١٨٤]	إسحاق بْنُ إِبْرَاهِيمَ المُصْعَبِيُّ	١٥٦	[١٧٤ – ١٨٤]	الحسين بن يحيى الكاتب
١٥٧	[١٧٤ – ١٨٤]	المَأْمُوْنُ	١٥٨	[١٧٤ – ١٨٤]	المُعْتَصِمُ
١٥٩	[١٧٤ – ١٨٤]	الفَضْلُ بنُ سَهْلٍ الوَزِيْرُ	١٦٠	[١٧٤ – ١٨٤]	عَبْدُ اللهِ بنُ طَاهِرٍ
١٦١	[١٧٤ – ١٨٤]	حَيْدَر بْن كَاوِس الأَفْشِيْن	١٦٢	[١٧٤ – ١٨٤]	الحَسَنِ بنِ سَهْلٍ
١٦٣	[١٧٤ – ١٨٤]	إِيْتَاخُ التُّرْكِيُّ العبَّاسِيُّ الأمير	١٦٤	[١٧٤ – ١٨٤]	أَشْنَاسُ التُّرْكِيُّ الأمير
١٦٥	[١٧٦ – ٢٤٨]	مَالِكُ بْنُ نَضْلَةَ الْجُشَمِيُّ	١٦٦	[١٧٤ – ١٨٤]	وَصِيف التُّرْكِيُّ
١٦٧	[١٧٩ – ٣٦٨]	بُقْرَاط أَوْ أَبُقْرَاط أَوْ بُقْرَات	١٦٨	[١٧٨ – ٣١٤]	الجُنَيْدُ
١٦٩	[١٨٢ – ١٩]	الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ	١٧٠	[١٧٩ – ٣٦٨]	فِيْثَاغُوْرس
١٧١	[١٨٢ – ١٩]	عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُوْدٍ	١٧٢	[١٨٢ – ١٩]	عَبْدُ الرَّحمَنِ بنُ عَوْفٍ
١٧٣	[١٨٢ – ١٩]	عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مَهْدِيٍّ	١٧٤	[١٨٢ – ١٩]	اللَّيْثُ بنُ سَعْدٍ
١٧٥	[١٨٢ – ١٩]	طَلْحَة بن عُبَيْدِ اللهِ	١٧٦	[١٨٢ – ١٩]	تَمِيْمٌ الدَّارِيُّ
١٧٧	[١٨٢ – ١٩]	ذُو النُّوْنِ المِصْرِيُّ	١٧٨	[١٨٢ – ١٩]	فَرْقَد السَّبْخِيِّ
١٧٩	[١٨٢ – ١٩]	بَرِيرَةُ مَوْلَاةُ عَائِشَةَ	١٨٠	[١٨٢ – ١٩]	إِبْرَاهِيْمُ الْحَرْبِيُّ
١٨١	[١٨٢ – ١٩]	أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدٍ العَتِيْقِيُّ	١٨٢	[١٨٢ – ١٩]	مُحَمَّدُ بنُ المُظَفَّرِ الحَمَوِيُّ
١٨٣	[١٨٢ – ١٩]	مُحَمَّدُ بنُ عَمرٍو العُقَيْلِيُّ	١٨٤	[١٨٢ – ١٩]	أَبُو يعقوب الصَّيْدلاني

م	رَقْم الخَاطِرَة	اِسْم المُتَرجَم لَهُ	م	رَقْم الخَاطِرَة	اِسْم المُتَرجَم لَهُ
٢٢٣	[٢١٨ - ٣٠٩]	الرَّشِيد	٢٢٤	[٢١٧ - ٦٠]	لَيْلَى بِنْتِ مَهْدِيٍّ العَامِرِيَّةِ
٢٢٥	[٢١٩ - ٣٢٤]	عَبْدُ الْخَالِقِ بْنُ البَدَنِ	٢٢٦	[٢١٨ - ٣٠٩]	أَبُو جَعْفَرٍ المَنْصُورُ
٢٢٧	[٢١٩ - ٣٢٤]	أَبُو طَاهِرٍ مُحَمَّدُ الْمُخَلِّصُ	٢٢٨	[٢١٩ - ٣٢٤]	أَبُو الْحُسَيْنِ البَزَّازُ
٢٢٩	[٢١٩ - ٣٢٤]	أَبُو رَوْحٍ	٢٣٠	[٢١٩ - ٣٢٤]	الْبَغَوِيُّ
٢٣١	[٢١٩ - ٣٢٤]	أَبُو عَبْدِ اللهِ البَصْرِيُّ	٢٣٢	[٢١٩ - ٣٢٤]	مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الأَزْدِيُّ
٢٣٣	[٢٢٠ - ١١]	إِبْرَاهِيمُ بنُ يَزِيدَ النَّخَعِيُّ	٢٣٤	[٢٢٠ - ١١]	مُحَمَّدٌ ابْنُ الشَّافِعِيِ
٢٣٥	[٢٢٢ - ٣٥٧]	الجَاحِظُ	٢٣٦	[٢٢٠ - ١١]	عَلْقَمَةُ بنُ قَيْسٍ
٢٣٧	[٢٢٥ - ٢٢٣]	مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ	٢٣٨	[٢٢٣-٣٤٦]	أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ
٢٣٩	[٢٢٨ - ١٩٧]	المُقْتَدِي بِأَمْرِ اللهِ	٢٤٠	[٢٢٨ - ١٩٧]	الشَّرِيف العَبَّاسِيُّ
٢٤١	[٢٣٢ - ١١٩]	الخَلَّالُ	٢٤٢	[٢٣٠ - ٢٥٤]	مُحَمَّدٌ الْبَزَّازُ
٢٤٣	[٢٣٢ - ١١٩]	المَحَامِلِيّ	٢٤٤	[٢٣٢ - ١١٩]	يُوسُفُ بنُ عُمَرَ القَوَّاسُ
٢٤٥	[٢٣٢ - ١١٩]	مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ الطَّيَالِسِيّ	٢٤٦	[٢٣٢ - ١١٩]	عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي سَعْدٍ الْوَرَّاقُ
٢٤٧	[٢٣٦ - ٢٩٠]	أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ	٢٤٨	[٢٣٢ - ١١٩]	دُلَفُ بْنُ أَبِي دُلَفٍ
٢٤٩	[٢٤٠ - ٢٨١]	يَحْيَى بْنُ نِزَارٍ المَنْبِجِيّ	٢٥٠	[٢٤٠ - ٢٨١]	أَحْمَد بْن صَاعِد الحَرْبِيُّ
٢٥١	[٢٤٤ - ٢١٢]	أَبُو الْحَسَنِ الْبِسْطَامِيُّ	٢٥٢	[٢٤٠ - ٢٨١]	عَلِيّ بْنُ أَفْلَحَ العَبْسِيّ
٢٥٣	[٢٤٤ - ٢١٢]	ابْنُ الْمُؤَيَّدِ	٢٥٤	[٢٤٤ - ٢١٢]	صَدَقَةُ بنُ الْحُسَيْنِ
٢٥٥	[٢٥٢ - ٢٣٢]	قَصِيرِ بْنُ سَعْد اللَّخْمِيّ	٢٥٦	[٢٤٥ - ٢٢٨]	أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ
٢٥٧	[٢٥٤ - ٢٨٧]	عَبْدَ الْمُحْسِنِ الصُّورِيّ	٢٥٨	[٢٥٢ - ٢٣٢]	الزَّبَّاءِ بِنْتُ عَمْرٍو
٢٥٩	[٢٦٠-٢٨٨]	يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ	٢٦٠	[٢٥٤ - ٢٨٧]	أَبُو الْحَسَن الْمُقْرِئ

م	رَقْم الخَاطِرَة	اِسْم المُتَرجَم لَهُ	م	رَقْم الخَاطِرَة	اِسْم المُتَرجَم لَهُ
٢٦١	[٢٦٦ – ٢٠٧]	عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ	٢٦٢	[٢٦٥ – ٢٤٣]	أَبْرُوِيزَ هُرْمُز بْنُ كِسْرَى
٢٦٣	[٢٦٦ – ٢٠٧]	أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُاوُد	٢٦٤	[٢٦٦ – ٢٠٧]	القَائِمُ بِأَمْرِ اللهِ
٢٦٥	[٢٦٦ – ٢٠٧]	عَلِيُّ بنُ عُمَرَ القَزْوِينِيُّ	٢٦٦	[٢٦٦ – ٢٠٧]	أَبُو يُوْسُفَ
٢٦٧	[٢٦٩ – ٢٩٥]	يَحْيَى بنُ خَالِدِ بنِ بَرْمَكَ	٢٦٨	[٢٦٦ – ٢٠٧]	فَيْرُوْزَجِرْدُ الدَّيْلَمِيُّ
٢٦٩	[٢٧٠ – ٢٦٩]	مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيّ الزَّجَّاجِيُّ	٢٧٠	[٢٧٠ – ٢٦٩]	أَبُو غَالِبٍ أَحْمَدُ بنُ الحَسَنِ
٢٧١	[٢٧٠ – ٢٦٩]	عَلِيُّ بنُ الحَسَنِ الوَرَّاق	٢٧٢	[٢٧٠ – ٢٦٩]	أَبُو مُحَمَّدٍ الأَكْفَانِيُّ
٢٧٣	[٢٧٠ – ٢٦٩]	مُحَمَّدُ بْنُ عَوْفٍ الطَّائِيُّ	٢٧٤	[٢٧٠ – ٢٦٩]	أَبُو دَاوُدَ
٢٧٥	[٢٧٠ – ٢٦٩]	الأَوْزَاعِيُّ	٢٧٦	[٢٧٠ – ٢٦٩]	أَبُو الْمُغِيرَةِ الخَوْلاَنِيّ
٢٧٧	[٢٧٠ – ٢٦٩]	القَاسِمُ بنُ مُخَيْمِرَةَ	٢٧٨	[٢٧٠ – ٢٦٩]	مُوسَى بنُ سُلَيْمَانَ الأُمويُّ
٢٧٩	[٢٧١ – ٣٥١]	الْوَاثِقِ بِاللهِ	٢٨٠	[٢٧١ – ٣٥١]	ابْنُ الزَّيَّاتِ
٢٨١	[٢٧١ – ٣٥١]	أَبُو طَاهِرٍ يُوسُفُ بْنُ أَحْمَدَ	٢٨٢	[٢٧١ – ٣٥١]	الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللهِ
٢٨٣	[٢٩٠ – ٢٩٢]	أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي	٢٨٤	[٢٨٧ – ٥]	حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ
٢٨٥	[٣٠٥ – ٢٨]	حَمْدُ بنُ أَحْمَدَ الحَدَّادُ	٢٨٦	[٢٩٠ – ٢٩٢]	حِبَّانُ أَوْ حِيَّان بْنُ عَطِيَّةَ
٢٨٧	[٣٠٥ – ٢٨]	أَبُو القَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ	٢٨٨	[٣٠٥ – ٢٨]	أَبُو نُعَيْمٍ الأَصْبَهَانِيُّ
٢٨٩	[٣٠٥ – ٢٨]	خَالِدُ بْنُ سَلَّامٍ الْخَثْعَمِيُّ	٢٩٠	[٣٠٥ – ٢٨]	عَبْدُ الْجَبَّارِ السَّحلِينِي
٢٩١	[٣٠٧ – ٢٩٧]	عَبْدُ اللهِ بنُ لَهِيْعَةَ	٢٩٢	[٣٠٥ – ٢٨]	عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ
٢٩٣	[٣١٥ – ٢٤٥]	أَبُو الْحَسَنِ الزَّاغُونِيُّ	٢٩٤	[٣١٥ – ٢٤٥]	أَبُو مُحَمَّد التَّمِيمِيُّ
٢٩٥	[٣٢٤ – ٣٥٢]	أُوَيْسُ بنُ عَامِرٍ القَرَنِيُّ	٢٩٦	[٣٢٠–٢٩]	وُهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ
٢٩٧	[٣٣٧ – ٢٣١]	عَلِيّ بْن إِبْرَاهِيم الحُصرِيُّ	٢٩٨	[٣٢٩–٣٣٥]	مَيْمُونَةُ بِنْتُ شَاقُولَةَ

م	رَقْم الخَاطِرَة	اِسْم المُتَرجَم لَهُ	م	رَقْم الخَاطِرَة	اِسْم المُتَرجَم لَهُ
٢٩٩	[٣٤٠ – ٣٧١]	القَاضِي الجُذُوْعِيُّ	٣٠٠	[٣٤٠ – ٣٧١]	القَاضِي أَبُو خَازِمٍ
٣٠١	[٣٤٠ – ٣٧١]	أَبُو الْمَعَالِي بْنُ شَافِعٍ	٣٠٢	[٣٤٠ – ٣٧١]	المُعْتَمِدُ عَلَى اللهِ
٣٠٣	[٣٤٥– ١٤]	عَامِرُ بْنُ عَبْدِ البَصْرِيُّ	٣٠٤	[٣٤١ – ٣١]	عَمْرُو بْنُ المُهَاجِر
٣٠٥	[٣٤٥– ١٤]	ثَابِتُ البُنَانِيُّ	٣٠٦	[٣٤٥– ١٤]	مُحَمَّد بنُ ثَابت الْبُنَانِيّ
٣٠٧	[٣٤٨ – ٣١١]	حَاتِم الطَّائِيُّ	٣٠٨	[٣٤٨ – ٣١١]	ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ
٣٠٩	[٣٥٩ – ٩٧]	حَبِيبُ بْنُ مُحَمَّد العَجَمِيُّ	٣١٠	[٣٥٣ – ١٥٨]	اِبْنُ الْمُعْتَزِّ بِاللهِ
٣١١	[٣٧١ – ٣١٠]	عَمْرو بْنَ حَزْمِ الأَنْصَارِيُّ	٣١٢	[٣٧١ – ٣١٠]	الأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ
٣١٣	[٣٧١ – ٣١٠]	سَجَاح التَّمِيْمِيَّة	٣١٤	[٣٧١ – ٣١٠]	خَالِدُ بنُ سَعِيْدِ بنِ العَاصِ
٣١٥	[٣٧١ – ٣١٠]	طُلَيْحَةُ الأَسَدِيُّ	٣١٦	[٣٧١ – ٣١٠]	عُطَارِدُ بْنُ حَاجِبٍ
٣١٧	[٣٧١ – ٣١٠]	خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ	٣١٨	[٣٧١ – ٣١٠]	عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ
٣١٩	[٣٧١ – ٣١٠]	الأَصْمَعِيُّ	٣٢٠	[٣٧١ – ٣١٠]	الوَاقِدِيُّ
٣٢١	[٣٧١ – ٣١٠]	الْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدِ الثَّقَفِيُّ	٣٢٢	[٣٧١ – ٣١٠]	الْقَسْرِيُّ خَالِدُ بنُ عَبْدِ اللهِ
٣٢٣	[٣٧١ – ٣١٠]	مَانِي بْن فَانِك	٣٢٤	[٣٧١ – ٣١٠]	زَرَادَشْتَ الفَارِسِيّ
٣٢٥	[٣٧١ – ٣١٠]	ابْنِ الشَّبَّاسِ			

(فهرس القبائل والأماكن والفرق والمذاهب)

م	رقم الخاطرة	اسم القبيلة أو المكان أو الفرقة أو المذهب	م	رقم الخاطرة	اسم القبيلة أو المكان أو الفرقة أو المذهب
١	[٥-١٥٩]	الأَشَاعِرَة	٢	[٥-١٥٩]	الرَّوَافِض
٣	[٢١-٢٣٦]	بَنُو عُذْرَة بْن سَعْد	٤	[٣١-٢٧٥]	الطَّبَائِعِيُّوْنَ
٥	[٣٦-٢٣٨]	الْمُعْتَزِلَة	٦	[٣٧-١٩٢]	الْمُجَسِّمَةَ
٧	[٣٩-٤٩]	الظَّاهِرِيَّةُ	٨	[٦٣-٢١٥]	دَارِ الْخَيْزُرَانِ
٩	[١٥١-٣٣٩]	المَدْرَسَة النِّظَامِيَّة	١٠	[١٥٥ - ٢٧٧]	الخَوَارِج
١١	[٢٥٤-٢٨٧]	مَدِيْنَةِ صُوْرِ	١٢	[٢٥٤-٢٨٧]	قَرْيَة بِرَانِدِس
١٣	[٢٩٣-٣٤٣]	أَهْلِ السَّوَادِ	١٤	[٢٩٥-١٦٢]	جَبَلِ اللُّكَّامِ
١٥	[٣٤٠ - ٣٧١]	أَرْضِ السَّوَادِ	١٦	[٣٥٣-١٥٨]	وَاحَة يَبْرِيْن
١٧	[٣٥٦ - ٢١٤]	زَرُودُ	١٨	[٣٦٦ - ١٠٢]	خَيْبَر
١٩	[٣٧١ - ٣١٠]	قَبِيْلَةُ مَذْحِجٌ	٢٠	[٣٧١ - ٣١٠]	نَجْرَانُ
٢١	[٣٧١ - ٣١٠]	الرِّبَابُ: قَبِيْلَةٌ	٢٢	[٣٧١ - ٣١٠]	الْيَمَامَة
٢٣	[٣٧١ - ٣١٠]	سَمِيْرَاءُ	٢٤	[٣٧١ - ٣١٠]	زَرَادَشْتِيَّة
٢٥	[٣٧١ - ٣١٠]	المَانَوِيَّة	٢٦	[٣٧١ - ٣١٠]	الْقَرَامِطَةُ
٢٧	[٣٧٤ - ١٦٨]	نَهر عِيْسَى			

(فهرس الكتب)

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الطبعة التي اعتمدت عليها
١	«المَحَبَّة للهِ سُبْحَانَه»	أَبُو إِسْحَاقَ الخُتَّلِيُّ	دار الحضارة - الرياض
٢	«نَوَادِر الأُصُوْل»	الْحَكِيْم أَبُو عَبْدِ اللهِ التِّرمِذِيّ	دار النوادر–سورية، الكويت
٣	«التَمْهِيْد»	أَبُو عُمَرَ اِبْنُ عَبْدِ البَرّ	وزارة الأوقاف - المغرب
٤	«عُيُوْن الأَخْبَار»	ابْنُ قُتَيْبَةَ الدِّيْنَوَرِيُّ	دار الكتب العلمية -بيروت
٥	«حِلْيَة الأَوْلِيَاء»	أَبُو نُعَيْمٍ الأَصْبَهَانِيُّ	دار الكتب العلمية- بيروت
٦	«الْسِّيْرَة النَّبَوِيَّة»	مُحَمَّد بْن إِسْحَاق	دار الفكر - بيروت
٧	«تَارِيْخ دِمِشْق»	أَبُو القَاسِم لِابْن عَسَاكِر	دار الفكر - بيروت
٨	«إِحْيَاء عُلُوْم الدِّيْن»	أَبُو حَامِد الْغَزَّالِي	دار الحديث - القاهرة
٩	«قُوْت القُلُوْبِ»	أَبُو طَالِبٍ الْمَكِّيُّ	دار الكتب العلمية- بيروت
١٠	«الْخَصَائِص»	أَبُو الفَتْحِ عُثْمَانُ بنُ جِنِّي	الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر
١١	«المَدْخَلُ إِلَى كِتَابِ الإِكْلِيْلِ»	الْحَاكِمِ النَّيسَابُوْرِيُّ	دار الدعوة - الاسكندرية
١٢	«الإِلْزَامَات عَلَى الصَّحِيْحَيْن»	أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ الدَّارَقُطْنِيُّ	دار الكتب العلمية - بيروت
١٣	«كِتَابِ الْعِلَلِ»	أَبُوْ بَكْرٍ الْخَلَّالُ	دار الراية - الرياض
١٤	«الْمُسْتَظْهِرِي»	أَبُو حَامِد الْغَزَّالِي	دار الكتب الثقافية - الكويت
١٥	«مِنْهَاج القَاصِدِيْن»	ابْن الجَوْزِيّ	دار التوفيق - دمشق
١٦	«الشَّامِل فِي الأُصُوْلِ»	أَبُوْ المَعَالِي الجُوَيْنِيُّ	دار المعارف - الإسكندرية

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الطبعة التي اعتمدت عليها
١٧	«الاحْتِجَاجِ لِلْقُرَّاءِ»	ابْنُ مِقْسَمٍ مُحَمَّدُ العَطَّارُ	لم أقف عليه مطبوعًا
١٨	«أَدَبُ الكَاتِبِ»	أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ قُتَيْبَةَ	مؤسسة الرسالة - بيروت
١٩	«تَارِيْخ بَغْدَاد»	الخَطِيْب البَغْدَادِيّ	دار الكتب العلمية - بيروت
٢٠	«جُزْءُ إِبْنُ عَرَفَةَ»	الحَسَنُ بنُ عَرَفَةَ العَبْدِيُّ	دار الأقصى، الكويت
٢١	«الْكَامِل»	المُبَرِّد	دار الفكر العربي - القاهرة
٢٢	«الْعِقْد الفَرِيْد»	أَبُو عُمَر أَحْمَد بْن عَبْد رَبُّه	دار الكتب العلمية - بيروت
٢٣	«الْطَّبَقَات الْكُبْرَى»	ابْن مَنِيْع	دار صادر - بيروت
٢٤	«تَارِيْخ الرُّسُل وَالْمُلُوْك»	أَبُو جَعْفَر الطَّبَرِيّ	دار التراث - بيروت
٢٥	«الكَامِل فِي التَّارِيْخ»	إِبْن الأَثِيْر	دار الكتب العلمية - بيروت
٢٦	«تَلْبِيْسِ إِبْلِيْسِ»	ابْن الجَوْزِيّ	دار التقوى - القاهرة
٢٧	«ذَمّ الْكَلَام وَأَهْله»	أَبُو إِسْمَاعِيْل عَبْدُ اللهِ الْهَرَوِيّ	مكتبة العلوم والحكم - المدينة
٢٨	«البَيَان وَالتَّبْيِيْن»	الجَاحِظ	دار ومكتبة الهلال، بيروت
٢٩	«نَثْر الدُّر»	مَنْصُوْر بْن الحُسَيْن الآبي	دار الكتب العلمية - بيروت
٣٠	«كِتَابُ الْضُّعَفَاءِ»	العُقَيْلِيُّ	دار الصميعي - الرياض
٣١	«غَرِيْبُ الْحَدِيْث»	ابْنُ قُتَيْبَةَ	دار الغرب الإسلامي - تونس
٣٢	«الزُّهْد»	أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْنُ حَنْبَل	دار الكتب العلمية - بيروت
٣٣	«التَّارِيْخ الكَبِيْر»	مُحَمَّد بْنُ إِسْمَاعِيْل البُخَارِيّ	دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد
٣٤	«مَعَالِمُ التَّنْزِيْل»	البَغَوِيّ	دار المعرفة - بيروت
٣٥	«سِرَاج المُلُوك»	الطُّرْطُوشِيُّ	المطبوعات العربية - مصر

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الطبعة التي اعتمدت عليها
٣٦	«الْمُنتَظِم»	ابْن الجَوْزِيّ	دار الكتب العلمية - بيروت
٣٧	«الأَذْكِيَاءُ»	ابْن الجَوْزِيّ	مكتبة الغزالي - مصر
٣٨	«أَسْبَابُ النُّزُوْل»	النَّيْسَابُوْرِيّ	دار التقوى - القاهرة
٣٩	«جَامِعُ الْبَيَان»	أَبُو جَعْفَر الطَّبَرِيّ	دار السلام - القاهرة
٤٠	«شَرح أُصُوْل الاعْتِقَاد»	اللالَّكَائِيُّ	دار طيبة - السعودية
٤١	«التَّاج فِي أَخْلَاقِ الْمُلُوْك»	الجَاحِظ	المطبعة الأميرية - القاهرة
٤٢	«الْمَحَاسِن وَالأَضْدَادِ»	الجَاحِظ	دار ومكتبة الهلال، بيروت
٤٣	«الرِّسَالَةُ القُشَيرِيَّة»	النَّيْسَابُوْرِيّ	المكتبة التوفيقية - القاهرة
٤٤	«الإِعْجَاز وَالإِيْجَاز»	أَبُو مَنْصُوْرِ الثَّعَالِبِيّ	مكتبة القرآن - القاهرة
٤٥	«رَبِيْع الأَبْرَار»	أَبُو القَاسِمِ الزَّمَخْشَرِيّ	مؤسسة الأعلمي - بيروت
٤٦	«أَخْبَارِ الظِّرَاف والمتماجنين»	ابْن الجَوْزِيّ	دار ابن حزم - بيروت
٤٧	«لَقْطُ الْمَنَافِعِ»	ابْن الجَوْزِيّ	دَارِ الكُتُب وَالوَثَائِق بِالْقَاهِرَةِ
٤٨	«ذَمُّ الْهَوَى»	لِابْن الجَوْزِيّ	دار الكتاب العربي - بيروت
٤٩	«مِيْزَانُ الْعَمَل»	أَبُو حَامِد الْغَزَّالِي	المكتبة العصرية - بيروت

ثبت المراجع والمصادر

١- «الْقُرْآن الْكَرِيم».

٢- «الآحَاد وَالمثَانِي» أَبُو بَكْرِ بنُ أَبِي عَاصِمِ الشَّيْبَانِيِ. تحقيق: باسم فيصل الجوابرة. طبعة: دار الراية - الرياض- الطبعة الأولى ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

٣- «الأَحَادِيْثُ المُشْكِلَةُ الوَارِدَةُ فِي تَفْسِيْرِ القُرآنِ الكَرِيْم» أحمد بن عبد العزيز القُصَيِّر. طبعة: دار ابن الجوزي - السعودية - الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ=٢٠٠٩م.

٤- «الأدَب الْمُفْرَد» أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ إِسْمَاعِيْلَ البُخَارِيُّ. تحقيق: أحمد عبد الرازق البكري. طبعة دار اسلام -القاهرة- الطبعة الثالثة: ١٤٣١هـ=٢٠١٠م.

٥- «الأَذْكِيَاءُ» لِابْن الجَوْزِيّ. تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي. طبعة: ابن حزم -بيرت- الأولى ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

٦- «الأربعون من أسباب التآليف وأسرار التصآنيف» د.زيد بن محمد الرماني. طبعة: مدار الوطن -الرياض-.

٧- «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» أبو عمر يوسف بن عبد البر. تحقيق: علي محمد البجاوي. طبعة: دار الجيل، بيروت- الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

٨- «الاستذكار» أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، تحقيق: د/ عبد المعطي أمين قلعجي. طبعة دار الوعي -القاهرة- ١٤١٣هـ.

٩- «الأسماء والصفات» أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر. الناشر دار الكتاب العربي -بيروت- ١٤١٥هـ.

١٠- «الإبانة عن أصول الديانة» لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري. تحقيق: د. صالح بن مقبل العُصيمي. طبعة: دار الفضيلة -الرياض- الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ=٢٠١١م.

١١- «الإتحاف بحقوق وأحكام الخاطب والعاقد قبل الزفاف» عبد المنعم إبراهيم. طبعة: مكتبة أولاد الشيخ – مصر – ن.ت.

١٢- «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» محمد أبو شُهبة. طبعة: مكتبة السنة، مصر.ن.ت

١٣- «الإصابة في تمييز الصحابة» أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي. طبعة دار الجيل – بيروت – ١٤١٢هـ. وطبعة دار الكتب العلمية -بيروت- ١٤١٥هـ. تحقيق: الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ/ محمد معوض.

١٤- «الأعلام للزركلي» خير الدين الزِّرِكْلِي، طبعة دار العلم للملايين. ١٤٠٠هـ.

١٥- «الإِعْجَاز وَالإِيْجَاز» أَبُو مَنْصُوْرِ الثَّعَالِبِي. مكتبة القرآن – القاهرة، ن.ت.

١٦- «الإفصاح عن معاني الصحاح». الوزير عون الدين أبي المظفر يحيىٰ بن محمد بن هبيرة، تحقيق: د/ محمد يعقوب طالب. طبعة مركز فجر للطباعة -مصر- ١٤١٩هـ.

١٧- «الإِلْزَامَات عَلَىٰ الصَّحِيْحَيْن» أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ الدَّارَقُطْنِيُّ. تحقيق: مقبل بن هادي الوداعي. دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الثانية، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م.

١٨- «الإمام أبو الحسن الدارقطني وآثاره العلمية» عبد الله بن ضيف الله الرحيلي. دار الأندلس الخضراء -جدة-

١٩- «الأمالي» أبو القاسم عبد الملك ابن بشران. الجزء الأول: تحقيق: عادل بن يوسف العزازي. والثاني: تحقيق: أحمد بن سليمان. طبعة دار الوطن -الرياض- الأولىٰ ١٤١٨هـ=١٩٩٧م. ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

٢٠- «أحكام القرآن» أبو بكر أحمد بن علي الجَصَّاص. تحقيق: عبد السلام محمد علي. طبعة: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

٢١- «إحياء علوم الدين» أبو حامد الغزالي، تحقيق: سيد عمران. طبعة دار الحديث – القاهرة – ١٤٢٥هـ.

٢٢- «أَخْبَارِ الظِّرَاف والمتماجنين» لِابْن الجَوْزِيّ. دار ابن حزم – بيروت.

٢٣- «أخلاق النَّبِيّ ﷺ وآدابه» أبو الشيخ عبد الله الأصبهاني. تحقيق: صالح بن محمد الونيان. طبعة: دار المسلم. الطبعة الأولىٰ ١٩٩٨م.

٢٤- «أدب الكاتب» لابن قتيبة الدينوري، تحقيق: علي محمد زينو. طبعة مؤسسة الرسالة -بيروت- ١٤٢٩هـ.

٢٥- «أدب النساء» عبد الملك بن حبيب، تحقيق: عبد المجيد تركي. طبعة دار الغرب الإسلامي -تونس- ١٤١٢هـ.

٢٦- «إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات» محمد عمارة. طبعة: دار السلام. القاهرة. الطبعة الأولىٰ ١٤٣١هـ=٢٠١٠م.

٢٧- «أساس البلاغة» جار الله فخر الزمخشري، تحقيق: محمد أحمد قاسم. طبعة المكتبة العصرية -بيروت- ١٤٣٠هـ.

٢٨- «أَسْبَابُ النُّزُوْل» أَبُو الحَسَن عَلِيّ الْوَاحِدِيّ النَّيْسَابُوْرِيّ. تحقيق: شريف محمد عبد الرحمن. طبعة: دار التقوىٰ – القاهرة. ن.ت.

٢٩- «أسد الغابة في معرفة الصحابة». لعز الدين بن الأثير بن الحسن علي بن محمد الجزري. طبعة دار الفكر. ١٤١٤هـ.

٣٠- «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي. إشراف بكر عبد الله أبو زيد. طبعة دار عالم الفوائد. الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٦هـ. وطبعة دار الفكر – بيروت – ١٤١٥هـ.

٣١- «أطراف الغرائب والأفراد» لأبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي، تحقيق: جابر بن عبد الله السريِّع. الناشر مكتبة التدميرية -الرياض- ١٤٢٨هـ.

٣٢- «اعتلال القلوب» أبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي. تحقيق: حمدي الدمرداش. طبعة: نزار مصطفىٰ الباز، مكة المكرمة– الثانية، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م

٣٣- «أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري» أبو سليمان حمد الخطابي، تحقيق: محمد بن سعيد آل سعود. طبعة جامعة أم القرئ -مكة المكرمة- ١٤٠٩هـ.

٣٤- «إعلام الموقعين عن رب العالمين» شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: طه عبد الرءوف سعد. طبعة دار الجيل - بيروت - ١٣٩٤هـ.

٣٥- «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. طبعة مكتبة المجلد العربي. الطبعة الأولىٰ ١٤١٨هـ.

٣٦- «أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات» مرعي بن يوسف بن أبىٰ بكر بن أحمد الكرمىٰ. تحقيق: شعيب الأرناؤوط. طبعة: مؤسسة الرسالة – بيروت- الأولىٰ، ١٤٠٦.

٣٧- «بَحْرُ الْفَوَائِدِ = مَعَانِي الأَخْيَارِ» أبو بكر محمد الْكَلَابَاذِيُّ. تحقيق: محمد حسن محمد إسماعيل و أحمد فريد المزيدي. طبعة: دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

٣٨- «بَدَائِعُ الْسِّلْكِ فِي طَبَائِعِ الْمُلْكِ» محمد بن علي شمس الدين الغرناطي ابن الأزرق. تحقيق: علي سامي النشار. وزارة الإعلام – العراق- الطبعة الأولىٰ: ن.ت.

٣٩- «بَرِيقَةٌ مَحْمُودِيَّةٌ فِي شَرْحِ طَرِيقَةٍ مُحَمَّدِيَّةٍ وَشَرِيعَةٍ نَبَوِيَّةٍ فِي سِيرَةٍ أَحْمَدِيَّةٍ» أبو سعيد محمد بن محمد المصطفىٰ الخادمي. طبعة: مصطفىٰ البابي الحلبي – القاهرة – ١٣٤٨هـ.

٤٠- «بُسْتَان العَارِفِيْن» أبو زكريا محيي الدين النووي. طبعة: دار الريان. القاهرة.ن.ت.

٤١- «البداية والنهاية» أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب بن كثير، تحقيق: محمد عبد العزيز النجار. طبعة دار الغد العربي ١٤١١هـ.

٤٢- «البعث والنشور» أبو بكر أحمد البيهقي. تحقيق: عامر أحمد حيدر. طبعة مركز الخدمات والأبحاث الثقافية ١٤٠٦هـ.

٤٣- «البَيَان وَالتَّبيِيْن» أَبُو عُثْمَان عَمْرو بْن بَحْر الجَاحِظ. طبعة: دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣هـ

٤٤- «تاج العروس من جواهر القاموس». محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضىٰ، الزَّبيدي. طبعة دار الفكر -بيروت. ن- ت

٤٥- «تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام» أبو عبد الله محمد شمس الدين الذهبي. تحقيق: بشار عوّاد معروف. طبعة: دار الغرب الإسلامي. الأولىٰ، ٢٠٠٣ م

٤٦- «تاريخ بغداد وذيوله ». أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي. تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا. طبعة: دار الكتب العلمية – بيروت الأولىٰ، ١٤١٧ هـ.

٤٧- «تَارِيْخ الرُّسُل وَالْمُلُوْك» مُحَمَّد بْنُ جَرِيْر أَبُو جَعْفَر الطَّبَرِيّ. و «صِلَة تَارِيْخ الطَّبَرِيّ» عريب بن سعد القرطبي. طبعة: دار التراث – بيروت- الثانية: ١٣٨٧ هـ.

٤٨- «تاريخ مدينة دمشق». أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر، دراسة وتحقيق: علي شيري. طبعة دار الفكر.ن- ت.

٤٩- «تاريخ واسط» أسلم بن سهل الرزّاز، أبو الحسن. تحقيق: كوركيس عواد. طبعة: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٦ هـ

٥٠- «تذكرة الحفاظ». أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي. طبعة دار إحياء التراث العربي. ن- ت.

٥١- «تَرتِيْب الأَمَالِي الخُمَيْسِيَّة لِلشَّجَرِيِّ» رَتَّبَهَا: مُحْي الدِّيْن الْعَبْشَمِيُّ. تحقيق: محمد حسن محمد إسماعيل. طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١ م.

٥٢- «تسديد ربِّ العالمين في شرح لمعة الاعتقاد لابن قدامة» سعد بن سعيد الحجري. طبعة دار ابن الجوزي – الرياض – الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٨هـ.

٥٣- «تصحيح التصحيف وتحرير التحريف» صلاح الدين خليل الصفدي. تحقيق: السيد الشرقاوي. طبعة: مكتبة الخانجي. القاهرة. الطبعة الأولىٰ ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٥٤- «تفسير غريب ما في الصحيحين» أبو عبد الله محمد الجميدي، تحقيق: زبيدة محمد سعيد. طبعة مكتبة السنة -القاهرة- ١٤١٥هـ.

٥٥- «تفسير القرآن العظيم» أبو محمد عبد الرحمن ابن أبي حاتم. تحقيق: أسعد محمد الطيب. طبعة: مكتبة نزار مصطفىٰ الباز - المملكة العربية السعودية. الثالثة - ١٤١٩ هـ

٥٦- «تفسير القرآن العظيم». أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب بن كثير، تحقيق: د/ السيد محمد سيد، وآخرون. طبعة دار الْحَدِيْث ١٤٢٣هـ.

٥٧- «تَقْوِيْم اللِّسَان» لِابْن الجَوْزِيّ. تحقيق: عبد العزيز مطر. طبعة: دار المعارف. الط/ الثانية ٢٠٠٦م.

٥٨- «تَلْبِيْس إِبْلِيْس» لِابْن الجَوْزِيّ. تحقيق: محمد محمد تامر. طبعة: دار التقوىٰ –القاهرة-

٥٩- «تلخيص الحبير» لابن حجر العسقلاني. طبعة دار الكتب العلمية -بيروت ١٤١٩هـ.

٦٠- «تَلْخِيْص المِفْتَاح، جَلَالُ الدِّيْن القَزْوِيْنِي = عَرُوس الأَفْرَاح، بهاء الدين أحمد السبكي». تحقيق: عبد الحميد هنداوي. طبعة: المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

٦١- «تهذيب الآثار» أبو جعفر الطبري. تحقيق: محمود محمد شاكر. طبعة المدني - القاهرة- ١٤٠٣هـ.

٦٢- «تهذيب الأسماء واللغات» أبو زكريا النووي، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود. طبعة دار النفائس -بيروت- ١٤٣٠هـ.

٦٣- «تهذيب التهذيب» أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني. طبعة إحياء التراث العربي. ١٤١٣هـ.

٦٤- «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» يوسف أبو الحجاج، جمال الدين الْمِزِّيّ. تحقيق: بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

٦٥- «التَّاج فِي أَخْلَاقِ الْمُلُوْك» أَبُو عُثْمَان عَمْرو بْن بَحْرالجَاحِظ. تحقيق: أحمد زكي باشا. المطبعة الأميرية - القاهرة الطبعة الأولىٰ، ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م.

٦٦- «التَّاج المُكَلَّل مِنْ جَوَاهِرِ مَآثِرِ الطِّرَازِ الآخِرِ وَالأَوَّل» أبو الطيب محمد صديق خان القِنَّوجي. طبعة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م

٦٧- «التاريخ الصغير». أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن إسماعيل البخاري. تحقيق: محمود إبراهيم زايد. طبعة دار الوعي، مكتبة دار التراث - حلب، القاهرة ١٣٩٧هـ.

٦٨- «التاريخ الكبير». أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن إسماعيل البخاري. طبعة دائرة المعارف العثمانية، الهند ١٣٨٠هـ.

٦٩- «التحرير والتنوير» محمد الطاهر بن عاشور. طبعة سُحنون - تونس - ١٤١٨هـ.

٧٠- «التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة ». أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي. تحقيق: أحمد البكري، محمد عادل. طبعة دار السلام -القاهرة- ١٤٢٩هـ.

٧١- «الترغيب والترهيب». أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق: أيمن صالح شعبان. طبعة دار الْحَدِيْث ١٤١٥هـ.

٧٢- «التعرف لمذهب أهل التصوف» لأبي بكر محمد الكَلاَبَاذِيُّ. دار الكتب العلمية، بيروت.ن.ت.

٧٣- «التعريفات» علي بن محمد بن علي الجرجاني. طبعة مصطفىٰ الحلبي ١٣٥٧هـ.

٧٤- «التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب» أبو عبد الله محمد فخر الدين الرازي. تحقيق: عماد زكي البارودي. طبعة المكتبة التوفيقية القاهرة، ١٤٢٤هـ.

٧٥- «التمثيل والمحاضرة» عبد الملك أبو منصور الثعالبي. تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو. طبعة: الدار العربية للكتاب - القاهرة - الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م

٧٦- «التّمهيد لمَا فِي الْمُوَطَّإِ مِنَ الْمَعَانِي وَالأَسَانِيْد» اِبْنُ عَبْدِ البَرِّ. تحقيق: مصطفىٰ بن أحمد العلوي. محمد عبد الكبير البكري. طبعة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب- ١٣٨٧هـ.

٧٧- «التوقيف علىٰ مهمات التعاريف» زين الدين المناوي. طبعة: عالم الكتب. القاهرة. الطبعة الأولىٰ ١٤١٠هـ=١٩٩٠م.

٧٨- «الثقات» محمد بن حبان أبو حاتم البُستي. إشراف: محمد عبد المعيد خان. طبعة: دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن الهند. الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣م.

٧٩- «جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ» مجد الدِّين محمد ابن الأثير الجزري. ت: عبد القادر الأرناؤوط. طبعة دار ابن كثير - بيروت - طبعة خاصة: ١٤٣١هـ=٢٠١٠م.

٨٠- «جَامِعُ الْبَيَان عَنْ تَأْوِيْلِ آي القُرآن» أَبُو جَعْفَر الطَّبَرِيّ. تحقيق: أحمد البكري، محمد عادل، محمد خلف، محمود مرسي. إشراف: عبد الحميد مدكور. طبعة دار السلام - القاهرة - الأولىٰ: ١٤٢٩هـ.

٨١- «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم» ابن رجب الحنبلي. تحقيق: مسعد بن كامل، أسامة بن عبد العليم. طبعة دار ابن رجب -المنصورة- ١٤٢٣هـ.

٨٢- «جامع المسانيد» لابن الجوزي. تحقيق: علىٰ البواب. طبعة مكتبة الرشد -الرياض- ١٤٢٦هـ.

٨٣- «جُزْءُ اِبْنُ عَرَفَةَ» أَبُو عَلِيٍّ الحَسَنُ بنُ عَرَفَةَ العَبْدِيُّ. تحقيق: عبد الرحمن القريوائي. طبعة: دار الأقصىٰ - الكويت - ١٤٠٦هـ.

٨٤- «جُزْءُ اِبْنُ غِطْرِيْف» أبو أحمد محمد الغِطْرِيْفِيُّ الجرجاني. تحقيق: عامر حسن صبري. طبعة: دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

٨٥- «الجامع الصحيح» أبو عبد الله البخاري. طبعة دار إحياء الكتب العربية عيسىٰ البابي الحلبي.

٨٦- «الجامع لأحكام القرآن»:أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد بن شعبان بن أحمد، محمد بن عيادي بن عبد الحليم. طبعة مكتبة الصفا. الطبعة الأولىٰ١٤٢٥هـ

٨٧- «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لابن قيم الجوزية. طبعة مكتبة المتنبي - القاهرة.

٨٨- «الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات». عبد البديع النيرباني. طبعة: دار الغوثانىٰ - دمشق. الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م

٨٩- «حِلْيَة الأَوْلِيَاء وطبقات الأصفياء». أَبُو نُعَيْم أحمد بن عبد الله الأَصْبَهَانِيُّ. طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٩هـ.ب.ن.

٩٠- «خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام» علي بن لالي بالي بن محمد القسطنطيني. تحقيق: حاتم صالح الضامن. طبعة: عالم الكتب -بيروت. الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م

٩١- «الْخَصَائِص» أَبُو الفَتْحِ عُثْمَانُ بنُ جِنِّي. تحقيق: محمد علي النجار. طبعة: الهيئة العامة لقصور الثقافة - مصر - ٢٠٠٦م.

٩٢- «دلائل النبوة» أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: عبد المعطي قلعجي. طبعة: دار الكتب العلمية -بيروت- الأولىٰ: ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م.

٩٣- «ديوان الأدب» إسحاق بن إبراهيم الفارابي، تحقيق: محمد السيد عثمان. طبعة دار الكتب العلمية -بيروت- ٢٠١١م.

٩٤- «الدُّرَر البَهِيَّة في شَرحِ الأربَعِيْن الطَّائِيَّة» حسين بن محمود الصادق. طبعة: دار الكتب العلمية -بيروت -.

٩٥- «الدر المنثور في التفسير بالمأثور». عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي. تحقيق لجنة من دار الفكر. طبعة دار الفكر بيروت ١٤١٤هـ.

٩٦- «الدعاء» أبو القاسم سليمان الطبراني، تحقيق: محمد سعيد البخاري. طبعة مكتبة الرشد -الرياض- ١٤٢٩هـ.

٩٧- «ذَمّ الْكَلَام وَأَهْله» أَبُو إِسْمَاعِيل عَبْدُ اللهِ الْهَرَوِيّ. تحقيق: عبد الرحمن عبد العزيز الشبل. طبعة: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة. الطبعة الأولىٰ: ١٤١٨هـ =١٩٩٨م.

٩٨- «ذَمُّ الْهَوَىٰ» لِابْن الجَوْزِيّ. تحقيق: خالد عبد اللطيف السبع. طبعة: دار الكتاب العربي - بيروت- ١٤٣٤هـ=٢٠١٣م.

٩٩- «رَبِيْع الأَبْرَار وَنُصُوْص الأَخيَار» أَبُو القَاسِمِ الزَّمَخْشَرِيّ. مؤسسة الأعلمي -بيروت. الأولىٰ، ١٤١٢هـ.

١٠٠- «رجوع الشيخ إلىٰ صباه في القوة علىٰ الباء» أحمد بن سليمان كمال باشا. ط: المطبعة الكبرىٰ الأميرية - مصر - الطبعة الأولىٰ ١٣٠٩هـ =١٨٩١م.

١٠١- «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» شهاب الدين محمود الألوسي. تحقيق: علي عبد الباري عطية. طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت - الأولىٰ، ١٤١٥هـ.

١٠٢- «رَوْضَةُ الطَّالِبِيْنَ وَعُمْدَةُ الْمُفْتِيْن» أبو زكريا محيي الدين النووي. تحقيق: زهير الشاويش. طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.

١٠٣- «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» محمد بن حبان أبو حاتم البُستي. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. دار الكتب العلمية -بيروت.

١٠٤- «رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ» محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. تحقيق: أحمد سعد. طبعة: دار البيان -القاهرة- ٢٠٠٦م.

١٠٥- «الرِّسَالَةُ القُشَيرِيَّة» أَبُو القَاسِم عَبْد الكَرِيْم النَّيْسَابُوْرِيّ. تحقيق: عبد الحليم محمود و محمود بن الشريف. طبعة: المكتبة التوفيقية - القاهرة. الطبعة الثانية ٢٠١٥م.

١٠٦- «الرهص والوقص لمُستحلِّ الرَّقص» محمد بن إبراهيم الحلبي. تحقيق: صالح السدلان. طبعة: الدار العالمية للكتاب الإسلامي-الرياض- ١٤١٠هـ.

١٠٧- «الروح في الكلام علىٰ أرواح الأموات والأحياء» محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. تحقيق: محمد محمد تامر. طبعة دار التقوىٰ. القاهرة، ٢٠٠٣م.

١٠٨- «زاد المعاد في هدي خير العباد» شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق: أسامة بن محمد الجمال. طبعة مكتبة أبو بكر الصديق -القاهرة- ١٤٢٦هـ.

١٠٩- «زواج الأقارب» عَلِيّ السَّالوس. دار السلام -القاهرة-٢٠٠٨م

١١٠- «الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي» أبو منصور الأزهري. تحقيق: عبد المنعم طوعي بشنّاتي. طبعة دار البشائر الإسلامية -بيروت- ١٤١٩هـ.

١١١- «الزُّهْد» أحْمَد بْن مُحَمَّد بْنُ حَنْبَل. تحقيق: عادل سعد مطاوع. طبعة: دار العقيدة – القاهرة- ١٤٣١هـ=٢٠١٠م.

١١٢- «الزُّهْد» هَنَّاد بْن الْسَّرِيّ. تحقيق: عبد الرحمن الفريواني. طبعة: دار الخلفاء – الكويت- ١٤٠٦هـ=١٩٨٥م.

١١٣- « الزُّهْد الْكَبِير» أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: عامر أحمد حيدر. طبعة: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت- الثالثة، ١٩٩٦م.

١١٤- «الزُّهْد وَالرَّقَائِق» عَبْدُ اللهِ بنُ الْمُبَارَكِ بنِ وَاضِحٍ. تحقيق: أحمد فريد. طبعة: دار العقيدة – القاهرة- ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م.

١١٥- «سُبُل السَّلَام الْمُوَصِّلَة إِلَىٰ بُلُوْغِ الْمَرَامِ» محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني. تحقيق: سيد بن إبراهيم الحويطي. طبعة مركز فجر للطباعة - القاهرة - ١٤٢٥هـ.

١١٦- «سِرَاجِ المُلُوك» أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بنُ الوَلِيْدِ الطُّرْطُوشِيُّ. المطبوعات العرية –مصر- ١٢٨٩هـ

١١٧- «سلسلة الأحاديث الصحيحة» محمد ناصر الدين الألباني. طبعة مكتبة المعارف - الرياض- ١٤١٦هـ.

١١٨- «سلسلة الأحاديث الضعيفة» محمد ناصر الدين الألباني. طبعة مكتبة المعارف الرياض ١٤١٦هـ

١١٩- «سنن أبي داود» لأبي دَاود سُليمان بْنِ الأشعثِ السِّجِسْتَانِيّ. تحقيق: شعَيب الأرنؤوط ومحَمَّد كامِل. طبعة: دار الرسالة العالمية -بيروت- الطبعة الأولىٰ ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م.

١٢٠- «سنن ابن ماجه» محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. طبعة المكتبة العلمية. ن-ت.

١٢١- «سنن الترمذي» أَبُو عِيْسَىٰ مُحَمَّدُ بنُ عِيْسَىٰ التِّرْمِذِيُّ. تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي. طبعة: مصطفىٰ البابي الحلبي – مصر- ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

١٢٢- «سنن الدارقطني» علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني. طبعة دار المعرفة - بيروت ١٣٨٦هـ.

١٢٣- «سنن الدارمي» عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي. تحقيق: فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي. طبعة دار الكتاب العربي – بيروت ١٤٠٧هـ.

١٢٤- «سنن النسائي» بشرح الإمامين السيوطي والسندي. تحقيق: د/ السيد محمد سيد، وآخرون. طبعة دار الْحَدِيْث ١٤٢٠هـ.

١٢٥- «سنن سعيد بن منصور» أبو عثمان سعيد بن منصور المروزي ويقال الخراساني. تحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي. طبعة دار الكتب العلمية بيروت. ن-ت

١٢٦- «سير أعلام النبلاء» شمس الدين محمد أحمد بن عثمان الذهبي. تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي. طبعة دار الفكر ١٤١٧هـ.

١٢٧- «سير السلف الصالحين» لإسماعيل بن محمد الأصبهاني. كرم بن حلمي بن فرحات. طبعة: دار الراية – الرياض – ن.ت.

١٢٨- «السنن الكبرىٰ» للبيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. طبعة مكتبة دار الباز مكة المكرمة ١٤١٤ هـ.

١٢٩- «السنن الكبرىٰ» للنسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب. تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن. طبعة دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١١هـ.

١٣٠- «السِّيرَة النَّبوِيَّة -كِتَاب السِّيَر وَالمَغَازِي-» مُحَمَّد بْن إِسْحَاق. تحقيق: سهيل زكار. طبعة: دار الفكر – بيروت-الأولىٰ ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

١٣١- «شَرح أُصُوْل إِعْتِقَاد أَهْل السُّنَّة وَالجَمَاعَة من الكتاب والسنة» أَبُو القَاسِمِ هِبَةُ اللهِ بنُ الحَسَنِ اللاَّلَكَائِيُّ. تحقيق: أحمد بن سعد الغامدي. طبعة دار طيبة -الرياض- ١٤٢٦هـ.

١٣٢- «شرح حدود ابن عرفة» محمد بن قاسم الرصاع المكتبة العلمية. الطبعة الأولىٰ ١٣٥٠هـ

١٣٣- «شرح السنة» الحسين بن مسعود البغوي. تحقيق: شعيب الأرناؤط. طبعة المكتب الإسلامي – بيروت – ١٤٠٣هـ.

١٣٤-«شرح مشكل الآثار» أبو جعفر أحمد الطحاوي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. طبعة مؤسسة الرسالة -دمشق- ١٤٣١هـ.

١٣٥- «شرح معاني الآثار» أبو جعفر الطحاوي. تحقيق: محمد زهري النجار - محمد سيد جاد الحق. الناشر: عالم الكتب ١٤١٤ هـ.

١٣٦-«شرح العقيدة الطحاوية» علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدّمشقي. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، شعيب الأرنؤوط. طبعة دار عالم الكتب - السعودية- الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.

١٣٧-«شعب الإيمان» أبو بكر أحمد البيهقي. تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول. طبعة دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٠هـ.

١٣٨-«شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم» نشوان بن سعيد الحميرى. تحقيق: حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإرياني - يوسف محمد عبد الله. طبعة: دار الفكر. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

١٣٩-«الشَّامِل فِي الأُصُوْلِ-الْدِّيْن-» أَبُوْ المَعَالِي عَبْدُ المَلِكِ الجُوَيْنِيُّ. دار المعارف - الإسكندرية

١٤٠- «صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان». محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. طبعة مؤسسة الرسالة -بيروت-١٤١٤هـ.

١٤١- «صحيح ابن خزيمة». محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري. تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي. المكتب الإسلامي بيروت ١٣٩٠هـ.

١٤٢- «صحيح الترغيب والترهيب». محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف الرياض.

١٤٣- «صحيح الجامع الصغير». محمد ناصر الدين الألباني. طبعة المكتب الإسلامي ١٤٠٨هـ

١٤٤- «صحيح سنن ابن ماجه». محمد ناصر الدين الألباني. طبعة مكتبة المعارف الرياض ١٤١٧هـ

١٤٥- «صحيح مسلم». أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. طبعة دار إحياء الكتب العربية عيسىٰ البابي الحلبي. ن-ت.

١٤٦- «صفة الصفوة» لابن الجوزي. تحقيق: صالح شعبان. طبعة: المكتبة التوفيقية. ب.ت.

١٤٧- «الصاعقة المُحرقة علىٰ المتصوفة الرَّقَّصَة المُتزندقة» محمد بن صفي الدين الحنفي. تحقيق: عبد الرحمن دمشقية. طبعة:دار عالم الكتب -الرياض- ١٤١٠هـ.

١٤٨- «الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية» إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. الناشر: دار العلم للملايين - بيروت- ١٤٠٧هـ.

١٤٩- «ضعيف الترغيب والترهيب». محمد ناصر الدين الألباني. طبعة مكتبة المعارف الرياض ١٤١٧هـ.

١٥٠- «ضعيف الجامع الصغير». محمد ناصر الدين الألباني. طبعة المكتب الإسلامي. ١٤١٠هـ

١٥١- «ضعيف سنن ابن ماجه». محمد ناصر الدين الألباني. طبعة مكتبة المعارف الرياض ١٤١٧هـ

١٥٢- «الضعفاء» أَبُو جَعْفَر مُحَمَّد بْن عَمْرِو العُقَيْلِيُّ ، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. طبعة دار الصميعي -الرياض- ١٤٣٣هـ.

١٥٣- «طبقات الأولياء» لابن النحوي أبو حفص عمر بن علي الشافعي. طبعة: مكتبة الخانجي. تحقيق: نور الدين شريبه بالقاهرة. الطبعة الثانية، ١٤١٥ هـ = ١٩٩٤ م

١٥٤- «طبقات الحنابلة» أبو الحسين بن أبي يعلىٰ، تحقق: محمد حامد الفقي. الناشر: دار المعرفة - بيروت -.

١٥٥- «طبقات الشافعية الكبرىٰ» تاج الدين بن علي السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو. طبعة دار هجر ١٤١٣هـ.

١٥٦- «طرح التثريب في شرح التقريب»: زين الدين العراقي. تحقيق: حمدي الدمرداش محمد. طبعة نزار مصطفىٰ الباز. ١٤٢٤هـ.

١٥٧- «الطب الرُّوحاني» لابن الجوزي. تحقيق: محمد السعيد زغلول. طبعة: مكتبة الثقافة الدينية -القاهرة.

١٥٨- «الطب من الكتاب والسنة» موفق الدين عبد اللطيف البغدادي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي. طبعة دار المعرفة -بيروت- ١٤١٤هـ.

١٥٩- «الطب النبوي» لأبي نعيم أحمد الإصفهاني، تحقيق: مصطفىٰ خضر التركي. طبعة دار ابن حزم -بيروت- ١٤٢٧هـ.

١٦٠- «الطَّبَقَات الْكُبْرَىٰ». أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّد بْن سَعْدِ بْن مَنِيْع. طبعة دار صادر -بيروت-ن-ت.

١٦١- «عارضة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي المالكي. ضبط وتوثيق وترقيم: صدقي جميل العطار. طبعة دار الفكر -بيروت -١٤٢٥هـ

١٦٢- «علوم الحديث ومصطلحه» صبحي إبراهيم الصالح. طبعة: دار العلم للملايين بيروت. ١٩٨٤م.

١٦٣- «عُيُوْن الأَخْبَار» ابْنُ قُتَيْبَةَ الدِّيْنَوَرِيُّ. دار الكتب العلمية - بيروت- ١٤١٨هـ.

١٦٤- «عُيُوْنُ الأَنْبَاء فِي طَبَقَاتِ الأَطِبَّاء» أحمد بن القاسم أبو العباس ابن أبي أصيبعة. تحقيق: نزار رضا. طبعة: دار مكتبة الحياة - بيروت.ن.ت.

١٦٥- «الْعِقْد الفَرِيْد» أَبُو عُمَر أَحْمَد بْن عَبْد رَبِّه. طبعة: دار الكتب العلمية - بيروت - الأولىٰ، ١٤٠٤ هـ.

١٦٦- «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية». لابن الجوزي- طبعة دار الكتب العلمية. ن-ت.

١٦٧- «العواصم والقواصم في الذَّب عن سُنَّة أبي القاسم ﷺ» محمد بن إبراهيم الوزير اليماني. تحقيق شعيب الأرنؤوط. طبعة مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٩هـ

١٦٨- «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري. تحقيق: الشيخ زكريا عميران. طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولىٰ ١٤١٦ هـ.

١٦٩- «غرر الخصائص الواضحة» أبو إسحق برهان الدين محمد الوطواط. تحقيق: ابراهيم شمس الدين. طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت،الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٨ م.

١٧٠- «غريب الحديث». لأبي عبيد القاسم، طبعة دار الكتب العلمية-بيروت- ١٤٢٤هـ

١٧١- «غريب الحديث» لابن قتيبة، تحقيق: عبد الله الجبوري. طبعة دار الغرب الإسلامي -تونس- ٢٠١٠م.

١٧٢- «غريب الحديث» أبو سليمان الخطابي، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، عبد القيوم عبد رب النبي. طبعة جامعة أم القرىٰ -مكة المكرمة- ١٤٠٢هـ.

١٧٣-«الغريبين في القرآن والحديث» أبو عبيدة أحمد الهروي، تحقيق: أحمد فريد. طبعة مكتبة نزار مصطفىٰ الباز ١٤٣١هـ.

١٧٤- «غريب الحديث». لابن الجوزي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي. طبعة دار الكتب العلمية -بيروت- ١٤٢٥هـ.

١٧٥- «فتح الباري شرح صحيح البخاري». الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. عن الطبعة الَّتِي حقق أصلها الشيخ / عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ورقم كتبها وأبوابها وأحاديثها، محمد فؤاد عبد الباقي. طبعة دار الْحَدِيْث ١٤٢٤هـ.

١٧٦-«فتح القدير الجامع بين فنيّ الرِّواية والدِّراية من علم التفسير» محمد بن علي الشوكاني. تحقيق: عبد الرحمن عميرة. الناشر دار الوفاء. -المنصورة – ١٤٢٩هـ

١٧٧-«فَضَائِحُ الْبَاطِنِيَّةِ» أَبُو حَامِدٍ الْغَزَّالِيِ. تحقيق: عبد الرحمن بدوي. طبعة: الدار القومية -مصر ١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م.

١٧٨-«فيض القدير شرح الجامع الصغير» عبد الرءوف المناوي. طبعة المكتبة التجارية الكبرىٰ – مصر ١٣٥٦هـ.

١٧٩- «الفائق في غريب الحديث» جار الله الزمخشري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين. طبعة دار الكتب العلمية -بيروت- ١٤١٧هـ.

١٨٠- «الْفُرُوع محمد بن مفلح = الْفُرُوع وَمَعَهُ تَصْحِيْح الفُرُوْع» لعلاء الدين علي المرداوي. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. طبعة: مؤسسة الرسالة - بيروت- الطبعة الأولىٰ ١٤٢٤هـ =٢٠٠٣م

١٨١- «الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد باسل. طبعة دار الكتب العلمية -بيروت- ١٤٢٦هـ.

١٨٢- «الفوائد» لأبي القاسم تمام الرازي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد. طبعة مكتبة الرشد -الرياض- ١٤١٨هـ.

١٨٣- «الفوائد» شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد محمد تامر. طبعة دار التقوىٰ ن-ت.

١٨٤- «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة». محمد بن علي الشوكاني. تحقيق: عبد الرحمن يحيىٰ المعلمي. طبعة المكتب الإسلامي - بيروت- ١٤٠٧هـ.

١٨٥- «قُوْت القُلُوْبِ في معاملة المحبوب» أَبُو طَالِبِ الْمَكِّيّ. تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي. طبعة: دار الكتب العلمية- بيروت- الثانية، ١٤٢٦ هـ -٢٠٠٥ م.

١٨٦- «القاموس المحيط» الفيروزآبادي محمد بن يعقوب مجد الدين. تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة بدمشق. ن-ت.

١٨٧- «القَوْلُ الْمُسَدَّد فِي الذَّبِّ عَنِ الْمُسْنَد» أَبُو الفَضْل أَحْمَد بْن حَجِرٍ العَسْقَلَانِيّ. مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٤٠١هـ.

١٨٨- «كتاب الألفاظ» أبو يوسف ابن السكيت. تحقيق: فخر الدين قباوة. طبعة: مكتبة لبنان ناشرون. الطبعة الأولىٰ ١٩٩٨م.

١٨٩- «كتاب بغداد» أبو الفضل أحمد بن طيفور. تحقيق: السيد عزت العطار الحسيني. طبعة: مكتبة الخانجي - القاهرة- الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

١٩٠- «كتاب الشريعة» أبو بكر محمد بن الحسين الآجري. تحقيق: عبد الله بن عمر الدميجي. طبعة دار الوطن - السعودية - الطبعة الثالثة: ١٤٣٢هـ.

١٩١- «كِتَابِ الْعِلَلِ» أَبُوْ بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ الْخَلَّالُ. = المنتخب من العلل دار الراية - الرياض

١٩٢- «كشف المشكل من حديث الصحيحين» أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق: علي حسين البواب، الناشر دار الوطن -الرياض-.

١٩٣- «كشف المشكل على صحيح البخاري» أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق: مصطفى الذهبي. طبعة دار الحديث - القاهرة - ١٤٢٠هـ.

١٩٤- «كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال». علي بن حسام الدين المتقي الهندي. مؤسسة الرسالة -بيروت- ١٤٠٩هـ.

١٩٥- «الكاشف عن حقائق السُّنن» شرف الدِّين الطيبي. تحقيق: محمد علي سمك. طبعة دار الكتب العلمية. ١٤٢٢هـ.

١٩٦- «الكاشف عن حقائق التنزيل» أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: خليل مأمون شيحا. طبعة دار المعرفة -بيروت- ١٤٣٠هـ.

١٩٧- «الكَامِلِ فِي التَّارِيْخِ» أَبُو الحَسَن عَلِيّ الجَزْرِيّ اِبْن الأَثِيْر. تحقيق: عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية - بيروت- الطبعة الرابعة: ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

١٩٨- «الْكَامِلِ فِي اللُّغَةِ وَالأَدَبِ» أَبُو العَبَّاس مُحَمَّد بْن يَزِيْد المُبَرِّد. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة: دار الفكر العربي - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م.

١٩٩- «لسان العرب» لابن منظور جمال الدين المصري. تحقيق: عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي. طبعة دار المعارف -القاهرة- ن- ت

٢٠٠- «لسان الميزان» لابن حجر العسقلاني. تحقيق: دائرة المعارف النظامية -الهند- طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات -بيروت- ١٤٠٦هـ.

٢٠١- «لَقْطُ الْمَنَافِعِ فِي عِلْمِ الطِّبِّ» لِابْن الجَوْزِيّ. تحقيق: مرزوق علي إبراهيم. طبعة: دَارِ الكُتُب وَالوَثَائِق القَوْمِيَّة بِالْقَاهِرَة.٢٠١١، ٢٠١٢م.

٢٠٢- «لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية» شمس الدين أبو العون محمد السفاريني. طبعة: مؤسسة الخافقين ومكتبتها -دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م

٢٠٣- «مجمع الأمثال» أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني. تحقيق: محمد محيىٰ الدين عبد الحميد. طبعة: دار المعرفة – بيروت.

٢٠٤- «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد». نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي. طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٨هـ/ ودار الفكر، بيروت ١٤١٢ هـ.

٢٠٥- «مجمل اللغة» لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان. طبعة مؤسسة الرسالة -بيروت- ١٤٠٦هـ.

٢٠٦- «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي» لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي. تحقيق: طلعت بن فؤاد الحُلواني. طبعة الفاروق الحديثة – القاهرة – ١٤٢٩هـ.

٢٠٧- «مجموع الفتاوىٰ» أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. تحقيق: أنور الباز، عامر الجزار. طبعة دار الوفاء، دار ابن حزم الطبعة الرابعة ١٤٣٢ هـ.

٢٠٨- «مختار الصحاح» محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. تحقيق: محمود خاطر. طبعة مكتبة لبنان ناشرون -بيروت- ١٤١٥هـ.

٢٠٩- «مختصرُ استدرَاك الحافِظ الذّهبي علىٰ مُستدرَك أبي عبد اللهِ الحَاكم» لابن الملقن. تحقيق: سَعد بن عَبد العَزيز آل حميَّد. طبعة: دَارُ العَاصِمَة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١ هـ.

٢١٠- «مدارج السالكين بَيْنَ منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»: أبو عبد الله ابن قيم الجوزية. تحقيق: رضوان جامع رضوان. طبعة المكتب الثقافي.١٤٢٢هـ.

٢١١- «مَرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» العلامة علىٰ بن سلطان القاري. تحقيق: جمال عيتاني. طبعة دار الكتب العلمية -بيروت- ١٤٢٨هـ.

٢١٢- «مساوئ الأخلاق ومذمومها» أبو بكر محمد الخرائطي، تحقيق: مصطفىٰ بن أبو النصر الشلبي. طبعة السوادي -جدة- ١٤١٢هـ.

٢١٣- «مسند الإمام أحمد بن حنبل» أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني. تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر وحمزة أحمد الزين. طبعة دار الحديث -القاهرة- ١٤١٦هـ.

٢١٤- «مسند أبي داود الطيالسي» سليمان بن داود الطيالسي. دار المعرفة -بيروت- ن-ت.

٢١٥- «مسند أبي يعلىٰ» لأبي يعلىٰ الموصلي. تحقيق: حسين سليم أسد. طبعة دار المأمون -دمشق- ١٤٠٤هـ.

٢١٦- «مسند البزار = البحر الزخار» أبو بكر أحمد بن عمرو البزار. تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، عادل بن سعد، صبري عبد الخالق. طبعة: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.

٢١٧- «مسند الشهاب» محمد بن سلامة القضاعي. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. طبعة مؤسسة الرسالة -بيروت- ١٤٠٧هـ.

٢١٨- «مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار» للقاضي عياض، تحقيق: صالح أحمد الشامي. طبعة دار القلم -دمشق- ١٤٣٣هـ.

٢١٩- «مصباح الزجاجة علىٰ سنن ابن ماجه» عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي. تحقيق: حسين بن محمود الصادق. طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٦هـ

٢٢٠- «مطالع الأنوار علىٰ صحاح الآثار» إبراهيم أبو إسحاق ابن قرقول. تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي. الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر - الطبعة الأولىٰ: ١٤٣٣هـ

٢٢١- «مَعَالِمُ التَّنْزِيْل» أَبُو مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ البَغَوِيّ دار المعرفة – بيروت

٢٢٢- «معالم السنن» أبو سليمان الخطابي. الناشر: المطبعة العلمية – حلب- ١٣٥١هـ.

٢٢٣- «معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب» شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي. تحقيق: إحسان عباس. طبعة: دار الغرب الإسلامي - بيروت - الأولىٰ ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م.

٢٢٤- «معجم اللغة العربية المعاصرة» أحمد مختار عبد الحميد عمر. طبعة: عالم الكتب. القاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

٢٢٥- «معجم ابن الأعرابي» أبو سعيد بن الأعرابي البصري الصوفي. تحقيق: عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني. طبعة: دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ م.

٢٢٦- «معجم لغة الفقهاء» محمد رواس قلعجي و حامد صادق قنيبي. طبعة: دار النفائس. بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

٢٢٧- «مُعْجَم مَقَايِيسُ اللُّغَةِ» أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدَ بْنِ فَارِسِ القَزْوِيْنِيّ. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. طبعة: دار الفكر. بيروت. ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

٢٢٨- «مُغني المُريد» عبد المنعم إبراهيم. طبعة نزار مصطفىٰ الباز. ١٤٢٠هـ.

٢٢٩- مفاتيح العلوم محمد بن أحمد الكاتب البلخي. تحقيق: إبراهيم الأبياري. طبعة: دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الثانية. ن.ت.

٢٣٠- «مفتاح دار السعادة» لابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن حسن الحبلي. طبعة دار ابن عفان -القاهرة- ١٤٣٣هـ.

٢٣١- «مفردات ألفاظ القرآن» الراغب الأصفهاني. تحقيق: صفوان عدنان داوودي. طبعة دار القلم – دمشق. ١٤٣٠هـ.

٢٣٢- «مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها» أبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي. تحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري. الناشر: دار الآفاق العربية - القاهرة - الطبعة الأولىٰ: ١٤١٩هـ.

٢٣٣-«منهاج السُّنَّة النَّبويَّة» تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. تحقيق: محمد رشاد سالم. الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - السعودية - الطبعة الأولىٰ: ١٤٠٦هـ.

٢٣٤-«مِنْهَاج القَاصِدِيْن وَمُفِيْد الصَّادِقِيْن» لابن الجوزي. تحقيق: كامل محمد الخراط، محمد نعيم العرقسوسي. طبعة دار التوفيق -دمشق- ١٤٣١هـ.

٢٣٥-«موسوعة الإمام ابن أبي الدنيا» أبو بكر عبد الله لابن أبي الدنيا. دراسة وتحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا. طبعة: المكتبة العصرية -بيروت- ١٤٢٦هـ=٢٠٠٦م.

٢٣٦-«موسوعة فقه القلوب» محمد بن إبراهيم التُّويجري. طبعة: دار أصداء المجتمع - القصيم - الطبعة الثانية - ١٤٣٢هـ=٢٠١١م.

٢٣٧-«ميزان الاعتدال في نقد الرجال» أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. تحقيق علي محمد البجاوي. طبعة دار المعرفة -بيروت- ن-ت.

٢٣٨-«مِيْزَانُ الْعَمَل» أَبُو حَامِد الْغَزَّالِي. تحقيق: صلاح الدين الهواري. طبعة: المكتبة العصرية - بيروت- ١٤٣٧هـ=٢٠١٦م.

٢٣٩-«الْمُجَالَسَة وَجَوَاهِر العِلم» أبو بكر أحمد الدِّيْنَوَرِيُّ. تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان. طبعة: دار ابن حزم -بيروت، ١٤١٩هـ.

٢٤٠- «المجتبىٰ من السنن» أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. طبعة مكتب المطبوعات الإسلامية -حلب- ١٤٠٦هـ.

٢٤١- «المجرد للغة الحديث» عبد اللطيف البغدادي، تحقيق: محمد بن جمعة هنداوي، طبعة الفاروق الحديثة -القاهرة- ١٤٢٣هـ.

٢٤٢- «المجموع شرح المهذب» أبو زكريا محي الدين النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي. طبعة مكتبة الإرشاد -السعودية-.

٢٤٣-«المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث» أبو موسىٰ محمد المديني الأصفهاني، تحقيق: عبد الكريم العزباوي. طبعة جامعة أم القرىٰ - مكة المكرمة -.

٢٤٤- «الْمَحَاسِن وَالْأَضْدَادِ» أَبُو عُثْمَان عَمْرو بْن بَحْر الجَاحِظ. دار ومكتبة الهلال، بيروت.

٢٤٥- «المَحَبَّة للهِ سُبْحَانَه» أَبُو إِسْحَاقَ الخُتَّلِيُّ. تحقيق: عادل بن عبد الشكور الزرقي. طبعة: دار الحضارة – الرياض– الأولىٰ، ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٣ م.

٢٤٦-«الْمُحَدِّثُ الْفَاصِلُ بَيْنَ الرَّاوِي وَالْوَاعِي» أبو محمد الحسن الرَّامَهُرْمُزِيُّ. تحقيق: محمد عجاج الخطيب. طبعة: دار الفكر – بيروت- الثالثة، ١٤٠٤هـ

٢٤٧-«المخصص» أبو الحسن علي ابن سيده، تحقيق: خليل إبراهم جفال. طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٤١٧هـ.

٢٤٨-«الْمَدْخَلُ إِلَىٰ كِتَابِ الإِكْلِيْلِ» أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَاكِمِ النَّيْسَابُوْرِيُّ. تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد. طبعة: دار الدعوة - الأسكندرية- ن.ت.

٢٤٩-«المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ» أبو بكر البيهقي. تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي. طبعة مكتبة أضواء السلف -الرياض- ١٤٠٤هـ.

٢٥٠- «المستدرك علىٰ الصحيحين» أبو عبد الله الحاكم النيسابوري. اعتنىٰ به: صالح اللحام. طبعة دار ابن حزم - بيروت - ١٤٢٨هـ.

٢٥١- «الْمُسْتَظْهِرِي»=«فَضَائِحُ الْبَاطِنِيَّةِ» أَبُو حَامِد الْغَزَّالِي. مؤسسة دار الكتب الثقافية –الكويت.

٢٥٢- «الْمُسْنَدِ» أبو سعيد الهيثم بن كليب الشَّاشِيّ البِنْكَثِي. تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله. طبعة: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة. الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠هـ.

٢٥٣-«المصباح المنير في غريب الشرح الكبير» أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي. طبعة دار الحديث ١٤٢١هـ.

٢٥٤- «المُصنف» لابن أبي شيبة. تحقيق: محمد عوامة. طبعة دار المنهاج -جدة- الطبعة الأولىٰ ١٤٢٧هـ.

٢٥٥- «المعجم» أبو بكر محمد بن إبراهيم، المشهور بابن المقرئ. تحقيق: عادل بن سعد. طبعة: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩ هـ = ١٩٩٨ م.

٢٥٦- «المعجم الأوسط» أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد ،عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني. طبعة دار الحرمين القاهرة، ١٤١٥ هـ.

٢٥٧- «المعجم الصغير» أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير. طبعة المكتب الإسلامي دار عمار بيروت ١٤٠٥ هـ.

٢٥٨- «المعجم الكبير» أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي. طبعة مكتبة العلوم والحكم - الموصل ١٤٠٤هـ.

٢٥٩- «المعجم الوسيط» مجمع اللغة العربية بالقاهرة. دار الدعوة.

٢٦٠- «المغرب في ترتيب المعرب» لأبي الفتح المطرزي. تحقيق: محمد عثمان. الناشر مكتبة الثقافة الدينية -القاهرة- ١٤٢٨هـ.

٢٦١- «المغني» أبو محمد عبد الله بن قدامة المقدسي. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، عبد الفتاح محمد الحلو. طبعة دار عالم الكتب -الرياض- ١٤٢٦هـ.

٢٦٢- «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة علىٰ الألسنة» محمد عبد الرحمن السخاوي. تحقيق: محمد عثمان الخشت. طبعة دار الكتاب العربي -بيروت- ١٤٢٩هـ.

٢٦٣- «الْمُنْتَظِم فِي تَارِيْخِ الأُمَمِ وَالْمُلُوْك» لِابْن الجَوْزِيّ. دار الكتب العلمية - بيروت

٢٦٤- «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج». أبو زكريا النووي، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل سعد. طبعة دار ابن الهيثم -القاهرة- ١٤٢٤هـ.

٢٦٥- «الموسوعة الفقهية الكويتية» طبعة ذات السَّلاسل - الكويت - الطبعة الثانية:١٤١٠هـ.

٢٦٦-«الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب» مانع بن حمَّاد الجهني. طبعة: دار الندوة العالمية. الرياض. الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

٢٦٧-«الموضوعات» أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. تحقيق: توفيق حمدان. طبعة دار الكتب العلمية -بيروت- ١٤٢٤هـ.

٢٦٨-«نَثْر الدُّر فِي المُحَاضَرَات» مَنْصُوْر بْن الحُسَيْن أَبُو سَعْدٍ الآبِي. تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ. طبعة: دار الكتب العلمية – بيروت- الأولى، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م.

٢٦٩-«نواسخ القرآن = ناسخ القرآن ومنسوخه» أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. العاملي بن منير آل زهوي. شركه أبناء شريف الأنصارى - بيروت- ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

٢٧٠- «نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول» الحكيم الترمذي، تحقيق: توفيق محمود تكله. طبعة دار النوادر -الكويت- ١٤٣٢هـ.

٢٧١- «نيل الأوطار» محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمود بن الجميل. طبعة دار الإمام مالك -الجزائر- ١٤٢٦هـ.

٢٧٢- «النجم الوهاج في شرح المنهاج» أبو البقاء كمال الدين محمد الدَّمِيري. طبعة: دار المنهاج (جدة) الأولى، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

٢٧٣-«النحو الوافي» عباس حسن. دار المعارف. الطبعة الخامسة عشرة.

٢٧٤- «النَّظْمُ المُسْتَعْذَبُ فِي تفْسِير غريبِ أَلْفَاظِ المهَذّبِ» محمد أبو عبد الله، المعروف ببطال. تحقيق: مصطفى عبد الحفيظ سَالِم. طبعة: المكتبة التجارية، مكة المكرمة.

٢٧٥- «النهاية في غريب الحديث والأثر» أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي. طبعة المكتبة العلمية – بيروت ١٣٩٩هـ.، وطبعة دار ابن الجوزي -السعودية- ١٤٣٠هـ.

٢٧٦- «وحي القلم» مصطفى صادق الرافعي. طبعة: دار الكتب العلمية -بيروت- الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٢٧٧-«وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» أبو العباس شمس الدين أحمد ابن خلكان. تحقيق: إحسان عباس. طبعة: دار صادر - بيروت.

٢٧٨-«الوابل الصيب من الكلم الطيب» شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد محمد تامر. طبعة المكتب الثقافي ١٤٢٣هـ.

٢٧٩-«الوافي بالوفيات»: صلاح الدين الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. طبعة: دار إحياء التراث - بيروت - ١٤٢٠هـ.

فهرس الموضوعات

٢٢٧	[٢٢٧ - ٣٠٢]	السَّلَامَةُ كُلُّ السَّلَامَةِ فِي كِتْمَانِ الْأَسْرَارِ
٢٢٨	[٢٢٨ - ١٩٧]	عَلَيْكَ بِكِتْمَانِ مَذْهَبِكَ وَمَا فِي صَدرِكَ
٢٢٩	[٢٢٩ - ٢٥٣]	عَلَيْكَ بِكِتْمَانِ بَعضِ حُبِّكَ وَاهتِمَامِكَ
٢٣٠	[٢٣٠ - ٢٥٤]	إِذَا أَبْغَضتَ أَحَدًا فَاكْتُم، وَلَا تُظْهِر مِنْ أُمُورِكَ شَيْئًا
٢٣١	[٢٣١ - ٧٨]	عَلَيْكَ بِالْكِتْمَانِ؛ وَإِلَّا أُصِبْتَ بِالْعَيْنِ، وَالْحِرمَان
		(١٨) أَجْهَلُ الْجُهَلَاء، وَأَعقَلُ الْعُقَلَاء، وَالأَبْلَه الْمُغَفَّل ٤٥٤-٤٩٠
٢٣٢	[٢٣٢ - ١١٩]	مَنْ أَجْهَلُ الْجُهَّالِ؟
٢٣٣	[٢٣٣ - ٢٥٩]	أَشَدُّ النَّاسِ جَهْلًا
٢٣٤	[٢٣٤ - ٢٦٨]	مِنْ صِفَاتِ الْجُهَّالِ
٢٣٥	[٢٣٥ - ٢٨٤]	مِنْ صِفَاتِ الْعُقَلَاءِ التَّثَبُّتُ وَالْمُشَاوَرَةُ
٢٣٦	[٢٣٦ - ٢٩٠]	الْعَقْلُ الصَّحِيحُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِنَ الْعُجْبِ
٢٣٧	[٢٣٧ - ٣٦٤]	سَبَبُ تَفْضِيلِ الْعَقْلِ عَلَىٰ سَائِرِ الْجَوَارِحِ
٢٣٨	[٢٣٨ - ٢٠٦]	كَامِلُ الْعَقْلِ مَنْ يَتَلَمَّحُ الْعَوَاقِبَ
٢٣٩	[٢٣٩ - ١٨٥]	عَلَىٰ الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِتَغَيُّرِ الأَحْوَالِ
٢٤٠	[٢٤٠ - ٢٨١]	الِاحْتِرَازُ وَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ عَاقِلٍ
٢٤١	[٢٤١ - ٣٧٤]	الْعَاقِلُ يُدَبِّرُ بِعَقْلِهِ عِيشَتَهُ
٢٤٢	[٢٤٢ - ٣٣٠]	مَنْ تَبِعَ الْعَقْلَ؛ سَلِمَ، وَمَنْ أَطَاعَ الْحِسَّ؛ نَدِمَ
٢٤٣	[٢٤٣ - ٣٢٩]	عَلَىٰ الْعَاقِلِ النَّظَرُ إِلَىٰ عَوَاقِبِ اللَّذَّاتِ
٢٤٤	[٢٤٤ - ٣١٢]	نَسْأَلُ اللهَ ﷻ عَقْلًا يُدَبِّرُ دُنْيَانَا
٢٤٥	[٢٤٥ - ٢٢٨]	مِنَ الْبَلَهِ تَذَلُّلُ الْكَامِلِ لِلنَّاقِصِ

٣١٤	[٣١٤ - ٣٣١]	مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ شَهْوَتَهُ يَرْحَلُ سَرِيعًا
٣١٥	[٣١٥ - ٢٤٥]	إِذَا عَلَتْ سِنُّكَ فَأَوْقِفْ هَوَىٰ الشَّهْوَةِ
٣١٦	[٣١٦- ٦٣]	لا يَتَمَكَّنُ الْعِشْقُ إِلَّا مَعَ وَاقِفٍ جَامِدٍ
٣١٧	[٣١٧ - ١٦٩]	أَصْلَحُ الْمَقَامَاتِ التَّوَسُّطُ
		(٢٥) أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَهْلِيهِمَا — ٦١٦-٦٥٨
٣١٨	[٣١٨ - ١٤١]	الدُّنْيَا فِي الْجُمْلَةِ مَعْبَرٌ
٣١٩	[٣١٩ - ٣٧٣]	الدُّنْيَا لا تَدُومُ عَلَىٰ حَالٍ
٣٢٠	[٣٢٠ - ٢٩]	عَجَائِبُ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
٣٢١	[٣٢١ - ٣٦٧]	لَيْسَ فِي الدُّنْيَا لَذَّةٌ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ
٣٢٢	[٣٢٢ - ٣٦٥]	لا عَيْشَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِعَالِمٍ أَوْ زَاهِدٍ
٣٢٣	[٣٢٣ - ١٢٨]	احْذَرْ مِنْ فَخِّ الدُّنْيَا
٣٢٤	[٣٢٤ - ٣٥٢]	عَوَاقِبُ تَلَاعُبِ الدُّنْيَا بِالنَّاسِ
٣٢٥	[٣٢٥ - ٢]	جَوَاذِبُ الطَّبْعِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
٣٢٦	[٣٢٦ - ٤]	مَتَاعُ الدُّنْيَا غُرُورٌ
٣٢٧	[٣٢٧ - ٣٤٧]	كَيْفَ تَتَمَتَّعُ فِي الدُّنْيَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً؟
٣٢٨	[٣٢٨ - ٢٧٤]	مَتَىٰ تَكَامَلَ الْعَقْلُ فُقِدَتْ لَذَّةُ الدُّنْيَا
٣٢٩	[٣٢٩ - ٣٣٥]	صَلَاحُ الدُّنْيَا بِصَلَاحِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ
٣٣٠	[٣٣٠ - ١٦]	حُظُوظُ الْفُضَلَاءِ مِنَ الدُّنْيَا
٣٣١	[٣٣١ - ٢١٧]	حَتَّىٰ يَنْتَظِمَ أَمْرُ الدُّنْيَا وَأَمْرُ الْآخِرَةِ
٣٣٢	[٣٣٢ - ١٣٩]	لِيَنْظُرِ السَّالِكُ أَيْنَ يَضَعُ قَدَمَهُ

الفقير إلى عفو ربه
أحمد أبو زيد كامل

AT-TARTĪB AZ-ZĀHIR

LIKITĀB

ṢAYD AL-ḪĀṬIR

By
Ibn Al-Jawzi
(D. 597 H.)

Edited By
Al-Shaykh Hussein
ben Mahmoud Al-Sadeq

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban